غاية الأماني في الرد على النبهاني

للامام العلامة ابي المعالي محمود شكري الالوسي

المولود عام ١٢٧٣ والمتوفي عام ١٣٤٢ غفر الله له .

طبع على نفقة

عبد العزيز ومحمد العبد الله الجميح

« وقف لله تعالى »

غاية الأماني في الرد على النبهاني

للامام العلامة ابي المعالي محمود شكري الالوسي

المولود عام ١٢٧٣ والمتوفي عام ١٣٤٢ غفر الله له .

المجلد الاول

طبع على نفقة

عبد العزيز ومحمد العبد الله الجميح

« وقف لله تعالى »

الفهرس

الصحيفة		الموضوع

الصحيفة		الموضـــوع
		ومخالف للشرع ، لكونه يقضي باخلاء الارض من القائمين لله بحججه ، ايراد كلام ابن القيم في ذلك .
٦٤ ــ ٦٧	:	الوجه الرابع : أن ماليس عليه اثارة من علم ليس بمقبول ، فالاجتهاد لم يرد دليل علىختمه بأحــد ، بخلاف النبــوة ، شرح هذا الوجه ببعض الادلة .
٦٧	:	الوجه الخامس : أن ماذكره النبهاني من أن الاجتهاد لايدعيه اليوم الا مختل العقل والدين .. الخ قول لامعنى له .
٦٧	:	الوجه السادس : أن مااستدل به النبهاني على ذلك من أن الجلال السيوطيلما ادعىالاجتهاد كتبوا لهسؤالا فردالسؤال من غير كتابة .. الخ لايثبت عن السيوطي ولو ثبت لم يصح أن يكون دليلا .
٦٨	:	الوجه السابع : أن مااستدل به النبهاني على ذلك مما نقله عن ابن حجر المكي كلام ساقط ، ايضاح ذلك .
٦٩	:	الوجه الثامن : أن كل واحد من الائمة صرح بأنه اذا صح الحديث فيجب اتباعه .
٧٠ ــ ٧٣	:	الوجه التاسع : أن ماذهب اليه النبهاني يقتضى أن يقــدم كلام من يقلد اليوم على ماصح من الاحاديث .. الخ ، شرح هذا الوجه ، وايراد كلام لشيخ الاسلام في ذلك .
٧٣ ــ ٧٦	:	الوجه العاشر : أنه يفهم من كلام النبهاني وجوب تقليد أحد الائمة الاربعة ، ومن أخذ دينه من الكتاب والسنة خرج عن جادة الصواب ، وذلك مردود ، شرح هــذا الوجــه بايراد كلام للحافظ ابن القيم .
٧٦ ، ٧٧	:	ايراد المؤلف لجملة من كلام النبهاني وما ذكره من أن القرآن قد فرغ من تفسيره ، ومعه أن يفســر على مقتضى **الاذواق** العصرية ، وتعرضه لبعض الأئمة بالذم .
٧٧ ، ٧٨	:	حاصل مادل عليه كلام النبهاني من المقاصد .

الصحيفة		الموضوع

الصحيفة		الموضـــوع
١٣١ — ١٦٠	:	ماأورده من ذلك عن كتاب (الجواب الباهر) وهو يشتمل على منع شد الرحل لزيارة القبور ، والرد على من قـــال بمشروعية ذلك •
١٣٣ — ١٣٩	:	وجوب التفريق بين الزيارة الشرعية والزيارة البدعية •
١٣٩ — ١٤٢	:	حكم السفر الى القبور وبيان ما عليه السلف الصـالح في ذلك •
١٤٢ — ١٤٥	:	ايضاح أن الصحابة لم يطمع الشيطان فيهم كمـا طمـع في غـيرهم •
١٤٦ — ١٥٤	:	بيان أن القول بأن هذا الفعل مستحب أو منهي عنه أو مباح لايثبت الا بدليل شرعي •
١٥٥ — ١٥٨	:	الزيارة المتضمنة لترك مأمور أو فعل محظور ليست مشروعة، شرح هذا الموضوع وبيان اختلاف حكم الزيارة باختـلاف المقاصد •
١٥٨ — ١٦٠	:	الزيارة الشرعية ، والزيارة المنهـي عنها ، وأنـواع الزيارة الثلاثة •
١٦٠ — ٢١٣	:	ماأورده المؤلف من كلام شيخ الاسلام في رده على المعترض المالكي فيما ذهب اليه من مشروعية السفر الى القبور •
١٦٠ — ١٩٤	:	تسعة وجوه في الرد على أدلة المعترض المالكي وماذهب اليه•
١٩٤ — ٢٠٤	:	رد ماقاله المعترض المالكي من تضافر النصوص عن الصحابة والتابعين والمجتهدين وابطال وجه استدلاله بذلك على مـا ذهب اليه ، شرح المقام ببيان المشروع من الزيارة والصـلاة والسلام على النبي (ص) والممنوع من ذلك •
٢٠٤ — ٢١٣	:	رد ماastدل به المعترض المالكي في زيـارة قبر النبي (ص) بالقياس على زيارة الحي ، شـرح هذا المقام ببيـان الجائز والممنوع من ذلك •
٢١٣ ، ٢١٤	:	بيان وجه الاستدلال بالنقول المتقدمة على بطـلان كـلام

الموضـوع		الصحيفة
النبهاني •		
رد الامام ابن قدامة على القول بأن الزيارة تعظيم ، وتعظيم النبي (ص) واجب ، فتكون الزيارة مشروعة ، شرح هـذا المقام باثني عشر وجها •	:	٢١٤ ــ ٢٢١
تكذيب وابطال الخرافة المنسوبة لأحمد الرفاعي من مد يده الى النبي (ص) ورؤيته له ، شرح هذا المقام ، وبيان بطلان دعوى رؤية النبي (ص) يقظة بعد موته •	:	٢٢١ ــ ٢٣١
فضل المدينة ورجحان مذهب أهلها •	:	٢٣١ ــ ٢٤٩
جملة من كلام ابن تيمية في هذا الموضوع •	:	٢٣٢ ــ ٢٤٩
التحقيق في مسألة اجماع أهل المدينة أنه على أربع مراتب ، ذكر هذه المراتب •	:	٢٣٤ ــ ٢٣٨
جملة من التعليلات لكون قول أهل المدينة أصح الاقـوال رواية ورأيا •	:	٢٣٨ ــ ٢٤٩
الجواب عما ذكره النبهاني من مشروعية الاستغـاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم •	:	٢٥٠ ــ ٢٥٥
الكلام على حديث (أسـألك بحق السائلين عليك وبحـق ممشاي هذا) الحديث •		٢٥٥
بيان أن الاستغاثة بمخلوق فيما لايقدر عليه الا الله لاتجوز•		٢٥٦
تعريف العبادة لغة واصطلاحا ، وبيان أنها تجمع أصلـين ، وأن لها مرتبتان •	:	٢٥٦ ، ٢٥٧
توحيد الله بالتعظيم على ثلاثة أقسام ، شرح هذه الاقسام ، وايراد كلام لابن القيم يتعلق بالمقام •	:	٢٥٨ ــ ٢٦١
رد مااستدل به النبهاني من كلام بعض العلمـاء لاثبـات الاستغاثة بغير الله ، وما تعلق به من الشبهة في ذلك •	:	٢٦١ ، ٢٦٢
كلام للشيخ عبـد اللطيف من (منهـاج التأسيس) أورده المؤلف للاستشهاد به على رد الشبهة التي تعلق بها النبهاني	:	٢٦٢ ، ٢٨٨

الصحيفة		الموضوع

الصحيفة		الموضوع
		الذي يبصر به) •
٣٤٨ ـ ٣٥١	:	رد ماأورده النبهاني من أن ابن حجر العسقلاني تكلم في حق ابن تيمية •
٣٥١ ـ ٣٥٣	:	رد ماقاله النبهاني من أن صفي الدين الحنفي وابن كثير من جملة من رد على ابن تيمية •
٣٥٣ ، ٣٥٤	:	الجواب عما قاله النبهاني من أن الشيخ مصطفى الشطي ألف رسالة في الرد على الوهابية ، وأن ابن تيمية قد خرج من مذهب الحنبلي •
٣٥٤ ـ ٣٥٧	:	الجواب عما أورده النبهاني من كلام ابن حجر المكي في ذم شيخ الاسلام ابن تيمية ، وبيان أن ابن حجر المكي من أكبر خصوم شيخ الاسلام •
٣٥٧ ـ ٣٦٠	:	جواب المؤلف عن ما نقله النبهاني عن ابن حجر بجوابين : مجمل ، ومفصل •
٣٦٠ ـ ٣٦٥	:	رد مادعاه النبهاني من ولاية ابن حجر المكي •• الخ
٣٦٥ ـ ٣٧٢	:	كلام في تعريف البدعة ، شرح الموضوع بايراد بعض ماحدث من البدع المنكرة •
٣٧٢ ـ ٣٧٦	:	رد مادعاه النبهاني من اتفاق علماء المذاهب الاربعة على رد بدعة ابن تيمية وأن منهم من طعن عليه ، وايراد جملة من ثناء الائمة على ابن تيمية ورفعة مقامه •
٣٧٧		الجواب عما تعرض به النبهاني لبعض كتب شيخ الاسلام بن تيمية •
٣٧٧ ـ ٣٧٩	:	ايراد المؤلف لابيات من نونية ابن القيم ذكر فيها مؤلفات ابن تيمية ، وحث على مطالعتها •
٣٧٩ ـ ٣٨٣	:	شرح تلك الابيات •
٣٨٣ ـ ٣٨٥	:	بعض مؤلفات ابن تيمية : في أصول الفقه ، وفي الفقه ، وفي أنواع شتى من العلوم •

الصحيفة		الموضـوع

الصحيفة		الموضـــوع
		والابدال .. الخ .
٤٢٤ ــ ٤٣٦	:	الكلام على ماجاء من تحذير النبهاني عن مطالعة (منهــاج السنة) و (العقل والنقل) لابن تيمية ، وكتاب (جـــلاء العينين) .
٤٢٨ ــ ٤٣٥	:	المراد بالسنة وأهلها ،و البدعة وأهلهــا ، ايراد كلام لابــن تيمية في ذلك .
٤٣٥ ، ٤٣٦	:	ايضاح أن شيخ الاسلام لم يرد الا على من خالف الشريعة .
٤٣٦	:	رد مانسبه النبهاني لشيخ الاسلام من القول بالجهة .
٤٣٦ ــ ٤٤١	:	رد ماتكلم به النبهاني في شأن (جلاء العينين) ومصنفه .
٤٤٢ ــ ٤٧٨	:	نزاع العلماء في مسألة العلو ، والاستواء ، والنزول ، وانكار القول بالجهة .
٤٤٢	:	مازعمه النبهاني من نسبة القول بالجهة لشيخ الاسلام .
٤٤٢ ــ ٤٤٦	:	بدء الجواب عن ذلك ، وبيان أن مسألة العلو ، والاستـــواء والنزول : من غوامض المسائل ، شرح ذلــك ببعض الادلة والنقول .
٤٤٧	:	شرح لفظ الجهة ، يجب تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين .
٤٤٧	:	كلام ابن القيم على مسألة العلو وايراده لكلام الأئمة .
٤٤٨	:	كلام الامام أبي حنيفة في ذلك .
٤٥٠	:	قول الامام مالك وأئمة أصحابه ، وقول أبي عمر الطلمنكي في ذلك .
٤٥٠ ــ ٤٥٤	:	قول ابن عبد البر في ذلك .
٤٥٥ ــ ٤٥٨	:	قول الامام القيرواني في ذلك .
٤٥٨ ، ٤٥٩	:	قول الامام محمد بن وهب المالكي في ذلك .
٤٥٩ ــ ٤٦٣	:	قول الامام أبي القاسم المقري في ذلك .
٤٦٣	:	قول الامام محمد بن أبي نعيس المالكي في ذلك .
٤٦٣	:	قول القاضي عبد الوهاب امام المالكية في العراق في ذلك .

الصحيفة		الموضوع
٤٦٤ ــ ٤٦٦	:	قول الامام الشافعي وكبار أئمة الشافعية في ذلك •
٤٦٦	:	قول الامام بن جرير الطبري ، والامام أحمد بن حنبل وجماعة من أصحابه في ذلك •
٤٦٦ ــ ٤٦٨	:	الاشارة لأقوال أئمة التفسير ، واللغة ، والزهاد ، وأهل الكلام ، والاشعري ، في ذلك •
٤٦٨ ، ٤٦٩	:	قول الرازي ، وقول أبي العباس المظفري في ذلك •
٤٦٩	:	الاستدلال بالمعقول في ذلك •
٤٦٩ ــ ٤٧٨	:	أقوال الشعراء الاسلاميين والجاهليين في ذلك •
٤٧٨ ، ٤٧٩	:	رجوع النبهاني الى الكلام على كتب شيخ الاسلام ، ومعارضته للقصيدتين اللتين قيلت في السبكي بقصيدة ذكر المؤلف مقدمتها •
٤٧٩ ــ ٤٩٩	:	رد ماتكلم به النبهاني في ذلك •
٤٨٠	:	ذكر بعض الكلام عن الامام الاشعري •
٤٨١ ، ٤٨٢	:	شرح حال ابن عربي صاحب الفصوص ، والكلام على الولاية ، وبيان ما كان عليه أرسطو وابن سبعين ونحوهما •
٤٨٣ ــ ٤٨٥	:	نبذة من كلام ابن تيمية في بيان مذهب أولئك ، وما يقوله ابن سيناء وأتباعه من أهل وحدة الوجود ، الرد عليهم •
٤٨٥ ــ ٤٨٨	:	قصيدة لابن المقري في أحوال من قال بوحدة الوجود •
٤٨٨ ــ ٤٩٢	:	الرد على النبهاني في تصديه للقصيدتين اللتين جرى الرد فيهما على السبكي بسبب تحامله على شيخ الاسلام ،وبيان أن النبهاني ليس كفوا لمعارضة هاتين القصيدتين •
٤٩٢	:	ذم النبهاني لكتاب (العرش) لشيخ الاسلام •
٤٩٣	:	الرد على النبهاني فيما قاله وبيان أن نقله عن كتاب (العرش) غير صحيح •
٤٩٣ ــ ٤٩٩	:	جملة من كلام بن تيمية وأحمد الواسطي في الاستواء والعرش •

انتهى

فهرست

الجزء الثاني من كتاب غاية الاماني في الرد على النبهاني

الصفحة		الموضـــوع
١٠ ، ١٩ ــ ٢٢	:	من أراد بالواسطة الرسل وتوسطهم في تبليغ أممهم عن الله فهو حق •
١٠ ، ١١	:	رد شبهة القبوريين أن الأولياء عند الله بمنزلة الوزراء عند الملــوك •
١٢		قول النبهاني ومنعه ممنوع دليل جهله وبيان ذلك •
١٢ ــ ١٤	:	ابطل استدلال النبهاني بكلام ابن القيم في جلاء الافهــام وأنه يناقض مافي الاغاثة •
١٤	:	كلام ابن عربي في سبب خلق العرش وعدم دلالته على اتخاذ الوسائط ورد كلام القسطلاني لأنه من الغلاة •
١٤ ــ ١٨	:	استدلال النبهاني على جواز تشبيه الله بملك له وزراء بكلام الامام أحمد في أنه لايلزم التعدد من اثبات الصفات وتمثيله بأن النخلة واحدة مع تعدد أجزائها وأن الله ســمى الوليد وحيدا مع تعدد أجزائه •
١٨ ، ١٩	:	ابطال زعم النبهاني تناقض ابن القيــم بما نقــل من طريق الهجرتين في فضل الرسل مستدلا به على الاستغاثة بهم •
٢٢ ــ ٢٤	:	دعواه أيضا تناقض ابن القيم حيث سمى القبر المزور وثنــا ونظم في النونية أن قبره عليه السلام لايكون وثنا •
٢٤ ــ ٤٤	:	كلام النبهاني على كتاب الصارم المنكى لابن عبد الهــادي ومناقشة ذلك •
٢٤ ، ٢٥	:	نقد النبهاني لهذا الكتــاب ودلالــة كلامه على غبـــاوته وتعصبه •
٢٥ ، ٢٦ ، ٤٤	:	ترجمة ابن عبد الهادي بن قدامة والثناء على كتابه المذكور
٢٦ ، ٢٧		أبيات منوعة تفيد عدم الاصغاء الى ذم السفهاء والنصــح بكف الأذى •
٢٧	:	مدح القسطلاني لكتاب السبكي وتحــامل ابن حجر المكي على ابن عبد الهادي والجواب عن ذلك •
٢٨ ، ٢٩	:	عبارة السبكي وابن عبد الهادي في تعظيم الرسول عليــه

الصفحة		الموضـــوع

الصفحة		الموضـــوع
		النبهاني في زعمه أن هذا مذهب انوهابية لا مذهب الحنفية.
٦٨ ، ٦٩	:	مذهب الوهابية في العقائدوأنه مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم من أهل السنة .
٦٩ ــ ٧٦	:	رسالة ثلاثة الأصول وأدلتها للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وفيها بعض المغايرات .
٦٩	:	وجوب العلم ثم العمل به ثم الدعوة اليــه ثم الصبر على الأذى فيه ودليل ذلك .
٧٠	:	وجوب طاعة الرسول وتوحيد الله ومعاداة من حـاد الله ورسوله وتفسير التوحيد والشرك وأدلة ذلك .
٧٠ ، ٧١	:	الأصول الثلاثة ومعرفة الرب والمراد بآياته ومخلوقاته .
٧١ ، ٧٢	:	أنواع العبادة التي أمر الله بها وأدلتها من القرآن .
٧٢ ، ٧٣	:	الأصل الثاني تفسير الاسلام ومراتبه وأركانه وأدلتها .
٧٣	:	عدد شعب الايمانوأركانه وأدلتهاوتفسير الاحسان ودليله.
٧٣ ، ٧٤	:	حديث جبريل عليه السلام في تفسير الاسلام والايمـــان والاحسان واشراط الساعة .
٧٤	:	الأصل الثالث معرفة النبي صلى الله عليه وسـلم ، نسبه وعمره وبلده ورسالته وتفسير أول سورة المدثر .
٧٤ ، ٧٥	:	هجرته عليه السلام والمراد بالهجرة وحكمها ودليلها ومـدة اقامته بعدها والدليل على موته .
٧٥ ، ٧٦	:	دليل البعث والجزاء ووظيفة الرسل الى أممهم .
٧٦	:	تفسير الطاغوت ودليله وذكر رؤس الطواغيت .
٧٧	:	قول النبهاني : انصاحب جلاء العينين صنفه مظاهرة لصديق حسن خان وكونه صنفه قبل الاتصال به .
٧٧ ، ٧٨	:	لم يتحامل على ابن حجر بل مدحه وسكت عن تعصبه ومافي كتبه من الأخطاء والخرافات .
٧٨ ــ ٨٢	:	قوله انه غامل السبكي بسوء الصنيع وأن السبكي هـو المستحق للقب شيخ الاسلام .

الصفحة		الموضـــوع
٩٢، ٩٣	:	كلام حول نسب النبهاني وخسة أصله دون جميع قبـائل العرب •
٩٤	:	تسمية العلماء الذين صنفوا فيما تضمنه جلاء العينين ولـم يعبهم النبهاني •
٩٥	:	تكذيبه في أن من طالعه أيقن بخطئه وبيان أن المصنفين قد أثنوا عليه •
٩٥	:	خطبة للامام أحمد في وصف أهل الفترات من أهل العلـم وما يلاقونه من الجهلة •
٩٦، ٩٧	:	بعض ماكابده النبي عليه السلام من الأذى والسب وعاقبة من آذاه وآذى أتباعه في كل زمان ومكان •
٩٨	:	قوله أنه قد عق أباه وآذاه بما نقل من تفسيره مما يوافق قول الوهابية وبيان أن تلك المسائل صريحة في القرآن والحديث وتفاسير العلماء المشهورين •
٩٨ ـ ١٠٣	:	رسالة لصاحب روح المعاني تبين أنه كـان سلفي العقيـدة كالأشعري وابن حنبل •
٩٩، ١٠٠	:	نقل كلام الأشعري في الابانة مما يظهر به موافقته لابن حنبل في اثبات الصفات •
١٠٠ ـ ١٠٢	:	تقريب مذهب الحنابلة ومانقم عليهم من ترك التأويل والأخذ بالظاهر وتأويل الأشعرية للاستواء •
١٠٣ ـ ١٠٧	:	لم يسلم أحد من أذى الناس والاستشهاد بأدلة على مسبـة اليهود والنصارى والمشركين لرب العالمين •
١٠٨	:	اشارة الى قصص الذين صدر منهم الأذى للرسول عليـه السلام •
١٠٨	:	تأسي صاحب جلاء العينين ووالده بمن أوذي في الله فصبر•
١٠٨ ـ ١١٠	:	بعض الأذى الصادر من الأمم للرسل والرد على بعض ذلك نظما •
١١٠، ١١١	:	أذى الرافضة للصحابة وأن تلك المثالب التي تنقل عنهم اما

الصفحة		الموضـــوع
		كذب أو معذورون فيه أو قد كفر عنهم •
١١١	:	سبب أذى القبوريين لصاحب جلاء العينين ووالده •
١١١ ، ١١٢	:	تفسير اخلاص الدين لله •
١١٢ ، ١١٣	:	مايلزم الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر وعاقبـة من أراد بذلك الرياء أو الرئاسة أو نحوهما •
١١٣ ـ ١١٥	:	تحريم الاختلاف في الدين وأدلته وأمثلة مما وقع فيه اختلاف الأمـم •
١١٥ ـ ١١٧	:	تمسك كل فرقة بمذهبها واعتقادها أن الحق معها دون غيرها
١١٧ ، ١١٨	:	بعض أعداء صاحب جلاء العينين كابن جرجيس وابن دحلان وآل جميل وذكر بعض أمرهم وكيف نهايتهم •
١١٩	:	ذم الحسد وأوصاف الحساد وبيان أن العالم الجليل لايخلو من حاسد •
١١٩	:	الحكم بالكفر والفسق والسعادة والشقاوة •• انما يؤخذ عن الشرع لا عن العقل •
١٢٠ ، ١٢١	:	معنى حديث (أنتم شهداء الله في الأرض) •
١٢١ ، ١٢٢	:	(حديقة الورود في مدائح السيد محمود) وهو صـاحب تفسير روح المعاني في مجلدين وبعض من قرظها نظما ملغزا بتأريخها •
١٢٣ ، ١٢٤	:	رسالة (أريج الند والعود) مختصر حديقة الورود وايراد خطبته وسبب تأليفه •
١٢٤ ، ١٢٥	:	ثناء الأئمة العدول على مصنف جلاء العينين ووالده وذكر بعض مآثرهما مما يكذب النبهاني •
١٢٦	:	انحطاط العالم الاسلامي وغلبة أمراء السوء وكثرة الفتن في الدين مما أوجب تطاول النبهاني •
١٢٧	:	ذكر من ألف في مناقب شيخ الاسـلام ابن تيميـة حيث أن النبهاني قدح في أولئك العلماء بسبب انتصارهم لشيـخ الاسلام •

الصفحة		الموضـــــوع
		وبعض كتبه وتصنيفه في مناقب شيخ الاسلام •
١٤٢	:	ترجمة ابن عبد الهادي وابن القيم وانتسابهما الى الشيـــخ وأنهما من حسناته •
١٤٣	:	ترجمة المحدث صفي الدين الحنفي البخاري صاحب القول الجلي في مناقب الشيخ وتقريظ الكزبري لكتابه •
١٤٣ ــ ١٤٥	:	تقريظ محمد التافلاني الحنفي المقدسي للقول الجلي وذكره بعض مآثر شيخ الاسلام وعذره فيما انتقد عليه •
١٤٥ ، ١٤٦	:	ترجمة مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي وذكر بعض شعره
١٤٦ ، ١٤٧	:	الثناء على كتابه الكواكب الدرية في مناقب شيخ الاســلام ابن تيمية ووصفه بأشعار بليغة •
١٤٧ ــ ١٤٩	:	كثرة من أثنى على شيخ الاسلام في كل زمان ومكـــان في مصر والشام والعراق وغيرها •
١٤٨	:	المبغضون له في العراق هم الدجالون المنافقون وبيــان أن العراق معدن كل محنة وبلية في كل زمان •
١٤٩	:	مدح أهل الشام لتظاهرهم بنصرة الشيخوكونهم أحق الناس بذلك لأنه منهم •
١٤٩ ، ١٥٠	:	الثناء على صاحبي مجلة المؤيد الأغر ومجلة المنار لتظاهرهما بنشر أقوال شيخ الاسلام وتأييد اختياراته •
١٥٠ ، ١٥١	:	ترجمة رفيق بك العظم ونقل كلام له في تنبيه الافهام في ذم المقلدين والمبتدعين وما كان منهم في حق شبخ الاسلام •
١٥١	:	ترجمة السيد محمد بدر الدين الحلبي وذكر نشـــره لمناقب شيخ الاسلام •
١٥١ ، ١٥٢	:	ترجمة محمد كرد علي صاحب مجلة المقتبس ونشره لفضائل الشيخ وقمعه لخصومه في كل مكان •
١٥٢ ، ١٥٣	:	عدم تضرر مصنف جلاء العينين بمسبة النبهاني والاستشهاد على ذلك بأبيات لابن سند النجدي •
١٥٣ ، ١٥٤	:	خلاصة ماحتواه كتاب الكواكب الدرية للشيـــخ مرعي في

الصفحة		الموضـــوع
		اللائق بجلال الله مع نفي مشابهة المخلوق •
١٨٧ ، ١٨٨	:	خاتمة الحموية في ذم أهل الكلام واختـلافهم واضطـراب حججهم •
١٨٨ ـــ ١٩٠	:	ملخص الفتنة التي حصلت بسبب الحموية وانتصار الشيخ على من خالفه بالحجة •
١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢	:	محنة أخرى بسبب ماكتبه لنصر المنبجي الذي يقلد ابن عربي وابن سبعين وعقد مجالس للشيخ ومناظـرته في عقيـدته الواسطية •
١٩١ ، ١٩٢	:	ملخص مناظرته للأحمدية الرفاعية ورده لما يقع فيهم من البدع المضلة •
١٩٢ ، ١٩٣	:	سبب خروجه الى مصر وتأريخ ذلك وكيف ودعـه أهـل دمشق •
١٩٣ ، ١٩٤	:	وصوله الى مصر وجلوسه للمحاكمة في عقيدته عند القاضي المالكي وحبسه في الجب وخروجه بعد ١٨ شهرا وتغلبه على الفقهاء في المناظرة •
١٩٤	:	بعض أبيات لابن عبد القوي في مدح الشيـخ وحثه علـى الصبر •
١٩٥ ، ١٩٦	:	ضجر الصوفية من الشيخ لطعنه في امامهم ابن عربي وكيف حبس في حبس القضاة •
١٩٦	:	حالة المحابيس قبله وكيف شغلهم بالعبادة والعلم ، وبيـان كثرة من يزوره في الحبس وما كتبه من الفتـاوى وسـبب نقله الى ثغر الاسكندرية وخروجه بعد ثمانية أشهر •
١٩٧ ، ١٩٨	:	مبالغة السلطان في الثناء على الشيخ أمام القضاة والأعيـان وجرأة الشيخ عليه وعفوه عمن كفره أو تنقصه من العلماء •
١٩٨	:	الجماعة الذين ضربوه وكيف عفى عنهم ومنع الجنـد من الانتصار له •
١٩٩ ، ٢٠٠	:	تأريخ رجوعه الى دمشق واقامته بها مشتغلا بالعلم وذكـر

الصفحة		الموضـــــوع
		بعض اختياراته التي خالف فيها الجمهور •
٢٠٠ ، ٢٠١	:	فتواه في مسألة الحلف بالطلاق وحبسه لأجل ذلك بالقلعة واخراجه بعد أكثر من خمسة أشهر •
٢٠١ ، ٢٠٢	:	فتواه في شد الرحل لزيارة القبور وماحصل بسببها من الارجاف مما سبب حبسه بالقلعة الى أن مات •
٢٠٢ ــ ٢٠٦	:	صورة السؤال في مسألة السفر لزيارة القبور وجواب الشيخ بنصه •
٢٠٢ ، ٢٠٣	:	ما ذكره من أقوال العلماء في قصر الصلاة في مثل هذا السفر وأدلتهم وأقوالهم في حكم الوفاء بالنذر •
٢٠٣ ، ٢٠٤	:	ضعف الأحاديث التي يحتجون بها في وجوب زيارة قبر الرسول عليه السلام •
٢٠٤	:	دلالة حديث لاتشد الرحال والرد على من قال أنه لنفي الاستحباب •
٢٠٥	:	أحاديث في النهي عن اتخاذ قبره عيدا أو مسجدا وعمل السلف في السلام على القبر ومايؤدي اليه الغلو في الصالحين
٢٠٦	:	الروافض خالفو السنة فعمروا المشاهد وعطلوا المساجد •
٢٠٦	:	بعث هذا الجواب الى مصر وكيف حرف عليه وبيان الفرق بين مطلق الزيارة الجائزة وشد الرحل الممنوع •
٢٠٧ ــ ٢١٣	:	ذكر انتصار علماء بغداد للشيخ •
٢٠٧ ، ٢٠٨	:	جواب الشيخ ابن البتي الحنبلي وايضاحه لمعنى لاتشد الرحال وامتعاضه من حبس الشيخ •
٢٠٨	:	تذييل ابن عبد الحق الحنبلي على جواب ابن البتي مؤيدا له
٢٠٨ ، ٢٠٩	:	جواب العلماء الشافعية وفيه حكم الزيارة وان المنع منها لايعد تنقصا للمزور •
٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩	:	من أفتى قبل الشيخ من أجلاء العلماء بمنع السفر لزيارة القبور •
٢٠٩ ، ٢١٠	:	جواب لعلماء المالكية وفيه المنع من تكفير من منع هذاالسفر

الصفحة		الموضـــــوع
		وان الغرض من السفر الى المساجد الثلاثة الصلاة فقط •
٢١٠	:	جواب آخر لعلماءالشام من المالكية في هذا المعنى •
٢١٠ ــ ٢١٣	:	كتاب ورد مع أجوبة علماء بغداد يتضمن الدعاء للسلطان والثناء على الشيخ وتشبيه السلطان بيوسف الصديق والشيخ بما عنده من القوت الذي اضطر الناس اليه •
٢١٣	:	كتاب آخر لعلماء بغداد وفيه ماحصل من المشقة على أهل الحق وانتصار المبتدعين لما سمعوا التضييق على الشيخ •
٢١٤	:	مدة اقامة الشيخ بالقلعة وكونه مكبا على العبادة والتصنيف ومنعه آخر المدة من الكتابة •
٢١٤ ــ ٢١٧	:	وفاة الشيخ ومدة مرضه واباحته كل من عاداه جهلا وشدة أسف الناس عليه وكيف ضاق المسجد والأسواق بالمصلين والمشيعين وأين دفن وما كان من حزن الناس عليه في كل البلاد •
٢١٨ ــ ٢٤٠	:	ما رثي به الشيخ من القصائد بعد موته •
٢١٨ ــ ٢٢١	:	ماقاله شهاب الدين ابن فضل الله العمري الشافعي في حق الشيخ نظما ونثرا •
٢٢١ ، ٢٢٢	:	قصيدة ابن الوردي الشافعي في شيخ الاسلام •
٢٢٢ ــ ٢٢٤	:	مرثية في الشيخ قالها محمد الجزري العراقي •
٢٢٤ ــ ٢٢٥	:	ماقاله الشيخ علاء الدين ابن غانم رحمه الله تعالى •
٢٢٥	:	أبيات لمحمود بن الأثير الحلبي عليه الرحمة •
٢٢٦ ، ٢٢٧	:	مرثية بليغة لزين الدين ابن الحسام الشبلي في شيخ الاسلام •
٢٢٧ ــ ٢٢٩	:	ماقاله الشيخ جمال الدين ابن الحصري الحنبلي رحمه الله تعالى •
٢٢٩ ــ ٢٣١	:	قصيدتان بليغتان لشهاب الدين ابن أنو شروان التبريزي الحنفي عليه الرحمة •
٢٣٢ ، ٢٣٣	:	قصيدة لولده برهان الدين التبريزي الحنفي في شيخ

الصفحة		الموضـــــوع
		واصلاحه للمجتمع ومافي ضد ذلك من المفاسد •
٢٥٦ ، ٢٥٧	:	ذم الاختلاف الذي وقعت فيه الرافضة في الصحـابة وأدلة المنع من الكتاب والسنة •
٢٥٧ ، ٢٥٨	:	عظم الفرق بين ابن تيمية وابن حجر كالفرق بين السمـك والسماك والثرى والثريا والظل والحرور والاستشهـاد بأبيات •
٢٥٨ ، ٢٥٩	:	الفرق بين كتبهما كما بين كتاب الله وقرآن مسيلمة والمقارنة بين كتابين لهما في موضوع واحد وكثرة كتب ابن تيمية •
٢٥٩ ، ٢٦٠	:	انتقاد كتب ابن حجر بالغموض والخرافات وما فيها مما هو منتحل من كتب ابن تيمية وغيره •
٢٦٠	:	قلة من يعتنق مذهب الشافعي الذي صنف فيه ابن حجـر واستغناء الناس بكتب الحنفية مما يكذب النبهاني في زعمه أن كتب ابن حجر عمدة جميع المحققين •
٢٦٠ ، ٢٦١	:	تكذيب النبهاني بذكر من طعن على ابن حجـر ونسبه الى الكذب ولو سلم من الطعن لكـان دليل حقـارته وعدم الاهتمام بشأنه •
٢٦١ ــ ٢٦٥	:	نقل عن الرافعي من (احياء القلوب) فيه أن كثرة الأعداء للشخص يثبت له الأسوة بالأنبياء •
٢٦١	:	ليست الدنيا موضع ظهور الجزاء فلا يلتفت فيها الى المدح أو الذم •
٢٦٢ ، ٢٦٣	:	عدم تأثر المؤمن بحب الناس له أو بغضهم ، وحال الابرار في حصول الأذى لهم وفرحهم بذلك •
٢٦٣ ــ ٢٦٥	:	ماحصل لكثير من العلماء قديما وحديثـا من قتـل وحبس وتضييق وأذى •
٢٦٥ ــ ٢٦٧	:	زعمه أن ابن حجر يعتقد في الصوفية فنالته بركتهم وبيـان أن ابن تيمية أيضا يثني على صالحيهم وأن متأخريهم قدوقع فيهم اعتقاد الحلول كما اعترف بذلك ابن حجر •

الصفحة		الموضـــوع

الصفحة		الموضـــــوع
		أنفسهم) على الجواز •
٢٨٠ ــ ٢٨٢	:	بعض الاسباب في اجابة من دعا بدعاء محرم أو مكروه وان اجابته قد تكون سببا في شقائه كبلعام وثعلبـــة وقد يعذر الجاهل •
٢٨٢	:	لايصح نقل النبهاني عن الرفاعي من أمره بالاستغاثة به وان صح فليس بحجة •
٢٨٢ ــ ٢٨٤	:	ذم وتشنيع على دجال العصر شيخ النبهاني وبيان كذبه في ادعاء الشرف ونسبه وماحصل بسببه من البلاء على الأمة والاستشهاد على سوء أفعاله بأبيات للموصلي وغيره •
٢٨٤	:	الباب السابع للنبهاني في أدعية عن بعض الأولياء استغاثـوا فيها بالرسول عليه السلام ومايحتـوي عليه هذا البـــاب ومصادره •
٢٨٤	:	ليس الناس كلهم موحدين وليس كل أحد يحتج بكلامه •
٢٨٥ ــ ٢٨٨	:	جواب لشيخ الاسلام في حكم من أنكر الشفاعة في الآخرة أو أنكر توسل الصحابة بالرسول عليه السلام في حيـاته ومعنى حديث أنه لايستغاث بي والدليل على أنه لايدعى الا الله ولا مغيث الا هو وحكم الاستغـاثة بغير الله وحكـم القسم أو الاستغاثة بصفاته ومتى يحكم بكفر مـن خالف الدليل •
٢٨٩ ــ ٢٩١	:	حكم الاستغاثة بالمخلوق والفرق بينها وبين التوسل وحكم من أنكر شيئا من ذلك •
٢٩٠	:	حديث الأعمى الذي رد الله اليه بصره وأقـوال الناس في معنى التوسل المذكور فيه •
٢٩١ ، ٢٩٢	:	الفرق بين توسل القبوريين وتوسل ذلك الأعمى وأنه توسل خاص بالنبي عليه السلام في حياته أي بدعائه •
٢٩٢ ــ ٣٢٧	:	آيات وأحاديث وآثار وأدعية وأشعار تتضمن الاخـلاص لله والتوجه اليه وحده وترد ماأورده النبهاني من أدعية شركية

الصفحة		الموضـــــوع
		الشدة بخلاف أهل زماننا •
٣١٦	:	أبيات للشافعي ولأبي نواس وغيرهما تتضمن الرغبة الى الله وحـده •
٣١٦ — ٣١٨	:	قصيدة لعلي السويدي فيها تغير الناس والحث على الرغبة الى الله وفيها وصايا قيمة وبعدها ثناء على كتابه (العقـد الثمين)
٣١٩ — ٣٢١	:	تقريظ لمحمد خليل الدمشقي على كتاب (العقد الثمـين) نظما ذاكرا مافيه من الفوائد الجليلة •
٣٢١ ، ٣٢٢	:	أبيات نفيسة فيها توسل الى الله وحده بصفات كماله مجربة اجابة من دعى بها وأبيات أخرى لم يزل الصالحون يناجون ربهم بها •
٣٢٢ — ٣٢٤	:	قصيدة جليلة لبعض الصالحين قد خمسها بعض أهل الزهد فيها أعظم مناجاة لله وتذلل بين يديه •
٣٢٥	:	أبيات للزمخشري وصف الله فيها بسعة الاطلاع ورغب اليه وحده في المغفرة •
٣٢٥ ، ٣٢٦	:	دعاء واستغاثة كان يواظب عليها شهاب الدين السهروردي ذكروا لها خواص وفوائد كثيرة •
٣٢٦	:	خاتمة قصيدة عظيمة للشيخ الدمياطي دعا الله فيها بأسمائه الحسنى •
٣٢٦ ، ٣٢٧	:	لم يزل الصالحون يناجون الله ويتضرعون اليه وحده خلافا لما نقل النبهاني الذي لم يفرق بين الشفاعة والتوسل والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم •
٣٢٧	:	الباب الثامن للنبهاني ذكر فيه ماورد من النظم فيه استغاثة بالرسول عليه السلام ورتبه على الحـروف وأكثـره من (المجموعة النبهانية) •
٣٢٧ ، ٣٢٨	:	لايقبل قول كل أحد نظما أو نثرا وانما المرجع الكتـــاب والسنة كما في أدعية الأئمة الجهابذة كما تقدم •

الصفحة		الموضـــــوع
٣٢٨	.	أكثر أولئك الشعراء ومنهم النبهاني جهــلاء بالتـــوحيد واجابتهم بتلك الأدعية لايدل على اباحتها ومايوجد عنــد القبوريين من الحكايات في حصول مقاصدهم كلها لاحجـة فيها •
٣٢٨ ، ٣٢٩	:	قد وقع الشرك بأهل القبور مع أن الرسول عليه السلام قد نهى عن الصلاة عند القبور وعن القســم على اللــه وعن الحلف بغير الله •
٣٢٩ ، ٣٣٠	:	حكم الأقسام على الله بنبيه أو بصفاته والسؤال بمعــاقد العز من عرشه •
٣٣٠ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨	:	حديث أسألك بحق السائلين عليك والمراد بهذا الحق وحديث حق العباد على الله •• وكون العباد لايوجبــون على الله بخلاف ماأوجبه على نفسه ، وحكم قول العبد أسألك بحق فلان •
٣٣٢	:	التوسل بالأعمال الصالحة ومايفيده الدعاء من الايمان بالله ومحبته وذكر دعاء العبادة ودعاء المسألة •
٣٣٣ ـ ٣٣٥	:	سبب نزول (واذا سألك عبادي عني) ومعنى (فليستجيبوا لي) وسبب اجابة الكفار كما في قوله (فلما كشفنا عنه ضره) ونحوها لأجل الضرورة أو لمتاع الدنيا مع ظنهم أنه دليــل ذهاب السيئات عنهم •
٣٣٥	:	طلب الشفاعة من الرسول في الآخرة وتوسل الصــحابة به في حياته وبطلان حديث : اذا سألتم الله فاسألوه بجاهي ••
٣٣٦ ، ٣٣٧	:	معنى قوله في حديث الأعمى : اني أتوجه بك الى ربي ، وما يراد بلفظ التوجه بالشخص والتوسل به والسؤال في عرف الصحابة وأمثلة لذلك وسبب غلط من بعدهم في فهم معناه•
٣٣٨ ، ٣٣٩	:	حديث أعوذ برضاك •• استعاذة بصفات الله ، أفعــال الله قائمة به وأفعال المخلوق لاتنسب الى الله وأن كانت خلقــا له خلافا لأهل الاتحاد •

الصفحة		الموضوع
٣٣٩	:	حكم الحلف بغير الله وبعزة الله ولعمر الله والفرق بين قولهم الصفات غير الذات وصفات الله غير الله •
٣٤٠	:	قولهم : اسألك بالله والرحم ودليله ومعناه والأمر بابرار المقسم •
٣٤١	:	التوسل بذوات الأنبياء والصالحين أو باتباعهم أو بدعائهم وشفاعتهم وحكم ذلك •
٣٤١ ، ٣٤٢	:	أمثلة مما أورد النبهاني من الشعر المشتمل على دعاء الرسول وطلبه مالايطلب الا من الله •
٣٤٢ ، ٣٤٣	:	من شعر الصرصري والبوصيري ومافيه من الغلو وهما أجل من استشهد النبهاني بشعره •
٣٤٣	:	ماانتقده شيخ الاسلام على ابن البكري والصرصري وابن النعمان من التسوية في الاستغاثة بين الحي والميت •
٣٤٤	:	من المتحقق أن الرسول نهى عن دعاء غير الله ولكن لايكفر من فعله جاهلا الا بعد العلم •
٣٤٤	:	الذين يدعون الأموات يفزعون اليهم في الضرورات كما فعلوا لما جاء التتر مما سبب هزيمتهم ولما أخلصوا انتصروا•
٣٤٥	:	تأويل لبعض ماأنكر من شعر الصرصري ليوافق الحق •
٣٤٥ ـ ٣٤٨	:	مانقله شيخ الاسلام عن الغلاة من استقبالهم القبور وعكوفهم حولها وحجهم اليها •• الخ وتفصيل المؤلف لذلك •
٣٤٨ ، ٣٤٩	:	قول البوصيري : مالي من ألوذ به سواك •• ومافيه من الشرك وخطأ من أوله بالشفاعة •
٣٤٩ ـ ٣٥١	:	حول بيت للبوصيري فيه أن معجزات الرسول عليه السلام كالقرآن لاتناسب قدره والا لأحيا اسمه الأموات •
٣٥١ ـ ٣٥٥	:	زعم المشركين عدم تأثير الأسباب وان وسائلهم من الأولياء لايؤثرون وانما الله يخلق عند دعائهم ماطلبوا والرد عليهم بمشابهة فعلهم لفعل المشركين وباثبات تأثير الأسباب باذن

الصفحة		الموضـــوع
		الله .
٣٥٥ ، ٣٥٦	:	الذين احتج النبهاني بشعرهم اما اتحادية لايفرقون بين الخالق والمخلوق واما جهال لونبهوا لرجعوا .
٣٥٦ ، ٣٥٧	:	ثبت النبهاني عن مشائخه الى جبريل عن اسرافيل .. الخ وكونها دعوى كاذبة لفقد آثار العلم والتقوى فيه وفي مشائخه .
٣٥٨	:	تفسير الزمخشري للمحبة بالطاعة والاتباع وتكذيبه ماتدعيه الصوفية من المحبة لفقد آثارها فيهم .
٣٥٨ ، ٣٥٩	:	علم المعقول مأخوذ عن كتب اليونان بعد أن ترجمت وعن أهل الكلام فلا يصح نسبة ذلك الى جبريل .. الخ
٣٥٩ ، ٣٦٠	:	الخرق متعددة أشهرها خرقة عمر وخرقة علي وبيان أسانيد خرقة علي ومافيها من الكذب والانقطاع وان الصحابة لا يلبسون مريديهم خرقا ولايقصون شعورهم .
٣٦١ ، ٣٦٢	:	ضعف نسبة الفتوة الى علي وكون التابعين يأخذون عن كل من لقوه من الصحابة ولايتخذ أحد منهم شيخه ربا ، وكون علي لم يتفرد بعلم دون بقية الصحابة ولم يحتج اليه الا كما يحتاج الى غيره .
٣٦٢ ، ٣٦٣	:	بطلان ثبت النبهاني لاختلال سنده وانتحاله البدع وخلوه من العلم الصحيح وبطلان كل ماهذى به في هذا الكتاب وكذبه فيما عنده من الاجازات بالطرق العلية الخ .
٣٦٤	:	نقل النبهاني في خاتمته أن الشعراني تأول أقوال الصوفية الصريحة في الاتحاد ورد نسبة بعضها اليهم .
٣٦٤ ، ٣٦٥	:	لم يسلم أحد منا لاعتراض وليست العصمة الا للرسل ، وابن تيمية انتصر للصوفية ولم ينتقد الا مسائل للغزالي الا أنه تكلم كغيره في ابن عربي وأضرابه من أهل الاتحاد .
٣٦٥ ، ٣٦٦	:	الأئمة الأربعة يوجبون هدم القباب على القبور ويحرمون الصلاة عندها لله ومقلدتهم ينسبون من فعل ذلك الى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، أحمده سبحانه فهو المتوحد في الجلال والكمال ، والمستحق للحمد في كل حال من الاحوال ، تعالى وتقدس عما لايليق بجلاله من الاقوال والافعال ، (له مافي السموات وما في الارض ، من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) فهو الكبير المتعال ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ولا ند ولا مثال ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أظهر الله به الدين بعد الافول والاضمحلال ، فحمل راية التوحيد وحمى حماه حتى زال الشرك والضلال ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه واتبع سننه الى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد فقد اقتضت مشيئة الله تعالى أن يكون الحق في صراع مع الباطل ويكون للحق أهل وأنصار ، وللباطل أهل وأنصار ، ولكن العاقبة الحميدة للحق وأهله ، ولو ظهر الباطل وشاع في زمن من الازمان فانه لابد أن يزهق ويندحض في مقابلة الحق ، فانا اذا نظرنا الى الرسل والانبياء من أولهم الى آخرهم محمد صلى الله عليه وسلم وجدنا أنهم قد تعرضوا لصراع عنيف مع أممهم ، فقوتلوا وأوذوا وهم صابرون ، يدعون الى دين الله ويجاهدون في سبيله ، حتى أتاهم نصر الله ، فظهر الحق وزهق الباطل (قل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا) واذا تتبعنا أمة محمد صلى الله عليه وسلم رأينا الكثير من أئمة الاسلام الاعلام الذائدين عنه والحامين لحماه قد تعرضوا للكثير من الاذى بالاقوال والافعال ، وصاروا في صراع مع دعاة البدع والضلال ، فلم يهن ذلك عزمهم ، ولم يفت في عضدهم أن يبطلوا الباطل ويزهقوه ويدمغوه بالحق ، ويردوا كيد أولئك المبتدعة والضلال في نحورهم ،

ويسكتوا حججهم الواهية بأدلة الكتاب والسنة ، ومن بين أولئك المبتدعة النبهاني صاحب كتاب (شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق) الذي ذكر فيه الكثير من الاباطيل والبدع وسب فيه بعض أئمة المسلمين وشنع بهم ، فقام عليه أنصار الحق وردوا عليه ، وأدحضوا ما أورده في كتابه هذا من الاباطيل والبدع ، ومن جملة من تصدى للرد عليه العلامة أبو المعالي محمود شكري الألوسي في هذا الكتاب (غاية الاماني في الرد على النبهاني) الذي يخرج على الامة الاسلامية اليوم وهي أشد ماتكون تعطشا لمثله •

وهو كتاب جليل القدر ، جيد جدا في موضوعه وهدفه العام ، لأن مؤلفه قد قام برد ماأورده النبهاني في كتابه (شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق) من بدع وأقوال مخالفة للشرع ، وما شنع به على بعض الائمة الاعلام الذين قاموا بالدعوة الى توحيد الله ، والنهي عن كل مايضاد هذا التوحيد أو ينافي كماله الواجب ـ كشيخ الاسلام ابن تيمية ، وشيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب ، وغيرهما ـ فأجاد وأفاد رحمه الله وجزاه خيرا •

وهذا الكتاب لم يطبع سوى مرة واحدة في حياة المؤلف وبصورة سرية لظروف اقتضت ذلك أشير لها في الترجمة ، كما يظهر أن توزيعه لم يكن بكمية كبيرة ولم تتداوله الايدي بكثرة ، ونظرا لذلك ولقدم طبعته الاولى كان قد اختفى زمنا طويلا وكاد أن ينعدم ، ولكن المخلصين من العلماء لم تطمئن ضمائرهم ، ولم تتركهم غيرتهم الدينية أن يسكتوا حتى ينعدم أو يصعب وجوده ، فقد قام صاحب الفضيلة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد رئيس الاشراف الديني بالمسجد الحرام بعرض فكرة اعادة طبع هذا الكتاب ، فما أن علم أصحاب الوجاهة والذكر الطيب (محمد بن عبد الله الجميح ، وأبناء أخيه عبد العزيز : محمد ، وعبد الرحمن ، وحمد) حتىأسرعوا في تلبية هذه الفكرة، واستعدوا باعادة طبعه على نفقتهم الخاصة ، وتوزيعه على العلماء والمتعلمين ، طلبا للأجر والمثوبة عند الله ، وليكون لهم ذلك لسان صدق في الآخرين ، فيقتفي آثارهم من بعدهم من المحسنين ، ويصنع مثل صنيعهم ، وتلهج الألسن بالدعاء بالرحمة والمغفرة لهم •

وهم بهذا انما يهدون مكرمة عظيمة للعلم وطلابه ، وليست الاولى من

نوعها فقد قاموا بطبع كتب ورسائل قيمة غير هذا منها (الجامع الفريد) يحتوي على عدة كتب ورسائل لأئمةالدعوة الاسلامية ، طبعوه أولا فلما نفدت الطبعة الاولى طبعوه مرة ثانية ، ومنها كتاب (دواء القلوب والابدان من وساوس الشيطان) للشيخ عبد الله الخليفي امام وخطيب المسجد الحرام ، ومنها رسالة (السلف بين القديم والجديد) للاستاذ فالح المهدي المدرس في كلية الشريعة بالرياض ، وقد وزعت تلك الكتب على المشائخ وطلاب العلم كما أنهم كثيرا مايقومون بشراء كميات من الكتب الدينية النافعة ويوزعونها ولم يقتصروا على الاسهام في نشر العلم بطبع الكتب والرسائل وشرائها ؛ بل قد ساهموا في كثير من المشاريع الخيرية الاخرى ، كبناء المساجد وتأثيثها ، واعانة المنكوبين والمحتاجين وغير ذلك ، وبالجملة فهم ممن لهم حظ وافر في وجوه البر والاحسان ، ومثل يحتذى في المسارعة لفعل الخير ، فنسأل الله أن يزيدهم خيرا الى خيرهم وأن يكثر من أمثالهم من أثرياء بلادنا فيحذوا حذوهم ويصنعوا مثل صنيعهم في المساهمة في نشر العلم والقيام بالكثير من المشاريع الخيرية الاخرى .

وحين عرض علي القيام بتصحيح طبع هذا الكتاب رأيت من واجبي تلبية ذلك – وان كنت مشغولا – لأن فيه مساهمة في فعل الخير ، ورجاء أن أشترك مع المحسنين في الأجر ، وبعد اطلاعي عليه رأيت فيه من الاخطاء المطبعية الشيء الكثير ، خصوصا في الآيات القرآنية ، فاجتهدت في تصحيح تلك الاخطاء حسب قوائم الخطأ والصواب المطبوعة مع الكتاب ، أما الآيات القرآنية فقد قابلتها على ما في المصحف ، وعزوت كل آية الى سورتها تتميما للفائدة ، ولتسهيل الرجوع اليها عند الحاجة ، وقد أضع بعض تعليقات قليلة أرى من الافضل وضعها ، والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب ، ويجزي ناشره والمتسبب في نشره أحسن الجزاء ، وأن يجزيني معهم وسائر اخواني المسلمين بعفوه ورحمته ، ويوفق أثرياء المسلمين وعلماءهم الى احياء كتب السلف ونشرها كلما نفدت انه سميع مجيب ، وصلى الله على محمد وآله وسلم .

غيهب بن محمد الغيهب
أحد قضاة محكمة الرياض الكبرى

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف

الحمد لله ناصر الحق ومعليه ، ومدحض الباطل وذويه ، والصلاة والسلام على خير خلقه ورسله محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه والتابعين لهم باحسان .

أما بعد ، فهذه اشارة مختصرة الى ترجمة الشيخ العالم العلامة ، محمود شكري الالوسي ، مؤلف كتاب : (غاية الاماني ، في الرد على النبهاني) كتقدمة بين يدي اعادة طبع الكتاب الذي سبق أن طبع في حياة المؤلف رحمه الله ، ولم يذكر عليه صريح اسمه ، ولا تاريخ الطبعة ، ولا المطبعة ، ولا الناشر ، وستعرف السبب في ذلك من هذه الترجمة المختصرة ، وهذه الترجمة أخذت من الكتب الآتية :

١ ــ أعلام العراق لمحمد بهجت الاثري تلميذ المصنف .

٢ ــ الاعلام للزركلي

٣ ــ الموسوعة العربية الميسرة .

٤ ــ مجلة المنار

٥ ــ معجم المؤلفين

٦ ــ فهرس الخزانة التيمورية

٧ ــ معلومات أخرى من فضيلة الشيخ محمد نصيف العالم السلفي بجدة مشافهة والذي جرى بينه وبين المؤلف عدة مكاتبات في خدمة العلم وأهله .

(نسب المؤلف ومولـــده)

هو أبو المعالي محمود شكري بن عبد الله بهاء الدين بن محمد أبي الثناء شهاب الدين بن عبد الله صلاح الدين بن محمود الخطيب الالوســي ، ينتهي نسبه الى الحسين بن علي رضي الله عنهما ، والالوسي نسبة الى ألوس ، وهي قرية على الفرات قرب عانات ، يقال أن سابور ذا الاكتاف كان بناها .

ولد في اليوم التاسع عشر من شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف من الهجرة ، في الرصافة ببغداد ، في بيت من بيوتات العلم والمجد ، سماه أبوه محموداً وكناه أبا المعالي ، ولقبه شكري حين ولادته .

أما أبوه عبد الله فهو العالم الاديب ، والكاتب البارع ، له مؤلفات : منهـا التعطف على التعرف في الاصلين والتصوف وغيرها .

وأما جده فهو الامام محمود شهاب الدين ، العالم العلامة ، صاحـب التصانيف الشهيرة ، من أشهرها روح المعاني في التفسير ، وله من المؤلفـات مايقرب من اثنين وعشرين مؤلفا متنوعة .

(تعلمــه)

أخذ أبو المعالي شكري مباديء العلوم العربية والدينية عن أبيه ، وجود عليه الخط بأنواعه المستعملة بالعراق في ذلك الحين ، وتأثر بأبيــه في حسن السمت وصفاء الطوية ، وحب الأدب والعلم ، ثم توفي أبوه في شعبان عـام ١٢٩١ هـ ، ثم كفله عمه العلامة نعمان خير الدين ، مؤلف كتاب جلا العينين في محاكمة الاحمدين ، وغالية المواعظ ، وغيرها من المؤلفات ، مما يبلغ تقريبا من ثلاثة عشر مؤلفا ، ويقول بهجت الاثري في كتاب أعلام العراق عن الشيـخ نعمان : كان عقله أكبر من علمه ، وعلمه أبلغ من انشائه ، وانشاؤه أمتن من نظمه رحمه الله .

ثم أخذ العلم عن مشائخ بغداد ، منهم الشيخ اسماعيـل بن مصطفى ، مدرس جامع الصاغة ، وغيره من العلماء ولم يكتف بما تحصل من العلم لدى المشائخ ، بل جد واجتهد في مواصلة الدرس ومتابعة البحث ، وكلف بالتاريخ والسيرة واللغة ، وزاول الكتابة ، له الاطلاع الواسـع ، والمـادة الغزيرة ،

والتحقيق النادر ، والرأي الصائب ، وتصدر للتدريس في داره ، وفي جامع عادل خاتون ، وعين مدرسا رسميا في جامع الحيدرية ، ثم في جامع السيد سلطان علي ، ثم عين مدرسا في مدرسة مرجان ، وجعل رئيس المدرسين ، ونفع الله به ، وتخرج منها خلق كثير •

(سبب تأليفه للكتاب وعدم التصريح باسمه عليه)

عندما عزمت على كتابة هذه الترجمة اتصلت بالعالم السلفي ، الشيخ محمد نصيف بجدة ، والذي كان له مساهمة فعالة في سبب تأليف الكتاب وطبعته الاولى ، فأفاد بما ملخصه : أنه عندما ظهر كتاب النبهاني المسمى (شواهد الحق) وقرأه الشيخ محمد نصيف ، ورأى ما فيه من التلفيق والتحريف ، والاستدلال السخيف ، وذكر الاحاديث الباطلة الموضوعة ، والضعيفة الواهية ، وتهجمه على المحققين من علماء السلف ، وتجويزه دعاء الاموات والاستغاثة بهم ، وغير ذلك مما يخالف صريح الكتاب وصحيح السنة ، عندما قرأه كتب للعالم العلامة الشيخ محمود شكري الالوسي ،يطلب منه أن يقوم بالرد على النبهاني ، ويدحض أباطيله ، وينتصر للحق وأهله ، فلم يمض سنة الا وقد جاء الرد المسمى (غاية الاماني في الرد على النبهاني) للشيخ محمود الالوسي ، واتفق الشيخ محمد نصيف والشيخ عبد القادر التلمساني ـ من تجار جدة المحسنين ، والعلماء السلفيين ـ على أن يقوما بطبعه وتكاليف الطبع بينهما نصفين • وكان الشيخ التلمساني آنذاك في مصر، فاتفقا أن يقوم بطبعه فرج زكي الكردي بمطبعته في مصر ، فقام بطبعته الاولى وقد وضع المؤلف على طرة الكتاب : تأليف أبي المعالي الحسيني ، اشارة الى كنيته ونسبه الحسيني ، وزاد عليها السلامي الشافعي لئلا يتضح اسمه خوفا على نفسه ، وذلك أن العلماء السلفيين في ذلك العصر يخافون على أنفسهم في معارضة أهل البدع والخرافيين ـ كالنبهاني وغيره ـ والسبب في ذلك أن السلطان عبد الحميد سلطان الدولة العثمانية قد قرب المشائخ من أهل الطرق، من الصوفية أنصار البدع ، فلذلك خاف السيد محمود شكري الالوسي من اظهار اسمه على طرة الكتاب ، وكذلك صاحب المطبعة فرج الله زكي خاف على نفسه ، ولم يذكر اسمه الا رمزا (ف ، ج ، ز) ولا اسم مطبعته ، ولا

البلد التي فيها المطبعة ، وكذلك الشيخ عبد القادر التلمساني والشيخ نصيف خافا على أنفسهما من نفس العلة ، لأن السلطان عبد الحميد في ذلك الوقت له النفوذ في بغداد ومصر والحجاز وهي البلدان التي فيها المؤلف والطابع والمطبعة ، ولهذه المضايقات والخوف عندما تم طبع الكتاب لم يتمكنوا من توزيعه الا عندما أخذت حكومة اسطنبول بالقوانين الوضعية الاوربية وأعلنت الدستور وكان الدستور يقضي بحرية العقائد والاديان ، فعند ذلك أرسلت حصة الشيخ محمد نصيف من الكتاب اليه في الحجاز ، ووزعها ، ووضع على كل نسخة وزعها اسم المؤلف بخط يده ، وكذلك الشيخ عبد القادر وزع نسخه في مصر وغيرها ، ثم ان الشيخ محمد نصيف عندما لم يخف من جراء اظهار الكتاب أعلن في جرائد بيروت في ذلك الحين أن لديه كتابا في الرد على النبهاني للشيخ الألوسي اسمه (غاية الاماني في الرد على النبهاني) ، ثم انبرى بعض تلامذة النبهاني وأعلن عن الرد ، وحاول أن يحط من قدر الكتاب ولكن كما قيل :ـ

وقل للعيون الرمد للشمس أعين سواك تراها في مغيب ومطلع

(التعريف بالكتاب)

الكتاب في الواقع هو بين يديك أيها القاريء ، ولا يحتاج الى تعريف ، فبعد قراءتك له ستعرف مكانته ، ولكن سننقل لك ماكتبه فيه العالم السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار فيها ، قال العلامة المصلح الشهير السيد محمد رشيد رضا في تقريظه : (المنار ١٢ ص ٧٨٥) غاية الأماني في الرد على النبهاني ، كتاب مؤلف من سفرين كبيرين ، لأحد علماء العراق الاعلام ، المكنى بأبي المعالي الحسيني السلامي الشافعي ، رد فيها ما جاء به النبهاني في كتابه شواهد الحق من الجهالات والنقول الكاذبة ، والآراء السخيفة ، والدلائل المقلوبة ، في جواز الاستغاثة بغير الله تعالى ، وما تعدى به طوره في سب أئمة العلم وأنصار السنة ، كشيخ الاسلام بن تيمية ، الى أن قال : وفي هذا الكتاب مالا أحصيه من الفوائد العلمية ، في التوحيد ، والحديث ، والتفسير ، والفقه ، والتاريخ ، والادب ، وما انفرد به بعض المشاهير فأنكره العلماء عليه ، كالانكار على الغزالي وبن عربي الحاتمي وغيرهما .. فعلى هذا الكتاب نحيل الذين

يكتبون الينا في الشرق والغرب يسألوننا أن نرد على النبهاني ، وكذا من اغتروا بقوله ونقوله ، وظنوا أن قولنا في الاعتذار عن عدم قراءة كتبه والرد عليها أنه لايوثق بعمله ولا نقله هو من قبيل السب ، وحاشا لله ماهو الا مانعتقده فيه وفي كتبه بعد النظر في بعضها ، ورؤية مافيها من الاحاديث الموضوعة والنقول المكذوبة ، والاستنباطات الباطلة ممن جعل نفسه بالاستنباط مجتهدا وهو ينكر الاجتهاد ، ويعترف بأنه ليس أهلا له ، انتهى كلام صاحب المنار .

(وفاته رحمه الله)

ولما كان عام ١٣٣٧ هـ ابتلي برمل بمثانته ، فلم يهتم به ، وظن أنه عرض زائل ، فكان كما ظن ، فارقه الألم ، الا أنه لم يزل كامنا والرمل يتراكم شيئا فشيئا حتى سد المجرى فازداد عليه الالم ــ وذلك بعد عامين من أول حدوثه به ــ واتصل ببعض الاطباء ، ولم يفد فيه العلاج الا أنه خفف بعض الالم ، ونصحه الاطباء عن كثرة المطالعة والتدريس وإتعاب الفكر ، ولما دخلت العشر الاخيرة من رمضان من سنة ١٣٤٢ هـ أصيب بذات الرئة ، وأيقن بلقاء ربه ، فنهى أهله وذويه أن يؤذوه بالاطباء وعقاقيرهم ، ولبث ثلاثة عشر يوما يعالج أمراضه ، فتوفاه الله أذان ظهر اليوم الرابع من شوال ، وحضر جنازته جمع غفير ، ولما وصلت جنازته الى جبانة معروف الكرخي في الكرخ صلى عليها جمع كثير ، وكان فيهم عدد ينقلون تكبيرات الامام ، ثم حملت جنازته الى جبانة الجنيد البغدادي ، حيث كان أوصى أن يدفن هناك ، وصلى عليه عدة جماعات ، ووري في ملحده قبيل الغروب ، طيب‌الله ثراه وأحسن مثواه ورحمه رحمة واسعة .

(من مآثره وفضائله)

احياء الكتب الدينية ، ونشر مذهب السلف ، وله اليد الطولى في اذاعتها ونشرها ، وكان يرى أن مذهب السلف هو الواسطة الوحيدة لتحرير العقول من رق التعصب الذميم ، وعدم مراعاة الدليل ، ولم يكن يحب الفخر

والظهور ـ عكس ما عليه الكثير من الناس ـ وانما يرمي الى حصول الغرض من أي طريق ، مباشر أو غير مباشر ، وكان رحمه الله يحمل على أهل البدع في درسه في داره وفي المسجد ، ويرد عليهم برسائل ، فعاداه كثير من الناس ، وسعوا به لدى والي بغداد عبد الوهاب باشا ، فكتب عبد الوهاب الى مرجعه السلطان عبد الحميد الثاني العثماني ، فصدر الامر بنفيه الى بلاد الاناضول فلما وصل الى الموصل في سنة ١٣٢٠هـ قام أعيانها فمنعوه من تجاوزها ، وكتبوا للسلطان يحتجون ، فسمح له بالعودة الى بغداد فعاد اليها .

وقد اتصل بالملك عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية في نجد في عام ١٣٣٣ هـ وبحث مع الملك بعض الشؤون ، ثم عاد مكرما محترما .

قال عنه مؤلفوا الموسوعة العربية الميسرة أنه تزعم حركة الاصلاح الاسلامي على مذهب ابن حنبل ، وكتب عدة مقالات في مهاجمة بعض المذاهب الاسلامية ، في كتابه (غاية الأماني في الرد على النبهاني) الذي نشره باسم مستعار ، وهو من أعلام حركة السلفية المحاربين للبدع قولا وعملا .

(مؤلفاته)

له مؤلفات كثيرة تربو على الخمسين مؤلفا في شتى المواضيع ، منها هذا الكتاب الذي بين يديك (غاية الاماني في الرد على النبهاني) ومنها الآية أو الراية الكبرى عن ضلال النبهاني ، ألفه ردا على النبهاني لما شن الغارة في سب شيخ الاسلام بن تيمية ، والسيد رشيد رضا ، وشيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب ، كما رد على النبهاني أيضا الشيخ سليمان بن سحمان ، والشيخ محمد بن حسن المرزوقي القطري ، والشيخ علي بن سليمان اليوسف التميمي، والشيخ محمد بهجت البيطار الدمشقي وغيرهم ومنها (فتح المنان) تتمة منهاج التأسيس للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن ، ومنها (بلوغ الارب في أحوال العرب) في ثلاثة مجلدات ، ومنها (شرح منظومة عمود النسب) . و (تجريد السنان في الذب عن أبي حنيفة النعمان) و (تاريخ نجد) وغيرها من المؤلفات المفيدة ، ومنها (فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية للشيخ محمد بن عبد الوهاب) وأكثرها مطبوع متداول .

(أثر وفاته في المجتمع الاسلامي)

لقد كان لوفاته أثر كبير في المجتمع الاسـلامي ، وكتبت عنه الصحف والمجلات الاسلامية في رثائه والثناء عليه نثرا ونظما ، من كبار العلماء السلفيين وغيرهم ممن أعجبوا بكتاباته وتآليفه ، فمنهم العالم السلفي الشيـخ بهجت البيطار ، أثنى عليه ثناء عطرا ، وذكر شدة ما ألم به لنبأ وفاته ، وذكر فيه أنه لما وصل نعيه الى رجال المجتمع العلمي بدمشق علاهم الحزن والاضطـراب ، وأبدوا الاسف والتوجع على الفقيد ، وكتب أحد أعضاء المجتمع العربي عيسى اسكندر تعزية به ، ووصفه بأنه المحقق الخطـير ، والمدقق الشهـير ، وكفى باسمه شهرة لأبناء العروبة الناطقين بضادها ، وكتب من دمشق الشيخ العالم ، والاستاذ الفاضل ، أبو هشام محمـد سعدي ياسين بالثنـاء والترحم عليه ، وكتابات أخرى من الكويت ، ومن مصر ، ومن حلب ، ومن دمشق ، والحجاز ، وغيرها من الاقطار الاسلامية ، وذكر له من المراثي الشعرية مايزيد على اثنتين وعشرين قصيدة ، ذكرها في أعلام العراق ، منها قصيدة لمعروف الرصافي جاء فيها : ـ

أزمعت عنا الى مولاك ترحـالا ... لما رأيت مناخ القوم أوحـالا
رأيتنـا في ظلام ليس يعقبـه ... صبح ، فشمرت للترحال أذيالا

وفيها :

محمودشكري فقدنامنكحبرهدى ... للمشكلات بحسن الرأي حلالا
قد كنت للعلم في أوطاننا جبـلا ... اذا تقسـم فيها كان أجبـالا
وبحر علـم اذا جاشت غـواربه ... تقـاذف الدر في لجيه منهـالا
يا من بشوال قد شـالت نعامته ... نغصت بالحزن شهر العيد شوالا

وفيها : ـ

شكرا لاقلامك اللاتي كشفت بها ... عن أوجه العلم أستارا وأسدالا
كتبن في العلم أسفارا سيدرسها ... أهل البسيطـة أجيالا فأجيـالا
أمددتها بمـداد ليس يعقبـه ... دمع الانام وان يبكوك أحوالا
وكنت أنت نطاسي العلوم بهـا ... وكن في سبر جرح الجهل أميالا

والقصيدة تبلغ قريبا من أربعين بيتا تركناها اختصارا ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم .

محمد بن عبد الله بن سبيل

النائب للشؤون الدينية بالمسجد الحرام بمكة المكرمة وامامه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ماعرفنا من نفسه ، وألهمنا من شكره ، وفتح لنا من أبواب العلم بربوبيته ودلنا عليه من الاخلاص في توحيده ، وجنبنا من الالحاد والشك في أمره ، وهو رب العالمين وقيوم السموات والأرضين نحمده حمداً يضيء لنا به ظلمات البرزخ ، ويسهل علينا به سبيل المبعث ، ويشرف به منازلنا عند مواقف الاشهاد ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون ، يوم لايغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون ، ونشهد أن لا اله الا الله العظيم السلطان ، والملك الديان ، الذي لا شريك له ولا ند ولا وزير ولا معين وهو الرب المستعان ، فسبحانه من اله وقفت سيارات العقول حيارى في مواقف عظمته ، وتاهت ثوابت أبكار الافكار سكارى في فيافي قدرته ، وأقام أدلة وحدانيته على رؤوس عرائس الكائنات ، ونظم براهين تفرده بربوبيته في سلك امتناع تسلسل الموجودات .

ونرفع اليه جل شأنه أكف التضرع والابتهال ، ونبسط له ـ تعالى سلطانه ـ أيدي التذلل والسؤال ، أن يديم ديم صلاته وسلامه هاطلة على أجل من نشر رايات التوحيد ، وعقد خنصر قلبه على تقديس ربه المجيد ، وتمسك بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، سيدنا ومولانا محمد أمينك على وحيك ، ونجيبك من خلقك ، وصفيك من عبادك ، امام الرحمة ، وقائد الخير ومفتاح البركة ، الذي نصب لأمرك نفسه ، وعرض فيك للبلاء بدنه ، وكاشف اليك في الدعاء خاصته ، وحارب في رضاك أسرته ، وقطع في احياء دينك رحمه ، وأدأب نفسه في تبليغ رسالتك ، وأتعبها بالدعاء الى ملتك ، وشغلها بالنصح لأهل دعوتك ارادة منه لاعزاز دينك ، واستنصارا على أهل الكفر بك ، حتى استتب له ما حاول في أعدائك ، واستتم له ما دبر في أوليائك ، فنهد (١) اليهم مستفتحا بعونك ، ومتقويا على ضعفه بنصرك ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ، الذين أخلصوا في أعمالهم فخلصوا عن

(١) نهد الرجل : بمعنى نهض وصمد لعدوه .

كل نقص حتى لم يبق فيهم كلام ، ولخصوا زبدة أعمارهم بالتجرد عن شوائب الغفلة فلم يشبهم شيء من دواعي الملام ، شنوا غارات عزائمهم حتى بددوا كتائب الزيغ والضلالة ، ودمغوا بأسنة حججهم رؤوس أهل الشرك والجهالة ، الذين أسرعوا الى وفادته ، وسابقوا الى دعوته ، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالته ، وعلى من تبعهم باحسان ، ولم يكن لهم غير الله ملجأ ولا مستعان •

أما بعد : فقد وصل الي ــ في أواخر رجب الفرد سنة خمس وعشرين وثلثمائة وألف ، من هجرة من تقصر دون كعب علاه بردة المدح والوصف ــ كتاب قد اشتمل على بهتان عظيم ، وعدول عن الصراط المستقيم ، ألفه بعض الجهلة لمصادمة الحق ، ومعارضة الصواب بالخطأ المطلق ، ومناقضة ما جاءت به رسل الله ، وصدحت به الكتب المنزلة ، ودلت عليه الدلائل القطعية ، وهو توحيد الله وافراده بخصائص الربوبية ، وتخصيصه بالالتجاء اليه ، والتوكل عليه ، والاستعانة به في كل كلية وجزئية ، فجاء هذا الغبي الجاهل المكابر ، وأعرض عن الحق الصريح الظاهر ، وجمع كتابا سماه (شواهد الحق ، في الاستغاثة بسيد الخلق) وحشاه من الكذب والافتراء والظلم والعدوان ، وشتم أهل الحق ونصرة التوحيد ، والحكايات الكاذبة ، وكان الحري به أن يسمى كتابه هذا شبه الباطل والضلال ، ولما تصفحته وجدته كتابا لايروج ما فيه حتى على ضعفاء العقول ، فضلا عمن تضلع من فنون المنقول والمعقول، لما اشتمل عليه من واهي الاسانيد وأكاذيب النقول ، مباحثه متناقضة ، ومطالبه متعارضة ، جهل بها مؤلفه ، وغفل عنها مصنفه ، وبقيت أقدم رجلا وأؤخر أخرى في الاقدام على ابطاله ، وتزييف أقواله ، حيث تكلم بالجزاف ، وأبان عن قلة معرفة وعدم انصاف ، وكان الرأي عندي أن يعرض عن جهله المستأصل لشافته (٢) ولا يتعرض لغثاثته وسخافته ، ولا يلتفت الى تخليطه وخرافته ، غير أن بعض الاخوان لما علم مقصدي ووقف على ماتقرر عندي التمس مني ذلك ، وطلب ابطال ما هنالك ، وذكر لي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لما قال أبو سفيان يوم أحد : أفيكم محمد ؟ أفيكم أبو بكر ، أفيكم ابن الخطاب ؟ قال لأصحابه : (لاتجيبوه) تهاونا به وتحقيرا لشأنه ، فلما قال أعل هبل ، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قولوا الله أعلى وأجل) ولما قال لنا العزى ولا عزى لكم ، قال لهم : (قولوا الله مولانا ولا مولى لكم) فحينئذ جردت أسنة العزائم والرد ، واستعنت على رد أباطيله بالواحد

---

(١) أي لفساده وذهابه .

الفرد ، وليت مصنف ذلك الهذيان تنكب عن ميدان الفرسان ، ليسلم من أسنة ألسنتهم عرضه ، وينطوي من بساط المشاجرة طوله وعرضه ، ولم يسمع مايضيق به صدره ، ولم ينهتك بين أفاضل الامة ستره ، واذا أبى الا المهارشة والمناقشة ، والمواحشة والمفاحشة ، فليصبر على حز الحلاقم ، ونكز الاراقم ، ونهش الضراغم ، والبلاء المتراكم المتلاطم ، ومتون الصوارم • فوالذي نفسي بيده ما بارز أهل الحق قط قرن الا كسروا قرنه ، فقرع من ندم سنه ، ولا ناحرهم خصم الا بشروه بسوء منقلبه ، وسدوا عليه طريق مذهبه لمهربه ، ولا فاصحهم أحد ــ ولو كان مثل خطباء أياد ــ الا فصحوه وفضحوه ، ولا كافحهم مقاتل ــ ولو كان من بقية قوم عاد ــ الا كبوه على وجهه وبطحوه ، هذا فعلهم مع الكماة الذين وردوا المنايا تبرعا ، وشربوا كؤوسها تطوعا ، وسعوا الى الموت الزؤام سعيا ، وحسبوا طعم الحمام أريا ، والكفاة الذين استحقروا الاقران فلم يهلهم أمر مخوف ، وجالوا في ميادين المناضلة واخترقوا الصفوف ، وتجالدوا لدى المجادلة بقواطع السيوف •

وقد حان أن نشرع بالمقصود ، والذب عن شريعة صاحب المقام المحمود ، والحوض المورود ، اللهم اجعلني أصول بك عند الضرورة ، وأسألك عند الحاجة ، وأتضرع اليك عند المسكنة ، ولا تفتني بالاستعانة بغيرك اذا اضطررت ، ولا بالخضوع لسؤال غيرك اذا افتقرت ، ولا بالتضرع الى من هو دونك اذا رهبت ، فاستحق بذلك خذلانك ومنعك واعراضك ياأرحم الراحمين ، اللهم اجعل مايلقي الشيطان في روعي من التمني والتظني والحسد ذكرا لعظمتك ، وتفكرا في قدرتك ، وتدبيرا على عدوك ، وماأجري على لساني من لفظة فحش أو انتهاك عرض أو شهادة باطل أو اغتياب مؤمن غائب أو سب حاضر وما أشبه ذلك نطقا بالحمد لك ، واعترافا في الثناء عليك ، وذهابا في تمجيدك ، وشكرا لنعمتك ، واعترافا باحسانك ، واحصاء لمننك ، انك مجيب الدعاء •

ولا بد قبل الخوض في ابطال الباطل ، ورد الكلام العاطل ، من معرفة أمور تزيد من علمها بصيرة في التمييز بين الخطأ والصواب ؛ وتعين على الوقوف على الحق من طرق هذا الباب ، ومن الله نستمد التوفيق ، وبيده أزمة التدقيق والتحقيق •

(الأمور التي يجب التنبيه عليها ، والاشارة بيسير العبارة اليها)

الامر الاول : ان الكتب المصنفة في حقائق الدين وما جاء به الرسول صلى الله

عليه وسلم لاتحصى كثرة في كل عصر من الاعصار ، ولا سيما في هذه الازمان الاخيرة، فقد انتشرت الكتب الاسلامية ــ بواسطة صناعة الطبع ــ انتشارا لم يعهد مثله في الاعصر الخالية ، ومع ذلك لم تؤثر في القلوب القاسية شيئا •

فان أمثال النبهاني المعرضين عن الحق المتبعين لأهوائهم كثيرون في الاقطار والبلاد ، ودلائل الحق واضحة جلية ، ولم يلتفتوا اليها ، ولا عرجوا عليها ، وهذا وان اغتر به العوام ، والجهلة الطغام ، فهو لايضر الحق ولا يمس شرف أهله ، فان الاسباب المانعة من قبول الحق كثيرة جدا ، كما ذكر ذلك الحافظ ابن القيم في الهداية •

فمنها الجهل به ، وهذا السبب هو الغالب على أكثر النفوس ، فان من جهل شيئا عاداه وعادى أهله ، فان انضاف الى هذا السبب بغض من أمره بالحق ومعاداته له وحسده كان المانع من قبول الحق أقوى ، فان انضاف الى ذلك ألفه وعادته ومرباه على ما كان عليه آباؤه ومن يحبه ويعظمه قوي المانع ، فان انضاف الى ذلك توهمه أن الحق الذي دعي اليه يحول بينه وبين جاهه وعن شهواته واغراضه قوى المانع من القبول جدا ، فان انضاف الى ذلك خوفه من أصحابه وعشيرته وقومه على نفسه وماله وجاهه كما وقع لهرقل ملك النصارى بالشام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما نرى كثيرا ممن ينتسب الى العلم من أهل المناصب والجرايات ينتسبون الى الطرائق المبتدعة ، ويظهرون ما يروج من العقائد لدى حكومتهم ودولتهم ، ويتجنبون من العقائد السلفية ، واظهار السنن النبوية مع علمهم بحقية حقائقها ، ووقوفهم على دقائقها محافظة على الزخارف الدنيوية ، والسفاسف الدنية ، وأعرف من هؤلاء عددا كثيرا : (اوْلَئِكَ الَّذِيْنَ اشْتَرَوْا الضَّلاٰلَةَ بِالْهُدى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِيْنَ)[1] .

فاذا كان الامر على ماذكر ازداد المانع من قبول الحق قوة ، فان هرقل عرف الحق وهم بالدخول في الاسلام فلم يطاوعه قومه ، وخافهم على نفسه ، واختار الكفر على الاسلام بعدما تبين له الهدى ، وقصته مشهوره •

ومن أعظم هذه الاسباب : الحسد : فانه داء كامن في النفس ، ويرى الحاسد المحسود قد فضل عليه ، وأوتي مالم يؤت نظيره ، فلا يدعه الحسد أن ينقاد له ويكون من اتباعه ، وهل منع ابليس من السجود لآدم الا الحسد ؟! فانه لما رآه قد فضل عليه

(١) سورة البقرة : ١٦

ورفع فوقه : غص بريقه واختار الكفر على الايمان بعد أن كان بين الملائكة .

وهذا الداء هو الذي منع اليهود من الايمان بعيسى ابن مريم ، وقد علموا علما لاشك فيه أنه رسول الله جاء بالبينات والهدى ، فحملهم الحسد على أن اختاروا الكفر على الايمان ، وأطبقوا عليه ، وهم أمة فيهم الاحبار والعلماء والزهاد ، والقضاة والملوك والامراء ، هذا وقد جاء المسيح بحكم التوراة ولم يأت بشريعة تخالفها ولم يقاتلهم وانما أتى بتحليل بعض ما حرم عليهم تخفيفا ورحمة واحسانا ، وجاء مكملا لشريعة التوراة ، ومع هذا فاختاروا كلهم الكفر على الايمان .

فكيف يكون حالهم مع نبي جاء بشريعة مستقلة ناسخة لجميع الشرائع ، مبكتا لهم بقبائحهم ومناديا على فضائحهم ، ومخرجا لهم من ديارهم ، وقد قاتلوه وحاربوه وهو في ذلك كله ينصر عليهم ويظفر بهم ، ويعلو هو وأصحابه ، وهم معه دائما في سفال ؟ فكيف لايملك الحسد والبغي قلوبهم ؟ وأين تقع حالهم معه من حالهم مع المسيح ، وقد أطبقوا على الكفر به من بعد ماتبين لهم الهدى ، وهذا السبب وحده كاف في رد الحق ، فكيف اذا انضاف اليه زوال الرياسات والمآكل كما تقدم ؟! وقد أطنب ابن القيم الكلام ، وأتى بما تعشقه الاسماع والافهام ، وله كلام مفصل يتعلق بهذا الباب ذكره في كتاب (مفتاح دار السعادة) ولعلنا نذكر منه شيئا فيما سيأتي ان شاء الله .

والمقصود : أن لعدم قبول الحق والاذعان له أسبابا كثيرة كلها موجودة في الغلات ، والغالب منها قسوة قلوبهم ، كما أخبر الله تعالى عن اليهود بقوله :

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ، وإِنَّ مِنَ الحجارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنهارُ ، وَإِنَّ مِنهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنهُ المَاءُ وَإِنَّ مِنْها لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)[1] .

وفي (باب فضل من علم وعلم) من كتاب (صحيح الامام البخاري) حدثنا محمد بن العلاء ، قال : حدثنا حماد ابن أسامة ، عن بريد بن عبد الله ، عن أبي بردة، عن أبي موسى ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مثل مابعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير ، أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ

---

(١) البقرة : ٧٤

والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى انما هي قيعان لاتمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه مابعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به) .

قال شارحه الامام الحافظ ابن حجر العسقلاني ـ بعد كلام له ناقلا عن الامام القرطبي وغيره ـ ضرب النبي صلى الله عليه وسلم ما جاء به من الدين مثلا بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم اليه ، وكذا كان حال الناس قبل مبعثه ، فكما أن الغيث يحيي البلد الميت فكذا علوم الدين تحيي القلب الميت ، ثم شبه السامعين له بالارض المختلفة التي ينزل بها الغيث (فمنهم) العالم العامل المعلم فهو بمنزلة الارض الطيبة شربت فانتفعت في نفسها وأنبتت فنفعت غيرها (ومنهم) الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه غير أنه لم يعمل بنوافله ولم يتفقه فيما جمع لكنه أداه لغيره فهو بمنزلة الارض التي يستقر فيها الماء فينتفع الناس به وهو المشار اليه بقوله : (نضر الله امرأ سمع مقالتي فأداها كما سمعها) (ومنهم) من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره فهو بمنزلة الارض السبخة أو الملساء التي لاتقبل الماء أو تفسده على غيرها ، وانما جمع في المثل بين الطائفتين الاوليين المحمودتين لاشتراكهما في الانتفاع بهما ، وأفرد الطائفة الثالثة المذمومة لعدم النفع بها والله أعلم .

قال : ثم ظهر لي أن في كل مثل طائفتين ، فالأول قد أوضحناه ، والثاني : الاولى منه من دخل في الدين ولم يسمع العلم ، أو سمعه فلم يعمل به ولم يعلمه ، ومثالها من الارض السباخ وأشير اليها بقوله صلى الله عليه وسلم : (من لم يرفع بذلك رأسا) أي أعرض عنه فلم ينتفع به ولا نفع ، والثانية منه من لم يدخل في الدين أصلا بل بلغه فكفر به ، ومثالها من الأرض الصماء الملساء المستوية التي يمر عليها الماء فلا تنتفع به ، وأشير اليها بقوله صلى الله عليه وسلم : (ولم يقبل هدى الله الذي جئت به) . وقال الطيبي : بقي من أقسام الناس قسمان : (أحدهما) الذي انتفع بالعلم ولم يعلمه غيره (والثاني) من لم ينتفع به في نفسه وعلمه غيره ، (قلت) والاول داخل في الاول ، لأن النفع حصل في الجملة وان تفاوتت مراتبه ، وكذلك ماتنبت الارض فمنه ماينتفع الناس به ومنه مايصير هشيما ، (وأما الثاني) فان كان عمل الفرائض وأهمل النوافل فقد دخل في الثاني كما قررناه ، وان ترك الفرائض أيضا فهو فاسق لايجوز الاخذ عنه ، ولعله يدخل في عموم من لم يرفع بذلك رأسا

والله أعلم ، انتهى كلام الامام العسقلاني .

والمقصود : أن الحديث قد دل على أن بعض القلوب كالأرض النقية التي قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، كقلوب الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومن تبعهم باحسان .

وبعضها : كالاجادب التي أمسكت الماء ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم : (رب مبلغ أوعى من سامع) .

وبعضها : كالقيعان التي لاتمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، كقلوب كثير من الغلاة وأهل البدع والضلالات ، فانها لايؤثر فيها الهدى والعلم كما أن الارض السبخة لاتمسك ماء ولا تنبت كلأ .

(الأمر الثاني) انه ورد في الحديث المتفق على صحته (انكم لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه) أخبر صلى الله عليه وسلم أنه سيكون في أمته من يحذو حذو الامم السابقة ، وهم جاهلية الكتابيين وغيرهم ، كما فسر في الحديث ، ولا شك أن ما أخبر به صلى الله عليه وسلم كائن لامحالة ، فانه الصادق المصدوق ، وما ينطق عن الهوى ، ومن اليقين أن من استمسك بهديه ، واتبع ماثبت من سننه غير مقصودين بالحديث ، لما ثبت في حديث الفرق أنهم الفرقة الناجية ، وهم من كان على ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كما هو الوارد ، فلا بد أن يكون الذين يحذون حذوهم هم من بدل وغير ، وابتدع وحرف ، وحاكى الذاهبين الاولين في أفعالهم وأعمالهم ، من بناء المشاهد والمساجد على قبور صالحيهم ، وندائهم في المهمات والملمات ، وغير ذلك مما كان يفعله اليهود والنصارى والمشركون ، مما دلت عليه الاحاديث الصحيحة ، وفي الغلاة ومبتدعة أهل القبور من خصال الجاهلين من الكتابيين والمشركين مايصدق به عليهم اتباع سننهم حذو القذة بالقذة ، ونحن نذكر بعض ذلك ليكون كالمثال الموضح لما نحن بصدده .

(فمن خصالهم) أنهم كانوا يتعبدون باشراك الصالحين في عبادة الله تعالى ، ويرون ذلك من تعظيمهم الذي يحبه الله ، ويقصدون به أيضا التقرب والزلفى والفوز بشفاعتهم ، لظنهم أن الصالحين يحبون ذلك منهم ، وقد أخبر القرآن عن هذه الخصلة

قال تعالى : (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّيْنَ أَلا لِلَّهِ الدِّيْنُ الْخَالِصُ وَالَّذِيْنَ اتَّخَذُوْا مِنْ دُوْنِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُوْنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيْهِ يَخْتَلِفُوْنَ)[1] وعبادة المشركين لهم كانت بدعائهم لهم وطلب حاجاتهم منهم والذبح والنذر لهم والحلف بهم وقال تعالى :(وَيَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُوْلُوْنَ هَـؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ)[2] .

وهذه أعظم مسألة خالفهم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتى بالاخلاص وأخبرهم أنه دين الله الذي لايقبل من أحد سواه ، وان من فعل ماستحسنه حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وهذه المسألة هي الدين كله ولأجلها تفرق الناس بين مسلم وكافر ، وعندها وقعت العداوة ، ولأجلها شرع الجهاد ، قال تعالى :(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُوْنَ الدِّيْنُ كُلُّه لِلَّهِ)[3] ، ومن المعلوم أن للغلاة الحظ الوافر من خصلة أسلافهم هذه كما هو المشاهد .

(ومن خصالهم) أن دينهم كان مبنيا على أصول أعظمها التقليد فهو القاعدة الكبرى لجميع من كان قبل ظهور الاسلام من الامم الاولى قال تعالى(وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيْرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُوْنَ . قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُوْنَ)[4] فأمرهم الله تعالى ان يتبعوا الحق فقال :(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُوْنِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيْلاً مَا تَذَكَّرُوْنَ)[5] وقال تعالى : (وَإِذَا قِيْلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوْا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُوْنَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُوْنَ)[6]

---

(١) الزمر : ٢ ، ٣ (٢) يونس : ١٨ (٣) الانفال : ٣٩
(٤) الزخرف : ٢٣ ، ٢٤ (٥) الاعراف : ٣ (٦) البقرة : ١٧٠

الى غير ذلك مما يدل على أن أهل الجاهلية كانوا مقيدين بربقة التقليد لايحكمون لهم رأيا ، ولا يستعملون نظرا ، ولا يشغلون فكرا ، فلذلك تاهوا في أودية الجهالة ، وقضوا أعمارهم في الضلالة ، وهكذا الغلاة وعبدة الاموات قلدوا آباءهم في تلك العادات ، فلا يمكن نقلهم عنها ولو ظهرت الآيات البينات ، ولكم بحثت مع عقلائهم فما زادهم ذلك الا نفورا ، وعتوا على الحق وغرورا ، فطابق بين الفريقين تجد الموافقة ظاهرة لكل ذي عينين •

(ومن خصالهم) الاقتداء بفسقة أهل العلم وجهالهم وعبادهم ، قال تعالى محذرا للمؤمنين أن يحذوا حذوهم : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ)[1] وقال : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)[2] الى آيات أخر تنادي ببطلان الاقتداء بالفسقة والغواة الضالين المضلين •

ومن نظر الى حال النبهاني وأضرابه الصادين عن سبيل الله تجده على ما كان عليه القرون الاولى الجاهليون •

(ومن خصالهم) الاحتجاج بما كان عليه القرون السالفة من غير تحكيم للعقل ولا أخذ بالدليل الصحيح كما دل على ذلك قوله تعالى :(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ. قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ. قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ . قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى • الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى. كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ)[3] وقال تعالى : (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ. وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ

---

(١) التوبة : ٣٤ (٢) المائدة : ٧٧ (٣) طه : ٤٩ ـ ٥٤

الدَّارِ إنهُ لا يُفلِحُ الظَّالِمُونَ)[1] وقال تعالى: (ولَقَدْ أرْسَلْنا نُوحاً إلىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُه أفَلا تَتَّقُونَ. فَقَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِه مَا هٰذا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شاءَ اللهُ لأنْزَلَ مَلائكةً مَا سَمِعْنا بِهٰذا في آبائنا الأوَّلِينَ. إنْ هُوَ إلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ)[2]. وقال تعالى: (وَانْطَلَقَ المَلأُ مِنْهُم أنِ امْشُوا وَاصْبِروا عَلَى آلِهَتِكُمْ إنَّ هٰذا لَشَيءٌ يُرادُ مَا سَمِعْنا بِهٰذا في المِلَّةِ الآخِرَةِ إنْ هٰذا إلاَّ اخْتِلاقٌ)[3].

فهؤلاء الأمم كلهم جعلوا مدار احتجاجهم على عدم قبول ماجاءت به الرسل انه لم يكن عليه أسلافهم، ولا عرفوه منهم، فانظر الى سوء مداركهم، وجمود قرائحهم، ولو كانت لهم قلوب يفقهون بها وآذان يسمعون بها وأعين يبصرون بها لعرفوا الحق بدليله، وانقادوا لليقين من غير تزييفه ولا تعليله، وهكذا أخلافهم ووراثهم، هذا النبهاني لم يفد فيه ماألف من الكتب المفصلة لاثبات الحق وابطال الباطل، ولم يلتفت اليها بسبب مخالفتها لما كان عليه السبكي، وابن حجر المكي.

(ومن خصائصهم) الاعتماد على الكثرة والاحتجاج بالسواد الاعظم وابطال الشيء بسبب قلة أهله فأبطل الله تعالى ذلك بقوله: (وإنْ تُطِعْ أكْثَرَ مَنْ في الأرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إنْ يَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ وإنْ هُمْ إلا يَخْرُصُونَ. إنَّ رَبَّكَ هُوَ أعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ)[4] فالكثرة على خلاف الحق لاتستوجب العدول عن اتباعه لمن كان له بصيرة وقلب، فالحق أحق بالاتباع وان قل أنصاره، كما قال تعالى: (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إلى نِعَاجِهِ وَإنَّ كَثِيراً مِنَ الخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وقَلِيلٌ مَا هُمْ)[5] فأخبر الله سبحانه عن أهل الحق أنهم قليلون

---

(1) القصص: ٣٦، ٣٧ (2) المؤمنون: ٢٣ ــ ٢٥ (3) ص: ٦، ٧
(4) الانعام: ١١٦، ١١٧ (5) ص: ٢٤

غير أن القلة لاتضـرهم وما أحسن قـول القائل :

تعيرنا أنا قليل عديدنا   فقلت لها ان الكرام قليل

(والمقصود) أن من له بصيرة ينظر الى الدليل ، ويأخذ بما يستنتجه البرهان وان قل العارفون به والمنقادون له ، ومن أخذ ما عليه الا كثر وما ألفته العامة ـ كما هو ديدن الغلاة وعادتهم من غير نظر لدليل ـ فهو مخطيء سالك غير سبيل المؤمنـين ، متبع سنن الجاهلية ، مقدوح عند أهل البصائر ، وهذه مكيدة عظيمة للغلاة ، ولذلك ترى النبهاني لم يزل يردد في كتابه هذا القول في تصحيح عقائده ، ويقول : مانحن عليه مذهب الجمهور ، ومقصوده جمهور العوام الذين هم كالانعام •

(ومن خصائصهم) الاستدلال على بطلان الشيء بكونه غريبا ، فرد الله تعالى ذلك بقوله : (فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ اُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ في الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)[1]

ومعنى الآية (فلولا كـان) تحضيض فيه معنى التفجع ، أي فهـلا كان (من القرون) أي الاقوام المقترنة في زمان واحد (من قبلكم الو بقية) أي ذوو خصـلة باقية من الرأي والعقل ، أو ذوو فضل على أن يكون البقيـة اسما للفضل والهـاء للنقل ، ومن هنا يقال : فلان من بقية القوم أي من خيارهم ، ومنه قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا •

(ينهون عن الفساد في الارض) الواقع فيما بينهم حسبما ذكر في قصصهـم ، وفسر الفساد بالكفر وما اقترن به من المعاصي •

(الا قليلا ممن أنجينا منهم) استثناء منقطع أي ولكن قليلا منهم أنجينـاهم لكونهم كانوا ينهون •

والغلاة يقولون : ان كثيرا من الصلحاء وأهل الطرائق يستغيثون بغير اللـه ، ويندبون الصالحين ، وأرواحهم تتصرف في هذا العالم ، والقول بعدم جواز ذلـك غريب جدا لانلتفت اليه ، وأرواح الصالحين تتصرف وتدبر ، والقول المخالف له أيضا نادر شاذ لايلتفت اليه ، وهذا كثيرا مايكرره النبهاني ، ويقول : ان أقوال ابن تيمية

---

(١) هـود : ١١٦

شاذة ونحو ذلك ، فانظر تشابه قلوبهم ، واحمد الله تعالى على السلامة في الدنيا والدين .

(ومن خصالهم) الغلو في الصالحين من العلماء والاولياء ، قال تعالى :(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)[1] فاتخاذ احبار الناس أرباباً يحللون ويحرمون ويتصرفون في الكون وينادون في رفع ضر أو جلب نفع من جاهلية الكتابيين ، ثم سرت الى غيرهم من جاهلية العرب ، ولهم اليوم بقايا في مشارق الارض ومغاربها وهم الغلاة في أهل القبور ، فانك ترى غالب الناس اليوم معرضين عن الله ، وعن دينه الذي ارتضاه ، متوغلين في البدع ، تائهين في أودية الضلال الاشنع ، معادين لكتاب الله والسنة ومن قام بهما ، فأصبح الدين منهم في أنين ، والاسلام في بلاء مبين ، والنبهاني له من ذلك الحظ الوافر ، كما أخبر عنه بذلك من يعرفه وأيدته كتبه . والله المستعان .

(ومن خصالهم) الاعتياض عن شرع الله ووحيه بالخوارق الكاذبة وكتب السحر ، قال تعالى : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا)[2] الآية . والكلام عليها في كتب التفسير مشهور .

---

(١) التوبة : ٣٠ ـ ٣٢ (٢) البقرة : ١٠١ ، ١٠٢

وعلى هذه الخصلة اليوم كثير من الناس ، لاسيما بعض الغلاة المنتسبين الى بعض المشايخ والصالحين ــ وهم بريئون منهم ــ فانهم قد تعاطوا بعض الاعمال السحرية من امساك الحيات وضرب السلاح والدخول في النيران وغير ذلك مما وردت الشريعة بابطاله ، ولم يلتفتوا اليه ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، واتبعوا ماألقته اليهم شياطينهم وادعوا أن ذلك من الكرامات وخوارق العادات ، ومن المعلوم أن الكرامة لاتصدر عن فاسق ومخالف للشريعة ، ومن يتعاطى تلك الاعمال فسقه ظاهر للعيان ، وقدا اتخذوا دينهم لعبا ولهوا ، وليت شعري لم اختصت الكرامة بمسك بعض الحياة والعقارب ، والضرب بسلاح مخصوص ، والضرب بأيديهم ؟! فهلا وقفوا أمام مدفع من المدافع فدلع لسانه عليهم وقرأ سورة الدخان وأطلق كراته على وجوههم لنرى كراماتهم حينئذ أين تبقى ؟! ومن مشايخ النبهاني ــ على ماسمعت ــ من هو أبو هذه الخبائث وأمها ، وسنلم ان شاء الله تعالى على هؤلاء الزائغين مرة بعد أخرى .

(ومن خصالهم) التحريف لكتب الدين، قال تعالى: (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ، فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)[1] .

ومن نظر الى متصوفة زماننا وغلاته وما صرفوه من النصوص الى ماتقتضيه شهواتهم وبدعهم رأى أمراً منكرا ، وهكذا كثير من القضاة والحكام ، وما تلاعبوا به من الأحكام .

ومن خصالهم ، معادات الدين الذي دانوا به ، وموالاتهم للزائغين ، كما فعل اليهود مع النبي صلى الله عليه وسلم لما أتاهم بما أتى به موسى أعرضوا عنه واتبعوا كتب السحر ، وهو من دين آل فرعون ، والغلاة هجروا السنة وعادوها ، ونصروا أقوال شيوخ القرامطة والباطنية وأمثالهم .

(ومن خصالهم) التعصب لباطلهم ، فانهم لما افترقوا خطأ كل فريق منهم

---

(1) البقرة : ٧٨ ، ٧٩ .

الآخرين قال تعالى : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ، وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)[1] . وهكذا تجد الغلاة من أهل الطرائق المبتدعة ، فالرفاعي يقول ليس القادري على شيء ، والقادري يقول ليس الرفاعي على شيء ، وهذا يقول شيخي أخذ زنبيل الارواح من عزرائيل وأعاد كل روح الى جسدها ، وهذا يقول مر شيخي على جهنم فأراد أن يطفيها ببزاقه فحالت الملائكة بينها وبينه !! ومن اتبع العبد روسي يقول :

العبد روسي كان يحيى   من الاموات من قد مات دهرا

وهكذا تجدهم يتضاربون بالاقوال ، ولم يزالوا قائمين على ساق المخاصمة والجدال ، والحازم ينظر الى الدليل فما أداه اليه نظره من الحق أخذ به وترك ماسواه .

(ومن خصالهم) التعبد بما لم يأذن به الله ، قال تعالى :(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ . قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)[2] .

المراد بالفاحشة في الآية عبادة الاصنام ، وكشف العورة في الطواف ونحو ذلك مما كان عليه مشركوا العرب في الجاهلية ، وفي الآية حذف ، أي واذا فعلوا فاحشة فنهوا عنها قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، محتجين بأمرين : تقليد الآباء ، والافتراء على الله .

وكان من سنة الحمس أنهم لايخرجون أيام الموسم الى عرفات انما يقفون بالمزدلفة ، وكانوا لايسلؤون ولا يأتقطون ، ولا يربطون عنزا ولا بقرة ، ولا يغزلون

---

(١) البقرة : ١١٣   (٢) الاعراف : ٢٨ ، ٢٩

صوفا ولا وبرا ، ولا يدخلون بيتا من الشعر والمدر ، وانما يكتنون في القباب الحمر في الاشهر الحرم ، ثم فرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحل اذا دخلوا الحرم ، وأن يتركوا ثياب الحل ويستبدلوها بثياب الحرم ، اما شراء واما عارية ، واما هبة ، فان وجدوا ذلك فبها والا طافوا بالبيت عرايا ، وفرضوا على نساء العرب مثل ذلك ، غير أن المرأة كانت تطوف في درج مفرج القوائم والمآخير ، قالت امرأة وهي تطوف بالبيت :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله
أحثم مثل القعب باد ظله كان حمى خيبر لاتمله

وكلفوا العرب أن يفيضوا من مزدلفة وقد كانوا يفيضون من عرفة ، الى غير ذلك من الامور التي ابتدعوها وشرعوها مما لم يأذن به الله ، وقد فصلت في كتب أحوالهم ، ومع ذلك كانوا يدعون أنهم على شريعة أبيهم ابراهيم عليه السلام •

وقد حذا حذوهم حذو القذة بالقذة غلاة هذه الامة ومتصوفتها ، ترى طائفة منهم قد اتخذوا ضرب المعازف وآلات اللهو عبادة يتعبدون بها في بيوت الله ومساجده ، وطائفة اتخذوا الطواف على قبور الصالحين أعظم طاعة وعبادة وقصدوها في طلب الحاجات ونذروا لها ، ومنهم من ابتدع الرهبانية والحيل الشيطانية ، والمكائد التي لم تهتد اليها النفوس الانسانية ، وزعم أنه سلك سبيل الزهاد ، وطريق العباد ، ومقصده الاعلى نيل شهواته الحيوانية ، والفوز بزخارف هذه الدنيا الدنيه ، الى غير ذلك مما يطول ، ولا يعلم الموحد ماذا يقول •

الى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم

ولبعض أكابر أهل العلم رسالة جمع فيها المسائل التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية ، وهي مايزيد على مائة مسألة ، ولنا عليها شرح مفصل ، وخصالهم كلها صادقة على الغلاة ولا سيما (النبهاني منهم) • وما ذكرناه كاف في التمثيل ، ويتبين منه أنه حذا حذو أسلافه الجاهليين ، نسأله تعالى العافية في الدنيا والدين •

(الامر الثالث) من الامور التي يجب التنبيه عليها والاشارة بصريح العبارة اليها : أن من مكايد الغلاة التشنيع على أهل الحق ودعاة التوحيد من المؤمنين انهم

يكفرون المسلمين ، ومقصودهم من ذلك تنفير القلوب عنهم ، ولذلك يلقبونهم بألقاب مشعرة بالذم ، كالمجسمة والحشوية ، وفي هذه الازمنة يلقبونهم بالوهابية وبالمنكرين ونحو ذلك ، وقد برأهم الله تعالى من كل مالا يرضيه سبحانه ، ومعلوم أن المسلمين من يعتقد عقيدة الاسلام ، وقد فسرت في حديث جبريل المشهور ، فمن كان معتقدا تلك العقيدة كان مسلما ، ولا يخرج عن الاسلام الا اذا أخل بتلك العقيدة ، كأن يعتقد أن مع الله الها آخر يعبده بأي عبادة كانت ، فانها أنواع مختلفة ، فحينئذ يخرج عن الاسلام ، ولا يقال لمن عبد غيره تعالى مسلما ، ولا لمن كفره انه كفر مسلما، ومنه يعلم أمر الغلاة ، وأما أهل البدع فلم يكفرهم أهل الحق •

وقد سئل شيخ الاسلام عن المسائل التي وقع فيها خلاف ونزاع بين أهل السنة والخوارج والروافض فهل يستوجب ذلك التكفير ؟ فانهم كفروا المسلمين وأهل السنة بمخالفتهم فيما ابتدعوه ، وأصلوه ، ووضعوه ، وذهبوا اليه وانتحلوه ، فأجاب الشيخ بقوله : أصل التكفير للمسلمين من الخوارج والروافض الذين يكفرون أئمة المسلمين بما يعتقدون أنهم أخطئوا فيه من الدين ، وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين لايجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض ، بل كل أحد يؤخذ من قوله ويترك الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس كل من يترك قوله لخطأ أخطأه يكفر ولا يفسق ولا يأثم ، فان الله قال في دعاء المؤمنين : (رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنا إنْ نَسِينْا أَوْ أَخْطَأْنا)[1] . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم (أن الله قال قد فعلت) الخ •

وقال رحمه الله في أثناء كلام له في النهي عن التفرق والاختلاف وترك التعصب لمذهب أو قبيلة أو طريقة ، قال : فليس كل من أخطأ يكون كافرا ولا فاسقا ولا عاصيا ، بل قد عفا الله لهذه الامة عن الخطأ والنسيان ، وقد قال تعالى في كتابه في دعاء المؤمنين :(رَبَّنا لا تُؤَاخِذْنا إنْ نَسِينْا أَوْ أَخْطَأْنا)وثبت في الصحيح (أن الله قال قد فعلت) لاسيما وقد يكون من يوافقكم في أخص من الاسلام ، مثل أن يكون مثلكم على مذهب الشافعي ، أو منتسبا الى الشيخ عدى ، ثم بعد هذا قد يخالف في شيء وربما كان الصواب معه ، فكيف يستحل عرضه أو دمه أو ماله مع ما قد ذكر الله من حقوق المسلم والمؤمن ، وكيف يجوز التفريق بين الامة بأسماء مبتدعة لاأصل

(١) البقرة : ٢٨٦

لها في كتاب الله ولا سنة رسوله ، وهذا التفرق الذي حصل بين الامة ـ علمائهـا ومشائخها وأمرائها وكبرائها ـ هو الذي أوجب تسلط الاعـداء عليهم ، وذلـك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله ، كما قال تعالى : (وَمِنَ الَّذِيْنَ قَالُوْا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيْثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظاً مِمَّا ذُكِّرُوْا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ)[1] واذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا ، واذا اجتمعوا صلحوا وملكوا ، فان الجماعة رحمة ، وأن الفرقة عذاب ، وجماع ذلك : الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما قال تعالى : (يا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اتَّقُوْا اللهَ حَقَّ تُقَاتِه) الى قوله: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُوْنَ إِلى الخَيْرِ وَيَأْمُرُوْنَ بِالمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ)[2] فمن الامر بالمعروف الامر بالائتلاف والاجتماع ، والنهي عن الاختلاف والفرقة ، ومن النهي عن المنكر اقامة الحدود على من خرج عن شريعة الله تعالى ، فمن اعتقد في بشر أنه اله أو دعا ميتا أو طلب منه الرزق والنصر والهداية وتوكل عليه وسجد له فانه يستتاب فان تاب والا ضربت عنقه انتهى ، فعلم منه حكم من ابتدع وحكم الغلاة ، فان من اعتقد في بشر أنه اله أو دعا ميتا أو طلب منه الرزق وغير ذلك ليس حكمه حكم المبتدع كما قال ، ولا يشترط في الخروج عن الدين والعياذ بالله أن يكفر المكلف بجميع ماجاء به الرسول ، بل يكفي في الكفر والردة أن يأتي بما يوجب ذلك ولو في بعض الاصول ، وهذا ذكره الفقهاء من أهل كل مذهب ،ومن أراد الوقوف على جزئيات وفروع في الكفر والردة فعليه بما صنف في ذلك (كالاعلام بقواطع الاسلام) وماعقده الفقهاء من أهل كل مذهب في باب حكم المرتد ، فمن نطق بالشهادتين ثم أتى بما يعارضهما فلا تنجيانه .

قال شيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية في الرسالة السنية ـ لما ذكـر حديث الخوارج ومروقهم من الدين وأمره صلى الله عليه وسلم بقتالهم قال ـ فاذا كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفـائه ممن انتسب الى الاسلام من مرق منه ـ مع عبادته العظيمة حتى أمر صلى الله عليه وسلم بقتالهم ـ فليعـلم أن المنتسب الى الاسلام والسنة في هذه الازمان قد يمرق أيضا من الاسلام وذلك بأسباب : منها الغلو

(١) المائدة : ١٤ (٢) آل عمران : ١٠١ ـ ١٠٤

الذي ذمه الله في كتابه حيث قال :(يا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوْا في دِيْنِكُمْ وَلا تَقُوْلُوْا عَلى اللهِ إلاَّ الحَقَّ)[1] ، وعلي بن أبي طالب حرق الغالية من الرافضة فأمر بأخاديد خدت لهم عند باب كندة فقذفوا فيها ، واتفق الصحابة على قتلهم ، لكن ابن عباس كان مذهبه أن يقتلوا بالسيف بلا تحريق ، وهو قول أكثر الصحابة ، وقصتهم معروفة عند العلماء ، وكذلك الغلو في بعض المشايخ ، بل الغلو في علي بن أبي طالب، بل الغلو في المسيح ونحوه ، فكل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعا من الالهية مثل أن يقول ياسيدي فلان انصرني أو أغثني أو ارزقني أو أجبرني أو أنا في حسبك ونحو هذه الاقوال فكل هذا شرك وضلال ، يستتاب صاحبه فان تاب والا قتل ، فان الله انما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده لايجعل معه اله آخر ، والذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل المسيح والملائكة والاصنام لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق وتنزل المطر وتنبت النبات ، انما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم أو صورهم ، ويقولون : مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فبعث الله رسوله ينهى أن يدعي أحد من دونه، لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة ، وقال تعالى :(قُل ادْعُوا الَّذيْنَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُوْنِه فَلا يَمْلِكُوْنَ كَشْفَ الضُّرِ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيْلاً . أُوْلئِكَ الَّذيْنَ يَدْعُوْنَ يَبْتَغُوْنَ إلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ)[2] قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون المسيح وعزيرا والملائكة فأنزل الله هذه الآية ثم ذكر آيات في المعنى انتهى .

والمقصود منه : أنه جعل عباد القبور من شر الخوارج المارقين ؛ فهم شر أصناف الخوارج ، وقد توقف بعض السلف في تكفير الخوارج ، قيل لعلي ، أكفار هم ؟ قال : من الكفر فروا ، وعباد القبور لم يتوقف أحد من أهل العلم ـ الذين يرجع اليهم ـ في كفرهم . غاية ما قالوا : لايقتل حتى يستتاب ، أو لايكفر حتى تقوم عليه الحجة أو نحو هذا الكلام ، والمسلمون لم يكفرهم أحد من أهل العلم ، ولشيخ الاسلام نصوص أخر في هذا المعنى ننقلها تتميما للفائدة : ـ

قال رحمه الله في كتاب الاستغاثة الذي رد به على ابن البكري : ان أهل العلم والسنة لايكفرون من خالفهم وان كان ذلك المخالف يكفرهم ، لأن الكفر حكم

---

(١) النساء : ١٧١ (٢) الاسراء : ٥٦ ، ٥٧

شرعي ، فليس للانسان أن يعاقب بمثله ، كمن كذب عليك وزنى بأهلك ليس لك أن تكذب عليه وتزني بأهله ، لأن الكذب والزنا حرام لحق الله تعالى ، وكذلك التكفير حق الله تعالى فلا يكفر الا من كفره الله ورسوله • وأيضا فان تكفير الشخص المعين وجواز قتله موقوف على أن تبلغه الحجة النبوية التي يكفر من خالفها ، والا فليس كل من جهل شيئا من الدين يكفر •

ولما استحل طائفة من الصحابة والتابعين كقدامة بن مظعون وأصحابه شرب الخمر — وظنوا أنها تباح لمن عمل صالحا على مافهموه من آية المائدة — اتفق علماء الصحابة كعمر وعلي وغيرهما على أنهم يستتابون ، فان أصروا على الاستحلال كفروا ، وان أقروا به جلدوا ، فلم يكفروهم بالاستحلال ابتداء لأجل الشبهة التي عرضت لهم حتى يتبين لهم الحق ، فاذا أصروا على الجحود كفروا ، وقد ثبت في الصحيحين حديث الذي قال لأهله : (اذا أنا مت فاسحقوني ثم ذروني في اليم ، فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذابا ماعذبه أحدا من العالمين) فأمر الله سبحانه البر فرد ماأخذ منه ، وأمر البحر فرد ماأخذ منه ، وقال ماحملك على مافعلت ؟ قال خشيتك يارب ، فغفر له) فهذا اعتقد أنه اذا فعل ذلك لايقدر الله على اعادته وأنه لايعيده أو جوز ذلك ، وكلاهما كفر ، لكن كان جاهلا لم يتبين له الحق بيانا يكفر بمخالفته فغفر الله له ، ولهذا كنت أقول للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أن الله تعالى فوق العرش — لما وقعت محنتهم — أنا لو وافقتكم كنت كافرا لأني أعلم أن قولكم كفر ، وأنتم عندي لاتكفرون لأنكم جهال ، وكان هذا خطابا لعلمائهم وفضلائهم ، وشيوخهم وأمرائهم ، وأصل جهلهم شبهات عقلية حصلت لرؤوسهم من قصور في معرفة المنقول الصحيح والمعقول الصريح الموافق له ، وكان هذا خطابنا ، فلذا لم نقابل جهله وافتراءه بالتكفير بمثله ، كما لو شهد شخص بالزور على شخص ، أو قذفه بالفاحشة كذبا عليه لم يكن له أن يشهد عليه بالزور ، ولا أن يقذفه بالفاحشة انتهى المقصود منه •

وقال في موضع آخر من هذا الكتاب : اذا خاض هذا — يعني ابن البكري — في مسألة لم يسبقه اليها عالم ، ولا معه فيها نقل عن أحد ، ولا هي من مسائل النزاع بين العلماء فيختار أحد القولين ، بل هجم فيها على مايخالف دين الاسلام المعلوم بالضرورة عن الرسول ، فأنا بعد معرفة ماجاء به الرسول نعلم بالضرورة أنه لم يشرع لأمته أن يدعوا أحدا من الاموات ، لا الانبياء ولا الصالحين ولا غيرهم ، لا بلفظ

الاستغاثة ولا بغيرها ، ولا بلفظ الاستعاذة ولا بغيرها ، كما أنه لم يشرع لأمته السجود لأحد لا لحي ولا الى ميت ونحو ذلك ، بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الامور، وان ذلك من الشرك الذي حرمه الله ورسوله •

لكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يتبين لهم ما جاء به الرسول مما يخالفه ، ولهذا مابينت هذه المسألة قط لمن يعرف أصل الاسلام إلا تفطن وقال هذا أصل دين الاسلام •

وكان بعض الاكابر من الشيوخ العارفين من أصحابنا يقول : هذا أعظم مابينته لنا ، لعلمه بأن هذا أصل الدين ، وكان هذا وأمثاله في ناحية أخرى يدعون الاموات ويسألونهم ، ويستجيرون بهم ويتضرعون اليهم ، وربما كان مايفعلونه بالاموات أعظم ، لأنهم انما يقصدون الميت في ضرورة نزلت بهم فيدعونه دعاء المضطر ، راجين قضاء حاجتهم بدعائه أو الدعاء به أو الدعاء عند قبره ، بخلاف عبادتهم لله ودعائهم اياه فانهم يفعلونه في كثير من الاوقات على وجه العادة والتكلف انتهى •

(ماذكره شيخ الاسلام في الرسالة الماردينية مما يتعلق بالمقصود)

قد ذكر رحمه الله في فصل حكم الصلاة خلف أهل الاهواء كلاما مفصلا يوضح هذه المسألة ويكشف حجاب تلك المعضلة ، فأحببت نقله حرصا على اقتناء فوائده وان طال الكلام •

(قال رحمه الله) وأما الصلاة خلف أهل الاهواء والبدع وخلف أهل الفجور : ففيه نزاع مشهور ، وتفصيل ليس هذا موضع بسطه ، لكن أوسط الاقوال في هؤلاء أن تقديم الواحد من هؤلاء في الامامة لايجوز مع القدرة على ذلك ، فان كان مظهرا للفجور أو البدع وجب الانكار عليه ونهيه عن ذلك ، وأقل مراتب الانكار هجره لينتهي عن فجوره وبدعته •

ولهذا فرق جمهور الأئمة بين الداعية وغير الداعية ، فان الداعية أظهر المنكر فاستحق الانكار عليه ، بخلاف الساكت فانه بمنزلة من أسر الذنب ، فهذا لاينكر عليه في الظاهر ، فان الخطيئة اذا خفيت لم تضر الا صاحبها ، ولكن اذا أعلنت فلم تنكر ضرت العامة ، ولهذا كان المنافقون يقبل منهم علانيتهم وتوكل سرائرهم الى الله بخلاف من أظهر الكفر ، فاذا كان داعية منع من ولايته وامامته وشهادته وروايته لما في ذلك من النهي عن المنكر لا لأجل فساد الصلاة أو اتهامه في شهادته وروايته ،

فاذا أمكن الانسان أن لايقدم مظهرا للمنكر في الامامة وجب ذلك ، لكن اذا ولاه غيره ولم يمكنه صرفه أو كان هو لايتمكن من صرفه الا بشر أعظم ضررا من ضرر ماأظهره من المنكر فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير ، ولا دفع أخف الضررين بحصول أعظم الضررين ؛ فان الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الامكان ، ومطلوبها بترجيح خير الخيرين اذا لم يجتمعا جميعا ، ودفع شر الشرين اذا لم يندفعا جميعا ، فاذا لم يمكن منع المظهر للبدعة والفجور الا بضرر زائد على ضرر امامته لم يجز ذلك ، بل يصلى خلفه مالا يمكن فعله الا خلفه كالجمع والاعياد والجماعة اذا لم يكن هناك امام غيره .

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يصلون خلف الحجاج والمختار ابن أبي عبيد وغيرهما الجمعة والجماعة ، فان تفويت الجمعة والجماعة أعظم فسادا من الاقتداء بامام فاجر ، لاسيما اذا كان التخلف عنها لايرفع فجوره فيبقى ترك المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة ، ولهذا كان التاركون للجماعات والجمعات خلف أئمة الجور مطلقا معدودين عند السلف والائمة من أهل البدع ، وأما اذا أمكن فعل الجمعة والجماعات خلف البر فهو أولى من فعلها خلف الفاجر .

وحينئذ فاذا صلى خلف الفاجر من غير عذر فهو موضع اجتهاد للعلماء ، منهم من قال يعيد لأنه فعل مالا يشرع له بحيث ترك مايجب عليه من الانكار بصلاته خلف هذا ، فكانت صلاته منهيا عنها فيعيدها ، ومنهم من قال لايعيد ، قال لأن الصلاة في نفسها صحيحة ، وما ذكر من ترك الانكار هو أمر منفصل عن الصلاة وهو يشبه البيع بعد نداء الجمعة ، وأما اذا لم يمكنه الصلاة الا خلفه كالجمعة فهنا لاتعاد الصلاة ، واعادتها من فعل أهل البدع ، وقد ظن طائفة من الفقهاء أنه اذا قيل إن الصلاة خلف الفاسق لاتصح أعيدت الجمعة خلفه والا لم تعد وليس كذلك ، بل النزاع في الاعادة حيث نهى الرجل عن الصلاة ، فاما اذا أمر بالصلاة خلفه فالصحيح هنا أنه لا اعادة عليه لما تقدم من أن العبد لم يؤمر بالصلاة مرتين ، وأما الصلاة خلف من يكفر ببدعته من أهل الاهواء فهناك قد تنازعوا في نفس صلاة الجمعة خلفه ، ومن قال إنه يكفر أمر بالاعادة ، لأنها صلاة خلف كافر ، لكن هذه المسألة متعلقة بتكفير أهل الاهواء ، والناس مضطربون في هذه المسألة ، وقد حكى عن مالك فيها روايتان ، وعن الشافعي فيها قولان ، وعن الامام أحمد أيضا فيها روايتان ، وكذلك أهل الكلام قد ذكروا للأشعري فيها قولين ، وغالب مذاهب الأئمة فيها تفصيل .

وحقيقة الامر في ذلك : أن القول قد يكون كفرا فيطلق القول بتكفير صاحبه ، ويقال من قال كذا فهو كافر ، لكن الشخص المعين الذي قال لايحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها ، وهذا كما في نصوص الوعيد ، فان الله تعالى يقول : (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَموالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ في بُطُونِهِم نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيْرا)[1] . فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق ، لكن الشخص المعين لايشهد عليه بالوعيد ، فلا يشهد على معين من أهل القبلة بالنار ، لجواز أن لايلحقه الوعيد لفوات شرط أو ثبوت مانع ، فقد لايكون التحريم بلغه ، وقد يتوب من فعل المحرم ، وقد تكون له حسنات عظيمة تمحوا عقوبة ذلك المحرم ، وقد يبتلى بمصائب تكفر عنه ، وقد يشفع فيه شفيع مطاع ، وهكذا الاقوال التي يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق ، وقد يكون بلغته ولم تثبت عنده أو لم يتمكن من فهمها ، وقد يكون عرضت له شبهات يعذره الله بها فمن كان من المؤمنين مجتهدا في طلب الحق وأخطأ فان الله يغفر له خطأه كائنا ما كان ، سواء كان في المسائل النظرية والعلمية ، أو المسائل الفروعية العملية ، هذا الذي عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وجماهير أئمة الاسلام .

وأما التفريق بين نوع وتسمية مسائل الأصول ، ونوع آخر وتسميته مسائل الفروع : فهذا الفرق ليس له أصل لا عن الصحابة ولا عن التابعين لهم باحسان ولا أئمة الاسلام ، وانما هو مأخوذ من المعتزلة وأمثالهم من أهل البدع ، وعنهم تلقاه من ذكره من الفقهاء في كتبهم وهو تفريق متناقض . فانه يقال لمن فرق بين النوعين ماحد مسائل الاصول التي يكفر المخطيء فيها ؟ وما الفاصل بينها وبين مسائل الفروع ؟ فان قال : مسائل الاصول هي مسائل الاعتقاد والفروع مسائل العمل ، قيل له : فتنازع الناس في محمد صلى الله عليه وسلم هل رأى ربه أم لا ، وفي أن عثمان أفضل من علي أم علي أفضل ، وفي كثير من معاني القرآن ، وتصحيح بعض الاحاديث : هي من المسائل الاعتقادية لا العملية ولا كفر فيها بالاتفاق ، ووجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وتحريم الفواحش والخمر : هي مسائل علمية والمنكر لها يكفر بالاتفاق ، وان قال : الاصول هي الاصول القطعية ، قيل له : كثير من مسائل العمل قطعية ، وكثير من مسائل النظر ليست قطعية ، وكون المسألة قطعية أو ظنية هو من

---

(١) النساء : ١٠

الامور الاضافية ، وقد تكون المسألة عند رجل قطعية لظهور الدليل القاطع له ، كمن يسمع النص من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتيقن مراده منه ــ وعند غيره لاتكون ظنية فضلا عن أن تكون قطعية ، لعدم بلوغ النص اياه ، أو لعدم ثبوته عنده ، أو لعدم تمكنه من العلم بدلالته (١) ثم ذكر حديث الذي قال لأهله اذا أنا مت فأحرقوني الخ •• الى أن قال : وهذه المسائل مبسوطة في غير هذا الموضع ، لكن المقصود هنا : أن مذاهب الأئمة مبنية على هذا التفصيل بين النوع والعين ، ولهذا حكى طائفة عنهم الخلاف في ذلك ولم يفهموا غور قولهم ، فطائفة تحكى عن أحمد في تكفير أهل البدع روايتين مطلقا حتى تجعل الخلاف في تكفير المرجئة والشيعة المفضلة لعلي ، وربما رجحت التكفير والتخليد ، وليس هذا مذهب أحمد ولا غيره من أئمة الاسلام ، بل لايختلف قوله انه لايكفر المرجئة الذين يقولون الايمان قول بلا عمل ، ولا يكفر من يفضل عليا على عثمان ، بل ونصوصه صريحة بالامتناع من تكفير الخوارج والقدرية وغيرهم ، وانما كان يكفر الجهمية المنكرين لأسماء الله وصفاته ، لأن مناقضة أقوالهم لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ظاهرة بينة ، ولأن حقيقة قولهم تعطيل الخالق ، وقد ابتلى بهم حتى عرف حقيقة أمرهم وأنه يدور على التعطيل ، وتكفير الجهمية مشهور عن السلف والأئمة ، لكن ما كان يكفر أعيانهم ، فان الذي يدعو الى القول أعظم من الذي يقوله ، والذي يعاقب مخالفه أعظم من الذي يعاقبه(٢) ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الامور يقولون بقول الجهمية أن القرآن مخلوق وأن الله لايرى في الآخرة وغير ذلك ، ويدعون الناس الى ذلك ، ويمتحنونهم ويعاقبونهم اذا لم يجيبوهم ، ويكفرون من لم يجبهم ، حتى أنهم كانوا اذا افتكوا الاسير لايطلقونه حتى يقر بقول الجهمية أن القرآن مخلوق وغير ذلك ، ولا يولون متوليا ولا يعطون رزقا من بيت المال الا لمن يقول ذلك ، ومع هذا فالامام أحمد رضي الله عنه ترحم عليهم واستغفر لهم ، لعلمه بأنه لم يتبين لهم أنهم مكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم ولا جاحدون لما جاء به ، لكن تأولوا فأخطأوا وقلدوا من قال لهم ذلك ، وكذلك

---

(١) نص ماقاله : وقد ثبت فى الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم (حديث الذي قال لاهله اذا أنا مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم اذروني فى اليم ، فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذابا ماعذبه أحدا من العالمين ، فأمر الله البر برد ماأخذ منه ، والبحر برد ماأخذ منه ، وقال : ماحملك على ماصنعت ؟ قال خشيتك يارب ، فغفر الله له) فهذا ظاهره شك فى قدرة الله تعالى فى المعاد ، بل ظن أنه لايعود ، وأنه لايقدر الله تعالى عليه اذا فعل ذلك وغفر الله له ، وهذه المسائل الخ ...

(٢) نص هذه الجملة فى بعض نسخ الماردينية هو : والذي يعاقب مخالفه أعظم من الذي يدعو فقط ، والذي يكفر مخالفه أعظم من الذي يعاقبه .

الشافعي لما قال لحفص الفرد حين قال القرآن مخلوق كفرت بالله العظيم بين أن هذا القول كفر ولم يحكم بردة حفص بمجرد ذلك ، لأنه لم يتبين له بعد الحجة التي يكفر بها ، ولو اعتقد أنه مرتد لسعى في قتله ، وقد صرح في كتبه بقبول شهادة أهل الاهواء والصلاة خلفهم ، وكذلك قال مالك والشافعي وأحمد في القدري أن جحد علم الله كفر ، ولفظ بعضهم ناظروا القدرية بالعلم فان أقروا به خصموا وان جحدوا كفروا ، وسئل أحمد رحمه الله عن القدري هل يكفر ؟ قال : ان جحد العلم كفر ، وحينئذ فجاحد العلم هو من جنس الجهمية ، وأما قتل الداعية الى البدع فقد يقتل لكف ضرره عن الناس كما يقتل المحارب وان لم يكن في نفس الامر كافرا ، فليس كل من أمر بقتله يكون قتله لردته ، وعلى هذا قتل غيلان القدري وغيره قد يكون على هذا الوجه ، وهذه المسائل مبسوطة في غير هذا الموضع وانما نبهنا عليها تنبيها ، انتهى كلام شيخ الاسلام رحمه الله .

والذي تحصل مما سقناه من النصوص : أن الغلاة ودعاة غير الله وعبدة القبور اذا كانوا جهلة بحكم ما هم عليه ولم يكن أحد من أهل العلم قد نبههم على خطئهم فليس لأحد أن يكفرهم .

وأما من قامت عليه الحجة وأصر على ماعنده واستكبر استكبارا أو تمكن من العلم فلم يتعلم فسنذكر حكمه في الآتي .

(والمقصود) أن من تمسك من المسلمين بما كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من المعتقد والدين الذي خالفوا به أهل البدع وباينوهم فلم يذهبوا الى ماذهبت اليه الجهمية المعطلة ولا الى ماذهبت اليه القدرية النفاة والقدرية المجبرة ولا الى ماذهبت اليه الخوارج والمعتزلة ولا الى ماذهبت اليه الرافضة والمرجئة ولم يذهبوا الى ماافتراه الغلاة في الاولياء والصالحين من عباد القبور ونحوهم فان هؤلاء لايسمون عند أهل السنة والجماعة غالية كما سموا به من غلا في علي وزعم أنه الاله الحق فاستتابهم علي فأبوا فخدلهم الاخاديد وأوقد فيها النيران وقذفهم فيها ، وقال :

انى اذا رأيت أمرا منكرا   أججت ناري ودعوت قنبرا

وفي رواية لما رأيت الامر أمرا منكرا الخ .. فهؤلاء هم المسلمون الذين لايكفرون ، وتسمية من عبد غير الله مسلما فهو الى أن يعالج عقله أحوج منه الى أن يقام عليه الدليل .

(الامر الرابع) من الامور التي يجب التنبيه عليها : ان من مكايد الغلاة التي كادوا بها العوام أنهم يقولون : ان الاستغاثة بالاموات وندائهم في المهمات وشد الرحال لزيارة قبورهم وتقديم قرابينهم اليها ونذورهم (١) هو من علامات محبتهم ، والتقرب بقربتهم ، ومن أنكر ذلك وأبى ماهنالك ونهى عن زخرفتها وايقاد السرج عليها وبناء المساجد عليها وقصد أهلها في طلب الحاجات والالتجاء اليها في المهمات فهو من المبغضين للصالحين ، والمنكرين لكرامات الاولياء والصديقين ، الى غير ذلك من أقوالهم المناسبة لضلالهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، فان من أنكر مثل تلك البدع والضلالات هم المحبون لهم ، والمحافظون على هديهم وطريقتهم ، وأما هؤلاء الغلاة وأعداء الهداة فقد أفسدوا الدين ، وسدوا طريق الموحدين ، يعرف ذلك من وقف على أحوالهم ، وما قالوه في الاسلام وما بدلوه من الدين ، وما عليه أهل البوادي اليوم والاعراب من الكفر بآيات الله ورد أحكام القرآن والاستهزاء بذلك، والرجوع الى سوالف البادية وما كانت عليه من العادات والاحكام الجاهلية ، وأمثلهم حالا من عرف أن كتاب الله وأحاديث رسوله عند أهل البلاد فلم يرفع بذلك رأسا ، ولم يبال بشيء مما هنالك أو هو جاهل بما جاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب ، لاشعور له بشيء من ذلك ، ولا يدري ما الناس من أمر دينهم •

وغالب أهل المدن منهمكون في اللذائذ والشهوات ، قد أعرضوا عن الشريعة وما ورد فيها من الاوامر والنواهي ، ولم يلتفتوا الى مافي كتب الفقه من الاحكام ، وظنوا أن سيئاتهم تغفر بنذورهم الى القبور ونداء أهلها والاستغاثة بهم ، وان من منعهم من دعاء الانبياء والصالحين ، والاستعانة بهم ، والاستغاثة في الشدائد والمهمات وأنهم لايدعون مع الله في الحاجات والملمات ولا يذبح لهم تقربا ، ولا يطاف بقبورهم ولا يتوكل عليهم ــ فقد استخف بهم وتنقصهم وهضمهم حقهم •

وأصل هذا أنهم لايفرقون بين حق الله وحق عباده ، ولا تمييز عندهم في ذلك ، بل يرون استحقاقهم كثيرا من العبادات المختصة بالله ، وهذا يشبه غلو النصارى في المسيح وغيره ، وقد قالوا لمن أنكر عليهم عبادة المسيح قد تنقصت المسيح وقلت فيه قولا عظيما ، كما قال عمرو ابن العاص وأصحابه للنجاشي ــ لما قدموا عليه بعد الهجرة الاولى الى الحبشة وسألوه أن يخلي بينهم وبين المهاجرين عنده جعفر بن أبي طالب وأصحابه وأبى ذلك النجاشي فقال عمرو ــ انهم يقولون في المسيح قولا عظيما

---

(١) كذا فى الاصل ولعل المراد : وتقديم القرابين اليها والنذور لها .. الخ

يعني يقولون هو عبد ليس بإله ، فأرسل النجاشي لجعفر وأصحابه وسألهم عن ذلك ، فقالوا : نقول فيه ما قال الله تعالى ، وتلا جعفر صدر سورة مريم حتى أتى على ذكر المسيح وشأنه ، فقال النجاشي : والله مازاد المسيح على هذا .

وبالجملة فمن عرف ما جاءت به الرسل من وجوب توحيد الله وافراده بالعبادة وتبين له أن المنع من دعائهم وقصدهم من دون الله في الحاجات والملمات هو عين تعظيمهم ، وتوقيرهم ، وتعزيرهم ، والايمان بهم وتصديقهم ، وقبول ما جاؤا به ، ومنابذة أعدائهم وأضدادهم من المشركين على اختلاف أجناسهم وتباين مللهم ، فان أصل النزاع بينهم وبين أعدائهم في عبادة الله وحده والبراءة من عبادة ماسواه ، ولا يحصل ولا يتصور الايمان بهم الا باعتقاد هذا وموافقتهم عليه ، وأما مخالفتهم فيه ومعصيتهم فهي عين التنقص والاستخفاف بهم ، ومن عرف هذا عرف أن أهل الحق والايمان من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قيام الساعة هم المعظمون للرسل ، الموقرون لهم ، العارفون بحقوقهم ، القائمون بما يجب لله ، وما يجب لعباده من الحقوق ، لا أهل الشرك بهم والمعصية لهم ، ونبذ أوامرهم وترك ماجاءوا به وهجره وعزله عن الحكم به ، وتقديم منطق اليونان في باب معرفة الله وصفاته ، وتقديم آراء الرجال وحدسهم على النصوص والاحاديث الصريحة ، وتقديم غلو النصارى ورأيهم في عبادة الاحبار والرهبان على ماجاء به من تجريد التوحيد واخلاص الدين لله ، هذا هو حقيقة الاستخفاف عند كافة العقلاء ، وأما طاعة الرسول في اخلاص الدين لله ، وترك دعاء الانبياء والصالحين فهو عين التعظيم والتوقير ، ولذلك قال عز من قائل : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)[1] فظهر أن كيدهم جعله الله في نحرهم ، وتبين أنهم قوم لايعقلون .

فنسألك اللهم أن تخلع من أعداء الحق وثائق قلوبهم وأفئدتهم ، وأن تباعد بينهم وبين أزودتهم ، وأن تحيرهم في سبلهم ، وأن تضللهم عن وجههم ، وأن تقطع المدد عنهم ، وأن تنقص منهم العدد ، وأن تملأ أفئدتهم بالرعب ، وتقبض أيديهم عن البسط ، وتحرم ألسنتهم عن النطق ، وتشرد بهم من خلفهم ، وتنكل بهم من وراءهم، وتقطع بحربهم أطماع من بعدهم ، اللهم عقم أرحام نساءهم ، وييس أصلاب رجالهم واقطع نسل دوابهم وأنعامهم ، اللهم لا تأذن لسمائهم في قطر ولا لأرضهم في نبات .

---

(١) آل عمران : ٣١

(الأمر الخامس) ان كثيرا ممن يظهر عقيدة الغلاة وينتصر لهم ويصوب رأيهم ـ في جواز نداء الصالحين ودعائهم ، والالتجاء اليهم والاستغاثة بهم ، وقصدهم بالنذور وبكل زور ، مما استباحوه من الاعمال والاقوال المناقضة لما جاءت به الاديان التي شرعها ذو الجلال والملك المتعال ـ هم زنادقة لايعترفون بأن للعالم إلها خالقا مدبرا للكائنات علويها وسفليها منكرين للكتب الالهية وما اشتملت عليه من الاحكام نافين للمعاد وليوم التناد ، ويقولون لا حساب ولا كتاب ولا جنة ولا نار ، ولا آخرة ولا دار قرار ، ومقصودهم من الانتصار للغلاة وأهل الطرائق المبتدعة وما اشتملت عليه من المنكرات وما لم يأذن به الله من العبادات : ستر عوارهم بباطل انتصارهم ، والتوصل الى شتم أهل الحق وحماة الدين ، واغاظة من خاصمهم على باطلهم من الموحدين ، وقد سمعت أن بعض الاوغاد من زنادقة بغداد ألفوا كتابا سموه الفجر الصادق ، وكان الحري أن يسموه بأقوال المارق ، قد اشتمل على تصحيح أقوال المبتدعة وضلالات الغلاة ، ومخازي آراء الغواة ، معاداة للرادين على أقوالهم ، والمظهرين لأحوالهم والكاشفين حجب جهلهم وضلالهم ، وتوصلا الى شتم من عاداهم من أهل الحق لزيغهم ، ومراغمة لمن جرد عليهم صوارم براهين رد باطلهم ، وهم من مشاهير زنادقة بغداد ، مربع (١) الزور والفساد ، قد أنكروا المعبود واليوم الموعود وجحدوا ارسال الرسل والانبياء ، وما اشتملت عليه الكتب الالهية من الاحكام ، والانباء ، فليس لهم من الاسلام الا اسمه ، ولا من الدين الا زي منتحله ورسمه ، وكيدهم لايفيدهم ، وحالهم معلوم لدى العموم •

ومهما تكن عند امريء من خليقة   وان خالها تخفى على الناس تعلم

وقد ذكر المفسرون عند الكلام على قوله تعالى : (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)(٢) . ان المنافق اسم اسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به ، وهو الذي يستر كفره ويظهر ايمانه ، وان كان أصله في اللغة معروفا ، يقال : نافق ينافق منافقة ونفاقا ، وهو مأخوذ من النافقاء ، وهي احدى حجر اليربوع وهي التي يدخل منها ، وليس مأخوذا من النفق وهو السرب الذي يستتر فيه لستره كفره ، وكان المنافقون يأتون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشهدون شهادة مؤكدة أنه

---

(١) أي : مكان ومقر .

(٢) المنافقون : ١

رسول الله ، فشهد الله عليهم أنهم كاذبون ، ومن أصدق من الله قليلا ؟ أفلا ينبغي أن يصدق بأقوالهم ، وقد عدد الله تعالى قبائحهم ، وهي موجودة في منافقي بغداد وزنادقة العراق ، فمنها أن من عادتهم الاستجنان بالايمان الكاذبة كما استجنوا بالشهادة الكاذبة ، أي اتخذوا حلفهم بالله أنهم لمنكم جنة عن القتل أو السبي أو نحوهما مما يعامل به الكفار ، ومن هنا أخذ الشاعر قوله : ـ

وما انتسبوا الى الاسلام الا لصون دمائهم أن لا تسالا

وقد أخبر سبحانه عن صفتهم وشأنهم فقال :(وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم)[1] لصباحتها وتناسب أعضائها (وإن يقولوا تسمع لقولهم)[1] لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم ، وهكذا أولئك المنافقون يعجب الناس من هياكلهم ويسمعون لكلامهم ، أي ماهم الا أجرام خالية من الايمان والخير ، كالخشب منصوبة مسندة الى الحائط في كونها أشباحا خالية عن الفائدة ، أو كأنهم أصنام منحوتة من خشب مسندة الى الحيطان ، شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم ، وفي مثلهم قال الشاعر : ـ

لايخدعنك اللحى ولا الصور تسعة أعشار من ترى بقر
تراهم كالسحاب منتشرا وليس فيها لطالب مطر
في شجر السرو منهم شبه له رواء وما له ثمر

ثم ان الله تعالى زادهم ايضاحا فقال : (يحسبون كل صيحة عليهم)[1] أي متى سمعوا صياحا بأي وجه كان طارت عقولهم ، وظنوا ذلك ايقاعا بهم ، كما قال جرير يخاطب الاخطل :

مازلت تحسب كل شيء بعدهم خيلا تكر عليهم ورجالا

وقال المتنبي :

وضاقت الارض حتى ظن هاربهم اذا رأى غير شيء ظنه رجلا

ثم استأنف سبحانه الكلام عنهم لبيان مايجب من معاملتهم فقال : (هم العدو) أي هم الكاملون في العداوة والراسخون فيها ، فان أعدى الاعادي العدو المداجي ، الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوي ، ككثير من أبناء الزمان (فاحذرهم)

---

(١) المنافقون : ٤

لكونهم أعدى الاعادي ولا تغترن بظاهرهم •

فلا تقنع بأول ماتراه فأول طالع فجر كذوب

(قاتلهم الله) أي لعنهم وطردهم فان القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائعها ، وكذلك الطرد عن رحمة الله تعالى والبعد عن جنابه الاقدس منتهى عذابه عز وجل ، وغاية نكاله جل وعلا ، والسورة من أولها الى آخرها في بيان أحوال المنافقين وذكر أحكامهم ، والمقصود : أن كثيرا من الزنادقة والمنافقين ــ ومنهم من سبق ذكرهم ــ يظهرون مايظهره الغلاة ، وأولئك الزائغون الغواة ، لمزيد حبهم للدنيا وخوفهم على مناصبهم ومراتبهم ، وهم لا دين لهم ولا ايمان ، ولا صلاة ولا زكاة ، ولا حج ولا صيام ، وهم كل وقت على وجل يحسبون كل صيحة عليهم ، فلا يلتفت الى هذيانهم ، وضلالهم وبطلانهم ، فما أشبه كلامهم بطنين ذباب ، أو صرير باب ، أو نبح كلاب ، (قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)[1] .

وقد تسلب الايام حالات أهلها وتعدو على أسد الرجال الثعالب

(الامر السادس من تلك الامور) أن الغلاة وعبدة القبور وسالكي الطرق المبتدعة يكيدون الجهلة والعوام بمكائد كثيرة : منها ماسبق ، ومنها : أنهم يقولون لهم أن المخالفين لنا لم تزل تصيبهم نكبات الدنيا ومصائبها بخلاف من سلك مسلكنا، فانا ممتعون منعمون بنعم الدنيا ومناصبها الرفيعة ، ومراتبها العالية ، والقرب من أولياء الامور ، انظروا الى فلان وفلان وفلان ويعددون لهم كثيرا من كلاب الدنيا الدنية ، ويقولون لهم : ثم انظروا الى مخالفينا كابن تيمية وأضرابه ، ويذكرون لهم ماحل بهم من المخالفين ، ومثل هذا الكيد كثيرا مايكرره النبهاني في كتابه شواهد الحق الذي تصدينا لرده ، ويقول مرة بعد أخرى أن ابن تيمية شق العصا ، وشوش عقائد المسلمين بسبب مااختاره من عدم جواز دعاء غير الله والالتجاء الى ماسواه ونحو ذلك ، وان الله لم يبارك في كتبه فلم ينتفع بها أحد من المسلمين لقوله بذلك ، وان العلماء اتفقوا على حبسه الحبس الطويل ، فحبسه حاكم مصر يومئذ ومنعه من الكتابة في الحبس ، وان لايدخل عليه بدوات ، ومات في الحبس ، ونحو من ذلك الهذيان ، وهكذا قال ابن حجر في الجوهر المنظم وفي فتاواه ، وهكذا السبكي في بعض كتبه •

---

(١) الانعام : ٩١

واعلم أن من له نظر وبصيرة لايلتفت الى مثل هذا الهذيان من هذا الكلام الذي يشبه كلام الصبيان ، بل ينظر الى الدليل والبرهان ، وما أصاب ابن تيمية وأضرابه من أهل الحق فله أسوة بسادات أهل الدين والانبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، ولو بسطنا الكلام على ماجرى عليهم وما جرى على أكابر المجتهدين وأهل العلم لما وسعه سفر كبير ، ولم يختص بذلك عصر ، بل هكذا جميع الاعصار •

ان الرياح اذا اشتدت عواصفها فليس ترمي سوى العالي من الشجر

قال العلامة الشيخ شهاب الدين أحمد بن علي الدلجي — وكان من أكابر حفاظ عصره ومحدثيهم ، وأعلمهم بعقائد السلف وعلومهم — في كتاب الفلاكة والمفلوكين قلما خلا عالم أو نبيل من نكبة ، وأنا أذكر هنا طرفالائقا بمقصودي من ذوي النكبات من الاعيان الذين عرضت لهم : —

(مالك بن أنس) ابن أبي عامر بن الحرث ابن غيمان — بالغين المعجمة — أبو عبد الله الامام المدني أحد أئمة الاسلام ، سعى به الى جعفر بن سليمان بن علي ابن عم أبي جعفر المنصور ، فدعا به وجرده ، وضربه سبعين سوطا ، ومدت يداه حتى انخلع كتفاه ، وسبب ضربه أنهم سألوه عن مبايعة محمد ابن عبد الله بن حسن ، وقالوا له ان في أعناقنا مبايعة أبي جعفر ، فقال : انما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين ، فأسرع الناس الى محمد فسعى به فضرب لذلك ، ثم لم يزل بعده في علو ورفعة كأنما كانت تلك السياط حليا تحلى بها ، توفي سنة أربع وسبعين ومائة •

(أبو حنيفة النعمان بن ثابت) الفقيه الكوفي أحد الأئمة المتبوعين ، كان يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقين فأراده لقضاء الكوفة أيام مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية فأبى ، فضربه مائة سوط وعشرة أسواط كل يوم عشرة أسواط ، وبقي على الامتناع ، وسجنه فتوفي بالسجن في أحد القولين سنة خمسين ومائة ببغداد •

(الامام أحمد بن محمد بن حنبل) بن هلال الشيباني المروزي ثم البغدادي استحوذ على المأمون جماعة من المعتزلة وقولوه بخلق القرآن ، فعن له بطرسوس أن يكتب الى نائب بغداد اسحق بن ابراهيم بن مصعب يأمره أن يدعو الناس الى القول بخلق القرآن ، فكان ذلك أول الفتنة ، وكان ذلك آخر عمر المأمون قبل موته بشهور سنة ثمانية عشر ومئتين ، فلما وصل الكتاب استدعى جماعة من العلماء فامتنعوا ، فهددهم بالضرب وقطع الارزاق ، فأجاب أكثرهم مكرهين ، واستمر على

الامتناع أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح الجند سابوري ، فحملا على بعير متعادلين مقيدين الى الخليفة عن أمره بذلك ، ثم جاء الصريخ بموت المأمون في الثلث الاخير ، ثم جاء الخبر بأن المعتصم قد ولي الخلافة وأن الامر شديد ، فردا الى بغداد في سفينة مع بعض الاساري ، ومات محمد بن نوح في الطريق ، وأودع الامام أحمد السجن ببغداد نحوا من ثمانية وعشرين شهرا ، ثم أحضره المعتصم في قيوده وأجلسه ، فجلس ودعاه الى القول بخلق القرآن ، فامتنع وقال فما قال ذلك ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الى شهادة أن لا اله الا الله وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن القرآن علم الله ، ومن علم أن علم الله مخلوق فقد كفر ، أعطوني شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله حتى أقول به ، وناظره أحمد ابن أبي دواد وغيره وأنكروا الآثار التي أوردها ، وقالوا للمعتصم هذا أكفرك وأكفرنا ، وقال له اسحاق ابن ابراهيم نائب بغداد ، ياأمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيله ويغلب خليفتين ، فعند ذلك حمي واشتد غضبه ، فأخذ وجيء بالعقابيين والسياط ، وضربه ضربا مبرحا شديدا ، حتى أغمي عليه وغاب عقله ، وأمر باطلاقه الى أهله فنقل وهو لايشعر ، ولما شفي من الضرب بقي مدة وابهاماه يؤذيهما البرد ، وكان الضرب في الخامس والعشرين من رمضان سنة احدى وعشرين ومائتين ، وتوفي سنة احدى وأربعين ومائتين .

(يوسف بن يحيى البويطي) صاحب الامام الشافعي ، كان الشافعي يسأل عن الشيء فيحيل عليه فاذا أجاب قال هو كما أجاب ، وقال عنه الشافعي هو لساني ، حمل الى بغداد في أيام الواثق بالله من مصر — وفي عنقه غل وفي رجليه قيد وبين الغل والقيد سلسلة حديد فيها طوق وزنتها أربعون رطلا — وأرادوه على القول بخلق القرآن فامتنع ومات بالسجن في قيوده سنة احدى وثلاثين ومائتين .

(الامام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري) أراد منه خالد بن أحمد الذهلي أن يأتيه في بيته ليسمع أولاده فأبى ، وقال في بيته يؤتى الحكم ، فاتفق أن جاءه كتاب من محمد بن يحيى الذهلي من نيسابور بأن البخاري يقول بأن لفظه بالقرآن مخلوق ، وكان قد وقع بين محمد بن يحيى الذهلي وبين البخاري في ذلك كلام ، وصنف البخاري في ذلك كتابه (خلق أفعال العباد) فأراد الامير أن يصرف الناس عن السماع من البخاري فلم يقبلوا ، فأمر عند ذلك بنفيه من البلاد ، فخرج منها ، ودعا على خالد بن أحمد ، فلم يمض شهر حتى أمر ابن طاهر بأن ينادى على

خالد بن أحمد على أتان ، وزال ملكه وسجن ببغداد حتى مات ، فبرح البخاري الى بلد يقال لها (خزتنك) فمات سنة ستين وثلاثمائة نقلته بلفظه من تاريخ ابن كثير •

(أحمد بن علي بن شعيب النسائي) صاحب السنن امام عصره ، والمقدم على أضرابه ، رحل الآفاق وأخذ عن الحذاق ، وكان ينسب الى شيء من التشيع ، قالوا دخل دمشق فسأله أهلها أن يحدثهم بشيء من فضائل معاوية ، فقال : مايكفي معاوية أن يذهب رأسا برأس حتى يروى له فضائل ، فجعلوا يطعنــون فيه حتى أخرج من الجامع ، فسار الى مكة فمر بالرملة ، فسئل عن فضائل معاوية فأمسك عنه ، فضربوه في الجامع ، فقال : أخرجوني الى مكة ، فأخرجوه وهو عليل ، فتوفي بمكة مقتــولا شهيدا سنة ثلاث وثلاثمائة •

(أبو عمر عيسى الثقفي النحوي) شيخ سيبويه ــ صاحب كتاب الجامع الذي قيل أن سيبويه أخذه وزاد عليه مااستفاده من الخليل ونسبه اليه ــ أودعه شخص وديعة ، فنمى الخبر الى يوسف بن عمر أمير العراقين ، فكتب الى نائبه بالبصرة يأمره أن يحمل عيسى بن عمرو مقيدا ، فدعا به ، ودعا حدادا وأمره بتقييده ، فلما قيــده قال له لا بأس عليك انما أرادك لتعليم ولده ، قال فما بال القيد اذا ، فلما وصل اليه سأله فأنكر ، فأمر بضربه فضرب بالسياط ، توفي سنة تسع وأربعين ومائة ، كان كثير الاستعمال للغريب والتقعر في كلامه ، وهو القائل : افر نقعوا عني ، قال يوما لأبي عمرو بن العلاء أنا أفصح من معد بن عدنان ، فاستنشده أبو عمرو بيتا فيه بدا بمعنى ظهر ، وقال له : كيف تسنده الى جماعة الاناث أتقول بدين أو بدان ؟ فقال : بدين ، فقال : أخطأت ، ولو قال بدان لاخطأ أيضا ، وانما أراد أبو عمــر تغليطه ، وانمــا الصواب بدون من بدا يبدوا اذا ظهر ، وبدأ يبدأ اذا شرع في الشــيء معنى آخــر ذكرت هذا استطراد لاشتماله على فائدة •

(أبو جعفر محمد بن الزيات بن عبد الملك) وزير المعتصم ، ثم ابنــه هارون الواثق ، ثم لما مات الواثق أشار هو بتولية ولده ، وأشار القاضي أحمد بتولية أخيه المتوكل ، وتم أمر المتوكل ، فحقد ذلك عليه مضموما الى حقده عليه القديم ، لأنه كان يغلظ عليه في حياة الواثق تقربا اليه ، وكان ابن الزيات قد صنع تنورا من حديد في أيام وزارته وله مسامير محدودة الى داخله يعذب فيه النــاس ، وكان يقــول اذا استرحم ، الرحمة خور في الطبيعة ، فلما اعتقله المتوكل أدخله التنور وقيده بخمسة عشر رطلا من الحديد ومات في التنور ، فوجد قد كتب في التنور بفحمة :

مـن لـه عهـد بنور يرشد الصب اليـه
سهـرت عيني ونامـت عـين من هنت عليـه
رحـم اللـه رحيمـا دلـت عيني عليـه

توفي سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة •

(ناصح الدين أبو محمد سعيد المعروف بابن الدهان) النحـوي البغـدادي شارح كتاب الايضاح والتكملة وكتاب اللمع لابن جني ، وكان يفضل على ابن أبي محمد الجواليقي وابن الخشاب وابن الشجري المعـاصرين له ، انتقل الى الموصـل قاصدا جناب الوزير جمال الدين الاصفهاني المعروف بالجواد ، وكانت كتبه ببغداد واستولى الغرق في تلك السنة على البلد ، فغرقت كتبه ، وكان خلف داره مدبغـة ففاضت بالغرق الى بيته فتلفت كتبه بهذا السبب زيادة على تلف الغرق ، فأرسل من أحضرها له ــ وكان قد أفنى عمره فيها ــ فأشاروا عليه أن يطيبها بالبخور ويصلـح ماأمكنه فيها ، فبخرها باللاذن ولازمها بالبخور الى أن بخرها بأكثر من ثلاثين رطلا لاذنا ، فطلع ذلك الى رأسه وعينيه فأحـدث له العمى ، توفي سنـة تسع وستـين وخمسمائة •

(أبو العباس أحمد بن محمد بن عطاء) أحد أئمة الصوفية ، حدث عن يوسف بن موسى القطان والمفضل وغيرهما كانت له ختمة يتلوها سبع عشرة سنة يتدبرها ، مات ولم يكملها ، أحضر في أمر الحلاج ــ وقد كتب الحلاج اعتقاده ــ فسأله الوزير حامد بن العباس عما قاله الحلاج ، فقال : من لايقول بهذا فهو بلا اعتقاد ، فقال لـه الوزير : ويحك تصوب مثل هذا الاعتقاد ؟ فقال : مالك ولهذا ؟ عليك بما نصبت له من أخذ أموال الناس وظلمهم ، مالك والكلام مع هؤلاء السادة ، فأمر الوزير بضرب شدقيه ونزع خفيه وأن يضرب بهما رأسه ، فما زال يفعل به كذلك حتى سال الدم من منخريه ، وأمر بسجنه ، فقيل له أيها الوزير ان العامة تتشوش بهذا فحمـل الى منزله ، قال ابن عطاء اللهم اقتله أخبث قتلة واقطع يديه ورجليه فمات ابن عطاء بعد سبعة أيام سنة تسع وثلاثمائة ، ثم مات الوزير مثل ما دعا عليه ابن عطاء مقطـوع اليدين والرجلين مقتولا •

(المقري محمد بن أحمد بن أيوب بن الصلت) أبو الحسين المقري المعـروف بابن شنبود ، روى عن أبي مسلم وبشر بن موسى وخلف ، وكان يختار حروفا أنكرها أهل زمانه عليه ، وصنف أبو بكر بن الانباري محمد بن القاسم الحافظ ــ الذي

كان يحفظ في كل جمعة عشرة آلاف ورقة ـ كتابا في الرد عليه ، كان أبو بكر المذكور من أعلم الناس بالنحو والأدب ، وكان لا يأكل الا البقالي ، ولا يشرب ماء الا قريب العصر مراعاة لحفظه ، عقد لابن شنبود مجلس في دار الوزير أبي علي محمد بن مقلة، وادعى عليه بالحروف التي كان يقرؤها فأقر بالبعض ، فضربه الوزير أبو علي بالدرة على رأسه واستتيب ، فدعا على ابن مقلة فلم يفلح بعد ذلك ، توفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة .

(الوزير ابن مقلة) أحد المشاهير الكتاب محمد بن علي بن الحسين بن عبد الله بن علي المعروف بابن مقلة الوزير ، كان له بستان كبير جدا ، وعليه ـ جمعيه ـ شبكة من أبريسم ، وفيه من الطيور والقماري والهزار والطواويس شيء كثير ، وفيه من الغزلان وبقر الوحش وحميره والنعام والايل شيء كثير أيضا ، وولي الوزارة لثلاثة من الخلفاء المقتدر والقاهر والراضي ، وبنى له دارا فجمع عند بنائها خلقا كثيرا من المنجمين ، فاتفقوا على أن تبنى في الوقت الفلاني ، فأسس جدرانها بين العشاءين كما أشاروا فما لبث بعد استتمامها الا يسيرا ، وقد أنشد فيه بعض الشعراء :

قل لابن مقلة لاتكن عجلا ... واصبر فانك في أضغاث أحلام
تبنى بانقاض دور الناس مجتهدا ... دارا ستنقض أيضا بعد أيام
مازلت تختار سعدا تطلبن لها ... فلم يوف بها من نحس بهرام
ان القران وبطليموس ماجتمعا ... في حال نقض ولا في حال ابرام

ثم عزل عن وزارته ، وأحرقت داره ، وانقلعت أشجاره ، وقطعت يده ، ثم قطع لسانه ، وأغرم ألف ألف دينار ، ثم سجن وحده مع الكبر والضعف والضرورة ، وكان يستقي الماء بنفسه من بئر عميق يدلى الحبل بيده اليسرى ويمسكه بفيه ، وقاسى جهدا جهيدا حتى مات في الحبس سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ومن نظمه وهو يبكي على يده :

اذا مامات بعضك فابك بعضا ... فان البعض من بعض قريب

قال : والنكبات كثيرة لاتحصى ، وفيما ذكرناه مقنع ، فان الكتاب كله انموذج ومسودة في بابه والله تعالى أعلم ، انتهى ماقصدنا نقله من كتاب الفلاكة للامام الحافظ الشيخ شهاب الدين . وقد ذكر عددا كثيرا من الأئمة المفلوكين الذين أصيبوا بأنواع المصائب والبلايا ، وهذا الكتاب فريد في بابه .

ولصاحب الاغاني أبي الفرج الاصفهاني كتاب سماه (مقاتل الطالبيين) ذكر فيه مالاقاه أهل البيت النبوي من المصائب والنوائب من القتل والحبس وغير ذلك من الخطوب التي جرت عليهم ، ويكفيك منها الطامة الكبرى ، والمصيبة التي لم تزل عين الدين المحمدي منها عبرى ، وهي مافعلوه بريحانة الرسول وقرة عين فاطمة البتول وهو من أكبر سادات الامة ، وأعز أبناء بني الرحمة ، فبأي وجه يلاقي من تجرأ على هذه الجريمة جد أولئك الأئمة .

ويل لمن شفعاؤه خصماؤه والصور في نشر الخلائق ينفخ
لابد أن ترد القيامة فاطم وقميصها بدم الحسين ملطخ

فيقال للنبهاني : هل كان ماأصاب أولئك الاكابر الاماجد لفساد في الدين ؟ أم لخلل في العقائد ؟! كلا بل ذلك فضل من الله تعالى عليهم ، واعلاء لشأنهم ، ابتلوا فصبروا ، والدرجات الرفيعة لاتنال الا بالثبات على الأهواء ، وهيهات أن تحصل راحة بلا تعب وهيهات ، وفي الخبر : (حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات) والعيش الرغد والاتكاء على الارائك واقبال الدنيا انما يكون لمثل النبهاني وأضرابه لا لمثل شيخ الاسلام وأحزابه .

في النفس أشياء لاأسطيع أذكرها لو قلتها قامت الدنيا على ساق

(والمقصود) أن ماأصاب الشيخ ابن تيمية وأصحابه هو مما يزيد ذوي الألباب بصيرة على علو قدره ، ورفعة ذكره ، ولكن الجهول الحسود لما نظر بعين السخط رأى الحسنات سيئات ، والمدائح قبائح .

بليت به جهولا جاهليا ثقيل الروح مذموما بغيضا
ولم يك أكثر الطلاب علما ولكن كان أسرعهم نهوضا

وستقف ان شاء الله تعالى على حاله ، ومبلغ علمه ، وسيكون لنا المام على هذه المسألة مرة بعد أخرى كلما عاد اليها الخصم ، فهناك ترى ماتنشرح له الصدور .

(الامر السابع) من تلك الامور : أن من علم حال النبهاني — وما هو عليه من المعرفة وما يعتقده من العقائد ويراه من الآراء — لم يلتفت الى ماذكره في كتابه الذي سماه (شواهد الحق) ولا غيره من هذيانه الصريح ، فان الرجل جاهل كما ستعلمه من رد كتابه هذا ، سقيم الفهم بأخبار العدول الثقاة ورواية الصادقين من الرواة ، وما نشره من هذيانه أعدل شاهد على ذلك ، وأصح دليل على ماهنالك ، فضلا عما ذكره فيه جهابذة العصر الذين رأوه وخالطوه ، وعرفوا حاله وشاهدوا أعماله ، ومع ذلك

نذكر كلام بعضهم فيه ليحمد الله من عوفي من شقائه وعضال دائه .

(قال الفاضل العلامة) السيد بدر الدين الحلبي ـ متع الله المسلمين بحياته ـ في كتابه (الارشاد والتعليم) ـ عند ذكره مقالات الامم ـ ما نصه : ـ

ومن شنيع مقالاتهم في الاسلام قولهم : ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لايخلو منه زمان ولا مكان ، يريدون بذلك أنه ما من زمان الا وهو فيه موجود ، ولا من مكان الا وهو فيه موجود ـ قال حفظه الله ـ وهذه المقالة الشنيعة لم نرها لأحد من المتكلمين المتقدمين منهم والمتأخرين ، ولا رأيناها في كتب العقائد ، ولا كنا نظن أحدا يقول هذه المقالة الشنيعة ، وانما ذكرها الشيخ يوسف بن اسماعيل النبهاني البيروتي ، صاحب الكتب الكثيرة في الادعية والصلوات في منظومة له سماها طيبة الغراء ناقلا لها عن البرهان الحلبي ، قال : ذكر يوسف النبهاني أنه اطلع على رسالة ألفها البرهان الحلبي في هذا الموضوع فطالعها وانتفع بها .

قال : وهذه مقالة شنيعة في الغلو في النبي صلى الله عليه وسلم ، وانزال له فوق منزلته التي أنزله الله بها ، فان هذا اشراك للنبي صلى الله عليه وسلم في أخص أوصاف الباري جل شأنه (١) ومهما يأوي الناس لاصلاح هذه المقالة الشنيعة فلن يجدوا الى الخروج عن قبيحها سبيلا ، والامر لله ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

وياليت شعري أي دليل قام عند هذا الذي قال هذه المقالة حتى قال بها ، هل تلا في ذلك آية منزلة أو حديثا صحيحا ؟ ان قال ذلك فقد كذب وشهد على نفسه بالكذب ، أو ساق الدليل الذي أورده المتكلمون على أن الباري جل شأنه لايحويه زمان ولا مكان في النبي صلى الله عليه وسلم فحكم له بما حكم به للباري جل وعلا فهو عين الشرك الصريح ، ومثل هذه العقائد الفاسدة الباطلة الكاذبة يلقيها أهل الغفلة من المنتمين للعلم في آذان العامة ، فتصادف منهم قبولا وتجتمع عليها قلوبهم حتى يصير من المتعذر نزعها من أذهانهم ، وربما كفروا من أنكرها عليهم ، ورأوا أن انكار ذلك نوع من الالحاد في الدين ، واستخفاف بصاحب الشريعة المطهرة صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الاشارة فى هذا ترجع الى ماتقدم من قوله : لايخلو منه زمان ولا مكان .. الخ ، وما ذكر من أن ذلك أخص أوصاف الباري قد يفهم منه أن الباري موجود فى كل مكان بذاته ، وهو سبحانه ليس كذلك ، بل هو فوق عرشه بائن من خلقه كما هو معتقد أهل السنة والجماعة .

وقال أيده الله تعالى : ومثل هذه العقيدة في الشر أو أقل منها فسادا دعوى بعض المغفلين ممن ينتمون الى العلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم جميع ما كان وما يكون ، ولأهل هذه العقيدة دلائل على هذه المقالة الشنيعة كلها مبنية على مقدمات فاسدة أوقعها في قلوبهم المبالغة في اطراء النبي صلى الله عليه وسلم المنهى عنه بقوله : (لاتطروني كما أطرت النصارى عيسى) وأحاديث موضوعة كاذبة وقعت اليهم فاعتقدوا صحتها ، وهي مفتراة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكفي لمن ينكر هذه العقيدة أنه لم يقم دليل من كتاب أو سنة صحيحة عليها ، مع الجزم باتفاق الكل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرض له الامر فيتوقف فيه الى أن يأتيه الوحي من الله به ، وحديث الافك على الصديقة الطاهرة شاهد ، ومن ادعى أنه أفيضت عليه بعد ذلك العيون فليأت بآية أو حديث ، ولا طريق لاثبات مثل هذا الا الخبر الصادق ، وهذه العقيدة هي الفرقان بين أهل السنة وبين المبتدعة عند أكثر مسلمي الهند ، فمن كان يعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم جميع ما كان وما يكون فهو من أهل السنة والخير ، وان لم يكن يعتقد ذلك فهو من أهل البدعة والفساد ، ولعلمائهم في ذلك رسائل لاتكاد تحصى ، شحنوها بالدلائل الفاسدة على هذه المقالة الشنيعة والرد على مخالفيهم فيها .

قال : وقد سئلت عن هذه المسألة وأنا بالهند سنة تسع عشر وثلاثمائة بعد الالف ، وكان قصد السائل تعرف عقيدتي بما أعرف من الحق الذي لامرية فيه ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم أطلعه الله تعالى على كثير من المغيبات لمصالح يقتضيها التشريع ، ولم يطلعه على كل ما كان ويكون ، وبينت له أن هذا لايحط من عليّ مرتبته عليه السلام ، بل من الادب مع الله ومعه أن لانصفه بما لم يصف نفسه به ولا أن نثبت له مالم يخبر هو بثبوته لنفسه .

فانكر علينا ذلك ، وتحركت نفسه للمحاجة ، فقلنا له : أترى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم عدد الشعرات التي في لحيتك ؟ فقال: لا ، فقلنا :أفترى أن لحيتك ليست من المكونات ؟ فانقطع في ميدان المناظرة قبل أن ينقل فيه قدما ، الا أن هذا الشيخ الهندي مازال بعد أن فارقني يذكر من فساد عقيدتي بين العامة ، وتطاولي على الدين ، واحتقاري للشرع ما وسوس له به شيطانه ، وسولته له نفسه الخبيثة ، حتى ألهب قلوبهم حقدا علي وغيظا مني ، وتحركت نفوسهم الشريرة لايذائي على حق

أذعته فيهم ونشرته بينهم وبدعة أنكرتها عليهم ، وبينت لهم فسادها وأنها ليست من الدين .

وذكر قصة جرت له بسبب ذلك في أحد مساجد الجامعة في الهند ، ثم قال : هكذا بذر علماء السوء بذور الخرافات والبدع والعقائد الفاسدة في قلوب العامة ، فتمكنت في قلوبهم ، حتى تعذر على أحذق الناس بأمراض القلوب علاجها ، واختيار دواء نافع لها ، وليس هذا محل بسط الكلام على هذا الموضوع ، وموعدنا ان شاء الله القسم الثاني من هذا الكتاب وهو قسم الارشاد ، فانه به أمس وأشد ارتباطا انتهى كلامه ، وقد شفى به صدور المؤمنين جزاه الله خير الجزاء ، ومقصودنا منه مايتعلق بمقالة النبهاني وخرافته ، وسقنا الكلام كله حرصا على مافيه من الفوائد .

ثم ان النبهاني هذا أخذ مقالته هذه من أهل الاتحاد والحلول ، قال عبد الكريم الجيلي ان(هو) من قوله : (قل هو الله أحد) راجع الى ضمير الخطاب المستتر في قل المقدر بِأنْتَ مرادا به الانسان الكامل وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا ضرب من الهذيان تفرع على قول محي الدين : سبحان من أظهر الاشياء وهو عينها ، وقال الجيلي أيضا ان النصارى لم يكفروا بأصل الحلول وانما كفروا بالحصر الذي تضمنه كلامهم : إن الله هو المسيح لا غيره من الاشياء ، ولو عمموا لم يكفروا ، وهذا الكلام مما تقشعر منه جلود المؤمنين ، فقول النبهاني : أن النبي صلى الله عليه وسلم لايخلو منه زمان ولا مكان — ناقلا عن البرهان الحلبي — هو من شعب ذلك الوادي ، وللقوم غلو في هذا المقام يأباه المتشرعون ، ومنه قولهم : أن الشرائع المتقدمة على ظهوره صلى الله عليه وسلم شريعته ، والانبياء من قبله نوابه في التبليغ ، ووقوع النسخ في هاتيك الشرائع كوقوعه في شريعته التي ظهر بها ، وعلى هذا قول قائلهم :

كل النبيين والرسل الكرام أتوا ... نيابة عنه في تبليغ دعواه
فهو الرسول الى كل الخلائق في ... كل الدهور ونابت عنه أفواه

وقال ابن الفارض على لسان الحقيقة المحمدية :

واني وان كنت ابن آدم صورة ... فلي فيه معنى شاهد بأبوتي

ومن ذلك دعواهم لرؤياه صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ، فقد ادعاها غير واحد منهم ، وادعوا أيضا الاخذ منه يقظة ، قال الشيخ سراج الدين بن الملقن في طبقات الاولياء في ترجمة الشيخ خليفة بن موسى النهر ملكي : كان كثير الرؤية

لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقظة ومناما ، فكان يقال أن أكثر أفعاله يتلقاه منه صلى الله عليه وسلم يقظة ومناما ، ورآه في ليلة واحدة سبع عشرة مرة ، قال له في احداهن : ياخليفة لاتضجر مني فكثير من الاولياء مات بحسرة رؤيتي ، وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في لطائف المنن : قال رجل للشيخ أبي العباس المرسي ياسيدي صافحني بكفك هذه فانك لقيت رجالا وبلادا : فقال : والله ماصافحت بكفي هذه الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وقال الشيخ لو حجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين ، ومثل هذه النقول كثير في كتب القوم جدا ، وفي تنوير الحلك لجلال الدين السيوطي الذي ردبه على منكري رؤيته صلى الله عليه وسلم بعد وفاته في اليقظة طرف من ذلك ، وكل ماأتى به لادليل فيه ، وأطال الكلام في ذلك ثم قال : وقد ذكر عن السلف والخلف وهلم جرا ممن كانوا رأوه في اليوم فرأوه بعد ذلك في اليقظة وسألوه عن أشياء كانوا منها متشوشين فأخبرهم بتفريجها ، ونص لهم على الوجوه التي منها فرجها ، فجاء الامر كذلك بلا زيادة ولا نقص ، انتهى المراد منه • وليت شعري لم كان عثمان يطلب شاهدين من كل من أتاه بآية يشهدان على أنها من القرآن ، وهلا رأى النبي صلى الله عليه وسلم يقظة وساله عن تلك الآية وهو وسائر الصحابة أحق ممن ذكر بهذه الفضيلة ، وقد وقع بينهم ما وقع من الاختلاف لم يره أحد منهم ويدفع إشكاله ؟! والسيوطي رحمه الله كان فيما ألفه من الكتب حاطب ليل في كل كتاب له مذهب ومشرب ، وما أتى به في كتابه هذا لايعول عليه كما سيرد عليك مردودا •

ثم ان رؤيته صلى الله عليه وسلم عند القائلين بها يقظة أكثر ماتقع بالقلب ثم يترقى الحال الى أن يرى بالبصر على مازعموا ، واختلفوا في حقيقة المرئى : فقال بعضهم المرئى ذات المصطفى بجسمه وروحه ، وأكثر أرباب الاحوال على أنه مثاله ، وبه صرح الغزالي فقال : ليس المراد أنه يرى جسمه وبدنه ، بل مثالا له ، صار ذلك المثال آلة يتأدى بها المعنى الذي في نفسه ، قال : والآلة تارة تكون حقيقة وتارة تكون خيالية ، والنفس غير المثال المتخيل ، فما رآه من الشكل ليس هو روح المصطفى صلى الله عليه وسلم ولا شخصه ، بل هو مثال له على التحقيق ، وفصل القاضي أبو بكر بن العربي فقال : رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بصفته المعلومة ادراك على الحقيقة ، ورؤيته على غير صفته ادراك للمثال ، واستحسنه السيوطي ، وقال ــ بعد نقل أحاديث وآثار ــ مانصه : فحصل من مجموع هذا الكلام ــ النقول والاحاديث

ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم حي بجسده وروحه ، وأنه يتصرف ويسير حيث شاء في أقطار الارض وفي الملكوت ، وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته لم يتبدل منه شيء ، وأنه مغيب عن الابصار كما غيبت الملائكة ـ مع كونهم أحياء بأجسادهم ـ فاذا أراد الله تعالى رفع الحجاب عمن أراد اكرامه برؤيته رآه على هيئته التي هو عليها ، لا مانع من ذلك ، ولا داعي الى التخصيص برؤية المثال ، انتهى ، وذهب الى نحو هذا في سائر الانبياء عليهم السلام ، فقال : انهم أحياء ردت اليهم أرواحهم بعد ماقبضوا ، وأذن لهم في الخروج من قبورهم ، والتصرف في الملكوت العلوي والسفلي وأتى بأخبار كثيرة تشهد له وكلها لاأصل لها ، ولا متصرف في الكون الا الله تعالى ، كما سنبرهن على ذلك ان شاء الله ، ويكفي في ابطال هذا القول قوله تعالى : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ،وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)[1] فاذا أمسك التي قضى عليها فمن أين لها التمكن من التصرف ؟ ومن أين لأحد أن يراها ؟ .

وأعجب من ذلك كله : مانقله الشيخ صفي الدين ابن أبي المنصور ، والشيخ عبد الغفار ، عن الشيخ أبي العباس الطنجي ، من أنه رأى السماء والأرض والعرش والكرسي مملوءة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزعم من زعم أن السؤال عن كيفية رؤية المتعددين له عليه الصلاة والسلام في زمان واحد في أقطار متباعدة ينحل به ، ولا يحتاج معه الى ماأشار اليه بعضهم ، وقد سئل عن ذلك فأنشد :

كالشمس في كبد السماء وضوءها   يغشى البلاد مشارقا ومغاربا

اللهم انا نعوذ بك من أن نقول مالا ترضاه ، وأن تعصمنا من الزيغ والزلل والاشتباه

والمقصود أن قول النبهاني ـ الذي سبق بيانه في كلام العلامة السيد بدر الدين الحلبي ـ وما وافقه من أقوال الذين ذكرناهم كلها من واد واحد ، وأنها متفرعة على القول بالحلول والاتحاد ، غير أن كلامهم ليس صريحا في ذلك ، ولكن الامر كما قيل : رب كناية أبلغ من تصريح ، فعلى المسلم التجنب عن مثل هذه الأقاويل ، والأخذ بالكتاب والسنة ، وبما كان عليه سلف الامة .

فخير أمور الدين ما كان سنة   وشر الامور المحدثات البدائع

---

(١) الزمر : ٤٢

هذا حال النبهاني في عقائده ، وجهله في العلوم النقلية والعقلية أشهر من أن ينبه عليه ، كما ستعلمه ان شاء الله تعالى •

لكن بقي علينا بيان حاله ، وما هو عليه الى اليوم من أفعاله وأعماله ، وحيث أني لم أقف على حقيقة أمره ــ وان كان مانشره من الكتب تطلعنا على حلوه ومره ــ سألت عنه بعض الافاضل من الاصحاب ، ممن رآه واجتمع به ، وعرف ماعنده من الفصول والابواب ، فكتب كلاما طويلا فيه ، وعرفني بظاهره وخافيه ، فمن ذلك قوله : ان النبهاني قد قضى شطرا من عمره في المحاكم النظامية ، وتسمى أيضا بالمحاكم القانونية ، ثم ذكر كلاما طويلا في بيان حال تلك القوانين ، وما فيها من المخالفة لقواعد الدين ، ثم قال : ان النبهاني تولى رياسة الجزاء في بيت الله المقدس عددا كثيرا من الاعوام ، وبين حقيقة هذا المنصب وما يتعاطاه الرئيس من الاحكام ، قال : ثم تحول الى رياسة محكمة البداية في بيروت ، وبين مايرى في هذا المحل من الوظائف والمواد ، ثم قال : وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت ، قلت : ان كان صادقا عليه ذلك المقال يكون تائها في أودية الجهل والضلال ، فكيف يدعي الايمان فضلا عن دعواه المحبة لسيد ولد عدنان ،وهو معرض عنهديه وسنته ، ناء عن العمل بشريعته ، فهلا قرأ قوله تعالى : (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)[1] (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)[1] (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)[1] وسنذكر ان شاء الله تعالى فيما سيأتي تفصيل هذه المسألة وبيان حكمها بما ينشرح لها الخاطر ، ثم ذكر شيئا كثيرا من بيان أحواله مما يطول ذكره • وظن يوسف النبهاني المسكين أنه قد خلا له الجو فصفر ، وطاول العلماء الاعلام بما ذكر في كتابه الذي وسمه بدلائل الحق ماذكر ، وصال وجال وقال ماقال •

واذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

وتصدى مثله لما تصدى له دليل على جهله ، ومزيد غباوته وخفة عقله ، بل هو كما قيل :

لو أن خفة عقله في رجله سبق الغزال ولم يفته الارنب

---

(١) المائدة : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧

ولولا الترفع عن مكافأة أمثاله ، والأنفة من مخاطبة أشكاله ، لعرفناه قدره ، وأوضحنا له شأنه وأمره ، ولكن مثله لايخاطب ولا يعاتب ، ولا يؤاخذ بالهذيان ولا يعاقب ، وان الظفر بمثله شر من الهزيمة ، والتلطخ بذكره قريب من محاورة بهيمة •

اذا ماأتيت الامر من غير بابه ضللت وان تقصد الى الباب تهتد

(والمقصود) من ذكر هذه النبذة من أحوال النبهاني أن الذي خاصم أهل الحق كلهم على هذا المنوال ، وقد تشابهوا كأسنان الحمار في الاتفاق على الضلال ، وباطل الاقوال ، فلا يغتر بما زخرفوه وزوروه فانهم ليسوا من رجال العلم والكمال والله أعلم بحقيقة الحال •

(الامر الثامن من تلك الامور) لا بد للمتناظرين من مرجع يكون مهيمنا على الحق الذي يدعيه كل منهما ، والا فالمناظرة لاتتم ، قال الامام العلامة الشيخ عبد العزيز : كل متناظرين على غير أصل ــ يكون بينهما يرجعان اليه اذا اختلفا في شيء من الفروع ــ فهما كالسائر على غير طريق ، وهو لايعرف المحجة فيتبعها ، ولا يعرف الموضع الذي يريده فيقصده ، وهو لايدري من أين جاء فيرجع ، فيطلب الطريق وهو على ضلال ، قال : ولكنا نؤصل بيننا أصلا ، فاذا اختلفنا في شيء من الفروع رددناه الى الاصل ، فان وجدناه فيه والا رمينا به ولم نلتفت اليه ، ثم قال : الاصل بيني وبين خصمي ماأمرنا الله عز وجل واختاره لنا ، وعلمناه وأدبنا به في التنازع والاختلاف ولم يكلنا الى غيره ، ولا الى أنفسنا واختيارنا فنعجز ، ثم بينه بقوله ، قال الله عز وجل : (يا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوْا أَطِيْعُوا اللهَ وَأَطِيْعُوا الرَّسُوْلَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُم فِي شَيْءٍ فَرُدُّوْهُ إِلى اللهِ وَالرَّسُوْلِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُوْنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيْلاً)[1] فهذا تعليم من الله وتأديبه واختياره لعباده المؤمنين ماأصله المتنازعون بينهم ، قال : وقد تنازعت أنا وبشر وبيننا كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم كما أمر الله عز وجل ، فاذا اختلفنا في شيء من الفروع رددناه الى كتاب الله عز وجل ، فان وجدناه فيه والا فالى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فان وجدناه فيها والا ضربناه في الحائط ولم نلتفت اليه ، الى آخر ما قاله في حضرة الخليفة العباسي عند مناظرته مع بشر •

---

(١) النساء : ٥٩

وقال الامام العلامة الشيخ عبد اللطيف في موضع من كتبه : أعلم أن مستند المسلمين في العقائد ومرجعهم في أصول الدين وفروعه الى كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واجماع من سلف من علماء الأمة ، والتقليد في باب أصول الدين ومعنى شهادة أن لا اله الا الله وشهادة أن محمداً رسول الله لايفيد ولا يجدي عندهم ، وان كان المقلَّد ــ بفتح اللام مع التشديد ــ فاضلا عالما في نفسه الى آخر ماقال .

(وقال في موضع آخر) ان الاصل المعتمد في هذا الباب وغيره من أصول الدين وفروعه : هو مادل عليه الكتاب والسنة ، واجماع علماء الأمة ، هذه هي الادلة الشرعية بالاجماع ، والقياس مختلف فيه ، والجمهور على قبوله بشروط ، وليس المعوّل على كلام الآحاد من أهل العلم والدين وان علت درجتهم وارتفعت رتبتهم ، ولا تصلح المعارضة بقول فلان وفلان من أهل العلم والدين ، ولا ينتقض الدليل بمخالفة أحد كائنا من كان ، انتهى .

(وقال في موضع آخر) ان العمدة عند المسلمين في مسائل أصول الدين وفروعه : على كتاب الله وسنة رسوله واجماع أهل العلم ، ولا تذكر أقوال أهل العلم الا تبعا وبيانا ، لا أنها المقصودة بالذات والاصالة ، ثم المسائل التي لايلزم بها المجتهد غيره هي ما كان للاجتهاد فيه مساغ ، ولم تخالف كتابا ولا سنة صريحة ولا اجماعا ، وما خالف ذلك فهو مردود على قائله ، ويلزمه أهل العلم بصريح الكتاب والسنة واجماع الامة ، قال امام الهجرة مالك بن أنس رحمه الله تعالى : ما منا الا راد ومردود عليه الا صاحب هذا القبريعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحسن منه قول الله تعالى : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُوْلِ) الآية وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا الفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري فيقول بيننا وبينكم كتاب الله ألا واني أوتيت الكتاب ومثله معه) فاذا كان رد السنة محرما لايجوز ــ ولو ردها ظانا أن القرآن لايدل عليها ــ فكيف رد الكتاب والسنة وعدم الالزام بهما لخلاف أحد من الناس كائنا من كان ، ومسائل معرفة الله ووجوب توحيده ، واسلام الوجه له وحده لا شريك له ، ومسائل ربوبيته، واختصاصه بالخلق والايجاد والتدبير ، ونحو ذلك مما يعلم بالضرورة من دين الاسلام ، كصمديته تعالى ، ونفى الكفو والصاحبة والولد ، وغناه بذاته ، ومباينته

لمخلوقاته ، وعموم قدرته ، وإحاطة سمعه وبصره ، وعلمه بجميع المعلومات والمبصرات والمسموعات ونحو ذلك من أصول الدين ، فكل الرسل متفقة عليه ، وجميع الكتب داعية اليه ، والعقول الصحيحة حاكمة به ، فكل اجتهاد خالفه فباطل مردود ، لايسوغ العمل به في شريعة من الشرائع ولا عند عالم من العلماء ، ولا فقيه من الفقهاء .

ثم قال : قال شمس الدين في هدايته : بل جميع النبوات من أولها الى آخرها متفقة على أصول :ـ

(أحدها) أن الله تعالى قديم واحد لا شريك له في ملكه ، ولا ند ولا ضد ، ولا وزير ولا مشير ولا ظهير ، ولا شافع الا من بعد اذنه .

(الثاني) أنه لا والد له ولا ولد ، ولا كفو ولا نسب بوجه من الوجوه ، ولا زوجة .

(الثالث) أنه غني بذاته ، فلا يأكل ولا يشرب ، ولا يحتاج الى شيء مما يحتاج اليه خلقه بوجه من الوجوه .

(الرابع) أنه لايتغير ، ولا تعرض له الآفات ، من الهرم والمرض ، والسنة والنوم ، والنسيان ، والندم والخوف ، والهم والحزن ، ونحو ذلك .

(الخامس) أنه لا يماثله شيء من مخلوقاته ، بل ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

(السادس) انه لايحل بشيء من مخلوقاته ولا يحل في ذاته شيء منها ، بل هو بائن عن خلقه بذاته والخلق بائنون عنه .

(السابع) أنه أعظم من كل شيء ، وأكبر من كل شيء ، وفوق كل شيء ، وعال على كل شيء ، وليس فوقه شيء البتة .

(الثامن) انه قادر على كل شيء ، ولا يعجزه شيء يريده ، بل هو فعال لما يريد .

(التاسع) انه عالم بكل شيء ، يعلم السر وأخفى ، ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الارض ، ولا رطب ولا يابس ، ولا متحرك ولا ساكن الا وهو يعلمه على حقيقته .

(العاشر) أنه سميع بصير ، يسمع ضجيج الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات ، ويرى دبيب النملة السوداء ، على الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء قد أحاط سمعه بجميع المسموعات ، وبصره بجميع المبصرات ، وعلمه بجميع المعلومات وقدرته بجميع المقدورات ، ونفذت مشيئته في جميع البريات ، وعمت رحمته جميع المخلوقات ، وسع كرسيه الارض والسموات .

(الحادي عشر) انه الشاهد الذي لايغيب ، ولا يستخلف أحدا على ملكه ، ولا يحتاج الى من يرفع اليه حوائج عباده ، أو يعاونه أو يستعطفه عليهم ويسترحمه لهم .

(الثاني عشر) انه الأبدي الباقي ، الذي لايضمحل ولا يتلاشى ، ولا يعدم ولا يموت .

(الثالث عشر) انه المتكلم المكلم ، الآمر الناهي ، قائل الحق ، وهادي السبيل مرسل الرسل ، ومنزل الكتب ، قائم على كل نفس بما كسبت من الخير والشر ، ومجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته .

(الرابع عشر) انه الصادق في وعده وخبره ، فلا أصدق منه قيلا ، ولا أصدق منه حديثا ، وهو لايخلف الميعاد .

(الخامس عشر) انه تعالى صمدبجميع معاني الصمدية ، يستحيل عليه مايناقض صمديته .

(السادس عشر) انه قدوس سلام ، فهو المبرأ من كل عيب وآفة ونقص .

(السابع عشر) انه الكامل ، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه .

(الثامن عشر) انه العدل ، الذي لايجور ولا يظلم ، ولا يخاف عباده منه ظلما ، وهذا مما اتفقت عليه جميع الكتب والرسل ، وهو من المحكم الذي لايجوز أن تأتي شريعة بخلافه ، ولا يخبر شيء بخلافه . فترك المثلثة عباد الصليب هذا كله ، وتمسكوا بالمتشابه من المعاني ، والمجمل من الالفاظ ، وأقوال من قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ، وأصول المثلثة ومقالاتهم في رب العالمين تخالف هذا كله وتباينه أشد المخالفة والمباينة ، انتهى .

قال : فقف وتأمل هذه الاصول وأولها ــ وهو انه تعالى لا شريك له ولا ند ولا شافع الا من بعد اذنه ــ ووازن بينه وبين قول الغلاة الى آخر ماقال .

فعلم من جميع مانقلناه أن الدلائل انما تكون من الكتاب والسنة والاجماع ، وعليه كتب الاصول ، وأما القياس : فقد اختلف فيه الاصوليون ، ومن أراد تفصيل الكلام في هذا المقام فعليه بتلك الكتب ، وقد جمع العلامة والفاضل الفهامة : الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي — حفظه الله تعالى ومتع المسلمين بحياته — عدة رسائل في أصول الفقه ، ترشد الناظر اليها الى الحق ، وتغنيه عن كثير من المطولات، فهذه هي الدلائل لا ماذكره النبهاني من استدلاله على مطالبه بكلام السبكي أوولده، أو ابن حجر المكي واضرابهم ، وكما استدل على مشروعية الاستغاثة بغير الله — في الصحيفة الخامسة والستين ومائة — بما نقل عن أحمد الرفاعي أنه قال من كانت له حاجة فليستقبل عَبَّادان نحو قبري ، ويمشي سبع خطوات ويستغيث بي ، فان حاجته تقضى الخ . فمثل هؤلاء اذا قالوا أقوالا تخالف الكتاب والسنة يضرب بها على وجوه قائليها كل من كان ، ومن ابن حجر والسبكي والرفاعي ونحوهم حتى نعارض بكلامهم وحي الرسول صلى الله عليه وسلم ؟! ولا سيما في مثل هذه المطالب العالية ، فكلام النبهاني من أوله الى آخره على هذا المنهج لايستدل على مطلوبه الا بحديث موضوع ، أو قول أحد الغلاة ، أو قول من لايؤخذ بقوله ، على أنه مع بطلانه مقلد فيه تقليد الخوارج أبا امامة ، وهكذا شأن أسلافه ، فلا ينبغي أن يلتفت الى أقواله ، ولولا خوف التطويل ، لأتينا في هذا المقام بما يشفي العليل ، ويروي الغليل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وقد آن للقلم أن يجري في ميدان المناظرة ، ويثير غبار البحث على وجه الخصم الألد الذي ركب متن المكابرة ، وأسأل الله تعالى أن لايذيق فم قلمي صاب الافتراء ، وأن يعصمني من الخطأ والزلل في الاقوال والافعال ، فهو الملاذ والملجأ من كل بلاء ، وماتوفيقي إلا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب .

(قال النبهاني) القسم الاول من المقدمة في الكلام على انقطاع الاجتهاد المطلق، الذي تدعيه — بالباطل — فرقة الوهابية ، ومن أعجبه شأنهم من جهلة المبتدعين شذاء المذاهب الاسلامية ، وجعلت ذلك رسالة سميتها (السهام الصائبة ، لأصحاب الدعاوي الكاذبة) ثم ذكر خطبة هذه الرسالة ، الى أن قال : فأقول ان دعوى الاجتهاد في هذا الزمان — منهم ومن غيرهم مطلقا مهما كان عالما هي — دعوى كاذبة، لايلتفت اليها ، ولا يعول عليها ، قال : وقد ذكرت في كتابي (حجة الله على العالمين)

الرد على من يدعي الاجتهاد في هذا الزمان ، ونقلت عبارات العلماء في ذلك ، كالامام الشعراني ، والامام بن حجر الهيتمي ، والامام المناوي وغيرهم ، بما يقنع كل ذي طبع سليم ، وفهم مستقيم ، الى أن قال : أما الاجتهاد فلا يدعيه اليوم الا مختل العقل والدين ، الا من طريق الولاية ، كما قاله الشيخ الاكبر محي الدين بن العربي ، ثم نقل مانقله المناوي في أول شرحه الكبير على الجامع الصغير عن ابن حجر المكي ، أنه قال : لما ادعى الجلال السيوطي الاجتهاد قام عليه معاصروه ورموه عن قوس واحدة ، وكتبوا له سؤالا فيه مسائل أطلق الاصحاب فيها وجهين ، وطلبوا منه ان كان عنده أدنى مراتب الاجتهاد وهو اجتهاد الفتوى فليتكلم على الراجح من تلك الاوجه ، وعلى الدليل على قواعد المجتهدين ، فرد السؤال من غير كتابة ، واعتذر بأن له أشغالا تمنعه من النظر في ذلك ، قال الشهاب : فتأمل صعوبة هذه المرتبة ، أعني اجتهاد الفتوى الذي هو أدنى مراتب الاجتهاد ، ويظهر لك أن مدعيها ــ فضلا عن مدعى الاجتهاد المطلق ــ في حيرة من أمره ، وفساد فكره ، وانه ممن ركب متن عمياء ، وخبط خبط عشواء ، قال : ومن تصور مرتبة الاجتهاد المطلق استحى من الله أن ينسبها لأحد من أهل هذه الازمنة ، بل قال ابن الصلاح ومن تبعه : انها انقطعت من نحو ثلاثمائة سنة ، ولابن الصلاح نحو الثلاثمائة سنة ، أي لأنه من أهل القرن السادس ، فتكون اليوم قد انقطعت من ستمائة سنة ، أي بالنظر الى عصر ابن حجر وهو من أهل القرن العاشر ، فيكون لها الآن منقطعة نحو ألف سنة ، اذ نحن في العام السابع عشر من القرن الرابع عشر ، وهو عام تأليفي لكتاب (حجة الله على العالمين) قال : بل نقل ابن الصلاح عن بعض الاصوليين أنه لم يوجد بعد عصر الشافعي مجتهد مستقل ، قال : ثم قال الشهاب ابن حجر : واذا كان بين الأئمة نزاع طويل في أن امام الحرمين وحجة الاسلام الغزالي ــ وناهيك بهما ــ هل هما من أصحاب الوجوه أو لا فما ظنك بغيرهما ؟ بل قال الأئمة في الروياني صاحب البحر انه لم يكن من أصحاب الوجوه ، هذا مع قوله لو ضاعت نصوص الشافعي لامليتها من صدري ، فاذا لم يتأهل الأكابر لمرتبة الاجتهاد المذهبي فكيف يسوغ لمن لم يفهم أكثر عباراتهم على وجهها أن يدعي ماهو أعلى من ذلك وهو الاجتهاد المطلق ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم ، ثم نقل جملة من اقوال العلماء تشهد له بأن الاجتهاد قد انقطع الى آخر ماهذى به في هذا الباب ، مما يدل على جهله وافلاسه من كل علم ، وعلى دعواه الكاذبة ، والكلام على ماشتمل عليه كلامه من الباطل يطول غير أنا نتكلم على

مقاصده على سبيل الاجمال دون التفصيل ، فأقول : ـــ

الكلام على مقالته هذه من وجوه : ـــ

(الوجه الاول) ان نسبة دعوى الاجتهاد الى الوهابية ـــ وهم على زعمه من كان موافقا للشيخ محمد بن عبد الوهاب في الاعتقاد ـــ افتراء وكذب وبهتان عليهم ، فان أهل نجد كلهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه ، مقلدون له في فروع الاحكام ، وموافقون له في أصول الدين وعقائده ، وقد صرح الشيخ محمد بذلك في كثير من رسائله ، وهو لم يدع الاجتهاد ، ولا دعا أحدا من الناس الى تقليده ، بل أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، فنسبة أهل نجد ومن يتبع السنن النبوية الى الشيخ وعدهم فرقة من فرق المسلمين غير فرقة أهل السنة : ظلم وعدوان وزور وبهتان ، وأعجب من ذلك أن النسبة الى الشيخ ينبغي أن تكون المحمدية ، وأما عبد الوهاب فهو أبو الشيخ محمد ، والموافقة في العقائد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر انما كان للشيخ نفسه لا لأبيه ، فاطلاق الوهابية على تلامذة الشيخ وموافقيه اما جهل ظاهر ، وأما تنابز بالالقاب ، وكلا الوجهين لايخفي حاله •

(الوجه الثاني) الكلام على باب الاجتهاد مفروغ منه ، فقد أطنب الكلام عليه الاصوليون لاسيما في كتاب الموافقات ، ومع ذلك فلا بد من ذكر شيء مما يتعلق به على سبيل الاختصار ، قالوا : الاجتهاد استفراغ الوسع لتحصيل ظن الحكم من فقيه وهو المجتهد المطلق ، وشرطه تكليف ، لا عدالة الا لقبول قوله • وملكة : وهي العقل يدرك بها المطلوب مطلقا أو في تلك الواقعة لتجزي الاجتهاد وفقه النفس أي شدة الفهم بالطبع لمقاصد الكلام ، حتى يكون له قدرة على استخراج أحكام الفقه من أدلتها ، وقوة يقتدر بها على التصرف بالجمع والتفريق ، والترتيب والتصحيح والافساد ، فان ذلك ملاك صنعة الفقه ، ومن اتصف بالبلادة والعجز عن التصرف لم يكن من أهل الاجتهاد ، ويشترط أيضا توسط درجته عربية وأصولا ، وعلمه بآيات الاحكام وأحاديثها ، وخبرته بمواقع الاجماع ، والناسخ والمنسوخ ، والمتواتر والآحاد ، وأسباب النزول ، وحال الرواة والمتون ، ويكفيه تقليد الحفاظ وأئمة علم الكلام ، وندب له البحث عن المعارض ، ودون المجتهد المطلق مجتهدالمذهب بأن يخرج مايبديه على نصوص امامه ، ودونه مجتهد الفتيا بأن يتبحر ويتمكن من

الترجيح ، ثم ذكروا مسائل كثيرة في هذا البـــاب لاغرض لنا بنقلها ، ثم اختلف الاصوليون هل يجوز خلو الزمان عن مجتهد أم لا ، منهم من قال : يجوز ، بل يقع ، ومنهم من قال : لايجوز ، استدلالا بقوله صلى الله عليه وسلم : (لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله) أي الساعة ، وسيأتي الكلام على هذه المسألة ان شاء الله .

هذا خلاصة ماذكره الاصوليون في هذا الباب ، وقد علمت منه أن شـروط الاجتهاد التي اشترطوها ليس وجودها من المحال ، بل هي ممكنة الوجود في كـل عصر ، وعلمت أيضا مما ذكرناه من كلامهم أنهم لم يقولوا بسد باب الاجتهاد ، ولا اقتضاه كلامهم ، ولا دل عليه كتاب ولا سنة ، وهما المرجع في التنازع ، قال الله تعالى: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ في شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)[1] . فقول من قال بانقطاع الاجتهاد قول بلا دليل ، فلا يلتفت اليه ، بل يرمى به على وجه قائله ، ويرد على صاحبه .

(الوجه الثالث) قال الحافظ ابن القيم في رد هذا القول : ان المقلدين حكموا على الله قدرا وشرعا بالحكم الباطل جهارا المخالف لما أخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم ، فأخلوا الارض من القائمين لله بحججه ، وقالوا لم يبق في الارض عالم منذ الاعصار المتقدمة ، فقالت طائفة : ليس لأحد أن يختار بعد أبي حنيفة ، وأبي يوسف وزفر بن الهذيل ، ومحمد بن الحسن ، والحسن ابن زياد اللؤلؤي ، وهذا قول كثير من الحنفية ، وقال بكر بن العلاء القشيري المالكي : ليس لأحد أن يختار بعد المائتين من الهجرة ، وقال آخرون ليس لأحد أن يختار بعد الاوزاعي ، وسفيان الثـوري ، ووكيع بن الجراح ، وعبد الله بن المبارك ، وقالت طائفة : ليس لأحد أن يختار بعـد الشافعي ، واختلف المقلدون من أتباعه فيمن يؤخذ بقوله من المنتسبين اليه ويكون له وجه يفتى ويحكم به من ليس كذلك وجعلوهم ثلاث مراتب : طائفة أصحاب وجوه كابن شريح والقفال وأبي حامد ، وطائفة أصحاب احتمالات لا أصحاب وجوه ، كأبي المعالي ، وطائفة ليسوا أصحاب وجوه ولا احتمالات ، كابن حامد وغيره ، واختلفوا

---

(١) النساء : ٥٩

متى انسد باب الاجتهاد على أقوال كثيرة ماأنزل الله بها من سلطان ، وعند هؤلاء أن الارض قد خلت من قائم لله بحججه ، ولم يبق فيها من يتكلم بالعلم ، ولم يحل لأحد بعد أن ينظر في كتاب الله تعالى ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم لأخذ الاحكام منها ، ولا يقضي ولا يفتي بما فيها حتى يعرضه على قول مقلده ومتبوعه ، فان وافقه حكم به وأفتي به والا رده ولم يقبله ، وهذه أقوال كما ترى قد بلغت من الفساد والبطلان والتناقض والقول على الله بلا علم وابطال حججه والزهد في كتابه وسنة رسوله وتلقي الاحكام منهما مبلغها ، ويأبى اللهالا أن يتم نوره ، ويصدق قول رسوله انه لاتخلو الارض من قائم لله بحجته ، ولن تزال طائفة من أمته على محض الحق الذي بعثه به ، وانه لايزال يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الامة من يجدد لها دينها •

ويكفي في فساد هذه الاقوال أن يقال لاربابها : فاذا لم يكن لأحد أن يختار بعد من ذكرتم فمن أين وقع لكم اختيار تقليدهم دون غيرهم ؟ وكيف حرمتم على الرجل أن يختار مايؤديه اليه اجتهاده من القول الموافق لكتاب الله وسنة رسوله ، وأبحتم لأنفسكم اختيار قول من قلدتموه ، وأوجبتم على الامة تقليده ، وحرمتم تقليد من سواه ، ورجحتموه على تقليد من سواه ، فما الذي سوغ لكم هذا الاختيار الذي لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ، ولا اجماع ولا قياس ، ولا قول صاحب ، وحرمتم اختيار ما عليه الدليل من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة •

ويقال لكم : فاذا كان لايجوز الاختيار بعد المائتين عندك ولا عند غيرك فمن أين ساغ لك وأنت لم تولد الا بعد المائتين بنحو ستين سنة ــ أن تختار قول مالك دون من هو أفضل منه من الصحابة أجمعين ، أو من هو مثله من فقهاء الامصار ، أو ممن جاء بعده ، وموجب هذا القول : ان أشهب وابن الماجشون ومطرف ابن عبد الله واصبغ بن الفرج وسحنون بن سعيد وأحمد ابن المعدل ومن في طبقتهم من الفقهاء كان لهم أن يختاروا الى انسلاخ ذي الحجة من سنة مائتين ، فلما استهل هلال المحرم من سنة احدى ومائتين وغابت الشمس من تلك الليلة حرم عليهم في الوقت ــ بلا مهلة ــ ما كان مطلقا لهم من الاختيار •

ويقال للآخرين : أليس من المصائب وعجائبالدنيا تجويزكم الاختيار والاجتهاد

والقول في دين الله بالرأي والقياس لمن ذكرتم من أئمتكم ؟ ثم لاتجيزون الاختيار والاجتهاد لحفاظ الاسلام ، وأعلم الامة بكتاب الله وسنة رسوله وأقوال الصحابة وفتاواهم ، كأحمد بن حنبل ، والشافعي ، واسحق بن راهويه ، ومحمد بن اسمعيل البخاري ، وداود بن علي ، ونظرائهم ، على سعة علمهم بالسنن ، ووقوفهم على الصحيح منها والسقيم ، وتحرسهم في معرفة أقوال الصحابة والتابعين ، ودقة نظرهم ولطف استخراجهم للدلائل ، ومن قال منهم بالقياس فقياسه من أقرب القياس الى الصواب ، وأبعده عن الفساد ، وأقربه الى النصوص ، مع شدة ورعهم وما منحهم الله من محبة المؤمنين لهم ، وتعظيم المسلمين علماءهم وعامتهم لهم •

فان احتج كل فريق منهم بترجيح متبوعه بوجه من وجوه التراجيح — في تقدم زمان أو زهد أو ورع ، أو لقاء شيوخ وأئمة لم يلقهم من بعده ، أو كثرة اتباع لم يكونوا لغيره — أمكن الفريق الآخر أن يبدوا لمتبوعهم من الترجيح بذلك أو غيره ماهو مثل هذا أو فوقه ، وأمكن غير هؤلاء كلهم أن يقولوا لهم جميعاً : نفوذ قولكم هذا — ان لم تأنفوا من التناقض — يوجب عليكم أن تتركوا قول متبوعكم لقول من هو أقدم منه من الصحابة والتابعين ، وأعلم وأورع وأزهد ، وأكثر اتباعا وأجل ، فأين أتباع ابن عباس وابن مسعود وزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل ، بل اتباع عمر وعلي من أتباع الأئمة المتأخرين في الكثرة والجلالة ؟ وهذا أبو هريرة قال البخاري : حمل العلم عنه ثمانمائة رجل ما بين صاحب وتابع ، وهذا زيد بن ثابت من جملة أصحاب عبد الله ابن عباس : وأين في اتباع الأئمة مثل عطاء وطاوس ومجاهد وعكرمة وعبيد الله ابن عبد الله بن عتبة وجابر بن زيد ؟ وأين في اتباعهم مثل السعيدين والشعبي ومسروق وعلقمة والاسود وشريح ؟ وأين في اتباعهم مثل نافع وسالم والقاسم وعروة وخارجة بن زيد وسليمان ابن يسار وأبي بكر ابن عبد الرحمن ؟ فما الذي جعل الأئمة باتباعهم أسعد من هؤلاء باتباعهم ولكن أولئك واتباعهم على قدر عصرهم ، فعظمهم وجلالتهم وكبرهم منع المتأخرين من الاقتداء بهم ، وقالوا بلسان قالهم وحالهم هؤلاء كبار علينا لسنا من زبونهم ، كما صرحوا وشهدوا على أنفسهم ، فان أقدارهم تتقاصر عن تلقي العلم من القرآن والسنة ، وقالوا لسنا أهلا لذلك ، لا لقصور الكتاب والسنة ، ولكن لعجزنا نحن وقصورنا ، فاكتفينا بمن هو أعلم بهما منا •

فيقال لهم : فلم تنكرون على من اقتدى بهما ، وحكمهما ، وتحاكم اليهما ، وعرض أقوال العلماء عليهما فما وافقهما قبله وما خالفهما رده ؟ فهب أنكم لم تصلوا الى هذا العنقود فلم تنكرون على من وصل اليه وذاق حلاوته ؟ وكيف تحجرتم الواسع من فضل الله الذي ليس على قياس عقول العالمين ولا اقتراحاتهم ؟ وهم وان كانوا في عصركم ونشأوا معكم وبينكم وبينهم نسب قريب فالله يمن على من يشاء من عباده ، وقد أنكر الله سبحانه على من رد النبوة : بأن الله صرفها عن عظماء القرى وعن رؤسائها وأعطاها لمن ليس كذلك بقوله :(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِياً ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)[1] .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مثل أمتي كالمطر ، لايدري أوله خير أم آخره » وقد أخبر الله سبحانه عن السابقين بأنهم (ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِيْنَ . وَقَلِيْلٌ مِنَ الآخِرِيْنَ)[2] وأخبر سبحانه أنه : (بَعَثَ فِي الأُمِّيِّيْنَ رَسُوْلاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوْا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِيْنٍ)[3] . وقال: (وَآخَرِيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ)[3] ثم اخبر ان (ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيْمِ)[3] انتهى ماذكره الحافظ بن القيم في كتابه أعلام الموقعين .

وقد تبين منه أن ماذكره النبهاني ــ تبعا لاسلافه الزائغين ــ دليلا على جهله وافلاسه من فنون العلم فروعها وأصولها ، اذ لايقول بمقالته الا من هو أجهل من ابن بوم ممن هو على شاكلته .

(الوجه الرابع من الوجوه الدالة على فساد قول الغبي النبهاني) أن كل ماليس عليه اثارة من علم ليس بمقبول ، وأن الاجتهاد ليس بنبوة حتى يقال أنه ختم بفلان

---

(١) الزخرف : ٣٢ ـ (٢) الواقعة : ١٣ ، ١٤
(٣) الجمعة : ٢ ، ٣ ، ٤

وفلان ، أما النبوة فقد دل نص الكتاب والسنة على ختمها قال تعالى :

(ما كَانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلكِنْ رَسُوْلَ اللهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّيْنَ)[1]

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة مرفوعا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : (مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله الا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين) بل ان الدليل العقلي قام على ذلك أيضا ، وهو كمال الشريعة وشمولها للاحكام على اختلاف الاعصر والازمان ، وصيانتها من تطرق التغيير والتبديل بسبب اعجازها ، مع كونها أوسط الشرائع ، اذ لا غلو فيها ولا تقصير .

وهذا كله قد دل على أن النبوة ختمت بالخاتم صلى الله عليه وسلم ، أما الاجتهاد فلم نر على ختامه دليلا لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، بل ولا من أقوال الصحابة ، بل رأينا مايدل على أن علم الشريعة وعلمائها باقون الى قيام الساعة ، روى كميل بن زياد النخعي ، قال : أخذ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه بيدي فأخرجني ناحية الجبانة ، فلما أصحر جعل يتنفس ، ثم قال : ياكميل بن زياد القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها ، احفظ عني ماأقول لك ، الناس ثلاثة : فعالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع اتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، ولم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجؤا الى ركن وثيق ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم يزكوا على الانفاق ، وفي رواية على العمل ، والمال تنقصه النفقة ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، ومحبة العلم دين يدان بها ، العلم يكسب العالم الطاعة في حياته ، وجميل الاحدوثة بعد وفاته ، وصنيعة المال تزول بزواله ، مات خزان الاموال وهم أحياء ، ان ههنا علما ، والعلماء باقون مابقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة ، هاه هاه ، ان ههنا علما وأشار بيده الى صدره لو أصبت له حملة بلى أصبته لقنا غير مأمون عليه ، يستعمل آلة الدين للدنيا ، يستظهر بحجج الله على كتابه ، وبنعمه على عباده ، أو منقادا لاهل الحق لا بصيرة له في أحنائه ، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة لا ذا ولا ذاك ، أو منهوما للذات ، سلس القياد للشهوات ، أو مغرى بجمع

---

(1) الاحزاب : ٤٠

الاموال والادخار ، ليسا من دعاة الدين ، أقرب شبها بهم الانعام السائمة ، لذلك يموت العلم بموت حامليه ، اللهم بلى لن تخلو الارض من قائم لله بحجته ، كيلا تبطل حجج الله وبيناته ، أولئك الاقلون عددا ، الاعظمون عند الله قيلا ، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها الى نظرائهم ، ويزرعوها في قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة الامر ، فاستلانوا ماستوعر منه المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الاعلى ، أولئك خلفاء الله في أرضه ودعاته الى دينه ، هاه هاه شوقا الى رؤيتهم ، وأستغفر الله لي ولك اذا شئت فقم) • ذكره أبو نعيم في الحلية وغيره ، قال أبو بكر الخطيب : هذا حديث حسن من أحسن الاحاديث معنى وأشرفها لفظا •

وقد شرح هذا الحديث شرحا مفصلا الامام بن قيم الجوزية في كتابه (مفتاح دار السعادة) ومما قال في شرحه ـ عند الكلام على قوله اللهم بلى لن تخلو الارض من قائم لله بحجج الله ـ ويدل عليه الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم (لاتزال طائفة من أمتي على الحق ، لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك) ويدل عليه أيضا مارواه الترمذي ، عن قتيبة ، حدثنا حماد بن يحيى الابح ، عن ثابت عن أنس ، قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : (مثل أمتي مثل المطر لايدرى أوله خير أم آخره) قال هذا حديث حسن غريب ، ويروى عن عبد الرحمن بن مهدي أنه كان يثبت حماد بن يحيى الابح ، وكان يقول هو من شيوخنا ، وفي الباب عن عمار وعبد الله بن عمرو ، فلو لم يكن في أواخر الامة قائم بحجج الله مجتهد لم يكونوا موصوفين بهذه الخيرية •

وأيضا : فان هذه الامة أكمل الامم ، وخير أمة أخرجت للناس ، ونبيها خاتم النبيين ، لا نبي بعده ، فجعل الله العلماء فيها كلما هلك عالم خلفه عالم ، لئلا تطمس معالم الدين وتخفى أعلامه ، وكان بنو اسرائيل كلما هلك نبي خلفه نبي ، فكانت تسوسهم الانبياء ، والعلماء لهذه الامة كالانبياء في بني اسرائيل ، وأيضا ففي الحديث الآخر (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله) ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، وهذا يدل على أنه لايزال محمولا في القرون قرنا بعد قرن ، وفي صحيح أبي حاتم من حديث الخولاني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لايزال الله يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم في طاعته) وغرس

الله هم أهل العلم والعمل ، فلو خلت الارض من عالم خلت من غرس الله ، انتهى المقصود من نقله .

فعلم من هذا الوجه : بطلان ماذكره الغبي النبهاني في مقدمة كتابه من الهذيان ، وانه بعيد عن العلم والمعرفة لافكر له ولا ذوق والامر لله .

(الوجه الخامس) قوله : أما الاجتهاد فلا يدعيه اليوم الا مختل العقل والدين، الا من طريق الولاية ، كما قاله الشيخ الاكبر الخ .. لامعنى له ولا محصل ، وقد أسلفنا لك أنه لايمكن أن يخلو الزمان من مجتهد ، كما ذكره الاصوليون من مذهب الحنابلة وأهل الحديث ، ولم كان الجامع لشروط الاجتهاد المتأهل لأخذ دينه من الكتاب والسنة مختل العقل والدين ؟ فهل هذا الا كلام جاهل قد تخبطه الشيطان من المس ؟ ثم مامعنى قوله : الا من طريق الولاية الخ .. فهل رأى أحد من علماء الفروع والاصول هذه العبارة في باب الاجتهاد ؟ ولكن لابدع أن يصدر مثل هذا الهذيان عن مثل هذا المبتدع الجاهل ، والجاهل يعمل بنفسه مالا يعمل العدو بعدوه ، والشيخ محيي الدين ممن كان يدعي الاجتهاد المطلق ، كما دلت عليه نصوص كتبه وقال في شعر له :

نسبوني الى ابن حزم وأني	لست ممن يقول قال ابن حزم
بل ولا غيره فان كلامي	قال نص الكتاب ذلك حكمي
أو يقول الرسول أو أجمع	الخلق على ماأقول ذلك علمي

أشار رحمه الله في هذه الابيات الى أنه يأخذ الاحكام الدينية من الكتاب والسنة والاجماع وهذه عنده هي الدلائل دون القياس والكلام مستوفى في محله .

(الوجه السادس) قال : نقل عن ابن حجر المكي أنه قال : لما ادعى الجلال السيوطي الاجتهاد قام عليه معاصروه ، ورموه عن قوس واحدة ، وكتبوا له سؤالا فيه مسائل أطلق الاصحاب فيها وجهين ، وطلبوا منه ان كان عنده أدنى مراتب الاجتهاد وهو اجتهاد الفتوى فليتكلم على الراجح من تلك الاوجه ، وعلى الدليل على قواعد المجتهدين ، فرد السؤال من غير كتابة ، واعتذر أن له أشغالا تمنعه من النظر في ذلك الخ ..

(أقول) إن صدق ابن حجر في نقله فانه لايوثق به ، فقد افترى على شيخ الاسلام أعظم من ذلك ، وتبين كذبه عليه كما سيجيء ، كان (١) الجواب عن الامام السيوطي عليه الرحمة أنه لايلزم المجتهد أن يكون عالما بما حواه اللوح المحفوظ من العلوم .

وقد نقل أن الامام مالك سئل عن أربعين مسألة ، فقال في جواب ست وثلاثين مسألة منها لاأدري ، وهكذا نقل عن الامام أبي حنيفة وغيره (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)[٢] .

(الوجه السابع) قول ابن حجر بل قال ابن الصلاح ومن تبعه أنها انقطعت من نحو ثلاثمائة سنة ، ولابن الصلاح نحو ثلاثمائة سنة ، أي لأنه من أهل القرن السادس ، فتكون اليوم قد انقطعت من ستمائة سنة ، أي بالنظر الى عصر ابن حجر الخ ...

أقول : هذا كلام ساقط عن درجة الاعتبار ، لما قدمناه في الوجه الثالث من كلام الحافظ ابن القيم ، ولما أوردناه من النصوص والدلائل على بطلان هذا القول ، وابن حجر مضطرب الكلام لا يثبت على قول ، فانه ذكر هنا أن الاجتهاد قد انقطع من ستمائة سنة بالنظر الى عصره ، مع أنه ذكر في كتابه الجوهر المنظم عند شتمه لشيخ الاسلام ابن تيمية مانصه :

ولقد تصدى شيخ الاسلام ، وعالم الانام ، المجمع على جلالته واجتهاده ، وصلاحه وامامته ، التقي السبكي ـ قدس الله روحه ونور ضريحه ـ للرد في تصنيف مستقل ، أفاد فيه وأجاد ، وأصاب وأوضح بباهر حججه طريق الصواب ، فشكر الله مسعاه ، وأدام عليه شآبيب رحمته ورضاه اه

فانظر الى ابن حجر كيف ادعى الاجماع على اجتهاد السبكي لكونه على منهجه ومسلكه في الابتداع واتباع الهوى ، ثم انه لم تسمح نفسه في الاقرار باجتهاد من لم يبلغ هو ولا أشياخه الى كعب علاه ، أعني أبا العباس تقي الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى ، فقد قال في الجوهر المنظم ـ بعد عبارته السابقة ـ هذا ماوقع من ابن

---

(١) هكذا في الاصل ولعل المراد ولو صح ذلك كان الجواب .. الخ (٢) البقرة : ٢٥٥

تيمية مما ذكر ــ وان كان عثرة لاتقال أبدا ، ومصيبــة يستمر عليه شؤمها دوامــا وسرمدا ــ ليس بعجب ، فانه سولت له نفسه وهواه وشيطانه أن ضرب مع المجتهدين بسهم صائب ، وما درى المحروم أنه أتى بأقبح المعائب ، الى آخر ما قال مما تبــين منه لدى كل منصف اتباع ابن حجر لهواه ، واختياره سبيل الضــلال ، عامله الله بعدله •

(والمقصود) أن كلام مثل هؤلاء الغلاة لايجوز أن يحتج به ، فهم يتـكلمون على حسب أهوائهم ، لا أنهم يتبعون الدليل ، ويسلكون سواء السبيل ، فسقــط كلام الغافل النبهاني ، ولا يجوز الالتفات اليه بوجه من الوجوه •

(الوجه الثامن) من الوجوه الدالة على سقوط مقالة الغبي النبهاني : أن كل واحد من الأئمة صرح بأنه اذا صح الحديث يجب اتباعه والأخذ به ، ولذلك صــرح كثير من الأئمة بوجوب الاخذ بالحديث والاضــراب عن كل مايخالفه من أقــوال المجتهدين ، وفي كتاب (أعلام الموقعين) وقد نهى الأئمة الاربعة عن تقليدهم ، وذموا من أخذ أقوالهم بغير حجة ، فقال الشافعي : مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثــل حاطب ليل ، يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لايدري ، ذكره البيهقي ، وقال اسمعيل بن يحيى المزني في أول مختصره : اختصرت هذا من علم الشافعي ومن معنى قوله ، لاقربه على من أراده ، مع اعلامه نهيه عن تقليده وتقليد غيره ، لينظر فيه لدينه ويحتاط لنفسه ، وقال أبو داود قلت لأحمد الاوزاعي هو اتبع أو مالك ؟ قال لاتقلد دينك أحدا من هؤلاء ، ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فخذ به ، ثم التابعي بعد الرجل فيه مخير ، وقد فرق أحمد بين التقليد والاتباع ، فقال أبو داود : سمعته يقول الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعن أصحابه ، ثم هو من بعد في التابعين مخير ، وقال أيضا : لاتقلدني ، و لاتقلد مالكا ، ولا الثورى ، ولا الاوزاعي ، وخذ من حيث أخذوا ، وقال : من قلة فقه الرجــل أن يقلد دينه الرجل ، وقال بشر بن الوليد : قال أبو يوسف لايحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا ، وقد صرح مالك بأن من ترك قول عمر ابن الخطاب لقــول ابراهيم النخعي أنه يستتاب ، فكيف بمن ترك قول الله ورسوله لقول من هو دون إبراهيم أو مثله ؟! وقال جعفر الفريابي : حدثني أحمد بن ابراهيم الدورقي ، حدثني الهيثم بن جميل ، قال : قلت لمالك ابن أنس يا أبا عبد الله ان عندنا قوما وضعوا كتبا

يقول أحدهم حدثنا فلان عن فلان عن عمر بن الخطاب بكذا وكذا ، وفلان عن ابراهيم بكذا ، ويأخذ بقول ابراهيم ، قال مالك : وصح عندهم قول عمر ؟ قلت : انما هي رواية كما صح عندهم قول ابراهيم ، فقال مالك : هؤلاء يستتابون انتهى •

(الوجه التاسع) ان قول النبهاني البليد يقتضي أن يقدم كلام من يقلد اليوم على ما صح من الاحاديث النبوية المخالفة لقول المجتهد وذلك هو عين الخطأ ، وقد سمعت من بعض قضاة الاتراك أنه قال اذا رأيت نصا في منية المصلي ورأيت حديثا في صحيح الامام البخاري يخالف ذلك النص آخذ بما في المنية واترك الحديث الصحيح ولا أعمل به ، فانظر الى هذه الغباوة والجهل العظيم •

(وقد سئل) أبو العباس تقي الدين شيخ الاسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه الزكية ــ عن رجل تفقه على مذهب من المذاهب ، وتبصر فيه ، واشتغل بعده بالحديث ، فوجد أحاديث صحيحة لايعلم لها ناسخا ولا مخصصا ولا معارضا ، وذلك المذهب فيه مايخالف تلك الاحاديث ، فهل له العمل بالمذهب أو يجب عليه الرجوع الى العمل بالحديث ومخالفة مذهبه ؟ •

فأجاب : الحمد لله رب العالمين ، قد ثبت في الكتاب والسنة والاجماع أن الله تعالى افترض على العباد طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يوجب على هذه الامة طاعة أحد بعينه في كل مأمر به ونهى عنه الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى كان صديق الامة وأفضلها بعد نبيها عليه الصلاة والسلام ورضي الله عنه يقول : أطيعوني ماأطعت الله تعالى ، فاذا عصيت الله عز وجل فلا طاعة لي عليكم • واتفقوا كلهم على أنه ليس أحد معصوما في كل مايأمربه وينهى عنه الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال غير واحد من الأئمة : كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء الأئمة الاربعة ــ رحمهم الله تعالى أجمعين ــ قد نهوا الناس عن تقليدهم في كل ما يقولونه ، وذلك هو الواجب ، قال الامام أبو حنيفة : هذا رأيي ، وهذا أحسن مارأيت ، فمن جاء برأي خير منه قبلناه ، ولهذا لما اجتمع أفضل أصحابه أبو يوسف بامام دار الهجرة مالك بن أنس ، وسأله عن مسألة الصاع وصدقة الخضراوات ، ومسألة الاجناس ، فأخبره مالك رحمه الله تعالى بما دلت عليه السنة في ذلك ، فقال : رجعت لقولك يا أبا عبد الله ، ولو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت ، ومالك رحمه الله تعالى كان يقول : انما

أنا بشر أصيب وأخطي ، فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة أو كلاما هذا معناه ، والشافعي رحمه الله تعالى كان يقول : من ضيق علم الرجل أن يقلد دينه الرجال ، وقد قال : لاتقلد دينك الرجال فانهم لم يسلموا من أن يغلطوا (١) وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين) ولازم ذلك أن من لم يفقهه الله عز وجل في الدين لم يرد به خيرا ، فيكون التفقه في الدين فرضا ، والتفقه في الدين معرفة الأحكام الشرعية بأدلتها السمعية ، فمن لم يعرف ذلك لم يكن متفقها في الدين .

لكن من الناس من قد يعجزعنها فيلزمه مايقدر عليه ،ومن كان قادرا على الاستدلال فقيل يحرم عليه التقليد مطلقا ، وقيل يجوز مطلقا ، وقيل يجوز عند الحاجة كما اذا ضاق الوقت عن الاستدلال ، وهذا القول أعدل الاقوال ان شاء الله تعالى ، والاجتهاد ليس هو أمرا واحدا لايقبل التجزي والانقسام ، بل يكون الرجل مجتهدا في فن أو باب أو مسألة دون فن وباب ومسألة ، وكل فاجتهاده بحسب وسعه ، فمن نظر في مسألة قد تنازع العلماء فيها فرأى مع أحد القولين نصوصا لم يعلم لها معارضا بعد نظر مثله فهو بين أمرين : اما أن يتبع قول القائل الاخير لمجرد كونه الامام الذي اشتغل على مذهبه ــ ومثل هذا ليس بحجة شرعية ، بل مجرد عادة تعارضها عادة غيره واشتغاله بمذهب امام آخر ــ واما أن يتبع القول الذي ترجح في نظره بالنصوص الدالة عليه ، فحينئذ موافقته لامام يقاوم ذلك الامام ، وتبقى النصوص النبوية سالمة في حقه عن المعارض بالعمل ، فهذا هو الذي يصلح ، وانما تنزلنا هذا التنزل لأنه قد يقال : ان نظر هذا قاصر ، وليس اجتهاده تاما في هذه المسألة لضعف آلة الاجتهاد في حقه . اما اذا قدر على الاجتهاد التام الذي يعتقد معه أن القول الآخر ليس معه مايدفع النص فهذا يجب عليه اتباع النصوص ، وان لم يفعل كان متبعا للظن وما تهوى الانفس ، وكان من أكبر العصاة لله تعالى ورسوله ، بخلاف من يقول للقول الآخر حجة راجحة على هذا النص ، ويقول أنا لا أعلمها ، فهذا يقال له قد قال الله تعالى (فَاتَّقُوا اللهَ مااسْتَطَعْتُمْ)والذي تستطيعه من العلم والفقه في هذه

---

(١) نص كلام شيخ الاسلام حسبما في المجموع جلد ٢٠ ص ٢١١ هو : والشافعي كان يقول : اذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط واذا رأيت الحجة موضوعة على الطريق فهي قولي ، وفي مختصر المزني لما ذكر أنه اختصره من مذهب الشافعي لمن أراد معرفة مذهبهقال : مع اعلامه نهيه عن تقليده وتقليد غيره من العلماء والامام أحمد كان يقول لاتقلدني ولا تقلد مالكاولا الشافعي ولا الثوري ، وتعلموا كما تعلمنا ، وكان يقول من قلة علم الرجل أن يقلد دينه الرجال وقال لاتقلد دينك الرجال فانهم لن يسلموا من أن يغلطوا وقد ثبت .. الخ

المسألة قد دل على أن هذا القول هو الراجح ، فعليك أن تتبع ذلك ، ثم أن تبين لك فيما بعد أن للنص معارضا راجحا كان حكمك في ذلك حكم المجتهد المستقل اذا تغير اجتهاده وانتقال الانسان من قول الى قول لأجل ماتبين له من الحق هو محمود عليه ، بخلاف اصراره على قول لاحجة معه عليه ، وترك القول الذي وضحت حجته ، أو الانتقال من قول الى قول بمجرد عادة واتباع هوى ، فهذا مذموم ، واذا كان المقلد قد سمع حديثا وتركه — لاسيما اذا كان قد رواه أيضا عدل — فمثل هذا اذا وجد لايكون عذرا في ترك النص ، وقد بينا فيما كتبناه في الدفع عن الأئمة الاعلام نحو عشرين عذرا في ترك العمل ببعض الاحاديث ، وبينا أنهم معذورون في الترك لتلك الاعذار ، وأما نحن فمعذورون في تركها لهذا القول ، فمن ترك الحديث لاعتقاده أنه لم يصح أو رواية مجهول أو نحو ذلك ويكون غيره قد علم صحته وثقة راويه فقد زال عذر ذلك في حق هذا ، ومن ترك الحديث لاعتقاده أن ظاهر القرآن يخالفه أو القياس أو عمل لبعض الانصار ، وقد تبين لآخر أن ظاهر القرآن لايخالفه ، وأن نص الحديث الصحيح مقدم على الظواهر ، ومقدم على القياس والعمل ، لم يكن عذر ذلك الرجل عذرا في حقه ، فان ظهور المدارك الشرعية للاذهان وخفائها عنها أمر لايضبط طرفاه ، لاسيما اذا كان التارك للحديث معتقدا أنه قد ترك العمل به المهاجرون والانصار — أهل المدينة النبوية وغيرها — الذين يقال لهم لايتركون الحديث الا لاعتقادهم أنه منسوخ ، أو معارض براجح ، وقد بلغ من بعدهم أن المهاجرين والانصار لم يتركوه ، بل قد عمل به بعضهم أو من سمعه منهم أو نحو ذلك مما يقدح في هذا المعارض للنص ، واذا قيل لهذا المستفتي المسترشد أنت أعلم أم الامام الفلاني كانت هذه معارضة فاسدة ، لأن الامام الفلاني قد خالفه في هذه المسألة من هو نظيره من الأئمة ، ولست أعلم من هذا ولا هذا ، ولكن نسبة هؤلاء الأئمة الى هؤلاء كنسبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وأبي ومعاذ ونحوهم من الأئمة وغيرهم ، فكما أن هؤلاء الصحابة بعضهم لبعض أكفاء في موارد النزاع ، فاذا تنازعوا في شيء ردوه الى الله ورسوله ، وان كان بعضهم قد يكون أعلم في مواضع أخر ، وكذلك موارد النزاع بين الأئمة ، وقد ترك الناس قول عمر وابن مسعود رضي الله عنهما في مسألة تيمم الجنب ، وأخذوا بقول أبي موسي الاشعري وغيره لما احتج بالكتاب والسنة ، وتركوا قول عمر رضي الله تعالى عنه في دية الاصابع وأخذوا بقول معاوية ابن أبي سفيان ، لما كان روى من لسان النبي صلى الله عليه وسلم ، قال :

(هذه وهذه سواء) وقد كان بعض الناس يناظر ابن عباس في المتعة ، فقال له : قال أبو بكر قال عمر ، فقال ابن عباس : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقولون قال أبو بكر قال عمر — لما سئل عنها فأمر بها فعارضوه بقول عمر فبين أن عمر لم يرد ما يقولونه ، فألحوا عليه ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق أن يتبع أم عمر ؟ مع علم الناس أن أبا بكر وعمر أعلم من ابن عمر وابن عباس رضي الله تعالى عنهما . ولو فتح هذا الباب لوجب أن يعرض عن أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ويبقى كل امام في اتباعه بمنزلة النبي في أمته ، وهذا تبديل للدين ، وشبيه بما عاب الله تعالى به النصارى في قوله : (اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُم ارْباباً من دُوْنِ الله والْمَسِيْحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَما أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا إلهاً واحِداً لا إله إلا هُوَ سُبْحَانَه عَمَّا يُشْرِكُوْنَ)[1] والله سبحانه أعلم انتهى .

(الوجه العاشر) انه يفهم من كلام النبهاني البليد : أنه يجب على المسلمين منذ نحو ألف سنة في مشارق الارض ومغاربها أن يقلدوا أحد المجتهدين الاربعة ، ومن أخذ دينه من الكتاب والسنة ، أو قلد غير هؤلاء — من صحابي أو غيره — خرج عن جادة الصواب ، وسلك غير سبيل المؤمنين ، هذا لازم من لوازم كلامه الباطل ، وقوله العاطل ، وهو مردود لم يقل به عالم يعتد بعلمه .

وفي كتاب (أعلام الموقعين) للحافظ بن القيم عليه الرحمة : هل يلزم المستفتي أن يجتهد في أعيان المفتين ويسأل الا علم والا دين أم لايلزمه ذلك ؟ فيه مذهبان كما سبق وبينا مأخذهما — والصحيح أنه يلزمه ، لأنه المستطاع من تقوى الله تعالى المأمور بها كل أحد ، قال : وتقدم أنه اذا اختلف عليه مفتيان أحدهما أورع والآخر أعلم فأيهما يجب تقليده ؟ فيه ثلاثة مذاهب سبق توجيهها ، وهل يلزم العامي أن يتمذهب ببعض المذاهب المعروفة أم لا ؟ فيه مذهبان : أحدهما لايلزمه ، وهو الصواب المقطوع به ، اذ لا واجب الا ماأوجبه الله ورسوله ، ولم يوجب الله ورسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الامة فيقلده دينه دون غيره ، وقد انطوت القرون الفاضلة مبرأة مبرأ أهلها من هذه النسبة ، بل لايصح

---

(١) التوبة : ٣١

للعامي مذهب ، ولو تمذهب به فالعامي لا مذهب له ، لأن المذهب انما يكون لمن له نوع نظر واستدلال ، ويكون بصيرا بالمذاهب على حسبه ، أو لمن قرأ كتابا في فروع ذلك المذهب وعرف فتاوى امامه وأقواله ، وأما من لم يتأهل لذلك البتة ، بل قال أنا شافعي أو حنبلي أو غير ذلك لم يصر كذلك بمجرد القول ، كما لو قال أنا فقيه أو نحوي أو كاتب لم يصر كذلك بمجرد قوله ، يوضحه أن القائل أنه شافعي أو مالكي أو حنفي يزعم أنه متبع لذلك الامام سالك طريقه ، وهذا انما يصح اذا سلك سبيله في العلم والمعرفة والاستدلال ، فاما مع جهله وبعده جدا عن سيرة الامام وعلمه وطريقه فكيف يصح له الانتساب اليه ، الا بالدعوى المجردة ، والقول الفارغ من كل معنى والعامي لايتصور أن يصح له مذهب ، ولو تصور له ذلك لم يلزمه ولا لغيره ، ولا يلزم أحدا قط أن يتمذهب بمذهب رجل من الامة ، بحيث يأخذ أقواله كلها ويدع أقوال غيره ، وهذه بدعة قبيحة حدثت في الامة لم يقل بها أحد من أئمة الاسلام ، وهم أعلى رتبة ، وأجل قدرا وأعلم بالله ورسوله من أن يلزموا الناس بذلك ، وأبعد منه قول من قال يلزمه أن يتمذهب بمذهب عالم من العلماء ، وأبعد منه قول من قال يلزمه أن يتمذهب بأحد المذاهب الاربعة .

فيالله العجب ماتت مذاهب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومذاهب التابعين وتابعيهم وسائر أئمة الاسلام وبطلت جملة الا مذاهب أربعة أنفس فقط من بين سائر الأئمة والفقهاء ، وهل قال ذلك أحد من الأئمة أودعا اليه أو دلت عليه لفظة واحدة من كلامه ؟! .

والذي أوجبه الله تعالى ورسوله على الصحابة والتابعين وتابعيهم هو الذي أوجبه على من بعدهم الى يوم القيامة ، لايختلف الواجب ولا يتبدل ، وان اختلفت كيفيته أو قدره باختلاف القدرة والعجز ، والزمان والمكان والحال ، فذلك أيضا تابع لما أوجبه الله تعالى ورسوله ، ومن صحح للعامي مذهبا قال هو اعتقد أن هذا المذهب الذي انتسب اليه هو الحق فعليه الوفاء بموجب اعتقاده ، وهذا الذي قاله هؤلاء لو صح للزم منه تحريم استفتاء أهل غير المذهب الذي انتسب اليه ، وتحريم تمذهبه بمذهب نظير امامه ، أو أرجح منه ، أو غير ذلك من اللوازم التي يدل فسادها على فساد ملزوماتها ، بل يلزم منه أنه اذا رأى نص رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قول خلفائه الاربعة مع غير امامه أن يترك النص وأقوال الصحابة ويقدم عليها قول

من انتسب اليه ، وعلى هذا فله أن يستفتي من شاء من اتباع الأئمة وغيرهم ، ولا يجب عليه ولا على المفتي أن يتقيد بأحد من الأئمة الاربعة باجماع الامة كما لايجب على العالم أن يتقيد بحديث أهل بلده أو غيره من البلاد ، فاذا صح الحديث وجب عليه العمل به ، حجازيا كان أو عراقيا أو شاميا أو مصريا أو يمنيا ، وكذلك لايجب على الانسان التقيد بقراءة السبعة المشهورين باتفاق المسلمين ، بل اذا وافقت القراءة رسم المصحف الامام وصحت في العربية وصح سندها جازت القراءة بها ، وصحت الصلاة بها اتفاقا ، بل لو قرأ بقراءة تخرج عن مصحف عثمان وقد قرأ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة بعده جازت القراءة بها ، ولم تبطل الصلاة بها على أصح الاقوال ، والثاني تبطل الصلاة بها ، وهاتان الروايتان منصوصتان عن الامام أحمد ، والثالث : إن قرأ بها في الركن لم يكن مؤديا لفرضه ، وان قرأ بها في غيره لم تكن مبطلة ، وهذا اختيار أبي البركات ابن تيمية ، لأنه لم يتحقق الاتيان بالركن في الاول ، ولا الاتيان بالمبطل في الثاني ، ولكن ليس له أن يتبع رخص المذاهب ، وأخذ غرضه من أي مذهب وجده فيه ، بل عليه اتباع الحق بحسب الامكان انتهى •

(فظهر لك) مما قررناه في الوجوه العشرة : أن ماذكره النبهاني المسكين من القول بانسداد باب الاجتهاد قول باطل مبتدع ، فانا نعلم بالضرورة أنه لم يكن في عصر الصحابة رجل واحد اتخذ رجلا منهم يقلده في جميع أقواله ، فلم يسقط منها شيئا وأسقط أقوال غيره فلم يأخذ منها شيئا ، ونعلم بالضرورة أن هذا لم يكن في التابعين ، ولا تابعي التابعين ، فليكذبنا المقلدون برجل واحد سلك سبيلهم الوخيمة في القرون الفضيلة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانما حدثت هذه البدعة في القرن الرابع المذموم على لسانه صلى الله عليه وسلم ، فالمقلدون لمتبوعهم في جميع ماقالوه ــ يبيحون به الفروج ، والدماء ، والاموال ، ويحرمونها ، ولا يدرون أذلك صواب أم خطأ ــ على خطر عظيم ، ولهم بين يدي الله موقف شديد ، يعلم فيه من قال على الله مالا يعلم أنه لم يكن على شيء •

وقد أطنب الحافظ ابن القيم عليه الرحمة في كتابه (أعلام الموقعين) الكلام في ذم المقلدين ، وأبطل فيه قول الجهلة بانقطاع الاجتهاد ، وألف جمع من الافاضل في ذلك كتبا مفيدة ، ولولا تعرض هذا الجاهل لهذه المسألة وان لم يكن لها مناسبة لموضوع كتابه مافتحنا فيها فما ، ولا حركنا قلما ، ولكن أبى الله تعالى الا أن يفضح

من تنقص العلماء الاخيار ، وسادات هذه الامة ، وأن يرى النـاس عورته ويغريه بكشفها ، ونعوذ بالله من الخذلان ، وقد أصابته سهـامه الصائبة ، وتبين أنه من أصحاب الدعاوي الكاذبة ، وكان هو الحري بما أنشده :

ومن جهلت نفسه قدره   رأى غيره منه مالا يرى

(ثم ان النبهاني الغبي) عقب مسألة الاجتهاد بمسألة أخرى لا مناسبة لها أيضا بموضوع كتابه ، لكنه أراد أن يظهر عجبه ودعاويه الكاذبة في العلم ، فقال ــ بعد أن هذى وتكلم بكلمات ساقطة تناسب جهله ــ اني سمعت مرارا من بعضهم لزوم تأليف تفسير للقرآن على مقتضى الاذواق العصرية ، وسمعت من رجـل منهم أنه سيفعل ذلك ، ويؤلف تفسيرا بهذه الصفة التي توافق هذا العصر ، وهـو في نفسه لايقدر على فهم متن الاجرومية ، وقال لي بعض من يجتمع عليهم ويسمع كلامهم ــ وقد ثبت في ذهنه بعض نزغاتهم هذه وظنها حقا ــ قد نفعت بتأليفك المسلمين نفعـا عظيما ، ولكن بقي عليك شيء واحد ، فقلت له : ماهـو ؟ قال : أن تؤلف تفسـيرا للقرآن على مقتضى الاذواق العصرية ، فان هذه التفاسير الموجودة قد ألفـوها على مقتضى أذواق أهل العصور السالفة ، وقد تغير الحال الآن ، واختلفت أذواق الناس ومشاربهم ، فيلزم تأليف تفسير يوافقهم ، قال : فأجبت أني لست أهلا لذلك وبيني وبين مرتبة التفسير درجات كثيرة ، لايمكنني الوصول اليها ، وتآليفي كلها جمـع فوائد ، وأكثرها في شؤون النبي صلى الله عليه وسلم من فضائله ومعجزاته ومدائحه ونحو ذلك مما لا رأي لي فيه ، وانما هو نقل صرف ، وتفسير القرآن قد فرغ منه العلماء ، ونقلوه عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ومن بعدهم من أئمة الدين ودونوه في تفاسيرهم هذه الموجـودة ، وهي كافية وافية ، وهي كمـا وافقت أهل العصور السابقة توافق أهل هذا العصر ، فان الاحكام الشرعية التي اشتمل عليهـا القرآن هي صالحة لكل انسان ، وقد استوت فيها العصور والازمان ، وليس للقرآن معان خاصة بأهل العصور السابقة ومعان أخرى خاصة بأهل العصور اللاحقة ، وأما الاذواق والمشارب فهي ان كانت موافقة للشرع فمطلوبها يوجد في هذه التفاسير ، وان كانت مخالفة للشرع فكيف يمكن أن يفسر القرآن بمعـان توافق هذه الاذواق الفاسدة ، والمشارب الكاسدة ، ونحن لايجوز لنا أن نفسر القرآن بعقولنا ، ونطبقه على الاذواق العصرية كما يقوله السفهـاء المخذولون ، ويتجاسـرون على دعوى اقتدارهم على تفسير كلام الله تعالى بافهامهم السقيمة ، وعقولهـم الناقصة ، فـان

تفسير القرآن بالرأي ممنوع شرعا ، ثم انه نقل بعض ماقالوه في الفرق بين التفسير والتأويل ، وتكلم بهذيان يوافق فهم أمثاله ، ثم ذكر قصيدة له مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : والحاصل أن هذه الفرقة المجدوعة المخذولة من طلبة زماننا في غاية الغباوة ، ونقص العقل والدين ، وقد عظم ضررهم على أنفسهم وعلى من يخالطهم ويصغي الى كلامهم من المسلمين ، فانهم مع جمعهم لعقائد شتى من عقائد أهل الزيغ والبدع والوهابية وغيرهم ، واستحسانهم ضلالاتهم ، هم أضر منهم بكثير وذلك أن الوهابية قوم أهل بدعة ظهروا بها في بلاد نجد ، وانتشر مذهبهم الى ماحواليهم من البلاد ، ثم تقلص ظلهم وقلوا وذلوا وانحصروا في أرضهم ، وهم مع كونهم حنابلة أنكر عليهم علماء مذهب الامام أحمد ماهم عليه من الغلو في الدين ، وتضليل المسلمين ، أما هذه الفرقة الجديدة فهي مؤلفة من سائر المذاهب ، بدون علم ولا تقوى ، ولا قواعد يستندون اليها كسائر الفرق ، وانما الجامع بينهم فساد الافكار ، والاعتراض على الأئمة الاخيار ، وهم يختلطون بالناس ويكتبون آراءهم الفاسدة ، ثم أخذ يبدي ويعيد ، ويكرر الشتم على أخيار أهل عصره المعرضين عن بدعه ، ثم تعرض بالذم لما طبع من كتب الشيخين وسائر الكتب السلفية ككتاب (الصارم المنكي) ثم ختم رسالته بقصيدة من شعره الركيك ، ويغاني برسول الله صلى الله عليه وسلم ويشرك به ، هذا ماذكره في هذا الباب ، وهو يشتمل على مفاسد كثيرة ، لايمكن ضبط أقلها ، بل ان كل كلمة من كلماته دلت على باطل ، فكلامه ظلمات بعضها فوق بعض ، وكله ينادي على جهله وغلوه ، ويدل على أنه ممن أنزل الله تعالى فيه : وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ، فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحابِ السَّعِيرِ)[1] ولو أخذنا نتكلم على جميع ماحواه كلامه من المفاسد لطال الكلام جدا ، ولكنا نتكلم على مقاصده على سبيل الاجمال :

(فأقول) حاصل مادل عليه كلامه من المقاصد أمور :

(الاول) أن تفسير القرآن قد أخذ حده ، وعلم قد نضج واحترق ، ولا يمكن أن يستنبط من التنزيل مالم يستنبط .

(الثاني) من الامور التي دل عليها كلامه : أن الذي يتصدى لطلب تفسير

---

(١) الملك : ١٠

مشتمل على الاذواق العصرية وعلومه هو ملحد مبتدع زائغ الى آخر ماذكره فيه من الذم •

(الثالث) أن الوهابية مبتدعة غير أن ضررهم دون من قبلهم •

(الرابع) القدح في ابن تيمية ، وجرح كتبه وكتب ابن القيم وابن قدامة ، هذا مادل عليه كلامه ، ونحن نتكلم علي مطلب مطلب على سبيل الايجاز والاختصار ، وبالله التوفيق وهو المستعان :

(الكلام على كتب التفسير والاحتياج الى تفسير موافق لأفكار أهل العصر)

ان من طالع كتب التفسير المتداولة بين الأيدي اليوم وجدها أعظم مانع من الوقوف على مراد الله تعالى بكتابه الكريم ، فان منها ماهو مشحون بقواعد النحو ووجوهه ، فتراه يذكر في كل آية من الوجوه مايفوت الحصر ، ومنها ماهو مشحون بالمسائل الكلامية ، والقواعد الحكمية ، حتى يصرف الآيات الى ماأصله من الأصول ويؤل النصوص القطعية الى مايوافق معتقده ، اذا نظرت تفسير الرازي والبيضاوي وأبي السعود تعلم حقيقة هذا الكلام ، ومنها مااشتمل على قصص بني اسرائيل وأكاذيبهم وأقوالهم التي تحيلها العقول وتنفر عنها الطباع ، ومنها تفاسير لايدل عليها نقل ولا عقل ولا لغة من اللغات ، كالتفسير الشهير بأنه من باب الاشارة ، ومنها ومنها مما لايحيط به العد والاحصاء •

وقد تكلم على التفسير كلام منصف واقف على الحقيقة : العلامة السيد محمد بدر الدين الحلبي — فسح الله تعالى في مدته وبارك في حياته — في كتاب (التعليم والارشاد) فقال — سلمه الله تعالى بعد أن تكلم على علم التفسير وأن أهل العلم لم يعطوه حقه — والذي ينظر فيما طبع من نحو قرن في مصر — وهي محط رحال العلوم الدينية وكعبة العلوم التي يفد اليها الحجاج من جميع الآفاق والقدوة لكافة أهل الامصار — يرى العجب العجاب ، يرى أن الذي طبع منها الى الآن تفسير الخازن ، تفسير الجلالين بحاشية الصاوي وبحاشية الجمل ، البيضاوي بحاشية الشهاب بقطعة من حاشية السيد ، تفسير فخر الدين الرازي ، تفسير أبي السعود ، تفسير النسفي ، تاج التفاسير ، ابن جرير الطبري ، الدر المنثور للسيوطي ، تفسير ابن عباس ، وبعض تفاسير ضئيلة ، هذه هي كتب التفاسير التي تتداولها أيدي الناس اليوم ، وهي التي يعتمد عليها طلاب العلوم الشرعية في تفسير كتاب الله جل شأنه ، والوقوف على مراده منه •

فأما تفسير الخازن ــ وهو أكثر كتب التفاسير تداولا ، وأعظمها انتشارا بين عامة المسلمين وطلبة العلوم الشرعية ــ فهو الكتاب الذي يقف القلم حائرا عندوصفه، لايدري مايقول فيه ، وما الذي يحذر به المسلمين منه ، وخير مايقال فيه أنه مجموعة الاكاذيب ، ولا أرى الا أن الانسان لو جرد مافيه من الاكاذيب الموضوعة على لسان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والاقاصيص الكاذبة التي وضعها اليهود ــ كقصة بابل والغرانيق وارم ذات العماد وغيرها ــ لكانت فوق نصف الكتاب ، وبعد ذلك فأشياء ان لم تضر لم تنفع •

وهو على اشتماله على هذين الوصفين اللذين هما من أقبح أوصاف المؤلفات فهو العمدة لعامة المسلمين ، وأكثر طلبة العلوم الشرعية ، وأكثر انتشارا بينهم ، ولقد أرى أن نسخه التي نشرت في مصر لاتقل عن مائة ألف نسخة ، فسد بواسطتها عشرة أضعاف هذا العدد من المسلمين ، ودخل عليهم في دينهم ماليس منه من حديث موضوع وتفسير مفترى •

ومن العجيب أن لايوجد في علماء الاسلام من ينهى الناس عن نشر مثل هذه الكتب المفسدة للعلوم والشرائع ، المضرة بالاخلاق والعقائد ، وقد لايخلو بلد من بلاد الاسلام عن قوم من أهل العلم ــ ولو قليلين ــ يعرفون مافي هذه الكتب من المفاسد ، ولا يحظرون على الناس استعمال هذه الكتب لاتقاء شرها ، بل ربما سئلوا عنها فأثنوا عليها خيرا مسايرة لأميال العامة ، ومصانعة لهم فيما هو من أهم مهمات الدين ، قال : وهذا البحث موعدنا به ان شاء الله القسم الثاني من هذا الكتاب ، وهو قسم الارشاد ، وانما غرضنا في هذا القسم النظر في طرق التعليم ، وكتب العلم المستعملة ، وبيان جيدها من رديئها •

وأما تفسير الجلالين بحاشيتيه الجمل والصاوي فهما يساويان تفسير الخازن انتشارا وكثرة تداول ، الا أن انتشار الخازن بيد العوام أكثر ، وانتشار هذين بيد الخاصة نعني طلاب العلوم الشرعية أكثر ، فأما الشرح فهو غاية في الاختصار لايمكن الاستقلال به في فهم كتاب الله تعالى ، مع علل فيه أخر يعلمها من جمع بينه وبين بعض تفاسير المتقدمين الموثوق بها وبمؤلفيها ، وأما حاشيتاه الضخمتان فهما من مؤلفات متأخري أهل العلم بمصر ، وحسبك هذا في معرفة منزلتيهما بين المؤلفات •

ثم انه سلمه الله عقد فصلا في انحطاط العلم ، ثم قال : وأما الكشاف ومختصره للقاضي البيضاوي فهما المشكلة التي لاتحل اجمالا واغلاقا وغموضا ، ولشدة

عراقتهما في ذلك أكثر المتأخرون من تعليق الحواشي والشروح عليهما ، لبيان عبارتهما وتوضيح مقاصدهما ، حتى لو جمعت الحواشي والشروح التي عليهما لأربت على ألف مجلد ، وما ذكره صاحب (كشف الظنون) مما كتب عليهما قليل من كثير ، ولولا أنهما بحيث يخفيان الا على من ألف حل الرموز والطلاسم واستخراج المخبآت لم يعتن من جاء بعدهما بالتوسع في الكتابة عليهما ، والمبالغة في توضيح غوامضهما ، وفوق هذا كله اشتمالهما على مسائل كثيرة خارجة عن التفسير بالمرة ، لاترتبط فيه بوجه من الوجوه ، كالمسائل الكلامية التي حشيا بها كتابيهما ، وهي ليست من فن التفسير ولا من متعلقاته ، وانما كان الغرض من ذكرها بيان معتقديهما والاستشهاد له بكتاب الله .

ويلحق تفسير أبي السعود بهذين التفسيرين ، فانه صورة أخرى لهما مع بعض تغييرات قليلة جدا ، ويلحق تاج التفاسير بتفسير الجلالين ، ونسبته اليه كنسبة تفسير أبي السعود الى تفسيري الكشاف والبيضاوي ، وان اختلف عنه فيسير .

وأما تفسير فخر الدين الرازي ــ وهو كتاب العامة والخاصة وعمدة الناس في هذا الموضوع ــ فأبو حيان المفسر يقول في تفسيره : تفسير الامام فخر الدين فيه كل شيء الا التفسير ، وما أحسن ماترجم به أبو حيان هذا التفسير الكبير ، بل البحر العميق ، ولقد يفتح الانسان جزء من أجزاء هذا التفسير للمراجعة والكشف فيه عن تفسير آية من آي كتاب الله فلا يشعر الا وقد توسط بحرا لجيا لايخلص الانسان منه الى ساحل ، ويظهر مما كتبه الامام فخر الدين في مقدمة كتابه أنه قد أودع كتابه كثيرا مما لاتعلق له بعلم تفسير كتاب الله ، ولا ارتباط له فيه بوجه من الوجوه ، وانما كان غرضه مما جمعه في تفسيره من هذه المسائل الغريبة ــ مع أن الكتاب في تفسير كتاب الله خاصة على مايظهر من كلامه في أول كتابه ــ أن يبرهن على حقيقة ما قاله لبعض مناظريه من أن كتاب الله ــ جل ثناؤه وعلا سلطانه ــ لايمكن استقصاء مافيه من الأسرار ، ولا الاحاطة بما فيه من المعاني والحكم ، ولو كتب في ذلك مئات من المجلدات ، وان فاتحة الكتاب يمكن أن يكتب فيها مجلد ضخم في أحكامها واسرارها ومعانيها ، ولذلك وضع في تفسير الفاتحة مجلدا لرد ما أنكره المنكرون عليه ، وان كان لم يصنع شيئا بالرد عليهم بحشو كتابه بهذه المسائل التي ذكرها ، ولا ارتباط لها بتفسير كتاب الله بوجه من الوجوه ، وكل كلام مولف كلام الله أو غيره يمكن للعالم أن يتوسع في الكتابة عليه الى مثل ماتوسع به الامام فخر الدين في

تفسير كتاب الله ، والمؤلف اذا أغمض عينه وتسامح في تأليفه وراعى المناسب والمجاور ومجاوره استطال في يده حبل الكلام فلم يقف به عند حد •

ولقد رأينا لمتأخر من متأخري المصريين يدعي السحيمي حاشية على شرح عبد السلام على جوهرة التوحيد تقع في أربع مجلدات ضخام على أن الامير وهو أطول باعا منه في علم الكلام وادق نظرا استوعب الكلام على شرح عبد السلام في مجلد صغير ، وكان في قدرة السحيمي أن يضيف الى مجلداته الاربع أربعة أخر ، ولكن رأى أن الاقتصار على هذا المقدار كاف في البلاغ الى ماقصد من البرهان على سعة اطلاعه •

ثم تكلم على تفسير روح المعاني ، وان مصنفه أخذه من تفسير الامام فخر الدين ، الا أنه حذف منه كثيرا من الزوائد ، وأضاف اليه وأحسن غاية الاحسان ، وضم شيئا من أقوال سلف المفسرين ومتقدميهم ، وان لم يميز بين ماقوى سنده من هذه الاقاويل وماهي ، فبقي في الامر بعض لبس وأشكال ، وأضاف اليه أيضا جملة كبيرة من تفاسير المتصوفة ، فلم يكتف رحمه الله بجمع تأويلات المتكلمين التي تأولوا بها القرآن للاستدلال على عقائدهم ، وتطبيقها على مأأدتهم اليه عقولهم منها عملا بقاعدتهم المشهورة عندهم من وجوب تأويل النقل اذا عارض العقل حتى يرجع الى العقل ، فأضاف الى ذلك تأويلات المتصوفة التي صرفوا بها القرآن عن ظاهره الى معان لاتدل الالفاظ العربية عليها بوجه من وجوه الدلالات المعروفة عند الناس ، فجاء كتابه جامعا للطرق الثلاثة : طريقة السلف ، وطريقة المتكلمين ، وطريقة المتصوفة الا أن طريقة السلف لم يتعرض فيها لبيان طرق نقلها وتمييز صحيحها من سقيمها ، ولذلك كان ككتب الحديث التي لايبين فيها سند الحديث وحال رجاله لاتقع الثقة به سيما اذا تعارض مع غيره ولم يقع الترجيح بينهما بوجه من وجوه الترجيح •

وأما تفسير الدر المنثور للجلال السيوطي فقد زعم أنه اختصر به ــ على حسب عادته ــ تفسير ابن جرير ، الذي جمع فيه صحاح الاحاديث المتعلقة بتفسير كتاب الله تعالى ، وبيان أسباب النزول ، وأضاف السيوطي في مختصره أحاديث واهية الاسناد في هذا الموضوع نفسه ، ومزجها بتلك الاحاديث أحاديث الاصل فاختلطت بها حتى لايمكن التمييز بينها ، وقلت الثقة في الجميع •

وربما استبعد أحد أن يضع السيوطي في تفسيره الدر المنثور أحاديث واهية الاسناد ، أو موضوعة مع ماله من المؤلفات في موضوعات الاحاديث ــ فنقول أن من

علم طريقة السيوطي في التأليف لم يستنكر هذا الذي قلناه ، وطريقته ــ رحمه الله على ماعلمنا من استقراء كتبه ــ أنه كلما وقع اليه كتــاب من الكتب في أي فن من الفنون واستحسنه اختصره ونسبه الى نفسه بدون تمييز بين غث وسمين ، ولا وقوف على حقائق العلوم ، ولذلك تراه مضطربا في كتبه ، لأنه لايحكم فكر نفسه ، وانما يحكم في كل كتاب فكر مؤلفه هو ، فيضيفه الى نفسه ببعض تصرف يحدثه في الكتاب

وان كنت قد قرأت في كتابه الذي سماه (الجامع الصغير في أحاديث البشــير النذير) وكتابه الذي سماه (اللئالي المصنوعة ، في الاحاديث الموضــوعة) ورأيت في (الجامع الصغير) كثيرا من الاحاديث التي نص في كتابه اللئالي على أنها موضوعة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تصح عنه بطريق من الطرق : جزمت بصحة هذا الذي قلنا ، وعلمت أنه لايؤلف ، وانمــا يلخص كتب الناس وينسبهــا لنفسه •

ثم أطال الكلام في السيوطي وابن كمال باشا ، وأنهما على منهج واحد فيانتحال الكتب بعد الاختصار الى أن قال سلمه الله :

وأما تفسير محيي الدين فهو مسخ للقرآن ، ونقض للدين من أساسه ، ويرى بعض الباحثين أنه ليس من مؤلفات محيي الدين ، وانما هو من مؤلفات القاشاني أحد الملاحدة الباطنية ، نسبه لمحيي الدين ليروجه بين عوام المسلمين ، ومن يستميتون الى مايقول محيي الدين مهما كان حاله ، والظن بمحيي الدين أنه لايضع مثل هذا الكتاب، ولا يذهب هذه المذاهب الفاسدة في تفسير كتاب الله تعالى • وسواء كان من مؤلفات محيي الدين أو غيره فان انتشاره بين المسلمين بحت ضرر ، سيما ولا موقــف يوقف الناس على الصحيح والفاسد من هذه الكتب •

وأما تفسير ابن عباس : فهو من مؤلفات مجد الدين الفــيروز ابادي صاحب القاموس ، جمع فيه رواية محمد بن السائب الكلبي عن ابن عباس • قال : وقد علمت مما ذكرناه في المقدمة حال ابن السائب الكلبي وضعفه ، وقلة ثقة العلماء بمروياته •

قال هذه كتب التفسير التي نقرأها اليوم ، وان كان قد فاتنا ذكر شيء منها فانه لايخرج عن مضارعة واحد من هذه الكتب التي ذكــرناها ، فلم يبق بيدنا مايصــح الاعتماد عليه والثقة به غير تفسير ابن جرير ، وهو الحسنة الوحيدة للمطابع الاسلامية بعد قرن وأكثر من ظهور المطابع في الممالك الاسلامية ، ولولا أن بعض أمراء العرب ــ من سكان الجزيرة العربية ــ راسل بعض تجار الكتب بمصر في شأنه ، وأعانه على

ذلك بمساعدات جليلة : لم يظهر له ظل في عالم المطبوعات ، اكتفاء منه (بالخازن والجمل) •

وان أردت معرفة تفاسير الصحابة والتابعين وتابعي التابعين وعلماء القرن الثالث فارجع الى ماكتبناه في المقدمة على هذا العلم ، فقد بسطنا هناك مؤلفات القرون الثلاثة ، والباحث عليها ان لم يجدها كلها وجد منها مايكفي لحاجة الناس •

ثم إنه اعتذر عما كتبه بأنه لم يرد انتقاص أحد بذلك ، بل إن غرضه بيان أن هذه التفاسير المتداولة قاطعة عن العلوم الاسلامية ، وان ضرورة المحافظة على الدين تقتضي باختيار الكتب النافعة ، قال : فكل ماذكره فانما الغرض منه تمحيص الحقيقة والتماس الانفع لنا في علوم ديننا ، وهذا عذرنا في كل مانسطره عن هذه المؤلفات التي ابتلينابها اليوم وابتليت بنا الخ • انتهى المقصود مما ذكره هذا الفاضل المنصف، وبه يعلم حال المتداول من التفاسير على الاجمال ، فكيف يقال أن تفسير القرآن قد فرغ منه العلماء ، مع أنهم هم الذين قالوا في شأن علم التفسير علم لانضج ولا احترق ، وقالوا المراد بنضج العلم تقرير قواعده وتفريع فروعها وتوضيح مسائله ، والمراد باحتراقه بلوغه النهاية في ذلك •

وقد ذكر الامام السيوطي في (الاتقان) أن القرآن في اللوح المحفوظ كل حرف منه بمنزلة جبل قاف ، وكل آية تحتها من التفاسير مالا يعلمه الا الله تعالى • انتهى • فمتى أعطاه العلماء حقه حتى يقال أنهم قد فرغوا منه ؟ فهل هذا الا قول من قد بلغ من الجهل بدينه الى الغاية ؟ وأي ذنب لمن طلب في هذا العصر ، أو تمنى أن يفسر القرآن تفسيرا نافعا للعامة والخاصة بعبارة سلسة ، يفهمها كل أحد ، كعبارات بلغاء هذا العصر ، وكتابه النابغين فيه ، لا كعبارات الكتاب الماضين من الاعاجم وغيرهم ، فانهم كانوا يتفاخرون بدقة العبارات وصعوبتها وعدم فهمها ويعيبون الواضح منها ، مع أن البلغاء المتقدمين والكتبة السابقين على العكس من ذلك ، فقد رأيت في بعض كتب أصول الحديث مانصه : ويكره كراهة تنزيه الخط الدقيق لفوات الانتفاع أو كماله به لمن ضعف نظره ، وربما ضعف نظر كاتبه بعد ذلك فلا ينتفع به ، كما قال الامام أحمد بن محمد بن حنبل لابن عمه حنبل بن اسحاق بن حنبل — ورآه يكتب خطا دقيقا — فانه يخونك أحوج ماتكون اليه ، انتهى •

فكتب عليه الوالد رحمه الله في هامش الكتاب : انظر اذا كانت الدقة في الخط هكذا فكيف بها في عبارات العلوم الشرعية ، وقد عدوا ذلك وجعلوه من الفضائل

العلية ، وجعلوا فهمها من أقصى مراتب العلم ، حتى أهملوا حفظ العلوم والمسائل ، بل لايعدون ذلك شيئا ، وليت شعري هل كان علم المتقدمين في الصدور أم في السطور؟ وكيف كان علماء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ؟

قال : وقد رأيت بعض المؤلفين ــ وأنا أقابل معه تأليفه وقد دقق فيه ــ يتوقف في فهم بعض العبارات ، ولا يهتدي لها الا بتأمل طويل ، فهل ينبغي لمسلم ذلك ؟وليت شعري اذا اشتغل المتعلم في فهم العبارة فمتى يشتغل بحفظ المعنى فانصف ، ثم قال : وما أحوجهم الى ذلك الا عبارات الاعاجم الركيكة القاصرة عن مقاصدهم ، وكم رأينا ممن رسخ في فهم ذلك ولا يستطيع اعراب بيت من الشعر العربي ، فهل يليق ذلك بالعلماء أمناء الدين ؟ انتهى •

وشكوى الناس في كل عصر من الكتب المتداولة بين الايدي قد عرفها كل أحد ، فأي ذنب لمن تمنى أن يؤلف في هذا العصر ــ عصر ظهور كنوز العلم وانتشار الكتب العجيبة ــ تفسيرا يفصل فيه محاسن الشريعة الغراء ، ويطبق فيه أحوال العصر ، ويوافق فيه بين القواعد التي ثبتت بالبرهان وبين الآيات الكريمة ، مما يستوجب ميل العامة لمطالعته ومراجعته ، فانه الكتاب الذي قال الله تعالى في شأنه : (ما فَرَّطْنَا في الْكتابِ مِنْ شَيْء)[1] وقال عز اسمه :(سَبِّح اسْمَ رَبِّكَ الأَعلى.الَّذيْ خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذيْ قَدَّرَ فَهَدَى)[2] فهذه الآية شملت جميع ماخلق الله تعالى من العرش الى الفرش ، ولمن تكلم على هذه الآية له مجال واسع في البحث عن سائر الفنون ، ولهذا كانت هذه السورة من أحب السور الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال سبحانه لما قالت الملائكة : (أَتَجْعَلُ فِيْهَا مَنْ يُفْسِدُ فيْها وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ : إِنِّيْ أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُوْنَ)[3] وهنا ذكر المفسرون أن من جملة حكم خلق الانسان وتخليفه في الارض ابراز ماأودع الله في الارض من خواص النبات والحيوان والمعدن على يدي هذا الخليفة ، لما أودع فيه من الشهوات وحوائج المأكل والملبس وغير ذلك مما استنتجه بأفكاره ووصل اليه ببصيرته ، فدخل في هذا الباب من العلوم مالا يحيط به دوائر الامكان ، ولا يقوم به قلم ولا لسان •

---

(١) الانعام : ٣٨ (٢) الاعلى : ١ ــ ٣ (٣) البقرة : ٣٠

فالاشتغال بمثل هذا التفسير أليس أولى من صرف العمر بذكر القبور وأهلها ؟ وتشويق الجهلة وحثهم على عبادتها ؟ والالتجاء اليها ؟ مع أنهم لم يقصروا في ذلك ، وهي لديهم من أعظم الواجبات ، بل ليس لهم سوى هذا الكمال من أمور الدنيا والآخرة ، فتراهم مفلسين من كل فضيلة •

ويقال للنبهاني الجاهل القبوري : هلا رأيت كتاب الفاضل الشيخ حسين الجسر الطرابلسي ؟ وقد كتب مانصه : وقد خطر لي حيث وجدت مجالا للكلام ، وسميعا للنداء ، أن أحرر رسالة يستبان منها حقيقة الدين الاسلامي ، وكيفية تحققه لمتبعيه على أسلوب جديد سهل الفهم ، لاتمله الانفس ولا تستوعره الافكار ، يروق العقول الحرة ، ويعجب الاذهان المطلقة عن قيود التعصب ان شاء الله ، انتهى المقصود من نقله •

أفيقال ان الكتاب الذي ألفه فيه مغمز لثالب ؟ كلا ، بل هو كتاب من أجل الكتب المصنفة في هذا الفن ــ ان لم نقل أحسنها ــ فأي فائدة في الكلام مع الفلاسفة الاولين ؟ وأي نفع يترتب على الكلام في عقائد المعتزلة وابطال دلائلهم ، مع تقلص ظل وجودهم من هذا العالم • وفلاسفة العصر لهم فنون أخرى غير فنون أسلافهم ، وسلاحهم الذي يحملونه على أهل الدين غير سلاح أوائلهم ، فينبغي للحازم أن يعد لهم ماينخذلون له وينقادون اليه ، فأي ذنب لمن تمنى تفسيرا على هذا المنهج والمسلك الذي سلكه الفاضل الطرابلسي ، وهلا شد النبهاني رواحله الى هذا الفاضل وتعرف منه دينه ، وداوى أدواء جهله بعقاقير معارفه ؟ أو سافر الى الفاضل السيد بدر الدين الحلبي ؟ فتعلم منه مايخرجه من ظلمات جهالته ، وينور قلبه بأنوار علومه ، فان الرجل ممن ابتلي بداء (النوك) والجهل ، فلا بد له من طبيب حاذق وان قيل إن داء النوك ليس له دواء (١) •

نرى كثيرا من المفسرين يؤل آيات الله تعالى المحكمة ليوافقها مع قواعد هيئة اليونان ، ويطبقها على أصول الحكمة الالهية ، أو الطبيعية اليونانية ، مع مكابدة المشاق وتحمل الصعوبات ، مع أن ماظهر من الفنون الجديدة التي قام على صحتها البرهان يمكن تطبيقها وتوفيقها مع النصوص من غير كلفة لموافقة صحيح المعقول لصريح المنقول •

---

(١) النوك بضم النون وفتحها مع التشديد : هو الحمق

فلم لم يعترض النبهاني القبوري على مثل تفسير الامام فخر الدين الرازي ؟ وقد شحنه من كلام المتكلمين وفلاسفة اليونانيين ، ومتى كانت هذه المباحث لدى المسلمين قبل أن تترجم كتب الفلاسفة ، فاذا لم يعترض على مثل ذلك فلم يعترض على من يسلك ذلك المسلك في الفلسفة الجديدة التي هي أصح وأولى بالاعتبار من هذيان اليونانيين ؟ فهل هذا الكلام منه إلا تحكم وترجيح بلا مرجح • ثم ان هذا القبوري لم يعترض على تفاسير القوم التي فسروا بها كلام الله تعالى ولم يقصدها — من كلامه — رب العالمين ، بل عد مثل هذه التفاسير من أجل المآثر ، وأعظم التحف والمفاخر ، ولم يتكلم بها أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا غيرهم ، فلم يعترض على من تمنى أن يصنف تفسير يدل عليه كلام الله دلالة صريحة ويصدقه العيان ويؤيده البرهان ؟! فأي ذنب لمن يطلب تصنيف مثل هذا التفسير ؟! (نعم) المذنب هو الذي يطلب تصنيف ذلك من هذا الجاهل القبوري الغبي أحد الغلاة ، ويتكلم معه مثل هذا الكلام ، وهو — على ماسمعنا به ممن رآه — من قراء المولد والتهاليل للاموات ، فأين هو من مثل هذه المطالب العالية ؟ فلا شك أن الذي تكلم معه بذلك الكلام ، وطلب منه أن يفسر القرآن ، ومدح كتبه هو من العوام ومن أجهل الناس ، فأي كتاب من كتبه يمدح مع كونها مشحونة بالاكاذيب والمغالاة في الدين ، ويأسف الناظر أن نظر فيها لحظة على فوات جزء من حياته في العبث ، بل ربما بخس تصوره وذهنه بما عقل منها •

(الكلام على قول النبهاني : إن الذي يتصدى لطلب تفسير مشتمل على العلوم العصرية ملحد) قد سبق منا بيان مقصد هذا المتصدي ، وذكرنا أنه ليس من المذنبين بهذا الامل والمقصد ، ولم يكن مقصده الا توفير سواد المسلمين ، وحسن دعوة أعداء الدين ، وتفهيم العوام أجل مقاصد الاسلام ، فكيف يكون مثل هذا هو من الملحدين ، والسالكين غير سبيل المؤمنين ، والنبهاني لايحكم بالابتداع والالحاد على من يفسر القرآن برأيه ، ويقول :(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ)الذي هو الفعل الجميل الموجب لصفاء القلب وذكاء النفس ، ولا تفعلون ماترتقون به من مقام تجلي الافعال الى تجلي الصفات (وأنتم تتلون) كتاب فطرتكم الذي يأمركم بالدين السالك بكم سبيل التوحيد (أفلا تعقلون) فتقيدون مطلقات صفاتكم الذميمة بعقال مأأفيض عليكم من الانوار القديمة ، واطلبوا المدد والعون ممن له القدرة الحقيقية (بالصبر) على مايفعل بكم لكي تصلوا الى مقام الرضا (والصلاة) التي هي المراقبة وحضور القلب لتلقي

تجليات الرب ، وان المراقبة لشاقة الا على المنكسرة قلوبهم اللينة أفئدتهم لقبول أنوار التجليات اللطيفة ، واستيلاء سطواتها القهرية ، فهم الذين يتيقنون أنهم بحضرة ربهم وأنهم اليه راجعون بفناء صفاتهم ومحوها في صفاته ، فلا يجدون في الدار الا شئون الملك اللطيف القهار ، انتهى •

وهذا تفسير قوله تعالى : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُون . واسْتَعِينوا بِالصَّبْرِ والصَّلاةِ وإِنَّها لَكَبِيْرَة إلاَّ على الخاشِعِيْنَ الَّذِيْنَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِم وأَنَّهُمْ اليْهِ راجِعُوْنَ)[1] .

فانظر أيها المنصف العارف باللغة ومدلولاتها ، فمتى دلت ألفاظ هذه الآيات على ماذكروه من المعاني ، وهل هو الا تفسير بما تهوى الانفس ؟!

وحيث انجر الكلام بنا الى هذا المقام وجب أن نذكرهنا بعض القواعدالاصولية المتعلقة بفن التفسير ، ليتميز به الحق من الباطل ، ويعرف الخطأ من الصواب ، ومن الله نستمد الاعانة والتوفيق •

قال شيخ الاسلام تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية الحراني ــ قدس الله روحه ــ في كتابه الذي صنفه في أصول التفسير ــ وهو كتاب مفصل حافل لم يؤلف مثله في هذا الفن ــ مانصه : (٢) يجب أن يعلم أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه ، فقوله تعالى : (لِتُبَيِّنَ لِلنَاسِ ما نُزِّلَ إِليهِمْ)[3] يتناول هذا وهذا • وقدقال أبو عبدالرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرأون القرآن ، كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهما ، أنهم كانوا اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا مافيها والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا ، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة ، وقال أنس : كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جل في أعيننا ، رواه أحمد في مسنده ، وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين ، أخرجه في الموطأ،

---

(١) البقرة : ٤٤ (٣) النحل : ٤٤

(٢) الواقع أنه نقل كلام شيخ الاسلام ملخصا كما سيذكره فى نهاية هذا الكلام ، وشيخ الاسلام ذكر هذا الكلام فى (مقدمة التفسير) المطبوعة ضمن المجموع جلد ١٣ ص ٣٢٩ ــ ٣٧٥ .

وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾[1] وقال : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ)[2] وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن . وأيضاً فالعادة تمنع ان يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحونه ، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم ، وقيام دينهم ودنياهم ، ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلا جدا ، وهو وان كان بين التابعين أكثر منه بين الصحابة فهو قليل بالنسبة الى من بعدهم ، ومن التابعين من تلقي جميع التفسير عن الصحابة ، وربما تكلموا في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال ، والخلاف بين السلف في التفسير قليل ، وغالب مايصح عنهم من الخلاف يرجع الى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ، وذلك صنفان : أحدهما أن يعبر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى ، كتفسيرهم (الصراط المستقيم) بعض بالقرآن أي اتباعه ، وبعض بالاسلام ، فالقولان متفقان ، لأن دين الاسلام هو اتباع القرآن ، ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر ، كما أن لفظ صراط يشعر بوصف ثالث ، وكذلك قول من قال هو السنة والجماعة ،وقول من قال هو طريق العبودية ، وقول من قال هو طاعة الله ورسوله ، وأمثال ذلك ، فهؤلاء كلهم أشاروا الى ذات واحدة لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها .

(الثاني) أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع ، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه مثاله: ما نقل في قوله تعالى : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا)[3] الآية فمعلوم ان الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للمحرمات ، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات ، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات ، فالمقتصدون أصحاب اليمين (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)[4] ثم ان كلا منهم يذكر هذا في نوع من انواع الطاعات ، كقول القائل السابق الذي يصلي في اول الوقت ، والمقتصد الذي يصلي في أثنائه ، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر الى الاصفرار ،

---

(١) سورة ص : ٢٩ (٢) النساء : ٨٧ ومحمد : ٢٤
(٣) فاطر : ٣٢ (٤) الواقعة ١٣ ، ١٤

أو يقول : السابق المحسن بالصدقة مع الزكاة ، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة فقط ، والظالم مانع الزكاة قال : وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما في تنوع التفسير تارة لتنوع الاسماء والصفات ، وتارة لذكر بعض أنواع المسمى ، وهو الغالب في تفسير سلف الامة الذي يظن أنه مختلف ، ومن التنازع ــ الموجود منهم ــ مايكون اللفظ فيه محتملا للامرين ، اما لكونه مشتركا في اللغة ، كلفظ (القسورة) الذي يراد به الرامي ، ويراد به الاسد ، ولفظ (عسعس) الذي يراد به اقبال الليل وادباره ، واما لكونه متواطئا في الاصل لكن المراد به أحد النوعين أو أحد الشخصين كالضمائر في قوله :(ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى.فكانَ قابَ قَوسَيْنِ أوأدْنى)[1] وكلفظ : الفجر والشفع ، والوتر ، وليال عشر ، وأشباه ذلك ، فمثل ذلك قد يجوز أن يراد به كل المعاني التي قالها السلف ، وقد لايجوز ذلك ، فالاول اما لكون الآية نزلت مرتين فأريد بها هذا تارة وهذا تارة ، واما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنياه ، واما لكون اللفظ متواطئا فيكون عاما اذا لم يكن لتخصيصه موجب ، فهذا النوع اذا صح فيه القولان كان من الصنف الثاني •

ومن الاقوال الموجودة عنهم ــ ويجعلها بعض الناس اختلافا ــ أن يعبروا عن المعاني بألفاظ متقاربة ، كما اذا فسر بعضهم (تبسل) بتحبس ، وبعضهم بترتهن ، لأن كلا منهما قريب من الآخر •

(ثم قال فصل) والاختلاف في التفسير على نوعين : منه مامستنده النقل فقط، ومنه مايعلم بغير ذلك ، والمنقول اما عن المعصوم أو غيره ، ومنه مايمكن معرفة الصحيح منه من غيره ، ومنه مالا يمكن ذلك ، وهذا القسم الذي لايمكن معرفة صحيحه من ضعيفه عامته مما لافائدة فيه ، ولاحاجة بنا الى معرفته ،وذلك كاختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف واسمه ، وفي البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة ، وفي قدر سفينة نوح وخشبها ، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر ، ونحو ذلك ، فهذه الامور طريق العلم بها النقل ، فما كان منه منقولا نقلا صحيحا عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبل ، ومالا ــ بان نقل عن أهل الكتاب ككعب ووهب ــ وقف عن تصديقه وتكذيبه ، لقوله صلى الله عليه وسلم (اذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم) وكذا مانقل عن بعض التابعين وان لم يذكر أنه أخذه عن

---

(١) النجم : ٨ ، ٩

أهل الكتاب ، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض ، وما نقل في ذلك عن الصحابة نقلا صحيحا فالنفس اليه أسكن مما ينقل عن التابعين ، لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أو من بعض من سمعه منه أقوى ، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين ، ومع جزم الصحابي بما يقوله كيف يقال أنه أخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم •

وأما القسم الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود كثير ولله الحمد ، وان قال الامام أحمد ثلاثة ليس لها أصل التفسير والملاحم والمغازي ، وذلك لأن الغالب عليها المراسل ، وأما ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل فهذا أكثر مافيه الخطأ من جهتين — حدثنا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم باحسان ، فان التفاسير التي يذكر فيها كلام هؤلاء صرفا لايكاد يوجد فيها شيء من هاتين الجهتين ، مثل تفسير عبد الرزاق ، والفريابي ، ووكيع ، وعبد ، واسحق ، وأمثالهم — إحداهما : قوم اعتقدوا معاني ، ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها ، والثانية : قوم فسروا القرآن بمجرد مايسوغ أن يريده من كان من الناطقين بلغة العرب ، من غير نظر الى التكلم بالقرآن والمنزل عليه والمخاطب به ، فالاولون راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر الى ماتستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان ، والآخرون راعوا مجرد اللفظ ومايجوز أن يريد به العربي من غير نظر الى مايصلح للمتكلم ولسياق الكلام ، ثم هؤلاء كثيرا مايغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة ، كما يغلط في ذلك الذين قبلهم ، كما أن الاولين كثيرا مايغلطون في صحة المعنى الذي فسروا به القرآن ، كما يغلط في ذلك الآخرون ، وان كان نظر الاولين الى المعنى أسبق ، ونظر الآخرين الى اللفظ أسبق ، والأولون صنفان : تارة يسلبون لفظ القرآن مادل عليه وأريد به ، وتارة يحملونه على مالم يدل عليه ولم يرد به ، وفي كلا الامرين قد يكون ماقصدوا نفيه أو ثباته من المعنى باطلا ، فيكون خطؤهم في الدليل والمدلول ، وقد يكون حقا فيكون خطؤهم في الدليل لا في المدلول ، فالذين أخطؤا فيهما مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذاهب باطلة ، وعمدوا الى القرآن فتأولوه على رأيهم ، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم ، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم ، مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الاصم ، والجبائي ، وعبد الجبار والرماني ، والزمخشري ، وأمثالهم ، ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة ، يدس البدع في كلامه وأكثر الناس لايعلمون ، كصاحب الكشاف ونحوه ، حتى أنه يروج

على خلق كثير من أهل السنة كثيرا من تفاسيرهم الباطلة ، وتفسير ابن عطية وأمثاله اتبع للسنة ، وأسلم من البدعة ، ولو ذكر كلام السلف المأثور عنهم على وجهه لكان أحسن ، فانه كثيرا ماينقل من تفسير ابن جرير الطبري ــ وهــو من أجل التفاسـير وأعظمها قدرا ــ ثم انه يدع ماينقله ابن جرير عن السلف ويذكر مايزعم أنه قــول المحققين ، وانما يعنى بهم طائفة من أهل الكلام ، الذين قرروا أصــولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم ، وان كانوا أقرب الى السنة ، لكــن ينبغي أن يعطى كل ذي حق حقه ، فان الصحابة والتابعين والأئمة اذا كان لهم في الآية تفسـير وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقــدوه وذلــك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين صار مشاركا للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع في مثــل هذا .

وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم الى مايخالف ذلك كان مخطئا في ذلك بل مبتدعا لأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله .

وأما الذين أخطئوا في الدليل لا في المــدلول ــ كمثل كثـير من الصــوفية ، والوعاظ ، والفقهاء ، يفسرون القرآن بمعان صحيحة في نفسها ، لكن القرآن لايدل عليها ، مثل كثير مما ذكره السلمى في الحقائق ــ فان كان فيما ذكروه معاني باطلة دخل في القسم الاول ، انتهى كلام شيخ الاسلام ملخصا .

فقد علم من كلامه ــ رحمه الله تعالى ــ أن من فسر القرآن تفسيرا لايخرج به عن السنة ، ولا يذكر فيه شيئا يناقض المنصوص ، ويذكر مادل عليه لفظ القرآن بأوجز عبارة ، وألطفها وأوضحها ، ويبين محاسن مااشتمل عليه الكتاب الكــريم من الاحكام ، وما أخبر به من أمور الدنيا والآخرة ، وبيان الحكم المشتمل عليها ممــا ينطبق على الفنون الصحيحة على ممر الاعصر والايام ــ فكيف يكون المتصدي لمثل هذا التفسير والطالب له ملحدا أو مبتدعا ، ويكون النبهاني الذي يحكم بغير ماأنزل الله من قوانين محاكم العدلية مسلما على المنهج المستقيم ؟! سبحــانك هذا بهتــان عظيم ! قال الله عز ذكــره ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[1] ومحبــة الرسول باتباعه لا بالعمل على خلاف شريعته ، ولا بالغلو فيه كما غلا النبهاني ، حيث

---

(1) آل عمران : ٣١ .

اعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم لايخلو منه زمان ولا مكان ، يريد بذلك أنه ما من زمان الا وهو فيه موجود ، وما من مكان الا وهو فيه موجود ، وهذه مقالة شنيعة في الغلو في النبي صلى الله عليه وسلم ، وانزال له فوق منزلته التي أنزله الله بها ، فان هذا اشراك للنبي صلى الله عليه وسلم في أخص أوصاف الباري جل شأنه(٢) فكيف يدعي محبته من يقول بهذه المقالة ، ثم يصرف عمره في الحكم بغير ماأنزل الله ، ويذب عن البدع ويحث عليها ، ويشتم المحامين عن السنة النبوية ، والمحافظين على التوحيد ، وسائر ماوردت به الشريعة الغراء ، كشيخ الاسلام ابن تيمية وأضرابه ، فهل يتردد المنصف في أن مثل النبهاني أعدى الاعداء لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؟! •

(الكلام على قول النبهاني أن الوهابية مبتدعة غير أن ضررهم دون من قبلهم)

وأخذ يشتم المسلمين بكل ماهو أهل له ، ولا بد من الكلام على حقيقة ما عليه أهل نجد ، وبيان حال خصومهم وعقائدهم ، ليتبين الناظر المنصف من المبتدع ومن الزائغ عن المحجة البيضاء •

قال العلامة الشيخ عبد اللطيف النجدي ــ من أحفاد الامام الشيخ محمد عليهما الرحمة ــ في كتابه (منهاج التأسيس في الرد على ابن جرجيس) ونقص عليك شيئا عن سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ونذكر طرفا من أخباره وأحواله ، ليعلم الناظر فيه حقيقة أمره ، فلا يروج عليه تشنيع من استحوذ عليه الشيطان ، وأغراه ، وبالغ في كفره واستهواه ، فنقول : قد عرف واشتهر واستفاض من تقارير الشيخ ومراسلاته ، ومصنفاته المسموعة المقروءة عليه ، وما ثبت بخطه ، وعرف واشتهر من أمره ودعوته ، وما عليه الفضلاء النبلاء من أصحابه وتلامذته : انه على ما كان عليه السلف الصالح ، وأئمة الدين أهل الفقه والفتوى في باب معرفة الله تعالى ، واثبات صفات كماله ، ونعوت جلاله ، التي نطق بها الكتاب العزيز ، وصحت بها الاخبار النبوية ، وتلقاها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقبول والتسليم ، يثبتونها ويؤمنون بها ويمرونها كما جاءت ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، وقد درج على هذا من بعدهم من التابعين وتابعيهم من أهل العلم والايمان ، وسلف الامة وأئمتها ، كسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ،

---

(٢) تقدم التنبيه على مثل هذا ص : ٤٨

والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله ، وطلحة بن عبيد الله ، وسليمان بن يسار وأمثالهم ، ومن الطبقة الثانية كمجاهد بن جبير ، وعطاء بن أبي رباح ، والحسن البصري ، وابن سيرين ، وعامر الشعبي ، وجنادة بن أبي أمية ، وحسان بن عطية ، وأمثالهم ، ومن الطبقة الثالثة علي بن الحسين ، وعمر بن عبد العزيز ، ومحمد بن مسلم الزهري ، ومالك بن أنس وابن أبي ذئب ، وابن الماجشون ، وكحماد بن سلمة، وحماد بن زيد ، والفضيل بن عياض ، وعبد الله بن المبارك ، وأبي حنيفة النعمان بن ثابت ، ومحمد بن ادريس ، واسحق بن ابراهيم ، وأحمد بن حنبل ، ومحمد بن اسمعيل البخاري ، ومسلم بن حجاج القشيري ، واخوانهم وأمثالهم ونظرائهم من أهل الفقه والاثر في كل مصر وعصر .

وأما توحيد العبادة والالهية فلا خلاف بين أهل الاسلام فيما قاله الشيخ وثبت عنه من المعتقد الذي دعا اليه ، يوضح ذلك أن أصل الاسلام وقاعدته شهادة أن لا اله الا الله ، وهي أصل الايمان بالله وحده ، وهي أفضل شعب الايمان ، وهذا الاصل لابد فيه من العلم والعمل والاقرار باجماع المسلمين ، ومدلوله وجوب عبادة الله وحده لا شريك له ، والبراءة من عبادة ماسواه كائنا من كان ، وهذا هو الحكمة التي خلقت لها الانس والجن ، وأرسل لها الرسل ، وأنزلت بها الكتب ، وهي تتضمن كمال الذل والحب ، وتتضمن كمال الطاعة والتعظيم ، وهذا هو دين الاسلام الذي لايقبل الله دينا غيره ، لا من الاولين ولا من الآخرين ، فان جميع الانبياء على دين الاسلام ، وهو يتضمن الاستسلام لله وحده ، فمن استسلم له ولغيره كان مشركا ، ومن لم يستسلم له كان مستكبرا عن عبادته : قال الله تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)[1] وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)[2] وقال تعالى عن الخليل: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)[3] وقال تعالى عنه :

---

(١) النحل : ٣٦ (٢) الانبياء : ٢٥ (٣) الزخرف : ٢٦ ــ ٢٨ .

(أَفَرَأَيْتُم ما كُنتُم تَعْبُدُونَ. أَنْتُمْ وآباؤُكُمُ الأَقْدَمُون . فإنهم عَدُوٌّ لِيْ إلا رَبَّ العالَمِيْنَ)[1] وقال : (قَدْ كانَتْ لَكُم اسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إبراهيمَ وَالَّذِيْنَ مَعَهُ إِذْقالُوا لِقَومِهِمْ إِنَّا برآءُ مِنْكُم ومِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنا بِكُمْ وبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ والبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤمنوا باللهِ وَحْدَه)[2] وقال تعالى : (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ)[3] وذكر عن رسله نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم أنهم قالوا لقومهم : (اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ)[4] وقال عن أهل الكهف (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُم هُدى. وَرَبطْنا على قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوْا فقالوا رَبُّنا ربُّ السَّمَوٰاتِ والأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ من دُونِهِ إلهاً لقَدْ قُلنا إِذاً شَطَطاً . هؤُلاءِ قَومُنا اتَّخَذُوا من دُونِهِ آلهةً لولا يأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرى على اللهِ كَذِباً)[5] وقال الله تعالى : (إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ به)[6] في موضعين من كتابه ، وقال تعالى : (إِنَّه مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْواهُ النَّارُ)[7] .

قال رحمه الله : والشرك المراد بهذه الايات ونحوها يدخل فيه شرك عباد القبور ، وعباد الانبياء ، والملائكة ، والصالحين ، فان هذا هو شرك جاهلية العرب الذين بعث فيهم عبد الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فانهم كانوا يدعونها ، ويلتجؤن اليها ، ويسألونها على وجه التوسل بجاهها وشفاعتها ، لتقربهم الى الله ، كما حكى الله ذلك عنهم في مواضع من كتابه ، كقوله تعالى : (وَيعبُدُونَ من دُونِ اللهِ ما لا يَضرهم ولا يَنفَعهم وَيَقولون هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللهِ)[8] وقال تعالى:

---

(١) الشعراء : ٧٥ ـ ٧٧ (٢) الممتحنة : ٤ (٣) الزخرف : ٤٥ (٤) هود : ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤ . (٥) الكهف : ١٣ ـ ١٥ (٦) النساء : ٤٨ ، ١١٦ (٧) المائدة : ٧٢ . (٨) يونس : ١٨

(والَّذين اتَّخَذوا من دُونه أَوْلياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونا الى الله زُلفى)[1]
وقال تعالى : (فَلولا نَصَرَهُمُ الَّذينَ اتَّخَذوا من دُون اللهِ قُرباناً آلهَةً بلْ ضَلوا عَنهُم ، وذَلِكَ إفكُهُم وما كانُوا يَفْتَرون)[2] .

(قال رحمه الله) ومعلوم أن المشركين لم يزعموا أن الانبياء والاولياء والصالحين والملائكة شاركوا الله في خلق السموات والارض ، واستقلوا بشيء من التدبير والتأثير والايجاد ولو في خلق ذرة من الذرات ، قال تعالى : (وَلئن سَأَلتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والارضَ لَيَقولُنَّ اللهُ ، قُلْ أَفرَأَيْتُمْ ما تَدعونَ من دُون اللهِ إن أَرادَني اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشفاتُ ضُرِّه أَو أَرادَني بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِه ؟ ! قُلْ : حَسْبِيَ اللهُ عَلَيهِ يَتَوَكَّلِ المتَوكِّلون)[3]
فهم معترفون بهذا مقرون به لاينازعون فيه ، ولذلك حسن موقع الاستفهام ، وقامت الحجة بما أقروا به من هذه الجمل ، وبطلت عبادة من لايكشف الضر ولا يمسك الرحمة ، ولا يخفى مافي التنكير من العموم والشمول المتناول لا قل شيء وأدناه من ضر أو رحمة ، وقال تعالى :(قُلْ لِمَن الأَرْضُ وَمَنْ فيْها إنْ كُنتم تَعْلَمُونَ) الى (فأَنَّى تُسحَرُونَ)[4] وقال تعالى :(وما يُؤمِنُ أَكْثَرُهُمْ باللهِ إلا وهُمْ مُشرِكُون)[5]
ذكر فيه السلف ــ كابن عباس وغيره ــ ايمانهم هنا بما أقروا به من ربوبيته وملكه، وفسر شركهم بعبادة غيره .

(قال رحمه الله) وقد بين القرآن في غير موضع أن من المشركين من أشرك بالملائكة ، ومنهم من أشرك بالانبياء والصالحين ، ومنهم من أشرك بالكواكب ، ومنهم من أشرك بالاصنام ، وقد رد عليهم جميعهم وكفر كل أصنافهم ، كما قال تعالى : (ولا يأْمُرَكُم أَنْ تَتَّخِذوا الملائكةَ والنَّبِيينَ أَرباباً أَيأْمُرُكُم بالكفر

---

(١) الزمر : ٣ (٢) الاحقاف : ٢٨ (٣) الزمر : ٣٨ (٤) المؤمنون : ٨٤ ــ ٨٩ (٥) يوسف : ١٠٦

بَعد إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)[1] وقال تعالى: (اتَّخَذُوا أَحْبارهم ورُهْبانَهُمْ أَرباباً من دُونِ اللهِ والمسيحَ ابنَ مَريَم)[2] الآيه. وقال: (لن يَستَنكِفَ المسيحُ أَنْ يَكونَ عَبداً للهِ ولا الملائكَةُ المقرَّبُونَ)[3] ونحو ذلك في القرآن كثير، وبه يعلم المؤمن أن عبادة الانبياء والصالحين كعبادة الكواكب والاصنام من حيث الشرك والكفر بعبادة غير الله.

(قال رحمه الله) وهذه العبادات التي صرفها المشركون لآلهتهم هي أفعال العبد الصادرة منه، كالحب، والخضوع والانابة، والتوكل والدعاء، والاستعانة والاستغاثة، والخوف والرجاء، والنسك والتقوى، والطواف ببيته رغبة ورجاء، وتعلق القلوب والآمال بفيضه ومده واحسانه وكرمه، فهذه الانواع أشرف أنواع العبادة وأجلها، بل هي لب سائر الاعمال الاسلامية وخلاصتها، وكل عمل يخلو منها فهو خداج مردود على صاحبه، وانما أشرك وكفر من كفر من المشركين بقصد غير الله بهذا وتأهيله لذلك قال تعالى: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَن لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)[4] وقال تعالى: (أَمْ لَهم آلهةٌ تَمنعهم من دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ ولا هُمْ مِنّا يُصْحَبُونَ)[5] وقال تعالى: (واتَّخَذُوا من دُونِهِ آلِهةً لا يَخْلُقُونَ شَيئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)[6] الآية، وحكى عن أهل النار أنهم يقولون لآلهتهم التي عبدوها مع الله: (تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالَمِينَ)[7]. ومعلوم أنهم ماسووهم به في الخلق والتدبير والتأثير، وانما كانت التسوية في الحب والخضوع، والتعظيم والدعاء، ونحو ذلك من العبادات.

(قال رحمه الله) فجنس هؤلاء المشركين وأمثالهم ممن يعبد الاولياء والصالحين نحكم بأنهم مشركون، ونرى كفرهم اذا قامت عليهم الحجة الرسالية، وما عدا هذا من الذنوب التي دونه في الرتبة والمفسدة لانكفر بها، ولا نحكم على أحد من أهل القبلة ــ الذين باينوا عباد الاوثان والاصنام والقبور ــ بكفر بمجرد ذنب ارتكبوه

---

(١) آل عمران: ٨٠ (٢) التوبة: ٣١ (٣) النساء: ١٧٢ (٤) النحل: ١٧ (٥) الانبياء: ٤٣ (٦) الفرقان: ٣ (٧) الشعراء: ٩٧، ٩٨.

وعظيم جرم اجترحوه ، وغلاة الجهمية والقدرية والرافضة ونحوهم ممن كفرهم السلف لانخرج فيهم عن أقوال أئمة الهدى والفتوى من سلف هذه الامة ، ونبرأ الى الله مما أتت به الخوارج وقالته في أهل الذنوب من المسلمين .

(قال رحمه الله) ومجرد الاتيان بلفظ الشهادة من غير علم بمعناها ولا عمل بمقتضاها لايكون به المكلف مسلما ، بل هو حجة على ابن آدم ، خلافا لمن زعم أن الايمان مجرد الاقرار كالكرامية ، ومجرد التصديق كالجهمية ، وقد أكذب الله المنافقين فيما أتوا به وزعموه من الشهادة ، وسجل على كذبهم مع أنهم أتوا بألفاظ مؤكدة بأنواع من التأكيدات ، قال تعالى : (إذا جَاءكَ المنافقونَ قالوا نَشْهدُ إنَّكَ لَرسولُ اللهِ ، واللهُ يَعْلَمُ إنَّكَ لَرَسولُهُ واللهُ يَشْهَدُ إنَّ المنافقيْنَ لَكاذِبُونَ)[1] فأكدوا بلفظ الشهادة وان المؤكدة واللام والجملة الاسمية ، فاكذبهم وأكد تكذيبهم بمثل ماأكدوا به شهادتهم سواء بسواء ، وزاد التصريح باللقب الشنيع والعلم البشيع الفظيع ، وبهذا تعلم أن مسمى الايمان لابد فيه من الصدق والعمل ، ومن شهد أن لا اله الا الله وعبد غيره فلا شهادة له وان صلى وزكى وصام وأتى بشيء من أعمال الاسلام ، قال تعالى لمن آمن ببعض الكتاب ورد بعضا : (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعضِ الكِتابِ وتَكفُرونَ ببعضٍ)[2] الآية ، وقال تعالى : (إنَّ الَّذينَ يَكفُرونَ باللهِ وَرُسُله ويُريدونَ أَنْ يفرِّقوا بينَ اللهِ ورُسُله وَيَقُولونَ نُؤمِنُ بِبَعْضٍ ونَكفُرُ بِبَعْضٍ ويريدونَ أنْ يتَّخذوا بَيْنَ ذلكَ سبيلا)[3] الآية ، وقال تعالى : (ومن يدعُ مع اللهِ الهاً آخرَ لا بُرهانَ لَهُ به فانَّما حسابُهُ عِنْدَ ربِّه)[4] الآية .

(والكفر نوعان) مطلق ومقيد ، فالمطلق أن يكفر بجميع ماجاء به الرسول ، والمقيد أن يكفر ببعض ماجاء به الرسول ، حتى أن بعض العلماء كفر من أنكر فرعا مجمعا عليه — كتوريث الجد والاخت — وان صلى وصام ، فكيف بمن يدعو الصالحين ، ويصرف لهم خالص العبادة ولبها ، وهذا مذكور في المختصرات من كتب المذاهب الاربعة ، بل كفروا ببعض الالفاظ التي تجري على السن بعض الجهال ، وان صلى وصام من جرت على لسانه .

---

(١) المنافقون : ١ (٢) البقرة : ٨٥ (٣) النساء : ١٥٠

(٤) المؤمنون : ١١١

(قال رحمه الله) والصحابة كفروا من منع الزكاة وقاتلوهم مع اقرارهم بالشهادتين ، والاتيان بالصلاة والصوم والحج •

(قال رحمه الله) واجتمعت الامة على كفر بني عبيد القداح مع أنهم يتكلمون بالشهادتين ويصلون ويبنون المساجد في قاهرة مصر وغيرها •

(وذكر ابن الجوزي) أنه صنف كتابا في وجوب غزوهم وقتالهم ، سماه (النصر على مصر) قال : وهذا يعرفه من له أدنى المام بشيء من العلم والدين ،فتشبيه عباد القبور بأنهم يصلون ويصومون ويؤمنون بالبعث مجرد تعمية على العوام وتبييس لينفق شركهم ، ويقال باسلامهم وايمانهم ، ويأبى الله ذلك ورسوله والمؤمنون •

(وأما مسائل القدر والجبر) والارجاء والامامة والتشيع ونحو ذلك من المقالات والنحل فهو أيضا فيها على ماكان عليه السلف الصالح ، وأئمة الهدى والدين يبرأ مما قالته القدرية النفاة والقدرية المجبرة ، وما قالته المرجئة والرافضة ، وما عليه غلاة الشيعة والناصبة ، يوالى جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكف عما شجر بينهم ، ويرى أنهم أحق الناس بالعفو عما يصدر منهم ، وأقرب الخلق الى مغفرة الله واحسانه ، لفضائلهم وسوابقهم وجهادهم ، وما جرى على أيديهم من فتح القلوب بالعلم النافع والعمل الصالح ، وفتح البلاد ، ومحو آثار الشرك ، وعبادة الاوثان والنيران ، والاصنام والكواكب ، ونحو ذلك مما عبده جهال الانام ، ويرى البراءة مما عليه الرافضة ، وأنهم سفهاء لئام ، ويرى أن أفضل الامة بعد نبيها أبو بكر ، فعمر ، فعثمان ، فعلي ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، ويعتقد أن القرآن الذي نزل به الروح الامين على قلب سيد المرسلين وخاتم النبيين ، كلام الله غير مخلوق ، منه بدا واليه يعود ، ويبرأ من رأى الجهمية القائلين بخلق القرآن ، ويحكي تكفيرهم عن جمهور السلف أهل العلم والايمان ، ويبرأ من رأى الكلابية أتباع عبد الله بن سعيد ابن كلاب ، القائلين بأن كلام الله هو المعنى القائم بنفس الباري ، وأن مانزل به جبريل حكاية أو عبارة عن المعنى النفسي ، ويقول هذا من قول الجهمية ، وأول من قسم هذا التقسيم هو ابن كلاب ، وأخذ عنه الاشعري وغيره كالقلانسي ، ويخالف الجهمية في كل ماقالوه وابتدعوه في دين الله ، ولا يرى ما ابتدعه الصوفية من البدع والطرائق المخالفة لهدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسنته في العبادات والخلوات والاذكار المخالفة للمشروع ، ولا يرى ترك السنن والاخبار النبوية لرأي فقيه ، ومذهب عالم خالف ذلك باجتهاده ، بل السنة

أجل في صدره وأعظم عنده من أن تترك لقول أحد كائنا من كان ، قال عمر بن عبد العزيز : لا رأى لأحد مع سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نعم عند الضرورة وعدم الاهلية والمعرفة بالسنن والاخبار وقواعد الاستنباط والاستظهار يصار الى التقليد لا مطلقا بل فيما يتعسر ويخفى ، ولا يرى ايجاب ماقاله المجتهد الا بدليل تقوم به الحجة من الكتاب والسنة ، خلافا لغلاة المقلدين ، ويوالي الأئمة الاربعة ، ويرى فضلهم وامامتهم ، وأنهم من الفضل والفضائل في غاية ورتبة يقصر عنها المتطاول ، ويوالي كافة أهل الاسلام وعلماءهم ، من أهل الحديث والفقه والتفسير وأهل الزهد والعبادة ، ويرى المنع من الانفراد عن أئمة الدين من السلف الماضين برأي مبتدع أو قول مخترع ، فلا يحدث في الدين ماليس له أصل يتبع وما ليس من أقوال أهل العلم والاثر ، ويؤمن بما نطق به الكتاب وصحت به الاخبار وجاء الوعيد عليه من تحريم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ، ولا يبيح من ذلك الا ماأباحه الشرع وأهدره الرسول ، ومن نسب اليه خلاف هذا فقد كذب وافترى وقال ماليس له به علم ، وسيجزيه الله ماوعد به أمثاله من المفترين .

وأبدى رحمه الله تعالى من التقارير المفيدة ، والابحاث الفريدة على كلمة الاخلاص والتوحيد ــ شهادة أن لا اله الا الله ــ مادل عليه الكتاب المصدق ، والاجماع المستبين المحقق ، من نفى استحقاق العبادة والالهية عما سوى الله ،واثبات ذلك لله سبحانه على وجه الكمال المنافي لكليات الشرك وجزئياته ، وان هذا هو معناها وضعا ومطابقة ، خلافا لمن زعم غير ذلك من المتكلمين ، كمن يفسر ذلك بالقدرة على الاختراع ، أو بأنه تعالى غني عما سواه ، مفتقر اليه ماعداه ، فان هذا لازم المعنى ، اذ الاله الحق لايكون الا قادرا غنيا عما سواه ، واما كون هذا هو المعنى المقصود بالوضع فليس كذلك ، والمتكلمون خفي عليهم هذا وظنوا أن تحقيق توحيد الربوبية والقدرة هو الغاية المقصودة ، والفناء فيه هو تحقيق التوحيد ، وليس الامر كذلك ، بل هذا لايكفي في الايمان وأصل الاسلام الا اذا أضيف اليه واقترن به توحيد الالهية ، وافراد الله بالعبادة ، والحب ، والخضوع ، والتعظيم ، والانابة ، والتوكل ، والخوف ، والرجاء ، وطاعة الله وطاعة رسوله .

هذا أصل الاسلام وقاعدته ، والتوحيد الاول توحيد الربوبية والقدرة والخلق والايجاد هو الذي بنى عليه توحيد العمل والارادة ، وهو دليله الاكبر ، وأصله

الاعظم ، كما قال تعالى : (وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ)[1] إلى آخر الآيات .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله :

ان كان ربك واحدا سبحانه فاخصصه بالتوحيد مع احسان
أو كان ربك واحدا أنشاك لم يشركه إذ أنشاك رب ثان
فكذاك أيضا وحده فاعبده لا تعبد سواه يا أخا العرفان

وهذه الجمل منقولة عن السلف والأئمة من المفسرين وغيرهم من أهل اللغة اجمالا وتفصيلا .

(وقد قرر رحمه الله) على شهادة أن محمدا رسول الله ـ من بيان ماتستلزمه هذه الشهادة وتستدعيه وتقتضيه من تجريد المتابعة ، والقيام بالحقوق النبوية من الحب والتوقير والنصرة والمتابعة والطاعة ، وتقديم سنته صلى الله عليه وسلم على كل سنة وقول ، والوقوف معها حيث ماوقفت والانتهاء حيث انتهت ، في أصول الدين وفروعه ، باطنه وظاهره ، خفيه وجليه ، كليه وجزئيه ـ ماظهر به فضله ، وتأكد علمه ونبله ، وأنه سباق غايات ، وصاحب آيات ، لا يشق غباره ، ولا تدرك في البحث والافادة آثاره ، وأن أعداءه ومنازعيه ، وخصومه في الفضل وشانيه ، يصدق عليهم المثل السائر بين أهل المحابر والدفاتر :

حسدوا الفتى اذ لم ينالوا سعيه فالناس أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسدا وبغيا انه لدميم

(وله رحمه الله) من المناقب والمآثر مالايخفى على أهل الفضائل والبصائر ، ومما اختصه الله به من الكرامة تسلط أعداء الدين وخصوم عباد الله المؤمنين على مسبته ، والتعرض لبهته وغيبته . قال الشافعي رحمه الله تعالى : مأرى الناس ابتلو بشتم أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الا ليزيدهم الله بذلك ثوابا عند انقطاع أعمالهم ، وأفضل الامة بعد نبيها أبو بكر وعمر ، وقد ابتليا من طعن أهل الجهالة والسفاهة بما لايخفى ؛ ومما حكيناه عن الشيخ حكاه أهل المقالات عن أهل السنة والجماعة مجملا ومفصلا : قال وهذه عبارة أبي الحسن الاشعري في كتابه (مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين) قال أبو الحسن الاشعري :

---

(١) البقرة : ١٦٣

جملة ماعليه أصحاب الحديث وأهل السنة الاقرار بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله ، وما جاء من عند الله ، وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لايردون من ذلك شيئا ، والله تعالى اله واحد فرد صمد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن الجنة حق وأن النار حق ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وأن الله تعالى على عرشه ، كما قال : (الرَّحْمنُ عَلى الْعَرشِ اسْتَوى)[١] وأن له يدين بلا كيف ، كما قال : (لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)[٢] وكما قال:(بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتان)[٣] وأن له عينين بلا كيف ، وأن له وجها جل ذكره ، كما قال تعالى :(وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلالِ والإِكْرام)[٤] وأن أسماء الله تعالى لايقال إنها غير الله كما قالت المعتزلة والخوارج ، وأقروا أن لله علما ، كما قال: (أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ)[٥] وكما قال :(وَمَا تَحْمِلُ من أُنْثى وَلا تَضَعُ إلاَّ بِعِلْمِهِ)[٦] وأثبتوا السمع والبصر ، ولم ينفوا ذلك كما نفته المعتزلة ، وأثبتوا لله القوة ، كما قال : (أَوَلَمْ يرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذي خَلقهم هُوَ أَشدُّ مِنهم قُوَّة)[٧]وقالوا انه لايكون في الارض من خير ولا شر الا ماشاء الله وأن الاشياء تكون بمشيئة الله تعالى ، كما قال : (وَمَا تَشاؤُنَ إلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ)[٨]وكما قال المسلمون ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن ، وقالوا إن أحدا لايستطيع أن يفعل شيئا قبل أن يفعله ، أو يكون أحد يقدر على أن يخرج عن علم الله ، وأن يفعل شيئا علم الله أنه لايفعله ، وأقروا أنه لاخالق الا الله ، وأن أعمال العباد يخلقها الله ، وأن العباد لايقدرون أن يخلقوا شيئا ، وأن الله تعالى وفق المؤمنين لطاعته ، وخذل الكافرين بمعصيته ، ولطف للمؤمنين ونظر لهم وأصلحهم وهداهم ، ولم يلطف للكافرين ولا أصلحهم ولا هداهم ، ولو أصلحهم لكانوا صالحين ، ولو هداهم لكانوا مهتدين ، وأن الله تعالى يقدر أن يصلح الكافرين ويلطف لهم حتى يكونوا مؤمنين ، ولكنه أراد أن يكونوا كافرين كما علم ، وخذلهم وأضلهم وطبع على قلوبهم ، وأن الخير والشر بقضاء الله وقدره ، ويؤمنون بقضاء الله وقدره ، خيره وشره ، حلوه

---

(١) طه : ٥ (٢) ص : ٧٥ (٣) المائدة : ٦٤ (٤) الرحمن : ٢٧ (٥) النساء : ١٦٦ (٦) فاطر : ١١
(٧) فصلت : ١٦ (٨) التكوير : ٢٩

ومره ، ويؤمنون أنهم لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا الا ماشاء الله كما قال • ويلجؤن أمرهم الى الله ، ويثبتون الحاجة الى الله في كل وقت ، والفقر الى الله في كل حال ، ويقولون أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، والكلام في الوقف واللفظ ، من قال باللفظ أو بالوقف فهو مبتدع عندهم ، لايقال اللفظ بالقرآن مخلوق ولايقال غير مخلوق ، ويقولون أن الله تعالى يرى بالابصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر ، ويراه المؤمنون ولا يراه الكافرون ، لأنهم عن الله محجوبون ، قال الله تعالى: (كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ)[1] وأن موسى سأل الله سبحانه الرؤية في الدنيا، وأن الله تعالى تجلى للجبل فجعله دكا فأعلمه بذلك أنه لايراه في الدنيا بل يراه في الآخرة ، ولم يكفروا أحدا من أهل القبلة بذنب يرتكبه كنحو الزنا والسرقة ومأشبه ذلك من الكبائر ، وهم بما معهم من الايمان مؤمنون وان ارتكبوا الكبائر ، والايمان عندهم هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره ، وحلوه ومره، وان ماأخطأهم لم يكن ليصيبهم ، وان ماأصابهم لم يكن ليخطئهم ، والاسلام هو أن يشهد أن لا اله الا الله على ماجاء في الحديث ، والاسلام عندهم غير الايمان ، ويقرون بأن الله مقلب القلوب ، ويقرون بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنها لأهل الكبائر من أمته ، وبعذاب القبر ، وأن الحوض حق ، والمحاسبة من الله للعباد حق ، والوقوف بين يدي الله حق ، ويقرون بأن الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، ولا يقولون مخلوق ولا غير مخلوق ، ويقولون أسماء الله هي الله ، ولا يشهدون على أحد من أهل الكبائر بالنار ، ولا يحكمون بالجنة لأحد من الموحدين حتى يكون الله تعالى نزلهم حيث شاء ، ويقولون أمرهم الى الله ان شاء عذبهم وان شاء غفر لهم ، ويؤمنون بأن الله تعالى يخرج قوما من الموحدين من النار على ماجاءت به الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينكرون الجدل والمراء في الدين ، والخصومة في القدر ، والمناظرة فيما يتناظر فيه أهل الجدل ويتنازعون فيه من أمر دينهم بالتسليم للروايات الصحيحة ، ولما جاءت به الآثار التي رواها الثقات عدلا عن عدل حتى ينتهي ذلك الى رسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يقولون كيف ؟ ولا لم ؟ لأن ذلك بدعة ، ويقولون أن الله لم يأمر بالشر ، بل نهى عنه ، وأمر بالخير ، ولم يرض بالشر وان كان مريدا له ، ويعرفون حق السلف الذين اختارهم الله تعالى

لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ويأخذون بفضائلهم ، ويمسكون عما شجر بينهم صغيرهم وكبيرهم ، ويقدمون أبا بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم عليا رضي الله تعالى عنهم ، ويقرون أنهم الخلفاء الراشدون المهديون ، وأنهم أفضل الناس كلهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، ويصدقون بالاحاديث التي جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله ينزل الى سماء الدنيا فيقول : هل من مستغفر ؟ كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأخذون بالكتاب والسنة ، كما قال الله تعالى: (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول)[1] ويرون اتباع من سلف من أئمة الدين ، وان لايبتدعوا في دينهم ما لم يأذن به الله ، ويقرون أن الله تعالى يجيء يوم القيمة ، كما قال : (وجاء ربك والملك صفا صفا)[2] وان الله تعالى يقرب من خلقه كيف يشاء ، كما قال تعالى : (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد)[3] ويرون العيد والجمعة والجماعة خلف كل امام بر وفاجر ، ويثبتون المسح على الخفين سنة ، ويرونه في الحضر والسفر ، ويثبتون فرض الجهاد للمشركين منذ بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم الى آخر عصابة تقاتل الدجال ، وبعد ذلك يرون الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح ، وأن لايخرج عليهم بالسيف ، وأن لايقاتلوا في الفتنة ، ويصدقون بخروج الدجال ، وأن عيسى بن مريم يقتله ، ويؤمنون بمنكر ونكير ، والمعراج والرؤيا في المنام ، وأن الدعاء لموتى المسلمين والصدقة عنهم بعد موتهم تصل اليهم ، ويصدقون بأن في الدنيا سحرة ، وأن الساحر كافر ، كما قال الله تعالى ، وان السحر كائن موجود في الدنيا ، ويرون الصلاة على كل من مات من أهل القبلة مؤمنهم وفاجرهم ، ويقرون أن الجنة والنار مخلوقتان ، وأن من مات مات بأجله ، وكذلك من قتل قتل بأجله ، وأن الارزاق من قبل الله تعالى يرزقها عباده حلالا كانت أو حراما ، وأن الشيطان يوسوس للانسان ويشككه ويخبطه ، وأن الصالحين قد يجوز أن يخصهم الله تعالى بآيات تظهر عليهم ، وأن السنة لاتنسخ القرآن ، وأن الاطفال أمرهم الى الله ان شاء عذبهم وان شاء فعل بهم ماأراد ، وأن الله عالم ما العباد عاملون ، وكتب أن ذلك يكون ، وأن الامور بيد الله تعالى ، ويرون الصبر على حكم الله تعالى ، والأخذ بما أمر الله به ، والانتهاء عما نهى الله عنه ، واخلاص العمل والنصيحة لجماعة

---

(١) النساء : ٥٩ (٢) الفجر : ٢٢
(٣) ق : ١٦

المسلمين ، واجتناب الكبائر والزنا وقول الزور والمعصية والفخر والكبر والازراء على الناس والعجب ، ويرون مجانبة كل داع الى بدعة ، والتشاغل بقراءة القرآن ، وكتابة الآثار ، والنظر في الفقه ، مع التواضع والاستكانة ، وحسن الخلق ، وبذل المعروف ، وكف الاذى ، وترك الغيبة والنميمة والسعاية ، وتفقد المأكل والمشرب ، فهذه جملة مايأمرون به ويعتقدونه ويرونه ، وبكل ماذكرنا من قولهم نقول ، واليه نذهب ، وما توفيقنا الا بالله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، انتهى •

هذاما يعتقده أهل نجد ومن يوافقهم ، فكيف يقال أنهم مبتدعون ؟ ولكن الامر كما قيل : —

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مرا به الماء الزلالا

وهذا النبهاني الجاهل من أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، ولذلك يرميهم بكل منكر ، واذا ذكر اخوانه المبتدعة ذكرهم بكل تعظيم •

ثم ان الشيخ عبد اللطيف لماذكر في منهاجه معتقد جده واتباعه ذكر طرفا من حال هذا المبتدع واخوانه ، وعقد فصلا لذلك ، فقال : —

ونذكر لك طرفا من معتقد عباد القبور والصالحين ، وحقيقة ماهم عليه من الدين ليعلم الواقف عليه أي الفريقين أحق بالامن ، ان كان الواقف ممن اختصه الله تعالى بالفضل والمن ، وائلا يلتبس الامر بتسميتهم لكفرهم ومحالهم تشفعا وتوسلا واستظهارا مع مافي التسمية من الهلاك المتناهي عند من عقل الحقائق ، من ذلك محبتهم مع الله محبة تأله وخضوع ورجاء ، ودعاؤهم مع الله في المهمات والملمات والحوادث التي لايكشفها ولا يجيب الدعاء فيها الا فاطر الارض والسموات ، والعكوف حول أجداثهم ، وتقبيل أعتابهم ، والتمسح بآثارهم ، طلبا للغوث ، واستجابة الدعوات ، واظهار الفاقة ، وابداء الفقر والضراعة ، واستنزال الغيوث والامطار ، وطلب السلامة من شدائد البر والبحار ، وسؤالهم تزويجهم الارامل والايامى ، واللطف بالضعفاء واليتامى ، والاعتماد عليهم في المطالب العالية ، وتأهيلهم لمغفرة الذنوب والنجاة من الهاوية ، واعطاء تلك المراتب السامية ، وجماهيرهم لما ألفت ذلك طباعهم ، وفسدت به فطرهم ، وعز عنه امتناعهم ، لايكاد يخطر ببال أحدهم مايخطر ببال آحاد المسلمين من قصد الله تعالى ، والانابة اليه ، بل ليس لذلك عندهم

الا الولي الفلاني ، ومشهد الشيخ فلان ، حتى جعلوا الذهاب الى المشاهد عوضاعن الخروج للاستسقاء ، والانابة الى الله في كشف الشدائد والبلوى ، كل هذا رأيناه وسمعناه عنهم •

قال : وقد حدث الشيخ مصطفى البولاقي أن بعض رؤساء الجامع الازهر عاده لما اشتكى عينيه وقال له هلا ذهبت الى مولد الشيخ أحمد البدوي ؟ فقد حكى أن انسانا شكا اليه ذهاب بصره ، فسمع قائلا يقول من الضريح أعطوه عين كذا وكذا ، فانظر الى ماخطر ببال هذا المتكلم من تعظيم هذا الميت ، وتأهيله لتلك المطالب التي لايقدر عليها الا الله القاهر الغالب ، وقصد الوساطة هنا على مافيها ماأظنها تخطر بباله أصلا ، فهل سمعت عن جاهلية العرب مثل هذه الغرائب ؟ التي ينتهي عندها العجب والكلام مع زكي القلب يقظ الذهن قوي الهمة العارف بالحقائق ، ومن لاترضى نفسه بحضيض التقليد في أصول الديانات والتوحيد ، وأما ميت القلب ، بليد الذهن وضيع النفس جامد القريحة ، ومن لاتفارق همته التشبث بأذيال التقليد والتعلق على مايحكى عن فلان وفلان في معتقد أهل المقابر والتنديد فذاك فاسد الفطرة معتل المزاج ، وخطابه محض عناء ولجاج •

قال : ومما بلغنا عن بعض علماء زبيد أن رجلين قصدا الطائف فقال أحدهما لصاحبه ـ والمسئول ممن يترشح للعلم ـ أهل الطائف لايعرفون الله انما يعرفون ابن عباس ، فأجابه بأن معرفتهم لابن عباس كافية لأنه يعرف الله ، فأي ملة صان الله ملة الاسلام لاتمانع هذه الكفريات ولا تدافعها ، وذكر الزبيدي أيضا أن رجلا كان بمكة عند بعض المشاهد قال لمن عنده أريد الذهاب الى الطواف ، فقال بعض غلاتهم مقامك ههنا أكرم ، ومن وقف على كتاب مناقب الاربعة المعبودين بمصر ـ وهم البدوي والرفاعي والدسوقي ورابعهم فيما أظن أبو العلاء ـ فقد وقف على ساحل كفرهم ، وعرف صفة إفكهم ، وبلغنا عن بعض الثقات أن جماعة من المدعين للعلم بزبيد كانوا يقرؤن صحيح البخاري فاذا فرغوا منه ـ اما أحيانا أو مطلقا ـ ذهبوا الى قبر الجبيرتي أو غيره ، فوقفوا عاكفين ـ ما شاء الله ـ وعليهم السكينة والوقار ، وضرب من الخضوع لنازل الحفرة ، قال من نقله : فالله أعلم أهو شيء وجدوه في صحيح البخاري أو غيره أو ماهو ؟ قال : ورأيت في حاشية الشيخ ابراهيم البيجوري على السنوسية نقلا عن الدردير ـ فيما أظن ـ عن الشعراني أن الله وكل بقبر كل ولي ملكا يقضي حاجة من سأل ذلك الولي •

فقف هنا وانظر مآآل اليه شركهم وأفكهم ، فأين هذا من قوله تعالى : (وإذا سَأَلَكَ عِبادي عَني فإِنِّي قَريبٌ أُجيبُ دَعْوةَ الداعِ إِذا دَعانِ)[1] وقوله : (ادْعوارَبَّكُم تَضرُّعاً وَخفْيَةً)[2] وقوله : (فإذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ . وإلى رَبِّكَ فارْغَبْ)[3] وقوله تعالى : (أَمَّنْ يُجيبُ المُضْطَرَّ إذا دَعاهُ)[4] . وقولهتعالى(وَقالَ رَبُّكُم ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ)[5] الآية .

وأي حجة في هذا الذي قال الشعراني لو كانوا يعلمون ؟ ولكن القوم أصابهم داء الأمم قبلهم ، فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون ، واتبعوا ماتتلوا الشياطين •ومن هذا الجنس ماذكره الشعراني في ترجمة الملقب شمس الدين الحنفي، أنه قال في مرض موته : من كانت له حاجة فليأت قبري ويطلب أن أقضيها له فانما بيني وبينه ذراع من تراب ، وكل رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب فليس برجل ، انتهى •

وقد اجتمع جماعة من الموحدين من أهل الاسلام في بيت رجل من أهل مصر وبقربه رجل يدعى العلم فأرسل اليه صاحب البيت فسأله بمجمع من الحاضرين ، فقال له : كم يتصرف في الكون ؟ قال : ياسيدي سبعة ، قال : من هم ؟ قال : فلان ، وفلان وعد أربعة من المعبودين بمصر ، فقال صاحب الدار لمن بحضرته من الموحدين : انما بعثت لهذا الرجل وسألته لأعرفكم قدر ماأنتم فيه من نعمة الاسلام ، أو كلاما نحو هذا ، وباب تصرف المشائخ والاولياء قد اتسع حتى سلكه جمهور من يدعي الاسلام من أهل البسيطة ، وخرقه قد هلك في بحاره أكثر من سكن الغبراء وأظلته المحيطه ، حتى نسي القصد الاول من التشفع والوساطة ، فلا يعرج عليه عندهم الا من نسي عهود الحمى ، وقد ذكر هذا شيخ الاسلام في منهاجه عن غلاة الرافضة في علي ، فعاد الامر الى الشرك في توحيد الربوبية والتدبير والتأثير ، ولم يبلغ شرك الجاهليةالاولى الى هذه الغاية ، بل ذكر الله جل ذكره أنهم يعترفون له بتوحيد الربوبية ويقرون به ، ولذلك احتج عليهم في غير موضع من كتابه بما أقروا به من الربوبية والتدبير على ماأنكروه من الالهية •

---

(١) البقرة : ١٨٦ (٢) الاعراف : ٥٥ (٣) الشرح : ٧ ، ٨ (٥) النمل : ٦٢ (٥) غافر : ٦٠
ـ ٥ ـ غافر : ٦٠

ومن ذلك ــ وهو من عجيب أمرهم ــ ماذكره حسين بن محمد النعمي اليمني في بعض رسائله أن امرأة كف بصرها فنادت وليها أما الله فقد صنع ماترى ولم يبق الا حسبك • انتهى •

وحدثني سعد بن عبد الله بن سرور الهاشمي رحمه الله أن بعض المغاربة قدموا مصر يريدون الحج ، فذهبوا الى الضريح المنسوب الى الحسين رضي الله عنه بالقاهرة ، فاستقبلوا القبر وأحرموا ، ووقفوا وركعوا وسجدوا لصاحب القبر ، حتى أنكر عليهم سدنة المشهد وبعض الحاضرين ، فقالوا : هذا محبة في سيدنا الحسين رضي الله تعالى عنه ، وذكر بعض المؤلفين من أهل اليمن أن مثل هذا وقع عندهم ، وقد حدثني الشيخ خليل الرشيدي بالجامع الازهر أن بعض أعيان المدرسين هناك قال : لايدق وتد في القاهرةالا باذن السيدأحمد البدوي ، قالفقلت له : هذا لايكون الا لله أو كلا مانحو هذا : فقال : حبي في سيدي أحمد البدوي اقتضى هذا • وحكي أن رجلا سأل الآخر كيف رأيت الجمع عند زيارة الشيخ الفلاني ؟ فقال : لم أر أكثر منه الا في جبال عرفات ، الا أني لم أرهم سجدوا لله سجدة قط ، ولا صلوا مدة الثلاثة أيام ، فقال السائل : قد تحملها الشيخ ، قال بعض الافاضل وباب تحمل الشيخ مصراعاه مابين بصرى وعدن قد اتسع خرقه ، وتتابع فتقه ، ونال رشاش زقومه الزائر والمعتقد ، وساكن البلد ، انتهى •

وقد اشتهر مايقع من السجود على أعتاب المشهد وقصد التبرك مع مافيه لايمنع حقيقة العبادة الصورية ، ومن المعروف عنهم شراء الولدان من الولي بشيء معين ، يبقى رسما جاريا يؤدى كل عام ، وان كانت امرأة فمهرها أو نصف مهرها ، لأنها مشتراة منه ، ولا يمانع هذا الا مكابر ، لأنه استفاض واشتهر فلا ينكره الا مكابر في الحسيات ، وان فقد بعض أنواعه في بعض البلاد فكم له من نظائر ، وهذا أشدوأشنع مما ذكر جل ذكره عن جاهلية العرب بقوله :(وَجَعَلُوا لِلهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيْباً ، فَقَالُوا هَذا لِلهِ بِزَعْمِهِمْ وهَذا لِشُرَكَائِنا)[1] الآية ، وكذلك جعل السوائب باسم الولي لايحمل عليها ولا تذبح ، وسوق الهدايا والقرابين الى مشاهد الاولياء وذبحها حبا للشيخ وتقربا اليه ، وهذا وان ذكر اسم الله عليه فهو أشد تحريما مما ذبح للحم وذكر عليه اسم غير الله كعيسى مثلا ، فان الشرك في العبادة أكبر من الشرك

---

(١) الانعام : ١٣٦

بالاستعانة ، ومن ذلك ترك الاشجار والكلأ والعشب اذا كان بقرب المشهد وجعله من ماله .

ومنها الحج الى المشاهد في أوقات مخصوصة مضاهاة لبيت الله ، فيطوفون حول الضريح ، ويستغيثون ، ويهدون لصاحب القبر ويذبحون ، وبعض مشائخهم يأمر الزائر بحلق رأسه اذا فرغ من الزيارة ، كما يفعلون في بيت الله الحرام بعد الاداء وقد صنف بعض غلاتهم كتابا سماه حج المشاهد وهو متداول .

ومنها التعريف في بعض البلاد عند من يعتقدونه من أهل القبور ، فيصلون عشية عرفة عند القبر خاضعين سائلين .

والعراق فيه من ذلك الحظ الاكبر ، والنصيب الاوفى الاوفر ، بل فيه البحر الذي لا ساحل له ، والمهامه التي لاينجو سالكها ولا يكاد ، ومن نحوه عرف الكفر وظهر الشرك والفساد ، كما يعرف ذلك من له المام بالتواريخ ومبدأ الحوادث في الدين .

ومن شاهد مايقع منهم عند مشهد الحسين ومشهد علي والكاظم عند رافضتهم، وعبد القادر والحسن البصري والزبير وأمثالهم عند سنتهم ، من العبادات ، وطلب العطايا والمواهب والتصرفات ، وأنواع الموبقات ، علم أنهم من أجهل الخلق وأضلهم، وأنهم في غاية من الكفر والشرك ماوصل اليها من قبلهم ممن ينتسب الى الاسلام ، والله المسؤول أن ينصر دينه ، ويعلي كلمته بمحو هذه الاوثان ، حتى يعبد وحده ، فتسلم الوجوه له ، وتعود البيضاء كما كانت ليلها كنهارها .

ومن ذلك ـ وان كان يعلم مما تقدم ـ اتخاذها أعيادا ومواسم مضاهاة لما شرعه الله ورسوله من الاعياد المكانية والزمانية .

ومنها مايقع ويجري في هذه الاجتماعات من الفجور والفواحش ، وترك الصلوات ، وفعل الخلاعات ، التي هي في الحقيقة خلع لربقة الدين ، والتكليف ، ومشابهة لما يقع في أعياد النصارى والصابئة والافرنج ببلاد فرنسا وغيرها من الفجور والطبول والزمور والخمور ، وبالجملة فما أحدثه عباد القبور يعز حصره أو استيفاؤه انتهى كلام الفاضل الشيخ عبد اللطيف في منهاجه .

فياأيها النبهاني الغافل هذا حال اخوانك ومن هو على شاكلتك ، ثم انك لم ترض بهذه المصائب والمثالب والمعائب حتى زدت في الطنبور نغمة ، وذلك اعتقادك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم موجود في كل مكان وزمان ، ونظمت قصيدةمن

شعرك الركيك الفاسد في ذلك ، ثم مع ذلك تدعي أنك محب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلا ثم كلا ، وقد أرسله الله تعالى لمحق الشرك وازالة الضلال ، وأنت بجهلك تريد تبديل الاحوال(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)[1] فمن المبتدع ؟ أمن يحافظ على السنة النبوية ويذب عنها من يحاول نقصها في كل كلية وجزئية ، أم أمثالك الذين يدعون مع الله الها آخر، ويطعنون على أخيار الامة ، وهداة المسلمين ، ويذبون عن البدع وأهل الاهواء ، ويحكمون بغير ماأنزل الله ، ويقدمون المواد القانونية على الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ؟! أفلا يستحي من هذه بعض أوصافه أن يثلب أهل الايمان ، وحملة القرآن وحفاظ سنة سيد ولد عدنان ؟! ولكن الامر كما ورد في الحديث الصحيح : (ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى اذا لم تستح فاصنع ماشئت) .

ولهذا النبهاني عدة قصائد في الاستغاثة والالتجاء الى غير الله ، وهي مطبوعة مشهورة ، ولولا أن يدنس القلم ذكرها لذكرتها ، فانها تؤيد ماذكره الشيخ عبد اللطيف رحمه الله عنهم ، وها أنا أذكر شعر بعض الغلاة المشتمل على مالهم من الغلو في القبور والمشاهد ، من ذلك قول بعض العراقيين : —

نبا من بنات الماء للكوفة الغـرا	سبوح سرت ليلا فسبحان من أسرى
تمد جناحا من قوادمه الصبـا	تروم بأكناف الغرى لها وكـرا
كساها الأسى ثوب الحداد ومن حلي	تجملهـا بالصبر لاعجهـا أعرى
جـرت فجرى كـل الى خـير موقف	يقـول لعينيه قفا نبك من ذكـرى
وكم غمرة خضنـا اليه وانمـا	يخـوض عباب البحر من يطلب الدرا
تؤم ضريحا ما الضـراح وان عـلا	بأرفـع منـه لا وساكنـه قـدرا
حوى المرتضى سيف القضا أسد الشرى	عليّ الذرى بـل زوج فاطمـة الزهرا
مقـام علي كـرم الله وجهـه	مقـام على رد عين العلى حسـرى
أثـير مـع الافـلاك خالـف دوره	فمن فوقه الغبـرا ومن تحتـه الخضرا
أحطنـا به وهـو المحيـط حقيقـة	بنـا فتعالى أن نحيـط به خبـرا
تطـوف مـن الامـلاك طائفة بـه	فتسجـد في محـراب جامعه شكـرا
وحزب من العـالين يهتف بالثنـا	عليـه بوحي كدت أسمعـه جهـرا

(١) التوبة : ٣٢

جـدير بأن يأوى الحجيـــج لبـابه ويلمس مـن أركـان كعبتـه الجدرا
حرى بتقسيـم الفيوض وما سـوى أبي الحسنـين الا حسنين بهـا أحرا
ثـرى منه بالدنيـا الثراء لمتـــرب وللمذنب الجاني الشفـاعة في الاخرى
بأهـــداب أجفـان وأحداق أعـين وحـر وجـوه عفرتهـا يـد الغبـرا
أمطنا القــذى عن جفن سيـف مذكر أجـل سيـوف الله أشهـرها ذكـرا
فوالله مانـدري وقد سطع السنـــا جلـونا قرابـا أم جلينـــا له قبـرا

وجاء من العراقيين من خمس هذه الابيـات فقال :

سرينا لنمحـوا الاثم أو نغنـم الاجرا لـزورة من تمحـو زيارتـه الوزرا
وسارت وقد أرخى علينا الدجى سترا نبـا من بنـات الماء للكـــوفة الغرا
سبوح سرت ليلا فسبحان من أسـرى

تخـيرتها دون السفـائن مركبـــا واعددتهـا للســير شـرقا ومغربا
فكانت كمثـل الطير إن رمت مطلبـا تمـد جنـــاحا من قوادمه الصبـــا
تـروم باكنـــاف الغرى لهـا وكرا

وكـانت تحلى قبـــل هذا تجمـــلا وقد غذيت فيـما أمر الذي حــــلا
أظـن على فقـد الشهيـد بكر بـلا كساها الاسى ثوب الحـداد ومن حلى
تجملهـا بالصبـر لاعجهـــا أعرى

الى مـوقف ســرنا بغـير توقف يزيـــد بكائي عنـــده بتلهـــف
ولمـــا تجارينـــا بفلـــك ومدنف جرت فجـرى كل الى خـــير موقف
يقـول لعينيه قفا نبـك من ذكـرى

ترامت بنـا فلـك فيانعـــم مرتمى الى درة الفخـــر التـي لن تقـوما
فخضنـا اليه البحـر والبحـر قد طما وكـم غمـرة خضنـا اليـه وانمـا
يخوض عباب البـحر من يطلب الدرا

الـى مرقد يعلو السماكين منـــزلا وقـد نال ما نال الضـراح من العلى
نسير ولا نلوى على السير معـــدلا نؤم ضريحا ما الضـراح وان عـــلا
بأرفــع منه لا وساكنـــه قـدرا

فزوج ابنة المختـار كان غضنفــرا علا وارتضته الطهر من ســائر الورى
تعـرف من هــذا الذي طال مفخـرا حوى المرتضى سيفالقضا أسد الشرى
على الذرى بـل زوج فاطمة الزهـرا

عيون الورى ان لاحظت منه كنهـه ترد عن التشبيـه حسـرى فينتهوا
وان مقـاما لاتـرى العـين شبهه مقـام على كـرم الله وجهـه
مقـام على رد عـين العلى حسـرى

لقـد صـير الغبـراء خضراء قبـره وأشرق فيهـا في الحقيقـة بدره
وقـد وافـق الاعجـاز لله دره أثـير مـع الافـلاك خالـف دوره
فمن فوقه الغبـرا ومن تحته الخضـرا

أحاط بنـا علمـا فليت سليقـة تفيـد علـوما عن عـلاه دقيقـة
مجـازا وقد جزنا اليه طريقـة أحطنـا بـه وهـو المحيـط حقيقة
بنـا فتعالى أن نحيط به خبرا

فطف في مقـام حل فيه ولبـه تر العـالم الاعلـى حفيفـا بتربه
فكالمسجـد الاقصـى وأي تشبـه تطـوف من الامـلاك طائفة بـه
فتسجـد في محراب جامعه شكـرا

فأثنـى عليـه من عـلا مثـل من دنا وكـل بمـا أثنـى أجـاد وأحسنـا
فحـزب من الدانـين اذ ذاك أعلنـا وحـزب من العـالين يهتف بالثنـا
عليـه بوحي كـدت أسمعه جهـرا

حججنـا الى بيت عـلا بجنـابه عشيـة آوينـا الى باب غـابه
ومن قد سـمت أركـان كعبتنا به جـدير بأن يأوى الحجيج لبـابه
ويلمس من أركـان كعبته الجـدرا

فيوض علـوم الله من قدم حـوى فقسـم منهـا ما أفاد وما احتـوى
ومن قبل مايثـوى ومن بعد ماثـوى حري بتقسيـم الفيوض وما سـوى
أبي الحسنـين الا حسنـين بها أحرى

ظللنـا وكم جـان لـديه ومذنب وذي حاجـة منا وصـاحب مطـلب
نقبـل والاجفـان تهمى بصيـب ثرى منـه في الدنيـا الثراء لمتـرب
وللمذنب الجاني الشفـاعة في الاخرى

خدمنـا أمير المؤمنـين بمـوطن نعفـر فيه الوجه قصـد تيمـن
ويخـدم قبر المرتضى كـل مؤمن بأهـداب أجفان واحـداق أعين
وحـر وجـوه عفرتهـا يد الغبـرا

أزلنـا غبـارا كان في قبـر حيـدر فـلاح كغمـد المشر في المشهـر

ولا غرو في ذاك المكـــان المطهـــر أمطنــا القذى عن جفن سيف مذكــر

أجـل سيـوف الله أشهـرها ذكــرا

تبــدي سنــى أنـــواره وتبينـــا غـــداة جلونـا قبـره فتزينـــا

فحـــير افهامـــا وأبهـر أعينـــا فوالله ماندري وقد سطـع السنـــا

جلونـا قـرابا أم جلينـــا له قبـرا

وقال صاحب الأصل وقد خمسها آخر من شعراء العراق أيضا :

شمخت رفعة وعـزت منــــالا واستطـــالت فخـــامة وجـــلالا

واستخفت من الجبـال الثقـــالا قبـــة المرتضـى على تعـــالى

شأنها عن موازن وعديـل

بزغــت في الدجى كبـــدر منـــير وتبـــدت تزهـو بحسن نضـــير

فهـــي أكســير كل قلب كسـير مـــن نضار صيغت بغـير نظـــير

في مثــال منزه عن مثيــل

قـــد صفا كالمرآة منهـــا صقـال فبـــدا للنجـوم فيهـــا مثـــال

فلـــك لايحيـط فيـــه خيـــال فوقهـــا كالاكليـــل لاح هـــلال

رمقتـــه السهـى بطـرف كليـــل

مـــلأت قبـــة العـــوالم بالضـــو واستقلت بنفسهـــا في ذرى الجـــو

بعلـى علت فمـــــا ضرهـــا لـــو كبـــرت فاستقـلت الفلـك الـدو

وارعنها بأن يرى ببديل

حـــل فيهـــا نور الهـــدى فتحلت ودنـــت فـــوق قبـــره فتـــدلت

ملئـــت هيبـــة فعـــزت وجلت جللـــت مرقـــدا جليـــلا تجـلت

فوقـه هيبـــة المليـك الجليـــل

سمكهـــا ســامت السمـــاك مقامـــا حـــين ضمت ذاك الامام الهمـــاما

أبـــدا شأو شـــأنها لن يســامى فعلـــى قبـــة السمـــاء اذا مـــا

فضلوها أقــول بالتفضيل

هـــي عـــين وللتجـــلي سجنـــجل كـــل ذات بعكسهـــا تتمثـــــل

وبمـــرآة فكـــر من يتخيـــــل هـــي بـــاء مقلـــوبة فوق تلـــك اا

نقطة المستحيـلة التـأويل

دار مجـــد من بابها السعـــد يدخـــل دار في صحنهـــا الهدى في تسلســـل

في عــلاهــا مهمــا تشــا أبدا قــل   هــي فلك بل ما عليــه استــوى الفلـ
لك ومن فوق لوحه من قبيل

كعبــة نحوهــا قطعنــا الفجاجا   بحماهــا قــد آوت الحجــاجا
ماتــرى عنــد بابهــا محتاجــا   هــي كهــف النجــاة طــور المنــاجا
ة ثمال العفاة مأوى الدخيل

هي كنز لدرة الفخر موئل   قــد حوت كــل جوهــر متفضــل
ليس فيهــا لعــارض الدهر معقــل   هــي حــق للجوهــر الخــاص مالل
عرض العام عندها من مقيل

هي شمس الهــدى لمن ضل دومــا   مارأى من بهــا اهتدى قط لومــا
كــم هــدت من غوى الجهــالة قوما   هي ظــل ماضــل من قــال يومــا
بحماها من تحت ظــل ظليل

صــدف قــد غلت بــدر ثمــين   وامــام للمؤمنــين مبــين
كنــزها قد حوى لخــير دفــين   هي غمــد لذي فقــار بطــين
من سيوف الله العلي صقيل

حضــرة فوقهــا الجــلال تجلى   أجمــة في عرينهــا الليــث حــلا
كيــف تدنو الاســود منــه محــلا   هي غــاب ثوي به أسد الــلاه
عليّ بصدر أشــرف غيل

هــو سيــف القضــا بأيدي قدير   نصلــه ينتضــي بيــوم عســير
حيــدر يضــرم الوغى بسعــير   ذاك ليــث أردى العــدى بزئــير
وحســام أبادهــم بصليــل

هــي روض ونعــم مرعى ومنهــل   لأمــير النحــل الامــام المفضــل
دار فيها كأس الرحيــق المسلســل   كــورة لليعســوب مازج صــرف الـ
شهد منها أطائب الزنجبيل

فلــك دائــر منــير بشــهب   نورهــا ظــاهر بشــرق وغــرب
هــونت في تدبــيرها كــل صعب   كــرة مستــديرة فــوق قطــب
دبــر الكائنات بالتعــديل

صــاغها الله من محــاسن تعجب   وطــلاهــا من نــوره المتلــهب

فهي أسنى سبيكة لمذهب أفرغتها يمنى المفاخر من تبر
المعالي في قالب التبجيل

صبغة الله زينت بالتحلي وعليها الاملاك للوحي تملي
منذ دنا الروح نحوها بالتدلي صبغتها بالنور أيدي التجلي
بقدامى من خافقي جبرئيل

لايحيط الخيال وقتا فوقتا بحلاها ولا يخيل نعتا
جمعت ذاتها فضائل شتى فغشاها النور الالهي حتى
بخيال جلت عن التخييل

أحرزت من أزاهر الشرف الغض وأحاطت بالمجد في الطول والعرض
كل فضل من فضلها يتبعض قد حوى فصل بابها جمل الفضـ
ـل التي قد غنين عن تفصيل

جليت تزدهى بجسم صقيل فهي زهراء مالها من مثيل
منذ زفت لخير مولى جليل كعروس بدت بوجه جميل
تسبي شمس الضحى بخد أسيل

هي بدر الدجى بغير سرار هي شمس ضاءت بغير استتار
زندها في كلا الجديدين وار هي في الليل مثلها في نهار
وبوقت الضحى كوقت الاصيل

نالت النيرات من ذاك نيلا يستميل المحب للحب ميلا
فتهاوت منها تقبل ذيلا قابلتها البدور باللثم ليلا
وشموس النهار بالتقبيل

كسراج لنا تجلت مساء فاستعارت منها الدراري سناء
زينتها التبر يستنير ضياء صحنها كالقنديل يزهو صفاء
وهي تحكي ذبالة القنديل

هل محب يحنو على ماأقاسي من غرام دك الجبال الرواسي
مالجرحي سواكما اليوم أسي ياخليلي والخليل المواسي
منكما من يحب نفع الخليل

بالغريين حاجة أقتضيها وبكوفان بلغة أرتجيها
فبحق الزهرا وحق بنيها عللاني بذكر من حل فيها
ان قلبي يطيب بالتعليل

ذو سجايا أصفى من الدر والـدر ومـزايا لـم نحصهـا بالتفكر
أخبـرت عن نعـوته الكتب الغـر نعتـه بالزبـور جـاء وبالفـر
قان بل بالتوراة والانجيل
هـل أتى في سواه بالذكر تمـلى آي وحـي بهـا تسـامى محـلا
وصفه بالقـرآن قد جـاء يتـلى الامـام المبـين أحصـى به الله
جميع الاشياء في التنـزيل
صدره نسخـة لما كان في الكـو ن قديمـا من خطهـا الناس أملـو
هـو علـم الكتـاب في علمـه أو فهـو اللـوح بل ومـا خط في اللـو
ح لديه مقيـد التسجيـل
كم ثملنـا منـه بكـأس رويّ فأمطنـا برشفهـا كـل غـي
ان تـرم أن تفـوز منهـا بري سـل سبيـلا لسلسبيـل عليّ
فعلى ابن السبيل قصد السبيل
زره مهمـا أصـابك الخطب مهمـا تلـق غيثـا همى وبحرا خضمـا
فأجـل في راحـه عن القلب همـا هو ساقي الحوض الذي ليس يظمـا
من حبته يداه بالتنويل
كـم غليـل روى بفيـض مقيـل ماروينـاه عن فـرات ونيـل
كـم أفاضت كفـاه من سلسبيـل هـو ذات الشفـا لكـل عليـل
وشفـاء لذات كل غليـل
صـاغه اللـه من ندى وبـراه وعلـى فطـرة السخـا سـواه
بحـر جود ما للعفـاة سـواه عيلـم كـل قطـرة من نـداه
هي غيث لكل عام محيـل
جئـت أشكـو اليـه بثي وحزني حـاش لله أن يخيب ظنـي
نلـت من فضله قصـارى التمني عرض حـال لاغر وان طـال أني
لذت في جاهه العريض الطويـل
غيث فضـل يهمي بفيض غزيـر وغيـاث من كـل أمر عسـير
كيـف أرضى منـه بمن يسـير طامـع من نوالـه بكثـير
ما أنا منـه قانع بقليـل
كـم عديـم أحيـا بجود عميم وهـدى حائـرا لنهـج قويـم

ولا عتابــه بقلــب سليــم جئت مستهديا هدى من كريــم

لست مستجديا جدي من بخيــل

لجنــاحي أراش بعــد تــلافي بقــدامى أفضــاله والخــوافي

قبــره كعبــة غــدا للطــوافي مــن ثــراه لــي ثروة وحــذافي

ردعــاني بهن أغنى معيــل

كــل من زار قبــره أمن الهــو ل وان كــان ذنبه يملأ الجــو

ماتــراني وقد أحاط بي الســو زرتــه والدمــوع تنهــل والاو

زار تنهــال عن كثيب مهيــل

حبــه بارز بــدا من ضمــيري وعلينــا فــرض ولاء الامــير

بولاه كــم اغتنى من فقــير ليــس لي بعــد حبــه من نقــير

يغن عنــي شيئــا ولا من فتيــل

(وقال أيضا الشاعر العراقي) :

حضـرة الكاظمــين منها المرايـا قد حكت قلب صب أهل الطفـوف

صبغتهــا يــد التجــلي بكف كبرت عن تشبيهها بالكفــوف

وروت عن غــدير خــم صفــاء فتــراءت لطــرفي المطــروف

صور الكــائنات فوجا بفــوج سابحــات في موجهــا المكفــوف

من قنــاديل عسجــد زينوهــا بصفــوف تلوح أثــر صفــوف

رســم تعليقهــا الانيــق تبــدى كسطــور منضــودة من حروف

روضــة للصــدور فيهــا ورود بأكف الالحــاظ ذات قطــوف

قد أظلت شمسا بغــير كســوف وأقلت بدرا بغــير خســوف

وطــوت كاظمــا ولفت جــوادا فازدهــت بالمطــوى والملفــوف

شرفت فيهمــا ومــا كــل ظرف حــاز تشريفــه مــن المظــروف

وغــدت للقلبين مثــل شغــاف رق لطفــا كقلبــي المشغــوف

وهــي لما على السمــاء أنافت بهمــا قلــت ياسما المجد نــوفي

كلمــا زرتهــا أقــول لعينــي هــذه كعبــة الجلال فطــوفي

بحماها كــم من ألوف من الزو ار فازت من المنــى بصنــوف

أفأخشــى صروف دهري وانــي بحماهــا يخشى الزمــان صروفي

حــرم آمن فمن كان فيــه قاطنــا كان آمنــا من مخوف

ومطـاف به استـــدارت فطافت زمر كاستـــدارة الخـــذروف
كم لرشـد من حائـــري هدتـه وبرفدكـــم قد كفت من كـوفي
شنفتهـــا العليـــاء لما أصاخت لصـــرير الاقـــلام أبهى شنوف
شمخت عـــزة بأنـف أشـــم مرغـــم بالتراب شـــم الانوف
أرعفت مـارن الصبـــاح فأجرت دمـــه من بروقهـــا بسيـــوف
ألفت نفسي الثنـــاء عليهـــا وهـــي لاتنثني عن المألـــوف
لاتلمنـــي على الوقوف ببـــاب تتمنـــى الامـلاك فيـه وقوفي
هـــو باب مجـرب ذو خـواص كـــان منهـــا اغاثة الملهـوف
ملجــأ العاجزين كهف اليتـامى مروة المرملـين مأوى الضيـــوف
من يروم الفتوح ممـــا ســـواه طـرقت بابـــه أكف الحتـــوف
أنا عنه حيـــا وميتـا بدنيـــا ي وأخـراي لست بالمصـــروف
هم بنـــو المرتضـى وعترة طـه سـحب الفضـل أبحـر المعروف
فليلمـــني من شاء أني مـــوال رافـــل من ولائهـم بشفـــوف
فعليـهم مني الثنا ما اليهـــــم قطـــع المدلجون كل تنـــوف

(وقال)

الا أن صنـدوقا أحاط بحيـــدر وذي العرش قد أربى الى حضرة القدس
فان لم يكن لله كرسي عرشـــه فـان الذي في ضمنـه آية الكرسي

وقال وقد شاهد الزوار ليلا تتهافت على الصندوق خلال الشموع الموقـدة :

صنـــدوق قبر المرتضـى زواره بين الشموع لهـــم عليـه تهافت
فكـــأنه بدربه قـد أحـــدقت سيـــارة مـن أنجـــم وثوابت

(وقال لما زار موسى الكاظم)

خلعنـــا نفوسا قبل خلع نعالنـا غـداة حللنا مرقدا منك مأنوسـا
وليس علينـــا من جناح بخلعهـا لانـك بالوادي المقدس ياموسـى

الى غير ذلك من شعره الذي جمعه بمجموع سماه (الباقيـات الصالحات) وكله على هذا المنهج ،ومن العجب من يسلك هذا المسلك كيف يدعي أنه من أهل السنة وليس من الروافض •

وله أبيات في الشيخ عبد القادر الكيلاني وهي هذه وقد سلك فيها من الغلو مسلك ما نقلناه من شعره :

أبيات شعري حكت آيات تنزيـل تتلى بحضرة ممدوحي بترتيـــل

وعـت من المـلأ الأعلى لها اذن فشنفتهـا بتكبـير وتهليـل
قد انطوى العالم الاسمى بأحرفهـا فعطر النشر منهـا طيب تأويـل
عن حسنها قاصرات الطرف قد قصرت أحبب بكاعبـة النهدين عطبـول
ماست دلالا تعاطيني الرضاب طـلا فهمت مابين عسـال ومعسـول
تاهت على اللـؤلؤ المنثور اذ نظمت في مدح مولاي عبد القادر الجيـلي
قطـب عليـه مدار العالمين لـه دور تسلسل لا في قيـد تعطيـل
غـوث وغيث لراجيـه وخائفـه يحمي ويهمي بأفضال وتفضيـل
سجنـجل لتجلي ذاته ظهـرت لعينه عينـه من غـير تمثيـل
جـلاء نقطة غـين العين تربتـه كم فزت منهـا بتعفير وتكحيـل
طوفـان علم به نوح النبـوة في فلـك الفتـوة ينجي كل محمـول
خضم فيض بعيد الغـور فيه رست سفن الولاية لا في ساحل النيـل
مصباح فضل بنبراس الجمال زهت مشكاته فيه لا في ضوء قنـديل
نور بسيط على وجه البسيطـة بل بحر محيـط بمعقول ومنقـول
قرآن جمع لاشتات الهبات من الذر ات لاقبض بسط العرض والطـول
فرقـان فرق العـلى آياته رسمت في جبهـة كللـت منه باكليـل
مفتـاح غيب بلا ريب ببرزخـه باب الشهـود لديه غـير مقفـول
في عالم الغيب قد صحت مشاهـدة لـه فجـاء بكشف غير معلـول
توارثـت أوليـاء الله بعثتـه منـذ الست ومن جيل الى جيـل
في النشـأتين لـه حـال تصرفـه تالله في كل معقـود ومحلـول
باب الرجاء وقطب الاوليـاء وفخر الاتقيـاء ومأوى كل مذلـول
عـين الكمال وسلطان الرجاء ومم دوح الفعال وحامي كل مخـذول
ملجا المريـدين منجى اللائذين به كنز المقلـين مذخـوري ومأمولي
ذخري وفيـه غنى فقري ومدحتـه فخري أنال بحشـري منه تنويلـي
الى مـوائده اللاتي حـوت مددا مددت باعا به علقت كشكـولي
تفصيل اجمال جزء من خوارقـه عن حصرها كل اجمالي وتفصيـلي
نلت البقـا بغنائي في محبتـه فشاغلي فيه أضحى عين مشغـولي
وبان صحوي بمحوي في هواه وعن وهمي بأني سـواه بان تخييـلي
أتى من العلم في مثـل الذي أتيـا موسـى وعيسـى بتوراة وانجيـل

ندب اذا عـم خطب أودجا حزن | جلاه في سيف حزم غير مفلول
تهديك بهجته الغـرا وغنيته | تغنيك عن كل مقصود ومأمول
فناده عند نادية لفـادحة | وسله ماشئت تلقى خير مسئول
وقبل التـرب من أعاب سـدته | وابد الخشوع بدمع منك مسبول
فسدرة المنتهى لاشك حضـرته | لقد تناهى اليها علم جبريـل
ترى المحبين صرعى تحت قبتـه | وقلبهـم عن هـواه غير مشغول
أما تراهـم وفي أطمارهم ربضـوا | ببابـه كأسـود الغيـل بالغيـل
اليه من موصل قد جئت منقطعـا | فيالقطـع بحبـل الله موصـول
كـم ظن قوم قبولا منـه تم لهـم | وحققوا الظن أني غـير مقبـول
فدع رجـالا على جهـل تعنفنـي | فهـل سمعت بصب غير معـذول
وابغ رضـا اللـه في مـدح تقدمه | لفـارق بين مفضال ومفضـول
عليـه أزكى سـلام الله تتبعـه | تحيـة الملأ الاعلى بتبجيـل
مادوخت ديمـة الرضـوان مرقده | وجللتـه وغشتـه بمنديـل

الى غير ذلك من الشعر الكثير في هذا الباب ، ولو استوعبناه لطال به الكتاب ، وهذا حال خواصهم ، وقد سمعت غلوهم فكيف حال عوامهم ؟ وقد حكى العراقيون أن قبر عبد القادر قد غدا اليوم قبلة يطوفون عليه طواف الحجيج ببيت الله الحرام ، وينذرون له النذور ، ويوقدون السرج على رغم ماجاء به دين الاسلام ، وقد اتخذ ذراری الشيخ ذلك غنيمة يرتعون فيها كما ترتع الانعام ، وبعض سفهاء العقول ، وناقصوا الاحلام يتخذهم وسائل في الدنيا والآخرة ، وحكى العراقيون أن الكيلانيين اليـوم أشر أمة في العراق ، وعائلتهم أصبحت بلاء على بغداد ، ومن العجيب أن كبـير تلك العائلة (النقيب) يدعى أنه سلفي العقيدة ، وهو من سدنة الاصنام ، لم يزل يأكـل النذور المحرمة من الهنديين وغيرهم ، نسأله تعالى أن يطهر الارض من أمثال هؤلاء المعادين لدين الله تعالى ، والمضادين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أحق هذا النقيب بقول القائل :

نزلـوا بمكة في قبـائل هاشـم | ونزلـت في البيداء أبعـد منـزل

وقد سمعت أن بعض أدباء بلدته هجاه بقصائد كثيرة ، منها قصيدة مطلعها :

أرجـح بغـداد واني غريبهـا | على جنة الفردوس لولا نقيبهـا

واني أسأل الله تعالى أن يبصر المسلمين من أهل الهند وغيرهم حتى لاتكـون

أموالهم غنيمة لهؤلاء السفهاء ، ويصونهم من كيدهم ، انه على كل شيء قدير ، ولولا ملاحظة أن يطول الكتاب لاتينا على مفصل أحوال هؤلاء السدنة وعباد الاصنام ، وما ذكرناه كاف ان شاء الله تعالى في هذا المقام .

فظهر مما ذكرنا أن قول هذا الجاهل : أن الشيخ محمد ومن وافقه من أهل نجد وغيرهم أهل بدعة هو قول عاطل ، بل هم الفرقة الناجية ان شاء الله ، وهم أهل السنة والجماعة ، وهم عصابة الحق ، وان المبتدعة هم هذا الجاهل الغبي ومن على شاكلته لما سمعت من جهلهم وضلالهم ، ولكن الامر كما قيل في المثل السائر : رمتني بدائها وانسلت .

وأما الكلام على ماذكره من القدح والجرح في كتب الشيخين وأضرابهما فسيأتي البحث عنه مفصلا فيما خصص له من فصول كتابه وعادته ودأبه تكرير الكلام من غير طائل ، بل ليعظم حجم الكتاب فيفرح به .

أما قوله : وقد طبعوا الى الآن عشرة كتب ــ ثم عددها مع الطعن والقدح فيها ــ فيقال له : أخطأت في الحساب ، كما قد زغت عن جادة الحق والصواب ، بل ان الذي طبع من كتب الشيخين ونحوهما نحو مائة كتاب مابين مختصر ومفصل ، منها ماطبع في مصر ، ومنها ماطبع في المطابع الهندية ، ومنها ماطبع في مكة شرفها الله ، وكل هذه الكتب كنوز علم ومصابيح هدى والحمد لله ، كما أنها شجى لاعداء الدين والمبتدعة الملحدين ، واني أبشرك أيها المبتدع أن جميع كتب شيخ الاسلام وأصحابه ستطبع قريبا ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، حيث يظهر بها زيغ الملحدين ، وافتراء السبكي وابن حجر وأضرابهما من المتبعين لهواهم ، الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، ثم ختم كلامه على الكتب بذكر شيء من قصيدته التي سماها طيبة الغراء ، وهي التي ذكر فيها أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم موجود في كل مكان وكل زمان ، غير أنه لم يأت بجميع أبياتها هنا ، وزعم أنه حاكى بها قصيدة بانت سعاد ، فيقال له : لقد حكيت ولكن فاتك الشنب ، وشعره ركيك جدا ، وسنتكلم عليه فيما يناسب من مباحث الكتاب ، ثم نقول : ان هذه القصيدة التي ذكرها لا مناسبة لها مع البحث الذي هو بصدده ، وهكذا مباحث كتابه كلها على هذا المنوال لم يزل يذكر مباحث غير متناسبة ، ويورد أمورا لاتفيده شيئا ، ولم يكن قصده ــ والله أعلم ــ الا انتفاخ كتابه ، وبيان رعونته وجهله ، نسأل الله تعالى العافية مما إبتلاه به .

(ثم ان النبهاني) ذكر القسم الثاني من المقدمة ، وقال : انه يشتمل على اثني عشر تنبيها يلزم معرفتها لمن أراد مطالعة هذا الكتاب ، وذكر التنبيه الاول ، وفيه بيان أحوال ابن تيمية والتحذير عنه ، وأنه ومن وافقه على ضلال ، ثم ذكر التنبيه الثاني وهو بمعنى التنبيه الاول ، غير أنه قال : انه لايكفر ابن تيمية وأصحابه لأنهم من أهل القبلة ، وأطال الكلام في ذلك • ثم ذكر التنبيه الثالث ، وفيه ذكر رؤياه لابن السبكي وابن تيمية قائما والسبكي قاعدا على عجزه مع رجل ثالث ظنه صاحب الصارم المنكى ولم يعلم مقصده من هذا التنبيه • ثم ذكر التنبيه الرابع وقد اشتمل على بيان منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانه صاحب الشفاعة العظمى ، والمقام المحمود ، وأن أهل العلم حثوا على دعائه والاستغاثة به ، وطلب مايطلب من الله تعالى منه ، وانه لم يمنع منها سوى محمد بن عبد الوهاب وأصحابه ، والسيد صديق حسن خان وحزبه، وأن هذا الرجل هو الذي طبع كتب السنن وأضل الناس بها ، ثم ذكر التنبيه الخامس وفيه الثناء على ابن تيمية وابن القيم ، ودفع التناقض بين ماكان منه من المدح والذم نظرا لاختلاف الحالات ، وتغاير الجهات ، وتأييد ذلك بما نقل من كتاب الصواعق الالهية للشيخ سليمان بن عبد الوهاب الحنبلي ، ثم ذكر التنبيه السادس ، وفيه اعتقاده في ابن تيمية وتلامذته أنهم من أئمة الدين وأكابر علماء المسلمين ، وقد نفعوا الامة المحمدية بعلمهم نفعا عظيما ، وان أساؤا غاية الاساءة في بدعة منع الزيارة والاستغاثة وأضروا بها الاسلام والمسلمين ، وهذا الذي استوجب رده عليهم حسما لمادة الفساد الى آخر ماهذى به ، ثم ذكر التنبيه السابع ، وفيه يقول اياك أيها المسلم أن يخدعك الشيطان بقبول أقوال ابن تيمية وأصحابه ، ويقول لك أنهم من أكابر أهل العلم ، الى آخر هذيانه الذي أورده للتنفير عن أقوال الشيخ ومن يوافقه • ثم ذكر التنبيه الثامن ، وفيه أنه لو كان كلام ابن تيمية حقا في مسألة المنع من شد الرحل لزيارة القبور لترك الناس الزيارة وخربت المدينة • ثم ذكر التنبيه التاسع ، وفيه أنه لم يقصد بما ألف ردع من يقول بأقوال ابن تيمية عن معتقده المبتدع ، فان هذا مما لايفيد ، بل مقصوده تنبيه الناس على فساد عقائد هؤلاء القوم ، وتحذير المسلمين عن اعتقاد قولهم • ثم ذكر التنبيه العاشر ، وفيه أن ابن تيمية وكذلك أصحابه لم يقصدوا بمنعهم من سفر الزيارة الحط من رتبة النبي صلى الله عليه وسلم حاشاهم من ذلك ، فانهم من أكابر علماء المسلمين ، وحماة هذا الدين المبين ، ولكن لهم مذهب فاسد في ذلك سلكوه بحسب ماظهر لهم من الادلة التي قامت عندهم ، وما فهموه من الكتاب والسنة على حسب استعدادهم الخ • وهذه التنبيهات بعضها ينقض بعضا ، ثم نقل

عبارة ابن تيمية في كتاب (العقل والنقل) في تعظيم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثم تعجب من القائل بهذا القول كيف يمنع من سفر الزيارة والاستغاثة به الخ • ثم ذكر التنبيه الحادي عشر ، وفيه تحذير الناس من مخالطة من يوافق ابن تيمية في الاعتقاد ، فانهم مبتدعة ، وتكلم عليهم بكل مايستبشع ، ثم ذكر التنبيه الثاني عشر ، وفيه بيان أن ابن تيمية لم يخص أحدا بالرد والتضليل ، ولكنه خاصم جميع المسلمين الى أن قال : ويزيد على ذلك تكفير كثير من أئمة الصوفية ، الذين هم سادات الامة الخ ••

أقول : هذا حاصل ماذكر في تنبيهاته ، ويكفي الواقف عليها معرفة مبلغ هذا الرجل من العلم ، وخفة عقله ورعونته ، فان جميع ماذكره في هذه التنبيهات ضرب من الوسواس وكلام المعتوهين ، أو نوع من هذيان المحموم ، ومآل جميعها واحد ، وهو الحط على ابن تيمية وأصحابه ، وتحذير الناس من الميل إليه ومطالعة كتبه والأخذ بأقواله بسبب ماظهر له من منع سفر الزيارة والاستغاثة بمخلوق ، وبسبب قوله بهذه المسألتين قد قامت القيامة وفار التنور ، وهذا والامر لله تعالى من إدبار المسلمين وسوء طوالعهم في هذا العصر ، عصر الترقي والاخذ بنواصي الكمالات ، ونحن سنتكلم على كلا المسألتين في مقامهما ، ونضرب صفحا عن مؤاخذته في كل ماهذى به في هذه التنبيهات وسنبين أقوال أهل العلم في شأن ابن تيمية مما يلقم النبهاني وأضرابه حجر السكوت وذكر في التنبيه الثالث رؤياه ولم يعبرها فوجب تعبيرها له ، وذلك أنه قال : رأيت منذ ثلاث سنوات ونيف الامام ابن تيمية والامام السبكي في رؤيا وهما في مجلس واحد ، والسبكي جالس وهو سمين أسمر عليه هيبة ووقار ، وابن تيمية واقف أسمر أغبر نحيف الوجه والجسم عليه هيبة العلم ، وقد كان أقرب الي من السبكي فقصدته لاقبل يده ، ويغلب على ظني أني قبلتها وسألته عن مقدار عمره فقال ستمائة سنة ، ثم انتبهت •

فيقال له : ان صحت رؤياك أيها النبهاني — وان كان ماتراه يقظة ومناما أضغاث أحلام — دلت على أن الله تعالى كشف لك عن حال مقتداك ، وشيخ بدعك وهو السبكي ، فانه كما هو المعلوم لدى كل منصف كان من ألد الخصوم لشيخ الاسلام ، بل لكل أهل الحق ، وحيث كان جالسا بين يدي خصمه فهو دليل على أن خصمه وهو ابن تيمية قد أقعده على عجزه ، والامر كما رأيت ، فقد تكلم السبكي على ماأفتى به الشيخ ابن تيمية في مسئلتي الطلاق والزيارة ، فرد عليه الشيخ ابن تيمية بعدة مجلدات

يقول ابن السبكي رأيت منها مجلدا ، وأما سواد الوجه الذي لاح في السبكي فهو بيان ماابتدعه ، قال عز ذكره : (تَرى الَّذِيْنَ كَذَبوا على اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّة)[1]

وأما السمن الذي كان فيه فهو علامة غيظه وشقائه بين يدي خصمه ، وأما وقوف ابن تيمية على ساقه فهو النصر على خصومه ، وانه لم يزل قائما على ساق الهمة ، وأما نحافة وجهه فهو ماكابده من عناء مخاصمة أهل البدع وأعداء الدين ، وتعبير سمرته هو من السؤدد ، وتقبيل يديه ذلك له وضراعتك للحق ، وأما الرجل الذي رأيته وظننته ابن عبد الهادي أو ابن القيم فهو والله أعلم الاول ، لأنه الذي رد على مقتداك السبكي بعد وفاة الشيخ ابن تيمية في كتاب (الصارم المنكى في الرد على السبكي) في كتابه (شفاء السقام) وأقعده على عجزه أيضا ، وبين جهله وغباوته ، وقد رأيت وله الحمد تعبير رؤياك من قبل ، وأما قوله لك في جواب سؤالك عن مدة عمره أنه ستمائة سنة فهو معنى قوله تعالى : (وَلا تَحسَبَنَّ الَّذيْنَ قُتِلُوا في سَبيلِ اللهِ أمواتاً بَلْ أَحياءٌ عِنْدَ رَبهِم يُرْزَقُونَ)[2] ومثل ابن تيمية لم يمت على تعاقب الازمان .

وما دام ذكر العبد بالفضل باقيا — فذلك حي وهو في الترب هالك

وقال آخر :

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم — وعاش قوم وهم في الناس أموات

فالعالم بما جاء به الرسول العامل به أطوع في أهل الارض من كل أحد ، فاذا مات أحيا الله ذكره ، ونشر له في العالمين أحسن الثناء ، فالعالم بعد وفاته ميت وهو حي بين الناس ، والجاهل في حياته حي وهو ميت بين الناس ، كما قيل :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله — وأجسامهم قبل القبور قبور

وأرواحهم في وحشة من جسومهم — وليس لهم حتى النشور نشور

ومن تأمل أحوال أئمة الاسلام ـ كأئمة الحديث والفقه ـ كيف هم تحت التراب وهم في العالمين كأنهم أحياء بينهم لم يفقدوا منهم الا صورهم ، والا فذكرهم وحديثهم والثناء عليهم غير منقطع ، وهذه هي الحياة حقا ، حتى عد ذلك حياة ثانية ، كما قال المتنبي :

ذكر الفتى عيشه الثاني وحاجته — مافاته وفضول العيش أشغال

ولكن النبهاني على ماحكى لي من رآه أنه كذاب ، كثيرا مايحدث بمنامات

---

(1) الزمر : ٦٠ (2) آل عمران : ١٦٩

لاأصل لها ، وفي الحقيقة أن غالب هؤلاء المبتدعة كذلك ، وهم بيت الكذب ، كما أنهم المنهمكون على الدنيا ، وهذا من علائم دجاجلة العصر قبحهم الله تعالى .

هذا وماذكره في باقي التنبيهات منه مالا يستحق أن يصغى اليه لأنه لايخفى فساده حتى على صغار الطلبة ، ومنه ماذكره النبهاني في باب مختص به ، فأجلنا البحث عنه والكلام عليه الى وصولنا اليه ، والله الهادي الى سواء السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ثم انه عقد بابا في اثبات مشروعية السفر الى زيارة قبره الشريف صلى اللهتعالى عليه وسلم كسائر الانبياء والصالحين ، وجعله الباب الاول ، وافتتحه بارجوزة مدح بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم استدل على مشروعية هذا السفر بما ذكره ابن حجر في كتابه (الجوهر المنظم) وقد أتى بأكثره ، والكتاب مشهور ، وبما ذكره ابن الحاج في مدخله وهو كذلك ، ثم بما ذكره السبكي في (شفاء السقام) ثم بما ذكره الشيخ عبد القادر الكيلاني في (الغنية) ثم عقبه بكلام النووي ، ثم بكلام ابن الهمام الحنفي في (فتح القدير) ثم بما في (مشارق الانوار) للشيخ حسن العدوي ثم ذكر مازوروه من مد اليد للرفاعي ، ثم ذكر أربعين حديثا في فضل المدينة لأبي الحسن البكري ، ثم ختم الباب بخاتمة ذكر اختلاف الناس في التفاضل بين مكة والمدينة ، ثم ذكر فصلا ذكر فيه شيئا مما لاينبغي فعله للزائر ، نقله من كتاب (الجوهر المنظم) لابن الحجر المكي ، ثم نقل عن العدوى كلاما يتعلق بكرامات الاولياء وتصرفهم ، وبه ختم الباب ، وحيث أن هذه المباحث مشهورة ، بل أنها قد ملتها الاسماع لم أذكرها في هذا المقام لطولها ، بل أذكر حاصلها في أثناء الرد عليه ، ومن الله التوفيق والهداية الى أقوم طريق .

أقول : كان من الحزم عدم التعرض لهذه المسائل المفروغ عن تحقيقها ، وقد سبق منا بيان العذر للكلام على هذيان النبهاني ، مع العلم أنه لايفيد في رد من ختم الله على قلبه وسمعه وعلى بصره غشاوة ، فانه قد ألف في هذا الباب كتب مفصلة ومجملة ، قد حقق فيها الكلام على هذه المسائل أتم تحقيق ، ومع ذلك لم يؤثر شيئا في فهم هذا الخصم وأضرابه ، وأعاد وأبدى ، واستدل بما هو مردود مرارا عديدة ، فسبحان من طبع على قلبه .

وهنا كلام لابن القيم يناسب المقام ، قال رحمه الله تعالى : ومن تأمل القرآن والسنة وسير الانبياء في أممهم ودعوتهم لهم وما جرى لهم معهم جزم بخطأ أهل الكلام فيما قالوه ، وعلم أن القرآن مملوء من الاخبار عن المشركين عباد الاصنام أنهم

كانوا يقرون بالله ، وأنه هو وحده ربهم وخالقهم ، وأن الارض وما فيها له وحده ، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، وأنه بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، وأنه هو الذي سخر الشمس والقمر ، وأنزل المطر وأخرج النبات ، والقرآن مناد عليهم بذلك ، محتج بما أقروا به من ذلك على صحة مادعتهم اليه رسله ، فكيف يقال أن القوم لم يكونوا مقرين قط بأن لهم ربا وخالقا ، وهذا بهتان عظيم ، فالكفر أمر وراء مجرد الجهل ، بل الكفر الاغلظ هو ماأنكره هؤلاء وزعموا أنه ليس بكفر •

قالوا : والقلب عليه واجبان لايصير مؤمنا الا بهما جميعا : واجب المعرفة والعلم وواجب الحب والانقياد والاستسلام ، فكما لايكون مؤمنا اذا لم يأت بواجب العلم والاعتقاد لايكون مؤمنا اذا لم يأت بواجب الحب والانقياد والاستسلام ، بل اذا ترك هذا الواجب مع علمه ومعرفته به كان أعظم كفرا ، وأبعد عن الايمان من الكافر جهلا ، فان الجاهل اذا عرف وعلم فهو قريب الى الانقياد والاتباع ، وأما المعاند فلا دواء فيه ، قال تعالى : (كَيفَ يَهدي اللهُ قوماً كَفَروا بَعْدَ إيمانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وجاءهم البينات ، واللهُ لا يَهدي الْقَوْمَ الظّالمين)[١] .

قالوا :فحب الله ورسوله بل كون الله ورسوله أحب الى العبد من سواهما لايكون العبد مسلما الا به ، ولا ريب أن الحب أمر وراء العلم ، فما كل من عرف الرسول أحبه كما تقدم •

قالوا : وهذا الحاسد يحمله بغض المحسود على معاداته ، والسعي في أذاه بكل ممكن ، مع علمه بفضله وعلمه ، وأنه لاشيء فيه يوجب عداوته الا محاسنه وفضائله •

ولهذا قيل الحاسد عدو للنعم والمكارم ، فالحاسد لم يحمله على معادات المحسود جهله بفضله وكماله ، وانما حمله على ذلك فساد قصده وارادته ، كما هي حال الرسل وورثتهم مع الرؤساء الذين سلبهم الرسل ووارثوهم رياستهم الباطلة ، فعادوهم وصدوا النفوس عن متابعتهم ، ظنا أن الرياسة تبقى لهم وينفردون بها •

وسنة الله في هؤلاء أن يسلبهم رياسة الدنيا والآخرة ، ويصغرهم في عيون الخلق مقابلة لهم بنقيض قصدهم : (وَمَا رَبُّكَ بِظَلّامٍ لِلْعَبيد)[٢] .

---

(١) آل عمران : ٨٦
(٢) فصلت : ٤٦

قال : فهذا موارد احتجاج الفريقين ، ومواقف اقدام الطائفتين ، فاجلس أيها المنصف منهما مجلس الحكومة ، وتوخ بعلمك وعدلك فصل هذه الخصومة ، فقد أدلى كل منهما بحجج لاتعارض ولا تمانع ، وجاء ببينات لاترد ولا تدافع ، فهل عندك شيء غير هذا يحصل به فصل الخطاب ، وينكشف به لطالب الحق وجه الصواب فيرضى الطائفين ، ويزول به الاختلاف من البين ، والا

فخل المطي وحاديها — وأعط القوس باريها

دع الهوى لاناس يعرفون به — قد كابدوا الحب حتى لان أصبعه

ومن عرف قدره وعرف لذي الفضل فضله فقد قرع باب التوفيق ، والله الفتاح العليم ، فنقول وبالله التوفيق :

كلا الطائفتين ماخرجت عن موجب العلم ، ولا عدلت عن سنن الحق ، وانما الاختلاف والتباين بينهما من عدم التوارد على محل واحد ، ومن اطلاق ألفاظ مجملة بتفصيل معانيها يزول الاختلاف ، ويظهر أن كل طائفة موافقة للاخرى على نفس قولها ، وبيان هذا أن المقتضى قسمان : مقتض لايتخلف عنه موجبه ومقتضاه ، لقصوره في نفسه عن التمام ، أو لفوات شرط اقتضائه ، أو قيام مانع منع تأثيره ، فان أريد بكون العلم مقتضيا للاهتداء والاقتضاء التام الذي لايتخلف عنه أثره بل يلزمه الاهتداء بالفعل فالصواب قول الطائفة الثانية ، وانه لايلزم من العلم حصول الاهتداء المطلوب ، وان أريد بكونه موجبا أنه صالح للاهتداء مقتض له وقد يتخلف عنه مقتضاه لقصوره أو فوات شرط أو قيام مانع فالصواب قول الطائفة الاولى .

قال : وتفصيل هذه الجملة أن العلم بكون الشيء سببا لمصلحة العبد ولذاته وسروره قد يتخلف عنه عمله بمقتضاه لأسباب عديدة .

(السبب الاول) ضعف معرفته بذلك .

(السبب الثاني) عدم الأهلية ، وقد تكون معرفته به تامة ، لكن يكون مشروطا بزكاة المحل وقبوله للتزكية ، فاذا كان المحل غير زكي ولا قابل للتزكية كان كالارض الصلدة التي لايخالطها الماء ، فانه يمتنع النبات منها لعدم أهليتها وقبولها ، فاذا كان القلب قاسيا حجريا لايقبل تزكية ولا تؤثر فيه النصائح لم ينتفع بكل علم يعلمه ، كما لاتنبت الارض الصلبة ولو أصابها كل مطر وبذر فيها كل بذر ، كما قال تعالى في هذا الصنف من الناس : (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيهم كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤمِنُونَ وَلَو جَاءتهم

كُلُّ آيةٍ حتّى يَروا العذابَ الأليمَ)[1] وقال تعالى : (وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلنا إليهمُ الملائكةَ وكَلَّمَهُمُ الموتى وحشرنا عليهمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ما كانوا لِيُؤْمِنُوا إلاّ أَنْ يَشاءَ اللهُ)[2] وقال تعالى : (قُلِ انظروا ماذا في السَّموات والأرضِ ، وَما تُغني الآياتُ والنُّذرُ عَن قومٍ لا يُؤْمنونَ)[3] وهذا في القرآن كثير ، فاذا كان القلب قاسيا غليظا جافيا لايعمل فيه العلم شيئا ، وكذلك اذا كان مريضا مهينا مائيا لا صلابة فيه ولا قوة ولا عزيمة لم يؤثر فيه العلم •

(السبب الثالث) قيام مانع ، وهو اما حسد أو كبر ، وذلك مانع ابليس من الانقياد للامر ، وهو داء الاولين والآخرين الا من عصم الله ، وبه تخلف الايمان عن اليهود الذين شاهدوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعرفوا صحة نبوته ومن جرى مجراهم ، وهو الذي منع عبد الله بن أبي من الايمان ، وبه تخلف الايمان عن أبي جهل وسائر المشركين ، فانهم لم يكونوا يرتابون في صدقه وان الحق معه ، لكن حملهم الكبر والحسد على الكفر ، وبه تخلف الايمان عن أمية وأضرابه ممن كان عنده علم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم •

(السبب الرابع) مانع الرياسة والملك ، وان لم يقم بصاحبه حسد ولا تكبر عن الانقياد للحق ، لكن لايمكنه أن يجتمع له الانقياد وملكه ورياسته ، فيضن بملكه ورياسته ، كحال هرقل وأضرابه من ملوك الكفار الذين علموا نبوته وصدقه ، وأقروا بها باطنا ، وأحبوا الدخول في دينه ، لكن خافوا على ملكهم ، وهذا داء أرباب الملك والولاية والرياسة ، وقل من نجا منه الا من عصم الله ،وهو داء فرعون وقومه ، ولهذا قالوا :(أَنُؤمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثلِنا وقومُهُما لنا عابِدون)[4] أنفوا أن يؤمنوا ويتبعوا موسى وهارون وينقادوا لهما وبنوا اسرائيل عبيد لهم ، ولهذا قيل أن فرعون لما أراد متابعة موسى وتصديقه شاور هامان وزيره ، فقال : بينا أنت اله تعبد تصير عبدا تعبد غيرك ، فأبى العبودية واختار الرياسة والالهية المحال •

(السبب الخامس) مانع الشهوة والمال ، وهو الذي منع كثيرا من أهل الكتاب من الايمان خوفا من بطلان مأكلهم وأموالهم التي تصير اليهم من قومهم ، وقد كان

---

(١) يونس : ٩٦ ، ٩٧ (٢) الانعام : ١١١ (٣) يونس : ١٠١
(٤) المؤمنون : ٤٧

كفار قريش يصدون الرجل عن الايمان بحسب شهوته فيدخلون عليه منها ، فكانوا يقولون لمن يحب الزنا أن محمدا يحرم الزنا ويحرم الخمر ، وبه صدوا الاعشى الشاعر عن الاسلام ، قال : وقد فاوضت غير واحد من أهل الكتاب في الاسلام وصحته ، فكان آخر ماكلمني به أحدهم أنا لا أترك الخمر وأشربها آمنا ، فاذاأسلمت حلتم بيني وبينها وجلدتموني على شربها ، وقال آخر منهم ـ بعد أن عرف ماقلت له ـ لي أقارب أرباب أموال ، واني ان أسلمت لم يصل الي منها شيء ، وأنا أؤمل أن أرثهم ، أو كما قال • ولا ريب أن هذا القدر في نفوس خلق كثير من الكفار ، فتتفق قوة داعي الشهوة والمال ، وضعف داعي الايمان ، فيجيب داعي الشهوة والمال ويقول لا أرغب بنفسي عن آبائي وسلفي •

(السبب السادس) محبة الاهل والاقارب والعشيرة ، يرى أنه اذا اتبع الحق وخالفهم أبعدوه وطردوه عنهم ، وأخرجوه من بين أظهرهم ، وهذا سبب بقاء خلق كثير على الكفر بين قومهم وأهاليهم وعشائرهم •

(السبب السابع) محبة الدار والوطن ، وان لم يكن له بها عشيرة ولا أقارب ، لكن يرى أن في متابعة الرسول خروجه عن داره ووطنه الى دار الغربة والنوى فيضن بوطنه •

(السبب الثامن) تخيل أن في الاسلام ومتابعة الرسول ازراء ، وطعنا منه على آبائه وأجداده وذما لهم ، وهذا هو الذي منع أبا طالب وأمثاله عن الاسلام ، استعظموا آبائهم وأجدادهم أن يشهدوا عليهم بالكفر والضلال ، وأن يختاروا خلاف مااختار أولئك لأنفسهم ، ورأوا أنهم ان أسلموا سفهوا أحلام أولئك ، وضللوا عقولهم ، ورموهم بأقبح القبائح وهو الكفر والشرك ، ولهذا قال أعداء الله لأبي طالب عند الموت : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فكان آخر ماكلمهم به : هو على ملة عبد المطلب فلم يدعه أعداء الله الا من هذا الباب ، لعلمهم بتعظيمه أباه عبد المطلب ، وانه انما حاز الفخر والشرف به ، فكيف يأتي أمرا يلزم منه غاية تنقيصه وذمه ، ولهذا قال لولا أن تكون مسبة علي بني عبد المطلب لاقررت بها عينك ، أو كما قال • وهذا شعره يصرح فيه بأنه قد علم وتحقق نبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وصدقه، كقوله :

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحا بذاك مبينا

وفي قصيدته اللامية

فوالله لـــولا أن تكـــون مسبـــة تجـــر على أشيـاخنا في المحافـــل
لكنـــا اتبعنـــاه على كل حـــالة من الدهـــر جدا غير قول التهـــازل
لقـد علمـــوا أن ابننا لامكـــذب لدينـــا ولا يعنى بقـول الاباطـــل

والمسبة التي زعم أنها تجر على أشياخه شهادته عليهم بالكفر والضلال ، وتسفيه الاحلام ، وتضليل العقول ، وهذا هو الذي منعه من الاسلام بعد تيقنه •

(السبب التاسع) متابعة من يعاديه من الناس للرسول ، وسبقه الى الدخول في دينه ، وتخصصه وقربه منه ، وهذا القدر منع كثيرا من أتباع الهـدى ، يكـــون للرجل عدو ويبغض مكانه ، ولا يحب أرضا يمشي عليها ، ويقصد مخالفته ومناقضته فيراه قد اتبع الحق فيحمله قصد مناقضته ومعاداته على معادات الحق وأهله ، وان كان لا عداوة بينه وبينهم ، وهذا كما جرى لليهود مع الانصار ، فانهم كانوا أعداءهم وكانوا يتوعدونهم بخروج النبي صلى اللهتعالى عليه وسلم، وأنهم يتبعونهويقاتلونهم معه فلما بدرهم اليه الانصار وأسلموا حملهم معاداتهـم على البقاء على كفـــرهم ويهوديتهم •

(السبب العاشر) مانع الالف والعادة والمنشأ ، فان العادة قد تقوى حتى تغلب حكم الطبيعة ، كما يتربى لحمه وعظمه على الغذاء المعتاد ، ولا يعقل نفسه الا عليهـا ثم يأتيه العلم وهلة واحدة يريد ازالتها واخراجها من قلبه وأن يسكن موضعهافيعسر عليه الانتقال ، ويصعب عليه الزوال • وهذا السبب وان كان أضعف الاسباب معنى فهو أغلبها على الامم وأرباب المقالات والنحل ، ليس مع أكثرهم بل جميعهـم ، الا ماعسى أن يشذ الا عادة ومربى تربى عليه طفـلا لا يعرف غـيرها ، ولا يحس به ، فدين العوائد هو الغالب على أكثر الناس ، فالانتقال عنه كالانتقال عن الطبيعة الى طبيعة ثانية ، فصلوات الله وسلامه على أنبيائه ورسله خصـوصا على خاتمهـم وأفضلهم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، كيف غيروا عوائد الامـم البـاطلة ، ونقلوهم الى الايمان ، حتى استحدثوا به طبيعة ثانيـة ، خرجوا بها عن عادتهـم وطبيعتهم الفاسدة ، ولا يعلم مشقة هذا على النفوس الا من زاول نقل رجل واحد عن دينه ومقالته الى الحق ، فجزى الله المرسلين أفضل ما جازى به أحدا من العالمين، انتهى المقصود من نقله •

وهذا كلام حسن يعلم به سبب عناد المبتدعة على بدعهم ، وعدم تأثير الدعوة الحقة فيهم ، اذ هم على قدم أسلافهم الذين لم ينقادوا للحق ، ولم يذعنوا لدعوة المرسلين ، وأظن أن هذا الرجل وهو النبهاني المبتدع المجادل بالباطل وكذلك أضرابه من غلاة الشافعية قد توفرت فيهم الاسباب العشرة السابقة ، ولا سيما السبب الاول والثاني ، فان اليهود قد أخبر الله تعالى عن حال قلوبهم بقوله : (ثُمَّ قَسَتْ قُلوبُكُمْ من بَعدِ ذَلكَ ، فَهِي كَالحِجارَةِ أَو أَشدُّ قسوةً وإنَّ من الحجارةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنهارُ ، وإنَّ منها لَمَا يَشَّقَّقُ فَيخرجُ مِنه الماءُ ، وإنَّ مِنْها لَما يَهبِطُ من خَشْيَةِ الله، وما اللهُ بِغافلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)[1] .

ونعود الى كلام هذا المخذول فنقول : ان مانقله عن ابن حجر والسبكي وغيره كله متحد معنى ، ومن بعد السبكي كلهم قلدوه في رأيه الفاسد ، واعتقاده الكاسد ، الذي ذكره في كتابه (شفاء السقام) وقد علمت حال هذا الكتاب ، وما جرى عليه من الرد والابطال ، فقد رده الامام العالم العلامة الحافظ المحقق أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنلي المقدسي قدس الله روحه ، في كتابه الذي سماه(الصارم المنكى في الرد على السبكي) وقد حقق فيه المسائل المتعلقة بزيارة القبور ، وبين ما كان فيها من حق وزور ، وأظهر جهل السبكي بعلم الاثر والحديث ، وعدم فهمه لمقاصد الشريعة .

ومن نظر الى هذا الكتاب تبين له أن شهرة السبكي بالعلم كانت شهرة كاذبة ، وان نظره كنظر العوام ، وان منزلته من العلماء كقطرة من بحرماء ، ونغبة من داماء(٢) لايعلم شيئا من معقول ولا منقول ، وان اطراء غلاة الشافعية فيه من محض تعصبهم وقسوة قلوبهم ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، ولهذا ترى هذا المخذول لم يزل يتمنى ان لم يكن ألف هذا الكتاب ، أعني كتاب (الصارم المنكى) فاذا رد هذا الكتاب رد جميع ما ألف في هذه المسألة من كتب الغلاة ، ولو لم يكن سوى (الصارم المنكى) لكفى في ذلك ، مع أن كتب الرد عليهم لاتعد ولا تحصى ، ولا تكاد تستقصى ، ولو وقفت على ردود (الجوهر المنظم) لتبين لك أنه خزف لدى كل

---

(١) البقرة : ٧٤ (٢) كذا في الاصل .

منصف يعلم ، وكل هذه الكتب مشهورة متداولة بين الايـدي ، فاذا تكلمنا علـى ماذكر هذا المخذول كان عبثا وتضييعا للقرطاس .

ولما كانت كتب الخصوم كلها في الرد على شيخ الاسلام ابن تيمية ، وقد ذكروا عنه مالم يقل به وزوروا عليه أمورا كثيرة لم يقل بها ، ننقل جميع ماقاله في الزيارةمن الكتب والفتاوى ، ثم ننبه على بطلان قول الخصم المخذول بأوجز عبارة ، ومن الله نستمـد التوفيق .

(قال شيخ الاسلام) ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ في كتابه (الجـواب الباهر) ، لمن سأل من أولياء الامور عما أفتى به في زيـارة المقابر مانصه ــ بعـد البسملة . (١)

قد ذكرت فيما كتبته من المناسك أن السفر الى مسجده وزيارة قبره ــ كمـا يذكره أئمة المسلمين في مناسك الحج ــ عمل صالح مستحب ، وقد ذكرت في عـدة مناسك الحج السنة في ذلك ، وكيف يسلم عليه ، وهل يستقبل الحجرة أم القبلة ؟ على قولين ، فالاكثرون يقولون : يستقبل الحجرة ، كمالك والشافعي وأحمد ، وأبو حنيفة يقول : يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره في قول وخلفه في قول ، لأن الحجرة لما كانت خارجة المسجد وكان الصحابة يسلمون عليه لم يكن يمكن أحد أن يستقبل وجهه صلى الله عليه وسلم ويستدبر القبلة ، كما صـار ذلك ممكنا بعـد دخولها في المسجد .

ثم قال : وأما ماذكر في المناسك أنه بعد تحية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وصاحبيه والصلاة والسلام يدعو : فقد ذكر الامام أحمد وغيره أنه يستقبل القبـلة ويجعل الحجرة عن يساره ، لئلا يستدبره ــ وذلك بعد تحيته والصلاة والسلام ــ ثم يدعو لنفسه ، وذكروا أنه اذا حياه وصلى عليه يستقبل وجهه بأبي هـو وأمي صلى الله عليه وسلم ، فاذا أراد الدعاء جعل الحجرة عن يساره واستقبل القبلة ودعا ، وهذا مراعاة منهم لذلك ، فان الدعاء عند القبر لايكره مطلقا ، بل يؤمربه ، كما جاءت به السنة فيما تقدم ضمنا وتبعا ، وانما المكروه أن يتحرى المجيء للقبر للدعاء عنـده ، وكذلك ذكر أصحاب مالك ، قالوا : يدنوا من القبر فيسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يدعو مستقبل القبلة يوليه ظهره ، وقيل لا يوليه ظهره ، فانما اختلفوا لمـا فيه من استدباره ، فاما اذ جعل الحجرة عن يساره فقد زال المحذور بلا خلاف ،وصار

---

(١) كتاب (الجواب الباهر) قد طبع ضمن مجموع فتاوى شيخ الاسلام ، يبتديء من صحيفة ٣١٤ حتى ٤٤٢ من جلد ٢٧ ، وما ذكر المؤلف ملخصه هنا يبتديء من قوله : فصل قد ذكرت .. الغ اخر صحيفـة ٣٢٩ منه .

في الروضة أو امامها ، ولعل هذا الذي ذكره الائمة أخذوه من كراهة الصلاة الى القبر ، فان ذلك قد ثبت النهي فيه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما نهى أن يتخذ القبر مسجدا أو قبلة أمروا بأن لايتحرى الدعاء اليه كما لايصلى اليه ، ولهذا والله أعلم حرفت الحجرة وثلثت لما بنيت ، فلم يجعل حائطها الشمالي على سمت القبلة ولا جعل مسطحا ، ولذلك قصدوا قبل أن تدخل الحجرة في المسجد .

ثم ان الشيخ رحمه الله أطال الكلام الى أن ذكر مسألة السفر للصلاة في المسجد ثم قال : والصلاة تقصر في هذا السفر المستحب باجماع المسلمين ، لم يقل أحد من أئمة المسلمين أن هذا السفر لاتقصر فيه الصلاة ، ولا نهى أحد عن السفر الى مسجده وان كان المسافر الى مسجده يزور قبره صلى الله عليه وسلم ، بل هذا من أفضل الاعمال الصالحة ، ولا في شيء من كلامي وكلام غيري نهى عن ذلك ، ولا نهى عن المشروع في زيارة قبور الانبياء والصالحين ، ولا عن المشروع في زيارة سائر القبور، بل قد ذكرت في غير موضع استحباب زيارة القبور ، كما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يزور أهل البقيع وشهداء أحد ، ويعلم أصحابه اذا زاروا القبور أن يقول قائلهم : (السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وانا ان شاء الله بكم لاحقون ، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، ونسأل الله لنا ولكم العافية ، اللهم لاتحرمنا أجرهم ، ولا تفتنا بعدهم ، واغفر لنا ولهم) .

واذا كانت زيارة قبور عموم المؤمنين مشروعة فزيارة قبور الانبياء والصالحين أولى ، لكن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم له خاصة ليست لغيره من الانبياء والصالحين ، وهو انا أمرنا أن نصلي ونسلم عليه في كل صلاة ، وشرع ذلك في الصلاة وعند الاذان وسائر الادعية ، وأن نصلي ونسلم عليه عند دخول مسجده وغير مسجده ، وعند الخروج منه ، وكل من دخل فلا بد أن يصلي فيه ويسلم عليه في الصلاة. والسفر الى غيره مشروع ، لكن العلماء فرقوا بينه وبين غيره ، حتى كره مالك أن يقال زرت قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لان المقصود الشرعي بزيارة القبور السلام عليهم والدعاء لهم ، وذلك السلام والدعاء قد حصل على أكمل الوجوه في الصلاة ، في مسجده وغير مسجده ، وعند سماع الآذان ، وعند كل دعاء ، فشرع الصلاة عليه عند كل دعاء ، فانه أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، ولهذا يسلم المصلي عليه في الصلاة قبل أن يسلم على نفسه وعلى سائر عباد الله الصالحين ، فيقول : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، ويصلي عليه فيدعو له قبل أن يدعو لنفسه ، وأما غيره فليس عنده مسجد فيستحب السفر

اليه كما يستحب السفر الى مسجده ، وانما يشرع أن يزار قبره كما شـرعت زيارة القبور ، وأما هو فيشرع السفر الى مسجده وينهى عما يوهـم أنه سفـر الى غير المساجد الثلاثة •

ويجب الفرق بين الزيارة الشرعية التي سنها رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم وبين البدعية التي لم يشرعها ، بل نهى عن مثل اتخاذ قبور الانبياء والصالحين مساجد ، والصلاة الى القبر واتخاذه وثنـاء وقد ثبت في الصحيحـين عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : (لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد المسجد الحـرام ومسجدي هذا ، والمسجد الاقصى) حتى أن أبا هريرة سافر الى الطور الذي كلم الله عليه موسى فقال له بصرة ابن أبي بصرة الغفاري : لو أدركتك قبل أن تخـرج لما خرجت ، سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : (لاتعمل المطي الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، ومسجد بيت المقدس) فهـذه المساجد شرع السفر اليها لعبادة الله فيهابالصلاة والقراءة والذكر والدعاء والاعتكاف والمسجد الحرام يختص بالطواف لايطاف بغيره ، وما سواه من المساجد اذا أتاهـا الانسان وصلى فيها من غير سفر كان ذلك من أفضل الاعمال ، كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : (من تطهر في بيته ثم خرج الى المسجد كانت خطواته احداهما تحط خطيئة والاخرى ترفع درجة ، والعبد في صـلاة مادام ينتظر الصلاة ، والملائكة تصلي على أحدكم مادام في مصلاه الذي صلى فيه : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه ، مالم يحدث) ولو سافر من بلد الى بلد مثل أن يسـافر الى دمشق من مصر لأجل مسجدها أو بالعكس أو يسافر الى مسجد قباء من بلد بعيد لم يكن هذا مشروعا باتفاق الائمة الاربعة وغيرهم ، ولو نذر ذلك لم يف بنذره باتفاق الائمة الاربعة وغيرهم ، الا خلاف شاذ عن الليث بن سعد في المساجد ، وقـال ابن مسلمة من أصحاب مالك في مسجد قباء فقط •

ولكن اذا أتى المدينة استحب له أن يأتي مسجد قباء ويصلي فيه ، لأن ذلـك ليس بسفر ولا بشد رحل ، فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يأتي مسجـد قباء راكبا وماشيا كل سبت ويصلي فيه ركعتين ، وقال : (من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء كان له كعمره) رواه الترمذي وابن أبي شيبة ، وقال سعد بن أبي وقاص وابن عمر : صلاة فيه كعمرة •

ولو نذر المشي الى مكة للحج والعمرة لزمه باتفاق المسلمين ، ولو نذر أن يذهب الى مسجد المدينة أو بيت المقدس ففيه قولان : أحدهما ليس عليه الوفاء ،وهو قول أبي حنيفة واحد قولي الشافعي ، لأنه ليس من جنسه مايجب بالشرع ، والثاني عليه الوفاء بذلك ، وهو مذهب مالك وأحمد بن حنبل والشافعي في قوله الآخر ، لأن هذا طاعة لله ، وقد ثبت في صحيح البخاري عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه) ولو نذر السفر الى غير المساجد ، أو السفر الى مجرد قبر نبي أو صالح لم يلزمه الوفاء بنذره باتفاقهم ، فان هذا السفر لم يأمر به النبي صلى الله عليه وسلم ، بل قد قال : (لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد) وانما يجب بالنذر ماكان طاعة ، وقد صرح مالك وغيره بأن من نذر السفر الى المدينة النبوية ان كان مقصوده الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وفى بنذره ، وان كان مقصوده مجرد زيارة القبر من غير صلاة في المسجد لم يف بنذره ، قال : لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لاتعمل المطى الا الى ثلاثة مساجد) والمسألة ذكرها اسماعيل بن اسحق في المبسوط ومعناها في المدونة ، والجلاب وغيرهما من كتب أصحاب مالك ، يقول : ان من نذر اتيان مسجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لزمه الوفاء بنذره ، لأن المسجد لايؤتى الا للصلاة ، ومن نذر اتيان المدينة النبوية فان كان قصده الصلاة في المسجد وفى بنذره ، وان قصد شيئا آخر مثل زيارة من بالبقيع أو شهداء أحد لم يف بنذره ، لأن السفر انما يشرع الى المساجد الثلاثة ، وهذا الذي قاله مالك وغيره ماعلمت أحدا من أئمة المسلمين قال بخلافه ، بل كلامهم يدل على موافقته .

وقد ذكر أصحاب الشافعي وأحمد في السفر لزيارة القبور قولين : التحريم ، والاباحة ، وقدمائهم وأئمتهم قالوا انه محرم ، وكذلك أصحاب مالك وغيرهم .

وانما وقع النزاع بين المتأخرين لأن قوله صلى الله عليه وسلم : (لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد) صيغة خبر ، ومعناه النهي ، فيكون حراما ، وقال بعضهم : ليس بنهي ، وانما معناه أنه لايشرع ، وليس بواجب ولا مستحب ، بل مباح كالسفر في التجارة وغيرها ، فيقال له : تلك الاسفار لايقصد بها العبادة ، بل يقصد بها مصلحة دنيوية مباحة ، والسفر الى القبور انما يقصد به العبادة ، والعبادة انما تكون بواجب أو مستحب ، فاذا حصل الاتفاق على أن السفر الى القبور ليس بواجب ولا مستحب كان من فعله على وجه التعبد مبتدعا مخالفا للاجماع ، والتعبد به بدعة ليس بمباح ،

لكن من لم يعلم أن ذلك بدعة فانه قد يعذر ، فاذا تبينت له السنة لم يجز مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا التعبد بما نهى عنه ، كما لاتجوز الصلاة عند طلوع الشمس ولا عند غروبها ، وكما لايجوز صوم يومي العيدين ــ وان كانت الصلاة والصيام من أفضل العبادات ــ ولو فعل ذلك انسان قبل العلم بالسنة لم يكن عليه اثم ، فالطوائف متفقة على أنه ليس مستحبا وما علمت أحدا من أئمة المسلمين قال ان السفر اليها مستحب ، وان كان قاله بعض الاتباع فهو ممكن ، وأما الأئمة المجتهدون فما منهم من قال هذا ، واذا قيل : هذا كان قولا ثالثا في المسألة وحينئذ فيبين لصاحبه أن هذا القول خطأ مخالف للسنة ولاجماع الصحابة ، فان الصحابة في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبعدهم الى انقراض عصرهم لم يسافر أحد منهم الى قبر نبي ، ولا رجل صالح •

وقبر الخليل عليه السلام بالشام لم يسافر اليه أحد من الصحابة ، وكانوا يأتون بيت المقدس ويصلون فيه ولا يذهبون الى قبر الخليل ، ولم يكن ظاهرا بل كان في البناء الذي بناه سليمان عليه السلام ، ولا كان قبر يوسف يعرف ، ولكن أظهر ذلك بعد أكثر من ثلثمائة سنة من الهجرة ، ولهذا وقع فيه نزاع ، فكثير من أهل العلم ينكره ، ونقل ذلك عن مالك وغيره ، لأن الصحابة لم يكونوا يزورونه فيعرف ولما استولى النصارى على الشام نقبوا البناء الذي كان على الخليل ، واتخذواالمكان كنيسة ، ثم لما فتح المسلمون البلد بقي مفتوحا ، وأما على عهد الصحابة فكان قبر الخليل عليه السلام مثل قبر نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن أحد من الصحابة يسافر الى المدينة لأجل قبر النبي صلى الله تعالىعليه وسلم ، بل كانوايأتون فيصلون في مسجده ويسلمون عليه في الصلاة ، ويسلم من سلم عند دخول المسجد والخروج منه ، وهو مدفون في حجرة عائشة فلا يدخلون الحجرة ولا يقفون خارجا عنها في المسجد عند السور ، وكان يقدم في خلافة أبي بكر وعمر امداد اليمن الذين فتحوا الشام والعراق ــ وهم الذين قال الله فيهم :(فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)[1]

ويصلون في مسجده كما ذكرنا ، ولم يكن أحد يذهب الى القبر ، ولا يدخل الحجرة ولا يقوم خارجها في المسجد ، بل السلام عليه من خارج الحجرة ، وعمدة مالكوغيره فيه على مافعل ابن عمر •

---

(١) المائدة : ٥٤

وبكل حال فهذا القول لوقاله نصف المسلمين لكان له حكم أمثاله في مسائل النزاع ، وأما أن يجعل هو الدين الحق ويستحل عقوبة من خالفه ويقال بكفره فهذا خلاف اجماع المسلمين ، وخلاف ماجاء به الكتاب والسنة ، فان كان المخالف للرسول في هذه المسألة يكفر فالذي خالف سنته واجماع الصحابة وعلماء أمته فهو الكافر ، ونحن لانكفر أحدا من المسلمين بالخطأ لا في هذه المسائل ولا في غيرها ، ولكن ان قدر تكفير المخطيء فمن خالف الكتاب والسنة واجماع الصحابة والعلماء أولى بالكفر ممن وافق الكتاب والسنة والصحابة وسلف الامة وأئمتها ، فأئمة المسلمين فرقوا بين ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم وبين مانهى عنه في هذا وغيره ، فما أمر به هو عبادة وطاعة وقربة ، ومانهى عنه بخلاف ذلك ، بل قد يكون شركا ، كما يفعله أهل الضلال من المشركين وأهل الكتاب ومن ضاهاهم ، حيث يتخذون المساجد على قبور الانبياء والصالحين ، ويصلون اليها ، وينذرون لها ، ويحجون لها ، بل قد يجعلون الحج الى بيت المخلوق أفضل من الحج الى بيت الله الحرام ، ويسمون ذلك الحج الاكبر ، وصنف لهم شيوخهم في ذلك مصنفات ، كما صنف المفيد ابن النعمان كتابا في مناسك المشاهد ، سماه (مناسك حج المشاهد) وشبه بيت المخلوق ببيت الخالق .

وأصل دين الاسلام أن نعبد الله وحده ، ولانجعل لهمن خلقه ندا ولاكفوا ولا سميا ، قال تعالى : (فَاعْبُدْهُ واصطبرْ لعبادَتِهِ هَل تَعلمُ له سَمِيا)[1] وقال : (ولَم يَكُن له كُفوا أَحد) . وقال : (لَيس كَمثلِه شَيءٌ وهو السَّمِيعُ البَصير)[2] . وقال : (فَلا تَجعلوا لله أَنْدادا)[3] .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : (قلت يارسول الله : أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك ، قلت ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت ثم أي ؟ قال : أن تزاني بحليلة جارك) وقال تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذ مِنْ دُونِ اللهِ أَندادا يُحبُّونَهمْ كَحُبِّ اللهِ والَّذين آمنوا أَشَدُّ حُبًّا لله)[4] فمن سوى بين الخالق والمخلوق في الحب له ، والخوف منه ، والرجاء له ، فهو مشرك

---

(١) مريم : ٦٥ (٢) الشورى : ١١ (٣) البقرة : ٢٢ (٤) البقرة : ١٦٥

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم نهى أمته عن دقيق الشرك وجليله ، حتى قال صلى الله عليه وسلم : (من حلف بغير الله فقد أشرك) رواه أبو داود ، وقال له رجل ما شاء الله وشئت ، فقال : (أجعلتني لله ندا ؟! بل ماشاء الله وحده) وقال :(لاتقولوا ماشاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ماشاء الله ثم شاء محمد) وجاء معاذ بن جبل مرة فسجد له ، فقال له : (ماهذا يامعاذ ؟ فقال : يارسول الله رأيتهم في الشام يسجدون لاساقفتهم ، فقال : يامعاذ انه لايصلح السجود الا لله ، ولو كنت آمرا أحدا لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها) فلهذا فرق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين زيارة أهل التوحيد ، وبين زيارة أهل الشرك ، فزيارة أهل التوحيد لقبور المسلمين تتضمن السلام عليهم ، والدعاء لهم ، وهو مثل الصلاة على جنائزهم، وزيارة أهل الشرك تتضمن أنهم يشبهون المخلوق بالخالق ، ينذرون له ، ويسجدون له ، ويدعونه ، ويحبونه مثل مايحبون الخالق ، فيكونون قد جعلوه لله ندا ،وسووه برب العالمين ، وقد نهى الله تعالى أن يشرك به الملائكة والانبياء وغيرهم ، فقال تعالى : (ما كان لبَشَرٍ أَنْ يؤْتيهُ اللهُ الكتابَ والحكمَ والنُّبوةَ ثُمَّ يَقُولَ للنَّاسِ كُونُوا عِباداً لي مِنْ دُونِ اللهِ وَلكن كُونوا رَبَّانيِّين بما كُنْتُم تُعلِّمُونَ الكتَابَ وبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ. ولا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الملائكةَ والنبيينَ أرباباً أيأْمُرُكُمْ بالكُفرِ بَعد اذْ أَنْتُم مُسْلِمونَ [1] وقال تعالى:(قُلِ ادعوا الَّذينَ زعمتُمْ من دُونِهِ فلا يملكونَ كَشْفَ الضُّرِ عَنْكُم ولا تحويلا . أُولئكَ الَّذينَ يدعونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهم الوسيلة أَيُّهم أَقربُ وَيَرْجونَ رَحْمَتَهُ ويخافون عَذابَهُ إنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ محذورا) [2] .

قالت طائفة من السلف كان أقوام يدعون الانبياء كالمسيح وعزير ، ويدعون الملائكة ، فأخبرهم الله أن هؤلاء عبيده ، يرجون رحمته ويخافون عذابه ، ويتقربون اليه بالاعمال ، ونهى سبحانه أن يضرب له مثل بالمخلوق ، فلا يشبه بالمخلوق الذي يحتاج الى الاعوان والحجاب ونحو ذلك ، قال تعالى :(وإذا سَألكَ عِبادي عَنِّي

---

(١) آل عمران : ٨٠ (٢) الاسراء : ٥٦ ، ٥٧

فإني قريبٌ أُجيبُ دَعْوةَ الدَّاعِ إذا دعان ، فَلْيَسْتَجيبوا لي وَليؤْمنوا بي لعَلَّهُم يَرشُدون)[١] وقال تعالى : (قُل ادْعوا الَّذين زعَمْتُمْ من دونِ اللهِ لا يَملكُونَ مثقالَ ذَرةٍ في السموات ولا في الأَرض ، وما لَهُمْ فيهما من شِركٍ وما له مِنْهُم من ظَهيرٍ ، ولا تَنفَعُ الشَّفاعةُ عِنْدَهُ إلاَّ لمِنْ أَذِنَ لَه)[٢] .

وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سيد الشفعاء لديه ، وشفاعته أعظم الشفاعات ، وجاهه عند الله أعظم الجاهات ، ويوم القيامة اذا طلب الخلق الشفاعة من آدم ثم من نوح ثم من ابراهيم ثم من موسى ثم من عيسى كل واحد يحيلهم على الآخر ، فاذا جاؤا الى المسيح يقول اذهبوا الى محمد عبد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، قال : (فأذهب فاذا رأيت ربي خررت له ساجدا ، وأحمد ربي بمحامد يفتحها علي لاأحسنها الان ، فيقال : أي محمد ارفع رأسك وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، قال فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة) فمن أنكر شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر فهو مبتدع ضال ، كما ينكرها الخوارج والمعتزلة ، ومن قال ان مخلوقا يشفع عند الله بغير اذنه فقد خالف اجماع المسلمين ونصوص القرآن ، قال تعالى: (مَنْ ذا الَّذي يَشْفَعُ عنده إلاَّ بإذْنِهِ)[٣] وقال تعالى : (ولا يَشفعونَ إلاَّ لمن ارْتَضى)[٤] وقال تعالى : (وكَمْ مِن مَلَكٍ في السمواتِ لا تُغني شفاعَتُهم شيأً إلاَّ من بعد أَن يأذَنَ اللهُ لمِنْ يَشاءُ ويَرضى)[٥] وقال تعالى : (وخَشَعت الأَصْواتُ للرحمن فلا تسمعُ إلاَّ همساً ، يومئذٍ لا تنفعُ الشَّفاعةُ إلاَّ مَن أَذِنَ له الرحمن ورَضي له قَولاً)[٦] وقال تعالى : (مَا لَكُمْ مِن دُونِه من وَلي ولا شَفيع)[٧] ومثل هذا في القرآن كثير .

فالدين هو متابعة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بأن يأمر به ، وينهى عما نهى عنه ، ويحب ماأحبه الله ورسوله من الاعمال والاشخاص ، ويبغض ماأبغضه

---

(١) البقرة : ١٨٦ (٢) سبا : ٢٢ (٣) البقرة : ٢٥٥ (٤) الانبياء : ٢٨ (٥) النجم : ٢٦ (٦) طه : ١٠٩
(٧) السجدة : ٤

الله ورسوله من الاعمال والاشخاص ، والله سبحانه وتعالى قد بعث رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالفرقان ، ففرق بين هذا وهذا ، فليس لأحد أن يجمع بين مافرق الله بينه .

فمن سافر الى المسجد الحرام أو المسجد الاقصى أو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فصلى في مسجده وصلى في مسجد قباء وزار القبور كما مضت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا هو الذي عمل العمل الصالح ، ومن أنكر هذا السفر فهو كافر يستتاب فان تاب والا قتل ، وأما من قصد السفر لمجرد زيارة القبر ولم يقصد الصلاة في مسجده وسافر الى مدينته فلم يصل في مسجده صلى الله عليه وسلم ولا سلم عليه في الصلاة بل أتى القبر ثم رجع فهذا مبتدع ضال ، مخالف لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاجماع أصحابه ولعلماء أمته ، وهو الذي ذكر فيه القولان (أحدهما) أنه محرم (والثاني) لاشيء عليه ولا أجر له .

والذي يفعله علماء المسلمين هو الزيارة الشرعية ، يصلون في مسجده صلى الله عليه وسلم ، ويسلمون عليه في الدخول للمسجد وفي الصلاة ، وهذا مشروع باتفاق المسلمين ، قد ذكرت هذا في المناسك وفي الفتيا ، وذكرت أنه يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى صاحبيه ، وهذا الذي لم أذكر فيه نزاعا في الفتيا مع أن فيه نزاعا ، اذ من العلماء من لايستحب زيارة القبور مطلقا ، ومنهم من يكرهها مطلقا، كما نقل ذلك عن ابراهيم النخعي ، والشعبي ، ومحمد ابن سيرين ، وهؤلاء من أجلة التابعين ، ونقل ذلك عن مالك ، وعنه أنها مباحة ليست مستحبة ، وأما اذا قدر من أتى المسجد فلم يصل فيه ولكن أتى القبر ثم رجع فهذا هو الذي أنكره الأئمة كمالك وغيره ، وليس هذا مستحبا عند أحد من العلماء ، وهو محل النزاع هل هو حرام أو مباح ، وما علمنا أحدا من علماء المسلمين استحب مثل هذا .

ثم ذكر عليه الرحمة حكم السفر الى القبور من كلامه في الجواب الباهر فقال :
وأما السفر الى قبور الانبياء والصالحين فهذا لم يكن موجودا في الاسلام في زمن مالك ، وانما حدث هذا بعد القرون الثلاثة قرن الصحابة والتابعين وتابعيهم ، فأما هذه القرون التي أثنى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن هذا ظاهرا فيها ، ولكن بعدها ظهر الافك والشرك ، ولهذا لما سأل سائل لمالك عن رجل نذر أن يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ان كان أراد المسجد فليأته وليصل فيه ، وان كان أراد القبر فلا يفعل ، للحديث الذي جاء (لاتعمل المطي الا الى ثلاثة مساجد)

وكذلك من يزور قبور الانبياء والصالحين ليدعوهم أو يطلب منهم الدعاء أو يقصد الدعاء عندهم ـ لكونه أقرب اجابة في ظنه ـ فهذا لم يكن يعرف على عهد مالك ، لا عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ولا غيره ، واذا كان مالك يكره أن يطيل الوقوف عنده للدعاء فكيف بمن لايقصد لا السلام عليه ولا الدعاء له ، وانما يقصد دعاءه ، وطلب حوائجه منه ، ويرفع صوته عنده ، فيؤذي الرسول ، ويشرك بالله ، ويظلم نفسه .

ولم يعتمد الائمة الاربعة ولا غير الاربعة على شيء من الاحاديث التي يرويها بعض الناس في ذلك مثل مايروون أنه قال : (من زارني في مماتي فكانما زارني في حياتي) ومن قوله (من زارني وزار أبي في عام ضمنت له على الله الجنة) ونحو ذلك ، فان هذا لم يروه أحد من أئمة المسلمين ، ولم يعتمدوا عليها ولم يروها لا أهل الصحاح ، ولا أهل السنن التي يعتمد عليها ، كأبي داود ، والنسائي ، لانها ضعيفة بل موضوعة ، كما قد بين العلماء الكلام عليها ، ومن زاره في حياته كان من المهاجرين اليه ، والواحد بعدهم لو أنفق مثل أحد ذهبا مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه ، وهو اذا أتى بالفرائض لايكون مثل الصحابة ، فكيف يكون مثلهم في النوافل ، أو بما ليس قربه ، أو بما هو منهى عنه ، وكره مالك رحمه الله أن يقول القائل زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، كره هذا اللفظ لأن السنة لم تأت به في قبره .

وقد ذكروا في تعليل ذلك وجوها ، ورخص غيره في هذا اللفظ للاحاديث العامة في زيارة القبور ، ومالك يستحب مايستحبه سائر العلماء من السفر الى المدينة والصلاة في مسجده ، وكذلك السلام عليه وعلى صاحبيه عند قبورهم اتباعا لابن عمر ، ومالك رضي الله عنه من أعلم الناس بهذا ، لانه قد رأى التابعين الذين رأوا الصحابة بالمدينة ، ولهذا كان يستحب اتباع السلف في ذلك ، ويكره أن يبتدع أحد هناك بدعة ، فكره أن يطيل القيام والدعاء عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، لان الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك ، وكره لأهل المدينة كلما دخل انسان المسجد أن يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك .

قال مالك : ولا يصلح آخر هذه الامة الا ماأصلح أولها ، بل كانوا يأتون الى مسجده فيصلون خلف أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين ، فان

الاربعة صلوا أئمة في مسجده ، والمسلمون يصلون خلفهم ، وهم يقولون في الصلاة السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته كما كانوا يقولون ذلك في حياته ، ثم اذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا ولم يكونوا يأتون القبر للسلام ، لعلمهم بأن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل ، وهي المشروعة .

وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك أو الصلاة والدعاء فانه لم يشرعه لهم ، بل نهاهم ، وقال : (لاتتخذوا قبري عيدا ، وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني) فبين أن الصلاة تصل اليه من البعيد ، وكذلك السلام ، ومن صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا ، ومن سلم عليه سلم الله عليه عشرا ، وتخصيص الحجرة بالصلاة والسلام جعل لها عيدا وهو قد نهاهم عن ذلك ، ونهاهم أن يتخذوا قبره أو قبر غيره مسجدا ، ولعن من فعل ذلك ، ليحذروا أن يصيبهم مثل ماأصاب غيرهم من اللعنة ، وكان أصحابه خير القرون ، وهم أعلم الناس بسننه ، وأطوع الامة لأمره ، وكانوا اذا دخلوا الى المسجد لايذهب أحد منهم الى قبره لا من داخل الحجرة ولا من خارجها ، وكانت الحجرة في زمانهم يدخل اليها من الباب اذ كانت عائشة فيها ، وبعد ذلك الى أن بني الحائط الآخر ، وهم مع ذلك التمكن من الوصول الى قبره لايدخلون اليه ، لا لسلام ولا لصلاة ، ولا لدعاء لأنفسهم ، ولا لسؤال عن حديث أو علم ، ولا كان الشيطان يطمع فيهم — حتى يسمعهم كلاما وسلاما فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم ، وبين لهم الاحاديث ، أو أنه قد رد عليهم السلام بصوت يسمع من خارج — كما طمع الشيطان في غيرهم ، فاضلهم عند قبره وقبر غيره ، حتى ظنوا أن صاحب القبر يحدثهم ويفتيهم ، ويأمرهم وينهاهم في الظاهر ، وانه يخرج من القبر ويرونه خارجا من القبر ، ويظنون أن نفس ابدان الموتى خرجت من القبر تكلمهم ، وأن روح الميت تجسدت لهم فرأوها كما رآهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة المعراج يقظة لامناما .

فان الصحابة رضوان الله عليهم خير قرون هذه الامة التي هي خير أمة أخرجت للناس ، وهم تلقوا الدين عن النبي صلى الله عليه وسلم بلا واسطة ، ففهموا من مقاصده وعاينوا من أفعاله وسمعوا منه شفاها مالم يحصل لمن بعدهم ، وهم قد فارقوا جميع أهل الارض وعادوهم ، وهجروا جميع الطوائف وأديانهم ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم . قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : (لاتسبوا

أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه) وهذا قاله لخالد بن الوليد لما تشاجر هو وعبد الرحمن بن عوف ، لأن عبد الرحمن بن عوف كان من السابقين الاولين ، وهم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا وهو فتح الحديبية ، وخالد هو وعمرو ابن العاص وعثمان بن طلحة أسلموا في مدة الهدنة بعد الحديبية وقبل فتح مكة ، فكانوا من المهاجرين التابعين لا من المهاجرين الاولين •

وأما الذين أسلموا عام فتح مكة فليسوا بمهاجرين ، لانه لا هجرة بعد الفتح بل كان الذين أسلموا من أهل مكة يقال لهم الطلقاء ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أطلقهم بعد الاستيلاء عليهم عنوة كما يطلق الاسير ، والذين بايعوه تحت الشجرة ومن كان من مهاجرة الحبشة هم السابقون الاولون من المهاجرين والانصار •

وفي الصحيح عن جابر قال : قال لنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم الحديبية : (أنتم خير أهل الارض ، وكنا ألفا وأربعمائة) ولهذا لم يطمع الشيطان أن ينال منهم من الاضلال والاغواء مانال ممن بعدهم ، فلم يكن فيهم من يتعمد الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم ــ وان كان له أعمال غير ذلك قد تنكر عليه ــ ولم يكن فيهم من أهل البدع المشهورة ، كالخوارج ، والروافض ، والقدرية ، والمرجئة ، والجهمية ، بل كل هؤلاء انما حدثوا فيمن بعدهم ، ولم يكن فيهم من طمع الشيطان أن يترائى له في صورة بشر ويقول أنا الخضر ، أو أنا ابراهيم ، أو موسي ، أو عيسى أو المسيح ، أو أن يكلمه عند قبر حتى يظن أن صاحبه كلمه ، بل هذا انما ناله فيمن بعدهم ، وناله أيضا من النصارى ، حيث أتاهم بعد الصلب وقال : أناهو المسيح وهذه مواضع المسامير ــ ولا يقول أنا الشيطان فان الشيطان لايكون جسدا ــ أو كما قال • وهذا هو الذي اعتمد عليه النصارى في أنه صلب لا في مشاهدته فان أحدا منهم لم يشاهد الصلب ، وانما حضره بعض اليهود ، وعلقوا المصلوب وهم يعتقدون أنه المسيح ، ولهذا جعل الله هذا من ذنوبهم وان لم يكونوا صلبوه ، ولكنهم قصدوا هذا الفعل وفرحوا به ، قال تعالى : (وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً . وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ ، وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ،

وما قتلوهُ يقيْناً . بَلْ رَفعهُ اللهُ إليْه)[1] . وبسط هذا له موضع آخر .

(والمقصود) أن الصحابة رضي الله عنهم لم يطمع الشيطان أن يضلهم كما أضل غيرهم من أهل البدع الذين تأولوا القرآن على غير تأويله ، وجهلوا السنة اذا رأوا أو سمعوا أمورا من الخوارق فظنوها من جنس آيات الانبياء والصالحين ، وكانت من أفعال الشياطين ، كما أضل النصارى وأهل البدع بمثل ذلك ، فهم يتبعون المتشابه من الكتاب ، ويدعون المحكم ، ولذلك يتمسكون بالمتشابه من الحجج العقلية والحسية ، كما يسمع ويرى أمورا فيظن أنه رحماني وانما هو شيطاني ، ويدعون البين الحق الذي لا اجمال فيه ، ولذلك لم يطمع الشيطان أن يتمثل في صورته ، ويغيث من استغاث به ، أو أن يحمل صوتا يشبه صوته ، لأن الذين رأوه قد علموا أن هذا شرك لايحل ، ولهذا أيضا لم يطمع فيهم أن يقول أحد منهم لاصحابه اذا كانت لكم حاجة فتعالوا الى قبري ، ولا تستغيثوا بي لا في محياي ولا في مماتي ، كما جرى مثل هذا لكثير من المتأخرين ، ولا طمع الشيطان أن يأتي أحدهم ويقول : أنا من رجال الغيب ، أو الاوتاد الاربعة ، أو من السبعة ، أو الاربعين أو يقول له : أنت منهم ، اذ كان هذا عندهم من الباطل الذي لاحقيقة له ، ولا طمع الشيطان أن يأتي أحدهم فيقول : أنا رسول الله ـ ويخاطبه عند القبر ـ كما وقع ذلك لكثير ممن بعدهم عند قبره وقبر غيره ، وعند غير القبور ، كما يقع كثير من ذلك للمشركين وأهل الكتاب ، يرون بعد الموت من يعظمونه ، فأهل الهند يرون من يعظمونه من شيوخهم الكفار وغيرهم ، والنصارى يرون من يعظمونه من الانبياء والحواريين وغيرهم ، والضلال من أهل القبلة يرون من يعظمونه : إما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإما غيره من الانبياء ـ يقظة ، ويخاطبهم ويخاطبونه ، وقد يستفتونه ويسئلونه عن أحاديث فيجيبهم ، ومنهم من يخيل له أن الحجرة قد انشقت وخرج منها النبي صلى الله عليه وسلم وعانقه هو وصاحباه ، ومنهم من يخيل اليه أنه رفع صوته بالسلام حتى وصل مسيرة أيام الى مكان بعيد ، وهذا وأمثاله أعرف ممن وقع له هذا وأشباهه عددا كثيرا ، وقد حدثني بما وقع له في ذلك وبما أخبر به غيره من الصادقين من يطول هذا الموضع بذكرهم .

وهذا موجود عند خلق كثير ، كما هو موجود عند النصارى والمشركين ، لكن كثير من الناس يكذب بهذا ، وكثير منهم اذا صدق به يعتقد أنه من الآيات الالهية ،

---

(1) النساء : ١٥٦ ـ ١٥٨

وان الذي رأى ذلك رآه لصلاحه ودينه ، ولم يعلم أنه من الشيطان ، وأنه أضل من فعل به ذلك ، وأنه بحسب قلة علم الرجل يضله ، ومن كان أقل علما قال له مايعلم أنه مخالف للشريعة خلافا ظاهرا ، ومن عنده علم بها لا يقول له ما يعلم أنه مخـالف للشريعة ولا مفيد فائدة في دينه ، بل يضله عن بعض ما كان يعرفه ، فان هذا فعـل الشياطين ، وهو وان ظن أنه استفاد شيئا فالذي خسره من دينه أكثر ، ولهذا لم يقل قط أحد من الصحابة أن الخضر أتاه ، ولا موسى ولا عيسى ، ولا أنه سمع رد النبي صلى الله عليه وسلم ، وابن عمر كان يسلم ولم يقـل قط أنه سمع الرد ، وكذلـك التابعون وتابعوهم ، وانما حدث هذا في بعض المتأخرين ، وكذلك لم يكن أحد من الصحابة يأتيه فيسأله عند القبر عن بعض ماتنازعوا فيه وأشكل عليهم من العـلم ، لا خلفاؤه الاربعة ولا غيرهم ، مع أنهم أخص الناس به ، حتى ابنته فاطمة لم يطمع الشيطان أن يقول لها اذهبي الى قبره فسليه هل يورث ، كما أنهم أيضا لم يطمـع الشيطان فيهم فيقول لهم اطلبوا منه أن يدعو لكم بالمطر لما أجدبوا ، ولا قال اطلبوا منه أن يستنصر لكم ولا أن يستغفر كما كانوا في حياته يطلبون منه أن يستسقي لهم وأن يستغفر لهم ، فلم يطمع الشيطان فيهم بعد موته أن يطلبوا منه ذلك ، ولا طمـع بذلك في القرون الثلاثة ، وانما ظهرت هذه الضلالات ممن قل علمه بالتوحيد والسنة فأضله الشيطان كما أضل النصارى في أمور لقلة علمهم بما جاء به المسيح ومن قبله من الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، وكذلك لم يطمع الشيطان أن يطير بأحدهم في الهواء ، ولا أن يقطع به الارض في مدة قريبـة ، كما يقع مثـل هذا لكثـير من المتأخرين ، لأن الاسفار التي كانوا يسافرونها كانت طاعات ، كسفر الحج والعمـرة والجهاد ، وهم يثابون على كل خطوة يخطونها فيه ، وكلما بعدت المسافة كان الاجر أعظم ، كالذي يخرج من بيته الى المسجد فخطواته احداهما ترفع درجة والاخـرى تحط خطيئة ، فلم يمكن الشيطان أن يفوتهم ذلك الاجر ، بأن يحملهم في الهـواء أو يؤزهم في الارض ازا حتى يقطعوا المسافة بسرعة .

وقد علموا أن النبي صلى الله عليه وسلم انما أسرى به الله من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ليريه من آياته ، وأنه أراه من آياته الكبرى ، وكان هـذا من خصائصه ، فليس لمن بعده مثل هذا المعراج ، ولكن الشيطـان يخيل اليه معاريـج شيطانية كما خيلها لجماعة من المتأخرين ، وأما قطع النهر الكبير بالسير على الماء فهذا قد يحتاج اليه المؤمنون أحيانا ، مثل أن لايمكنهم العبور الى العدو وتكميل الجهاد

الا بذلك ، فلهذا كان الله يكرم من يحتاج الى ذلك من الصحابة والتابعين بمثل ذلك، كما أكرم به العلاء بن الحضرمي وأصحابه ، وأبا مسلم الخولاني وأصحابه ، وبسط هذا له موضع آخر غير هذا الكتاب •

لكن المقصود أن يعرف أن الصحابة خير القرون ، وأفضل الخلق بعد الانبياء ، فما ظهر فيمن بعدهم مما يظن أنها فضيلة للمتأخرين ولم تكن فيهم فانها من الشيطان ، وهي نقيصة لا فضيلة ، سواء كانت من جنس العلوم ، أو من جنس العبادات ، أو من جنس الخوارق والآيات ، أو من جنس السياسة والملك ، بل خير الناس بعدهم أتبعهم لهم ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات ، فان الحي لاتؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم : أبر هذه الامة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، ولاقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ، فانهم كانوا على الهدى المستقيم • وبسط هذا له موضع آخر •

والمقصود هنا : أن الصحابة تركوا البدع المتعلقة بالقبور بقبره وقبر غيره لنهيه صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، ولئلا يتشبهوا بأهل الكتاب الذين اتخذوا قبور الانبياء أوثانا ، وانما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلم عليه اذا قدم من سفر ، كما كان ابن عمر يفعل ، بل كانوا في حياته يسلمون عليه ثم يخرجون من المسجد لا يأتون اليه عند كل صلاة ، واذا جاء أحد سلم عليه رد عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وكذلك من سلم عليه عند قبره رد عليه ، وكانوا يدخلون على عائشة فكانوا يسلمون عليه كما كانوا يسلمون في حياته ، ويقول أحدهم : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، وقد جاء هذا عاما ، ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه الا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ، فاذا كان رد السلام موجودا في عموم المؤمنين فهو في أفضل الخلق أولى ، واذا سلم المسلم عليه في صلاته فانه وان لم يرد عليه لكن الله يسلم عليه عشرا ، كما في الحديث : (من سلم علي مرة سلم الله عليه عشرا) فالله يجزيه على هذا السلام أفضل مما يحصل بالرد ، كما أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا ، وكان ابن عمر يسلم عليه ثم ينصرف ولا يقف لا لدعاء له إلا لنفسه ، لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة فكان بدعةمحضة قال مالك : لن يصلح آخر هذه الامة الا ماأصلح أولها ، مع أن فعل ابن عمر اذا لم يفعل مثله سائر الصحابة انما يحصل للتسويغ ، كأمثال ذلك فيمايفعله بعض الصحابة•

وأما القول بأن هذا الفعل مستحب أو منهى عنه أو مباح فلا يثبت الا بدليل شرعي ، فالوجوب والندب والاباحة والاستحباب والكراهة والتحريم لايثبت شيء منها الا بالادلة الشرعية ، والادلة الشرعية كلها مرجعها اليه ، فالقرآن هو الذي بلغه ، والسنة هي التي علمها ، والاجماع بقوله عرف أنه معصوم ، والقياس انما يكون حجة اذا علمنا أن الفرع مثل الاصل ، أو أن علة الاصل في الفرع ، وقد علمنا أنه صلى الله عليه وسلم لايتناقض فلا يحكم في المتماثلين بحكمين متناقضين ، ولا يحكم بالحكم لعلة تارة ويمنعه أخرى مع وجود العلة الا لاختصاص احدى الصورتين بما يوجب التخصيص ، فشرعه هو ماشرعه ، وسنته هي ماسنها ، لايضاف اليه قول غيره وفعله وان كان من أفضل الناس اذا وردت سنته ، بل ولا يضاف اليه الا بدليل يدل على الاضافة ، ولهذا كان الصحابة كأبي بكر وعمر وابن مسعود يقولون باجتهادهم، ويكونون مصيبين موافقين لسنته ، لكن يقول أحدهم : أقول في هذا برأيي ، فان يكن صوابا فمن الله ، وان كان خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه، فان كان ماخالف سنته فهو شرع منسوخ مبدل ، لكن المجتهدون وان قالوا برأيهم وأخطئوا فلهم أجر وخطأهم مغفور لهم ، وكان الصحابة اذا أراد أحدهم أن يدعو لنفسه استقبل القبلة ودعا لنفسه كما كانوا يفعلون في حياته ، لايقصدون الدعاء عند الحجرة ، ولا يدخل أحدهم الى القبر ، والسلام عليه قد شرع للمسلمين في كل صلاة ، وشرع للمسلمين اذا دخل أحدهم المسجد أي مسجد كان .

(فالنوع الاول) كل صلاة يقول المصلي : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، ثم يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (فاذا قلتم ذلك أصابت كل عبد صالح لله في السماء والارض) فقد شرع للمسلمين في كل صلاة أن يسلموا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خصوصا وعلى عباد الله الصالحين من الملائكة والانس والجن ، وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال (كنا نقول خلف النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة : السلام على فلان وفلان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ان الله هو السلام ، فاذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل التحيات لله والصلوات والطيبات ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا اله الا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله) وقد روى عنه التشهد بألفاظ أخر ، كما رواه مسلم من حديث ابن عباس ، وكما كان ابن عمر يعلم الناس التشهد ، ورواه

مسلم من حديث أبي موسى ، لكن مثل تشهد ابن مسعود ، ولكن لم يخرج البخاري الا تشهد ابن مسعود ، وكل ذلك سائغ فان القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فالتشهد أولى .

والمقصود : أنه صلى الله عليه وسلم ذكر أن المصلي اذا قال السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أصابت كل عبد صالح في السماء والارض ، وهذا يتناول الملائكة والانس والجن ، كما قال تعالى عنهم : (وأَنّا مِنّا الصّالحونَ ومِنّا دُوْنَ ذلكَ كُنّا طَرائقَ قِدَداً)[1] .

(والنوع الثاني) السلام عليه عند دخول المسجد ، كما في المسند والسنن عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (اذا دخل أحدكم المسجد فليقل باسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك ، واذا خرج قال باسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب فضلك) .

وروى مسلم في صحيحه الدعاء عند دخول المسجد بأن يفتح له أبواب رحمته، وعند خروجه بسؤال الله من فضله ، وهذا الدعاء مؤكد في دخول مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا ذكره العلماء فيما صنفوه من المناسك لمن أتى الى مسجده أن يقول ذلك ، فان السلام عليه مشروع عند دخول المسجد والخروج ، وفي نفس كل صلاة ، وهذا أفضل وأنفع من السلام عند قبره وأدوم ، وهذا مصلحة محضة لامفسدة ، فبها يرضي الله ، ويوصل نفع ذلك الى رسول الله والى المؤمن ، وهذا مشروع في كل صلاة ، وعند دخول المسجد والخروج منه ، بخلاف السلام عند القبر ، مع أن قبره من حين دفن لم يمكن أحد من الدخول اليه ، لا لزيارة ولا لصلاة ولا لدعاء ولا غير ذلك ، ولكن كانت عائشة فيه لأنه بيتها ، وكانت ناحية عن القبور لأن القبور في مقدم الحجرة ، وكانت هي في مؤخرة الحجرة ، ولم يكن الصحابة يدخلون الى هناك .

وكانت الحجرة على عهد الصحابة خارجة عن المسجد متصلة به ، وانما دخلت فيه في خلافة عبد الملك بن مروان بعد موت العبادلة ابن عمر وابن عباس وابن الزبير وابن عمرو ، بل موت جميع الصحابة الذين كانوا بالمدينة ، ولم يكن الصحابة يدخلون

---

(١) الجن : ١١

الى عند القبر ، ولا يقفون عنده خارجا ، مع أنهم يدخلون الى مسجده ليلا ونهارا ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : (صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد الا المسجد الحرام) وقال : (لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، ومسجد بيت المقدس) وكانوا يقدمون من الاسفار للاجتماع بالخلفاء الراشدين وغير ذلك فيصلون في مسجده ، ويسلمون عليه في الصلاة ، وعند دخول المسجد والخروج منه ، ولا يأتون القبر ، اذ كان عندهم مما لم يأمرهم به ، ولم يسنه لهم ، وانما أمرهم وسن لهم الصلاة والسلام عليه في الصلاة ، وعند دخولهم المساجد وغير ذلك ، ولكن ابن عمر كان يأتيه فيسلم عليه وعلى صاحبيه عند قدومه من السفر ، وقد يكون فعله غير ابن عمر أيضا ، فهكذا رأي من رأى من العلماء هذا جائزا اقتداء بالصحابة رضي الله عنهم ، وابن عمر كان يسلم ثم ينصرف ولا يقف يقول : السلام عليك يارسول الله ، السلام عليك ياأبا بكر ، السلام عليك ياأبت ، ثم ينصرف ولم يكن جمهور الصحابة يفعلون ذلك اذ لم يكن هذا سنة سنها لهم •

وكذلك أزواجه كن على عهد الخلفاء وبعدهم يسافرون للحج ، ثم ترجع كل واحدة الى بيتها كماوصاهن بذلك ، وكانت امداد اليمن الذين قال الله فيهم (فَسَوْفَ يأتي اللهُ بِقَومٍ يُحبهم ويُحِبُّونَه)[1] على عهد أبي بكر وعمر يأتون أفواجا من اليمن للجهاد في سبيل الله ، ويصلون خلف أبي بكر وعمر في مسجده ، ولا يدخل أحد منهم الى داخل الحجرة ، ولا يقف في المسجد خارجا منها ، لالدعاء ولا صلاةولا سلام ولا غير ذلك ، وكانوا عالمين بسنته ، كما علمهم الصحابة والتابعون أن حقوقه ملازمة لحقوق الله ، وأن جميع ماأمر الله به وأحبه من حقوقه وحقوق رسوله فان صاحبها يؤمر بها في جميع المواضع والبقاع ، فليست الصلاة والسلام عليه عند قبره بأوكد من ذلك في غير ذلك المكان ، بل صاحبها مأمور بها حيث كان ، اما مطلقا واما عندالاسباب المؤكدة لها ، كالصلاة والدعاء والاذان ، ولم يكن شيء من حقوقه ولا شيء من العبادات هو عند قبره أفضل منه في غير تلك البقعة ، بل نفس مسجده له فضيلة لكونه مسجده ، ومن اعتقد أنه قبل القبر لم يكن له فضيلة ــ اذ كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يصلي فيه والمهاجرون والانصار وانما حدثت له الفضيلة في

---

(١) المائدة : ٥٤

خلافة الوليد بن عبد الملك لما أدخل الحجرة في مسجده ـ فهذا لايقوله الا جاهل مفرط في الجهل ، أو كافر ، فهو مكذب لما جاء ، مستحق للقتل •

وكان الصحابة يدعون في مسجده كما كانوا يدعون في حياته ، لم يتجدد لهم شريعة غير الشريعة التي علمهم اياها في حياته ، وهو لم يأمرهم اذا كان لأحدهم حاجة أن يذهب الى قبر نبي أو صالح فيصلي عنده ويدعوه ، أو يدعو بلا صلاة ، أو يسأله حوائجه ، أو يسأله أن يسأل ربه ، فقد علم الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأمرهم بشيء من ذلك ، ولا أمرهم أن يخصوا قبره أو حجرته لا بصلاة ولا دعاء ، لا له ولا لأنفسهم ، بل قد نهاهم أن يتخذوا بيته عيدا ، فلم يقل لهم كما يقول بعض الشيوخ الجهال لاصحابه اذا كان لكم حاجة فتعالوا الى قبري ، بل نهاهم عما هو أبلغ من ذلك أن يتخذوا قبره أو قبر غيره مسجدا يصلون فيه لله ، ليسد ذريعة الشرك ، فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما ، وجزاه عنا أفضل ماجزى نبيا عن أمته ، قد بلغ الرسالة وأدى الامانة ، ونصح الامة ، وجاهد في الله حق جهاده ، وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه ، فكان انعام الله به أفضل نعمة أنعم بها على أهل الارض •

وقد دلهم صلى الله عليه وسلم على أفضل العبادات ، وأفضل البقاع ، كما في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : (قلت يارسول الله : أي العمل أفضل ؟ قال : الصلاة على مواقيتها ، قلت ثم أي ؟ قال : ثم بر الوالدين ، قلت ثم أي ؟ قال : الجهاد في سبيل الله سألته عنهن ، ولو استزدته لزادني) وفي المسند وسنن ابن ماجه عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء الا مؤمن) والصلاة قد سن للامة أن تتخذ لها مساجد ، وهي أحب البقاع الى الله ، كما ثبت عنه في صحيح مسلم وغيره أنه قال : (أحب البقاع الى الله المساجد ، وأبغض البقاع الى الله الاسواق) ومع هذا فقد لعن من يتخذ قبور الانبياء والصالحين مساجد ـ وهو في مرض الموت ـ نصيحة للامة ، وحرصا منه على هذا ، كما نعته الله بقوله : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ ، رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)[1]

---

(١) التوبة : ١٢٨

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : (قال رسول اللــه صلى الله عليه وسلم ــ في مرضه الذي لم يقم منه ــ لعن الله اليهود والنصــارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، قالت عائشة : ولولا ذلك لابرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجدا) ، وعن عائشة وابن عباس قالا : لما نزل برسول الله صلى الله تعــالى عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فاذا اغتم كشفها عن وجهه ، فقال ــ وهو كذلك ــ (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مســاجد ، يحذر ماصنعوا) .

ومن حكمة الله تعالى أن عائشة أم المؤمنين صاحبة الحجرة التي دفن فيها تروي هذه الاحاديث وقد سمعتها منه ، وان كان غيرها من الصحابة سمعها أيضــا ، كابن عباس وأبي هريرة وجندب وابن مسعود رضي الله تعالى عنهم ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : (قاتل الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد) وفي الصحيحين عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بأرض الحبشة ــ فيها تصاوير ــ لرسول اللــه صلى الله عليه وسلم ، فقال : (ان أولئك اذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة) وفي صحيح مسلم عن جندب قال : (سمعت رسول الله صلى اللــه عليه وسلم قبــل أن يموت بخمس وهو يقول : اني أبرأ الى الله أن يكون لي منكم خليل ، فان الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا ، ولو كنت متخــذا من أهل الارض خليــلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ألا وان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فاني أنهاكم عن ذلك) وفي صحيح مسلم عن أبي مرثد الغنوي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لاتجلسوا على القبور ولا تصلوا اليها) وفي المسند وصحيح أبي حاتم أنه قال (إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهــم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد) .

وقد تقدم نهيه أن يتخذ قبره عيدا ، فلما علم الصحابة أنه قد نهاهم عن أن يتخذوه مصلى للفرائض التي يتقرب بها الى الله ــ لئلا يتشبهوا بالمشركين الذين يتخذونهــا ويصلون بها وينذرون لها ــ كان نهيهم عن دعائها أعظم وأعظم ، كما أنه لما نهاهم عن الصلاة عند طلوع الشمس وغروبها ــ لئلا يتشبهوا بمن يسجد للشمس ــ كــان نهيهم عن السجود للشمس أولى ، فكان الصحابة يقصدون الصلاة والدعاء والذكر

في المساجد التي بنيت لله دون قبور الانبياء والصالحين التي نهوا أن يتخذوهامساجد وانما هي بيوت المخلوقين ، وكانوا يفعلون بعد موته ماكانوا يفعلون في حياته •

ثم ذكر فصلا في جوابه عن غلو بعض الناس في تعظيم القبور حتى قال ان البلاء يندفع عن أهل البلد أو الاقليم بمن هو مدفون عندهم من الانبياء والصالحين •

قال شيخ الاسلام في أثناء كلامه في (الجواب الباهر) وأما مايظنه بعض الناس أنه يندفع البلاء عن أهل بغداد بقبور ثلاثة : أحمد بن حنبل ، وبشر الحافي ، ومنصور ابن عمار ، ويظن بعضهم أنه يندفع البلاء عن أهل الشام بمن عندهم من قبور الانبياء ، الخليل وغيره عليهم السلام ، وبعضهم يظن أنه يندفع البلاء عن أهل مصر بنفيسة أو غيرها ، أو يندفع عن أهل الحجاز بقبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأهل البقيع أو غيرهم : فكل هذا غلو مخالف لدين المسلمين ، مخالف للكتاب والسنة والاجماع ، فالبيت المقدس كان عنده من قبور الانبياء والصالحين ماشاء الله فلما عصوا الانبياء وخالفوا ماأمر الله به ورسله سلط عليهم من انتقم منهم ، والرسل الموتى ماعليهم الا البلاغ ، وقد بلغوهم رسالة ربهم ، وكذلك نبينا قال الله تعالى في حقه: (إنْ عَلَيْكَ إلاَّ الْبَلاغُ)[1] وقال:(وَمَا عَلى الرَّسُوْلِ إلاَّ البَلاغُ المبيْن)[2] .

وقد ضمن الله لكل من أطاع الرسول أن يهديه وينصره ، فمن خالف الرسول استحق العذاب ولم يغن عنه أحد من الله شيئا ، كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : (ياعباس عم رسول الله لاأغني عنك من الله شيئا ، يافاطمة بنت محمد لاأغني عنك من الله شيئا) وقال لمن ولاه من أصحابه : (لاألفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء ، يقول : يارسول الله أغثني ! فأقول : لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك) وكان أهل المدينة في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي أفضل أهل الدنيا والآخرة ، لتمسكهم بطاعة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم تغيروا بعض التغير ، فقتل عثمان ، وخرجت الخلافة خلافة النبوة من عندهم وصاروا رعية لغيرهم ، ثم تغيروا بعض التغيرفجرى عليهمعام الحرة من النهب والقتل وغير ذلك من المصائب مالم يجر عليهم قبل ذلك ، والذي فعل بهم ذلك وان كانظالما متعديا فليس هو أظلم ممن فعل بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه مافعل ، وقد قال الله تعالى : (أَوَلَمَّا أَصابتكُمْ مُصيبةٌ قَدْ أَصَبتُمْ مِثْلَيْها قُلتم أَنَّى هٰذا ؟

(١) الشورى : ٤٨ (٢) العنكبوت : ١٨

قلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)[١]

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم والسابقون الاولون مدفونين بالمدينة ، وكذلك الشام كان أهله في أول الاسلام في سعادة الدنيا والدين ، ثم جرت فتن وخرج الملك من أيديهم ، ثم سلط عليهم المنافقون الملاحدة والنصارى بذنوبهم ، واستولوا على بيت المقدس وقبر الخليل ، وفتحوا البناء الذي كان عليه ، وجعلوه كنيسة ، ثم صلح دينهم فأعزهم الله ونصرهم على عدوهم لما أطاعوا الله ورسوله ، واتبعوا ماأنزل اليهم من ربهم ، فطاعة الله ورسوله هي قطب السعادة وعليها تدور : (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسولَ فأُولئكَ مَعَ الَّذينَ أَنعَمَ اللهُ عَلَيهِم منَ النَّبِيين والصديقين والشُّهداءِ والصَّالحينَ وَحَسُنَ أُولئكَ رَفيقا)[٢] .

وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول في خطبته : (من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فلا يضر الا نفسه ولا يضر الله شيئا) .

ومكة نفسها لايدفع البلاء عن أهلها ويجلب لهم الرزق الا بطاعتهم لله ورسوله كما قال الخليل عليه السلام : (رَبّنا إني أَسْكنت من ذُرِّيَّتي بوادٍ غَيْر ذي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المحرَّم ، ربَّنا ليقيموا الصَّلاةَ ، فاجْعَلْ أَفئدةً من الناسِ تَهْوي إليهِم وارْزُقْهُمْ من الثَّمراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)[٣] .

وكانوا في الجاهلية يعظمون حرمة الحرم ، ويحجون ويطوفون بالبيت ، وكانوا خيرا من غيرهم من المشركين ، والله لايظلم مثقال ذرة ، فكانوا يكرمون مالا يكرم غيرهم ، ويؤتون مالا يؤتاه غيرهم ، لكونهم كانوا متمسكين من دين ابراهيم أعظم ماتمسك به غيرهم ، وهم في الاسلام ان كانوا أفضل من غيرهم كان جزاؤهم بحسب فضلهم ، وان كانوا اسوأ عملا من غيرهم كان جزاؤهم بحسب سيئاتهم ، فالمساجد والمشاعر انما تنفع فضيلتها لمن عمل فيها بطاعة الله ، والا فمجرد البقاع لايحصل بها ثواب ولا عقاب ، وانما الثواب والعقاب على الاعمال المأمور بها والمنهى عنها ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد آخى بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء ، وكان أبو الدرداء بدمشق وسلمان بالعراق ، فكتب أبو الدرداء الى سلمان هلم الى الارض المقدسة فكتب اليه سلمان إن الارض لاتقدس أحدا وانما يقدس

---

(١) آل عمران : ١٦٥ (٢) النساء : ٦٩ (٣) ابراهيم : ٣٧ .

الرجل عمله . والمقام بالثغور للجهاد أفضل من سكنى الحرمين باتفاق العلماء ، ولهذا كان سكنى الصحابة بالمدينة أفضل للهجرة .

والله هو الذي خلق الخلق وهو الذي يهديهم ويرزقهم وينصرهم ، وكل من سواه لايملك شيئا من ذلك ، كما قال تعالى : (قُلِ ادعوا الَّذينَ زعمتُمْ من دُونِ اللهِ لا يملكونَ مثْقالَ ذرَّةٍ في السَّموات ولا في الأَرضِ ، وما لَهمْ فيهما من شِركٍ وما لَهُ منْهم من ظَهيرٍ . ولا تَنفعُ الشَّفاعةُ عِندَهُ إلاَّ لِمنْ أَذِنَ لَهُ)[1]

وقد فسروها بأن يؤذن للشافع والمشفوع له جميعا ، فان سيد الشفعاء يوم القيامة محمد صلى الله عليه وسلم ، واذا أراد الشفاعة قال : (فاذا رأيت ربي خررت له ساجدا ، فأحمده بمحامد يفتحها علي لاأحسنها الآن ، فيقال لي : ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، قال : فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة) وكذلك ذكره في المرة الثانية والثالثة .

ولهذا قال : (ولا يَملكُ الَّذين يَدعُونَ من دونِه الشَّفاعَة إلاَّ من شَهِدَ بالحق)[2] .
فأخبر أنه لايملكها أحد دون الله ، وقوله (الا من شهد بالحق وهم يعلمون) استثناء منقطع ، أي من شهد بالحق وهم يعلمون ، هم أصحاب الشفاعة ، منهم الشافع ، ومنهم المشفوع له . وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة أنه قال : (من أسعد الناس بشفاعتك يارسول الله ، فقال : لقد ظننت ياأبا هريرة أن لايسألني عن هذا الحديث أول منك لما رأيت حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي من قال لا اله الا الله خالصا من قلبه) رواه البخاري ، فجعل أسعد الناس بشفاعته أكملهم اخلاصا ، وقال في الحديث : (اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ، ثم صلوا علي ، فانه من صلى علي مرة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فانها درجة في الجنة لاتنبغي الا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة) فالجزاء من جنس العمل ، فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا ، قال : (ومن سأل لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة ولم يقل : (كان أسعد الناس بشفاعتي) بل قال (أسعد الناس بشفاعتي من قال

---

(١) سبا : ٢٢ ، ٢٣ (٢) الزخرف : ٨٦

لا اله الا الله خالصا من قلبه) فعلم أن مايحصل للعبد بالتوحيد والاخلاص من شفاعة الرسول وغيرها لايحصل بغيره من الاعمال وان كان صالحا ، كسؤال الوسيلة للرسول ، فكيف بما لم يأمر به من الاعمال بل نهى عنه ، فذاك لاينال به خيرا لافي الدنيا ولا في الآخرة ، مثل غلو النصارى في المسيح ، فانه يضرهم ولا ينفعهم ، ونظير هذا في الصحيح عنه أنه قال : (ان لكل نبي دعوة مستجابة ، واني اختبأت دعوتي شفاعة لامتي يوم القيامة ، فهي نائلة ان شاء الله من مات لايشرك بالله شيئا) وكذلك في أحاديث الشفاعة كلها انما يشفع في أهل التوحيد ، فبحسب توحيد العبد لربه واخلاصه دينه لله يستحق كرامة الله بالشفاعة وغيرها ، وهو سبحانه علق الوعد والوعيد والثواب والعقاب والحمد والذم بالايمان به وتوحيده وطاعته ، فمن كان أكمل في ذلك كان أحق بتولي الله له بخير الدنيا والآخرة ، ثم جميع عباده مسلمهم وكافرهم هو الذي رزقهم ، وهو الذي يدفع عنهم المكاره ، وهو الذي يقصدونه في النوائب ، قال تعالى : (وما بِكُم من نعمةٍ فَمن اللهِ ثُمَّ إذا مَسَّكم الضُّر فإليه تَجأَرُون)[1] وقال تعالى: (قُلْ من يكلؤُكم بالَّليلِ والنَّهارِ من الرحْمن)[2] أي بدلا عن الرحمن هذا أصح القولين كقوله تعالى : (ولوْ نَشَاءُ لجعَلْنا منْكمْ ملائكةً في الأَرْضِ يَخْلُفُوْن)[3] أي لجعلنا بدلا منكم ، كما قاله عامة المفسرين ومنه قول الشاعر :

فليت لنا من ماء زمزم شربة   مبردة باتت على طهيان

أي بدلا من ماء زمزم ، فلا يكلأ الخلق بالليل والنهار فيحفظهم ويدفع عنهم المكاره الا الله ، قال تعالى : (أَمَّنْ هذا الَّذي هُوَ جُندٌ لَكُمْ يَنْصُرُكم من دُون الرَّحمن إنِ الكافِرُوْنَ إلاَّ في غُرُور . أَمَّنْ هذا الذي يَرزُقُكُم إنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجوا في عتوٍ و نُفور)[4] ومن ظن أن أرضا معينة تدفع عن أهلها البلاء مطلقا بخصوصها أو لكونها فيها قبور الانبياء والصالحين فهو غالط ، فأفضل البقاع مكة وقد عذب الله أهلها عذابا شديدا عظيما فقال : (ضَربَ اللهُ مَثلاً قَريةً كَانَت

---

(١) النحل : ٥٣ (٢) الانبياء : ٤٢ (٣) الزخرف : ٦٠ (٤) الملك : ٢٠ ، ٢١

آمنةً مُطمئنةً يأتيها رِزْقُها رَغداً من كُلِّ مكانٍ فَكَفرتْ بأَنْعم اللهِ فأَذاقَها اللهُ لِباسَ الجوعِ والخوفِ بِما كانوا يَصْنعون . ولَقَدْ جاءَهم رَسُولٌ مِنهم فكَذَّبوهُ فأَخَذَهم الْعَذابُ وَهُمْ ظالمونَ)[1] .

ومن فصول (الجواب الباهر لمن سأل من ولاة الامر عما أفتى به في زيارة المقابر) كلام في أن الزيارة المتضمنة ترك مأمور أو فعل محظور ليست بمشروعة •

قال شيخ الاسلام ــ قدس الله روحه ــ وقد تنازع المسلمون في زيارة القبور ، فقال طائفة من السلف : ان ذلك كله منهي عنه لم ينسخ ، فان أحاديث النسخ لم يروها البخاري ولم تشتهر ، ولما ذكر البخاري (باب زيارة القبور) احتج بحديث المرأة التي بكت على القبر ، ونقل ابن بطال عن الشعبي قال : لولا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن زيارة القبور لزرت قبر ابنتي ، وقال النخعي كانوا يكرهون زيارة القبور ، وعن ابن سيرين مثله ، قال : وقد سئل مالك عن زيارة القبور فقال قد كان نهى عنه عليه السلام ثم أذن ، فلو فعل ذلك انسان ولم يقل الا خيرا لم أر بذلك بأسا وليس من عمل الناس ، وروى عنه أنه كان يضعف زيارتها ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى أولا عن زيارة القبور باتفاق العلماء ، فقيل : لأن ذلك يفضي الى الشرك ، وقيل : لاجل النياحة عندها ، وقيل لأنهم كانوا يتفاخرون بها ، وقد ذكر طائفة من العلماء في قوله(أَلهاكُمُ التَّكاثُرُ حتى زُرْتُمُ المقابِر)انهم كانوا يتكاثرون بقبور الموتى وممن ذكره ابن عطية في تفسيره ، قال : وهذا تأنيب على الاكثار من زيارة القبور ، أي حتى جعلتم أشغالكم القاطعة عن العبادة والعلم زيارة القبور تكثرا بمن سلف واشادة بذكره •

ثم قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرا) وكان نهيه في معنى الآية ، ثم أباح الزيارة بعد لمعنى الاتعاظ ، لا لمعنى المباهاة والتفاخر ، وتسنيمها بالحجارة الرخام وتكوينها سربا وبنيان النواويس عليها ، هذا لفظ ابن عطية •

---

(١) النحل : ١١٢ ، ١١٣

(والمقصود) أن العلماء متفقون على أنه كان نهى عن زيارة القبور ، ونهى عن الانتباذ في الدباء والحنتم والمزفت والنقير ، واختلفوا هل نسخ ذلك ؟ فقالت طائفة : لم ينسخ ذلك ، لأن أحاديث النسخ ليست مشهورة ، ولهذا لم يخرج البخاري مافيه نسخ عام • وقال الاكثرون : بل نسخ ذلك ، ثم قالت طائفة منهم انما نسخ الى الاباحة ، فزيارة القبور مباحة لا مستحبة ، وهذا قول في مذهب مالك وأحمد ، وقالوا لأن صيغة أفعل بعد الحظر انما تفيد الاباحة ، كما قال في الحديث (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، وكنت نهيتكم عن الانتباذ في الاوعية فانتبذوا ، ولا تشربوا مسكرا) وقد روى (ولا تقولوا هجرا) وهذا يدل على أن النهي كان لما يقال عندها من الاقوال المنكرة سدا للذريعة ، كالنهي عن الانتباذ في الاوعية كان ، لأن الشدة المطربة تدب فيها ولا يدرى بذلك ، فيشرب الشارب الخمر وهو لايدري ، وقال الاكثرون : زيارة قبور المؤمنين مستحبة للدعاء للموتى مع السلام عليهم ، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يخرج الى البقيع فيدعو لهم ، وكما ثبت في الصحيحين أنه خرج الى شهداء أحد فصلى عليهم صلاته على الموتى كالمودع للاحياء والاموات ، وثبت في الصحيح (أنه كان يعلم أصحابه اذا زاروا القبور أن يقولوا السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين ، وانا ان شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية ، اللهم لاتحرمنا أجرهم ، ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم) وهذا في زيارة قبور المؤمنين ، وأما زيارة قبر الكافر فرخص فيه لاجل تذكار الآخرة ، ولا يجوز الاستغفار لهم ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ، وقال : (استأذنت ربي في أن أزور قبرها فأذن لي ، واستأذنته في أن أستغفر لها فلم يأذن لي ، فزوروا القبور فانها تذكركم الآخرة) •

والعلماء المتنازعون ، كل منهم يحتج بدليل شرعي ، ويكون عند بعضهم من العلم ماليس عند الآخر ، فان العلماء ورثة الانبياء ، قال الله تعالى :(وداودَ وسليمان إذْ يَحكُمانِ في الحرْثِ إذْ نَفَشَتْ فيهِ غَنَمُ القوم وكُنّا لحكْمِهمْ شَاهِدينَ . فَفَهمناها سليمانَ وكلاً آتينا حُكْماً وعِلْماً)[1] .

---

(١) الانبياء : ٧٨ ، ٧٩

والاقوال الثلاثة صحيحة باعتبار ، فان الزيارة اذا تضمنت أمرا محرما من شرك أو كذب أو ندب أو نياحة وقول هجر فهي محرمة بالاجماع ، كزيارة المشركين بالله والساخطين لحكم الله ، فان هؤلاء زيارتهم محرمة ، فانه لايقبل دين الا الاسلام ، وهو الاستسلام لخالقه وآمره ، فنسلم لما قدره الله وقضاه ، ونسلم لما يأمر به ونحبه ، وهذا نفعله وندعو اليه ، وذلك نسلمه ونتوكل فيه عليه ، فنرضى بالله ربا وبالاسلام دينا ، وبمحمد نبيا ونقول في صلاتنا (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين) مثل قوله :(اسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ إن اللهَ مَعَ الصابِرين)[1] وقوله:(وأَقِمِ الصَّلاةَ طَرفي النَّهارِ وزُلفاً منَ اللّيلِ إنَّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السَّيئاتِ ذلكَ ذكرى للذّاكرين . واصْبِرْ فإنَّ اللهَ لا يُضيْعُ أَجْرَ المحْسنين)[2] .

والنوع الثاني : زيارة القبور لمجرد الحزن على الميت لقرابته أو صداقته ، فهذه مباحة كما يباح البكاء على الميت بلا ندب ولا نياحة ، كما زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ، وقال : (زوروا القبور فانها تذكركم الآخرة) فهذه الزيارة كان ينهى عنها لما كانوا يصنعون من المنكر ، فلما عرفوا الاسلام أذن فيها ، لأن فيها مصلحة وهو تذكر الموت ، فكثير من الناس اذا رأى قريبه وهو مقبور ذكر الموت واستعد للآخرة ، وقد يحصل منه جزع فيتعارض الامران ، ونفس الجنس مباح ان قصد به طاعة ، وان عمل معصية كان معصية •

وأما النوع الثالث : فهو زيارتها للدعاء لها ـ كالصلاة على الجنازة ـ فهذا هو المستحب الذي دلت السنة على استحبابه ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فعله ، وكان يعلم أصحابه مايقولون اذا زاروا القبور •

وأما زيارة قباء فيستحب لمن أتى المدينة أن يأتي قباء فيصلي في مسجدها ، وكذلك يستحب له عند الجمهور أن يأتي البقيع وشهداء أحد ، كما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يفعل ، فزيارة القبور للدعاء للميت من جنس الصلاة على الجنائز يقصد فيها الدعاء لهم ، لايقصد فيها أن يدعو مخلوقا من دون الله ، ولا يجوز أن تتخذ مساجد ، ولاتقصد لكون الدعاء عندها أو بها أفضل من الدعاء في المساجد والبيوت •

---

(١) البقرة : ١٥٣ (٢) هود : ١١٤ ، ١١٥

والصلاة على الجنائز أفضل باتفاق المسلمين من الدعاء للموتى عند قبورهم ، وهذا مشروع ، بل هو فرض على الكفـاية متواتر متفق عليه بين المسلمين ، ولـو جاء انسان الى سرير الميت يدعوه من دون الله ويستغيث به كان هذا شركا محرما باجماع المسلمين ، ولو ندبه وناح لكان أيضا محرما وهو دون الاول •

فمن احتج بزيارة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل البقيع وأهل أحد علـى الزيارة التي يفعلها أهل الشرك وأهل النياحة فهو أعظم ضلالا ممن يحتج بصلاته على الجنازة على أنه يجوز أن يشرك بالميت ، ويدعى من دون الله ، ويندب ويناح عليه ، كما يفعل ذلك من يستدل بهذا الذي فعله الرسول ــ وهو عبادة لله وطاعة له ، يثاب عليه الفاعل وينتفع المدعو له ويرضى به الرب ــ على أنه يجوز أن يفعل ماهو شرك بالله ، وايذاء للميت ، وظلم من العبد لنفسه ، كزيارة المشركين وأهـل الجزع ، الذين لايخلصون له الدين ، ولا يسلمون لما حكم به سبحانه وتعـالى ، فكل زيارة تتضمن فعل مانهى عنه وترك ماأمـر به كالتي تتضمن الجزع ، وقـول الهجر ، وترك الصبر ، أو تتضمن الشرك ، أو دعاء غير الله وترك اخلاص الدين لله ، فهي منهى عنه • وهذه الثانية أعظم اثما من الاولى ، ولا يجوز أن يصلى اليها ، بل ولا عندها ، بل ذلك مما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : (لاتصلـوا الى القبور ، ولا تجلسوا عليها) رواه مسلم في صحيحه •

فزيارة القبور على وجهين : وجه نهى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم ، واتفق العلماء على أنه غير مشروع ، وهو أن يتخذها مساجد ويتخذها وثنا ، ويتخـذها عيدا ، فلا يجوز أن تقصد للصلاة الشرعية ، ولا أن تعبد كما تعبد الاوثـان ، ولا أن تتخذ عيدا يجتمع اليها في وقت معين كما يجتمع المسلمون في عرفة ومنى •

وأما الزيارة الشرعية : فهي مستحبة عند الاكثرين وقيل : مباحة ، وقيل : كلها منهى عنه كما تقدم ، والذي تدل عليه الادلة الشرعية أنه يحمل المطلق من كلام العلماء على المقيـد •

وتفصيل الزيارة على ثلاثة أنواع : منهى عنه ، ومباح ، ومستحب ، وهـو الصواب ، قال مالك وغيره لا تأت الا هذه الآثار : (مسجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومسجد قباء ، وأهل البقيع ، وأحد) فان النبي صلى الله تعالى عليه

وسلم لم يكن يقصد الا هذين المسجدين وهاتين المقبرتين ، كان يصلي يوم الجمعة في مسجده ، ويوم السبت يذهب الى قباء ، كما في الصحيحين عن ابن عمر : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتي قباء كل سبت راكبا وماشيا فيصلي فيه ركعتين) وأما أحاديث النهي فكثيرة مشهورة في الصحيحين وغيرهما ، كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد) ثم ذكر الاحاديث الواردة في ذلك ، وقد سبق ذكرها غير مرة ، ومنها : قوله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود : (ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد) رواه الامام أحمد في مسنده ، وأبو حاتم في صحيحه ، وفي سنن أبي داود عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لاتتخذوا قبري عيدا ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني) وفي موطأ مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (اللهم لاتجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ثم ذكر الأثر المشهور في سنن سعيد بن منصور ، وقال : فلما أراد الأئمة اتباع سنته في زيارة قبره والسلام طلبوا مايعتمدون عليه من سنته ، فاعتمد الامام أحمد على الحديث الذي في السنن عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما من رجل يسلم علي الا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام) وعنه أخذ أبو داود ذلك ، فلم يذكر في زيارة قبره غير هذا الحديث ، وترجم عليه (باب زيارة القبر) مع أن دلالة الحديث على المقصود فيها نزاع وتفصيل ، فانه لايدل على كل مايسميه الناس زيارة باتفاق المسلمين ، ويبقي الكلام المذكور فيه هل هو السلام عند القبر ــ كما كان من دخل على عائشة يسلم عليه ــ أو يتناول هذا والسلام عليه من خارج الحجرة ؟ فالذين استدلوا به جعلوه متناولا لهذا وهذا ، وهو غاية ما كان عندهم في هذا الباب عنه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو صلى الله عليه وسلم يسمع السلام من القبر ، وتبلغه الملائكة الصلاة والسلام عليه من البعيد كما في النسائي عنه صلى الله عليه وسلم : (أن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام) وفي السنن عن أوس بن أوس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة وليلة الجمعة فان صلاتكم معروضة علي ، قالوا : كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ فقال ان الله حرم على الارض أن تأكل لحوم الانبياء) صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

وذكر مالك في موطئه أن عبد الله بن عمر كان يأتي فيقول : السلام عليك يارسول الله ، السلام عليك ياأبا بكر ، السلام عليك ياأبت ، ثم ينصرف ، وفي رواية كان اذا قدم من سفر ، وعلى هذا اعتمد مالك رحمه الله فيما يفعل عند الحجرة اذ لم يكن عنده الا أثر ابن عمر ، وأما مازاد على ذلك مثل الوقوف للدعاء للنبي صلى الله عليه وسلم مع كثرة الصلاة والسلام عليه ـ فقد كرهه مالك ، وذكر أنه بدعة لم يفعلها السلف ، ولا يصلح آخر هذه الامة الا ماأصلح أولها ، والله تعالى أعلم .

هذا ماوجدناه من (الجواب الباهر) وبه علم مذهب الشيخ في زيارة القبور ، وان ماتكلم به الخصوم من غلاة الشافعية ونحوهم هو محض بهتان وزور ، وله رضي الله تعالى عنه كتاب آخر في مباحث الزيارة ، بحث فيه مع بعض من اعترض عليه من علماء المالكية ، وهو أبسط مما ذكرنا ، وفيه مسائل مهمة أيضا ، فنذكر منه مايخص المقام :

(قال المعترض المالكي) وورد في زيارة قبره صلى الله عليه وسلم أحاديث صحيحة وغيرها مما لم تبلغ درجة الصحيح ، لكنها يجوز الاستدلال بها على الاحكام الشرعية ، ويحصل بها الترجيح .

(قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى) والجواب من وجوه : (أحدها) أن يقال : لو ورد من ذلك ماهو صحيح لكان انما يدل على مطلق الزيارة ، وليس في جواب الاستفتاء نهي مطلق عن الزيارة ، ولا حكى في ذلك نزاع في الجواب ، وانما فيه ذكر النزاع فيمن لم يكن سفره الا لمجرد زيارة قبور الانبياء والصالحين ، وحينئذ فلو كان في هذا الباب حديث صحيح لم يتناول محل النزاع ، ولا فيه رد على ماذكره المجيب من النزاع والاجماع .

(الثاني) أنه لو قدر أنه ورد في زيارة قبره أحاديث صحيحة لكان المراد بها هو المراد بقول من قال من العلماء : انه يستحب زيارة قبره ، ومرادهم بذلك السفر الى مسجده ، وفي مسجده يسلم عليه ويصلي عليه ، ويدعى له ويثنى عليه ، ليس المراد أنه يدخل الى قبره ويصلي عليه ، وحينئذ فهذا المراد قد استحبه المجيب ، وذكر أنه مستحب بالنص والاجماع ، فمن حكى عن المجيب أنه لايستحب ماستحبه علماء المسلمين من زيارة قبره على الوجه المشروع فقد استحق مايستحقه الكاذب المفتري ، واذا كان يستحب هذا وهو المراد بزيارة قبره فزيارة قبره بهذا المعنى من مواقع الاجماع لا من موارد النزاع .

(الثالث) أن نقول : قول القائل أنه ورد في زيارة قبره أحاديث صحيحة قول لم يذكر عليه دليلا ، فاذا قيل له : لانسلم أنه ورد في ذلك حديث صحيح احتاج الى الجواب ، وهو لم يذكر شيئا من تلك الاحاديث كما ذكر قوله : (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها) وكما ذكر زيارته لأهل البقيع وأحد ، فان هذا صحيح ، وهنا لم يذكر شيئا من الحديث الصحيح ، فبقي ماذكره دعوى مجردة تقابل بالمنع •

(الوجه الرابع) أن نقول : هذا قول باطل ، لم يقله أحد من علماء المسلمين العارفين بالصحيح ، وليس في الاحاديث التي رويت بلفظ زيارة قبره حديث صحيح عند أهل المعرفة ، ولم يخرج أرباب الصحيح شيئا من ذلك ولا أرباب السنن المعتمدة ، كسنن أبي داود والنسائي والترمذي ونحوهم ، ولا أهل المسانيد التي من هذا الجنس ، كمسند أحمد وغيره ، ولا في موطأ مالك ، ولا في مسند الشافعي ونحو ذلك شيء من ذلك ، ولا احتج امام من أئمة المسلمين ــ كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم ــ بحديث فيه ذكر زيارة قبره ، فكيف يكون في ذلك أحاديث صحيحة ولم يعرفها أحد من أئمة الدين ولا علماء الحديث ؟ ومن أين لهذا وأمثاله أن تلك الاحاديث صحيحة وهو لايعرف هذا الشأن ؟!

(الوجه الخامس) قوله : وغيرها مما لم تبلغ درجة الصحيح ، لكنها يجوز الاستدلال بها على الاحكام الشرعية ويحصل بها الترجيح ، فيقال له : اصطلاح الترمذي ومن بعده أن الاحاديث ثلاثة أقسام : صحيح ، وحسن ، وضعيف ، والضعيف قد يكون موضوعا فعلم أنه كذب ، وقد لايكون كذلك ، فما ليس بصحيح ان كان حسنا على هذا الاصطلاح احتج به ، وهو لم يذكر حديثا وبين أنه حسن يجوز الاستدلال به ، فنقول له : لانسلم أنه ورد من ذلك مايجوز الاستدلال به ، وهو لم يذكر الا دعوى مجردة فتقابل بالمنع •

(الوجه السادس) أن يقال : ليس في هذا الباب مايجوز الاستدلال به ، بل كلها ضعيفة ، بل موضوعة ، كما قد بسط في مواضع ، وذكرت هذه الاحاديث ، وذكرت كلام الائمة عليها حديثا حديثا ، بل ولا عرف عن أحد من الصحابة أنه تكلم بلفظ زيارة قبره البتة فلم يكن هذا اللفظ معروفا عندهم ، ولهذا كره مالك التكلم بخلاف لفظ زيارة القبور مطلقا ، فان هذا اللفظ معروف عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعن أصحابه ، وفي القرآن (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) لكن معناه عند الاكثرين الموت ، وعند طائفة هي زيارتها للتفاخر بالموتى والتكاثر ، وأما

لفظ قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المخصوص فلا يعرف لا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه ، وكل مايروى فيه فهو ضعيف ، بل هو كذب موضوع عند أهل العلم بالحديث ، كما قد بسط هذا في مواضع •

(الوجه السابع) أن يقال : الذين أثبتوا استحباب السلام عليه عند الحجرة ــ كمالك ، وابن حبيب ، وأحمد بن حنبل ، وأبي داود ــ احتجوا بفعل ابن عمر ، كما احتج بذلك مالك وأحمد وغيرهما ، وأما الحديث الذي رواه أبو داود وغيره باسناد جيد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما من رجل يسلم علي الا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام) فهذا عمدة أحمد وأبي داود وابن حبيب وأمثالهم ، وليس في لفظ الحديث المعروف في السنن والمسند عند قبري ، لكن عرفوا أن هذا هو المراد ، وأنه لم يرد على كل مسلم عليه في صلاة في شرق الارض وغربها مع أن هذا المعنى ان كان هو المراد بطل الاستدلال بالحديث من كل وجه على اختصاص تلك البقعة بالسلام ، وان كان المراد السلام عليه عند قبره ــ كما فهمه عامة العلماء ــ فهل يدخل فيه من سلم من خارج الحجرة ؟ هذا مما تنازع فيه الناس ، وقد توزعوا في دلالته : فمن الناس من يقول هذا انما يتناول من سلم عليه عند قبره ، كما كانوا يدخلون الحجرة على زمن عائشة فيسلمون على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وكان يرد عليهم ، فأولئك سلموا عليه عند قبره وكان يرد عليهم ، وهذا قد جاء عموما في حق المؤمنين (ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه الا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام) قالوا فأما من كان في المسجد فهؤلاء لم يسلموا عليه عند قبره ، بل سلامهم عليه كالسلام عليه في الصلاة وكالسلام عليه اذا دخل المسجد وخرج ، وهذا هو السلام الذي أمر الله به في حقه بقوله(صلوا عليه وسلموا تسليما)وهذا السلام قد ورد أنه من سلم عليه مرة سلم الله عليه عشرا ، كما أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا ، فاما أثر من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا فهو ثابت من وجوه ، بعضها في الصحيح كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ، ثم صلوا علي ، فانه من صلى علي مرة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فانها درجة في الجنة لاتنبغي الا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلةحلت عليهشفاعتي يوم القيامة) وهذا مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير هذا الوجه ، كما في حديث العلاء ابن

عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشرا) .

وأما السلام فقد جاء أيضا في أحاديث ، من أشهرها حديث عبد الله بن المبارك، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت البناني ، عن سليمان مولى الحسن بن علي ، عن عبد الله بن أبي طلحة، عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنه جاء ذات يوم والبشر يرى في وجهه ، فقال : أنه جاءني جبريل فقال : أما يرضيك يامحمد أن الله يقول انه لايصلي عليك أحد من أمتك الا صليت عليه عشرا ، ولا يسلم عليك أحد من أمتك الا سلمت عليه عشرا ؟!) وقد روى في عدة أحاديث أن الله يصلي على كل من صلى عليه ، ويسلم على كل من سلم عليه ، ولم يذكر عددا لكن الحسنة بعشر أمثالها، فالمقيد يفسر المطلق . قال القاضي عياض من رواية عبد الرحمن ابن عوف عنه عليه السلام قال : (لقيت جبريل فقال لي : أبشرك أن الله يقول من سلم عليك سلمت عليه ، ومن صلى عليك صليت عليه) قال ونحوه من رواية أبي هريرة ، ومالك بن أوس بن الحدثان وعبدالله بن أبي طلحة ، قلت وبسط الكلام على هذه الاحاديث له موضع آخر .

والمقصود هنا : أن ماأمر الله به من الصلاة والسلام عليه هو كما أمر به صلى الله عليه وسلم من الدعاء له بالوسيلة ، وهذا أمر اختص هو به ، فان الله أمر بذلك في حقه بعينه مخصوصا بذلك ، وان كان السلام على جميع عباد الله الصالحين مشروعا على وجه العموم ، وقد قيل : ان الصلاة تكره على غير الانبياء ، وغلا بعضهم فقال تكره على غيره من الانبياء ، وكذلك قال بعض المتأخرين في السلام على غير الانبياء ، ولكن الصواب الذي عليه عامة العلماء أنه يسلم على غيره ، وأما الصلاة فقد جوزها أحمد وغيره والنزاع فيها معروف . وفي تفسير شيبان عن قتادة قال حدث أنس بن مالك عن أبي طلحة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اذا سلمتم علي فسلموا على المرسلين فانما أنا رسول من المرسلين) وهكذا رواه ابن أبي عاصم في كتاب الصلاة ، ورواه ابن أبي حاتم وغيره ، ولم يذكروا فيه سماع قتادة له ، وهو في تفسير سعيد ابن أبي عروبة عن قتادة مرسلا ، وقد قال الله تعالى في كتابه : (قُلِ الحمدُ للهِ ، وَسَلامٌ على عِبادهِ الَّذين اصْطَفى) [1] وقال : (وسلامٌ على المرْسَلين

(١) النمل : ٥٩

والحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ)[1] وقال لما ذكر نوحا ، وابراهيم ،وموسى، وهارون والياسين : (وتَرَكْنا عَليهِ في الآخرين سلام على نوح في العالمين)[2] (وتركنا عليه في الآخرين سلام على ابراهيم)[2] (وتركنا عليهما في الآخرين سلام على موسى وهارون)[2] (وتركنا عليه في الآخرين سلام على الياسين)[2] .

والمقصود هنا : أن هذا السلام ـ المأمور به خصوصا والمشروع في الصلاة وغيرها عموما على كل عبد صالح كقول المصلي السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فان هذا ـ ثابت في التشهدات المروية عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كلها ، مثل حديث ابن مسعود الذي في الصحيحين ، وحديث أبي موسى وابن عباس اللذين رواهما مسلم ، وحديث ابن عمر وعائشة وجابر وغيرهم التي في المساند والسنن ، وهذا السلام لايقتضي ردا من المسلم عليه ، بل هو بمنزلة دعاء المؤمن للمؤمنين واستغفاره لهم ، فيه الاجر والثواب من الله ، ليس على المدعو لهم مثل ذلك الدعاء بخلاف سلام التحية فانه مشروع بالنص والاجماع في حق كل مسلم ، وعلى المسلَّم عليه أن يرد السلام ولو كان المسلِّم عليه كافرا ، فان هذا من العدل الواجب ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يرد على اليهود اذا سلموا بقوله : (وعليكم) واذا سلم على معين تعين الرد ، واذا سلم على جماعة فهل ردهم فرض على الاعيان أو على الكفاية ؟ على قولين معروفين ، هما قولان في مذهب أحمد وغيره ، وسلام الزائر للقبر على الميت المؤمن هو من هذا الباب ، ولهذا روى أن الميت يرد السلام مطلقا . فالصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم في مسجده وسائر المساجد وسائر البقاع مشروع بالكتاب والسنة والاجماع ، وأما السلام عليه عند قبره من داخل الحجرة فهذا كان مشروعا لما كان ممكنا بدخول من يدخل على عائشة ، وأما تخصيص هذا السلام والصلاة بالمكان القريب من الحجرة فهذا محل النزاع ، وللعلماء في ذلك ثلاثة أقوال :

منهم من ذكر استحباب الصلاة والسلام عليه اذا دخل المسجد ، ثم بعد أن يصلي في المسجد استحب أيضا أن يأتي الى القبر ويصلي ويسلم ، كما ذكر ذلك طائفة من أصحاب مالك والشافعي وأحمد .

---

1) الصافات : ١٨١ ، ١٨٢ (٢) الصافات : ٧٨ ، ٧٩ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٩ ، ١٣٠

ومنهم من لم يذكر الا الثاني فقط ، وكثير من السلف لم يذكروا الا النوع الاول فقط ، فأما النوع الاول فهو المشروع لأهل البلد وللغرباء في هذا المسجد وغير هذا المسجد ، وأما النوع الثاني فهو الذي فرق من استحبه بين أهل البلد والغرباء ، سواء فعله مع الاول أو مجردا عنه ، كما ذكر ذلك ابن حبيب وغيره اذا دخل مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم قال : باسم الله ، وسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، السلام علينا من ربنا ، وصلى الله وملائكته على محمد ، اللهم اغفر لي وافتح لي أبواب رحمتك وجنتك ، وجنبني من الشيطان الرجيم • ثم اقصد الى الروضة وهي مابين القبر والمنبر فاركع فيها ركعتين قبل وقوفك بالقبر ، تحمد الله فيها ، وتسأله تمام ماخرجت اليه والعون عليه ، وان كانت ركعتاك في غير الروضة اجزاتك وفي الروضة أفضل • وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مابين قبري ومنبري روضةمن رياض الجنة ، ومنبري على ترعة من ترع الجنة) ثم تقف بالقبر متواضعا ، وتصلي عليه ، وتثني بما يحضر ، وتسلم على أبي بكر وعمر ، وتدعو لهما ، وأكثر من الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالليل والنهار ، ولا تدع أن تأتي مسجد قباء وقبور الشهداء •

قلت : وهذا الذي ذكره من استحباب الصلاة في الروضة قول طائفة ، وهو المنقول عن الامام أحمد في مناسك المروزي •

واما مالك فنقل عنه يستحب التطوع في موضع صلاة النبي صلى الله عليه وسلم •

وقيل لايتعين لذلك موضع من المسجد ، وأما الفرض فيصليه في الصف الاول مع الامام بلا ريب والذي ثبت في الصحيح عن سلمة بن الاكوع أنه كان يتحرى الصلاة عند الاسطوانة ، وأما ما قصد تخصيصه بالصلاة فيه فالصلاة فيه أفضل ، وأما مقامه فانما كان يقوم فيه اذا كان إماما يصلي بهم الفرض ، والسنة أن يقف الامام وسط المسجد امام القوم ، فلما زيد في المسجد صار موقف الامام في الزيادة •

والمقصود معرفة ماورد عن السلف من الصلاة والسلام عليه صلى الله تعالى عليه وسلم عند دخول المسجد وعند القبر ، ففي مسند أبي يعلي الموصلي :حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا جعفر بن ابراهيم من ولد ذي الجناحين ، حدثنا علي بن عمر عن أبيه علي ابن الحسين ، أنه رأى رجلا يجيء الى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيدخل فيها فيدعو فنهاه ، فقال : ألا أحدثكم حديثا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(لاتتخذوا قبري عيدا ولا بيوتكم قبورا فان تسليمكم يبلغني أينما كنتم) وهـذا الحديث مما أخرجه الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي فيما اختاره من الاحاديث الجياد الزائدة على مافي الصحيحين ، وهـو أعلى مرتبة من تصحيح الحاكم ، وهو قريب من تصحيح الترمذي وأبي حاتم البستي ونحوهما ، فان الغلط في هذا قليل ، ليس هو مثل صحيح الحاكم ، فان فيه أحاديث كثيرة يظهر أنها كذب موضوعة ، فلهذا انحطت درجته عن درجة غيره ، فهذا علي بن الحسين زين العابدين وهو من أجل التابعين علما ودينا ، حتى قال الزهري مارأيت هاشميا مثله ، وهـو يذكر هذا الحديث باسناده ولفظه : (لاتتخذوا بيتي عيدا ، فان تسليمكم يبلغني أينما كنتم) وهذا يقتضي أنه لامزية للسلام عليه عند بيته ، كما لامزية للصلاة عليه عند بيته ، بل قد نهى عن تخصيص بيته بهذا ، وهذا وحديث الصلاة مشهور في سنن أبي داود وغيره من حديث عبد الله بن نافع ، قال : أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لاتجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبري عيدا ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم) وهذا حديث حسن ، ورواته ثقات مشاهير ، لكن عبد الله بن نافع الصائغ فيه لين لايمنع الاحتجاج به ، قال يحيى بن معين : هو ثقة وحسبك بابن معين موثقا . وقال أبو زرعة : لابأس به . وقال أبو حاتم الرازي : ليس بالحافظ هو لين تعرف وتنكر ، قلت : ومثل هذا قد يخاف أنه يغلط أحيانا ، فاذا كان لحديثه شواهد علم أنه محفوظ ، وهذا له شواهد متعددة قد بسطت في غير هذا الموضع ، كما رواه سعيد ابن منصور في سننه ، حدثنا حبان ، حدثنا علي ، حدثني محمد بن عجلان عن أبي سعيد مولى المهدى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لاتتخذوا بيتي عيدا ، ولا بيوتكم قبورا ، وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني) وقال سعيد أيضا : حدثنا عبد العزيز بن محمد ، أخبرني سهيل بن أبي سهيل ، قال : رآني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عند القبر فناداني ــ وهـو في بيت فاطمة يتعشى ــ فقال : هلم الى العشاء ، فقلت : لاأريده ، فقال : مالي رأيتك عند القبر ؟ فقلت : سلمت على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : اذا دخلت المسجد فسلم عليه . ثم قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لاتتخذوا بيتي عيدا ، ولا بيوتكم مقابر ، لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيثما كنتم ، ماأنتم ومن بالاندلس منه الا سواء) رواه اسماعيل بن اسحق

في كتاب الصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يذكر هذه الزيادة وهي قوله : (مأأنتم ومن بالاندلس الا سواء) لأن مذهبه أن القادم من سفر والمريد للسفر سلامه أفضل ، وأن الغرباء يسلمون اذا دخلوا وخرجوا ، وهذه مزية على من بالاندلس ، والحسن ابن الحسن وغيره لايفرقون بين أهل المدينة والغرباء ، ولا بين المسافر وغيره ، فرواه القاضي اسمعيل عن ابراهيم بن حمزة ، حدثنا عبد العزيز بن محمد ، عن سهل بن أبي سهل قال : جئت أسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وحسن بن حسن يتعشى في بيت عند النبي صلى الله عليه وسلم فدعاني فجئته ، فقال: أدن فتعش ، قال قلت لاأريده ، قال : مالي رأيتك وقفت ؟ قلت وقفت أسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : اذا دخلت فسلم عليه ، ثم قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (صلوا في بيوتكم ، ولا تجعلوا بيوتكم مقابر ، لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيثما كنتم) ولم يذكر قول الحسن ، فهذا فيه أنه أمره أن يسلم عند دخول المسجد ، وهو السلام المشروع الذي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وجماعة من السلف ، كانوا يسلمون عليه اذا دخلوا المسجد ، وهذا مشروع في كل مسجد ، وهذا الحسن بن الحسن المثنى وهو من التابعين وهو من ظهر علي بن الحسين هذا ابن الحسن وهذا ابن الحسين ، وقد ذكر القاضي عياض هذا عن الحسن بن علي نفسه — رضي الله عنهم أجمعين — فقال : وعن الحسن بن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (حيثما كنتم فصلوا علي فان صلاتكم تبلغني) قال : وعن الحسن بن علي اذا دخلت المسجد فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لاتتخذوا بيتي عيدا ، ولا تتخذوا بيوتكم قبورا ، وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم) .

قلت والصلاة والسلام عليه عند دخول المسجد مأثور عنه صلى الله عليه وسلم وعن غير واحد من الصحابة والتابعين ، مثل الحديث الذي في المسند والترمذي وابن ماجة عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ، وقال رب اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك) هذا لفظ الترمذي ، وفي غيره أنه صلى الله عليه وسلم أمر بذلك ، وفي سنن أبي داود عن أبي أسيد أو أبي حميد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اذا دخل أحدكم المسجد فليسلم وليصل على النبي صلى الله عليه

وسلم ، وليقل ..) وذكر الحديث . وقال الضحاك ابن عثمان : حدثنا سعيد المقبري عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وليقل اللهم أجرني من الشيطان الرجيم) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ، قال القاضي عياض : ومن مواطن الصلاة والسلام عليه دخول المسجد ، قال أبو اسحق بن شعبان : وينبغي لمن دخل المسجد أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، ويترحم عليه وعلى آله ، ويبارك عليه وعلى آله ، ويسلم عليه تسليما ، ويقول : اللهم اغفر لي وافتح لي أبواب رحمتك وفضلك ، قال : وقال عمرو بن دينار في قوله (فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ)[1]

قال : ان لم يكن في البيت أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته ، قال : وقال ابن عباس : المراد بالبيوت المساجد ، وقال النخعي : اذا لم يكن في البيت أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، قال : وعن علقمة قال اذا دخلت المسجد أقول السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، صلى الله وملائكته على محمد ، قال ونحوه عن كعب اذا دخل وخرج ولم يذكر الصلاة ، قال : واحتج ابن شعبان لما ذكره بحديث فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعله اذا دخل المسجد ، قال : ومثله عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وذكر السلام والرحمة ، قال : وروى ابن وهب عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (اذا دخلت المسجد فصل على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقل اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك) وفي رواية أخرى فليسلم وليصل ويقول اذا خرج اللهم إني أسألك من فضلك ، وفي أخرى اللهم احفظني من الشيطان ، وعن محمد بن سيرين كان الناس يقولون اذا دخلوا المسجد : صلى الله وملائكته على محمد ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، باسم الله دخلنا وباسم الله خرجنا ، وعلى الله توكلنا ، وكانوا يقولون اذا خرجوا مثل ذلك ، قلت هذا فيه حديث مرفوع في سنن أبي داود وغيره أنه يقال عند دخول المسجد : (اللهم اني أسألك خير المولج وخير المخرج ، باسم الله ولجنا وباسم الله خرجنا وعلى الله توكلنا) قال القاضي عياض وعن أبي هريرة اذا دخل أحدكم المسجد فليصل على النبي صلى الله عليه وسلم ، وليقل اللهم

---

(١) النور : ٦١

افتح لي ، وقلت وروى ابن أبي حاتم من حديث سفيان الثوري عن ضرار بن مرة عن مجاهد في هذه الآية (فإذا دَخلتم بُيوتاً فَسَلِّموا على أنفسِكم تَحيَّةً من عِنْدِ اللهِ مُباركةً طَيِّبة) قال اذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، واذا دخلت المسجد فقل السلام على رسول الله ، واذا دخلت على أهلك فقل السلام عليكم ، قلت والآثار مبسوطة في مواضع •

والمقصود هنا : أن نعرف ماكان عليه السلف من الفرق بين مأأمر الله به من الصلاة والسلام عليه وبين سلام التحية الموجب للرد ، الذي يشترك فيه كل مؤمن حي ، ويرد فيه على الكافر ، ولهذا كان الصحابة بالمدينة على عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم — اذا دخلوا المسجد لصلاة أو اعتكاف أو تعليم أو تعلم أو ذكر لله ودعاء له ونحو ذلك مما شرع في المساجد — لم يكونوا يذهبون الى ناحية القبر فيزورونه هناك ، ولا يقفون خارج الحجرة ، كما لم يكونوا يدخلون الحجرة أيضا لزيارة قبره ، فلم يكن الصحابة بالمدينة يزورون قبره لا من المسجد خارج الحجرة ولا داخل الحجرة ، ولا كانوا أيضا يأتون من بيوتهم لمجرد زيارة قبره ، بل هذا من البدع التي أنكرها الأئمة والعلماء ، وان كان الزائر منهم ليس مقصوده الا الصلاة والسلام عليه ، وبينوا أن السلف لم يفعلوها ، كما ذكره مالك في (المبسوط) وقد ذكره أصحابه ، كأبي الوليد الباجي ، والقاضي عياض وغيرهما •

قيل لمالك : ان ناسا من أهل المدينة لايقدمون من سفر ولا يريدونه إلا يفعلون ذلك ، أي يقفون على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيصلون عليه ويدعون له ولأبي بكر وعمر ، يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر ، وربما وقفوا في الجمعة والايام المرة والمرتين أو أكثر عند القبر يسلمون ويدعون ساعة فقال : لم يبلغني هذا عن أهل الفقه ببلدنا ، ولن يصلح آخر هذه الأمة الا ماأصلح أولها ، ولم يبلغني هذا عن أول هذه الامة وصدرها أنهم يفعلون ذلك ، ويكره الا لمن جاء من سفر أو أراده ، فقد كره مالك رحمه الله هذا ، وبين أنه لم يبلغه هذا عن أهل العلم بالمدينة ولا عن صدر هذه الامة وأولها وهم الصحابة ، وأن ذلك يكره لأهل المدينة الا عند السفر ، ومعلوم أن أهل المدينة لايكره لهم زيارة قبور أهل البقيع وشهداء أحد وغيرهم ، بل هم في ذلك ليسوا دون سائر الامصار ، فاذا لم يكره لأولئك زيارة القبور بل يستحب لهم زيارتها عند جمهور العلماء — كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل — فأهل

المدينة أولى أن لايكره لهم ، بل يستحب لهم زيارة القبور كما يستحب لغيرهم اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن قبر النبي صلى الله عليه وسلم خص بالمنع شرعا وحسا ، كما دفن في الحجرة ومنع الناس من زيارة قبره من الحجرة ، كما يزار سائر القبور فيصل الزائر الى عند القبر ، وقبر النبي صلى الله عليه وسلم ليس كذلك ، فلا تستحب هذه الزيارة في حقه ولا تمكن ، وهذا لعلو قدره وشرفه لا لكون غيره أفضل منه ، فان هذا لايقوله أحد من المسلمين فضلا عن الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين بالمدينة وغيرها •

ومن هنا غلط طائفة من الناس ، يقولون : اذا كانت زيارة قبر آحاد الناس مستحبة فكيف بقبر سيد الاولين والآخرين صلوات الله وسلامه عليه ، وهؤلاء ظنوا أن زيارة قبر الميت مطلقا هو من باب الاكرام والتعظيم له ، والرسول صلى الله عليه وسلم أحق بالاكرام والتعظيم من كل أحد ، وظنوا أن ترك الزيارة فيها تنقص لكرامته ، وخالفوا السنة واجماع الامة سلفها وخلفها ، فقولهم نظير قول من يقول اذا كانت زيارة القبور يصل الزائر فيها الى قبر المزور فان ذلك أبلغ في الدعاء له ، وان كان مقصوده دعاءه ، كما يقصده أهل البدع ، فهو أبلغ في دعائه ، فالرسول صلى الله عليه وسلم أولى أن نصل الى قبره اذا زرناه •

وقد ثبت بالتواتر واجماع الامة أن الرسول صلى الله عليه وسلم لايشرع الوصول الى قبره للدعاء له ، ولا لدعائه ، ولا لغير ذلك ، بل غيره يصلى على قبره عند أكثر السلف ، كما دلت عليه الاحاديث الصحيحة ، والصلاة على القبر كالصلاة على الجنازة تشرع مع القرب والمشاهدة ، وهو بالاجماع لايصلى على قبره ، سواء كان للصلاة حد محدود أو كان يصلى على القبر مطلقا ، ولم يعرف أن أحدا من الصحابة الغائبين لما قدم صلى على قبره صلى الله عليه وسلم ، وزيارة القبور المشروعة هي مشروعة مع الوصول الى القبر بمشاهدته ، وهذه الزيارة غير مشروعة في حقه بالنص والاجماع ، ولا هي أيضا ممكنة ، فتبين غلط هؤلاء الذين قاسوه على عموم المسلمين وهذا من باب القياس الفاسد ، ومن قاس قياس الاولى ولم يعلم مااختص به كل واحد من القياس والمقيس به كان قياسه من جنس قياس المشركين الذين كانوا يقيسون الميتة على المذكى ، ويقولون للمسلمين أتأكلون ماقتلتم ولا تأكلون ماقتل الله ؟ فأنزل الله تعالى : (وإِنَّ الشَّياطِينَ لَيوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ

إنكم لمشركون)[١] وكذلك لما أخبر الله أن الاصنام التي تعبد هي وعابدوها حصب جهنم قاس ابن الزبعري قبل أن يسلم هو وغيره من المشركين عيسى بها ، وقالوا يجب أن يعذب عيسى ، قال : (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون . وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون)[٢] ثم قال :(إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل)[٢] وبين تعالى الفرق بقوله : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون)[٣] بين أن من كان صالحا نبيا أو غير نبي لم يعذب لأجل من أشرك به وعبده وهو بريء من اشراكهم ، وأما الاصنام فهي حجارة تجعل حصبا للنار ، وقد قيل أنها من الحجارة التي قال الله تعالى فيها وقودها الناس والحجارة ، وقال تعالى : (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) وبسط هذا له موضع آخر .

(والمقصود هنا) أن يعرف أن مامضت به سننه وكان عليه خلفاؤه وأصحابه وأهل العلم والدين بالمدينة من تركهم لزيارة قبره أكمل في القيام بحق الله وحق رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهو أكمل وأفضل وأحسن مما يفعل مع غيره ، وهو أيضا في حق الله وتوحيده أكمل وأتم وأبلغ .

وأما كونه أتم في حق الله فلأن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ويدخل في العبادة جميع خصائص الرب ، فلا يتقى غيره ، ولا يخاف غيره ، ولا يتوكل على غيره ، ولا يدعى غيره ، ولا يصلى لغيره ، ولا يصام لغيره ، ولا يتصدق الا له ، ولا يحج الا الى بيته ، قال تعالى : (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون)[٤] فجعل الطاعة لله والرسول ، وجعل الخشية والتقوى لله وحده، وقال : (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا

---

(١) الانعام : ١٢١ (٢) الزخرف : ٥٧ ـ ٥٩ (٣) الانبياء : ١٠١ (٤) النور : ٥٢

اللهُ من فَضْلِهِ ورسُولُه إنّا الى اللهِ راغبُون)[١] فجعل الايتاء لله والرسول ، وجعل التوكل والرغبة لله وحده وقال: (فــإذا فرَغتَ فانْصَبْ . وإلى ربِّكَ فَارْغَبْ) وقال : (وقالَ اللهُ لا تَتَّخذُوا إلهين اثْنَين إنَّما هو إلهٌ واحدٌ فإياي فارْهبون. ولَهُ مافي السَّموات والأَرض ولَه الدِّينُ واصباً أَفغير الله تَتَّقون)[٢] وقال تعالى : (قُل ادْعُوا الَّذين زَعمْتُمْ من دُونه فَلا يَملكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ ولا تَحْويلاً)[٣] وقال تعالى : (قُلْ أرأَيتمْ ما تَدعُونَ من دُون اللهِ أَروني ماذا خَلَقوا من الارض أَمْ لهم شِركٌ في السَّموات ائْتوني بكِتاب من قَبلِ هذا أَو أَثارةٍ من علم إنْ كُنتم صَادقيْن)[٤] وقال تعالى : (قُل ادْعُوا الَّذين زَعمتُمْ من دُونِ اللهِ لا يملكونَ مثْقالَ ذَرَّةٍ في السَّموات ولا في الأَرضِ وما لهم فيهما من شِرْكٍ وما لَهُ منْهُمْ من ظَهيرٍ . ولا تنفعُ الشَّفاعةُ عنْدَهُ إلاَّ لمنْ أَذنَ لَه)[٥] وهذا الباب واسع ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس (اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله) وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم في صفة السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب (هم الذين لايسترقون ولا يكتوون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون) فهم لايطلبون من غيرهم أن يرقيهم ، والرقيــة دعاء فكيف بما هو أبلغ من ذلك •

ومعلوم أنه لو اتخذ قبره عيدا ومسجدا ووثنا صار الناس يدعونه ويتضرعون اليه ، ويسألونه ويتوكلون عليه ، ويستغيثون ويستجيرون به ، وربما سجدوا لــه وطافوا به ، وصاروا يحجون اليه ، وهذه كلها من حقوق الله وحده الذي لايشركــه فيها مخلوق ، وكان من حكمة الله دفنه في حجرته ، ومنع الناس من مشاهدة قبره ، والعكوف عليه والزيارة له ونحو ذلك لتحقيق توحيد الله وعبادته وحده لاشريــك له واخلاص الدين لله •

---

(١) التوبة : ٥٩ (٢) النحل : ٥١ ، ٥٢ (٣) الاسراء : ٥٦ (٤) الاحقاف : ٤ (٥) سبأ : ٢٢ ، ٢٣

وأما قبور أهل البقيع ونحوهم من المؤمنين : فلا يحصل ذلك عندها ، واذا قدر أن ذلك فعل عندها منع من يفعل ذلك وهدم مايتخذ عليها من المساجد ، وان لم تزل الفتنة الا بتعفية قبره وتعميته فعل ذلك كما فعله الصحابة بأمر عمر بن الخطاب في قبر دانيال ، وأما كون ذلك أعظم لقدره وأعلى لدرجته فلأن المقصود المشروع بزيارةقبور المؤمنين ــ كأهل البقيع وشهداء أحد ــ هو الدعاء ، كما كان هو يفعل ذلك ، كما زارهم وكما سنه لامته .

فلو سن للأمة أن يزوروا قبره للصلاة عليه والسلام عليه والدعاء له ــ كما كان بعض أهل المدينة يفعل ذلك أحيانا ، وبين مالك أنه بدعة لم تبلغه عن صدر هذه الامة ولا عن أهل العلم بالمدينة ، وأنها مكروهة ، فانه لن يصلح آخر هذه الامة الا ماأصلح أولها ــ لكان بعض الناس يزوره ثم لتعظيمه في القلوب ، وعلم الخلائق بأنه أفضل الرسل وأعظمهم جاها ، وأنه أوجه الشفعاء الى ربه تدعو النفس أن تطلب منهحاجاتها وأغراضها وتعرض عن حقه من الصلاة والسلام عليه والدعاء له ، فان الناس مع ربهم كذلك ، الا من أنعم الله عليه بحقيقة الايمان ، وانما يعظمون الله عند ضرورتهم اليه، كما قال تعالى : (وإذا مسَّ الانسانَ الضُّر دعانا لجنْبه أَو قاعداً أَو قائماً ، فلما كَشَفنا عنهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأن لم يَدعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّه . كَذلك زُيِّنَ للمُسْرفيْن ما كَانوا يَعْملُوْن)[1] وقال تعالى : (وإذا مسَّكم الضُّر في البَحْر ضَلَّ من تدْعُونَ إلاَّ إيّاهُ فلما نَجَّاكم الى البَر أَعْرَضْتُم وكانَ الأنْسانُ كَفُوْراً)[2] وقال تعالى : (وإذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دعا ربَّهُ منيباً اليهِ ثُمَّ إذا خَوله نعمَةً منهُ نسي ما كان يَدْعُوا إليهمن قَبْلُ وجَعَلَ للهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عن سَبيله قُلْ تَمَتَّعْ بكُفْركَ قليْلاً إنَّكَ من أَصْحاب النَّار)[3]

ونظائر هذا في القرآن متعددة فاذا كانوا ــ الا من شاء الله ــ انما يعظمون ربهم ويوحدونه ويذكرونه عند ضرورتهم لاغراضهم ، ولا يعرفون حقه اذا خلصهم ، فلا يحبونه ويعبدونه ، ولا يسألونه ، ولا يقومون بطاعته ، فكيف يكونون مع المخلوق،

---

(١) يونس : ١٢ (٢) الاسراء : ٥٧ (٣) الزمر : ٨

فهم يطلبون من الانبياء والصالحين أغراضهم ، وذلك مقدم عندهم على حقوق الانبياء والصالحين ، فاذا أيقنوا أن في زيارة قبر نبي أو صالح تحصيل أغراضهم بسؤاله ودعائه وجاهه وشفاعته أعرضوا عن حقه واشتغلوا بأغراضهم ، كما هو الموجود في عامة الذين يحجون الى القبور المعظمة ويقصدونها لطلب الحوائج ، فلو أذن الرسول صلى الله عليه وسلم لهم في زيارة قبره ومكنهم من ذلك لاعرضوا عن حق الله الذي يستحقه من عبادته وحقه ، وعن حق الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يستحقه من الصلاة والسلام عليه والدعاء له ، بل ومن جعله واسطة بينهم وبين الله في تبليغ أمره ونهيه وخبره ، فكانوا يهضمون حق الله وحق رسوله ، كما فعلت النصارى ، فانهم بغلوهم في المسيح تركوا حق الله من عبادته وحده ، وتركوا حق المسيح ، فهم لايدعون له بل هو عندهم رب يدعى ، ولا يقومون بحق رسالته فينظرون ماأمر به وما أخبر به ، بل اشتغلوا بالشرك به وبغيره وبطلب حوائجهم ممن يستغيثون به من الملائكة والانبياء وصالحيهم عما يجب من حقوقهم •

وأيضا فلو جعلت الصلاة والسلام عليه والدعاء له عند قبره أفضل منها في غير تلك البقعة ــ كما قد يكون الدعاء للميت عند قبره أفضل ــ لكانوا يخصون تلك البقعة بزيادة الدعاء له ، واذا غابوا عنها تنقص صلاتهم وسلامهم ودعاؤهم ، فان الانسان لايجتهد في الدعاء في المكان المفضول كما يجتهد في المكان الفاضل ، وهم قد أمروا أن يقوموا بحق الرسول صلى الله عليه وسلم في كل مكان ، وأن لايكون البعيد عن قبره أنقص ايمانا وقياما بحقه من المجاور لقبره ، وقال لهم صلى الله عليه وسلم : (لاتتخذوا بيتي عيدا وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني) وقد شرع لهم أن يصلوا عليه ويسألوا له الوسيلة اذا سمعوا المؤذن حيث كانوا ، وأن يسلموا عليه في كل صلاة ، ويصلوا عليه في الصلاة ، ويسلموا عليه اذا دخلوا المسجد واذا خرجوا منه ، فهذا الذي أمروا به عام في كل مكان ، وهو يوجب من القيام بحقه ورفع درجته واعلاء منزلته مالايحصل لو جعل ذلك عند قبره أفضل ، ولا اذا سوى بين قبره وقبر غيره ، بل انما يحصل كمال حقه مع حق ربه بفعل ماشرعه ومنه لأمته من واجب ومستحب ، وهو أن يقوموا بحق الله ثم بحق رسوله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا من المحبة والموالاة والطاعة وغير ذلك من الصلاة والسلام والدعاء وغير ذلك ، ولا يقصد تخصيص القبر لما يفضي اليه ذلك من ترك حق الله وحق رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهذا وغيره مما يبين أن مانهى عنه الناس ومنعوا

منه كان السلف لايفعلونه من زيارة قبره ، وان كان زيـارة قبر غيره مستحبة فهـو أعظم لقدره وأرفع لدرجته وأعلى في منزلته ، وان ذلك أقوم بحق الله ، وأتم وأكمل في عبادته وحده لاشريك له ، واخلاص الدين له ، ففي ذلك تحقيق شهادة أن لااله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وان كان أهل البدع الذين فعلوا مالم يشرعه بل مانهى عنه ، وخالفوا الصحابة والتابعين لهم باحسان فاستحبوا ماكان أولئك يكرهونه ويمنعون منه : هم مضاهون للنصارى ، وأنهم نقصوا من تحقيق الايمان باللهورسوله والقيام بحق الله وحق رسوله صلى الله عليه وسلم بقدر مادخلوا فيه من البدعةالتي ضاهوا بها النصارى ، فهذا هذا والله أعلم .

وأيضا فانه اذا أطيع أمره واتبعت سنته كان له من الاجر بقدر أجر من أطاعه واتبع سنته ، لقوله صلى الله عليه وسلم : (من دعى الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا) وقوله : (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة) .

وأما البدع التي لم يشرعها بل نهى عنها ـ وان كانت متضمنة للغلو فيه والشرك به والاطراء له كما فعلت النصارى فانه ـ لايحصل بها أجر لمن عمل بها ، فلا يكون للرسول صلى الله عليه وسلم فيها منفعة ، بل صاحبها ان عذر كان ضالا لاأجر له فيها ، وان قامت عليه الحجة استحق العذاب ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : (لاتطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فانما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) صلى الله عليه وسلم .

فان قال هؤلاء الذين قاسوا زيارة قبره على زيارة سائر القبور : أن الناس منعوا من الوصول اليه تعظيما لقدره ، وجعل سلامهم وخطابهم له من وراء الحجرة لأن ذلك أبلغ في الادب والتعظيم .

قيل : فهذا موجب الفرق ، فان الزيارة المشروعة ان كان مقصودها الدعاء له فيكون ذلك قريبا من الحجرة أفضل منه في سائر المساجد والبقاع ، فالذي يدعو له داخل الحجرة أقرب ، وان كان القرب مستحبا فكلما كان أقرب كان أفضل كسائر

القبور ، وان كان مقصودها مايقوله أهل الشرك والضلال من دعائه ودعاؤه من القرب أولى فينبغي أن يكون من داخل الحجرة أولى ، ولما ثبت أن هذا القرب من القبر ممنوع منه بالنص والاجماع وهو أيضا غير مقدور علم أن القرب من ذلك ليس بمستحب ، بخلاف زيارة قبر غيره والصلاة على قبره ، فان القرب منه مستحب مالم يفض الى مفسدة من شرك أو بدعة أو نياحة ، فان أفضى الى ذلك منع ذلك .

ومما يوضح هذا : أن الشخص الذي يقصد أتباعه زيارة قبره يجعلون قبره بحيث تمكن زيارته ، فيكون له باب يدخل منه الى القبر ، ويجعل عند القبر مكان للزائر اذا دخل بحيث يتمكن من القعود فيه ، بل يوسع المكان ليسع الزائرين ، ومن اتخذه مسجدا جعل عنده صورة محراب أو قريبا منه ، واذا كان الباب مغلقا جعل له شباك على الطريق ليراه الناس فيه فيدعونه ، وقبر النبي صلى الله عليه وسلم بخلاف هذا كله لم يجعل للزائر طريق اليه بوجه من الوجوه ، ولا قبر في مكان كبير يتسع للزوار ، ولا جعل للمكان شباك يرى منه القبر ، بل منع الناس من الوصول اليه والمشاهدة له ، ومن أعظم ما من الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى أمته واستجاب دعاءه أن دفن في بيته بجانب مسجده ، فلا يقدر أحد أن يصلي الا الى المسجد ، والعبادة المشروعة في المسجد معروفة ، بخلاف مالو كان قبره منفردا عن المسجد ، والمسافر اليه انما يسافر الى المسجد ، واذا سمي هذا زيارة لقبره فهو اسم لامسمى له ، انما هو اتيان الى مسجده ، ولهذا لم يطلق السلف هذا اللفظ (١) ولا عند قبره قناديل معلقة ، ولا ستور مسبلة ، بل انما يعلق القناديل في المسجد المؤسس على التقوى ، ولا يقدر أحد أن يخلق نفس قبره بزعفران أو غيره ، ولا ينذر له زيتا ولا شمعا ولا سترا ولا غير ذلك مما ينذر لقبر غيره ، وان كان في بعض الاحوال قد ستر بعض الناس الحجرة أو خلقها بعضهم بزعفران فهذا انما هو للحائط الذي يلي المسجد لانفس باطن الحجرة والقبر كما يفعل بقبر غيره وان فعل شيء في ظاهر الحجرة ، فعلم أن الله سبحانه وتعالى استجاب دعاءه حيث قال : (اللهم لاتجعل قبري وثنا يعبد) وان كان كثير من الناس يريدون أن يجعلوه وثنا ويعتقدون أن ذلك تعظيم له كما يريدون ذلك ويعتقدون في قبر غيره ، فهم لايتمكنون من ذلك ، بل هذا القصد والاعتقاد خيال في نفوسهم لاحقيقة له في الخارج ، بخلاف القبر الذي جعل وثنا وان كان الميت وليا لله لا اثم عليه من فعل من أشرك به ، كما لا اثم على المسيح

---

(١) كذا في الاصل

من اثم من اشرك به ، قال تعالى : (وإِذْ قالَ اللهُ يا عيسى بنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ للنّاسِ اتّخِذوني وأمّي إلهينِ من دُوْنِ اللهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لي أَنْ أَقولَ ما ليْسَ لي بحقٍّ إنْ كُنْتُ قُلْتُه فقَدْ عَلِمْتَه تَعْلَمُ ما في نَفْسي ولا أَعْلَمُ ما في نَفْسِكَ إنّكَ أَنتَ عَلاّمُ الغُيوب . ما قُلْتُ لَهم إلاّ ما أَمرتَني بِه أَن اعْبُدوا اللهَ رَبّي ورَبّكُمْ وكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهيداً ما دُمْتُ فيهم فَلما تَوفَّيتني كُنْتَ أَنْتَ الرَّقيبَ عَليهم وأَنْتَ على كُلِّ شَيءٍ شَهيد)[1] وقال تعالى : (وقالَ المسيحُ يا بني اسْرائيلَ اعبدُوا اللهَ رَبِّي ورَبَّكُم إنَّه مَنْ يُشْرِكْ باللهِ فقَد حَرَّمَ اللهُ عليه الجنةَ ومَأواه النَّارُ وما للظَّالمينَ من أَنْصار)[2] وقال تعالى : (وَيَوْمَ يَحشُرهم وما يعبدُونَ من دُوْنِ اللهِ فيقولُ أَأَنتم أَضْللتمْ عبادي هؤلاءِ أَمْ هم ضَلوا السَّبيلَ . قالوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغي لنا أَنْ نَتَّخِذَ من دُونِكَ من أَولياءَ ولكن مَتَّعْتهم وآباءَهُمْ حَتَّى نَسوا الذِّكْر وكانوا قَوماً بُورا . فَقَدْ كَذَّبوكُمْ بِما تَقُوْلونَ فَما تَسْتَطيْعونَ صَرْفاً ولا نَصْراً وَمَنْ يَظلِم منكُمْ نُذِقْهُ عذاباً كبيراً)[3] .

فالمعبودون من دون الله ــ سواء كانوا أولياء كالملائكة والانبياء والصالحين أو كانوا أوثانا ــ قد تبرؤا ممن عبدهم ، وبينوا أنه ليس لهم أن يوالوا من عبدهم ، ولا أن يواليهم من عبدهم ، فالمسيح وغيره وان كانوا برءاء من الشرك بهم لكن المقصود بيان مافضل الله به محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته ، وما أنعم به عليهم من اقامة التوحيد لله ، والدعوة الى عبادته وحده ، واعلاء كلمته ودينه ، واظهار مابعثه الله به من الهدى ودين الحق ، وما صانه الله به وصان قبره من أن يتخذ مسجدا ، فان هذا من أقوى أسباب ضلال أهل الكتاب ، ولهذا لعنهم النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك تحذيرا لأمته ، وبين أن هؤلاء شرار الخلق عند الله يوم القيامة ، ولما كان أصحابه أعلم الناس بدينه وأطوعهم له لم يظهر فيهم من البدع ماظهر فيمن بعدهم

---

(١) المائدة : ١١٦ ، ١١٧ (٢) المائدة : ٧٢ (٣) الفرقان : ١٧ ــ ١٩

لا في أمور القبور ولا في غيرها ، فلا يعرف من الصحابة من كان يتعمد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كان فيهم من له ذنوب ، لكن هذا الباب مما عصمهم الله فيه من تعمد الكذب على نبيهم ، وكذلك البدع الظاهرة المشهورة مثل بدعة الخوارج والروافض والقدرية والمرجئة لم يعرف عن أحد من الصحابة شيء من ذلك ، بل النقول الثابتة عنهم تدل على موافقتهم للكتاب والسنة ، وكذلك اجتماع رجال الغيب بهم أو الخضر أو غيره ، وكذلك مجيء الانبياء اليهم في اليقظة وحمل من يحمل منهم الى عرفات ونحو ذلك مما وقع فيه كثير من العباد وظنوا أنه كرامة من الله وكان من اضلال الشياطين لهم لم تطمع الشياطين أن توقع الصحابة في مثل هذا ، فانهم كانوا يعلمون أن هذا كله من الشيطان ورجال الغيب هم الجن ، قال تعالى : (وأَنّه كانَ رِجالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعوذُونَ برِجالٍ منَ الجِنِّ فزادوهُم رَهقاً)

وكذلك الشرك بأهل القبور لم يطمع الشيطان أن يوقعهم فيه فلم يكن على عهدهم في الاسلام قبر نبي يسافر اليه ، ولا يقصد للدعاء عنده أو لطلب بركته أو شفاعته أو غير ذلك ، بل أفضل الخلق محمد خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه وقبره عندهم محجوب لايقصده أحد منهم لشيء من ذلك ، وكذلك كان التابعون لهم باحسان ، ومن بعدهم من أئمة المسلمين ، وانما تكلم العلماء والسلف في الدعاء للرسول صلى الله عليه وسلم عند قبره ، منهم من نهى عن الوقوف للدعاء دون السلام عليه ، ومنهم من رخص في هذا وهذا ، ومنهم من نهى عن هذا وهذا ، وأما دعاؤه هو وطلب استغفاره وشفاعته بعد موته فهذا لم ينقل عن أحد من أئمة المسلمين لا من الأئمة الاربعة ولا غيرهم ، بل الادعية التي ذكروها خالية عن ذلك •

أما مالك فقد قال القاضي عياض : وقال مالك في المبسوط : لا أرى أن يقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ويسلم ، ولكن يسلم ويمضي ، وهذا الذي نقله القاضي عياض ذكره القاضي اسمعيل ابن اسحق في المبسوط ، قال : وقال مالك لاأرى أن يقف الرجل عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ولكن يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أبي بكر وعمر ثم يمضي ، وقال مالك ذلك لأن هذا المنقول عن ابن عمر أنه كان يقول السلام عليك يارسول الله السلام عليك ياأبا بكر السلام عليك ياأبت أو ياأبتاه ثم ينصرف ولا يقف يدعو ، فرأى مالك ذلك من البدع قال : وقال مالك في رواية ابن وهب اذا سلم على النبي صلى الله عليه وسلم ودعا

يقف ووجهه الى القبر لا الى القبلة ، ويدنو ويسلم ولا يمس القبر بيده ، فقوله في هذه الرواية اذا سلم ودعا قد يريد بالدعاء السلام ، فانه قال يدنو ويسلم ولا يمس القبر بيده ، ويؤيد ذلك أنه قال في رواية ابن وهب يقول السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، وقد يراد أنه يدعو له بلفظ الصلاة ، كما ذكر في الموطأ من رواية عبد الله بن دينار أنه كان يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أبي بكر وعمر ، وفي رواية يحيى بن يحيى وقد غلطه ابن عبد البر وقالوا انما لفظ الروايةعلى ماذكره ابن القاسم والقعنبي وغيرهما يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ويسلم على أبي بكر وعمر ، وقال أبو الوليد الباجي وعندي أنه يدعو للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بلفظ الصلاة ولابي بكر وعمر ، لما في حديث ابن عمر من الخلاف ، قال القاضي عياض : وقال في المبسوط : لا بأس لمن قدم من سفر أو خرج الى سفر أن يقف على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيصلي عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر ،فان أراد بالدعاء السلام والصلاة فهو موافق لتلك الرواية ، وان أراد دعاء زائدا فهي رواية أخرى ، وبكل حال فانما أراد الدعاء اليسير .

وأما ابن حبيب فقال : ثم يقف بالقبر متواضعا موقرا فيصلي عليه ويثني بما حضر ، ويسلم على أبي بكر وعمر ، فلم يذكر الا الثناء عليه مع الصلاة .

وأما الامام أحمد فذكر الثناء عليه بلفظ الشهادة له بذلك مع الدعاء له بغير الصلاة ، ومع دعاء الداعي لنفسه أيضا لم يذكر أن يطلب منه شيئا ، ولا يقرأ عند القبر قوله تعالى : (ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) ، كما لم يذكر مالك ذلك ولا المتقدمون من أصحابنا ولا جمهورهم ، بل قال في منسك المروزي : ثم ائت الروضة وهي بين القبر والمنبر فصل فيها وادع بما شئت ، ثم ائت قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقل : السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته ، السلام عليك يامحمد بن عبد الله ، أشهد أن لا اله الا الله ، وأشهد أنك رسول الله ، وأشهد أنك بلغت رسالة ربك ، ونصحت لأمتك ، وجاهدت في سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وعبدت الله حتى أتاك اليقين ، فجزاك الله أفضل ماجزى نبيا عن أمته ، ورفع درجتك العليا ، وتقبل شفاعتك الكبرى ، وأعطاك سؤلك في الآخرة والاولى ، كما تقبل من ابراهيم اللهم احشرنا في زمرته ، وتوفنا على سنته ، وأوردنا حوضه ، واسقنا بكأسه مشربا رويا لانظمأ بعده أبدا .

وما من دعاء وشهادة وثناء يذكر عند القبر الا وقد وردت السنة بذلك وما هو منه في سائر البقاع ولا يمكن أحدا أن يأتي بذكر يشرع عند القبر دون غيره ، وهذا تحقيق لنهيه أن يتخذ قبره أو بيته عيدا ،فلا يقصد تخصيصه بشيء من الدعاء للرسول صلى الله عليه وسلم فضلا عن الدعاء لغيره ، بل يدعي بذلك للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم حيث كان الداعي ، فان ذلك يصل اليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا بخلاف ماشرع عند قبر غيره ، كقوله : (السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وانا ان شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين) فان هذا لايشرع الا عند القبور ، ولا يشرع عند غيرها ، وهذا مما يظهر به الفرق بينه وبين غيره ، وان ماشرعه وفعله أصحابه من المنع من زيارة قبره كما تزار القبور هو من فضائله ، وهو رحمة لأمته ومن تمام نعمة الله عليها ، فالسلف كلهم متفقون على أن الزائر لايسأله شيئا ، ولا يطلب منه مايطلب منه في حياته ويطلب منه يوم القيامة لا شفاعة ولا استغفار ولا غير ذلك ، وانما كان نزاعهم في الوقوف للدعاء له والسلام عليه عند الحجرة ، فبعضهم رأى هذا من السلام الداخل في قوله صلى الله عليه وسلم : (ما من رجل يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام) واستحبه لذلك ، وبعضهم لم يستحبه ، إما لعدم دخوله ، وإما لأن السلام المأمور به في القرآن مع الصلاة ـ وهو السلام الذي لايوجب الرد ـ أفضل من السلام الموجب للرد ، فان هذا مما يدل عليه الكتاب والسنة ، واتفق عليه السلف ، فان السلام المأمور به في القرآن كالصلاة المأمور بها في القرآن كلاهما لايوجب عليه الرد ، بل الله يصلي على من صلى عليه ويسلم على من سلم عليه ، ولأن السلام الذي يوجب الرد هو حق للمسلم كما قال تعالى : (وإذا حُيِّيتُم بِتَحيَّةٍ فَحيّوا بأَحسَنَ منها أَو رُدُّوها)[1] ولهذا يرد السلام على من سلم وان كان كافرا ، وكان اليهود اذا سلموا عليه يقول : (عليكم) وأمر أمته بذلك ، وانما قال : (عليكم)لأنهم يقولون السام والسام الموت، فيقول : (عليكم) قال صلى الله عليه وسلم : (يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا) ولما قالت عائشة : وعليكم السام واللعنة قال : (مهلا ياعائشة فان الله رفيق يحب الرفق في الامر كله ، أو لـم تسمعي ما قلت لهـم ؟!) يعني رددت عليهم فقلت

---

(١) النساء : ٨٦

عليكم ، فهذا اذا قالوا السام عليكم ، وأما اذا علم أنهم قالوا السلام فلا يخصون في الرد فيقال عليكم فيصير بمعنى السلام عليكم لا علينا بل يقال وعليكم •

واذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته عليكم جزاء دعائهم وهو دعاء بالسلامة والسلام أمان فقد يكون المستجاب هي سلامتهم منا أي من ظلمنا وعداوتنا وكذلك كل من رد السلام على غيره فانما دعا له بالسلامة ، وهذا مجمل ، ومن الممتنع أن يكون كل من رد على النبي صلى الله عليه وسلم السلام من الخلق دعا له بالسلامة من عذاب الدنيا والآخرة ، فقد كان المنافقون يسلمون عليه ويرد عليهم ، ويرد على المسلمين أصحاب الذنوب وغيرهم ، لكن السلام فيه أمان ، ولهذا لايبتدأ الكافر الحربي بالسلام ، بل لما كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتابه الى قيصر قال فيه : (من محمد رسول الله الى قيصر عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى) كما قال موسى لفرعون ، والحديث في الصحيحين من رواية ابن عباس عن أبي سفيان بن حرب في قصته المشهورة لما قرأ قيصر كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وسأله عن أحواله •

وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن ابتداء اليهود بالسلام ، فمن العلماء من حمل ذلك على العموم ، ومنهم من رخص اذا كان للمسلم اليه حاجة يبتدئه بالسلام بخلاف اللقاء ، والكفار كاليهود والنصارى يسلمون عليه وعلى أمته سلام التحية الموجب للرد ، وأما السلام المطلق فهو كالصلاة عليه انما يصلي عليه ويسلم عليه أمته ،فاليهود والنصارى لايصلون عليه ويسلمون عليه ، وكانوا اذا رأوه يسلمون عليه ، فذلك الذي يختص به المؤمنون ابتداء وجوابا أفضل من هذا الذي يفعله الكفار معه ومع أمته ابتداء وجوابا ، ولايجوز أن الكفار اذا سلموا عليه سلام التحية فان الله يسلم عليهم عشرا ، بل كان النبي صلى الله عليه وسلم يجيبهم على ذلك فيوفيهم كما لوكان لهم دين فقضاه •

وأما مايختص بالمؤمنين فاذا صلوا عليه صلى الله على من صلى عليه عشرا ، واذا سلم عليه سلم الله عليه عشرا ، وهذا الصلاة والسلام هو المشروع في كل مكان بالكتاب والسنة والاجماع ، بل هو مأمور به من الله سبحانه وتعالى ، لافرق في هذا بين الغرباء وبين أهل المدينة عند القبر •

وأما السلام عليه عند القبر فقد عرف أن الصحابة والتابعين المقيمين بالمدينة لم يكونوا يفعلونه اذا دخلوا المسجد وخرجوا منه ، ولو كان هذا كالسلام عليه لو كان

حيا لكانوا يفعلونه كلما دخلوا المسجد وخرجوا منه كما لو دخلوا المسجد في حياته وهو فيه فانه مشروع لهم كلما رأوه أن يسلموا عليه ، بل السنة لمن جاء الى قوم أن يسلم عليهم اذا قدم واذا قام ، كما أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ، وقال: (ليست الأولى أحق من الآخرة) فهو لما كان حيا كان أحدهم اذا أتى يسلم ، واذا قام يسلم ، ومثل هذا لايشرع عند القبر باتفاق المسلمين ، وهو معلوم بالاضطرار من عادة الصحابة ، ولو كان سلام التحية خارج الحجرة كان مستحبا لكل أحد ، ولهذا كان أكثر السلف لايفرقون بين الغرباء وأهل المدينة ، ولا بين حال السفر وغيره ، فان استحباب هذا لهؤلاء وكراهته لهؤلاء حكم شرعي يفتقر الى دليل شرعي ، ولا يمكن أحدا أن ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه شرع لأهل المدينة الاتيان عند الوداع للقبر ، وشرع لهم ولغيرهم ذلك عند القدوم من سفر ، وشرع للغرباء تكرير ذلك كلما دخلوا المسجد وخرجوا منه ولم يشرع ذلك لأهل المدينة ، فمثل هذه الشريعة ليس منقولا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن خلفائه ، ولا هو معروف من عمل الصحابة ، وانما نقل عن ابن عمر السلام عند القدوم من السفر ، وليس هذا من عمل الخلفاء وأكابر الصحابة . قلت : روى عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن أيوب عن نافع ، قال : كان ابن عمر اذا قدم من سفر أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليك يارسول الله ، السلام عليك ياأبا بكر ، السلام عليك ياأبتاه ، وأنبأه عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر ، قال معمر : فذكرت ذلك لعبيد الله بن عمر فقال : مانعلم أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك الا ابن عمر ، هكذا قال عبيد الله بن عمر العمري الكبير ، وهو أعلم آل عمر في زمانه وأحفظهم وأثبتهم ، قال الشيخ كما كان ابن عمر يتحرى الصلاة والنزول والمرور حيث حل ونزل وغير ذلك في السفر .

وجمهور الصحابة لم يكونوا يصنعون ذلك بل أبوه عمر كان ينهى عن مثل ذلك ، كما روى سعيد بن منصور في سننه : حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن المعرور بن سويد عن عمر قال : خرجنا معه في حجة حجها فقرأ بنا في صلاة الفجر (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) و (لايلاف قريش) في الثانية فلمارجع من حجته رأى الناس ابتدروا المسجد ، فقال : ماهذا ؟ فقالوا : مسجد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم اتخذوا آثار الانبياء بيعا من عرضت له منكم فيه الصلاة فليصل ومن لم تعرض له فليمض ، وما اتفق عليه الصحابة

ابن عمر وغيره ـ من أنه لايستحب لأهل المدينة الوقوف عند القبر للسلام اذا دخلوا المسجد وخرجوا بل يكره ذلك ـ يبين ضعف حجة من احتج بقوله : (ما من رجل يسلم علي الا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام) فان هذا لو دل على استحباب السلام عليه من المسجد لما اتفق الصحابة على ترك ذلك ، ولم يفرق في ذلك بين القادم من السفر وغيره ، فلما اتفقوا على ترك ذلك مع تيسيره علم أنه غير مستحب ، بل لو كان جائزا لفعله بعضهم ، فدل على أنه كان من المنهى عنه كما دلت عليه سائر الاحاديث .

وعلى هذا فالجواب عن الحديث اما بتضعيفه على قول من يضعفه ، واما بأن ذلك يوجب فضيلة الرسول صلى الله عليه وسلم لافضيلة المسلم بالرد عليه اذا كان هذا من باب المكافأة والجزاء ، حتى أنه يشرع للبر والفاجر التحية بخلاف مايقصد به الدعاء المجرد وهو السلام المأمور به ، وإما بأن يقال : هذا مما هو فيمن سلم عليه من قريب ، والقريب أن يكون في بيته ، فانه ان لم يحد بذلك لم يبق له حد محدود من جهة الشرع ، كما تقدم ذكر هذا .

وأما الوجه : فتوجيهه أن الحديث ليس فيه ثناء على المسلم ولا مدح له ولا ترغيب له في ذلك ، ولا ذكر أجر له كما جاء في الصلاة والسلام المأمور بهما ، فانه قد وعد أن من صلى عليه مرة صلى الله عليه عشرا ، وكذلك من سلم عليه ، وأيضا فهو مأمور بهما وكل مأمور به ففاعله محمود مشكور مأجور وأما قوله : (ما من رجل يمر بقبر الرجل فيسلم عليه الا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ، وما من رجل يسلم علي الا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام) فانما فيه مدح المسلم عليه والاخبار بسماعه السلام ، وأنه يرد السلام فيكافيء المسلم عليه لايبقى للمسلم عليه فضل ، فانه بالرد يحصل المكافأة ، كما قال تعالى : (وَإِذا حُيِّيتُمْ بِتَحية فَحيُّوا بأَحْسَنَ منْهاأَ ورُدُّوها) ولهذا كان الرد من باب العدل المأمور به الواجب لكل مسلم اذا كان سلامه مشروعا ، وهذا كقوله : (من سألنا أعطيناه ومن لم يسألنا أحب الينا) هو اخبار باعطائه السائل ، ليس هذا أمر بالسؤال وان كان السلام ليس مثل السؤال لكن هذا اللفظ انما يدل على مدح الراد .

وأما المسلم فيقف الأمر فيه على الدليل ، واذا كان المشروع لأهل المدينة أن لايقفوا عند الحجرة ويسلموا عليه علم قطعا أن الحديث لم يرغب في ذلك ، ومما يبين ذلك أن مسجده كسائر المساجد لم يختص بجنس من العبادات لاتشرع في غيره ، وكذلك المسجد الاقصى ، ولكن خصا بأن العبادة فيهما أفضل ، بخلاف المسجد الحرام فانه مخصوص بالطواف واستلام الركن وتقبيل الحجر وغير ذلك ، وأما المسجدان الآخران فما يشرع فيهما من صلاة وذكر واعتكاف وتعلم وتعليم وثناء على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وصلاة عليه وتسليم وغير ذلك من العبادات فهو مشروع في سائر المساجد ، والعمل الذي يسمى زيارة لقبره لايكون الا في مسجده لاخارجا عن المسجد ، فعلم أن المشروع من ذلك العمل مشروع في سائر المساجد لا اختصاص لقبره بجنس من أجناس العبادات ، ولكن العبادة في مسجده أفضل منها في غيره لأجل المسجد لا لأجل القبر ، قال الشيخ ومما يوضح هذا أنه لم يعرف عن أحد من الصحابة أنه تكلم باسم زيارة قبره لاترغيبا في ذلك ولا غير ترغيب ،فعلم أن مسمى هذا الاسم لم يكن له حقيقة عندهم ، ثم ذكر ماحكيناه عنه فيما تقدم .

ثم قال : والمقصود أن هذا كله يبين ضعف حجة المفرق بين الصادر من المدينة والوارد عليها ، والوارد على مسجده من الغرباء والصادر عنه ،وذلك أنه يمتنع أن يقال أنه يرد على هؤلاء ولا يرد على أحد من أهل المدينة المقيمين بها ، فان أولئك هم أفضل أمته وخواصها ، وهم الذين خاطبهم بهذا ، فيمتنع أن يكون المعنى من سلم منكم ياأهل المدينة لم أرد عليه مادمتم مقيمين بها ، فان المقام بها هو غالب أوقاتهم ، وليس في الحديث تخصيص ، ولا عن النبي صلى الله عليه وسلم مايدل على ذلك .

يبين هذا : أن الحجرة لما كانت مفتوحة وكانوا يدخلون على عائشة لبعض الامور فيسلمون عليه انما كان يرد عليهم اذا سلموا .

فان قيل : انه لم يكن يرد عليهم فهذا تعطيل للحديث .

وان قيل : كان يرد عليهم من هناك ولا يرد اذا سلموا من خارج فقد أظهر الفرق .

وان قيل : بل هو يرد على الجميع فحينئذ ان كان رده لايقتضي استحباب هذا السلام بطل الاستدلال به ، وان كان رده يقتضي الاستحباب وهو الآن مختص بمن سلم من خارج لزم أن يستحب لأهل المدينة عند الحجرة كلما دخلوا المسجد وخرجوا وهو خلاف ماأجمع عليه الصحابة والتابعون لهم باحسان وخلاف قول المفرقين ، ومن

أهل المدينة من قد لايسافر منها أولا يسافر الا للحج والقادم قد يقيم بالمدينة العشر والشهر ، فهذا يرد عليه عشر مرات في اليوم والليلة وأكثر كلما دخل وخرج وذاك المدني المقيم لايرد عليه قط في عمره ولا مرة •

وأيضا فاستحباب هذا للوارد والصادر تشبيه له بالطواف الذي يشرع للحاج عند الورود الى مكة ــ وهو الذي يسمى طواف القدوم وطواف التحية وطواف الورود ــ وعند الصدور ــ وهو الذي يسمى طواف الوداع ــ وهذا تشبيه لبيت المخلوق ببيت الخالق ، ولهذا لايجوز الطواف بالحجرة بالاجماع ولا الصلاة اليها ، كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم عن أبي مرثد الغنوي أنه قال : قال صلى الله تعالى عليه وسلم : (لاتجلسوا على القبور ولا تصلوا اليها) وأيضا فالطواف بالبيت لأهل مكة ولغيرهم كلما دخلوا المسجد والوقوف عند القبر كلما دخل المدني لايشرع بالاتفاق ، فلم يبق الفرق بين المدني وغير المدني له أصل في السنة ولا نظير في الشريعة ، ولا هو مما سنه الخلفاء الراشدون وعمل به عامة الصحابة ، فلا يجوز أن يجعل هذا من شريعته وسنته ، واذا فعله من الصحابة الواحد والاثنان والثلاثة وأكثر دون غيرهم كان غايته أنه يثبت به التسويغ ، بحيث يكون هذا مانعا من دعوى الاجماع على خلافه ، بل يكون كسائر المسائل التي ساغ فيها الاجتهاد لبعض العلماء ، أما أن يجعل من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وشريعته وحكم ماتدل عليه سنته لكون بعض السلف فعل ذلك فهذا لايجوز ، ونظير هذا مسحه للقبر قال أبو بكر الاثرم قلت لأبي عبد الله يعني الامام أحمد قبر النبي صلى الله عليه وسلم يلمس ويتمسح به قال ماأعرف هذا ، قلت فالمنبر ، قال أما المنبر فنعم قد جاء فيه ، قال أبو عبد الله شيء يروونه عن ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن ابن عمر أنه مسح على المنبر ، قال ويروونه عن سعيد بن المسيب في الرمانة ، قلت ويروى عن يحيى بن سعيد يعني الانصاري شيخ مالك وغيره أنه حيث أراد الخروج الى العراق جاء الى المنبر فمسحه ودعا فرأيته استحسن ذلك ، ثم قال لعله عند الضرورة ، قلت لأبي عبد الله أنهم يلصقون بطونهم بجدار القبر وقلت له ورأيت أهل العلم من أهل المدينة لايمسونه ويقومون ناحيته فيسلمون ، فقال أبو عبد الله نعم وهكذا كان ابن عمر يفعل ذلك ، ثم قال أبو عبد الله بأبي وأمي صلى الله تعالى عليه وسلم •

وقد ذكر أحمد بن حنبل أيضا في منسك المروزي نظير مانقل عن ابن عمر وابن المسيب ويحيى ابن سعيد ، وهذا كله يدل على التسويغ وأن هذا مما فعله بعض

الصحابة ، فلا يقال انعقد اجماعهم على تركه بحيث يكون فعل من فعل ذلك اقتداء ببعض السلف لم يبتدع هو شيئا من عنده ، وأما أن الرسول صلى الله عليه وسلم ندب الى ذلك ورغب فيه وجعله عبادة وطاعة يشرع فعلها فهذا يحتاج الى دليل شرعي لايكفي في ذلك فعل بعض السلف ، ولا يجوز أن يقال أن الله ورسوله يحب ذلك أو يكرهه ، وأنه سن ذلك وشرعه أو نهى عن ذلك وكرهه أو نحو ذلك الا بدليل يدل على ذلك ، لاسيما اذا عرف أن جمهور أصحابه لم يكونوا يفعلون ذلك ، فيقال: لو كان هو ندبهم الى ذلك وأحبه لفعلوه ، فانهم كانوا أحرص الناس على الخير ونظائر هذا متعددة والله أعلم •

والمؤمن قد يتحرى الدعاء والصلاة في مكان دون مكان لاجتماع قلبه فيه ، وحصول خشوعه فيه ، لا لأنه يرى الشارع فضل ذلك المكان كصلاة الذي يكون في بيته ونحو ذلك ، فمثل هذا اذا لم يكن منهيا عنه فلا بأس به ويكون ذلك مستحبا في حق ذلك الشخص لكون عبادته فيه أفضل ، كما اذا صلى القوم خلف امام يحبونه كانت صلاتهم أفضل من أن يصلوا خلف من هم له كارهون ، وقد يكون العمل المفضول في حق بعض الناس أفضل لكونه أنفع له وكونه أرغب فيه وهو أحب اليه من عمل أفضل منه لكونه يعجز عنه فهذا يختلف بحسب اختلاف الاشخاص ، وهو غير ماثبت فضل جنسه بالشرع كما ثبت أن الصلاة أفضل ، ثم القراءة ، ثم الذكر بالادلة ، مع أن العمل المفضول في مكانه هو أفضل من الفاضل في غير مكانه ، كفضيلة الذكر والدعاء والقراءة بعد الفجر والعصر على الصلاة المنهى عنها في هذا الوقت ، وكفضيلة التسبيح في الركوع والسجود على القراءة لأنه نهى أن يقرأ القرآن راكعا أو ساجدا ، وكفضيلة آخر القرآن هناك (١) لأنه موطن الدعاء ، ونظائر هذا متعددة ، وبسط هذا له موضع آخر •

لكن المقصود هنا : أن يعلم أن ماقيل إنه مستحب للأمة قد ندبهم اليه الرسول صلى الله عليه وسلم ورغبهم فيه فلا بد له من دليل يدل على ذلك ، ولا يضاف الى الرسول صلى الله عليه وسلم الا ماصدر عنه ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي فرض الله على جميع الخلق الايمان به وطاعته واتباعه ، وايجاب ماأوجبه وتحريم ماحرمه ، وشرع ماشرعه ، وبه فرق الله بين الهدى والضلال ، والرشاد والغي ، والحق والباطل ، والمعروف والمنكر ، وهو الذي شهد الله له بأنه يدعو اليه

---

(١) كذا في الاصل

باذنه ويهدي الى صراط مستقيم ، وهو الذي جعل الرب طاعته طاعة له في مثل قوله : (مَن يُطِعِ الرَّسولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ)[١] وقوله : (وما أَرْسَلنا من رَسُولٍ إلاَّ لِيُطاعَ بإِذْنِ اللهِ)[٢] وهو الذي لاسبيل لأحد الى النجاة الا بطاعته ، ولا يسأل الناس يوم القيامة الا عن الايمان به واتباعه وطاعته ، وبه يمتحنون في القبور ، قال تعالى: (فلنَسْأَلنَّ الَّذينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِم وَلنسأَلَنَّ الْمرْسَلين)[٣] وهو الذي أخذ الله الميثاق على النبيين وأمرهم أن يأخذوا على أممهم الميثاق أنه اذا جاءهم أن يؤمنوا به ويصدقوه ، وهو الذي فرق الله به بين أهل الجنة والنار ، فمن آمن به وأطاعه كان من أهل الجنة ، ومن كذبه وعصاه كان من أهل النار ، قال تعالى : (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ ورسُولَهُ يُدخِلهُ جَنَّاتٍ تَجري من تَحتها الأَنْهارُ خالدِيْنَ فيها وذلك الْفَوْزُ العَظِيمُ . وَمَنْ يَعْصِ اللهَ ورسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالداً فيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ)[٤] والوعد بسعادة الدنيا والآخرة ، والوعيد بشقاوة الدنيا والآخرة يتعلق بطاعته ،فطاعته هي الصراط المستقيم ، وهي حبل الله المتين ، وهي العروة الوثقى ، وأصحابها هم أولياء الله المتقون ، وحزبه المفلحون ، وجنده الغالبون والمخالفون لهم هم أعداءالله ، حزب ابليس اللعين ، قال تعالى :(وَيومَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً . يا وَيْلتى لَيْتَني لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خليلاً . لَقَدْ أَضَلَّني عَنِ الذّكْرِ بعْدَ إِذْ جاءَني وكَانَ الشَّيْطانُ للانسَانِ خَذُولا)[٥] وقال تعالى : (يومَ تُقَلَّبُ وُجوهُهم في النَّارِ يقُولونَ يا لَيْتَنا أَطعْنَا اللَّهَ وأَطعْنَا الرَّسولا . وقالُوا ربنَا إنا أَطعْنَا سادَتَنا وكُبرَاءَنا فأَضلّونا السّبيلا . ربّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ منَ العَذابِ والْعَنْهُم لَعْناً كبيراً)[٦] وقال تعالى:(قُلْ أَطيعُوا اللّهَوالرّسولَ فإِنْ تَوَلَّوا فإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الكَافرِين)[٧] وقال تعالى : (فَلاَ وربِّكَ لا يُؤمنُون

(١) النساء : ٦٤ (٢) النساء : ٨٠ (٣) الاعراف : ٦ (٤) النساء : ١٣ ، ١٤ (٥) الفرقان : ٢٧ ـ ٢٩
(٦) الاحزاب : ٦٦ ـ ٦٨ (٧) آل عمران : ٣٢

حتّى يحكموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليما)[1] وقال تعالى: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم)[2] وقال تعالى (ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الّذين أنعم الله عليهم من النّبيين والصّديقين والشّهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقاً. ذلك الفضل من الله)[3] وجميع الرسل أخبروا بأن الله أمر بطاعتهم ، كما قال تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلاّ ليطاع باذن الله) يامرون بعبادة الله وحده وتقواه وحده وخشيته وحده ويأمرون بطاعتهم كما قال تعالى : (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتّقه فاولئك هم الفائزون)[4] وقال نوح (اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) وقال في الشعراء:(فاتقوا الله واطيعون) وكذلك قال هود وصالح ولوط وشعيب

والناس محتاجون الى الايمان بالرسول صلى الله عليه وسلم فطاعته في كل زمان ومكان ليلا ونهارا سفرا وحضرا سرا وعلانية جماعة وفرادى وهم أحوج الى ذلك من الطعام والشراب بل من النفس فانهم متى فقدوا ذلك فالنار جزاء من كذب بالرسول وتولى عن طاعته كما قال تعالى (فأنذرتكم ناراً تلظّى.لا يصلاها إلاّ الأشقى الّذي كذّب وتولّى) أي كذب بما أخبر به وتولى عن طاعته كما قال تعالى في موضع آخر: (فلا صدّق ولا صلّى . ولكن كذّب وتولّى)أي كذب بما أخبر به وتولى عن طاعته وقال تعالى: (إنا أرسلنا اليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرّسول فأخذناه أخذاً وبيلاً)[5] وقال: (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً. يومئذ يودّ الذين كفروا وعصوا الرّسول لو تسوّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً)[6]

والله تعالى قد سماه سراجا منيرا وسمى الشمس سراجا وهاجا ، والناس الى

(١) النساء : ٦٥ (٢) النور : ٦٣ (٣) النساء ، ٦٩ ، ٧٠ (٤) النور : ٥٢ (٥) المزمل : ١٥ (٦) النساء : ٤١ ، ٤٢

السراج المنير أحوج منهم الى السراج الوهاج ، فانهم يحتاجون اليه ليلا ونهارا سرا وعلانية ، وهو أنفع لهم ، فانه منير ليس فيه أذى ، بخلاف الوهاج فانه ينفع تارة ويضر أخرى ، ولما كانت حاجة الناس الى الرسول صلى الله عليه وسلم والايمان به وطاعته ومحبته وموالاته وتعظيمه وتعزيره وتوقيره عامة في كل مكان وزمان كان مايؤمر به من حقوقه عاما لايختص بقبره ، فمن خص قبره بشيء من الحقوق كان جاهلا بقدر الرسول صلى الله عليه وسلم وقدر ماأمر الله به من حقوقه ، وكل من اشتغل بما أمر الله به من طاعته شغله عما نهى عنه من البدع المتعلقة بقبره وقبر غيره، ومن اشتغل بالبدع المنهي عنها ترك ماأمر به الرسول صلى الله عليه وسلم من حقه ، فطاعته هي مناط السعادة والنجاة ، والذين يحجون الى القبور ويدعون الموتى من الانبياء وغيرهم عصوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأشركوا بالرب ، ففاتهم ماأمروا به من تحقيق التوحيد ، والايمان بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو تحقيق شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجميع الخلق يأتون يوم القيامة فيسألون عن هذين الأصلين : ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا أجبتم المرسلين ؟ كما بسط هذا في موضعه .

والمقصود : أن الصحابة كانوا في زمن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين يدخلون المسجد ، ويصلون فيه الصلوات الخمس ، ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ويسلمون عليه عند دخول المسجد وبعد دخوله ، ولم يكونوا يذهبون ويقفون الى جانب الحجرة ويسلمون عليه هناك ، وكان على عهد الخلفاء الراشدين والصحابة حجرته خارجة عن المسجد ، ولم يكن بينهم وبينه الا الجدار ، ثم إنه انما أدخلت الحجرة في المسجد في خلافة الوليد بن عبد الملك بعد موت عامة الصحابة الذين كانوا بالمدينة ، وكان من آخرهم موتا جابر بن عبد الله ، وتوفي في خلافة عبد الملك ، فانه توفي سنة ثمان وسبعين ، والوليد تولى سنة ست وثمانين وتوفي سنة ست وتسعين فكان بناء المسجد وادخال الحجرة فيه فيما بين ذلك ، وقد ذكر أبو زيد عمر بن شبه النميري في كتاب أخبار المدينة ـ مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ عن أشياخه وعمن حدثوا عنه أن عمر بن عبد العزيز لما كان نائبا للوليد على المدينة في سنة احدى وتسعين هدم المسجد وبناه بالحجارة المنقوشة ، وعمل سقفه بالساج وماء الذهب ، وهدم حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فأدخلها في المسجد ، وأدخل القبر فيه .

ثم ذكر الشيخ الآثار المروية في عمارة عمر بن عبد العزيز المسجد وزيادته فيه ، وذكر أن حكم الزيادة حكم المزيد ، فقال : وقد جاءت الآثار بأن حكم الزيادة في مسجده حكم المزيد ، تضعف فيه الصلاة بألف صلاة ، كما أن المسجد الحرام حكم الزيادة فيه حكم المزيد ، فيجوز الطواف فيه والطواف لا يكون الا في المسجد لا خارجا منه ، ولهذا اتفق الصحابة على أنهم يصلون في الصف الاول من الزيادة التي زادها عمر ثم عثمان ، وعلى ذلك عمل المسلمين كلهم ، فلولا أن حكمه حكم مسجده لكانت تلك صلاة في غير مسجده ، والصحابة وسائر المسلمين بعدهم لايحافظون على العدول عن مسجده الى غير مسجده ويأمرون بذلك ، قال أبو زيد : حدثني محمد بن يحيى ، حدثني من أثق به أن عمر زاد في المسجد من القبلة الى موضع المقصورة التي هي به اليوم ، قال ، فأما الذي لايشك فيه أهل بلدنا أن عثمان هو الذي وضع القبلة في موضعها اليوم ثم لم تغير بعد ذلك •

قال أبو زيد : حدثنا محمد بن يحيى عن محمد عن عثمان عن مصعب بن ثابت عن خباب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال — وهو يوما في مصلاه — لو زدنا في مسجدنا وأشار بيده نحو القبلة ، حدثنا محمد بن يحيى ، عن محمد بن اسمعيل ، عن ابن أبي ذئب ، قال : قال عمر : لو مد مسجد النبي صلى الله عليه وسلم لكان منه حدثنا محمد بن يحيى ، عن سعد بن سعيد ، عن أخيه عن أبيه عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو بني هذا المسجد الى صنعاء لكان مسجدي ، فكان أبو هريرة يقول : والله لو مد هذا المسجد الى داري ماعدوت أن أصلي فيه ، حدثنا عبد العزيز بن عمران ، عن فليح بن سليمان ، عن ابن أبي عمرة ، قال : زاد عمر في المسجد في شاميه ، ثم قال : لو زدنا فيه حتى يبلغ الجبانة كان مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وهذا الذي جاءت به الآثار هو الذي يدل عليه كلام الأئمة المتقدمين وعملهم ، فانهم قالوا ان الصلاة الفرض خلف الامام أفضل ، وهذا الذي قالوه هو الذي جاءت به السنة ، وكذلك كان الامر على عهد عمر وعثمان ، فان كليهما زاد من قبلي المسجد ، فكان مقامه في الصلاة الخمس في الزيادة ، وكذلك مقام الصف الاول الذي هو أفضل مايقام فيه بالسنة والاجماع ، واذا كان كذلك فيمتنع أن تكون الصلاة في غير مسجده أفضل منها في مسجده ، وأن يكون الخلفاء والصفوف الاول كانوا يصلون في غير مسجده ، وما بلغني عن أحد من السلف خلاف هذا ، لكن رأيت بعض المتأخرين قد ذكر أن الزيادة ليست من مسجده ، وما علمت

لمن ذكر ذلك سلفا من العلماء ، قال : وهذه الامور نبهنا عليها ههنا ، فانه يحتاج الى معرفتها ، وأكثر الناس لايعرفون الامر كيف كان ، ولا حكم الله ورسوله في كثير من ذلك •

وكان من المقصود أن المسجد لما زاد فيه الوليد وأدخلت فيه الحجرة كان قد مات عامة الصحابة ، ولم يبق الا من أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يبلغ من التمييز الذي يؤمر فيه بالطهارة والصلاة ، ومن المعلوم بالتواتر أن ذلك كان في خلافة الوليد بن عبد الملك ، وقد ذكروا أن ذلك كان سنة احدى وتسعين ، وأن عمر بن عبد العزيز مكث في بنائه ثلاث سنين ، وسنة ثلاث وتسعين مات فيها خلق كثير من التابعين ، مثل سعيد بن المسيب وغيره من الفقهاء السبعة ــ ويقال لها سنة الفقهاء ــ وجابر بن عبد الله ، وكان من السابقين الاولين ممن بايع بالعقبة تحت الشجرة ، ولم يكن بقي من هؤلاء غيره لما مات ، وذلك قبل تغيير المسجد بسنين ، ولم يبق بعده ممن كان بالغا حين موت النبي صلى الله عليه وسلم الا سهل بن سعد الساعدي ، فانه توفي سنة ثمان وثمانين ، وقيل سنة احدى وتسعين ، ولهذا قيل فيه أنه آخر من مات بالمدينة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كما قاله أبو حاتم البستي وغيره •

وأما من مات بعد ذلك فكانوا صغارا : مثل السائب بن زيد الكندي ابن أخت نمر ، فانه مات بالمدينة سنة احدى وتسعين ، وقيل انه مات بعده عبد الله بن طلحة الذي حنكه النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك محمود بن الربيع الذي عقل مجة مجها رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه من بئر كانت في دارهم وله خمس سنين ، مات سنة تسع وتسعين وله ثلاث وتسعون سنة ، وأبو أمامة بن سهل بن حنيف سماه النبي صلى الله عليه وسلم أسعد باسم أسعد بن زرارة ، مات سنة مائة، لكن هؤلاء لم يكن لهم في حياته من التمييز ماينقلون عنه أقواله وأفعاله التي ينقلها الصحابة ، مثل ماينقلها جابر وسهل بن سعد وغيرهما •

وأما ابن عمر فكان قد مات قبل ذلك بعد قتل ابن الزبير بمكة سنة أربع وسبعين وابن عباس مات قبل ذلك بالطائف سنة ثمان وستين ، فهؤلاء وأمثالهم من الصحابة لم يدرك أحد منهم تغيير المسجد وادخال الحجرة فيه ، وأنس بن مالك كان بالبصرة ولم يكن بالمدينة ، وقيل إنه آخر من مات بها من الصحابة •

وكانت حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم شرقي المسجد وقبليه ــ وقيل

وشاميه ـ فاشتريت من ملاكها ورثة أزواجه وزيدت في المسجد فدخلت حجرة عائشة، وكان الذي تولى ذلك عمر بن عبد العزيز نائب الوليد على المدينة ، فسد باب الحجرة وبنوا حائطا آخر عليها غير الحائط القديم ، فصار المسلم عليه من وراء الجدار أبعد من المسلم عليه لما كان جدارا واحدا .

قال هؤلاء : ولو كان سلام التحية الذي يرده على صاحبه مشروعا في المسجد لكان له حد ذراع أو ذراعان أو ثلاثة ، فلا يعرف الفرق بين المكان الذي يستحب فيه هذا والمكان الذي لايستحب . فان قيل : من سلم عليه عند الحائط الغربي رد عليه ، قيل : وكذلك من كان خارج المسجد والا فما الفرق حينئذ ، فيلزم أن يرد على جميع أهل الارض ، وعلى كل مصل في صلاة ـ كما ظنه بعض الغالطين ـ ومعلوم بطلان ذلك ، وان قيل يختص بقدر بين المسلم وبين الحجرة ، قيل : فما حد ذلك ؟ وهم لهم قولان : منهم من يستحب القرب من الحجرة كما استحب ذلك مالك وغيره، ولكن يقال فما حد ذلك القرب ؟ واذا جعل له حد فهل يكون من خرج عن الحد فعل المستحب ؟! وآخرون من المتأخرين يستحبون التباعد عن الحجرة ، كما ذكر ذلك من ذكره من أصحاب أبي حنيفة والشافعي ، فهل هو بذراع أو باع أو أكثر ؟ وقدره من قدره من أصحاب أبي حنيفة بأربعة أذرع ، فانهم قالوا يكون حين يسلم عليه مستقبل القبلة ، ويجعل الحجرة عن يساره ، ولا يدنوا أكثر من ذلك ، وهذا والله أعلم قاله المتقدمون ، لأن المقصود به السلام المأمور به في القرآن كالصلاة عليه ، ليس المقصود به سلام التحية الذي يرد جوابه المسلم عليه ، فان هذا لايشرع فيه هذا البعد ، ولا يستقبل به القبلة ، ولا يسمع اذا كان بالصوت المعتاد .

وبالجملة : فمن قال إنه يسلم سلام التحية الذي يقصد به الرد فلا بد من تحديد مكان ذلك ، فان قال الى أن يسمع ويرد السلام فان حد في ذلك ذراعا أو ذراعين أو عشرة أذرع أو قال ان ذلك في المسجد كله أو خارج المسجد فلا بد له من دليل ، والاحاديث الثابتة عنه فيها أن الملائكة يبلغونه صلاة من صلى عليه وسلام من يسلم عليه ، ليس في شيء منها أنه يسمع بنفسه ذلك ، فمن زعم أنه يسمع ويرد من خارج الحجرة من مكان دون مكان فلا بد له من حد ، ومعلوم أنه ليس في ذلك حد شرعي وما أحد يحد في ذلك حدا الا عورض بمن يزيده أو ينقصه ولا فرق .

وأيضا فذلك يختلف باختلاف ارتفاع الاصوات وانخفاضها ، والسنة للمسلم

في السلام عليه خفض الصوت ، ورفع الصوت في مسجده منهى عنه بالسلام والصلاة وغير ذلك ؛ بخلاف المسلم من الحجرة ، فانه فرق ظاهـر بينه وبين المسـلم عليه من المسجد ، ثم السنةلمن دخل مسجده أن يخفض صوته ،فالمسلم عليه ان رفع الصوت أساء الادب برفع الصوت في المسجد ، وان لم يرفع لم يصل الصوت الى داخل الحجرة ، وهذا بخلاف السلام الذي أمر الله به ورسوله ، الذي يسلم الله على صاحبه كما يصلي على من صلى عليه ، فان هذا مشروع في كل مكان لايختص بالقبر •

وبالجملة : فهذا الموضع فيه نزاع قديم بين العلماء على كل تقدير ، فلم يكن عند أحد من العلماء الذين استحبوا سلام التحية في المسجد حديث في استحباب زيارة قبره يحتجون به ، فعلم أن هذه الاحاديث ليست مما يعرفه أهل العلم ،ولهذا لما تتبعت وجدت رواتها اما كذاب واما ضعيف سيء الحفظ ونحو ذلك كما قد بين في غير هذا الموضع ، وهذا الحديث الذي فيه (ما من مسلم يسلم علي الا رد اللـه علي روحي حتى أرد عليه السلام) قد احتج به أحمد وغيره من العلماء ، وقيل هو على شـرط مسلم ، وهو معروف من حديث حيوة بن شريح المصري الرجل الصالح الثقـة ، عن أبي صخر ؛ عن يزيد ابن عبد الله بن قسيـط ، عن أبي هريرة ، وأبو صخـر هذا متوسط ، ولهذا اختلف فيه عن يحيى بن معين ، فمرة قال هو ضعيف ووافقه النسائي ومرة قال لابأس به ووافقه أحمد ، فلو قدر أن هذا مخالف لما هو أصح منـه وجب تقديم ذلك عليه ، ولكن السلام على الميت ورده السلام على من سلم عليه قد جاء في غير هذا الحديث ، ولو أريد اثبات سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل هذا الحديث لكان هذا مختلفا فيه ، فالنزاع في اسناده وفي دلالـة متنه ، ومسلم روى بهذا الاسناد قوله صلى الله عليه وسلم : (من خرج مع جنازة من بيتها وصلى عليها ثم تبعها حتى تدفن كان له قيراطان من الاجر كل قيراط مثل أحد ، ومن صلى عليها ثم رجع كان له من الاجر مثل أحد) وهذا الحديث قد رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة وعائشة من غير هذا الطريق ، ومسلم قد يروى عن الرجـل في المتابعات مالا يرويه فيما انفرد به ، وهذا معروف منه في عدة رجال ؛ يفـرق بين من يروى عنه ماهو معروف من رواية غيره وبين من يعتمد عليه فيما ينفرد به ، ولهـذا كثير من أهل العلم يمتنعون أن يقولوا في مثل ذلك هو على شرط مسلم أو البخاري، كما بسط هذا في موضعه •

(الوجه الثامن) أنه لو كان في هذا الباب حديث صحيح لم يخف على الصحابة والتابعين بالمدينة ، ولو كان ذلك معروفا عندهم لم يكره أهل العلم بالمدينة مالك وغيره أن يقول القائل زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما كرهوا هذا القول دل على أنه ليس عندهم فيه أثر لا عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا عن أصحابه .

(الوجه التاسع) ان الذين كرهوا هذا القول والذين لم يكرهوه من العلماء متفقون على أن السفر الى زيارة قبره انما هو سفر الى مسجده ، ولو لم يقصد الا السفر الى القبر لم يمكنه أن يسافر الا الى المسجد ، لكن قد يختلف الحكم بنيته كما تقدم ، وأما زيارة قبره ـ كما هو المعروف في زيارة القبور ـ فهذا ممتنع غير مقدور ولا مشروع ، وبهذا يظهر أن الذين كرهوا أن يسموا هذا زيارة لقبره قولهم أولى بالصواب ، فان هذا ليس زيارة لقبره ولا فيه مايختص بالقبر ، بل كل مايفعل فانما هو عبادة يفعل في المساجد كلها أو في غير المساجد أيضا ، ومعلوم أن زيارة القبر لها اختصاص بالقبر ، ولما كانت زيارة قبره المشروعة انما هي سفر الى مسجده وعبادة في مسجده ليس فيها مايختص بالقبر كان قول من كره أن يسمى هذا زيارة لقبره أولى بالشرع والعقل واللغة ، ولم يبق الا السفر الى مسجده ، وهذا مشروع بالنص والاجماع ، والذين قالوا يستحب زيارة قبره انما أرادوا هذا ، فليس بين العلماء خلاف في المعنى بل في التسمية والاطلاق ، والمجيب لم يحك نزاعا في استحباب هذه الزيارة الشرعية التي تكون في مسجده ، وبعضهم يسميها زيارة لقبره ، وبعضهم يكره أن تسمى زيارة لقبره ، والمجيب يستحب مايستحب بالنص والاجماع ، وقد ذكر مافيه النزاع ، فكان الحاكي عنه خلاف هذا كاذبا مفتريا يستحق مايستحقه أمثاله من المفترين .

(قال المعترض المالكي) وتضافرت النصوص عن الصحابة والتابعين ، وعن السادة العلماء المجتهدين ، بالحض على ذلك والندب اليه ، والغبطة لمن سارع لذلك ودوام عليه ، حتى نحا بعضهم في ذلك الى الوجوب ، ورفعه عن درجة المباح والمندوب ، ولم يزل الناس مطبقين على ذلك قولا وعملا ، لايشكون في ندبه ولا يبغون عنه حولا ، وفي مسند ابن أبي شيبة (من صلى علي عند قبري سمعته ، ومن صلى علي نائيا سمعته) .

(قال الشيخ) هكذا في النسخة التي حضرت الي مكتوبة عن المعترض ، وقد صحح (ومن صلى علي نائيا سمعته)وهو غلط ، فانلفظ الحديث (من صلى عليعند قبري سمعته ، ومن صلى علي نائيا بلغته) هكذا ذكره الناس ، وهكذا ذكره القاضي عياض عن ابن أبي شيبة ، وهذا المعترض عمدته في مثل هذا كتاب القاضي عياض ، وهذا الحديث قد رواه البيهقي وغيره من حديث العلاء بن عمرو الحنفي ، حدثنا أبو عبد الرحمن عن الاعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال : (من صلى علي عند قبري سمعته ، ومن صلى علي نائيا بلغته) قال البيهقي أبو عبد الرحمن هذا هو محمد بن مروان السدي فيما أرى وفيه نظر . وقد مضى مايؤكده .

قلت : هو تبليغ صلاة أمته وسلامهم عليه ، كما في الاحاديث المعروفة ، مثل الحديث الذي في سنن أبي داود وغيره عن حسين الجعفي ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن أبي الاشعث الصنعاني ، عن أوس ابن أوس الثقفي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا علي من الصلاة فيه ، فان صلاتكم معروضة علي ، قالوا وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ــ يقولون بليت ــ فقال: ان الله حرم على الارض أن تأكل أجساد الانبياء) وهذا الحديث رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه ، ورواه أبو حاتم ، قال البيهقي : وله شواهد ، وروى حديثين عن ابن مسعود وأبي أمامة وله شواهد أكثر مما ذكر البيهقي .

(منها) مارواه ابن ماجة ، حدثنا عمرو بن سواد المصري ، حدثنا عبد الله بن وهب ، عن عمرو بنالحار ث ، عن سعيد ابن أبي هلال ، عن زيد بن أيمن ، عن عبادة بن نسي ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة ، فانه مشهود تشهده الملائكة ، وان أحدا لن يصلي علي الا عرضت علي صلاته حتى يفرغ منها ، قال قلت وبعد الموت ، قال وبعد الموت ، ان الله حرم على الارض أن تأكل أجساد الانبياء) ورواه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تهذيب الآثار من حديث سعيد بن أبي هلال كما تقدم .

(ومنها) مارواه أبو داود وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى

الله عليه وسلم أنه قال : (لاتجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبري عيدا ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم) وهذا له شواهد مراسيل من وجوه مختلفة يصدق بعضها بعضها •

(ومنها) مارواه سعيد بن منصور في سننه : حدثنا حبان بن علي ، حدثنا محمد بن عجلان عن أبي سعيد مولى المهري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لاتتخذوا بيتي عيدا ولا بيوتكم قبورا ، وصلوا علي حيث كنتم فان صلاتكم تبلغني) وقال سعيد : حدثنا عبد العزيز بن محمد ، أخبرني سهيل ابن أبي سهيل ، قال : رآني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عند القبر فناداني — وهو في بيت فاطمة يتعشى — فقال : هلم الى العشاء ، فقلت : لاأريده ،فقال : مالي رأيتك عند القبر ؟ فقلت :سلمت على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : اذا دخلت المسجد فسلم عليه ، ثم قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لاتتخذوا بيتي عيدا ، ولا بيوتكم مقابر ، لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيثما كنتم ، ماأنتم ومن بالاندلس منه الا سواء) ورواه اسمعيل بن اسحق القاضي في كتاب فضل الصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولفظه قال : مالي رأيتك وقفت ؟ قلت : وقفت أسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : اذا دخلت المسجد فسلم وذكر الحديث ولم يذكر قول الحسن ، وقال اسمعيل : حدثنا ابراهيم بن الحجاج عن وهيب عن أيوب السختياني قال : بلغني والله أعلم أن ملكا موكل بكل من صلى على النبي صلى الله عليه وسلم حتى يبلغه •

وأما السلام : ففي النسائي وغيره من حديث سفيان الثوري ، عن عبد الله ابن السائب ، عن زاذان ، عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (ان لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام) وفي الحديث الذي تقدم من رواية أبي يعلي الموصلي — وقد تقدم اسناده — عن علي بن الحسين ، أنه رأى رجلا يجيء الى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيدخل فيها فنهاه ، وقال : ألا أحدثكم حديثا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لاتتخذوا بيتي عيدا ولا بيوتكم قبورا فان تسليمكم يبلغني أينما كنتم) فهذه الاحاديث المعروفة عند أهل العلم التي جاءت من وجوه حسان يصدق بعضها بعضا ، وهي متفقة على أن من صلى عليه وسلم من أمته فان ذلك يبلغه ويعرض عليه،

وليس في شيء منها أنه يسمع صوت المصلى عليه والمسلم بنفسه ، انما فيها أن ذلك يعرض عليه ويبلغه صلى الله عليه وسلم تسليما •

ومعلوم أنه أراد بذلك الصلاة والسلام الذي أمر الله به ، سواء صلى عليه وسلم في مسجده أو مدينته أو مكان آخر ، فعلم أن ماأمر الله به من ذلك فانه يبلغه • وأما من سلم عليه عند قبره فانه يرد عليه ، وذلك كالسلام على سائر المؤمنين ، ليس هو من خصائصه ، ولا هو السلام المأمور به الذي يسلم الله على صاحبه عشرا كما يصلي على من صلى عليه عشرا ، فان هذا هو الذي أمر الله به في القرآن ، وهو لايختص بمكان دون مكان وقد تقدم حديث أبي هريرة أنه يرد السلام على من سلم عليه ، والمراد عند قبره ، لكن النزاع في معنى كونه عند القبر هل المراد في بيته كما يراد مثل ذلك في سائر ماأخبر به من سماع الموتى انما هو لمن كان عند قبورهم قريبا منها ، أو يراد به من كان في الحجرة كما قاله طائفة من السلف والخلف ؟ وهل يستحب ذلك عند الحجرة لمن قدم من سفر أو لمن أراده من أهل المدينة أو لايستحب بحال ؟ وليس الاعتماد في سماعه مايبلغه من صلاة أمته وسلامهم الا على هذه الاحاديث الثابتة • فأما ذاك الحديث وان كان معناه صحيحا فاسناده لايحتج به وانما يثبت معناه بأحاديث أخر ، فانه لايعرف الا من حديث محمد بن مروان السدي الصغير ، عن الاعمش ، كما ظنه البيهقي ، وما ظنه في هذا هو متفق عليه عند أهل المعرفة ، وهو عندهم موضوع على الاعمش • قال عباس الدوري عن يحيى بن معين محمد بن مروان ليس بثقة • وقال البخاري سكتوا عنه لايكتب حديثه البتة • وقال الجوزجاني ذاهب الحديث ، وقال النسائي متروك الحديث ، وقال صالح جزرة كان يضع الحديث، وقال أبو حاتم الرازي والازدي متروك الحديث ، وقال الدارقطني ضعيف ، وقال ابن حبان لايحل كتب حديثه الا اعتبارا ولا الاحتجاج به بحال ، وقال ابن عدي عامة مايرويه غير محفوظ والضعف على رواياته بين ، فهذا الكلام على ماذكره من الحديث مع أنا قد بينا صحة معناه بأحاديث أخر ، وهو لو كان صحيحا فانما فيه أنه يبلغ صلاة من صلى نائيا ، ليس فيه أنه يسمع ذلك كما قد وجدته منقولا عن هذا المعترض فان هذا لم يقله أحد من أهل العلم ولا يعرف في شيء من الحديث ، انما يقوله بعض الجهال ، يقولون انه يوم الجمعة وليلة الجمعة يسمع باذنيه صلاة من صلى عليه

فالقول بأنه يسمع ذلك من نفس المصلي باطل ، وانما في الاحاديث المعروفة أنه يبلغ ذلك ويعرض عليه ، وكذلك تبلغه الملائكة .

وقول القائل أنه يسمع الصلاة من بعيد ممتنع فانه ان أراد وصول صوت المصلي اليه فهذه مكابرة ، وان أراد أنه بحيث يسمع أصوات الخلائق من البعد فليس هذا الا لله رب العالمين الذي يسمع أصوات العباد كلهم ، قال تعالى : (أَمْ يَحسبُونَ أَنَّا لا نسْمَعُ سرَّهم ونَجْواهم بلى ورُسُلُنا لديهم يَكتبُونَ)[1] وقال (ما يكونُ منْ نَجْوى ثلاثة إلاّ هو رابعُهُم) الى قوله :(ولا أكثر إلاّ هوَ معهم أينما كانوا) الى قوله (إنَّ اللهَ بكُلِّ شيءٍ عليم)[2] وليس أحد من البشر بل ولا من الخلق يسمع أصوات العباد كلهم ، ومن قال هذا في بشر فقوله من جنس قول النصارى الذين يقولون ان المسيح هو الله ، وأنه يعلم مايفعله العباد ، ويسمع أصواتهم ويجيب دعائهم ، قال تعالى : (لقَدْ كفَرَ الذينَ قالوا إنَّ الله هوالمسيحُ ابنُ مريمَ وقال المسيحُ يا بَني إسرائيل اعبُدوا اللهَ ربِّي وربَّكم إنهُ منْ يُشرِكْ باللهِ فقدْ حرَّمَ اللهُ عليْه الجنَّة ومأواهُ النَّار وما للظَّالمينَ من أنصار . لقَدْ كفَرَ الذينَ قالوا إنّ اللهَ ثالثُ ثلاثة وما منْ إله إلاّ إلهٌ واحدٌ وإنْ لمْ ينتَهوا عمّا يقولون ليَمَسَّنَّ الَّذينَ كفَروا منهُم عذابٌ أليم . أفَلا يتوبونَ الى الله ويستَغْفرونهُ واللهَ غفورٌ رحيمٌ . ما المسيح ابنُ مريمَ إلاّ رسولٌ قدْ خلَت منْ قَبْله الرّسلُ وأمّهُ صدّيقَةٌ كانا يأكُلان الطّعامَ ، انظُرْ كيفَ نُبيِّنُ لَهُم الايات ثُمَّ انظُر أنّى يُؤفَكونَ . قُل أتَعبُدونَ منْ دونِ الله ما لا يَمْلكُ لكُم ضَراً ولا نفْعاً والله هو السَّميعُ العليم)[3] فلا المسيح ولا غيره من البشر ولا أحد من الخلق يملك لأحد من الخلق ضرا ولا نفعا بل ولا لنفسه ، وان كان أفضل الخلق ، قال تعالى : (قل اني لا أملكُ لكُم ضَراً ولا رَشَداً وقال تعالى (قُلْ لا أقول لكُم عندي خزائنُ اللَّهِ ولا أَعلَمُ الغيْب)[4] الاية

---

(١) الزخرف : ٨٠ (٢) المجادلة : ٧ (٣) المائدة : ٧٢ ـ ٧٦ (٤) الانعام : ٥٠

وقال تعالى (قُل لا أَملِكُ لنَفسي نفْعاً ولاضراً إلاَّ ماشاءاللّهُ ولوْ كُنتُ أَعلَمُ الغَيب لَاستَكْثَرتُ منَ الخَيْرِ وما مسَّني السُّوءُ انْ أَنَا الاَّ نذيرٌ وبشيرٌ لقومٍ يُؤْمنون)[1]

وقوله : (إلا ماشاء الله) فيه قولان : قيل : هو استثناء متصل ، وأنه يملك من ذلك ما ملكه الله ، وقيل : هو منقطع والمخلوق لايملك لنفسه نفعا ولا ضرا بحال فقوله : (الا ماشاء الله) استثناء منقطع ، أي لكن يكون من ذلك ماشاء الله ، كقول الخليل (ولا أَخاف ما تُشركون به الاَّ أَن يشاء ربي شيْأً)[2] أي لاأخاف أن يفعلوا شيئا لكن ان شاء ربي شيئا كان والا لم يكن والا فهم لايفعلون شيئا وكذلك قوله : (ولايملِك الذين يَدْعُون منْ دونهِ الشَّفاعة ، ثم قال(الا من شهدَ بالحقِّ وهم يعلَمون)[3] تنفعه الشهادة وتنفع شهاداته ، كقوله : (ولا تَنفعُ الشَّفاعة عندَهُ الاَّ لمنْ أَذنَ لهُ)[4] وقال (قُل لِلَّه الشَّفاعة جميعاً)[5] وبسط هذا له موضع آخر •

قال الشيخ : وأما ماذكره من تضافر النقول عن السلف بالحض على ذلك واطباق الناس عليه قولا وعملا •

فيقال : الذي اتفق عليه السلف والخلف وجاءت به الاحاديث الصحيحة هو السفر الى مسجده ، والصلاة والسلام عليه في مسجده ، وطلب الوسيلة له ، وغير ذلك مما أمر الله به ورسوله ، فهذا السفر مشروع باتفاق المسلمين سلفهم وخلفهم ، وهذا هو مراد العلماء الذين قالوا يستحب السفر الى زيارة قبر نبينا صلى الله عليه وسلم ، فان مرادهم بالسفر لزيارته هو السفر الى مسجده ، وذكروا في منسك الحج أنه يستحب زيارة قبره ، وهذا هو مراد من ذكر الاجماع على ذلك ، كما ذكر القاضي عياض •

قال : وزيارة قبره سنة مجمع عليها ، وفضيلة مرغب فيها ، فمرادهم الزيارة التي بينوها وشرحوها كما ذكر ذلك القاضي عياض في هذا الفصل فصل زيارته ، قال : وقال اسحق بن ابراهيم الفقيه : ومما لم يزل شأن من حج المرور بالمدينة والقصد الى الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، والتبرك برؤية روضته ومنبره ، وقبره ومجلسه ، وملامس يديه ومواطيء قدميه ، والعمود الذي كان يستند اليه ، ونزل

---

(١) الاعراف : ١٨٨ (٢) الانعام : ٨٠ (٣) الزخرف : ٨٦ (٤)سبأ : ٢٣ (٥) الزمر : ٤٤

جبريل بالوحي عليه فيه ، وبمن عمره وقصده من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، والاعتبار بذلك كله •

قلت وذلك أن لفظ زيارة قبره ليس المراد بها نظير المراد بزيارة قبر غيره ، يوصل اليه ويجلس عنده ، ويتمكن الزائر مما يفعله الزائرون للقبور عندها من سنة وبدعة ، وأما هو صلى الله عليه وسلم فلا سبيل لأحد أن يصل الا الى مسجده لايدخل أحد بيته ، ولا يصل الى قبره ، بل دفنوه في بيته ، بخلاف غيره فانهم دفنوه في الصحراء ، كما في الصحيحين عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في مرض موته : (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر مافعلوا : قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجدا) فدفن في بيته لئلا يتخذ قبره مسجدا ولا وثنا ولا عيدا ، فان في سنن أبي داود من حديث أحمد بن صالح عن عبد الله ابن نافع ، أخبرني ابن أبي ذئب ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : (لاتجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبري عيدا ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم) وفي الموطأ وغيره عنه أنه قال : (اللهم لاتجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وفي صحيح مسلم عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس : (إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فاني أنهاكم عن ذلك) فلما لعن من يتخذ القبور مساجد تحذيرا لأمته من ذلك ونهاهم عن ذلك ونهاهم أن يتخذوا قبره عيدا دفن في حجرته لئلا يتمكن أحد من ذلك ، وكانت عائشة ساكنة فيها فلم يكن في حياتها أحد يدخل لذلك ، إنما يدخلون اليها هي ، ولما توفيت لم يبق بها أحد ، ثم لما أدخلت في المسجد سدت وبنى الجدار البراني عليها ، فما بقي أحد يتمكن من زيارة قبره كالزيارة المعروفة عند قبر غيره ، سواء كانت سنية أو بدعية ، بل إنما يصل الناس الى مسجده •

ولم يكن السلف يطلقون على هذا زيارة لقبره ، ولا يعرف عن أحد من الصحابة لفظ زيارة قبره البتة ، ولم يتكلموا بذلك ، وكذلك عامة التابعين لايعرف هذا في كلامهم ، فان هذا المعنى ممتنع عندهم فلا يعبروا عن وجوده وهو قد نهى عن اتخاذ بيته وقبره عيدا ، وسأل الله تعالى أن لايجعل وثنا ، ونهى عن اتخاذ القبور مساجد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ولهذا كره مالك وغيره أن يقال زرنا قبر النبي صلى الله عليه

وسلم ، ولو كان السلف ينطقون بهذا لم يكرهه مالك وقد باشر التابعين بالمدينة ، وهو أعلم الناس بمثل ذلك .

ولو كان في هذا حديث معروف عن النبي صلى الله عليه وسلم لعرفه هؤلاء ، ولم يكره مالك وأمثاله من علماء المدينة الاخبار بلفظ تكلم به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد كان رضي اللهعنه يتحرى ألفاظ الرسول في الحديث فكيف يكره النطق بلفظه ، لكن طائفة من العلماء سموا هذا زيارة لقبره وهم لايخالفون مالكا ومن معه في المعنى ، بل الذي يستحبه أولئك من الصلاة والسلام وطلب الوسيلة ونحو ذلك في مسجده يستحبه هؤلاء ، لكن هؤلاء سموا هذا زيارة لقبره وأولئك كرهوا أن يسموا هذا زيارة لقبره ، وقد حدث من بعض المتأخرين في ذلك بدع لم يستحبها أحد من الأئمة الاربعة ، كسؤاله الاستغفار ، وزاد بعض جهال العامة ماهو محرم أو كفر باجماع المسلمين كالسجود للحجرة والطواف بها وأمثال ذلك مما ليس هذا موضعه ، ومبدأ ذلك من الذين ظنوا أن هذا زيارة لقبره ، وظن هؤلاء أن الأنبياء والصالحين تزار قبورهم لدعائهم والطلب منهم واتخاذ قبورهم أوثانا ، حتى قد يفضلون تلك البقعة على المساجد ، وان بني عليها مسجد فضلوه على المساجد التي بنيت لله ، وحتى قد يفضلون الحج الى قبر من يعظمونه على الحج الى البيت العتيق، الى غير ذلك مما هو كفر وردة عن الاسلام باتفاق المسلمين .

فالذي تضافرت به النقول عن السلف قاطبة وأطبقت عليه الامة قولا وعملا هو السفر الى مسجده المجاور لقبره ، والقيام بما أمر الله به من حقوقه في مسجده ، كما يقام بذلك في غير مسجده ، لكن مسجده أفضل المساجد بعد المسجد الحرام عند الجمهور ، وقيل : إنه أفضل مطلقا كما نقل عن مالك وغيره ، ولم يتطابق السلف والخلف على اطلاق زيارة قبره ، ولا ورد بذلك حديث صحيح ولا نقل معروف عن أحد من الصحابة ، ولا كان الصحابة المقيمون بالمدينة من المهاجرين والانصار اذا دخلوا المسجد وخرجوا منه يجيئون الى القبر ويقفون عنده ويزورونه ، فهذا لم يعرف عن أحد من الصحابة ، وقد ذكر مالك وغيره أن هذا من البدع التي لم تنقل عن السلف وان هذا منهى عنه ، وهذا الذي قاله مالك مما يعرفه أهل العلم الذين لهم عناية بهذا الشأن ، يعرفون أن الصحابة لم يكونوا يزورون قبره لعلمهم بأنه قد نهى عن ذلك ، ولو كان قبره يزار كما تزار القبور قبور أهل البقيع والشهداء شهداء أحد لكان الصحابة يفعلون ذلك : إما بالدخول الى حجرته ، واما بالوقوف عند قبره

اذا دخلوا المسجد ، وهم لم يكونوا يفعلون لا هذا ولا هذا ، بل هذا من البدع كما بين ذلك أئمة العلم ، وهذا كما ذكره القاضي عياض ، وهو الذي قال : زيارة قبره سنة مجمع عليها ، وفضيلة مرغب فيها ، وهو في هذا الفصل ذكر عن مالك أنه كره أن يقال : زرنا قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكرفيه أيضا :قال مالك في المبسوط وليس يلزم من دخل المسجد وخرج منه من أهل المدينة الوقوف بالقبر وإنما ذلك للغرباء ، وقال مالك في المبسوط أيضا : ولا بأس لمن قدم من سفر أن يقف على قبر النبي صلى الله عليه وسلم ويدعو له ولأبي بكر وعمر ، قيل له : فان ناسا من أهل المدينة لايقدمون من سفر ولا يريدونه يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر وربما وقفوا في الجمعة أو الايام المرة والمرتين أو أكثر عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة ، فقال : لم يبلغني هذا عن أهل الفقه ببلدنا وتركه واسع ، ولن يصلح آخر هذه الامة الا ماأصلح أولها ، ولم يبلغني عن أول هذه الامة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك ويكره الا لمن جاء من سفر أو أراده ، فقد بين مالك أنه لم يبلغه عن السلف من الصحابة المقيمين بالمدينة أنهم كانوا يقفون بالقبر عند دخول المسجد الا لمن قدم من سفر ، مع أن الذي يقصد السفر فيه نزاع مذكور في غير هذا الموضع •

وقد ذكر القاضي عياض عن أبي الوليد الباجي أنه احتج لما كرهه مالك ، فقال أهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : (اللهم لاتجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وقوله : (لاتتخذوا قبري عيدا) واذا كانت هذه الزيارة مما نهى عنها في الاحاديث فالصحابة أعلم بنهيه وأطوع له ، فلهذا لم يكن بالمدينة منهم من يزور قبره باتفاق العلماء ، وهذا الوقوف الذي يسميه غير مالك زيارة لقبره ــ الذي بين مالك وغيره أنه بدعة لم يفعلها السلف ــ هي زيارة مقصود صاحبها الصلاة والسلام عليه ، كما بين ذلك في السؤال لمالك ، لكن لما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لاتتخذوا قبري عيدا ، وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني) وروى مثل ذلك في السلام عليه : علم أنه كره تخصيص تلك البقعة بالصلاة والسلام ، بل يصلى عليه ويسلم في جميع المواضع ، وذلك واصل اليه ، فاذا كان مثل هذه الزيارة للقبر بدعة منهيا عنها فكيف بمن يقصد مايقصده من قبور الانبياء والصالحين ليدعوهم ويستغيث بهم ليس قصده الدعاء لهم ، ومعلوم أن هذا أعظم في كونه بدعة وضلالة •

فالسلف والخلف إنما تطابقوا على زيارة قبره بالمعنى المجمع عليه من قصد

مسجده والصلاة فيه كما تقدم ، وهذا فرق بينه وبين سائر قبور الانبياء والصالحين، فانه يشرع السفر الى عند قبره لمسجده الذي أسس على التقوى ، فهذا السفر مشروع باتفاق المسلمين ، والصلاة مقصورة فيه باتفاق المسلمين ، ومن قال ان هذا السفر لاتقصر فيه الصلاة فانه يستتاب فان تاب والا قتل ، وليس ذلك سفرا لمجرد الزيارة بل لابد أن يقصد إتيان المسجد والصلاة فيه ، وإن لم يقصد الا القبر فهذا يندرج في كلام المجيب ، حيث قال : أما من سافر لمجرد زيارة قبور الانبياء والصالحين فهل يجوز له قصر الصلاة ؟ على قولين معروفين ، فهو ذكر القولين فيمن سافر لمجرد قصد زيارة القبور ، أما من سافر لقصد الصلاة في مسجده عند حجرته التي فيهاقبره فهذا سفر مشروع مستحب باتفاق المسلمين ، وقد تقدم قول مالك للسائل الذي سأله عمن نذر أن يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ان أراد مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فليأته وليصل فيه ، وإن كان إنما أراد القبر فلا يفعل للحديث الذي جاء (لاتعمل المطي الا الى ثلاثة مساجد) فالسائل سأله عمن نذر أن يأتي الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ففصل مالك في الجواب بين أن يريد القبر أو المسجد مع أن اللفظ انما هو نذر أن يأتي القبر ، فعلم أن لفظ اتيان القبر وزيارة القبر ، والسفر الى القبر ونحو ذلك يتناول من يقصد المسجد وهذا مشروع ، ويتناول من لم يقصد إلا القبر وهذا منهى عنه كما دلت عليه النصوص وبينه العلماء مالك وغيره •

فمن نقل عن السلف أنهم استحبوا السفر لمجرد القبر دون المسجد بحيث لايقصد المسافر المسجد ولا الصلاة فيه بل إنما يقصد القبر كالصورة التي نهى عنها مالك : فهذا لايوجد في كلام أحد من علماء السلف استحباب ذلك فضلا عن اجماعهم عليه ، وهذا الموضع يجب على المسلمين عامة وعلمائهم تحقيقه ، ومعرفة ماهو المشروع والمأمور به الذي هو عبادة لله وحده ، وطاعة له ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبر وتقوى وقيام بحق الرسول ، وما هو شرك وبدعة وضلالة منهى عنها ، لئلا يلتبس هذا بهذا ، فان السفر الى مسجد المدينة مشروع باتفاق المسلمين ، لكن إنما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امريء مانوى ، وقد تقدم عن مالك وغيره أنه اذا نذر اتيان المدينة ان كان قصده الصلاة في المسجد وإلا لم يوف بنذره ، وأما اذا نذر اتيان المسجد لزمه ، لأنه انما يقصد الصلاة فلم يجعل السفر الى المدينة سفرا مأمورا به الا سفر من قصد الصلاة في المسجد ، وهو الذي يؤمر به الناذر بخلاف غيره ،

لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الاقصى) وجعل من سافر الى المدينة أو الى بيت المقدس لغير العبادة الشرعية في المسجدين سفرا منهيا عنه لايجوز أن يفعله وان نذره ، وهذا قول جمهور العلماء •

فمن سافر الى مدينة الرسول أو بيت المقدس لقصد زيارة ما هناك من القبور أو من آثار الانبياء والصالحين كان سفره محرما عند مالك والاكثرين ، وقيل انه سفر مباح ليس بقربة كما قاله طائفة من أصحاب الشافعي وأحمد ، وهو قول ابن عبد البر ، وما علمنا أحدا من علماء المسلمين المجتهدين الذين تذكر أقوالهم في مسائل الاجماع والنزاع ذكر أن ذلك مستحب ، فدعوى من ادعى أن السفر الى مجرد القبور مستحب عند جميع علماء المسلمين كذب ظاهر ، وكذلك ان ادعى أن هذا قول الأئمة الاربعة أو جمهور علماء المسلمين فهو كذب بلا ريب ، وكذلك ان ادعى أن هذا قول عالم معروف من الائمة المجتهدين وان قال : هذا قول المتأخرين أمكن أن يصدق في ذلك وهو ــ بعد أن تعرف صحة نقله ــ نقل قولا شاذا مخالفا لاجماع السلف ، مخالفا لنصوص الرسول ،فكفى بقوله فسادا أن يكون قولا مبتدعا في الاسلام مخالفا للسنة والجماعة ، لما سنه الرسول صلى الله عليه وسلم ولما أجمع عليه سلف الامة وأئمتها •

والنقل عن علماء السلف يوافق ما قال، مالك ، فمن نقل عنهم ضد ذلك فقد كذب ، وأقل مافي الباب أن يجعل ممن طولب بصحة نقله والالفاظ المجملة والتي يقولها طائفة قد عرف مرادهم ، وعياض نفسه الذي ذكر أن زيارته سنة مجمع عليها قد بين الزيارة المشروعة في ذلك ، وقد ذكر عياض في قوله (لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد) ماهو ظاهر مذهب مالك أن السفر الى غيرها محرم ، فهو أيضا يقول ان السفر لمجرد زيارة القبور كما قاله مالك وسائر أصحابه مع ماذكره من استحباب الزيارة الشرعية مع ماذكر من كراهة مالك أن يقول القائل زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم والله أعلم •

ثم ان المعترض المالكي احتج في زيارة قبره صلى الله عليه وسلم بالقياس على زيارة الحي ، فقال المعارض المناقض : وروى مسلم في صحيحه في الذي سافر لزيارة أخ له في الله ، ولفظ الحديث : (أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى ، فارصد الله

على مدرجته ملكا ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخا لي في تلك القرية ، قال : هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال لا إلا أني أحببته في الله ، فقال : اني رسول الله اليك بأن الله أحبك كما أحببته فيه) ، وفي موطأ مالك عن معاذ بن جبل في حديث ذكر فيه (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ــ أي عن الله ــ وجبت محبتي للمتحابين في ، والمتجالسين في والمتزاورين في والمتباذلين في) قال : فقد علمت أيها الاخ بهذا فضيلة زيارة الاخوان ، وما أعد الله بها للزائرين من الفضل والاحسان فكيف بزيارة من هو حي الدارين ، وامام الثقلين ، الذي جعل الله حرمته في حال مماته كحرمته في حال حياته ، ومن شرفه الحق بما أعطاه من جميع صفاته ، ومن هدانا ببركته الى الصراط المستقيم ، وعصمنا به من الشيطان الرجيم ، ومن هو آخذ بحجزنا أن نقتحم في نار الجحيم ، ومن هو بالمؤمنين رؤوف رحيم •

(قال الشيخ ابن تيمية) والجواب : أما زيارة الاخ الحي في الله كما في الحديث فهذا نظير زيارته في حياته ، يكون الانسان بذلك من أصحابه وهم خير القرون ، وأما جعل زيارة القبر كزيارته حيا كما قاسه هذا المعترض فهذا قياس ماعلمت أحدا من علماء المسلمين قاسه ، ولا علمت أحدا منهم احتج في زيارة قبره بالقياس على زيارة الحي المحبوب في الله ، وهذا من أفسد القياس فانه من المعلوم أن من زار الحي حصل له بمشاهدته وسماع كلامه ومخاطبته وسؤاله وجوابه وغير ذلك مالا يحصل لمن لم يشاهده ولم يسمع كلامه ، وليس رؤية قبره أو رؤية ظاهر الجدار الذي بني على بيته بمنزلة رؤيته ومشاهدته ومجالسته وسماع كلامه ، ولو كان هذا مثل هذا لكان كل من زار قبره مثل واحد من أصحابه ، ومعلوم أن هذا من أبطل الباطل •

وأيضا : فالسفر اليه في حياته اما أن يكون لما كانت الهجرة اليه واجبة كالسفر قبل الفتح فيكون المسافر اليه مسافرا للمقام عنده بالمدينة مهاجرا من المهاجرين اليه ، وهذا السفر انقطع بفتح مكة ، فقال صلى الله عليه وسلم : (لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية) ولهذا لما جاء صفوان بن أمية مهاجرا أمره أن يرجع الى مكة ، وكذلك سائر الطلقاء كانوا بمكة لم يهاجروا ، واما أن يكون المسافر اليه وافدا اليه ليسلم ويتعلم منه مايبلغه قومه ، كالوفود الذين كانوا يفدون عليه لاسيما سنة تسع وعشر سنة الوفود ، وقد أوصى في مرضه بثلاث ، فقال : (أخرجوا النصارى من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفود بنحو ماكنت أجيزهم) ومن الوفود وفد عبد القيس لما قدموا عليه ورجعوا الى قومهم بالبحرين ، لكن هؤلاء أسلموا قديما قبل فتح

مكة ، وقالوا : لانستطيع أن نأتيك الا في شهر حرام ، لأن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر ــ وهم أهل نجد كأسد وغطفان وتميم وغيرهم ، فانهم لم يكونوا قد أسلموا بعد ــ وكان السفر اليه في حياته لتعلم الاسلام والدين ، ولمشاهدته وسماع كلامه وكان خيرا محضا ، ولم يكن أحد من الانبياء والصالحين عبد في حياته بحضرته فانه كان ينهى من يفعل ماهو دون ذلك من المعاصي فكيف بالشرك ، كما نهى الذين سجدوا له ، ونهى الذين صلوا خلفه قياما ، وقال : (إن كدتم تفعلون فعل فارس والروم فلا تفعلوا) رواه مسلم ، وفي المسند باسناد صحيح عن أنس قال : (لم يكن شخص أحب اليهم من رسول صلى الله عليه وسلم ، وكانوا اذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك) وفي الصحيح أن جارية قالت عنده وفينا نبي يعلم مافي غد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (دعي هذا وقولي الذي كنت تقولين) ومثل هذا كثير من نهيه عن المنكر بحضرته ، فكل من رآه في حياته لم يتمكن أن يفعل بحضرته منكرا يقر عليه ــ الى أن قال ــ ومعلوم أنه لو كان حيا في المسجد لكان قصده في المسجد من أفضل العبادات ، وقصد القبر الذي اتخذ مسجدا مما نهى عنه ولعن أهل الكتاب على فعله ، وأيضا : فليس عند قبره مصلحة من مصالح الدين وقربة الى رب العالمين إلا وهي مشروعة في جميع البقاع ، فلا ينبغي أن يكون صاحبها غير معظم للرسول صلى الله عليه وسلم التعظيم التام والمحبة التامة الا عند قبره ، بل هو مأمور بهذا في كل وقت .

وزيارته في حياته مصلحة راجحة لامفسدة فيها ، والسفر الى القبر بمجرده بالعكس مفسدة راجحة لا مصلحة فيها ، بخلاف السفر الى مسجده فانه مصلحة راجحة ، وهنا يفعل من حقوقه مايفعل في سائر المساجد .

وهذا مما يتبين به كذب الحديث الذي يقال فيه : (من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي) وهذا الحديث معروف من رواية حفص بن سليمان الغاضري صاحب عاصم ، عن ليث ابن أبي سليم ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من حج فزار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي) وقد رواه عنه غير واحد وهو عندهم معروف من طريقه ، وهو عندهم ضعيف في الحديث الى الغاية حجة في القراءة ، قال يحيى بن معين حفص ليس بثقة ، وقال البخاري تركوه ــ ثم سرد الشيخ كلام الائمة فيه وقال ــ وقد رواه الطبراني في المعجم من حديث الليث ابن أبي سليم عن زوجة جده عائشة عن ليث ، وهذا الليث وزوجة جده

مجهولان ، ونفس المتن باطل ، فان الاعمال التي فرضها الله ورسوله لايكون الرجل بها مثل الواحد من الصحابة ، بل في الصحيحين عنه أنه قال : (لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) فالجهاد والحج ونحوهما أفضل من زيارة قبره باتفاق المسلمين ، ولا يكون الرجل بها كمن سافر اليه في حياته ورآه ، كيف وذلك اما أن يكون مهاجرا اليه كما كانت الهجرة قبل الفتح أو من الوفود الذين كانوا يفدون اليه يتعلمون الاسلام ويبلغونه عنه الى قومهم ، وهذا عمل لايمكن أحدا بعدهم أن يفعل مثلهم ، ومن شبه من زار قبر شخص بمن كان يزوره في حياته فهو مصاب في عقله ودينه .

والزيارة الشرعية لقبر الميت مقصودها الدعاء له والاستغفار ؛ كالصلاة على جنازته .

والدعاء المشروع المأمور به في حق نبينا ــ كالصلاة عليه ، والسلام عليه ، وطلب الوسيلة له ــ مشروع في جميع الامكنة لايختص بقبره ، فليس عند قبره عمل صالح تمتاز به تلك البقعة ، بل كل عمل صالح يمكن فعله في سائر البقاع ، لكن مسجده أفضل من غيره ، فالعبادة فيه فضيلة بكونها في مسجده ، كما قال : (صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيماسواه الا المسجد الحرام) والعبادات المشروعة فيه بعد دفنه مشروعة فيه قبل أن يدفن النبي صلى الله عليه وسلم في حجرته ، وقبل أن تدخل حجرته في المسجد ، ولم يتجدد بعد ذلك فيه عبادة غير العبادات التي كانت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وغير ماشرعه هو لأمته ورغبهم فيه ودعاهم اليه، وما يشرع للزائر من صلاة وصيام ودعاء له وثناء عليه كل ذلك مشروع في مسجده في حياته ، وهي مشروعة في سائر المساجد ، بل وفي سائر البقاع التي تجوز فيها الصلاة ، وهو صلى الله عليه وسلم قد جعلت له ولأمته الارض مسجدا وطهورا ، فحيث ماأدركت أحدا الصلاة فليصل ، فانه مسجد ، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم ، ومن ظن أن زيارة القبر تختص بجنس من العبادة لم تكن مشروعة في المسجد وانما شرعت لأجل القبر فقد أخطأ ، لم يقل هذا أحد من الصحابة والتابعين ، وانما غلط في هذا بعض المتأخرين ، وغاية مانقل عن بعض الصحابة كابن عمر أنه كان اذا قدم من سفر يقف عند القبر ويسلم .

وجنس السلام عليه مشروع في المسجد وغير المسجد ، قبل السفر وبعده ،

وأما كونه عند القبر فهذا كان يفعله ابن عمر اذا قدم من سفر ، وكذلك الذين استحبوه من العلماء استحبوه للصادر والوارد من المدينة واليها من أهلها ، وللوارد والصادر من المسجد من الغرباء ، مع أن أكثر الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك ، ولا فرق أكثر السلف بين الصادر والوارد ، بل كلهم ينهون عما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قال أبو الوليد الباجي : انما فرق بين أهل المدينة وغيرها لأن الغرباء قصدوا لذلك ، وأهل المدينة مقيمون بها ولم يقصدوها من أجل القبر والتسليم ، قال: وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (اللهم لاتجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وقال (لاتجعلوا قبري عيدا) وهذا الذي ذكره من أدلة من سوى في النهي ، فان قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (لاتجعلوا ولا تتخذوا بيتي عيدا) نهى لكل أمته أهل المدينة والقادمين اليها ، وكذلك نهيه عن اتخاذ القبور مساجد ، وخبره بأن غضب الله اشتد على من فعل ذلك : هو متناول للجميع ، وكذلك دعاؤه بأن لايتخذ قبره وثنا عام ، وما ذكره من أن الغرباء قصدوا لذلك تعليق على العلة ضد مقتضاها ، فان القصد لذلك منهى عنه ، كما صرح به مالك وجمهور أصحابه ، وكما نهى عنه ، واذا كان منهيا عنه أو ليس بقربة لم يشرع الاعانة عليه .

وابن عمر لم يكن يسافر الى المدينة لأجل القبر بل المدينة وطنه ، فكان يخرج منها لبعض الامور ثم يرجع الى وطنه فيأتي المسجد فيصلي فيه ويسلم .

فأما السفر لأجل القبور فلا يعرف عن أحد من الصحابة ، بل ابن عمر كان يقدم الى بيت المقدس ولا يزور قبر الخليل صلى الله عليه وسلم ، وكذلك أبوه عمر رضي الله عنه ومن معه من المهاجرين والانصار قدموا الى بيت المقدس ولم يذهبوا الى قبر الخليل عليه السلام ، وكذلك سائر الصحابة الذين كانوا ببيت المقدس وسائر أهل الشام لم يعرف عن أحد منهم أنه سافر الى قبر الخليل عليه السلام ولا غيره ، كما لم يكونوا يسافرون الى المدينة لأجل القبر ، وما كان قربة للغرباء فهو قربة لأهل المدينة وما لم يكن قربة لهم لم يكن قربة لغيرهم ، كاتخاذ بيته عيدا ، واتخاذ قبره وقبر غيره مسجدا ، وكالصلاة الى الحجرة والتمسح بها ، والصاق البطن بها والطواف بها ،وغير ذلك مما يفعله جهال القادمين ، فان هذا — باجماع المسلمين — ينهى عنه الغرباء كما ينهى عنه أهل المدينة ، ينهون عنه صادرين وواردين باتفاق المسلمين .

وبالجملة فجنس الصلاة والسلام عليه والثناء عليه صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك مما استحبه بعض العلماء عند القبر للواردين والصادرين هو مشروع فيمسجده وسائر المساجد ، وأما ما كان سؤالا له فهذا لم يستحبه أحد من السلف لا الأئمة الاربعة ولا غيرهم •

ثم بعض من يستحب هذا من المتأخرين يدعوا به مع البعد فلا يختص هذا عندهم بالقبر ، وأما نفس بيته عند قبره فلا يمكن أحدا الوصول ، ولم يشرع هناك عمل يكون هناك منه في غيره ، ولو شرع لفتح باب الحجرة للامة ، بل قد قال : (لاتتخذوا بيتي عيدا ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيثما كنتم) صلوات الله وسلامه عليه •

وقد تقدم مارواه سعيد بن منصور في سننه عن عبد العزيز الدراوردي ، عن سهيل بن أبي سهيل ، قال : رآني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب فناداني ، فقال : مالي رأيتك عند القبر ؟ فقلت : سلمت على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : اذا دخلت المسجد فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لاتتخذوا بيتي عيدا ، وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني ماأنتم ومن بالاندلس الا سواء) وكذلك سائر الصحابة الذين كانوا ببيت المقدس وغيرها من الشام ، مثل معاذ بن جبل ، وأبي عبيدة ابن الجراح ،وعبادة ابن الصامت ، وأبي الدرداء وغيرهم : لم يعرف عن أحد منهم أنه سافر لقبر من القبور التي بالشام لاقبر الخليل ولا غيره ، كما لم يكونوا يسافرون الى المدينة لأجل القبر ، وكذلك الصحابة الذين كانوا بالحجاز والعراق وسائر البلاد ، كما قد بسطنا هذا في غير هذا الموضع •

(فان قيل) الزائر في الحياة انما أحبه الله لكونه يحبه في الله ، والمؤمنون يحبون الرسول صلى الله عليه وسلم أعظم ،وكذلك يحبون سائر الانبياء والصالحين، فاذا زاروهم أثيبوا على هذه المحبة •

(قيل) حب الرسول من أعظم واجبات الدين ، وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، ومن يحب المرء لايحبه الا لله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد اذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار) وفي الحديث

الصحيح عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين) رواه البخاري عن أبي هريرة ، قال والذي نفسي بيده ، وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن هشام قال : (كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر فقال : يارسول الله لأنت أحب الي من كل شيء الا نفسي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب اليك من نفسك ، فقال عمر : فانه الآن والله لأنت أحب الي من نفسي ، قال: الآن ياعمر) وتصديق ذلك في القرآن قوله : (النَّبِي أَولى بالمؤمنين من أنفسهم)[1] وقوله : (قُلْ إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادَها ومساكنُ ترضونها أحبَّ اليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربصوا حتى يأتي اللهُ بأمره والله لايهدي القوم الفاسقين)[2] وقال : (لا تجدُ قوماً يؤمنونَ بالله واليوم الاخرِ يوادّونَ من حادَّ الله ورسولَه ولو كانوا آباءَهم او أبناءَهم او إخوانَهم او عشيرتَهم اولئك كتبَ في قلوبهم الايمانَ وأيدَهم بروحٍ منْهُ)[3] وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : (ما من مؤمن الا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة اقرؤا ان شئتم : النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) وذكر الحديث ، وفي حديث آخر (لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) لكن حبه وطاعته وتعزيره وتوقيره وسائر ماأمر الله به من حقوقه مأمور به في كل مكان ، لايختص بمكان دون مكان ، وليس من كان في المسجد عند القبر بأولى بهذه الحقوق ووجوبها عليه ممن كان في موضع آخر .

ومعلوم أن مجرد زيارة قبره كالزيارة المعروفة للقبور غير مشروعة ولا ممكنة ، ولو كان في زيارة قبره عبادة زائدة للامة لفتح باب الحجرة ومكنوا من فعل تلك العبادة عند قبره ، وهم لم يمكنوا الا من الدخول الى مسجده ، والذي يشرع في مسجده يشرع في سائر المساجد ، لكن مسجده أفضل من سائرها غير المسجد الحرام على نزاع في ذلك ، وما يجده المسلم في قلبه من محبته والشوق اليه والانس بذكره

---

(1) الا حزاب : ٦ (2) التوبة : ٢٤ (3) المجادلة : ٢٢

وذكر أحواله فهو مشروع له في كل مكان ، وليس في مجرد زيارة ظاهر الحجرة مايوجب عبادة لاتفعل بدون ذلك ، بل نهى عن أن يتخذ ذلك المكان عيدا ، وأمر أن يصلى عليه حيث كان العبد ويسلم عليه ، فلا يخص بيته وقبره لابصلاة عليه ولاتسليم عليه فكيف بما ليس كذلك ، واذا خص قبره بذلك صار ذلك في سائر الامكنة — دون ماهو عند قبره — ينقص حبه وتعظيمه وتعزيره وموالاته والثناء عليه عند غير قبره عما يفعل عند قبره ، كما يجده الناس في قلوبهم اذا رأوا من يحبونه ويعظمونه ، يجدون في قلوبهم عند قبره مودة له ورحمة ومحبة أعظم مما يكون بخلاف ذلك ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو الواسطة بينهم وبين الله في كل مكان وزمان ، فلا يؤمرون بما يوجب نقص محبتهم وايمانهم في عامة البقاع والازمنة ، مع أن ذلك لو شرع لهم لاشتغلوا بحقوقهم عن حقه ، واشتغلوا بطلب الحوائج منه كما هو الواقع ، فيدخلون في الشرك بالخالق وفي ترك حق المخلوق ، فينقص تحقيق الشهادتين : شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمداً رسول الله .

وأما ماشرعه لهم من الصلاة والسلام عليه في كل مكان ، وأن لايتخذوا بيته عيدا ولا مسجدا ، ومنعهم من أن يدخلوا اليه ويزوروه كما تزار القبور : فهذا يوجب كمال توحيدهم للرب تبارك وتعالى ، وكمال ايمانهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ومحبته وتعظيمه حيث كانوا ، واهتمامهم بما أمروا به من طاعته ، فان طاعته هي مدار السعادة ، وهي الفارقة بين أولياء الله وأعدائه ، وأهل الجنة وأهل النار ، فأهل طاعته هم أولياء الله المتقون ، وجنده المفلحون ، وحزبه الغالبون ، وأهل مخالفته ومعصيته بخلاف ذلك ، والذين يقصدون الحج الى قبره وقبر غيره ويدعونهم ويتخذونهم أندادا من أهل معصيته ومخالفته ، لا من أهل طاعته وموافقته ، فهم في هذا الفعل من جنس أعدائه لا من جنس أوليائه ، وان ظنوا أن هذا من موالاته ومحبته كما يظن النصارى أن ماهم عليه من الغلو في المسيح والشرك به من جنس محبته وموالاته ، وكذلك دعاؤهم للانبياء والموتى ، كابراهيم وموسى وغيرهما عليهم السلام ، ويظنون أن هذا من محبتهم وموالاتهم وانما هو من جنس معاداتهم ، ولهذا يتبرؤن منهم يوم القيامة ، وكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم يتبرأ ممن عصاه ، وان كان قصده تعظيمه والغلو فيه ، قال تعالى :(وانذرعشيرتكَ الأقربين واخْفض جناحَكَ لمن اتّبعَكَ من المؤمنينَ ، فإنْ عَصَوكَ فقُلْ إني بريء ممَّا تعمَلون) (١)

---

(١) الشعراء : ٢١٤

فقد أمر الله المؤمنين أن يتبرؤا من كل معبود غيرالله ومن كل من عبده ، قال تعالى (قدْكانتْ لَكمْ اسوةٌ حسنَةٌ في ابراهيمَ والَّذين معَهُ إذقالوا لقومهِم انّا بُرآءُ منْكم وممّا تَعْبُدونَ منْ دونِ اللَّهِ كفَرنا بكُم وبدا بيْننا و بينَكُمُ العداوة والبغْضاءُ ابداً حتّي تؤمنوا باللَّهِ وحدَهُ) [1]

وكذلك سائر الموتى ليس في مجرد رؤية قبورهم مايوجب لهم زيادة المحبة ، الا لمن عرف أحوالهم بدون ذلك فيتذكر أحوالهم فيحبهم ، والرسول صلى الله عليه وسلم يذكر المسلمون أحواله ومحاسنه وفضائله وما من الله به عليه وما من به على أمته ، فبذلك يزداد حبهم له وتعظيمهم له لا بنفس رؤية القبر ، ولهذا تجد العاكفين على قبور الانبياء والصالحين من أبعد الناس عن سيرتهم ومتابعتهم ،وانما قصد جمهورهم التأكل والترأس بهم ، فيذكرون فضائلهم ليحصل لهم بذلك رياسة أو مأكلة لا ليزدادوا هم حبا وخيرا، وفي مسندالامام أحمد وصحيح أبي حاتم عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ،والذين يتخذون القبور مساجد) وما ذكره هذا من فضائله فبعض مايستحقه صلى الله عليه وسلم ، والامر فوق ماذكره أضعافا مضاعفة ، لكن هذا يوجب ايماننا به وطاعتنا له ، واتباع سنته والتأسي به ، والاقتداء به ومحبتنا له ، وتعظيمنا له ، وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه ، فان هذا هو طريق النجاة والسعادة ، وهو سبيل الحق ووسيلتهم الى الله تعالى ، ليس في هذا مايوجب معصيته ومخالفة أمره ، والشرك بالله ، واتباع غير سبيل المؤمنين السابقين الاولين والتابعين لهم باحسان ، وهو صلى الله عليه وسلم قد قال : (لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد) وقال : (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر مافعلوا) وقال : (لاتتخذوا قبري عيدا ، وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني) وقال : (خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الامور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة وقال : (انه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، واياكم ومحدثات الامور فان كل بدعة ضلالة) الى غير ذلك من الادلة التي تبين أن الحجاج الى القبور هم من المخالفين للرسول صلى الله عليه وسلم الخارجين عن

---

(١) الممتحنة : ٤

شريعته وسننه ، لا من الموافقين له المطيعين له ، كما قد بسط في غير هذا الموضع ،
هذا آخر مانقلناه من كتاب شيخ الاسلام فيما يتعلق بالزيارة ، وقد علم مما نقلناه أن شيخ الاسلام رحمه الله لم يحرم زيارة القبور على الوجه المشروع في شيء من كتبه ، ولم ينه عنها ، ولم يكرهها ، بل استحبها وحض عليها ، ومناسكه ومصنفاته طافحة بذكر استحباب زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وسائر القبور ، ولم ينكر زيارتها في موضع من المواضع ، ولا ذكر في ذلك خلافا الا نقلا غريبا ذكره في بعض كتبه عن بعض التابعين، وانما تكلم على مسألة شد الرحال واعمال المطي الى مجرد زيارة القبور ، وذكر في ذلك قولين للعلماء المتقدمين والمتأخرين (أحدهما) القول باباحة ذلك كما يقوله بعض أصحاب الشافعي وأحمد (والثاني) أنه منهى عنه كما نص عليه امام دار الهجرة مالك بن أنس ، ولم ينقل عن أحد من الأئمة الثلاثة خلافه ، واليه ذهب جماعة من أصحاب الشافعي وأحمد ، هكذا ذكر الشيخ الخلاف في شد الرحال وأعمال المطي الى القبور ، ولم يذكره في الزيارة الخالية عن شد رحل واعمال مطي ، والسفر الى زيارة القبور مسألة وزيارتها من غير سفر مسألة أخرى ، ومن خلط هذه المسألة بهذه المسألة وجعلهما مسألة واحدة وحكم عليهما بحكم واحد وأخذ في التشنيع على من فرق بينهما وبالغ في التنفير عنه فقد حرم التوفيق ، وحاد عن سواء الطريق •

واحتج الشيخ لمن قال بمنع شد الرحال وأعمال المطي الى القبور بالحديث المشهور المتفق على صحته ، وهو (لاتشد الرحال) الحديث ، وذكر وجه الاستدلال في الكتابين السابقين ، وكذا في (كتاب اقتضاء الصراط المستقيم) بما لامزيد عليه •

فما نقله النبهاني الغافل الغبي عن السبكي وابن حجر وغيرهما من غلاة أسلافه ساقط عن درجة الاعتبار ، بل هو افتراء محض وبهتان صرف على الشيخ في هذه المسألة وغيرها ، والمسألة فرضية لا وقوع لها البته ، فان كل من سافر الى المدينة من أجل آماله الصلاة في مسجده صلى الله تعالى عليه وسلم ونية زيارة القبر فقط ان وقعت كان حكمها ماذكره الشيخ حسبما دل عليه الحديث الصحيح ، فلا يرد ماذكره هذا الغبي في التنبيه الثامن من الهذيان ، وهو قوله : اعلم أنه لو كان حكم السفر لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم التحريم كما زعمه ابن تيمية لامتنع الناس لذلك من زيارته عليه الصلاة والسلام ، ولصارت المدينة المنورة من أحقر المدن ، بل من أحقر القرى ، وكادت تكون خرابا بلقعا ، فان عمارتها انما هو لوجود قبره

الشريف صلى الله عليه وسلم فيها ، فان زيارة المؤمنين لها وانتيابهم اياها وترددهم اليها ومجاورتهم فيها كل ذلك انما هو لأجله صلى الله عليه وسلم ، ليكون وسيلتهم الى الله تعالى في سعادتهم ، لأنه ثبت عندهم ثبوتا أوضح من الشمس أنه صلى الله عليه وسلم أقرب الوسائل وأجلها وأنجحها الى الله تعالى .. الى آخر ماهذى به في ذلك التنبيه .

فانظر أيها المنصف الى جهل هذا الغبي وما أدت اليه حماقته ، فانه الى الآن لم يعرف أن عمارة المدن بأي شيء تكون ، ولا درى أسباب الخراب ماهي ، وظن أن زيارة القبور هي سبب عمارة البلاد ، والاعراض عنهاهو المستوجب لخرابها ، ولابدع أن اعتقد الغلاة الضالون هذا الاعتقاد الفاسد ، فمثل ذلك هو اللائق بقلوبهم المختوم عليها .

ويقال له : ان الشيخ لم يحرم الزيارة ولا السفر اليها مطلقا حتى يرد ماذكرت ، وان الصلاة في المسجد النبوي اذا كانت بتلك المنزلة فلا شك أن المسلمين لايهملونها، وما ذكره من قلة زوار البيت المقدس فكذب ، وعلى مقتضى تعليله يلزم أن يكون البيت المقدس خرابا لقلة زواره ، ومن المعلوم مابلغ اليه من العمارة والمدنية ،والرجل لايستحي من الكذب والزور ، ومقصوده بيان أنه كان رئيس المحكمة الجزائيةليعلم الناس مبلغه من العلم والايمان قاتله الله ماأعظم حماقته ورعونته .

ثم يقال : ان عمارة البلاد بالعلم والتقوى ، والايمان الكامل والعمل الصالح ، والسعي للدنيا والآخرة ، وأما زيارة القبور أي قبر كان انما هي للدعاء للميت والاعتبار به فهي شعبة من شعب الطرق الاخروية .

وقد ذكر هذا الغبي أيضا في تضاعيف كلامه نقلا عن بعض أسلافه الغلاة : أن زيارة القبور تعظيم ، وتعظيم النبي صلى الله عليه وسلم واجب ، فلا يجوز اهماله .

قال الامام الحافظ ابن قدامة في (الصارم المنكى) الكلام عليه من وجوه :

(أحدها) أن يقال : هاتان المقدمتان ان أخذتا على اطلاقهما أنتجتا أن زيارة قبره واجبه ، وهو انتاج لازم للمقدمتين لزوما بينا ، فان الضرب الاول من الشكل الاول ، والحد الاوسط فيه محمول في الاولى موضوع في الثانية ، فتكون النتيجة موضوع الاولى ومحمول الثانية ، وهي زيارة قبره واجبة ، ثم يلزم على هذا لوازم : منها أن تارك زيارة قبره عاص آثم مستحق للعقوبة منتفي العدالة لاتصح شهادته ولا تقبل روايته ولا فتواه ، وفي هذا تفسيق جميع الصحابة الا من صح عنه منهم الزيارة ، ولا ريب أن هذا شر من قول الرافضة الذين فسقوا جمهورهم بتركهم

تولية علي ، بل هو من جنس قول الخوارج الذين يكفرون بالذنب ، لأن تارك هذه الزيارة عنده تارك لتعظيمه ، وترك تعظيمه كفر أو ملزوم للكفر ، فان تعظيم الرسول من لوازم الايمان فعدمه مستلزم المكفر ، وعلى هذا فكل من لم يزر قبره فهو كافر ، لأنه تارك لتعظيمه صلى الله عليه وسلم ، ولا ريب أن الروافض والخوارج لم يصلوا الى ماوصل اليه هؤلاء من الجهل والكذب على الله ورسوله وعلى الامة .

(يوضحه الوجه الثاني) أن الخوارج انما كفروا الامة بمخالفة أمره ومعصيته وتمسكوا بنصوص متشابهة لم يردوها الى المحكم ، وأماعباد القبور فكفروا بموافقة الرسول في نفس مقصوده ، وجعلوا تجريد التوحيد كفرا وتنقصا ، فأين المكفر بالذنب من المكفر بموافقة الرسول وتجريد التوحيد .

(يوضحه الوجه الثالث) ان زيارة قبره لو كانت تعظيما له لكانت مما لايتم الايمان الا بها ، ولكانت فرضا معينا على كل من استطاع اليها سبيلا من قرب أو بعد ، ولما أضاع السابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان هذا الفرض ، وقام به الخلف الذين خلفوا من بعدهم ويزعمون أنهم بذلك أولياء الرسول ، وحزبه القائمون بحقوقه ، وما كانوا أولياءه ان أولياؤه الا أهل طاعته ، والقيام بما جاء به علما ومعرفة وعملا وارشادا وجهادا ، الذين جردوا توحيد الخالق وعرفوا للرسول حقه ، ووافقوه في تنفيذ ماجاء به والدعوة اليه والذب عنه .

(الوجه الرابع) أنه اذا كانت زيارة قبره واجبة على الاعيان كانت الهجرة الى القبر آكد من الهجرة اليه في حياته ، فان الهجرة الى المدينة انقطعت بعد الفتح ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لاهجرة بعد الفتح) وعند عباد القبور أن الهجرة الى القبر فرض معين على من استطاع اليه سبيلا ، وليس بخاف أن هذا مراغمة صريحة لما جاء به الرسول ، واحداث في دينه مالم يأذن به ، وكذب عليه وعلى الله ، وهذا من أقبح التنقص .

وقد ذكر السبكي في موضع من كتابه (شفاء السقام) أنه رأى فتيا بخط شيخ الاسلام وفيها : ولهذا كانت زيارة القبور على وجهين : زيارة شرعية ، وزيارة بدعية ، فالزيارة الشرعية مقصودها السلام على الميت والدعاء له ان كان مؤمنا ، وتذكر الموت سواء كان الميت مؤمنا أم كافرا ، قال وقال بعد ذلك : فالزيارة لقبر المؤمن نبيا كان أو غير نبي من جنس الصلاة على جنازته ، وأما الزيارة البدعية فمن جنس زيارة النصارى مقصودها الاشراك بالميت ، مثل طلب الحوائج منه أو به ، أو

التمسح بقبره وتقبيله ، أو السجود له ونحو ذلك ، فهذا كله لم يأمر الله به ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا استحبه أحد من أئمة المسلمين ، ولا أحد من السلف لاعند قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا غيره •

قال السبكي ـ بعد حكايته هذا الكلام عن الشيخ ـ وبقي قسم لم يذكره ، وهو أن تكون للتبرك به من غير اشراك به ، فهذه ثلاثة أقسام أولها السلام والدعاء له ، وقد سلم جوازه وأنه شرعي • والقسم الثاني التبرك به والدعاء عنده للزائر،قال وهذا القسم يظهر من فحوى كلام ابن تيمية أنه يلحقه بالقسم الثالث ، ولا دليل له على ذلك ، بل نحن نقطع ببطلان كلامه فيه ، وان المعلوم من الدين وسير السلف الصالحين التبرك ببعض الموتى من الصالحين فكيف بالانبياء والمرسلين ، ومن ادعى أن قبور الانبياء وغيرهم من أموات المسلمين سواء فقد أتى أمرا عظيما نقطع ببطلانه وخطئه فيه ، وفيه حط لرتبة النبي صلى الله عليه وسلم الى درجة من سواه من المؤمنين ، وذلك كفر بيقين ، فان من حط رتبة النبي صلى الله عليه وسلم عما يجب له فقد كفر ، فان قال : ان هذا ليس بحط ولكنه منع من التعظيم فوق مايجب له ، قلت : هذا جهل وسوء أدب ، وقد تقدم في أول الباب الخامس الكلام في ذلك ، ونحن نقطع بأن النبي صلى الله عليه وسلم يستحق من التعظيم أكثر من هذا المقدار في حياته وبعد موته ، ولا يرتاب من في قلبه شيء من الايمان ، هذا كله كلام المعترض •

فانظر الى ماتضمنه من الغلو والجهل والتكفير بمجرد الهوى وقلة العلم ، أفلا يستحي من هذا مبلغ علمه أن يرمي أتباع الرسول وحزبه وأولياءه برأيه الذي يشهد به عليه كلامه ؟ لكن من يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا •

(الوجه الخامس) أن يقال لهذا المعترض وأشباهه من عباد القبور : أتوجبون كل تعظيم للرسول صلى الله عليه وسلم أو نوعا خاصا من التعظيم ، فان أوجبتم كل تعظيم لزمكم أن توجبوا السجود لقبره وتقبيله واستلامه والطواف به لأنه من تعظيمه ، وقد أنكر صلى الله عليه وسلم على من عظمه بما لم يأذن به كتعظيم من سجد له ، وقال : (لاتطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فانما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) ومعلوم أن مطريه انما قصد تعظيمه •

وقال صلى الله عليه وسلم لمن قال له : يامحمد ، ياسيدنا وابن سيدنا ، وخيرنا وابن خيرنا (عليكم بقولكم ، ولايستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله، ماأحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل) فمن عظمه بما لايحب

فانما أتى بضد التعظيم ، وهذا نفس ماحرمه الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ونهى عنه وحذر منه •

وأيضا : فان الحلف به تعظيم له ، فقولوا يجب على الحالف أن يحلف به لأنه تعظيم له وتعظيمه واجب ، وكذلك تسبيحه وتكبيره والتوكل عليه والذبح باسمه كل هذا تعظيم له ، ومعلوم أن ايجاب هذا مثل ايجاب الحج اليه بالزيارة على من استطاع اليه سبيلا ولا فرق بينهما ، وان قلتم انما نوجب نوعا خاصا من التعظيم طولبتم بضابط هذا النوع وحده ، والفرق بينه وبين التعظيم الذي لايجب ولا يجوز ،وبيان أن الزيارة من هذا النوع الواجب ، والا كنتم متناقضين موجبين في الدين مالم يوجبه الله وشارعين شرعا لم يأذن به الله •

(الوجه السادس) أن يقال : الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم كلما خطر بالبال تعظيم له فأوجبوا له هذا التعظيم ، واحكموا على من قال لايجب بأنه تارك لتعظيمه، بل احكموا على من قال لاتجب الصلاة عليه كلما ذكر ولا تجب الصلاة عليه في الصلاة أولا تجب في العمر الا مرة أولا تجب أصلا بأنه تارك للتعظيم لأن الصلاةعليه تعظيم له بلا ريب ، فهل كان أئمة الاسلام وعلماء الامة نافين لتعظيمه تاركين له بنفيهم الوجوب ؟ أم كانوا أشد تعظيما له منكم واعرف بحقوقه وأحفظ لدينه أن يزاد فيه ماليس منه ؟!

(يوضحه الوجه السابع) أن الذين كرهوا من الفقهاء الصلاة عليه عند الذبح يكونون على قولكم تاركين لتعظيمه وذلك قادح في ايمانهم ، وكذلك من كره أو حرم الحلف به وقال لاتنعقد يمين الحالف به يكون على قولكم تاركا لتعظيمه لأن الحالف به تعظيم له بلا ريب •

(الوجه الثامن) أن القول بعدم وجوب زيارة قبره أو بعدم استحبابها أو بعدم جوز شد الرحال لايقدح في تعظيمه بوجه من الوجوه ، وهو بمنزلة قول من قال من أئمة الاسلام لاتجب الصلاة عليه في التشهد الاخير ، وبمنزلة قول من قال منهم تكره الصلاة عليه عند الذبح ، وبمنزلة قول من قال لاتستحب الصلاة عليه في التشهد الاول ، ولا عند التشهد في الأذان ، بل قول من نفى وجوب الزيارة أو جواز شد الرحال الى القبر أولى أن لايكون منافيا للتعظيم من قول من نفى وجوب الصلاة عليه أو استحبابها في بعض المواضع ، لأن الصلاة عليه مأمور بها ، وقد ضمن للمصلي عليه مرة أن يصلى عليه عشرا ، بل الصلاة عليه محض التعظيم له ، فنفي وجوبها أو استحبابها في موضع ليس بترك للتعظيم وليس انكار وجوب كل

من الامرين قادحا في تعظيمه ، بل ذلك عين تعظيمه •

(يدل عليه الوجه التاسع) أن تعظيمه هو موافقته في محبة مايحب ، وكراهة مايكره ، والرضي بما يرضى به ، وفعل ماأمر به ، وترك مانهى عنه ، والمبادرة الى مارغب فيه ، والبعد عما حذر منه ، وأن لايتقدم بين يديه ، ولا يقدم على قوله قول أحد سواه ، ولا يعارض ماجاء به بمعقول ثم يقدم المعقول عليه كما يقوله أئمة هذا المعترض ، الذين تلقى عنهم أصول دينه وقدم آراءهم وهواجس ظنونهم على كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم ينسب ورثة الرسول الواقفين مع أقواله المخالفين لما خالفها الى ترك التعظيم ، وأي اخلال بتعظيم وأي تنقص فوق من عزل كلام الرسول صلى الله عليه وسلم عن افادة اليقين ، وقدم عليه آراء الرجال ، وزعم أن العقل يعارض ماجاء به ، وأن الواجب تقديم المعقول وآراء الرجال على قوله ؟!

(الوجه العاشر) أن ايجاب زيارة قبره واستحبابها وشد الرحال اليه لأجل تعظيمه يتضمن جعل القبر منسكا يحج اليه كما يحج الى البيت العتيق كما يفعله عباد القبور ، سيما فانهم يأتون عنده بنظير ما يأتي به الحاج من الوقوف والدعاء والتضرع ، وكثير منهم يطوف بالقبر ويستلمه ويقبله ويمسح عليه ، فلم يبق عليهمن أعمال المناسك الا الحلق والنحر ورمي الجمار ، فايجاب الوسيلة الى هذا المحذور واستحبابها من أعظم الامور منافاة لما شرعه الله ورسوله ، وقد آل الامر بكثير من الجهال الى النحر عند قبور من يشدون الرحال الى قبورهم ، وحلق رؤسهم عند قبورهم ، وتسمية زيارتها حجا ومناسك ، وصنف فيه بعضهم كتابا سماه مناسك حج المشاهد ، وكان سبب هذا هو الغلو الذي يظنه من قل علمه تعظيما ، ولا ريب أن هذا أكره شيء الى الرسول قصدا ووسيلة •

(الوجه الحادي عشر) أن هذا الذي قصده عباد القبور من التعظيم هو بعينه السبب الذي لأجله حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخاذ القبور مساجد ، وايقاد السرج عليها ، ولعن فاعل ذلك ، ونهى عن الصلاة اليها ، وحرم اتخاذ قبره عيدا ، ودعا ربه أن لايجعل قبره وثنا يعبد ، ولأجله نهى فضلاء الامة وساداتها عن ذلك ، ولأجله أمر عمر بتعفية قبر دانيال لما ظهر في زمان الصحابة ولأجله منع مالك من نذر اتيان المدينة وأراد القبر أن يوفي بنذره ولأجله كره الشافعي أن يعظم قبر مخلوق حتى يجعل مسجدا كما قال : وأكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجدا ولأجله كره مالك أن يقول القائل زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم لما يوهم هذا

اللفظ من أنه انما قصد المدينة لأجل زيارة القبر ، ولما فيه من تعظيم القبر باضافة الزيارة اليه مع كونه أعظم القبور على الاطلاق وأجلها وأشرف قبر على وجه الارض، فالفتنة بتعظيمه أقرب من الفتنة بتعظيم غيره من القبور ، فحمى مالك رحمه الله تعالى الذريعة حتى في اللفظ ، ومنع الناذر من اتيانه ، ولو كان اتيانه قربة عنده لأوجب الوفاء به ، فان من أصله ان كل طاعة تجب بالنذر سواء كان من جنسها واجب بالشرع أو لم يكن ، ولهذا يوجب اتيان مسجد المدينة على من نذر اتيانه ، وقد منع ناذر اتيان القبر من الوفاء بنذره ، فلو كان ذلك عنده قربة لألزمه الوفاء به ، ومن رد هذا النقل عنه وكذب الناقل فهو من جنس من افترى الكذب وكذب بالحق لما جاءه ، فان ناقله ممن له لسان صدق في الامة بالعلم والامانة والصدق والجلالة ، وهو القاضي أبو اسحق اسمعيل بن اسحق بن اسمعيل بن حماد بن زيد أحد الأئمة الاعلام ، وكان نظير الشافعي ، وإماماً في سائر العلوم ، حتى قال المبرد اسمعيل القاضي أعلم مني بالتصريف ، وروى عن يحيى بن أكثم أنه رآه مقبلا فقال : قد جاءت المدنية ، وقد ذكر هذا النقل عن مالك في أشهر كتبه عند أصحابه وأجلها عندهم وهو المبسوط ، فمن كذبه فهو بمنزلة من كذب مالكا والشافعي وأبا يوسف ونظرائهم ، ومن وصل الهوى بصاحبه الى هذا الحد فقد فضح نفسه وكفى خصمه مؤنته ، ومن جمع أقوال مالك وأجوبته وضم بعضها الى بعض ثم جمعها الى أقوال السلف وأجوبتهم قطع بمرادهم ، وعلم نصيحتهم للامة وتعظيمهم للرسول ، وحرصهم على اتباعه وموافقته في تجريد التوحيد وقطع أسباب الشرك ، وبهذا جعلهم الله أئمة ، وجعل لهم لسان صدق في الامة ، فلو ورد عنهم شيء خلاف هذا لكان من المتشابه الذي يرد الى المحكم من كلامهم وأصولهم ، فكيف ولم يصح عنهم حرف واحد يخالفه ، فتبين أن هذا التعظيم الذي قصده عباد القبور هو الذي كرهه أهل العلم ، وهو الذي حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى أمته عنه ولعن فاعله ، وأخبر بشدة غضب الله عليه حيث يقول (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ومعلوم قطعا أنهم انما فعلوا ذلك تعظيما لهم ولقبورهم ، فعلم أن التعظيم للقبور مما يلعن الله فاعله ويشتد غضبه عليه .

(الوجه الثاني عشر) أن هذا الذي يفعله عباد القبور من المقاصد والوسائل ليس بتعظيم ، فان التعظيم محله القلب واللسان والجوارح وهم أبعد الناس منه ، فالتعظيم بالقلب مايتبع اعتقاد كونه رسولا من تقديم محبته على النفس والولد

والوالد والناس أجمعين ، ويصدق هذه المحبة أمران :

(أحدهما) تجريد التوحيد ، فانه صلى الله عليه وسلم كان أحرص الخلق على تجريده ، حتى قطع أسباب الشرك ووسائله من جميع الجهات ، ونهى عن عبادة الله بالتقرب اليه بالنوافل من الصلوات في الاوقات التي يسجد فيها عباد الشمس لها ،بل قبل ذلك الوقت بعد أن تصلي الصبح والعصر لئلا يتشبه الموحدون بهم في وقت عبادتهم ، ونهى أن يقال ماشاء الله وشاء فلان ، ونهى أن يحلف بغير الله ، وأخبر أن ذلك شرك ، ونهى أن يصلى الى القبر ويتخذ مسجدا أو عيدا أو يوقد عليها سراج ، وذم من شرك بين اسمه واسم ربه تعالى في لفظ واحد ، فقال له : (بئس الخطيب أنت) بل مدار دينه على هذا الاصل الذي هو قطب رحى النجاة ، ولم يقرر أحد ماقرره صلى الله عليه وسلم بقوله وفعله وهديه وسد الذرائع المنافية له ، فتعظيمه صلى الله عليه وسلم بموافقته على ذلك لا بمناقضته فيه .

(الثاني) تجريد متابعته وتحكيمه وحده في الدقيق والجليل من أصول الدين وفروعه ، والرضا بحكمه ، والانقياد له والتسليم ، والاعراض عمن خالفه ، وعدم الالتفات اليه حتى يكون وحده الحاكم المتبع المقبول قوله ، كما كان ربه تعالى وحده المعبود المألوه المخوف المرجى المستغاث به المتوكل عليه ، الذي اليه الرغبة والرهبة واليه الوجهة والعمل ، الذي يؤمل وحده لكشف الشدائد وتفريج الكربات ومغفرة الذنوب ، الذي خلق الخلق وحده ورزقهم وحده وأحياهم وحده ويبعثهم وحده ويغفر ويرحم ويهدي ويضل ويسعد ويشقي وحده وليس لغيره من الامر شيء كائنا من كان ، بل الامر كله لله ، وأقرب الخلق اليه وسيلة وأعظمهم عنده جاها وأرفعهم لديه ذكرا وقدرا وأعمهم عنده شفاعة ليس له من الامر شيء ، ولا يعطى أحدا شيئا ، ولا يمنع أحدا شيئا ، ولا يملك لأحد ضرا ولا رشدا ، وقد قال لاقرب الخلق اليه وهم ابنته وعمه وعمته : (يافاطمة بنت محمد لاأغني عنك من الله شيئا ، ياعباس عم رسول الله لاأغني عنك من الله شيئا ، ياصفية عمة رسول الله لاأغني عنك من الله شيئا) فهذا هو التعظيم الحق ، المطابق لحال المعظم ، النافع للمعظم في معاشه ومعاده ، الذي هو لازم ايمانه وملزومه .

وأما التعظيم باللسان فهو الثناء عليه بما هو أهله مما أثنى به على نفسه ،وأثنى به عليه ربه من غير غلو ولا تقصير ، فكما أن المقصر المفرط تارك لتعظيمه فالغالي

المفرط كذلك ، وكل منهما شر من الآخر من وجه دون وجه ، وأولياؤه سلكوا بين ذلك قواما .

وأما التعظيم بالجوارح فهو العمل بطاعته ، والسعي في اظهار دينه واعلاء كلماته ، ونصر ماجاء به وجهاد ماخالفه .

وبالجملة : فالتعظيم النافع هو تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، والموالاة والمعاداة ، والحب والبغض لاجله وفيه ، وتحكيمه وحده والرضا بحكمه ، وأن لايتخذ من دونه طاغوت يكون التحاكم الى أقواله ، فما وافقها من قول الرسول قبله وما خالفها رده أو تأوله أو أعرض عنه ، والله سبحانه يشهد — وكفى بالله شهيدا — وملائكته ورسله وأولياؤه أن عباد القبور وخصوم الموحدين ليسوا كذلك وهم يشهدون على أنفسهم بذلك ، وما كان لهم أن ينصروا دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم ، شاهدين على أنفسهم بتقديم آراء شيوخهم وأقوال متبوعيهم على قوله، وأنه لايستفاد من كلامه يقين ، وأنه اذا عارضته آراء الرجال قدمت عليه وكان الحكم ماتحاكم به .

أفلا يستحي من الله من العقلاء من هذا حاله في أصول دينه وفروعه أن يتستر بتعظيم القبر ليوهم الجهال أنه معظم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ناصر له ، منتصر له ممن ترك تعظيمه وتنقصه ؟ ويأبى الله ذلك ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون . (وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)[1] (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[2] انتهى .

وقد أكثر شيخ الاسلام — قدس الله روحه — من الرد على الغلاة القبوريين في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم وغيره من كتبه ، وما ذكرناه واف بالغرض على اختصاره ، والله أعلم .

ثم ان النبهاني الغبي ذكر قصة بلال التي ذكرها السبكي ، وهي أن بلالا رأى في منامه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول له ماهذه الجفوة يابلال ، أما آن لك أن تزورني يابلال ، فانتبه حزينا وجلا خائفا ، فركب راحلته وقصد المدينة ، فأتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه الى آخرها ، وقد تكلم عليها الحافظ ابن قدامة في كتابه (الصارم المنكى في الرد على السبكي) وبين

---

(١) الانفال : ٣٤ (٢) التوبة : ١٠٥

وذكر النبهاني الغبي أيضا الاكذوبة المشهورة المسندة لاحمد الرفاعي ، فقال ان الزيارة وصلة مع الحبيب ، وقد وقع لبعض العارفين مخاطبته له صلى الله عليه وسلم ورده عليه ، ومن ذلك المعنى ماذكره بعض العارفين عن القطب الرفاعي في حال زيارته للقبر الشريف من قوله :

في حالة البعد روحي كنت أرسلها   تقبل الارض عني وهي نائبتي
وهذه دولة الاشباح قد حضرت   فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

قال : فمد يده الشريفة من الشباك فقبلها ، انتهى كلامه .

(أقول الكلام) على هذه الخرافة في مقامين ، (المقام الاول) في تكذيب وقوع هذه القصة وافترائها على أحمد الرفاعي ، (المقام الثاني) في بيان عدم امكان رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته وأن من ادعى ذلك فهو كاذب .

(أما المقام الاول) وهو بيان كذب هذه القصة فمن وجوه كثيرة نذكر منها ماخطر بالبال .

(الاول) أنه قد ترجم أحمد الرفاعي هذا جماعة من المؤرخين على اختلافهم في المذهب ، ولم يذكروا هذه القصة في ترجمته ، ولو كانت ثابتة لعدوها من أعظم مآثره وأكبر مفاخره ، لاسيما التاج السبكي لتعصبه للمتصوفة ولاسيما من هو على مذهبه ونحلته ، ومع ذلك لم يذكر هذه القصة في ترجمة أحمد الرفاعي لما ترجمه في طبقاته ، فانه قال :

(أحمد بن علي بن أحمد بن يحيى بن حازم بن علي بن رفاعه) الشيخ الزاهد الكبير أحد أولياء الله العارفين ، والسادات المشمرين ، أهل الكرامات الباهرة ، أبو العباس بن أبي الحسن بن الرفاعي المغربي ، قدم أبوه الى العراق وسكن ببعض القرى وتزوج باخت الشيخ منصور الزاهد ورزق منها أولادا ،منهم الشيخ أحمد هذا لكنه مات وأحمد حمل ، فلما ولد رباه وأدبه خاله منصور ، وكان مولده في المحرم سنة خمسمائة ، وتفقه على مذهب الشافعي ، وكان كتابه التنبيه (١) ولو أردنا استيعاب فضائله لضاق الوقت ، ولكنا نورد مافيه بلاغ ، ثم ذكر كلاما في محاسن أخلاقه الى أن قال : وقال الشيخ أحمد : سلكت كل طريق فما رأيت أقرب ولا أسهل ولا أصلح من الذل والافتقار والانكسار لتعظيم أمر الله ، والشفقة على خلق الله ، والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان يجمع الحطب ويحمله

---

(١) كذا في الاصل .

الى بيوت الارامل والمساكن ، وربما كان يحمل الماء لهم ، الى أن قال : وكان لايجمع بين قميصين لا في شتاء ولا في صيف ، ولا يأكل الا بعد يومين أو ثلاثة أكلة ، ثم قال: وعن يعقوب ــ وقد سئل عن أوراد سيدي أحمد ، فقال ــ كان يصلي أربع ركعات بألف (قل هو الله أحد) ويستغفر كل يوم مرة ، واستغفاره أن يقول : لا اله الاأنت سبحانك اني كنت من الظالمين ، عملت سوء وظلمت نفسي وأسرفت في أمري ، ولا يغفر الذنوب الا أنت ، فاغفر لي وتب علي انك أنت التواب الرحيم ، ياحي ياقيوم لا اله الا أنت ، توفي يوم الخميس ثاني عشر جمادى الاولى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، ومناقبه أكثر من أن تحصى ، وقد أفرد لها بعض الصلحاء كتابا يخصها ، انتهى .

فلم يذكر قصة مد اليد التي هي من أعظم الخوارق وأعجبها لو صحت ، مع أنه ذكر أعظم مفاخره وهي قصة الهرة التي كانت نائمة على كمه فقطع الكم ، وقصة البعوضة التي كانت على يده تمتص دمه ، وقصة الكلاب التي كانت تأكل التمر من القوصرة في دار الطعام وهم يتهارجون ، فوقف على الباب لئلا يدخل اليهم أحد يؤذيهم .

وذكر القاضي أحمد الشهير بابن خلكان في كتابه وفيات الاعيان مانصه : أبو العباس أحمد ابن أبي الحسن على بن أبي العباس أحمد المعروف بابن الرفاعي ، كان رجلا صالحا فقيها شافعي المذهب ، أصله من الغرب ، وسكن في البطائح بقرية يقال لها أم عبيدة ، وانضم اليه خلق عظيم من الفقراء ، وأحسنوا الاعتقاد فيه وتبعوه والطائفة المعروفة بالرفاعية والبطائحية من الفقراء منسوبة اليه ولاتباعه ، ولهم أحوال عجيبة من أكل الحيات وهي حية ، والنزول في التنانير وهي تتضرم بالنار فيطفؤنها الى أن قال : ولم يكن له عقب ، وانما العقب لأخيه وأولاده يتوارثون المشيخة والولاية على تلك الناحية الى الآن ، وأمورهم مشهورة مستفيضة فلا حاجة الى الاطالة فيها ، انتهى .

فلم يذكر تلك القصة من مناقبه ، ولو صحت روايتها لكانت غرة وجه مناقبه ، وهكذا ذكر كل من ترجمه من الثقاة ، وهذه مما اختلقها له أصحابه بعد موته بعدة سنين ، كما ادعوا له الانتساب الى ابراهيم المرتضى بن موسى الكاظم رضي الله عنه ولا أصل له أيضا ، قال في مختصر عمدة الطالب : ان الشيخ أحمد رحمه الله لم

يدع ذلك ، وانما ادعاه البطن الثالث من ولده ، ويقولـون هم أحمـد بن علي بن الحسين بن المهدي بن أبي القاسم بن محمد بن الحسين ابن أحمد الاكبر بن موسى أبي شجه بن ابراهيم المذكور ، قال أبو نصر البخاري : لايصـح لابراهيم المرتضى عقب الا من موسى وجعفر ومن انتسب الى غيرهما فهو كاذب انتهى المقصود منه •

والمقصود : أن قصة مد اليد ونحوها من المزايا والمآثر لو صحت لكانت أحق بالذكر من جميع ماذكروه ، فلما لم يذكروها علمنا أنها من أفك أفاك أثيم •

(الوجه الثاني) أن أحسن من رواها الامام السيوطي ، وقد أسندها الى بعض المجاميع ولم يذكر لها سندا واهيا فضلا عن أن يكون صحيحا ، مع أن حاله في الرواية معلوم ، فقال في كتابه (تنوير الحلك في رؤية النبي والملك) وفي بعض المجاميع وذكر القصة والبيتين على وجه الاختصار مع أن هذه القصة لو صحت لتوفرت الدواعـي على نقلها ، لأنها حادث عظيم وخارق عجيب ، فالشيء الذي تتوفر الدواعي على نقله ولم يذكره أحد من الثقات بل ذكره الدجالون الضالون المضلون فهو لاشك تزويـر وبهتان ، وكذب من أفك شيطان •

(الوجه الثالث) أن الدجالين الذين رووا هذه القصة المكذوبة ادعوا أن من كان حاضرا هناك ورأوا اليد وسمعوا رد السلام نحو مائة ألف أو يزيدون ، سبحانك هذا بهتان عظيم ! كيف يمكن أن يكون هناك هذا العدد الكثير ؟ وأي محل في المسجد يسعهم أو يسع عشر معشارهم ؟! ثم ان القبر قد أحاطت به الجدران فمن أي شباك خرجت اليد ؟ ومن المعلوم اذا كان أمر عجيب وشيء غريب يتهاجم على رؤيته الرآؤن فلا يمكن الرؤية الا للقريب ، وكذلك سماع رد السلام كيف أمكن للجميع ؟ فانظر الى هذه الاكذوبة التي لاتروج حتى على ضعفاء العقول ، ومع ذلك فقد تمسك بها قوم سلب الله منهم الحياء واتخذوها حبالة من حبائل مصائدهم ، وأغراهم الله على مثل هذه الدعاوي الكاذبة ليفضحهم بها في الدنيا والآخرة انتقاما لأهل الحق منهم •

(الوجه الرابع) أن كثيرا من أهل العلم والادب نسب البيتين الى غير أحمـد الرفاعي • قال الشيخ صلاح الدين الصفدي في تذكرته : حكي أن ابن الفارض لمـا اجتمع بالشهاب السهروردي في مكة أنشده :

في حالة البعد روحي كنت أرسلهـا ... تقبـل الارض عنـي وهي نائبتـي
وهـذه نوبة الاشباح قد حضـرت ... فامدد يمينك كـي تحظى بها شفتي

وكفى بما ذكره الشيخ صلاح الدين هذا شاهدا على بطلان مادعاه غلاة الرفاعية ومبتدعتهم ، فان هذا الشيخ كان اماما أديبا ناظما ناثرا ، ولد سنة ست وتسعين وستمائة ، وقد عقد له ابن السبكي ترجمة مجملة في طبقاته ، وممن نقل ذلك الشهاب الخفاجي الشافعي في كتابه (طراز المجالس) وأن البيتين من شعر ابن الفارض لما اجتمع بالسهر وردي في مكة قال : وقد نسب هذا لغيره ، ولم يذكر الغير ولم يصرح باسمه .

(الوجه الخامس) حسن الظن بأحمد الرفاعي رحمه الله يقتضي عدم مخالفته للسنة النبوية والشريعة المحمدية ، فقد كان على ماروى الثقاة بخلاف من يدعي الانتماء اليه من المبتدعة الغلاة ، وأنه لم يزل على المنهج المستقيم والصراط القويم ، فمن البعيد عنه الزيارة البدعية التي وردت عن الجهلة الشيطانية ، بل لابد أن يزور الزيارة التي ذكرها الأئمة الاعلام ، وأساطين دين الاسلام ، وقد مر بيان ذلك مفصلا فيما نقلناه من كتابي الشيخ ، فكيف يسوغ لمن تأدب بالآداب النبوية أن يتجاسر في ذلك المقام ، ويطلب منه مالم يطلبه غيره من أكابر الصحابة وأئمة أهل البيت وغيرهم، ويقول له امدد يمينك كي تحظى بها شفتي ، فهل هذا إلا قول أفاك أثيم أراد أن يروج زيف كلامه على الجهلة والعوام الطغام ، فمن اليقين لدى العارفين أن هذه القصة كذب وزور لعن الله من وضعها وافتراها .

(المقام الثاني في الكلام على رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بعد الموت)

قد ذكرنا سابقا بعض الوجوه على القدح برواية مد اليد وقصدنا الاختصار في القول اذ الكلام عليه طويل جدا ، وقد آن أن نتكلم على المقام الثاني وهو أيضا من بعض الوجوه السابقة ، فنقول وبالله التوفيق : ان رؤية النبي صلى الله عليه وسلم قد ادعاها قوم كثيرون بعد وفاته بزمن طويل ، وقد ألف الجلال السيوطي رسالته المسماة (بتنوير الحلك في رؤية النبي والملك) لأجل تأييد هذا القول ، وحال السيوطي وتلونه معلوم ، حتى جعله بعض أهل العلم حاطب ليل ، وبعد أن نقل عنه صاحب روح المعاني في هذه المسألة مانقل وكذا عن غيره قال في تفسيره : —

ثم اني أقول بعد هذا كله : ان مانسب الى بعض الكاملين من أرباب الاحوال من رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته وسؤاله والاخذ عنه لم نعلم وقوع مثله في الصدر الاول ، وقد وقع اختلاف بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم من حين

توفي الى ماشاء الله تعالى في مسائل دينية وأمور دنيوية ، وفيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم ، والى أبي بكر وعلي ينتهي أغلب سلاسل الصوفية الذين تنسب اليهم تلك الرؤية ، ولم يبلغنا أن أحدا منهم ادعى أنه رأى في اليقظة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ عنه ماأخذ ، وكذا لم يبلغنا أنه صلى الله عليه وسلم ظهر لمتحير في أمر من أولئك الصحابة الكرام فأرشده وأزال تحيره •

وقد صح عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال في بعض الامور : ليتني كنت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، ولم يصح عندنا أنه توسل الى السؤال منه صلى الله عليه وسلم بعد الوفاة نظير مايحكى عن بعض أرباب الأحوال، وقد وقفت على اختلافهم في حكم الجد مع الاخوة ، فهل وقفت على أن أحدا منهم ظهر له الرسول صلى الله عليه وسلم فأرشده الى ماهو الحق فيه ، وقد بلغك ماعرى فاطمة البتول رضي الله تعالى عنها من الحزن العظيم بعد وفاته صلى الله عليه وسلم وما جرى لها في أمر فدك ، فهل بلغك عنه عليه الصلاة والسلام أنه ظهر لها كما يظهر للصوفية قبل لوعتها وهون حزنها وبين الحال لها ؟ وقد سمعت بذهاب عائشة الى البصرة وما كان من وقعة الجمل ، فهل سمعت تعرضه صلى الله عليه وسلم لها قبل الذهاب وصده اياها عن ذلك لئلا يقع أو تقوم الحجة عليها على أكمل وجه ؟ الى غير ذلك مما لايكاد يحصى كثرة •

(والحاصل) أنه لم يبلغنا ظهوره عليه الصلاة والسلام لأحد من أصحابه وأهل بيته مع احتياجهم الشديد لذلك ، وظهوره عند باب مسجد قباء كما يحكيه بعض الشيعة افتراء محض وبهت بحت •

وبالجملة عدم ظهوره لأولئك الكرام وظهوره لمن بعدهم مما يحتاج الى توجيه يقنع به ذوو الافهام ، ولا يحسن مني أن أقول كل مايحكى عن الصوفية من ذلك كذب لا أصل له لكثرة حاكيه وجلالة مدعيه ، وكذا لايحسن مني أن أقول انهم انما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم مناما فظنوا ذلك لخفة النوم وقلة وقته يقظة ، فقالوا رأينا يقظته لما فيه من البعد ، ولعل في كلامهم مايأباه ، وغاية ماأقول أن تلك الرؤية من خوارق العادة كسائر كرامات الاولياء ومعجزات الانبياء عليهم السلام ، وكانت الخوارق في الصدر الاول لقرب العهد بشمس الرسالة قليلة جدا ، وأنى يرى النجم تحت الشعاع أو يظهر كوكب وقد انتشر ضوء الشمس في البقاع ، فيمكن أن يكون قد وقع ذلك لبعضهم على سبيل الندرة ولم تقتض المصلحة افشاءه ، ويمكن أن يقال

انه لم يقع لحكمة الابتلاء ، أو لخوف الفتنة ، أو لأن في القوم من هو كالمرآة لـه صلى الله عليه وسلم ، أو ليهرع الناس الى كتاب الله تعالى وسنته صلى الله تعـالى عليه وسلم فيما يهمهم ، فيتسع باب الاجتهاد ، وتنشر الشريعة ، وتعظم الحجة التي يمكن أن يعقلها كل أحد ، أو لنحو ذلك ، وربما يدعى أنه عليه الصلاة والسلام ظهر ولكن كان مستترا في ظهوره ، كما روي أن بعض الصحابة أحب أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء الى ميمونة فأخرجت له مرآته فنظـر فيها فرأى صـورة رسول الله عليه الصلاة والسلام ولم ير صورة نفسه ، فهذا كالظهور الذي يدعيـه الصوفية الا أنه بحجاب المرآة وليس من باب التخيل الذي قوى بالنظر الى مرآته عليه الصلاة والسلام ، وملاحظة أنه كثيرا ماظهرت فيها صـورته حسبما ظنه ابـن خلدون ، فان قبل قولي هذا وتوجيهي لذلك الامر فبها ونعمت ، والا فالامر مشكل فاطلب لك مايحله ، والله سبحانه الموفق للصواب ، انتهى كلامه .

وتوجيهه الذي وجه به غير مقبول ، اذ لايدل عليه كتاب ولا سنة صحيحـة ، وليس الامر مشكلا اذا لم يقبل توجيهه كما زعمه ، لأن غلـط الحس كثـير ، فاذا صدقوا برواياتهم نجيب حينئذ بما أجاب شيخ الاسلام في كتابه الجواب الباهر ،وقد ذكرناه سابقا برمته فانه قد قال : وكان الصحابة خير القرون ، وهـم أعلم النـاس بسنته وأطوع الامة لامره ، وكانوا اذا دخلوا الى المسجد لايذهب أحد منهـم الى قبره لا من داخل الحجرة ولا من خارجها ، وكانت الحجرة في زمانه يدخل اليها من الباب اذ كانت عائشة فيها وبعد ذلك الى أن بني الحائط الآخر ،وهم مع ذلك التمكن من الوصول الى قبره لايدخلون اليه لا لسلام ، ولا لصلاة ، ولا لدعاء لأنفسهـم ، ولا لسؤال عن حديث أو علم ، ولا كان الشيطان يطمع فيهـم حتى يسمعهم كـلاما وسلاما فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم وبين لهم الاحاديث أو أنه قد رد عليهم السلام بصوت يسمع من خارج كما طمع الشيطان في غيرهم ، فأضلهم عند قبره وقبر غيره ، حتى ظنوا أن صاحب القبر يحدثهم ويفتيهم ويأمرهم وينهاهم في الظاهر ، وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجا من القبر ، ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت من القبـر تكلمهم ، وأن روح الميت تجسدت لهم فرأوها كما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج يقظة لا مناما ، فان الصحابة رضوان الله عليهم خير قرون هذه الامةالتي هي خير أمة أخرجت للناس ، وهم تلقوا الدين عن النبي صلى الله عليه وسلم بـلا واسطة ففهموا من مقاصده وعاينوا من أفعاله ، وسمعوا منه شفاها مالم يحصل لمـن

بعدهم ، وهم قد فارقوا جميع أهل الارض وعادوهم ، وهجروا جميع الطوائف وأديانهم ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم الى آخر ماذكره هناك .

ثم انه يؤيد ماذكره الشيخ أن العرب في الجاهلية كثيرا ماكانوايسمعون كلاما من أصنامهم كما سمعوا من صنمهم المسمى بالجلسد وهو صنم كان بحضر موت ، وفي كتاب أبي أحمد الحسن ابن عبد الله العسكري قال :أخبرنا ابندريد قال أخبرني عمي الحسين بن دريد قال أخبرني حاتم ابن قبيصة المهلبي عن هشام بن الكلبي عن أبي مسكين ، قال : كان بحضر موت صنم يسمى الجلسد تعبده كنده وحضر موت ، وكانت سدنته بني شكامة بن شبيب بن السكون بن أشرس بن ثور بن مرتع وهو كنده ، ثم الى أهل بيت منهم يقال لهم بنو علاق ، وكان الذي يسدنه منهم يسمى الاخزر ابن ثابت ، وكان للجلسد حمى ترعاه سوامه وغنمه ، وكانت هوا في الغنم اذا رعت حمى الجلسد حرمت على أربابها ، وكانوا يكلمون منه ، وكان كجثة الرجل العظيم ، وهو من صخرة بيضاء لها كالرأس أسود ، واذا تأمله الناظر رأى فيه كصورة وجه الانسان (قال الاخزر) ، اني كنت يوما عند الجلسد وقد ذبح له رجل من بني الامري بن مهرة ذبحا اذ سمعنا فيه كهمهمة الرعد فأصغينا فاذا قائل يقول : شعارأهل عدم ، انه قضاء حتم ، ان بطش سهم ، فقد فاز سهم ، فقلنا ربنا وضاح فأعاد الصوت وهو يقول : ناء نجم العراق ، ياأخزر بن علاق ، هل أحسست جمعا عما ، وعدد أجما ، يهوى من يمن وشام ، الى ذات الاجام ، نور أظل وظلام أفل ، وملك انتقل من محل الى محل ، ثم سكت فلم ندر ماهو فقلنا هذا أمر كائن ، فلما كان في العام المقبل ــ وقد راث علينا ماكنا نسمع من كلام الصنم وساءت ظنوننا،وقربناقربانا ولطخنا بدمه وكذلك كنا نفعل ــ فاذا الصوت قد عاد الينا فتباشرنا ، فقلنا عم صباحا ربنا لامصد عنك ولا محيد تشارت الشؤن وسأت الظنون ، فالعياذ منغضبك والأياب الى صفحك ، فاذا النداء من الصنم يقول : قلبت البنات ، وعزاها واللات ، وعلياها ومناة ، منعت الافق فلا مصعد ، وحرست فلا مقعد ، وأبهمت فلا متلدد ، وكان قد ناجم نجم ، وهاجم الجم ، وصامت زجم ، وقابل رجم ، وداع نطق ، وحق سبق ، وباطل زهق ، ثم سكت فتحدثت القبائل بهذا في مخاليف اليمن ، فانا لعلى أفان ذلك ، اذ أضل رجل من كندة ابلا فأقبل الى الجلسد فنحر جزورا واستعار ثوبين من ثياب السدنة واكتراهما فلبسهما ــ وكذلك كانوا يفعلون ــ ثم قال : ــ أنشدك يارب أبكرا ضخما مدمومة دما مخلوقة بالافخاذ ، مخلوطة بالحاذ ، أضللتها

بين جماهير النخرة ، حيث الشقيقة والصفرة ، فاهد رب وارشد فلم يجب ، قال الاخزر فانكسر لذلك ، وقد كان فيما مضى يخبرنا بالاعاجيب ، فلما جن علينا الليل بت مبيتي عنده ، فاذا هاتف يقول : لا شأن للجلسد ولا رئي لهدد ، استقام الاود ، وعبد الواحد الصمد ، واكفى الحجر الاصلد ،والرأس الاسود ، قال فنهضت مذعورا فأتيت الصنم فاذا هو منقلب على رأسه ، وكان لو اجتمع فئام من الناس ماحلحلوه فوالذي نفسي بيده ماعرجت على أهل ولا مال حتى أتيت راحلتي وخرجت حتى أتيت صنعاء ، فقلت هل من خائبة خبر ؟ فقيل : ظهر رجل بمكة يدعو الى خلع الاوثان ، ويزعم أنه نبي ، فلم أزل أطوف في مخاليف اليمن حتى ظهر الاسلام ، فأتيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأسلمت ، وفي اشعارهم :

فبات يجتاب شقارى كما بيقر من يمشي الى الجلسد

والبيقر مشية يطأطيء الرجل فيها رأسه ، والبيت للمثقب العبدي ، ومنهم من قال انه لعدي بن الرقاع ، ويروى كما كبر من يمشي الى الجلسد .

وسمعوا أيضا كلاما من صنمهم المسمى بالضمار ــ وهو بكسر الضاد المعجمة وميم مخففة بعدها ألف ثم راء مهملة ــ كان صنما لبني سليم ، ولما حضرت مرداسا الوفاة قال للعباس ولده أي بني أعبد ضمارا فانه ينفعك ويضرك فبينما عباس يوما عند ضمار اذ سمع من جوف ضمار مناديا يقول :

من للقبائل من سليم كلها أودى ضمار وعاش أهل المسجد

ان الذي ورث النبوة والهدى بعد ابن مريم من قريش مهتد

أودى ضمار وكان يعبد مدة قبل الكتاب الى النبي محمد

فحرق عباس ضمارا ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وفي لفظ أن عباس بن مرداس كان في لقاح له نصف النهار اذ طلع عليه راكب على نعامة بيضاء وعليه ثياب بيض فقال له ياعباس ألم تر أن السماء قد تعب أحراسها ، وأن الحرب قد حرقت أنفاسها ، وأن الخيل وضعت أحلاسها ، وأن الذي نزل عليه البر والتقوى صاحب الناقة القصوا ؟ فقال عباس : فراعني ذلك فجئت وثنا لنا يقال له الضمار كنا نعبده ، ونكلم من جوفه فكنست ماحوله ثم تمسحت به ، فاذا صائح يصيح من جوفه :

قل للقبـــائل من قريش كلهـــا　　هلــك الضمار وفاز أهل المسجــد
هلك الضمـــار وكان يعبد مــدة　　قبــل الصلاة على النبي محمــد
ان الــذي ورث النبوة والهــدى　　بعــد ابن مريــم من قريش مهتــد

قال عباس فخرجت مع قوم بني حارثة الى رسول الله صلى الله تعالى عليــه وسلم بالمدينة فدخلت المسجد ، فلما رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم تبسم ، فقال : ياعباس كيف اسلامك ؟! فقصصت عليه القصة ، فقال : صدقت وأسلمت أنا وقومي •

وما كفى مبتدعة الرفاعية وغلاتهم تلك الاكذوبة الظاهرة العوار ، البينةالفساد حتى اتخذوا لها يوم عيد ، ولا يأكلون قبله بسبعة أيام شيئا من اللحــوم ، وبعد انقضائها يكون العيد فيهنيء بعضهم بعضا به ويسمونه عيد مد اليد • ولهم في ذلك رسائل ومصنفات ، منها القواعد المرعية في أصول الطريقة الرفاعية ، وفيها قاعدة في الخلوة الاسبوعية المحرمية ، وفيها اشترط رجال هذه الطريقة العلية دخول الخلوة المحرمية في كل سنة في اليوم الثاني عشر من محرم الحرام الى مساء اليوم السابــع عشر ، وقد اشترطوا ذلك على كل من انتسب الى هذه الطريقة ، وقالوا يلزم المختلي أن يتخذ له فراشا خالصا لايشاركه فيه النساء ، وأن يديم الوضوء كلما حدث لــه ناقض جدده ، ولا يتكلم بمالا يعنيه ، ولا يكثر الكلام لغير ضرورة ، وليلزم بيته الا لعذر وينفرد ، وليكن طعامه خاليا عن كل ذي روح ، ثم ذكر مايشرع للســالك في تلك الايام من أوراد واذكار •

ومنها الفخر المخلد في منقبة مد اليد ، وفيها بيان مايشــرع ليلة عيد الخلــوة المحرمية من البدع والاهواء ، ولم ينزل الله بها من سلطان ، ولم يتكلم بما حوتــه عالم من العلماء الاعلام ، وكلها قد تلقوها عن اخوانهم الباطنية ، والنحل الرافضية •

وليس هذا المقام مقام الرد عليهم ، وبيان مانسب من الضلال اليهم ، وقــد رد عليهم شيخ الاسلام في عدة مواضع ، وألف فيهم كتبا مفصلة ، منها كتابه الذي سماه (كشف حال المشائخ الاحمدية وبيان أحوالهم الشيطانية) نذكر منهان شاء الله تعالى مايناسب مقامه •

وأظن أن ماكتبه النبهاني الغبي في هذه المسألة انمــا هو ارضاء لشيخه شيــخ الضلال ومقدمة الدجال ، عدو المسلمين ، وناصر المبتدعين ، الذي كان قربه من ولى

الامر من أعظم المصائب وأدهى النوائب ، وقد روج بدع الرفاعية أي رواج ، وعدل بالمسلمين عن سواء السبيل وأقوم منهاج ، هذا مع ماهو عليه من الفسق والفجور ، والزيغ عن الحق في كل الامور ، وما اكتفى بذلك حتى بث حزبه ومردته يصدون عن الحق في كل سبيل ، وأقعدهم على صراط الله المستقيم للاغواء والتضليل ، حتى استفحل أمرهم ، وعم البر والبحر شرهم ، فذكر النبهاني الجاهل هذه القضية التي هي احدى حبائل شيخه ليستجلب رضاه ، فعليه وعلى شيخه مايستحقان ، والردود المؤلفة في القدح على شيخه هذا كثيرة ، وكلها مطبوعة ومشتهرة منها كتاب(المسامير) ومنها (الفتح المبين) ومنها (السيف الرباني) ومنها غير ذلك ، ولكن الامر كما قيل:

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت ايلام

ثم ان النبهاني أخذ يتكلم على فضل المدينة النبوية ، وذكر للشيخ البكري أربعين حديثا في فضلها ، والبكري هذا هو الذي رد عليه الشيخ في كتاب(الاستغاثة) وهو مجلد كبير ، ثم ذكر الخلاف في مكة والمدينة أيهما أفضل الخ •

أقول : فضل المدينة مما لاشك فيه ، والكتب مملوءة من ذلك ، قال ابن خلدون اعلم أن الله سبحانه وتعالى فضل من الارض بقاعا اختصها بتشريفه ، وجعلها مواطن لعبادته يضاعف فيها الثواب وينمو بها الاجور ، وأخبرنا بذلك على ألسن رسله وأنبيائه لطفا بعباده وتسهيلا لطرق السعادة لهم ، وكانت المساجد الثلاثة هي أفضل بقاع الارض حسبما ثبت في الصحيحين ، وهي مكة ، والمدينة ، وبيت المقدس ، أما بيت الحرام الذي بمكة فهو بيت ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، أمره الله ببنائه وأن يؤذن في الناس بالحج اليه ، فبناه هو وابنه اسماعيل كما نصه القرآن ، وقام بما أمره الله فيه وسكن اسماعيل به مع هاجر ومن نزل معهم من جرهم الى أن قبضهما الله ودفنا بالحجر منه •

وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام ، أمرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله ، ودفن كثير من الانبياء من ولد اسحق عليه السلام حواليه •

قال : والمدينة مهاجر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، أمره الله تعالى بالهجرة اليها ، واقامة دين الاسلام بها ، فبنى مسجده الحرام بها ، وكان ملحده الشريف في تربتها •

قال : فهذه المساجد الثلاثة قرة عين المسلمين ، ومهوى أفئدتهم ، وعظمة دينهم،

وفي الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب في مجاورتها والصلاة فيها كثير معروف •

ثم انه أشار الى شيء من الخبر عن أولية هذه المساجد الثلاثة ، وكيف تدرجت أحوالها الى أن كمل ظهورها في العالم ، وقد ذكر ياقوت الحموي ذلك بتفصيل أكثر على أنه قد أفرد لذلك كتب مخصوصة مشهورة ، فلا تتعب القلم بذكرها •

(وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية) في جواب سؤال ورده عن صحة أصول مذهب أهل المدينة ومنزلة مالك المنسوب اليه مذهبهم في الامامة والديانة وضبط علوم الشريعة عند أئمة علماء الامصار وأهل الثقة والخبرة من سائر الاعصار •

(أجاب رضي الله عنه) الحمد لله : مذهب أهل المدينة النبوية — دار السنة ودار الهجرة ودار النصرة اذ فيها سن الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم سنن الاسلام وشرائعه واليها هاجر المهاجرون الى الله ورسوله وبها كان الانصار أنصار الله الذين تبوؤاا لدار والايمان من قبلهم مذهبهم — في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أصح مذاهب أهل المذاهب الاسلامية شرقا وغربا في الاصول والفروع ، وهذه الاعصار الثلاثة هي أعصار القرون المفضلة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح من وجوه (خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم) فذكر ابن حبان بعد قرنه قرنين بلا نزاع ، وفي بعض الاحاديث الشك في القرن الثالث بعد قرنه ، وقد روى في بعضها بالجزم باثبات القرن الثالث بعد قرنه فتكون أربعة ، واعتمد على ذلك أبو حاتم السلمي ونحوه من علماء أهل الحديث في طبقات هذه الامة بأن هذه الزيادة ثابتة في الصحيح ، ثم انه ذكر أحاديث الثلاثة والاحاديث التي فيها ذكر القرن الرابع — الى أن قال — وفي القرون التي أثنى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مذهب أهل المدينة ، أصح مذاهب أهل المدائن ، فانهم كانوا يتأسون بأثر رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من سائر الامصار ، وكان غيرهم من أهل الامصار دونهم في العلم بالسنة النبوية واتباعها ، حتى أنهم لايفتقرون الى نوع من سياسة الملوك ، وأن افتقار العلماء ومقاصد العباد أكثر من افتقار أهل المدينة حيث كانوا أغنى من غيرهم عن ذلك كله بما كان عندهم من الآثار النبوية التي يفتقر الى العلم بها واتباعها كل أحد ، ولهذا لم يذهب أحد من علماء المسلمين الى أن اجماع أهل مدينة من المدائن حجة يجب اتباعها غير المدينة ، لا في تلك الاعصار ولا فيما بعدها ، لا اجماع أهل مكة ولا الشام ولا العراق ولا غير ذلك من أمصار المسلمين ، ومن حكى عن أبي حنيفة أو أحد من

أصحابه أن اجماع أهل الكوفة حجة يجب اتباعها على كل مسلم فقد غلط على أبي حنيفة وأصحابه في ذلك •

وأما المدينة فقد تكلم الناس في اجماع أهلها ، واشتهر عن مالك وأصحابه أن اجماع أهلها حجة ، وأن بقية الأئمة ينازعونهم في ذلك ، والكلام انما هو في اجماعهم في تلك الاعصار المفضلة • وأما بعد ذلك فقد اتفق الناس على أن اجماع أهلها ليس بحجة ، اذ كان حينئذ في غيرها من العلماء مالم يكن فيها ، لاسيما من حين ظهر بها الرفض ، فان أهلها مستمسكون بمذهبهم القديم ، منتسبين الى مذهب مالك الى أوائل المائة السادسة أو قبل ذلك أو بعد ذلك ، فانهم قدم اليهم من رافضة المشرق من أهل قاشان وغيرهم من أفسد مذهب كثير منهم ، لاسيما المنتسبون منهم الى العترة النبوية ، وقدم عليهم بكتب أهل البدع المخالفة للكتاب والسنة ، وبذل لهم أموالا فكثرت البدعة بها من حينئذ ، فأما الاعصار المفضلة فلم يكن فيها بالمدينة النبوية بدعة ظاهرة البتة ، ولا خرج منها بدعة في أصول الدين ، كما خرج من سائر الامصار فان الامصار الكبار التي سكنها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج منها العلم والايمان خمسة : البحران ، والعراقان ، والشامان ، منها خرج القرآن والحديث والفقه والعبادة وما يتبع ذلك من أمور الاسلام •

وخرج من هذه الامصار بدع أصولية غير المدينة النبوية ، فالكوفة خرج منها التشيع والارجاء ، وانتشر بعد ذلك في غيرها ، والبصرة خرج منها القدر والاعتزال الفاسد ، وانتشر بعد ذلك في غيرها • والشام كان بها النصب والقدر ، وأما التجهم فانما ظهر من ناحية خراسان ، وهو شر البدع ، ولأن ظهور البدع بحسب البعد عن الدار النبوية ، فلما حدثت الفرقة بعد مقتل عثمان ظهرت بدعة الحرورية ، وتقدم بعقوبتها الشيعة من الاصناف الثلاثة الغالية حيث حرقهم علي بالنار ، والمفضلة حيث تقدم جلدهم ثمانين ، والسبائية حيث طلب أن يعاقب ابن سبا بالقتل أو بغيره فهرب منه ، ثم في أواخر عصر الصحابة حدثت القدرية في آخر عصر ابن عمر وابن عباس وجابر وأمثالهم من الصحابة وحدثت المرجئة قريبا من ذلك •

وأما الجهمية فانما حدثوا في أواخر عصر التابعين بعد موت عمر بن عبد العزيز، وقد روي أنه أنذر بهم ، وكان ظهور جهم بخراسان في خلافة هشام بن عبد الملك ، وقد قتل المسلمون شيخهم الجعد بن درهم قبل ذلك ، ضحى به خالد بن عبد الله القسري ، وقال : يأيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فاني مضح بالجعد بن درهم

انه زعم أنه لم يتخذ الله ابراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى عما يقول الجعد بن درهم علوا كبيرا ، ثم نزل فذبحه ، وقد روى أن ذلك بلغ الحسن البصري وأمثاله من التابعين فشكروا ذلك .

(وأما المدينة النبوية) فكانت سليمة من ظهور هذه البدع ، وان كان بها من هو مضمر لذلك كان عندهم مهانا مذموما ، اذ كان بها قوم من القدرية وغيرهم ، لكن كانوا مذمومين مقهورين ، بخلاف التشيع والارجاء بالكوفة ، والاعتزال وبدع النساك بالبصرة ، والنصب بالشام ، فانه كان ظاهرا ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الدجال لايدخلها ، ويحكى أن عمرو بن عبيد وهو رأس المعتزلة ممن كان يساجي سفيان الثوري ولم يعلم سفيان به فقال عمرو لرجل من هذا فقال سفيان الثوري أو قال من أهل الكوفة قال ولو علمت بذلك لدعوته الى رأيي ولكن ظننته من هؤلاء المدنيين الذين يجيئونك من فوق .

ولم يزل العلم والايمان بها ظاهرا الى زمن أصحاب مالك ، وهم أصل القرن الرابع ، حيث أخذ ذلك القرن عن مالك وأهل طبقته ، كالثوري والاوزاعي والليث بن سعد وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وسفيان بن عيينة وأمثالهم ، وهؤلاء أخذوا عن طوائف من التابعين ، وأولئك أخذوا عمن أدركوا من الصحابة ،والكلام في اجماع أهل المدينة في تلك الاعصار .

(والتحقيق في مسألة اجماع أهل المدينة) أن منه ماهو متفق عليه بين المسلمين ومنه ماهو قول جمهور أئمة المسلمين ، ومنه مالا يقول به الا بعضهم ، وذلك أن اجماع أهل المدينة على أربع مراتب .

(الاولى) مايجري مجرى النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، مثل نقلهم لمقدار الصاع والمد ، وكترك صدقة الخضراوات والاجناس ، فهذا مما هو حجة باتفاق العلماء .

أما الشافعي وأحمد وأصحابهما فهذا حجة عندهم بلا نزاع ، كما هو حجة عند مالك ، وذلك مذهب أبي حنيفة وأصحابه ، قال أبو يوسف رحمه الله — وهو أجل أصحاب أبي حنيفة ، وأول من لقب قاضي القضاة ، لما اجتمع بمالك وسأله عن هذه المسائل ، وأجابه مالك بنقل أهل المدينة المتواتر رجع أبو يوسف الى قوله وقال — لو رأى صاحبي مثل مارأيت لرجع مثل مارجعت .

فقد نقل أبو يوسف أن مثل هذا النقل حجة عند صاحبه أبي حنيفة كما هو حجة عند غيره ، لكن أبو حنيفة لم يبلغه هذا النقل كما لم يبلغه ولم يبلغ غيره من الأئمة كثير من الحديث فلا لوم عليهم في ترك مالم يبلغهم علمه ، وكان رجوع أبي يوسف الى هذا النقل كرجوعه الى أحاديث كثيرة اتبعها هو وصاحبه محمد وتركا قول شيخهما لعلمهما بأن شيخهما كان يقول ان هذه الاحاديث أيضا صحت لكن لم تبلغه ، ومن ظن بأبي حنيفة أو غيره من أئمة المسلمين أنهم يتعمدون مخالفة الحديث الصحيح لقياس أو غيره فقد أخطأ عليهم ، وتكلم اما بظن واما بهوى ، فهذا أبوحنيفة يعمل بحديث التوضي بالنبيذ بالسفر مخالفة للقياس ، وبحديث القهقهة في الصلاة مع مخالفته للقياس ، لاعتقاده صحتهما وان كان أئمة الحديث لم يصححوه ، قال : وقد بينا هذا في رسالة (رفع الملام ، عن الائمة الاعلام) وبينا أن أحدا من أئمة الاسلام لايخالف حديثا صحيحا بغير عذر ، بل لهم نحو من عشرين عذرا : مثل أن يكون أحدهم لم يبلغه الحديث ، أو بلغه من وجه لم يثق به ، أو لم يعتقد دلالتهعلى الحكم ، أو اعتقد أن ذلك الدليل قد عارضه ماهو أقوى منه ، كالناسخ أو مايدل على الناسخ وأمثال ذلك ، والاعذار يكون العالم في بعضها مصيبا فيكون له أجران ، ويكون في بعضها مخطئا بعد اجتهاده فيثاب على اجتهاده وخطؤه مغفور له ، لقوله تعالى: (رَبَّنا لا تؤاخذنا إن نسينَا أوْ اخطأنا) وقد ثبت في الصحيح أن الله استجاب هذا الدعاء وقال قد فعلت ، ولأن العلماء ورثة الانبياء .

وقد ذكر الله عن داود وسليمان أنهما حكما في قضية ، وأنه فهمها أحدهما ،ولم يعب الآخر بل أثنى على كل واحد منهما بأنه حكما وعلما ، فقال : (وداودَ وسُليمانَ إذ يحكمان في الحرث إذ نَفَشَتْ فيه غنمُ القوم وكنَّا لحكْمهم شاهدين ففهَّمْناها سُليمانَ وكُلاً آتيْنا حُكْماً وعِلْماً)[1]

وهذه الحكومة تتضمن مسألتين تنازع فيهما العلماء : مسألة نفش الدواب في الحرث بالليل وهو مضمون عند جمهور العلماء كمالك والشافعي وأحمد ، وأبوحنيفة لم يجعله مضمونا ، والثانية : ضمان بالمثل والقيمة ، وفي ذلك نزاع في مذهب الشافعي وأحمد وغيرهما ، والمأثور عن أكثر السلف في نحو ذلك يقتضي الضمان بالمثل اذا أمكن ، كما قضى به سليمان ، وكثير من الفقهاء لايضمنون ذلك الا بالقيمة

---

(١) الانبياء : ٧٨

كالمعروف من مذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد •

والمقصود هنا : أن عمل أهل المدينة الذي يجري مجري النقل حجة باتفاق المسلمين ، قال مالك لأبي يوسف ـ لما سأله عن الصاع والمد وأمر أهل المدينة باحضار صيعانهم وذكروا له أن اسنادها على أسلافهم ـ أترى هؤلاء ياأبايوسف يكذبون ؟ قال لا والله مايكذبون ، فانا حررت هذه الصيعان فوجدتها خمسة أرطال وثلث بأرطالكم ياأهل العراق ، فقال : رجعت الى قولك ياأبا عبد الله ، ولو رأى صاحبي مارأيت لرجع كما رجعت •

وسأله عن صدقة الخضراوات ، فقال : هذه مباقيل أهل المدينة لم يؤخذ منها صدقة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبي بكر ولا عمر رضي الله تعالى عنهما يعني وهي تنبت فيها الخضراوات •

وسأله عن الاجناس ، فقال : هذا جنس فلان وهذا جنس فلان ، يذكر لبيان الصحابة ، فقال أبو يوسف في كل منهما : قد رجعت ياأبا عبد الله ، ولو رأى صاحبي مارأيت لرجع كما رجعت •

وأبو يوسف ومحمد وافقا بقية الفقهاء في أنه ليس في الخضراوات صدقة كمذهب مالك والشافعي وأحمد ، وفي أنه ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة كمذهب هؤلاء ، وأن الوقف عنده لازم كمذهب هؤلاء •

وانما قال برطالكم ياأهل العراق لأنه لما انقرضت الدولة الاموية وجاءت دولة ولد العباس قريبا فقام أخوه أبو جعفر الملقب بالمنصور فبنى بغداد فجعلها دار ملكه، وكان أبو جعفر يعلم أن أهل الحجاز حينئذ كانوا أعنى بدين الاسلام من أهل العراق•

ويروى أنه قال ذلك لمالك أو غيره من علماء المدينة ، قال نظرت في هذا الامر فوجدت أهل العراق أهل كذب وتدليس أو نحو ذلك ، ووجدت أهل الشام انما هم أهل غزو وجهاد ، ووجدت هذا الامر فيكم •

ويقال انه قال لمالك وأنت أعلى أهل الحجاز أو كما قال ، فطلب أبو جعفر علماء الحجاز أن يذهبوا الى العراق وينشروا العلم فيه ،فقدم عليهم هشام بن عروة ،ومحمد بن اسحق ، ويحيى بن سعيد الانصاري ، وربيعة بن أبي عبد الرحمن ، وحنظلة بن أبي شقيق الجمجي ، وعبد العزيز ابن أبي سلمة الماجشون ، وغير هؤلاء ، وكان أبو

يوسف يختلف في مجالس هؤلاء ويتعلم منهم الحديث وأكثر ممن قدم الحجاز •

ولهذا يقال في أصحاب أبي حنيفة : أبو يوسف أعلمهم بالحديث ، وزفر أطردهم للقياس ، والحسن بن زياد اللؤلؤي أكثرهم تفريعا ، ومحمد أعلمهم بالعربية والحساب ، وربما قيل أكثرهم تفريعا ، فلما صارت العراق دار الملك واحتاج الناس الى تعريف أهلها بالسنة والشريعة غير المكيال الشرعي برطل أهل العراق ، وكان رطلهم بالحنطة الثقيلة والعدس اذ ذاك تسعين مثقالا ، مائة وثمانية وعشرون درهما وأربعة أسباع الدرهم ، فهذا هو المرتبة الاولى لاجماع أهل المدينة وهو حجة باتفاق المسلمين •

(المرتبة الثانية) العمل القديم بالمدينة قبل مقتل عثمان بن عفان ، فهذا حجة في مذهب مالك ، وهو المنصوص عن الشافعي ، قال في رواية يونس بن عبد الاعلى اذا رأيت قدماء أهل المدينة على شيء فلا تتوقف في قلبك ريبا انه الحق ، وكذا ظاهر مذهب أحمد أن ماسنه الخلفاء الراشدون فهو حجة يجب اتباعها ، وقال أحمد كل بيعة كانت في المدينة فهي خلافة النبوة ، ومعلوم أن بيعة أبي بكر وعمر وعثمان كانت بالمدينة ، وكذلك بيعة علي كانت بالمدينة ، ثم خرج منها وبعد ذلك لم يعقد بالمدينة بيعة ، وقد ثبت في الحديث الصحيح حديث العرباض بن سارية عن النبي صلى الله تعالى عليهو سلم أنه قال : (عليكم بسنتي وسنة الخلفاءالراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، واياكم ومحدثات الامور ، فان كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار) وفي السنن من حديث سفينة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم تكون ملكا عضوضا) فالمحكي عن أبي حنيفة يقتضي أن قول الخلفاء الراشدين يخالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم •

(والمرتبة الثالثة) اذا تعارض في المسألة دليلان كحديثين وقياسين جهل أيهما أرجح وأحدهما يعمل به أهل المدينة : ففيه نزاع ، فمذهب مالك والشافعي أنه يرجح بعمل أهل المدينة ، ومذهب أبي حنيفة أنه لايرجح بعمل أهل المدينة ولاصحاب أحمد وجهان :

(أحدهما) وهو قول القاضي أبي يعلىوابن عقيل أنه لايرجح •

(والثاني) وهو قول أبي الخطاب وغيره أنه يرجح به ، قيل هذا هو المنصوص عن أحمد ، ومن كلامه قال اذا رأى أهل المدينة حديثا وعملوا به فهو الغاية ، وكان

يفتي على مذهب أهل المدينة ويقدمه على مذهب أهل العراق تقريرا كثيرا ، وكان يدل المستفتي على مذاهب أهل الحديث ومذهب أهل المدينة ، ويدل المستفتي على اسحق وأبي عبيدة وأبي ثور ونحوهم من فقهاء أهل الحديث ، ويدله على حلقة المدنيين حلقة أبي مصعب الزهري ونحوه ، وأبو مصعب هو آخر من مات من رواة الموطأ عن مالك ، مات بعد أحمد بسنة سنة اثنين وأربعين ومائتين ، وكان أحمد يكره أن يرد على أهل المدينة كما يرد على أهل الرأي ، ويقول انهم اتبعوا الآثار ، فهذا مذهب جمهور الأئمة يوافق مذهب مالك في الترجيح لأقوال أهل المدينة .

(وأما المرتبة الرابعة) فهي العمل المتأخر بالمدينة فهذا هل هو حجة شرعية يجب اتباعها أم لا ؟ فالذي عليه أئمة الناس انه ليس بحجة شرعية ، هذا مذهب الشافعي وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم ، وهو قول المحققين من أصحاب مالك ، كما ذكر ذلك الفاضل عبد الوهاب في كتابه أصول الفقه وغيره ، ذكر أن هذا ليس اجماعا ولا حجة عند المحققين من أصحاب مالك ، وربما جعله حجة بعض أهل الغرب من أصحابه ، وليس معه للأئمة نص ولا دليل ، بل هم أهل تقليد . قلت : ولم أر في كلام مالك ما يوجب جعل هذا حجة ، وهو في الموطأ انما يذكر الاصل المجمع عليه عندهم فهو يحكي مذهبهم ، وتارة يقول الذي لم يزل عليه أهل العلم ببلدنا يصير الى الاجماع القديم ، وتارة لايذكر ، ولو كان مالكا يعتقد أن العمل المتأخر حجة يجب على جميع الامة اتباعها — وان خالفت النصوص — لوجب عليه أن يلزم الناس بذلك حد الامكان ، كما يجب عليه أن يلزمهم اتباع الحديث والسنة الثابتة التي لاتعارض فيها ، وبالاجماع .

وقد عرض عليه الرشيد أو غيره أن يحمل الناس على موطئه فامتنع من ذلك ، وقال : ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في الامصار وانما جمعت على أهل بلدي أو كما قال .

واذا تبين أن اجماع أهل المدينة تفاوت فيه مذاهب جمهور الائمة علم بذلك أن قولهم أصح أقوال أهل الامصار رواية ورأيا ، وأنه تارة يكون حجة قاطعة ، وتارة حجة قوية ، وتارة مرجحا للدليل ، اذ ليست هذه الخاصية لشيء من أمصار المسلمين، ومعلوم أن من كان بالمدينة من الصحابة هم خيار الصحابة اذ لم يخرج منها أحد قبل الفتنة الا وأقام بها من هو أفضل منه ، فانه لما فتح الشام والعراق وغيرهما أرسل عمر بن الخطاب الى الامصار من يعلمهم الكتاب والسنة ، فذهب الى العراق عبد

الله بن مسعود ، وحذيفة ابن اليمان ، وعمار ابن ياسر ، وعمران ابن حصين ،وسلمان الفارسي وغيرهم • وذهب الى الشام معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبوالدرداء وبلال بن رباح وأمثالهم • وبقي عنده مثل عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف ،ومثل أبي بن كعب ومحمد بن مسلمة وزيد ابن ثابت وغيرهم ، وكان ابن مسعود وهو أعلم من كان بالعراق من الصحابة يفتي بالفتيا ، ثم يأتي المدينة فيسأل علماء أهل المدينة فيردونه عن قوله فيرجع ، كما جرى في مسألة أمهات النساء لما ظن ابن مسعود أن الشرط فيها وفي الربيبة ، وأنه اذا طلق امرأته قبل الدخول حلت أمها كما تحل ابنتها، فلما جاء الى المدينة وسأل عن ذلك أخبره علماء الصحابة أن الشرط في الربيبة دون الامهات فرجع الى قولهم ، وأمر الرجل بفراق امرأته بعدما حلت •

وكان أهل المدينة فيما يعملون : إما سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإما أن يرجعوا الى قضايا عمر بن الخطاب : ويقال : إن مالكا أخذ جل الموطأ عن ربيعة ، وربيعة عن سعيد بن المسيب ، وسعيد ابن المسيب عن عمر ، وعمر محدث ، وفي الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لو لم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر) وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (كان في الامم قبلكم محدثون فان يكن في أمتي أحد فعمر) ، وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر) وكان عمر يشاور أكابر الصحابة كعلي وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن وهم أهل الشورى ، ولهذا قال الشعبي انظروا ماقضى به عمر فانه كان يشاور ، ومعلوم أن ماكان يقضي أو يفتي به عمر يشاور فيه هؤلاء أرجح مما يقضي أو يفتي به ابن مسعود أو نحوه رضي الله تعالى عنهم أجمعين •

وكان عمر — في مسائل الدين والاصول والفروع — انما يتبع لما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يشاور عليا وغيره من أهل الشورى ، كما شاوره في المطلقة المعتدة الرجعية في المرض اذا مات زوجها هل ترث وأمثال ذلك ، فلما قتل عثمان وحصلت الفتنة والفرقة وانتقل علي الى العراق هو وطلحة والزبير لم يكن بالمدينة من هو مثل هؤلاء ، ولكن كان بها من الصحابة مثل سعد بن أبي وقاص وأبي أيوب ومحمد بن مسلمة وأمثالهم من هو أجل ممن مع علي من الصحابة ، فأعلم من كان بالكوفة من الصحابة علي وابن مسعود ، وعلي كان بالمدينة اذكان بها عمروعثمان وابن مسعود وهو نائب عمر وعثمان ، ومعلوم أن عليا مع هؤلاء أعظم علما وفضلا

من جميع من معه من أهل العراق ، ولهذا كان الشافعي يناظر بعض أهل العراق في الفقه محتجا على المناظر بقول علي وابن مسعود ، فصنف الشافعي كتاب اختلاف علي وعبد الله يبين فيه ماتركه المناظر وغيره من أهل العلم من قولهما ، وجاء بعده محمد بن نصر المروزي صنف في ذلك أكثر مما صنف الشافعي ـ الى أن قال ـ ومما يوضح الامر في ذلك أن سائر أمصار المسلمين ـ غير الكوفة ـ كانوا منقادين لعلم أهل المدينة لايعدون أنفسهم أكفاءهم في العلم كأهل الشام ومصر ، مثل الاوزاعي ومن قبله وبعده من الشاميين ، ومثل الليث بن سعد ومن قبل ومن بعد من المصريين وان تعظيمهم لعمل أهل المدينة واتباعهم لمذاهبهم القديمة ظاهر بين ، وكذلك علماء أهل البصرة كأيوب وحماد بن زيد وعبد الرحمن بن مهدي وأمثالهم ، ولهذا ظهر مذهب أهل المدينة في هذه الامصار ، فان أهل مصر صاروا ناصرة لقول أهل المدينة ، وهم أجلاء أصحاب مالك المصريين كابن وهب وابن القاسم وأشهب وعبد الله بن الحكم ، والشاميون مثل الوليد بن مسلم ومروان ابن محمد وأمثالهم لهم روايات معروفة عن مالك ، وأما أهل العراق كعبد الرحمن بن مهدي وحماد ابن زيد ، ومثل اسمعيل بن اسحق القاضي وأمثالهم كانوا على مذهب مالك ، وكانوا قضاة القضاة واسمعيل ونحوه كانوا من أجل علماء الاسلام •

وأما الكوفيون بعد الفتنة والفرقة يدعون مكافأة أهل المدينة ، وأما قبل الفتنة والفرقة فقد كانوا متبعين لأهل المدينة ومنقادين لهم ، لايعرف بعد مقتل عثمان أن أحدا من أهل الكوفة أو غيرها يدعي أن أهل مدينته أعلم من أهل المدينة ، فلما قتل عثمان وتفرقت الامة وصاروا شيعا ظهر من أهل الكوفة من يساوي بعلماء أهل الكوفة علماء أهل المدينة ، ووجه الشبهة في ذلك أنه ضعف أمر المدينة لخروج خلافة النبوة منها ، وقوي أمر أهل العراق لحصول علي فيها •

لكن مافيه الكلام من مسائل الفروع والاصول قد استقر في خلافة عمر ، ومعلوم أن قول أهل الكوفة مع سائر الامصار قبل الفرقة أولى من قولهم وحديثهم بعد الفرقة •

قال عبيدة السلماني ـ قاضي علي كرم الله وجهه ـ رأيك مع عمر في الجماعة أحب الينا من رأيك وحدك في الفرقة ، ومعلوم أنه كان بالكوفة من الفتنة والتفرق مادل عليه النص والاجماع ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : (الفتنة من ههنا ، الفتنة من ههنا ، الفتنة من ههنا ، من حيث يطلع قرن الشيطان) وهذا الحديث قد

ثبت عنه في الصحيح من غير وجه •

ومما يوضح الامر في ذلك : أن العلم اما رواية واما رأي ، وأهل المدينة أصح أهل المدن رواية ورأيا ، وأما حديثهم فأصح الاحاديث ، وقد اتفق أهل العلم بالحديث على أن أصح الاحاديث أحاديث أهل المدينة ، ثم أحاديث أهل البصرة • وأما أحاديث أهل الشام : فهي دون ذلك ، فانه لم يكن لهم من الاسناد المتصل وضبط الالفاظ مالهؤلاء ، ولم يكن منهم — يعني أهل المدينة ، ومكة ، والبصرة ، والشام — من يعرف بالكذب ، لكن منهم من يضبط ، ومنهم من لايضبط •

وأما أهل الكوفة : فلم يكن الكذب في أهل بلد أكثر منه فيهم ، ففي زمن التابعين كان بها خلق كثير منهم معروفون بالكذب ، لاسيما الشيعة ، فانهم أكثر الطوائف كذبا باتفاق أهل العلم ، ولاجل هذا يذكر عن مالك وغيره من أهل المدينة أنهم لم يكونوا يحتجون بعامة أحاديث أهل العراق ، لأنهم قد علموا أن فيهم كذابين ، ولم يكونوا يميزون بين الصادق والكاذب ،فاما إذا علموا صدق الحديث فانهم يحتجون به ، كما روى مالك عن أيوب السختياني وهو عراقي ، فقيل له ذلك ، فقال ماحدثتكم عن أحد الا وأيوب أفضل منه أو نحو هذا ، وهذا القول هو القول القديم للشافعي ، حتى روي أنه قيل له : اذا روى سفيان عن منصور عن علقمة عن عبد الله حديثا ألا يحتج به ؟ فقال : ان يكن له أصل بالحجاز والا فلا • ثم ان الشافعي رجع عن ذلك ، وقال لأحمد بن حنبل أنتم أعلم بالحديث منا ، فاذا صح الحديث فأخبرني به حتى أذهب اليه ، شاميا كان أو بصريا أو كوفيا ، ولم يقل مكيا أو مدنيا لأنه كان يحتج بهذا قبل •

وأما علماء أهل الحديث كشعبة ويحيى بن سعيد وأصحاب الصحيح والسنن فكانوا يميزون بين الثقات الحفاظ وغيرهم ممن بالكوفة والبصرة من الثقات الذين لاريب فيهم ، وان فيهم من هو أفضل من كثير من أهل الحجاز ، ولا يستريب عالم في مثل أصحاب عبد الله ابن مسعود : كعلقمة ، والاسود ، وعبيدة السلماني ، والحارث التيمي ، وشريح القاضي ، ثم مثل ابراهيم النخعي ، والحكم بن عتيبة وأمثالهم من أوثق الناس وأحفظهم ، فلهذا صار علماء الاسلام متفقين على الاحتجاج بما صححه أهل العلم بالحديث من أي مصر كان ، وصنف أبو داود السجستاني مفاريد أهل الامصار يذكر فيه ماانفرد أهل كل مصر من المسلمين من أهل العلم بالسنة •

(وأما الفقه والرأي) فقد علم أن أهل المدينة لم يكن فيهم من ابتدع بدعة في أصول الدين ، ولما حدث الكلام في الرأي في أوائل الدولة العباسيه وفرع لهم ربيعة

بن هرمز فرعا كما فرع عثمان الليثي وأمثاله بالبصرة ، وأبو حنيفة وأمثاله بالكوفة ، وصار في الناس من يقبل ذلك وفيهم من يرد ، وصار الرادون لذلك مثل هشام ابن عروة وأبي الزناد والزهري وابن عيينة وأمثالهم ، فان ردوا ماردوا من الرأي المحدث بالمدينة فهم للرأي المحدث بالعراق أشد ردا ، فلم يكن أهل المدينة أكثر من أهل العراق فيما لايحمد ، وهم فوقهم فيما يحمدونه ، وبهذا يظهر الرجحان •

وأما ماقال هشام بن عروة : لم يزل أمر بني اسرائيل معتدلا حتى نشأ فيهم المولدون ــ أبناء سبايا الامم ــ فقالوا فيهم بالرأي فضلوا وأضلوا ، قال ابن عيينة : فنظرنا في ذلك فوجدنا ماحدث من الرأي انما هو من المولدين أبناء سبايا الامم ، وذكر بعض من كان بالمدينة وبالبصرة وبالكوفة ، والذين بالمدينة أحمد عند هذا ممن بالعراق من أهل المدينة •

ولما قال مالك رضي الله تعالى عنه عن احدى الدولتين انهم كانوا اتبع للسنن من الدولة الاخرى ، قال ذلك لأجل ماظهر بمقاربتها من الحدثان ، لأن أولئك أولى بالخلافة نسبا وقرنا •

وقد كان المنصور والمهدي والرشيد ــ وهم سادات خلفاء بني العباس ــ يرجحون علماء الحجاز وقولهم على علماء أهل العراق ، كما كان خلفاء بني أمية يرجحون أهل الحجاز على علماء الشام ، ولما كان فيهم من لم يسلك هذا السبيل بل عدل الى الآراء المشرقية كثر الاحداث فيهم وضعفت الخلافة •

ثم ان بغداد انما صار فيها من العلم والايمان وترجحت على غيرها بعد موت مالك وأمثاله من علماء أهل الحجاز ، وسكنها من أفشى السنة بها وأظهر حقائق الاسلام ، مثل أحمد بن حنبل ، وأبي عبيدة ، وأمثالهما من فقهاء أهل الحديث ، ومن ذلك الزمان ظهرت بها السنة في الاصول والفروع ، وكثر ذلك فيها وانتشر منها الى الامصار ، وانتشر أيضا من ذلك الوقت من المشرق والمغرب ، فصار في المشرق مثل اسحق بن ابراهيم بن راهويه وأصحابه ، وأصحاب عبد الله بن المبارك ، وصار الى المغرب من علم أهل المدينة مانقل اليهم من علماء الحديث ، فصار في بغداد وخراسان والمغرب من العلم مايكون مثله اذ ذاك بالحجاز والبصرة ، ولم يكن بعد عصر مالك وأصحابه من علماء الحجاز من يفضل على علماء العراق والمشرق والمغرب ، وهذا باب يطول تتبعه ولو استقصينا فضل علماء أهل المدينة وصحة أصولهم لطال الكلام •

(اذا تبين ذلك) فلا ريب عند أحد أن مالكا رضي الله عنه أقوم الناس بمذهب أهل المدينة رواية ورايا ، فانه لم يكن في عصره ولا بعده أقوم بذلك منه ، كان له من المكانة عند أهل الاسلام ـ الخاص منهم والعام ـ مالايخفى على من له بالعلم أدنى المام ، وقد جمع الحافظ أبو بكر الخطيب أخبار الرواة عن مالك فبلغوا ألفا وسبعمائة أو نحوها ، وهؤلاء الذين اتصل الى الخطيب حديثهم بعد قريب من ثلاثمائة سنة ، فكيف بمن انقطعت أخبارهم ولم يتصل اليه خبرهم ، فان الخطيب توفي سنة اثنين وسبعين وأربعمائة ، وعصره وعصر ابن عبد البر والبيهقي والقاضي أبي يعلي وأمثال هؤلاء واحد ، ومالك توفي سنة تسع وسبعين ومائة ، وتوفي أبو حنيفة سنة خمسين ومائة ، وتوفي الشافعي سنة أربع ومائتين ، وتوفي أحمد بن حنبل سنة احدى وأربعين ومائتين ، ولهذا قال الشافعي : ماتحت أديم السماء كتاب أكثر صوابا بعد كتاب الله من موطأ مالك ، وهو كما قال الشافعي رضي الله عنه .

وهذا لايعارض ماعليه أئمة الاسلام من أنه ليس بعد القرآن كتاب أصح من صحيح البخاري ومسلم ، مع أن الأئمة على أن البخاري أصح من مسلم ، ومن رجح مسلما فانه رجحه بجمعه ألفاظ الحديث في مكان واحد ، فان ذلك أيسر على من يريد جمع ألفاظ الحديث .

وأما من زعم أن الاحاديث التي انفرد بها مسلم أو الرجال الذين انفرد بهم أصح من الاحاديث التي انفرد بها البخاري ، ومن الرجال الذين انفرد بهم : فهذا غلط لايشك فيه عالم ، كما لايشك أحد أن البخاري أعلم من مسلم بالحديث والعلل والتاريخ ، وأنه أفقه منه ، اذ البخاري وأبو داود أفقه أهل الصحيح والسنن المشهورة ، وان كان قد يتفق لبعض ماانفرد به مسلم أن يرجح على بعض ماانفرد به البخاري فهذا قليل والغالب بخلاف ذلك ، فان الذي اتفق عليه أهل العلم انه ليس بعد القرآن كتاب أصح من كتاب البخاري ومسلم ، وانما كانا كذلك لأنه جرد فيهما الحديث الصحيح المسند ، ولم يكن القصد بتصنيفهما ذكر آثار الصحابة والتابعين ولا سائر الحديث من الحسن والمرسل وشبه ذلك ، ولا ريب أن ماجرد فيه الحديث الصحيح المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أصح الكتب ، لانه أصح منقولا عن المعصوم من الكتب المصنفة .

وأما الموطأ ونحوه فانه صنف على طريقة العلماء المصنفين اذ ذاك ، فان الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يكتبون القرآن ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد نهاهم أن يكتبوا عنه غير القرآن ، وقال : (من كتب عني شيئا غير

القرآن فليمحه) ثم نسخ ذلك عن جمهور العلماء حيث أذن في الكتابة لعبد الله بن عمر ، وقال اكتبوا لأبي شاه ، وكتب لعمرو بن حزم كتابا ، قالوا وكان النهي أولا خوفا من اشتباه القرآن بغيره ، ثم أذن لما أمن ذلك ، فكان الناس يكتبون من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مايكتبون ،وكتبوا أيضا غيره ،ولم يكونوا يصنفون ذلك في كتب مصنفة الى زمن تابعي التابعين ، فصنف العلم ، فأول من صنف ابن جريج شيئا في التفسير ، وشيئا في الاموات ، وصنف سعيد ابن أبي عروبة ، وحماد بن سلمة ، ومعمر وأمثال هؤلاء يصنفون مافي الباب عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، وهذه هي كانت كتب الفقه والعلم والاصول والفروع بعد القرآن ، فصنف مالك الموطأ على هذه الطريقة ، وصنف بعد عبد الله ابن المبارك ، وعبد الله بن وهب ، ووكيع بن الجراح ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وعبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وغير هؤلاء ، فهذه الكتب التي كانوا يعدونها في ذلك الزمان هي التي أشار اليها الشافعي رحمه الله تعالى ، فقال : ليس بعد القرآن كتاب أكثر صوابا من موطأ مالك ، فان حديثه أصح من حديث نظرائه ، وكذلك الامام أحمد — لما سئل عن حديث مالك ورأيه ، وحديث غيره ورأيهم — رجح حديث مالك ورأيه على حديث أولئك ورأيهم ، وهذا يصدق الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (يوشك أن يضرب الناس أكباد الابل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة) فقد روي عن غير واحد كابن جريج وابن عيينة وغيرهما أنهم قالوا هو مالك .

والذين نازعوا في هذا لهم مأخذان (أحدهما) الطعن في الحديث ، فزعم بعضهم أن فيه انقطاعا (والثاني) أنه أراد غير مالك كالعمري الزاهد ونحوه ، فيقال : مادل عليه الحديث وأنه مالك أمر مقرر لمن كان موجودا وبالتواتر لمن كان غائبا ، فانه لاريب أنه لم يكن في عصر مالك أحد ضرب اليه الناس أكباد الابل أكثر من مالك ، وهذا يقرر بوجهين (أحدهما) بطلب تقديمه على مثل الثوري ، والاوزاعي ، والليث وأبي حنيفة ، وهذا فيه نزاع ولا حاجة اليه في هذا المقام (والثاني) أن يقال : ان مالكا تأخر موته عن هؤلاء كلهم ، فانه توفي سنة تسع وسبعين ومائة ، وهؤلاء كلهم ماتوا قبل ذلك ، فمعلوم أنه بعد موت هؤلاء لم يكن في الامة أعلم من مالك في ذلك العصر ، وهذا لاينازع فيه أحد من المسلمين ، ولا رحل الى أحد من علماء المدينة مارحل الى مالك لاقبله ولا بعده ، رحل اليه من المشرق والمغرب ، ورحل اليه الناس على اختلاف طبقاتهم من العلماء والزهاد ، والملوك والعامة ، وانتشر موطؤه في الارض

حتى لايعرف في ذلك العصر كتاب بعد القرآن كان أكثر انتشارا من الموطأ ، وأخذ الموطأ عنه أهل الحجاز والشام والعراق ، ومن أصغر من أخذ عنه الشافعي ومحمد بن الحسن وأمثالهما ، وكان محمد بن الحسن اذاحدث بالعراق عن مالك والحجازيين يمتلىء داره ، واذا حدث عن أهل العراق يقل النـاس لعلمهم بأن علم مالك وأهـل المدينة أصح وأثبت ، وأجل من أخذ عنه الشافعي العلم اثنان مالـك وابن عيينـه ، ومعلوم عند كل أحد أن مالكا أجل من ابن عيينه ، حتى أنه كان يقول : اني ومالك كما قال القائل :

وابن اللبون اذا مالز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

ومن زعم أن الذي ضربت اليه أكباد الابل في طلب العلم هو العمري الزاهدمع كونه كان رجلا صالحا زاهدا آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، لم يعرف أن النـاس احتاجوا الى شيء من علمه ، ولا رحلوا اليه فيه ، وكان اذا أراد أمرا يستشير مالكـا ويستفتيه ، كما نقل أنه استشاره لما كتب اليه من العراق أن يتولى الخلافة ، فقـال حتى أشاور مالكا ، فلما استشاره أشار عليه أن لايدخل في ذلك ، وأخبره أن هـذا لايتركه ولد العباس حتى تراق فيه دماء كثيرة ، وذكر له ماذكر عمر بن عبد العزيز ــ لما قيل له : ولى القاسم بن محمد ــ ان بني أمية لايدعون هذا الامر حتى تراق فيه دماء كثيرة ، وهذه علوم التفسير والحديث والفتيا وغيرها من العلوم لم يعلم أن الناس أخذوا عن العمري الزاهد منها مايذكر ، فكيف يقرن هذا بمالك في العلم ورحلة الناس اليه .

ثم هذه كتب الصحيح التي أجل ما فيها كتاب البخاري : أول مايستفتح الباب بحديث مالك ، وان كان في الباب شيء من حديث مالك لايقدم على حديثه غـيره ، ونحن نعلم أن الناس ضربوا أكباد الابل في طلب العلم فلم يجدوا عالما أعلم من مالك في وقته ، والناس كلهم مع مالك ، وأهل المدينة اما موافق ، واما منازع ، فالموافق لهم عضد ونصير ، والمنازع لهم معظم لهم مبجل لهم عارف بمقـدارهم ، وما تجـد من يستخف بأقوالهم ومذاهبهم الا من ليس معدودا من أئمة العلم ، وذلك لعلمهـم أن مالكا هو القائم بمذهب أهل المدينة ، وهو أظهر عند الخاصة والعامة من رجحـان مذهب أهل المدينة على سائر الامصار ، فان موطأة مشحون اما بحديث أهل المدينة، واما بما اجتمع عليه أهل المدينة ، اما قديما ، واما حديثا . وأما مسألة تنازع فيها أهل المدينة وغيرهم فيختار فيها قولا ويقول هذا أحسن ماسمعت ، فاما بآثار معروفة عند علماء المدينة ولو قدر أنه كان في الازمان المتقدمة من هو أتبع لمذهب أهل المدينة من

مالك فقد انقطع ذلك • ولسنا ننكر أن من الناس من أنكر على مالك مخالفته أولا لاحاديثهم في بعض المسائل ، كما يذكر عن عبد العزيز الدراوردي أنه قال له في مسألة تقدير المهر بنصاب السرقة تعرقت ياأبا عبد الله أي صرت فيها الى قول أهل العراق الذين يقدرون أقل المهر بنصاب السرقة ، لكن النصاب عند أبي حنيفة وأصحابه عشرة دراهم ، وأما مالك والشافعي وأحمد فالنصاب عندهم ثلاثة دراهم أو ربع دينار كما جاءت بذلك الاحاديث الصحيحة ، فقال أولا ان مثل هذه الحكاية تدل على ضعف أقاويل أهل العراق عند أهل المدينة ، وأنهم كانوا يكرهون للرجل أن يوافقهم، وهذا مشهور عندهم يعيبون الرجل بذلك ، كما قال ابن عمر لما استفتاه عن دم البعوض ، وكما قال ابن المسيب لربيعة لما سأله عن عقل أصابع المرأة ، وأما ثانيا : فمثل هذا في قول مالك قليل جدا ، وما من عالم الا وله مايرد عليه ، وما أحسن ماقال ابن خويز منداد في مسألة بيع كتب الرأي والاجارة عليها لا فرق عندنا بين رأي صاحبنا مالك وغيره في هذا الحكم ، لكنه أقل خطأ من غيره •

(وأما الحديث) فأكثره تجد مالكا قد قال به في احدى الروايتين ، وانما ترك طائفة من أصحابه كمسألة رفع اليدين عند الركوع والرفع منه ، وأهل المدينة رووا عن مالك الرفع موافقا للحديث الذي رواه ، لكن ابن القاسم ونحوه من البصريين هم الذين قالوا بالرواية الاولى ، ومعلوم أن رواية ابن القاسم أصلها مسائل أسد بن فرات التي فرعها أهل العراق ، ثم سأل عنها أسد ابن القاسم ، فأجابه بالنقل عن مالك ، وتارة بالقياس على قوله ، ثم أصحها في رواية سحنون ، فلهذا يقع في كلام ابن القاسم طائفة من الميل الى قول أهل العراق ، وان لم يكن ذلك من أصول أهل المدينة ، ثم اتفق أنه لما انتشر مذهب مالك بالاندلس وكان يحيى بن يحيى عامل الاندلس والولاة يستشيرونه ، فكانوا يأمرون القضاة أن لايقضوا الا بروايته عن مالك ، ثم رواية غيره ، ثم انتشرت رواية ابن القاسم عن مالك لأجل من عمل بها ، وقد تكون مرجوحة في المذهب ، وعمل أهل المدينة والسنة حتى صاروا يتركون رواية الموطأ ــ الذي هو متواتر عن مالك ، ومازال يحدث به حتى مات ــ لرواية ابن القاسم ، وان كان طائفة من أئمة المالكية أنكروا ذلك ، فمثل هذا ان كان فيه عيب فانما هو على من نقل ذلك لا على مالك ، ويمكن المتبع لمذهبه أن يتبع السنة في عامة الامور ، اذ قل من سنة الا وله قول يوافقها ، بخلاف كثير من مذهب أهل الكوفة فانهم كثيرا مايخالفون السنة وان لم يتعمدوا ذلك •

ثم من تدبر أصول الاسلام وقواعد الشريعة وجد أصول مالك وأهل المدينة

أصح الاصول والقواعد ، وقد ذكر ذلك الشافعي وأحمد وغيرهما ، حتى ان الشافعي لما ناظر محمد بن الحسن حين رجع محمد بصاحبه على صاحب الشافعي فقال له الشافعي بالانصاف أو بالمكاثرة ؟ قال له : بالانصاف ، فقال : ناشدتك الله صاحبنا أعلم بكتاب الله أم صاحبكم ؟ فقال : بل صاحبكم • فقال : صاحبنا أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أم صاحبكم ؟ فقال بل صاحبكم • فقال : صاحبنا أعلم بأقوال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أم صاحبكم ؟ فقال : صاحبكم ، فقال : مابقي بيننا وبينكم الا القياس ونحن نقول بالقياس ، ولكن من كان بالاصول أعلم كان قياسه أصح ، وقالوا للامام أحمد من أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك أم سفيان ؟ فقال : بل مالك ، فقيل له أيما أعلم بآثار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك أم سفيان ؟ فقال : بل مالك ، فقيل له : أيما أزهد مالك أم سفيان ؟ فقال : هذه لكم ، ومعلوم أن سفيان الثوري أعلم أهل العراق ذلك الوقت بالفقه والحديث ، فان أبا حنيفة ، والثوري ، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، والحسن بن صالح بن جني ، وشريك ابن عبد الله النخعي القاضي كانوا متقاربين في العصر ، وهم أئمة فقهاء الكوفة في ذلك العصر ، وكان أبو يوسف يتفقه أولا على محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى القاضي ، ثم انه اجتمع بأبي حنيفة فرأى أنه أفقه منه فلزمه ، وصنف كتاب اختلاف أبي حنيفة وأبي ليلى ، وأخذه عنه محمد بن الحسن ونقله الشافعي عن محمد بن الحسن ، وذكر فيه اختياره ، وهو المسمى بكتاب (اختلاف العراقيين) ومعلوم أن سفيان الثوري أعلم هذه الطبقة في الحديث مع تقدمه في الفقه والزهد ، والذين أنكروا من أهل العراق وغيرهم ماأنكروا من الرأي المحدث بالكوفة لم ينكروا ذلك على سفيان الثوري ، بل سفيان عندهم امام العراق، فتفضيل أحمد لمذهب مالك على مذهب سفيان تفضيل له على مذهب أهل العراق ، وقد قال الامام أحمد في علمه وعلم مالك بالكتاب والسنة والآثار ماتقدم ، مع أن أحمد يقدم سفيان الثوري على هذه الطبقة كلها ، وهو يعظم سفيان غاية التعظيم ، ولكنه كان يعلم أن مذهب أهل المدينة وعلمائها أقرب الى الكتاب والسنة من مذهب أهل الكوفة وعلمائها ، وأحمد كان معتدلا عالما بالامور يعطي كل ذي حق حقه ، ولهذا كان يحب الشافعي ويثني عليه ويدعو له ويذب عنه عند من يطعن في الشافعي أو من ينسبه الى بدعة ، ويذكر تعظيمه للسنة واتباعه لها ، ومعرفته بأصول الفقه كالناسخ والمنسوخ ، والمجمل والمفسر ، ويثبت خبر الواحد ومناظرته عن مذهب أهل الحديث من خالفه بالرأي وغيره •

وكان الشافعي يقول : سموني ببغداد ناصر الحديث ، ومناقب الشافعي واجتهاده في اتباع الكتاب والسنة واجتهاده في الرد على من يخالف ذلك كثير جدا ، وهو كان على مذهب أهل الحجاز ، وكان تفقه على طريقة المكيين أصحاب ابن جريج، كمسلم بن خالد ، والزنجي ، وسعيد بن سالم القداح ، ثم رحل الى مالك وأخذ عنه الموطأ ، وكمل أصول أهل المدينة ، فكان أجل علما وفقها وقدرا من أهل مكة من عهد النبي صلى الله عليه وسلم الى عهد مالك ، ثم اتفقت له محنة ذهب فيها الى العراق ، فاجتمع بمحمد بن الحسن وكتب كتبه وناظره ، وعرف أصول أبي حنيفة وأصحابه ، وأخذ من الحديث ماأخذه على أهل العراق ، ثم ذهب الى الحجاز ، ثم قدم الى العراق مرة ثانية ، وفيها صنف كتابه القديم المعروف (بالحجة) واجتمع به أحمد بن حنبل في هذه القدمة بالعراق ، واجتمع به بمكة ، وجمع بينه وبين اسحق بن راهويه، وتناظرا بحضور أحمد رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، ولم يجتمع بأبي يوسف ولا بالاوزاعي وغيرهما ، فمن ذكر ذلك في الرحلة المضافة اليه فهو كاذب ، فان تلك الرحلة فيها من الاكاذيب عليه وعلى مالك وأبي يوسف ومحمد وغيرهم من أهل العلم مالايخفى على عالم ، وهي من جنس كذب القصاص ، ولم يكن أبو يوسف ومحمد سعيا في أذى الشافعي قط ، ولا كان حال مالك معه ماذكر في تلك الرحلة الكاذبة .

ثم رجع الشافعي الى مصر وصنف كتابه الجديد ، وهو في خطابه وكتابه ينسب الى مذهب أهل الحجاز ، فيقول : قال بعض أصحابنا ــ وهو يعني أهل المدينة أو بعض علماء أهل المدينة كمالك ــ ويقول في أثناء كلامه وخالفنا بعض المشرقيين ، وكان الشافعي عند أصحاب مالك واحدا منهم ينسب الى أصحابهم ، واختار سكنى مصر اذ ذاك لأنهم كانوا على مذهب أهل المدينة ومن يشبههم من أهل مصر كالليث بن سعد وأمثاله .

وكان أهل الغرب بعضهم على مذهب هؤلاء ، وبعضهم على مذهب الاوزاعي وأهل الشام ، ومذهب أهل الشام ومصر والمدينة متقارب ، لكن أهل المدينة أجل عند الجميع .

(ثم ان الشافعي رضي الله عنه) لما كان مجتهدا في العلم ورأى من الاحاديث الصحيحة وغيرها من الادلة مايجب عليه اتباعه ــ وان خالف قول أصحابه المدنيين ــ قام بما رآه واجبا عليه ، وصنف الاملاء على مسائل ابن القاسم ، وأظهر خلاف مالك فيما خالفه فيه .

وقد أحسن الشافعي فيما فعل ، وقام بما يجب عليه ، وان كان قد كره ذلك من

كرهه وآذوه ، وجرت محنة مصرية معروفة ، والله يغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات الاحياء منهم والاموات .

(وأبو يوسف ومحمد) هما أصحاب أبي حنيفة ، وهما مختصان به كاختصاص الشافعي بمالك ، ولعل خلافهما له يقارب خلاف الشافعي لمالك ، وكل ذلك اتباعا للدليل وقياما بالواجب .

والشافعي قرر أصول أصحابه والكتاب والسنة ، وكان كثير الاتباع لما صح عنده من الحديث ، ولهذا كان عبد الله بن الحكم يقول لابنه يابني الزم هذا الرجل فانه صاحب حجج ، فما بينك وبين أن تقول قال ابن القاسم فيضحك منك الا أن تخرج من مصر .

قال محمد : فلما صرت الى العراق جلست الى حلقة فيها ابن أبي دؤاد ، فقلت قال ابن القاسم ، فقال : ومن ابن القاسم ؟ فقلت : رجل مفت يقول من مصر الى أقصى المغرب ، وأظنه قال : قلت رحم الله أبي ، وكان مقصود أبيه اطلب الحجة لقول أصحابك ولا تتبع ، فالتقليد انما يقبل حيث يعظم المقلد بخلاف الحجة ، فانه يقبل في كل مكان ، فان الله أوجب على كل مجتهد أن يقول بموجب ماعنده من العلم ، والله يخص هذا من العلم والفهم مالا يختص به هذا ، وقد يكون هذا هو المخصوص بمزيد العلم والفهم في نوع من العلم ، أو باب منه ، أو مسألة ، وهذا هو مخصوص بذلك في نوع آخر ، لكن جملة مذاهب أهل المدينة النبوية راجحة في الجملة على مذاهب أهل المغرب والمشرق ، وذلك يظهر بقواعد جامعة .

هذا آخر مانقلناه من كلام شيخ الاسلام في ترجيح مذهب أهل المدينة وبه يعلم ما كان عليه من الاعتقاد الصحيح ، والفطنة الزائدة ، والفهم الكثير ، فان كل من تكلم على فضل المدينة تكلم اجمالا ولم يبين الفضل بالدليل والسبب ، وكتابه هذا كتاب جليل ، وقد نقلنا منه مانقلنا حرصا على حفظ فوائده ، وقد بقي منه كلام طويل تكلم فيه على قواعد جامعة تفيد رجحان مذهب المدنيين فعليك به ان أردته .

مقصودنا مما ذكرنا بيان افلاس النبهاني الجاهل من كل فضيلة ، وأنه ينقل في كتابه مايقصد به تعظيم حجم الكتاب من غير فهم لما ينقله ولا محاكمة ، بل انه يقلد غلاة شيوخه تقليد أعمى ، ومع ذلك يجعل نفسه من المتبعين ، ويرمي شيخ الاسلام ومن هو على مسلكه بأنهم من المبتدعين ، ولا بدع منه فانه ممن قال الله فيه : (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا في أصحاب السعير) .

ثم ان النبهاني عقد فصلا في ذكر شيء مما لاينبغي فعله للزائر ، ونقل أقوالا

عن ابن حجر وأضرابه ينقض بعضها بعضا ، وساق منها جملة من العبارات ، انظر الى ماقاله ابن حجر في التحفة والزواجر مع ماذكره في الجوهر المنظم تجد المناقضة ظاهرة قال في التحفة : وقد أفتى جمع بهدم كل مافي قرافة مصر من الابنية ، حتى قبة امامنا الشافعي التي بناها بعض الملوك ، وينبغي لكل أحد هدم ذلك مالم يخش منه مفسدة فيتعين الرفع للامام أخذا من كلام ابن الرفعة انتهى .

وقال في الزواجر : ومن أعظم أسباب الشرك الصلاة عند القبور واتخاذها مسجدا ، ويجب ازالة كل منكر عليها ، ويجب المبادرة لهدمها وهدم القباب التي على القبور ، اذ هي أضر من مسجد الضرار ، لأنها أسست على معصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه نهى عن ذلك وأمر بهدم القبور ، ويجب ازالة كل قنديل أو سراج على قبر ، ولا يصح وقفه أو نذره .

وقال أيضا في الزواجر : ومن الكبائر اتخاذ القبور مساجد ، وايقاد السرج عليها ، واتخاذها أوثانا ، والطواف بها ، والصلاة اليها انتهى .

وقد نقض ذلك كله في كتابه (الجوهر المنظم) فأباح كل مامنعه في ذينك الكتابين ، حتى قال بجواز السجود للقبور اذا غلب الحال على أهل الاحوال ، وذكر فيه من الغلو مافيه قرة لعيون الغلاة ، ولولا خوف التطويل لنقلنا كلامه كله والكتاب متداول بين الناس .

ثم ان النبهاني عقد بابا آخر في مشروعية الاستغاثة به صلى الله عليه وسلم ، وضمنه أربعة فصول .

أولها ذكر فيه أحاديث وردت في استغاثة الناس به صلى الله عليه وسلم في حياته .

وثانيها في أحاديث الشفاعة يوم القيامة .

وثالثها في بعض ماقاله العلماء وأثبتوا به مشروعية الاستغاثة به صلى الله عليه وسلم .

ورابعها : في توضيح هذه المسألة من قبل مؤلف الكتاب .

أقول ــ ومن الله المعونة وبيده أزمة التوفيق ــ ان الكلام على ماحواه كلامه من الكذب والزور والبطلان يطول جدا فضلا عما اشتملت عليه عبارته من الغلط وفساد التركيب وسوء التعبير ، فكتابه كله ظلمات بعضها فوق بعض ، فلو تكلمنا

على ذلك كله لطال الكلام ، وكلت عن رقمه الاقلام ، فان النبهاني هذا هو من أعظم الغلاة المحادين لله ورسوله ، وكلامه كله باطل ، وجهل مركب ، وبهت لأهل الحق ، وليس فيه جملة واحدة توافق الحق أصلا ، فالحمد لله الذي خذل أعداء دينه ، وجعلهم عبرة لأوليائه وعباده المؤمنين •

أما مشروعية الاستغاثة : ففيها تفصيل ، اذ الاستغاثة بالشيء — على ماذكره بعض المحققين — طلب الاغاثة والغوث منه ، كما أن الاستعانة طلب الاعانة منه ، فاذا كانت بنداء من المستغيث للمستغاث كان ذلك سؤالا منه ، وظاهر أن ذلك ليس توسلا به الى غيره ، اذ قد جرت العادة أن من توسل بأحد عند غيره أن يقول لمستغاثه أستغيثك على هذا الامر بفلان ، فيوجه السؤال اليه ويقصر أمر شكواه عليه ، ولا يخاطب المستغاث به ويقول له أرجو منك أو أريد منك وأستغيث بك ، ويقول إنه وسيلتي الى ربي ، وان كان كما يقول فما قدر المتوسل اليه حق قدره ، وقد رجا وتوكل والتجأ الى غيره ، كيف واستعمال العرب يأبى عنه ، فان من يقول صار لي ضيق فاستغثت بصاحب القبر فحصل الفرج يدل دلالة جلية على أنه قد طلب الغوث منه ، ولم يفد كلامه أنه توسل به ، بل انما يراد هذا المعنى اذا قال توسلت أو استغثت عند الله بفلان ، أو يقول لمستغاثه استغثت اليك بفلان ، فيكون حينئذ مدخول الباء متوسلا به ، ولا يصح ارادة هذا المعنى اذا قلت استغثت بفلان وتريد التوسل به ، سيما اذا كنت داعيه وسائله ، بل قولك هذا نص على أن مدخول الباء مستغاث وليس مستغاثا به ، والقرائن التي تكتنفه من الدعاء وقصر الرجاء والالتجاء شهود عدول ، ولا محيد عما شهدت به ولا عدول ، فهذه الاستغاثة وتوجه القلب الى المسؤل بالسؤال والانابة محظورة على المسلمين ، لم يشرعها لاحد من أمته رسول رب العالمين ، وهل سمعتم أن أحدا في زمانه صلى الله عليه وسلم أو ممن بعده في القرون المشهود لأهلها بالنجاة والصدق — وهم أعلم منا بهذه المطالب وأحرص على نيل مثل تلك الرغائب — استغاث بمن يزيل كربته التي لايقدر على ازالتها الا الله ؟ أم كانوا يقصرون الاستغاثة على مالك الامور ولم يعبدوا الا اياه ، ولقد جرت عليهم أمور مهمة ، وشدائد مدلهمة في حياته صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته ، فهل سمعت عن أحد منهم أنه استغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم ؟ أو قالوا انا مستغيثون بك يارسول الله ، أم بلغك أنهم لاذوا بقبره الشريف وهو سيد القبور حين ضاقت منهم الصدور ؟ كلا ، لايمكن لهم ذلك ، وان الذي كان بعكس ما هنالك ، فلقد أثنى الله

عليهم ورضي عنهم ، فقال عز من قائل : (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ) مبينا لنا أن هذه الاستغاثة أخص الدعاء وأجلى أحوال الالتجاء ، وهي من لوازم السائل المضطر ، الذي يضطر الى طلب الغوث من غيره ، فيخص نداءه لدى استغاثته بمزيد الاحسان في سره وجهره ، ففي استغاثته بغيره تعالى عند كربته تعطيل لتوحيد معاملته .

(فان قلت) ان للمستغاث بهم قدرة كسبية وتسببية فتنسب الاغاثة اليهم بهذا المعنى .

(قلنا له) ان كلامنا فيمن يستغاث به عند المام مالا يقدر عليه الا الله ، أو لسؤال مالا يعطيه ويمنعه الا الله ، وأما فيما عدى ذلك مما يجري فيه التعاون والتعاضد بين الناس واستغاثة بعضهم ببعض فهذا شيء لانقول به ، ونعد منعه جنونا كما نعد اباحة ماقبله شركا وضلالا ، وكون العبد له قدرة كسبية لايخرج بها عن مشيئة رب البرية لايستغاث به فيما لايقدر عليه الا الله ، ولا يستعان به ، ولا يتوكل عليه ، ولا يلتجأ في ذلك اليه ، فلا يقال لاحد — حي أو ميت ، قريب أو بعيد — ارزقني أو أمتني ، أو أحي ميتي ، أو اشف مريضي ، الى غير ذلك مما هو من الافعال الخاصة بالواحد الاحد ، الفرد الصمد ، بل يقال لمن له قدرة كسبية قد جرت العادة بحصولها ممن أهله الله لها ، أعني في حمل متاعي أو غير ذلك ، والقرآن ناطق بخطر الدعاء عن كل أحد لا من الاحياء ولا من الاموات ، سواء كانوا أنبياء أو صالحين أو غيرهم ، وسواء كان الدعاء بلفظ الاستغاثة أو بغيرها ، فان الامور الغير مقدورة للعباد لاتطلب الا من خالق القدر ، ومنشيء البشر ، كيف والدعاء عبادة وهي مختصة به سبحانه ، أسبل الله علينا بفضله عفوه ورضوانه ، فالقصر على ماتعبدنا فيه من محض الايمان ، والعدول عنه عين المقت والخذلان .

وهذا خلاصة ماذكروه من جعل الاستغاثة والاستشفاع بغير الله شركا ظاهرا لايغفر ، ومتعاطيه جاعل لله ندا ، فيذبح بأمر الله تعالى ، وشرع رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لم يتب ويستغفر .

(وبالجملة) فالاستغاثة والاستعانة والتوكل أغصان دوحة التوحيد ، المطلوب من العبيد .

---

(١) الانفال : ١٠

بقي ههنا شيء يورده المجيزون على هؤلاء المانعين ، وهو أنه لاشك أن من عبد غير الله مشرك حلال الدم والمال ، وان الدعاء المختص بالله سبحانه عبادة ، بل هو مخ العبادة ، ولكن لانسلم أن طلب الاغاثة ممن استغيث بهم شرك مطلقا ، وانما يكون شركا لو كان المستغيث معتقدا أنهم هم الفاعلون لذلك خلقا وايجادا ، فحينئذ يكون من الشرك الاعتقادي قطعا ، أما من اعتقدهم الفاعلين كسبا وتسببا فليس بمسلم ، ولئن سلمنا فليس المقصود من طلب الاغاثة منهم وندائهم الا التوسل بهم وبجاههم ، وان كان اللفظ ظاهرا يدل على الطلب منهم وأنهم المطلوبون بهذا النداء ، لكن مقصود المستغيث التشفع والتوسل بهم الى ربهم ، وهو صلى الله عليه وسلم من أشرف الوسائل الى الله سبحانه ، وقد أمرنا سبحانه بطلب مايتوسل به ، فقال تعالى(وابْتَغُوا إِلَيهِ الوَسِيْلَةَ) فكيف تحظرونها بل تجعلونها شركا مخرجا عن الملة ، وليس في قلوب المسلمين الا هذا المعنى ، وان في ذلك تكفير أكثر الناس ، من غير ارتياب والتباس ، وكيف تحكمون على أناس قد أظهروا شعائر الاسلام من أذان وصلاة ، وصوم وحج ، وإيتاء زكاة ، يأتون بكلمة التوحيد ، ويحبون الله ويحبون سيد المرسلين ، ويتبلغون بالقبول التام ماجاء عنهما من أمور الدين ، وغاية الامر أنهم لرهبتهم من ربهم ومعرفتهم بعلو مرتبة نبيهم وما وعده الله سبحانه من ارضاءه في أمته ، كما قال سبحانه :(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)ولا يرضى صلى الله عليه وسلم إلا بأن يقف لأمته في مثل هذه التوسلات فينالوا الرغبات ، وليس في أقوالكم هذه الا تنقص بحق هذا النبي الذي أوجب الله علينا حبه أكثر من محبتنا لأنفسنا ، وفي مثل ذلك بشاعة في القول ، وشناعة بطريق الاول •

(فالجواب عنه منهم أن قالوا) أما أول اعتراضكم وقولكم إنه ليس مقصودهم الا التوسل — وان تكلموا بما يفيد غيره فانه — يدل على أن الشرك لايكون الا اعتقاديا ، وأنه لايكون كفر إلا اذا طابق الاعتقاد ، وهذا يقتضي سد أبواب الشرائع بأسرها ، ومحو الابواب التي ذكرها الفقهاء في الردة ومحقها ، كيف وأن الله سبحانه يقول : (وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ وكَفَروا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ)[1] وقال سبحانه : (أَبِاللهِ وآياتهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُم تَسْتَهْزِؤونَ. لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ)[2]

---

(١) التوبة : ٧٦ (٢) التوبة : ٦٥ ، ٦٦

وقد ذكر المفسرون أنهم قالوها على جهة المزح ، وكذلك العلماء كفروا بألفاظ سهلة جدا ، وبأفعال تدل على ماهو دون ذلك ، ولو فتحنا هذا الباب لامكن لكل من تكلم بكلام يحكم على قائله بالردة أن يقول : لم تحكمون بردتي ؟ فيذكر احتمالا ولو بعيدا يخرج به عما كفر فيه ، ولما احتاج الى توبة ، ولا توجه عليه لوم أبدا ، ولساغ لكل أحد أن يتكلم بكل ماأراد ، فتنسد الابواب المتعلقة بأحكام الالفاظ من حد قذف ، وكفارة يمين ، وظهار ، ولانسدت أبواب العقود من نكاح وطلاق ، وغير ذلك من الفسوخ والمعاملات ، فلا يتعلق حكم من الاحكام بأي لفظ كان — إلا اذا اعتقد المعنى — وان أفيد بوضع الالفاظ .

وأما ماذكرتم من أنه أشرف الوسائل فهي كلمة حق أريد بها باطل ، كقولكم انه ذو الجاه العريض والمقام المنيع ، ونحن أولى بهذا المقام منكم لاتباعنا لاقواله وأفعاله واقتدائنا به صلى الله عليه وسلم في جميع أحواله ، مقتفين لآثاره واقفين عند أخباره فهو صلى الله عليه وسلم نبينا وهادينا الى سبل الاسلام ، ومنقذنا برسالته من مهاوي أولئك الجفاة الطغام ، فلا نعمل الا بأمره ، وتتلقى ذلك بالسمع والطاعة في حلوه ومره ، وقد أوجب علينا أن تتبع سبيل المؤمنين ، ونهانا عن الغلو في الدين ، فان غلونا فاننا اذا عن الصراط ناكبون ، ولئن عدلنا انا اذا لخاسرون .

وكيف يحسن طريق يؤدي الى الاشراك ، وأنى يليق بالموحدين هذا الوجه المؤدي للارتباك ؟ وهذا طريق سلفنا الصالح ، وهو الاعتقاد الصحيح الراجح ، هذا وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم — وأرواحنا له الفداء — لايرضى بما يغضب الرب المتعال ، وكيف لا وقد بعث بحماية التوحيد من هذه الاقوال والافعال ، وقد قالت عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم : كان خلقه القرآن ، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه ، فليس لنا وسيلة الى الله الا الدعاء المبني على أصول الذل والافتقار والثناء ، فهو الوسيلة التي أمرنا الله سبحانه بالتوسل به ، وجعله من أفضل الوسائل ، وأخبرنا أنه مخ عبادته تحقيقا لعبديتنا ، فسد به عن غيره أبواب الذرائع .

وقد اختلف العلماء — بعد أن اتفقوا على استحباب سؤال الله تعالى به وبأسمائه وبصفاته وأفعاله وبصالح أعمالنا التي حصلت لنا بمحض كرمه وأفضاله — في جواز

التوسل بالذوات المنيفة والاماكن والاوقات الشريفة ، فعن العز بن عبد السلام ومن تابعه عدم الجواز الا بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث صح الحديث فيجوز ، ويكون ذلك خاصا به لعلو رتبته •

وعن الحنابلة في أصح القولين مكروه كراهة تحريم •

ونقل الفقهاء الحنفية عن بشر بن الوليد أنه قال سمعت أبا يوسف يقول قال أبو حنيفة لاينبغي لأحد أن يدعو الله الا به ، وفي جميع متونهم أن قول الداعي المتوسل بحق الانبياء والرسل وبحق البيت والمشعر الحرام مكروه كراهة تحريم ، وقال القدوري المسألة بخلقه تعالى لاتجوز لأنه لاحق للمخلوق على الخالق •

وأما أحاديث : (أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا وبحق نبيك والانبياء من قبلي) ففيها وهن ، وعلى تسليمها فالمراد بهذا الحق ماأوجبه الله تعالى على نفسه ، وذلك من أفعاله ، لأن حق السائلين الاجابة ، وحق المطيعين الاثابة ، وحق الانبياء التقريب والتفضيل بما يخص أولئك العصابة صلى الله تعالى عليهم وسلم ، وذلك كقوله تعالى :(وكانَ حقاً عَليْنا نصْرُ المؤْمنينَ)[1] وقوله تعالى : (وعْداً عَليْهِ حقاً في التَّوْراةِ والانجْيلِ والقُرآنِ)[2] وقوله :(كَتَبَ رُّبكُم على نفسِه الرَّحْمَةَ)[3] وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله أن لايعذبهم)

والسؤال بالاعمال لأن المشى الى الطاعة امتثالا لامره عمل طاعة ، وذلك من أعظم الوسائل المأمور بها في قوله تعالى : (يا أيُّها الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وابْتغوا إليْهِ الوَسيلةَ)[4] ومن نظر الى الادعية الواردة في الكتاب والسنة لم يجدها خارجة عما ذكرنا ، قال الله تعالى في دعاء المؤمنين : (ربَّنا إنَّنا سَمِعْنا مُنادياً يُنادي للايمانِ أنْ آمِنوا بربِّكُم فآمَنَّا)[5] وقوله تعالى : (إنَّهُ كانَ فَريقٌ منْ عِبادي يقولُونَ رَبَّنا آمنَّا فاغْفرْ لنَا وارْحَمْنا وأَنْتَ خَيرُ الرَّاحمينَ)[6] وقوله تعالى

---

(١) الروم : ٤٨ (٢) التوبة : ١١٣ (٣) الانعام : ٥٤ (٤) المائدة : ٣٩ (٥) آل عمران : ١٩٤ (٦) المؤمنون : ١١١

عن الحواريين :(ربنا آمنّا بما أنزلت واتّبعنا الرّسول فاكتبنا مع الشّاهدين)[١]

وكان ابن مسعود يقول : اللهم انك أمرتني فأطعتك ودعوتني فأجبتك فاغفر لي ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي جمعه العلماء لايخرج عن هذا النمط ، وخلاف ذلك يعد كالخروج عن جادة الصواب والشطط ، فاتبع أيها الناظر نبيك المصطفى تسلم من اللغط والغلط ، هذا ماكان من تحرير مدعي المانعين ، وتقريره على وجه أبان عن لباب تلخيصهم بتسطيره ، ثم أخذ يذكر الجواب عما استدل به المجوزون فان أردت الوقوف عليه فارجع الى كتاب العقد الثمين .

فتبين مما نقلناه أن الاستغاثة بمخلوق بما لايقدر عليه الا الله تعالى مما لايجوز فان الاستغاثة دعاء والدعاء عبادة بل مخ العبادة ، وغير الله تعالى لايعبد بل هو المخصوص بالعبادة ، فاذا أصاب الناس جدب وقحط فلا يقال يارسول الله ارفع عنا القحط والجدب ، واذا نزل بالناس بلاء أو وباء فلا يقال يارسول الله أو ياجبريل أو يامیكائيل ارفع عنا البلاء والوباء ، واذا مرض أحد فلا يقول يارسول الله شافني وعافني ولا غيره ، واذا احتاج أحد الى رزق فلا يقول يارسول الله ارزقني ولا غيره، واذا لم يكن لأحد ولد فلا يجوز له أن يقول يارسول الله أعطني ولدا ، واذا كان في شدة في بر أو بحر فلا يجوز أن يقول يارسول الله أدركني أو التجيء اليك أو أستغيث بك أو نحو ذلك ، بل كل ذلك شرك مخرج عن الدين ، لانه عبادة لغير الله ونحن نوضح المسألة فقد زلت فيها أقدام ، فنبين أولا معنى العبادة ، ثم نذكر ماهو من خصائص الالوهية ومن الله نستمد التوفيق .

(أما العبادة) فهي في اللغة الذل والانقياد ، واصطلاحا اسم جامع لكل مايحبه الله ويرضاه من الاقوال والاعمال الباطنة والظاهرة ، كالتوحيد فانه عبادة في نفسه والصلاة ، والزكاة ، والحج ، وصيام رمضان ، والوضوء ، وصلة الارحام ، وبر الوالدين ، والدعاء ، والذكر ، والقراءة ، وحب الله ، وخشية الله ، والانابة اليه ، واخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضاء بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ، وغير ذلك مما رضيه وأحبه ، فأمر به وتعبد الناس فيه ، قال العلامة عمر بن عبد الرحمن الفارسي في كشفه على الكشاف

---

(١) آل عمران : ٥٤

للزمخشري — عند تفسير قوله تعالى : (يا أَيُّها النَّاسُ اعْبُدوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ) وهو خطاب لمشركي أهل مكة ، ونقل عن علقمة أن كل خطاب بيأأيها الناس فهو مكي وبيأأيها الذين آمنوا فهو مدني — مالفظه تحرير الكلام فيه أن العبادة قد تطلق على أعمال الجوارح بشرط قصد القربة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : (لفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد) وهي على هذا غير الايمان بمعنى التصديق ، والنية والاخلاص ، بل مشروطة بها ، وقد تطلق على التحقق بالعبدية بارتسام مأمر السيد جل وعلا أو نهى ، وعلى هذا يتناول الاعمال والعقائد القلبية أيضا ، فيدخل فيها الايمان وهو عبادة في نفسه ، وشرط لسائر العبادات انتهى .

وقال ابن القيم في (شرح منازل السائرين) مانصه : فالعبادة تجمع أصلين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع ، والعرب تقول طريق معبد أي مذلل ، والتعبد التذلل والخضوع ، فمن أحببته ولم تكن خاضعا له لم تكن عابدا له ، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدا له حتى تكون محبا خاضعا .

ثم قال في مكان آخر من شرحه هذا : مراتب العبودية واحكامها لكل واحد من القلب واللسان والجوارح ، فواجب القلب منه متفق على وجوبه ، ومختلف فيه ، فالمتفق على وجوبه كالاخلاص والتوكل والمحبة والصبر والانابة والخوف والرجاء والتصديق الحازم والنية للعبادة ، وهذه قدر زائد على الاخلاص ، فان الاخلاص إفراد المعبود عن غيره .

ونية العبادة لها مرتبتان : (إحداهما) تمييز العبادة عن العادة (والثانية) تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض ، والاقسام الثلاثة واجبة ، وكذلك الصدق ، والفرق بينه وبين الاخلاص أن للعبد مطلوبا وطلبا ، فالاخلاص توحيد مطلوبه والصدق توحيد الطلب ، فالاخلاص أن لايكون المطلوب منقسما ، والصدق أن لايكون الطلب منقسما ، فالصدق بذل الجهد ، والاخلاص أفراد المطلوب .

واتفقت الامة على وجوب هذه الاعمال على القلب من حيث الجملة ، وكذلك النصح في العبودية ، ومدار الدين عليه ، وهو بذل الجهد في ايقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضى به ، واصل هذا واجب ، وكماله مرتبة المقربين ، وكذلك

كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان واجب مستحق وهو مرتبة أصحاب اليمين ، وكمال مستحب وهو مرتبة المقربين ، انتهى بعض ماقاله في بعض عبودية القلب ، وعقبه بعبودية اللسان الواجب منها والمستحب ، وعبودية الجوارح الواجب منها والمستحب أيضا ، ومن اشتغل بالنظر الى أنواع العبادات هان عليه تمييزها ، والله الهادي الى سواء السبيل •

(وبالجملة) فكل عبادة فهي مقصورة على الاله الواحد من أعمال القلوب والجوارح ، فكما لو صلى لغير الله أو صام على وجه التقرب اليه كان كافرا مشركا عند جميع الناس فكذلك من تقرب اليه بالاعمال القلبية المذكورة من التوكل والانابة والخوف والرجاء ، وغير ذلك ، لكن لما كانت هذه الامور القلبية من التأله — وكان الاولون يتألهون بها ويسمون من تأله بها الها ، وكان مرجع كل ذلك الى القلب وأعماله التي هي منبع التوحيد ومصدر هذا الدين والمرجع اليه في الشك واليقين ، ومع ذلك فهي الفارقة بين الاله الحق الذي اختص بها على الدوام ، والاله الباطل الذي لايحوم الموحد حوله بهذا المقام — كان ذلك هو الداعي للتخصيص والموجب للتنصيص ، وأيضا فالكلام على من حصل منه الشرك بما تألهه في قلبه ورسخ بفؤاده ولبه من الاعمال الغير المختصة بالمسلمين ، وأما هذه الاعمال الظاهرة الشرعيةالمختصة بهم فلا يتعاطاها أحد لمن سواه ، ولم نرها تعمل الا لله ، ولم يعبدوا بها الا اياه ، فهذا هو الذي أوجب تخصيصهم لهذه الاعمال القلبية وبعض البدنية ، كالسجود وحلق الرأس عبودية ، وإلا فجميع العبادات قلبيها وقوليها وبدنيها مختصة به سبحانه وتعالى لاتصلح الا له •

قال المحقق السعد التفتازاني في شرحه للمقاصد مانصه :اعلم أن حقيقة التوحيد اعتقاد عدم الشريك في الالوهية وخواتمها ، ولا نزاع بين أهل الاسلام ان خلق الاجسام وتدبير العالم واستحقاق العبادة من الخواص ، ثم قال في آخر هذا المبحث : وبالجملة فان التوحيد في الالوهية واجب شرعا وعقلا ، وفي استحقاق العبادة شرعا ، وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا سبحانه وتعالى عما يشركون ، انتهى •

وقد أفرد شيخ الاسلام لتحقيق معنى العبادة رسالة مفيدة وهي رسالة العبودية فراجعها •

(وأما الثاني أعني ماهو من خصائص الالوهية) فاعلم أن توحيد الله تعالى بالتعظيم — كما قاله العلامة القرافي في كتاب الفروق — ثلاثة أقسام : واجب اجماعا ،

وغير واجب اجماعا ، ومختلف فيه هل يجب توحيد الله تعالى به أم لا .

(القسم الاول) الذي يجب توحيد الله تعالى به من التعظيم بالاجماع ، فذلك كالصلوات على اختلاف أنواعها ، والصوم على اختلاف رتبه في الفرض والنفل والنذر فلا يجوز أن يفعل شيء من ذلك لغير الله تعالى ، وكذلك الحج ونحو ذلك ، أي كالاستغاثة والاستعانة والالتجاء ، وكذلك الخلق والرزق والاماتة والاحياء والبعث والنشر والسعادة والشقاء والهداية والاضلال والطاعة والمعصية والقبض والبسط ، فيجب على كل أحد أن يعتقد توحيد الله تعالى وتوحده بهذه الامور على سبيل الحقيقة ، وان أضيف شيء منها لغيره تعالى فانما ذلك على سبيل الربط العادي لا أن ذلك المشار اليه فعل شيأ حقيقة ، كقولنا : قتله السم ، وأحرقته النار ، وأرواه الماء ، فليس شيء من ذلك يفعل شيأ مما ذكر حقيقة ، بل الله تعالى ربط هذه المسببات بهذه الاسباب كما شاء وأراد ، ولو شاء لم يربطها ، وهو الخالق لمسبباتها عند وجودها ، لا أن تلك الاسباب هي الموجدة ، وكذلك اخبار الله تعالى عن عيسى عليه السلام أنه كان يحيي الموتى ، ويبريء الاكمه والابرص ، معناه أن الله تعالى كان يحيي الموتى ويبريء عند ارادة عيسى عليه السلام لذلك ، لا أن عيسى عليه السلام هو الفاعل لذلك حقيقة ، بل الله تعالى هو الخالق لذلك ، ومعجزة عيسى عليه السلام في ذلك ربط وقوع ذلك الاحياء وذلك الابراء بارادته ، فان غيره يريد ذلك ولا يلزم ارادته ذلك ، فاللزوم بارادته هو معجزته عليه السلام ، وكذلك جميع مايظهر على أيدي الانبياء والاولياء من المعجزات والكرامات الله تعالى هو خالقها ، وكذلك يجب توحيده تعالى باستحقاق العبادة والالهية ، وعموم تعلق صفاته تعالى ، فيتعلق علمه بجميع المعلومات ، وارادته بجميع الكائنات ، وبصره بجميع الموجودات الباقيات والفانيات ، وسمعه بجميع الاصوات ، وخبره بجميع المخبرات فهذا ونحوه توحيد واجب بالاجماع من أهل الحق لا مشاركة لأحد فيه .

(ثم ذكر القسم الثاني) وهو المتفق على عدم التوحيد فيه والتوحد ، ومثل له بالوجود والعلم ونحوهما وأطنب فيه .

(ثم ذكر القسم الثالث) وهو الذي اختلف فيه هل يجب توحيد الله تعالى به أم لا ؟ قال فهذا هو التعظيم بالقسم ، فهل يجوز أن يقسم بغير الله تعالى فلا يكون من التعظيم الذي وجب التوحيد فيه أو لايجوز فيكون من التعظيم الذي وجب

التوحيد فيه ، وأطال الكلام فيه أيضا ، ومرادنا القسم الاول ، لأن فيه قوله : وكذلك يجب توحيده تعالى باستحقاق العبادة .. الخ وهذا هو المقصود بالنقل ، ولا يخفى مافي كلامه من المخالفة للنصوص بسبب القول بأقوال الكلابية ، وليس هذا موضع مناقشته بما ذكر .

وحيث اتسع الكلام بحسب المقام ننقل ماقاله الفاضل ابن القيم في كتابه (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) مانصه : ـ

ومن خصائص الالهية الكمال المطلق من جميع الوجوه ، الذي لانقص فيه بوجه من الوجوه ، وذلك يوجب العبادة كلها له وحده ، والتعظيم والاجلال ، والخشية والدعاء ، والرجاء والانابة ، والتوبة ، والتوكل والاستعانة ، وغاية الذل مع غاية الحب ، كل ذلك يجب عقلا وشرعا وفطرة أن يكون له وحده ، ويمنع الغير التشبيه ممن لاشبيه له ، ولا مثل له ، ولا ند له ، وذلك أقبح التشبيه وأبطله ، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لايغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة .

(ومن خصائص الالهية) العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما ، وهما غاية الحب مع غاية الذل ، هذا تمام العبودية ، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الاصلين فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه به في خالص حقه ، وهذا من المحال أن تجيء به شريعة من الشرائع ، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل ، ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم وأفسدتها عليهم واجتالتهم عنها ، ومضى على الفطرة الاولى من سبقت له من الله تعالى الحسنى ، فأرسل اليهم رسله صلى الله عليهم وسلم ، وأنزل كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم ، فازدادوا بذلك نورا على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء .

اذا عرفت هذا فمن خصائص الالوهية السجود ، فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به ، ومنها التوكل ، فمن توكل على غيره فقد شبهه به ، ومنها التوبة ، فمن تاب الى غيره فقد شبهه به ، ومنها الحلف باسمه تعظيما واجلالا ، فمن حلف بغيره على هذا الوجه فقد شبهه به ، انتهى ماقاله .

(والمقصود من ذلك كله) القيام بالقسط الذي هو التوحيد ، وهو عبادة الله وحده لاشريك له ، قال عز من قائل : (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالقِسْطِ وأَقِيموا وُجوهَكُم عِنْدَ كُلِّ مسْجِدٍ وادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لهُ الدِّينَ)(١) وقال تعالى : (واسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا

---

(١) الاعراف : ٢٩

مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدون)[1] فهذا التوحيد أعظم العدل وأقومه ، وأصل الدين ومحكمه ، وذلك بأن يكون الدين كله لله قولا وعملا واعتقادا باخلاص هذه الكلمة الطيبة في لفظها ومعناها ، شهادة أن لا اله الا الله وحده لاشريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وروح هذه الكلمة افراد الرب ـ جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ، ولااله غيره ـ بالمحبة والاجلال ،والتعظيم والخوف ،والرجاء وتوابع ذلك من التوكل والانابة ، والرغبة والرهبة ، فلا يحب سواه ، وكلما يحب غيره فانما يحبه تبعا لمحبته ، وكونه وسيلة الى زيادة محبته ، ولا يخاف سواه ، ولا يرجو سواه، ولا يتوكل الا عليه ، ولا يرغب الا اليه ، ولا يرهب الا منه ، ولايعمل عملا قد تعبد الناس به الا أفرده به ، ولايشرك غيره معه ، فيكون قد جمع جميع أنواع العبادات فيه قولا وعملا واعتقادا ، وتحقق بما قال وهو كلمة لا اله الا الله ، ولا نعبد الا اياه، مخلصين له الدين ولو كره المشركون .

وبهذه الحقوق التي هي حق الله تعالى على جميع عباده ، وحكمه الذي أوجبه على سائر مخلوقه ، تميز المسلمون ، واستسلم اليه المستسلمون .

ولما كان الدعاء لايصدر في الغالب الا ممن قام بقلبه كمال الذل والافتقار ، لاسيما في حالة الانكسار والاضطرار : كان كما ورد في الحديث مخ العبادة ، ومن وفق له فقد أوتي الحسنى وزيادة ، وهذا الذي ذكرته ملخص ماأشار اليه المحققون انتهى .

وبما ذكرنا من معنى الاستغاثة واختصاصها بالله تعالى سقط ماذكره النبهاني وغيره من الغلاة الزائغين من أن الاستغاثة بالاصفياء جائزة ، ولو كانت بالامور التي لايقدر عليها الا الله تعالى ، وهذا شرك محض وعبادة لغير الله تعالى ، وهو قول ليس عليه شبهة فضلا عن الدليل المقبول لدى أهل العلم .

ثم انه عقد فصلا ذكر فيه أربعين حديثا من أحاديث الشفاعة ولا كلام لنا فيها اذا طلبت منهم يوم القيامة ، وأما في الدنيا فانها تطلب من الله أن يشفع فيهم من يشفع ، وسيأتي بعض الكلام عليها ان شاء الله .

ثم انه عقد فصلا آخر ـ وهو الثالث ـ زعم أنه ذكر ماقاله أئمة العلماء ، وأثبتوا به مشروعية الاستغاثة بغير الله تعالى ، ونقل عبارة ابن حجر في (الجوهر

---

(1) الزخرف : ٤٦

المنظم) المشتملة على الاعتراض على الشيخ ابن تيمية في انكاره الاستغاثة بغير الله تعالى ، وأن التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم حسن في كل حال قبل خلقه وبعد خلقه في الدنيا والآخرة .

قال ابن حجر :

فمما يدل لطلب التوسل به صلى الله عليه وسلم ماأخرجه الحاكم وصححه أنه صلى الله عليه وسلم وذكر الحديث ، وفيه استغاثة آدم به ، وذكر حديث الاعمى ، وحديث التوسل بالاعمال ، وحديث استسقاء الرجل بقبر النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم ذكر كلام السبكي الذي نقله ابن حجر بعينه ، قال : وعبارة ابن حجر السابقة وان كانت كافية وافية فلا بأس بذكر بعض ماذكره السبكي وان تكرر بعضه مع ماتقدم عن ابن حجر ، لأنه نقل كثيرا من عباراته وان لم ينسب بعضها اليه ، وساق كلام السبكي ، ونقل مثل ذلك عن أمثال هؤلاء الغلاة ثم قال : وقد يتوسل بذي الجاه الى من هو أعلى جاها منه ، والاستغاثة طلب الغوث ، والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره وان كان ذلك الغير أعلى منه ، فالتوجه والاستغاثة به صلى الله عليه وسلم وبغيره ليس لهما معنى في قلوب المسلمين غير ذلك، ولا يقصد بهما أحد منهم سواه ، فمن لم ينشرح صدره لذلك فليبك على نفسه ، والمستغاث به في الحقيقة هو الله تعالى ، والنبي صلى الله عليه وسلم واسطة بينه وبين المستغيث ، فهو سبحانه مستغاث به والغوث منه خلقا وايجادا ، والنبي مستغاث والغوث منه سببا وكسبا انتهى مالخص من كلامه .

(أقول وبالله التوفيق) أما مافي كلام هذا الجاهل الغبي من فساد التركيب وبشاعة التعبير فلسنا بصدد بيانه ، والكلام عليه يطول ، والغرض ابطال الدعوى ومعارضتها ، والكشف عن حالها وحال أئمته السابقين من الامم ، المعارضين للرسل بآرائهم وأهوائهم ، ثم نتكلم ان شاء الله بعد الكلام على هذه المقالة على جميع شبههم الفاسدة .

قال العلامة الشيخ عبد اللطيف رحمه الله تعالى في كتابه (منهاج التأسيس في الرد على ابن جرجيس) بعد أن نقل عن العراقي مثل مانقلنا عن النبهاني (والجواب) عن هذه الشبهة من وجوه : —

(الاول) أن الله سبحانه انما خلق خلقه لعبادته الجامعة لمعرفته ومحبته ، والخضوع له وتعظيمه ، وخوفه ورجائه ، والتوكل عليه والانابة اليه ، والتضرع بين

يديه ، وهذه زبدة الرسالة الالهية ، وحاصل الدعوة النبوية ، وهو الحق الذي خلقت له السموات والارض ، وأنزل به الكتاب ، وهو الغاية المطلوبة والحكمة المقصودة من ايجاد المخلوقات ، وخلق سائر البريات ، قال تعالى :(وما خَلَقْتُ الجن والانسَ إلاَّ لِيَعْبُدونِ)، دعا سبحانه عباده الى هذا المقصود ، وافترض عليهم القيام به حسب ماأمر ، والبراءة من الشرك والتنديد المنافي لهذا الاصل الذي هو المراد من خلق سائر العبيد ، قال الله تعالى : (إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ به ويَغْفِرُ ما دونَ ذلكَ لِمَنْ يشاءُ)[1] وقال : (إنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الجَنَّةَ ومَأواهُ النَّارُ وما لِلظَّالِمينَ مِنْ أنصارٍ)[2] وقال : (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فكَأنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أو تَهْوي بِهِ الرِّيحُ في مَكانٍ سَحيقٍ)[3] .

فالقول بجواز الاستغاثة بغير الله ودعاء الانبياء والصالحين وجعلهم وسائط بين العبد وبين الله ، والتقرب اليهم بالنذور والنحر ، والتعظيم بالحلف وما أشبهه : مناقضة ومنافاة لهذه الحكمة التي هي المقصودة بخلق السموات والارض ، وانزال الكتب ، وارسال الرسل ، وفتح لباب الشرك في المحبة والخضوع والتعظيم ، ومشاقة ظاهرة لله ولرسله ، ولكل نبي كريم ، والنفوس مجبولة على صرف ذلك المذكور من العبادات ، الى من أهلته لكشف الشدائد وسد الفاقات ، وقضاء الحاجات ، من الامور العامة التي لايقدر عليها الا فاطر الارض والسموات .

(الوجه الثاني) أن هذا بعينه قول عباد الانبياء والصالحين من عهد قوم نوح الى أن بعث اليهم خاتم النبيين ، ولم يزيدوا على ماقال هؤلاء الغلاة فيما انتحلوه من الشرك الوخيم ، والقول الذميم ، كما حكى الله عنهم ذلك في كتابه الكريم ، قال تعالى : (ويَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ مَالا يَضُرُّهمْ ولا يَنْفَعُهمْ ويَقولونَ هَؤلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللهِ)[4] وقال تعالى : (والَّذينَ اتَّخَذوا مِنْ دونِه أولياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبونا إلى اللهِ زُلْفَى)[5] وقال تعالى : (فَلولا نَصَرَهُم الَّذينَ اتَّخَذوا مِنْ دونِ اللهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنهُم وذلِكَ إفْكُهُمْ ومَا كانوا يَفْتَرونَ)[6] .

---

(١) النساء : ١١٦ (٢) المائدة : ٧٦ (٣) الحج : ٣٢ (٤) يونس : ١٩ (٥) الزمر : ٤ (٦) الاحقاف : ٢٩

فهذه النصوص المحكمة صريحة في أن المشركين لم يقصدوا الا الجاه والشفاعة والتوسل ، بمعنى جعلهم وسائط تقربهم الى الله ، وتقضي حوائجهم منه تعالى ، وقد أنكر القرآن هذا أشد الانكار ، وأخبر أن أهله هم أصحاب النار ، وأن الله تعالى حرم عليهم الجنة دار أوليائه الابرار ، وجمهور هؤلاء المشركين لم يدعوا الاستقلال ولا الشركة في توحيد الربوبية ، بل قد أقروا واعترفوا بأن ذلك لله وحده ، كما حكى سبحانه اقرارهم واعترافهم بذلك في غير موضع من كتابه .

فحاصل ماذكر من جواز الاستغاثة والدعاء والتعظيم بالنذر والحلف ــ مع نفي الاستقلال ، وأن الله يفعل لأجله ــ هو عين دعوى المشركين ، وتعليلهم وشبهتهم لم يزيدوا عليه حرفا واحدا ، إلا أنهم قالوا قربان وشفعاء ، والغلاة سموا ذلك توسلا فالعلة واحدة ، والحقيقة متحدة .

(الوجه الثالث) أن الله سبحانه أمر عباده بدعائه ومسألته والاستغاثة به ، وانزال حاجتهم وفاقتهم وضرورتهم به قال تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ)[1] وقال تعالى : (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)[2] وقال تعالى : (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ اذا دعاهُ) الاية[3] وقال تعالى : (فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ)[4] وقال تعالى : (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمْوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) وقال تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ، وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)

وفي الحديث (من لم يسأل الله يغضب عليه) وفيه : (الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين) وحديث النزول كل ليلة الى السماء الدنيا ، يقول تعالى : (هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من تائب فأتوب عليه) وعلى مذهب الغلاة وقولهم باستحباب الاستغاثة بغير الله تعالى ، وجعل الوسائط بين العباد وبينه تعالى يهدم هذا الاصل الذي هو أصل الدين ، ويسد بابه ، ويستغاث بالانبياء والصالحين، ويرغب اليهم في حاجات الطالبين والسائلين ، وضرورات المضطرين من خلق الله أجمعين .

---

(١) البقرة : ١٨٧ (٢) المؤمن ٦١ (٣) النمل : ٦٢ (٤) العنكبوت : ١٨

(الوجه الرابع) أن الله تعالى دعا عباده بربوبيته العامة الشاملة لكليات الممكنات وجزئياتها في الدنيا والآخرة ، وانفراده بالايجاد والتدبير ، والتأثير والتقدير ، والعطاء والمنع ، والخفض والرفع ، والعز والذل ، والاحياء والاماتة ، والسعادة والشقاوة ، والهداية والمغفرة ، والتوبة على عباده ، الى غير ذلك من أفعال الربوبية وآثارها المشاهدة المصنوعة : الى معرفته وعبادته ، الجامعة لمحبته والخضوع له ، وتعظيمه ودعائه ، وترك التعلق على غيره محبة وتعظيما واستغاثة ، قال تعالى : (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ) الى قوله : (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [1] وقال تعالى : (قُل لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) الى قوله : (فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) [2] وقال تعالى : (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) الى قوله : (أَفَلَا تَتَّقُونَ) [3]

فتأمل هذه الآيات وما تضمنته من تقرير أفعال الربوبية التي لايخرج عنها فرد من أفراد الكائنات ، واعرف ماسيقت له ودلت عليه من وجوب محبته تعالى وعبادته وحده لاشريك له ، وترك عبادة ماعبد من دونه من الانداد والآلهة والبراءة من ذلك •

وانظر هل القوم المخاطبون بهذا زعموا الاستقلال لغير الكبير المتعال ، أم أقروا له سبحانه بالاستقلال والتدبير والتأثير ، وانما أتوا من جهة الواسطة والشفاعة ، والتوسل بدعاء غير الله وقصد سواه فيما يحتاجه العبد وما يهواه ، وهذا صريح من تلك الحجج البينات ، ونص هذه الآيات المحكمات ، احتج سبحانه بما أقروا به من الربوبية والاستقلال على ابطال قصد غيره بالعبادة والدعاء والاستغاثة كما يفعله أهل الجهل والضلال ، فاذا قيل تجوز الاستغاثة بالانبياء والصالحين ودعاؤهم والنذر لهم على أنهم وسائط ووسائل بين الله وبين عباده وأن الله يفعل لأجلهم : انهدمت القاعدة الايمانية ، وانتقضت الاصول التوحيدية ، وفتح باب الشرك الاعظم ، وعادت الرغبات والرهبات ، والمقاصد والتوجهات ، الى سكان القبور والاموات ، ومن دعي مع الله من سائر المخلوقات ، وهذه هي الغاية الشركية ، والعبادة الوثنية ، فنعوذ بالله من الضلال والشقاء والانحراف عن أسباب الفلاح والهدى •

(الوجه الخامس) أنه لافلاح ولا صلاح ولا نجاح ولا نعيم ولا لذة للعبد الا

---

(١) النمل : ٦٠ ــ ٦٤ (٢) المؤمنون : ٨٦ ــ ٩١ (٣) يونس : ٣٢

بأن يكون الله سبحانه هو الهه ومحبوبه ومستغاثه ، الذي اليه مفزعه عند الشدائد، واليه مرجعه في عامة المطالب والمقاصد ، والعبد به فاقة وضرورة وحاجة إلى أن يكون الله هو معبوده ومستغاثه ، اليه انابته ومفزعه ، ولو حصلت له كل الكائنات وتوجه الى جميع المخلوقات لم تسد فاقته ، ولا تدفع ضرورته ، ولا يحصل نعيمه وفرحه ويزول همه وكربه وشقاؤه الا بربه الذي من وجده وجد كل شيء ، ومن فاته فاته كل شيء ، وهو أحب اليه من كل شيء ، وهذه فاقة وضرورة وحاجات لايشبهها شيء فتقاس به ، وانما تشبه من بعض الوجه حاجة العبد الى طعامه وشرابه وقوته الذي يقوم بدنه به ، فان التدن لايقوم الا بذلك ، وفقده غاية انعدام البدن وموته .

وأما فقد محبة الله وعبادته ودعائه فعذاب وشقاء ، وجحيم في الآخرة والاولى لاينفك بحال من الاحوال ، قال تعالى : (اهْبِطا منْها جَميعاً بعْضُكُم لِبعْضٍ عَدوٌّ فإِمَّا يأْتينَّكُم مِنِّي هُدىً فمَنْ اتَّبع َهُدايَ فلا يضِلُّ ولا يشْقى) الى قوله : (ولعذاب الاخرةِ أَشدُّ وأَبقى)[1] وقال تعالى : (الَّذينَ آمَنوا و تَطمئِنَّ قُلوبُهم بِذكْرِ اللهِ أَلا بِذكْرِ اللهِ تطْمئِنُّ القُلوبَ . الَّذينَ آمنُوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وحُسْنُ مآبٍ)[2] .

وفي الحديث القدسي ـ حديث الاولياء ـ يقول الله تعالى : (من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب الي عبدي بمثل أداء مافترضت عليه ، ولايزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش) الحديث .

وعلى القول بجعل الوسائط والشفعاء بين العباد وبين الله تقلع أصول هذا الاصل العظيم ، الذي هو قطب رحى الايمان ، وينهدم أساسه الذي ركب عليه البنيان ، فأي فرح وأي نعيم وأي فاقة سدت وأي ضرورة دفعت وأي سعادة حصلت وأي أنس ، واطمئنان اذا كان التوجه والدعاء والاستغاثة والذبح والنذر لغير الملك الحنان المنان ، سبحان الله ماأجرأ هذا المعترض على الله وعلى رسله وعلى دينه وعلى عباده المؤمنين ؟!

---

(١) طه : ١٢٤ (٢) الرعد : ٣١ ، ٣٢

اللهم انا نبرأ اليك مما جاء به هذا المفتري ، وما قاله في دينك وكتابك ، وعلى عبادك وأوليائك ، قال تعالى : (لو كانَ فيهِما آلهةٌ إلاّ اللهُ لفسَدَتا فسُبْحانَ اللهِ ربِّ العرْشِ عَمّا يصِفونَ)[1] فصلاح السموات والارض بأن يكون الله سبحانه هو الهها دون ماسواه ، ومستغاثها الذي تفزع اليه وتلجأ اليه في مطالبها وحاجاتها ، وقرر المتكلمون هنا تمانع وجود ربين مدبرين ، وانه لاصلاح للعالم الا بأن يكون الله قيومه ومدبره ، وقرر غيرهم من المحققين امتناع الصلاح بوجود آلهة تعبد وتقصد وترجى ، فالاول يرجع الى الربوبية ، والثاني الى الالهية •

(الوجه السادس) أن الشرع الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم والسنة التي سنها في قبور الانبياء والصالحين وعامة المؤمنين تنافي هذا القول الشنيع ــ الذي افتراه هذا الجاهل ــ وتبطله وتعارضه ، فانه صلى الله عليه وسلم سن عند القبور ماصحت به الاحاديث النبوية ، وجرى عليه عمل علماء الامة من السلام عند زيارتها والدعاء لأصحابها ، وسؤال الله العافية لهم ، من جنس ماشرعه من الصلاة على جنائزهم ، ونهى عن عبادة الله عند القبور والصلاة فيها واليها ، وخص قبور الانبياء والصالحين بلعن من اتخذهامساجد يعبدفيها تعالى ويدعى ،وتواترت بذلكالاحاديث خرجها أصحاب الصحيحين وأهل السنن ومالك في موطئه •

(فمنها) قوله صلى الله عليه وسلم : (اللهم لاتجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وحديث ابن مسعود (ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد) ، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه : (قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وحديث جابر بن عبد الله : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس يقول : اني أبرأ الى الله أن يكون لي منكم خليل ، فان الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا ، ولو كنت متخذا من أهل الارض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ألا وان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني أنهاكم عن ذلك) وحديث عائشة : (لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فاذا اغتم بها كشفها ، فقال ــ وهو كذلك ــ لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ،قالت عائشة يحذر ماصنعوا

---

(١) الانبياء : ٢٣

ولولا ذلك لابرز قبره ، ولكن خشي أن يتخذ مسجد) وفي رواية لمسلم :(وصالحيهم)

وانما نهى عن الصلاة عندها واتخاذها مساجد لما يفضى اليه من دعائها والاستغاثة بها ، وقصدها للحوائج والمهمات ، والتقرب اليها بالنذور والنحر ونحو ذلك من القربات ، فجاء الغلاة فهتكوا ستر الشريعة ، واقتحموا الحمى ، وشاقوا الله ورسوله ، وقالوا تدعى ويستغاث بها وترجى •

ومن شم رائحة العلم وعرف شيئا مما جاءت به الرسل عرف أن هذا الذي قاله الغلاة من جنس عبادة الاصنام والاوثان مناقض لما دلت عليه السنة والقرآن ، ولا يستريب في ذلك عاقل من نوع الانسان •

(الوجه السابع) أن الله تعالى نهى عن الغلو ومجاوزة الحد فيما شرعه من حقوق أنبيائه وأوليائه ، قال تعالى :(يا أَهْلَ الكِتابِ لا تَغْلوا في دينِكُم ولا تقولوا عَلَى اللهِ إلاَّ الحقَّ)[1] وقال تعالى : (قُلْ يا أَهْلَ الكتابِ لا تغْلوا في دينِكُم غَيْرَ الحَقِّ ولا تَتَّبعوا أَهْواء قومٍ قدْ ضَلوُّا مِن قبْلُ وأَضَلوُّا كثيراً وضَلوُّا عن سواء السَّبيلِ)[2] .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لاتطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) وعن ابن عباس في قوله تعالى : (وقالوا لا تذَرُنَّ آلِهتَكُم ولاتذرُنَّ وَداً ولا سُواعاً ولا يَغوثَ ويعوقَ ونَسْراً) هذه أسماء رجال صالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا لهم أنصابا وصوروا تماثيلهم ، فلما مات أولئك ونسي العلم عبدت ، وقال ابن القيم : قال غير واحد من السلف عكفوا على قبورهم وصوروا تماثيلهم ، فما طال عليهم الامد عبدت ، انتهى •

فانظر الى ماآل اليه الغلو بالتصاوير والعكوف من غير دعاء ولا عبادة ، فكيف بالدعاء والاستغاثة والتوسل ؟ والقول بأن الله تعالى يفعل لأجلهم هذا نفس الشرك، والاول وسيلته التي حدث الشرك بسببها •

---

(١) النساء : ١٧١ (٢) المائدة : ٨١

وقد قطع النبي صلى الله عليه وسلم وسيلة هذا الشرك وحمى الحمى وسد الذريعة حتى نهى عن الصلاة عندها ، واعتياد المجيء اليها بقوله في أشرف القبور : (لاتجعلوا قبري عيدا ، ولا بيوتكم قبورا ، وصلوا علي حيثما كنتم ، فان صلاتكم تبلغني) ونهى عن رفع القبور ، وبعث علي ابن أبي طالب أن لايدع تمثالا الا طمسه ولا قبرا مشرفا الا سواه ، ونهى عن تعظيمها بايقاد السرج ، كل هذا صيانة للتوحيد وحماية لجانبه ، فرحم الله امرأ آمن بالجنة والنار ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم امامه ومعلمه وقدوته ، ولم يلتفت عما جاء به ، ولم يبال بمن خالفه وسلك غير سبيله ، وحن الى ما كان عليه السلف الصالح وأئمة الهدى في هذا الباب وفي غيره : (اولئكَ الَّذينَ هَدى اللهُ فَبِهُداهُم اقْتَدِهْ) [1] (قُل إن كُنتُم تُحبُّونَ اللهَ فاتَّبِعوني يُحبِبْكُمُ اللهُ ويغفِرْ لكُم ذُنوبَكُمْ واللهُ غفورٌ رحيمٌ . قُل أَطيعوا اللهَ والرَّسولَ فإنْ تولَّوْا فإنَّ اللهَ لا يُحبُّ الكافرينَ) [2]

(الوجه الثامن) أن من أعرض عن الله وقصد غيره وأعد ذلك الغير لحاجته وفاقته واستغاث به ونذر له ولاذ به فقد أساء الظن بربه ، وأعظم الذنوب عند الله تعالى اساءة الظن به ، فان المسيء به الظن قد ظن به خلاف كما له المقدس ، فظن به ما يناقض أسماءه وصفاته ، ولهذا توعد سبحانه وتعالى الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم ، كما قال تعالى : (عَليهِمْ دائِرةُ السَّوءِ وغضِبَ اللهُ عليهِمْ ولعنَهُم وأَعدَّ لَهُم جهنَّم وساءتْ مصيراً) [3] وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته : (وذالِكُم ظَنُّكُمُ الَّذي ظنَنْتُم بربِّكُمْ أَرداكُم فأَصبَحتُم من الخاسرينَ) [4] وقال تعالى عن خليله ابراهيم عليه الصلاة والسلام : (إِذْ قال لأَبيهِ وقَومِهِ ماذا تعبُدونَ . أَئفْكاً آلِهَةً دونَ اللهِ تُريدونَ . فما ظَنُّكُم بِربِّ العالَمينَ) [5] أي فما ظنكم أن يجازيكم اذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ، وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك الى عبودية غيره ، فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه غني عن كل ما سواه فقير اليه كل من عداه ، وأنه قائم بالقسط على خلقه ، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لايشرك فيه غيره ،

---

(١) الانعام : ٩١ (٢) آل عمران : ٣٢ ، ٣٣ (٣) الفتح : ٧ (٤) فصلت : ٢٤ (٥) الصافات : ٨٦ ـ ٨٨

والعالم بتفاصيل الامور فلا تخفى عليه خافية من خلقه ، والكافي لهم وحده لايحتاج الى معين ، والرحمن بذاته فلا يحتاج في رحمته الى من يستعطفه ، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم ، من الرؤساء ، فانهم محتاجون الى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم ، من الوسطاء الذين يعينونهم على قضاء حوائجهم ، والى من يسترحمهم ويستعطفهم بالشفاعة ، فاحتاجوا الى الوسائط ضرورة لحاجتهم وعجزهم وضعفهم وقصور علمهم .

فأما القادر على كل شيء ، الغني بذاته عن كل شيء ، العالم بكل شيء الرحمن الرحيم ، الذي وسعت رحمته كل شيء : فادخال الوسائط بينه وبين خلقه تنقص بحق ربوبيته والهيته وتوحيده ، وظن به ظن السوء ، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده ويمتنع في العقول والفطر ، وقبحه مستقر في العقول السليمة فوق كل قبح .

يوضح هذا أن العابد معظم لمعبوده متأله له خاضع ذليل له ، والرب تبارك وتعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والاجلال ، والتأله والخضوع والذل ، وهذا في خالص حقه ، فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره ويشرك بينه وبينه فيه ، ولا سيما اذا كان الذي جعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه ، كما قال تعالى : (ضَربَ لكمُ مثلاً من أَنفُسِكُم هَل لكُم مِما مَلَكَتْ أَيمانكم مِن شُركاء فيما رزقناكم فأَنتم فيهِ سواء تَخافونهم كخيفَتِكُم أَنفُسَكُم) [١] أي إذا كان أحدكم يأنف أن مملوكه شريكه في رزقه فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرد به وهي الالهية التي لاتنبغي لغيري ، ولا تصلح لسواي ، فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري ، ولا عظمني حق تعظيمي ، ولا أفردني بما أنا منفرد به وحدي دون خلقي .

فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره ، كما قال تعالى : (ومـا قَدَروا اللهَ حَقَّ قدْرِهِ والارضُ جميعاً قبضَتُهُ يومَ القيامةِ والسَّمٰواتُ مطْوِيَّاتٌ بيمينِهِ سُبحانَهُ وتعالىٰ عَمَّا يُشرِكونَ) [٢]

فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة ، بل هو أعجز شيء وأضعفه ، فما قدر القوي العزيز حق قدره من

---

(١) الروم : ٢٩ (٢) الزمر : ٦٨

أشرك معه الضعيف الذليل •

وكذلك ماقدره حق قدره من قال انه لم يرسل الى خلقه رسولا ولا أنزل كتابا بل نسبه الى مالايليق به ولا يحسن منه من اهمال خلقه وتركهم سدى ، وخلقهم باطلا عبثا •

ولا قدره حق قدره من نفى حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العليا فنفى سمعه وبصره وارادته واختياره وعلوه فوق خلقه وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد ، أو نفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم فأخرجها عن قدرته ومشيئته وخلقه ، وجعلهم يخلقون لانفسهم مايشاؤن بدون مشيئة الرب تبارك وتعالى ، فيكون في ملكه مالا يشاء ويشاء مالا يكون ، تعالى الله عز وجل عن قول أشباه المجوس علوا كبيرا •

وكذلك ماقدره حق قدره من قال : انه يعاقب عبده على مالا يفعله العبد ولا له عليه قدرة ، ولا تأثير له فيها البتة بل هو نفس فعل الرب جل جلاله ، فيعاقب عبده على فعله ، وهو سبحانه وتعالى الذي جبر العبد عليه ، وجبره على الفعل أعظم من اكراه المخلوق المخلوق ، فاذا كان من المستقر في الفطر والعقول أن السيد لو أكره عبده على فعل وألجأه اليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحا :فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين كيف يجبر العبد على فعل لايكون للعبد فيه صنع ولا تأثير ، ولا هو واقع بارادته بل ولا هو فعله البتة ، ثم يعاقب عليه عقوبة الابد ؟ تعالى الله عز وجل عن ذلك علوا كبيرا • وقول هؤلاء شر من أقوال المجوس ، والطائفتان ماقدروا الله حق قدره •

وكذلك ماقدره من لم يصنه عن بئر ولا حش ولا مكان يرغب عن ذكره ، بل جعله في كل مكان وصانه عن عرشه أن يكون مستويا عليه ، يصعد اليه الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، وتعرج الملائكة والروح اليه وتنزل من عنده ، ويدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه ، فصانه عن استوائه على سرير الملك ، ثم جعله في كل مكان يأنف الانسان بل غيره من الحيوان أن يكون فيه •

وما قدره حق قدره من نفي حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقته ولا من نفى حقيقة حكمته التي هي الغايات المحمودة المقصودة بفعله ، ولا من نفى حقيقة فعله ولم يجعل له فعلا اختياريا يقوم به ، بل أفعاله مفعولات منفصله عنه ،

فنفى حقيقة محبته واتيانه واستوائه على عرشه ، وتكليمه موسى صلى الله عليه وسلم من جانب الطور ، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه ، الى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله التي نفوها وزعموا أنهم بنفيها قدروا الله حق قدره •

وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولدا ، وجعله يحل في مخلوقاته وجعله عين هذا الوجود •

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال أنه رفع أعداء رسوله وأهل بيته وأهمل ذكرهم وجعل فيهم الملك والخلافة والعفو ، ووضع أولياء رسوله وأهانهم وأذلهم ، وضرب عليهم الذلة أينما ثقفوا ، وهذا يتضمن غاية القدح في الرب ـ تبارك وتعالى عن قول الرافضة علوا كبيرا ـ وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى في رب العالمين انه أرسل ملكا ظالما فادعى النبوة لنفسه ، وكذب على الله تعالى ، ومكث زمنا طويلا يكذب عليه كل وقت ، ويقول قال كذا وأمر بكذا ونهى عن كذا ، وينسخ شرائع أنبيائه ورسله ، ويستبيح دماء اتباعهم وأموالهم وحريمهم ، ويقول الله تعالى أباح لي ذلك ، والرب تبارك وتعالى يظهره ويؤيده ، ويعليه ويقويه ، ويجيب دعواته ، ويمكنه ممن يخالفه ، ويقيم الادلة على صدقه ، ولا يعاديه أحد الاظفر به فيصدقه بقوله وفعله وتقريره ، ويحدث أدلة تصدقه شيئا بعد شيء ، ومعلوم أن هذا يتضمن أعظم القدح والطعن في الرب سبحانه وتعالى ، وعلمه وحكمته ورحمته وربوبيته ، تعالى عن قول الجاحدين علوا كبيرا •

فوازن بين قول هذا وقول اخوانه من الرافضة تجد القولين :

رضيعا لبان ثدي أم تقاسما باسحم داج عوض لايتفرق

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال انه يجوز أن يعذب أولياءه ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار الجحيم ، وينعم أعداءه ومن لم يؤمن به طرفة عين ويدخلهم دار النعيم ، وان كلا الامرين بالنسبة اليه سواء وانما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك فمعناه الخبر لا مخالفة حكمته وعدله وقد أنكر سبحانه وتعالى في كتابه على من يجوز عليه ذلك غاية الانكار ، وجعل الحكم به من أسوء الاحكام •

وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم أنه لايحيي الموتى ، ولا يبعث من في القبور ، ولا يجمع خلقه ليوم يجازي فيه المحسن باحسانه والمسيء باساءته ، ويأخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمه ، ويكرم المتحملين المشاق في هذه الدار من أجله وفي مرضاته بأفضل كرامته ، ويبين لخلقه الذي يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين •

وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه أمره فعصاه ، ونهيه فارتكبه ، وحقه فضيعه ، وذكره فأهمله وغفل قلبه عنه ، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه ، طاعته المخلوق أهم عنده من طاعته ، فلله الفضلة من قلبه وقوله وعمله ، وسواه المقدم في ذلك لانه المهم عنده ، يستخف بنظر الله اليه واطلاعه عليه وهو في قبضته وناصيته بيده ، ويعظم نظر المخلوق اليه واطلاعهم عليه بكل قلبه وجوارحه ، يستحي من الناس ولا يستحي من الله عز وجل ، ويخشى الناس ولا يخشى الله عز وجل ، ويعامل الخلق بأفضل مايقدر عليه ، وان عامل الله عز وجل عامله بأهون ماعنده وأحقره ، وان قام في خدمة الهه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة ، قد فرغ له قلبه وجوارحه ، وقدمه على كثير من مصالحه ، حتى اذا قام في حق ربه — ان ساعده القدر — قام قياما لايرضاه مثله لمخلوق من مخلوقاته ، وبدا له مالم يستح أن يواجه به مخلوقا لمثله ، فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه ؟ وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الاجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء ؟ فلو جعل من أقرب الخلق اليه شريكا في ذلك لكان ذلك جزاءه ، وتوثبا على محض حقه واستهانة به ، وتشريكا بينه وبين غيره فيما لاينبغي ولا يصلح الا له سبحانه وتعالى ، فكيف وانما شرك بينه وبين أبغض الخلق اليه وأهونهم عليه وأمقتهم عنده وهو عدو على الحقيقة ، فانه ماعبد من دون الله الا الشيطان ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾(١) ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم في نفس الامر للشيطان ، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾(٢)

فالشيطان يدعو المشرك الى عبادته ويوهمه أنه ملك ، وكذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب ، وهي التي تخاطبهم وتقضي لهم الحوائج ، ولهذا اذا طلعت الشمس قارنها الشيطان لعنه الله

---

(١) يس : ٦١ ، ٦٢ (٢) سبأ : ٤١ ، ٤٢ .

تعالى فيسجد لها الكفار فيقع سجودهم له وكذلك عند غروبها .

وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وانما عبد الشيطان فانه يزعم أنه يعبد من أمره لعبادته وعبادة أمه ورضيها لهم وأمرهم بها ، وهذا هو الشيطان الرجيم — لعنه الله تعالى — لاعبد الله ورسوله ، ونزل هذا كله على قوله تعالى : (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) فما عبد أحد من بني آدم غير الله عز وجل كائنا من كان الا وقعت عبادته للشيطان ، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول غرضه ، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له واشراكه مع الله الذي هو غاية رضا الشيطان ، ولهذا قال تعالى : (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ) من اغوائهم واضلالهم (وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)[1] فهذه اشارة لطيفة الى السر الذي لاجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله تعالى ، وأنه لايغفر بغير التوبة منه ، وانه يوجب الخلود في النار ، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه ، بل يستحيل على الله سبحانه وتعالى أن يشرع عبادة اله غيره كما يستحيل عليه ماينافض أوصاف كماله ونعوت جلاله ، وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والالهية والعظمة والجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك ، أو يرضي به ، تعالى الله عز وجل عن ذلك علوا كبيرا ، انتهى ، وانما سقنا هذا المبحث العظيم الذي يعقد عليه الخناصر ويعض عليه بالنواجذ لما فيه من الفوائد التي لايستغنى عنها من نصح نفسه ، وانما الغرض بيان مافي التوسل والاستغاثة بالاموات والغائبين من سوء الظن بالله رب العالمين .

(الوجه التاسع) أن الله تعالى حرم القول عليه بغير علم وجعله أعظم من الشرك ، قال تعالى : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)[2] الآية ، فرتب المحرمات منتقلا من الادنى الى الاعلى ، وقال تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا

---

(١) الانعام : ١٢٨ (٢) الاعراف : ٣٣

اولئكَ يُعرَضُونَ على ربهِّم ويقولُ الأَشهادُ هؤُلاء الَّذينَ كذَبوا على ربهِّم الا لعنَةُ اللهِ على الظَّالمينَ. الَّذينَ يصُدُّونَعن سبيلِ الله ويبغونها عِوجاً وهُم بالآخِرَة هُم كافِرونَ)[1] ومن عرف الشرك حق المعرفة يعلم أن من قال تجوز الاستغاثة والتوسل بالانبياء والصالحين والنذر لهم والحلف وما أشبهه من التعظيم: له نصيب وافر من الكذب على الله وعلى رسوله، ومن الصد عن سبيل الله وابتغاء العوج والله المستعان، وقال تعالى: (قالوا اتَّخذَ اللهُ ولداً سُبحانهُ هو الغنيُّ لهُ ما في السَّموات وما في الأَرض إنْ عندَكُم مِّن سُلطانٍ بهذا أَتقولونَ على الله مالا تَعلمونَ. قُلْ إنَّ الذينَ يَفترون على اللهِ الكَذبَ لا يُفلحونَ. متاعٌ في الدُّنيا ثُمَّ إلينا مرجِعُهم ثُمَّ نُذيقُهم العذابَ الشَّديدَ بما كانوا يكْفُرونَ)[2].

(ويتبين) كذب الغلاة على الله وعلى رسوله وعلى عباده الصالحين بالكلام على ماساقه هذا المعترض من الادلة التي يزعم أنها تدل على دعواه، وتنصر ما قاله وافتراه.

فأما قوله: اعلم أن المجوزين للاستغاثة بالانبياء والصالحين مرادهم أنها أسباب ووسائل بدعائهم، وأن الله يفعل لأجلهم لا أنهم الفاعلون استقلالا من دون الله، فان هذا كفر بالاتفاق: فجواب هذا تقدم في الوجه الثاني، وذكرنا أن المشركين من عهد نوح الى عهد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم لم يقصدوا سوى هذا، ولم يدعوا لآلهتهم غيره، وأنهم مازادوا حرفا واحدا على هذا العراقي وشيعته، وهو يظن أن النزاع في دعواه الاستقلال وليس الامر كذلك، فان النزاع بين الرسل وقومهم انما هو في توحيد العبادة، فكل رسول أول مايقرع أسماع قومه بقوله: (يا قَومِ اعبُدوا اللهَ ما لَكُم مِن إلهٍ غيْره) وكان المشركون من الجاهلية يقولون في تلبيتهم: لبيك لاشريك لك، الا شريكا هو لك تملكه وما ملك، فأثبتوا الشرك في العبادة واعتقدوا أن آلهتهم مملوكة لا مستقلة، وهذا ظاهر في القرآن

---

(١) هود: ١٩، ٢٠ (٢) يونس: ٦٩ – ٧١

والسنة ، لايجهله من عرف ما الناس فيه من أمر دينهم ، وانما خفي ذلك على هـذا المعترض لفرط جهله وقلة فهمه ، ولأنه نشأ بين عباد القبور المتوسلين بها وبأهلها ، فظن أن هذا هو الاسلام ، والمسكين لم يعرف ربه وما يجب له من الحقوق على كافة الانـام •

ولم يتخرج على امام يعتمد في بيان الشرائع والاحكام ، مع أن عباد القبور في هذه الازمان اعتقدوا التدبير والتصريف لمن يعتقدونه ، فطائفة قالت يتصرف في الكون سبعة ، وطائفة قالت يتصرف أربعة ، وطائفة قالت يتصرف سبعون واختلفوا في قطبهم الذي اليه يرجعون ــ تعالى الله عما يقول الظالمون ــ فأهل مصر يرون أنه البدوي ، وأهل العراق يرجحون الشيخ عبد القادر ، والرافضة يرون ذلك للأئمة من أهل البيت ، وهذا مشتهر عنهم لاينكره الا مكابر ، وقد حكم المعترض الجاهل بأن دعوى الاستقلال كفر بالاتفاق ، وعلى قول غلاة عباد القبور مصدر التصريف عنهم يستقلون به ، لأن الوكيل يستقل بتدبير ماوكل اليه ، وحينئذ فاذا لم يعرف العبادة ومسألة النزاع كيف يجادل عن قوم جزم بكفرهم وحكى عليه الاتفاق ، فالرجل مخلط لايدري مايقول •

وأما قوله ولا يخطر ببال مسلم جاهل فضلا عن عالم الخ •

فيقال : أين العنقاء لتطلب ؟ وأين السمندل ليجلب ؟ اذا صح الاسلام لم يرغب أهله الى دعاء غير الله من العباد والاوثان والاصنام •

وأما قوله : بل ليس هذا خاصا بنوع الامـوات ، فان الاحيـاء وغـيرهم من الاسباب العادية ، كالقطع للسكين والشبع للاكل والري والدفء لو اعتقد أحد أنها فاعلة ذلك بنفسها من غير استنادها الى الله يكفر اجماعا •

فيقال : اذا كان اسناد الفعل اليها استقلالا يكفـر فاعله اجمـاعا ــ وهي من الاسباب العادية التي أودع الله تعالى فيها قوة فاعلة ــ فكيـف لايكفر من أسنـد مالا يقدر عليه الا الله من اغاثة اللهفات ، وتفريج الكربات ، واجابة الدعوات الى غير الله من الصالحين أو غيرهم ، وزعم أنهم وسائل ، أو أن الله وكل اليهم التدبير كرامة لهم ، هذا أولى بالكفر وأحق به ممن قبله •

ويقال للزائغ : أنت لاترضى تكفير أهل القبور لاحتمال العذر والشبهة ، وأنه شرك أصغر ، يثاب من أخطأ فيه ، فكيف جزمت بكفر من أسند القطع للسكـين من

غير استناد الى الله ؟ وما الفرق بين من عذرته وجزمت باثابته وبين من كفرته وجزمت بعقابه ؟ ليست احدى المسألتين بأظهر من الاخرى ، وما يقال من الجواب فيما أثبته من الكفر يقال فيما نفيته •

يوما بجزوى ويوما بالعقيق وبالعذيب يوما ويوما بالخليصاء

أي مذهب وافق هواك تمذهبت به •

ويقال : جمهور العقلاء على الفرق بين الاسباب العادية وغيرها ، فالشبع والري والدفء أسباب عادية فاعلة ، وانما يكفر من أنكر خلق الله لهذه الاسباب وقال بفعلها دون مدبر عليم حكيم ، وهذا البحث يتعلق بتوحيد الربوبية ، وأما جعل الامــوات أسبابا يستغاث بها وتدعى وترجى وتعظم على أنها وسائط : فهذا دين عباد الاصنام ، يكفر فاعله بمجرد اعتقاده وفعله وإن لم يعتقد الاستقلال ، كما نص عليه القرآن في غير موضع ، فالغلاة معارضون للقرآن مصادمون لنصوصه •

وأما قوله : إن السبكي والقسطلاني والسمهودي وابن حجر في الجوهر المنظم قالوا والاستغاثة به صلى الله تعالى عليه وسلم وبغيره في معنى التوسل الى الله تعالى بجاهه الخ •

فيقال : مسألة الاستغاثة به وبجاهه ليست هي مسألة النزاع ، ومراد أهل العلم أن يسأل الله بجاه عبده ورسوله لا أن يسأل الرسول نفسه ، فان هذا لايطلق عليه توسل بل هو دعاء واستغاثة ، وأن لفظ التوسل صار مشتركا ، فعباد القبور يطلقون التوسل على الاستغاثة بغير الله ودعائه رغبا ورهبا ، والذبح والنذر والتعظيم بما لم يشرع في حق مخلوق ، وأهل العلم يطلقونه على المتابعة والاخذ بالسنة ، فيتوسلون الى الله بما شرعه لهم من العبادات ، وبما جاء به عبده ورسوله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا هو التوسل في عرف القرآن والسنة كما يأتيك مفصلا ان شاءالله تعالى ، ومنهم من يطلقه على سؤال الله ودعائه بجاه نبيه أو بحق عبده الصــالح أو بعباده الصالحين ، وهذا هو الغالب عند الاطــــلاق في كلام المتــأخرين كالسبكي والقسطلاني وابن حجر •

(وبالجملة) فما نقله هنا عمن ذكر ليس من مسألة النزاع في شيء وان كابــر الغلاة وزعموا أنهم قصدوا دعاء الانبياء والصالحين والاستغاثة بهم أنفسهم وأن هذا

يسمى توسلا ، فهذا عين الدعوى والدعوى يحتج لها لابها ، فبطل كلامه على كل تقدير .

(وأما قوله) أو بان يدعو الله كما في حال الحياة اذ هو غير ممتنع .

(فيقال) هذا جرأة على الله وعلى رسوله ، وتقدم اليه بما لم يشرعه ولم يأذن فيه ، وأعلم الخلق به أصحابه وأهل بيته وأئمة الدين من أمته لم يفعل أحد منهم ذلك ألبتة ولا نقله من يعتد به ، وهم أعلم الخلق به ودينه وشرعه ، وما يجوز وما يمتنع ، فلا يخلو اما ان تسلم هذه المقامات ويجزم بأن الخروج عن هديهم من أفظع الجهالات وأضل الضلالات ، أو تسلم تلك المقدمات ويدعي أن الخلف الذين يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون أحق بالصواب والعلم والمتابعة في تلك المسائل والمقالات ، وهذا اخلال بجملة الدين ، وقدح في القرون المفضلة بنص سيد المرسلين ، وكفى بهذا فضيحة وجهلا لو كانوا يعلمون .

(وأما قوله) مع علمه بسؤال من سأله والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره .

(فيقال) أما دعوى عموم العلم بسؤال السائلين لمن يستغيث به جهلة القبوريين فالاخذ به واطلاقه على غير الله كفر صريح باتفاق أهل العلم ، فان من زعم احاطة العلم وعمومه لغير الله أو عموم القدرة أو الرزق أو الخلق لغيره سبحانه يكفر كفرا واضحا ، كما ذكره شراح الاسماء وغيرهم من أهل العلم ، وأما دعوى تخصيص ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم فهي — وان كانت من جنس ماقبلها في الرد والمنع — تبطل مذهب عباد القبور ، ودعائهم لغير الله من الغائبين والاموات ، فان دعاء الغافل الذي لايعلم بحال الداعي ولا يدريها ضلال مستبين ، قال تعالى :(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يدعو مِنْ دونِ اللهِ مَن لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إلى يومِ القيامةِ وهُم عن دُعائِهم غافلونَ)(١)

(وأما قوله) والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره ممن هو أعلى منه وليس لها في قلوب المسلمين غير ذلك الى آخره .

(فيقال) هذا يدل على جهل هذا الغبي باللغة والشرع ، فان الداعي السائل لغيره لايسمى مغيثا ، والمغيث من يفعل الاغاثة ويحصل الغوث بفعله .

---

(١) الاحقاف : ٦

قال شيخ الاسلام : من زعم أن مسألة الله بجاه عبده تقتضي أن يسمى العبد مغيثا ، أو يكون ذلك استغاثة بالعبد فهذا جهل ، ونسبته الى اللغة أو الى أمة من الامم كذب ظاهر ، فان المغيث هو فاعل الاغاثة ومحدثها لا من تطلب بجاهه وحقه ، ولم يقل أحد أن التوسل بشيء هو الاستغاثة به ، بل العامة الذين يتوسلون في أدعيتهم بأمور ـ كقول أحدهم نتوسل اليك بحق الشيخ فلان أو بحرمته أو باللوح والقلم أو بالكعبة في أدعيتهم ـ يعلمون أنهم لايستغيثون بهذه الامور ، وأن المستغيث بالشيء طالب منه سائل له ، والمتوسل به لايدعى ولا يطلب منه ولا يسأل وانما يطلب به ، فكل أحد يفرق بين المدعو به والمدعو ، وتقدم ذلك •

فقول هذا الزائغ : والنبي صلى الله عليه وسلم مستغاث والغوث منه تسببا وكسبا •

(فيقال) نعم هذا معتقد من يعبد الانبياء والصالحين ويستغيث بهم ، يقول هم سببي وواسطتي ، يحصلون لي بكسبهم ، والله هو الخالق ولا أدعي غير ذلك ، ولا نازع في الخلق والربوبية الا فرعون ، والذي حاج ابراهيم في ربه ، وجمهور المشركين على الاول كما تقدم تقريره فبطل تعليله •

(وأما قوله) ولا يعارض ذلك خبر أبي بكر الصديق رضي الله عنه قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم الخ لأن في سنده ابن لهيعة والكلام فيه مشهور •

(فيقال) ابن لهيعة خرج له البخاري ومسلم فجاوز القنطرة ، ولا يقدح فيما رواه ابن لهيعة الا جاهل بالصناعة والاصطلاح ، وهو قاضي مصر وعالمها ومسندها ، روي عن عطاء ابن أبي رباح ، والاعرج ، وعكرمة ، وخلق ، وعنه روي شعبة ابن الحجاج أمير المؤمنين في الحديث ، وعمرو بن الحارث ، والليث بن سعد ، وابن وهب وخلق ، ومن طعن في ابن لهيعة بقول بعض الناس فيه لزمه الطعن في كثير من الاكابر المحدثين ، كسعيد المقبري ، وسعيد بن أياس الجريري ، وسعيد بن أبي عروبة ، واسمعيل بن أبان ، وأزهر بن سعد السمان البصري ، وأحمد بن صالح المصري ، وأبو اليمان ، وأمثالهم ممن خرج له البخاري وغيره من الأئمة •

فدع عنك الكتابة لست منها ولو سودت وجهك بالمداد

(وأما قوله) وبفرض صحته فهو على حد قوله تعالى : (وما رَمَيْتَ إذ رَمَيْت ولـكنَّ اللهَ رَمَى وقوله صلى الله عليه وسلم : (ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم)

وهذا من نوادر جهل هؤلاء الضلال ، فان لفظ الاستغاثة طلب الغوث ممن هو بيده لمن أصابته شدة ووقع في كرب ، والأنجح والاولى لمن أصابه ذلك أن يستغيث بمن يجيب المضطر اذا دعاه الموصوف بأنه غياث المستغيثين مجيب المضطرين أرحم الراحمين ، فلفظ الاستغاثة يستعمل في مخ العبادة ومالا يقدر عليه الا الله عالم الغيب والشهادة ، فكره صلى الله عليه وسلم اطلاقه عليه فيما يستطيعه ويقدر عليه حماية لحمى التوحيد ، وسدا لذريعة الشرك ، وان كان يجوز اطلاقه فيما يقدر عليه المخلوق فحماية جانب التوحيد من مقاصد الرسول ومن قواعد هذه الشريعة المطهرة ، فأين هذا من قوله : (وَمَـا رَمَيْـتَ إذرميْتَ ولـكنَّ اللهَ رَمَى) (١) فان الرمي المنفي هو ايصال مارمى به الى أعين المشركين جملتهم ، وهزيمتهم **بذلك** ، والرمي المثبت مافعله النبي صلى الله عليه وسلم من رمي ماأخذ بكفه الشريفة من التراب واستقبال وجوه العدو بـه .

(وأما قوله) وكثيرا ماتجيء السنة بنحـو هذا من بيان حقيقـة العلم ويجيء القرآن من اضافة الفعل الى مكتسبه ، كقوله صلى الله عليه وسلم : (لن يدخل أحد الجنة بعمله) مع قوله تعالى (ادْخُلوا الجَنَّةَ بِما كُنتُم تعملونَ) فالامر ليس كما توهمه هذا الزائغ ، فان الباء في الحديث باء المعاوضة والمبادلة ، وفي الآية هي باء السببية لا باء المعاوضة ، فالمنفي غير المثبت كما نص عليه أهل العلم وأهل التفسير، وكل فاضل وعارف بصير ، نعوذ بالله من القول على الله وعلى كتابه بغير علم ولا سلطان منير .

(وأما قوله) ان اطلاق لفظ الاستغاثة لمن يحصل منه غوث ولو تسببا أمر معلوم لاشك فيه لغة ولا شرعا (فقد) تقدم كلام شيخ الاسلام في نفي الاستغاثة عمن يسأل الله بجاهه وحقه وعمن يدعو لغيره ، وأن من قال ذلك قد كذب على سائر اللغات والامم ، وأما من يسأل ويدعو وينادي ــ كما يفعله عباد القبور بمن يدعونه ــ فهذا يسمى استغاثة ، كما يسمى عبادة لغير الله وشركا بالله ، وهذا النوع ليس

---

(١) الانفال : ١٧

النزاع في اسمه وانما النزاع في جوازه وحله ، وأما حديث الشفاعة فهو فيما يقدرعليه البشر من الدعاء كما يسأل الحي الحاضر أن يدعو الله وأن يستسقى •

(وأما كلام الشيخ ابن تيمية) الذي نقله عن المصنفين في أسماء الله فهو حجة لنا على عباد القبور ، فانهم استغاثوا بغير الله فيما لايقدر عليه الا الله •

(وقوله) وان حصلت من غيره تعالى فهو مجاز •

(جوابه) أن الاستغاثة التي هي من جنس الاسباب العادية التي يقدر عليها المخلوق وفي وسعه ، فهذه وان حصلت من العبد فهي حقيقة لامجاز ، ولا ينازع في هذا من عرف شيئا من اللغة ، والعبد يفعل حقيقة ، فيأكل حقيقة ، ويشرب حقيقة ، ويهب حقيقة ، وينصر أخاه ظالما أو مظلوما حقيقة ، والله سبحانه خلق العبد وما يعمل ، وهذا معروف من عقائد أهل السنة والجماعة ، وانما ينفي الفعل حقيقة عن فاعله ومن قام به القدرية المجبرة الذين يزعمون أن العبد مجبور ، وأنه لا اختيار له ولا مشيئة ، كما هو مبسوط في موضعه ، والغلاة صفر اليدين من هذه المباحث المهمة •

(وكذلك قوله) الاستغاثة بمعنى أن يطلب منه ماهو اللائق بمنصبه : لاينازع فيها مسلم ، فاللائق بمنصبه الشريف أن يطلب منه مايستطيعه ويقدر عليه ، كالدعاء وسائر الاسباب العادية ونحو ذلك ، وأما مالا يقدر عليه الا الله كهداية القلوب ، ومغفرة الذنوب والانقاذ من النار ونحو ذلك من المطالب التي لايقدر عليها الا الله الواحد القهار : فهذا انما يليق بمقام الربوبية ، قال تعالى : (إِنَّكَ لا تَهدي مَن أَحبَبْتَ ولكنَّ اللهَ يهدي مَن يشاءُ)[1] وقال: (ومَن يَغفرُ الذُّنوب إلاَّ اللهُ)[2] وقال تعالى: (أَفأَنتَ تُنقِذُ من في النَّارِ)[3] وقال تعالى: (لَيْسَ لكَ منَ الأَمرِ شَيْءٌ)[4] وقال رجل : أتوب الى الله ولا أتوب الى محمد ، فقال صلى الله عليه وسلم : (عرف الحق لأهله)

(وأما قوله) وقد ذكر المجوزون أن جعل النبي صلى الله عليه وسلم متسببا لا مانع من ذلك شرعا وعقلا •

(فيقال) هذه العبارة ركيكة التركيب ، والمجوزون للاستغاثة بغير الله فيما

---

(١) القصص : ٥٧ (٢) آل عمران : ١٣٦ (٣) الزمر : ٢٠ (٤) آل عمران : ١٢٩

لايقدر عليه الا الله هم خصومنا فلا حجة في كلامهم ، بل الشرع والعقل يرد مذهبهم ويبطله كما مر تقريره عن ابن القيم ، وأما الاسبـاب العادية فانهـا قد تجب ، وقد تستحب ، وقد تباح ، وقد تكره ، وليس الكلام فيها والمستغيث بغير الله فيما لايقدر عليه الا الله لاينجيه مجرد اعتقاده أن ذلك باذن الله ، بل لابد من اخـلاص الدعاء والاستغاثة ، ودعاء المستغيث من أجل العبادات فيجب اخلاصه لله .

(وقول الغلاة) ومن أقر بالكرامة وأنها باذن الله لم يجد بدا من اعترافه بجواز ذلك .

(فيقال) بل البد والسعة واليسر في القول بأنه لايستغاث بالمخلوق فيما يختص بالخالق ، ولو كان المخلوق قد ثبت له من الكرامة ماثبت فالكرامة فعل الله لافعـل غيره ، والمستغاث هو الله لا غيره ، ولم يكن الصحابة يستغيثون ويسألون من ظهرت له كرامة أو حصلت له خارقة من الخوارق ، فهذا الكلام الذي قاله الغلاة جهل مركب يليق بقائله ، وكل اناء بالذي فيه ينضح .

(وأما قوله) والاخبار النبوية قد عاضدته ، والآثار قد ساعدته : فبالوقـوف على ما مر من كلا منا تعرف أن الاخبار النبوية قد عارضته وما عاضدته ، بل أبطلته والآثار السلفية قد ردته وماساعدته .

(وأما قوله) ومن جعل الله فيه قدرة كاسبة للفعل مع اعتقـاده أن الله هـو الخالق كيف يمتنع عليه طلب ذلك الشيء ؟

(فجوابه) أن الله لم يجعل للعباد قدرة على مايختص به من الاغاثة المطلقـة . وأما الاغاثة بالاسباب العادية وماهو في طوق البشر وقدرتهم فهذا ليس الكلام فيه ، والاموات لاقدرة لهم على الاسباب العادية ، وما يطلب من الحي الحاضر ، فما هنا ليس من ذلك القبيل ، وما يستوي الاحياء ولا الاموات ، وقد يجعل الله للعبد قدرة على بعض الاشياء ويمنع من سؤاله وطلبه ، وفي الحديث : (لاتزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس على وجهه مزعة لحم) وفيه : (من سأل الناس وله مايغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشا أو خموشا في وجهه) فهذا له قدرة ، وقد منع السـائل الغني من سؤاله ، بل والسحرة جعل الله لهم قدرة على أنـواع السحر والشعبـذة وسؤالهم ذلك من أكبر الكبائر ، فبطل قول هذا الزائغ أن من جعـل الله له قدرة لا مانع من سؤاله ، وكون الله قد قرب أنبيائه ورسـله وأوجب على العبـاد برهم

وتعظيمهم لايقتضي ذلك أن يستغاث بهم أو يطلب منهم مالا يقدر عليه أحد الا الله •

والتعظيم اللائق بمناصبهم ليس من هذا الجنس ، بل تعظيمهم محبتهم وطاعتهم وتعزيرهم وتوقيرهم ، والاقتداء بهديهم ، والاخذ بما جاؤا به ، وعباد القبور تركوا هذا التعظيم الواجب ، وعظموهم بالاستغاثة والعبادة ، والذبح والنذر ، من جنس تعظيم أهل الكتاب لانبيائهم ورهبانهم وأحبارهم ، وهذا الزائغ ــ من جهله ــ يدعو الناس الى طريقة الغلاة من أهل الكتاب ، ويعرض عما جاءت به الرسل ، ويصد عن السنة والكتاب ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدوابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّم البُكمُ الَّذينَ لا يعقِلونَ ﴾ (١).

(وأما قوله) وقد خلق الله فيه قوة كاسبة : فان أراد القوة العادية البشرية الانسانية فليس النزاع في هذا ، وان أراد مايعتقده عباد القبور في معبوداتهم من الصالحين وغيرهم وان لهم قدرة على اجابة المضطر واغاثة الملهوف وقضاء حوائج السائلين فهذا شرك في الربوبية لم يبلغه شرك المشركين من أهل الجاهلية ، بل هوقول غلاة المشركين الذين يرون لآلهتهم تصرفا وتدبيرا ، وان أراد أنهم يدعون ويسألون ويستغاث بهم والله يعطي لأجلهم : فهذا هو قول الجاهلية من الاميين والكتابيين ، وتقدمت الآيات الدالة على ذلك ، وتقدم ماحكاه الشيخ من قول النصارى ياوالدة الاله اشفعي لنا الى الاله (٢) فهم طلبوا منها الشفاعة والجاه ليس الا ، وهذا من كفرهم وشركهم مع ماهم عليه من القول في عيسى وأمه قاتلهم الله ، فان كان هذا الزائغ أراد هذا الثاني فهو شرك غليظ ، وقد تقدم له التصريح بذلك وعبارته هنا توهم الاول ، وهو الغالب على عباد القبور في هذه الازمان ، نسأل الله العفو والعافية •

وأما كون الاولياء والصالحين في حال مماتهم كحال حياتهم يدعون لمن قصدهم ويتسببون في انقاذه فهذا جهل عظيم ، وقول على الله بلا علم ، لم يرد به كتاب ولا سنة ، ولا قاله ولا فعله أحد يعتد به ويقتدي به من أهل العلم والايمان ، وقد مضت القرون الثلاثة المفضلة ولم يعهد عن أحد منهم أنه قال ذلك أو فعله ، وعندهم أشرف القبور على الاطلاق ولم يعرف عن أحد منهم أنه سأل الرسول صلى الله عليه وسلم أو دعاه ولا غيره من الصالحين ، وخبر العتبى سيأتي الكلام عليه وان فاعل ذلك

---

(١) الانفال : ٢٣ (٢) هنا لم يتقدم شيء ، والكلام منقول من (المنهاج) كما أشار اليه المؤلف آنفا .

اعرابي ليس مما يقتدى به ويحتج بقوله ، وان كان بعض المتأخرين احتج بحكاية الاعرابي فهو احتجاج مدخول ، وقد نازعهم من هو أقدم منهم وأجل من الاكابر والفحول .

وأما قوله في قوله تعالى : (فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ)

فان قال قائل هذا في الحي وله قدرة ، قلنا : لايجوز نسبة الافعال الى أحد حي أو ميت على أنه الفاعل استقلالا من دون الله ، فهذا الكلام أورده بناء على أن النزاع في دعوى الاستقلال ، وبزعمه أنه اذا لم يعتقد الاستقلال فالاسباب العادية كغيرها ، ودعاء الاموات والغائبين يجوز عنده اذا لم يعتقد الاستقلال ، هذه دعواه كررها مرارا واحتج بها ، والدعوى تحتاج لدليل لاتصلح هي دليلا ، لاسيما هذه الدعوى الضالة الكاذبة الخاطئة ، والله سبحانه حكى استغاثة المخلوق الحي الحاضر فيما يقدر عليه من نصره على عدوه ، وهذا جائز لانزاع فيه ، واعتقاد الاستقلال من دون الله وأن العبد يخلق أفعال نفسه هذه مسألة أخرى لم يقل بها الا قدرية النفاة ، والناس مختلفون في تكفيرهم بهذا القول .

(وبالجملة) فالنزاع في غير هذه المسألة ، وانما هو في دعاء الاموات والغائبين، وان لم يستقل بذلك المطلوب من دون الله .

(وأما قوله) وقد جعل الله الاغاثة في غيره : فهو قول ركيك فاسد المعنى ، فان الله لم يجعل الاغاثة في غيره ، بل هو المغيث على الاطلاق ، وانما جعل لعباده عملا وكسبا في فرد جزئي مما يستطيعه العبد ويكون في قدرته ، وعبارة الزائغ في غاية البشاعة .

(وأما قوله) فلهذا نفى النبي صلى الله عليه وسلم الاغاثة كما تقدم حيث قال إنه لايستغاث الا بالله : فليس النفي لما ذكره الزائغ ، فان المخاطبين يعلمون أن الله خالق أفعال العباد ، وانما نفى الاستغاثة عنه حماية للتوحيد وصيانة لجانبه ، كما قال لمن قال له : أنت سيدنا وابن سيدنا (السيد الله ، انما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) ولو كان كما زعم الزائغ لنفى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل فعل وكل قول صدر منه ، لأنه لايفعله استقلالا ، قال الله تعالى (والله خلقكم وماتعملون) والزائغ قد خاض فيما لايدريه وما هو أجنبي عنه ، فالحد في الالفاظ النبوية وحرفها وكابر الحس والمعقول ، والمنفي في الحديث الاستغاثة لا الاغاثة ، وأظن المعترض لايفرق بينهما .

(الشبهة الاولى) ماأورده ابن حجر في (الجوهر المنظم) والسبكي في كتابه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : لما اقترف آدم الخطيئة قال يارب أسألك بمحمد صلى الله عليه وسلم الا ما غفرت لي ، قال الله : ياآدم كيف عرفت محمدا ولم أخلقه ؟ قال يارب لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا اله الا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضف الى اسمك الا أحب الخلق اليك ، فقال له الله صدقت ياآدم ، انه لأحب الخلق الي ، واذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك ، والمراد بحقه صلى الله عليه وسلم رتبته ومنزلته لديه تعالى ، أو الحق الذي جعله الله سبحانه وتعالى له على الخلق ، أو الحق الذي جعله الله تعالى بفضله له عليه الخ •

(الجواب) أن يقال : هذا الحديث لا أصل له ، بل الثابت عند أهل العلم والمفسرين أن قوله تعالى : (فتلقَّى آدمُ مِنْ ربِّهِ كلماتٍ فتابَ عليهِ إنَّهُ هوَ التوّابُ الرَّحيمُ)[1] نزل في توبة آدم ، وهذه الكلمات هي المفسرة بقوله تعالى : (ربَّنا ظلَمنا أنفُسَنا وإنْ لمْ تغفِرْ لنا وترحمنا لنَكونَنَّ مِنَ الخاسِرينَ)[2] وهذا مروي عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ،وأبي العالية ،والربيع بن أنس ، والحسن، وقتادة ، ومحمد بن كعب القرضي ، وخالد بن معدان ، وعطاء الخراساني ، وعبد الرحمن بن يزيد ، وعن ابن عباس قال علم شأن الحج ، وعن عبيد بن عمير أنه قال قال آدم يارب خطيئتي التي أخطأت شيء كتبته علي قبل أن تخلقني أو شيء ابتدعته من قبل نفسي ؟ قال : بل كتبته عليك قبل أن أخلقك ، قال : فكما كتبته علي فاغفره لي فذلك قوله : (فتلقَّى آدمُ منْ ربِّه كلمـاتٍ) وعن ابن عباس قال آدم عليه السلام ألم تخلقني بيدك قيل له بلى ، ونفخت في من روحك قيل له بلى، وعطست فقلت يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك قيل بلى ، وكتبت علي أن أعمل هذا قيل له بلى، قال أفرأيت إن تبت هل أنت راجعي الى الجنة قال نعم ، وكذا رواه العوفي وسعيد بن جبير وسعيد بن معبد ، ورواه الحاكم في مستدركه الى ابن عباس ،وروى ابن أبي حاتم حديثا مرفوعا شبيها بهذا ، وعن مجاهد قال الكلمات : اللهم لا اله الا أنت سبحانك

---

(١) البقرة : ٣٧ (٢) الاعراف : ٢٣

وبحمدك ربي اني ظلمت نفسي فاغفر لي انك خير الغافرين ، اللهم لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك اني ظلمت نفسي فاغفر لي انك خير الراحمين ، اللهم لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك رب اني ظلمت نفسي فتب علي انك أنت التواب الرحيم ، هذا ماعليه المفسرون لا ماقاله الغلاة ، فان كان بعض من لا بصيرة له قد ذكره فالحجة فيما ثبت عن الصحابة وعن سلف الامة وأئمتها ، ولا يجوز تفسير القرآن بأقوال شاذة أو موضوعة لاتثبت عند أهل العلم والحديث وأئمة التصحيح والترجيح ، ولما روي ابن حميد الرازي الحكاية المنسوبة الى مالك رحمه الله مع أبي جعفر المنصور - وفيها أنه سأل مالكا فقال ياأبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام الى الله يوم القيامة بل استقبله واستشفع به - فرد الحفاظ على ابن حميد هذه الحكاية ؟ وذكروا أن اسنادها مظلم منقطع ، مشتمل على من يتهم بالكذب ، وقالوا ابن حميد كثير المناكير ، ولم يسمع من مالك شيئا ، بل روايته عنه منقطعة ، ومحمد بن حميد الرازي هذا تكلم فيه غير واحد من الأئمة ونسبه بعضهم الى الكذب •

(الشبهة الثانية) أن رجلا ضريرا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ادع الله لي أن يعافيني ، فقال : (إن شئت دعوت وان شئت صبرت وهو خير لك الى أن قال : فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : اللهم اني أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة ، يامحمد اني أتوجه بك الى ربي في قضاء حاجتي لتقضي لي ، اللهم شفعه فيّ ، فقام وقد أبصر الخ) •

(والجواب) ماذكره بعض أهل الحديث حيث قال : اعلم أن الجواب عنه يعلم من تأمل معناه ، فقوله : اللهم إني أسألك أي أطلب منك وأتوجه اليك بنبيك محمد صرح باسمه مع ورود النهي عن ذلك تواضعا منه صلى الله عليه وسلم لكون التعليم من قبله ، وفي ذلك قصر السؤال الذي هو أصل الدعاء على الله الملك المتعال ، ولكنه توسل بالنبي أي بدعائه ، ولذا قال في آخره : اللهم فشفعه فيّ ، إذ شفاعته لاتكون الا بالدعاء لربه قطعا ، ولو كان المراد التوسل بذاته فقط لم يكن لذلك التعقيب معنى ، اذ التوسل بقوله بنبيك كاف في افادة هذا المعنى ، فقوله : يامحمد اني توجهت بك الى ربي قال الطيبي : الباء في بك للاستعانة ، وقوله إني توجهت بك بعد قوله اليك فيه معنى قوله : (مَنْ ذا الَّذي يشْفَعُ عِندَهُ إلا بِإذنه)

فيكون خطابا لحاضر معاين في قلبه مرتبط بما توجه به عند ربه من سؤال نبيه بدعائه الذي هو عين شفاعته ، ولذلك أتى بالصيغة الماضوية بعد الصيغة المضارعية المفيدكل ذلك أن هذا الداعي قد توسل بشفاعة نبيه في دعائه ، فكانه استحضره وقت ندائه ، ومثل ذلك كثير في المقامات الخطابية والقرائن الاعتبارية ، فقوله في حاجتي هذه لتقضي لي أي ليقضيها لي ربي بشفاعته في" أي دعائه ، وذلك مشروع مأمور به ، فان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يطلبون منه الدعاء وكان يدعو لهم ، وكذلك يجوز الآن أن تأتي رجلا صالحا فتطلب منه الدعاء لك بل يجوز للاعلى أن يطلب من الادنى الدعاء له كما طلب النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء من عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عمرته ، بأن قال لاتنسنا ياأخي من دعائك ، قال عمر رضي الله عنه : مايسرني بها حمر النعم •

قال المناوي : سأل الله أولا أن يأذن لنبيه أن يشفع له ، ثم أقبل على النبي ملتمسا شفاعته له ، ثم كر مقبلا على ربه أن يقبل شفاعته ، والباء في بنبيك للتعدية وفي بك للاستعانة ، وقوله : اللهم فشفعه في أي اقبل شفاعته في حقي ، والعطف علي مقدر أي اجعله شفيعا لي فشفعه ، وكل هذه المعاني دالة على وجود شفاعته بذلك ، وهو دعاؤه صلى الله عليه وسلم بكشف عاهته ، وليس ذلك بمحظور ، غاية الامرأنه توسل من غير دعاء ، بل هو نداء لحاضر ، والدعاء أخص من النداء ، إذ هو نداء عبادة شاملة للسؤال بما لايقدر عليه الا الله ، وانما المحظور السؤال بالذوات لامطلقا بل على معنى أنهم وسائل لله بذواتهم ، وأما كونهم وسائل بدعائهم فغير محظور ، واذا اعتقد أنهم وسائل لله بذواتهم فسأل منهم الشفاعة للتقرب اليهم فذلك عين ماكان عليه المشركون الاولون •

وأما ورود هذا الحديث عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه في زمن عثمان ففي سنده مقال فكيف يعارض به جميع كتب الله وسنة رسوله وعمل أصحابه ، وهل سمعت أحدا منهم جاء اليه صلى الله عليه وسلم بعد وفاته الى قبره الشريف فطلب منه مالا يقدر عليه الا الله ؟ وهم حريصون على مثل هذه المثوبات لاسيما والنفوس مولعة بقضاء حوائجها تتشبث بكل ماتقدر عليه ، فلو صح عند أحدهم أدنى شيء من ذلك لرأيت أصحابه يتناوبون قبره الشريف في حوائجهم زمرا زمرا ، ومثل ذلك تتوفر الدواعي على نقله ولا وسع الله طريقا لم يتسع للصحابة والتابعين وصلحاء علماء الدين •

(الشبهة الثالثة) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه توسل بالعباس رضي الله عنه في الاستسقاء ولم ينكر عليه ، وكان حكمة توسله به دون النبي صلى الله عليه وسلم وقبره اظهار غاية التواضع لنفسه والرفعة لقرابته صلى الله عليه وسلم ، ففي توسله بالعباس توسل بالنبي صلى الله عليه وسلم وزيادة الخ .

(والجواب) أن المراد من التوسل الدعاء لهم ، يدل عليه ثبوت دعائه لهم بطلب السقيا كما جاءت به بقية الروايات ، وهذا المعنى هو الذي عناه الفقهاء في كتبهم ومرادهم التوجه الى الله بدعاء الصالحين بأن يدعو لهم ، ولو كان التوسل بالذوات هو المطلوب والمدلول الذي أقاموا عليه الدليل ـ وهم بمقتضى دليلهم لايخصون الاحياء بهذا التوسل ، ويستحبون التوسل بالذوات الشريفة ، ولو بندائهم ودعائهم كما مر تقريره من دليلهم ، وأنه على معنى أن الشفعاء يدعون لهم ، وقالوا لامانع من ذلك عقلا وشرعا فانهم أحياء في قبورهم ـ لكان التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك الامر المهم وهم عنده بالمدينة أولى ، ولكان قولهم ـ كما في رواية البخاري أن عمر بن الخطاب استسقى بالعباس ، وقال اللهم إنا كنا اذا أجد بنا توسلنا اليك بنبيك فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا ، فيسقون ـ عبثا ضائعا ، بل مخلا بما يقولون ويدعون ، بل هو أقوى الادلة وأرجحها وأعلاها وأوثقها وأصحها وأصدقها لما ندعيه ، فان قول عمر اللهم انا كنا اذا أجدبنا توسلنا الخ يدل دلالة ظاهرة على انقطاع ذلك الذي هو الدعاء بدليل قوله انا كنا ، ولما كان العباس حيا طلبوه منه فلما مات فات ، فقصرهم له على الموجودين ولو كانوا مفضولين دليل ساطع وبرهان لامع على هذا المراد ، ولو كان المقصود الذوات كما يقولون لبقيت هذه التوسلات عندهم على حالها لم تتغير ولم تتبدل الى المفضولين بعد وجود الفاضلين ، سيما الانبياء والمرسلين ، فتأمل في هذا فانه أحسن مافي هذه الأوراق ، حقيق بأن يضرب عليه رواق الاتفاق ، والله يهديك السبيل فهو نعم المولى ونعم الوكيل .

وأما باقي الشبه التي أوردها النبهاني من كلام أسلافه الغلاة : فمنها مالا يمس مقصودنا ، ومنها أحاديث لاتخلو عن ضعف أو كذب راوٍ أو غير ذلك مما يمنع العمل بموجبه كما ذكره من رد عليهم ، ولو نظرت اليها بعين الايمان وجدت آثار الوضع لائحة عليها ، وأحوال الصحابة وأعمالهم تدل على أنهم غير معترفين بما فيها ، ولو كان عندهم من ذلك أدنى رائحة لجاؤا الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم في جميعماينوبهم على الرواحل ، وتركوا عند ذلك جميع المشاغل .

(ذكر شبه أخرى للمجوزين للاستغاثة وابطالها)

لم يزل خصوم أهل الحق في كل عصر يسعون في تأييد باطلهم ويستندون الى شبه هي أو هي من بيت العنكبوت وأنها لمن أوهن البيوت ، ويتشبثون لترويج باطلهم حتى بحبال القمر ، وقد رأيت رسالة مختصرة صنفها العلامة أبو عبد الله الشيخ محمد رحمه الله سماها (كشف الشبهات) أودعها نبذة من ذلك ، وهي على اختصارها نافعة جدا لطالب الحق فأحببت ايراد شيء منها اتماما للفائدة ، قال رحمه الله :

(اعلم أن الله سبحانه من حكمته لم يبعث نبيا بهذا التوحيد الا جعل له أعداء، كما قال تعالى : (وكذلكَ جعلْنا لكلِّ نبيٍّ عدواً شياطينَ الأنسِ والجنِّ يُوحي بعضُهم الى بعضٍ زُخرُفَ القَوْلِ غُروراً)[1] وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة وكتب وحجج ، كما قال تعالى : (فلمَّا جاءَتْهُم رُسُلهمْ بالبيِّناتِ فَرِحوا بما عِنْدَهُم منَ العلْمِ)[2] اذا عرفت ذلك وعرفت أن الطريق الى الله تعالى لابد له من أعداء أهل فصاحة وعلم وحجج ، فالواجب عليك أن تعلم من دين الله مايكون لك سلاحا تقاتل به هؤلاء الشياطين ، الذين قال امامهم ومقدمهم لربك عز وجل : (لأَقْعُدَنَّ لَهم صِراطَكَ المستقيمَ . ثُمَّ لآتيَنَّهم منْ بينِ أيديهم ومن خَلفِهِمْ وعن أَيمانِهم وعن شمائِلهم)[3] ولكنك اذا أقبلت على الله تعالى وأصغيت الى حججه وبيناته فلا تخف ان كيد الشيطان كان ضعيفا ، والعامي من الموحدين يغلب الفا من خصومه بأذن الله ، كما قال تعالى : (وإنَّ جُندَنا لهمُ الغالبون)[4] فجند الله هم الغالبون بالحجة والبيان كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان ، وانما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح ، وقد من الله تعالى علينا بكتابه الذي جعله تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ، فلا يأتي صاحب باطل بحجة الا وفي القرآن ماينقضها ويبين بطلانها ، كما قال تعالى : (ولا يأتونَكَ بمثَلٍ إلاَّ جئناكَ بالحقِّ وأَحسَنَ تفسيراً)[5] قال بعض المفسرين هذه الآية عامة في كل حجة يأتي بها أهل الباطل الى يوم القيامة •

---

(١) الانعام : ١١٢ (٢) غافر : ٨٣ (٣) الاعراف : ١٦ ، ١٧ (٤) الصافات : ١٧٣ (٥) الفرقان : ٣٣

وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله تعالى في كتابه جوابا لكلام احتج به خصوم أهل الحق في زماننا هذا علينا ، فنقول : ان جواب أهل الباطل من طريقين : مجمل ومفصل .

(أما المجمل) فهو الامر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها ، وذلك قوله تعالى : (هوَ الَّذي أنزلَ عليْكَ الكتابَ منْهُ آياتٌ محكماتٌ هُنَّ أُمّ الكتاب وأُخَرُ متشابهاتٌ فأَمَّا الَّذين في قُلوبهم زَيغٌ فيتَّبعونَ ما تشابهَ منهُ ابتغاءَ الفتْنَة وابتغاء تأويلِه وما يعْلَمُ تأْويلَه إلاَّ اللهُ والرَّاسخونَ في العِلمِ يقولونَ آمنَّا بهِ كلٌّ منْ عنْدِ ربِّنا وما يتذكَّرُ إلاَّ اولوا الأَلبابِ)[1] وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (اذا رأيتم الذين يتبعون ماتشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم) .

(مثال ذلك) اذا قال لك بعض الخصوم : (أَلا إنَّ أوْلياءَ اللهِ لا خوْفٌ عليهم ولاهُم يحزنونَ)[2] وأن الشفاعة حق ، وأن الانبياء عليهم السلام لهم جاه عند الله ، أو ذكر كلا ما للنبي صلى الله عليه وسلم يستدل به على شيء من باطله ، فأجبه بقولك : إن الله تعالى ذكر أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه ، وأن الله تعالى ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية ، وأنه كفرهم بتعلقهم على الملائكة والانبياء والاولياء ، مع أنهم قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فهذا أمر محكم بين لايقدر أحد أن يغير معناه ، وماذكرت لي أيها الخصم من الكتاب الكريم أو كلام النبي صلى الله عليه وسلم لا أعرف معناه ، ولكن أقطع أن كلام الله تعالى لايتناقض وأن كلام النبي صلى الله عليه وسلم لايخالف كلام الله .

(وهذا جواب سديد) ولكن لايفهمه الا من وفقه الله تعالى ، فلا تستهونه ، فانه كما قال تعالى : (وما يُلقَّاها إلاَّ الَّذينَ صَبروا ، وما يُلقَّاها إلاَّ ذو حظٍّ عظيم)[3]

(وأما الجواب المفصل) فان أعداء الحق لهم اعتراضات كثيرة يصدون بها الناس :

(١) آل عمران : ٧ (٢) يونس : ٦٢ (٣) فصلت : ٣٥

(منها) قولهم نحن لانشرك بالله بل نشهد أنه لايخلق ولا يرزق ولا ينفع ولا يضر الا الله تعالى وحده لا شريك له ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم لايملك لنفسه نفعا ولا ضرا فضلا عن غيره ، ولكن أنا مذنب والصالحون لهم جاه عند الله واطلب من الله بهم •

(فأجبه) أن الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا مقرين بما ذكرت ، ومقرين أن أوثانهم لاتدبر شيئا وانما أرادوا الجاه والشفاعة ، واقرأ عليه ماذكر الله في كتابه ووضحه له ، فان قال : إن هذه الآيات نزلت فيمن يعبد الاصنام فكيف تجعلون الصالحين أصناما ، فأجبه بأنه اذا أقر أن الكفار كانوا يشهدون بالربوبية كلها لله وأنهم ماأرادوا ممن قصدوا الا الشفاعة ، واذا أراد أن يفرق بين فعلهم وفعله بما ذكر فاذكر له أن الكفار منهم من كان يدعو الصالحين والاصنام ، ومنهم من كان يدعو الاولياء الذين قال الله فيهم : (اولئكَ الَّذينَ يدعُونَ يبتَغونَ إلى ربِّهم الوسيلةَ أَيُّهم أَقربُ)[1] وقال تعالى :(ما المسيحُ ابنُ مريمَ إلاَّ رسولٌ قدْ خَلتْ منْ قبله الرُّسُلُ وأُمهُ صدِّيقةٌ كانا يأْكُلانِ الطَّعامَ انظُرْ كيفَ نُبين لهُم الآيات ثُم انظُر أَنَّى يُؤفَكونَ)[2] واذكر قوله تعالى : (ويومَ يَحشرُهم جميعاً ثُم يقولُ للملائكَة أهؤلاء إياكُم كانوا يعبُدونَ . قالوا سُبحانكَ انتَ وليُّنا مِنْ دونهم بلْ كانوا يعبُدونَ الجِنَّ أَكثَرُهم بهم مُؤمنونَ)[3] .

فقل له : أعرفت أن الله تعالى كفر من قصد الاصنام ، وكفر أيضا من قصد الصالحين ، وقاتلهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؟

فان قال : ان الكفار يريدون منهم ، وأنا أشهد أن الله تعالى هو النافع الضار المدبر لا أريد الا منه ، والصالحون ليس لهم من الامر شيء ولكني بقصدهم أرجو من الله تعالى شفاعتهم •

---

(١) الاسراء : ٥٧ (٢) المائدة : ٧٥ (٣) سبأ : ٤٠ ، ٤١

فأجبه أن هذا قول الكفار سواء بسواء ، فاقرأ عليه قوله تعالى : (ما نَعْبُدُهم إلاَّ ليُقَرِّبونا إلى اللهِ زُلفَى)[1] وقوله تعالى : (هؤُلاءِ شُفعاؤُنا عِندَ اللهِ)[2] .

(واعلم) أن هذه الشبه الثلاث هي أكبر ماعندهم ، فاذا عرفت أن اللــه تعالى وضحها في كتابه وفهمتها فهما جيدا فما بعدها أيسر منها ٠

(فان قال) أنا لاأعبد إلا الله والالتجاء الى الصالحين ودعاؤهم ليس بعبادة ، فقل له : أنت تقر أن الله تعالى فرض عليك اخلاص العبادة وهو حقه عليك ؟ فــاذا قال : نعم ، فقل له : بين لي هذا الذي فرض عليك وهو اخلاص العبادة لله وحــده وهو حقه عليك ، فانه لايعرف العبادة ولا أنواعها فبينها له بقولك قال الله تعالى : (أُدعوا رَبَّكُم تضَرُّعاً وخُفيةً)[3] إذا علمت بهذا هل هو عبادة فلا بد أن يقول نعم والدعاء مخ العبادة،فقل له : اذاأقررت أنها عبادة ودعوت الله ليلا ونهارا خوفا وطمعا، ثم دعوت في تلك الحاجة نبيا أو غيره هل أشركت في عبادة الله غيره ــ إذ قال الله تعالى: (فصَلِّ لِرَبِّكَ وانحَرْ)وأطعت الله ونحرت له ؟ فلا بد أن يقول نعم ، فقــل له : اذا نحرت لمخلوق نبي أو جني أو غيرهما هل أشركت في هذه العبادة غير الله تعالى ؟ فلا بد أن يقر ويقول نعم ٠

(وقل له أيضا) ان المشركين الذين نزل فيهم القــرآن هل كانــوا يعبــدون الملائكة والصالحين واللات والعزى وغير ذلك ؟ فلا بد أن يقول نعم : فقل له : وهل كانت عبادتهم اياهم الا في الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك ، والا فهم مقــرون أنهم عبيد لله تحت قهره ، وان الله تعالى هو الذي يدبر الامر ولكن دعوهم والتجؤا اليهم للجاه والشفاعة وهذا ظاهر جدا ٠

فان قال : أتنكر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ منها ؟ فقل له : لاأنكرها ولا أتبرأ منها ، بل هو صلى الله تعالى عليه وسلم الشافع المشفع وأرجــو شفاعته ، لكن الشفاعة كلها لله كما قال تعــالى : (قُلْ للهِ الشَّفاعةُ جميعاً)[4] ولا تكون الا من بعد اذنه سبحانه ، كما قال عز وجل : (منْ ذا الَّذي يشفَعُ عنْدَهُ إلاَّ بإذْنِهِ)[5] ولا يشفع لأحد الا من بعد أن يأذن الله فيه ، كما قال جل جلاله ولايشْفَعونَ

(١) الزمر : ٣ (٢) يونس : ١٨ (٣) الاعراف : ٥٥ (٤) الزمر : ٤٤ (٥) البقرة : ٢٥٥

إلاَّ لِمنِ ارتضى)[١] وهو لايرضى إلا التوحيد ، كما قال تعالى : (وَمَنْ يبْتَغ غيرَ الاسْلامِ دِيناً فلنْ يُقبلَ منهُ وهوَ في الآخرَةِ منَ الخاسِرينَ)[٢]

فاذا كانت الشفاعة كلها لله ولا تكون الا بعد اذنه ولا يشفع النبي صلى الله عليه وسلم ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه ولا يأذن الا لأهل التوحيد : تبين أن الشفاعة كلها لله ، واطلبها منه وأقول اللهم لاتحرمني شفاعته ، اللهم شفعه فيَّ ، وأمثال هذا .

(فان قال) إن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى الشفاعة وأنا أطلب مما أعطاه الله (فقل له) ان الله تعالى أعطاه الشفاعة ونهاك عن هذا ، وقال : (فلا تدْعوا مع اللهِ أَحداً)[٣] وأيضا فان الشفاعة أعطيها غير النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد صح أن الملائكة يشفعون والاولياء يشفعون ، أتقول ان الله أعطاهم الشفاعة وأنا أطلبها منهم ؟ فان قلت هذا رجعت الى عبادة الصالحين التي ذكرها الله تعالى في كتابه وان قلت لا بطل قولك ان الله تعالى أعطاه الشفاعة وأنا أطلب مما أعطاه الله .

(فان قال) أنا لا أشرك بالله شيئا حاشا وكلا والالتجاء الى الصالحين ليس بشرك (فقل له) إذا كنت تقر أن الله تعالى قد حرم الشرك أعظم من تحريمه الزنا ، وتقر أن الله لايغفره ، فما هذا الامر الذي عظمه الله وذكر أنه لايغفره ؟ فانه لايدري (فقل له) كيف تبريء نفسك من الشرك وأنت لاتعرفه ؟ أم كيف يحرم الله عليك هذا ويذكر أنه لايغفره ولا تسأل عنه ولا تعرفه ؟ أتظن أن الله يحرمه ولا يبينه لنا (فان قال) الشرك عبادة الاصنام ونحن لانعبد الاصنام (فقل له) مامعنى عبادة الاصنام أتظن أنهم كانوا يعتقدون أن تلك الاخشاب والاحجار تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها ؟ فهذا يكذبه القرآن (وإن قال) هو قصد خشبة أو حجر أو بنية على قبر أو غيره يدعون ذلك ويذبحون له ويقولون انه يقربنا الى الله زلفى ويدفع عنا ببركته ، (فقل) له صدقت وهذا هو فعلكم عند الاحجار ، والابنية التي على القبور وغيرها ، فهذا قد أقر أن فعلهم هذا هو عبادة الاصنام .

(ويقال له أيضا) قولك الشرك عبادة الاصنام هل مرادك أن الشرك مخصوص

---

(١) الانبياء : ٢٨ (٢) آل عمران : ٨٥ (٣) الجن : ١٨

بهذا وأن الاعتماد على الصالحين ودعائهم لايدخل في هذا ؟ فهذا يرده ماذكـره الله تعالى في كتابه من كفر من تعلق على الملائكة وعيسى والصالحين ، فلا بد أن يقر لك أن من أشرك في عبادة الله أحدا من الصالحين فهو الشرك المطلوب في القرآن وهذا هو المطلوب •

(وسر المسألة) أنه اذا قال لك أنا لاأشرك بالله ، فقل له وما الشرك بالله فسره لي ، فان قال هو عبادة الاصنام فقل له ومامعنى عبادة الاصنـام فسـرها لي ، فان فسرها بما بينه القرآن فهو المطلوب ، وان لم يعرفه فكيف يدعي شيئا وهو لايعرفه وان فسر ذلك بغير معناه فبين له الآية الواضحة في معنى الشرك بالله وعبادة الاوثان مما يفعل في هذا الزمان بعينه ، وأن عبادة الله وحده لاشريك له هي التي ينكرون عليها ويصيحون كما صاح اخوانهم ، حيث قالوا : أجعل الآلهة الها واحد ان هـذا لشيء عجاب •

(فاذا عرفت) أن هذا الذي يسميه خصوم الحق في وقتنا الاعتقاد هو الشرك الذي أنزل فيه القرآن ، وقاتل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الناس عليه ، فاعلم أن شرك الاولين أخف من شرك أهل عصرنا من وجهين •

(أحدهما) أن الاولين لايشركون ولا يدعون الملائكة والاولياء والاوثان مع الله تعالى الا في الرخاء ، وأما في الشدة فيخلصون لله الدين ، كما قال تعالى :
(وإذا مسَّكمُ الضُّر في البحْرِ ضَـلَّ مَنْ تدعونَ إلاَّ إيَّاهُ فلمَّا نجَّـاكُم إلى البَرِّ اعرَضْتمْ وكانَ الانسانُ كَفوراً)[1] وقال تعالى : (قُلْ أرأيتكمْ إنْ أتاكُم عذابُ اللهِ او أتتْكُم السَّاعةُ أغيْرَ اللهِ تدعونَ إنْ كُنْتمْ صادقينُ . بَلْ إيَّاهُ تدْعونَ فيكْشِفُ مـا تدعونَ اليـه إنْ شاءَ وتنْسَونَ مـا تُشْرِكونَ)[2] وقال تعالى : (وإذا مسَّ الانسانُ ضُرٌّ دعـا ربَّـه مُنيبـاً اليهِ) الى قوله : (قُـلْ تمتَّعْ بِكُفركَ قليلاً إنَّك منْ أصحابِ النَّارِ)[3] وقال تعالى : (واذا غشيَهُم موْجٌ كالظُّلَـلِ دَعو اللهَ مُخلصينَ لهُ الدِّينَ)[4] فمن فهم هذه المسألة التي أوضحها الله

---

(١) الاسراء : ٦٧ (٢) الانعام : ٤٠ ، ٤١ (٣) الزمر : ٨ (٤) لقمان : ٣٢

تعالى في كتابه ، وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعون الله ويدعون غيره في الرخاء ، وأما في الضر والشدة فلا يدعون الا الله تعالى وحده لاشريك له وينسون ساداتهم :تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الاولين ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهما راسخا والله المستعان •

(والامر الثاني) أن الاولين يدعون مع الله أناسا مقربين عند الله ، إما أنبياء ، واما أولياء ، واما ملائكة ، ويدعون أشجارا وأحجارا مطيعة لله ليست عاصية ، وأهل زماننا يدعون مع الله أناسا من أفسق الناس والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك ، ومن يعتقد في الصالحين ومن يعبد مالا يعصى كالخشب والحجر أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويشهد به •

(اذا تحققت) أن الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصح عقولا وأخف شركا من هؤلاء ، فاعلم أن لهؤلاء شبهة يوردونها على ماذكرنا وهي من أعظم شبههم ، فاصغ سمعك لجوابها ، وهي أنهم يقولون أن الذين نزل فيهم القرآن لايشهدون أن لا اله الا الله ، ويكذبون الرسول وينكرون البعث ، ويكذبون القرآن ويجعلونه سحرا ، ونحن نشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ونصدق القرآن ونؤمن بالبعث ، ونصلي ونصوم ، فكيف تجعلوننا مثل أولئك ؟ •

(فالجواب) أنه لاخلاف بين العلماء كلهم ان الرجل اذا صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء وكذبه في شيء انه كافر لم يدخل في الاسلام ، وكذلك اذاآمن ببعض القرآن وجحد بعضه كمن أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة ، أو أقر بهذا كله وجحد الصوم أو أقر بهذا كله وجحد الحج •

ولما لم ينقد أناس في زمن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للحج أنزل الله تعالى في حقهم : (وللهِ على النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ منِ استطاعَ إليهِ سَبيلاً ومَنْ كَفرَ فإنَّ اللهَ غَنيٌّ عنِ العالمينَ) [1] ومن أقر بهذا كله وجحد البعث كفر بالاجماع وحل دمه وماله ، كما قال جل جلاله : (إنَّ الَّذينَ يكْفرون باللهِ

(1) آل عمران : ٩٨

ورسُلِهِ ويريدونَ أن يُفرِّقوا بينَ اللهِ ورُسُلِهِ ويقولونَ نؤمنُ ببعضٍ ونكفُرُ ببعضٍ ويُريدونَ أنْ يتَّخِذوا بينَ ذلكَ سبيلاً ، اولئكَ هُم الكافرون حقاً)[1]
فاذا كان الله تعالى قد صرح في كتابه أن من آمن ببعض وكفر ببعض فهو الكافر حقا زالت هذه الشبهة عن قلبه .

(ويقال) إذا كنت تقر أن من صدق الرسول في كل شيء وجحد وجوب الصلاة انه كافر حلال الدم والمال بالاجماع ، وكذلك اذا أقر بكل شيء الا البعث ، وكذلك لو جحد وجوب صوم رمضان لايجحد هذا ولا تختلف المذاهب فيه ، وقد نطق به القرآن كما قدمنا ، فمعلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو أعظم من الصلاة والزكاة والصوم والحج ، فكيف اذا جحد الانسان شيئا من هذه الامور كفر وان عمل بكل ماجاء به الرسول ، واذا جحد التوحيد الذي هو دين الرسل كلهم لايكفر ، سبحان الله ماأعجب هذا الجهل ؟!

(ويقال أيضا) هؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قاتلوا بني حنيفة ، وقد أسلموا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم يشهدون أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، ويصلون ويؤذنون . فان قال : إنهم يقولون أن مسيلمة نبي ، قلنا : هذا هو المطلوب ، إذا كان من رفع رجلا في رتبة النبي صلى الله عليه وسلم كفر وحل ماله ودمه ولم تنفعه الشهادتان ولا الصلاة فكيف بمن رفع وليا أو صحابيا أو نبيا في مرتبة جبار السموات والارض ، سبحان الله ماأعظم شأنه (كذلِكَ يطبعُ اللهُ على قلوبِ الّذين لا يعلمون)[2]

(ويقال أيضا) إن الذين حرقهم علي بن أبي طالب كلهم يدعون الاسلام ، وهم من أصحاب علي بن أبي طالب كلهم يدعون الاسلام ، وهم من أصحاب علي ، وقد تعلموا العلم من الصحابة ، ولكن اعتقدوا في علي مثل الاعتقاد في الصلحاء ، فكيف أجمع الصحابة على قتلهم وكفرهم ؟ أتظنون أن الصحابة يكفرون المسلمين ؟ أم تظنون أن الاعتقاد في صلحاء العصر لايضر ، والاعتقاد في علي ابن أبي طالب يكفر ؟

(ويقال أيضا) إن بني عبيد القداح الذين ملكوا المغرب ومصر أيام بني العباس كلهم كانوا يشهدون أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ويدعون الاسلام ،

---

(١) النساء : ١٥٠ ، ١٥١ (٢) الروم : ٦٠

ويصلون الجمعة والجماعة ، فلما أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون مانحن فيه أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم ، وأن بلادهم بلاد حرب ، وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا مابأيديهم من بلدان المسلمين •

(ويقال أيضا) اذا كان الاولون لم يكفروا الا من جمع بين الشرك وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن وانكار البعث وغير ذلك فما معنى الباب الذي ذكره الفقهاء من كل مذهب وهو باب حكم المرتد وهو المسلم الذي يكفر بعد اسلامه ؟ وذكروا أنواعا كثيرة كل نوع منها يكفر ويحل دم الرجل وماله ، حتى أنهم ذكروا أشياء يسيرة عند من فعلها مثل كلمة يذكرها بلسانه دون قلبه أو كلمة يذكرها على وجه المزح واللعب •

(ويقال أيضا) ان الذين قال تعالى فيهم (يَحلِفونَبالله ما قالوا ولقَدْ قالوا كلمةَ الكُفرِ وكفروا بعدَ إسْلامِهم) [1] أما سمعت الله تعالى كفرهم بكلمة مع أنهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاهدون معه ، ويصلون معه ، ويزكون ويحجون ويوحدون ، وكذلك الذين قال الله تعالى فيهم : (قُلْ أبالله وآياته ورسولِهِ كُنتُم تستَهزِئُونَ . لا تعتَذروا قدْ كفرتُم بعد إيمانِكُمْ) [2] فهؤلاء الذين أخبر الله تعالى عنهم أنهم كفروا بعد ايمانهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قد قالوا كلمة ذكروا أنهم قالوها على وجه المزح •

فتأمل هذه الشبهة وهي قولهم تكفرون المسلمين أناسا يشهدون أن لا اله الا الله ويصلون ويصومون ثم تأمل جوابها فانه من أنفع مافي هذه الاوراق •

(ومن الدليل على ذلك أيضا) ماحكى الله تعالى عن بني اسرائيل مع اسلامهم وعلمهم وصلاحهم أنهم قالوا لموسى : (اجعَلْ لنا إلهاً كما لَهُمْ آلهةٌ قال إنكم قومٌ تجهلون) [3] وقال ناس من الصحابة اجعل لنا ذات أنواط فحلف صلى الله عليه وسلم أن هذا نظير قول بني اسرائيل اجعل لنا الها ، ولكن لخصوم الحق شبهة يدلون بها عند هذه القصة ، وهي أنهم يقولون أن بني اسرائيل لم يكفروا وكذلك الذين قالوا اجعل لنا ذات أنواط لم يكفروا •

---

(١) التوبة : ٧٦ (٢) التوبة : ٦٧ ، ٦٨ (٣) الاعراف : ١٣٨

(فالجواب) أن نقول : ان بني اسرائيل لم يفعلوا ذلك ، وكذلك الذين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا خلاف أن بني اسرائيل لم يفعلوا ذلك ولو فعلوا ذلك لكفروا ، وكذلك لاخلاف أن الذين نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم لو لم يطيعوه واتخذوا ذات أنواط بعد نهيه لكفروا ، وهذا هو المطلوب •

(وهذه القصة) تفيد أن المسلم بل العالم قد يقع في أنواع من الشرك وهو لايدري ، فتفيد التعلم والتحرز ومعرفة أن قول الجاهل فهمنا التوحيد من أكبر الجهل ومن مكائد الشيطان ، وتفيد أيضا أن المسلم المجتهد اذا تكلم بكلام كفر — وهو لايدري — فنبه على ذلك وتاب من ساعته أنه لايكفر ، كما فعل بنو اسرائيل ، والذين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وتفيد أيضا أنه لولم يكفر فانه يغلظ عليه الكلام تغليظا شديدا كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم •

(ولخصوم الحق وأعداء الدين شبهة أخرى) وهي أنهم يقولون : أن النبي صلى الله عليه وسلم أنكر على أسامة قتل من قال لا اله الا الله وقال : (أقتلته بعدما قال لا اله الا الله) وكذلك قوله : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الاالله) الى أحاديث أخر في الكف عمن قالها ومراد هؤلاء الجهلة أن من قالها لايكفر ولايقتل ولو فعل مافعل •

(فيقال لهم) من المعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل اليهود وسألهم وهم يقولون لا اله الا الله ، وأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ويصلون ويدعون الاسلام ، وكذلك الذين حرقهم علي بن أبي طالب بالنار ، وهؤلاء الجهلة يقرون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال لا اله الا الله ، وأن من جحد شيئا من أركان الاسلام كفر وقتل ولو قالها ، فكيف لاتنفعه اذا جحد فرعا من الفروع وتنفعه اذا جحد التوحيد الذي هو أساس دين الرسل ورأسه ، ولكن أعداء الله لم يفهموا معنى الاحاديث •

(فأما أحاديث أسامة) فانه قتل رجلا ادعى الاسلام بسبب أنه ظن أنه مادعى الاسلام الا خوفا على دمه وماله ، والرجل اذا أظهر الاسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه مايخالف ذلك ، وأنزل الله تعالى في ذلك : « يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا إذا ضَرَبْتُمْ

في سبيلِ الله فتبيَّنوا)[1] أي تثبتوا ، فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت فاذا تبين منه بعد ذلك مايخالف الاسلام قتل لقوله : (فتبينوا) ولو كان لايقتل اذا قالها لم يكن للتثبت معنى ، وكذلك الاحاديث الأخر معناها ماذكرناه ، وأن من أظهر التوحيد والاسلام وجب الكف عنه ، الا أن يتبين منه مايناقض ذلك .

(والدليل على هذا) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي قال : (أقتلته بعدما قال لا اله الا الله) وقال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله) ، وهو الذي قال في الخوارج : (أينما لقيتموهم فاقتلوهم ، لئن أدركتهم لاقتلنهم قتل عاد) مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلا ، حتى أن الصحابة رضي الله عنهم يحقرون أنفسهم عندهم ، وقد تعلموا العلم من الصحابة فلم تنفعهم كلمة لا اله الا الله ، ولا كثرة العبادة ، ولا ادعاء الاسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة .

(وكذلك) ماذكرناه من قتال اليهود وقتال الصحابة رضي الله عنهم بني حنيفة .

(وكذلك) أراد صلى الله عليه وسلم أن يغزو بني المصطلق لما أخبره رجل منهم أنهم منعوا الزكاة حتى أنزل الله تعالى : (يا أيُّها الَّذين آمنوا إنْ جاءَكُم فاسِقٌ بِنبأ فتبيَّنوا)[2] وكان الرجل كاذبا عليهم ، وكل هذا يدل على أن مراد النبي صلى الله عليه وسلم بالاحاديث التي احتجوا بها ماذكرناه .

(ولهم شبهة أخرى) وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر أن الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم ، ثم بنوح ، ثم بابراهيم ، ثم بموسى ، ثم بعيسى فكلهم يعتذر حتى ينتهوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا فهذا يدل على أن الاستغاثة بغير الله ليست شركا .

(والجواب) أن نقول : سبحان من طبع على قلوب أعدائه ، فان الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه لاتنكرها ، كما قال تعالى في قصة موسى : (فاسْتغاثَهُ الَّذي منْ شِيعتِهِ على الَّذي منْ عدوِّهِ)[3] وكما يستغيث الانسان بأصحابه في الحرب أو غيره في أشياء يقدر عليها المخلوق ، ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند

---

(١) النساء : ٩٤ (٢) الحجرات : ٧ (٣) القصص : ١٦

قبور الاولياء أو في غيبتهم في الاشياء التي لايقدر عليها الا الله ، اذا ثبت ذلك فاستغاثتهم بالانبياء يوم القيامة يريدون منهم أن يدعوا الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف ، وهذا جائز في الدنيا والآخرة ، مثل أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك ويسمع كلامك ، تقول له ادع الله لي كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه في حياته ، وأما بعد موته فحاشا وكلا انهم لم يسألوا ذلك ، بل أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره ، فكيف بدعائه نفسه ، صلى الله عليه وسلم •

(ولهم شبهة أخرى) وهي قصة ابراهيم عليه السلام لما ألقي في النار ، اعترض له جبريل في الهواء ، وقال له : ألك حاجة ، فقال ابراهيم عليه السلام : أما اليك فلا • قالوا فلو كانت الاستغاثة شركا لم يعرضها على ابراهيم عليه السلام •

(والجواب) أن هذا من جنس الشبهة الاولى ، فان جبريل عليه السلام عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه ، فانه كما قال الله تعالى فيه شديد القوى ذو مرة ، فلو أذن له أن يأخذ نار ابراهيم عليه السلام وما حولها ويلقيها في المشرق أو المغرب لفعل، ولو أمره الله تعالى أن يضع ابراهيم عليه السلام عنهم في مكان بعيد لفعل ، ولو أمره أن يرفعه الى السماء لفعل ، وهذا كرجل غني له مال كثير يرى رجلا محتاجا فيعرض عليه أن يقرضه أو يهبه شيئا يقضي به حاجته ، فيأبى ذلك المحتاج أن يأخذ ويصبر الى أن يأتيه الله برزق لامنة فيه لأحد ، فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك لو كانوا يفقهون •

هذا آخر ماقصدنا نقله من كتاب (كشف الشبهات) وقد خطر لي بيتان من الشعر في قصة ابراهيم عليه السلام نظمهما بعض الادباء العصريين وهما :

أصبحت ملة ابراهيم متبعا ... لا أبتغي من سوى رب العلى بدلا

لو قال لي الروح جبرائيل هل لك من ... حاج لقلت له أما اليك فلا

وهذا هو التوحيد الذي يرغم أنف النبهاني وأضرابه من الغلاة الطغاة ، ومانقلناه عن الشيخ كلام مفيد لذوي البصائر والافهام ، وقد سقط به ماذكره النبهاني من توضيح مسألة الاستغاثة ، فان كلامه هنا مجرد اعادة عبارة سابقة ليعظم لديه حجم كتابه ، نسأله تعالى أن يهدينا سبلنا ، ويصلح لنا أحوالنا بمنه وكرمه •

(ثم ان النبهاني الغبي) ذكر في آخر الفصل الرابع تتمة زعم أنها اشتملت على

كلام بعض أئمة أهل العلم والاولياء في زيارة قبور الصالحين والانتفاع بزيارتها وصفاء أرواحهم بعد مماتهم ، ثم نقل عن ابن دحلان هذيانه الذي في كتابه تقريب الاصول لتسهيل الوصول ، وهو قوله : قد صرح كثير من العارفين أن الولي بعد وفاته تتعلق روحه بمريديه ، فيحصل لهم ببركته أنوار وفيوضات ، قال وممن صرح بذلك قطب الارشاد سيدي عبد الله بن علوي الحداد ، فانه قال : الولي يكون اعتناؤه بقرابته واللائذين به بعد موته أكثر من اعتنائه بهم في حياته ، لأنه في حياته كان مشغولا بالتكليف وبعد موته طرح عنه الاعباء وتجرد ، والحي فيه خصوصية وبشرية ، وربما غلبت احداهما الاخرى ، وخصوصا في هذا الزمان فانها تغلب البشرية والميت مافيه الا الخصوصية فقط — ثم بقي يهذي الى أن قال — وكان الشيخ أبو المواهب أيضا يقول : من الاولياء من ينفع مريده الصادق بعد مماته أكثر مما ينفعه حال حياته ، ومن العباد من تولى الله تعالى تربيته بنفسه بغير واسطة ، ومنهم من تولاه بواسطة بعض أوليائه ولو ميتا في قبره فيربى مريده وهو في قبره ويسمع مريده صوته من القبر ، ولله عباد يتولى تربيتهم النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه من غير واسطة لكثرة صلاتهم عليه صلى الله عليه وسلم ، ثم نقل كلام الامام فخر الدين الرازي — الذي ذكره في الفصل الثالث عشر من كتابه المطالب العالية في بيان كيفية الانتفاع بزيارة القبور والموتى — وهو قوله : ان الانسان اذا ذهب الى قبر انسان قوي النفس كامل الجواهر ووقف هناك ساعة وحصل تأثير في نفسه حين حصل من الزائر تعلق بزيارة تلك التربة فلا يخفى أن لنفس ذلك الميت تعلقا بتلك التربة أيضا فحينئذ يحصل لنفس الزائر الحي ولنفس ذلك الانسان الميت تعلق بتلك التربة وملاقاة بسبب اجتماعهما بتلك التربة أيضا ، فصار هاتان النفسان شبيهتين بمرآتين صقيلتين متقابلتين بحيث ينعكس الشعاع من كل واحدة منهما الى الاخرى ، فكل ماحصل في نفس هذا الزائر الحي من المعارف والبراهين والعلوم الكسبية والاخلاق الفاضلة من الخشوع لله تعالى والرضا بقضاء الله تعالى ينعكس منه نور الى روح هذا الحي الزائر ، وبهذه الطريقة تصير تلك الزيارة سببا لحصول تلك المنفعة الكبرى والبهجة العظمى لروح هذا الزائر ، فهذا هو السبب والاصل في مشروعية الزيارة ، ولا يبعد أن يحصل منها أسرار أخرى أدق وأخفى مما ذكرنا ، وتمام الحقائق ليس الا عند الله تعالى انتهى كلام الرازي •

ثم قال : قال الشيخ أبو المواهب : قال بعض العارفين وللاولياء عند زيارة

الاولياء وقائع كثيرة تدل على اعتناء المزور بالزائر وتوجهه اليه بالكلية على قدر توجهه وقابليته ، قال النبهاني : انتهى مانقلته من تقريب الاصول للسيد أحمد دحلان

أقول : انما نقلت كلام ابن دحلان الذي استدل به النبهاني على باطله من أوله الى آخره – وان كان فيه تضييع المداد والقرطاس ويؤسف على مايصرف مدة نقله على الانفاس – ليقف عليه المؤمن فيحمد الله على الايمان والاسلام ، ونجاته من ظلمات مثل هذه الاوهام ، ولشناعتها وبشاعتها لدى ذوي العقول السليمة لاتحتاج الى اقامة دليل ولا برهان على ماحوته من بداهة البطلان ، وجميع من نقل عنه ذلك الهذيان كانوا من غلاة الشافعية فقط ، ومن الاسف على مثل هذا المذهب أن دنسه هؤلاء الغلاة وأضرابهم مع ماكان عليه الامام الشافعي من الاتباع للسنة ، وقد صان الله تعالى السادة الحنفية والمالكية والحنابلة عن مثل هذه العقيدة الزائغة والقول الباطل ، ومن المعلوم لديك أن النبهاني عقد بابا لزيارة القبور ، وبابا للسفر اليها ، وهذى بما هذى في كلا البابين ، وكأنه نسي أن يذكر هذا الكلام في موضعه فتداركه في هذا المقام ، فان له تعلقا به من حيث الاستعداد والاستفاضة اللذان ادعاهما في الزيارة قاتله الله مأأعظم جهله وغباوته .

ثم انا قد أسلفنا الكلام على الزيارة ، وبينا مافيه الكفاية لمن كان له قلب سليم، وقلنا : ان الزيارة منها ماهو سني وهو الذي كان يعلمه الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه من شأنها ، ومنها ماهو بدعي لم ينزل الله به من سلطان ، وأطنبنا الكلام على كل ذلك ، ونقلنا ماكتبه شيخ الاسلام في (الجواب الباهر) وكتابه في الرد على المعترض المالكي وهو الذي لم يسبقه أحد اليه ، ومنه يعلم أن ماكتبه ابن دحلان وما نقله عن الرازي كلام ساقط كل السقوط ، وليس عليه دليلا لا من كتاب ولا من سنة ولا من كلام السلف الصالح ، وكان الذي قال يقول الرازي من المتقدمين والمتأخرين انما أخذوه عن الاشراقيين من فلاسفة اليونان ، ومن الاسف على مثل الرازي أن يتفوه بمثل مانقل عنه ومنزلته في العلم ماتعلم ، لكن الامام الذهبي قد بين حقيقته ومبلغه من علوم الدين ، وابن السبكي تأثر من شيخه الذهبي اذ بين حقيقته وأطال اللسان عليه في طبقاته في الكلام على ترجمة الرازي ، وابن دحلان ليس مما يلام على جهله ، وغباوته ودعواه في العلم معلومة ، وعجبه وكبره مما يقتضي مارأيت من جهله ، والحاصل أنه لو لم يكن لنا دليل على بطلان مانقله النبهاني عمن نقله سوى مخالفته للنقل الصحيح والعقل الصريح لكفانا ذلك ، فكيف والادلة على

بطلانه كثيرة كما يعلم مما سبق •

(ثم ان النبهاني) نقل كلام ابن دحلان في كتابه (خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام) وعقد له بابا وجعله ثالث الابواب ، وهو كلام اليس عليه اثارة من علم ، ونقله النبهاني بأسره ، فذكر الشبه التي تمسك بها الوهابية على زعمه ، فقال : ينبغي أولا أن نذكر الشبهات التي تمسك بها ابن عبد الوهاب في اضلال العباد ، ثم نذكر الرد عليه ببيان أن كل ماتمسك به زور وافتراء وتلبيس على عوام الموحدين •

(قال فمن شبهاته) التي تمسك بها زعمه أن الناس مشركون في توسلهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وبغيره من الانبياء والاولياء والصالحين ، وفي زيارتهم قبره صلى الله عليه وسلم وندائهم له بقولهم يارسول الله نسألك الشفاعة ، وزعم أن ذلك كله اشراك وحمل الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين على الخواص والعوام من المؤمنين ، كقوله تعالى : (فلا تدْعوا مَع اللهِ أَحداً) (١) وقوله تعالى : (ومَنْ أضلُّ مِمن يَدعو مِن دونِ اللهِ مَن لا يستجيبُ لهُ إلى يومِ القيامةِ وهُم عن دُعائِهم غافِلونَ . وإذا حُشِرَ النَّاسُ كانوا لهم أعداء وكانوا بِعبادتِهم كافرينَ) (٢) وقوله تعالى : (فلا تَدْعُ مع اللهِ إلهاً آخر فتكونَ منَ المعذَّبينَ) (٣) وقوله تعالى : (ولا تدْعُ منْ دونِ اللهِ ما لا يَنفَعكَ ولا يضرُّكَ فإنْ فعلْتَ فإنَّكَ إذاً من الظَّالمينَ) (٤) وقوله تعالى : (والَّذينَ تَدعونَ من دونِهِ ما يَملِكونَ مِنْ قِطْميرٍ انْ تدعوهُم لا يسمعوا دُعاءَكُم ولوْ سمِعوا ما استجابوا لكُم ويومَ القيامةِ يكفرونَ بِشرْكِكُم ولا يُنبِّئكَ مِثْلُ خبيرٍ) (٥) وقوله تعالى : (قُل ادْعوا الَّذين زعمْتُم من دونِهِ فلا يملِكونَ كَشْفَ الضُّرِ عنكُم ولا تَحويلا . اولئكَ الَّذينَ يدْعونَ يبْتغونَ الى ربِّهم الوسيلةَ أيُّهم أقربُ ويرجونَ رحمتَهُ ويخافون عذابهُ إنَّ عذابَ ربِّكَ كان محذوراً) (٦) وأمثال هذه الآيات كثيرة في القرآن كلها حملها على الموحدين الخ •

---

(١) الجن : ١٨ (٢) الاحقاف : ٥ ، ٦ (٣) الشعراء : ٢١٣ (٤) يونس : ١٠٦ (٥) فاطر : ١٣ ، ١٤ (٦) الاسراء : ٥٦ ، ٥٧

(أقول ومن الله أستمد التوفيق) ان النبهاني لم يزل يكرر مباحث كتابه ويعيد حتى يعظم حجم كتابه ، وما أدري ماذا قصد بنقل كلام ابن دحلان ، فهل للاستدلال به على باطله وهو لايفيد ذلك فان الرجل ليس ممن يحتج بقوله ، بل ولا ممن يوثق به فانه مبتدع بل من الغلاة المشهورين ، وان كان نقله لكلامه ليبين للناس أن له أمثالا في الغلو والضلال فهذا مما لايحتاج ، فقد قيل :

ومهما تكن عند امريء من خليقة　　　وان خالها تخفى على الناس تعلم

وعلى كل حال فان مانقله النبهاني عن صاحبه مؤلف كتاب خلاصة الكلام وكتاب الدرر السنية في الرد على الوهابية قد رددناه سابقا كما قد رد عليه من قبلي علماء أفاضل محققون ، وقد انتشرت كتبهم ، منها كتاب (صيانة الانسان عن وسوسة الشيخ دحلان) للعلامة المحدث الشيخ عبد الله بن الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ عبد الرحيم السندي رحمه الله تعالى ، وقد أجاد في رده عليه وأظهر زيغه وعواره ، فقد قال في خطبة كتابه : أما بعد ، فاني وقفت على الرسالة التي جمعها الشيخ أحمد بن زيني دحلان وسماها (الدرر السنية في الرد على الوهابية) ورأيت مؤلفها يدعي في ديباجة رسالته الباطلة الساقطة الدنية الردية أنه جمع فيها ماتمسك به أهل السنة في زيارة النبي صلى الله عليه وسلم والتوسل به من الدلائل والحجج القوية ، من الآيات والاحاديث النبوية ، فتعجبت منه التعجب الصراح ، كيف وليس في الباب حديث واحد حسن فضلا عن الصحاح ، فتأملت فيها تأمل الناقد البصير لكي أعلم به هل صدق في تلك الدعوى أم كذب كذب المجادل الضرير ، فوجدت دعواها عارية عن لباس الصدق والحق المبين ، محلاة بحلية الزور والكذب والباطل المهين ، فانه ليس فيها من الاحاديث الا ماأورده التقي السبكي في شفاء السقام ، وهي دائرة بين الاحتمالات الثلاثة السقام ، اما موضوعة عملتها أيدي الوضاع اللئام ، أوضعاف واهية رواها من وسم بمثل كثرة الغلط والخطأ والاوهام ، أو شيء يسير من الصحيح والحسن في زعمه قاصر عن افادة المرام ، كما بين ذلك كله الامام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي في كتابه (الصارم المنكي) وليس فيها من الآيات والاحاديث الصحاح والحسان مايدل على المطلوب المحكى ، وكان حقا على المؤلف تعاطي واحد مما يذكر ، لئلا يعد كلامه مما يهجر وينكر ، اما ايراده لاحاديث صحيحة أو حسنة دالة على المطلوب غير ماأورد في الشفاء ، أو الاجابة عما تكلم به عليها صاحب الصارم وغيره من الائمة الاذكياء ، وان لم يفعل هذا ولا ذاك فليس لها فائدة ، ولا يؤل هذا

الطول الى منفعة وفائدة ، ومن عجائب صنيعه أن المؤلف مع زعمه أنه من جملة المقلدين يستدل بالادلة الشرعية وهو منصب المجتهدين ، فعن لي أن أنبه على ماوقع فيها من مساويء المفاهيم ، وزخارف الاقوال ، وأراجيف الاستدلال ، لئلا يغتر بها من يقف عليها ممن لاخبرة له بحقائق علم السنة من المتون والرجال ، فبالله أستعين وأقول الى آخر ماقال •

فاذا عرفت ماكان من الردود على أقوال ابن دحلان فالتعرض لها في مثل هذا المقام فضول ، ومع ذلك نشير اشارة اجمالية الى الرد عليها ، فنقول : قوله فمن شبهاته التي تمسك بها زعمه أن الناس مشركون في توسلهم بالنبي صلى الله عليه وسلم الخ لا أصل له ، بل أن له دلائل قطعية من الكتاب والسنة على أن العبادة مختصة بالله تعالى لايشركه غيره ، لقوله تعالى : (إياكَ نعْبـدُ . واياكَ نسْتعينُ) وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم : (اذا استعنت فاستعن بالله) الخ وبين أن مالا يقدر عليه الا الله فطلبه منه مخ العبادة ، فمن صرفه لغيره فلا شك أنه عبد الغير ، ومن عبد الغير فقد أشرك على ماسبق فيما نقل عنه من كتاب (كشف الشبهات) •

ثم انه لم يقل أن زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم أو قبور سائر الانبياء والصلحاء الزيارة المشروعة شرك بل ندبها واستحبها ، نعم ان الزيارة المخالفة لما ورد فهي ليست بمقبولة ، كما أنها كذلك عند المحققين من الائمة ، وقد سبق بيان ذلك فيما نقلناه عن شيخ الاسلام ، وكذلك التوسل به بمعنى جعله وسيلة والطلب من الله تعالى ليس مما نوزع فيه •

وقوله : وندائهم له الخ قد أسلفنا لك فيما نقلناه من كتاب (كشف الشبهات) أن الشفاعة تطلب من الله تعالى ، وتقدم تفصيله •

(وقوله) وحمل الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين على الخواص والعوام من المؤمنين الخ (فقد تقدم أيضا) بيان ذلك مفصلا في (كشف الشبهات) وحاصل ماأسلفناه أن من عبد غير الله شملته نصوص المشركين وان صام وان صلى ، فلا حاجة الى تكرير الكلام في هذا المقام ، وقد تكلم على هذه الاعتراضات على وجه البسط أيضا الشيخ عبد الله السندي في رده على ابن دحلان فراجعه ان شئت فانه مفيد •

(ثم ان النبهاني) نقل كلام ابن دحلان بجملته وهو عين ماهذى به في كتابه الدرر السنية ، وما فيها منقول عن الجوهر المنظم وشفاء السقام ، وقد عرفت ماكان من الكتابين ، وما كان من الرد عليهما فلا تتعب البنان برده ، ثم قال بعد كلام طويل : ان الذين اعتنوا بالرد على محمد ابن عبد الوهاب خلائق لايحصون من مشارق الارض ومغاربها من أرباب المذاهب الاربعة في كتب مبسوطة ومختصرة ثم ذكر أحاديث الزيارة التي سبق الكلام عليها وبها ختم الباب •

أقول يجاب عن هذا الكلام من وجوه :

(الوجه الاول) أن كثيرا من العلماء المحققين انتصروا للشيخ ، وردوا على من من رد عليه بكتب مفصلة مفيدة لايسع المقام ذكرها •

(الوجه الثاني) أن رد كثير من العلماء على الشيخ لايقتضي بطلان ماكان عليه ولا حقية ماكان عليه خصومه ، انما معيار الحق شهادة الكتاب العزيز والسنةالنبوية، واذا كان قوله وعمله موافقا للنقلين فلا مبالاة بمخالفة الغير كائنا من كان •

اذا رضيت عني كرام عشيرتي فلا زال غضبانا على لئامها

(الوجه الثالث) أن الامة لم تزل بين راد ومردود ، ولا يزالون مختلفين ولذلك خلقهم ، وكثير من علماء الصحابة والتابعين وتابعي التابعين قد خالفهم كثير من العلماء هؤلاء المذاهب الاربعة كل واحد منهم له من المخالفين أكثر من الموافقين ، وكل منهم قد رد عليه خصومه بردود مفصلة ، وهذا من المسلمات التي لايسوغ النزاع فيها ، فالشيخ الدحلاني كأنه غض طرفه عما جرى بين أئمته وأتباعهم ، وما كان من خراب الديار بسبب تنازعهم ، ورأى مااعترض به خصوم ابن عبد الوهاب عليه لما أظهر زيفهم وزيغهم وباطلهم وضلالهم ، والحق بيد الشيخ الدحلاني فانه على جهله قد ادعى الرياسة على قوم لم يميزوا بين يمينهم وشمالهم ، وأطاعوه لموافقته لهم على ماألفوه من الضلال والغي ، فاذا علمت أقوال هذا الرجل وتبصر بها من تبصر تقطعت حبائل ابن دحلان وأمثاله من حزب الشيطان ، ثم انه ليس هو بأول من رد عليه ولا أول من عودي وحسد ، ففي البخاري : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أخبر ورقة بن نوفل مارأى قال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، ياليتني فيها جذعا ، ليتني أكون حيا اذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجي هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به الا عودي،

وان يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا) ولو أخذنا نذكر ماجرى على الأئمة طال الكلام .

(وقد ذكر الشيخ عبد اللطيف) في كتابه (منهاج التأسيس ، في الرد على ابن جرجيس) كلاما مفيدا يعلم منه السبب في معاداة الناس لجده الشيخ محمد ، ولابأس بذكره فانه يرد به على الخصوم قال عليه الرحمة : ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وكان الناس قبل مبعثه على أديان متفرقة ، ونحل متباينة ، وطرائق مختلفة ، وضلال مستبين ، كما في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم : (أن الله نظر الى أهل الارض فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من أهل الكتاب) فقام صلى الله عليه وسلم بأعباء النبوة والرسالة ، وصدع بالانكار على كافة أهل الجهالة والضلالة ، ودعى الناس الى معرفة الله تعالى وتوحيده ، وأمرهم باخلاص الدين لله وتجريده ، ولم يزل صلى الله عليه وسلم الى الله داعيا ، والى سبيله هاديا ، حتى أظهره الله على سائر فرق المشركين ، الاميين منهم والكتابيين ، واستعلن الدين واستنار ، وقهر الاسلام كل مشرك جبار ، فأكمل الله للامة الدين ، وأتم النعمة بما جاء به رسوله الامين ، فدخل الناس في دين الله أفواجا ، وأشرقت الارض بنور النبوة واهتزت طربا وابتهاجا ، ومحا الله آثار الاصنام والاوثان ، وخمدت معابد الصلبان والنيران ، ورفعت أعلام السنة والقرآن ، حتى تركهم صلى الله عليه وسلم على البيضاء ليلها كنهارها ، لايضل سالكها ولا تلتبس عليه مناهجها ومسالكها ، ولم يزل خلفاؤه الراشدون ومن بعدهم من تلك الاعصار الفاضلة والقرون على هذا المنهج المنير متفقون ، وبعروته مستمسكون ، فاستمر الامر على ذلك ، ومضى الصالحون على تلك المناهج الواضحة والمسالك ، ثم نشأ في الاسلام من لايعرف الجاهلية ، ولم يميز بين شعب الشرك والاصول الاسلامية ، فانتقضت من الدين عراه ، وعز خلاصه وعظمت بالجهال محنته وبلواه ، وآلت الرياسة الى الجهال والاغمار ، وجاءت دولة غربة الدين واشتد الادبار ، فوقع الشرك بالصالحين وغيرهم صرفا لم يشب ، هرم عليه الكبير ونشأ الصغير وشب ، واستحكم الامر استحكاما لامزيد عليه ، حتى جزم الاكثر بكفر من أنكر ذلك وأشير به اليه ، وهذا من أعلام نبوة نبينا المصطفى ، زاده الله تعالى صلاة وسلاما وشرفا ، فقد روى الشيخان وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : (لتتبعن

سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعابذراع ،حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه قلنا يارسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟) وجاء نحوه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه وفيه زيادة : (وباعا بباع) وفيه : (حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتموه ، وحتى لو أن أحدهم جامع أمه في الطريق لفعلتموه) وفي الباب عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه وشداد بن أوس ، وعن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده، فصار الامر طبق ماأخبر به هذه الامة نبيها ، وظهر وجه الشبه بينهم وبينها ، وانتهى الحال الى أن قيل بالاتحاد والحلول ، وكثرت في ذلك اشارات القوم والنقول ، وصار هو مذهب الخاصة والخلاصة عند الاكثرين ، ومن أنكره فهو عندهم ليس على شيء من العلم والدين ، وعبدت الكواكب والنجوم ، وصنف في ذلك مثل أبي معشر وصاحب السر المكتوم ، وعظمت القبور وبنيت عليها المساجد ، وعبدت تلك الضرائح والمشاهد ، وجعلت لها الاعياد الزمانية والمكانية ، وصرفت لها العبادات المالية والبدنية ونحرت لها النحائر والقرابين ، وطاف بها الفوج بعد الفوج من الزائرين والسائلين ، وحلقت لأربابها رؤوس الوافدين ، وهتف بدعائها ورجائها من حضر أو غاب من المعتقدين والمحبين ، واعتمدوا عليها في المهمات من دون الله رب العالمين ، وانتهكت بأعيادها وموالدها محظورات الشريعة والمحرمات ، واستبيح فيها مااتفق على تحريمه جميع الشرائع والنبوات ، وكثر المكاء والتصدية بتلك الفجاج والعرصات ، وبارزوا بتلك القبائح والعظائم فاطر الارض والسموات ، وصنف في استحبابه بعض شيوخهم كابن المفيد ، وظنه الاكثر من دين الاسلام والتوحيد ، وأشير الى من أنكره بالكفر الشديد ، وقد ضمن الله تعالى لهذه الامة أن لاتجتمع على ضلالة ، وان لايزال فيها من يعبد الله تعالى قائما على أي وصف وحالة ، وجاء الحديث بأنه تعالى يبعث لهذه الامة على رأس كل قرن من يجدد لها أمر الدين ، ويقوم من الحجة بالواضح المستبين، فمنهم من قص علينا نبؤه ووصل ، ومنهم من انقطع عنا خبره وما اتصل ، وأحق أهل القرن الثاني عشر — عند من خبر الامور وسبر ، ووقف على ماقرره أهل العلم والاثر ، من حصول الوصف الكاشف المعتبر — شيخ الاسلام والمسلمين ، المجدد لما درس من أصول الملة والدين ، السلفي الاول وان تأخر زمانه عند من عقل وتأمل، محمد ابن عبد الوهاب ، رحمه الله تعالى وأجزل له الثواب ، وكان قيامه رحمه الله تعالى بعد الخمسين ومائة وألف من سني الهجرة المحمدية ، وابتداء التواريخ الاسلامية ، فشمر رحمه الله تعالى عن ساعدي جده واجتهاده ، وأعلن بالنصح لله

ولكتابة ولرسوله وسائر عباده ، وصبر على مانا له من أعباء تلك الرتبة والدعوة ، وماقصد به من أنواع المحنة والجفوة ، وقرر رحمه الله تعالى أن الواقع الذي حكينا، والصنيع الذي رأينا وروينا ، عن عباد القبور والصالحين ، هو بعينه فعل الجاهلية الوثنيين ، وهو الذي جاءت الرسل بمحوه وابطاله ، وتكفير فاعله ورد باطله ومحاله، وقال ان حقيقة دين الاسلام وزبدة ماجاءت به الرسل الكرام : هو افراد الله تعالى بالقصد والعبادة ، واسلام الوجه له بالعمل والارادة ، وترك التعلق على الاولياء من دونه والانداد ، والبراءة من عبادة ماسواه من سائر المخلوقات والعباد ، وهذا معنى كلمة الاخلاص والتوحيد ، وهو الحكمة المقصودة بخلق جميع الكائنات والعبيد ، وقرر رحمه الله أن مجرد الاتيان بلفظ الشهادة مع مخالفة مادلت عليه الاصول المقررة ومع الشرك الاكبر في العبادة لايدخل المكلف في الاسلام ، إذ المقصود من الشهادتين حقيقة الاعمال التي لايقوم الايمان بدونها ، كمحبة الله وحده ، والخضوع له ، والانابة اليه ، والتوكل عليه ، وافراده بالاستعانة ، والاستغاثة فيما لايقدر عليه سواه ، وعدم الاشراك به فيما يستحقه من العبادات ، كالذبح والنذر والتقوى والخشية ونحو ذلك من الطاعات .

واستدل لذلك بنصوص قاطعة ، وبراهين واضحة ساطعة ، وحكى الاجماع على ذلك عن الائمة الفضلاء ، والسادة النبلاء ، من سائر أهل الفقه والفتوى ، وذكر عبارة من حكى الاجماع من أهل المذاهب الاربعة وغيرهم ، وألف في ذلك التآليف ، وقرر الحجة وصنف التصانيف ، وقد عارضه من الغلاة المارقين ، ومن الدعاة الى عبادة الاولياء والصالحين : أناس من أهل وقته ، فباؤا بغضب الله ومقته ، وأظهره الله عليهم بعدا لامتحان ، وحقت كلمة ربك على أهل الكفر والطغيان ، وهذه سنة الله التي قد خلت من قبل ، وحكمته التي يظهر بها ميزان الفضل والعدل ، وقد جمع أعداؤه شبهات في رد ماأبداه ، وجحد ماقرره وأملاه ، واستعانوا بملئهم من العجم والعرب ، ونسبوه الى مايستحي من ذكره أهل العقل والادب ، فضلا عن ذوي العلوم والرتب ، وزعموا أنه خارجي مخالف للسنةوالجماعة ، كمقالة أسلافهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم انه صابئي صاحب إفك وصناعة ، انتهى ماقصدنا نقله من الكلام .

(ثم ان النبهاني) عقد بابا رابعا نقل فيه على زعمه أقوال علماء المذاهب الاربعة في الرد على ابن تيمية ، والكلام على بعض كتبه ، ومخالفته أهل السنة في بعض

المسائل المهمة ، ومنها اعتقاد الجهة في جانب الله تعالى وتقدس ، قال : فممن عاصره الامام صدر الدين ابن الوكيل المعروف بابن مرحل الشافعي وقد ناظره .

(أقول ومن الله المدد والاعانة) هذا الباب هو عمدة أبواب كتاب النبهاني وبيت قصيده ، ولأجل ذكره ألف كتابه ، فان الغلاة بغضهم لشيخ الاسلام ابن تيمية مما لاشبهة فيه ، والنبهاني في هذا من حثالتهم وفضلاتهم ، فلا شك أنه من أشد الناس عداوة لهذا الامام ، لأن غالب كتبه في الرد على المبتدعة وأهل الزيغ والضلال والالحاد . ثم إنه ذكر ابن الوكيل قبل كل أحد من أعداء الشيخ لأنه كان عريقا في البدع ، مبغضا للسنة النبوية ، وكان من غلاة الشافعية أيضا ، وقعت بينه وبين شيخ الاسلام قدس الله روحه مناظرات ،و قد أثار عليه فتنا كثيرة ، وقد رأيت أن أذكر ماكان من المناظرة بين الشيخ وخصومه ليتبين للناظر أعداؤه من محبيه ، ورأيت رسالة من جملة الرسائل الكبرى التي طبعت حديثا في مصر مشتملة على بيان مناظرته ، ورأيت فيها تحريفا كثيرا ونقصانا ، مع أن الشيخ ألف كتابا فيما عقد له من المجالس وما جرى له فيها ، فأحببت أن أذكر ماوجدته من ذلك ، ليكون المنصف على بصيرة من أمره ، وكلام صاحب الواقعة أصح من غيره ، ولذلك أتحفت أهل العلم بذكرها لما اشتملت عليه من الفوائد الغزيرة والمسائل الكثيرة .

(ذكر المجالس التي انعقدت لمناظرة شيخ الاسلام ابن تيمية في عقيدته الواسطية)
(وهي من مصنفاته رضي الله تعالى عنه) (1)

قال بعد البسملة : الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له ولا ظهير ولا معين ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أرسله الى الخلق أجمعين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا وعلى سائر عباد الله الصالحين .

(أما بعد) فقد سئلت غير مرة أن أكتب ماحضرني ذكره مما جرى في المجالس الثلاثة المعقودة للمناظرة في أمر الاعتقاد ، بمقتضى ماورد من كتاب ذي السلطان من الديار المصرية الى نائبه أمير البلاد ، لماسعى اليهقوم من الجهمية والاتحاديةوالرافضة وغيرهم من ذوي الاحقاد ، فأمر الامير بجمع القضاة الاربعة ، قضاة المذاهب الاربعة وغيرهم من نوابهم والمفتين والمشايخ ممن له حرمة وبه اعتداد ، وهم لايدرون ماقصد بجمعهم في هذا الميعاد ، وذلك يوم الاثنين ثامن رجب المبارك عام خمس وسبعمائة ،

---

(1) ذكر هذا البحث فى (مجموع فتاوي شيخ الاسلام) جلد ٣ صحيفة ١٦٠ فما بعد .

فقال لي : هذا المجلس عقد لك ، فقد ورد مرسوم السلطان بأن أسألك عن اعتقادك وعما كتبت به الى الديار المصرية من الكتب التي تدعو بها الناس الى الاعتقاد ، وأظنه قال وان أجمع القضاة والفقهاء ويتباحثون في ذلك .

فقلت : أما الاعتقاد فلا يؤخذ عني ولا عمن هو أكبر مني ، بل يؤخذ عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وما أجمع عليه سلف الامة ، فما كان في القرآن وجب اعتقاده ، وكذلك ماثبت في الاحاديث الصحيحة مثل صحيح البخاري ومسلم ، وأما الكتب فما كتبت الى أحد كتابا ابتداء أدعوه بهالى شيء من ذلك ،ولكني كتبتأجوبة أجبت بها من سألني من أهل الديار المصرية وغيرهم ، وكان قد بلغني أنه زور على كتاب الى الامير ركن الدين الجاشنكير أستاذ ذي السلطان يتضمن ذكر عقيدةمحرفة ولم أعلم بحقيقته لكن علمت أنه مكذوب .

وكان يرد علي من مصر وغيرها من يسألني عن مسائل في الاعتقاد فأجبته بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الامة ، فقال : نريد أن تكتب لنا عقيدتك فقلت اكتبوا .

فأمر الشيخ كمال الدين أن يكتب فكتب له جمل الاعتقاد في أبواب الصفات والقدر ، ومسائل الايمان والوعيد والامامة والتفضيل ، وهو أن اعتقاد أهل السنة والجماعة الايمان بما وصف الله به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تمثيل ، وان القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بداواليه يعود ، والايمان بأن الله خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها ، وانه ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه أمر بالطاعة وأحبها ورضيها ، ونهى عن المعصية وكرهها ، والعبد فاعل حقيقة ، والله خالق فعله ، وان الايمان والدين قول وعمل يزيد وينقص وان لانكفر أحدا من أهل القبلة بالذنوب ، ولا نخلد في النار من أهل الايمان أحدا ، وأن أفضل الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ثم علي ، وترتيبهم في الفضل كترتيبهم فيالخلافة ، ومن قدم علياعلى عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والانصار ، وذكرت هذا أو نحوه ، فاني الآن قد بعد عهدي ولم أحفظ لفظ ماأمليته لكنه كتب اذ ذاك .

ثم قلت للامير والحاضرين : أنا أعلم أن أقواما يكذبون علي كما قد كذبوا غير مرة ، وان أمليت الاعتقاد من حفظي ربما يقولون كتم بعضه أو داهن وداری ، فأنا

أحضر عقيدة مكتوبة من نحو سبع سنين قبل أن يجيء التتر الى الشام ، وقلت قبل حضورها كلاما قد بعد عهدي به ، وغضبت غضبا شديدا ، لكني أذكر أني قلت أنا أعلم أن أقواما كذبوا علي ، وقالوا للسلطان أشياء وتكلمت بكلام احتجت اليه ، مثل أن قلت من قام بالاسلام أوقات الحاجة غيري ، ومن الذي أوضح دلائله وبينه وجاهد أعداءه وأقامه لما مال حين تخلى عنه كل أحد ، ولا أحد ينطق بحجته ولا أحد يجاهد عنه ، وقمت مظهرا الحجة مجاهدا عنه مرغبا فيه ،فاذا هؤلاء يطمعون في الكلام فيّ فكيف يصنعون بغيري ، ولو أن يهوديا طلب من السلطان الانصاف لوجب عليه أن ينصفه ، وأنا قد أعفو عن حقي وقد لاأعفو بل أطلب الانصاف منه ، وأن يحضر هؤلاء الذين يكذبون ليكافئوا على افترائهم ، وقلت كلاما أطول من هذا الجنس لكن بعد عهدي به .

فأشار الامير الى كاتب الدرج محي الدين بأن يكتب في ذاك ، وقلت أيضا : كل من خالفني في شيء مما كتبته فأنا أعلم بمذهبه منه ، وما أدري هل قلت هذا قبل حضورها أو بعده ، لكن قلت أيضا بعد حضورها وقرائتها ماذكرت فيها فصلا الا وفيه مخالف من المنتسبين الى القبلة ، وكل جملة فيها خلاف لطائفة من الطوائف ، ثم أرسلت من أحضرها ومعه كراريس بخطي من المنزل ، فحضرت العقيدة الواسطية ، وقلت لهم : هذه كان سبب كتابتها أنه قدم عليّ من أرض واسط بعض قضاة نواحيها شيخ يقال له رضي الدين الواسطي من أصحاب الشافعي ، قدم علينا حاجا وكان من أهل الخير والدين ، وشكا ما الناس فيه بتلك البلاد في دولة التتر من غلبة الجهل والظلم ودروس الدين والعلم ، وسألني أن أكتب له عقيدة تكون عمدة له ولأهل بيته ، فاستعفيت من ذلك وقلت قد كتبا لناس عقائد متعددة فخذ بعض عقائد أئمة السنة ، فألح في السؤال وقال ماأحب الاّ عقيدة تكتبها أنت ، فكتبت له هذهالعقيدة وأنا قاعد بعد العصر ، وقد انتشرت بها نسخ كثيرة في مصر والعراق وغيرهما ، فأشار الامير بأن لاأقرأها أنا لرفع الريبة ، وأعطاها لكاتبه الشيخ كمال الدين فقرأها على الحاضرين حرفا حرفا ، والجماعة الحاضرون يسمعونها ويورد المورد منهم ماشاء ويعارض فيما شاء ، والامير أيضا سأل عن مواضع فيها ، وقد علم الناس ماكان في نفوس طائفة من الحاضرين من الخلاف والهوى ماقد علم الناس بعضه ، وبعضه بسبب الاعتقاد وبعضه بغير ذلك ، ولا يمكن ذكر ماجرى من الكلام والمناظرات في هذه المجالس ، فانه كثير لاينضبط لكن اكتب ملخص ماحضرني من ذلك مع بعد العهد بذلك ، ومع أنه كان يجري رفع أصوات ولغط لاينضبط .

فكان مما اعترض عليه بعضهم لما ذكر في أولها : ومن الايمان بالله الايمان بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تمثيل ، فقال : ماالمراد بالتحريف والتعطيل ؟ ومقصوده أن هذا ينفى التأويل الذي أثبته أهل التأويل الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره اما وجوبا واما جوازا ، فقلت : تحريف الكلم عن مواضعه ، كما ذمه الله تعالى في كتابه ، وهو ازالة اللفظ عما دل عليه من المعنى ، مثل تأويل بعض الجهمية لقوله تعالى(وكلّم اللهُ موسى تكليماً)[1] جرحه بأظافير الحكمة تجريحا ، ومثل تأويلات القرامطة والباطنية وغيرهم من الجهمية والرافضة والقدرية وغيرهم ، فسكت وفي نفسه مافيها •

وذكرت في غير هذا المجلس أني عدلت عن لفظ التأويل الى لفظ التحريف لأن التحريف اسم جاء القرآن بذمه ، وأنا تحريت في هذه العقيدة اتباع الكتاب والسنة ، فبينت ماذمه الله من التحريف ، ولم أذكر فيها لفظ التأويل بنفى ولا اثبات ، لأنه لفظ له عدة معان ، كما بينته في موضعه من القواعد ، فان معنى لفظ التأويل في كتاب الله غير معنى لفظ التأويل في اصطلاح المتأخرين من أهل الاصول والفقه ، وغير معنى وكان أحب الي من لفظ ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ، وان كان قد يعنى بنفيه معنى تسمى تأويلا ماهو صحيح منقول عن بعض السلف فلم أنف ماتقوم به الحجة على صحته ، اذ ماقامت الحجة على صحته وهو منقول عن السلف فليس من التحريف •

وقلت لهم أيضا : ذكرت في النفي التمثيل ولم أذكر التشبيه لأن التمثيل نفاه الله بنص كتابه ، حيث قال :(ليسَ كَمِثْلِهِ شيء)[2] وقال :(هَلْ تعْلَمُ لَهُ سَمِياً)[3] وكان أحب الي من لفظ ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ، وان كان قد يعنى بنفيه معنى صحيح كما قد يعنى به معنى فاسد ، ولما ذكرت أنهم لاينفون عنه ماوصف به نفسه ويحرفون الكلم عن مواضعه ويلحدون في أسماء الله وآياته جعل بعض الحاضرين يتمعض من ذلك لاستشعاره مافي ذلك من الرد الظاهر عليه ، ولكن لم يتوجه له مايقوله ، وأراد أن يدور بالاسئلة التي أعلمها فلم يتمكن لعلمه بالجواب •

ولما ذكرت آية الكرسي أظنه سال الامير عن قولنا لايقر به شيطان حتى يصبح وذكرت حديث أبي هريرة في الذي كان يسرق صدقة الفطر ، وذكرت أن البخاري

---

(١) النساء : ١٦٤ (٢) الشورى : ١٢ (٣) مريم : ٦٦

رواه في صحيحه ، وأخذوا يذكرون نفي التشبيه والتجسيم ، ويطنبـون في هذا ، ويعرضون لما ينسبه بعض الناس الينا من ذلك •

وقلت : قولي من غير تكييف ولا تمثيل ينفي كل باطل ، وانما اخترت هذين الاسمين لأن التكييف مأثور نفيه عن السلف ، كما قـال ربيعة ومالك وابن عيينة وغيرهم المقالة التي تلقاها العلماء بالقبول : الاستواء معلـوم ، والكيف مجهـول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فاتفق هؤلاء السلف على أن التكييف غير معلوم لنا ، فنفيت ذلك اتباعا لسـلف الامة ، وهو أيضـا منفى بالنص ، فان تأويل آيات الصفات يدخل فيها حقيقة الموصوف وحقيقة صفاته ، وهذا من التأويل الذي لايعلمه إلا الله ، كما قد قررت ذلك في قاعدة مفردة ذكرتها في التأويل ، والفرق بين علمنا بمعنى الكلام وبين علمنا بتأويله •

وكذلك التمثيل منفيّ بالنص والاجماع القديم مع دلالة العقل على نفيه ونفي التكييف ، اذ كنه الباري غير معلوم للبشر ، وذكرت في ضمن ذلك الخطأ الذي نقل أنه مذهب السلف وهو اجراء الصفات وأحاديث الصفات على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها اذ الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات ، يحتذى فيه حذوه ويتبع فيه مثاله ، فاذا كان اثبات الذات اثبات وجود لااثبات تكييف : فكذلك اثبات الصفات اثبات وجود لا اثبات تكييف •

وقال أحد كبار المخالفين : فحينئذ يجوز أن يقال هو جسم لا كالاجسام ، فقلت له أنا وبعض الفضلاء الحاضرين : إنما قيل أنه يوصف الله بما وصف به نفسه وبمـا وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم وليس في الكتاب والسنة أن الله جسم حتى يلزم هذا السؤال •

وأخذ بعض القضاة المعروفين بالديانة يريد اظهار أن ينفي عنا مايقول وينسبه البعض الينا فجعل يريد المبالغة في نفي التشبيه والتجسيم ، فقلت ذكرت فيها في غـير موضع من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل •

وقلت في صدرها : ومن الايمان بالله الايمان بما وصف به نفسه في كتابه ، وبما به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل •

ثم قلت : وما وصف الرسول به ربه من الاحاديث الصحاح التي تلقاها أهـل

المعرفة بالقبول وجب الايمان بها كذلك ، الى أن قلت : الى أمثال هذه الاحاديث التي يخبر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أخبر به ، فان الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك ، كما يؤمنون بما أخبر الله في كتابه ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل هم وسط في فرق الامة ، كما أن الامة هي الوسط في الامم ، فهم وسط في باب صفات الله بين أهل التعطيل الجهمية وبين أهل التمثيل المشبهة .

ولما رأى هذا الحاكم العدل ممالأتهم وتعصبهم ورأي قلة العارف الناصر وخافهم قال : أنت صنفت اعتقاد الامام أحمد ، فتقول هذا اعتقاد أحمد ؟ يعني والرجل يصنف على مذهبه فلا يعترض عليه ، فان هذا مذهب متبوع ، وغرضه بذلك قطع مخاصمة الخصوم ، فقلت : ماجمعت الا عقيدة السلف الصالح جميعهم ، ليس للامام أحمد اختصاص بهذا ، والامام أحمد انما هو مبلغ العلم الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو قال أحمد من تلقاء نفسه مالم يجيء به الرسول لم نقبله ، وهذه عقيدة سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقلت مرات : قد أمهلت كل من خالفني في شيء منها ثلاث سنين ، فان جاء بحرف واحد عن أحد من القرون الثلاثة التي أثنى عليها النبي صلى الله عليه وسلم ــ حيث قال (خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم) ــ يخالف ماذكرناه فأنا أرجع عن ذلك ، وعليَّ أن آتي بنقول جميع الطوائف عن القرون الثلاثة يوافق ماذكرناه ، من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية والاشعرية وأهل الحديث والصوفية وغيرهم .

وقلت أيضا في غير هذا المجلس : الامام أحمد رضي الله تعالى عنه لما انتهى اليه من السنة ونصوص رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما انتهى الى غيره ، وابتلي بالمحنة والرد على أهل البدع أكثر من غيره : كان كلامه وعلمه في هذا الباب أكثر من غيره ، فصار اماما في السنة أظهر من غيره ، والا فالامر كما قاله بعض شيوخ المغاربة العلماء الصلحاء ، قال : المذهب لمالك والشافعي ، والظهور لأحمد بن حنبل ، يعني أن الذي كان عليه أحمد عليه جميع أئمة الاسلام ، وان كان لبعضهم من الزيادة أو البيان أو اظهار الحق ودفع الباطل ماليس لبعض .

ولما جاء فيها : وما وصف به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ربه في الاحاديث الصحاح التي تلقاها أهل العلم بالقبول ، ولما جاء حديث أبي سعيد ــ المتفق عليه في

الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم : (يقول الله يوم القيامة ياآدم ، فيقـول لبيك وسعديك ، فينادي بصوت أن الله يأمرك أن تبعث بعثا الى النار) الحديث ـ سألهم الامير هل الحديث صحيح ؟ فقلت : نعم هو في الصحيحين ، ولم يخالف في ذلك أحد ، واحتاج المنازع الى الاقرار به ووافق الجماعة على ذلك •

وطلب الامير الكلام في مسألة الحرف والصوت ، لأن ذلك طلب منه ، فقلت : هذا الذي يحكيه كثير من الناس عن الامام أحمد وأصحابه أن صوت القارئين ومداد المصاحف قديم أزلي ـ كما نقله مجد الدين الخطيب وغيره ـ كذب مفترى ، لم يقل ذلك أحمد ، ولا أحد من علماء المسلمين ، لا من أصحاب أحمد ولا غيرهم ، وأخرجت كراسا قد أحضرته مع العقيدة فيه ألفاظ أحمد مما ذكره الشيخ أبو بكر الخلال في (كتاب السنة) عن الامام أحمد ، وما جمعه صاحبه أبو بكر المروزي من كلام الامام أحمد ، وكلام أئمة زمانه وسائر أصحابه ، فان من قال لفظي بالقرآن مخلـوق فهو جهمي ، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع •

قلت : وهذا هو الذي نقله الاشعري في كتاب المقالات عن أهل السنة وأصحاب الحديث ، وقال : انه يقول به ، قلت : فكيف بمن يقول لفظي قديم ؟ فكيـف بمن يقول صوتي غير مخلوق ؟ فكيف بمن يقول صوتي قديم ؟ ونصوص الامام أحمد : في الفرق بين تكلم الله بصوت وبين صوت العبد ، كما نقله البخاري صاحب الصحيح في كتاب (خلق أفعال العباد) وغيره من أئمة السنة •

وأحضرت جواب مسألة ، كنت سئلت عنها قديما فيمن حلف بالطلاق في مسألة الحرف والصوت ، ومسألة الظاهر في العرش ، فذكرت من الجواب القديم في هـذه المسألة وتفصيل القول فيها وان اطلاق القول أن القرآن هو الحرف والصوت أوليس بحرف ولا صوت كلاهما بدعة حدثت بعد المائة الثالثة ، وقلت : هذا جوابي ، وكانت هذه المسألة قد أرسل بها طائفة من المعـاندين المتجهمة ممن كان بعضهم حاضـرا في المجلس ، فلما وصل اليهم الجواب أسكتهم ، وكانوا قد ظنوا أنه ان أجبت بمـا في ظنهم أن أهل السنة تقوله حصل مقصودهم من الشناعة ، وان أجبت بما يقولونه هم حصل مقصودهم من الموافقة ، فلما أجيبوا بالفرقان الذي عليه أهل السنة وليس هو كما يقولونه هم ولا ماينقلونه عن أهل السنة أو قد يقوله بعض الجهال بهتوا لذلك ، وفيه أن القرآن كله كلام الله حروفه ومعانيه ، ليس القرآن اسما لمجرد الحروف ولا لمجرد المعاني •

وقلت في ضمن الكلام لصدر الدين بن الوكيل ـ لبيان كثرة تناقضه وأنه لايستقر على مقالة واحدة وانما يسعى في الفتن والتفريق بين المسلمين ـ عندي عقيدة للشيخ أبي البيان فيها أن من قال ان حرفا من القرآن مخلوق فقد كفر ، وقد كتبت عليها بخطك أن هذا مذهب الشافعي وأئمة أصحابه ، وأنك تدين الله بها ، فاعترف بذلك ، فأنكر عليه الشيخ كمال الدين بن الزملكاني ذلك ، فقال ابن الوكيل : هذا نص الشافعي وراجعه في ذلك مرارا ، فلما اجتمعنا في المجلس الثاني ذكر لابن الوكيل أن ابن درباس نقل في كتاب الانتصار عن الشافعي مثلمانقلت ، فلما كان في المجلس الثالث أعاد ابن الوكيل الكلام في ذلك ، فقال الشيخ كمال الدين لصدر الدين بن الوكيل : قد قلت في ذلك المجلس للشيخ تقي الدين أنه من قال أن حرفا من القرآن مخلوق فهو كافر ، فأعاده مرارا ، فغضب هنا الشيخ كمال الدين غضبا شديدا ورفع صوته ، وقال : هذا يكفر أصحابنا المتكلمين الاشعرية ، الذين يقولون ان حروف القرآن مخلوقة مثل امام الحرمين وغيره ، وما نصبر على تكفير أصحابنا ، فأنكر ابن الوكيل أنه قال ذلك ، وقال ماقلت ذلك وانما قلت ان من أنكر حرفا من القرآن فقد كفر ، فرد ذلك عليه الحاضرون ، وقالوا ماقلت الا كذا وكذا ، وقالوا ماينبغي لك أن تقول قولا وترجع عنه ، وقال بعضهم ماقال هذا ، فلما حرفوا : قال ماسمعناه قال هذا ، حتى قال نائب السلطان واحد يكذب ، وآخر يشهد ، والشيخ كمال الدين مغضب ، فالتفت الى قاض القضاة نجم الدين الشافعي يستصرخه للانتصار على ابن الوكيل حيث كفر أصحابه ، فقال القاضي نجم الدين : ماسمعت هذا ، فغضب الشيخ كمال الدين وقال كلاما لم أضبط لفظه الا أن معناه أن هذا غضاضة على الشافعي ، وعار عليهم أن أئمتهم يكفرون ولا ينتصر لهم ، ولم أسمع من الشيخ كمال الدين ماقال في حق القاضي نجم الدين ، واستثبت غيري ممن حضر هل سمع منه في حقه شيئا فقالوا لا ، لكن القاضي اعتقد أن التعيير لأجله ولكونه قاضي المذهب ولم ينتصر لأصحابه وأن الشيخ كمال الدين قصده بذلك فغضب قاضي القضاة نجم الدين ، وقال اشهدوا عليّ أني عزلت نفسي ، وأخذ يذكر مايستحق به التقديم والاستحقاق وعفته عن التكلم في أعراض الجماعة ، ويستشهد بنائب السلطان في ذلك ، وقلت له كلاما مضمونه تعظيمه واستحقاقه لدوام المباشرة في هذه الحال ٠

(ولما جاءت مسألة القرآن) ومن الايمان به الايمان بأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ واليه يعود : نازع بعضهم في كونه منه بدأ واليه يعود وطلبوا

تفسير ذلك ، فقلت : أما هذا القول فهو المأثور الثابت عن السلف ، مثل مانقله عمرو بن دينار ، قال : أدركت الناس منذ سبعين سنة يقولون : الله الخالق وماسواه مخلوق إلا القرآن فانه كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ واليه يعود ، وقد جمع غير واحد مافي ذلك من الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، كالحافظ أبي الفضل بن ناصر ، والحافظ أبي عبد الله المقدسي ، وأما معناه : فان قولهم منه بدأ أي هو المتكلم به وهو الذي أنزله من لدنه ، ليس هو كما تقوله الجهمية أنه خلق في الهواء أو غيره وبدا من عند غيره ، وأما اليه يعود فانه يسري به في آخر الزمان من المصاحف والصدور ، فلا يبقى في الصدور منه كلمة ، ولا في المصاحف منه حرف ، ووافق على ذلك غالب الحاضرين وسكت المنازعون .

وخاطبت بعضهم في غير هذا المجلس بأنأريته العقيدة التيجمعها الامام القادري وفيها أنه كلام الله خرج منه ، فتوقف في هذا اللفظ ، فقلت : هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم (ماتقرب العباد الى الله بمثل ماخرج منه) يعني القرآن ، وقال خباب بن الارت : ياهذا تقرب الى الله بما استطعت ، فلن يتقرب اليه بشيء أحب اليه مما خرج منه ، وقال أبو بكر الصديق لما قرأ قرآن مسيلمة الكذاب : ان هذا الكلام لم يخرج من إل يعنى رب .

وجاء فيها : ومن الايمان به الايمان بأن القرآن كلام الله ، منزل غير مخلوق، منه بدأ واليه يعود ، وأن الله تكلم به حقيقة ، وأن هذا القرآن الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره ، ولا يجوز اطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة ، بل اذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله ، فان الكلام انما يضاف حقيقة الى من قاله مبتديا لا الى من قاله مبلغا موديا فتمعض بعضهم من اثبات كونه كلام الله حقيقة بعد تسليمه أن الله تعالى تكلم به حقيقة ، ثم انه سلم ذلك لما بين له أن المجاز يصح نفيه وهذا لايصح نفيه ، ولما بين له أن أقوال المتقدمين المأثورة عنهم وشعر الشعراء المضاف اليهم هو كلامهم حقيقة فلا يكون شبه القرآن بأقل من ذلك ، فوافق الجماعة كلهم على ماذكر في مسألة القرآن ، وأن الله متكلم حقيقة ، وأن القرآن كلام الله حقيقة لا كلام غيره .

ولما ذكر فيها أن الكلام انما يضاف حقيقة الى منقاله مبتديا لا الىمن قاله مبلغا مؤديا : استحسنوا هذا الكلام وعظموه ، وأخذأكبر الخصوم يظهرتعظيم هذا الكلام

كابن الوكيل وغيره ، وأظهر الفرح بهذا التلخيص ، وقال : انك قد أزلت عنا هـذه الشبهة ، وشفيت الصدور ، ويذكر شيئا من هذا النمط .

ولما جاء ماذكر من الايمان باليوم الآخـر وتفصيله ونظمه استحسنـوا ذلك وعظموه ، وكذلك لما جاء ذكر الايمان بالقدر وأنه على درجتين ، الى غير ذلـك من القواعد الجليلة ، وكذا لما جاء ذكر الكلام في الفاسق الملي وفي الايمان ، لكن اعترضه على ذلك بما سأذكره ، وكان مااعترض به المنازعون المعاندون بعـد انقضـاء قراءة جميعها والبحث فيها عن أربعة أسئلة .

(الاول) قولنا ومن أصول الفرقة الناجية أن الايمان والدين قول وعمل ، يزيد وينقص ، قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح ، قالوا : اذا قيل إن هذا من أصول الفرقة الناجية خرج عن الفرقة الناجية من لم يقل ذلك ، مثل أصحابنا المتكلمين ، الذين يقولون أن الايمان هو التصديق ، ومن يقول الايمان هو التصديق والاقرار ، واذا لم يكونوا من الناجين لزم أن يكونوا هالكين .

(وأما الاسئلة الثلاثة) وهي التي كانت عمدتهم فأوردوها على قولنا :وقددخل فيما ذكرناه من الايمان بالله الايمان بما أخبر الله في كتابه ، وتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأجمع عليه سلف الامة ، من أنه سبحانه فوق سمـواته على عرشه عليّ على خلقه ، وهو معهم أينما كانوا ، يعلم ماهم عاملون ، كما جمع بين ذلك في قوله تعالى : (هُوالَّذي خَلقَ السموات والأَرضَ في سِتَّة أيام ثُمَّ استوى على العَرْش يعلمُ ما يَلِجُ في الأَرضِ وما يَخرُجُ منها وما يَنْزِلُ من السَّماء وما يَعرُجُ فيها وهو مَعكُم أينما كُنْتم واللهُ بما تعْمَلونَ بصيرٌ)[1] وليس معنى قوله : (وهو معكم) أنه مختلط بالخلق ، فان هذا لا توجبه اللغة ، وهو خلاف ماأجمـع عليه سلف الامة ، وخلاف مافطر الله عليه الخلق ، بل القمر آية من آيات اللـه من أصغر مخلوقاته وهو موضوع في السماء وهو مع المسافر أينما كان وغير المسـافر ، وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلع اليهم ، الى غير ذلك من معاني ربوبيته ، وكل هذا الكلام الذي ذكره الله تعالى من أنه فوق العرش وأنه معنا حق على حقيقته لايحتاج الى تحريف ، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة .

---

(١) الحديد : ٤

(السؤال الثاني) قال بعضهم نقربا للفظ الوارد ، مثل حديث العباس حديث الاوعال والله فوق العرش ، ولا نقول فوق السموات ، ولا نقول على العرش استوى ، ولا نقول مستو ، وأعادوا هذا المعنى مرارا أن اللفظ الذي ورد يقال اللفظ بعينه ، ولا يبدل بلفظ يرادفه ، ولا يفهم له معنى أصلا ، ولا يقال أنه يدل على صفة لله أصلا ، ويبسط الكلام في هذا في المجلس الثاني كما سنذكره ان شاء الله تعالى .

(السؤال الثالث) قالوا التشبيه بالقمر فيه تشبيه كون الله في السماء بكون القمر في السماء .

(السؤال الرابع) قالوا قولك حق على حقيقته : الحقيقة هي المعنى اللغوي ، ولا نفهم من الحقيقة اللغوية الا استواء الاجسام وفوقيتها ، ولم تضع العرب ذلك إلا لها ، فاثبات الحقيقة هو محض التجسيم ، ونفي التجسيم مع هذا تناقض ومصانعة .

فأجبتهم عن الاسئلة بأن قولي اعتقاد الفرقة الناجية : هي الفرقة التي وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بالنجاة ، حيث قال : (تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة ، وهي من كان على مثل ماأنا عليه اليوم وأصحابي) فهذا الاعتقاد هو المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم ، وهم ومن اتبعهم الفرقة الناجية ، فانه قد ثبت عن غير واحد من الصحابة أنه قال الايمان يزيد وينقص ، وكل ماذكرته في ذلك فانه مأثور عن الصحابة بالاسانيد الثابتة لفظه ومعناه ، واذا خالفهم من بعدهم لم يضر في ذلك .

ثم قلت لهم : وليس كل من خالف في شيء من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكا ، فان المنازع قد يكون مجتهدا مخطئا يغفر الله خطأه ، وقد لايكون بلغه في ذلك من العلم ماتقوم به عليه الحجة ، وقد تكون له من الحسنات مايمحو الله به سيئاته ، واذا كانت ألفاظ الوعيد المتناولة له لايجب أن يدخل فيها المتأول والقانت وذو الحسنات الماحية والمغفور له وغير ذلك فهذا أولى ، بل موجب هذا الكلام أن من اعتقد ذلك نجا في هذا الاعتقاد ، ومن اعتقد ضده فقد يكون ناجيا ، وقد لايكون ناجيا ، كما يقال من صمت نجا .

(وأما السؤال الثاني) فأجبتهم أولا بأن كل لفظ قلته فهو مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم ، مثل لفظ فوق السموات ، ولفظ على العرش ، وفوق العرش

وقلت : اكتبوا الجواب ، فأخذ الكاتب في كتابته ، ثم قال بعض الجماعة قد طال المجلس اليوم فيؤخر هذا الى مجلس آخر ، وتكتبون أنتم الجواب وتحضرونه في ذلك المجلس ،فأشار بعض الموافقين بأن يتمم الكلام بكتابة الجواب ،لئلا تنتشر أسئلتهم واعتراضهم ، وكان الخصوم لهم غرض في تأخير كتابة الجواب ، ليستعدوا لانفسهم ويطالعوا ويحضروا من غاب من أصحابهم ، ويتأملوا العقيدة فيما بينهم ، ليتمكنوا من الطعن والاعتراض ، فحصل الاتفاق أن يكون تمام الكلام يوم الجمعة ، وقمنا على ذلك ، وقد أظهر الله من قيام الحجة وبيان المحجة ماأعز به السنة والجماعة ، وأرغم به أهل البدعة والضلالة •

وفي نفوس كثير من الناس أمور لم تحدث في المجلس الثاني ، وأخذوا في تلك الايام يتأملونها ويتأملون ماأجبت به في مسائل تتعلق بالاعتقاد مثل (المسألة الحموية في الاستواء والصفات الخبرية) وغيرها •

قال عليه الرحمة (فصل) فلما كان المجلس الثاني يوم الجمعة في اثني عشر رجب وقد أحضروا أكثر شيوخهم ممن لم يكن حاضرا ذلك المجلس ، وأحضروا معهم زيادة صفي الدين الهندي ، وقالوا هذا أفضل الجماعة وشيخهم في علم الكلام ، وبحثوا فيما بينهم ، واتفقوا وتواطئوا وحضروا بقوة واستعداد للمخاطب الذي هو المسئول والمجيب والمناظر ، فلما اجتمعنا ــ وقد أحضرت ماكتبته من الجواب عن أسئلتهم المتقدمة التي طلبوا تأخيره الى اليوم ــ حمدت الله بخطبة الحاجة خطبة ابن مسعود رضي الله عنه ، ثم قلت : ان الله تعالى أمرنا بالجماعة والائتلاف ، ونهانا عن الفرقة والاختلاف ، وقال لنا في القرآن : (واعتصِموا بِحبْلِ اللهِ جَميعاً ولا تفرَّقوا)[1] وقال : (انَّ الَّذين فرَّقوا دينَهم وكانوا شِيعاً لستَ مِنهم في شَيء) [2] وقال : (ولا تكُونوا كالَّذين تفرَّقوا واختلفوا من بعْد ما جاءتهمُ البيِّناتُ) [3] وربنا واحد ، وكتابنا واحد ، ونبينا واحد ، وأصول الدين لاتحتمل التفرق والاختلاف ، وأنا أقول مايوجب الجماعة بين المسلمين وهو متفق عليه بين السلف ، فان وافق الجماعة فالحمد لله ، والا فمن خالفني بعد ذلك كشفت الاسرار ، وهتكت الاستار ، وبينت المذاهب الفاسدة التي أفسدت الملل والدول ، وأنا أذهب الى سلطان الوقت على البريد ، وأعرفه من الامور مالا أقوله في هذا المجلس ، فان للسلم

---

(١) آل عمران : ١٠٣ (٢) الانعام : ١٥٩ (٣) آل عمران : ١٠٥

كلاما ، وللحرب كلاما ، وقلت : لاشك أن الناس يتنازعون : يقول هذا أنا حنبلي ، ويقول هذا أنا أشعري ، ويجري بينهم تفرق وفتن واختلاف على أمور لايعرفون حقيقتها ، وأنا قد أحضرت مايبين اتفاق المذاهب فيما ذكرته ، وأحضرت كتاب (تبيين كذب المفتري فيما ينسب الى الشيخ أبي الحسن الاشعري) رضي الله عنه ، تأليف الحافظ أبي القاسم ابن عساكر رحمه الله ، وقلت : لم يصنف في أخبار الاشعري المحمودة كتاب مثل هذا ، وقد ذكر فيه لفظه الذي ذكره في كتابه (الابانة) .

فلما انتهيت الى ذكر المعتزلة سأل الامير عن معنى المعتزلة ، فقلت : كان الناس في قديم الزمان قد اختلفوا في الفاسق الملي — وهو من أول اختلاف حدث في الملة — هل هو كافر أو مؤمن ، فقالت الخوارج انه كافر ، وقالت الجماعة انه مؤمن ، وقالت طائفة تقول هو فاسق لا مؤمن ولا كافر ، ننزله منزلة بين المنزلتين ، وخلدوه في النار ، واعتزلوا حلقة الحسن البصري وأصحابه رحمه الله تعالى فسموا معتزلة .

وقال الشيخ الكبير بجبته وردائه : ليس كما قلت ، ولكن أول مسألة اختلف فيها المسلمون مسألة الكلام ، وسمي المتكلمون متكلمين لأجل تكلمهم في ذلك ، وكان أول من قالها عمرو بن عبيد ، ثم خلف بعد موته عطاء بن واصل .

هكذا قال ، وذكر نحوا من هذا .

فغضبت عليه ، وقلت : أخطأت ، وهذا كذب مخالف للاجماع ، وقلت له : لا أدب ولا فضيلة ، لا تأدبت معي في الخطاب ، ولا أصبت في الجواب .

قلت : الناس اختلفوا في مسألة الكلام في خلافة المأمون ، وبعدها في أواخر المائة الثانية ، وأما المعتزلة فقد كانوا قبل ذلك بكثير من زمن عمرو بن عبيد بعد موت الحسن البصري في أوائل المائة الثانية ، ولم يكن أولئك قد تكلموا في مسألة الكلام ولا تنازعوا فيها ، وانما أول بدعتهم تكلمهم في مسائل الاسماء والاحكام والوعيد ، فقال : هذا ذكره الشهر ستاني في كتاب (الملل والنحل) فقلت الشهر ستاني ذكره في اسم المتكلمين لم سموا متكلمين ، لم يذكره في اسم المعتزلة ، والامير انما سأل عن اسم المعتزلة ، وأنكر الحاضرون عليه وقالوا غلطت ، وقلت في ضمن كلام أنا أعلم كل بدعة حدثت في الاسلام وأول من ابتدعها وما كان سبب ابتداعها ، وأيضا فما ذكره الشهرستاني ليس بصحيح في اسم المتكلمين ، فان المتكلمين كانوا يسمون بهذا الاسم قبل منازعتهم في مسألة الكلام ، وكانوا يقولون عن واصل بن عطاء إنه متكلم ويصفونه بالكلام ، ولم يكن الناس اختلفوا في مسألة الكلام ، وقلت أنا وغيري انما هو واصل بن عطاء أي لاعطاء بن واصل كما ذكره المعترض ، قلت : وواصل لم يكن

بعد موت عمرو بن عبيد وانما كان قرينه ، وقد روي أن واصلا تكلم مرة بكـــلام فقال عمرو بن عبيد لو بعث نبيا ماكان يتكلم بأحسن من هذا ، وفصاحته مشهـورة حتى قيل انه كان الثغ وكان يحترز عن الراء ، حتى قيل له أمر الامير أن يحفـر بئر فقال أوعز القائد أن يقلب قليب •

ولما انتهى الكلام الى ماقاله الاشعري قال الشيخ المقدم فيهم : لاريب أن الامام أحمد إمام عظيم القدر من أكبر أئمة الاسلام لكن قد انتسب اليــه أناس ابتــدعوا أشياء ، فقلت : أما هذا فحق ، وليس هذا من خصائص أحمد ، بل ما من امام الا وقد انتسب اليه أقوام هو منهم بريء ، قــد انتسب الى مالك أناس مالــك بريء منهم ، وانتسب الى الشافعي أناس هو بريء منهم ، وانتسب الى أبي حنيفة أناس هو بريء منهم ، وقد انتسب الى موسى عليه السلام أناس هو منهم بريء ، وانتسب الى عيسى عليه السلام أناس هو منهم بريء ، وقد انتسب الى علي بن أبي طالب أناس هو بريء منهم ، ونبينا صلى الله عليه وسلم قد انتسب اليه من القرامطة والباطنية وغيرهم من أصناف الملحدة والمنافقين من هو بريء منهم •

وذكر في كلامه أنه انتسب الى أحمد من الحشـــوية والمشبهة ونحو هـــذا الكلام •

فقلت : المشبهة والمجسمة في غير أصحاب الامام أحمد أكثر منهم فيهم ، هؤلاء أصناف : الاكراد كلهم شافعية وفيهم من التشبيه والتجسيم مالا يوجد في صنف آخر وأهل جيلان فيهم شافعية وحنبلية ، قلت : وأما الحنبلية المحضة فليس فيهم من ذلك مافي غيرهم ، وكان من تمام الجواب أن الكرامية المجسمة كلهم حنفية •

وتكلمت على لفظ الحشوية ــ ماأدري جوابا عن سؤال الامير أو غيره أو غير جواب ــ فقلت هذا اللفظ أول من ابتدعه المعتزلة ، فانهم يسمون الجماعة والسواد الاعظم الحشو ، كما تسميهم الرافضة الجمهور ، وحشو الناس هم عموم النـــاس وجمهورهم ، وهم غير الاعيان المتميزين ، يقولون هذا من حشو الناس ، كما يقــال هذا من جمهورهم ، وأول من تكلم بهذا عمرو بن عبيد ، قال : وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه حشويا ، فالمعتزلة سموا الجماعة حشوا كما تسميهم الرافضة الجمهور •

وقلت ــ لاأدري في المجلس الاول أو الثاني ــ أول من قال ان الله جسم هشام بن الحكم الرافضي •

وقلت لهذا الشيخ : من في أصحاب الامام أحمد رحمه الله حشوي بالمعنى الذي تريده ؟ الاثرم ، أبو داود ، المروزي ، الخلال ، أبو بكر عبد العزيز ، أبو الحسن التميمي ، ابن حامد ، القاضي أبو يعلى ، أبو الخطاب ، ابن عقيل ؟ ورفعت صوتي ، وقلت سمهم ، قل لي من هم ؟ من هم ؟ أبكذب ابن الخطيب وافترائه على الناس في مذاهبهم تبطل الشريعة وتندرس معالم الدين ؟ كما نقل هو وغيره عنهم أنهم يقولون ان القرآن القديم هو أصوات القارئين ومداد الكاتبين وان الصوت والمداد قديم أزلي من قال هذا ؟ وفي أيّ كتاب وجد هذا عنهم قل لي ؟ وكما نقل عنهم أن الله لايرى في الآخرة باللزوم الذي ادعاه والمقدمة التي نقلها ، وأخذت أذكر مايستحقه هذا الشيخ من أنه كبير الجماعة وشيخهم وأن فيه من العقل والدين مايستحق أن يعامل بموجبه .

وأمرت بقراءة العقيدة جميعها عليه ، فانه لم يكن حاضرا في المجلس الاول ، وانما أحضروه في الثاني انتصارا ، وحدثني الثقة عنه بعد خروجه من المجلس أنه اجتمع به وقال له : أخبرني عن هذا المجلس ؟ فقال : مالفلان ذنب ولا لي ، فان الامير سأل عن شيء فأجابه عنه فظننته سأل عن شيء آخر وقال : قلت أنتم مالكم على الرجل اعتراض ، فانه نصر ترك التأويل وأنتم تنصرون قول التأويل ، وهما قولان للاشعري وقال : أنا أختار قول ترك التأويل ، وأخرج وصيته التي أوصى بها وفيها قولي ترك التأويل .

قال الحاكي لي : فقلت له بلغني عنك أنك قلت في آخر المجلس لما أشهد الجماعة على أنفسهم بالموافقة لاتكتبوا عني نفيا ولا اثباتا فلم ذاك ؟ فقال : لوجهين : (أحدهما) أني لم أحضر قراءة جميع العقيدة في المجلس الاول ، (والثاني) لأن أصحابي طلبوني لينتصروا بي فما كان يليق أن أظهر مخالفتهم فسكت عن الطائفتين .

وأمرت غير مرة أن يعاد قراءة العقيدة جميعها على هذا الشيخ ، فرأى بعض جماعة أن ذلك تطويل ، وأنه لايقرأ عليه الا الموضع الذي لهم عليه سؤال ، وأعظموه لفظ الحقيقة ، فقرأوه عليه ، فذكر هو بحثا حسنا يتعلق بدلالة اللفظ ، فحسنته ومدحته عليه ، وقلت : لاريب أن الله حي حقيقة ، عليم حقيقة ، سميع حقيقة ، بصير حقيقة ، وهذا متفق عليه بين أهل السنة والصفاتية من جميع الطوائف ، ولو نازع بعض أهل البدع في بعض ذلك فلا ريب أن الله موجود والمخلوق موجود ، ولفظ الوجود سواء كان مقولا عليهما بطريق الاشتراك اللفظي ، أو بطريق

التواطؤ المتضمن للاشتراك لفظا ومعنى ، أو بالتشكيك الذي هو نوع من التواطؤ ، فعلى كل قول فالله موجود حقيقة ، والمخلوق موجود حقيقة ، ولا يلزم من اطلاق الاسم على الخالق والمخلوق بطريق الحقيقة محذور ، ولم أر أرجح في ذلك المقام قولا من هذه الثلاثة على الآخر ، لأن غرضي تحصل على كل مقصودي ، وكان مقصودي تقرير ماذكرته على قول جميع الطوائف ، وأن أبين اتفاق السلف ومن تبعهم على ماذكرت ، وأن أعيان المذاهب الاربعة والاشعري وأكابر أصحابه على ماذكرته ، فانه قبل المجلس الثاني اجتمع بي من أكابر علماء الشافعية والمنتسبين الى الاشعرية والحنفية وغيرهم من عظم خوفهم من هذ المجلس ، وخافوا انتصار الخصوم فيه وخافوا على نفوسهم أيضا من تفرق الكلمة ، فلو أظهرت الحجة التي ينتصر بها ماذكرته ، ولم يكن من أئمة أصحابهم من يوافقها صارت فرقة وتعصب عليهم أن يظهروا في المجالس العامة الخروج عن أقوال طوائفهم بما في ذلك من تمكن أعداؤهم من اعتراضهم ، فاذا كان من أئمة مذهبهم من يقول ذلك وقامت عليه الحجة وبان أنه مذهب السلف أمكنهم اظهار القول به مايعتقدونه في الباطن من أنه الحق ، حتى قال بعض الاكابر من الحنفية ـ وقد اجتمع بي ـ لو قلت هذا مذهب أحمد وتثبت ذلك لانقطع النزاع ، ومقصوده أنه يحصل دفع الخصوم عنك بأنه مذهب متبوع ويستريح المنتصر والمنازع من اظهار الموافقة ، فقلت : لا والله ليس لاحمد بن حنبل في هذا اختصاص ، وانما هذا اعتقاد سلف الامة وأئمة أهل الحديث ، وقلت أيضا هذا اعتقاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل لفظ ذكرته فانا أذكر به آية أو حديثا أو اجماعا سلفيا ، وأذكر من ينقل الاجماع عن السلف من جميع طوائف المسلمين والفقهاء الاربعة والمتكلمين وأهل الحديث والصوفية ، وقلت لمن خاطبني من أكابر الشافعية لاتبين أن ماذكرته هو قول السلف وقول أئمة أصحاب الشافعي وأذكر قول الاشعري وأئمة أصحابه التي ترد على هؤلاء الخصوم ، ولينتصرن كل شافعي وكل من قال بقول الاشعري الموافق لمذهب السلف ، وأبين أن القول المحكي عنه في تأويل الصفات الخبرية قول لا أصل له في كلامه ، وانما هو قول طائفة من أصحابه ، فللاشعرية قولان ليس للاشعري قولان •

فلما ذكرت في المجلس أن جميع أسماء الله التي سمي بها المخلوق كلفظ الوجود الذي هو مقول بالحقيقة على الواجب والممكن على الاقوال الثلاثة : تنازع كبيران هل هو مقول بالاشتراك أو بالتواطؤ ؟ فقال أحدهما هو متواطيء ، وقال الآخر هو

مشترك لتلازم التركيب ، وقال هذا قد ذكر فخر الدين أن هذا النزاع مبني على أن وجوده هل هو عين ماهيته أم لا ؟ فمن قال وجود كل شيء عين ماهيته قال انه مقول بالاشتراك ، ومن قال ان وجوده قدر زائد على ماهيته قال انه مقول بالتواطؤ ، فأخذ الاول يرجح قول من يقول ان الوجود زائد على الماهية لينصر أنه مقول بالتواطؤ ، فقال الثاني مذهب الاشعري وأهل السنة أن وجوده عين ماهيته ، فانكر الاول ذلك فقلت : أما متكلموا أهل السنة فعندهم أن وجود كل شيء عين ماهيته ، وأما القول الآخر فهو قول المعتزلة ان وجود كل شيء قدر زائد على ماهيته ، وكل منهما أصاب من وجه ، فان الصواب أن هذه الاسماء مقولة بالتواطؤ كما قد قررته في غير هذا الموضع ، وأجبت عن شبهة التركيب بالجوابين المعروفين ، وأما بناء ذلك على كون وجود الشيء عين ماهيته أو ليس عينه فهو من اللغط المضاف الى ابن الخطيب ، فأنا وان قلنا ان وجود الشيء عين ماهيته لايجب أن يكون الاسم مقولا عليه وعلى نظيره بالاشتراك اللفظي فقط ، كما في جميع أسماء الاجناس ، فان اسم السواد مقول على هذا السواد وهذا السواد بالتواطؤ ، وليس هذا السواد عين هذا السواد ، اذ الاسم دال على القدر المشترك بينهما وهو المطلق الكلي ، لكنه لايوجد مطلقا بشرط الاطلاق الا في الذهن ، ولا يلزم من ذلك نفي القدر المشترك بين الاعيان الموجودة في الخارج ، فانه على ذلك تنتفي الاسماء المتواطئة وهي جمهور الاسماء في الغالب ، وهي أسماء الاجناس اللغوية ، وهو الاسم المطلق على الشيء وعلى كل ماأشبهه ، سواء كان اسم عين أو اسم صفة ، جامدا أو مشتقا ، وسواء كان جنسا منطقيا أو فقهيا أو لم يكن ، بل اسم الجنس في اللغة يدخل فيه الاجناس والاصناف والانواع ونحو ذلك ، وكلها أسماء متواطئة وأعيان مسمياتها في الخارج متميزة .

وطلب بعضهم اعادة قراءة الاحاديث المذكورة في العقيدة ليطعن في بعضها فعرفت مقصوده ، فقلت : كأنك قد استعددت للطعن في حديث الاوعال حديث العباس ابن عبد المطلب – وكانوا قد تعبوا حتى ظفروا بما تكلم به زكي الدين عبد العظيم من قول البخاري في تاريخه : عبد الله بن عمرة لايعرف له سماع من الاحنف – فقلت: هذا الحديث – مع أنه رواه أهل السنن كأبي داود وابن ماجه والترمذي وغيرهم فهو – مروي من طريقين مشهورين ، فالقدح في أحدهما لايقدح في الآخر ، فقال : أليس مداره على ابن عمرة وقد قال البخاري لايعرف له سماع من الاحنف ؟ فقلت : قد رواه امام الأئمة ابن خزيمة في (كتاب التوحيد) الذي اشترط فيه أنه لايحتج فيه الا بما

نقله العدل عن العدل موصولا الى النبي صلى الله عليه وسلم ، قلت والاثبات مقدم على النفي ، والبخاري انما نفى معرفة سماعه من الاحنف لم ينف معرفة الناس بهذا ، فاذا عرف غيره ماثبت به الاسناد كانت معرفته واثباته مقدما على نفي غيره وعدم معرفته ، ووافق الجماعة على ذلك ، وأخذ بعض الجماعة يذكر من المدح مالا يليق أن أحكيه ، وأخذوا يناظرون في أشياء لم تكن في العقيدة ، ولكن انما تعلقوا بما أجبت به في مسائل وله تعلق بما قد يفهمونه من العقيدة •

فأحضر بعض أكابرهم (كتاب الاسماء والصفات) للبيهقي رحمه الله تعالى ، فقال : هذا فيه تأويل الوجه عن السلف ، فقلت : لعلك تعني قوله تعالى : (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله)[1] فقال : نعم قد قال مجاهد والشافعي يعني قبلة الله ، فقلت : نعم هذا صحيح عن مجاهد والشافعي وغيرهما وهذا حق ، وليست هذه آية من آيات الصفات ، ومن عدها في الصفات فقد غلط كما فعل طائفة ، فان سياق الكلام يدل على المراد حيث قال : (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) والمشرق والمغرب الجهات ، والوجه هو الجهة ، يقال أي وجه تريد أي أيّ جهة ، وأنا أريدهذا الوجه أي هذه الجهة ، كما قال تعالى : (ولكلّ وجهة هو مولّيها) ولهذا قال : (فأينما تولّوا فثمّ وجه الله) أي تستقبلوا وتتوجهوا انتهى •

هذا ماوجدناه منقولا عمن نقل من خط المصنف شيخ الاسلام تقي الدين قدس الله روحه ، وغرضنا من نقله أن يتبين للناظر في هذا الكتاب أن من ينقل عنهم الغبي النبهاني من مطاعن الشيخ كصدر الدين ابن الوكيل وابن الزملكاني وصفي الدين الهندي والعز بن جماعة والسبكي ونحوهم من غلاة الشافعية كلهم كانوا خصوما ألداء للشيخ فلا يلتفت الى قدحهم وجرحهم ، والشيخ قد كابد منهم ماكابد ، وهؤلاء وأضرابهم الذين شيدوا أركان البدع ، ونفثوا سم ضلالهم في أفواه متبعيهم قاتلهم الله أجمعين ، على أن ماذكر في هذه المناظرة تنفع في مباحث كثيرة تأتي ان شاء الله ، وبها يرتدع الخصم الألد •

قال النبهاني : ومنهم الامام أبو حيان وكان صديقا له ، فلما اطلع على بدعه رفضه رفضا بتا وحذر الناس منه •

---

(1) البقرة : ١١٧

(أقول) نعم ، كان الشيخ أبو حيان من المثنين على ابن تيمية بالثناء الحسن الجميل، وله شعر جيد في مدحه نذكره في مناقبه المنقولة عن الشيخ مرعي الحنبلي ، وما ذكره من الرفض لم نعلمه ممن يوثق به ، نعم ذكر الامام الذهبي أنه بعد أن مدحه دار بينهما كلام فجري ذكر سيبويه فأغلظ الشيخ ابن تيمية القول في سيبويه ، فناظره أبو حيان بسببه ، ثم عاد ذاما له ، وصير ذلك ذنبا لايغفر ، ويقال أن ابن تيمية قال له ماكان سيبويه نبي النحو ولا معصوما بل أخطأ في الكتاب في ثمانين موضعا ماتفهمها أنت ، فكان ذلك سبب مقاطعته اياه ، وذكره في تفسيره البحر بكل سوء ، وكذا في مختصره النهر انتهى ، فمن الممكن أن يقع بين العلماء مثل ذلك ، ولكن من المعلوم أن طعن أبي حيان انما كان بعد تخطئة ابن تيمية له والحط على سيبويه ، وما ذكره النبهاني الجاهل أن رفضه كان بعد أن اطلع على بدعه قول ساقط ، والسبب الذي كان من أجله المنافرة قد ذكره أهل العلم ، وأي بدعة تنسب للشيخ تقي الدين حتى يهجره بسببها أبو حيان النحوي ؟ وما ذهب اليه من الاختيارات كلها مبرهنة بالكتاب والسنة ، كما في كتاب (الاختيارات) ولكن النبهاني الجاهل الغافل ظن ذلك هيعة قطار اليها [1] ثم ان من مدح وذم فقد كذب مرتين ، على أن قدح المعاصر معلوم حاله ، والرجل ليس من أهل الجرح والتعديل حتى يعول عليه •

(قال النبهاني) ومنهم الامام عز الدين بن جماعة رد عليه وشنع عليه كثيرا •

(جوابه) أن العز هذا كان من أعظم خصوم الشيخ وحسدته ، وكانت أقواله في الشيخ تقي الدين وبهتانه عليه من أنكى سلاح ابن حجر المكي في الطعن على أهل التوحيد وأعداء الغلاة ، وقد عقد ابن السبكي ترجمة له في طبقاته فلا تتعب القلم بها •

(قال النبهاني) ومنهم الامام كمال الدين الزملكاني الشافعي المتوفي سنة سبع وعشرين وسبعمائة ، ثم نقل ترجمته عن تاريخ ابن الوردي والثناء عليه ، ثم نقل عن كتاب كشف الظنون كتاب الدرة المضية في الرد على ابن تيمية ، قال : وقد ناظره في مسائله التي شذ بها عن المذاهب الاربعة ، ثم قال : ومن أشنعها مسألة منعه شد الرحل وإعمال المطي لزيارة القبور ، ومنعه الاستغاثة بغير الله ، ثم أورد له أبياتا التجأ فيها بغير الله ، إلى آخر ماقال •

(جوابه) أن كمال الدين هذا قد سبق ذكره في مجالس المناظرة ، وأنه أحد خصوم الشيخ تقي الدين ، ومثله لايرجى منه أن يثنى عليه ، ومع ذلك فقد أثنى عليه كل الثناء ، وسيأتي بيانه عند الكلام على مناقب الشيخ عليه الرحمه ، ثم ان الرد على

(١) كذا في الاصل

بعض مسائل ابن تيمية لايقتضي الجرح فيه ، فمن المعلوم ماألف من الردود على العلماء والمجتهدين ، هؤلاء الأئمة الاربعة كم ردوا عليهم وكم خالفهم من مخالف ، حتى أن أصحاب الائمة يردون على أئمتهم ، ولم يقل أحد إن كل من يرد عليه كلامه يكون من المبتدعين والسالكين غير سبيل المؤمنين ، كما يزعمه هذا الغبي وأضرابه من غلاة الشافعية •

(قال النبهاني) ومنهم الامام الكبير الشهير تقي الدين السبكي ، ثم نقل عنه عبارته التي في كتاب (شفاء السقام) المشتملة على القدح في شيخ الاسلام ابن تيمية ، ومنها قوله : وحسبك أن انكار ابن تيمية للاستغاثة والتوسل قول لم يقله عالم قبله ، وصار به بين أهل الاسلام مثله ، الى آخر ماقال مما هو على هذا المنوال •

(أقول في الجواب) عن هذا الهذيان والكلام العاري عن الدليل والبرهان : ان السبكي هذا شيخ أعداء ابن تيمية وعميدهم ،وعليه يعتمدالطاعنون شقيهم وسعيدهم والمناظرات التي كانت بين السبكي وبين الشيخ قد ملأت الدفاتر ، ونفذت منها المحابر ، وماهذى به السبكي في حق الشيخ كله قد رد عليه وعاد وباله اليه ، وماكتبه في مسألة الطلاق من الاعتراض قد رد عليه شيخ الاسلام بمجلدات رأى ابن السبكي منها مجلدا ، وشفاء السقام رد عليه الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي ، وبرد السبكي على الشيخ في المسألتين السابقتين لم يزل يفتخر على أهل الحق نظما ونثرا ، ومن نظمه في ذلك ماقاله في أبياته المشهورة :

لو كان حيا يرى قولي ويسمعه ... رددت ماقال ردا غير مشتبه
كما رددت عليه في الطلاق وفي ... ترك الزيارة أقفو اثر سببه
وبعده لا أرى للرد فائدة ... هذا وجوهره مما أضن به
والرد يحسن في حالين واحدة ... لقطع خصم قوي في تغلبه
وحالة لانتفاع الناس حيث به ... هدى وربح لديهم في تكسبه

وما أحسن مارد عليه الامامأبو المظفر الحنبلي معارضا لابياته هذه :

وقلت من بعد هذا قول ذي حسد ... أخطا الهدى وتجارى في تنكبه
(لو كان حيا يرى قولي ويسمعه ... رددت ماقال ردا غير مشتبه)
(كما رددت عليه في الطلاق وفي ... ترك الزيارة أقفو اثر سببه)
فضحت نفسك في هذا المقال ولم ... تشعر وعجت عن المرعى وأخصبه

عرفتنا ان ما قد قلت ليس لوجـــ ... ه الله بل للمرا أقبـــح بمنصبــه

اذ لو أردت بيــان الحــق فهت به ... في محضر الخصـــم اما في مغيبـــه

ماذاك صدك بل خوف الجواب كما ... أجبت قبــل بسهم من مصـــوبه

ذا شــأن من لم يجرد صارما ذكــرا ... ماضي الغـــرارين غضبــا من مجربه

لكن اذا الاسد الضرغام غاب عن الـ ... عرين تسمـــع فيه ضج ثعلبـــه

كذا الجبان خــلا في البر صــاح الا ... مبـــارز وتغـــالى في توثبـــه

ولو سمعت جواب الرد رحت فتـى ... من أعظم الخلــق عن جرم واتوبـه

وقـد كفاني أبــو العباس كلفتـه ... كـذا أرحـت لساني غير متعبـه

ووافقتـه سراة النــاس عن كثب ... من أهـــل مذهبه أو غير مذهبـه

من أهل بغداد والآيات شاهـــدة ... لهم وللحــق مصبـــاح يبين بـه

عبت الذي قال مافيه الخلاف من ايـ ... قــاع الثــلاث ولــو أفتى بأغربه

وقلت تنكــح زوجا غــيره ونكــا ... حها مع الخـــلف باق في تذبذبـه

وكيف تنكـــح من لم تبر عصمتها ... بلا خـــلاف لشخص مع تجنبـه

وفي الزيارة لم تنصــف رددت على ... مالــم يقلـه ولـم تمرر بسبسبـه

ردا ملخصـــه أشيـــاء أذكرها ... أما حديث ضعيـــف عند مطلبـه

أما صحيـــح ولكن لادليـــل بـه ... علـى مرادك بل هــدم لمنصبـــه

اما بمجمل لفظ قول خصمــك من ... أقــوى المقــال به قسـرا وأصوبه

أما بلا علــم لي والجهـــل غايته ... أيعـذر الشخص فيمــا لاأحاط به

فأي رد لعمــري قد رددت ومــا ... ذا قلت اذ قلت أقفــو أثر سبسبـه

ان كان عندك في شد الرحال الى الـ ... قبور نقــل فعارضـــه بموكبـه

ليعرف الحـــق من كان أخا نظـر ... خال عن العلـــم ناء عن تعصبـــه

أني وذلــك كالعنقــاء في عـــدم ... وكالسمنـــدل يحكي مع تغيبـــه

ماأنت الا كمــا قــد قيل في مثــل ... خالــف لتعرف مشهـــور لضرّبه

فشيخنـــا بصريح الحــق حجته ... ونقــد نقلـــك زيف في تقلبـــه

فمن أحق بحق القـــول ان ظهر الـ ... انصاف مرتفعــا من فــوق مرقبه

(وقلــت مابعــده للرد فائـــدة ... هـــذا وجوهـــره ممــا أضن به)

ماذا الكـــلام وما معنـــاه قله لنا ... أمدح أم هجــو أعرب عن معربـه

ما ذلك الجوهر المضنون ويحك هل ... تعني به الشيـــخ أو ردا لمذهبـه

فان يـك ماذا الطعـــن فيه أو الـ جواب عن قـــوله نور بغيهبـــه
(والرد يحسن في حالــين واحــدة لقطع خصـــم قوي في تغلبــه)
(وحالة لانتفـاع النــاس حيث به هدى وربح لديهـم في تكسبــه)
كتم العلوم حرام لايجـــوز لذي علـم يضـن بعلـم عند طلبـــه
والرد في الحالة الاولى مضي هدرا فاستدرك الحال الاخرى قبل مذهبه
فقل ورد ان اسطعت السبيـل اذا وانفع به الناس كـي تحظى بأثوبه
حاشـا وكـلا واني بالسبيـل الى رد الصواب وقد وافى بكبكبـــه
قل كي ترى سننا تستن في سنن الـ هـدى تنكس جهمــا عن توثبه
ورهطـه وتريك الحـــق أظهر من شمس الضحى وهــلالا وسط غيهبه

وقال الامام أبو عبد الله محمــدبن جمال الدين الشافعي رحمه اللهمن جمــلة قصيدته التي عارض السبكي بها :

وما رددت عليــه في الطـــلاق فما حققت نقــلا ولا عقــلا ظفرت بــه
بل فاسد القصد أعمى الذهن منك كما هي عادة الله فيمن شان مذهبه
نـزلت حـول حماه كي تنـازله فما علـوت عليـه بل علـوت به
وقد أجابك فانظر في الجـواب ترى سيفـا تجـول المنايا عند مضـربه
أخذت منه علـوما فانتصرت بهـا على ســواه وكانت من مهـذبه
وحزتهـــا مجملات من مفصـــلة ففصـــل الآن ماأجملت تحظ بــه
وهكـــذا كل من سارت ركائبــه يقفو خطـاه فســائل من مجربه
وان تبجـحت بالردين لست لـــه كفـوا ولا أهل هذا العصر فانتبه
كـم بحـــر علم أتاه عاد ساقيـة وكـم جهـول أتاه صار منتبـــه
وما نـرى لكم في الخلـق فائـدة غـير التنعـم في النعماء من شبــه
أيـن الثـريا مكانا في ترفعهــا من الثرى قـال هذا كل منتبـــه
من ذا يقيس نقي الجلد من درن الـ دنيـا وأمراضهـــا يوما بأجربــه
لو كان عندك أنصـــاف ومكرمة وجود معــرفة أو ذهن منتبـــه
لكنت تقفـو وراه قفو مجتهـــد علمــا ودنيــا وأمرا تفلحن بــه
لو وفق الله أهــل الارض قاطبــة الى الصـواب لساروا خلف مذهبـه
وما نسبتم اليــه عنـــد ذكركـم تـرك الزيـــارة أمر لايقـول به
فقـد أجابكـــم عن ذا بأجوبــة أزال فيها صدى الاشكال والشبــه

وقـد تبـين هذا في مناسكـه — لكـل ذي فطنة في القـول معربه
رميتمـوه ببهتان يشـان بـه — واللـه ينصفـه ممن رمـاه بـه
وفي الجواب أمـور من تدبرهـا — سقى الانـام بها من صفو مشـربه
ولم يكـن مانعـا نفس الزيارة بل — شـد الرحال اليهـا فادر واتتبه
تمسكا بصحيـح النقـل متبعـا — خـير القرون أولى التحقيق والنبه
مـع الأئمـة أهل الحق كلهـم — قالـوا كمـا قال قـول غير مشتبه
وقـد علمت يقينـا حين وافقـه — أهـل العراق على فتيـاه فافت به
هذا وقـد قلت فيما قلت مرتجـلا — فيما تقـدم قولا غـير منجبـه
(لو كان حيا يرى قولي ويسمعـه — رددت ماقـال ردا غير مشتبـه)
فابـرز ورد ترى واللـه أجوبة — مثـل الصواعق تردى من تمـر به
عقـلا ونقـلا وآيـات مفصـلة — من كـل أروع شهم القلب منتبـه
ماضي الجنان كحد السيـف فكرته — يريـك نثرا ونظمـا في تأدبـه
وقـاد ذهـن اذا جالت قريحتـه — يكـاد يخشـى عليـه من تلهبـه
يقابلـون الذي يأتي بمشتبـه — من الكـلام ولا يخشون ذا النبـه
فنـزل القـوم في أعلى منازلهـم — فليس ذو منصب يحمـى بمنصبـه
وانظر الى من طغى في الارض من أمم — ولا تكـن سالكا في أثر سببـه
أن الاله يجـازي كـل ذي عمـل — بمثـل احسـانه أو قبح مكسبـه
هـذا جوابـك ياهـذا موازنـة — بحـرا وقافيـة في النظـم والشبه
والحمـد لله حمدا لانفـاد له — جـار على مرما يقضـي وأطيبـه
ثم الصـلاة على خير الورى شرفا — محمـد المصطفى الهـادى بمذهبه
وآلـه والصحاب الغر كلهـم — ماأشرق الجـو من أنوار كوكبـه

وكلا القصيدتين مشهورتان ، وقد رأيت مالقي السبكي من الويـل والعطب بسبب مجاوزته حده في الجهل والحسد ، وما أحسن ماوصف به الحافظ أبو عبـد الله بن قدامه كتاب (شفاء السقام) وترجم مؤلفه السبكي •

(أما وصف الكتاب) فهو هذا : قال الحافظ أما بعد فاني وقفت على الكتاب الذي ألفه بعض قضاة الشافعية ، في الرد على شيخ الاسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية ، في مسألة شد الرحال وإعمال المطي الى القبور ، وذكر أنه قد سماه شن الغارة على من أنكر سفر الزيارة ، ثم زعم أنه اختار أن يسميه (شفاء السقـام

في زيارة خير الانام) فوجدت كتابه مشتملا على تصحيح الاحاديث الضعيفة والموضوعة ، وتقوية الآثار الواهية والمكذوبة ، وعلى تضعيف الاحاديث الصحيحة الثابتة ، والآثار القوية المقبولة وتحريفها عن مواضعها ، وصرفها عن ظاهرها ، بالتأويلات المستنكرة المردودة •

ثم أخذ يصف المؤلف ويترجم أحواله فقال : ورأيت مؤلف هذا الكتاب المذكور رجلا ممارياً معجباً برأيه ، متبعا لهواه ، ذاهبا في كثير مما يعتقده الى الاقوال الشاذة والآراء الساقطة ، صار في أشياء مما يعتمده الى الشبه المخيلة ، والحجج الداحضة وربما خرق الاجماع في مواضع لم يسبق اليها ، ولم يوافقه أحد من الأئمة عليها ، وهو في الجملة لون غريب وبناء عجيب ، تارة يسلك فيما ينصره ويقويه مسلك المجتهدين فيكون مخطئا في ذلك الاجتهاد ، ومرة يزعم فيما يقوله ويدعيه أنه من جملة المقلدين فيكون من قلده مخطئا في ذلك الاعتقاد ، نسأل الله سبحانه أن يلهمنا رشدنا ويرزقنا الهداية والسداد ، هذا مع أنه ان ذكر حديثا مرفوعا أو أثرا موقوفا — وهو غير ثابت — قبله اذا كان موافقا لهواه ، وان كان ثابتا رده اما بتأويل أو غيره اذا كان مخالفا لهواه ، وان نقل عن بعض الأئمة الاعلام — كمالك وغيره — مايوافق رأيه قبله وان كان مطعونا فيه غير صحيح عنه ، وان كان مما يخالف رأيه رده ولم يقبله وان كان صحيحا ثابتا ، وان حكى شيئا مما يتعلق بالكلام على الحديث وأحوال الرواة عن أحد من أئمة الجرح والتعديل — كالامام أحمد بن حنبل وأبي حاتم الرازي ، وأبي حاتم البستي ، وأبي جعفر العقيلي ، وأبي أحمد بن عدي ، وأبي عبد الله الحاكم صاحب المستدرك ، وأبي بكر البيهقي ، وغيرهم من الحفاظ ، وكان مخالفا لما ذهب اليه — لم يقبل قوله ورده عليه وناقشه فيه ، وان كان ذلك الامام قد أصاب في ذلك القول ووافقه غيره من الائمة عليه ، وان كان موافقا لما صار اليه تلقاه بالقبول واحتج به واعتمد عليه ، وان كان ذلك الامام قد خولف في ذلك ولم يتابعه غيره من الأئمة عليه ، وهذا هو عين الجور والظلم وعدم القيام بالقسط ، نسأل الله التوفيق ونعوذ به من الخذلان واتباع الهوى ، هذا مع أنه حمله اعجابه برأيه وغلبه اتباع هواه على أن نسب سوء الفهم والغلط في النقل الى جماعة من العلماء الاعلام ، المعتمد عليهم في حكاية مذاهب الفقهاء واختلافهم وتحقيق معرفة الاحكام ، حتى زعم أن مانقله الشيخ أبو زكريا النووي في شرح مسلم عن الشيخ أبي محمد الجويني من النهي عن شد الرحال وإعمال المطي الى غير المساجد الثلاثة

كالذهاب الى قبور الانبياء والصالحين والى المواضع الفاضلة ونحو ذلك ـ هو مما غلط فيه على الشيخ أبي محمد ، وأن ذلك وقع منه على سبيل السهو والغفلة ، قال : ولو قاله يعني الشيخ أبا محمد أو غيره ممن يقبل كلامه الغلط لحكمنا بغلطه وأنه لم يفهم مقصود الحديث .

فانظر الى كلام هذا المعترض المتضمن لرد النقل الصحيح بالرأي الفاسد ، واجمع بينه وبين ماحكاه عن شيخ الاسلام من الافتراء العظيم ، والافك المبين ، والكذب الصراح ، وهو مانقله عنه من أنه جعل زيارة قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقبور الانبياء عليهم السلام معصية بالاجماع مقطوعا بها ، هكذا ذكر المعترض عن بعض قضاة الشافعية عن الشيخ أنه قال هذا القول الذي لايشك عاقل من أصحابه وغير أصحابه أنه كذب مفترى ، لم يقله قط ولا يوجد في شيء من كتبه ولا دل كلامه عليه ، بل كتبه كلها ومناسكه وفتاويه وأقواله وأفعاله تشهد ببطلان هذا النقل عنه ، ومن له أدنى علم وبصيرة يقطع بأن هذا مفتعل مختلق على الشيخ ، وأنه لم يقله قط ، وقد قال الله تعالى : (يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنبأ فَتبيَّنوا أنْ تُصيبوا قوْماً بِجهالةٍ فتُصْبِحوا على ما فعَلْتُم نادِمينَ)[1]

وهذا المعترض يعلم أن مانقله هذاالقاضي المشهور ـ بمالاأحب حكايته عنه ـ في هذا المقام عن شيخ الاسلام من هذا الكلام كذب مفترى لا يرتاب في ذلك ، ولكنه يطفف ويداهن ويقول بلسانه ماليس في قلبه ، قال : ولقد أخبرني الثقة أنه ألف هذا الكتاب لما كان بمصر قبل أن يلي القضاء بالشام بمدة كبيرة ، ليتقرب به الى القاضي الذي حكى عنه هذا الكذب ويحظى لديه فخاب أمله ولم ينفق عنده ، وقد كان هذا القاضي الذي جمع المعترض أعني السبكي كتابه هذا لأجله من أعداء الشيخ المشهورين ، وقد زعم هذا المعترض أيضا ـ مع هذا الامر الفظيع الذي ارتكبه من التكذيب بالصدق ، والتصديق بالكذب ـ أن الفتاوى المشهورة التي أجاب بها علماء أهل بغداد موافقة للشيخ مختلقة موضوعة ، وضعها بعض الشياطين ـ هكذا زعم ـ مع علم الخاص والعام بأن هذه الفتاوي مما شاع خبرها وذاع ، واشتهر أمرها وانتشر ، وهي صحيحة ثابتة متواترة عمن أفتى بها من العلماء ، وقد رأيت أنا وغيري خطوطهم بها ، فانظر الى تكذيب هذا المعترض بما لم يحط به علما ، وجرأته على

---

(١) الحجرات : ٧

انكار ماشتهر وتواتر ، وكيف يحل لمن ينتسب الى شيء من الدين أن ينسب أمـرا مقطوعا بكذبه الى من لم يقله ، ويقدح في أمر مشاهد مقطوع بصحته ، ويزعم أنه مختلق من بعض الشياطين ، هذه عثرة لاتقال وله مثلها كثيرا ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ، قال : فلما وقفت على هذا الكتاب المذكور وهو (شفاء السقام) أحببت أن أنبه على ماوقع فيه من الامور المنكرة ، والاشياء المردودة ، وخلط الحق بالباطل ، لئلا يغتر بذلك بعض من يقف عليه ممن لاخبرة له بحقائق الدين ، مع أن كثيرا مما فيه من الوهم والخطأ يعرفه خلق من المبتدئين في العلم بأدنى تأمـل ولله الحمد ، ولو نوقش مؤلف هذا الكتاب على جميع ماشتمل عليه من الظلم والعدوان والخطأ والخبط والتخليط والغلو والتشنيع والتلبيس لطال الخطاب ، ولبلغ الجواب مجلدات ، ولكن التنبيه على القليل مرشد الى معرفة الكثير لمن له أدنى فهم ، والله المستعان ، انتهى .

(وقال الحافظ أبو عبد الله أيضا) في موضع آخر من كتابه (الصارم المنكي) وقد سمعت أخا شيخ الاسلام يذكر هذا النص الذي حكـاه القاضي اسمعيـل في المبسوط عن مالك لهذا المعترض بحضرة بعض ولاة الامر ، فغضب المعترض وهـو السبكي غضبا شديدا ولم يجبه بأكثر من قوله هذا كذب على مالك ؛ فانظر الى جرأة هذا المعترض واقدامه على تكذيب مالم يحط بعلمه بغير برهان ولا حجة بل بمجرد الهوى والتخرص ، وليس هذا ببدع منه فانه قد عرف منه مثل ذلك في غير موضع ، وهو من أشد الناس مخالفة لمالك في هذه المواضع التي لايعرف لأحد من كبـار الأئمة أنه خالف مالكا فيها ، بل قد حمله فرط غلوه ومتابعته هواه على نسبة أمور عظيمة ــ لاأحب ذكرها ــ الى من قال بقول مالك في هذه المواضع التي لايعرف عن امام متبوع مخالفته فيها ، نعوذ بالله من الخذلان ، ومن عجب أن هذا المعترض صحح الحكاية المنقولة عن مالك مع أبي جعفر المنصور لأنفيها مايتابع هواه ، مع أنها غير صحيحة ، بل هي باطلة موضوعة ، وكذّب هذا النقل الثابت الذي ذكره القاضي اسمعيل في المبسوط لشدة مخالفته لهواه ومقصده وما ذهب اليه ، وأعرض عما ذكره أيضا في المبسوط من قول مالك لا أرى أن يقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ، ولكن يسلم ويمضي ، لأنه مخالف لهواه ، وتمسك بما في كتاب (الموازنة) لمتابعته هواه في ظنه ، وهكذا عادته ودأبه يكذب النصوص الثابتة أو يعرض عنها ، ويقبل الاشياء الواهية التي لم تثبت والامور المجملة الخفية ويتمسك بها بكلتا يديه،

وليس هذا شأن من يقصد الحق وايضاح الدين للخلق ، نسأل الله تعالى التوفيق ،

وذكر هذا الامام الحافظ في أثناء كتابه كثيرا من أحوال السبكي التي لاترضي الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلا بدع من هذا المبتدع بل القبوري وهو النبهاني أن يحتج على ترويج مقاصده بالسبكي وأمثاله من أسلافه غلاة الشافعية ، بل الفرقة الزائغة الحلولية أعداء الحق وأهله ، وخصوم الدين ومن أخذ به •

(قال النبهاني) ورأيت للامام السبكي عبارة موجودة الآن بخط يده في المكتبة الخالدية في القدس ، وقد أرسلت فاستكتبتها وهذه صورتها بحروفها : (قال رحمه الله تعالى) في سنة احدى وخمسين وسبعمائة وقفت على كتاب العقل والنقل لابن تيمية ، فوجدت فيه مواضع أنكرتها وكتبت على بعضها حواشي ، فتحركت أنوف خلق له ، ففكرت في انتشار أصحاب هذا الرجل وما يخشى من انتشار بدعته وعدم من يقاومهم ، فكتبت ليلة السبت عاشر شوال سنة أحد وخمسين وسبعمائة رقعةالى سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأل الله فيها ذلك • (وفي آخرها) إن كنت مصيبا في اعتقادي فقوّني ، وان كنت مخطئا فاهدني ، ثم أصبحت ورفعتها للشيخ نور الدين السخاوي ليحملها فانه عزم على الحج وكان ذلك قبل الظهر ، فلما كان الظهر جاءني شخص فأخبرني عن ابن تيمية بخبر يوجب شوطي فيه ، وكنت سمعت عنه من شخص مسألة من نحو أربعين سنة فلم أصدقها فلما تابعها هذا وقع في قلبي صحة ذلك ، ثم جاء آخر وآخر وآخر بمثل ذلك ، ثم نظمت قصيدة أرسلتها مع الشيخ نور الدين أيضا ، فلما أكملت نظمها في ليلة الاثنين ثاني عشر الشهر المذكور وقع في قلبي أن الله تعالى ما هيأ لي تلك الاخبار في ذلك اليوم الا هداية وجوابا عما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانظر هذه القضية ماأعجبها ، وفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ •

وها أنا أذكر نص ماكتبته في تلك الورقة وما نظمته ان شاء الله ، والمرجو من الله ارسالهما ووصولهما الى النبي صلى الله عليه وسلم ونجحهما ان شاء الله ، أما الورقة فنص مافيها :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يارسول الله اني عبيد ضعيف عاجز مسكين ، وجميع ماحصل لي من خير الدنيا

والآخرة أنت كنت سببه ، وأنت وسيلتي الى الله سبحانه ، واني نشأت على ديـن الاسلام سالما عن الشبه والبدع والاهوية والاغراض والميل الى جانب من الجوانب ، لاأعرف غير أشهد أن لا اله الا الله ، وأشهد أن محمـدا رسول اللـه ، ثم اشتغلت بالقرآن ، ثم بالفقه على مذهب الشافعي ، لا أعرف غير ذلك ، ولم أسمع ولم يدخل في قلبي شيء غير ذلك ، لا من العقائد ولا من غـيرها ، ثم اشتغلت بنحو وأصـول وفرائض ، ثم بعلم الحديث ذا تصويب فيه اليك ، ثم نظـرت في شيء من العلـوم العقلية ، واشتغلت بعلم الكلام على طريقة الاشعري ، لأنها المشهورة في بلادنا التي رأيت عليها أهلي وقومي ، وبقيت أراها طريقة وسطى بين الحشو والاعتزال ، ولازلت على تلك حتى جاوزت عشرين سنة من عمري وأنا بالديار المصرية ، فشاع عندنا خبر ابن تيمية وما يتفق له بدمشق ، وكان بها اذ ذاك علماء يقاومونه وفي مصر القاهـرة علماء وأكابر ، فأحضروه واتفق له ماتفق له بسبب العقائد ، ثم كتبت كلامه في التوسل والاستغاثة ، وتكلم معه من هو أكبر مني ورأيته واجتمعت به كثـيرا ، ثم عاد الى الشام ، ثم بلغنا كلامه في الطلاق وأن من علق الطـلاق على قصد اليمـين ثم حنث لايقع عليه طلاق ، ورددت عليه في ذلك ، ثم بلغنا كلامه في السفر الى زيارتك ومنعه اياه ورددت عليه في ذلك ، ثم توفي وله أصحاب كثيرون يشيعـون رأيه وينشـرون تصانيفه ، وجئت الى دمشق كما يقال نائب شريعتك [1] ومن لي برضاك بذلك ، فأنا أقل عبيدك ، مسكت عن الكلام في العقائد من الجانبين ، لأني في نفسي أن عقولنـا تضعف عن ادراك سبحات الحق جل جلاله ، وأرى البقـاء على الفطرة السليمـة ، والاكتفاء بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن لاينبه العـوام لشيء آخر ، ومن كان عالما ينظر بما ييسر له ، والمعصوم من عصم الله :، لكن الطلاق والزيارة انا شديد الانكار لقول ابن تيمية فيهما ظاهرا وباطنا ، والعقائد لايعجبنـي مااعتمده فيها من تحريك قلوب العوام فيها •

(قال النبهاني) انتهت عبارة الامام السبكي بحروفها وهي مكتوبة بخطه بلا نقط ، وهكذا جائتني صورتها فنقطتها ،أما القصيـدة التي ذكرها فغـير موجودة انتهى •

أقول ومنه سبحانه المدد والتوفيق : قد نقلت في هذا المقام ماذكره النبهـاني بحذافيره من غير تلخيص ولا اختصار ــ وان كان في نقلها تضييع للمداد والقرطاس ــ

---

(١) كذا في الاصل

ليعلم الناظر في هذا المقام ماخلق الله من العقول والافهام ، فيحمد الله تعالى من عوفي من داء هذا الجهل الوخيم ، والضلال القديم ، والنبهاني هذا رجل كذاب لايؤمن على نقله ولا يصدق بروايته ، فانه من الغلاة والجهلة الغواة ، ولكنه قد يصدق الكذوب ، فان صحت روايته هذه عن السبكي كفاه خزيا ذلك وهو الذي يناسب ما كان عليه من الغلو والابتداع الظاهر ، وهذه المقالة عن السبكي قادحة في عدالته مسقطة له عن درجة أهل العلم ، موصلة له الى طبقة العوام السفلى ، ومن العجيب أنه قال في أول مقالته ففكرت في انتشار أصحاب هذا الرجل ومايخشى من انتشار بدعته الخ ، فنسب البدعة الى الشيخ ابن تيمية حافظ الامة مع شهرة حاله في التعصب للسنة ، فعبر عنه بالمبتدع وجعل نفسه هو المتبع ، وفي المثل السائر : رمتني القرعى بدائها وانسلت ، وهكذا تكون الوقاحة وعدم الحياء من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وفي الحديث : (إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ماشئت) وهذا هو الهوى المتبع واعجاب المرء بنفسه الذي ورد في الخبر ، وليت النبهاني المثبور كان عنده شيء من البصيرة والفهم فلم ينقل هذه المقالة الشنعاء عن السبكي حتى فضحه بها وقد توفاه الله تعالى منذ مئات من السنين ، ولكن أبى الله الا أن يفضح من تنقص خيار الامة وسلفها بكشف عورات جهالاتهم •

ثم إن ماحكاه عن السبكي من المقالة الفظيعة مختلة المبني والمعنى يرد على كل كلمة من كلماتها ايرادات ومؤاخذات لو بسطنا الكلام فيها لاستوجب أن يفرد له كتاب مفصل ، والوقت يضيق عن الاشتغال بمثل ذلك فكان من الواجب علينا أن نتكلم عليها اجمالا ، ونذكر مايرد على محصلها ومقصدها ، ولولا سوء الادب لأجبنا مقالته تلك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكرنا له ماتعدى به طوره وتجاوز حده ، ولكن نعوذ بالله من التجاسر على مقام النبوة والتفوه بما لم يقله ، كما أنا نلجأ اليه أن يعصمنا من سوء الادب •

(ثم ان الكلام) على ماقصده السبكي في مقالته من وجوه :

(الوجه الاول) أن كتاب (العقل والنقل) ويسمى أيضا (بيان موافقة صريح المعقول ، لصحيح المنقول) ويسمى أيضا (قسطاس الانصاف والعدل ، في رد تعارض العقل والنقل) من مصنفات الآية الظاهرة ، والحجة الباهرة ، ماشطة العصر بل نادرة الدهر ، بحر العلوم ، وصدر القروم ، الناسك العابد ، والورع الزاهد : شيخ الاسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية رحمه الله ، ألفه في الجواب عن

سؤال ورد اليه ، وهو اذا تعارضت الادلة السمعية والعقلية ، أو السمع والعقل ، أو العقل والعقل ، أو الظواهر النقلية والقواطع العقلية أو نحو ذلك من العبارات ، فهل يجمع بينهما وهو محال لأنه جمع بين النقيضين ، وإما أن يرادا جميعا ، واما أن يقدم السمع وهو محال لأن العقل أصل النقل ، فلو قدمناه عليه كان ذلك قدحا في العقل الذي هو أصل النقل ، والقدح في أصل الشيء قدح فيه ، فكان تقديم النقل قدحا في النقل والعقل جميعا ، فيجب تقديم العقل ، ثم النقل اما أن يتأول ، واما أن يفوض وأما اذا تعارضا تعارض الضدين امتنع الجواب عنهما ولم يمتنع ارتفاعهما ، فذكر في الجواب تسعة عشر وجها مفصلة أتم تفصيل في بيان أن صريح المعقول لايخالف صحيح المنقول . وفيه الذب عن الشريعة الغراء ، وأنها وافية بكل مايستوجب سعادة الدارين ، ليس لها حاجة الى اكمالها بالقواعد التي وضعها علماء الكلام من أعداء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وان جميع ماجاءت به الشريعة الغراء مما يوافق ماتقتضيه العقول السليمة ، وأن نصوصها لاتؤول لأجل تطبيقها على مااخترعوه من الآراء الفاسدة ، والاقوال الكاسدة ، وبسط الكلام كل البسط في كل وجه من تلك الوجوه ، هذا موضوع الكتاب ، وهو كتاب جليل ليس له نظير في بابه ، ومن النعم العظمى على الامة ظهور هذا الكتاب في هذا العصر وانتشاره بين الناس ، وما أحسن ماقال فيه الشيخ ابن القيم في منظومته الشافية الكافية ، وقد عقد فصلا في ذكر مؤلفات شيخ الاسلام :

واقرأ كتاب العقل والنقل الذي ★ مافي الوجود له نظير ثان

فجزى الله تعالى عن المسلمين كل خير من سعى في طبعه ونشره ، ومثل هذا الكتاب كيف يشتكى منه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من له أدنى بصيرة في العلم وأقل نظر في معرفة الشريعة اللهم الا اذا كان السبكي ممن ختم الله على قلبه فلم يفهمه ، وتصدى للرد عليه والاستئذان من الرسول عليه السلام لأجل ذلك وما بعد الحق الا الضلال .

(الوجه الثاني) أن الله تعالى أكمل الدين المبين قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فأصبحت الشريعة الغراء ليلها كنهارها ، لم تغادر شيئا من الاحكام ولا من بيان الحلال والحرام ، وبسط الكلام عليها الأئمة ومجتهدوا الامة فلم يبق حاجة الى مراجعة النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ، بل ان عمر رضي الله تعالى

عنه لم يوافق على كتابة الكتاب في مرضه وقد طلب دواة وقرطاسا ، والحديث مشهور ، قال تعالى : (اليومَ أكملْتُ لكمُ دينَكمْ وأتممتُ عليكمْ نعمَتي ورَضيْتُ لكمُ الاسلامَ دِيْناً)[1] فاذا أشكل أمر على أحد راجع أهل الذكر ان كان ممن لايعلم أو فتش على مقصده كتب الشريعة ونصوصها فما دلت عليه واقتضته عمل بموجبه من غير حاجة الى كتابة شيء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتابته عند قبره وقال عز اسمه : (يا أيُّها الَّذينَ آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرَّسول وأُولي الأَمْرِ منْكمْ فإنْ تنازَعْتُمْ في شيء فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسولِ إنْ كُنْتُم تؤمنونَ بِاللهِ واليومِ الآخِرِ ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً)[2].

(ذكر المفسرون) ان الخطاب عام للمؤمنين مطلقا ، والشيء خاص بأمر الدين بدليل مابعده والمعنى : فان تنازعتم أيها المؤمنون أنتم وأولوا الامر منكم في أمر من أمور الدين فردوه الى الله ، أي فارجعوا فيه الى كتابه ، والرسول أي الى سنته ، ولا شك أن هذا انما يلائم حمل أولى الامر على الامراء دون العلماء ، لأن للناس والعامة منازعة الامراء في بعض الامور وليس لهم منازعة العلماء ، اذ المراد بهم المجتهدون ، والناس ممن سواهم لاينازعونهم في أحكامهم ، وجعل بعضهم الخطاب فيه لاولي الامر على الالتفات ليصح ارادة العلماء لأن للمجتهدين أن ينازع بعضهم بعضا مجادلة ومحاجة ، فيكون المراد أمرهم بالتمسك بما يقتضيه الدليل ، وبعضهم قال يراد الاعم مع أنه يجوز أن يكون الخطاب للمؤمنين ، وتكون المنازعة بينهم وبين أولي الامر باعتبار بعض الافراد وهم الامراء .

والمقصود : أن الله تعالى أمر المؤمنين عند التنازع أن يراجعوا الكتاب والسنة لا أن يكتبوا كتابا لقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتلقى الجواب بمحض الاوهام كما فعله السبكي ، وتمام الكلام على الآية يطلب من محله .

(الوجه الثالث) أن الصحابة الكرام اختلفوا بعد وفاة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الخلافة اختلافا كثيرا وهو مذكور في محله فلم يستفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبره ، ولم يكتبوا له أن الانصار يارسول الله يقولون

(١) المائدة : ٣ (٢) النساء : ٥٩

منا أمير ومنكم أمير ، وأن بعضهم يريد أبا بكر ، ومنهم من يطلب عليا ، ومنهم ومنهم .

ثم انهم اختلفوا بعد ذلك في مسائل علمية ولم يستفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبره ، ولم يجيء أحد منهم يسأله ماذا حكم الجد مع الاخوة ، وأن فاطمة جاءت الى أبي بكر تطلب ارث أبيها منه فأورد لها خبر نحن معاشر الانبياء لانورث فلم ترض بقوله وقامت وهي عليه غضبى ولم تستفت رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبره ، ولا كتبت اليه مافعل معها أبو بكر ، وخرج على عثمان أهل مصر وغيرهم فلم يستفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في قبره عما كان من عثمان ، ولا أن عثمان شكى عليه كما فعل السبكي ، وأن عليا ومعاوية تنازعا الامر وجرى بين الفريقين ماجرى ولم يصدر عن أحد ماصدر عن السبكي من الشكوى والاستئذان ، ومثل هذه المسائل مما لايحيط به القلم .

(الوجه الرابع) أن من اشتبه عليه أمر ولم يعلم هل هو خير أم شر ليعمل بموجبه يستخير الله تعالى ، فان الاستخارة مما درج عليه السلف وجرى على منهاجهم الخلف ، وقد تكلموا عليها في فصول :

(منها في الامور التي هي محل الاستخارة) فقالوا : ما من شأنه أن يراد ينقسم أولا الى ثلاثة أقسام : (الاول)ما يعلم كونه خيرا قطعا كالواجب المضيق (الثاني) مايعلم كونه شرا قطعا كالمحرم المجمع على تحريمه (الثالث) مالا يعلم على القطع خيريته ولا شريته في وقت مخصوص كالواجب الموسع والمندوب كذلك والمندوب المضيق الذي يعارضه مندوب آخر في ذلك الوقت من غير ظهور رجحان لاحدهما والمباحات كلها ، ولما كان معناها طلب خير الامرين من الفعل في وقت معين أو تركه فيه لم يكن الاولان محلين لها ، إذ أولهما خير قطعا فلا رخصة في تركه ، وثانيهما شر قطعا فلا رخصة في فعله ، فليس محلا لها الا الثالث ، فما يوهم العموم في بعض الاخبار كالامور في خبر جابر الآتي عام مخصص ، أو أن أل فيه للعهد .

(ومنها في سرد بعض أحاديثها) روى البخاري في (باب ماجاء من التطوع مثنى مثنى) من صحيحه عن جابر بن عبد الله ، قال : (كان رسول الله صلى اللهعليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الامور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول : اذا

همّ أحدكم بالامر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل اللهم اني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم ان كنت تعلم أن هذا الامر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه ، وان كنت تعلم أن هذا الامر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه وأقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به ، قال ويسمى حاجته) .

وروى في (كتاب الدعوات) عن جابر أيضا ، قال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الامور كلها كسورة من القرآن ، اذا هم أحدكم بالامر فليركع ثم يقول : اللهم اني أستخيرك) وساق الدعاء ، وقال في آخره أيضا ويسمى حاجته .

وروى في (كتاب التوحيد) من الصحيح عنه أيضا قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه الاستخارة في الامور كلها كما يعلمهم السورة من القرآن ، يقول : اذا هم أحدكم بالامر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم اني أستخيرك بعلمك الى قوله وأنت علام الغيوب ــ ولم يقل العظيم ــ اللهم فان كنت تعلم هذا الامر ــ ثم يسميه بعينه ــ خيرا لي في عاجل أمري وآجله قال أو في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه ، اللهم وان كنت تعلم أنه شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال في عاجل أمري وآجله فاصرفني عنه وأقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به) .

وروى الطبراني في المعجم الصغير عن ابن مسعود قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول : اذا أراد أحدكم أمرا فليقل اللهم اني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم ان كان في هذا الامر خير في ديني ودنياي وعاقبة أمري فاقدره لي ، وان كان غير ذلك خيرا لي فسهل لي الخير حيث كان ، واصرف عني الشر حيث كان ، ورضني بقضائك) .

وروى في الكبير عنه أيضا قال : (علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

الاستخارة ، فقال : اذا أراد أحدكم أمرا فليقل اللهم اني أستخيرك بعلمك ــ ولم يقل العظيم ــ وقال فان كان هذا الذي أريد خيرا في ديني وعاقبة أمري فيسره لي ، وان كان غير ذلك خيرا فاقدر لي الخير حيث كان ، يقول ثم يعزم) .

وروى الحافظ نور الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر في كتابه (موارد الظمآن ، الى زوائد ابن حبان) عن أبي أيوب رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اكتم الخطبة ثم توضأ فأحسن وضوءك ، ثم صل ماكتب الله لك ، ثم احمد ربك ومجده ، ثم قل : اللهم انك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، فان رأيت لي فلانة تسميها باسمها خيرا لي في ديني ودنياي وآخرتي فاقدرها ، وان كانت غيرها خيرا لي منها في ديني ودنياي وآخرتي فاقض لي ذلك) .

وروى فيه أيضا عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اذا أراد أحدكم أمرا فليقل اللهم اني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم ان كان كذا وكذا خيرا لي في ديني ومعيشتي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي وأعني عليه ، وان كان كذا وكذا الامر الذي تريد شرا لي في ديني ومعيشتي وعاقبة أمري فاصرفه عني ، ثم اقدر لي الخير أينما كان ، ولا حول ولا قوة الا بالله) .

وروى فيه أيضا عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اذا أراد أحدكم أمرا فليقل : اللهم اني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم ان كان كذا وكذا خيرا لي في ديني وخيرا لي في معيشتي وخيرا لي في عاقبة أمري فاقدره لي وبارك لي فيه ، وان كان غير ذلك خيرا فاقدر لي الخير حيث كان ورضني بقدرك) .

وروى الحافظ السخاوي في (كتاب الابتهاج ، باذكار المسافر الحاج) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأنس رضي الله عنه : (اذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات ، ثم انظر الى الذي سبق الى قلبك فان الخير فيه) وعزاه السيوطي الى الديلمي في مسند الفردوس .

(ومنها في بيان كيفية صلاتها) المذكور في كثير من الكتب ان من أراد

الاستخارة يصلي ركعتين من غير الفريضة ، ثم يدعــوه وهو المصــرح به في حديث جابر ، وقال الحافظ بن حجر في (فتح الباري) قال النووي في الاذكار : لو دعــا بدعاء الاستخارة عقب راتبة الظهر مثلا أو غيرها من الراتبة والمطلقة سواء اقتصــر على ركعتين أو أكثر أجزأ ، كذا أطلق وفيه نظر ، ويظهر أن يقال : محله ان نوى تلك الصلاة بعينها وصلاة الاستخارة معا ، بخلاف ما اذا لم ينو ، وتفارق تحية المسجــد لأن المراد بها شغل البقعة بالصلاة ، والمراد بصلاة الاستخارة أن يقع الدعاء عقبها الى آخــر ماقال أهـ •

ثم ان ظاهر مافي حديث أبي أيوب ثم صل ماكتب الله لك أن الركعة الواحدة يحصل بها المقصود ، وكلام الفقهاء على هذه المسألة مفصل في كتب الفقه •

(ومنها) اذا فرغ المستخير من الدعاء فليمض كما قال النووي لما انشــرح له صدره •

قال الهيثمي : فان لم ينشرح صدره لشيء فالذي يظهر أنه يكرر الاستخــارة بصلاتها ودعائها حتى ينشرح صدره لشيء وان زاد على السبع ، والتقييد بها في خبر أنس : (اذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات ، ثم انظر الى الذي سبــق الى قلبك فان الخير فيه) لعله جرى على الغالب اذ انشراح الصدر لايتأخر عن السبع ، على أن الخبر اسناده غريب ، ووقع للشافعي أنه استخار في أمر سنة ، والكلام في هذا الباب طويل ، والمقصود أن السبكي ابتدع مالم يسبق اليه أحد وترك الامــر المسنون وهو الاستخارة ان كان ماتصدى اليه من مواضعها •

(الوجه الخامس) أن السبكي زعم أنه حصل له الاذن بالرد على كتاب (العقل والنقل) وأنه أمر بذلك أمرا معنويا كما استنبطه هو بفكره الثاقب ورأيه الصائب ، فلم لم يمتثله وأين رده الذي رد به على هذا الكتاب ؟ وليته ألفه ليمزق بسهام الاقلام ويكون مثلة بين الانام ، فان الذي مبلغه من العلم ماسمعت كيف يرد على شيء لايفهمه ولا يعرفه ، ثم ان ولده تاج الدين ذكر في طبقاته ترجمة والده ، ونسب اليه كل فضيلة وعزا اليه كل منقبة جليلة ، وذكر مصنفاته واختياراته وكلماته وهذياناته ، ولم يذكر في كتبه هذا الرد ، فعلم أنه بهتان مبين ، وانه لم يمتثل أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على زعمه •

(الوجه السادس) أن حديث عرض الاعمال في أيام مخصوصة على ماسبق بيانه

في كلام شيخ الاسلام تقي الدين لايقتضي كتابة شيء الى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في قبره ، بل أن أعمال أمته تعرض عليه فان رأى خيرا سره وان رأى غير ذلك احتسب ، ولم يقل أحد أن له قدرة على تغيير مالا يرضى الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، وحياته البرزخية ليست الحياة المتعارفة والا لاقتضت لوازمها وأنى له ذلك ، فكيف يعرض عليه مثل تلك الامور وما ذلك الا عثرة من السبكي لاتقال ، ولا يصدر مثلها حتى عن ضعفاء العقول من الجهال ، فبطل كلامه وزال مقصده ومرامه •

(الوجه السابع) أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعلم — عند النبهاني وأسلافه الغلاة — ما كان وما يكون ، بل يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور ، فما فائدة اعلامه بما أعلمه به السبكي من أنه رجل شافعي المذهب أشعري العقيدة الى آخر ماهذى به ، فانه اذا علم ما كان وما يكون — ومنه أعمال السبكي وأفعاله — فلأجل أي شيء يخبره به ؟ لايقال ان ذلك كاخبار امرأة عمران بما وضعت ، وهو الذي حكاه سبحانه بقوله : (إذْ قالت امرأةُ عمرانَ ربِّ إنيِّ نذَرتُ لكَ ما في بَطني مُحرَّراً فَتقبَّلْ منيِّ إنكَ أنتَ السَّميعُ العَليمُ فلمَّا وضعتها قالتْ ربِّ انيِّ وضعْتها أُنثى واللهُ أعلَمُ بما وَضَعَتْ وليسَ الذَّكرُ كالانثى وإنيِّ سَميْتها مَريمَ وإنيِّ أُعيذُها بكَ وذرِّيتها منَ الشيطانِ الرَّجيمْ فتقبَّلها ربُّها بقَبولٍ حسن وأنبَتها نباتاً حسَناً وكفَّلها زكريَّا)[1] الآية ، قالوا : ان الله عالم بما كان فلم أخبرته امرأة عمران بما أخبرته ؟ أجابوا : ان الخبر تارة يقصد به افادة المخاطب الحكم اذا كان غير عارف به ، وتارة يقصد به افادة لازم من لوازمه المفصلة في علم المعاني ، ولازم خبر امرأة عمران هو التحزن والتحسر على خيبتها وانعكاس أملها ، وحمل السبكي كلامه على ذلك مما لاوجه له •

وهذا الذي ذكرناه — من أن الغلاة يعتقدون في النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ماذكرناه — هو مما لم يمكنهم انكاره ، كيف والنبهاني على ماأسلفناه يقول ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم موجود في كل مكان وكل زمان ، وقد تكلمت يوما مع أحد غلاة الرفاعية الزنادقة ومشركيهم — اذ استغاث بالرفاعي قبل الشروع

---

(١) آل عمران : ٣٦ — ٣٨

في ذكرهم ـ فقلت له : هل يسمع الآن نداءك الرفاعي وهو في قبره في أم عبيده ويمدك ؟ قال : نعم قلت : فاذا اتفق مثلك في بلاد كثيرة ومواضع متعددة ألوف مؤلفة وان كانوا في أقطار شاسعة فهل يسمعهم أحمد الرفاعي ويمدهم ويغيثهم ؟ قال : نعم ، قلت : هذا هو الغلو الذي نهى الله عنه في كتابه الكريم ، قال ليس هذا من الغلو بل هو مقتضى الدين ألم تسمع حديث الاولياء وهو قوله صلى الله عليه وسلم الذي رواه البخاري : (وما زال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها) الحديث ؟ فظن هذا الغبي الجاهل أن معناه مايعتقده اخوانه أهل الزيغ والالحاد من أن العبد اذا لازم العبادة الظاهرة والباطنة حتى يصفى من الكدرات انه يصير في معنى الحق تعالى الله عن ذلك ، وأنه يفنى عن نفسه جملة حتى يشهد أن الله تعالى هو الذاكر لنفسه المحب لنفسه ، وأن هذه الاسباب والرسوم تصير عدما صرفا في شهوده وان لم تعدم في الخارج •

(أقول) قد زلت أقدام أقوام في معنى هذا الحديث واستشكل كيف يكون الباري جل وعلا سمع العبد وبصره •

(والجواب) على ماذكره العسقلاني في شرحه من أوجه : (أحدها) أنه ورد على سبيل التمثيل والمعنى كنت سمعه وبصره في ايثاره أمري ، فهو يحب طاعتي ويؤثر خدمتي كما يحب هذه الجوارح •

(ثانيها) أن المعنى كليته مشغولة بي فلا يصغي بسمعه الا الى مايرضيني ولا يرى ببصره الا ماأمرته به

(ثالثها) اجعل له مقاصده كأنه ينالها بسمعه وبصره الخ •

(رابعها) كنت له في النصرة كسمعه وبصره ويده ورجله في المعاونة على عدوه •

(خامسها) قال الفاكهاني وسبقه الى معناه ابن هبيرة هو فيما يظهر لي أنه على حذف مضاف والتقدير كنت حافظ سمعه الذي يسمع به فلا يسمع الا مايحل استماعه وحافظ بصره كذلك الخ •

(سادسها) قال الفاكهاني يحتمل معنى آخر أدق من الذي قبله وهو أن يكون معنى سمعه مسموعه ، لأن المصدر قد جاء بمعنى المفعول مثل فلان أملي بمعنى

مأمولي ، والمعنى : أنه لايسمع الا ذكري ، ولا يلتذ الا بتلاوة كلامي ، ولا يأنس الا بمناجاتي ، ولا ينظر الا لعجائب ملكوتي ، ولا يمد يده الا فيما فيه رضاي ، ورجله كذلك ، انتهى • وقد ذكرت هذه المسألة في موضع آخر •

(والمقصود) أن الغلاة يعتقدون أن الولي يعلم كما يعلم الله ، ويبصر كما يبصر الله ، ويسمع كما يسمع الله ، فكيف بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو سيد الاولياء والاصفياء ، فلا بد أنهم يعتقدون فوق اعتقادهم في الولي ، فاذا كان الامر على ماذكر فلا وجه لما كتبه الى النبي صلى الله عليه وسلم ، وان كان السبكي لايعتقد ذلك الذي ذكرناه من الصفات التي لاتثبت الا للخالق دون المخلوق فما وجه كتابة تلك المقالة ونظم القصيدة وارسالهما مع الشيخ نور الدين السخاوي ؟ فعلى كلا الوجهين أن السبكي قد أخطأ فيما فعله وأبان به جهله وغيه وضلاله •

هذا حال السبكي الذي أعده النبهاني المسكين سلاحا في ميدان الطعن بشيخ الاسلام وجرحه ، والحمد لله الذي جعل أعداء أهل الحق في كل عصر وزمان من أجهل الناس وأضلهم وأغواهم ، ومن العجائب أن السبكي — مع هذه الاحوال التي سمعتها — قد جعله ابن حجر المكي من المجتهدين الاجتهاد المطلق ، وأنه مما لم يخالف أحد في وصوله الى هذه المرتبة ، وأنه امام أهل التحقيق والتدقيق ، وأنه ليس له نظير ولا قرين في كل فن ، الى غير ذلك من الاوصاف الجليلة ، فاذا جرى ذكر تقي الدين ابن تيمية وأصحابه من أهل الحديث الحفاظ المتقنين شتمهم بكل ماخطر له ، وذمهم بكل مايقع في تصوره ، فانظر الى هذا التعصب وعدم الانصاف ، وهذا أحد الاسباب التي أوجبت انحطاط الاسلام الى مانرى ، وأعظمها تطاول السفهاء واناطة الامر الى غير أهله ، وعنده يترقب الخراب العام •

وابن السبكي الذي جرى مجرى أبيه لم يدع منقبة من مناقب الاولين والاخرين الا وأثبتها لوالده ظنا منه أن الحقائق تخفي ، وما درى هذا المسكين أن الامر كما قيل :

ومهما تكن عند امريء من خليقة وان خالها تخفي على الناس تعلم

وفي المثل السائر كل فتاة بابيها معجبة •

والمقصود : أن قدح مثل السبكي بمثل الشيخ ابن تيمية كصرير باب ، وطنين ذباب ، ولولا التقى لقلنا لايضر السحاب نبح الكلاب •

(قال النبهاني) ومنهم الحافظ ابن حجر العسقلاني ، وذكر من فضله وغزارة علمه ماهو غني عن البيان ، ونقل عنه عبارة ذكرها في فتح الباري عند الكلام على حديث لاتشد الرحال الخ ، وهي قوله في مسألة تحريم شد الرحل والسفر الى زيارة القبور : وهي من أبشع المسائل المنقولة عن ابن تيمية الخ ، ثم نقل عنه ماقاله في تقريظه على كتاب (الرد الوافر) مما ليس فيه مطعن ولا مغمز لثالب .

(جوابه) أن الحافظ ابن حجر العسقلاني موالاته ومحبته للشيخ ابن تيمية مما لاينكره الا جاهل ، وقد تلقى العلم عن تلامذة الشيخ وأصحابه وانتفع بكتبه وقرأ كثيرا منها درسا ، وهذا هو اللائق به وبأمثاله من أهل الفضل والعلم ، وقد قيل : انما يعرف ذا الفضل ذووه . والعبارة التي نقلها النبهاني عنه وهي قوله عن منعه من سفر الزيارة : وهي من أبشع المسائل المنقولة عن ابن تيمية الخ أي طعن فيها وقدح في عدالة ابن تيمية ؟ ومن المعلوم ما كان من الردود على كل من الأئمة ، ولم يخل ذلك بشرفهم ولا خفض من منزلتهم ، وقد قال غير واحد من أهل العلم : ان مسألة التزوج بالبنت من الزنا من أبشع المسائل المنقولة عن الشافعي ، وأن مسألة تزوج المغربي بالمشرقي أو بالعكس ثم ولدت الزوجة ولدا يلحق بالاب وان لم يجتمع الزوجان قط من أبشع المسائل المنقولة عن أبي حنيفة ، وان جواز التيمم بالثلج من أبشع المسائل المنقولة عن الامام مالك ، وهكذا الى مالا يسعه المقام ، وأي امام من الأئمة لم ينسب اليه أقوال شاذة ؟! هذا اذا قلنا أن مسألة المنع من سفر الزيارة من الشواذ مع أن الامر ليس كما ذكروا ، كيف والادلة القطعية قائمة على ماقاله ؟ وقد سبقه اليه الأئمة المقتدى بهم وقد سبق بيان ذلك مفصلا فيما نقلناه عن الشيخ من الكتابين ، وما نقله النبهانيم ن كلام الحافظ العسقلاني على (الرد الوافر) هو رد عليه ، لأنه ليس فيه إلا الثناء والمدح ، وتبرئته عما يوجب اللوم والقدح ، ولم ينقل العبارة بعينها لأن ذلك مناقض لغرضه الفاسد ، ومخالف لما يرومه من التلبيس والتدليس قاتله الله ماأجهله ، وهانحن ننقلها بنصها ليتبين ماذكرناه أنه كان من أخلص الناس مودة لشيخ الاسلام :

قال العلامة المحدث السيد صفي الدين الحنفي البخاري نزيل نابلس عليه الرحمه في كتابه (القول الجلي ّ في ترجمة الشيخ تقي الدين بن تيمية الحنبلي) صورة تقريظ للامام الحافظ في عصره بل حافظ الدنيا العلامة شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني قدس اللهسره على الرد الوافر) لابن ناصر

الدين الدمشقي الشافعي رحمه الله تعالى ولفظه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، وقفت على هذا التأليف النافع ، والمجموع الذي هو للمقاصد التي جمع لها جامع ، فتحققت سعة اطلاع الامام الذي صنفه ، وتضلعه من العلوم النافعة بما عظمه بين العلماء وشرفه ، وشهرة امامة الشيخ تقي الدين ابن تيمية أشهر من الشمس ، وتلقيبه بشيخ الاسلام باق الى الآن على الالسنة الزكية ويستمر غدا كما كان بالامس ، ولا ينكر ذلك الا من جهل مقداره وتجنب الانصاف ، فما أكثر غلط من تعاطى ذلك وأكثر عثاره ، فالله تعالى هو المسئول أن يقينا شرور نفوسنا ، وحصائد ألسنتنا بمنه وفضله .

ولو لم يكن من فضل هذا الرجل الا مانبه عليه الحافظ الشهير علم الدين البرزالي في تاريخه أنه لم يوجد في الاسلام من اجتمع في جنازته لما مات ماجتمع في جنازة الشيخ تقي الدين لكفى ، وأشار الى أن جنازة الامام أحمد كانت حافلة جدا شهدها مؤون ألوف لكن لو كان بدمشق من الخلائق نظير ما كان ببغداد بل أضعاف ذلك لما تأخر أحد منهم من شهود جنازته ، وأيضا فجميع من كان ببغداد الا الاقل كانوا يعتقدون امامة الامام أحمد ، وكان أمير بغداد وخليفة الوقت اذ ذاك في غاية المحبة له والتعظيم ، بخلاف ابن تيمية ، وكان أمير البلد حين مات غائبا ، وكان أكثر من في البلد من الفقهاء قد تعصبوا عليه حتى مات محبوسا بالقلعة ، ومع هذا فلم يتخلف منهم عن حضور جنازته والترحم والتأسف عليه إلا ثلاثة أنفس تأخروا خشية على أنفسهم من العامة ، ومع حضور هذا الجمع العظيم فلم يكن لذلك باعث إلا اعتقاد امامته وبركته لابجمع سلطان ولا غيره ، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أنتم شهداء الله في الارض ، ولقد قام على الشيخ تقي الدين جماعة من العلماء مرارا بسبب أشياء أنكروها عليه من الاصول والفروع ، وعقدت له بسبب ذلك عدة مجالس بالقاهرة ودمشق ، ولا يعلم عن أحد منهم أنه أفتى بزندقته ، ولا حكم بسفك دمه ، مع شدة المتعصب عليه حينئذ من أهل الدولة حتى حبس بالقاهرة، ثم بالاسكندرية ، ومع ذلك فكلهم يعترف بسعة علمه وزهده ووصفه بالسخاء والشجاعة وغير ذلك من قيامه في نصرة الاسلام ، والدعاء الى الله تعالى في السر والعلانية ، فكيف لاينكر على من أطلق أنه كافر بل من أطلق على من سماه شيخ الاسلام الكفر ، وليس في تسميته بذلك مايقتضي ذلك فانه شيخ مشايخ الاسلام في

عصره بلا ريب ، والمسائل التي أنكرت عليه ما كان يقولها بالتشهى ، ولا يصر على القول بها بعد قيام الدليل عليه عنادا ، وهذه تصانيفه طافحة بالرد على من يقول بالتجسيم والتبري منه ، ومع ذلك فهو بشر يخطيء ويصيب ، فالذي أصاب فيه ــ وهو الاكثر ــ يستفاد منه ويترحم عليه بسببه ، والذي أخطأ فيه لايقلد فيه بل هو معذور ، لأن علماء الشريعة شهدوا له بأن أدوات الاجتهاد اجتمعت فيه ، حتى كان أشد المتعصبين عليه العاملين في ايصال الشر اليه ــ وهو الشيخ كمال الدين الزملكاني ــ شهد له بذلك ، وكذلك الشيخ صدر الدين بن الوكيل الذي لم يثبت لمناظرته غيره ، ومن أعجب العجب أن هذا الرجل كان من أعظم الناس قياما على أهل البدع من الروافض والحلولية والاتحادية ، وتصانيفه في ذلك كثيرة شهيرة ، وفتاويه فيهم لاتدخل تحت الحصر ، فياقرة أعينهم اذا سمعوا تكفيره ، ويا سرورهم اذا رأوا من يكفره من أهل العلم ، فالواجب على من تلبس بالعلم وكان له عقل أن يتأمل كلام الرجل من تصانيفه المشهورة ، أو من ألسنة من يوثق به من أهل النقل ، فيفرد من ذلك ماينكر ، فليحذر منه على قصد النصح ، ويثني عليه بفضائله فيما أصاب من ذلك كدأب غيره من العلماء الانجاب .

ولو لم يكن للشيخ تقي الدين من المناقب الا تلميذه الشهير الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية ، صاحب التصانيف النافعة السارة ، التي انتفع بها الموافق والمخالف : لكان غاية في الدلالة على عظم منزلته ، فكيف وقد شهد له بالتقدم في العلوم والتميز في المنطوق والمفهوم أئمة عصره من الشافعية وغيرهم فضلا عن الحنابلة ، فالذي يطلق عليه مع هذه الاشياء الكفر أو على من سماه شيخ الاسلام لايلتفت اليه ولا يعول في هذا المقام عليه ، بل يجب ردعه عن ذلك الى أن يراجع الحق ويذعن للصواب ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قال : وكتبه أحمد بن علي بن محمد بن حجر الشافعي عفا الله عنه ، وذلك في اليوم التاسع من شهر ربيع الاول عام خمسة وثلاثين وثمانمائة حامداً لله ومصليا على محمد ومسلما ، هذا آخر كلامه .

(فانظر أيها المنصف الى كلام هذا الامام) في الذب عن شيخ الاسلام هل تراه منتصرا له أم طاعنا عليه ، وهل تجده مادحا له أم موجها سهام الذم بين يديه ؟ وانظر الى تحريف النبهاني الذي سبق به تحريف أسلافه اليهود ، فقد نقل منه ماظن بزعمه أنه ينفعه ، وترك ماهو شجي في فمه ، كل ذلك لأجل ترويج ضلاله وهواه وباطله ،

فبالله عليك أيها الواقف على مثل هذه الاحوال هل يليق أن يولي هذا الرجل الحكم على أموال الناس وأعراضهم ودمائهم ، وهو يخون ــ جهلا واتباعا لهواه ــ هذه الخيانة التي لم تخف على أحد من طلبة العلم فضلا عن أكابر العلماء ، ومحققي الفضلاء ؟! فياخسارة لمن تولى الحكم عليه هذا الغبي الجاهل ، وعبث كما أداه اليه هواه في المحافل .

(قال النبهاني) ومنهم السيد صفي الدين الحنفي البخاري نزيل نابلس ألف كتابا مستقلا سماه (القول الجلي ، في ترجمة الشيخ تقي الدين بن تيمية الحنبلي) ذكر فيه مناقبه وكلام العلماء في الثناء عليه ، الى أن قال : قال صفي الدين في كتابه المذكور : قد نص على أنه أي ابن تيمية بلغ رتبة الاجتهاد جمع من العلماء ولم يتفرد بمسألة منكرة قط ، وان كان قد خالف الائمة الاربعة في مسائل فقد وافق فيها بعض الصحابة أو التابعين ، ومن أشنع ما وقع له مسألة تحريم السفر الى زيارة القبور ، وقد قال به قبله أبو عبد الله بن بطة الحنبلي في الابانة الصغرى ، ثم قال صفي الدين في موضع آخر من كتابه : فان قلت مانقلته في هذا الجزء يدل على براءة الشيخ مما نسب اليه ، فما بال علي القاري والتقي الحصني وابن حجر الهيتمي وغيرهم ينسبونه الى أمور فظيعة قلت : اعلم ــ وفقك الله تعالى ــ أن ابن تيمية رحمه الله تعالى كان رجلا مشهورا بالعلم والفضل وحفظ السنة ، وكان مبالغا في مذهب الاثبات ، وكان يكره التأويل أشد الكراهة ، وكان يرد على الصوفية ماذكروه في كتبهم من وحدة الوجود وما شاكلها على عادة أهل الحديث والفقهاء والمتكلمين ، فرد على الشيخ محيي الدين ابن العربي ، والشيخ عمر بن الفارض ، وعبد الحي بن سبعين وأضرابهم ، وكان قد خالف الأئمة الاربعة في بعض الفروع كمسألة الزيارة والطلاق ، وكان يناظر عليهما فقام عليه ناس وحسدوه وأبغضوه وأشاعوا عنه مالم يقله من التشبيه والتجسيم وغير ذلك ، فدخل ذلك على بعض أهل العلم من الحنفية والشافعية وغيرهم ولم يطلبوا تحقيق ذلك من كتبه المشهورة ، واعتمدوا على السماع فوقع منهم ماقد وقع ، وقد وقع مثل هذا لغير واحد من أهل العلم والفضل .

ثم قال : وقد أنكروا على الشيخ أشياء لابأس بذكر الجواب عنها والاعتذار ، فأقول : قالوا يقول بحرمة السفر الى زيارة القبور ، وقد خالف في ذلك الاجماع ، قال صفي الدين : قلت وهو مخطيء في ذلك أشد الخطأ ، ولكن لايلزم من القول به التفسيق فضلا عن التكفير ، لانه صدر ذلك عن شبهة ولو كان ذلك الدليل خطأ

عندنا ، انتهى كلام صفي الدين البخاري ومثله العلماء الذين أثنوا على ابن تيمية ذكروا خطأه الفاحش في مسائله التي خالف فيها الاجماع انتهى كلام النبهاني .

(والجواب) أن كلام النبهاني هذا على نمط ما قبله ، فان السيد صفي الدين الحنفي عليه الرحمة ألف كتابه (القول الجلي ، في ترجمة الشيخ تقي الدين ابن تيمية الحنبلي) وذكر فيه أقوال أساطين العلماء الذين أثنوا عليه ، وذب عنه وأجاب عما نسب اليه من الاختيارات بمالا مزيد عليه ، وقال في خطبة كتابه : (وبعد) فهذا جزء لطيف في ترجمة شيخ الاسلام ، وبركة الانام ، علم الزهاد ، وأوحد العباد ، سيد الحفاظ ، وفارس المعاني والالفاظ ، تقي الدين أبي العباس ، وذكر نسبه الى أن قال ابن تيمية الحراني نزيل دمشق رحمه الله ، لخصته مما اجتمع عندي من كلام الفقهاء والمحدثين ، رجاء للثواب ونفعا للاحباب .

(فانظر أيها المنصف) كيف ساغ للنبهاني الجهول أن يذكر السيد صفي الدين هذا من جملة من رد على الشيخ ابن تيمية وينقل عنه مايهدم بنيانه ؟ وهل ذلك إلا من جملة أحكام منصبه التي يحكم بها بغير ماأنزل الله ؟ قاتله الله تعالى ماأشغفه بالباطل واتباع الهوى ! والعبارة التي نقلها محرفة غير منقولة بتمامها ، وكتاب السيد صفي الدين بين الايدي فلا تتعب البنان بنقل كلامه في هذا المقام ، وقد أسلفنا مرارا أن رد بعض العلماء على بعض لايستوجب القدح على من رد عليه ولا تبديعه ولا تفسيقه بوجه ، هذا فخر الدين الرازي قد حشى تفسيره من الرد على الامام أبي حنيفه رحمه الله ، وملأه من الهذيان عليه فأيّ قدح لحق بالامام أبا حنيفة من ذلك ؟ واعترض بعض علماء المالكية على الامام الشافعي بما لامزيد عليه فأيّ نقص لحقه منه ؟ وهكذا مما لايسع المقام بيانه ، هذا لو سلمنا أن السيد صفي الدين قد رد على الشيخ ، فكيف والامر بخلاف ذلك ؟ .

(قال النبهاني) ومنهم الحافظ عماد الدين بن كثير الشافعي ، ثم نقل من كتاب السيد صفي الدين ماذكره من عبارته المشتملة على الثناء على الحافظ ابن القيم ، الى أن قال : نعم أوذي بسبب قوله بقول الشيخ ابن تيمية في مسألة الطلاق ، ومع أنه خالف الائمة الاربعة في ذلك فلم ينفرد به كما هو مبين في موضعه ، وهو وان كان خطأ فاحشا فلا يوجب التفسيق انتهى .

(والجواب) ماحكيناه سابقا ، فان مانقله من الكلام هو أيضا على نسق ماقبله، فان النبهاني ينقل ماذكره السيد صفي الدين من أقوال العلماء الذابة عن الشيخ

فيعكس النبهاني القضية ويجعل تلك الاقوال رادة عليه ، ثم ذكر كلام البلقيني والامام السيوطي والكزبري والشيخ علي القاري والخفاجي وابن اسحق المالكي والزرقاني والصفدي والمناوي في الرد على الشيخ بزعمه ، مع أن غالب من ذكر كانوا من المثنين عليه والموالين له ، وكلامهم الذي نقله عنهم يشهد لما قلناه ، ولو سلم أن في كلام بعضهم غض على الشيخ استوجبه التعصب والتقليد للاشياخ وعدم الانصاف فلا تتعب البنان بنقل عباراتهم والكلام عليها .

(قال النبهاني) ومنهم صاحبنا العالم العامل الفاضل الكامل الشيخ مصطفى بن أحمد الشطي الحنبلي الدمشقي ، قال : ألف حفظه الله رسالة مخصوصة سماها (النقول الشرعية ، في الرد على الوهابية) وختمها بخاتمة في تأييد مذهب سادتنا الصوفية ، وطبعها ونشرها ، فمما قاله في المقالة الاولى منها ــ التي تكلم فيها على الاجتهاد ــ لاشك أن من ادعى ذلك في هذا الزمان عليه امارة البهتان ، كما يقع دعوى ذلك من فرقة شاذة نسبت نفسها للحنابلة ، الى أن قال : وقد ينكرون دعوى الاجتهاد ويحتجون بعبارة شيخ الاسلام ابن تيمية فقط مع أن الامام المذكور قد خرج من مذهب الحنبلي في عدة مسائل تفرد بها وتهيأ بخصوصها للاجتهاد المطلق ، الا أنها لم تدون على كونها مذهبا له كما دونت فروع مسائل المذاهب الاربعة .

ثم ذكر بعض تلك المسائل الى أن قال : وذكر في المقالة الرابعة من هذه الرسالة جواز التوسل والاستغاثة والاستشفاع بالانبياء والاولياء والصالحين حال حياتهم وبعد مماتهم ، وأقام الدليل على ذلك من الكتاب والسنة الى آخر قوله .

(والجواب) أن النبهاني كالغريق يتشبث بالحشيش حيث استدل بكل قول سمعه ووافق هواه ، ولو كان صادرا من الاطفال والصبيان ، وقصده أن يعظم حجم كتابه ليهول به على أمثاله من الجهلة ، ومن الشيخ مصطفى هذا الذي ذكره حتى يحتج بقوله في باب الجرح والتعديل ؟! أيظن أنه بسبب انتمائه الى مذاهب الحنابلة يؤخذ بقوله ويوثق بنقله ؟ فهل يلزم أن من ينتمي الى الشافعي كلهم كالسبكي وابن حجر المكي ونحوهما من الغلاة ؟ لا والله ، بل فيهم أئمة هادون مهديون ، وأفاضل منصفون ، وهكذا أصحاب كل مذهب والناس معادن .

وما كل مخضوب البنان بثينة ولا كل مصقول الحديد يماني

هذا مع أن مانقله عن صاحبه فلا حجة فيه لما هو بصدده ، أما مسألة انقطاع

الاجتهاد التي ذكرها فقد تكلمنا عليها أول الكتاب بما لامزيد عليه ، وأما مانقله عن شيخ الاسلام فهو حق وقد شهد له بالاجتهاد المطلق أكابر العلماء ، وأما قوله بالاستغاثة والتوسل فقد مر الكلام على بطلانها مفصلا ، وأما ثناؤه على الصوفية فلم يبين الثناء منه كان على أي قسم منهم ، فأما من كان منهم على منهج الجنيد وأضرابه فهم أهل للثناء ، وأما من كان يقول منهم بوحدة الوجود ويتكلم بما يصادم الشريعة فمدحهم والثناء عليهم مما يأباه العلماء الربانيون ، فما نقله عن صاحبه لايفيده فيما هو بصدده من ذكر كلام الرادين على شيخ الاسلام ، وقد ذكرنا أنه ليس في كلامه مايرد عليه ، وكتاب النقول الشرعية قد رد عليه علماء أهل السنة فلا نناقشه على ماذكر من السقط .

(قال النبهاني) ومنهم الامام شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي المكي ، وهو أشدهم ردا على ابن تيمية محاماة عن الدين ، وشفقة على المسلمين ، من أن يسري اليهم شيء من غلطاته الفاحشة ، ولاسيما فيما يتعلق بسيد المرسلين صلى اللهعليهوعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن نظر بعين الانصاف شهد لهذا الامام ابن حجر بالولاية ، وأنه ربما يكون قد أطلعه الله على ماسيحصل في المستقبل من الاضرار العظيمة التي ترتبت على أقوال ابن تيمية ، من فرقته الوهابية ، التي هو أصل اعتقادها ، وأساس فسادها ، ولا يخفي ماحصل منها من الاضرار العظيمة في حق المسلمين والاسلام ، ولا سيما في الحرمين الشريفين وجزيرة العرب ، فمن المحتمل احتمالا قريبا أن يكون الحق سبحانه وتعالى قد اطلع الامام ابن حجر على ذلك على سبيل الكرامة ، وهو أهل لذلك ، فانه رضي الله عنه كان من أكابر العلماء العاملين ، والائمة الهادين المهديين ، وهذا علمه وكتبه النافعة التي خدم بها الامة المحمدية خدمة لم يشاركه فيها سواه من عصره الى الآن قد ملأت الدنيا ، وانتفع بها الخاص والعام في جميع بلاد الاسلام ، ومن كان كذلك لايستبعد عليه أن يكون الله تعالى قد أكرمه باطلاعه على بعض المغيبات ، ومنها ماحدث من فرقة الوهابية اتباع ابن تيمية من المضار العظيمة على الشريعة المحمدية ، والملة الاسلامية ، ولذلك كانرضي الله عنه أشدأئمة المسلمين انكارا لبدع ابن تيمية وردا عليه بأشد العبارات شفقة على المسلمين ، ومحاماة عن هذا الدين المبين ، وله في ذلك عبارات كثيرة في كتبه ولا سيما في الفتاوى الحديثية ولم أر حاجة الى نقلها هنا فمن شاءها فليراجعها .

(أقول) انا قد أسلفنا عن النبهاني هذا المفتري على الله ورسوله صلى الله

عليه وسلم أنه قد اتصف بصفات الخزي والسوء وعدم الادب والحياء من الله ومن الناس فلا يستحي من كذب ولا يبالي بخزي ، وأما مساويه فهي كما قال القائل :

مساو لو قسمن على الغواني لما أمهرن الا بالطلاق

وهو — والامر لله تعالى — لايدري ولا يدري أنه لايدري ، فلا ينجع فيه كلام ولا يؤثر فيه سهام الملام ، بل هو كما قال المتنبي :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

ولم يزل يبدي ويعيد بباطله ، ويكرر كلامه مرة بعد أخرى ، وينقل المسائل التي قد تكرر الرد عليها من العلماء الاعلام ، ومزقوها بسهام الملام ، ولم يؤثر فيه كل ذلك حتى كأنه لم يسمع بما قيل فيها وطعن عليها ، بل يعتقدها وحيا منزلا من الله عز وجل ، فهو ممن قال الله تعالى فيه : (ثُمَّ قَسَتْ قُلوبُكُم من بَعْدِ ذلكَ فهيَ كالحجارَةِ أوْ أشَدُّ قسْوةً وإنَّ منَ الحِجارَةِ لَما يتفجَّرُ منْهُ الأَنْهارُ وإنَّ منْها لَما يشَّقَّقُ فيخْرُجُ منْهُ الماءُ وإنَّ منها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ)[1] .

وقد ذكر في هذا الكلام كلاما لابن حجر المكي عامله الله بعدله في قدح ابن تيمية وسبه وشتمه ، وقال : انه كان أشدهم ردا عليه ، والاحرى به أن يقول انه كان أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، فانه قد ملأ كتبه بشتم عباد الله الصالحين ، أهل الحديث النبوي وخدام السنة المطهرة والشريعة الغراء ، وقد انتدب للرد عليه بعض أهل العلم من عصرنا وقبله وبينوا سقطاته وغلطاته ، وكذبه وافترائه ، وخياناته في النقل ، وتحريفه للكلم عن مواضعه ، وغير ذلك من الامور التي لايقدم عليها من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومزقوا بسهام أقلامهم جميع ماحاكه من نسج الاباطيل وزخرف الاقاويل بما لامزيد عليه ، كما قد ردوا على أسلافه الغلاة بمثل ذلك ، وكتبهم مشهورة متداولة بين الايدي ، وفيها الكفاية لمن أخذت الهداية بيديه ، ومن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

(وحيث أن النبهاني) ميت القلب بليد الطبع جامد القريحة ، يرى كلام متبوعيه وأسلافه كالشريعة المنزلة والدين المتبع ، ولا شك أن ذلك مما كان عليه أهل الجاهلية ، ففي شرح مسائل الجاهلية التي أبطلها الاسلام للعلامة أبي عبد الله الشيخ محمد قوله : ومنها الاقتداء بفسقة أهل العلم وجهالهم وعبادهم وقد حذرهم الله تعالى من

---

(١) البقرة : ٧٤

ذلك بقوله : (يا أَيُّهـا الَّذينَ آمنوا إنَّ كثيراً من الأَحبار والرُّهبانِ ليأْكُلونَ أَموالَ النَّاسِ بالباطل ويصدُّونَ عن سبيلِ الله)[1] وقال تعالى : (قلْ يا أَهلَ الكِتاب لا تغْلوا في دينكُم غيرَ الحقِّ ولا تتَّبعوا أَهواء قومٍ قد ضلُّوا مِنْ قَبلُ وأَضلُّوا كثيراً وضلُّوا عنْ سواءِ السبيلِ)[2] الى آيات أخر تنادي ببطلان الاقتداء بالفسقة وأهل الضــلالة والغي ، وذلك من سنن أهل الجاهلية ، وطرائقهم المعوجة الردية .

قال : ومنها الاحتجاج بما كان عليه القرون السالفة من غير تحكيم العقل والاخذ بالدليل الصحيح ، وقد أبطل الله ذلك بقوله : (قالَ فمنْ ربُّكما يا موسى. قال ربُّنا الَّذي أَعطى كُل شيءٍ خَلقَهُ ثُمَّ هَدى. قال فما بالُ القُرونِ الأُولى. قال علمُها عنْدَ ربِّي في كتاب لا يضلُّ ربِّي ولا ينسَى. الَّذي جعَل لكُمُ الأَرضَ مَهْداً وسلكَ لكمْ فيها سُبُلاً وأَنزلَ منَ السماءِ ماءً فأَخرجنا بهِ أَزواجاً منْ نباتٍ شتَّى كلوا وارعَوا أَنعامَكمْ)[3] الآية. وقال تعالى : (فلمَّا جاءهمْ موسى بآياتنا بيِّناتٍ قالوا ما هذا إلاَّ سحرٌ مُفترى ، وما سَمعْنا بِهذا في آبائنا الأَوَّلينَ . وقال موسى ربِّي أَعلَمُ بمنْ جاء بالهُدى منْ عنده ومَنْ تكونُ لهُ عاقبةُ الدّارِ إنهُ لا يُفلحُ الظَّالمونَ)[4] وقال عز ذكره : (ولقدْ أَرسلنا نُوحاً الى قومِهِ فقال يا قوْمِ اعبدوا الله ما لكُمْ منْ إلهٍ غيرُه أَفلا تتَّقون. فقال الملأُ الَّذينَ كفروا من قومِه ماهذا إلاَّ بشَرٌ مثلكُمْ يُريدُ أَنْ يتفضَّلَ عليكُمْ ولَو شاء اللهُ لأَنزلَ ملائكةً ما سَمعْنا بِهذا في آبائنا الأَولين. إنْ هوَ إلاَّ رجلٌ بهِ جِنَّةٌ فتربَّصوا بهِ حتَّى حينٍ)[5] وفي آية أخرى : (وانطَلقَ الملأُ

---

(١) التوبة : ٣٤ (٢) المائدة : ٧٧ (٣) طه : ٤٩ ــ ٥٤ (٤) القصص : ٣٦ ، ٣٧ (٥) المؤمنون : ٢٣ــ٢٥

منهم أَن امشوا واصبروا على آلهتكم إنَّ هذا لشيءٌ يُرادُ ما سَمعنا بهذا في الملّة الآخرة انْ هذا الاّ اختلاقٌ)[1].

فجعلوا مدار احتجاجهم على عدم قبول ماجاءت به الرسل انه لم يكن عليه أسلافهم ولا عرفوه منهم ، فانظر الى سوء مداركهم وجمود قرائحهم ، ولو كانت لهم أعين يبصرون بها وآذان يسمعون بها لعرفوا الحق بدليله ، وانقادوا لليقين من غير تعليله ، وهكذا اخلافهم ووراثهم قد تشابهت قلوبهم أهـ .

(والنبهاني) من هؤلاء القوم الذين تكلم عليهم في شرح المسائل ، وهو مع جهله بكل علم ألف كتابا ذكر فيه مباحث كأنه لم يسمع بردها ، ولا علم بباطلها ، وملأه من الهذيان والزور والبهتان ، فكان ممن قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا في أصحاب السعير .

ومع ذلك فنحن نتكلم على مانقله هنا عن ابن حجر ، ونجيب عنه بجوابين مجمل ومفصل .

(أما الجواب المجمل) فهو ان مانقل عن ابن حجر لايضر شيخ الاسلام فانه عدو له ومن خصومه الالداء ، كما يدل على ذلك ما كان منه من الشتم والسب واللعن وغير ذلك مما لاينبغي أن يذكر بعضه في حق أعداء الله كاليهود وغيرهم من أعداء الدين ، وذلك خارج عن قوانين المناظرة المقصود منها اظهار الصواب ، والحامل له على ذلك تعصبه للسبكي ، فان كثيرا من الشافعية لهم حظ وافر مما كان عليه أهل الجاهلية من انتصار بعضهم لبعض ولو ظلما ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : (من تعزى بعزاء الجاهلية فاعضوه بهن أبيه ولا تكنوا) .

(وفي شرح المسائل) التي أبطلها الاسلام مانصه : ومن خصال الجاهلية أنهم لايقبلون من الحق الا ماتقول به طائفتهم ، قال تعالى : (واذا قِيلَ لَهم آمنوا بما أَنزلَ اللّهُ قالوا نُؤْمنُ بما أُنزل علينا ويكفرُون بما وراءَهُ وهو الحقُّ مَصدِّقاً لِما معَهم قُلْ فلِمَ تقتُلونَ أَنبياءَ اللّهِ مِن قَبْلُ انْ كُنتُم مؤمنينَ)[2].

---

(١) ص : ٦ ، ٧ (٢) البقرة : ٩١

ومعنى (نؤمن بما أنزل علينا) أي نستمر على الايمان بالتوراة ومافي حكمها مما أنزل في تقرير حكمها ، ومرادهم بضمير المتكلم اما أنبياء بني اسرائيل وهو الظاهر وفيه إيماء الى أن عدم ايمانهم بالقرآن كان بغيا وحسدا على نزوله علـى من ليس منهم ، وإما أنفسهم ، ومعنى الانزال عليهم : تكليفهم بما في المنزل من الاحكام،وذموا على هذه المقالة لما فيها من التعريض بشأن القرآن ودسائس اليهود مشهـورة ، أو لأنهم تأولوا الامر المطلق العام ونزلوه على خاص هو الايمان بما أنزل عليهم ، كمـا هو ديدنهم في تأويل الكتاب بغير المراد منه .

(ويكفرون بما وراءه وهو الحق) أي هم مقارنون لحقيقته أي عالمون بها (مصدقا لما معهم) لأن كتب الله يصدق بعضها بعضا ، فالتصديق لازم لاينتقل ، وقد قررت مضمون الخبر لانها كالاستدلال عليه ، ولهذا تضمنت رد قولهم : (نؤمن بما أنزل علينا) حيث أن من لم يصدق بما وافق التوراة لم يصدق بها (قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين) أمر للنبي صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك تسكيتا لهم حيث قتلوا الانبياء مع ادعاء الايمان بالتوراة وهي لاتسوغه .

قال : ومنها التعصب للمذهب والاقرار بالحق للتوصل الى دفعه ، قال تعالى : (وقالت طائفةٌ مِنْ أَهـلِ الكتابِ آمنـوا بالّذي أُنزلَ على الذين آمنوا وجهَ النَّهارِ واكفروا آخرَهُ لعلَّهم يرجعونَ . ولا تُؤْمنوا الاَّ لِمن تبع دينكمْ قُلْ انَّ الهدى هُدى اللّهِ أَنْ يُؤْتى أَحدٌ مِثْلَ ما أُوتيتُم او يُحاجُّوكمْ عند ربِّكمْ قُلْ انَّ الفضْلَ بيدِ اللّهِ يُؤْتيهِ مَنْ يشاءُ واللّهُ ذو الفضلِ العظيمِ)[1]

قال الحسن والسدي : تواطأ اثنا عشر رجلا من أحبار يهود خيبر وقرى عرينة وقال بعضهم لبعض ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد واكفروا آخر النهار ، وقولوا انا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمدا ليس بذاك ، وظهر لنا كذبه وبطلان دينه ، فاذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينهم ، وقالوا انهم أهل كتاب وهم أعلم به ، فيرجعون عن دينهم الى دينكم انتهى .

وما كان عليه ابن حجر المكي من الغلو في القبور والقـول بأقوال المتصـوفة الكاذبة وترويج بدعهم المعلومة أمر لايسعه الانكار ، وكتبه طافحـة بمثل هـذه

(١) آل عمران : ٧٢ ـ ٧٤

الاكاذيب ، وشيخ الاسلام قد بين أحكام الله تعالى في هذه الفئة الزائغة ، وذكر ما وردت به الشريعة من القول الحق الذي يذعن له كل من يسمعه ويصغي اليه ، وذلك من المسلم حتى لدى خصومه •

فمن جملة ماكتبه أبو الحسن السبكي الى الحافظ الذهبي أحد من أخذ على شيخ الاسلام في حق الشيخ تقي الدين مانصه :

وأما قول سيدي في الشيخ فالمملوك متحقق كبر قدره ، وزخارة بحره ، وتوسعه في العلوم الشرعية والعقلية ، وفرط ذكائه واجتهاده ، وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف ، والمملوك يقول ذلك دائما ، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل ، مع ماجمع الله له من الورع والزهادة والديانة ، ونصرة الحق والقيام فيه لالغرض سواه ، وجريه على سنن السلف وأخذه من ذاك بالمأخذ الاوفى ، وغرابة مثله في هذا الزمان بل من أزمان ، انتهى •

(والمقصود)أن كل ماعترض به ابن حجر على شيخ الاسلام مردود عليه ، فان منه ماهو افتراء ، ومنه ماهو مؤيد بالحجج والدلائل القطعية ، ومنه مالم ينفرد به بل قال بقوله جمع من المجتهدين ، وان ما كانمن تهور ابن حجرليس من الدينفيشيء وانما لمزيد حبه وغيه واتباعه لهواه ، فكلامه الذي نقله الغبي النبهاني وغيره كله مردود عليه •

(وأما الجواب المفصل) فنقول : أما قول ابن حجر فيه ما قال فذلك قول النبهاني هو أشدهم ردا على ابن تيمية محاماة عن الدين وشفقة على المسلمين الخ •• فقد صدق في جملة من هاتين الجملتين وكذب في الاخرى ، أما ماصدق فيها فقوله عن ابن حجر أنه أشد الناس ردا عليه والامر كما قال ، والسبب في ذلك ماذكرناه سابقا من الحب للبدع والكراهة للسنن النبوية ، فان من نظر الى كتب الشيخ ابن تيمية وجدها دينا خالصا ، وكلاما أشبه شيء بالذهب المصفى ، وعلم منها حرصه رحمه الله على السنة والمحاماة للشريعة ، والحط على أعداء الدين وخصماء السنة ، ومزيد حبه للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن راجع بعض فصول كتابه (الصارم المسلول) تبين له ماقلناه •

كل ذلك بخلاف ما كان عليه ابن حجر ، فتراه في كثير من كتبه يروج البدع ويدافع عنها ، ويذب عن أهلها ، ويخاصم اتباع السنن ، ويعادي أهل الحديث أشد

العداوة ، وينسب اليهم كل ماخطر على باله وجرى على لسان قلمه من الافك والزور والبهتان ، انظر الى ماذكره في فتاواه الحديثية بل البدعية تجدها مشحونة من العدوان على ابن تيمية ، وقبل أن تنشر كتب شيخ الاسلام تقي الدين ربما كان يظن من يظن أنه صادق في منقوله ، فلما انتشرت وتداولتها الايدي تبين لكل ذي عينين أن ابن حجر كذب وافترى ولم يتوثق به أحد بعد ذلك ، وسقط من درجة الاعتبار بالكلية الا لدى من أعمى الله عين بصيرته من الاغبياء .

وبذلك يظهر كذب النبهاني في الجملة الاخرى ، وهي أن انكاره كان شفقة على الدين الخ ، بل لو أنصف لقال : ان انكاره كان من بغضه للدين ، فانه شوق الناس على البدع والاهواء ، وحذرهم من كتب السنة ومحبة أهلها والمحامين لها ، ولذلك ترى من اغتر بأقواله الكاسدة في ظلمات من الجهل والغي والعمى ، لاينجع فيهم كلام ولا تمضي فيهم سهام الملام .

وأما من طالع كتب السنة — ولا سيما كتب شيخ الاسلام — تراه قد انكشفت عن بصيرته غشاوة التعصب واتبع مااقتضاه الدليل ، وهكذا الفرق بين المبتدع والسني ، ترى المبتدعة يصرفون النصوص والدلائل الى ماتهواه أنفسهم ، وأهل السنة يذهبون الى مايقوده اليهم الدليل ، ويتركون له ماتهواه أنفسهم ، وهذا بحمد الله بين .

وأما قوله : ومن نظر بعين الانصاف شهد لهذا الامام ابن حجر بالولاية ، وأنه ربما يكون قد أطلعه الله على ماسيحصل في المستقبل من الاضرار العظيمة فجوابه من وجوه :

(أما أولا) فيقال : ان الولاية والكرامة انما تكون لصلحاء الامة ، أهل التقوى والورع والكرامة ، لاتكون لمثل ابن حجر من الكذابين المفترين المتناقضين في أقوالهم المضطربين في دينهم ، وما أحسن مافي كتاب أنباء الابناء بأحسن الانباء : يابني من رأيتموه يطير في الهواء أو يمشي على وجه الماء — وقد خالف شيئا من الشريعة الغراء — فذاك من أولياء الشيطان ، لا من أولياء الرحمن ، فاياكم واياه ، واشتغلوا عنه بتقوى الله ، وقال شيخ الاسلام في كتابه (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) ومن حين بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم جعله الفارق بين أولياء الله وأعدائه ، فلا يكون ولي الله الا من آمن به واتبعه ظاهرا وباطنا ، ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء الله ، بل من خالفه كان من أعداء

الله وأولياء الشيطان قال تعالى : (قُلْ إِنْ كُنتُم تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعوني يُحبِبْكُمُ اللهُ)[1]

قال الحسن البصري : ادعى قوم انهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية محنة لهم وقد بين الله فيها أن من اتبع الرسول فان الله يحبه ، ومن ادعى محبة الله ولم يتبع الرسول فليس من أولياء الله تعالى ، وان كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم أو في غيرهم أنهم من أولياء الله ولا يكونون من أولياء الله فان اليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله وأنه لايدخل الجنة الا من كان منهم ، بل يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه قال تعالى : (قُلْ فلِمَ يُعذِّبُكم بِذنوبِكم بلْ أنتم بشرٌ ممَّن خلَقَ) الى قوله: (واليْه المصيرُ)[2] وقال تعالى : (وقالوا لَنْ يدْخُلَ الجنَّةَ الاَّ مَنْ كان هوداً أو نصارى تلْكَ أَمانيُّهم) الى قوله : (ولا هُم يَحزنونَ)[3] وكان مشركوا العرب يدعون أنهم أهل الله لسكناهم مكة ومجاورتهم البيت ، وكانوا يستكبرون به على غيرهم كما قال تعالى : (قدْ كانتْ آياتي تُتْلَى عليْكُمْ) الى قوله : (سامراً تَهجرونَ)[4] وقال تعالى : (وإِذْ يمكُرُ بكَ الَّذينَ كفَروا ليُثبِتوكَ أَو يقتُلوكَ) الى قوله : (وهُم يصُدُّونَ عنِ المسْجد الحرام وما كانوا أولياءَهُ إنْ أَولياؤُه الاَّ المتَّقونَ ولكنَّ أَكثَرَهُم لا يعْلَمونَ)[5] فبين سبحانه وتعالى أن المشركين ليسوا أولياءه ولا أولياء بيته انما أولياؤه المتقون .

وثبت في الصحيحين عن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جهارا غير سر (إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء انما وليي الله وصالح المؤمنين) وهذا موافق لقوله تعالى وان تظاهرا عليه الى قوله ظهير وصالحوا المؤمنين المتقون أولياء الله ، ودخل في ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا تحت الشجرة وكانوا ألفا وأربعمائة كلهم في الجنة ، كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لايدخل النار أحد بايع تحت الشجرة) ومثل هذا الحديث الآخر : (ان أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا) كما أن من الكفار من يدعي أنه ولي الله وليس وليا لله بل عدو له، وكذلك من المنافقين الذين يظهرون الاسلام ويقرون في الظاهر بشهادة أن لا اله الا الله وأن

(١) آل عمران : ٣١ (٢) المائدة : ١٨ (٣) البقرة : ١١١ ، ١١٢ (٤) المؤمنون : ٦٦ ، ٦٧ (٥) الانفال : ٣٠ - ٣٤

محمدا رسول الله ، وأنه مرسل الى جميع الانس ، بل الى الثقلين الانس والجن ، ويعتقدون في البواطن ماينافض ذلك ، مثل أن لايقروا في الباطن أنه رسول الله ، انما كان ملكا مطاعا ساس الناس برأيه من جنس غيره من الملوك ، أو يقول انه رسول الله الى الاميين دون أهل الكتاب كما يقول كثير من اليهود والنصارى ، أو يقول انه مرسل الى عامة الخلق وأن لله أولياء خاصة لم يرسل اليهم ولا يحتاجون اليه ، أو أن لهم طريقا الى الله من غير جهته كما كان الخضر مع موسى ، أو أنهم يأخذون عن الله كلما يحتاجون اليه وينتفعون به من غير واسطة ، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة وهم موافقون له فيها ، وأما الحقائق الباطنية فلم يرسل بها ولم يكن يعرفها ، أو هم أعرف منه أو يعرفونها بمثل مايعرفها هو من غير طريقته ، وقد يقول بعض هؤلاء أن أهل الصفة كانوا مستغنين عنه ولم يرسل اليهم الى آخر ماذكره من التفصيل الذي لاتجده في غيره .

ومنه يعلم أن ابن حجر المكي ليس منهم في شيء ، فانه كان ممن يجوز الالتجاء الى غير الله تعالى ، والاستغاثة بالانبياء والصالحين ، والاستعانة بهم والتوسل ، وغير ذلك مما أسلفنا حكمه ، وبينا اختلاف أهل العلم في ايمانه واسلامه ، هذا ماعدا ماذكره في تضاعيف كلامه ولاسيما في كتابه (الجوهر المنظم) وما عدا مااقترف من الاثم في شتم خيار الامة وسبهم ولعنهم والافتراء عليهم فان هذه الامور متى اتصف بها شخص كان حكمه معلوما ، فكيف يجعل من الاولياء ويثبت له كرامات وخوارق؟! نعم انه يليق أن يكون لدى النبهاني من الاولياء ، وان الشياطين بعضهم أولياء بعض .

(وأما ثانيا) فلأن الاضرار التي ادعاها لموافقي ابن تيمية لم يبين ماهي ، ونحن نعلم أن كل مايخالف الكتاب والسنة فوجوده ضرر محض ، ومن وافق ابن تيمية في أقواله انما نهى عن المنكرات التي كانت بين الناس مما لم يكن مثلها في الجاهلية الاولى ، وأمر بالمعروف الذي يحبه الله ورسوله ، كل ذلك معلوم لدى العقلاء ، فلم لم يطلع الله ابن حجر — اذا كان وليا وصاحب كرامة — على ماحدث في الاسلام من الزيغ والاعوجاج والمنكرات الكثيرة في أخص بلاد الاسلام وأشرفها ، وما صادم الدين المبين من القواعد والاحكام التي يعرفها النبهاني ولا يحتاج الى أن ينبه عليها فانها اختلطت بلحمه وعظمه وعليها مدار معاشه وانتعاشه (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين)

(وأما ثالثا) فان قوله ان الاضرار التي ترتبت على أقوال ابن تيمية من فرقته الوهابية الخ ليس له محصل ولا حاصل ، فنحن نطالبه ببيان تلك الاضرار التي ادعاها أنها ترتبت على أقوال ابن تيمية ، مع أن أقواله هي عن الكتاب والسنة ، وما يترتب على الكتاب والسنة يترتب على الاقوال المأخوذة عنها ، والله سبحانه هو الذي أمر بجهاد المشركين ومحوهم من الارض أفيقال أن ذلك من المضار وفي الكتاب والسنة من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ماهو معلوم لدى كل ذي بصر ، أفيقال ان مايترتب على ذلك هو ضرر والكتاب والسنة أوجبا ازالة البدع والاهواءوابطالها وان أضر بأهلها ؟ أفيقال : ان مايترتب على ذلك يعد من الضرر ؟ والكتاب والسنة نهيا عن جميع الكبائر والمحرمات المفصلة في غير هذا الموضع فهل لوحظ مايترتب على ذلك من الضرر على من يتعاطاه ؟ فقول النبهاني هذا ساقط ليس له وجه •

(وأما رابعا) فان الذين أطلق عليهم اسم الوهابية ــ اطلاقا غلطا ــ هم أهل نجد وهم حنابلة من خيار أهل السنة ، وهم من أتباع الامام أحمد في الفروع لا من أتباع ابن تيمية ، وأما في العقائد والاصول فهم ليسوا بمقلدين لأحد فيها ، وهم لم يبتدعوا شيئا في الدين يكونون به فرقة أخرى ، ولم يتخذوا مع الله آلهة أخرى كما اتخذه الغلاة •

(وأما خامسا) فأي مضار ترتبت على موافقي ابن تيمية وهم الذين فعلوا ماأمر به النبي صلى الله عليه وسلم ،وامتثلوا أمره في الطاعةلولي الامر ، ويعتقدون أن مخالفته من خصال الجاهلية ، ففي شرح المسائل : أن مخالفة ولي الامر وعدم الانقياد له عندهم فضيلة ، وبعضهم يجعله دينا ، فخالفهم النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك ، وأمرهم بالصبر على جور الولاة ، والسمع والطاعة والنصيحة لهم ، وغلظ في ذلك وأبدى وأعاد ، وهذه الثلاث هي التي ورد فيها مافي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم : (إن الله يرضى لكم ثلاثا : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم) وروى البخاري عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من كره من أميره شيئا فليصبر فانه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية) وروى أيضا عن جنادة ابن أبي أمية قال : دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض ، فقلنا : أصلحك الله حدث بحديث ينفعك الله به سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعنا فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة ، في منشطنا

ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا ، وأن لاننازع الامر أهله ، إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان) والاحاديث الصحيحة في هذا الباب كثيرة ، ولم يقع خلل في دين الناس أو دنياهم الا من الاخلال بهذه الوصية ، انتهى .

وما كان من الحروب في نجد بين رؤسائهم أي ذنب لهم فيه ، وهم لم يبدأوا أحدا بحرب ولا ضرب حتى يبدأ الغير به فحينئذ يدافعون عن أنفسهم ، ودفع الصائل مأمور به ، فلم يحصل منهم ضرر على الشريعة بل هم أكثر المسلمين محاماة عليها كما سبق .

(وأما سادسا) أن ماينقل عن أهل نجد مما فعلوه بالحرمين لاأصل له كما لايخفى على من طالع كتب تواريخهم ، وفي كتاب (منهاج التأسيس في الرد على ابن جرجيس) وتتمته نبذة من ذلك ، وجزيرة العرب تشمل الحرمين ، بل هما الجزيرة بلسان الشرع ، فلا وجه لعطف الجزيرة على الحرمين .

(وأما قوله) ولذلك كان رضي الله عنه أشد أئمة المسلمين انكارا لبدع ابن تيمية الخ فجوابه : انا قد ذكرنا سابقا أن ماكان منه من التهور والتجاوز على ابن تيمية اتباعا لهواه ، وابن تيمية من أعظم الناس اتباعا للسنة وأكثرهم ردا للبدع ، وقول النبهاني شبيه بقول اخوانه المشركين ، ففي كتاب شرح المسائل التي أبطلها الاسلام من خصال الجاهلية تسميتهم اتباع الاسلام شركا ، قال تعالى :

(ماكان لِبشرٍ أَنْ يؤْتيهُ اللهُ الكتابَ والحُكمَ والنُّبوةَ ثُم يقولَ للنَّاسِ كونوا عباداً لي منْ دونِ اللهِ ولكنْ كونوا ربَّانيينَ بِما كُنتُم تُعلِّمونَ الكتابَ وبِما كُنتُم تدرسونَ ولا يأْمُركم أن تتخذوا الملائكةَ والنبيينَ أَرباباً أَيأْمُرُكُم بالكُفْرِ بعْدَ اذ أَنتُم مُسلِمونَ) (١)

أخرج ابن اسحق بسنده حين اجتمعت الاحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم الى الاسلام قالوا : أتريد يامحمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم ؟ فقال رجل من أهل نجران ــ نصراني يقال له الرئيس ــ أو ذاك تريد منا يامحمد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (معاذ الله أن نعبد غير الله ، أو نأمر بعبادة غيره مابذلك بعثني ، ولا بذلك أمرني) فأنزل الله تعالى الآية ، انتهى .

---

(١) آل عمران : ٧٩ ، ٨٠

وأظن أن النبهاني لايفرق بين البدعة والسنة ، ولا مايطلق عليه كل واحدة منهما ، بل لايعرف الايمان من ضده ، ولذلك سمى ابن تيمية مبتدعا ، وسمى نفسه وأضرابه مؤمنا ومن أهل السنة ، وقل له منشدا :

نزلوا بمكة في قبائل هاشم   ونزلت بالبيداء أبعد منزل

(وقل له)

أيها المدعي لسلمى انتسابا   لست منها ولا قلامة ظفر

ولابد من الكلام على البدعة حتى يعلم بعد معرفتها من المبتدع الذي أطلقه على شيخ الاسلام .

(كلام مفيد في تعريف البدعة)

اعلم أن البدعة لغة : المحدثة مطلقا ، واصطلاحا : اذا قوبلت بالسنة يراد بها المحدثة في الدين ، اما بزيادة أو نقصان ، وهي السيئة التي ليس لها أصل ظاهر من الكتاب والسنة أو سند صحيح استنبطه علماء الامة ، فاما ما كانت حسنة ناشئة عن هذه الاصول فهي قد تكون مباحة ، كالمواظبة على أكل لب الحنطة مثلا ، وقد تكون مستحبة كبناء المنارة وتصنيف الكتب ، وقد تكون واجبة كنظم الدلائل لرد كيد الملاحدة وشبه الفرق الضالة ، وقد وقع من ذلك عن الصحابة شيء كثير ، كما وقع لأبي بكر وعمر ، ولزيد بن ثابت في جمع القرآن ، فان عمر أشار به على أبي بكر خوفا من اندراس القرآن بموت الصحابة رضوان الله عليهم لما كثر فيهم القتل يوم اليمامة وغيره ، فتوقف أبو بكر لكونه صورة بدعة ، ثم شرح الله صدره لفعله لأنه ظهر له أنه يرجع الى الدين وأنه غير خارج عنه ، ولما دعا زيد بن ثابت وأمره بالجمع قال له : كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : والله انه حق ، وكما وقع لعمر في جمع الناس لصلاة التراويح في المسجد مع تركه صلى الله عليه وسلم لذلك بعد أن كان فعله ليالي ، وقال نعمت البدعة هي ، لأنها وان سماها بدعة باعتبار معناها اللغوي فليس فيها رد لما مضى وزيادة في الدين ، بل هي من الدين لأنه صلى الله عليه وسلم علل الترك بخشية الافتراض وقد زال بوفاته صلى الله عليه وسلم ، ومنشأ الذم ما قاد الى شيء من مخالفة السنة ودعا الى الضلالة .

ثم قال الفاضل السويدي : والقول الفصل الموضح لما تقدم هو أن البدعة لها معنيان : (أحدهما) لغوي ، وهو المحدث مطلقا سواء من العادات أو العبادات (وثانيهما) شرعي ، وهو الزيادة في الدين أو النقصان منه من غير اذن من الشارع ، لا قولا ولا فعلا ولا صريحا ولا اشارة ، فالبدعة التي هي ضلالة كما في الحديث هي بحسب معناها الشرعي ، فيقتصر بها على غير العادات من العبادات التي هي لأصول الشريعة من الكتاب والسنة والاذن من الشارع مخالفات ، فالمنارة عون لاعلام وقت الصلاة ، وتصنيف الكتب عون للتعليم ، ونظم الدلائل لرد الشبه ذب عن الدين ، فكل ذلك مأذون فيه ، لأن البدعة الحسنة مالم يحتج اليه الاوائل واحتاج اليه الاواخر ، وعند الاستقراء لاتوجد هذه البدعة في العبادات البدنية المحضة كالصوم والصلاة والذكر والقراءة ، بل لاتكون البدعة فيها الا سيئة .

قال صاحب مجالس الابرار ما ملخصه : لأن عدم وقوع الفعل في الصدر الاول إما لعدم الحاجة اليها ، أو لوجود مانع ، أو لعدم تنبه ، أو لتكاسل ، أو لكراهة ، أو لعدم مشروعية ، والاولان منتفيان في العبادات البدنية المحضة لأن الحاجة في التقرب الى الله تعالى لاتنقطع ، وبعد ظهور الاسلام لم يكن منها مانع ، ولا يظن بالنبي صلى الله عليه وسلم عدم التنبه أو التكاسل ، فذاك أسوأ الظن المؤدي الى الكفر ، فلم يبق إلا كونها سيئة غير مشروعة .

وكذلك يقال لكل من أتى في العبادات البدنية المحضة بصفة لم تكن في زمن الصحابة ، اذ لو كان وصف العبادة في الفعل المبتدع يقتضي كونه بدعة حسنة لما وجد في العبادات ماهو بدعة مكروهة ، ولما جعل الفقهاء مثل صلاة الرغائب والجماعة فيها ومثل أنواع النغمات الواقعة في الخطب وفي الاذان وقراءة القرآن في الركوع مثلا والجهر بالذكر أمام الجنازة من البدع المنكرة ، فمن قال بحسنها قيل له ماثبت حسنه بالادلة الشرعية فهو اما غير بدعة فيبقى عموم العام في حديث : (كل بدعة ضلالة) وحديث : (كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد) على حاله ، أو يكون مخصوصا من هذا العام ، والعام المخصوص دليل فيما عدا ماخص منه ، فمن ادعى الخصوص فيما أحدث أيضا احتاج الى دليل يصلح للتخصيص من كتاب أو سنة أو اجماع مختص بأهل الاجتهاد ، ولا نظر للعوام ولعادة أكثر البلاد فيه ، فمن أحدث شيئا يتقرب به الى الله تعالى من قول أو فعل فقد شرع من الدين مالم يأذن به الله ، فعلم أن كل بدعة في العبادات البدنية المحضة لاتكون الا سيئة .

(والحاصل) أن كل ماأحدث ينظر في سببه فان كان لداعي الحاجة بعد أن لم يكن ـ كنظم الدلائل لرد الشبه التي لم تكن في عصر الصحابة ، أو كان وقد ترك لعارض زال بموت النبي صلى الله عليه وسلم كجمع القرآن ، فان المانع منه كون الوحي لايزال ينزل فيغير الله مايشاء وقد زال ـ كان حسنا ، وإلا فاحداثه بصرف العبادات البدنية القولية والفعلية تغيير لدين الله تعالى ، مثلا الأذان في الجمعة سنة ، وقبل صلاة العيد بدعة ، ومع ذلك فانه يدخل في عموم قوله تعالى : (واذْكُروا الله ذكراً كثيراً)[١] وقوله تعالى : (ومَنْ أَحسنُ قولاً ممَّنْ دعى إلى اللهِ)[٢] فيقول قائل : هذا زيادة عمل صالح لايضر ، لأنه يقال له هكذا تتغير شرائع الرسل ، فان الزيادة لو جازت لجاز أن يصلي الفجر أربعا والظهر ستا ، ويقال هذا عمل صالح زيادته لاتضر ، لكن أهل السنة يتبعون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الفعل والترك ، فان الله تعالى قد بين لنا الشرائع وأتم لنا الدين ، فهذا هو من غير زيادة أو نقص ، فالزيادة عليه كالنقصان ، فنعبده بما شرع ، ولا نعبده بالبدع ، فعقولنا عن مثل ذلك قاصرة ، وآراؤنا اذا كاسدة خاسرة ، والعقول لاتهتدي الى الاسرار الالهية ، فيما شرعه من الاحكام الدينية ، أو ماترى كيف نوديت الى الصلاة دائما ، ونهيت عنها في الاوقات الخمسة ، وذلك ينتهي الى قدر ثلث النهار ، فينبغي لك أن تكون حريصا على التفتيش عن أحوال الصحابة وأعمالهم فهم السواد الاعظم ، ومنهم يعرف الحسن من القبيح ، والمرجوح من الرجيح ، واذا وقع أمر ينظر فيه الى قواعد المجتهدين الذين هم السلف لمن خلف ، فان وافق أصولهم قبله المتبع بقلبه ، والا فلينبذه وراء ظهره وليتبصر في جلية أمره ، ولا تغرنك عوائد الناس فانها السموم القاتلة والداء العضال ، وعين المشاقة المؤدية الى الضلال ، وقد كان هشام بن عروة يقول : لاتسألوا الناس اليوم عما أحدثوه فانهم قد أعدوا له جوابا ، لكن سلوهم عن السنة فانهم لايعرفونها واخرج أبو داود عن حذيفة رضي الله عنه ، قال : كل عبادة لم تفعلها الصحابة فلا تفعلوها ، وأخرج البيهقي أن ابن عباس قال أبغض الامور الى الله تعالى البدع .

(فمن البدع السيئة) ماخالفت شيئا من ذلك صريحا أو التزاما ، وقد تنتهي الى مايوجب التحريم تارة والكراهة أخرى ، والى مايظن أنه طاعة وقربة .

فمن الاول الانتماء الى جماعة يزعمون التصوف ويخالفون ماكان عليه مشائخ

---

(١) الاحزاب : ٤١ (٢) فصلت : ٣٣

الطريق من الزهد والورع وسائر الكمالات المشهورة عنهم ، بل كثير من أولئك إباحية لايحرمون حراما لتلبيس الشيطان عليهم أحوالهم القبيحة الشنيعة ، فهم باسم الفسق أو الكفر أحق منهم باسم التصوف أو الفقر .

ومنه ماعمت به البلوى من تزيين الشيطان للعامة تخليق حائط أو عمود أو تعظيم نحو عين أو حجر أو شجرة لرجاء شفاء أو قضاء حاجة ، وقبائحهم في هذا ظاهرة غنية عن الايضاح والبيان ، وقد صح أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم مروا بشجرة سدر قبل حنين كان المشركون يعظمونها وينوطون بها أسلحتهم أي يعلقونها بها ، فقالوا يارسول الله اجعل لنا ذوات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الله أكبر ، هذا كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ، قال انكم قوم تجهلون ، لتركبن سنن من كان قبلكم) .

ومن الثاني ومنشأه أن الشارع يخص عبادة بزمن أو مكان أو شخص أو حال فيعممونها جهلا وظنا أنها طاعة مطلقا نحو صوم يوم الشك أو التشريق والوصال ، ومنه التعريف بغير عرفة ، ومنه صلاة ليلة الرغائب أول جمعة في رجب وليلة النصف من شعبان فهما بدعتان مذمومتان .

قال السويدي : ومن أعظم البدع الغلو في تعظيم القبور ، فلقد اتخذوها في هذا الزمان معابد يعتقدون أن الصلاة عندها أفضل من الصلاة في جميع بيوت الله ، وهم وان لم يصرحوا ولكن طبعت قلوبهم على ذلك ، فتراهم يقصدونها من الاماكن البعيدة وربما أن تكون بحذائهم مساجد مهجورة فيعطلونها ، واذا لحقوا على الصلاة فيها ولو في أوقات الكراهة كانت أفضل عندهم من الصلاة في الاوقات الفضيلة في المساجد ، وتلك المساجد التي بحذاء القبور ليست مقصودة لكونها بيوتا لله بل لكونها حضرات لمن انتسبت اليه من أهل تلك القبور ، يدلك على ذلك كله أنهم لايسمونها الا حضرات ، فاذا قلت لأحدهم أين صليت قال لك صليت في حضرة الشيخ فلان ، وليس مقصودهم به الا التقرب به وبحضرته ، وكلما أكثر الرجل الترداد الى القبور ــ ولو كانت مشتملة على أنواع المنكرات من ستور الحرير والديباج والترصيع بالفضة والعقيان فضلا عن غيرها ــ كان مشهورا بين الناس بالديانات ، مغفور الزلات ، مقربا عند أصحاب تلك الحضرات ، ولقد امتلأت قلوب العوام من رجائهم ومخافتهم ، فتراهم اذا عضلت عليهم الامور أوصى بعضهم بعضا بقصد أصحاب القبور ، وكذلك اذا وقع على أحد يمين بالله حلف به من غير أدنى وجل

أو حذر ، واذا قيل له احلف بفلان عند قبره خصوصا اذا أمره بالغسل لهذا اليمين ليكون ذلك من أقوى العبادات : خاف خوفا يظهر على جميع جوارحه ، فلو سلمنا أنه أدخل الى قبره ارتعدت فرائصه وانحلت قواه ، وربما أن أحدهم ــ لكثرة أوهامه وشدة خوفه ــ تبطل حواسه فيزدادون كفرا ، وتضحك عليهم الشياطين جهرا ، وترى كثيرا منهم يعلقون مرضاهم عليهم ، فيأخذون المريض وهو في غاية شدته فيدخلونه على قبره ، والسعيد عندهم من يدخلونه داخل شباكه ويتعلق بستر قبره ، والرزية العظمى أنهم في حالتي السراء والضراء يتلاعب ابليس بهم ، فان مات مريضهم قالوا ماقبلنا الشيخ فلان يعنون به صاحب القبر ، وان صادف القدر فعوفي سيما اذا وافق مطلوبهم ذلك الوقت فرحوا بما عندهم من الكفر ، فأرسلوا القرابين ومعها شموع العسل موقدة من بيوتهم ، اظهارا لقدر صاحب القبر وتنبيها على فضيلته ، وكثيرا ماينشرون الرايات له على طريقة أهل الجهل من الاعراب أن من فعل شيئا عظيما نشرت له راية بيضاء ، وقد رأيت من لم يفعل ذلك ولكنه ينصب راية بيضاء على سطح داره ثلاثة أيام يصيح كل يوم وقت المغرب بأعلى صوته الراية البيضاء المبنية لفلان بيض الله وجهه •

قال وبالجملة : فأكثر البدع الخبيثة نشأت من هنالك ، حتى أني رأيت بدمشق الشام أناسا ينذرون للشيخ عبد القادر الجيلي قنديلا يعلقونه في رؤس المنابر ويستقبلون به جهة بغداد ويبقى موقدا الى الصباح ، وهم يعتقدون أن ذلك من أتم القربات اليه ، كأنهم يقولون بلسان حالهم أينما توقدوا فثم عبد القادر •

فيالله العجب ماهذه الخرافات ؟! وأين دين الله الذي قد مات ؟بال الشيطان في عقولهم وأضلهم عن سبيلهم ، ولا ترى أحدا ينهى وينكر أمثال ذلك •

وأعظم مما هنالك ومن أقبح المنكرات : مايستعملها جميع الناس عند وضع الاناث ولاسيما في شدة الطلق ، فانهن يستغثن بعلي بن أبي طالب ، وكلما اشتدالطلق صاحت النساء بأعلى أصواتهن داعيات ومستغيثات به ليفرج عنهن ماقد كربهن ، ومن يسمعهن يتيقن اشراكهن ، وقلما تسلم امرأة منهن في هذا الحال العظيم ، والخطب الجسيم ، وكثير منهن يزعمن أنه الموكل بالارحام ، والموكل اليه في هذه الاحوال العظام •

(ومن البدع المنكرة) أن كثيرا من أهل الهند وأهل الاماكن القاصية يرسلون الهدايا العظيمة ، والاموال الكثيرة ، اما لاجراء القنوات لأجل المجاورين عند

قبورهم ، فانهم عندهم أفضل خلق الله ، ومن جاور عندهم فكأنما ابتاع منهم قطعة من الجنان ، واما لعمل قبابهم بصفائح الذهب والعقيان ، وبعضهم يرسل هدايا عظيمة ليرسل له السدنة اعلاما ينشرونها على فلكهم اذا وقعوا في شدتهم ، فيكون اسمه المكتوب في تلك الاعلام المرسلة اليهم كشافا لكربتهم نفاعا لهم بانجاح بغيتهم ، قال : وأكثر نساء بغداد اذا قمن صحيحات من وضعهن يخبزن خبزا يسمينه عباس المستعجل يزعمن أن العباس بن علي ابن أبي طالب هو المتكفل بهذه الامور العظام .

(ومن ذلك عند الناس شيء كثير) من أحجار وآبار ، وصخور وأشجار ، يزعمون منها شفاء الامراض وقضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ، ولو بسطت الكلام في ذلك — مما يستعمله الرجال والنساء ، أو يختص بالنساء ، من أشياء يعلقنها عليهن ، ويبين خواصها وتأثيراتها في أزواجهن ، ويسمينها بأسماء لو رجعت الجاهلية الاولى لعجزت عن أقل القليل من هذه الجهالات وسوء الاعتقادات — لاحتمل مجلدات ، والويل كل الويل لمن أنكر ذلك ، أو تكلم بأدنى شيء ينجى من تلكم المهالك .

(ومن أسخف البدع) أنك تسمع وقت خسوف القمر من الضرب بالطسوس والنحاس شيئا عظيما ، ولا تكاد تسمع برجل دخل بيتا من بيوت الله للصلاة فيه أو صلى في بيته أو استغفر أو تاب أو تصدق ، فبالله نستعين على زمان أميتت فيه السنن واستؤنس بالبدع ، اللهم واذا أردت بقوم فتنة فاقبضنا اليك غير مفتونين آمين .

(ومن البدع المنكرة) مايستعمله المتصوفة من أذكار اشتملت على الدفوف والطبلات والغناء وأنواع الرقص ويسمونه حالا ، وتراهم يعملون ذلك ومغنيهم ينشدهم من الشعر المشتمل على مالا يرضي الله تعالى ، ويحضره الفسقة والمرد والنساء ، فيحصل من ذلك ماتظهر به شعائر الفسق والعصيان ، وترى الشيخ لو حصلت له مواجهة الظلمة وظفر بدراهمهم لعدها من أطيب المكاسب ، وأقرب المراتب ، لا أكثر الله من أمثالهم .

وأعظم الناس بلاء في هذا العصر على الدين والدولة : مبتدعة الرفاعية ، فلا تجد بدعة إلا ومنهم مصدرها وعنهم موردها ومأخذها ، فذكرهم عبارة عن رقص وغناء والتجاء الى غير الله وعبادة مشائخهم ، وأعمالهم عبارة عن مسك الحيات والعقارب ونحو ذلك .

قال ابن خلدون في (كتابه العبر) قد كثر الزغل في أصحاب الشيخ أحمد وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذ التتار العراق ، من دخول النيران ، وركوب السباع ، واللعب بالحيات ، وهذا لايعرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه ، فنعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، انتهى •

وشيخ الاسلام ابن تيمية قد أطنب في بيان ضلالاتهم وجهالاتهم وحيلهم ، ومايخدعون به الجهال وغير ذلك من أفعالهم وأعمالهم ، ولهم معه حوادث ومجالس فمن أراد الوقوف على ذلك فعليه بمراجعة كتابه الذي ألفه في بيان أحوالهم وسماه : (كشف حال المشائخ الاحمدية ، وبيان أحوالهم الشيطانية) ولولا طول الكلام لاتحفنا القراء بذكر شيء منه •

(والحاصل) أنه لو أراد الانسان أن يفصل منكرات القبور وتكيات الصوفية ومنكرات الحيطان والآبار والصخور والاحجار والتماثيل ، وكذا منكرات المساجد والحمامات والطرقات والاسواق والبوادي والامصار ، فضلا عن الدخول في منكرات المجالس والملابس والبيع والشراء ، وما ابتدعوه فيها وجعلوه كالسنة المأمور بها : لضاق عنه التحرير ، وعجز عن ضبطه من تصدى للتسطير ، وعسى الله سبحانه وتعالى أن يرسل في هذه الامة من يجدد لها أمر الدين ، ويتبع سبيل المؤمنين •

(والمقصود) أن النبهاني لم يعرف معنى البدعة ولا محل اطلاقها ، فلذلك جعل شيخ الاسلام مبتدعا وجعل نفسه متبعا مع قوله بوحدة الوجود ، ونداء غير الله في الحاجات والضرورات ،وصرف عمره بأحكام العدلية وقوانينها ، واعتقاده بألوهية النبي صلى الله عليه وسلم ، الى غير ذلك من الامور التي لو اعتقد أحد أمرا واحدا منها كفى في اخراجه عن الدين المبين ، وزيغه عن اتباع سبيل المؤمنين ، وما أحقه بقول القائل من الاكابر والاماثل :

مساو لو قسمن على الغواني   لما أمهرن الا بالطلاق

وأما شيخ الاسلام وعلم الاعلام : فقيامه بنصرة الدين أمر معلوم ، وجهاده في الله حق الجهاد لاينكره ذوو الفهوم ، وقول النبهاني هذا كما حكى الله عن اخوانه الجاهليين ، ففي شرح المسائل من خصالهم الايمان بالجبت والطاغوت ، وتفضيل المشركين على المسلمين ، قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ الى الَّذين أُوتوا نصيباً من الكتاب

يُؤْمنونَ بالجبْتِ والطَّاغوتِ ويقولونَ للَّذين كفروا هؤلاء أَهدي مِنَ الَّذين آمنوا سَبيلاً)[1] .

قالوا : نزلت هذه الآية في حيي بن أخطب وكعب بن الاشرف في جمع من يهود وذلك أنهم خرجوا الى مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل كعب على أبي سفيان فأحسن مثواه ، ونزلت اليهود في دور قريش ، فقال أهل مكة : انكم أهل كتاب ومحمد صلى الله عليه وسلم صاحب كتاب فلا يؤمن هذا أن يكون مكرا منكم فان أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما ففعل ، ثم قال كعب : ياأهل مكة ليجيء منكم ثلاثون ومنا ثلاثون فنلزق أكبادنا بالكعبة فنعاهد رب البيت لنجهدن على قتال محمد ففعلوا ذلك ، فلما فرغوا قال أبو سفيان لكعب : إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لانعلم فأينا أهدى طريقا وأقرب الى الحق نحن أم محمد ؟ قال كعب : اعرضوا على دينكم ، فقال أبو سفيان : نحن ننحر للحجر الكوماء ، ونسقيهم اللبن ، ونقرى الضيف ، ونفك العاني ، ونصل الرحم ، ونعمر بيت ربنا ، ونطوف به ، ونحن أهل الحرم ، ومحمد فارق دين آبائه ، وقطع الرحم ، وديننا القديم ، ودين محمد الحديث ، فقال كعب : أنتم والله أهدى سبيلا مما عليه محمد ، فأنزل الله في ذلك الآية .

والجبت في الاصل : اسم صنم فاستعمل في كل معبود غير الله ، والطاغوت : يطلق على كل باطل من معبود أو غيره ، ومعنى الايمان بهما : اما التصديق بأنهما آلهة واشراكهما بالعبادة مع الله تعالى ، واما طاعتهما وموافقتهما على ماهما عليه من الباطل واما القدر المشترك بين المعنيين كالتعظيم مثلا ، والمتبادر المعني الاول ، أي أنهم يصدقون بألوهية هذين الباطلين ويشركونهما في العبادة مع الاله الحق ويسجدون لهما اه .

(قال النبهاني) فقد ثبت وتحقق وظهر ظهور الشمس في رابعة النهار أن علماء المذاهب الاربعة قد اتفقوا على رد بدعة ابن تيمية ، ومنهم من طعن بصحة نقله كما طعن بكمال عقله فضلا عن شدة تشنيعهم عليه في خطئه الفاحش في تلك المسائل التي شذ بها في الدين ، وخالف بها اجماع المسلمين ، ولا سيما فيما يتعلق بسيد المرسلين .

---

(١) النساء : ٥١

(الجواب عنه) أنه قد ثبت وتحقق لدى كل منصف أن علماء المذاهب الاربعة أثنوا عليه ، واعترفوا بفضله ، وألفوا في مناقبه كتبا مفصلة ، ومن شذ منهم وطعن عليه القم الحجر ورد عليه كلامه ، وان اعتراضه كان لجهل أو غرض أو تعصب أو نحو ذلك ، وتبين أن ابن تيمية لم يبتدع شيئا في الدين ، وما اختار شيئا الا وأقام عليه الدلائل الصحيحة والبراهين ، ومن طعن بصحة نقله فهو عدو له مبين ، ولم يسلم أحد من لسان الخلق حتى رب العالمين ، وسيد الاولين والآخرين ، وغزارة علمه من سعة عقله وكمال فضله ، وما ذهب اليه من المسائل هو الحق الحقيق بالقبول ، وحديث الاجماع على خلافها كذب عند علماء المنقول والمعقول .

قال الحافظ الذهبي : مارأيت أشد استحضارا للمتون وعزوها منه ، وكانت السنة بين عينيه وعلى طرف لسانه بعبارة رشيقة وعين مفتوحة .

وقال حافظ الاسلام الحبر النبيل أستاذ أئمة الجرح والتعديل شيخ المحدثين جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الركن عبد الرحمن المزي الشافعي في ابن تيمية : مارأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه ، وما رأيت أحدا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا أتبع لهما منه ، وناهيك بهذا الكلام من الحافظين العدلين المستوعبين أبي الحجاج المزي وأبي عبد الله الذهبي .

وقال الشيخ الامام بقية المجتهدين تقي الدين بن دقيق العيد الشافعي لما اجتمع به وسمع كلامه : كنت أظن أن الله تعالى مابقى يخلق مثلك ، وقال أيضا : رأيت رجلا العلوم كلها بين عينيه يأخذ منها مايريد ويدع مايريد .

وقال الحافظ عماد الدين بن كثير الشافعي : وبالجملة كان رحمه الله تعالى من كبار العلماء ، وممن يخطيء ويصيب ، ولكن خطؤه بالنسبة لصوابه كنقطة في بحر لجى ، وخطؤه أيضا مغفور له لما صح في صحيح البخاري : (اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، واذا اجتهد فأخطأ فله أجر) .

قال السيد صفي الدين الحنفي في ترجمة ابن تيمية : قد نص على أنه بلغ رتبة الاجتهاد جمع من العلماء : منهم الامام أبو عبد الله الذهبي ، والحافظ بن حجر ، والحافظ السيوطي في طبقات الحفاظ ، ولم يتفرد بمسألة منكرة قط ، وان كان قد خالف الأئمة الاربعة في مسائل فقد وافق فيها بعض الصحابة أو التابعين الخ انتهى . وسنفرد له ان شاء الله فصلا مفصلا في ذكر مناقبه وبهذا أيضا تبين الحاد

النبهاني وزوره وكذبه واتباعه لهواه ، وقد جادل بغير علم ، وذلك كما كان عليه أهل الجاهلية .

(وفي شرح المسائل) الجدال بغير علم كما ترى كثيرا من أهل الجهل يجادلون أهل العلم عند نهيهم عما ألفوه من البدع والضلالات ، وهي خصلة جاهلية نهانا الله تعالى عن التخلق بها ، قال تعالى : (يا أَهلَ الكتابِ لِمَ تُحاجُّونَ في ابراهيم وما أُنْزِلَت التوراةُ والانجيلُ إلاَّ مِن بعدهِ أَفلا تعقلونَ . ها أَنتم هؤُلاء حاجَجْتم فيما لكُم به عِلْمٌ فلِمَ تُحاجُّونَ فيما ليْسَ لكُم به عِلْمٌ واللهُ يعلَمُ وأَنتُم لا تعلَمونَ)[1] .

أخرج ابن اسحق وابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، قال : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنازعوا عنده ، فقالت الاحبار ماكان ابراهيم الا يهوديا ، وقالت النصارى ، ماكان ابراهيم الا نصرانيا ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية المنادية على جهلهم وغباوتهم انتهى .

فوازن بين النبهاني وبين اخوانه تجد الفريقين كما قال القائل :

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما باسحم داج عوض لاتتفرق

(وأما قوله) ولاسيما فيما يتعلق بسيد المرسلين الخ فانه يدل على أن ابن تيمية مخل بحقوق النبي صلى الله عليه وسلم ، وبه صرح مرارا حيث قال : ان ابن تيمية حيث لم يجوز الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا دعاءه ولا الالتجاء اليه ولا شد الرحل الى زيارة قبره : فاعلم أن حب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وتعظيمه باتباع شريعته ، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وحبه وتعظيمه بما ذكره الخصم : هو من قبيل تعظيم النصارى لعيسى ، وغلوهم في الانبياء والرسل عليهم السلام ، قال تعالى : (يا أَهلَ الكتابِ لاتغْلوا في دينكُم ولا تقولوا على الله إلاَّ الحقَّ انَّما المسيحُ عيسى ابنُ مريَمَ رسولُ اللهِ وكلمتُه أَلقاها الى مريَم وروحٌ منهُ فآمنوا بالله ورُسلِه ولا تقولوا ثلاثةٌ انتَهوا خيراً لكمُ انما اللهُ الهٌ واحدٌ سبحانهُ أَنْ يكونَ لَهُ ولَدٌ)[2] والغلو في المخلوق هو أعظم أسباب عبادة الاصنام

(١) آل عمران : ٦٥ ، ٦٦ (٢) النساء : ١٧١

والصالحين ، كما كان في قوم نوح من عبادة نسر وسواع ويغوث ويعوق ونحوهم وكما كان من عبادة النصارى للمسيح عليه السلام ، وهذا هو القول على الله بغير الحق •

والمقصود : أن مراعاة حقوق النبي صلى الله عليه وسلم انما تكون بالمحافظة على شريعته لابما يقول النبهاني الغبي ، ومن المعلوم ماكان عليه ابن تيمية من اتباع السنن ، والمحافظة على الشريعة الغراء ، ومزيد الادب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى انه عقد فصلا في كتابه (الصارم المسلول) لبذل الاموال وسفك الدماء في تعزير رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقيره ، وفصلا آخر في فرض الله علينا تعزيره وتوقيره ، وفصلا آخر في أن قيام المدحة والتعظيم والثناء عليه صلى الله عليه وسلم قيام الدين كله ، وفصلا آخر في أن شاتم الرسول صلى الله عليه وسلم يتعين قتله ، وفصلا آخر في أن الله تعالى أوجب لنبيه صلى الله عليه وسلم حقوقا زائدة على القلب واللسان والجوارح ، وأن سبه سب لجميع المسلمين ، وطعن في دينهم ، وفصلا آخر في أن التعظيم والمحبة للرسول صلى الله عليه وسلم لازم للايمان ، وفصلا آخر في بيان حكم الطعن في نسبه أو خلقه أو خُلقه أو أمانته أو وفائه أو صدقه ، وذكر فصولا أخرى مهمة كلها تدل على ماانطوى عليه من مزيد حبه وأدبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى انه قال نقلا عن القاضي عياض جميع من سب النبي صلى الله عليه وسلم أو عابه أو ألحق به نقصا في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله أو عرض به شبهة بشيء على طريق السب له والازراء عليه أو البغض منه والعيب له : فهو ساب له ، والحكم فيه حكم الساب يقتل ، ولا تستثن فصلا من فصول هذا الباب عن هذا المقصد ، ولا تمتر فيه تصريحا كان أو تلويحا ، وكذلك من لعنه ، أو تمنى مضرة له ، أو دعا عليه ، أو نسب اليه مالا يليق بمنصبه على طريق الذم ، أو عيبه في جهة الغريزة بسخف من الكلام ، وهجر ومنكر من القول وزورا ، أو عيره بشيء مما يجري من البلاء والمحنة عليه ، أو غمضه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهود لديه ، قال : وهذا كله اجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن أصحابه وهلم جرا •

وقال ابن القاسم عن مالك من سب النبي صلى الله عليه وسلم قتل ولم يستتب، قال ابن القاسم أو شتمه أو عابه أو تنقصه فانه يقتل كالزنديق ، وقد فرض الله

توقيره ، وكذلك قال مالك في رواية المدنيين عنه من سب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو شتمه أو عابه أو تنقصه قتل مسلما كان أو كافرا ولا يستتاب ، وروى ابن وهب عن مالك : من قال ان رداء النبي صلى الله عليه وسلم وسخ وأراد به عيبهقتل، وروى بعض المالكية اجماع العلماء على من دعا على نبي من الانبياء بالويل أو بشيء من المكروه أنه يقتل بلا استتابة ، وذكر القاضي عياض أجوبة جماعة من فقهاءالمالكية المشاهير بالقتل بلا استتابة في قضايا متعددة أفتى في كل قضية بعضهم وفصلها ،انتهى ماقصدنا نقله من كتاب (الصارم المسلول) وهو كتاب جليل يدل دلالة صريحة على ماكان عليه مؤلفه من المحبة بالاتباع ، وبه يسقط كل ماهذى به النبهاني من الباطل والزور ٠

(قال النبهاني) ويقوي عدم اعتبار نقل ابن تيمية في بعض ماينقله ماقاله في حقه الحافظ العراقي الكبير ، وها أنا أنقله تتميما للفائدة وتقوية للحجة وان لم يكن مما نحن فيه ، فأقول : قد اطلعت على جزء لطيف تأليف الحافظ العراقي ، شيخ الحافظ ابن حجر والامام العيني ، تكلم فيه على أكل الدجاج والحبوب والتوسعة على العيال يوم عاشوراء ، رد به على الامام ابن تيمية في منعه ذلك ، ثم انه أورد الرسالة بتمامها ٠

(جوابه) أن ماذكرناه سابقا بل ويأتي أيضا من ثناء أهل العلم وأكابر المحدثين وعدهم له من أكابر الحفاظ يستوجب سقوط ماذكره النبهاني من عدم اعتبار نقله ، وهو الثقة الصدوق ، شهد له بذلك أحباؤه وخصومه ، ولم يخالف في ذلك أحد ، حتى أن علماء الحديث قالوا كل حديث لايعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث ، فانظر الى هذه المنزلة العظيمة والدرجة العليا من الصدق ، ومانقله عن العراقي ــ ان صح نقله ــ فهو دليل على جهله وعدم معرفته بأحكام الدين ، فان تخصيص يوم عاشوراء بشيء من الامور الدينية والدنيوية مما لاأصل له ، كما عليه أئمة المذاهب وفقهاؤها والاحاديث التي أوردها منها ماهو موضوع ، ومنها مالايدل على الغرض المقصود ، وتفصيل الكلام فيها يخرجنا عن موضوع الكتاب ٠

ولقد تكثر النبهانيمن ذكر خصوم الشيخ والطاعنين فيه مع أن الاعتماد على الكثرة والسواد الاعظم والاحتجاج على بطلان الشيء بقلة أهله من الجهل بمكان ، قال تعالى : (وإنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إنْ

يتَّبعونَ الاَّ الظنَّ وانْ هُم الاَّ يَخرصُونَ . انَّ ربَّكَ هوَ أَعلَم مَنْ يضِلُّ عنْ سَبيلِه وهوَ أَعلَمُ بالمهْتَدين)[1] فالكثرة على خلاف الحق لاتستوجب العدول عن اتباعه لمن كان له بصيرة وقلب فالحق أحق بالاتباع وان قل أنصاره ، كما قال تعالى (قالَ لقَدْ ظلَمكَ بسؤال نعْجَتِكَ الى نعاجِه وانَّ كثيراً من الخُلطاءِ لَيبْغي بعضهم على بعضٍ الاَّ الَّذينَ آمنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ وقليلٌ مَّا هُم)[2] فأخبر الله عن أهل الحق أنهم قليلون غير أن القلة لاتضرهم ، فان من له بصيرة نظر الى الدليل ، وأخذ بما اقتضاه البرهان وان قل العارفون به والمنقادون له ، ومن أخذ بما عليه الاكثر وما ألفته العامة من غير نظر الى دليل فهو مخطيء سالك غير سواء السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل •

(قال النبهاني) الكلام على بعض كتب ابن تيمية وتفليس ابليس لابن الجوزي:

قال : فمن كتب ابن تيمية (الجواب الصحيح ، في الرد على من بدل دين المسيح) وهو أربعة مجلدات متوسطة ، وهو في غاية النفاسة لو خلا من التعرض لبدعه التي انفرد بها وشذ عن المسلمين من منعه الاستغاثة به صلى الله عليه وسلم كسائر الانبياء والصالحين ، وكتعرضه لاكابر أولياء الله بالتكفير والتشنيع فضلا عن التبديع ، كسيدي محيي الدين ابن العربي ، وسيدي عمر ابن الفارض وغيرهما ممن ذكر بعضهم في (كتابه الفرقان) وشنع عليهم وكفرهم وجعلهم أولياء الشيطان ، وهذا دأبه عفا الله عنه في كتبه ، ولذلك قلل الله النفع بها ، كما جرت عادته تعالى فيمن يتعرض لاوليائه بالسوء ، اذ قد ورد في الحديث القدسي : (من آذى لي وليا فقد أذنته بالحرب) وأي أذية أعظم من تكفيرهم واخراجهم من دائرة الاسلام بالكلية •

(أقول جوابه) ان كتب شيخ الاسلام جميعها من الكتب التي أنعم الله تعالى بها على الامة ، وهي على اختلاف أنواعها وفنونها ليس لها نظير في بابها ، وقد ذكرها الحافظ ابن القيم في الكافية الشافية ، وحث على مطالعتها فقال :

فاقرأ تصانيف الامام حقيقة ... شيخ الوجود العالم الرباني

---

(١) الانعام : ١١٦، ١١٧ (٢) ص : ٢٤

أعني أبا العباس أحمد ذاك الـ ... بحر المحيط بسائر الخلجان
واقرأ كتاب العقل والنقل الذي ... مافي الوجود له نظير ثان
وكذاك منهاج له في رده ... قول الروافض شيعة الشيطان
وكذاك أهل الاعتزال فانه ... أرداهم في حفرة الجبان
وكذلك التأسيس أصبح نقضه ... أعجوبة للعالم الرباني
وكذاك أجوبة له مصرية ... في ست أسفار كتبن سمان
وكذا جواب للنصارى فيه ما ... يشفي الصدور وانه سفران
وكذاك شرح عقيدة للاصبها ... ني شارح المحصول شرح بيان
فيها النبوات التي أثباتها ... في غاية التقرير والتبيان
والله مالاولى الكلام نظيره ... أبدا وكتبهم بكل مكان
وكذا حدوث العالم العلوي والـ ... سفلي فيه في أتم بيان
وكذا قواعد الاستقامة أنها ... سفران فيما بيننا ضخمان
وقرأت أكثرها عليه فزادني ... والله في علم وفي ايمان
هذا ولو حدثت نفسي أنه ... قبلي يموت لكان غير الشان
وكذاك توحيد الفلاسفة الألي ... توحيدهم هو غاية الكفران
سفر لطيف فيه نقض أصولهم ... بحقيقة المعقول والبرهان
وكذاك تسعينية فيها له ... رد على من قال بالنفساني
تسعون وجها بينت بطلانه ... أعني كلام النفس ذا الوجدان
وكذا قواعدها الكبار فانها ... أوفي من المائتين في الحسبان
لم يتسع نظمي لها فأسوقها ... فأشرت بعض اشارة لبيان
وكذا رسائله الى البلدان والـ ... أطراف والاصحاب والاخوان
هي في الورى مبثوثة معلومة ... تبتاع بالغالي من الاثمان
وكذا فتاواه فأخبرني الذي ... أضحى عليها دائم الطوفان
بلغ الذي ألفاه منها عدة الا ... يام من شهر بلا نقصان
سفر يقابل كل يوم والذي ... قد فاتني منها بلا حسبان
هذا وليس يقصر التفسير عن ... عشر كبار ليس ذا نقصان
وكذا المفاريد التي في كل مسئـ ... لة فسفر واضح التبيان
مابين عشر أو تزيد بضعفها ... هي كالنجوم لسالك حيران

وله المقامات الشهيرة في الورى | قد قامها لله غير جبان
نصر الاله ودينه وكتابه | ورسوله بالسيف والبرهان
أبدى فضائحهم وبين جهلهم | وأرى تناقضهم بكل زمان
وأصارهم والله تحت نعال أهـ | ـل الحق بعد ملابس التيجان
وأصارهم تحت الحضيض وطالما | كانوا هم الاعلام في البلدان
ومن العجائب أنه بسلاحهم | أرداهم تحت الحضيض الداني
كانت نواصينا بأيديهم فما | منالهم الا أسير عان
فغدت نواصيهم بأيدينا فلا | يلوننا الا بحبل أمان
وغدت ملوكهم مماليكا لا: | صار الرسول بمنة الرحمن
وأتت جنودهم التي صالوا بها | منقادة لعساكر الايمان
يدري بهذا من له خبر بما | قد قاله في ربه الفئتان
والفدم يوحشنا وليس هناكم | فحضوره ومغيبه سيان

(وقلت في شرح هذه الابيات) أعلم أن الناظم لم يذكر كتبه مرتبة أعنى كتب كل فن على حدة لعدم مساعدة النظم على ذلك ، ونحن نشرحها حسبما ذكرها فنقول :

(قوله) واقرأ كتاب العقل والنقل الخ هذا كتاب ألفه في بيان أن الشريعةكافية بنصوصها ، ولا حاجة بها الى ماأحدث من القواعد الكلامية المأخوذة من الحكمة اليونانية ، وان الدليل النقلي يفيد اليقين ، وهذا الكتاب متداول بين الايدي ،ونسخه كثيرة في الهند وبلاد العرب والفرس ، وتوجد منه نسخة كاملة لانقص فيها في خزانة كتب راغب باشا في دار السلطنة المحروسة .

(قوله) وكذلك منهاج له في رده الخ .. هذا الكتاب أيضا من كتب الشيخ المهمة ، وهو أحسن كتاب ألف في الرد على الروافض ، مشتمل على فنون كثيرة وعلم غزير ، نسخه أيضا كثيرة في البلاد ، وكثير من خزائن الكتب الاسلامية مشتملة عليه .

(قوله) وكذلك التأسيس أصبح نقضه الخ . اشارة الى كتاب نقض أساس التأسيس ، وهو في الرد على أساس التأسيس للامام فخر الدين الرازي اشتمل على مسائل مهمة في علم الكلام ، ونسخته في خزانة كتب الملك العادل في دمشق الشام ،

وهو في ست أسفار على مانقل لي •

(وقوله) وكذاك أجوبة مصرية الخ هي أيضا فتاوي مشتملة على مسائل مهمة في ست أسفار •

(وقوله) وكذا جواب للنصارى الخ يريد به (الجواب الصحيح ، لمن بدل دين المسيح) ولم يؤلف في الرد على النصارى كتاب مثله وكتبت في شأنه بعض المجلات المصرية مانصه (الجواب الصحيح والدين الصريح) اذا أطلق الانسان حريته ، وجرده عن عوامل التقييدات ومحض فطرته ، وتأمل في جواهر الاديان ومد النظر في مجال ماحدث به كل نبي عن ربه يرى أن الحقيقة واحدة والامنية لكل متحدة ، فلبـــاب الشرائع الالهية واحد ، ومقصد الشارعين متحد ، مصداقا لقوله تعالى :(وما أَمْرنَا إِلاَّ واحدَةٌ كَلَمحِ بالبَصَرِ) [1] وغير ذلك من الآيات الدالة على اتفاقهم في المقصــد واتحادهم في الغرض ، وقد اتفقت كلمتهم على التوحيد والنهي عن التفرق والاختلاف كما قال تعالى : (شَرعَ لكمُ من الدِّين ما وصَّى به نوحاً والذي أَوحينا اليْكَ وما وصَّيْنا بــــه ابراهيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقيموا الدِّينَ ولا تتفرَّقوا فيــــهِ) [2]
ولكن أبى الانسان الناقص بأصل فطرته القاصر عن فهم حكمة ربه البالغة الا أن يجعل ماهو أصلا في الاتفاق سببا في الافتراق ، وماهو أصل السعادة سببا في الشقـــاء ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين لجمع الكلمة وتوحيد الامة ، فتغلبت قوة الشر وطبيعة النقص على هذا الخير المحض والكمال المطـلق ، فمزقت هــذه الجــامعة الانسانية ، والوحدة الدينية ، فتعددت فيهم المذاهب والنحل ولآراء والملل ، وقامت بينهم حروب الاقلام وتلتها معارك السنان ، واشتغل كل فريق بالرد والاعتــراض واتتصر لكل جماعات وأفراد ، وهكذا كثر القيل والقال ، والمشــاغبة والجــدال ، وذهبت الحقيقة تحت أستار المغالبة ، واحتجبت بحجاب المراء والمخاصمة ، وما أتى فريق لكشف تلك الشبهات بجلاء ، بل بعدوا عن الحقيقة بعد الارض من السماء ، الى أن انبرى في القرو ن الوسطى لنصرة الحق لذاته شيخ الاسلام وقدوة الانـــام تقي الدين أحمد بن تيمية ، فكتب كتابه الموسوم (بالجواب الصحيح) سلك فيــه مسلك العدل والانصاف ، وأظهر الحق وأبطل الباطل ، وترفع عن المجادلة والمشاغبة

---

(١) القمر : ٥٠ (٢) الشورى : ١٣

وتنزه عن المشاتمة والمغالبة ، فما نحى أحد منحاه ، ولا سلك طريقته وهداه ، وكان الباعث لتأليف هذا الكتاب الذي أوضح فيه الحقيقة لأولي الالباب : كتابا ورد من مدينة قبرص ألفه بولص الراهب أسقف صيدا الانطاكي ، جمع فيه جميع الاحتجاجات لدين النصارى التي يحتج بها علماؤهم وفضلاء ملتهم ، وكان مافي ذلك الكتاب هو عمدتهم التي يعتمد عليها علماؤهم في كل زمان ومكان ، وهو محصور في ستة مطالب هي دعائم الديانة المسيحية وأصول مذاهبهم الملية ، وقد أجابهم على كل دعوى بما فيه لذوي البصيرة مقنع ، ثم ذكر مشتملات الكتاب ، ثم قال : فجاء هذا الامام الجليل واطرح الآراء المذهبية ، وترك التعصبات الدينية ، وأظهر الحقيقة في ذاتها ، وأبان كنهها لطالبها بما هياتها ، فأخذ أولا في تفنيد تلك المطالب على طريقة أهل الجدل ، وقلب هذه الادلة الموهومة فجعلها منتجة ضد مطلوبها ، فكانت عليه لاله ، ثم استقام في الاستدلال ونهج منهج الاعتدال ، وأرجع كل هذه الاختلافات الى الاتفاق ، والمخاصمات الى الوفاق ، وأبان أن أصل الاديان واحد ، وأن مايترآى من الاختلافات نشأ من حب الرياسة والشهوات حسب الازمنة والامكنة ، وقد اطلع على هذا الكتاب بعض قسيسيا لمجمع العلمي المنعقد في بعض البلاد الافرنجية ، فقدروه قدره وأثنوا على مؤلفه خيرا ، وقالوا لو جمع مؤلفه كتابا آخر في محاسن دين الاسلام لدخل الناس فيه أفواجا •

وبالجملة : فهذاالكتاب جدير بالمطالعة والاقتناء ، يحتاجه المسلم في اسلامه ، والنصراني لنصرانيته ، وكل معترف بدين أو كتاب الخ •

(قوله) وكذلك شرح عقيدة للاصفهاني الخ أي من جملة مصنفاته كتاب (شرح عقيدة الاصفهاني) وهو كتاب جليل القدر ، مشتمل على مطالب مهمة ، لاسيما مباحث النبوات وحدوث العالم العلوي والسفلي •

(قوله) وكذا قواعد الاستقامة الخ وهو من أفيد كتبه ، وهو مفصل يبلغ سفرين ، توجد نسخه في بلاد العرب ودمشق وفي بعض بلاد الهند •

(قوله) وكذاك توحيد الفلاسفة الآلي الخ يريد به الرد على الفلاسفة ، وهو عدة أسفار ، يقال : ان من نسخه في بعض خزائن كتب دار السلطنة ، لكن الناظم يقول هو سفر لطيف الخ وهو أدرى به من غيره •

(قوله) وكذاك تسعينية الخ هذا الكتاب كثير وهو في الرد على من يقول

بالكلام النفسي من تسعين وجها ، وهو بين الايدي •

(قوله) وكذا قواعده الكبار الخ هي على منهج قواعد القرافي وغيره الا أنها أكثر فائدة ، ونسخه في البلاد العربية •

(قوله) وكذا رسائله الى البلدان •• الخ وقوله وكذا فتاواه الخ ، أما رسائله المختصرة وكتبه فلا يحيط بها الاحصاء ، وفتاواه ـــ كما قال الناظم ـــ بلغت نحو ثلاثين سفرا •

(قوله) هذا وليس يقصر التفسير عن الخ هو لم يفسر القرآن مرتبا ، ولكنه كتب على كثير من سوره ومواضعه المشكلة ، فله على الاستعاذة ، وعلى البسملة وكلامه في الجهر بها ، وكتب على قوله تعالى (إياكَ نعْبدُ وإياكَ نسْتعينُ) وكتب على قوله تعالى : (ومِنَ النَّاسِ مَنْ يقولُ آمنَّا) وعلى قوله تعالى : (مَثَلهُم كَمَثل الذي استوقَدَ ناراً) وعلى قوله تعالى : (يا أيُّها النَّاسُ اعبدوا ربَّكُم) وعلى قوله تعالى (إلاَّ مَنْ سفِهَ نفْسَهُ) وعلى آية الكرسي ، وعلى قوله تعالى : (ليْسَ كَمِثْلِه شيءٌ) وعلى قوله تعالى : (شَهِدَ اللهُ أنهُ لا إلهَ إلاَّ هو) الخ • وعلى قوله تعالى : (ما أَصَابَكَ مِنْ حسنةٍ فَمِنَ الله) وعلى سورة المائدة ، وعلى قوله تعالى : (يا أيُّها الَّذين آمنوا اذا قُمتُم الى الصَّلاةِ) الآية ، وعلى قوله تعالى (وإذ أَخذ ربُّك)

وعلى سورة يوسف ، وعلى سورة النور ، وعلى سورة القلم ، وأنها أول سورة نزلت ، وعلى سورة لم يكن ، والكافرون ، وتبت ، والمعوذتين ، وكتب على سورة الاخلاص وغير ذلك •

(قوله) وكذا المفاريد التي في كل مسألة الخ منها الاعتراضات المصرية على الفتوى الحموية ، وشرح بضعة عشر مسألة من الاربعين للرازي ، وجواب ماأورده كمال الدين الشريشي ، وشرح كتاب الغزنوي في أصول الدين ، والرد على المنطق ، وكتاب الزواجر ، وقاعدة في القضايا الوهمية ، وقاعدة في قياس مالا يتناها ، وجواب الرسالة الصفدية ، وجوابه عن قول بعض الفلاسفة أن معجزات الانبياء عليهم السلام قوى نفسانية ، والرد على ابن سينا في اثبات المعاد ، وشرح رسالة ابن عبدوس في كلام الامام أحمد في الاصول ، وثبوت النبوات عقلا ونقلا ، والمعجزات والكرامات ،

وقاعدة في الكليات ، والرسالة القبرصية ، ورسالته الى أهل طبرستان وحلان في خلق الروح والنور ، والرسالة البعلبكية ، والرسالة الازهرية القادرية البغدادية ، وأجوبة القرآن والنطق ، وجواب من حلف بالطلاق الثلاث ، ورسالة في أن القرآن حرف وصوت ، وكتاب في اثبات الصفات والعلو والاستواء ، والمراكشية في صفات الكمال والضابط ، جواب في الاستواء وابطال تأويله بالاستيلاء ، جواب من قال لايمكن الجمع بين اثبات الصفات على ظاهرها مع نفي التشبيه ،أجوبة كون جهة السموات كرية ، رسالة في سبب قصد القلوب العلو ، جواب كون الشيء في جهة العلو مع كونه ليس بجوهر ولا عرض هل هو معقول أو مستحيل ، جواب هل الاستواء والنزول حقيقة ، وهل لازم المذهب مذهب ، مسألة أهل الاربيلية ، شرح حديث النزول ، واختلافه باختلاف وقته ، وباختلاف البلدان والمطالع ، بيان حل اشكال ابن حزم الوارد على الحديث ، قاعدة في قرب الرب من عابديه ، الكلام على نقض المرشد ، المسائل الاسكندرانية ، في الرد على الحلولية والاتحادية ، رسالة فيما تضمنه فصوص الحكم ، جواب في لقاء الله عز وجل ، جواب في رؤيا النساء ربهن في الجنة ، الرسالة المدنية في اثبات الصفات النقلية الهلاوونية ، جواب سؤال ورد على لسان ملك التتار ، قواعد في الرد على القدرية والجبرية ، جواب في خلق الله الخلق وانشاء الايام لعلة أم لا ، شرح حديث فحج آدم موسى ، تنبيه الرجل العاقل على تمويه المجادل ، تناسى الشدائد في اختلاف العقائد ، كتاب الايمان ، شرح حديث جبريل في الايمان والاسلام ، رسالة في عصمة الانبياء عليهم السلام فيما يبلغونه عن ربهم ، مسألة في العقل والروح ، مسألة في المقربين هل يسألهم منكر ونكير أم لا ، مسألة هل يعذب الجسد مع الروح في القبر أم لا ، الرد على أهل الكسروان وهم من الروافض ، فضل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على غيرهما ، رسالة في معاوية ابن أبي سفيان ، تفضيل صالحي الناس على سائر الاجناس ، رسالة مختصرة في كفر النصيرية ، رسالة في جواز قتال الرافضة ، الرد على تقي الدين السبكي في مسألة بقاء الجنة والنار وفي فنائهما ، هذه كلها في أصول الدين .

(ومن مؤلفاته في أصول الفقه) قاعدة غالبها أقوال الفقهاء ، قاعدة كل حمد وذم من الاقوال والافعال لايكون الا بالكتاب والسنة ،رسالة في شمول النصوص للاحكام ، قاعدة في الاجماع وأنه ثلاثة أقسام ، جواب في الاجماع والخبر المتواتر ،

قاعدة في كيفية الاستدلال على الاحكام بالنص والاجماع ، والرد على من قال أن الدلالة اللفظية لاتفيد اليقين ، قاعدة فيما نص من تعارض النص والاجماع ، مؤاخذة على ابن حزم في الاجماع ، قاعدة في تقرير القياس ، قاعدة في الاجتهاد والتقليد في الاحكام ، رفع الملام عن الأئمة الاعلام ، قاعدة في الاستحسان وفي وصف العموم والالحاق والاطلاق ، قاعدة في أن المخطى في الاجتهاد لايأثم ، رسالة في أنه هل القاضي يجب عليه تقليد مذهب معين ، جواب في ترك التقليد ، رسالة فيمن يقول مذهبي مذهب النبي صلى الله عليه وسلم وليس أنا محتاج الى تقليد الاربعة ، جواب من تفقه في مذهب ووجد حديثا صحيحا هل يعمل به أم لا ، جواب تقليد الحنفي الشافعي في المطر والوتر ، رسالة في الفتح على الامام في الصلاة ، تفضيل قواعد مالك وأهل المدينة ، تفضيل الأئمة الاربعة ومامتاز به كل واحد منهم ، قاعدة في تفضيل الامام أحمد ، جواب هل كان النبي صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة نبيا ، جواب هل كان النبي صلى الله عليه وسلم متعبدا بشرع من قبله ، قواعد أن النهي يقتضى المضادة .

(ومن مؤلفاته في الفقه) شرح المحرر في مذهب الامام أحمد ، شرح العمدة لموفق الدين ، جواب مسائل وردت من أصبهان ، جواب مسائل وردت من الصلت ، جواب مسائل وردت من بغداد ، جواب مسائل وردت من الزرع ، جواب مسائل وردت من طرابلس ، قاعدة في المياه والمائعات وأحكامها ، جواب أربعين مسألة وردت من الوجنة ، الدرة المضية في فتاوى ابن تيمية ، المردانية الطرابلسية ، قاعدة فيحديث القلتين وعدم رفعه ، قواعد في الاستجمار وتطهير الارض بالشمس والريح ، جواز الاستجمار مع وجود الماء ، نواقض الوضوء ، قواعد في عدم نقضه بلمس النساء ، رسالة في أن التسمية على الوضوء خطأ ، القول بجواز المسح على الخفين ، جواز المسح على الخفين المتخرقين والجوربين واللفائف ، وفيمن لايعطى أجرة الحمام ، تحريم دخول النساء بلا مئزر في الحمام والاغتسال وذم الوسواس ، جواز طواف الحائض ، تيسير العبادات لارباب الضرورات بالتيمم والجمع بين الصلاتين للعذر ، كراهية التلفظ بالنية وتحريم الجهر بها في الاذكار ، كراهية تقديم بسط السجادة للمصلي قبل مجيئه ، الكلم الطيب في الركعتين اللتين تصلى قبل الجمعة وفي الصلاة بعد أذان الجمعة ، القنوت في الصبح والوتر ، تارك المثاني وكفره ، الجمع بين الصلاتين في السفر والحضر ، أهل البدع هل يصلى خلفهم ، صلاة بعض أهل المذاهب

خلف بعض ، الصلوات المبتدعة ، تحريم السماع ، تحريم الشبابة ، تحريم اللعب بالشطرنج ، تحريم الحشيشة المغيبة والحد عليها وتنجيسها ، النهي عن المشاركة في أعياد النصارى واليهود وايقاد النيران في الميلاد ونصف شعبان ومايفعل في عاشوراء، قاعدة في مقدار الكفارة باليمين ، وفي أن المطلقة ثلاثا لاتحل الا بنكاح زوج ثان ، بيان الحلال والحرام في الطلاق ، جواب من حلف لايفعل شيئا على المذاهب الاربعة ثم طلق ثلاثا في الحيض ، الفرق المبين بين الطلاق واليمين ، لمعة المختطف ، في الفرق بين الطلاق والحلف ، كتاب التحقيق في الفرق بين أهل الايمان والتطليق ، الطلاق البدعي لايقع ، مسائل الفرق بين الطلاق البدعي ونحو ذلك ، مناسك الحج في حجة النبي صلى الله عليه وسلم في العمرة المكية ، في شراء السلاح بتبوك ، وشرب السويق بالعقبة ، وأكل التمر بالروضة ، ومايلبس المحرم ، وزيارة الخليل عليه السلام عقب الحج ، وزيارة البيت المقدس مطلقا ، جميع ايمان المسلمين مكفرة ، بيان الدليل على أبطال التحليل ، الرسالة التدمرية ، جبل لبنان كأمثاله من الجبال ليس فيه رجال الغيب والابدال .

(ومن كتبه في أنواع شتى) الكلام على الفتوة المصطلحة ، وليس لها أصل متصل بعلي رضي الله عنه ، كشف حال الاحمدية وبيان أحوالهم الشيطانية ، مايقوله أهل بيت الشيخ عدي ، النجوم هل لها تأثير عند القران والمقابلة وهل يقبل قول المنجمين فيه رؤية الاهلة ، تحريم أقسام المعزمين بالعزائم المعجمة وصرع الصحيح وصفة الخواتيم ، أبطال الكيميا ولو صحت ، كتاب السياسة الشرعية ، كتاب التصوف ، كتاب الاستقامة ، كتاب تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ، كتاب المحنة المصرية ، كتاب الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن ، الرد على الاخنائي في في مسألة الرمادة ، طهارة بول مايؤكل لحمه ، الصارم المسلول على منتقص الرسول ، كتاب اقتضاء الصراط المستقيم ، جواب أهل الايمان في التفاضل بين آيات القرآن ، الرد على البكري في مسألة الاستغاثة ، التحرير في مسألة حفير ، سفر في مسألة القسمة كتبها اعتراضا على النحوي في حادثة حكم فيها ، الفرقان بين الحق والبطلان كتاب الوسيلة ، التحفة العراقية في الاعمال القلبية ، وله غير ذلك مما يطول ذكره ، وجميعها مفصلة مابين سفر وسفرين وأكثر ، مع سلاسة عبارة وذكر دليل ودفع ايراد وكل منها فريد في بابه حري بالتقريظ ، ولو تكلمنا على كل واحد منها بما يليق به من الثناء والمدح لاستوجب ذلك افراد مؤلف منفصل .

وأما انتقاد النبهاني (كتاب الجواب الصحيح ان الكتاب في غاية النفاسة لو خلا من التعرض لبدعه التي انفرد بها عن المسلمين الخ) .

(فجوابه) أن ماانتقده هو من محاسن الكتاب وأجل فصوله ، فان الاستغاثة بالمخلوق والاستعانة به والالتجاء به هو الذي كان من غلو أهل الكتاب ، وهو مذهب النصارى ، فان عبادة المسيح وأمه عبارة عن ذلك ، فلو لم يبطل هذا القول لما ساغ له الرد عليهم ، وكذلك الرد على القائلين بالحلول والاتحاد ، فانه لو لم يرد عليهم ويبطل دعواهم ويخرجهم عن الملة لما ساغ له ابطال قول النصارى في دعواهم حلول الاله في المسيح أو الاتحاد به أو نحو ذلك ، فان لقائل أن يقول حينئذ : انمن المسلمين من يقول باشنع من هذا القول ، وهو دعوي الحلول والاتحاد التي أبطلها الشيخ وغيره من العلماء الربانيين المتبعين لما جاء به الشرع المبين ولعلنا نبسط الكلام على ذلك فيما يناسب المقام ، ونذكر كلام من رد عليهم وأبطل دعواهم ، ونفصل القول فيهم تفصيلا ، هذا الذي نقمه النبهاني الزائغ وانتقد به كلام الشيخ من أوضح مايدل على زيغه واتباعه لهواه : (وما نقِموا منهم إلاَّ أنْ يُؤْمنوا بِالله العَزيزِ الحميدِ) ومثل ماحكي الله عن اخوانه (أَو كصَيِّبٍ منَ السَّماء فيهِ ظُلُماتٌ ورعْدٌ وبرْقٌ يَجعَلونَ أَصابِعَهم في آذانِهِم منَ الصَّواعقِ حذَرَ الموتِ واللهُ مُحيطٌ بالكافِرينَ . يكادُ البرْقُ يَخطَفُ أَبصارَهُم كُلَّما أَضاءَ لَهمْ مشَوْا فيهِ وإذا أظلَمَ عليهِم قاموا . ولوْ شاء اللهُ لذَهبَ بِسَمعِهِمْ وأَبصارِهِم إنَّ اللهَ علَى كُلِّ شَيءٍ قديرٌ)[1]

وما أحسن ماقال القائل :

ومن يك ذا فم مر مريض *** يجد مرا به الماء الزلالا

وقال آخر :

تعد ذنوبي عند قومي كثيرة *** ولا ذنب لي الا العلا والفواضل

ولم يعرف النبهاني وأضرابه من الغلاة قدر كتب شيخ الاسلام وتمنى عدم وجودها وفقدها من العالم لأنها تبطل ماذهب اليه من الاقوال الفاسدة ، وتهدم

---

(1) البقرة : ١٩ ، ٢٠

بنيان أشياخه ، قال تعالى : (وَلَنْ تَرْضَى عنكَ اليهودُ ولا النصارى حتىّ تتبِعَ مِلّتهُم ، قُلْ إنَّ الهُدى هُدى الله ، ولئِنْ اتَّبَعْتَ أهواءَهُمْ بعْدَ الَّذي جاءكَ مِن العِلْمِ مالكَ مِنَ اللهِ مِنْ وليٍّ ولا نَصيرٍ)[1] وأهل الحق وذوو البصائر اذا ظفروا بكتاب من كتبه تراهم كأنهم ظفروا بكنز من كنوز العلم ، وقد رأيت كتابا كتب على ظهر ترجمة شيخ الاسلام وبيان مناقبه ، وهي : (الدرر البهية ، في ترجمة شيخ الاسلام ابن تيمية) للحافظ الشيخ شمس الدين بن عبد الهادي المقدسي ، وذلك الكتاب أرسله بعض أفاضل العراق المعاصرين لشيخ الاسلام ، وكان من أكابر الشافعية ، وهو العلامة الشيخ عبد الله بن حامد وكتابه هذا :

(بسم اللها لرحمن الرحيم) من أصغر العباد عبد الله بن حامد ، الى الشيخ الامام العالم العامل ، قدوة الافاضل والمحافل ، المحامي عن دين الله ، والذاب عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المعتصم بحبل الله ، الشيخ المكرم المبجل أبي عبد الله أسبغ اللهعليه نعمه ، وأيد باصابة الصواب لسانه وقلمه ، وجمع له بين السعادتين ، ورفع درجته في الدارين بمنه ورحمته ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(أما بعد) فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ، ثم وافاني كتابك وأنا اليك بالاشواق ، ولم أزل سائلا ومستخبرا الصادر والوارد عن الانباء التي طاب مسموعها ، وسر مايسر منها ، وما تأخر كتابي عنك هذه المدة مللا ولا خللا بالمودة ، ولا تهاونا بحقوق الاخاء ، حاش لله أن يشوب الاخوة في الله جفاء ، ولا أزال أتعلل بعد وفاة الشيخ الامام امام الدنيا رضي الله تعالى عنه بالاسترواح الى اخبار تلامذته واخوانه ، وأقاربه وعشيرته ، والخصيصين به ، لما في نفسي من المحبة الضرورية التي لايدفعها شيء ، على الخصوص لما اطلعت على مباحثه واستدلالاته التي تزلزل أركان المبطلين ، ولا يثبت في ميدانها سفسطة المتفلسفين ، ولا يقف في حلباتها أقدام المبتدعين من المتكلمين .

وكنت قبل وقوفي على مباحث امام الدنيا رحمه الله قد طالعت مصنفات المتقدمين ووقفت على مقالات المتأخرين من أهل الاسلام ، فرأيت فيها الزخارف

---

(١) البقرة : ١٢٠

والاباطيل ، والشكوك التي يأنف المسلم الضعيف في الاسلام أن تخطر بباله فضلاعن القوي في الدين ، فكان يتعب قلبي ويحزنني مايصير اليه الاعاظم من المقالات السخيفة ، والآراء الضعيفة ، التي لايعتقد جوازها آحاد الامة ، وكنت أفتش على السنة المحضة في مصنفات المتكلمين من أصحاب الامام أحمد رحمه الله على الخصوص ، لاشتهارهم بمنصوصات امامهم في أصول العقائد ، فلا أجد عندهم مايكفي ، وكنت أراهم يتناقضون اذ يؤصلون أصولا يلزم فيها ضد مايعتقدونه ، ويعتقدون خلاف مقتضى أدلتهم ، فاذا جمعت بين أقاويل المعتزلة والاشعرية وحنابلة بغداد وكرامية خراسان أرى أن اجماع هؤلاء المتكلمين في المسألة الواحدة على مايخالف الدليل العقلي والنقلي ، فيسوئني ذلك وأظل أحزن حزنا لايعلم كنهه الا الله ، حتى قاسيت من مكابدتي هذه الامور شيئا عظيما لاأستطيع شرح أيسره ، وكنت التجيء الى الله سبحانه وتعالى وأتضرع اليه وأهرب الى ظواهر النصوص ، وألقي المعقولات المتباينة والتأويلات المصنوعة لنبوة الفطرة عن قبولها ، ثم قد تشبثت فطرتي بالحق الصريح في أمهات المسائل غير متجاسرة على التصريح بالمجاهرة قولا وتصحيحا للعقد ، حيث لاأراه مأثورا عن الأئمة وقدماء السلف ، الى أن قدر الله سبحانه وقوع تصنيف الشيخ الامام امام الدنيا في يدي قبيل واقعته الاخيرة بقليل ، فوجدت فيه مابهرني في موافقة فطرتي ، لما فيه من عزو الحق الى أئمة السنة وسلف الامة مع مطابقة المعقول والمنقول ، فبهت لذلك سرورا بالحق ، وفرحا بوجود الضالة التي ليس لفقدها عوض ، فصارت محبة هذا الرجل رحمه الله محبة ضرورية تقصر عن شرح أقلها العبارة ولو أطنبت •

ولما عزمت على المهاجرة الى لقيه وصلني خبر اعتقاله ، وأصابني لذلك المقيم المقعد ، ولما حججت سنة ثمان وعشرين وسبعمائة صممت العزم على السفر الى دمشق لأتوصل الى ملاقاته ببذل ماأمكن من النفس والمال للتفريج عنه ، فوافاني خبر وفاته رحمه الله تعالى مع الرجوع الى العراق قبيل وصولي الى الكوفة ، فوجدت عليه مالايجده الاخ على شقيقه ، واستغفر الله بل ولا الوالد الثاكل على ولده ، وما دخل على قلبي من الحزن لموت أحد من الولد والاقارب والاخوان كما وجدته عليه رحمه الله تعالى ، ولا تخيلته قط في نفسي ولا تمثلته في قلبي الا ويتجدد لي حزن جديد كأنه محدث ، ووالله ماكتبتها الا وأدمعي تتساقط عند ذكره أسفا على فراقه وعدم ملاقاته ، فانا لله وانا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم •

وماشرحت هذه النبذة من محبة الشيخ رحمه الله تعالى الا ليتحقق بعدي عن تلك الوهوم ، لكن لما سبق الوعد الكريم منكم بانفاذ فهرس مصنفات الشيخ رضي الله تعالى عنه وتأخر ذلك عني : اعتقدت أن الاضراب عن ذلك نوع تقية ، أو لعذر لايسعني السؤال عنه ، فسكت عن الطلب خشية أن يلحق أحدا ضرر والعياذ بالله بسببي لما كان قد اشتهر من تلك الاحوال ، فان أنعمتم بشيء من مصنفات الشيخ رحمه الله تعالى كانت لكم الحسنة عند الله علينا بذلك ، فما أشبه كلام هذا الرجل بالتبر الخالص المصفى ، وقد يقع في كلام غيره من الغش والشبه المدلس بالتبر مالايخفى على طالب الحق بحرص وعدم هوى ، ولا أزال أتعجب من المنتسبين الى حب الانصاف في البحث المبرزين على أهل التقليد أن المعقولات التي يزعمون أن مستندهم الاعظم الصريح منها كيف يباينون ماأوضحه الحق وكشف عن قناعه •

وقد كان الواجب على الطلبة شد الرحال اليه من الافاق ليروا العجب ، وما أشبه حال المباينين له ــ من المنتسبين للعلم الطالبين للحق الصريح الذي أعياهم وجد أنه ــ بحال قوم ذبحهم العطش والظمأ في بعض المفازاة ، فحين أشرفوا على التلف لمع لهم شط كالفرات أو دجلة أو كالنيل ، فعند معاينتهم لذلك اعتقدوه سرابا لاشرابا ، فتولوا عنه مدبرين ، فتقطعت أعناقهم عطشا وظمأ ، فالحكم لله العلي الكبير •

وما أرسلنا المقابلة من الطرفين ففيه تعسف وتمهدون العذر في الاطناب [1] فهذا الذي ذكرته من حالي مع الشيخ كالقطرة من البحر ، وان أنعمتم بالسلام على أصحاب الشيخ وأقاربه كبيرهم وصغيرهم كان ذلك مضافا الى سابق أنعامكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وأنتم في أمان الله تعالى ورعايته ، والحمد لله وحده ــ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، (عبد الله بن حامد) •

(وأما قول النبهاني) وهذا دأبه في كتبه ، ولذلك قلل الله النفع بها ، كما جرت عادته فيمن يتعرض لاوليائه بالسوء الخ •

(فجوابه) أن من الواجب على العالم أن يظهر علمه والا ألجمه الله بلجام من نار ، قال تعالى : (وَالعَصْرِ إِنَّ الانسانَ لَفي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذين آمنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ وتَواصوا بالحقِّ وتواصَوا بالصَّبْرِ).

قال الامام الشافعي : لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم ، وبيان ذلك

(١) كذا في الاصل ، وفي العبارة شيء من عدم الوضوح •

أن المراتب أربعة ، وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله •

(احداها) معرفة الحق •

(الثانية) عمله به •

(الثالثة) تعليمه من لايحسنه •

(الرابعة) صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه •

فذكر تعالى المراتب الاربعة في هذه السورة ، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر ، الا الذين آمنوا : وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به فهذه مرتبة ، وعملوا الصالحات : وهم الذين عملوا بما علموه من الحق ، فهذه مرتبة أخرى • وتواصوا بالحق : وصى به بعضهم بعضا تعليما وارشادا ، فهذه مرتبة ثالثة ، وتواصوا بالصبر : صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضا بالصبر عليه والثبات ، فهذه مرتبة رابعة ، وهذا نهاية الكمال ، فان الكمال أن يكون الشخص كاملا في نفسه مكملا لغيره ، وكماله باصلاح قوتيه العلمية والعملية ، فصلاح القوة العلمية بالايمان ، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات ، وتكميله غيره بتعليمه اياه وصبره عليه ، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل ، فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره ، والحمد لله الذي جعل كتابه كافيا عن كل ماسواه ، شافيا من كل داء ، هاديا الى كل خير اه •

فعلم أنه يجب على العالم أن يصدع بالحق وان كثر المخالفون له ، وقد رأى من الحق التنبيه على الفرق بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن ، وقد أطنب الكلام في ذلك ، ومما قال : وقد ظن طائفة غالطة أن خاتم الاولياء يكون أفضل الاولياء قياسا على خاتم الانبياء ، ولم يتكلم أحد من المشايخ المتقدمين بخاتم الاولياء الا محمد بن حكيم الترمذي صنف فيه مصنفا غلط فيه في مواضع ، ثم صار طائفة من المتأخرين يزعم كل منهم أنه خاتم الاولياء ، ومنهم من يدعي أن خاتم الاولياء أفضل من خاتم الانبياء من جهة العلم بالله ، وأن الانبياء يستفيدون العلم بالله من جهته ، كما زعم ذلك ابن العربي صاحب كتاب (الفتوحات) في كتاب (الفصوص) فخالفوا الشرع والعقل مع مخالفة جميع أنبياء الله وأولياء الله ــ كما يقال لمن قال : (فخر عليهم السقف من تحتهم) لاعقل ولا قرآن ــ وذلك لأن الانبياء أسبق في الزمان من أولياء هذه الامة ، والانبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل من الاولياء ، فكيف يكون الانبياء كلهم والاولياء يستفيدون معرفة الله ممن يأتي بعدهم ويدعي أنه خاتم الاولياء ، وليس آخر الاولياء أفضلهم كما أن آخر الانبياء أفضلهم ، فان فضل محمد

صلى الله عليه وسلم على سائر الانبياء ثبت بالنصوص الدالة على ذلك ، كقوله صلى الله عليه وسلم : (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) وقوله : (آتي باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بك أمرت أن لاأفتح لاحد قبلك) وليلة المعراج رفع الله درجته فوق الانبياء كلهم ، فكان أحقهم بقوله تعالى :

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ مِنْهم مَن كَلَّم اللهُ وَرَفَع بَعْضَهم دَرَجاتٍ)[1]

الى غير ذلك من الدلائل ، والانبياء كلهم يأتيه الوحي من الله لاسيما محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن في نبوته محتاجا الى غيره ، فلم تحتج شريعته لا الى نبي سابق ولا الى لاحق ، بخلاف غيره ، فان المسيح أحالهم في أكثر الشريعة على التوراة ، وشريعة التوراة جاء المسيح بتكميلها ، ولهذا كان النصارى محتاجين الى النبوة المتقدمة على المسيح كالتوراة والزبور ، وتمام الاربع والعشرين نبوة ، وكان الامم قبلنا محتاجين الى المحدثين ، بخلاف أمة محمد صلى الله عليه وسلم فان الله أغناهم به فلم يحتاجوا معه لا الى نبي ولا الى محدث، جمع له من الفضائل والمعارف والاعمال الصالحة مافرقه في غيره من الانبياء ،فكان مافضله الله به من الله ــ بما أنزل الله وأرسله اليه ــ لابتوسط بشر ، وهذا بخلاف الاولياء فان كل من بلغه رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لايكون وليا الا باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، فكل ماحصل له من الهدى ودين الحق بتوسط محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك من بلغته رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم لايكون وليا لله الا اذا اتبع ذلك الرسول الذي أرسله اليه ، ومن ادعى أن من الاولياء الذين بلغتهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من له طريق الى الله لايحتاج فيه الى محمد فهو كافر ملحد ، واذا قال : أنا محتاج الى محمد صلى الله عليه وسلم في علم الظاهر دون الباطن ، أو في الشريعة دون علم الحقيقة : فهو أشر من اليهود والنصارى الذين قالوا ان محمدا رسول الى الاميين دون أهل الكتاب ، فان أولئك آمنوا ببعض ماجاء به وكفروا ببعض ، فكانوا كفارا بذلك ، وكذلك هذا الذي يقول ان محمدا بعث بعلم الظاهر دون الباطن آمن ببعض ماجاء به وكفر ببعض ، وهذا كافر أكفر من أولئك ، لأن علم الباطن الذي هو علم ايمان القلوب ومعارفها وأحوالها هو علم بحقائق الايمان الباطنة ، وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الاسلام الظاهرة ، فاذا ادعى المدعي أن محمدا انما علم هذه

---

(١) البقرة : ٢٥٣

الامور الظاهرة دون حقائق الايمان وأنه لايأخذ الحقائق من الكتاب والسنة فقد ادعى أن بعض الذي آمن به مما جاء به الرسول دون البعض الآخر ، وهذا شر ممن يقول أومن ببعض وأكفر ببعض ولا يدعي أن هذا البعض الذي آمن به أولى القسمين ، وهؤلاء الملاحدة قد يدعون أن الولاية أفضل من النبوة ، ويلبسون على الناس ، ويقولون : ان ولاية محمد صلى الله عليه وسلم أفضل من نبوته وينشدون :

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

ويقولون : نحن شاركناه في ولايته التي هي أعظم من رسالته ، وهذا من أعظم ضلالهم ، فان ولاية محمد صلى الله عليه وسلم لم يماثله فيها أحد ، لاابراهيم ، ولا موسى ، فضلا عن أن يماثله فيها هؤلاء الملاحدة ، وكل رسول نبي وكل نبي ولي ، فالرسول نبي وولي ، ورسالته متضمنة للنبوة ، ونبوته متضمنة لولايته ، فكيف تكون ولايته المتضمنة في نبوته أفضل من نبوته الداخلة في ولايته ؟ واذا قدروا مجرد انباء الله اياه بدون ولايته لله فهذا تقدير ممتنع ، فانه حال انباء الله اياه يمتنع أن لايكون وليا لله ، فلا تكون نبوة مجردة عن ولاية ، ولو قدرت مجردة لم يكن أحد مماثلا للرسول في ولايته لله ، وهؤلاء قد يقولون ـ كما يقول صاحب الفصوص ابن عربي ـ انهم يأخذون من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به الى الرسول ، وذلك أنهم اعتقدوا عقيدة ملاحدة المتفلسفة ثم أخرجوها في قالب الكشف وذلك أن المتفلسفة الذين قالوا ان الافلاك قديمة أزلية لها علة شبيهة بهما ـ كما يقول أرسطو وأتباعه ـ أولها موجب بذاته ـ كما يقوله متأخروهم كابن سينا وأمثاله ـ ولا يقولون ان الرب خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ، ولا خلق الاشياء بمشيئته وقدرته ، ولا يعلم الجزئيات ، بل اما أن ينكروا علمه مطلقا ـ كقول أرسطو ـ أو يقولون انما يعلم من الامور المتغيرة كلياتها كما يقوله ابن سينا.

وحقيقة هذا القول انكار علمه بها ، فان كل موجود في الخارج فهو معنى جزئي، والافلاك كل منها معنى جزئي ، وكذلك جميع الاعيان وصفاتها وأفعالها ، فمن لم يعلم الا الكليات لم يعلم شيئا من الموجودات ، والكليات انما توجد كليات في الاذهان لا في الاعيان ، والكلام على هؤلاء قد بسط في موضع آخر في بحث تعارض العقل والنقل وغيره ، فان كفر هؤلاء أعظم من كفر اليهود والنصارى ، بل ومشركي العرب، اذ جميع هؤلاء يقولون ان الله خلق السموات والارض ، وأنه يخلق المخلوقات بمشيئته وقدرته ، وأرسطو ونحوه من متفلسفة اليونان كانوا يعبدون الكواكب والاصنام ، وهم لايعرفون الملائكة ولا الانبياء ، وليس في كتب أرسطو ذكر شيء

من ذلك ، وانما غالب علم القوم الامور الطبيعية ، وأما الامور الالهية فكلامهم فيها قليل كثير الخطأ .

واليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل أعلم بالالهيات منهم بكثير ، ولكن متأخروهم كابن سينا أرادوا أن يلفقوا بين كلام أولئك وبين ماجاءت به الرسل ، فأخذوا شيئا من بعض أصول الجهمية والمعتزلة وركبوا منه ومن قول أولئك مذهبا قد يعتزي اليه متفلسفة أهل الملل ، وفيه من الفساد والتناقض ماقد نبه على بعضه في غير هذا الموضع .

وهؤلاء لما رأوا أن أمر الرسل ـ كموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ـ قد ظهر للعالم واعترفوا بأن الناموس الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم أعظم ناموس طرق العالم ووجدوا الانبياء قد ذكروا الملائكة والجن : أرادوا أن يجمعوا بين ذلك وبين قول أسلافهم اليونان ، الذين هم من أبعد الخلق عن معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله ، وأولئك قد أثبتوا عقولا عشرة يسمونها المجردات والمفارقات ، وأصل ذلك مأخوذ من مفارقة النفس للبدن ، فسموا تلك مفارقة لمفارقتها المادة ومجرد لتجردها عنها ، وأثبتوا للافلاك لكل فلك نفسا ، وأكثرهم جعلها اعراضا ، وبعضهم جعلها جواهر ، وهذه المجردات التي أثبتوها ترجع عند التحقيق الى أمور موجودة في الاذهان لا في الاعيان ، كما أثبت أصحاب أرسطو أعدادا مجردة ، وكما أثبت أفلاطون المثل الافلاطونية المجردة ، وأثبتوا هيولى مجردة عن الصورة مدة وخلاء مجردين ، وقد اعترف حذاقهم بأن ذلك انما يتحقق في الاذهان لا في الاعيان .

فلما أراد هؤلاء المتأخرون منهم كابن سينا أن يثبتوا أمر النبوة على أصولهم الفاسدة زعموا أن النبوة لها خصائص ثلاثة من اتصف بها فهو نبي : أن يكون له قوة علمية يسمونها القوة القدسية ينال بها العلم بلا تعلم ، وأن يكون له قوة تخييلية تخيل مايعقله في نفسه بحيث يرى في نفسه صورا ويسمع في نفسه صوتا كما يراه النائم ويسمعه ولا يكون لها وجود في الخارج ، وزعموا أن تلك الصور هي ملائكة الله وتلك الاصوات هي كلام الله ، وأن يكون له قوة فعالة يؤثر بها في هيولي العالم ، وجعلوا كرامات الاولياء ومعجزات الانبياء وخوارق السحرة من قوى النفس ، فأقروا من ذلك بما يوافق أصولهم دون قلب العصا حية ودون انشقاق القمر ونحو ذلك فانهم ينكرون وجود هذا ، وقد بسطنا الكلام على هؤلاء في مواضع ،

وبينا أن كلامهم هذا من أفسد كلام ، وأن هذا الذي جعلوه من خصائص النبي يحصل ماهو أعظم منه لآحاد العامة ولأقل أتباع الانبياء ، وأن الملائكة التي أخبرت بها الرسل أحياء ناطقون أعظم مخلوقات الله ، وهم كثيرون ، ولا يعلم جنود ربك الا هو ، وليسوا عشرة ، وليسوا أعراضا ، لاسيما وهؤلاء يزعمون أن الصادر الاول هو العقل الاول عنه صدر كل ماسواه ، فهو عندهم رب كل ماسوى الله .

وكذلك كل عقل رب كل مادونه ، والعقل الفعال العاشر رب كل ماتحت فلك القمر ، وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسل فليس أحد من الملائكةمبدعا لكل ماسوى الله ، وهؤلاء يزعمون أن العقل الاول هو العقل المذكور في حديث يروى (ان أول ماخلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ، فقال له أدبر فأدبر ، فقال وعزتي ماخلقت خلقا أكرم على منك ، فبك آخذ ، وبك أعطي ، وبك الثواب وعليك العقاب) ويسمونه أيضا القلم لما رأوا أنه قد روى (ان أول ماخلق الله القلم) والحديث الذي ذكروه في العقل كذب موضوع عند أولى المعرفة بالحديث ، كما ذكر ذلك أبو حاتم البيهقي ، وأبو الحسن الدار قطني ، وابن الجوزي وغيرهم،وليس هو في شيء من دواوين الحديث التي يعتمد عليها ، ومع هذا فلفظه لو كان ثابتا لكان حجة عليهم ، فان لفظه (أول ماخلق الله العقل قال له) ويروى (لما خلق الله العقل قال له) وفي الحديث أنه خاطبه في أول أوقات خلقه ليس معناه أنه أول المخلوقات ، وأول منصوب على الظرف كما في اللفظ الآخر لما ، وتمام الحديث : (ماخلقت خلقا أكرم على منك) فهذا يقتضي أنه خلق قبله غيره ، ثم قال : (فبك آخذ ، وبك أعطي ، وبك الثواب ، وعليك العذاب) فذكر أربعة أنواع من الاعراض ، وعندهم أن جميع جواهر العلوي والسفلي صدر عن ذلك العقل فأين هذا من هذا ؟!

وسبب غلطهم : أن لفظ العقل في لغة المسلمين ليس هو لفظ العقل في لغة هؤلاء اليونانيين ، فان العقل في لغة المسلمين مصدر عقل يعقل عقلا كما في القرآن : (وقالوا لو كُنَّا نسْمعُ أَو نعقِلُ ما كُنَّا في أَصحابِ السَّعيرِ) وقوله تعالى : (إِنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقَومٍ يعقِلونَ)[1] (أَفَلَم يسيروا في الأَرْضِ فتكونَ لهمْ قُلوبٌ يعْقِلونَ بِها)[2] ويراد بالعقل الغريزة التي جعلها الله للانسان يعقل بها ، وأما أولئك فالعقل عندهم جوهر قائم بنفسه كالعاقل ، وليس هذا مطابقا للغة الرسول

(١) النحل : ١٢ (٢) الحج : ٤٦

صلى الله عليه وسلم والقرآن ،وعالم الخلق عندهم كما يذكره أبو حامد عالم الاجسام، وأما العقول والنفوس فيسميها عالم الامر ، وقد يسمى العقل عالم الجبروت ، والنفوس عالم الملكوت ، والاجسام عالم الملك، ويظن من لايعرف لغة الرسول ومعاني الكتاب والسنة أن في القرآن والسنة من ذلك الملك والملكوت والجبروت مايوافق هذا وليس الامر كذلك .

وهؤلاء يلبسون على المسلمين تلبيسا كثيرا ، كاطلاقهم أن الفلك محدث أي معلول مع أنه قديم عندهم ، والمحدث لايكون الا مسبوقا بالعدم ، ليس في لغة العرب ولا في لغة أحد أنه يسمى القديم الازلي محدثا ، والله سبحانه قد أخبر أنه خالق كل شيء ، وكل مخلوق فهو محدث ، وكل محدث كائن بعد أن لم يكن ، لكن ناظرهم أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة مناظرة قاصرة لم يعرفوا بها ماأخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا حكموا فيها قضايا العقول ، فلا للاسلام نصروا ، ولا لاعدائه كسروا ، وشاركوا أولئك في بعض قضاياهم الفاسدة ، ونازعوهم في بعض المعقولات الصحيحة ، فصار قصور هؤلاء في العلوم السمعية والعقلية من أسباب قوة ضلال أولئك ، كما بسط في غير هذا الموضع .

وهؤلاء المتفلسفة قد يجعلون جبرائيل هو الخيال الذي يتشكل في نفس النبي والخيال تابع للعقل ، فجاء الملاحدة الصوفية الذين شاركوا هؤلاء المتفلسفة وزعموا أنهم أولياء الله ، وأن الولي أفضل من النبي ، وأنهم يأخذون عن الله بلا واسطة ، كابن عربي صاحب الفتوحات والفصوص ، فقال : انه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به الى الرسول ، والمعدن عنده هو العقل ، والملك هو الخيال ، والخيال تابع للعقل ، وهو بزعمه يأخذ عن العقل الذي هو أصل الخيال والرسول يأخذ عن الخيال ، فلهذا صار عند نفسه فوق النبي ، ولو كان خاصة النبي ماذكروه لم يكن هو من جنسه فضلا عن أن يكون فوقه ، فكيف وما ذكروه يحصل لآحاد المؤمنين ، والنبوة أمر وراء ذلك ؟ فان ابن عربي وأمثاله وان ادعوا أنهم من الصوفية فهم من الصوفية الملاحدة الفلاسفة ، ليسوا من صوفية أهل الكلام فضلا عن أن يكونوا من مشائخ أهل الكتاب والسنة كالفضيل ابن عياض ، وابراهيم بن الادهم وأبي سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، والجنيد بن محمد ، وسهل ابن عبد الله التستري ، وأمثاله .

والله سبحانه قد وصف الملائكة في كتابه بصفات تباين قول هؤلاء كقوله

تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) الى قوله : (وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين)[1] وقال تعالى : (وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً) الى قوله (ويرضى)[2] وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير . ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له)[3] وقال تعالى : (وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون)[4] وقد أخبر أن الملائكة جاءت ابراهيم في صورة البشر ، وأن الملك تمثل لمريم بشرا سويا ، وكان جبرائيل يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي ، وفي صورة الاعرابي ، فرآهم الناس كذلك ، وقد وصف جبرائيل بأنه ذو قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم رآه بالافق المبين ، ووصف بأنه :
(شديد القوى ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى) الى قوله : (ولقد رأى من آيات ربه الكبرى »[5] :

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يـر جبرائيل في الصورة التي خلق عليها الا مرتين ، يعني مرة في الافق الاعلى ، والنزلة الاخرى عند سدرة المنتهى ، ووصف جبرائيل في مواضع أخر بأنه الروح الامين ، ووصفه بأنه روح القدس ، الى غير ذلك من الصفات التي تبين منها أنه من أعظم مخلوقات الله الاحياء العقلاء ، وأنه جوهر قائم بنفسه ، ليس خيالا في نفس النبي

---

(١) الانبياء : ٢٦ ـ ٢٩ (٢) النجم : ٢٦ (٣) سبأ : ٢٢ ، ٢٣ (٤) الانبياء : ١٩ ، ٢٠ (٥) النجم : ٥ ـ ١٨

كما زعمه هؤلاء الملاحدة المتفلسفة المدعون ولاية الله وأنهم أعلم من الانبياء ، وغاية تحقيق هؤلاء انكار أصول الايمان ، فان أصول الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وحقيقة أمرهم جحد الخالق ، فانهم جعلوا وجود المخلوق هو وجود الخالق ، وقالوا الوجود واحد ، ولم يميزوا بين الواحد بالعين والواحد بالنوع ، فان الموجودات اشتركت في مسمى الوجود كما يشترك الناس في مسمى الانسان والحيوانات في مسمى الحيوان ، ولكن هذا المشترك الكلي لايكون مشتركا كليا الا في الذهن ، والا فالحيوانية القائمة بهذا الانسان ليست هي الحيوانية القائمة بالنفوس ، ووجود السموات ليس بعينه وجود الانسان ، فوجود الخالق جل جلاله مباين لوجود مخلوقاته ، وحقيقة قولهم قول فرعون الذي عطل الصانع ، فانه لم ينكر هذا الوجود المشهود لكن زعم أنه موجود بنفسه لا صانع له ، وهؤلاء وافقوه في ذلك ولكن زعموا أنه هو الله ، فكانوا أضل منه ، وان كان هو أظهر فسادا منهم ، ولهذا جعلوا عباد الاصنام ماعبدوا الا الله ، وقالوا : لما كان فرعون في منصب التحكم صاحب السيف قال أنا ربكم الاعلى وان كان الكل أربابا بنسبة ما فانا ربكم الاعلى بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيكم ، قالوا ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قال أقروا له بذلك وقالوا له اقض ماأنت قاض ، انما تقضي هذه الحياة الدنيا قالوا فصح قول فرعون أنا ربكم الاعلى وان كان فرعون على عين الحق •

ثم أنكروا حقيقة اليوم الآخر فجعلوا أهل النار يتنعمون كما يتنعم أهل الجنة، فصاروا كافرين بالله وباليوم الآخر وبملائكته وكتبه ورسله مع دعواهم انهم خلاصة الخاصة من أهل الله وأنهم أفضل من الانبياء ، وأن الانبياء انما يعرفون الله من مشكاتهم، وليس هذا موضع بسط بيان الحاد هؤلاء ، ولكن لما كان الكلام في أولياء الله والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وكان هؤلاء من أعظم الناس دعوى لولاية الله وهم من أعظم الناس ولاية للشيطان فنبهنا على ذلك ، ولهذا عامة كلامهم انما هو في الخيالات الشيطانية ، ويقولون مايقول صاحب الفتوحات بأن أرض الحقيقة : هي أرض الخيال ، فيعترف بأن الحقيقة التي يتكلم فيها هي خيال ، والخيال محل تصرف الشيطان فان الشيطان يخيل للانسان الامور بخلاف ماهي ، قال تعالى : (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِين

وإنهم ليصدُّونهم) الى قوله : (فَبِئسَ القَرينُ)[1] وقال تعالى : (إن اللهَ لا يغفرُ أنْ يُشْرَكَ به ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لِمنْ يشاءُ ومَنْ يُشركْ بالله فقدْ ضلَّ ضلالاً بعيداً) الى قوله : (يعِدُهم ويُمنِّيهمْ وما يعِدُهم الشَّيطانُ إلاَّ غروراً)[2] وقال تعالى : (وقالَ الشَّيطانُ لما قُضِيَ الأَمرُ إن اللهَ وعَدَكُم وعْدَ الحقِّ) الى قوله : (إني كَفَرْتُ بِما أَشرَكتُمونِ مِنْ قبْلُ)[3] وقال تعالى : (وإذْ زَيَّنَ لهمُ الشَّيطانُ أَعمالَهم وقال لا غالبَ لكُمُ اليومَ مِنَ النَّاسِ وإني جارٌ لكُمْ) الى قوله : « إني اخافُ اللهَ والله شديدُ العقاب)[4].

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح أنه رأى جبرائيل ينزع الملائكة ، والشياطين اذا رأت ملائكته التي يؤيد بها عباده هربت منهم ، والله يؤيد عباده المؤمنين بملائكته ، قال تعالى : (إذْ يُوحي ربُّكَ الى الملائكة أَني مَعكمُ فثبِّتوا الَّذينَ آمنوا)[5] وقال تعالى : (يا أَيُّها الَّذين آمنوا اذْكُروا نعمة الله عليكمُ إذْ جاءتكمْ جُنودٌ) الى قوله (وجنوداً لمْ تروْها)[6] وقال تعالى : (ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سكينَتَهُ على رسولهِ وعلى المؤمنينَ وأَنزلَ جنوداً لم تروْها)[7] وقال تعالى : (إذْ يقولُ لِصاحبه لا تحْزَنْ انَّ اللهَ معَنا فأَنزلَ اللهُ سكينَتَهُ عليه وأَيَّدَهُ بجنودٍ لم تروْها)[8] وقال تعالى : (إذْ تَقولُ للمؤمنينَ أَلنْ يكفيَكمْ أَنْ يُمِدَّكُم ربُّكمْ بثلاثةِ آلاف مِنَ الملائكة مُنزَلينَ . بلى إنْ تصبِروا وتتَّقوا ويأْتوكُم مِّن فَورِهمْ هذا يُمدِدْكُم ربُّكمْ بخَمسةِ آلافٍ مِّنَ الملائكة مُسوِّمينَ وما جعَلَهُ الله إلاَّ بُشرى لكمْ ولِتطمئنَّ قلوبُكم بهِ وما النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عندِ الله)[9].

وهؤلاء تأتيهم أرواح فتخاطبهم وتتمثل لهم وهي جن وشياطين فيظن أنها

---

(١) الزخرف : ٣٦ ـ ٣٨ (٢) النساء : ١١٦ ـ ١٢٠ (٣) ابراهيم : ٢٢ (٤) الانفال : ٤٨ (٥) الانفال : ١٢ (٦) الاحزاب : ٩ (٧) التوبة : ٢٦ (٨) التوبة : ٤٠ (٩) آل عمران : ١٢٤ ـ ١٢٦

ملائكة كالارواح التي تخاطب من يعبد الكواكب والاصنام ، وكان من أول من ظهر من هؤلاء في الاسلام المختار بن عبيد الثقفي ، الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (سيكون في ثقيف كذاب ومبير) فكان الكذاب : المختار ابن عبيد الثقفي ، وكان المبير الحجاج بن يوسف ، فقيل لابن عمر : ان المختار يزعم أنه ينزل عليه ، فقال : صدق ، قال تعالى : (هلْ أُنبِّئُكم على مَنْ تنَزَّلُ الشَّياطينُ تنَزَّلُ على كلِّ أَفَّاكٍ أَثيم)[1] وقال الآخر : وقيل له ان المختار يزعم أنه يوحى اليه ، فقال ، قال الله تعالى : (وإنَّ الشَّياطينَ لَيوحونَ إلى أَوليائِهِمْ)[2] .

ومن هذه الارواح الشيطانية الروح الذي يزعم صاحب الفتوحات أنه ألقى اليه ذلك الكتاب ، ولهذا يذكر أنواعا من الخلوات بطعام معين وحال معين ، وهذه مما تفتح لصاحبها الاتصال بالجن والشياطين ، فيظنون ذلك من كرامات الاولياء وانما هو من الاحوال الشيطانية ، وأعرف من هؤلاء عددا منهم من كان يحمل الى مكان بعيد ويعود ، ومنهم من كان يؤتى بمال مسروق تسترقه الشياطين وتأتيه به ، ومنهم من كانت تدله على السراق يجعل له من الناس أو بعطيتهم له اذا دلهم على سرقاتهم ونحو ذلك .

ولما كانت أحوال هؤلاء شيطانية كانوا مناقضين للرسل صلوات الله عليهم كما يوجد من صاحب الفتوحات المكية والفصوص وأشباه ذلك أنه يمدح الكفار ، مثل قوم نوح ، وهود ، وفرعون وغيرهم ، ويتنقص بالانبياء : بنوح ، وابراهيم ، وموسى ، وهارون وغيرهم ، ويذم شيوخ المسلمين : كالجنيد بن محمد ، وسهل بن عبد الله التستري ، وأمثالهما ، ويمدح المذمومين عند المسلمين كالحلاج ونحوه ، كما ذكره في التجليات الخيالية الشيطانية ، فان الجنيد قدس الله سره كان من أئمة الهدى ، فسئل عن التوحيد فقال : التوحيد أفراد الحدوث عن القدم ، فبين أن التوحيد أن يميز بين القديم والمحدث أي الخالق والمخلوق .

وصاحب الفصوص أنكر هذا ، وقال في مخاطبته الخيالية الشيطانية له : ياجنيد هل يميز بين المحدث والقديم الا من يكون غيرهما ؟ فخطأ الجنيد في قوله إفراد

---

(١) الشعراء : ٢١٩ (٢) الانعام : ١٢١

المحدث عن القديم ، لأن قوله ان وجود المحدث هو عين وجود القديم كما قال في (فصوصه) ومن أسمائه الحسنى العلى على من ، وماثم الا هو وعماذا وماهو الا هو ، فعلوه لنفسه ، وهو عين الموجودات ، فالمسمى محدثات هي العلية لذاتها وليست الا هو • الى أن قال : فهو عين مابطن ، وهو عين ماظهر ، وما ثم من يراه غيره ، وما ثم من ينطق عنه سواه ، وهو المسمى أبو سعيد الخراز ، وغير ذلك من أسماء المحدثات •

(فيقال لهذا الملحد) ليس من شرط المميز بين الشيئين بالعلم والقول أن يكون ثالثا غيرهما ، فان كل واحد من الناس يميز بين نفسه وبين غيره ، وليس هو ثالثا ، فالعبد يعرف أنه عبد ويميز بين نفسه وبين خالقه ، والخالق جل جلاله يميز بين نفسه وبين مخلوقاته ، ويعلم أنه ربهم وأنهم عباده ، كما نطق بذلك القرآن في غير موضع ، واستشهدنا بالقرآن عند المؤمنين الذين يقرون به باطنا وظاهرا ، وأما هؤلاء الملاحدة فيزعمون ماكان يزعمه التلمساني منهم وهو أحذقهم في الحادهم لما قريء عليه الفصوص فقيل له القرآن يخالف قولكم فقال القرآن كله شرك ، وانما التوحيد في كلامنا ، فقيل له اذا كان الوجود واحدا فلم كانت الزوجة حلالا والاخت حراما ؟ قال : الكل عندنا حلال ، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم ، وهذا مع كفره العظيم تناقض ظاهر ، فان الوجود اذا كان واحدا فمن المحجوب ومن الحاجب ؟! ولهذا قال بعض شيوخهم لمريده : من قال لك ان في الكون سوى الله فقد كذب ، فقال له مريده فمن هو الذي يكذب ؟ وقالوا لآخر : هذه مظاهر ، فقال لهم : المظاهر غير الظاهر أم هي هو ؟ فان كانت غيرها فقد قلتم بالتثنية ، وان كانت هي اياها فلا فرق •

وقد بسطنا الكلام على كشف أسرار هؤلاء في موضع آخر ، وبينا حقيقة كل واحد منهم ، وأن صاحب الفصوص يقول المعدوم شيء ووجود الحق فاض عليه ، فيفرق بين الوجود والثبوت ، والمعتزلة الذين قالوا المعدوم شيء ثابت في الخارج مع ضلالهم خير منه ، فان أولئك قالوا ان الرب خلق لهذه الاشياء الثابتة في العدم وجودا ليس هو وجود الرب ، وهذا زعم أن عين وجود الرب فاض عليها فليس عنده وجود مخلوق مباين لوجود الخالق ، وصاحبه القونوي يفرق بين المطلق والمعين لأنه كان أقرب الى الفلسفة فلم يقر بأن المعدوم شيء ، لكن جعل الحق هو الوجود المطلق، وصنف مفتاح غيب الجمع والوجود ، وهذا القول أدخل في تعطيل الخالق وعدمه ،

فان المطلق بشرط الاطلاق ــ وهو الكلي العقلي ــ لايكــون الا في الاذهــان لافي الاعيان ، والمطلق لابشرط شيء ــ وهو الكلي الطبيعــي وان قيل أنه موجــود في الخارج ــ فلا يوجد في الخارج الا معينا ، وهو جزء من المعين عند من يقول بثبوته في الخارج ، فيلزمه أن يكون وجود الرب اما متعينا في الخارج واما أن يكون عــين وجود المخلوقات ، وهل يخلق الجزء الكل أم يخلق الشيء نفسه أم العدم يخلــق الوجود أو يكون بعض الشيء خالقا لجميعه ، وهؤلاء يفرون من الحلول لأنه يقتضي شيئين اتحد أحدهما بالآخر ، وعندهم الوجود واحدا ، ويقولون ان النصارى انما كفروا لما خصصوا المسيح بأنه هو الله ولو عمموا لما كفروا ، وكذلك يقولــون في عباد الاصنام انما أخطؤا لما اعتقدوا بعض المظاهر دون بعض فلو عبدوا الجميع لمــا أخطؤا عندهم ، وهذا مع مافيه من الكفر العظيم ففيه مايلزمهم دائما من التناقض لأنه يقال لهم فمن المخطيء ، لكنهم يقولون ان الرب هو الموصوف بجميع النقائص التي يوصف بها المخلوق ، ويقولون ان المخلوقات توصف بجميع الكمالات التي يوصف بها الخالق ، ويقولون ماقاله صاحب الفصوص فالعلى لنفســه هــو الذي يكون له الكمال الذي يستوعب جميع النعوت الوجودية والنسب العــدمية ، ســواء كانت محمودة عرفا أو عقلا أو شرعا ، أو مذمومة عرفا أو عقلا أو شرعا ، فليس ذلــك الا لمسمى الله خاصة ، وهم مع هذا الكفر لايندفع عنهم التناقض ، فانه معلوم بالحس والعقل أن هذا ليس هو ذلك ، وهؤلاء يقولون ماكان يقوله التلمســاني : انه ثبت عندنا بالكشف مايناقض صريح العقل ، ويقولون من أراد التحقيق يعنــي تحقيقهم فليترك العقل والشرع ٠

وقد قلت لمن خاطبت منهم معلوم أن كشف الانبياء أعظم وأتم من كشف غيرهم، وخبرهم أصدق من خبر غيرهم ، والانبياء صلوات الله عليهم يخبرون بما تعجز عقول الناس عن معرفته لابما يعرف الناس بعقولهم انه ممتنع ، فيخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول ، ويمتنع أن يكون في أخبار الرسول ماينافض العقل الصريح ، ويمتنع أن يتعارض دليلان قطعيان ، سواء كانا عقليين أو سمعيين ، أو كان أحدهما سمعيا والآخر عقليا ، فكيف بمن ادعى كشفا يناقض الشرع والعقل ، وهؤلاء قــد لايريدون الكذب لكن يخيل لهم أشياء تكون في نفوسهم ويظنونها في الخــارج ، وأشياء يرونها تكون موجودة في الخارج لكن يظنونهامن كرامات الصالحين ، وتكون من تلبيسات الشياطين ، وهؤلاء الذين يقولون بالوحدة يقدمون الاولياء على الانبياء،

ويذكرون أن النبوة لم تنقطع كما يذكر عن ابن سبعين ونحوه ، ويجعلون المراتب ثلاثة : يقولون العبد يشهد أولا طاعة ومعصية ، ثم طاعة بلا معصية ، ثم لاطاعة ولا معصية .

والشهود الاول ــ وهو الشهود الصحيح ــ هو الفرق بين الطاعات والمعاصي.

وأما الثاني : فيريدون به شهود القدر كما أن بعض هؤلاء يقول أنا كافر برب يعصى ، وهذا يزعم أن المعصية مخالفة الارادة التي هي المشيئة ، والخلق كلهم داخلون تحت حكم المشيئة ، ويقول شاعرهم :

أصبحت منفعلا لما تختاره ... مني ففعلي كله طاعات

ومعلوم أن هذا خلاف ماأرسل الله به رسله وأنزل به كتبه ، فان المعصية التي يستحق صاحبها الذم والعقاب مخالفة أمر الله ورسوله ، كما قال تعالى : (تلكَ حُدودُ اللهِ ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسُولَهُ يُدخِلْهُ جنَّاتٍ تَجري منْ تحتِها الأَنهار خالِدينَ فيها وذلكَ الفَوزُ العظيم . ومنْ يعْصِ اللهَ ورسولَهُ ويتعَدَّ حُدودَهُ يُدخِلهُ ناراً خالِداً فيها) [1] وسنذكر الارادة الكونية والدينية ، والامر الكوني والديني

وكانت هذه المسألة قداشتبهت على طائفةمن الصوفية ، فبينهاالجنيد رحمه الله ، فمن اتبع الجنيد فيها كان على السداد، ومن خالفه ضل ، فانهم تكلموا أن الامور كلها بمشيئة الله وقدرته ، وفي شهوده هذا التوحيد ، وهذا يسمونه الجمع الاول ، فبين لهم الجنيد أنه لابد من شهود الفرق الثاني ، وهو أنه مع شهود كون الاشياء كلها مشتركة في مشيئته وقدرته وخلقه فيجب الفرق بين مايأمر به ويحبه ويرضاه ، وبين ماينهى عنه ويكرهه ويسخطه ، ويفرق بين أوليائه وأعدائه ، كما قال تعالى : (أَفنَجْعَلُ المسلمينَ كالمجرِمينَ مالكُمْ كيفَ تحكُمونَ) [2] وقال تعالى : (أَم نَجعل الَّذينآمنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ كالمفسِدينَ في الأَرض أَم نَجعَل المتَّقينَ كالفُجَّار) [3] وقال تعالى : (أَم حسبَ الَّذينَ اجترحوا السيئات أَنْ نجعلَهم كالَّذينَ آمنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ سواءً محياهُم ومماتُهم ساءَ ما يحكمونَ) [4] وقال تعالى :(وما يستوي

---

(١) النساء ١٣ ، ١٤ (٢) القلم : ٣٥ ، ٣٦ (٣) ص : ٢٨ (٤) الجاثية : ٢١

الاعمى والبصير والذينَ آمنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ ولا المسِيءُ قليلاً ما تتذكرونَ)[1]

ولهذا كان مذهب سلف الامة وأئمتها أن الله تعالى خالق كل شيء وربه ومليكه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لارب غيره ، وهو مع ذلك أمر بالطاعة ونهى عن المعصية ، وهو لايحب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يأمر بالفحشاء وان كانت واقعة بمشيئته ، فهو لايحبها ولا يرضاها ، بل يبغضها ويذم أهلها ويعاقبهم •

والمرتبة الثالثة : أن لايشهد طاعة ولا معصية ، فانه يرى أن الوجود واحد ، وعندهم أن هذا هو غاية التحقيق والولاية لله ، وهو في الحقيقة غاية الالحاد في أسماء الله تعالى وصفاته ، وغاية العداوة لله ، فان صاحب هذا المشهد يتخذ اليهود والنصارى وسائر الكفار أولياء ، وقد قال الله تعالى :(وَمَنْ يَتولَّهم مِنكُم فإِنَّهُ منهُم)[2] ولا يتبرأ من الشرك والاوثان فيخرج عن ملة ابراهيم الخليل ، وقال تعالى : (قد كانتْ لكمُ أُسوةٌ حسنةٌ في ابراهيمَ) الى قوله : (حتىَّ تؤمِنوا باللهِ وحدَهُ) [3] وقال الخليل لقومه المشركين : (أفرأَيتُم ما تعبُدونَ أنتُم وآباؤكم الأَقدمونَ .فإِنَّهم عدوٌّ لي إلاَّ ربَّ العالمينَ)[4] وقال تعالى :(لا تجدُ قوماً يُؤْمنونَ باللهِ واليوم الآخرِ يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ ولو كانُوا آباءَهُم أو أَبناءَهُم أوإخوانَهم أو عشيرتَهم ، أُولئكَ كَتبَ في قلوبِهم الايمانَ وأَيدَهُم بِروحٍ منهُ)[5] وهؤلاء قد صنف بعضهم كتابا وقصائد على مذهبه مثل قصيدة ابن الفارض المسماة بنظم السلوك ، ويقول فيها

لها صلواتي بالمقام أقيمها ... وأشهد فيها أنها لي صلت
كلانا مصل واحد ساجد الى ... حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلى سواي ولم تكن ... صلاتي لغيري في أداء كل ركعة

(الى أن قال)

وما زلت اياها واياي لم تزل ... ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحبت
الى رسولا كنت مني مرسلا ... وذاتي بآياتي على استدلت
فان دعيت كنت المجيب وإن أكن ... منادي أجابت من دعاني ولبت

---

(١) غافر : ٥٨ (٢) المائدة : ٥١ (٣) الممتحنة : ٤ (٤) الشعراء : ٧٥ – ٧٧ (٥) المجادلة : ٢٢

الى أمثال هذا الكلام ، ولهذا كان القائل عند الموت ينشد :

ان كان منزلتي في الحب عنــــدكم ماقــد لقيت فقــد ضيعت أيامي
أمنيـــة ظفرت نفسي بها زمنـــا واليوم أحسبها أضغـــاث أحلامي

فانه كان يظن أنه هو الله ، فلما حضرت ملائكة الله لقبض روحه تبين له بطلان ماكان يظنه ، وهؤلاء ممن قال الله سبحانه فيهم : (أَفَمن زُيِّنَ لهُ سُوءُ عمـــله فرآه حَسَناً)[1] وقد قال تعالى : (سَبَّحَ للهِ ما في السَّموات والأَرضِ وهو العزيزُ الحكيم) فجميـع مافي السموات وما في الارض يسبح الله ، ثم قال تعالى :(لهُ مُلْكُ السموات والأَرضِ يُحيي ويُميتُ وهـوَ على كُلِّ شَيءٍ قديرٌ . هُوَ الأَولُ والآخرُ والظَّاهرُ والباطِنُ وهو بِكُلِّ شيءٍ عليمٌ).

وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقـول في دعــائه (اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والانجيل والقرآن : أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخـذ بناصيتها ، أنت الاول فليس قبلك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين وأغنني من الفقر) .

ثم قال تعالى : (هُو الَّذي خلَقَ السموات والأَرضَ في سِتَّةِ أيام ثُمَّ استوى على العرشِ يعْلَمُ ما يلِجُ في الأَرض وما يخرجُ منها وما ينْزِلُ مِنَ السَّماءِ وما يعرُجُ فيها وهو معَكُم)[2] فلفظ مع لاتقتضي في لغة العرب أن يكون أحد الشيئين مختلطا بالآخــر ،كقوله تعالى :(اتَّقـوا اللهَ وكونوا مـعَ الصَّادقينَ)[3] وقوله تعالى : (مُحمَّدٌ رسولُ اللهِ والَّذينَ معَهُ أَشِدَّاء على الكُفَّار رُحَماءُ بينهُم)[4] وقوله تعالى (والَّذينَ آمنوا منْ بعدُ وهاجروا وجاهدوا مَعَـكُمْ فأُولئكَ مِنكُم)[5] .

ولفظة (مع) جاءت في القرآن عامة وخاصة ، فالعامة في هذه الآية وفي آيــة

(١) فاطر : ٨ (٢) الايات من (سبح لله) الى هنا من سورة الحديد : ١ ـ ٤ (٣) التوبة : ١١٩ (٤) الفتح : ٢٩ (٥) الانفال : ٧٥

المجادلة : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما في السموات وما في الأَرضِ ما يكونُ مِنْ نجْوى ثلاثةٍ إلاَّ هُو رابِعُهم) الى قوله : (إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شيءٍ عليمٌ).

فافتتح الكلام بالعلم وختمه بالعلم ، ولهذا قال ابن عباس ، والضحاك ، وسفيان الثوري ، والامام أحمد بن حنبل وغيرهم : هو معهم بعلمه .

وأما المعية الخاصة ففي قوله تعالى : (إِنَّ اللهَ معَ الَّذينَ اتقَوْا والَّذينَ هُمْ مُحسِنونَ)[1] وقوله تعالى لموسى وهارون : (إِنَّني مَعَكُما أَسمَعُ وأرى)[2] وقال تعالى عن النبي صلى الله عليه وسلم : (إِذْ يقولُ لِصاحِبه لا تَحزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا)[3] يعني النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر الصديق ، فهو مع موسى وهارون دون فرعون ، ومع محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه دون أبي جهل وغيره من أعدائه ، وهو مع الذين اتقوا وكانوا محسنين دون الظالمين المعتدين ، فلو كان معنى المعية أنه بذاته في كل مكان تناقض الخبر الخاص والخبر العام ، بل المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك ، وقوله تعالى : (وهو الَّذي في السَّماء إِلهٌ وفي الأَرضِ إِلهٌ)[4] اي هو اله من في السماء واله من في الارض ، كما قال تعالى (ولهُ المَثَلُ الأَعلى في السَّموات والأَرض)[5] وكذلك قوله : (وهو اللهُ في السَّموات والأَرضِ)[6] كما قرره أئمة العلم أنه المعبود في السموات والارض ، وأجمع سلف الامة وأئمتها أن الرب تعالى بائن من مخلوقاته ، يوصف بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، فيوصف بصفات الكمال دون صفات النقص ، ويعلم أنه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في شيء من صفات الكمال ، قال الله تعالى : (قُلْ هوَ اللهُ أحدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لمْ يلِدْ ولم يُولَد . ولمْ يكُنْ لهُ كُفواً أَحدٌ) .

قال ابن عباس : الصمد العليم الذي كمل في علمه ، العظيم الذي كمل في عظمته

---

(١) النحل : ١٢٨ (٢) طه : ٤٦ (٣) التوبة : ٤٠ (٤) الزخرف : ٨٤ (٥) الروم : ٢٧ (٦) الانعام : ٣

القدير الكامل في قدرته ، الحكيم الكامل في حكمته ، السيد الكامل في سؤدده .

وقال ابن مسعود وغيره : الصمد الذي لاجوف له ، والاحد الذي لانظير له ، فاسمه الصمد يتضمن اتصافه بصفات الكمال ونفي النقائص عنه ، واسمه الاحد يتضمن أنه لا مثل له ، وقد بسطنا الكلام على ذلك في تفسير هذه السورة وكونها تعدل ثلث القرآن ، انتهى المقصود نقله من كلام شيخ الاسلام قدس الله روحه .

وهذه نبذة مما يتعلق بأهل الحلول والاتحاد . وللشيخ علي القاري ، والسعد التفتازاني ، والشيخ محمد البخاري ، والشيخ عبد الباري ، والعلامة عضد الملة والدين : كتب مفردة في الكلام عليهم وردهم ، ولعلنا ان شاء الله تعالى نفرد في ذلك كتابا نذكر فيه جميع ما قاله العلماء الربانيون فيهم ، ونذكر بدع أهل الطرائق المبتدعة وما عندهم من المخالفات للشريعة .

(والمقصود مما نقلناه كله) أن قول النبهاني عن أهل الحلول والاتحاد انهم أولياء الله كلام دل على جهله واتباعه لهواه وغيه ، وقد ذكر الشيخ على القاري في الرد على الفصوص من المنكرات والاوهام والغلطات ماتقشعر منها الجلود ، وقال في آخر كتابه : وما سبق من المنكرات في كلام ابن عربي لاسبيل الى صحة تأويلها ، فلا يستقيم اعتقاد أنه من أولياء الله مع اعتقاد صدور هذه الكلمات منه الا باعتقاد أنها لم تصدر عنه ، أو أنه رجع الى مايعتقده أهل الاسلام في ذلك ، ولم يجيء بذلك عنه خبر ولا روي عنه أثر ، فذمه جماعة من أعيان العلماء وأكابر الاولياء لأجل كلامه المنكر .

(وأما قول النبهاني) عن كتب ابن تيمية أنه بسبب كلامه على القائلين بالحلول والاتحاد وغير ذلك مما يدل على البطلان والفساد قلل الله النفع بها الخ .

(فجوابه) أن الله تعالى لم يقلل الانتفاع بها ، بل لم يزل الناس يلتقطون منها درر الفوائد ، ويصححون بها أعمالهم والعقائد ، وهي كما قال الحافظ ابن القيم تشترى بالغالي من الاثمان في كل عصر وزمان ، فأي عالم من العلماء انتفع الناس بكتبه كما انتفعوا بكتب شيخ الاسلام ، وذلك من المعلوم بين الخاص والعام ،ولكن الامر كما قيل :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

وكتب المتأخرين من الحنابلة وغيرهم مشحونة بالنقل عن كتبه ، والمنقولات

عنها زينة للكتب وغرة محاسنها ، وقد أودع الله تعالى فيها خاصية التأثير في القلوب فلا تجد أحدا يطالع فيها الا وفتح الله عليه أبواب العلوم ، وأفاض عليه من زلال عذب منطوقها والمفهوم ، الا من قسى قلبه وكشف حجابه ، كما قال تعالى عن كتابه : (يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الفَاسِقِيْنَ الَّذِيْنَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا امَرَ اللهُ بِهِ انْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُوْنَ فِي الأَرضِ اولئكَ هُمُ الخَاسِرُوْنَ)[1]

(قال النبهاني) ومن كتبه (منهاج السنة) في الرد على الروافض وكتاب (العقل والنقل) في الرد على المتكلمين من أهل السنة ، كالاشعري والماتريدي وأصحابهما ، وهم معظم الامة المحمدية ، قال : ومنهاج السنة وان كان مؤلفا في الرد على الروافض الا أنه حشاه بالرد على أهل السنة ، والرد على ساداتنا الصوفية ومن يعتقد فيهم ، كقوله في جواب قول الرافضي : يجب في كل زمان أمام معصوم ــ بعد أن بين فساده ــ وهل هذا إلا أفسد مما يدعيه كثير من العامة في القطب والغوث ونحو ذلك من أسماء يعظمون مسماها بما هو أعظم من مرتبة النبوة من غير تعيين لشخص معين يمكن أن ينتفع به الانتفاع المذكور في مسمى هذه الاسماء ، وكما يدعي كثير منهم حياة الخضر مع أنهم لم يستفيدوا بهذه الدعوى منفعة لا في دينهم ولا في دنياهم ، وانما غاية من يدعي ذلك أنه يدعي جريان بعض مايقدر الله على يدي مثل هؤلاء ، وهذا مع أنهم لاحاجة لهم الى معرفته لم ينتفعوا بذلك لو كان حقا فكيف اذا كان مايدعونه باطلا ، ومن هؤلاء من يتمثل له الجني في صورة ويقول أنا الخضر ويكون كاذبا ، وكذلك الذين يذكرون رجال الغيب ورؤيتهم انما رأوا الجن وهم رجال غائبون وقد يظنون أنهم إنس ، وهذا قد بيناه في مواضع تطول حكايتها مما تواتر عندنا •

(قال النبهاني في الاعتراض على الشيخ) وهكذا دأبه في انكار مالم يحط بعلمه ، وجعله في درجة المستحيلات ، مع أنه ثبت عند غيره من جماهير المسلمين ــ من الاولياء العارفين ، والعلماء العاملين ، والعباد والصالحين وغيرهم ــ ثبوتالايحتمل وقوع الشك في صحته ، ثم انه استشهد على صحة دعواه بكلام اليافعي ، وابن حجر المكي ، ونجم الدين الاصفهاني وأضرابهم من الغلاة •

(أقول جوابه) من وجوه :

---

(1) البقرة : ٢٦ ، ٢٧

(الاول) أنا تكلمنا سابقا عن جميع كتب الشيخ ، وذكرنا في مدحها وتقريظها ماذكرنا ، وقلنا ان (منهاج السنة) من أجل كتب الشيخ ، وفيه من الفوائد الدينية مايعز وجود نظيره في غيره ، وما أحسن ماقرظ به الاديب الفهامة الشيخ طه بن محمود رئيس التصحيح في المطبعة الكبرى ، وهو :

بأقوم منهاج أتى القوم أحمد ... فمالي لا أثني عليه وأحمد
إمام حباه الله علما وحكمة ... وقلبا تقيا نوره يتوقد
فقام بأمر الحق في الناس صادعا ... بأوضح برهان له العقل يشهد
وبدد أهواء تجمع شملها ... بها ضل قوم والضلال مبدد
أتاهم وهم شتى المذاهب مالهم ... من العقل هاد أو من الدين مرشد
أتاهم وليل الرفض والنصب حالك ... وقاعدة الطغيان فيهم توطد
أتى معشرا للغي أهدى من القطا ... ولم يبصروا طرق الرشاد فيهتدوا
أتى أمة بغض الصحابة دينهم ... وسب أبي بكر به قد تعبدوا
فانكر ماقد خالف الدين والتقى ... ومن ديننا إنكار ماليس يحمد
وأفشى كتاب الله فيهم وأنهم ... أباة عن الاذعان للحق شرد
وناضل عن صحب النبي وحزبه ... ومن لهم رأي وقول مسدد
فهل مثل هذا الحبر أولى بشكره ... على ماأتاه أم تراه يفند
ولكن أعداء الفضائل جمة ... وهل ساد إلا ذو الايادي المحسد
سأشكره دهري عن الناس اذ غدا ... عليهم جميعا لابن تيمية اليد
فلو كان تأليف الفتى مخلدا له ... لكان من المنهاج والله مخلد
ولو كان في الدنيا جزاء لمحسن ... لكان له فيها النعيم المؤبد
فأسألك اللهم هتان رحمة ... على قبره مالاح في الافق فرقد

فانتقاد النبهاني على هذا الكتاب أشبه شيء بنبح الكلاب للسحاب ، أبان للناس جهله وغباوته وضلاله ، وعداوته للدين ، وانحرافه عن سبيل المسلمين والمؤمنين .

(الوجه الثاني) أن النبهاني انتقد كتاب المنهاج واعترض على مصنفه في انكاره الخضر والاقطاب والاوتاد ورجال الغيب وغيرهم مما ابتدعه المتصوفه والغلاة ترويجا لمقاصدهم ، وانتقاده هذا مما لاوجه له ، لأن الرافضة لما أوجبوا اللطف على الله ومراعاة الاصلح وأن الأئمة منحصرون بزعمهم في اثني عشر اماما وهم لايستوعبون الزمان الى قيام الساعة : لزمهم القول بالمنتظر ، مع أن حجج الله

الله لاتقوم بخفي مستور لايقع العالم له على خبر ، ولا ينتفعون به في شيء أصلا ، فلا جاهل يتعلم منه ، ولا ضال يهتدي به ، ولا خائف يأمن به ، ولا ذليل يتعزز به ، فأي حجة لله قامت بمن لايرى له شخص ، ولا يسمع منه كلمة ، ولا يعلم له مكان ؟ ولا سيما على أصول القائلين به ، فان الذي دعاهم الى ذلك : أنهم قالوا لابد منه في اللطف بالمكلفين وانقطاع حجتهم عن الله ، فيالله العجب أي لطف حصل بهذاالمعدوم لا المعصوم ؟ وأي حجة أثبتم للخلق على ربهم بأصلكم الباطل ؟ فان هذا المعدوم اذا لم يكن لهم سبيل قط الى لقائه والاهتداء به فهل في تكليف مالا يطاق أبلغ من هذا ؟ وهل في العذر والحجة أبلغ من هذا ؟ فالذي فررتم منه وقعتم في شر منه ، وكنتم في ذلك كما قيل :

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولكن أبى الله إلا أن يفضح من تنقص بالصحابة الاخيار ، وبسادة هذه الامة الابرار ، وان يرى الناس عورته ، ويغريه بكشفها ونعوذ بالله من الخذلان ، ولقد أحسن القائل :

ما آن للسرداب أن يلد الذي ثلثتموه بزعمكم ماآن
فعلى عقولكم العفاء فانكم ثلثتم العنقاء والغيلانا

ولقد بطلت حجج استودعها مثل هذا الغائب وضاعت أعظم ضياع ، فهم أبطلوا حجج الله من حيث زعموا حفظها .

(فلما رد الشيخ) على ابن المطهر الحلي القول بالمنتظر على أحسن وجه : أراد سد أبواب طرق مناظرتهم وحجاجهم ومعارضتهم على الخضر والاقطاب والاوتاد ونحوهم ، وأبطل القول بوجودهم ، وأنه ليس من الدين في شيء ، ولولا ذلك لامكن أن يقولوا ان القول بالمنتظر كالقول بالخضر والقطب والبدل والوتد وغيرهم ، لاسيما وحياة الخضر أطول بكثير ، والقائلون به أكثر ، فما هو جوابكم فهو جوابنا ، فكان من الواجب على الشيخ بيان الحقيقة في ذلك ، واقامة الدليل على نفي وجودهم ، وكيف يمكن مخاصمة الروافض في المهدي المنتظر وانكاره مع القول بحياة الخضر واثبات الاقطاب ونحوهم ، فلا شك أن انتقاد النبهاني هنا في غاية السقوط .

(الوجه الثالث) اعتراض النبهاني على الشيخ في تعرضه لبعض من يزعم أنه

من أهل السنة من الاشعرية والماتريدية وساداته الصوفية ، فنقول : ان الشيخ تكلم على كل من ابتدع وأحدث في الدين ماليس منه ، ولم يتخوف من الاسماء ، فمن خالف الكتاب والسنة واجماع الامة فهو ممن اتبع غير سبيل المؤمنين ، فكيف لايرد على المخالفين ، وكل آخذ يؤخذ منه ويرد عليه الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قال ذلك امام دار الهجرة ، وسنتكلم ان شاء الله تعالى على السنة وماهي ومن أهلها ليعلم مافي كلام النبهاني من الجهل والغلط •

(الوجه الرابع) أن القول بوجود الخضر وحياته والاعتقاد برجال الغيب وأمثالهم ان كان من واجبات الشريعة وأركان الديانة كالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ووجود الجن ونحو ذلك مما وردت نصوص الكتاب والسنة به : فلم لم ينص عليها في القرآن ولم يرد فيها حديث صحيح ؟ فاذا سأل رب العالمين عبدا من عباده وقال له لم لم تؤمن بحياة الخضر الابدية وكذبت بالاقطاب والاوتاد والابدال ونحوهم مما قال به الصوفية ، ثم أجابه بقوله يارب العالمين وياخالق السموات والارضين انك كلفت الناس أن يؤمنوا بك وان لم ترك العيون ولم تحط بك الظنون ، ولكن نصبت لهم دلائل في الافاق والانفس على وجودك عدا ماورد من النصوص على لسان أنبيائك ورسلك ، وأودعت في كل شيء آية تدل على أنك الواحد ، بل كل ذرة من ذرات العوالم هي أعدل شاهد ، ثم انك ملأت كتابك الكريم من ذكر الملائكة والرسل والجن وغير ذلك مما لم نره ، ثم ان نبيك صلى الله عليه وسلم وسائر الانبياء كلهم أخبروا بذلك ، فلذلك اعترفنا وصدقنا بما ذكر ، وأما الخضر ومن ذكر معه فلم نر في كتابك الكريم آية تدل على خلوده ولا وجوده ووجودهم ، وأما مارواه الكذابون عن نبيك صلى الله عليه وسلم من ذلك فقال المحققون من أهل العلم : انها كذب لا أصل لها ، بل الوارد خلاف ذلك ، فكيف ياالهي أو من بأمور موهومة وأشخاص غير معلومة ، وقد أنعمت على بعقل أزن فيه الامور وأجعله حكما عدلا ، ودليلا هاديا اذا أعضلت على المقاصد ، فاذا لم أنتفع ياالهي بما أنعمت علي من نعمة العقل أكون اذا كالنبهاني الغبي أخبط خبط عشواء ولا أفرق بين السماء والماء •

ثم أقول : الهي مافائدة القول بوجود الخضر والاقطاب والابدال ونحوهم ؟ لاجاهل يستفيد منهم العلم بدينه ، ولا مظلوم يستصرخهم على دفع ظلمه ، والشمس أنت تطلعها وتغيبها ، والفلك أنت تديره ، والقمر أنت تنيره ، والكواكب أنت جعلتها

زينة للسماء وحفظا من كل شيطان مارد ، والسحاب أنت تنشئه ، والغيث أنت تغيث به عبادك ، والمريض أنت تشفيه ، والجائع أنت تطعمه ، والعطشان أنت تسقيه ، وقد أودعت كتابك كل علم ، وبيان كل حكم ، وأنزلت : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ)[1] فالخضر وغيره حينئذ ماذا يفعلون اذا لم تكن لهم وظيفة وعمل ؟ والله المستعان على ما يصفون .

(الوجه الخامس) أن النبهاني وأضرابه استدلوا على وجود من ذكر بقول ابن حجر المكي ونحوه ، ومن المعلوم أن كلام أمثال هؤلاء لايفيد في هذا الباب شيئا ، وقد تقدم أن العمدة عند أهل العلم في مسائل أصول الدين وفروعه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واجماع أهل العلم من هذه الامة ، ولاتذكر أقوال أهل العلم الا تبعا وبيانا ، لا أنها المقصودة بالذات والاصالة .

ثم المسائل التي لايلزم بها المجتهد غيره هي ماكان للاجتهاد فيه مساغ ، ولم تخالف كتابا ولا سنة صريحة ولا اجماعا ، وما خالف ذلك فهو مردود على قائله ، ويلزمه أهل العلم بصريح الكتاب والسنة واجماع الامة .

قال امام دار الهجرة مالك ابن أنس رحمه الله تعالى : ما منا إلا راد ومردود عليه الا صاحب هذا القبر ، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحسن منه قول الله تعالى : (فإنْ تنازعتُم في شيءٍ فردُّوهُ إلى اللهِ والرَّسولِ إنْ كُنتُم تُؤْمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ ذلِكَ خيرٌ وأحسَنُ تأْويلاً)[2] .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا الفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الامر من أمري فيقول بيننا وبينكم كتاب الله ، ألا واني أوتيت الكتاب ومثله معه) فاذا كان رد السنة محرما لايجوز ولو ردها ظانا أن القرآن لايدل عليها فكيف رد الكتاب والسنة وعدم الالزام بهما لخلاف أحد من الناس كائنا من كان ؟!

والمقصود : أن النبهاني وأضرابه لم يوردوا على اثبات مقصدهم بدليل يليق أن يتلقى بالقبول ، وابن حجر المكي ونحوه من الغلاة هم خصوم الحق وأعداؤه ، فكيف يسوغ أن نستدل بكلامهم على مالا يقول به أهل الحق ؟!

(الوجه السادس) أن ماذكره الشيخ لم يذكره الخصم بتمامه ، بل حرف فيه

---

(١) المائدة : ٣ (٢) النساء : ٥٩

وغير ، وحذف منه مايجب ذكره ، ونحن ننقل هنا ماوجدناه من كلامه في مواضع متفرقة ، واذا جمعت في موضع واحد وتبين دليلها سلم المنصف كلامه وسقط عنده قول من أنكر عليه من الغلاة السالكين غير سبيل المؤمنين ، ومن الله التوفيق :

قال شيخ الاسلام — رحمه الله في أثناء جواب سؤال سأله بعضهم عن الاستغاثة بأهل القبور والنذر لهم ونحو ذلك — وأما سؤال السائل عن القطب الغوث الفرد الجامع : فهذا قد يقوله طوائف من الناس ، ويفسرونه بأمور باطلة في دين الاسلام ، مثل تفسير بعضهم ان الغوث الذي يكون مدد الخلائق بواسطته في نصرهم ورزقهم ، حتى قد يقولون ان مدد الملائكة وحيتان البحر بواسطته ، فهذا من جنس قول النصارى في المسيح والغالية في على عليه السلام ، وهذا كفر صريح يستتاب صاحبه فان تاب والا قتل ، فانه ليس من المخلوقات لا ملك ولا بشر يكون امداد الخلائق بواسطته ، ولهذا كان مايقوله الفلاسفة في العقول العشرة التي قد يزعمون أنها الملائكة ، وما يقوله النصارى في المسيح ، ونحو ذلك : كفرا صريحا باتفاق المسلمين ، وكذلك ان عني بالغوث مايقول بعضهم أن في الارض ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، وقد يسميهم النجباء ، فينتقى منهم سبعون هم النقباء ، ومنهم أربعون هم الابدال ، ومنهم سبعة هم الاقطاب ، ومنهم أربعة هم الاوتاد ، ومنهم واحد هو الغوث ، وانه مقيم بمكة ، وأن أهل الارض اذا نابتهم نائبة في رزقهم ونصرهم فزعوا للثلاثمائة والبضعة عشر رجلا ، وأولئك يفزعون الى السبعين ، والسبعون الى الاربعين ، والاربعون الى السبعة ، والسبعة الى الاربعة ، والاربعة الى الواحد .

وبعضهم قد يزيد في هذا وينقص في الاعداد والاسماء والمراتب ، فان لهم فيها مقالات متعددة ، حتى يقول بعضهم انه ينزل من السماء على الكعبة ورقة خضراء باسم غوث الوقت واسم خضره على قول من يقول أن الخضر هو مرتبة ، وأن لكل زمان خضرا فان لهم في ذلك قولين .

وهذا كله باطل لاأصل له لافي كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا قاله أحد من سلف الامة ولا أئمتها ، ولا من الشيوخ الكبار المتقدمين الذين يصلحون للاقتداء بهم ، ومعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وعثمان وعليا كانوا خير الخلق في زمنهم وكانوا بالمدينة ولم يكونوا بمكة ،

وقد روى بعضهم حديثا في هلال غلام المغيرة ابن شعبة وأنه أحد السبعين ، والحديث كذب باتفاق أهل المعرفة ، وان كان قد روى بعض هذه الاحاديث أبو نعيم في حلية الاولياء والشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في بعض مصنفاته ، فلا نغتر بذلك فانه يروي الصحيح والحسن والضعيف والموضوع والكذب ، ولا خلاف بين العلماء في أنه كذب موضوع ، وتارة يروونه على عادة أهل الحديث الذين يروون ماسمعوه ولا يميزون بين صحيحه من باطله ، وكان أهل الحديث لايروون مثل هذه الاحاديث لما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين) .

(وبالجملة) فقد علم المسلمون كلهم أن ماينزل بالمسلمين من النوازل في الرغبة والرهبة — مثل دعائهم عند الكسوف والاعتداد لدفع البلاء وأمثال ذلك — انما يدعون في مثل ذلك الله وحده ، لايشركون به شيئا ، لم يكن للمسلمين أن يرجعوا بحوائجهم الى غير الله ، بل كان المشركون في جاهليتهم يدعونه بلا واسطة فيجيبهم الله ، أفتراه بعد التوحيد والاسلام لايجيب دعاءهم الا بهذه الواسطة التي ماأنزل الله بها من سلطان ؟ قال تعالى : (وإذا مسَّ الانسانَ الضُّرُ دعانا لجنبهِ)[1] الآية ، وقال : (وإذا مسَّكُمُ الضُّرُ في البحْرِ ضَلَّ مَن تدْعونَ إلاَّ إيَّاهُ)[2] الاية ، وقال تعالى : (قُلْ اراَيتَكُم إنْ أَتاكُمْ عذابُ اللهِ) الآية ، وقال تعالى (ولقد ارسلْنا إلى أُمـمٍ منْ قبلِكَ) الىقوله : (ماكانوا يعملونَ)[3] .

والنبي صلى الله عليه وسلم استسقى لاصحابه بصلاة الاستسقاء وبغير صلاة ، وصلى بهم للاستسقاء وصلاة الكسوف ، وكان يقنت في صلاته فيستنصر على المشركين ، كذلك خلفاؤه الراشدون بعده ، وكذلك أئمة الدين ، ومشائخ المسلمين : مازالوا على هذه الطريقة ، ولهذا يقال ثلاثة أشياء مالها من أصل : باب النصيرية ، ومنتظر الرافضة ، وغوث الجهال ، فان النصيرية تدعي في الباب الذي لهم ماهو من هذا الجنس ، وأنه الذي يقيم العالم ، فذاك شخصه موجود ، لكن دعوى النصيرية فيه باطلة ، وأما محمد بن الحسن المنتظر والغوث المقيم بمكة ونحو هذا فانه باطل ليس له أصل في الوجود ولا وجود ، وكذلك مايزعمه بعضهم من أن القطب الغوث

---

(١) يونس : ١٢ (٢) الاسراء : ٦٧ (٣) الانعام : ٤٠ ، ٤٣

الجامع يمد أولياء الله ويعرفهم كلهم ونحو هذا فهذا باطل ، فأبو بكر وعمر رضي الله عنهما لم يكونا يعرفان جميع أولياء الله وعددهم ، فكيف بهؤلاء الضالين المفترين الكذابين ؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم انما عرف الذين لم يكن يراهم بسيما الوضوء وهو الغرة والتحجيل ، ومن هؤلاءمن أولياء الله مالا يحصيه الا الله ، وأنبياء الله الذين هو امامهم وخطيبهم لم يكن يعرف أكثرهم ، بل قال الله تعالى له : (ولقدْ ارسلْنا رُسلاً من قبلكَ منهُم مَنْ قصصنا عليْكَ ومنهم منْ لم نقصُص عَليْكَ)[1] وموسى لم يعرف الخضر ، والخضر لم يكن يعرف موسى ، بل لما سلم عليه موسى قال له الخضر واني بأرضك السلام ؟ فقال له : أنا موسى ، قال : موسى بني اسرائيل ؟ قال نعم . فكان قد بلغه اسمه وخبره ولم يكن يعرف عينه ، ومن قال : انه نقيب الاولياء وأنه يعلمهم كلهم فقد قال الباطل .

(والصواب الذي عليه المحققون) أنه ميت ، وأنه لم يدرك الاسلام ، ولو كان موجودا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لوجب عليه أن يؤمن به ويجاهد معه ، كما أوجب الله ذلك عليه وعلى غيره ، ولكان يكون بمكة والمدينة ، وكان يكون حضوره مع الصحابة رضي الله عنهم للجهاد معهم واعانتهم على الدين أولى له من حضوره عند قوم كفار ليرقع لهم سفينتهم ، ولم يكن عن خير أمة خرجت للناس مختفيا ، وهو قد كان بين المشركين ولم يحتجب عنهم .

ثم ليس للمسلمين به وبأمثاله حاجة لا في دينهم ولا دنياهم ، فان دينهم أخذوه عن الرسول صلى الله عليه وسلم النبي الامي ، الذي علمهم الكتاب والحكمة ، وقال لهم نبيهم صلى الله عليه وسلم (لو كان موسى حيا ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم) وعيسى بن مريم اذا نزل من السماء انما يحكم فيهم بكتاب ربهم وسنة نبيهم ، فأي حاجة لهم مع هذا الى الخضر أو غيره والنبي صلى الله عليه وسلم قد أخبرهم بنزول عيسى من السماء ، وحضوره مع المسلمين ، وقال : (كيف تهلك أمة أنا في أولها وعيسى في آخرها) فاذا كان هذان النبيان الكريمان اللذان هما مع ابراهيم وموسى ونوح أفضل الرسل ومحمد صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم ولم يحتجبوا عن هذه الامة لاعوامهم ولا خواصهم فكيف يحتجب عنهم من ليس مثلهم ؟ واذا كان

---

(١) غافر : ٧٨

الخضر حيا دائما فكيف لم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قط ؟ ولا أخبر به أمته ولا خلفاءه الراشدين .

وقول القائل : انه نقيب الاولياء ، فيقال من ولاه النقابة ؟ وأفضل الاولياء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وليس فيهم الخضر ، وعامة مايحكى في هذا الباب من حكايات بعضها كذب وبعضها مبني على ظن رجال ، مثل شخص رأى رجلا ظن أنه الخضر أو قال انه خضر ، كما أن الرافضة ترى شخصا تظن أنه الامام المنتظر المعصوم أو تدعي ذلك ، وروى عن الامام أحمد أنه قال — وقد ذكر له الخضر — من أحالك على غائب فما أنصفك ، وما ألقى هذا على ألسن الناس الا شيطان ، وقد بسطنا الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

(أما اذا قصد) القائل بقوله القطب الغوث الفرد الجامع أنه رجل يكون أفضل أهل زمانه فهذا ممكن ، لكن من الممكن أن يكون في الزمان اثنان متساويان في الفضل وثلاثة وأربعة ، ولا يجزم بأن لايكون في كل زمان أفضل الناس الا واحدا ، وقد يكون جماعة بعضهم أفضل من بعض من وجوه ، وتلك الوجوه اما متقاربة أو متساوية ، ثم اذا كان في الزمان رجل هو أفضل أهل الزمان ، فتسميته الغوث الفرد الجامع بدعة ماأنزل الله بها من سلطان ، ولا تكلم بها أحد من سلف الامة وأئمتها ، وما زال السلف يظنون في بعض أنه أفضل أو من أفضل أهل زمانه ولا يطلقون عليه هذه الاسماء التي ماأنزل الله بها من سلطان ، لاسيما من المنتحلين لهذا الاسم من يدعي أن أول هؤلاء الاقطاب هو الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام ، ثم يتسلسل الامر الى مادونه الى بعض المشايخ المتأخرين ، وهذا لايصح على مذهب أهل السنة ، ولا على مذهب الرافضة ، فأين أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والسابقون من المهاجرين والانصار ؟ والحسن عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم قد كان قارب سنه الاحتلام ، وقد حكي عن بعض الاكابر من الشيوخ المنتحلين لهذا الاسم : أن القطب الفرد الغوث الجامع ينطبق علمه على علم الله ، وقدرته على قدرة الله ، فيعلم مايعلمه ، ويقدر على مايقدر عليه الله ، وزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كذلك ، وأن هذا انتقل منه الى الحسن ، فتسلسل الى شيخه : فبينت له أن هذا كفر صريح ، وجهل قبيح ، وأن دعوى هذا في رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر دع من سواه ، وقد قال تعالى : (قُلْ لا أقولُ لكُم عندي خزائِنُ اللهِ ولا أعلمُ

الغيبَ ولا اقولُ لكم إني ملَكٌ)[1] وقال تعالى : (قُلْ لا املكُ لنفسي نفْعاً ولا ضرّاً إلاَّ ما شاءَ اللهُ)[2] الآية ، وقال تعالى : (يقولونَ لَو كانَ لنا مِنَ الامر شيءٌ ما قُتِلْنا هٰهُنا قُلْ لو كُنتم في بيوتِكُم لبرَزَ الَّذينَ كُتِبَ عليهم القَتْلُ إلى مضاجعِهِمْ)[3] وقال تعالى : (قُلْ إنَّ الامرَ كُلَّه للهِ)[3] وقال تعالى : (لِيقْطَعَ طرَفاً مِّنَ الَّذينَ كفَروا او يكْبِتَهُم فينْقلِبوا خائبين)[4] والآيةبعدها وقال تعالى : (إِنَّكَ لا تَهدي مَنْ احبَبْتَ ولكِنَّ اللهَ يهدي منْ يشاءُ)[5]

والله تعالى قد أمرنا أن نطيع رسوله فقد قال تعالى : (ومَنْ يُطِعِ الرَّسولَ فقَدْ اطاعَ اللهَ)[7] وأمرنا أن نتبعه ، قال تعالى : (قُلْ إنْ كُنتُم تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ)[8] وأمرنا أن نعزّره ونوقره وننصره ،وجعل له من الحقوق مابينه في كتابه وسنة رسولهحتى أوجب علينا أن يكون أحب الينا من أنفسنا وأهلنا فقال تعالى : (النَّبيُّ أَوْلَى بِالمؤْمِنينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ)[9] وقال تعالى : (قُلْ إنْ كانَ آباؤُكُمْ وأبناؤُكُم) الىقوله : (الفاسِقينَ)[10] .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين) وقال له عمر رضي الله عنه : (يارسول الله والله لأنت أحب الي من كل شيء الا من نفسي ، فقال : لاياعمر ، حتى أكون أحب اليك من نفسك ، فقال : فأنت أحب الي من نفسي ، قال الآن ياعمر) وقال : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ،ومن كان يحب المرء لايحبه الا لله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار) وقدبين في كتابه الحقوق التي لاتصلح الا له ، وحقوق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحقوق المؤمنين بعضهم على بعض ــ كما قد بسطنا ذلك في غير هذا الموضع ــ وذلك مثل قوله تعالى : (ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورسولَه ويخشَ اللهَ ويتَّقْهِ فأُولئك هُم الفائزونَ)[11]

---

(1) الانعام : ٥٠ (٢) الاعراف : ١٨٨ (٣) آل عمران : ١٥٤ (٤) ال عمران ١٢٧ (٦) القصص : ٥٦ (٧) النساء : ٨٠ (٨) آل عمران : ٣١ (٩) الاحزاب : ٦ (١٠) التوبة : ٢٤ (١١) النور : ٥٢

فالطاعة لله والرسول ، والخشية والتقوى لله وحده ، وقوله تعالى : (ولَو أنهمْ رَضُوا ما آتاهم اللهُ ورسولُه وقالوا حسبُنا اللهُ سيؤْتِينا اللهُ من فضلِهِ ورسولُه إنا الى اللهِ راغِبونَ)[1] فالايتاء لله وللرسول ، كقوله : (وما آتاكمُ الرَّسولُ فخذوهُ وما نَهاكم عنهُ فانتَهوا)[2] لأن الحلال ما حلله الله ورسوله ، والحرام ماحرمه الله ورسوله .

وأما التحسب فهو لله وحده ، كما قالوا حسبنا الله ولم يقولوا حسبنا الله ورسوله ، قال تعالى : (يا أَيُّها النَّبي حَسبُكَ اللهُ ومنِ اتَّبعَك مِن المؤمنينَ)[3] أي يكفيك ويكفي من اتبعك من المؤمنين ، وهذا هو المقطوع به في معنى هذه الآية، ولهذا كانت كلمة ابراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام حسبنا الله ونعم الوكيل .

(الوجه السابع) في بيان حجج المنكرين لحياته — أعني الخضر — اليوم ، ودلائل خصومهم ، وبيان الحق الحقيق بالقبول من القولين .

إعلم أن العلماء اختلفوا في حياته اليوم كما اختلفوا في نبوته ، فذهب جمع الى أنه ليس بحي اليوم ، وسئل البخاري عنه وعن الياس عليهما السلام هل هما حيان ؟ فقال : كيف يكون هذا ؟! وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم — أي قبل وفاته بقليل : (لايبقى على رأس المائة ممن هو اليوم على ظهر الارض أحد) والذي في صحيح مسلم عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته : (ما من نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة وهي يومئذ حية) وهذا أبعد عن التأويل ، وسئل عن ذلك غيره من الائمة فقرأ : (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) .

وسئل عنه شيخ الاسلام ابن تيمية ، فقال : لو كان الخضر حيا لوجب عليه أن يأتي الى النبي صلى الله عليه وسلم ويجاهد بين يديه ويتعلم منه ، وقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يوم بدر (اللهم ان تهلك هذه العصابة لاتعبد في الارض) فكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ، فأين كان الخضر حينئذ ؟!

وسئل ابراهيم الحربي عن بقائه ، فقال : من أحال على غائب لم ينصف وما ألقى

---

(١) التوبة : ٥٩ (٢) الحشر : ٧ (٣) الانفال : ٦٤

هذا بين الناس الا الشيطان ، ونقل في البحر عن شرف الدين أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسي القول بموته أيضا ، ونقله ابن الجوزي عن علي بن موسى الرضا رضي الله تعالى عنهما أيضا ، وكذا عن ابراهيم بن اسحق الحربي ، وقال أيضا كان أبو الحسين بن المنادي يقبح قول من يقول انه حيّ ، وحكى القاضي أبو يعلى موته عن بعض أصحاب محمد ، وكيف يعقل وجود الخضر ولا يصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة والجماعة ، ولا يشهد معه الجهاد مع قوله عليه الصلاة والسلام : (والذي نفسي بيده لو كان موسى حيا ماوسعه الا أن يتبعني) وقوله عز وجل : (وإذْ أَخذَ اللهُ ميثاقَ النَّبيينَ لما آتيتُكُم منْ كتابٍ وحكمةٍ ثمَّ جاءَكُمْ رسولٌ مُصدِّقٌ لما معكمْ لتؤمننَّ به ولتنصُرُنَّه قال أَأَقررْتُم وأَخذْتُم على ذلكُم إصريْ قالوا أَقررْنا قالَ فاشهدوا وانا معكمُ مِنَ الشاهدينَ)[1] وثبوت أن عيسى عليه السلام اذا نزل الى الارض يصلي خلف امام هذه الامة ، ولا يتقدم عليه في مبدأ الامر ، وما أبعد فهم من يثبت وجود الخضر وينسى مافي طي اثباته من الاعراض عن هذه الشريعة ثم قال وعندنا من المعقول وجوه على عدم حياته :

(أحدها) أن الذي قال بحياته قال انه ابن آدم عليه السلام لصلبه ، وهذا فاسد لوجهين (الاول) انه يلزم أن يكون عمره اليوم ستة آلاف سنة أو أكثر ، ومثل هذا بعيد في العادات في حق البشر ، (والثاني) أنه لو كان ولده لصلبه أو الرابع من أولاده ــ كما زعموا أنه وزير ذي القرنين ــ لكان مهول الخلقة مفرط الطول والعرض ، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (خلق آدم طوله ستون ذراعا فلم يزل الخلق ينقص بعده) وماذكر أحد ممن يزعم رؤية الخضر أنه رآه على خلقة عظيمة ، وهو من أقدم الناس .

(والوجه الثاني) أنه لو كان الخضر قبل نوح عليه السلام لركب معه في السفينة ، ولم ينقل هذا أحد .

(الثالث) أن العلماء اتفقوا على أن نوحا عليه السلام لما خرج من السفينة مات من معه ولم يبق غير نسله ودليل ذلك قوله سبحانه :(وجعلنا ذُريتَهُ هُمُ الباقين)[2]

---

(١) آل عمران : ٨١ (٢) الصافات : ٧٧

(الرابع) أنه لو صح بقاء بشر من لدن آدم الى قرب خراب الدنيا لكان ذلك من أعظم الآيات والعجائب ، وكان خبره في القرآن مذكورا في مواضع ، لأنـه من آيات الربوبية ، وقد ذكر سبحانه عز وجل من استحياه ألف سنة الا خمسين عاما وجعله آية ، فكيف لايذكر جل وعلا من استحياه أضعاف ذلك •

(الخامس) أن القول بحياة الخضر قول على الله تعالى بغير علم ، وهو حرام بنص القرآن ، أما المقدمة الثانية فظاهرة ، وأما الاولى فلأن حياته لو كانت ثابتة لدل عليها القرآن أو السنة أو اجماع الامة ، فهذا كتاب الله تعالى فأين فيه حياة الخضر ؟ وهذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين مايدل على ذلك بوجه ؟ وهؤلاء علماء الامة فمتى أجمعوا على حياته ؟ •

(السادس) أن غاية مايتمسك به في حياته حكايات منقولة يخبر الرجل بها أنه رأى الخضر ، فيالله تعالى العجب هل للخضر علامة يعرفه بها من رآه ؟ وكثـير من زاعمي رؤيته يغتر بقوله أنا الخضر ، ومعلوم أنه لايجوز تصديق قائل ذلك بلا برهان من الله تعالى ، فمن أين للرائي أن المخبر له صادق لايكذب ؟

(السابع) أن الخضر فارق موسى بن عمران كليم الرحمن ولم يصاحبه ، وقال هذا فراق بيني وبينك ، فكيف يرضى لنفسه بمفارقة مثل موسى عليـه السـلام ثم يجتمع بجهلة العباد الخارجين عن الشريعة ، الذين لايحضرون جمعة ولا جمـاعة ولا مجلس علم ، وكل منهم يقول قال لي الخضر ، جاءني الخضر ، أوصاني الخضـر ، فيا عجبا له يفارق الكليم ، ويدور على صحبة جاهل لايصحبه الا شيطان رجيـم ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم !•

(الثامن) أن الامة مجمعة على أن الذي يقول أنا الخضر لو قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا لم يلتفت الى قوله ، ولم يحتج به في الدين ولا مخلص للقائل بحياته عن ذلك الا أن يقول انه لم يأت الى الرسول عليه الصـلاة والسلام ولا بايعه ، أو يقول انه لم يرسل اليه ، وفي هذا من الكفر مافيه •

(التاسع) أنه لو كان حيا لكان جهاده الكفـار ورباطه في سبيـل الله تعالى ومقامه في الصف ساعة وحضوره الجمعة والجماعة وارشاد جهلة الامة : أفضل بكثير من سياحته بين الوحوش في القفار والفلوات الى غير ذلك ، وسيأتي ان شـاء الله تعالى ماله وما عليه •

(و شاع الاستدلال) بخبر لو كان الخضر حيا لزارني وهو كما قال الحفاظ خبر موضوع لا أصل له ، ولو صح لأغنى عن القيل والقال ، ولا نقطع به الخصام والجدال •

(الذاهبون الى حياته)

ومن الناس من قال بحياته وهو موجود بين أظهرنا ، وذلك متفق عليه عند الصوفية على ماقاله النووي ، ونقل عن الثعلبي المفسر : أن الخضر نبي معمر على جميع الاقوال ، محجوب عن أبصار أكثر الرجال ، وقال ابن الصلاح : هو حي اليوم ، وانما ذهب الى انكار حياته بعض المحدثين ، واستدلوا على ذلك بأخبار كثيرة •

منها : مايروى عن ابن عباس أنه قال الخضر ابن آدم لصلبه ونسيء له في أجله حتى يكذب الدجال ، ومثله لايقال من قبل الرأي •

ومنها : ماأخرجه ابن عساكر عن ابن اسحق ، قال : حدثنا أصحابنا أن آدم عليه السلام لما حضره الموت جمع بنيه ، فقال : يابني ان الله تعالى منزل على أهل الارض عذابا فليكن جسدي معكم في المغارة حتى اذا هبطتم فابعثوا بي وادفنوني بأرض الشام ، فكان جسده معهم ، فلما بعث الله تعالى نوحا ضم ذلك الجسد ، وأرسل الله تعالى الطوفان على الارض فغرقت زمانا ، فجاء نوح حتى نزل بابل ، وأوصى بنيه الثلاثة أن يذهبوا بجسده الى المغار الذي أمرهم أن يدفنوه به ، فقالوا الارض وحشة لاأنيس بها ولا نهتدي الطريق ولكن كف حتى يأمن الناس ويكثروا ، فقال لهم نوح : إن آدم قد دعا الله تعالى أن يطيل عمر الذي يدفنه الى يوم القيامه ، فلم يزل جسد آدم حتى كان الخضر هو الذي تولى دفنه ، فأنجز الله تعالى له ماوعده فهو يحيا الى ماشاء الله تعالى له أن يحيا ، وفي هذا سبب طول بقائه وكأنه سبب بعيد والا فالمشهور فيه أنه شرب من عين الحياة حين دخل الظلمة مع ذي القرنين وكان على مقدمته •

ومنها : ماأخرجه الخطيب وابن عساكر عن علي رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما توفي وأخذنا في جهازه خرج الناس وخلا الموضع ، فلما وضعته على المغتسل اذا بهاتف يهتف من زاوية البيت بأعلى صوته لاتغسلوا محمدا

فانه طاهر مطهر ، فوقع في قلبي شيء من ذلك وقلت ويلك من أنت فان النبي صلى الله عليه وسلم بهذا أمرنا وهذه سنته ، واذا بهاتف آخر يهتف بي من زاوية البيت بأعلى صوته غسلوا محمدا فان الهاتف الاول كان ابليس الملعون حسد محمدا صلى الله عليه وسلم أن يدخل قبره مغسولا فقلت : جزاك الله تعالى خيرا قد أخبرتني بأن ذلك ابليس فمن أنت ؟ قال أنا الخضر حضرت جنازة محمد صلى الله عليه وسلم وعن علي كرم الله وجهه قال : بينما أنا أطوف بالبيت اذا رجل متعلق بأستار الكعبة يقول : يامن لايشغله سمع عن سمع ، ويامن لاتغلطه المسائل ، ويامن لايتبرم بالحاح الملحين ، أذقني برد عفوك ، وحلاوة رحمتك ، قلت : ياعبد الله أعد الكلام ، قال : أسمعته ؟ قلت نعم ، قال : والذي نفس الخضر بيده ــ وكان هو الخضر ــ لايقولهن عبد دبر الصلاة المكتوبة الا غفرت ذنوبه وان كانت مثل رمل عالج وعدد المطر وورق الشجر •

ومنها : ماأخرجه الحاكم في المستدرك عن جابر ، قال : لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمع الصحابة دخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح ، فتخطى رقابهم فبكى ، ثم التفت الى الصحابة فقال : ان في الله تعالى عزاء من كل مصيبة ، وعوضا من كل فائت ، وخلفا من كل هالك ، فالى الله تعالى فأنيبوا ، واليه تعالى فارغبوا ، ونظره سبحانه اليكم في البلاء فانظروا فانما المصاب من لم يجبر ، فقال أبو بكر وعلي رضي الله تعالى عنهما : هذا الخضر عليه السلام ، الى غير ذلك مما لم يدل على حياته اليوم بل يدل على أنه كان حيا في زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا يلزم من حياته اذ ذاك حياته اليوم •

والنافون أجابوا عن هذه الاحاديث ، وقالوا : ان الاخبار التي ذكر فيها الخضر عليه السلام وحياته كلها كذب ، ولا يصح في حياته حديث واحد ، ومن ادعى الصحة فعليه البيان •

ثم ان المشايخ لم يتفقوا على القول بحياته ، فقد نقل الشيخ صدر الدين اسحق القونوي في كتابه (تبصرة المبتدي وتذكرة المنتهى) أن وجود الخضر عليه السلام في عالم المثال ، وذهب عبد الرزاق الكاشي الى أن الخضر عبارة عن البسط والياس عن القبض ، وذهب بعضهم الى أن الخضرية رتبة يتولاها بعض الصالحين على قدم الخضر الذي كان في زمن موسى عليهما السلام ، الى غير ذلك من الاقوال المذكورة في روح المعاني •

وفيه أيضا : ثم اعلم بعد كل حساب أن الاخبار الصحيحة النبوية والمقدمات الراجحة العقلية تساعد القائلين بوفاته أي مساعدة ، وتعاضدهم على دعواهم أي معاضدة ، ولا مقتضى للعدول عن تلك الاخبار الا مراعاة ظواهر الحكايات المروية ــ والله أعلم بصحتها ــ عن بعض الصالحين الاخيار ، هذا ملخص مافي تفسير روح المعاني مما يرغم أنف النبهاني ، فتمسك بما قاله أئمة المحدثين ، فهم أعلم الناس بشريعة سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين •

(الوجه الثامن) من الوجوه الدالة على فساد قول النبهاني : أن مانقله عن ابن حجر المكي وما وقع له مع شيخه وأبي يحيى زكريا الانصاري وأن أبا يحيى قال لشيخ ابن حجر ــ وكان منكرا للاقطاب والابدال ــ هكذا ياشيخ محمد وكرر ذلك عليه ، حتى قال له الشيخ محمد : يامولانا شيخ الاسلام آمنت بذلك وصدقت به وقد تبت ، فقال : هذا هو الظن بك الخ ــ لايقوم حجة على المنكرين ، إذ مدار الاستدلال على الكتاب والسنة ، لابمثل قول أبي يحيى للشيخ محمد عند انكاره هكذا ياشيخ محمد مكررا ذلك •

ومثل هذه الخرافات يأنف عن نقلها أرباب العقول السليمة ، ففي (روح المعاني) ــ عند الكلام على قوله تعالى : (ولقد أخذنا ميثاقَ بني اسرائيلَ وبعثنا منهم اثني عشرَ نقيباً)[1] بعد نقل عبارة الفتوحات في النقباء من أنواع الاولياء ــ قال : وقد عد الشيخ أنواعا كثيرة ، والسلفيون ينكرون أكثر تلك الاسماء ، ففي بعض فتاوي ابن تيمية : وأما الاسماء الدائرة على ألسنة كثير من النساك والعامة مثل الغوث الذي بمكة والاوتاد الاربعة والاقطاب السبعة والابدال الاربعين والنجباء الثلاثمائة : فهي ليست موجودة في كتاب الله تعالى ، ولا هي مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم لا باسناد صحيح ولا ضعيف محتمل ، الا لفظ الابدال ، فقد روى فيهم حديث شامي منقطع الاسناد عن علي كرم الله وجهه مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن فيهم ــ يعني أهل الابدال ــ أربعين رجلا ، كلما مات رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلا) ولا توجد أيضا في كلام السلف ، انتهى غير أني رأيت في موضع آخر من (روح المعاني) عند الكلام على قوله تعالى : (ألا إنَّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزنونَ. الَّذين آمنوا وكانوا يتَّقونَ).

---

(١) المائدة : ١٢

لهم البُشرى في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة)[1]

ولهم في تعريفه عبارات شتى تقدم بعضها ، وفي (الفتوحات) هو الذي تولاه الله تعالى في مقام مجاهدته الاعداء الاربعة : الهوى ، والنفس ، والشيطان ، والدنيا . وفيها تقسيم الاولياء الى عدة أقسام : منها الاقطاب ، والاوتاد ، والابدال ، والنقباء ، والنجباء ، وقد ورد ذلك مرفوعا وموقوفا من حديث عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وأنس ، وحذيفة بن اليمان ، وعبادة بن الصامت ، وابن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وابن مسعود ، وعوف بن مالك ، ومعاذ بن جبل ، وواثلة بن الاسقع ، وأبي سعيد الخدري ، وأبي هريرة ، وأبي الدرداء ، وأم سلمة ، ومن مرسل الحسن ، وعطا ، وبكر بن خنيس ، ومن الآثار عن التابعين ومن بعدهم مالا يحصى ، وقد ذكر ذلك الجلال السيوطي في رسالة مستقلة له ، وشيد أركانه ، وأنكره ، كما قدمنا بعضهم ، والحق مع المثبتين ، وأنا والحمد لله تعالى منهم ، وان كنت لم أشيد قبل أركان ذلك ، والأئمة والحواريون والرجبيون والختم والملامية والفقراء وسقيط الرفرف بن ساقط العرش والامناء والمحدثون الى غير ذلك . (٢)

وفي موضع آخر من تفسير (روح المعاني) عند تفسير قوله تعالى : (إِنَّما يُريدُ اللهُ لِيُذهِبَ عنكمُ الرِّجسَ أَهلَ البيتِ ويُطهِّركُم تطهيراً)[3]
قال بعد كلام طويل : إن الآية متضمنة الوعد منه عز وجل لأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم بأنهم ان ينتهوا عما ينهون عنه ، ويأتمروا بما يأمرهم به : يذهب عنهم ـ لامحالة ـ مبادىء مايستهجن ، ويحليهم أجل تحلية بما يستحسن ، وفيه ايماء الى قبول أعمالهم ، وترتب الآثار الجميلة عليها قطعا ، ويكون هذا خصوصية لهم ومزية على من عداهم ، من حيث أن اولئك الاغيار اذا انتهوا وائتمروا لايقطع لهم بحصول ذلك ، ولذا تجد عباد أهل البيت أتم حالا من سائر العباد المشاركين لهم في العبادة الظاهرة ، وأحسن أخلاقا وأزكى نفسا ، واليهم تنتهي سلاسل الطرائق التي مبناها ـ كما لايخفى على سالكيها ـ التخلية والتحلية اللتان هما جناحان للطيران الى حظائر القدس ، والوقوف على أركان الانس ، حتى ذهب قوم الى أن القطب في كل عصر لايكون الا منهم ، خلافا للاستاذ أبي العباس المرسى حيث ذهب ـ كما نقل عنه تلميذه التاج بن عطاء الله ـ الى أنه قد يكون من غيرهم .

---

(١) يونس : ٦٢ ـ ٦٤ (٢) هكذا عباره الاصل (٣) الاحزاب : ٣٣

قال ورأيت في مكتوبات الامام الفاروقي الرباني مجدد الالف الثاني ما حاصله : أن القطبية لم تكن على سبيل الاصالة الا لأئمة أهل البيت المشهورين ، ثم إنها صارت بعدهم لغيرهم على سبيل النيابة عنهم ، حتى انتهت النوبة الى السيد الشيخ عبد القادر الكيلاني ، فنال مرتبة القطبية على سبيل الاصالة ، فلما عرج بروحه القدسية الى أعلى عليين نال من نال بعده تلك الرتبة على سبيل النيابة عنه ، فاذا جاء المهدي ينالها أصالة كما نالها غيره من الأئمة رضوان الله عليهم أجمعين انتهى •

ثم قال بعد ذلك : وأقول أن السيد الشيخ عبد القادر قد نال مانال من القطبية بواسطة جده عليه الصلاة والسلام على أتم وجه وأكمل حال ، فقد كان رضي الله تعالى عنه من أجلة أهل البيت حسنيا من جهة الاب حسينيا من جهة الام ، لم يصبه نقص لو أن وعسى وليت ، ولا ينكر ذلك إلا زنديق أو رافضي ينكر صحبة الصديق انتهت عبارة روح المعاني •

وأنت تعلم مما أسلفناه اليك أن هذا الكلام ساقط عن الاعتبار عند المحققين من الحفاظ وأئمة المحدثين ، اذ ليس لهم على ذلك دليل يعتمد عليه لا من الكتاب ولا من السنة النبوية الصحيحة ، ولا تنظر الى من قال وانظر الى ماقال ، وقد تحصل من جميع ماذكرناه أن ماذهب اليه شيخ الاسلام هو الحق الذي اقتضاه الكتاب والسنة ، وما يخالفه ساقط لا يلتفت اليه والله ولي التوفيق •

(قال النبهاني) وها أنا أرجع الى الكلام على (منهاج السنة) للامام ابن تيمية فأقول : لما كان كثير من طلبة العلم في هذا الزمان — فضلا عن العوام — غير ماهرين في علم الكلام ، ومعرفة مايخالف أو يوافق العقيدة الصحيحة من أبحاثهم الدقيقة ، التي لايهتدي لمعرفتها والتفريق بين الحق والباطل منها الا أكابر علماء الاسلام — الذين قضوا زمنا طويلا من أعمارهم في مباحث علم الكلام — كان من الواجب على علماء أهل السنة والجماعة من الاشعرية والماتريدية — وهم أهل المذاهب الثلاثة وبعض الحنابلة أيضا — أن يحذروا العوام وضعاف الطلبة من مطالعة هذين الكتابين، لكثرة مافيهما من خلط الحق بالباطل ، والرد على أهل السنة والجماعة بحجج مزخرفات ، ربما لايهتدي لدفعها القاصرون من طلبة العلم فضلا عن العوام ، قال : وقد تقدم في كلام الامام السبكي أنه رد على كتابه (العقل والنقل) فرده هو لاشك من الجهات التي خالف بها أهل السنة ورد عليهم مثل الامام الاشعري وغيره •

ثم انه نقل عن الزبيدي مايؤيد قوله من أن أهل السنة هم الاشاعرة ونحوهم ، وعن التاج السبكي ووالده مثل ذلك ، وانه لافرق بين الاشاعرة وبين الماتريدية الا في مسائل .

ثم انه نقل أيضا عن الزبيدي أيضا أن للسبكي شرحا على قصيدة ابن زفيل الحنبلي التي رد فيها على الاشاعرة وأضرابهم ، وهي التي يقول فيها :

ان كنت كاذبة الذي حدثتني   فعليك اثم الكاذب الفتان
جهم بن صفوان وشيعته الالى   جحدوا صفات الخالق الديان
بل عطلوا منه السموات العلى   والعرش أخلوه من الرحمن
والعبد عندهم فليس بفاعل   بل فعله كتحرك الرجفان

اعلم أن هذه الابيات من نونية ابن القيم رحمه الله تعالى ، وهي المسماة (بالكافية الشافية) ولم نسمع أن أحدا سماه ابن زفيل ، وكلامه يوهم أنه شخص آخر ، وهكذا شأن الغلاة ديدنهم ودينهم تحريف الكلام عن مواضعه ، والسبكي ليس من رجال هذه المنظومة حتى يكتب عليها شيئا ، ومن ادعى غير ماذكرناه فعليه البيان حتى نتكلم عليه بما يجب .

ثم نقل من شرح السبكي على هذه الابيات ذم علم الكلام ، وذم الشيخ ابن تيمية وأصحابه بسبب قولهم في المسائل المختارة للشيخ وما افتراه عليهم خصومهم ، وبعد أن فرغ من عبارة السبكي التي نقلها الزبيدي ، قال النبهاني : اذا علمت ذلك أيها المسلم الشافعي أوالحنفي أو المالكيأو الحنبلي الصالحالموفق تعلم أنهيجبعليك الحذر التام من كتب الامام ابن تيمية وجماعته المتعلقة بالعقائد ، لئلا تهوي في مهواة الضلال ، ولا ينفعك الندم بعد ذلك بحال من الاحوال ، واياك أن تغتر بكلام السيد نعمان أفندي الالوسي البغدادي في كتابه (جلاء العينين) وتظن أنه حنفي من أهل السنة والجماعة ، فهو بهذا الكتاب قد خرج عن حنفيته وسنيته ، وصار من جماعة ابن تيمية ناصرا لمذهبه مذهب الوهابية — عفا الله عنه وعنهم أجمعين — فانهم بلا شك من جملةالمسلمين وانكانوا فيماخالفوا أهل السنة مبتدعين ، وهم انمايغرونأهل الاسلام من ضعاف الطلبة والعوام بقولهم انهم على مذهب السلف ، ثم نقل بعض العبارات عن كتاب المنهاج زعم أن فيها اثبات الجهة الى آخر هذيانه .

(وحاصل كلامه) الطويل السخيف العليل : أنه حذر طلبة العلم من مطالعة كتب

ابن تيمية ، ولا سيما كتاب العقل والنقل ، والمنهاج ، ومن كتاب جلاء العينين ، فان تلك الكتب مخالفة لعقائد أهل السنة ، وأن مؤلف جلاء العينين بسبب الذب عن ابن تيمية وابطال بهتان ابن حجر خرج عن حنفيته وسنيته ، وله الفضل حيث لم يخرجه أيضا عن حنيفيته ، وأن ابن تيمية قائل بالجهة ، هذا حاصل جميع هذيانه في هذا المقام ، والله المستعان ، وقد جعل الموافقين لابن تيمية مبتدعة ، وقد كرر ذلك الكلام مرارا ، وأعاده مرة بعد أخرى •

(أقول في الجواب عن غلطه) انا قد قدمنا الكلام على كتب الشيخ ابن تيمية مفصلا ، وذكرنا ماذكرنا من تقاريظ أهل العلم عليها ، وما قالوه من الثناء الذي لم يكن لغيرها ، وهي الكتب التي فتح الله بها عيونا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا ، وكانت من بعض آيات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ان كان فرد من أفراد أمته بلغ ما بلغ من العلم بحمد الله وتوفيقه ، ويقال للنبهاني كما أنشدناه سابقا :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

ويقال له أيضا : من أين لك علم بعلم الكلام ؟ بل بعلم من العلوم ، فان كتابك هذا الذي نراه من أوضح الدلائل على جهلك وغباوتك •

فان كنت لاتدري فتلك مصيبة ... وان كنت تدري فالمصيبة أعظم

ويقال له أيضا : ان كان لك علم وفهم فلم لم تنصح نفسك وتردعها عن سلوك هذا المسلك الذي أنت متلوث به والنفس مقدمة على الغير ؟ وما أحسن ماقيل :

ياأيها الشيخ المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم

ويقال له أيضا : لم لم تنصح ـ ان كان لك فهم وذوق ـ عن مطالعة الكتب التي تصادم الشريعة الغراء وتناقضها ، ككتب الشيخ محي الدين ابن العربي وأضرابه من المتصوفة ، التي تقشعر من سماعها جلود المؤمنين ، قال الشيخ محي الدين عند الكلام على تفسير قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) الآية برواية أبي زرعة (ان الذين كفروا) ستروا محبتهم (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) استوى عندهم انذارك وعدم انذارك لما جعلنا عندهم (لايؤمنون) بك ولا يأخذون عنك ، انما يأخذون عنا • (ختم الله على قلوبهم) فلا يعقلون إلا عنه • (وعلى سمعهم) فلا يسمعون الا منه •

(وعلى أبصارهم غشاوة) فلا يبصرون إلا اليه ، ولا يلتفتون اليك والى ما عندك بما جعلناه عندهم وألقيناه اليهم (ولهم عذاب) من العذوبة (عظيم) انتهى •

ولكن النبهاني وأضرابه من الغلاة يذبون عن مثل هذه الكتب ، ويحثون على مطالعتها ، ويلمزون كتب السنة الداعية الى توحيد الله ، وهكذا شأن علماء أهل الكتاب وأحبارهم •

فقد نقل الحافظ ابن القيم في كتابه (هداية الحيارى) عند رده على من طعن في علم الصحابة رضي الله تعالى عنهم مانصه ــ من كلام طويل ــ وما يدريكم معاشر المثلثة وعباد الصليب وأمة اللعنة والغضب بالفقه والعلم ، ومسمى هذا الاسم ، حيث تسلبونه أصحاب محمد الذين هم وتلاميذهم كأنبياء بني اسرائيل ؟ وهل يميز بين العلماء والجهال ويعرف مقادير العلماء الا من هو من جملتهم ؟ ومعدود في زمرتهم ؟ فاما طائفة شبه الله علمائها بالحمير التي تحمل الاسفار ، وطائفة علماؤها يقولون في الله مالا يرضاه أمة من الامم فيمن تعظمه وتجله ، وتأخذ دينها عن كل كاذب ومفتر على الله وعلى أنبيائه ، فمثلها كمثل عريان يحارب شاكي السلاح ، ومن سقف بيته زجاج وهو يزاحم أصحاب القصور بالاحجار ، ولا يستكثر على من قال في الله ورسوله ما قال أن يقول في أعلم الخلق أنهم عوام •

(فليهن أمة الغضب) علم التلموز وما فيه من الكذب على الله وعلى كليمه موسى ، وما يحدثه لهم أحبارهم وعلماء السوء منهم كل وقت ، وليهنهم علوم دلتهم على أن الله ندم على خلق البشر حتى شق عليه ، وبكى على الطوفان حتى رمد ، وعادته الملائكة ، وغير ذلك ، وليهن أمة الضلال علومهم التي فارقوا بها جميع شرائع الانبياء ، وخالفوا بها المسيح خلافا يتحققه علماؤهم في كل أمره ، وعلومهم التي قالوا بها في رب العالمين ما قالوا مما كادت السموات تنشق منه والارض تنفطر ، والجبال تنهد ، لولا أن أمسكها الحكيم المصور ، وعلومهم التي دلتهم على التثليث وعبادة خشبة الصليب والصور المدهونة ، ودلتكم على قول عالمكم أن اليد التي جلبت طينة آدم هي التي علقت على الصلبوت ، وأن الشبر الذي ذرعت به السموات هو الذي سمر على الخشبة ، وقول عالمكم الآخر من لم يقل أن مريم والدة الله فهو خارج عن ولاية الله ، انتهى ماقصدنا نقله وبقي منه كلام طويل من أراده فليرجع اليه •

(سمعت أيها النبهاني) ما قال اخوانك وما قيل لهم ، فوازن بين كلامهم وطعنهم على أهل الحق وعلومهم وبين كلامك وقدحك في كتب السنة والدين الخالص ، ووازن بين ماأجيبوا به وما أجبت به ، ولقد تشابهت قلوبكم ، وتوافقت مثالبكم وعيوبكم ، كل ذلك أيها النبهاني من جهلك الذي أنت فيه ، وهو الذي أوقعك في مهواة البلاء وعجبك بنفسك ، وتكبرك الذي دعاك الى أن ضربت بسهم مع الافاضل وأرباب التقوى ، مع أنك كما قال القائل :

نزلوا بمكة في قبائل هاشم   ونزلت في البيداء أبعد منزل

(ثم نقول) ان مادعاه النبهاني ــ تقليدا لاسلافه ــ أن الاشاعرة والماتريدية هم أهل السنة وأن من كان على طريقة السلف ــ كشيخ الاسلام ابن تيمية ــ هم من المبتدعة كلام لاأظنه يصدر عن ذي فهم ولا معرفة ، فلا بد من الكلام على تحقيق هذه المسألة وبيان المراد بالسنة والبدعة ، ليتبين الحق من الباطل ، ويعلم به أن الاحق باسم المبتدع هو هذا الخصم الالد ، ومن على منهجه من أسلافه الغلاة قبحهم الله تعالى وخذلهم •

(اعلم) أن أهل السنة والجماعة هم أهل الاسلام والتوحيد ، المتمسكون بالسنن الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في العقائد والنحل والعبادات الباطنة والظاهرة ، الذين لم يشوبوها ببدع أهل الاهواء وأهل الكلام في أبواب العلم والاعتقادات ، ولم يخرجوا عنها في باب العمل والارادات ، كما عليه جهال أهل الطرايق والعبادات ، فان السنة في الاصل تقع على ماكان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما سنه أو أمر به من أصول الدين وفروعه ، حتى الهدى والسمت، ثم خصت في بعض الاطلاقات بما كان عليه أهل السنة من اثبات الاسماء والصفات ، خلافا للجهمية المعطلة النفاة ، وخصت باثبات القدر ونفي الجبر خلافا للقدرية النفاة ، وللقدرية الجبرية العصاة ، وتطلق أيضا على ماكان عليه السلف الصالح في مسائل الامامة والتفضيل ، والكف عما شجر بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا من اطلاق الاسم على بعض مسمياته ، لانهم يريدون بمثل هذا الاطلاق التنبيه على أن المسمى ركن أعظم وشرط أكبر ، كقوله : (الحج عرفة) أو لانه الوصف الفارق بينهم وبين غيرهم ، ولذلك سمى العلماء كتبهم في هذه الاصول كتب السنة ، ككتاب السنة للالكائي ، والسنة لأبي بكر الاثرم ، والسنة للخلال ، والسنة لابن

خزيمة ، والسنة لعبد الله بن أحمد ، ومنهاج السنة لشيخ الاسلام ابن تيمية ، وغيرهم .

فما قاله النبهاني ان في كتب ابن تيمية التي ذكرها حكما على أهل السنة والجماعة بالتكفير والاشراك : كذب ظاهر ، وبهت جلي ، ماقيل ولا صدر فضلا عن كونه عرف واشتهر ، وآحاد العامة فضلا عن الخاصة لايخفى عليهم أن الشيخ وأصحابه كانوا من أكابر أهل السنة والجماعة ، وأنهم تصدوا للرد على المبطلين والمشركين ، من اليهود والنصارى ، والصابئة والفلاسفة ، وعباد القبور والمشائخ ، ولم يكفروا غير هذه الطوائف ومن ضاهاهم ، كغلاة الجهمية ، والقدرية ، والرافضة هذا يعرفه كثير من العوام .

فما قاله النبهاني من أن الشيخ ابن تيمية رد في كتابه منهاج السنة وكتاب العقل والنقل على أهل السنة لا أصل له ، بل انه رد على الغلاة من عبدة القبور ، وتسمية هؤلاء أهل سنة وجماعة جهل عظيم بحدود ماأنزل الله على رسوله ، وقلب للمسميات الشرعية وما يراد من الاسلام والايمان ، والشرك والكفر ، قال تعالى : (الأعرابُ أَشدُّ كُفْراً ونِفاقاً وأَجدرُ أَنْ لا يعلموا حُدودَ ما أَنزلَ اللَّهُ على رسوله) [1]

والنبهاني وأمثاله أجدر من أولئك بالجهل وعدم العلم بالحدود لغربة الاسلام وبعد العهد بآثار النبوة ، كما أفاده العلامة الشيخ عبد اللطيف في منهاجه .

وظن النبهاني أن دعاء غير الله والعمل بغير الشريعة الاحمدية والقول بالحلول والاتحاد لايخرجه عن جادة الحق مع الاتيان بالشهادتين ، مع أنه لايشترط في ذلك أن يكفر المكلف بجميع ماجاء به الرسول ، بل يكفي في الكفر والردة ــ والعياذبالله تعالى ــ أن يأتي بما يوجب ذلك ولو في بعض الاصول ، وهذا ذكره الفقهاء من كل مذهب ، وهو من عجيب جهل النبهاني وأمثاله من الغلاة ، لانه يعرفه المبتدئون في الفقه والعلم ، ومن أراد الوقوف على جزئيات وفروع في الكفر والردة فعليه بما صنف في ذلك ، كالاعلام لابن حجر ، وما عقده الفقهاء من أهل كل مذهب في باب حكم المرتد .

(قال شيخ الاسلام ابن تيمية في الرسالة السنية) لما ذكر حديث الخوارج ومروقهم من الدين وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتالهم قال : فاذا كان عهد النبي

---

(١) التوبة : ٩٧

صلى الله عليه وسلم وخلفائه ممن انتسب الى الاسـلام من مرق منه مع عبـاداته العظيمة حتى أمر صلى الله عليه وسلم بقتاله : فليعلم أن المنتسب الى الاسلام والسنة في هذه الازمان قد يمرق أيضا من الاسلام ، وذلك بأسباب : منها الغلو الذي ذمه الله في كتابه ، حيث قال : (يا أَهْـلَ الكتابِ لا تَغْلُوا في دِينِكُم)[1] الآية ، وعلى رضى الله عنه حرق الغالية من الرافضة ، فأمر بأخاديد خدت لهم عند باب كندة فقذفوا فيها ، واتفق الصحابة على قتلهم ، لكن ابن عباس كان مذهبـه أن يقتلوا بالسيف بلا تحريق ، وهو قول أكثر الصحابة ، وقصتهم معروفة عند العلماء ، وكذلك الغلو في بعض المشايخ ، بل الغلو في علي ابن أبي طالب ، بل الغلو في المسيح ونحوه ، فكل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعا من الالهية ـ مثـل أن يقول ياسيدي فلان انصرني أو أغثني أو ارزقني أو أجرني أو أنا في حسبك ونحـو هذه الاقوال ـ فكل هذا شرك وضلال ، يستتاب صاحبه فان تاب والا قتـل ، فان الله تعالى انما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده لايجعل معه الها آخر ، والذين يدعون مع الله آلهة أخرى ـ مثل المسيح والملائكة والاصنام ـ لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق ، وتنزل المطر ، وتنبت النبات ، انما كانوا يعبدونهم أو يعبـدون قبورهم أو صورهم ، ويقولون : مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فبعث الله رسوله ينهى أن يدعي أحد من دونه لادعاء عبادة ولا دعاء استغاثة ، قال تعالى : (قُل ادعوا الَّذينَ زعمتُم مِـنْ دونـهِ فلا يملِكونَ كشْفَ الضُّرِّ عنكمُ ولا تحويلاً . أُولئكَ الَّذينَ يدعونَ يبْتغونَ الى ربِّهمُ الوسيلةَ أيُّهمْ أَقربُ)[2] .

قال طائفة من السلف : كان أقوام يدعون المسيح وعزيرا والملائكة فأنزل الله هذه الاية ، ثم ذكر آيات في المعنى انتهى •

وقال شيخ الاسلام أيضا في الفرقان بين الحق والباطل : وأهل الضلال الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا : هم كما قال مجاهد أهل البدع والشبهات يتمسكـون بما هو بدعة في الشرع ومشتبه في العقل ، وكما قال فيهم الامام أحمد ، قال : هـم مختلفون في الكتاب ، مخالفون للكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب ، يحتجـون

---

(١) النساء : ١٧١ (٢) الاسراء : ٥٦ ، ٥٧

بالمتشابه من الكلام ، ويضلون الناس بما يشبهون عليهم ، والموافقة من أهل الضلال تجعل لها دينا وأصول دين قد ابتدعوه برأيهم ، ثم يعرضون على ذلك القرآن والحديث فان وافقه احتجوا به اعتقادا [1] لااعتمادا ، وان خالفه فتارة يحرفون الكلام عن مواضعه ويتأولونه على غير تأويله ، وهذا فعل أئمتهم ، وتارة يعرضون عنه ويقولون نفوض معناه الى الله ، وهذا فعل عامتهم ، وعمدة الطائفتين في الباطن غير ماجاء به الرسول ، يجعلون أقوالهم البدعية محكمة يجب اتباعها واعتقاد موجبها ، والمخالف اما كافر واما جاهل لايعرف هذا الباب ، وليس له علم بالمعقول ولا بالاصول ، ويجعلون كلام الله ورسوله الذي يخالفها من المتشابه الذي لايعرف معناه الا الله ، أو لايعرف معناه الا الراسخون في العلم ، والراسخون عندهم من كان موافقا لهم على ذلك القول ، وهؤلاء أضل ممن تمسك بما تشابه عليه من آيات الكتاب وترك المحكم ، كالنصارى والخوارج وغيرهم ، اذ كان هؤلاء أخذوا بالمتشابه من كلام الله وجعلوه محكما وجعلوا المحكم متشابها ، وأما أولئك ــ كنفاة الصفات من الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم وكالفلاسفة ــ فيجعلون ماابتدعوه هم برأيهم هو المحكم الذي يجب اتباعه ، وان لم يكن معهم من الانبياء والكتاب والسنة مايوافقه ، ويجعلون ماجاءت به الانبياء وان كان صريحا قد يعلم معناه بالضرورة ويجعلونه من المتشابه ، ولهذا كان هؤلاء أعظم مخالفة للانبياء من جميع أهل البدع ، حتى قال يوسف بن اسباط ، وعبد الله بن المبارك ، وغيرهما كطائفة من أصحاب أحمد : ان الجهمية نفاة الصفات خارجون عن الثنتين والسبعين فرقة .

قالوا وأصولها أربعة : الشيعة ، والخوارج ، والمرجئة ، والقدرية ، وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن قوله تعالى : (مِنهُ آياتٌ مُحكماتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب وأُخَرُ مُتشابِهاتٌ) [2] في المتشابهات قولان :أحدهما أنها آيات بعينها تتشابه على كل الناس ، والثاني وهو الصحيح أن التشابه أمر نسبي فقد يتشابه عند هذا مالايتشابه عند غيره ، ولكن ثم آيات محكمات لاتشابه فيها على أحد ، وتلك المتشابهات اذا عرف معناها صارت غير متشابهة ، بل القول كله محكم ، كما قال :(أُحكِمتْ آياته ثُمَّ فُصِّلَتْ) وهذا كقوله (الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك أمور لايعلمهن كثير

(١) كذا في الاصل ، ولعلها اعتضادا لانه المناسب للسياق . (٢) آل عمران : ٦

من الناس) وكذلك قولهم : ﴿إنَّ البَقَرَ تشَابَهَ علينا﴾.

(وقد صنف) أحمد كتابا في الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله ، وفسر تلك الآيات كلها ، وذمهم على أنهم تأولوا ذلك المتشابه على غير تأويله ، وعامتها آيات معروفة قد تكلم العلماء في تفسيرها ، مثل الآيات التي سأل عنها نافع ابن الازرق لابن عباس ، قال الحسن البصري : ماأنزل الله آية الا وهو يحب أن يعلم فيم أنزلت وماذا عنى بها ، ومن قال من السلف ان المتشابه لايعلم تأويله الا الله فقد أصاب أيضا ، ومراده بالتأويل ماإستأثر الله بعلمه ، مثل وقت الساعة ، ومجيء اشراطها ، ومثل كيفية نفسه ، وما أعده في الجنة لاوليائه ، وكان من أسباب نزول الآية احتجاج النصارى بما تشابه عليهم ، كقوله : (انا) و (نحن) وهذا يعرف العلماء أن المراد به الواحد المعظم الذي له أعوان ، لم يرد به أن الالهة ثلاثة ، فتأويل هذا ـ الذي هو تفسيره ـ يعلمه الراسخون ، ويفرقون بين ماقيل فيه (أنا) وماقيل فيه (إنا) بدخول الملائكة فيما يرسلهم فيه اذ كانوا رسله ، وأما كونه هو المعبود الأله فهو له وحده ، ولهذا لايقول فايانا فاعبدوا ولا ايانا فارهبوا بل متى جاء الامر بالعبادة والتقوى والخشيةوالتوكل ذكر نفسه وحده باسمه الخاص ، واذا ذكر الافعال التي يرسل فيها الملائكة قال : (إنا فتَحْنا لكَ فتْحاً مُبيناً) [1] (فإذا قرأْناهُ فاتَّبِعْ قُرآنَهُ) [2] (نتْلوا علَيْكَ منْ نبَأ موسى وفرعَونَ بالحقِّ) [3] ونحو ذلك مع أن تأويل هذا وهو حقيقة مادل عليه من الملائكة وصفاتهم وكيفية ارسال الرب لهم لايعلمه الا الله ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

(والمقصود هنا) أن الواجب أن يجعل ماقاله الله ورسوله هو الاصل ، ويتدبر معناه ، ويعقل ويعرف برهانه ودليله ، إما العقلي واما الخبري السمعي ، ويعرف دلالة القرآن على هذا وهذا ، ويجعل أقوال الناس التي قد توافقه وتخالفه متشابهة مجملة .

(فيقال) لأصحاب هذه الالفاظ : يحتمل كذا وكذا ويحتمل كذا وكذا ، فان أرادوا بها مايوافق خبر الرسول قبل وان أرادوا بها مايخالفه رد ، وهذا مثل لفظ

---

(١) الفتح : ١ (٢) القيامة : ١٨ (٣) القصص : ٣

المركب والجسم والمتحيز والجوهر والجهة والعرض ونحو ذلك ، ولفظ الحيز ونحو ذلك ، فان هذه الالفاظ لاتوجد في الكتاب والسنة بالمعنى الذي يريده أهل هذا الاصطلاح ، بل ولا في اللغة أيضا ، بل هم يختصمون بالتعبير بها على معان لم يعبر غيرهم عن تلك المعاني بهذه الالفاظ ، فيفسر تلك المعاني بعبارات أخرى ، ويبطل مادل عليه القرآن من الادلة العقلية والسمعية ، واذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل ، وعرف وجه الكلام على أدلتهم فانها ملفقة من مقدمات مشتركة يأخذون اللفظ المشترك في احدى المقدمتين بمعنى ، وفي المقدمة الاخرى بمعنى آخر، فهو في صورة اللفظ دليل وفي المعنى ليس بدليل ، كمن يقول سهيل بعيد من الثريا لايجوز أن يقترن بها ولا يتزوجها ، والذي قال :

أيها المنكح الثريا سهيلا ... عمرك الله كيف يلتقيان

أراد امرأة اسمها الثريا ورجلا اسمه سهيل ، ثم قال : عمرك الله الخ

هي شامية اذا ما استقلت ... وسهيل اذا استقل يماني

وهذا لفظ مشترك ، فجعل تعجبه وانكاره من الظاهر من جهة اللفظ المشترك ، وقد بسط الكلام على أدلتهم المفصلة في غير موضع •

(والاصل) الذي بنى عليه نفات الصفات وعطلوا ماعطلوا حتى صار منتهاهم الى قول فرعون الذي جحد الخالق وكذب رسوله موسى في أن الله كلمه : هو استدلالهم على حدوث العالم بأن الاجسام محدثة ، واستدلالهم على ذلك بأنها لاتخلوا من الحوادث ولم تسبقها ، وما لم يخل من الحوادث ولم يسبقها فهو محدث، وهذا أصل قول الجهمية الذين أطبق السلف والأئمة على ذمهم ، وأصل قول المتكلمين الذين أطبقوا على ذمهم •

وقد صنف الناس مصنفات متعددة فيها أقوال السلف والأئمة في ذم الجهمية وفي ذم هؤلاء المتكلمين ، والسلف لم يذموا جنس الكلام فان كل آدمي يتكلم ، ولا ذموا الاستدلال والنظر والجدل الذي أمر الله به رسوله ، والاستدلال بما بينه الله ورسوله ، بل ولاذموا كلاما هو حق بل ذموا الكلام الباطل وهو المخالف للكتاب والسنة ، وهو المخالف للعقل أيضا ، وهو الباطل •

(فالكلام) الذي ذمه السلف هو الكلام الباطل ، وهو المخالف للشرع والعقل،

ولكن كثيرا من الناس خفي عليه بطلان هذا الكلام ، فمنهم من اعتقده موافقا للشرع والعقل حتى اعتقد أن ابراهيم الخليل استدل به ، ومن هؤلاء من يجعله أصل الدين ولا يحصل الايمان أولا يتم الا به ، ولكن من عرف ماجاء به الرسول وما كان عليه الصحابة علم بالاضطرار أن الرسول والصحابة لم يكونوا يسلكون هذا المسلك ، فصار من عرف ذلك يعرف أن هذا بدعة ، وكثير منهم لايعرف أنه فاسد ، بل يظن مع ذلك أنه صحيح من جهة العقل لكنه طويل أو بعيد المعرفة أو هو طريق مخيفة مخطر يخاف على سالكه ، فصاروا يعيبونه كما يعاب الطريق الطويل والطريق المخيف ، مع اعتقادهم أنه يوصل الى المعرفة وأنه صحيح في نفسه ، وأما الحذاق العارفون تحقيقه فعلموا أنه باطل عقلا وشرعا ، وأنه ليس بطريق موصل الى المعرفة ، بل انما يوصل لمن اعتقد صحته الى الجهل والضلال ، ومن تبين له تناقضه أوصله الى الحيرة والشك ولهذا صار حذاق سالكيه ينتهون الى الحيرة والشك ، اذ كان حقيقته أن كل موجود فهو حادث مسبوق بالعدم ، وليس في الوجود قديم ، وهذا مكابرة ، فان الوجود مشهود ، وهو اما حادث واما قديم ، والحادث لابد له من قديم ، فثبت وجود القديم على التقديرين .

وكذلك ماابتدعه في هذه الطريق ابن سينا وأتباعه من الاستدلال بالممكن على الواجب أبطل من ذلك ، كما قد بسط ذلك في غير هذا الموضع .

وحقيقته : أن كل موجود فهو ممكن ، ليس في الوجود موجود بنفسه ، مع أنهم جعلوا هذا طريقا لاثبات الواجب بنفسه ، كما يجعل أولئك هذا طريقا لاثبات القديم ، وكلاهما يناقض ثبوت القديم والواجب ، فليس في واحد منهما اثبات قديم ولا واجب بنفسه ، مع أن ثبوت موجود قديم وواجب بنفسه معلوم بالضرورة ، ولهذا صار حذاق هؤلاء الى أن الموجود الواجب والقديم هو العالم بنفسه ، وقالوا هو الله ، وأنكروا أن لايكون للعالم رب مباين للعالم ، اذ كان ثبوت القديم الواجب بنفسه لا بد منه على كل قول ، وفرعون ونحوه ممن انكر الصانع ما كان ينكر هذا الوجود المشهود .

فلما كان حقيقة قول أولئك يستلزم أنه ليس موجود قديم ولا واجب لكنهم لايعرفون أن هذا يلزمهم ، بل يظنون أنهم أقاموا الدليل على اثبات القديم الواجب بنفسه ، ولكن وصفوه بصفات الممتنع ، فقالوا لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو صفة ولا موصوف ، ولا يشار اليه ونحو ذلك من الصفات السلبية التي تستلزم

عدمه ، وكان هذا مما تنفر عنه العقول والفطر ، ويعرف أن هذا صفة المعدوم الممتنع لاصفة الموجود ، فدليلهم في نفس الامر يستلزم أنه ماثم قديم ولا واجب ، ولكن ظنوا أنهم أثبتوا القديم والواجب ، وهذا الذي أثبتوه ممتنع فما أثبتوا قديما ولا واجبا •

فجاء آخرون من جهتهم فرأوا هذا مكابرة ، وأنه لابد من اثبات القديم والواجب ، فقالوا هو هذا العالم ، فكان قدماء الجهمية يقولون انه بذاته في كل مكان ، وهؤلاء قالوا هو غير الموجودات ، والموجود القديم الواجب هو نفس الوجود المحدث الممكن ، والحلول هو الذي أظهرته الجهمية للناس حتى عرفه السلف والأئمة وردوه •

وأما حقيقة قولهم فهو النفي : أن لا داخل العالم ولا خارجه ، ولكن هذا لم يسمعه الأئمة ولم يعرفوا أنه قولهم الا من باطنهم ، ولهذا كان الأئمة يحكون عن الجهمية أنه في كل مكان ، ويحكون عنهم وصفه بالصفات السلبية ، وشاع عند الناس أن الجهمية يصفونه بالسلوب حتى قال أبو تمام :

جهمية الاوصاف الا أنها قد حليت بمحاسن الاشياء

وهم لم يقصدوا نفي القديم والواجب فان هذا لايقصده أحد من العقلاء لا مسلم ولا كافر ، اذ كان خلاف مايعلمه كل واحد ببديهة عقله ، فانه اذا قدر أن جميع الموجودات حادثة عن عدم لزم أن كل الموجودات حدثت بأنفسها ، ومن المعلوم ببداهة العقول أن الحادث لايحدث بنفسه ، ولهذا قال تعالى : (أَم خُلِقوا مِنْ غيرِ شيءٍ أَم هُم الخالقونَ)[1] وقد قيل خلقوا من غير شيء من غير رب خلقهم وقيل من غير مادة ، وقيل من غير عاقبة وجزاء ، والاول مراد قطعا ، فان كل ماخلق من مادة أو لغاية فلا بد له من خالق •

(ثم ذكر الشيخ) رحمه الله معرفة الفطر ، ثم ذكر قول الاشعرية ،والهشامية ، والكرامية ، وغيرهم ، ثم أبطله بأوضح بيان وأجلى برهان •

(والمقصود) أن شيخ الاسلام لم يرد الا على من خالف الشريعة وصادمها بقواعده ، ولم يرد على أهل السنة وهم الذين كانوا على الصراط المستقيم ولم

---

(١) الطور : ٣٥

يخالفوا ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم ، بل ذب عنهم وانتصر لاقوالهم ، غير أن النبهاني ظن أن ماهو عليه من الزيغ والالحاد هـو مذهب أهل السنة ، وقد سبق فيما نقلناه من مجالس الشيخ الثلاثة ماينفع في المقام ، بل كتبه طافحة بتفصيل ماقررناه فراجع أيّ كتاب شئت منها •

وبما قررناه علم أيضا أن مانقله الزبيدي من كلام السبكي عند كـلامه على أبيات ابن زفيل ساقط عن درجة الاعتبار ، لانه من خصوم شيخ الاسلام وحسدته ، عداما كان عليه من الغلو والجهل والافتراء على أهل الحق ، والظاهر أنه ليس له من الكلام على قصيدة العلامة ابن زفيل سوى مانقله الزبيدي ان صح نقله ، وإلا لذكره ولده التاج فيما عد من مؤلفاته في الطبقات ولم يذكـره مع أنه أتى بجميـع عجره وبجـره •

(وأما مانسب النبهاني الى الشيخ) من القول بالجهة فهو من افتراءات السبكي وابن حجر المكي وغيرهما من أعدائه وخصومه ، والنبهاني قلدهم في هذا القـــول تقليد أعمى كما هو ديدنه وعادته ، وكتب الشيخ طافحة من تنزيه الله تعـالى عن الجهة والجسمية ، ومدار كلامه على ماثبت بالكتاب والسنة وأقوال السلف ، وأنشد في كتاب الفرقان :

أيها المقتـــدي اتطلب علمـــا   كل علـم عبد لعلم الرســـول

تطلب الفرع كي تصحح حكمـــا   ثم أغفلت أصل أصل الاصـــول

ثم قال : والله يهدينا وسائر اخواننا المؤمنين الى صراطه المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقـا ، قال : وهذه الاصول ينبني عليها مافي القلوب ويتفرع عليها ، وقد ضرب الله مثـل الكلمة الطيبة التي في قلوب المؤمنين ، ومثل الكلمة الخبيثة التي في قلوب الكافرين ، ثم انه أطنب الكلام في شرح الكلمتين ، وأتى بما تقر به من المؤمن العين ، كما هـي عادته رحمة الله عليه ، وسنتكلم ان شاء الله على العلو والاستواء عند ابطال أقوال النبهاني التي هذى بها في هذا الباب ، ويتميز بحوله تعالى القشر من اللباب •

(وأما ماتكلم به النبهاني من الهذيان) في شأن (جـلاء العينين) ومصنفـه ، وتحذير المسلمين من مطالعته ، واخراج مصنفه عن حنفيته بل سنيته بسبب الذب عن ابن تيمية وانتصاره له : فهو كلام من لاينبغي أن يخاطب ولا يوجه اليه مقال : فان

الله تعالى قال : (الَّذين يستَمِعونَ القَوْلَ فيتَّبِعونَ أَحسَنَهُ)[1] وقال عز من قائل : (ولتَكُن منكمُ امّةٌ يدعونَ إلى الخير ويأمُرونَ بالمعْروفِ وينهَونَ عنِ المُنْكَر وأُولئكَ هُم المفلِحونَ)[2] ومصنف جلاء العينين لم يذكر فيه الا أقوال الفريقين وبسط فيه دلائل الطرفين ، ودعا الى الله وتوحيده ، وبرهن على وجوب أفراده سبحانه بالعبادة ، وذب عن خلص عباد الله ، وحكى ما كان وأظهر مازوره الخصم من البهتان ، ومثل (جلاء العينين) ينبغي لكل مسلم أن يطالعه ويستفيد منه حقيقة دينه ، ثم يدعو لمؤلفه بالمغفرة والرحمة والرضوان ، وأن يجزيه عن خلص عباده خير الجزاء ٠

ثم انا قد ذكرنا حقيقة السنة والبدعة ، وما ذكر فيهما أهل العلم من البيان الشافي والكلام الوافي ، فأي مسألة ذكرت في جلاء العينين تخالف ماورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وتستوجب التبديع ، نعم ذكر فيه ضلالات أهل الالحاد القائلين بالحلول والاتحاد ، وهي ليست بخفية على أحد من الناس ، وكتب العلم طافحة بذكر ذلك الهذيان ورد هذا الوسواس ، فقد ألف السعد التفتازاني كتابا رد فيه على الفصوص ، وكذا العلامة الملا علي القاري الحنفي ، والفهامة الشيخ محمد البخاري الحنفي وغيرهم ٠

وذكر أيضا بدع القبوريين وأعمالهم الشركيه ، وأظهر افتراء ابن حجر وخيانته في النقل واتباعه لهواه وخصومته للحق ، وما كان من السبكي من العدوان والقول على الله بغير علم ، وأي مذهب من مذاهب المسلمين يسوغ ماكان ابن حجر والسبكي ونحوهما من التجاوز والقدح في علماء السنة النبوية وحفاظ الحديث بغير حق ٠

أيرضى الامام الشافعي وأكابر أصحابه والمنصفون من أتباعه بما كان من هؤلاء الغلاة ؟ أم هل يسوغ الامام أبو حنيفة أن يتلاعب أحد بالدين ويعرض عما ورد في الكتاب والسنة ويسلم لابن حجر وأضرابه كل ماهذى به ؟ أم هل يبيح امام دار الهجرة أن تباح أعراض ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم وحفاظ حديثه أن يمزقها ابن حجر بأظفاره وأنيابه ؟ ! وهكذا جميع أئمة الدين ، وأكابر المجتهدين ، وقد أوصى كل منهم باتباع الحق والاعراض عن الهوى ومجانبة التعصب ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ٠

ثم يقال للنبهاني : الخروج عن المذهب متى يكون ؟ والتقليد بماذا كان ؟ هل

(١) الزمر : ١٠ (٢) آل عمران : ١٠٤

في الفروع والاصول معا أم في الفروع لافي الاصـــول أم بالعكس ؟ ولا شـــك أن النبهاني جاهل بكل ذلك لايفرق بين الاصول والفروع ، بل لايميز بين الكـــوع والكرسوع •

وأهل العلم ذكروا أن التقليد هو أخذ قول الغير من غير معرفة دليله من حيث افادته الحكم ان لم يتمكن من استفراغ الوسع لتحصيل ظن الحكم ، والا فيحـرم عليه كما يحرم التقليد في العقائد ، وقد رأيت كلاما مفيدا لبعض أكابر الشافعية في بحث التقليد نذكره تتميما للفائدة ، قال : ثم اني لم أزل متشبثا بأذيال هذا الامام ، متمسكا بعرى أقوال ذياك الهمام ، مستغرقا النهار والليل في استكشاف دقيق كلامه ، مستنهضا الرجل والخيل لارتشاف رحيق مدامه ، لم أعرج على غير حماه ، ولـم أعرج لسوى سماه •

أبعد سليمى مطلب ومرام   وغير هواها لوعة وغرام

وكذا شأني مع أصحابه الكرام ، وحالي مع أتباعه الفخام ، لا ألوي عناني الا على اطلالهم ، ولا أسترشد بغير أقوالهم •

وما أنا إلا من غزية ان غوت   غويت وان ترشد غزية أرشد

لا أميل الى تقليد أحد من الأئمة ، مع علمي بأن اختلافهم في الفروع رحمة ، بل ديدني رفاقهم انجدوا أم اتهموا ، وديني وفاقهم أيمنوا أم أشأموا ، الى أن خاصمني مخاصم الانصاف فخصمني ، وعارضني معارض الاعتساف فأفحمنـــي ، وتبـين لي بمخالطة الانام ، أن كثيرا من العقود لاتصـــح على مذهب الامام ، وأن تصحيحهـا كالمحال ، وأن ليس للشافعي في ذلك مجال ، فلم أر بدا في هذا الزمان من تقليد امام الأئمة أبي حنيفة النعمان ، فقلدته في جميـــع معاملاتي ، ولـــولا مافي قلبي للشافعي لاتبعته في سائر دياناتي •

نقل فؤادك حيث شئت من الهـــوى   ما الحـــب الا للحبيــــب الاول

كم منـــزل في الارض يألفـــه الفتى   وحنينــــه أبـــدا لاول منـــزل

(ثم قال) فها أنا ذاك شافعي في عباداتي ، حنفي في سائر معاملاتي ، وهكـــذا سائر علماء الزمان في المعاملات على مذهب النعمان ، قد طووا سنن الشافعي ، ورفعوا

أذكار النووي والرافعي ، فلا نرى جاهلا يستفتى ، ولا عالما في هاتيك المسائل يفتى •

مافي الصحاب أخو وجد نطارحه ... حديث نجد ولا خلا نجاريه

(ويقال للنبهاني) اذا كان الرجل من أتباع الامام الشافعي قد قلد غيره في كثير من المسائل لايخرجه ذلك عن تقليد امامه فكيف حكم على من لم يتحقق لديه مخالفة امامه ولا في مسألة واحدة بالخروج عن تقليده ، بل كم رأينا من أصحاب الأئمة من خالفه في مسائل كثيرة ولم يقل أحد بخروجهم في ذلك عن التقليد أفيقال ان الامام أبا يوسف بسبب مخالفته لامامه في مسائل كثيرة خرج عن كونه حنفيا ، وكذلك محمد ، وكذلك زفر ، وهكذا أصحاب كل امام ، فكيف يحكم النبهاني بهذا الحكم الفاسد ، ويقول هذا القول الكاسد ؟!

(وللشيخ أحمد الطيبي) منظومة فيما يحتاج الشافعي فيه الى تقليد الامام أبي حنيفة ، وهي هذه بعد البسملة :

الحمد لله الذي ماجعلا ... من حرج في الدين لكن سهلا
لهذه الامة فضلا وكرم ... سبيل رشدها وأسبغ النعم
ثم صلاة وسلام سرمدي ... منه على خير الانام أحمد
نبينا الذي به نلنا الهدى ... وآله وكل من به اهتدى
وبعد فاعلم أن من قد قلدا ... من الانام عالما مجتهدا
فجائز له بأن يقلدا ... آخر الا أن يكون اعتقدا
بأن من قلده في الاول ... أعلم من ثانيه فالمنع جلى
فاذ عرفت الشرط واحتجت الى ... تقليد غير الشافعي فافعلا
كان تقلد الامام الاعظما ... أبا حنيفة الزكي المقدما
في البيع والشرا بلا ايجاب ... ولا قبول منك في الخطاب
بل بالمعاطاة اذا ماكثرا ... أو قل ما به المبيع والشرا
وفي النجاسات التي ألبليه ... عمت بها مالم تكن كليه
من ذلك الفراء في الاثواب ... وفي القباقيب وفي النشاب
وهو الفرا المعمول من غير السمك ... أما الذي منه فليس فيه شك
كذا الفرا من نحو قط ونمر ... وكل مأكول ولم يكن نحر
كذا الرماد من نجاسة حصل ... في مائع أو ماقليل أو محل

أو شربة مع طينها قد عجنا ... أو طين أرض أو جدار أو بنا
والعفو عن نجاسة قد كثفت ... ووزنها الدرهم حين وزنت
كذاك عن رفيقة وبلغت ... مقدار بسط الكف لما بسطت
كذاك في نقل زكاة الواجد ... للمستحق ولشخص واحد
يدفعها ولو صبيا ان قبض ... ان بلغ التمييز ذاك المفترض
ودفعنا من ذهب عن فضة ... وعكسه عند أبي حنيفة
يكفي كذاك كلما ينتفع ... به الفقير كثياب تدفع
وقل زكاة الفطر مثل المال ... فقس به في سائر الاحوال
فتدفع القيمة عنها ان تشا ... أين أردت أو سواها كنشا
كذاك في الانثى اذا مازوجت ... لنفسها أو غيرها اذ وكلت
كذاك في التأجيل للصداق ... الى الممات أو الى الطلاق
وان مايؤخذ من أموال ... بقصد تعزير من الحلال
والقول في تعلق الحرام ... بذمة الجاني من الانام
لايتعدى لسواها أصلا ... قد رد حيث لم يلاق جهلا
نعم اذا غير من قد غصبا ... مغصوبه يملكه وان أبى
لكنه يحرم الانتفاع به ... حتى يؤدي للضمان فانتبه
ونية الصلاة حيث وجدت ... ولم تكن من المصلى اقترنت
بلفظة التكبير للاحرام ... فهي صحيحة لدى الامام
فمن يقلده به لايعمل ... الا بتطهير لديه يقبل
وسعينا بين الصفا والمروة ... في حجنا وهكذا في العمرة
ماعده فرضا ولكن واجبا ... فمن به أخل لن يطالبا
الا بفدية ونسكه يصح ... وتلك شاة فادر فهو متضح
ولم يقل شرط الطواف الطهر ... فان يضق بنفساء الامر
أو حائض وهجمت وطافت ... فهو صحيح وفدت وتأبت
فان يكن حجا فدت ببدنه ... أو اعتمادا فبشاة بينه
وان تطلق ذات حيض وانقطع ... الدم عنها لا لعلة تقع
فلتتربصن بسن اليأس ... مالم تحض ثم بلا التباس
بأشهر ثلاثة تعتد ... كذاك قال الشافعي الفرد
كذا أبو حنيفة وقالا ... في ذاك مالك وأحمد لا

وانما سبيلها اذا مضت ... تسع شهور بعد ما قد طلبت
تعتد بالثلاثة الاشهر من ... بعد وسن اليأس عنذ ابن
بانه اثنان وستون سنة ... على الصحيح وحكى من بينه
عند الامام الاعظم النعمان ... خمس وخمسون احتفظ بياني
وقس بما حوته ذي الصحيفة ... مقلدا غير أبي حنيفة
فان تكن قلدت في الكلبية ... مالكا افعل ما مضى في النية
ففي الوضوء امسح جميع الرأس ... لكي تتمه بلا التباس
والحمد لله الذي ماعسرا ... على عباده ولكن يسرا

والكلام في هذا الباب طويل ، وكم أفرده بالتأليف فاضل جليل ، وليس هذا مقام التفصيل •

(ثم نعودا لى النبهاني) ونقول له : ان كثيرا من المعتزلة قلدوا الامام أبا حنيفة وهم ــ مع اعتقادهم الفاسد ــ لم يقل أحد بخروجهم عن مذهب أبي حنيفة ، وهكذا في اتباع الشافعي وغيره من كان على عقيدة الاعتزال ، حتى أن عد السبكي في طبقاته جماعة وأتهم الماوردي أيضا بذلك ، وكثير من الكرامية والمرجئة كانوا أتباع الامام أبي حنيفة ، وكثير من المجسمة كانوا أتباع الشافعي ، وقد سبق ذكر شيء من ذلك في المجالس التي انعقدت لمناظرة شيخ الاسلام ، كل هؤلاء على سوء اعتقادهم لم يخرجوا عن مذهب من قلدوه ، فكيف ساغ للنبهاني أن يخرج عن الحنفية والسنية مصنف (جلاء العينين) وذكر العلة في ذلك وقال بسبب انتصاره لابن تيمية والذب عنه وتبرئته عما نسب اليه •

(فلينظر المنصفون) الى حال هذا الرجل وغلوه وجهله وضلاله واتباعه لهواه وعجبه بنفسه ، فكيف يسوغ أن يولى الحكم على بشر ويكون بيده زمام بعض الامور •

ماأنت بالحكم الترضى حكومته ... ولا الاصيل ولا ذي الرأي والجدل

اللهم انا نشكو اليك ماأصبح اليوم عليه العالم الاسلامي من البلاء المبين ، وتوسيد الامور الى غير أهلها واستفتاء من غوى وضل عن سبيلك ، وحيث أن هذا المبطل قد أفرد فصلا من كتابه في الكلام على (جلاء العينين) ومصنفه أخرنا تمام البحث الى أن نتكلم على ذلك الفصل ان شاء الله تعالى •

(قال النبهاني) بعد كلام له على الجهة وتكفير القائل بها : ولما كانت كتبه يعني ابن تيمية قد طبعت ونشرت وكان فيها مسائل في العقائد مخالفة لعقائد أهل السنة والجماعة من الاشعرية والماتريدية كان من اللازم على أكابر العلماء في هذا العصر أن يتصدوا لبيان تلك المسائل التي وقع فيها مخالفة أهل السنة والتنبيه عليها ليحذرها الناس خوفا عليهم من تشويش عقائدهم ، ولما كان من أهم تلك المسائل القول باعتقاد الجهة وهو كما ترى ـ وأن تستر بعض الحنابلة بنفيه عنه وعدم اعتقاده اياه فهو ـ مصرح باعتقاده ، ثم قال : فقد رأيت أن أجمع رسالة أنقل فيها أقوال أكابر علماء المذاهب في استحالة الجهة على الله ، قال : فجمعتها على هذا الوجه وسميتها (رفع الاشتباه في استحالة الجهة على الله) ثم ذكر الرسالة بحذافيرها وركة عبارتها ، وزعم أن مافيها اعتقاد جمهور علماء الامة وأوليائها واتباع المذاهب الاربعة وجميع الصوفية ، وهم صفوة الصفوة من هذه الامة ، وخلاصة الخلاصة من أهل الملة ، وخاصة الخاصة من المتبعين للكتاب والسنة ، قال : فقد اتفق جمهورهم على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم في جميع الاعصار والاقطار ، وفي كل القرى والبوادي والامصار : على أن الله تعالى منزه عن الجهات ، ونقل بزعمه مايؤيد كلامه عن الغزالي والسيد مرتضى الزبيدي والفخر الرازي وشمس الدين محمد بن اللبان الشافعي واليافعي وابن حجر المكي وأمثال هؤلاء ، ثم ختم رسالته بقصيدة زعم أنه قارض بها القصيدتين في الرد على أبيات السبكي ، هذا حاصل ماتكلم به في هذا الباب وأتى بما قدر عليه •

(أقول في الجواب عن كلام النبهاني هذا ومنه سبحانه التوفيق) ان مسألة العلو والاستواء والنزول من غوامض المسائل ، والنزاع فيها قديما وحديثا من المشهور بين العلماء ، وقد ألف فيها كتب مفصلة وفرغ أهل العلم منها نفيا واثباتا ، ومن المعلوم لدى كل منصف أن النبهاني ليس من رجال هذا الميدان ، ولا ممن يعد في زمرة ذوي العرفان ، ولا ممن له نصيب في فن من الفنون ، ولا ممن يلتفت اليه في باب الجرح والتعديل ولا تنظر اليه العيون ، بل هو الحريّ بقول القائل :

أقول لمحرز لما التقينا ... تنكب لايقطرك الزحام

وقد رأيت في طبقات ابن السبكي رسالة أخرى أشبه شيء بهذيان النبهاني ، نسبها ابن السبكي للشيخ شهاب الدين أحمد بن يحيى بن اسمعيل الكلابي الحلبي ،

وحيث كانت في الرد على ابن تيمية أدرجها ابن السبكي في ترجمة مؤلفها بتمامها ظنا منه أنها تروي غليله وتشفي عليله ، وما دراها أنها سراب يحسبه الظمآن أعذب شراب ، وهي نحو اثنين وثلاثين صحيفة قد اشتملت على كل سخيفة .

وبناء على تعرض هؤلاء الغلاة لهذه المسألة وجب التصدي لرد أفكهم ورفع شركهم ببيان مايعارضهم من النصوص ، وما يناقضهم من البناء المرصوص ، فنقول: ان النصوص القرآنية والاحاديث النبوية الواردة في هذا الباب مما لايحصيها أولو الالباب ، منها قوله تعالى : (وهوَ القاهِرُ فوْقَ عِبادِهِ وهوَ الحكيمُ الخبيرُ)[1] وفي تفسير روح المعاني بعد أن ذكر كلام المؤولين أن الداعي الى التزام ذلك كله أن ظاهر الآية يقتضي القول بالجهة ، والله تعالى منزه عنها ، لانها محدثة بأحداث العالم واخراجه من العدم الى الوجود ، ويلزم أيضا من كونه سبحانه وتعالى في جهة مفاسد لاتخفى ، وأنت تعلم أن مذهب السلف اثبات الفوقية لله تعالى كما نص عليه الامام الطحاوي وغيره ، واستدلوا لذلك بنحو ألف دليل ، وقد روى الامام أحمد في حديث الاوعال عن العباس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (والعرش فوق ذلك والله تعالى فوق ذلك كله) وروى أبو داود عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي استشفع بالله تعالى عليه (ويحك أتدري ما الله ؟ ان الله فوق عرشه وعرشه فوق سمواته ــ وقال بأصابعه مثل القبة ــ وانه ليئط به أطيط الرحل الجديد بالراكب) ومن حديث صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لسعد يوم حكم في بني قريظة : (لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات) وفي حديث آخر قال : (بينا أهل الجنة في نعيمهم اذ سطع لهم نور فرفعوا اليه رؤسهم فاذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم ، وقال : ياأهل الجنة سلام عليكم ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : (سلام قولا من رب رحيم) فينظر اليهم وينظرون اليه فلا يلتفتون الى شيء من النعيم ماداموا ينظرون اليه) وأنشد عبد الله بن رواحة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبياته التي عرض بها عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته :

شهدت بأن وعد الله حق　　　وأن النار مثوى الكافرينا

---

(1) الانعام : ١٨

وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد ملائكة الأله مسومينا

فأقره عليه الصلاة والسلام على ماقال وضحك منه .

وكذا أنشد حسان بن ثابت رضي الله عنه قوله :

شهدت باذن الله أن محمدا رسول الذي فوق السموات من عل
وأن أبا يحيى ويحيى كلاهما له عمل من ربه متقبل
وأن الذي عادى اليهود بن مريم رسول أتى من عند ذي العرش مرسل
وان أخا الاحقاف اذ قام فيهم يقوم بذات الله فيهم ويعدل

فقال النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أشهد .

وعن ابن عباس في قوله تعالى ــ حكاية عن ابليس ــ : (ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِنْ بَينِ أَيدِيهِمْ وِمِنْ خلْفِهِم وعنْ أيمانِهم وعنْ شمائِلهم)[1] انه قال لم يستطع أن يقول ومن فوقهم لانه قد علم أن الله تعالى من فوقهم ،والآيات والاخبار التي فيها التصريح بما يدل على الفوقية ــ كقوله تعالى :(تنزيلُ الكتابِ مِنَ اللهِ العزيزِ الحكيم)[2] (وإليهِ يصْعَدُ الكلِمُ الطَّيِّبُ)[3] وقوله : (بَلْ رفعهُ اللهُ إِليهِ)[4] و (تعرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إِليهِ)[5] وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم (وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ــ كثيرة جدا ، وكذا كلام السلف في ذلك ، فمنه ماروى شيخ الاسلام أبو اسماعيل الانصاري في كتابه (الفاروق) يسنده الى أبي مطيع البلخي ، أنه سأل أباحنيفة رضي الله عنه عمن قال لا أعرف ربي سبحانه في السماء لأن الله تعالى يقول : أم في الارض فقال : قد كفر ،(الرَّحمنُ على العَرشِ استوى) وعرشه فوق سبع سموات ، فقال : قلت فان قال انه على العرش ولكن لا أدري العرش في السماء أم في الارض فقال رضي الله عنه : هو كافر ، لأنه أنكر آية في السماء ومن أنكر آية في السماء فقد كفر ، وزاد غيره لأن الله تعالى في أعلى عليين فهو يدعى من أعلى لا من أسفل ، انتهى .

---

(١) الاعراف : ١٧ (٢) الزمر : ١ (٣) فاطر : ١٠ (٤) النساء : ١٥٨ (٥) المعارج : ٤

(وايد القول بالفوقية أيضا) بأن الله لما خلق الخلق لم يخلقهم في ذاته المقدسة تعالى عن ذلك ، فانه الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، فتعين أنه خلقهم خارجا عن ذاته ، ولو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات مع أنه قائم بنفسه غير مخالط للعالم لكان متصفا بضد ذلك ، لأن القابل للشيء لايخلو منه أو من ضده وضد الفوقية السفول وهو مذموم على الاطلاق ، والقول بانا لانسلم أنه قابل للفوقية حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها مدفوع بأنه سبحانه لو لم يكن قابلا للعلو والفوقية لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها ، فمتى سلم بأنه جل جلاله ذات قائم بنفسه غير مخالط للعالم وأنه موجود في الخارج ليس وجوده ذهنيا فقط بل وجوده خارج الاذهان قطعا : فقد علم كل العقلاء بالضرورة أن ما كان وجوده كذلك فهو اما داخل العالم واما خارج عنه ، وانكار ذلك انكار ماهو أجلى البديهيات ، فلا يستدل بدليل على ذلك الا كان العلم بالمباينة أظهر منه وأوضح ، واذا كان صفة الفوقية صفة كمال لانقص فيها ولا يوجب القول بها مخالفة كتاب ولا سنة ولا اجماع كان نفيها عين الباطل ، لاسيما والطباع مفطورة على قصد جهة العلو عند التضرع الى الله تعالى .

وذكر محمد بن طاهر المقدسي أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مجلس امام الحرمين وهو يتكلم في نفي صفة العلو ويقول كان الله تعالى ولا عرش وهو الآن على ماكان ، فقال الشيخ أبو جعفر : أخبرنا ياأستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا فانه ماقال عارف قط ياالله الا وجد في قلبه ضرورة بطلب العلو لايلتفت يمنة ولا يسرة فكيف تدفع هذه الضرورة عنأنفسنا ؟! قال : فلطم الامامعلى رأسه ونزل — وأظنه قال وبكى — وقال : حيرني الهمداني .

وبعضهم تكلف الجواب عن هذا بأن هذا التوجه الى فوق انما هو لكون السماء قبلة الدعاء كما أن الكعبة قبلة الصلاة ، ثم هو أيضا منقوض بوضع الجبهة على الارض مع أنه سبحانه ليس في جهة الارض ، ولا يخفى أن هذا باطل ، أما أولا فلأن كون السماء قبلة للدعاء لم يقله أحد من سلف الامة ولا أنزل الله تعالى به من سلطان ، والذي صح أن قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة ، فقد صرحوا بأنه يستحب للداعي أن يستقبل القبلة ، وقد استقبل النبي صلى الله عليه وسلم الكعبة في دعائه في مواطن كثيرة ، فمن قال أن للدعاء قبلة غير قبلة الصلاة فقد ابتدع في الدين وخالف جماعة المسلمين ، وأما ثانيا فلأن القبلة مايستقبله الداعي بوجهه كما تستقبل الكعبة في الصلاة ، وما حاذاه الانسان برأسه أو يديه مثلا لايسمى قبلة أصلا ، فلو كانت

السماء قبلة الدعاء لكان المشروع أن يوجه الداعي وجهه اليها ، ولم يثبت ذلك في شرع أصلا .

وأما النقض بوضع الجبهة فما أفسده من نقض ، فان واضع الجبهة انما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل لا أن يميل اليه اذ هو تحته ، بل هذا لا يخطر في قلب ساجد، نعم سمع عن بشر المريسي أنه يقول : سبحان ربي الاسفل ، تعالى الله عما يقول الجاحدون والظالمون علوا كبيرا .

وتأول بعضهم كل نص فيه نسبة الفوقية اليه تعالى بأن فوق فيه بمعنى خير وأفضل ، كما يقال الامير فوق الوزير والدينار فوق الدرهم ، وأنت تعلم أن هذا مما تنفر منه العقول السليمة وتشمئز منه القلوب الصحيحة ، فان قول القائل ابتداء : الله تعالى خير من عباده أو خير من عرشه من جنس قوله الثلج بارد ، والنار حارة ، والشمس أضوء من السراج ، والسماء أعلى من سقف الدار ونحو ذلك ، وليس في ذلك أيضا تمجيد ولا تعظيم لله تعالى ، بل هو من أرذل الكلام ، فكيف يليق حمل الكلام المجيد عليه ، وهو الذي لو اجتمع الانس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، على أن في ذلك تنقيصا لله تعالى شأنه ، ففي المثل السائر :

ألم تر أن السيف ينقص قدره   اذا قيل إن السيف خير من العصا

نعم اذا كان المقام يقتضي ذلك بأن كان احتجاجا على مبطل كما في قول يوسف الصديق عليه السلام : (أَأَرْبابٌ مُتفرِّقونَ خيرٌ أم الله الواحدُ القهَّارُ)[1] وقوله تعالى : (آللهُ خيرٌ أمَّا يُشْرِكونَ)[2] وقوله تعالى : (واللهُ خيرٌ وأبقى)[3] فهو أمر لا اعتراض عليه ، ولا توجه سهام الطعن اليه .

والفوقية بمعنى الفوقية في الفضل مما يثبتها السلف لله تعالى أيضا ، وهي متحققة في ضمن الفوقية المطلقة ، وكذا يثبتون فوقية القهر والغلبة كما يثبتون فوقية الذات ، ويؤمنون بجميع ذلك على الوجه اللائق بجلال ذاته وكمال صفاته سبحانه وتعالى ، منزهين له سبحانه عما يلزم ذلك مما يستحيل عليه جل شأنه ، ولا يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، ولا يعدلون عن الالفاظ الشرعية نفيا ولا اثباتا ، لئلا

---

(١) يوسف : ٣٩ (٢) النمل : ٥٩ (٣) طه : ٧٣

يثبتوا معنى فاسدا أو ينفوا معنى صحيحا ، فهم يثبتون الفوقية كما أثبتها الله تعالى لنفسه •

(وأما لفظ الجهة) فقد يراد به ماهو موجود ، وقد يراد به ماهو معدوم ، ومن المعلوم أنه لاموجود الا الخالق والمخلوق ، فاذا أريد بالجهة أمر موجود غير الله تعالى كان مخلوقا ، والله تعالى لايحصره شيء ، ولا يحيط به شيء من المخلوقات تعالى عن ذلك • وان أريد بالجهة أمر عدمي وهو مافوق العالم فليس هناك الا الله تعالى وحده ، فاذا قيل إنه تعالى في جهة بهذا الاعتبار فهو صحيح عندهم ، ومعنى ذلك أنه فوق العالم حيث انتهت المخلوقات ، ونفاة لفظ الجهة الذين يريدون بذلك نفي العلو يذكرون من أدلتهم أن الجهات كلهامخلوقة ، وانهسبحانه كان قبل الجهات، وانه من قال أنه تعالى في جهة يلزمه القول بقدم شيء من العالم ، وانه جل شأنه كان مستغنيا عن الجهة ثم صار فيها ، وهذه الالفاظ ونحوها تنزل على أنه عز اسمه ليس في شيء من المخلوقات سواء سمي جهة أم لم يسم وهو كلام حق ، ولكن الجهة ليست أمرا وجوديا بل هي أمر اعتباري ولا محذور في ذلك •

(وبالجملة) يجب تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين ، وتفويض علم ماجاء به من المتشابهات اليه عز شأنه ، والايمان بها على الوجه الذي جاءت عليه ، والتأويل القريب الى الذهن الشائع نظيره في كلام العرب مما لابأس به عندي ، على أن بعض الآيات مما أجمع على تأويلها السلف والخلف ، والله أعلم بمراده ، انتهى ماذكر في روح المعاني ، وهو مما يزهق روح النبهاني ، ويرد التأويل الذي تعلق به الشيخ أحمد الحلبي الكلابي •

(وتفصيل الكلام في هذا المقام) يطلب من كتب شيخ الاسلام وتلامذته ، فانهم أحسن من صنف في هذه المسائل ، وفيها يجد المنشد ضالته ، وقد ألف الشيخ الحافظ أبو بكر الشهير بابن القيم كتابه (غزو الجيوش الاسلامية ، في الرد على الجهمية) وكتابه (الصواعق المرسلة على الدهرية والمعطلة) في هذه المطالب العالية ، وبسط كلامه فيها كل البسط كما هو شأن كرمهم وجودهم في سخاء نفوسهم ببذل كنوز العلم طيب الله تعالى ثراهم •

وقد تكلم ابن القيم في غزو الجيوش الاسلامية على مسألة العلو ، فذكر أولا ماورد من النصوص في الكتاب والسنة وبين معانيها على أتم وجه ، ثم ذكر فصلا

فيما حفظ عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين والأئمة الاربعة وغيرهم ، ولا يمكن هنا استيفاء ماذكروه كله بل نقتصر على ذكر أقوال الأئمة الاربعة رحمهم الله تعالى :

(قول الامام أبي حنيفة قدس الله روحه) قال البيهقي : حدثنا أبو بكر ابن الحارث الفقيه ، قال حدثنا أبو حيان : أن أحمد بن جعفر بن نصر قال حدثنا يحيى بن يعلى ، سمعت نعيم بن حماد يقول : سمعت نوح ابن أبي مريم أبا عصمة يقول : كنا عند أبي حنيفة أول ماظهر اذ جاءته امرأة من ترمذ كانت تجالس جهما فدخلت الكوفة، فقيل لها ان ههنا رجلا قد نظر في المعقول يقال له أبو حنيفة فأتيه ، فأتته فقالت أنت الذي تعلم الناس المسائل وقد تركت دينك ؟ أين الهك الذي تعبده ؟ فسكت عنها ، ثم مكث سبعة أيام لايجيبها ، ثم خرج الينا وقد وضع كتابا : أن الله سبحانه وتعالى في السماء دون الارض ، فقال له رجل : أرأيت قول الله تعالى (وهو معكم) قال هو كما تكتب للرجل اني معك وأنت غائب ، قال البيهقي : لقد أصاب أبو حنيفة رحمه الله تعالى فيما نفى عن الله تعالى وتقدس من الكون في الارض وفيما ذكر من تأويل الآية ، وتبع مطلق السمع في قوله الله عز وجل (في السماء) .

قال شيخ الاسلام : وفي كتاب الفقه الاكبر المشهور عند أصحاب أبي حنيفة الذي رواه ــ باسناد عن أبي مطيع البلخي ــ الحكم بن عبد الله ، قال سألت أبا حنيفة عن الفقه الاكبر قال : لاتكفر أحدا بذنب ، ولا تنفي أحدا من الايمان ،وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتعلم أن ماأصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولا تبرأ من أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا توال أحدا دون أحد ، وان ترد أمر عثمان وعلي رضي الله تعالى عنهما الى الله تعالى .

قال أبو حنيفة : الفقه الاكبر في الدين خير من الفقه في العلم ، ولأن يتفقه الرجل كيف يعبدربه عز وجل خيرمن أن يجمع العلم الكثير ،قالأبو مطيعقلتفأخبرني عن أفضل الفقه ، قال يتعلم الرجل الايمان والشرائع والسنن والحدود واختلاف الأئمة ، وذكر مسائل في الايمان ، ثم ذكر مسائل في القدر ، ثم قال : فقلت فما تقول فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيتبعه على ذلك ناس فيخرج عن الجماعة هل ترى ذلك ؟ قال : لا ، قلت ولم وقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالامر

بالمعروف والنهي عن المنكر وهو فريضة واجبة ؟ فقال : كذلك لكن مايفسدون أكثر مما يصلحون من سفك الدماء واستحلال الحرام ، وذكر الكلام في قتال الخوارج والبغاة الى أن قال : قال أبو حنيفة ومن قال لاأعرف ربي في السماء أم في الارض فقد كفر ، لأن الله تعالى يقول :(الرَّحْمٰنُ على العَرشِ استوى)[1] وعرشه فوق سبع سموات ، قلت فان قال انه على العرش ولكنه يقول لاأدري العرش في السماء أم في الارض ، قال : هو كافر ، لأنه أنكر أن يكون في السماء لأنه تعالى في أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل .

وفي لفظ سألت أبا حنيفة عمن يقول لاأعرف ربي في السماء أو في الارض ، قال كفر لأن الله تعالى يقول :(الرَّحْمٰنُ على العَرشِ استوى)وعرشه فوق سبع سموات ، قال فانه يقول على العرش استوى ، ولكنه لايدري العرش في الارض أو في السماء ، قال : اذا أنكر أنه في السماء فقد كفر . روى هذا عن شيخ الاسلام أبى اسمعيل الانصاري في كتابه (الفاروق) باسناده .

قال شيخ الاسلام أبو العباس رحمه الله تعالى : ففي هذا الكلام المشهور عن أبي حنيفة رحمه الله عند أصحابه أنه كفر الواقف الذي يقول لاأعرف ربي في السماء أو في الارض فكيف يكون الجاحد النافي الذي يقول ليس في السماء ولا في الارض ، واحتج على كفره بقوله تعالى :(الرَّحْمٰنُ على العَرشِ استوى) قال وعرشه فوق سبع سموات ، وبين بهذا أن قوله الرحمن على العرش استوى بين في أن الله عز وجل فوق السموات فوق العرش ، وأن الاستواء على العرش دل على أن الله فوق العرش ، ثم أردف ذلك بكفر من توقف في كون العرش في السماء أو في الارض قال لأنه أنكر أن يكون في السماء وأن الله في أعلى عليين ، وأن الله يدعى من أعلى لا من أسفل ، واحتج بأن الله في أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل ، وكل من هاتين الحجتين فطرية عقلية ، فان القلوب مفطورة على الاقرار بأن الله عز وجل في العلو ، وعلى أنه يدعى من أعلى لا من أسفل .

وكذلك أصحابه من بعده كأبي يوسف وهشام بن عبد الله الرازي ، كما روى ابن أبي حاتم وشيخ الاسلام بأسانيدهما أن هشام بن عبيد الله الرازي صاحب محمد

---

(١) طه : ٥

بن الحسن قاضي الري حبس رجلا في التجهم فتاب ، فجيء به الى هشام ليمتحنه فقال الحمد لله على التوبة ، فامتحنه هشام فقال : (إشهد أن الله على عرشه بائن من خلقه ، فقال أشهد أن الله على عرشه ولا أدري مابائن من خلقه ، قال : ردوه الى الحبس فانه لم يتب ، وسيأتي قول الطحاوي عند أقوال أهل الحديث •

(قول امام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله تعالى) ذكر أبو عمر بن عبدالبر في كتاب (التمهيد) بسنده ، قال : قال مالك بن أنس الله في السماء وعلمه في كل مكان لايخلو منه مكان ، قال : وقيل لمالك الرحمن على العرش استوى كيف استوى ؟ فقال رحمه الله تعالى : استواؤه معقول ، وكيفيته مجهولة ، وسؤالك عن هذا بدعة ، وأراك رجل سوء •

(وكذلك أئمة أصحاب مالك من بعده) قال يحيى بن ابراهيم الطليطلي في كتاب (سير الفقهاء) ـ وهو كتاب جليل غزير العلم ـ بسنده كانوا يكرهون قول الرجل ياخيبة الدهر ، وكانوا يقولون الله هو الدهر ، وكانوا يكرهون قول الرجل رغم أنفي لله وانما يرغم أنف الكافر ، وكانوا يكرهون قول الرجل والله حيث كان أو أن الله بكل مكان ، قال أصبغ وهو مستو على عرشه وبكل مكان علمه واحاطته ، وأصبغ من أجل أصحاب مالك وأفقههم •

(ذكر قول أبي عمر الطلمنكي) قال في كتابه في الاصول : أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى على عرشه بذاته ، وقال في هذا الكتاب أيضا : أجمع أهل السنة على أن الله استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز ، ثم ساق سنده عن مالك قوله الله في السماء وعلمه في كل مكان ، ثم قال في هذا الكتاب : وأجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى : (وهو مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ)[1] ونحو ذلك من القرآن بأن ذلك علمه ، وأن الله فوق السموات بذاته مستقر على عرشه كيف شاء ، وهذه القصة في كتابه •

(قول الامام الحافظ أبي عمر بن عبد البر) امام السنة في زمانه رحمه الله تعالى ، قال في كتاب (التمهيد) في شرح الحديث الثامن لابن شهاب عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له ؟ من

---

(١) الحديد : ٤

يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له) هذا حديث ثابت من جهة النقل صحيح الاسناد ، لايختلف أهل الحديث في صحته ، وفيه دليل على أن الله عز وجل في السماء على العرش من فوق سبع سموات كما قالت الجماعة ، وهو حجتهم على المعتزلة والجهمية في قولهم إن الله في كل مكان وليس على العرش ، والدليل على صحة ماقال أهل الحق في ذلك قوله : (الرَّحْمٰنُ على العَرشِ استوى) وقوله تعالى (ثُمَّ استوى على العرشِ مالَكُم مِنْ دونِهِ مِنْ وليٍّ ولا شفيعٍ أفلا تتذكَّرون)[1] وقوله تعالى : (ثُمَّ استوى إلى السَّماء وهي دُخانٌ)[2] وقوله تعالى : (إذاً لابتَغَوا الى ذي العَرشِ سَبيلاً)[3] وقوله تبارك اسمه (إليْهِ يصْعَدُ الكلِمُ الطَّيِّبُ والعمَلُ الصَّالحُ يرْفَعُهُ)[4] وقوله تعالى : (فلمَّا تَجلَّى ربُّهُ للجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وخَرَّ موسى صعقاً)[5] وقوله تعالى : (أأمِنتُم مَنْ في السَّماء أَن يَخسِفَ بكُمُ الأَرضَ)[6] وقوله تعالى : (سَبِّح اسمَ ربِّكَ الأَعلى) وهذا من العلو ، وكذلك قوله تعالى : (العَلِيِّ العظيم)[7] و (الكبيرِ المتعَالِ)[8] و (رفيعُ الدَّرجاتِ ذو العرشِ)[9] و(يخافونَ ربَّهم منْ فوقِهم)[10] والجهمي يقول انه أسفل ، وقوله تعالى : (ياعيسى إنِّي متوفيكَ ورافعُكَ إليَّ)[11] وقوله تعالى :(بلْ رفعَهُ اللهُ إليْهِ) وقوله تعالى : (والَّذينَ عندَ ربِّكْ يُسبِّحونَ لهُ)[12] وقال تعالى: (يُدبِّر الأَمرَ منَ السَّماء إلى الأَرضِ ثُمَّ يعْرُجُ إليهِ)[13] وقال تعالى:(ليسَ لهُ دافعٌ . منَ اللهِ ذي المعارج . تعرُجُ الملائكةُ والروحُ إليهِ)[14] والعروج هو الصعود •وأماقوله (أأمنتم من في السماء)فمعناه من على السماء يعني على العرش ، وقد تكون في بمعنى على ، ألا ترى الى قوله : (فسيحوا في

---

(١) السجدة : ٤ (٢) فصلت : ١١ (٣) الاسراء : ٤٢ (٤) فاطر : ١٠ (٥) الاعراف : ١٤٣ (٦) الملك : ١٦ (٧) البقرة : ٢٥٥ (٨) الرعد : ٩ (٩) غافر : ١٥ (١٠) النحل : ٥٠ (١١) آل عمران : ٥٥ (١٢) فصلت : ٣٨ (١٣) السجدة : ٥ (١٤) المعارج : ٢ ـ ٤

الارض)[1] أي على الارض وكذلك قوله تعالى : (ولاصلبنّكم في جُذوع النَّخلِ)[2] وهذا كله يعضده قوله تعالى : (تعْرُجُ الملائِكةُ والرُّوحُ إِليه) وما كان مثله مما تلونا من الآيات في هذا ، وهذه الآيات كلها واضحات في ابطال قول المعتزلة •

وأما ادعاؤهم المجاز في الاستواء وقولهم في تأويل (استوى) استولى فلا معنى له لانه غير ظاهر في اللغة ، ومعنى الاستيلاء في اللغة المغالبة ، والله تعالى لايغالبه أحد ، وهو الواحد الصمد ، ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته ، حتى تتفق الامة أنه أريد به المجاز ، اذ لاسبيل الى اتباع ماأنزل الينا من ربنا تعالى الا على ذلك ، وانما يوجه كلام الله على الاشهر والاظهر من وجوهه مالم يمنع من ذلك مايجب التسليم له ، ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مبتدع ماثبت شيء من العبادات ، وجل الله أن يخاطب الا بما تفهمه العرب من معهود مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين •

والاستواء معلوم وفي اللغة مفهوم ، وهو العلو والارتفاع على الشيء ، والاستقرار والتمكن فيه ، قال أبو عبيدة في قوله تعالى :(الرَّحمنُ على العَرشِ استوى) قال علا ، قال : وتقول العرب استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت • وقال غيره : استوى أي استقر ، واحتج بقوله تعالى : (ولمَّا بلَغَ أَشُدَّه واستوى)[3] انتهى شبابه واستقر فلم يكن في شبابه مزيد،قال ابن عبد البر رحمه الله تعالى : الاستواء الاستقرار في العلو ، وبهذا خاطبنا الله تعالى في كتابه ، فقال : (لِتَستَوُوا على ظُهورِهِ ثُمَّ تَذكُروا نعمَةَ ربِّكُمْ اذا استَويتُم عليه)[4] وقال تعالى : (واستَوَتْ على الجُودِي)[5] وقال تعالى : (فإذا استَويتَ أَنتَ ومَنْ معكَ على الفُلْكِ)[6]

قال الشاعر :

فاوردتهم ماء بفيفاء قفرة   وقد حلق النجم اليماني فاستوى

وهذا لايجوز أن يتأول فيه أحد استولى لأن النجم لايستولى ، وقد ذكر النضر ابن شميل ــ وكان ثقة مأمونا جليلا في علم الديانة واللغة ــ قال : حدثني

(١) التوبة : ٢ (٢) طه : ٧١ (٣) القصص : ١٤ (٤) الزخرف : ١٣ (٥) هود : ٤٤ (٦) المؤمنون : ٢٨

الخليل ــ وحسبك بالخليل ــ قال أتيت أبا ربيعة الاعرابي ــ وكان من أعلم مارأيت ــ فاذا هو على سطح ، فسلمنا فرد علينا السلام وقال استووا فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال ، فقال أعرابي الى جانبه أنه أمركم أن ترتفعوا ، فقال الخليل هو من قول الله عز وجل : (ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّمَاءِ وهي دُخَانٌ) فصعدنا اليه ، قال

وأما من نازع منهم بحديث يرويه عبد الله بن داود الواسطي عن ابراهيم بن عبد الصمد عن عبدالوهاب ابن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهم في قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرشِ اسْتوى) قال استولى على جميع بريته فلا يخلو منه مكان : فالجواب : أن هذا حديث منكر على ابن عباس رضي الله عنهما ، ونقلته مجهولون وضعفاء ، فأما عبد الله بن داود الواسطي وعبد الوهاب بن مجاهد فضعيفان ، وابراهيم بن عبد الصمد مجهول لايعرف وهم لايقبلون أخبار الآحاد العدول فكيف يسوغ لهم الاحتجاج بمثل هذا الحديث لو عقلوا وأنصفوا ، أما سمعوا الله سبحانه يقول : (وقال فِرعونُ ياهامانُ ابنِ لي صرحاً لعَلِّي أَبلُغُ الأَسبابَ . أَسْبابَ السَّموات فأطَّلِعَ إِلى الَه موسَى وإِنِّي لأَظُنُّه كاذِباً)[1]

وقال الشاعر :

فسبحان من لايقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد

مليك على عرش السماء مهيمن لعزته تعنوا الوجوه وتسجد

وهذا الشعر لأمية بن أبي الصلت وفيه يقول في وصف الملائكة :

وساجدهم لايرفع الدهر رأسه يعظم ربا فوقه ويمجد

قال فان احتجوا بقوله تعالى :(وهو الَّذي في السَّماء إِلهٌ وفي الأَرض إِلهٌ)[2] وبقوله تعالى : (وهو اللهُ في السَّموات وفي الأَرضِ)[3] وبقوله تعالى :(ما يكونُ مِن نجوى ثلاثةٍ إِلاَّ هو رابِعهُم ولا خمسةٍ إِلاَّ هو سادِسهم)[4] وزعموا أن الله سبحانه وتعالى في كل مكان بنفسه وذاته ــ تبارك وتعالى جده ــ قيل : لاخلاف بيننا وبين سائر الامة انه ليس في الارض دون السماء بذاته ، فوجب حمل هذه الآيات على المعنى الصحيح المجمع عليه ، وذلك أنه في السماء اله معبود

---

(١) غافر : ٣٦ ، ٣٧ (٢) الزخرف : ٨٤ (٣) الانعام : ٣ (٤) المجادلة : ٧

لأهل السماء ، وفي الارض اله معبود لاهل الارض ، وكذا قال أهل العلم بالتفسير ، وظاهر هذا التنزيل يشهد أنه على العرش ، فالاختلاف في ذلك ساقط ، وأسعد الناس به من ساعده الظاهر • وأما قوله في الآية الاخرى (وفي الارض اله) فالاجماع والاتفاق قد بين أن المراد بأنه معبود أهل الارض وأهل السماء ، فتدبر هذا فانه قاطع •

ومن الحجة أيضا في أنه عز وجل على العرش فوق السموات السبع أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم اذا كربهم أمر ونزلت بهم شدة رفعوا وجوههم الى السماء ، ونصبوا أيديهم رافعين مشيرين بها الى السماء يستغيثون الله ربهم تبارك وتعالى ، وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاجوا فيه الى أكثر من حكايته ، لانه اضطراري لم يوقفهم عليه أحد ، ولا أنكره عليهم مسلم •

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للامة التي أراد مولاها عتقها ان كانت مؤمنة فاختبرها النبي صلى الله عليه وسلم بأن قال لها : (أين الله ، فأشارت الى السماء ، ثم قال لها : من أنا ، قالت : أنت رسول الله ، قال : اعتقها فانها مؤمنة) فاكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم منها برفع رأسها الى السماء ، واستغنى بذلك عما سواه •

قال : وأما احتجاجهم بقوله تعالى : (ما يكونُ من نَجوى ثلاثةٍ إلاَّ هو رابعُهم) فلا حجة لهم في ظاهر هذه الآية ، لان علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل في القرآن قالوا في تأويل هذه الاية : هو على العرش وعلمه في كل مكان ، وما خالفهم في ذلك أحد يحتج بقوله ، وذكر سنيد عن مقاتل بن حيان عن الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى : (ما يكونُ منْ نَجوى ثلاثةٍ إلاَّ هو رابعُهُم) قال هو على عرشه وعلمه معهم أينما كانوا ، قال : وبلغني عن سفيان الثوري مثله ، قال سنيد بسنده الى ابن مسعود ، قال : الله فوق العرش لايخفى عليه شيء من أعمالكم ، ثم ساق من طريق يزيد بن هارون عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : مابين السماء الى الارض مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كل سماء الى الاخرى خمسمائة عام ، وما بين السماء السابعة الى الكرسي مسيرة خمسمائة عام ، وما بين الكرسي الى الماء مسيرة خمسمائة عام ، والعرش على الماء ، والله على العرش ويعلم أعمالكم ، وذكر هذا الكلام أو قريبا منه في كتاب الاستذكار •

(ذكر قول الامام مالك الصغير) أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني ، قال في خطبته برسالته المشهورة : باب ماتنطق به الالسنة وتعتقده الافئدة من واجب أمور الديانات : من ذلك الايمان بالقلب والنطق باللسان : أن الله اله واحد ، لا اله غيره ، ولا شبيه له ، ولا نظير له ، ولاولد له ، ولا والد له ، ولاصاحبة له ، ولاشريك له ، ليس لاوليته ابتداء ، ولا لآخريته انقضاء ، ولا يبلغ كنه صفته الواصفون ، ولا يحيط بأمره المتفكرون ، يعتبر المتفكرون بآياته ولا يتفكرون في ماهية ذاته : (ولا يُحيطونَ بشيءٍ مِن عِلمِه إلاَّ بما شاء وسعَ كُرسيُّه السَّمواتِ والأَرض ولايؤُده حفظُهما وهو العَلي العظيم) وهو العليم الخبير ، المدبر القدير ، السميع البصير ، العلي الكبير ، وانه فوق عرشه المجيد بذاته ، وهو بكل مكان بعلمه .

وكذلك ذكر مثل هذا في نوادره وغيرها من كتبه .

وذكر في كتابه المفرد في السنة تقرير العلو واستواء الرب تعالى على عرشه بذاته أتم تقرير ، فقال : ماجتمعت عليه الامة من أمور الديانة من السنن التي خلافها بدعة وضلالة أن الله سبحانه وتعالى له الاسماء الحسنى ، والصفات العلى ، لم يزل بجميع صفاته ، وهو سبحانه موصوف بأن له علما وقدرة ومشيئة ، أحاط علما بجميع مابدا قبل كونه ، وفطر الاشياء بارادته وقوله : (إنما أمرُه اذا أَرادَ شيْئاً أَن يقولَ له كُن فيكونُ) وأن كلامه صفة من صفاته ليس بمخلوق فيبيد ، ولا صفة لمخلوق فينفد ، وأن الله عز وجل كلم موسى عليه الصلاة والسلام بذاته ، وأسمعه كلامه لا كلاما قام في غيره ، وأنه يسمع ويرى ، ويقبض ويبسط ، وأن يديه مبسوطتان ، والارض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، وأن يديه غير نعمته في ذلك ، وفي قوله سبحانه : (ما منَعَكَ أَنْ تسْجُدَ لِما خلَقتُ بيدَيَّ) وأنه يجيء يوم القيامة بعد أن لم يكن جائيا والملك صفا صفا لعرض الامم وحسابها وعقابها وثوابها ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وأنه يرضى ، ويحب التوابين ، ويسخط على من كفر به ، ويغضب ولا يقوم شيء لغضبه ، وأنه فوق سماواته على عرشه دون أرضه ، وأنه في كل مكان بعلمه ، وأن لله سبحانه كرسيا ، كما قال عز وجل : (وسِعَ كُرسيُّه السَّمواتِ والأَرضَ) كما جاءت به الاحاديث : أن الله سبحانه يضع كرسيه يوم

القيامة لفصل القضاء ، وقال مجاهد : كانوا يقولون ما السموات والارض في الكرسي الا كحلقة ملقاة في فلاة من الارض ، وأن الله سبحانه يراه أولياؤه في المعاد بأبصارهم لايضامون في رؤيته ، كما قال عز وجل في كتابه وعلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ الى ربها ناظرةٌ) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل : (لِلَّذينَ أَحسنوا الحُسنى وزيادةٌ) هو النظر الى وجهه الكريم

وأنه يكلم عباده يوم القيامة ليس بينه وبينهم واسطة ولا ترجمان ، وأن الجنة والنار داران قد خلقتا أعدت الجنة للمؤمنين المتقين والنار للكافرين الجاحدين ولا يفنيان ، والايمان بالقدر خيره وشره ، وكل ذلك قد قدره ربنا سبحانه وتعالى وأحصاه وعلمه ، وأن مقادير الامور بيده ومصدرها عن قضائه ، تفضل على من أطاع فوفقه وحبب الايمان اليه وزينه في قلبه فيسره ، وشرح له صدره ونور قلبه فهداه ، ومن يهدي الله فما له من مضل ، وخذل من عصاه وكفر به فأسلمه ويسره فحجبه وأضله ، ومن يضل الله فلن تجد له وليا مرشدا ، وكل ينتهي الى سابق علمه لاتخصيص لأحدعنه ، وأن الايمان قول باللسان واخلاص بالقلب وعمل بالجوارح ، يزيد ذلك بالطاعة وينقص بالمعصية نقصا عن حقائق الكمال لامحبط للايمان ، ولا قول الا بعمل ، ولا عمل ولا قول الا بنية ، ولا قول ولا عمل ولا نية الا بموافقة السنة ، وأنه لايكفر أحد من أهل القبلة بذنب وان كان كبيرا ، ولا يحبط الايمان غير الشرك بالله تعالى ، كما قال سبحانه : (لئِنْ أَشركتَ ليَحبَطَنَّ عملُكَ) وقال تعالى : (انَّ اللهَ لا يغْفِرُ أَنْ يشْرَكَ به ويغفِرُ ما دون ذلكَ لِمنْ يشاء) وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم كما قال تعالى : (وانَّ عليكمُ لحافِظينَ . كِراماً كاتِبينَ) وقال تعالى : (ما يلفِظُ مِنْ قولٍ الاَّ لدَيه رقيبٌ عتيد) وأن ملك الموت يقبض الارواح كلها باذن الله تعالى متى شاء ، كما قال تعالى : (قُلْ يتوفَّاكُم ملَكُ الموتِ الَّذي وُكِّل بِكمُ) وأن الخلق ميتون بآجالهم ، فأرواح أهل السعادة باقية منعمة الى يوم القيامة ، وأرواح أهل الشقاء في سجين معذبة الى يوم القيامة ، وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، وأن عذاب القبر حق ، وأن المؤمنين يفتنون في قبورهم

ويضغطون ويسألون ، ويثبت الله منطق من أحب تثبيته ، وأنه ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون ، كما بدأهم يعودون ، حفاة عراة غرلا ، وأن الاجساد التي أطاعت أو عصت هي التي تبعث يوم القيامة لتجازى ، والجلود التي كانت في الدنياوالالسنة والايدي والارجل هي التي تشهد عليهم يوم القيامة على من تشهد عليه منهم ، وينصب الموازين لوزن أعمال العباد ، فأفلح من ثقلت موازينه ، وخاب وخسر من خفت موازينه ، ويؤتون صحائفهم ، فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، ومن أوتي كتابه بشماله فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا ، وأن الصراط جسر مورود يجوزه العباد بقدر أعمالهم ، فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليه من نار جهنم ، وقوم أبقتهم أعمالهم فيها يتساقطون ، وأنه يخرج من النار من في قلبه شيء من الايمان ، وأن الشفاعة لاهل الكبائر من المؤمنين ، ويخرج بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم من النار من أمته بعد أن صاروا فحما ، يطرحون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ، والايمان بحوض رسول الله صلى الله عليه وسلم ترده أمته لايظمأ من شرب منه ، ويذاد عنه من غير وبدل ، والايمان بما جاء من خبر الاسراء بالنبي صلى الله عليه وسلم الى السموات على ماصحت به الروايات ، وأنه صلى الله عليه وسلم رأى من آيات ربه الكبرى ، وبما ثبت من خروج الدجال ، ونزول عيسى عليه السلام حكما عدلا وقتله الدجال ، وبالآيات التي بين يدي الساعة من طلوع الشمس من المغرب وخروج الدابة وغير ذلك مما صحت به الروايات ، ونصدق بما جاءنا عن الله في كتابه وثبت عن رسوله صلى الله عليه وسلم وأخباره ، فوجب العمل بمحكمه ، ونؤمن بمشكله ومتشابهه ، ونكل ماغاب عنا من حقيقة تفسيره الى الله تعالى ، والله يعلم تأويل المتشابه من كتابه ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، وبكل ما غاب عنا من حقيقة تفسيره ، كل من عند ربنا • وقال بعض الناس : الراسخون في العلم يعلمون مشكله ، ولكن الاول قول أهل المدينة وعليه يدل الكتاب ، وأن أفضل القرون قرن الصحابة رضي الله عنهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن أفضل الامة بعد نبيها أبو بكر ، ثم عمر ، ثم علي • وقيل ثم عثمان وعلي ، ويكف عن التفضيل بينهما ، روى ذلك عن مالك ، وقال : ماأدركت أحدا أقتدي به يفضل أحدهما على صاحبه ، فرأى الكف عنهما ، وروى عنه القول الاول وهو قول أهل الحديث ، ثم بقية العشرة ، ثم أهل بدر من المهاجرين ومن الانصار ومن جميع

الصحابة على قدر الهجرة والسابقة والفضيلة ، وكل من صحبه ولو ساعة أو رآه ولو مرة فهو بذلك أفضل من التابعين ، والكف عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بخير مايذكرون به ، وهم أحق أن ننشر ذكر محاسنهم ، ونلتمس لهم أفضل مخارجهم ، ونظن بهم أحسن المذاهب ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لاتؤذوني في أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه) وقال صلى الله عليه وسلم : (اذا ذكر أصحابي فأمسكوا) قال أهل العلم لايذكرون الا بأحسن ذكر ، والسمع والطاعة لأئمة المسلمين ، وكل من ولي أمر المسلمين عن رضى أو عن غلبة أو شدة ، وطاعته من بر أو فاجر فلايخرج عليه جار أو عدل ، ونغزو معه العدو ، ونحج معه البيت ، ودفع الصدقات اليهم مجزية اذا طلبوها ، ونصلي خلفهم الجمعة والعيدين ــ قاله غير واحد من العلماء ــ وقال مالك : لانصلي خلف المبتدع منهم الا أن نخافه فنصلي خلفه ــ واختلف في الاعادة ــ ولا بأس بقتال من دافعك من الخوارج واللصوص من أهل المسلمين وأهل الذمة عن نفسك ومالك ، والتسليم للمسلمين لاتعارض برأي ولا تدافع بقياس ، وما تأوله منها السلف الصالح تأولناه ، وما عملوا به عملناه ، وما تركوه تركناه ، ويسعنا أن نمسك عما أمسكوا عنه ، وتتبعهم فيما بينوا ، ونقتدي بهم فيما استنبطوا ورأوه في الحوادث ، ولا نخرج من جماعاتهم فيما اختلفوا فيه وفي تأويله ، وكل ماقدمنا ذكره فهو قول أهل السنة وأئمة الناس في الفقه والحديث على مابيناه ، وكله قول مالك ، فمنه منصوص من قوله ومنه من مذهبه ، قال مالك : قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الامور سننا الاخذ بها تصديق لكتاب الله تعالى ، واستكمال لطاعته ، وقوة على دين الله تعالى ، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ، ولا النظر فيما خالفها ، من اهتدى بها هدى ، ومن استنصر بها نصر ، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ماتولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا . قال مالك : أعجبني عزم عمر رضي الله عنه في ذلك ، ماأصلبه في السنة وأقومه بها ؟! .

(قول الامام أبي بكر محمد بن وهب المالكي شارح رسالة ابن أبي زيد ومن المشهورين بالفقه والسنة رحمه الله تعالى) قال في شرحه للرسالة ومعنى فوق وعلى واحد بين جميع العرب في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، تصديق ذلك قوله تعالى : (ثم استوى على العرش الرحمن) وقال تعالى : (الرحمن على العرش استوى) وقال تعالى في وصف الملائكة : (يخافون ربهم من فوقهم

ويفعلون مايؤمرون) وقال تعالى : (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) ونحو ذلك كثير : وقال الرسول صلى الله عليه وسلم للاعجمية : (أين الله فأشارت الى السماء) ووصف النبي صلى الله عليه وسلم أنه عرج به من الارض الى السماء ثم من سماء الى سماء الى سدرة المنتهى ، ثم الى مافوقها ، حتى لقد قال : سمعت صريف الاقلام ، ولما فرضت الصلاة جعل كلما هبط من مكانه تلقاه موسى عليه السلام في بعض السماوات وأمره بسؤال التخفيف عن أمته ، فرجع صاعدا مرتفعا الى الله سبحانه وتعالى يسأله حتى انتهت الى خمس صلوات ، وسنذكره ان شاء الله تعالى عن قريب .

(قول الامام أبي القاسم عبد الله بن خلف المقري الاندلسي رحمه الله تعالى)

قال في الجزء الاول من كتاب (الاهتداء لأهل الحق والاقتداء) من تصنيفه من شرح الملخص للشيخ أبي الحسن القابسي رحمه الله تعالى عن مالك بن شهاب عن أبي عبد الله الاغر وعن أبي سلمة ابن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ينزل ربنا كل ليلة الى السماء الدنيا — حين يبقى ثلث الليل الآخر — فيقول : من يدعوني فاستجيب له ، ومن يسألني فأعطيه ، ومن يستغفر فأغفر له ؟)

في هذا الحديث دليل على أنه تعالى في السماء على العرش فوق سبع سموات من غير مماسة ولا تكييف كما قال أهل العلم ، ودليل قولهم أيضا من القرآن قوله تعالى : (الرَّحمنُ على العَرشِ استوى) وقوله تعالى : (ثُمَّ استوي على العرْشِ مالكمُ مِن دونه مِن وليٍّ ولا شفيع) وقوله تعالى : (اذاً لابتغوا الى ذي العرشِ سبيلاً) وقوله : (يُدَبِّرُ الأَمرَ منَ السَّماء الى الأَرضِ) وقوله تعالى : (تعْرجُ الملائكَةُ والرُّوحُ اليهِ) . وقوله لعيسى عليه السلام : (اني مُتوفِّيكَ ورافِعُكَ اليَّ) وقوله : (ليسَ له دافعٌ مِنَ اللهِ ذي المعارِج) . (تعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ اليه) والعروج هو الصعود ، قال مالك ابن أنس رحمه الله تعالى : الله عز وجل في السماء وعلمه في كل مكان لايخلو من علمه مكان ، يريد والله أعلم بقوله : (في السماء) على السماء ، كما قال تعالى : (ولأُصلِّبنَّكُم في جُذوع النَّخْلِ) وكما قال تعالى : (أأمِنتُم مَن في السَّمَاءِ ان يَخْسِفَ بِكم الارضَ) أي من على السماء يعني على العرش ، وكما قال تعالى :

(فسيحوا في الأَرضِ) أي على الارض ، وقيل لمالك (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى ؟ قال مالك رحمه الله لقائله : استواؤه معقول ، وكيفيته مجهولة ، وسؤالك عن هذا بدعة ، وأراك رجل سوء •

قال أبو حنيفة في قوله تعالى (الرَّحمنُ على العَرشِ استوي) أي علا • قال : ويقول العرب استويت فوق الدابة أو فوق البيت ، وكل ما قدمت دليل واضح في ابطال قول من قال بالمجاز في الاستواء ، وان استوى بمعنى استولى ، لأن الاستيلاء في اللغة المغالبة وأنه لايغالبه أحد ، وأن من حق الكلام أن يحمل على حقيقته حتى تتفق الامة أنه أريد به المجاز ، اذ لاسبيل الى اتباع ماأنزل الينا من ربنا سبحانه وتعالى الا على ذلك ، وانما يوجه كلام الله تعالى الى الاشهر والاظهر من وجوهه ما لم يمنع ذلك مايوجب له التسليم ، ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع ماثبت شيء من العبادات ، وجل الله تعالى أن يخاطب الا بما تفهمه العرب من معهود مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين ، والاستواء معلوم في اللغة وهو العلو والارتفاع والتمكن •

(ومن الحجة أيضا) في أن الله سبحانه وتعالى على العرش فوق السموات السبع : أن الموحدين أجمعين اذا كربهم أمر رفعوا وجوههم الى السماء يستغيثون الله ربهم ، وقوله صلى الله عليه وسلم للامة التي أراد مولاها أن يعتقها : (أين الله فأشارت الى السماء ، ثم قال لها : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله ، قال أعتقها فانها مؤمنة) فاكتفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم منها برفع رأسها الى السماء دل على ماقدمناه أنه على العرش ، والعرش فوق السموات السبع ، ودليل قولنا أيضا قول أمية ابن أبي الصلت في وصف الملائكة عليهم السلام :

وساجدهم لايرفع الدهر رأسه ... يعظم ربا فوقه ويمجد

فسبحان من لايقدر الخلق قدره ... ومن هو فوق العرش فرد موحد

مليك على عرش السماء مهيمن ... لعزته تعنو الوجوه وتسجد

وقوله تعالى : (وقال فرعونُ يا هامانُ ابنِ لي صرحاً لعليِّ أَبلُغ الأَسبابَ أَسباب السَّموات فأطَّلِعَ الى الهِ موسى)فدل على أن موسى عليه السلام كان

يقول الهي في السماء وفرعون يظنه كاذبا .

(فان احتج) أحد علينا فيما قدمناه وقال لو كان كذلك لاشبه المخلـوقات لأن ماأحاطت به الامكنة واحتوته فهو مخلوق : فشيء لايلزم ولا معنى له ، لأنه تعالى ليس كمثله شيء من خلقه ، ولا يقاس بشيء من بريته ، ولا يدرك بقياس ، ولا يقاس بالناس ، كان قبل الامكنة ، ثم يكون بعدها ، لا اله الا هو خالق كل شيء لاشريك له ، وقد اتفق المسلمون وكل ذي لب أنه لايعقل كائن الا في مكان ما وما ليس في مكان فهو عدم ، وقد صح في العقول وثبت بالدلائل أنه كان في الازل لا في مكان وليس بمعدوم فكيف يقاس على شيء من خلقه أو يجري بينهم وبينه تمثيل أو تشبيه ، تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

(فان قال قائل) اذا وصفنا ربنا تعالى أنه كان في الازل لا في مكان ثم خلق الاماكن فصار في مكان ففي ذلك اقرار منافيه بالتغيير والانتقال اذا زالت عن صفته في الازل وصار في مكان دون مكان .

(قيل له) وكذلك زعمت أنت أنه كان لا في مكان ثم صار في كل مكان فنقل صفته من الكون لا في مكان الى صفة هي الكون في كل مكان فقد تغير عندك معبودك وانتقل من لامكان الى كل مكان .

(فان قال) أنه كان في الازل في كل مكان وكما هو الآن : فقد وجب الأماكن والاشياء معه في أزليته وهذا فاسد .

(فان قال) فهل يجوز عندك أن ينتقل من مكان في الازل الى مكان ؟

(قيل له) أما الانتقال وتغير الحال فلا سبيل الى اطلاق ذلك عليه ، لأن كونه في الازل لايوجب مكانا ، وكذلك نقلته توجب مكانا وليس في ذلك كالخلق ، لأن كونه يوجب مكانا من الخلق ونقلته لاتوجب مكانا ويصير منتقلا من مكان الى مكان ، والله تعالى ليس كذلك ، ولكن نقول استوى من لامكان الى مكان ، ولا نقول انتقل وان كان المعنى في ذلك واحدا ، كما نقول له عرش ولا نقول له سرير ، ونقول هو الحكيم ولا نقول هو العاقل ، ونقول خليل ابراهيم ولا نقول صديق ابراهيم عليه السلام وان كان المعنى في ذلك واحدا ، لأنا لانسميه ولا نصفه ولانطلق عليه الا ماسمى به نفسه على ماتقدم ، ولا ندفع ماوصف به نفسه لأنه دفع للقرآن ،

وقد قال الله تعالى : (وجاءَ ربُّكَ والملَكُ صفّاً صفّاً) وليس مجيئه حركة ولا زوالا ولا ابتدالا ، لأن ذلك انما يكون اذا كان الجائي جسما أو جوهرا ، فلما ثبت أنه ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض لم يجب أن يكون مجيئه حركة ولا انتقالا ، ولو اعتبرت ذلك بقولهم جاءت فلانا قيامته وجاءه الموت وجاءه المرض وشبه ذلك مما هو وجود نازل به لا مجيء لبان ذلك وبالله العصمة والتوفيق .

(فان قال انه لايكون) مستويا على مكان الا مقرونا بالكيف .

(قيل له) قد يكون الاستواء واجبا والتكييف مرتفعا ، وليس رفع التكييف يوجب رفع الاستواء ، ولو لزم هذا لزم التكييف في الازل ولا يكون كائنا في الامكان ولا مقرونا بالتكييف .

(فان قال) انه كان ولا مكان وهو غير مقرون بالتكييف ، وقد عقلنا وأدركنا بحواسنا أن لنا أرواحا في أبداننا ولا نعلم كيفية ذلك وليس جهلنا بكيفية الارواح يوجب أن ليس لنا أرواح [1] وكذلك ليس جهلنا بكيفيته على عرشه يوجب أن ليس على عرشه ، وقد روى عن أبي رزين العقيلي قال قلت يارسول الله : (أين كان ربنا تبارك وتعالى قبل أن يخلق السماء والارض ؟ قال : كان في عماء ، ما فوقه هواء وما تحته هواء) قال أبو القاسم : العماء ممدود وهو السحاب ، والعمى مقصور وهو الظلمة ، وقد روى الحديث بالمد والقصر ، فمن رواه بالمد فهو عنده كان في عماء سحاب ماتحته هواء وما فوقه هواء والهاء راجعة الى العماء ، ومن رواه بالقصر فمعناه عنده كان في عمى عن خلقه لأنه من عمى عن الشيء فقد أظلم عنه ، وعن مجاهد قال : ان بين العرش وبين الملائكة لسبعين حجابا من نور وحجابا من ظلمة ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : مابين السماء الى الارض مسيرة خمسمائة عام ، ومابين السابعة الى الكرسي مسيرة خمسمائة عام ، والعرش على الماء ، والله تعالى على العرش ، ويعلم أعمالكم . وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أيضا : انه فوق العرش لايخفى عليه شيء من أعمالكم ، قال أبو القاسم : يريد فوق العرش ، لأن العرش آخر المخلوقات ليس فوقه مخلوق ، والله تعالى أعلى المخلوقات دون تكييف ولا مماسة ، ولا أعلم في هذا الباب حديثا مرفوعا الا حديث عبد الله بن عميرة عن الاحنف عن العباس ابن عبد المطلب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه

---

(1) كذا في الاصل لم يذكر مبدأ جواب فان قال .. الخ فليحرر .

وسلم نظر الى سحابة فقال : (ماتسمون هذه ؟ قالوا السحاب ، قال : والمزن ؟ قالوا والمزن ، قال : والعنان ؟ قالوا : والعنان ، قال : كم ترون بينكم وبين السماء ؟ قالوا لاندري ، قال : بينكم وبينها اما واحد أو اثنان أو ثلاث وسبعون سنة ، والسماء فوقها كذلك بينهما مثل ذلك حتى عد سبع سموات ، ثم فوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله كما بين سماء الى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أو عال بين أظلافهم وركبهم مثل مابين سماء الى سماء ، ثم الله فوق ذلك) هذا حديث صحيح أخرجه أبو داود •

(قول الامام أبي عبدالله محمد ابن أبي نعيس المالكي المشهور رحمه الله تعالى) قال في كتابه الذي صنفه في أصول السنة : (باب الايمان بالعرش) ومن قول أهل السنة أن الله عز وجل خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ماخلق، ثم استوى عليه كيف شاء كما أخبر عن نفسه في قوله عز وجل : (الرَّحمن على العرشِ استوي) وفي قوله تعالى : (ثُمَّ استوي على العَرشِ يعلْم ما يلِجُ في الأَرضِ وما يَخرجُ منها وما يَنْزِلُ منَ السّماء وما يعْرُجُ فيها) وذكر حديث أبي رزين العقيلي (قلت يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والارض ، قال كان في عماء مافوقه هواء وماتحته هواء ، ثم خلق عرشه على الماء) ثم ذكر الاثار في ذلك الى أن قال : (باب الايمان بالحجب) • قال : ومن قول أهل السنة أن الله تعالى بائن من خلقه محتجب عنهم بالحجب الى أن قال : (باب الايمان بالنزول) قال : ومن قول أهل السنة أن الله ينزل الى سماء الدنيا ، وذكر حديث النزول ، ثم قال : وهذا الحديث يبين أن الله تعالى على عرشه في السماء دون الارض ، وهو أيضا بين في كتاب الله تعالى وتقدس وفي غير ماحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله : (يُدبِّرُ الأَمرَ من السّماءِ الى الأَرضِ ثُم يعرجُ اليْهِ) وساق الآيات في العلو ، وذكر من طريق مالك قول النبي صلى الله عليه وسلم (أين الله ؟) ثم قال : والحديث في مثل هذا كثير •

(قول القاضي عبد الوهاب امام المالكية بالعراق ومن كبار أهل السنة رحمه الله تعالى) صرح بأن الله استوى على عرشه بذاته ، نقله شيخ الاسلام — رحمه

الله تعالى وقدس روحه ــ فيغير موضع من كتبه ، ونقله عنـــه القرطبي في شرح الاسماء الحسنى •

(ذكر قول الامام محمد بن ادريس الشافعي رضي الله عنه وقدس روحه)

قال الامام ابن الامام عبد الرحمن ابن ابي حاتم الرازي :حدثنا ابو شعيب وابو ثور عن أبي عبد الله محمد ابن ادريس الشافعي رحمه الله تعـالى ، قال : القـول في السنة التي أنا عليها ورأيت اصحابنا عليها اهل الحديث الذين رأيتهم وأخـذت عنهم ــ مثل سفيان ومالك وغيرهما ــ الاقرار بشهادة ان لا اله الا الله وان محمـدا رسول الله ، وأن الله على عرشه في سمـائه يقرب من خلقه كيف شـاء ، وأن الله تعالى ينزل الى سماء الدنيا كيف شاء ، قال عبد الرحمن : وحدثنا يونس بن عبـد الاعلى ، قال : سمعت أبا عبد الله محمد ابن ادريس الشافعي يقول ــ وقد سئل عن صفات الله وما يؤمن به فقال ــ : لله أسماء وصفات جاء بها كتابه ، وأخبـر بها نبيه أمته ، لايسع أحدا من خلق الله قامت عليه الحجة ردهـا ، لأن القرآن نزل بها وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم القول بها فيمـا روى عنه العـدل ، فان خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر ، أما قبل ثبوت الحجـــة فمعذور بالجهل ، لان علم ذلك لايدرك بالعقل ولا بروية الفكر ، ولا يكفر بالجهل بهـــا أحد الا بعد انتهاء الخبر اليه بها ، وتثبت هذه الصفات وتنفي عنها التشبيه كمـــا نفى التشبيه عن نفسه فقال :(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) وصح عن الشافعي أنه قال : خلافة ابي بكر الصديق رضي الله عنه حق قضاها الله في سمائه ، وجمـع عليها قلوب عباده ، ومعلوم ان المقضي في الارض والقضاء فعله سبحانه وتعالـــى المتضمن لمشيئته وقدرته •

(وقال في خطبة رسالته) : الحمد لله الذي هو كما وصف به نفســه ، وفوق مايصفه به خلقه ، فجعل صفاته سبحانه انما تتلقى بالسمع • وقال يونس بن عبـد الاعلى : قال لي محمد ابن ادريس الشافعي رضي الله عنه : الاصل قرآن وسنــة فان لم يكن فقياس عليهما ، واذا اتصل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصح الاسناد منه فهو سنة ، والاجماع أكبر من الخبر الفرد ، والحديث على ظاهره، واذا احتمل المعاني فما أشبه منها ظاهره فهو اولاها به •

(ثم ذكر قول صاحبه) امام الشافعية في وقته ، أبي ابراهيم اسمعيـــل

ابن يحيى المزني في رسالته في السنة التي رواها ابو طاهر السلفي عنه باسناده وساقها كلهـا .

(وقول امام) الشافعية في وقته ، أبي العباس بن شريح رحمه الله تعالى ، وساق كلامه أيضا .

(وقول الامام) حجة الاسلام أحمد بن الحسين الشافعي المعروف بابـن الحداد ، ثم ساق كلامه .

(وقول الامام) اسمعيل بن محمد بن الفضل التيمي صاحب كتاب الترهيب والترغيب ، وكتاب الحجة في بيان المحجة ، ومذهب أهل السنة ، وكان امام الشافعية في وقته رحمه الله تعالى ، ونقل فصلا من كتاب الحجة في بيان استواء الله تعـالى على عرشه وساقه كله .

(ثم ذكر قول الامام) أبي‌عمر ، وعثمان بن‌أبي الحسن بن‌الحسين السهروردي الفقيه المحدث من أئمة أصحاب الشافعي من أقران البيهقي ، وأبي عثمان الصابوني وطبقتهما ، له كتاب في أصول الدين ، وساق كلامه وفيه : ومن صفاته تبارك وتعالى فوقيته واستواؤه على عرشه بذاته كما وصف نفسه في كتابه وعلى لسان رسولـه صلى الله عليه وسلم بلا كيف الخ .

(ثم ذكر قول امام) الشافعية في وقته ، الامام أبي بكر محمد بن محمود بـن سورة التيمي فقيه نيسابور رحمه الله تعالى ، ثم ساق كلامه ، ومنه : ان أردت أن تكون لك درجة الائمة في الدنيا والآخرة فعليك بمذهب السلف الصالح ، وايـاك ان تداهن في ثلاث مسائل : مسألة القرآن ، ومسألة النبوة ، ومسألة استواء الرحمن على العرش باستدلال النص من القرآن والسنة المـأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، حكاه الحافظ أبو منصور في كتاب العلوله الخ .

(ثم ذكر قول أبي الحسن) العمراني صاحب البيان فقيه الشافعية ببلاد اليمن رحمه الله تعالى ، وساق كلامه في كتابه الذي ألفه في السنة على مذهب أهـل الحـديث .

(ثم ذكر أقوال جماعة من اتباع الائمة الاربعة ممن يقتدى بأقوالهم سوى ما تقدم) منهم أبو بكر محمد بن وهب المالكي شارح رسالة ابن أبي زيد عليهمـا الرحمة ، وساق كلامه الذي في شرحه بنصه .

(ومنهم) امام الشافعية في وقته بل هو الشافعي الثاني أبو حامد الاسفرائيني رحمه الله ، وكان من كبار أئمة السنة المثبتين للصفات ، فقد قال : مذهبي ومذهب الشافعي وجميع علماء الامصار أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر الى آخر كلامه ، وفيه اثبات صفة العلو لله •

(ومنهم) امام الشافعية في وقته سعد بن علي الزنجاني صرح بالفوقية بالذات، فقال : هو فوق عرشه بوجود ذاته هذا لفظه ، وهو امام في السنة له قصيدة فيها معروفة ، أولها :

تمسك بحبل الله واتبع الاثرا • وقد شرحها •

(ومنهم) الامام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري الامام في الفقه والتفسير والحديث والتاريخ واللغة والنحو والقرآن ، ثم ساق عبارته في كتابه صريح السنة ، وفيه اثبات العلو لله تعالى ، وعبارته من تفسيره عند الكلام على قوله تعالى : (الرَّحْمٰنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى) علا وارتفع • وساق جميع عباراته التي ذكرها في هذا الباب •

(ومنهم) الامام أبو القاسم الطبري اللالكائي أحد أئمة أصحاب الشافعي رحمه الله تعالى ، وساق كلامه في كتاب السنة وهو مشتمل على مثل ماسبق •

(ومنهم) الامام محي السنة الحسين بن مسعود البغوي ، وساق كلامه الذي هو شجي في طوق الجهمية والمعطلة في سورة الاعراف في قوله تعالى : (ثم استوى على العرش) •

(ثم ذكر أقوال الامام أحمد بن حنبل) وجماعة من أصحابه، وكلها مصرحة باثبات صفة العلو والفوقية لله تعالى ، ومثلهم أئمة الحديث المشهورون •

(ثم ذكر أقوال أئمة التفسير) •

(ثم ذكر أقوال أئمة اللغة والعربية) الذين يحتج بقولهم فيها ، كأبي عبيدة معمر ابن المثنى ، ويحيى بن زياد الفراء امام أهل الكوفة ، وأبي العباس ثعلب وغيرهم مما يطول ذكرهم •

(ثم ذكر أقوال الزهاد) أهل الاتباع وسلفهم ، مثل ثابت البناني ، وسليمان

التيمي ، وشريح بن عبيد ، وعبيد بن عمير ، والفضيل بن عياض ، وعطاء السلمى ، وأبو عبيدة الخواص ، وبشر الحافي ، وذي النون المصري ، والحارث بن أسد المحاسبي ، والامام العارف أبي عبد الله محمد بن عثمان المكي امام الصوفية في وقته ، وأبي جعفر الهمداني الصوفي ، والامام العارف معمر بن أحمد الاصبهاني شيخ الصوفية في أواخر المائة الرابعة ، والشيخ عبد القادر الجيلي ، وأبي عبد الله ابن خفيف الشيرازي امام الصوفية في وقته ، وشيخ الاسلام أبي اسمعيل الانصاري صاحب كتاب منازل السائرين والفاروق وذم الكلام وغيره ، وشيخ الصوفية والمحدثين أبي نعيم صاحب كتاب حلية الاولياء ، والامام يحيى بن عمار السجزي شيخ أبي اسمعيل الانصاري امام الصوفية •

(وكل من) هؤلاء الابرار ، والزهاد الاخيار ، صرح باثبات العلو والفوقية لله تعالى • وذكر الشيخ ابن القيم نص عبارتهم في كتابه غزو الجيوش الاسلامية ، ولولا خوف طول الكلام وملل السامعين لنقلناها ، والكتاب متداول بين الناس •

(ثم ذكر أقوال الشارحين لاسماء الله الحسنى) كالقرطبي في شرحه ،قال : وقد كان الصدر الاول لاينفون الجهة ، بل نطقوا هم والكافة باثباتها لله تعالى ، كما نطق كتابه واخبر رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على العرش حقيقة ، وخص بذلك دون غيره لانه أعظم مخلوقات الله ، وانما جهلوا كيفية الاستواء فانه لاتعلم حقيقته ، كما قال مالك الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عن الكيف بدعة ، الى آخر ماقال •

(ثم ذكر أقوال أهل الكلام من أهل الاثبات) المخالفين للجهمية والمعتزلة والمعطلة ، فذكر قول الامام أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب امام الطائفة الكلابية ، وقال : كان من أعظم أهل الاثبات للصفات والفوقية وعلو الله تعالى على عرشه ، وذكر له كلاما طويلا في هذا الباب من أحب الوقوف عليه فليرجع الى كتابه غزو الجيوش •

(ثم ذكر) قول أبي الحسن علي بن اسمعيل الاشعري امام الطائفة الاشعرية ، قال : ان كلامه فيما وقفنا عليه من كتبه ، كالموجز ، والابانة ، والمقالات ، وما نقله أعظم الناس انتصارا له ، وهو الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في الكتاب الذي سماه : تبيين كذب المفتري فيما نسب الى أبي الحسن الاشعري ـ هو مثل كلام

السلف ، ثم نقل ما قاله ابن عساكر ، وما قاله الاشعري في الابانة .

(ثم ذكر) قول الحسين بن أحمد الاشعري المتكلم من متكلمي أهل الحديث صاحب الجامع الكبير والصغير في أصول الدين ، ونقل كلامه في جامعه الصغير المصرح بصفة الفوقية لله والعلو على العرش حقيقة .

(ثم ذكر) قول الامام فخر الدين الرازي في آخر كتبه ـ وهو كتاب أقسام اللذات ـ وبين أنها ثلاثة : الحسية كالاكل والشرب والنكاح واللباس ، واللذة الخيالية الوهمية كلذة الرياسة والامر والنهي والترفع ونحوها ، واللذة العقلية كلذة العلوم والمعارف ، وتكلم على كل واحد من هذه الاقسام الى أن قال : وأما اللذة العقلية فلا سبيل الى الوصول اليها والتعلق بها ، فلهذا السبب نقول : ياليتنا بقينا على العدم الاول ، ياليتنا ماشهدنا هذا العالم ، وليت النفس لم تتعلق بهذا البدن وفي المعنى قلت :

نهاية اقدام العقول عقال ... واكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا اذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجال ودولة ... فبادوا جميعا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها ... رجال فزالوا والجبال جبال

واعلم أنه بعد التوغل في هذه المضائق ، والتعمق في الاستكشاف عن اسرار هذه الحقائق : رأيت الاصوب الاصلح في هذا الباب طريقة القرآن العظيم ، والفرقان الكريم ، وهو ترك التعمق والاستدلال بأقسام أجسام السموات والارضين على وجوب وجود رب العالمين ، ثم المبالغة في التعظيم من غير خوض في التفاصيل ، فاقرأ في التنزيه قوله تعالى : (والله الغَنيُّ وأَنتمُ الفقراء)(1) وقوله تعالى : (ليْس كَمْثْلهِ شيءٌ)(2) وقوله تعالى: (قُلْ هو اللهُ أَحدٌ) واقرأ في الاثبات : (الرّحْمٰن على العَرشِ استوي)(3) وقوله تعالى: (يَخافونَ ربَّهم مِنْ فوقِهمْ)(4) وقوله تعالى : (اليْهِ يصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيبُ)(5) وقوله تعالى : (قُلْ كلٌّ مِنْ عنْدِ اللهِ)(6) وفي تنزيهه عما

---

(1) محمد : 38 (2) الشورى : 11 (3) طه : 5 (4) النحل : 50 (5) فاطر : 10 (6) النساء : 78

لاينبغي قوله تعالى : (ما اصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك)[1] وعلى هذا القانون فقس وختم الكتاب.

(ثم ذكر) قول متكلم السنة امام الصوفية أبي العباس أحمد بن محمد المظفري المختار الرازي صاحب كتاب قرع الصفات في تقريع نفاة الصفات، وهو على صغر حجمه كتاب جليل غزير العلم، قال فيه بعد حكاية مذاهب الناس : وقالت الحنابلة وأصحاب الظواهر والسلف من أهل الحديث أن الله على العرش، ثم قال : أما حجة المثبتين فمن حيث الكتاب والسنة واجماع الصحابة والمعقول، ثم ذكر حجج القرآن والسنة، ثم حكى كلام الصحابة، الى أن قال : ثم ان الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في النبي صلى الله عليه وسلم هل رأى ربه ليلة المعراج أم لا، واختلافهم في الرؤية تلك الليلة اختلاف منهم على ان الله على العرش، لان المخالفين لايفرقون بين الارض والسماء بالنسبة الى ذاته، وهم فرقوا حيث اختلفوا في أحدهما دون الآخر، قلت : مراده انما اختلفوا في رؤيته لربه ليلة الاسراء به الى عنده فجاوز السبع الطباق، ولولا أنه على العرش لكان لافرق في الرؤية نفيا واثباتا من تلك الليلة وغيرها.

ثم قال : واما المعقول فمنه وجوه : أحدها اطباق الناس كافة واجماع الخلق عامة من الماضين والغابرين والمؤمنين والكافرين على رفع الايدي عند السؤال والدعاء، بخلاف السجود فانه تواضع متعارف، وبخلاف التوجه الى الكعبة فانه تعبد غير معقول، أما رفع الايدي بالسؤال نحو المسؤول فأمر معقول متعارف قال : ومن نظر في قصص الانبياء وأخبار الاوائل القدماء وأنباءالامم الماضية والقرون الخالية : اتضحت لههذه المعاني، واستحكمت له هذه المباني، ثم قرر العلو وساق شبه النفاة ونقضها نقض من يقلع عروشها كل القلع رحمه الله تعالى.

(ثم ذكر قول شعراء الاسلام) منهم حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد أنشد النبي صلى الله عليه وسلم قوله :

شهدت باذن الله ان محمدا ... رسول الذي فوق السموات من عل
وان أبا يحيى ويحيى كلاهما ... له عمل من ربه متقبل
وان أخا الاحقاف اذ قام فيهم ... يقوم بذات الله فيهم ويعدل

---

(1) النساء : ٧٩

فقال النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أشهد .

وقال حسان أيضا في قصيدته الدالية :

ألم تــر ان الله أرســل عبــده ... ببرهانــه والله أعلى وأمجــد

وضم الاله اســم النبي الى اسمــه ... اذا قــال في الخمس المؤذن اشهــد

وشق لــه من اسمه ليجلــه ... فذو العــرش محمود وهذا محمد

اغــر عليــه للنبــوة خاتــم ... من الله ميمون يلــوح ويشهــد

(ومنهم) عبد الله بن رواحة ، فانه أنشد شعرا في قصة له مع امرأته ، وهــو قولــه :

شهــدت بأن وعــد الله حــق ... وأن النار مثــوى الكافرينــا

وان العرش فوق المــاء طــاف ... وفــوق العــرش رب العالمينــا

وتحمله ملائكــة شــداد ... ملائكــة الالــه مسومينــا

(ومنهم) العباس بن مرداس السلمى ، قال عوانة بن الحكم : لما استخلف عمر ابن عبد العزيز وفد اليه الشعراء فقاموا ببابه أياما لايأذن لهم ، فبينما هم كذلــك مر بهم على بن ارطاة ، فدخل على عمر فقال : الشعراء ببابك ياأمير المؤمنــين، فقال : ويحك مالي وللشعراء ؟ قال : فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتدح فاعطى ، مدحه العباس بن مرداس السلمي فأعطاه حلة ، قال أو تروي من شعره شيئا؟ قال: نعم فأنشده على بن ارطاة قوله للنبي صلى الله عليه وسلم :

رأيتــك ياخــير البريــة كلها ... نشــرت كتابا جــاء بالحق معلمــا

شرعت لنا ديــن الهدى بعد جورنا ... عن الحق لما أصبح الحق مظلمــا

تعالــى علوا فوق سبع الهنــا ... وكان مكــان الله أعلى واعظمــا

(ومنهم) لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك العامري أحد شعراء الجاهليــة والاسلام ، أسلم وصحب النبي صلى الله عليه وسلم ومن شعره :

للــه نافلــة الاجــل الافضــل ... وله العلــى واثيل كل مؤثــل

لايستطيــع الناس محو كتابــه ... أنــى وليس قضاؤه بمبــدل

سوى فاعلى دون عالي عرشــه ... سبعــا طباقــا دون قرع المغفــل

والارض تحتهم مهادا راسيــا ... ثبتت جوانبهــا بصم الجنــدل

(ذكر ماأنشد للنبي صلى الله عليه وسلم من شعر أمية بن ابي الصلت)

مجدوا الله فهو للمجد اهل ربنا في السماء امسى كبيرا
بالبناء الاعلى الذي سبق الخلق وسوى فوق السماء سريرا
شرجعا ماينالـه بصر العين ترى دونه الملائك صورا

ومن شعره قوله في داليته المشهورة :

لك الحمد والنعماء والملك ربنا فلا شيء اعلى منه جدا وأمجد
مليك على عرش السماء مهيمن لعزته تعنوا الوجوه وتسجد
عليه حجاب النور والنور حوله وانهار نور حوله تتوقد
فلا بشر يسمو اليه بطرفه ودون حجاب النور خلق مؤيد

وفيها وصف الملائكة فقال:

وساجدهم لايرفع الدهر رأسه يعظم ربا فوقه ويمجد

(ذكر القصيدة) التي أنشدها اسماعيل بن الترمذي للامام أحمد في حبسه ، قال ابراهيم بن اسحق العبلي : أخذت هذه القصيدة من أبي بكر المروزي ، وذكر ان اسماعيل بن خلان الترمذي قالها وأنشدها أحمد بن حنبل في السجن :

تبارك من لايعلم الغيب غيره ومن لم يزل يثني عليه ويذكر
علا في السموات العلى فوق عرشه الى خلقه في البر والبحر ينظر
سميع بصير لانشك مدبر ومن دونه عبد ذليل مدبر
يدا ربنا مبسوطتان كلاهما تسحان والايدي من الخلق تقتر

وساق القصيدة وهي أحسن القصائد ، ولم ينكرها أحد من أهل الحديث بل أثنوا عليها •

وقال يحيى بن يوسف بن يحيى بن يوسف الصرصري الانصاري اللغوي الفقيه:

تواضع لرب العرش علك ترفع فقد فاز عبد المهيمن يخضع
فداوي بذكر الله قلبك انه لا على دواء للقلوب وانفع
وخذ من تقي الرحمن امنا وعدة ليوم به غير التقى مروع

الى أن قال :

سميـــع بصير ماله في صفاتـــه شبيه يرى من فـوق سبع ويسمع
قضي خلقــه ثم استوى فوق عرشه ومن علمه لم يخل في الارض موضع

(وقال في لاميته):

ويوم ينادي العالمين فيسمـع الـ قصي كـدان في المقـال المطول
أنا الملك الديـــان والنقل ثـابت فهل ههنـــا ينساغ تأويل جهـل
وينظـره أهل البصائر في غــــد بابصارهم لا ريـب فيـــه لمجتـل
كمـا ينظرون الشمس ماحال دونها سحاب الا بعـدا لاهل التعـزل
توحــد نحو العرش والخلق دونه واحكم ما سـواه احكـام مكمل

(وقال أيضا):

أسير وقلبي في هـــواك أسـير فهل لي من جـور الفراق مجـير
واستجلب السلوى وفي القلب حسرة فيرتد عنك الطرف وهو حسـير
وما ذاك الا ان فيـك لناظـري مدى غصن غض بالنبات نضـير
إذا ماتجـلى سـافرا فجمـا له الى القلب من جيش الغرام سفـير
اذا ما اجتمعنا وانتفى الشمل فالتقى رقيب علينـا والعقـاب غفـور
يؤكــد عقـد الود بيني وبينه اء تقـاد عليــه للهداية نـور
كلانـــا محب للامـام ابن حنبـل لاسيافنـــا في شانئيـه هبـير
نقر بـان اللـه جـل ثنـاؤه سميع لاقـوال العبـاد بصير
ويطـوى السموات العلى بيمينه وذلك في وصف القـوي يسـير
وخاطب موسـى بالكلام مكلمـا فخـر صريعـا اذ تقطع طـور
وخـط له التوراة فيها مواعـظ فلاحـت على الالواح منه زبور
وان قلـوب الخلق بين أصابع الـ اله فمنهـا ثـابت ونفـور
ونثبت في الاخرى لرؤيـة ربنـا حديثا رواه في الصحيح جريـر
وأي نعيـم في الجنان لاهلهـا وانى لهـم لو لم يروه سرور
ونؤمن ان العرش من فـوق سبعة تطوف بـه أملاكـه وتـدور
قضى خلقه ثم استوى فوق عرشـه تقدس كرسي لـه وسريـر
هو الله ربي في السماء محجب وليس كمخلـوق حوتـه قصور

اليــــه تعالى طيب القول صاعــد ... وينـــزل منـــه بالقضاء أمـور
لقـــد صح اسلام الجويرية التي ... باصبعهـــا نحو السماء تشـير

وقال رحمه الله تعالى في قصيدته المنامية التي يقول فيها :

رأيت رسول اللــه في النوم مـرة ... فقبلت فـــاه مثل تقبيــل مشتاق
ولو أنني أوتيت رشـــدي قائمـــا ... لقبلت ممشـــاه الكريـم بآماقي
فبشرنـــي منه بأزكـــى شهـادة ... بها جبر كسري يوم فقري واملاقي
لمـوت سعيــــد في كتــاب وسنة ... فلانت لبشــــراه شراسة اخلاقــي
فها أنا ذا والحمد لله وحــــــده ... مقــــر لبشراه باثبـت مصـداقي
باني على حسن اعتقــاد بن حنبــل ... مقيم وان قـــام العدالي على ساق
أقــر بان الله من فــوق عرشـــه ... يقــدر آجـــالا ويقضي بارزاق
سميع بصير ليس شيء كمثلــــه ... قديم الصفات الواحد الاحد الباقي
امر أحاديث الصفـــات كما أتت ... أتابــع فيها كـل ازهر سبـــاق
ولست الى التشبيــه يوما بجانــح ... ولا قائــل تأويـــل اشدق مهاق

وقال رحمه الله تعالى في قصيدته اللامية التي نظم فيها اعتقاد الشافعي رضي الله عنه ، أولها :

أيشعر حـرب الجهم ذاك المضلـل ... باني حـــرب للعدا غير أفكـــل
أشن عليهـم غيرتــي وحميتــــي ... لديــن الهدى غارات أشرس مقتل
لوقع قريض في صميـم قلوبهـــم ... أشــــد عليهم من سنان ومنصـــل
أفــوق منه حين أنظر نحوهـــم ... مقاتـــل تصمى منهـــم كل مقتل
هم انحرفوا عن منهج الحق سالكي ... مهالـــك من تحريفهـم والتـــأول
لقد بريء الحبر ابن ادريس منهـم ... براءة موسى من يهـــود محـول

(وقال فيها) :

ويعقــد عند الشافعي يمين مــــن ... غــدا حالفـــا بالمصحف المتقبل
فهذا دليــل منه اذ كان لايرى أنـ ... عقادا بمخلـوق لخلـق مؤثــل
ومذهبــــه في الاستواء كمالـك ... وكالسلـف الابرار أهل التفضـل
وقل مستو بالذات من فوق عرشه ... ولا تقـل استولى فمن قال أبطـل
فذلك زنديق لقائــل قســوة ... لذي خطل راو لغث واعطـــل

وقد بان منــــه خلقه وهو بائــن من الخلق محض للخفي وللجلــــى
واقرب من حبـــل الوريد مفسر وما كـــان في معناه بالعلم فاعقــل
علا في سماء اللــه فــوق عبـــاده دليلك في القرآن غـــير مقلـــل
واثبات ايمـــان الجويرية اتخــذ دليـــلا عليه مسندا غير مرســل

وقال رحمه‌الله تعالى يهجوابن‌خنفر الجهمي الخبيث أولها :

اطـــع الهدى لا ما يقول العــذل فالحب ذوامر يجــور ويعـــــدل
واتبـــع اسلمى ما استطعت مسلما فالحسن ينصرهـــا وصبرك يخــذل
بيضــاء دون مرامهـــا لمحبهـــا بيض الصـــوارم والرماح الذبل
تخفــي فيعرفهـــا الوشـــاة بعرفها وتضيىء والاظـلام ستر مرســـل
تضحى الدماء لهجرها هدرا وهــل يخفـى قصاص القتـل طرف أكحل
كيــف البقـــاء لعاشـــق أودى به سهم اللحاظ وقــد أصيب المقتــل

(ومنهـــا) :

نبذ الكتاب وراء ظهر واغتــــدى شيـــخ الضلالة للصفـــات يعطـــل
وعقيدة الملعــون ان المصحـــف ال مكنـــــون منبـــوذ تطاه الارجــل
ما قـــالت الكفـــار مثـــل مقاله وكذا اليهــود ولا النصارى الضلل
آل الجحود بـــــه الى وادي لظــى للغايــة السفلـــى فبئس المونــــل
وزعمت ان الحنبلـــي مجســــم حاشـــا لمثـــل الحنبلي يمثـــل
بل يورد الاخبـــار اذ كانت تصحـ حها الــرواة عــن الثقـــاة وتنقــل
ان المهيمــــن ليس تمضي ليلـــة الا وفي الاسحـــار فيهـــا ينـــزل
قد قالهـــا خير الورى في ســــادة لم ينكروا هـــذا ولم يتأولـــوا
وتقبلوهـــــا مع غزارة علمهــــم أفأنت ام تلك العصابـــة أعقـــل

(وقال رحمه الله تعالى):

واهـــا لفــرط حرارة لاتبــــرد ولواعـــج بـــين الحشـــى تـــردد
في كل يـــوم سنـــة مدروســــة بـــين الانـــام وبدعـــة تتجـــدد
صدق النبي ولم يـــزل متسربـــلا بالصدق اذ يعــد الجميـــل ويوعد
اذ قـــال يفترق الضلال ثلاثـــــة زيـــدت على السبعين قولا يسند

وقضى بأسباب النجاة لفرقة … تسعى بسنته اليه وتحفد
فان ابتغيت الى النجاة وسيلة … فاقبل مقالة ناصح يتقلد
ايـاك والبدع المضلة انها … تهدي الى نار الجحيم وتورد
وعليك بالسنن المنيرة فاقفها … فهي المحجة والطريق الاقصد
فالا تثرون بمبدعات عقولهم … نبدوا الهدى فتنصروا وتهودوا
منهم اناس في الضلال تجمعوا … وبسب أصحاب النبي تفردوا
قد فرقوا جمع الهدى وجماعة الـ … ـسلام ثم تزندقوا وتسردوا
بالله ياأنصار دين محمد … نوحوا على الدين الحنيف وعددوا
لعبت بدينكم الروافض جهرة … وتألفوا في دحضه وتحشدوا
نصبوا حبائلهم بكل بلية … وتغلغلوا في المعضلات وشددوا
ورموا خيار الخلق بالكذب الذي … هم أهله لا من رموه وأفسدوا
نقضوا مراتب هن أشرف منصب … في الفخر من فاق السماء وأمجد
لمراتب الصديق جف لسانهم … يبغون وهي من التناول أبعد
أو ماهو السباق في غزو العدا … ولقد زكى من قبل منه المحتد
ولقد أشاد بذكره رب العلى … فبناؤه في المكرمات مسدد
نطق الكتاب بمجده الاعلى ففي … آي الحديد مناقب لاتنفد
لايستوي منكم وفيها مقنع … والليل يثبت فضله ويؤكد
وبراءة تثني بصحبته وهل … يهوى رفيع علاه الا ملحد
أو ماهو الاتقى الذي استولى على الـ … اخلاص طارف ماله والمتلد
لما مضى لسبيله خير الورى … وحوى شمائله صفيح ملحد
منع الاعاريب الزكاة لفقده … وارتد منهم حائر متردد
وتوقدت نار الضلال وخالطت … ابليس اطماع كوامن رصد
هذا أبو بكر بصدق عزيمة … وثبات ايمان ورأي يحمد
فتمزقت عصب الضلال وأشرقت … شمس الهدي وتقوم المتأود
أم رتبة الفاروق في اظهاره … للدين تلك فضيلة لاتجحد
وهو الموفق للصواب كانما … ملك يصوب قوله ويسدد
بوفاقه آي الكتاب تنزلت … وبفضله نطق المشفع أحمد
لو كان من بعدي نبيا كنته … خبرا صحيحا في الرواية مسند
وبعدله الامثال تضرب في الورى … وفتوحه في كل قطر يوجد

وتمـام فضلهمـا جوار المصطفى في تربـة فيها الملائك تحتشـد
وتعمقوا في سـب عثمان الـذي ألفـاه كفـوا لابنتيـه محمـد
ولبيعـه الرضوان مـد شمالـه عـوض اليمين وهـي منه أوكـد
وحبـاه في بدر بسهم مجاهـد اذ فاتـه بالعذر ذاك المشهـد
من هـذه من بعض غر صفاتـه ما ضـره ما قـال فيـه الحسـد
ثم ادعـوا حب الامـام المرتضـى هيهـات مطلبـه عليـه يبعـد
انى وقد جحدوا الدين بفضلهـم أثنى أبو الحسـن الامام السيد
ما في عـلاه مقالـه لمخلـف فمسائل الاجمـاع فيه تعقـد
ولنحـن أولى بالامـام وحبـه عقد نديـن به الاله مؤكـد
وولاؤه لا يستقيـم ببغضهـم واضرب لهم مثـلا يغيظ ويكمـد
مثل الدي جحد بن مريـم وأدعـى حب الكليم وتلك دعـوى تفسـد
وبقذف عائشـة الطهور تجشمـوا أمرا تظـل له الفرائص ترعـد
تنزيههـا في سبع عشـرة آيـة والرافضي بضـد ذلـك يشهـد
لو أن أمـر المسلميـن اليهـم لم يبـق في هذي البسيطة مسجد
ولو استطاعوا لسعت بمرامهـم قدم ولامتـدت بكفهم يـد
لم يبـق للاسـلام مابين الورى علم يشير ولا لـواء يعقـد
علقـوا بحبل الكفر واعتصموا بـه والعالقـون بحبله لم يسعـدوا
وأشدهم كفـرا جهـول يدعـى علم الاصـول وفاسـق متزهـد
فهما وان وهنـا أشـد مضـرة في الديـن من فـار السفين وأفسد
واذا سـألت فقيههـم عن مذهب فالى اعتزال في الشريعـة يلحـد
كالخـائض الرمضـاء أقلقه لظي منهـا ففر الى جحيم يوقـد
ان المقـال بالاعتـزال لخطـة عمياء حـل بهـا الغواة المـرد
هجموا على سبـل الهدى بعقولهم ليلا فعاثوا في الديـار وأفسدوا
صم اذا ذكـر الحـديث لديهـم نفـروا كان لم يسمعـوه وغـردوا
واضرب لهم مثل الحمـير اذا رأت أسد العريـن فهن منه شـرد
والجاحـد الجهمي أسـوأ منهما حالا وأخبث في القيـاس وأفسـد
أمسى لرب العرش قـال منزهـا من أن يكـون عليـه رب يعبـد
ونفى القران برأيه والمصحف الـ اعلى المطهـر عنده يتوسـد
واذا ذكـرت له على العرش استوى فالى هـو استولـى يحيد ويخلـد

فالى من الايدي تمد تضرعا | وباى شيء في الدجى يتهجد
ومن الذي هو للقضاء منزل | واليه أعمال البرية تصعد
وبما تنزل جبرئيل مصدقا | ولاي معجزة الخصوم تبلد
ومن الذي استولى عليه بقهره | ان كان فوق العرش ضد أيد
جلت صفات الحق عن تأويلهم | وتقدست عما يقول الملحد
لما بغوا تنزيهه بقياسهم | ضلوا وفاتهم الطريق الارشد
ويقول لاسمع ولا بصر ولا | وجه لربك ذي الجلال ولا يد
من كان هذا وصفه لالهه | فاراه للاصنام سرا يسجد
الحق أثبتها بنص كتابه | ورسوله وغدا المنافق يجحد
فمن الذي أولى باخذ كلامه | جهم او الرحمن قولوا وارشدوا
والصحب لم يتأولوا لسماعها | فهم الى التأويل ام هو أرشد
هو مشرك ويظن جهلا أنه | في نفي أوصاف الاله موحد
يدعو منا تبع الحديث مشبها | هيهات ليس مشبها من يسند
لكنه يروى الحديث كما أتى | من غير تأويل ولا يتأود
واذا العقائد بالضلال تخالفت | فعقيدة المهدي أحمد أحمد
هي حجة الله المنيرة فاعتصم | بحبالها لايلهينك مفسد
ان ابن حنبل اهتدى لما اقتدى | ومخالفوه لزيغهم لم يهتدوا
مازال أحمد يقتفى أثر الهدى | ويروم أسباب النجاة ويجهد
حتى ارتقى في الدين اشرف ذروة | مافوقها لاخي التقاء مصعد
نصر الهدى اذ لم يقل مالم يقل | في فتنة نيرانها تتوقد
ماصده ضرب السياط ولا ثنى | عزماته ماضي الغرار مهند
لهواه حبا ليس فيه تعصب | لكن محبة مخلص يتودد
ووادادنا للشافعي ومالك | وابي حنيفة ليس فيه تردد

أقول : سيأتي في الكلام على ما استدل به النبهاني في (باب الاستغاثة) من شعر الصرصري أن مثله لايجوز أن يكون مستندا في العقائد الدينية فكيف يورد كلامه للاستدلال به في هذا المقام •

فالجواب أن يقال : قد علم ان كلام الله ورسوله صلى الله عليهوسلم وسائر أنبيائه وأصحابهم والتابعين لهم باحسان هو الحجة والبرهان ، فذكر أقوال أهل

العلم وشعر بعض الشعراء لا للاحتجاج بها بل لبيان ان جميع العقلاء على ماذكرنا ، وليعلم الخصم أن أهل الاثبات اولى بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وأهل الاسلام وطبقات أهل العلم والدين من الجهمية والمعطلة ، وليعرف جنود الاسلام والسنة وامراؤها وحزب البدع والتجهم ليتحيز المقاتل الى الطائفتين على بصيرة من أمره ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ، ولهذا قال الحافظ بن القيم ــ بعد ماأورد ماذكرناه ــ وهذا باب واسع جدا لايتسع لذكره مجلد كبير ، ويكفي أن شعراء الجاهلية مقرة به على فطرتهم الاولى ، كما قال عنترة في قصيدته :

يا عبل اين من المنية مهرب   ان كان ربي في السماء قضاها

(ثم ذكر قول) الفلاسفة المتقدمين والحكماء الاولين ، فانهم كانوا مثبتين لمسألة العلو والفوقية مخالفين لارسطو وشيعته ، وأتى بنصهم لاجل ماذكرنا للاستدلال ، ثم ان من المعلوم انه لايلزم من مدح شخص وحمده من جهة ان يكون ممدوحا محمودا من كل جهة ، بل لايلزم من الحكم عليه بالاسلام أو الايمان ان لايحكم عليه بما يوجب نقص ايمانه وخلل اسلامه ، ويقتضي تأثيمه ببعض السيئات وعقابه عليها .

(والمقصود) أن ماذكره النبهاني واضرابه من الجهلة ، وما هذى به الشيخ شهاب الدين الحلبي : مخالف للكتاب والسنة ، وأقوال الصحابة ، والتابعين ، وتابعي التابعين ، والمجتهدين ، وأئمة المسلمين ، ومشاهير اتباعهم ،والعقلاء ، واتباع من سبق من الانبياء ، والشعراء، وأئمة اللغة ، والفلاسفة الاولى ، وجاهلية العرب ، ويكفي ذلك بطلانا لقولهم وافكهم وخزيا لهم بين أهل العقول .

ولو أخذنا تتكلم على ما اشتمل عليه كلامهم من المفاسد لطال الكلام جدا، وما ذكرناه كاف لمن أخذت العناية بيديه ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ، نسأله تعالى أن يبصرنا في أمورنا انه ذو الفضل العميم ، والمن الجسيم ، وهو المعطي قبل السؤال ، والعالم بالاحوال .

(قال النبهاني)ولنرجع الى الكلام على كتب ابن تيمية ، قال : فمنها الكتب الاربعة المذكورة سابقا ، وهي (الجواب الصحيح في الرد على من بدل دين المسيح) ومنها كتاب (منهاج السنة) . ومنها كتاب (العقل والنقل) وقد رد به على أهل

السنة والجماعة من المسلمين الاشاعرة والماتريدية وغيرهم من الفرق الاخرى ، ومنها كتاب (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) وقد رد به على خلاصة المسلمين من الاولياء والعارفين .

اذا علمت ذلك تعلم أنه مثل ابن حزم لم يسلم من قلمه أحد ، وقد رد عليه الامام السبكي فيما رد به على كتبه بابيات مدح فيها كتابه (منهاج السنة) واعترض عليه ببعض بدعه ، فتصدى للتشنيع على السبكي بذلك والرد عليه بعض الحشوية ممن هو على عقيدة ابن تيمية ، أحدهما حنبلي والآخر فيما زعم شافعي ، الى أن قال : نظم كل منهما في ذلك قصيدة طويلة في أكثر من مائة بيت ، فيها العجر والبجر ، والتحامل على الامام السبكي بما لا ينبغي أن يصدر من مسلم فضلا عن عالم ، وقد رأيت أن أتتصف منهما وأقابلهما بعملهما ، جاعلا محط نظري اثبات الحق ودحض الباطل ، وبيان المذهب الصحيح من المذهب العاطل ، فنظمت هذه القصيدة من البحر والقافية ، وقد أثبت فيها استحالة الجهة على الله تعالى بدلائل ظاهرة باهرة ، وتعرضت لجواز الاستغاثة والشد للرحل لزيارته صلى الله عليه وسلم بما لا يأباه عقل ولا يمنعه نقل ، رادا على من يخالف ذلك ، ثم ذكر القصيدة وهي نحو مائة وثلاثة وخمسين بيتا ، قال في أولها :

الحمد لله حمدا استعد به — لنصرة الحق كي احظى بمطلبه
بك استعنت الهي عاجزا فاعن — ابغى رضاك فاسعفني باطيبه
وانني عالم ضعفي ولا عمل — عندي يفيد ولا علم أصول به

وكلها على هذا المنوال من الشعر الركيك ، ولولا الحرص على نفيس العمر أن يذهب سدى لنقلناها في هذا المقام ، ولكنا نزهنا القلم من نقلها وصنا وجه القرطاس عن تلك الاوهام ، وقد ذكر هو ما اشتملت عليه قصيدته .

(يقال للنبهاني أولا) : قد تكلمنا سابقا على مايتعلق بكتب الشيخ كلاما يكتفي به اللبيب والذكي الاديب ، وقوله عن كتاب (العقل والنقل) انه رد به على أهل السنة الخ كلام لامعنى له ، فانه لم يرد على أهل السنة بل رد عنهم كما هو شأنه في كل كتاب من كتبه ، انما رد على من استدل على حدوث العالم بحدوث الاجسام ، واثبت حدوث الاجسام بدليل الاعراض والحركة والسكون ، والاجسام مستلزمة لذلك لاتنفك عنه ، ومالا يسبق الحوادث فهو حادث ، وبنى ذلك على

حوادث لا أول لها ، ولم يكن في الصحابة والتابعين من استدل بهذا الدليل ، بل أول ماظهر هذا الكلام في الاسلام بعد المائة الاولى من جهة الجعد بن درهم بن صفوان ، ثم صار الى عمرو بن عبيد كابي الهذيل العلاف (١) وأمثاله •

وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء انما كانا يظهران الكلام في انفاذ الوعيد ، وأن النار لايخرج منها من دخلها ، وفي التكذيب بالقدر ، وهؤلاء ومن وافقهم على اعتقادهم رد عليهم شيخ الاسلام •

وأما الاشعري فلا ريب عنه أنه كان تلميذا لابي علي الجبائي ، لكنه فارقه ورجع عن جمل مذهبه وان كان قد بقي عليه شيء من أصول مذهبه لكنه خالفه في نفي الصفات ، وسلك فيها طريقه ابن كلاب ، وخالفهم في القدر ومسائل الايمان والاسماء والاحكام ، وناقضهم في ذلك أكثر من مناقضة حسين النجار وضرار بن عمرو ونحوهما ممن هو متوسط في هذا الباب ، كجمهورالفقهاء ، وجمهور اهل الحديث ، حتى مال في ذلك الى قول جهم ، وخالفهم في الوعيد ، وقال بمذهب الجماعة ، وانتسب الى مذهب أهل الحديث والسنة كاحمد بن حنبل وأمثاله ، وبهذا اشتهر عند الناس ، فالقدر الذي يحمد من مذهبه هو ماوافق فيه أهل السنة والحديث كالجمل الجامعة ، وأما القدر الذي يذم من مذهبه فهو ماوافق فيه بعض المخالفين للسنة والحديث من المعتزلة والمرجئة والجهمية والقدرية ونحو ذلك ، وأخذ مذهب أهل الحديث عن زكريا بن يحيى الساجي بالبصرة ، وعن طائفة ببغداد من أصحاب احمد وغيرهم ، وذكر في المقالات ما اعتقد أنه مذهب أهل السنة والحديث ، وقال : بكل ماذكرنا من قولهم نقول واليه نذهب ، وهذا المذهب هو من أبعد المذاهب عن مذهب الجبرية والقدرية ، وآخر ماصنف من الكتب كتاب (الابانة) وقد ذكر فيه انه على مذهب أهل الحديث واعتقادهم ، وقد خالفه كثير من الاشعرية في كثير من المسائل •

(والمقصود) أن الشيخ انما رد في كتاب (العقل والنقل) بل وفي سائر كتبه على من خالف أهل السنة الذين تمسكوا بالكتاب وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وموضوع كتاب (العقل والنقل) أن الشريعة الغراء كاملة مكملة لاحاجة لها الى ماستحدثوه من القواعد المناقضة للشريعة ، وأن نصوص الشريعة تفيد اليقين ، وأنها مقدمة على تلك القواعد ، وأن النصوص لاتؤول لتلك القواعد اذا

---

(١) كذا عبارة الاصل وكان فيه سقط .

خالفتها ، واستدل على ذلك بنحو تسعة عشر دليلا •

والنبهاني ليس ممن يحسن قراءة عبارتها فضلا عن فهم معانيها ، وادراك مافيها فلذلك اعترض بما اعترض •

(ويقال ثانيا) ان النبهاني ذكر عن كتاب الفرقان أنه قد رد به على خلاصة المسلمين من الاولياء والصالحين ، وهو كلام من لم يعرف الولاية ولادرى معنى الايمان والاسلام ، والشيخ قدس الله روحه قد فرق في هذا الكتاب بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان فرقا واضحا يعرفه من له أدنى المام بالعلم ، ومداره على الاتباع والابتداع فمن اتبع في أقواله وأفعاله ما جاءت به الشريعة فذاك من أولياء الرحمن ، ومن خالف في ذلك فهو من أولياء الشيطان ، وان طار في الهواء أو مشى على وجه الماء •

وأما ابن عربي صاحب (فصوص الحكم) و (الفتوحات المكية) فقد سلك مسلك القرامطة والباطنية الذين زاغوا عن الشريعة ، ولهذا ادعى أنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به الى الانبياء ، والنبي عنده يأخذ من الملك الذي يوحي به الى الرسل ، لأن النبي عنده يأخذ من الخيالات التي تمثلت في نفسه لما صورت له المعاني العقلية في الصورة الخيالية ، وتلك الصورة عنده هي الملائكة ، وهي بزعمه تأخذ عن عقله المجرد قبل أن تصير خيالا ، ولهذا يفضل الولاية على النبوة ويقول :

مقام النبوة في برزخ   فويق الرسول ودون الولي

والولى على أصله الفاسد يأخذ عن الله بلا واسطة ، لانه يأخذ عن عقله وهذا عندهم هو الآخذ عن الله بلا واسطة ، اذ ليس عندهم ملائكة منفصلة تنزل الوحي ، والرب عندهم ليس هو موجودا مباينا للمخلوقات ، بل وجود مطلق أو مشروط بنفي الامور الثبوتية عن الله ، أو نفي الامور الثبوتية والسلبية ، وقد يقولون هو وجود المخلوقات أو حال فيها أولا هذا ولا هذا ، فهذا عندهم غاية كل رسول • ومبني النبوة عندهم الاخذ عن القوة المتخيلة التي صورت المعاني العقلية في المثل الخيالية ، ويسمونها القوة القدسية ، فلهذا جعلوا الولاية فوق النبوة ، وهؤلاء من جنس القرامطة الباطنية الملاحدة ، لكن هؤلاء ظهروا في قالب التصوف والتنسك ودعوى التحقيق وأمثال ذلك ، وأولئك ظهروا في قالب التشيع والموالاة ، فأولئك يعظمون شيوخهم حتى يجعلوهم أفضل من الانبياء ، وقد يعظمون الولاية حتى يجعلوها أفضل من النبوة ، وهؤلاء يعظمون أمر الامامة حتى

قد يجعلون الأئمة أعظم من الانبياء ، والامام أعظم من النبي كما يقوله الاسماعلية ، وكلاهما يباطنان الفلاسفة الذين يجعلون النبي فيلسوفا ، ويقولون انه يختص بقوة قدسية ، ثم منهم من يفضل النبي على الفيلسوف ، ومنهم من يفضل الفيلسوف على النبي ، ويزعمون أن النبوة مكتسبة ، ويقولون : انالنبوة عبارة عن ثلاث صفات من حصلت له فهو نبي : أن يكون له قوة قدسية حدسية ينال بها العلم بلا تعلم ، وأن تكون نفسه قوية لها تأثير في هيولى العالم ، وأن يكون له قوة يتخيل بهامايعقله ومزينا في نفسه ومسموعا في نفسه ، هذا كلام ابن سينا وأمثاله في النبوة ، وعنه أخذ ذلك الغزالي في كتبه المضنون بها على غير أهلها ، وهذا القدر الذي ذكروه يحصل لخلق كثير من آحاد الناس ومن المؤمنين ، وليس هو من أفضل عموم المؤمنين فضلا عن كونه نبيا ، وهؤلاء قالوا هذا لما احتاجوا في الكلام في النبوة على أصول سلفهم الدهرية القائلين بأن الافلاك قديمة أزلية لامفعولة لفاعل بقدرته واختياره وأنكروا علمه بالجزئيات ونحو ذلك من أصولهم الفاسدة فتكلم هؤلاء في النبوة على أصول أولئك .

وأما القدماء أرسطو وأمثاله فليس لهم في النبوة كلام محصل ، فالواحد من هؤلاء يطلب أن يصير نبيا كما كان السهر وردي المقتول يطلب أن يصير نبيا ، وكان قد جمع بين النظر والتأله ، وسلك نحوا من مسلك الباطنية ، وجمع بين فلسفة الفرس واليونان ، وعظم أمر الانوار ، وقرب دين المجوس الاول ،وهي نسخة الباطنية الاسماعيلية ، وكان له يد في السحر والسيمياء ، فقتله المسلمون على الزندقة بحلب في زمان صلاح الدين .

وكذلك ابن سبعين الذي جاء من المغرب الى مكة وكان يطلب ان يصير نبيا ، وجدد غار حراء الذي نزل فيه الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم ابتداء ، وحكى عنه أنه كان يقول : لقد رددت ابن آمنة حيث قال لانبي بعدي ، وكان بارعا في الفلسفة وفي تصوف المتفلسفة وما يتعلق بذلك ، وهو وابن عربي وأمثالهما كالصدر القونوي وابن الفارض والتلمساني منتهى أمرهم القول بوحدة الوجود ، الواجب القديم الخالق هو الوجود الممكن المحدث المخلوق ماثم لاغير ولا سوى ، لكن لما رأوا تعدد المخلوقات صاروا تارة يقولون مظاهر ومجالي ، فاذا قيل لهم فان كانت المظاهر أمرا وجوديا تعدد الوجود والا لم يكن لها حينئذ حقيقة وما هو نحو هذا الكلام الذي يبين أن الوجود نوعان خالق ومخلوق : قالوا نحن ثبت عندنا في الكشف ماينافض صريح العقل ، ومن أراد أن يكون محققا مثلنا فلا بد أن يلتزم الجمع بين

النقيضين ، وأن الجسم الواحد يكون في وقت واحد في موضعين ، وهؤلاء الاصناف قد بسط الكلام عليهم شيخ الاسلام في غير موضع ، فان هؤلاء يكثرون في الدول الجاهلة ، وعامتهم تميل الى التشيع ـ كما عليه ابن عربي وابن سبعين وأمثالهما ـ فاحتاج الناس الى كشف حقائق هؤلاء وبيان أمورهم على الوجه الذي يعرف به الحق من الباطل ، فان هؤلاء يدعون في أنفسهم أنهم أفضل أهل الارض ، وأن الناس لايفهمون حقيقة اشاراتهم .

قال شيخ الاسلام رحمه الله : فلما يسر الله اني بينت لهم حقائقهم وكتبت في ذلك من المصنفات ماعلموا به ان هذا هو تحقيق قولهم وتبين لهم بطلانه بالعقل الصريح والنقل الصحيح والكشف المطابق : رجع عن ذلك من علمائهم وفضلائهم من رجع ، وأخذ هؤلاء يثبتون للناس تناقضهم وبراءتهم من الحق ، وكان من أصول ضلالهم ظن ان الوجود المطلق يوجد في الخارج ، فان الذي يوجد في الخارج مقيدا معينا هو مطلق في الذهن مقيد في الخارج ، وأما من زعم أن في الذهن شيئا مطلقا وهو مطلق حال تحققه في الخارج فهو غالط غلطا ضل فيه كثير من أهل المنطق والفلسفة ، وأما المطلق بشرط الاطلاق فهو الوجود المقيد بسلب جميع الامور الثبوتية والسلبية، كما يوجد الانسان مجردا عن كل قيد ، فاذا قلت موجود أو معدوم أو واحد أو كثير أو في الذهن أو في الخارج كان ذلك قيدا زائدا على الحقيقة المطلقة بشرط الاطلاق ، وهكذا الوجود تأخذه مجردا عن كل قيد ثبوتي وسلبي ، فلا تصفه لا بالصفات الثبوتية ولا السلبية ، وهكذا واجب الوجود عند أئمة الباطنية كابي يعقوب السجستاني صاحب الاقاليد الملكوتية وغيره ، لكن من هؤلاء من لايعرف برفع النقيضين فيقول لاموجود ولا معدوم ، ومنهم من يقول بل امسك عن اثبات أحد النقيضين فلا أقول موجود ولا معدوم كابي يعقوب ، وهو منتهى تجريد هؤلاء القائلين بوحدة الوجود .

وابن سينا وأتباعه يقولون الوجود الواجب هو الوجود المقيد بسلب الامور الثبوتية دون السلبية ، وهذا أبعد عن الوجود في الخارج من المقيد بسلب الوجود والعدم وان كان ذلك ممتنعا في الموجود والمعدوم . قال : فقلت لاولئك المدعين للتحقيق أنتم بنيتم أمركم على القوانين المنطقية وهذا الوجود المطلق بشرط الاطلاق المقيد بسلب النقيضين عنه لايوجد في الخارج باتفاق العقلاء ، وانما يقدر في الذهن تقديرا ، والافاذا قدرنا انسانا مطلقا واشترطنا فيه ان لايكون موجودا ولا معدوما

ولا واحدا ولا كثيرا لم يوجد في الخارج ، بل نفرض في الذهن كما نفرض الجمع بين النقيضين ، ففرض رفع النقيضين كفرض الجمع بين النقيضين ، ولهذا كان هؤلاء تارة يصفونه بالجمع بين النقيضين او الامساك عنهما كما يفعل ابن عربي وغيره كثيرا ، وتارة يجمعون بين هذاوهذا كما يوجد أيضا في كلام أصحاب البطاقة وغيرهم ، فاذا قالوا مع ذلك انه مبدع العالم وشرطوا فيه ان لايوصف بثبوت ولا انتفاء كان تناقضا ، فان كونه مبدعا لايخرج عن هذا وهذا ، وكذلك اذا قالوا موجود واجب وشرطوا فيه التجريد عن النقيضين كان تناقضا ،وحقيقة قولهم موجود لاموجود ، وواجب لاواجب ، وهذا منتهى أمرهم ، وهو الجمع بين النقيضين أو رفع النقيضين ، ولهذا يصيرون الى الحيرة ويعظمونها ، وهي عندهم منتهى معرفة الانبياء والاولياء والائمة والفلاسفة .

(ومن أصول ضلالهم) ظنهم أن هذا تنزيه عن التشبيه وانهم متى وصفوا بصفة اثبات أو نفي كان فيه تشبيه بذلك، ولم يعلموا أن التشبيه المنفي عن الله هو ماكان وصفه بشيء من خصائص المخلوقين ، أو أن يجعل شيء من صفاته مثل صفات المخلوقين بحيث يجوز عليه مايجوز عليهم ، أو يجب له مايجب لهم ، أو يمتنع عليه مايمتنع عليهم مطلقا ، فان هذا هو التمثيل الممتنع المنفي بالعقل مع الشرع ، فيمتنع وصفه بشيء من النقائص ، ويمتنع مماثلة غيره له في شيء من صفات الكمال ، فهذان جماع لما ينزه الرب تعالى عنه ، وعلى هذا وهذا دل قوله تعالى :

(قُلْ هوَ اللهُ أَحدٌ اللَّهُ الصَّمدُ لم يلِدْ ولمْ يُولَدْ ولمْ يكُنْ لهُ كُفُواً أَحدٌ)

(فأما الموافقة) في الاسم كحي وحي وموجود وموجود وعليم وعليم فهذالابدمنه، ويلزم من هذا التعطيل المحض ، فان كل موجودين قائمين بانفسهما ، فحينئذ لابد أن يجمعهما اسم عام ، لكن المعنى القائم لايوجد عاما الا في الذهن لا في الخارج ، فاذا قيل هذا الموجود وهذا الموجود مشتركان في مسمى الوجود كان ما اشتركا فيه لايوجد مشتركا الا في الذهن لافي الخارج ، وكل موجود فهو يختص بنفسه ، وصفات نفسه لايشركه غيره في شيء من ذلك في الخارج ، وانما الاشتراك هو نوع من التشابه والاتفاق ، والمشترك فيه الكلي لايوجد كذلك الا في الذهن ، فاذا وجد في الخارج لم يوجد الا متميزا عن نظيره لايكون هو اياه ولا هما في الخارج مشتركان في شيء في الخارج ، فاسم الخالق اذا وافق اسم المخلوق كالموجود والحي ــ وقيل أن هذا الاسم عام كلي وهو من الاسماء المتواطئة أو المشككة ــ لم

يلزم من ذلك أن يكون ما يتصف به الرب من مسمى هذا الاسم قد شاركه فيه المخلوق ، بل ولايكون مايتصف به أحدالمخلوقين من مسمىهذا الاسمقد شاركهفيه مخلوق آخر ، بل وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه ، لكن مايتصف به المخلوق قد يماثل مايتصف به المخلوق ويجوز على أحد المثلين مايجوز على الآخر •

وأما الرب سبحانه وتعالى فلا يماثله شيء من الاشياء في شيء من صفاته،بل التباين الذي بينه وبين كل واحد من خلقه في صفاته أعظم من التباين الذيبين أعظم المخلوقات وأحقرها •

وأما المعنى الكلي العام المشترك فيه فذاك كما ذكرنا لا يوجد كليا الا في الذهن• واذا كان المتصفان به بينهما نوع موافقة ومشاركة ومشابهة من هذا الوجه فذاك لامحذور فيه ، فان مايلزم ذلك القدر المشترك من وجوب وجواز وامتناع فان الله متصف به ، فالموجود من حيث هو موجود أو العليم أو الحي مهما قيل أنه يلزمه من وجوب وامتناع وجواز فالله موصوف به ، بخلاف وجود المخلوق وحياته وعلمه فان الله لايوصف بما يختص به المخلوق من وجوب وجواز واستحالة ، كما ان المخلوق لايوصف بما يختص به الرب من وجوب وجواز واستحالة ، فمن فهم هذا انحلت عنه اشكالات كثيرة يعثر فيها كثير من الاذكياء الناظرين في العلوم الكلية ،والمعارف الالهية •

(ثم ذكر) القول الثاني من أقوالهم في الوجود الواجب وهو قول ابن سينا وأتباعه ، وهو انه الوجود المقيد بأن لايعرض له شيء من الماهيات ، وأطال الكلام في بيانه وما يرد وليس لنا غرض بذكره •

والمقصود : هو القول الاول الذي ذكرناه ، وهو المطلق بشرط الاطلاق عن النفي والاثبات ، وهو أكملها في التعطيل والالحاد ، وهو الذي قال به محيي الدين واضرابه ، وذكره في فصوصه مع أقوال أخر غاية في البشاعة ، وهل يجوز لمتشرع أن يجعل من قال بقول القرامطة من الاولياء ويعترض على من اعترض عليه ويبدعه؟•

وقد نظم العلامة قاضي اليمن شرف الدين الشيخ اسمعيل بن ابي بكر المعروف بابن المقري الشافعي قصيدة غراء في أحوال من قال بوحدة الوجود وكتبهم فقال :

الا يارسول الله غارة ثائر	غيور على حرماته والشعائر
يحاط بها الاسلام ممن يكيده	ويرميه من تلبيسه بالبواتر
فقد حدثت في المسلمين حوادث	كبار المعاصي عندها كالصغائر

حوتهن كتب حـارب الله ربهـا وغربهـا من غربين الحواضـر
تجاسر فيها ابن العرابـي واجترا على اللـه فيما قـال كل التجاسـر
فقـال بان الرب والعبـد واحد فربـى مربـوب بغـير تغايـر

(الى أن قال) :

كما ضل في التهليل جهرا بنفسـه واثبـاته مستجهـلا للمغـاير
وقال الذي ينفيه عـين الذي أتـى بـه مثبتا لاغيـر عند التحاور
فافسد معنى ما به الناس أسلمـوا والغـاه الغـا بينـات التهاتـر
فسبحان رب العرش عما يقولـه أعاذبه من مثـل هذي الكبائـر
فقـال عذاب الله عـذب وربنـا ينعـم في نيرانـه كـل فاجـر
وقال بأن الله لم يعص في الـورى فمـا ثم محتـاج لعـاف وغـافر
وقـال مـراد الله وفـق لأمره فما كافـر الا مطيـع الاوامـر
وكل امرىء عند المهيمن مرتضـى سعيد فما عـاص لديـه بخاسـر
وقـال يموت الكافرون جميعهـم وقد آمنـوا غير المفاجي المبـادر
وما خص بالايمـان فرعون وحده لدى موته بل عـم كل الكوافـر
فكذبه ياهـذا تكن خير مؤمـن والا فصدقـه تكن شر كافـر
واثنى على من لم يجب نوحا اذ دعا الى تـرك ود أو سـواع وناسـر
وسمى جهولا من يطـاوع أمـره على تركهـا قول الكفور المجاهر
ولـم يـر بالطـوفان أغراق قومه ورد علـى من قـال رد المناكـر
وقـال بلى قد أغرقـوا في معارف من العلـم والبـارى لهم خير ناصر
كمـا قال فازت عاد بالقـرب واللقا من الله في الدنيـا وفي اليو الآخـر
وقد اخبرالبـاري بلعنته لهـم وابعادهـم فاعجب له من مكابـر
وصـدق فرعـون وصحح قوله انا الرب الاعلى وارتضى كل سامري
واثنى على فرعون بالعلم والذكـا وقـال بموسى عجلـة المتبـادر
وقـال خليـل الله في الذبح واهم ورؤيـا ابنه يحتاج تعبيرعابـر
يعظم أهل الكفـر والانبيـاء لا يعاملهم الا بحـط المقـادر
ويثني على الاصنام خيـرا ولا يرى لهـا عابدا ممن عصـى أمر آمر
وكـم من جرآت على الله قالها وتحريف آيـات بسـوء تفاسـر
ولـم يبق كفر لم يلابسه عامـدا ولم يتورط فيـه غير محـاذر

وقال سيأتينا من الصين خاتم … من الاولياء للاولياء الأكابر
له رتبة فوق النبي ورتبة … له دونه فاعجب لهذا التنافر
فرتبته العليا يقول لأخذه … عن الله وحيا بتوسيط آخر
ورتبته الدنيا يقول لانه … من التابعين للامور الظواهر
وقال اتباع المصطفى ليس واضعا … لمقداره الاعلى وليس بحاقر
فان يدن منه لاتباع فانه … يرى منه أعلى من وجوه افاجر
يرى حال نقصان له في اتباعه … لاحمد حتى جا بهذي المعاذر
فلا قدس الرحمن شخصا يحبه … على مايرى من فتح هذي المخابر
وقال بأن الانبياء جميعهم … بمشكاة هذا تستضي في الدياجر
وقال فقال الله لي بعد مدة … بأنك أنت الختم رب المفاخر
اتاني ابتداء بيض اسطر ربنا … بانفاذه في العالمين أوامري
وقال ولا تشغلك عني ولاية … وكن كل شهر طول عمرك زائري
فرفدك اجزلنا وقصدك لم يخب … لدينا فهل أبصرت ياابن الاحافر
باكذب من هذا واكفر في الورى … واجرا على غشيان هذي الفواطر
فلا يدعى من صدقوه ولاية … وقد ختمت فليأخذوا بالاقادر
فيالعباد الله ما ثم ذو حجى … له بعض تمييز بقلب وناظر
اذا كان ذو كفر مطيعا كمؤمن … فلا فرق فينا بين بر وفاجر
كما قال هذا ان كل أوامر … من الله جاءت فهي وفق المقادر
فلم تنبعث رسل وسنت شرائع … وانزل قرآن بهذي الزواجر
أيخلع منكم ربقة الدين عاقل … بقول غريق في الضلالة جائر
ويترك ماجاءت به رسل الهدى … لاقوال هذا الفيلسوف المعاذر
فيامحسني ظن بما في فصوصه … ومافي فتوحات الشرور الدوائر
عليكم بدين الله لاتصحبوا غدا … مساعر نار قبحت من مساعر
فليس عذاب الله عذبا كمثل ما … يمنيكم بعض الشيوخ المدابر
ولكن اليم مثل ما قال ربنا … به الجلد ان ينضج يبدل بآخر
غدا تعلمون الصادق القول منهما … اذا لم تتوبوا اليوم علم مباشر
ويبدو لكم غير الذي يعدونكم … بأن عذاب الله ليس بضائر
ويحكم رب العرش بين محمد … ومن سن علم الباطل المتهاتر
ومن جا بدين مفتري غير دينه … فاهلك اغمارا به كالاباقر

فلا يخدعن المسلمين عن الهـــدى — وما للنبـــي المصطفـى من مآثـر
ولايؤثروا غير النبـي على النبـي — فليس كنـور الصبح ظلم الدياجر
دعـــوا كل ذي قول لقول محمد — فمـــا آمـن في دينـه بمخاطـر
وامـا رجالات الفصوص فانهـــم — يقومون في بحـر من الكفـر ظاهر
اذا راح بالربـح المتابـع أحمـدا — علـى هذه راحـوا بصفقة خاسـر
سيحكي لهم فرعـون في دار خلده — باسلامـــه المقبـول عند التحاور
ويا أيها الصوفي خف من فصوصـه — خواتـــم سوء غيرهـا في الخناصر
وخـــذ نهج سهل والجنيد وصالح — وقـــوم مضوا مثل النجوم الزواهر
على الشرع كانوا ليس فيهم لوحدة — ولا لحلـول الحـق ذكر لذاكـر
رجـال رأوا ما الدار دار اقامـــة — لقـــوم ولكـــن بلغة للمسافـر
فاحيـــوا لياليهم صـــلاة وبينوا — بها خوف رب العرش صوم البواكر
مخافة يـــوم مستطـــير بشـــره — عبوس المحيا قمطريـر الظواهـــر
فقــد نحلت أجسادهم واذابهـــا — قيام لياليهم وصـــوم الهواجـر
أولئك أهل الله فالـــزم طريقهـم — وعد عن دواعي الابتداع الكوافـر

وكثير من أهل العلم ردوا على الشيخ محيي الدين ، وبينوا خطأه فيما قـال في الفصوص والفتوحات وسائر كتبه من المسائل المناقضة للشريعة ، وسيأتي بعض ذلك ان شاء الله عندما يكرر النبهاني كلامه كما هي عادته ، والله ينتقم منه ، فهـو الذي تسبب الى الخوض في هذه المباحث المفروغ عنهـا ، وأسأله تعالى أن يغفـر لنا ولكافة المسلمين •

وتشبيه النبهاني لشيخ الاسلام بابن حزم يفهم منه انه لم يرتض ابن حزم وهو الشيخ الجليل الشأن ، أوحد عصره في العلم والزهد ، صاحب التصانيف المفيـدة ، وما كان ذنبه سوى بيان مفاسد الاشاعرة واضرابهم ، وكلامه على من خالف السنة ، وربما صدر منه بعض الخطأ اجتهادا •

ومن ذا الذي ترضـى سجاياه كلها — كفى المرء نبـلا أن تعد معائبـــه

ولا ينبغي من مثل النبهاني من الجهلة أن يتجاسر على من يبارى امامه فـــي العلم والزهد ، ولكنه قد اتخذ الوقاحة ديدنا قاتله الله ماأجهله وما أحمقه •

(ويقال للنبهاني ثالثا) اذ تصدى لمعارضة القصيدتين الفريدتين (احداهمـا)

للشيخ الامام العالم العلامة الحافظ ذي الفنون البديعة والمصنفات النافعة أبو المظفر يوسف بن محمد بن مسعود بن محمد بن علي بن ابراهيم العبادي ثم العقيلي السرمري نزيل دمشق الحنبلي ، وقد عارض بها الابيات التي كتبها السبكي التي أنشدها لما وقع نظره على كتاب (منهاج السنة) واستعرت في قلبه نيران الحسد .

(والاخرى) للشيخ الامام العلامة أبي عبد الله محمد بن جمال الدين يوسف الشافعي اليمني ، رد فيها على السبكي فيما قاله في ابياته تلك من الرد على شيخ الاسلام ابن تيمية ، وكلا القصيدتين قد اشتملتا من الفصاحة والبلاغة على منتهاهما مع مافيهما من الرد الوافي على السبكي ، فلو رآهما لبقي مدة عمره يبكي ، والقصيدتان طبعتا مع كتاب (منهاج السنة) فلا حاجة لنا في ذكرهما مع كون كثير من طلبة العلم يحفظونهما .

مادخولك أيها النبهاني بين الفرسان ؟ وأنت لاتقاوم لمزيد جهلك الصبيان ؟ قد عارضت بزعمك القصيدتين ، وأتيت بما لم يتكلم به ابن يومين ، اين السمك من السماك ؟ واين الحصى من درر الاسلاك ؟ واين نار الحباحب من بدور الافلاك ؟ قد مثلت ولكن كما مثل النجوم الماء ، وكما انعكس في الغدير لون السماء ، لقد حكيت ولكن فاتك الشنب ، وفي الخمر معنى ليس يدرك من العنب .

(واعلم أيها الناظر) ان الشعراء على أربع طبقات جمعها بعض أهل الادب من العلماء في قوله :

الشعراء فاعلمن اربعه   فشاعر لاترتجى لمنفعه
وشاعر ينشد وسط المجمعه   وشاعر يقال حمر في دعه
وشاعر آخر لايجرى معه

وقد قيل لايزال المرء مستورا وفي مندوحة مالم يصنع شعرا أو يؤلف كتابا ، لان شعره ترجمان علمه ، وتأليفه عنوان عقله ، وقال حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه :

وان أشعر بيت أنت قائله   بيت يقال اذا أنشدته صدقا
وانما الشعر لب المرء يعرضه   على المجالس ان كيسا وان حمقا

وقال محمد بن مناذر وكان اماما في الفضل والادب :

لاتقل شعرا ولا تهمم به   فاذا ماقلت شعرا فاجد

وقال دعبل الخزاعي :

ساقضي ببيت يحمد الناس أمـــره ... ويكثـــر من أهـل الرواية حامله
يمـوت رديء الشعر من قبل أهله ... وجيده يبقـــى وان مات قائلـه

وقالوا أيضا الشعراء اربعة : فشاعر خنذيذ وهو الذي يجمع الى جودة شعـره رواية الجيد من شعر غيره ،وشاعر مفلق وهو الذي لارواية له الا انه مجود كالخنذيذ في شعره ، وشاعر فقط وهو فوق الرديء بدرجة ، وشعرور وهو لاشيء . وقيل : بل هم شاعر مفلق، وشاعر مطلق ، وشويعر ، وشعرور . والمفلق هو الذي يأتي فـي شعره بالفلق وهو العجب ، وقيل الفلق الداهية ، قا الاصمعي فالشويعر مثـــل محمو بن حمران بن أبي حمران سماه بذلك امرؤ القيس ، وقال بعضهم شاعـــر وشويعر وشعرور ، وقال العبدي في شاعر يدعى الشويعر من بني ضبة ثم من بني حميس :

الا تنهى ســـراة بنـــي حميس ... شويعرهـــافـــو يلية الافاعـي

فسماه شويعرا وفالية الافاعي دويبة فوق الخنفساء فصغرها أيضا تحقـــيرا له ، وزعم الحاتمي ان النابغة سئل من أشعر الناس فقال من استجيد جيده واضحك رديه ، وهذا كلام يستحيل مثله عن النابغة لأنه اذا أضحك رديه كان مـن سفلـة الشعـــراء الا أن يكون في الهجاء خاصة .

وقال الحطيئة يصف صعوبة الشعر :

الشعــــر صعـب وطويـل سلمه ... اذا ارتقـــى فيه الذي لا يعلمـه
زلـت بـه الى الحضيض قدمـــه ... يريـــد ان يعربـــه فيعجمـــه

وانما سمى الشاعر شاعرا لانه يشعر بما لايشعر له غيره ، واذا لم يكـن عنـد الشاعر توليد معنى ولااختراعه ولا استطراف لفظ وابتداعه ولا زياده فيما أجحف به غيره من المعاني أو نقص مما أطالهسواه من الالفاظ أو صرف معنى الى وجهعنوجه آخر كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة ، ولم يكن له الا فضل الوزن ، وليس هو بفضل مع التقصير .

ولقي رجل آخر فقال له ان الشعراء ثلاثة : شاعر ، وشويعر ، وماص بظرامة ، فأيهم أنت ؟ قال : أما أنا فشويعر ، واختصم أنت وامرؤ القيس في الباقي ، وقـــال

بعضهم الشعر شعران جيد محكك وردي مضحك ولا شيء اثقل من الشعر الوسط والغناء الوسط ، ويقال : ان الشعر كالبحر أهون مايكون على الجاهل ، اهول مايكون على العالم ، وأتعب أصحابه قلبا من عرفه حق معرفته ، وأهل صناعة الشعر ابصر بها من العلماء بآلته من نحو وغريب ، ومثل وخبر ، وما أشبه ذلك ، ولو كانوا دونهم بدرجات فكيف أن قاربوهم أو كانوا منهم بسبب ، وقيل للمفضل الضبي لم لاتقول الشعر وأنت أعلم الناس به ؟ قال : علمي هو الذي يمنعني من قوله وأنشد:

وقد يعرض الشعر البكي لسانه وتعيي القوافي المرء وهو لبيب

والشعر مزلة العقول ، وذلك أن أحدا ما صنعه فكتمه ولو كان رديا ، وانما ذلك لسروره به واكباره اياه ، وهذه زيادة في فضل الشعر وتنبيه على قدرة وحسن موقعه من كل نفس ، ومن نظر لشعر النبهاني ممن له ذوق وسليقة علم أن الرجل ليس بشاعر ولا شويعر ولا ولا ، لانه مفلس من كل فضيلة ، وتبين له من نظمه انه لايعلمه ، وانه قد زلت به الى الحضيض قدمه ، من ذلك قوله في أول قصيدته وهو أحد المواضع التي يجب التأنق فيها والاعتناء بشأنها :

فان تعن ثعلبا يسطو على أسد أو تخذل الليث لايقوى لثعلبه

فانظر الى قوله فان تعن ثعلبا ماأقبح وقعه في هذا المقام ، وقد خاطب الملك العلام ، وقد رضي أن ينزل هو بمنزلة الثعلب وهو كلب من الكلاب ، ويكفيه ذلك سخافة لعقله وفضيحة بين أولي الالباب ، ولو أخذنا نناقشه بمثل هذه الكلمات لطال الكلام في هذا المقام وضاع المقصود وفات ، وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم والصناعات : منها ماتثقفه العين ، ومنها ماتثقفه الاذن ، ومنها ماتثقفه اليد ، ومنها مايثقفه اللسان ، من ذلك اللؤلؤ والياقوت لايعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره ، ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لاتعرف جودتهما بلون ولا مس ، ولا طراءة ولا دنس ، ويعرفه الناقد عند المعاينة فيعرف بهرجها وزائفها ، وستوقها ومفرغها ومنه البصر بأنواع المتاع وضروبه وصنوفه مع تشابه لونه ومسه وذرعه واختلاف بلاده ، حتى يرد كل صنف منها الى بلده الذي خرج منه ، وكذلك بصر الرقيق ، فتوصف الجارية فيقال ناصعة اللون ، جيدة الشطب ، نقية الثغر ، حسنة العين والانف ، لطيفة النهدين ، ظريفة اللسان ، واردة الشعر ، فتكون بهذه الصفة بمائة دينار ، أو بمائتي دينار ، وتكون أخرى بألف دينار ، أو بألفي دينار ،

ولكن لايجد واصفها مزيدا على هذه الصفة ، وتوصف الدابة فيقال : خفيف العنان ، لين الظهر ، شديد الحافر ، فتي السن ، نقي من العيوب ، فيكون بخمسين دينارا أو نحوها ، وتكون أخرى بمائتي دينار أو أكثر ، وتكون هذه صفتها أيضا ، ويقال للرجل والمرأة في القراءة والغناء انه لندى الحلق ، طويل الصوت ، طويل النفس ، مصيب اللحن ، ويوصف الآخر أو الاخرى بهذه الصفة وبينهما بون بعيد ، يعرف ذلك أهل العلم به عند المعاينة والاستماع بلا صفة ينتهي اليها ، ولا علم يوقف عليه ، وان كثرة المدارسة لتعين على العلم به ، وكذلك الشعر يعلمه أهل العلم به •

وقال بعض الحذاق :ليس للجودة في الشعر صفة ، انما هي شيء يقع في النفس عند المميز ، كالفرند في السيف ، والملاحة في الوجه •

والمقصود أن قصيدة النبهاني التي زعم أنه عارض بها القصيدتين ليست من الشعر في شيء ، انما هي ألفاظ خالية من المعاني ، وقد ذكرنا لك بيت قصيده وهو قوله : فان تعن ثعلبا البيت • وهو كلام ليس عليه طلاوة ، ولا يدرك له حلاوة، ومعناه معنى مغسول ، بل كله حشو وفضول ، فقبحه الله وقبح شعره •

وما تضمنته قصيدته من انكار صفة العلو لله تعالى وادعاء جواز الاستغاثة بغير الله تعالى سبق البحث عنه والكلام فيه بما لامزيد عليه ، وسيأتي أيضا تتمة للكلام عن الاستغاثة انشاء اللهتعالى •

(قال النبهاني) ومن كتب الامام ابن تيمية (كتاب العرش) قال في (كشف الظنون) ذكر فيه ان الله سبحانه وتعالى يجلس على العرش ، وقد اخلى مكانا يقعد معه فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ذكر ذلك أبو حيان في النهر عند الكلام على قوله تعالى : (وَسِعَ كُرْسِيُّه السَّمٰوات والأَرضَ) وقال : قرأت في كتاب العرش لأحمد بن تيمية ماصورته بخطه ، انتهت عبارة كشف الظنون ، ثم نقل عن الزبيدي أنه قال في شرح الاحياء ـ عند قول الامام الغزالي في عقيدته قواعد العقائد ـ الاصل الثامن :العلم بأن الله تعالى مستو على العرش ،قال: قال تقي الدين السبكي و (كتاب العرش) من أقبح كتب ابن تيمية الخ • ثم نقل نص (جلاء العينين) في تبرية الحنابلة عن القول بالجسمية ، وما نقله العلامة الكوراني في ذلك ، ثم اعترض النبهاني على ذلك بما كشف به عن حقيقة جهله ، وانه لم يعرف من العلم شيئا ، ثم هذى هذيانا في هذا الباب كرره عدة مرات •

(والجواب أن يقال للنبهاني) هذا المطلب من المطالب العالية ، وقد أشبعنا الكلام عليه سابقا عند الكلام على رسالته التي زعم أنه رد بها على من يقول بصفة العلو ،وان النبهاني ليس من رجال هذا الميدان ، وانه ظالع ولا يدرك الظالع شأو الضليع ، وفي (جلاء العينين) كلام أيضا مفصل في هذا الباب يكتفي بمثله الفطن اللبيب ، وفيه نبذة من كلام شيخ الاسلام في (كتاب العرش) وهو الكتاب الذي لم يؤلف مثله في هذا الموضوع وفي ذلك مايكذب مانقله النبهاني عن الزبيدي وغيره• والسبكي حاله في النقل معلوم، وهذه كتب شيخ الاسلام في كل فن بين الايدي والحمد لله ، ففي أي كتاب قال ان الله يجلس على العرش وانه قد أخلى مكانا يقعد معه فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وفي أي كتاب رآه أبو حيان من كتب الشيخ •

والحاصل : أن مثل هذا النقل يجب على الناقل تصحيحه كما هو مقتضى قوانين المناظرة ، وبعد التصحيح تتكلم عليه ، وكيف يمكن تصحيحه وكتب الشيخ مصرحة بخلافه كما لايخفى علىمن تتبع كتبهوأقواله •

قال شيخ الاسلام ــ قدس الله روحه ــ ماأخبر به الرسول عن ربه فانه يجب الايمان به ، سواء عرفنا معناه او لم نعرف ، لانه الصادق المصدوق ، فما جاء في الكتاب والسنة وجب على كل مؤمن الايمان به وان لم يفهم معناه ، وكذلك ماثبت باتفاق سلف الامة وأئمتها، معأن هذا الباب يوجد عامته منصوصا في الكتاب والسنة ، متفقا عليه بين سلف الامة ، وما تنازع فيه المتأخرون نفيا واثباتا فليس على أحد ، بل ولا له أن يوافق أحدا على اثبات لفظ او نفيه حتى يعرف مراده ، فان أراد حقا قبل ، وان أراد باطلا رد ، وان اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقا ولم يرد جميع معناه ، بل يوقف اللفظ ويفسر المعنى ، قال : كما تنازع الناس في الجهة ، فلفظ الجهة قد يراد به شيء موجود غير الله فيكونمخلوقا كما اريد بالجهة نفس العرش او نفس السموات ، وقد يراد به ماليس بموجود غير الله تعالى كما اذا اريد بالجهة مافوق العالم ، ومعلوم أنه ليس في النص اثبات لفظ الجهة ولا نفيه ، كما فيه اثبات العلو والاستواء والفوقية والعروج اليه ونحو ذلك ، وقد علم أنه ماثمموجود الا الخالق والمخلوق ، والخالق مباين المخلوق سبحانه وتعالى ، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، فيقال لمن نفى الجهة : أتريد بالجهة انها شيء موجود مخلوق فالله ليس داخلا في المخلوقات،أم تريد بالجهة ماوراء

العالم فلا ريب أن الله فوق العالم بائن من المخلوقات ، وكذلك يقال لمن قال الله في جهة ، أتريد بذلك أن الله فوق العالم أو تريد أن الله داخل في شيء من المخلوقات فان أردت الاول فهو حق ، وان أردت الثاني فهو باطل ، وكذلك لفظ المتحيز ان أراد به أن الله تحوزه المخلوقات فالله أعظم وأكبر ، قد وسع كرسيه السموات والارض، وقد قال تعالى : (وما قدَروا اللّهَ حقَّ قدْرِه والأرضُ جميعاً قبضَتُه يومَ القيامةِ والسّمٰواتُ مطْويّاتٌ بيمينهِ)[1] وقد ثبت في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (يقبض الله الارض ويطوي السموات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الارض) وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه (ماالسموات السبع والارضون السبع وما فيهن في يد الرحمن الا كخردلة في يد أحدكم) وفي حديث آخر : (وانه ليدحوها كما يدحو الصبيان بالكرة) قال : وان أراد به أنه منحاز عن المخلوقات أي مباين لها ومنفصل عنها ليس حالا فيها فهو سبحانه ـ كما قال أئمة السنة ـ فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ، كما ذكره في التدمرية .

وقال شيخ الاسلام في (التدمرية) أيضا : أما علوه تعالى ومباينته للمخلوقات فيعلم بالعقل ، وأما الاستواء على العرش فطريق العلم به هو السمع، وليس في الكتاب والسنة وصف له بأنه لاداخل العالم ولا خارجه ، ولا مباينه ولا مداخله ، فيظن المتوهم أنه اذا وصف بالاستواء على العرش كان استواؤه كاستواء الانسان على ظهور الفلك والانعام ، كقوله : (وجَعَلَ لكمُ مِنَ الفُلْكِ والأَنعام ما تَركَبونَ . لِتَستَوُوا على ظُهورِهِ)[2] فيتخيل أنه اذا كان مستويا على العرش كان محتاجا اليه كحاجة المستوى على الفلك والانعام ، فتعالى الله وتقدس ، فهذا خطأ في مفهوم استوائه تعالى على العرش حيث ظن أنه مثل استواء الانسان ، فانه ليس في اللفظ مايدل على ذلك ، لأنه تعالى أضاف الاستواء الى نفسه الكريمة كما أضاف اليه سائر أفعاله وصفاته ، فذكر أنه خلق ثم استوى كما ذكر أنه قدر فهدى ، فلم يذكر استواء مطلقا يصلح للمخلوق ولا عاما يتناول المخلوق ، كما لم يذكر مثل ذلك في سائر صفاته .

وقد علم أنه تعالى الغني عن الخلق ، وأنه الخالق للعرش ولغيره ، وأن كل

---

(١) الزمر : ٦٧ (٢) الزخرف : ١٢ ، ١٣

ما سواه مفتقر اليه ، وهو الغني عن كل ماسواه ، فكيف يجوز أن يتوهم أنه تعالى اذا كان مستويا على العرش كان محتاجا اليه ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، هل هذا الا جهل محض وضلال ممن فهم ذلك وتوهمه أو ظنه ظاهراللفظ أو جوزه على رب العالمين الغني عن الخلق المجيد المتعال ؟ انتهى •

وقد ذكر في تفسير آية الكرسي — وهو مجلد كبير — مثل ذلك ، وهكذا في كثير من كتبه ، ولم نر في شيء من كتبه ما نقله النبهاني الأفاك انه قال ان الله يجلس على العرش وانه قد اخلى مكاناً يقعد معه فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل ولا ذكره أحد ممن ينتمي اليه من تلامذته وأصحابه ، كالحافظ ابن القيم وكتبه هاهي بين الايدي ، وكالحافظ الذهبي وكتبه في البلاد والاقطارمنتشرة ، وكالحافظ الامام ابن قدامة ، وكالحافظ ابن كثير ، وغيرهم ممن لايحصون كثرة ، والعجب ممن لايلتفت الى صريح كلامه ونص عبارته ، ويعتبر مايسمعه من أفواه خصومه وأعدائه ، كابن حجر المكي والسبكي والزبيدي ونحوهم من الغلاة ، وترى هؤء يدافعون عن بعض المتصوفة وقد تكلموا بكلمات الكفر ، فيجهدون كل الجهد في تأويلها ، ويتعسفون في تصحيحها ، ويحتجون على ذلك بأنهم تكلموا أحيانا بما يوافق الحق ، حتى اني تكلمت يوما مع بعض الغلاة فيما قاله صاحب الفصوص والفتوحات من الكلمات المصرحة بالحلول والاتحاد ، وذكرت له ماقاله فيها العلامة السعد التفتازاني ، والشيخ علي القاري ، والشيخ محمد البخاري وغيرهم • فقال : ان هؤلاء لم ينصفوا ، فان صاحب الفصوص قدصرح بعقيدة الاسلام في كثير من كتبه ، فمن الواجب أن نصرف مانسمع من كلامه المخالف للحق الى مايوافقه ، ونحمله على محمل حسن ، كما اولوا قوله سبحان من أظهر الاشياء وهو عينها أي عين وجودها الماسك لها ، ونحو ذلك صيانة لهؤلاء الكمل من الوقيعة فيهم • فقلت: فما قولك في مسلم يصلي ويصوم ويزكي ويحج البيت وقد تكلم بالكفرهل تؤل كلامه وتصرف عنه موجب الكفر ؟ أم تقول بما قاله الفقهاء في كتاب الردة ؟ ثم انكم لم تذبوا عن ابن تيمية وتعتذروا عنه بمثل ما اعتذرتم عن شيخكم ، وقد ملأ الكتب من الايمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وتتشبثون بالقدح فيه بما زوره عليه أئمتكم مما لا وجود له في كتبه ولا كتب أصحابه ، فكان من الواجب عليكم أنه اذا ثبت عنه شيء مذكور في كتبه أن تجتهدوا في حمله على محمل حسن ، ولم تشتموه كما شتمه أئمتكم واسلافكم ، فلم يجب بشيء واعرضت عن مكالمته •

ثم ان الذي نقلناه عنه مما هو مذكور في كتاب العرش ، وتفسير آية الكرسي، والتدمرية ، وغير ذلك من كتبه قد قال به السلف ، وصرح به كثير من المتأخرين أيضا .

قال الامام أبو العباس عماد الدين أحمد الواسطي الصوفي المحقق العارف تلميذ شيخ الاسلام ابن تيمية ــ قدس الله سرهما ، وهو الذي قال فيه شيخ الاسلام انه جنيد زمانه ــ في رسالته نصيحة الاخوان ما حاصله : ان الله عز وجل كان ولا مكان ، ولا عرش ولا ماء ، ولا فضاء ولا هواء ، ولا خلاء ولا ملاء ، وانه كان منفردا في قدمه وأزليته ، متوحدا في فردانيته ، لايوصف بأنه فوق كذا اذ لاشيء غيره ، وهو تعالى سابق التحت والفوق اللذين هما جهتا العالم ، وهو لازمان له تعالى ، وهو تعالى في تلك الفردانية منزه عن لوازم الحدث وصفاته ، فلما اقتضت الارادة المقدسة خلق الاكوان المحدثة المخلوقة المحدودة ذات الجهات اقتضت الارادة أن يكون الكون له جهات من العلو والسفل ، وهو سبحانه منزه عن صفات الحدث ، فكون الاكوان ، وجعل جهتي العلو والسفل ، واقتضت الحكمة الالهية أن يكون الكون في جهة التحت لكونه مربوبا مخلوقا ، واقتضت العظمة الربانية أن يكون هو تعالى فوق الكون باعتبار الكون لا باعتبار فردانيته ، اذ لا فوق فيها ولا تحت .

والرب سبحانه وتعالى كما كان في قدمه وازليته وفردانيته لم يحدث له في ذاته ولا في صفاته مالم يكن في قدمه وأزليته ، فهو الآن كما كان لما أحدث المربوب المخلوق ، ذا الجهات والحدود والخلا والملا ، ذا الفوقية والتحتية : كان مقتضى حكم العظمة والربوبية ان يكون فوق ملكه ، وان تكون المملكة تحته باعتبار الحدوث من الكون لا باعتبار القدم من المكون ، فاذا أشير اليه بشيء يستحيل ان يشار اليه من جهة التحتية أو من جهة اليمنة أو من جهة اليسرة ، بل لايليق أن يشار اليه الا من جهة العلو والفوقية ، ثم الاشارة هي بحسب الكون وحدوثه وأسفله ، فالاشارة تقع على أعلى جزء من الكون حقيقة ، وتقع على عظمة الله تعالى كما يليق به ، لا كما يقع على الحقيقة المحسوسة عندنا في أعلى جزء من الكون فانها اشارة الى جسم ، وتلك اشارة الى اثبات ، اذا علم ذلك فالاستواء صفة كانت له سبحانه وتعالى في قدمه ، لكن لم يظهر حكمها الا بعد خلق العرش ، كما أن الحساب صفة قديمة لايظهر حكمها الا في الآخرة ، وكذلك التجلي في الآخرة لايظهر حكمه الا في محله .

قال : فاذا علم ذلك فالامر الذي تهرب المتأولة منه ـ حيث اولوا الفوقية بفوقية المرتبة والاستواء بالاستيلاء ـ فنحن أشد الناس هربا من ذلك ، وتنزيها للباري تعالى عن الحد الذي لايحصره ، فلا يحد بحد يحصره ، بل بحد تتميز به عظمة ذاته عن مخلوقاته ، والاشارة الى الجهة انما هي بحسب الكون وأسفله ، اذ لاتمكن الاشارة اليه الا هكذا ، وهو في قدسه سبحانه منزه عن صفات الحدث ، وليس في القدم فوقية ولا تحتية ، وانما من هو محصور في التحت لايمكنه معرفة باريه الا من فوقه ، فتقع الاشارة الى العرش حقيقة اشارة معقولة ، وتنتهي الجهات عند العرش ، ويبقى ماوراءه لايدركه العقل ولا يكيفه الوهم ، فتقع الاشارة عليه كما يليق به مجملا مثبتا لا مكيفا ممثلا .

قال : فاذا علمنا ذلك واعتقدناه تخلصنا من شبهة التأويل ، وعماية التعطيل ، وحماقة التشبيه والتمثيل ، وأثبتنا علو ربنا وفوقيته ، واستواءه على عرشه كما يليق بجلاله وعظمته ، والحق واضح في ذلك ، والصدر ينشرح له ، فان التحريف تأباه العقول الصحيحة ، مثل تحريف الاستواء بالاستيلاء وغيره ، والوقوف في ذلك جهل وغي ، مع كون الرب وصف نفسه بهذه الصفات لنعرفه بها ، فوقوفنا عن اثباتها ونفيها عدول عن المقصود منه في تعريفنا اياها ، فما وصف لنا نفسه بها الا لنثبت ما وصف به نفسه لنا ولا نقف في ذلك .

قال : وكذلك التشبيه والتمثيل حماقة وجهالة فمن وفقه الله للاثبات فلا تحريف ولا تكييف ولاوقوف ، فقد وقع على الامر المطلوب منه ان شاء الله تعالى ، والله أعلم . انتهى .

وذكر شيخ الاسلام في كتابه في العرش كلاما مفيدا أحببنا نقله في هذا المقام اكمالا للفائدة ماحاصله : اختلف في العرش هل هو كري كالافلاك فيكون محيطا بها ، واما أن يكون فوقها وليس هو كريا ، فان كان الاول فمن المعلوم باتفاق من يعلم ان الافلاك مستديرة كرية الشكل ان الجهة العليا هي جهة المحيط وهو المحدد ، وأن الجهة السفلى هي المركز ، وليس للافلاك الا جهتان العلو والسفل فقط ، وأما الجهات الست فهي للحيوان وليس لها في نفسها صفة لازمة ، بل هي بحسب الاضافة فيكون يمين هذا مايكون يسار هذا ، ويكون أمام هذا مايكون خلف هذا ، ويكون فوق هذا مايكون تحت هذا ، لكن جهة العلو والسفل للافلاك لاتتغير ، فالمحيط

هو العلو والمركز هو السفل ، مع أن وجه الارض التي وضعها الله للانام وارساها بالجبال هو الذي عليه الناس ، والبهائم ، والشجر ،والنبات ، والجبال ، والانهار الجارية • فاما الناحية الاخرى من الارض فالبحر محيط بها ، وليس هناك شيء من الآدميين وما يتبعهم ، ولو قدر أن هناك أحد لكان على ظهر الارض ولم يكن من في هذه الجهة تحت من في هذه الجهة ، ولا من في هذه تحت من في هذه ،كما أن الافلاك محيطة بالمركز ، وليس أحد جانبي الفلك تحت الآخر ، ولا القطب الشمالي تحت القطب الجنوبي ولا بالعكس •

وان كان الشمالي هوالظاهر لنا فوق الارض وارتفاعه بحسب بعد الناس عن خط الاستواء ، فما كان بعده عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلا كان ارتفاع القطب عنده ثلاثين درجة ، وهو الذي يسمى عرض البلد •

فاذا قدر أن العرش مستدير محيط بالمخلوقات كان هو أعلاها وسقفها ، وهو فوقها مطلقا ، فلا يتوجه الانسان اليه والى ما فوقه الا من العلو من جهاته الباقية ، ومن توجه الى الفلك التاسع او الثامن أو غيره من غير جهة العلو كان جاهلا باتفاق العقلاء ، فكيف بالتوجه الى العرش أو الى مافوقه ، وغاية ما يقدر أن يكون كرى الشكل ، والله تعالى محيط بالمخلوقات كلها احاطة تليق بجلاله ، فان السموات السبع والارض في يده أصغر من الحمصة في يد أحدنا •

قال ابن عباس رضي اللهعنهما (ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن الا كخردلة في يد أحدكم) • وهذا الاثر وامثاله معروف في كتب الحديث •

قال شيخ الاسلام : ومن المعلوم ان الواحد منا ـ ولله المثل الاعلى ـ اذا كان عنده خردلة ان شاء قبضها فأحاطت بها قبضته ، وان شاء لم يقبضها بل جعلها تحته ، فهو في الحالين مباين لها ، والعرش ـ سواء كان هذا الفلك التاسع الذي هو الفلك الاطلس عند الفلاسفة ويسمونه الفلك الاعظم وفلك الافلاك أو كان جسما محيطا بالفلك التاسع او كان فوقه من جهة وجه الارض ـ غير محيط به •

فيجب على كل حال أن يعلم أن العالم العلوي والسفلي بالنسبة الى الخالق في غاية الصغر ، كما قال تعالى : (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ)

وفي ذلك من الاحاديث ما سيأتي ذكر بعضها ، وسواء قدر أن العرش محيط بالمخلوقات كاحاطة الكرة بما فيها ، أو قيل انه فوقها وليس محيطا بها كوجه الارض الذي نحن عليه بالنسبة الى جوفها وكالقبة بالنسبة الى ماتحتها ، أو غير ذلك ، فعلى التقديرين يكون العرش فوق المخلوقات والخالق سبحانه وتعالى فوقه ، والعبد في توجهه الى الله يقصد العلو دون التحت •

ثم قال شيخ الاسلام في آخر (كتاب العرش) قد تبين أنه سبحانه وتعالى أعظم وأكبر من أن تكون المخلوقات عنده بمنزلة داخل الفلك في الفلك ، وأنها أصغر عنده من الحمصة أو الفلفلة ونحو ذلك في يد أحدنا ، فاذا كانت الحمصة أو الفلفلة بل الدرهم والدينار والكرة التي يلعب بها الصبيان ونحو ذلك في يد انسان أو تحته أو نحو ذلك هل يتصور عاقل ــ اذا استشعر علو الانسان على ذلك واحاطته به ــ ان يكون الانسان كالفلك ، فالله تعالى ــ وله المثل الاعلى ــ أعظم من أن يظن ذلك به ، وانما يظنه الذين لم يقدروا الله حق قدره ، والارض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، انتهى •

وقد تبين من هذه النقول أن البحث دقيق ، فلهذا لم يفهمه كثير من أهل العلم فضلا عن النبهاني ، فكلامه الذي اقتضى اعادة القول ، فاللوم عليه لا علينا ، والله الموفق •

هذا آخر الجزء الاول من كتاب (غاية الاماني ، في الرد على النبهاني) ونسأله تعالى التوفيق لاكماله ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله •

(وكان الفراغ منه على يد مؤلفه في رمضان سنة ١٣٢٥)



(تم المجلد الاول ويليه المجلد الثاني)

(وأوله : الرد على ماانتقده الخصم على كتاب اغاثة اللهفان الخ)

الطبعة الثانية عام ١٣٩١ هـ





(تصويب الخطأ)

١ ــ وقع السطر الخامس من التعليق رقم (١) الموجود في صحيفة (٣٥) والذي أوله : لايقدر ــ وقع بين السطر السادس والسابع اللذين هما التعليق رقم (٢) فليعدل •

٢ ــ جدول تصحيح الاخطاء الاخرى : ــ

صحيفة	سطر	خطــأ	صــواب
٩٦	١٣	تذكرن	تذكرون
١٠٢	٢٧	ــــــــ	(١) المطففين : ١٥
٣٤٣	١٣	وكذا لي في ديني	- وكذا خيرا لي في ديني
٣٩٧	٢١	الحاء هؤلاء	الحاد هؤلاء
٣٩٨	٦	ه قال	وقال
٣٩٨	١٣	ثم أنزل سكينته	ثم أنزل الله سكينته
٣٩٨	١٥	اذ يقول	اذ تقول
٣٩٩	٨	ان الشياطين	وان الشياطين
٤٠٢	١٠	مالفة أمر الله	مخالفة أمر الله
٤١١	٤ ، ٥	المستعان ماتصفون	المستعان على ماتصفون
٤١٦	٩	أن نعززه	أن نعزره
٤٥١	١٠	دكاء	دكا
٤٥٦	٢٢	أن الخلق	وأن الخلق
٤٩٥	٧	أخلى كاز يقعد	أخلى مكانا يقعد
٤٩٧	٨	ولا يكفيه	ولا يكيفه



غاية الأماني في الرد على النبهاني

للامام العلامة ابي المعالي محمود شكري الالوسي

المولود عام ١٢٧٣ والمتوفي عام ١٣٤٢ غفر الله له .

المجلد الثانى

طبع على نفقة

عبد العزيز ومحمد العبد الله الجميح

« وقف لله تعالى »



بسم الله الرحمن الرحيم

حمدا لك اللهم مكان كل نعمة لك علينا ، وعلى جميع عبادك الماضين والباقين ، عدد ما أحاط به علمك من جميع الاشياء ، ومكان كل واحدة منها عددها أضعافا مضاعفة أبدا سرمدا الى يوم القيامة ، حمدا لامنتهى لحده ، ولا حساب لعده ، ولا مبلغ لغايته ، لنتوسل به الى طاعتك وعفوك ، وتتسبب به الى رضوانك ، ونتخذه ذريعة الى مغفرتك ، وطريقا الى جنتك ، وخفيرا من نقمتك ، وأمنا من غضبك ، وظهيرا على طاعتك ، وحاجزا عن معصيتك ، وعونا على تأدية حقك .

اللهم وأوصل صلة صلواتك ونوامي بركاتك الى من أرسلته رحمة للعالمين ، ونقمة على الزائغين ، حتى ظهر أمرك ، وعلت كلمتك ، ولو كره المشركون .

اللهم وأوصل مثل ذلك الى آله الكرام والاصحاب ، والجند والاحزاب ، ومن اتبعهم باحسان الى يوم الدين .

(أما بعد) فلما من الله تعالى بفضله وتوفيقه الى اكمال النصف الاول من كتاب (غاية الاماني) بادرنا ــ بعد الاستعانة به سبحانه ــ الى الشروع في النصف الثاني ، وهو الكلام على الباب الخامس فما بعده الى آخر الابواب التي ذكرها الخصم في كتابه ، ولم يراقب فيها موقفه يوم الحساب ، وقد سلكنا في هذا المقام نحو ماسلكناه أولا من الانصاف ، ولم نخرج ــ وله سبحانه الحمد ــ عن سواء السبيل حسبما عودنا عليه من الالطاف ، ومنه سبحانه الهداية .

(قال النبهاني) في الباب الخامس من كتابه ، وهو الباب الذي عقده في الكلام على كتاب (اغاثة اللهفان) لابن القيم ، و (الصارم المنكي في الرد على السبكي) و (جلاء العينين في المحاكمة بين الاحمدين) وعقد للكلام على كل من هذه الثلاثة فصلا ، وقدم الكلام على (اغاثة اللهفان) ونقل عبارته التي ذكرها في الزيارة المبتدعة ، وما يفعله القبوريون من الاعمال الشركية التي ماأنزل الله بها من سلطان ، وبعد ختام عبارته نقل عبارة القسطلاني المتعلقة بالاغراء على الزيارة المبتدعة ليستدل بها على غلوه ، وبعد أن نقلها ــ قال : هذا ماأردت نقله هنا من كلام هذا الامام ، قال : وذكر رحمه الله أحاديث وفوائد نفيسة تتعلق بزيارته صلى الله عليه وسلم

والاستغاثة به ، وفضل المدينة المنورة ، فليراجعها من شاءها .

ثم قال : فانظر رحمك الله الى هذا النور ، وهذا الهدى ، وهذا الحق الظاهر المشرق الجلي : تعلم شدة الظلام المستولى على أولئك المبتدعين ، وأنت اذا قابلت بين كلام القسطلاني وكلام ابن القيم يظهر لك كمال الفرق بين الباطل والحق الخ .

(أقول في جوابه) ان حاصل انتقاده هذا على كتاب (اغاثة اللهفان) أن مافيه من الكلام على الزيارة المبتدعة والمنع منها مخالف لما نقله عن القسطلاني ، وكفى بذلك دليلا على الفساد ، وأنت تعلم مما قدمناه أن مدار الاستدلال انما هو على الكتاب والسنة لا بأقوال الغلاة ، وقد استوفينا الكلام على أقسام الزيارة فيما نقلناه سابقا عن أئمة أهل العلم والدين ، وأن النبهاني — لامتلاء قلبه من ظلمات البدع والاهواء — لم يزل يكرر مايهواه ، كما هو شأن من أحب شيئا فانه يلهج بذكره ، وعليه قول القائل :

أريد لانسى ذكرها فكأنما ... تمثل لي ليلى بكل طريق

ولما استولت على قلبه محبة الاشراك بالله تعالى والغلو بالصالحين تراه يسرح في أودية الضلال ، وكلما رأى مايوافق هواه بادر الى نقله ، أو رأى مايوافق الحق ويقتضيه الدين المبين بادر الى شتم قائله وتضليله بل وتكفيره ، وعلى ذلك بنى بنيانه ، وأقام برهانه ، وألف كتابه ، وفصل خطابه ، وكلما وجهت اليه لوما ازداد بباطله غراما :

وذي سفه يواجهني بجهل ... فاكره أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهة فأزيد حلما ... كعود زاده الاحراق طيبا

وحاله هذا حال اخوانه وسلفه ، اذ حكى الله تعالى عنهم ماحكى في كتابه الكريم ، قال عز من قائل : ﴿ ولَنْ تَرضَى عَنكَ اليَهُودُ ولاَ النَّصارَى حتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ انَّ هُدَى اللهِ هُو الهُدى ، ولئن اتَّبعْتَ أَهواءَهُم بعد الَّذِي جاءَكَ مِن العِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ منْ ولي ولاَ نَصيرٍ ﴾[1] ولنضرب عن كلامه هنا صفحا اكتفاء بما سبق منا .

---

(١) البقرة ١٢٠

(وكتاب اغاثة اللهفان ، في مصائد الشيطان) هو كتاب مشهـــور من كتب السنة ، أودعه مؤلفه رحمه الله مهمات المطالب ، وأبطل به حبائل الشيطان ومصائده، ودسائسه ومكائده ، فلا بدع ان نفرت منه جنوده ، واضطربت منه أعوانه وأولياؤه والله لايصلح عمل المفسدين •

(قال النبهاني)في فصل ذكره بعد كلامه السابق : وليت ابن القيم زاد في كتابه المذكور فصلا قال فيه : ومن مصائده أنه يسول الى بعض العلماء الغلو في الدين ، ويحسن تضليل المسلمين بالاستغاثة والزيارة لقبور الانبيـاء والصالحـين ، ويدخل عليهم بحيله الشيطانية ، أن في ذلك شركا برب العالمين ، والامر على خلاف ماأوحـاه اليهم هذا اللعين ، فقد أضر بهم ضررا فاحشا في الدين ، الى آخر هذيانه •

جوابه أن يقال ــ من قبل من يوحد الله ولا يشرك بعبادته أحدا ــ إخســأ ياعدو الله ان الله لا يأمر بالفحشاء والمنكر والبغي ، والذي أضر بالمسلمين عبادتهم للقبور ، وتلاعبهم بما يعملون في المشاهد والزوايا من المنكرات ، واعراضهم عمـا استوجبته شريعتهم من اكتساب مايستوجب السعادتين ، فيا أيها الداعي لعبادة غير الله تعالى كلامك هذا دل عليك أنك من جند ابليس ، بل قد ارتقى بك الحال حتى صار ابليس من جندك ، كما قيل في أخيك ومن يشابهك ويضاهيك :

وكان فتى من جند ابليس فارتقى ... به الحال حتى صار ابليس من جنده

فنحن بحمد الله لم نزل ممتثلين لما ورد من الاوامر في الشريعة الغراء ، منتهين عما نهى الله عنه ورسوله وسائر الانبياء ، لاندعو غير الله ،ولانسأل فيالمهمات سواه (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الاسْلامِ دِيْناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وهُوَ فِي الآخِرةِ مِنَ الخاسِرين)[1]

فنحن عند المهمات نقول اللهم يامن تحل به عقد المكـاره ، ويامن يسـكن به حـد الشدائد ، ويامن يلتمس منه المخرج الى روح الفرج ، ذلت لقدرتـك الصعـاب ، وتسببت بلطفك الاسباب ، وجرى بقدرتك القضاء ، ومضت على ارادتك الاشياء ، فهي بمشيئتك دون قولك مؤتمرة ، وبارادتك دون نهيك منزجرة ، أنت المدعـو للمهمات ، وأنت المفزع في الملمات ، لايندفع منها الا مادفعت ، ولا ينكشف منهـا الا ماكشفت ، فلا مصدر لما أوردت ، ولا صارف لما وجهت ، ولا فاتح لما أغلقت ، ولا مغلق لما فتحت ، ولا ميسر لما عسرت ، ولا ناصر لمن خذلت •

---

(١) آل عمران : ٨٥

وحيث أن ماذكره النبهاني هو وحي شيطاني ، قال تعالى :(وانَّ الشَّيَاطِينَ ليوحُون الى اوْليائِهم ليُجَادلُوكُمْ)[1] وقال تعالى(شَياطيْنَ الانسِ والجنِّ يوحِي بعْضُهم الى بعض زخرفَ القَولِ غُروراً)[2] وجب أن نستعيذ منه ، فان شياطين الانس أشد ضررا من شياطين الجن، فنقول :اللهم انا نعوذ بك من نزغات الشيطان الرجيم ومكائده، ومن الثقة بأمانيه ومواعيده ، وغروره ومصائده ، وأن يطمع نفسه في اضلالنا عن طاعتك ، وامتهاننا بمعصيتك ، وأن يحسن عندنا ماحسن لنا ، وأن يثقل علينا ماكره الينا ، اللهم اخسأه عنا بعبادتك ، واكبته بجدنا في محبتك ، واجعل بيننا وبينه سترا لايهتكه ، وردما مصمتا لايفتقه ، اللهم أشغله عنا ببعض أعدائك ، واعصمنا منه بحسن رعايتك ، واكفنا خطره ، وولنا ظهره ، واقطع عنا أثره ، اللهم ومتعنا من الهدى بمثل ضلالته ، وزودنا من التقوى ضد غوايته ، واسلك بنا من التقى خلاف سبيله من الردى ، اللهم لاتجعل له في قلوبنا مدخلا ، ولا توطن له فيما لدينا منزلا ، اللهم وما سول لنا من باطل فعرفناه ، واذا عرفتناه فقناه وبصرنا ما نكايده به ، وألهمنا مانعده له ، وأيقظنا عن سنة الغفلة بالركون اليه ، وأحسن بتوفيقك عوننا عليه ، اللهم واشرب قلوبنا انكار علمه ، وألطف لنا في نقض حيله ، وحول سلطانه عنا ، واقطع رجاءه منا ، واذرأه عن الولوع بنا ، واجعلنا منه في حرز حارز ، وحصن حافظ ، وكهف مانع ، وألبسنا منه جننا واقية ، وأعطنا عليه أسلحة ماضية ، اللهم واعمم بذلك من شهد لك بالربوبية ، وأخلص لك بالوحدانية ، وعاداه لك بحقيقة العبودية ، واستظهر بك عليه في معرفة العلوم الربانية ، اللهم احلل ماعقد ، وافتق مارتق ، وافسخ مادبر ، وثبطه اذا عزم ، وانقض ماأبرم ، اللهم واهزم جنده ، وابطل كيده ، واهدم كهفه ، وأرغم أنفه ، اللهم اجعلنا في نظم أعدائه ، واعزلنا عن عداد أوليائه ، لانطيع له اذا استهوانا ، ولا نستجيب له اذا دعانا ، نأمر بمناواته من أطاع أمرنا ، ونعظ بمتابعته من اتبع زجرنا ، اللهم وأعذنا مما استعذنا منه ، وأجرنا مما استجرنا بك من خوفه ، واسمع لنا مادعونا به ، وأعطنا ماأغفلناه ، واحفظ لنا مانسيناه ، وصيرنا بذلك في درجات الصالحين ومراتب المؤمنين ، آمين يارب العالمين •

ثم ان مانسب الى الاولياء مما يحبه ويهواه من الباطل والضلال سنتكلم عليه ان شاء الله ، ونبطل دعواه فيه ، ولا سيما مانسب للشيخ عبد القادر ، وسنذكر من

(١) الانعام : ١٢١ . (٢) الانعام : ١١٣

كلامه مايدل على أنه كان أحرص الناس على التوحيد ، وتعبيره عن المسلمين ــ الذين أخلصوا وجوههم لله ــ بالالقاب المستكرهة هو من خصال أهل الجاهلية من المشركين والكتابيين ، فلقب أهل الهدى تارة بالوهابية ، وأخرى بالحشوية ، ومرة بالمجسمة ، كما كان أسلافه يسمون من خرج عن دينهم بالصابي ، وسموا رسول الله صلى الله عليه وسلم صابئيا ، كما ورد ذلك في عدة أحاديث صحيحة تنفيرا للناس عن اتباع غير سبيلهم ، وهكذا تجد كثيرا من هذه الامة يطلقون على من خالفهم في بدعهم وأهوائهم أسماء يكرهها الناس ، ويستبشعها العوام ، وجميع ماذكر النبهاني في هذا المقام مما يتعلق بالسفر الى الزيارة والاستغاثة بغير الله قد مر الكلام على ابطاله .

(قال النبهاني) في الرد على ما منعه ابن القيم من ضرب المثل ــ بالملك وقضاء حاجات المستشفعين له بوزرائه وخواصه ــ لله تعالى في قضاء حاجات المستشفعين له بانبيائه وعباده الصالحين ، وبعد نقل منعه قال النبهاني : ومنعه ممنوع ، لان ذلك من قبيل التشبيه ، وهو واقع في القرآن بقوله تعالى :

(مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ)[1]

الى أن قال : وانما حمل ابن القيم على منعه والاطالة في تهجينه كون ذلك يفيد جواز الاستغاثة بخواص عبيده المقربين ، من الانبياء والصالحين ، ثم نقل لابن القيم عبارة ذكرها في (جلاء الافهام في الصلاة على خير الانام) في الفائدة التاسعة والثلاثين من فوائده ، مما يفيد بزعمه تشبيه الخالق بالمخلوق ، ونقل عن القسطلاني والشعراني وعلي الخواص وغيرهم مايفيد أيضا جواز قياس الخالق على المخلوق وتشبيهه بخلقه .

(جوابه) أن النبهاني هذا قد لبس في هذه المسألة وحرف وأوهم ، فلزم نقل عبارة ابن القيم أولا وما يوافقها ، ثم الكلام على باطل النبهاني وجهله .

فنقول : قال الحافظ ابن القيم في كتابه (اغاثة اللهفان) في فصل الفرق بين زيارة الموحدين للقبور وزيارة المشركين : أما زيارة الموحدين فمقصودها ثلاثة أشياء :

(أحدها) تذكر الآخرة والاعتبار والاتعاظ ، وقد أشار النبي عليه السلام الى ذلك بقوله : (زوروا القبور فانها تذكركم بالآخرة) .

---

(١) سورة النور : ٣٥

(الثاني) الاحسان الى الميت ، وأن لايطول عهده به فيهجره ويتناساه ، كما اذا ترك زيارة الحي مدة طويلة تناساه ، فاذا زار الحي فرح بزيارته وسر بذلك ، فالميت أولى ، لأنه قد صار في دار قد هجر أهلها اخوانهم وأهلهم ومعارفهم ، فاذا زاره وأهدى اليه هدية من دعاء أو صدقة أو اهداء قربة ازداد بذلك سروره وفرحه كما يسر الحي بمن يزوره ويهدي له ، ولهذا شرع النبي صلى الله عليه وسلم للزائر أن يدعو لهم ، ولا يدعو بهم ولا يصلي عندهم .

(الثالث) احسان الزائر الى نفسه باتباع السنة والوقوف عند ماشرعه الرسول عليه السلام ، فيحسن الى نفسه والى المزور .

(وأما الزيارة الشركية) فأصلها مأخوذ من عباد الاصنام ، قالوا : الميت المعظم الذي لروحه قرب ومنزلة ومزية عند الله تعالى لايزال تأتيه الالطاف من الله تعالى ، ويفيض على روحه الخيرات ، فاذا علق الزائر روحه به وأدناها منه فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك الالطاف بواسطتها كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية والماء ونحوه على الجسم المقابل له ، قالوا فتمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه الى الميت ، ويعكف بهمته عليه ، ويوجه قصده كله واقباله عليه ، بحيث لايبقى فيه التفات الى غيره ، وكلما كان جمع الهمة والقلب عليه أعظم كان أقرب الى انتفاعه به ، وقد ذكر هذه الزيارة على هذا الوجه ابن سينا والفارابي وغيرهما ، وصرح بها عباد الكواكب في عبادتها ، وقالوا : اذا تعلقت النفس الناطقة بالارواح العلوية فاض عليها منها النور ، وبهذا السر عبدت الكواكب ، واتخذت لها الهياكل ، وصنفت لها الدعوات ، واتخذت الاصنام المجسدة لها .

وهذا بعينه هو الذي أوجب لعباد القبور اتخاذها أعيادا ، وتعليق الستور عليها ، وايقاد السرج عليها ، وبناء المساجد عليها ، وهو الذي قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم ابطاله ومحوه بالكلية وسد الذرائع المفضية اليه ، فوقف المشركون في طريقه ، وناقضوه في قصده ، وكان صلى الله عليه وسلم في شق ، وهؤلاء في شق وهذا الذي ذكره هؤلاء المشركون في زيارة القبور هو الشفاعة التي ظنوا أن آلهتهم تنفعهم بها وتشفع لهم عند الله تعالى .

قالوا : فان العبد اذا تعلقت روحه بروح الوجه المقرب عند الله وتوجه بهمته اليه وعكف بقلبه صار بينه وبينه اتصال يفيض به عليه منه نصيب مما يحصل له من الله ، وشبهوا ذلك بمن يخدم ذا جاه وحظوة وقرب من السلطان ، فهو شديد

التعلق به ، فما يحصل لذلك من السلطان من الانعام والافضال ينال ذلك المتعلق به بحسب تعلقه به .

فهذا سر عبادة الاصنام ، وهو الذي بعث الله رسله وأنزل كتبه بابطاله ، وتكفير أصحابه ولعنهم ، وأباح دماءهم وأموالهم وسبي ذراريهم ، وأوجب لهم النار ، والقرآن من أوله الى آخره مملوء من الرد على أهله وابطال مذهبهم ، ثم سرد عدة آيات ونصوص من ذلك ، وتبين منها أن المشركين انما عبدوا من عبدوا بسبب اتخاذ من سوى الله وسائط بينهم وبينه ، فاذا أشرك بهم المشرك واتخذهم شفعاء من دونه ظنا منه أنه اذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله فهو من أجهل الناس بحق الرب وما يجب له وما يمتنع عليه ، فان هذا ممتنع ، اذ كيف يقاس الرب تعالى على الملوك والكبراء، حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج ، وبهذا القياس الفاسد عبدت الاصنام ، واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولي ، والفرق بينهما هو الفرق بين المخلوق والخالق ، والرب والعبد ، والمالك والمملوك ، والغني والفقير ،والذي لاحاجة بهالى أحد قط ، والمحتاج من كل وجه الى غيره ، فالشفعاء عند المخلوقين هم شركاؤهم ، فان قيام مصالحهم بهم ، وهم أعوانهم وأنصارهم الذين قيام الملوك والكبراء بهم ، ولولاهم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم في الناس ، فلحاجتهم اليهم يحتاجون الى قبول شفاعتهم وان لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع ، لانهم يخافون أن يردوا شفاعتهم فتنقص طاعتهم لهم ويذهبون الى غيرهم ، فلا يجدون بدا من قبول شفاعتهم على الكره والرضى ، فأما الغنى الذي غناه من لوازم ذاته وكل ماسواه فقير اليه بذاته وكل من في السموات والارض عبيد له مقهورون بقهره مصرّفون بمشيئته لو أهلكهم جميعا لم ينقص من عزه وسلطانه وملكه وربوبيته وإلهيته مثقال ذرة . ثم ذكر الدلائل القرآنية على ذلك مما يطول ذكره فراجع كتابه وهو بين الايدي .

فتبين مما نقلناه من عبارته مالبس به النبهاني وحذف ليروج غرضه الفاسد ، وهو اتخاذ الوسائط بينه وبين الله بناء على ماجوزه من قياس الخالق على المخلوق ، وعلى كلامه الفاسد ينبغي أن تجوز كل عبادة لله أن تجعل لغيره ، ويقال أنه واسطة كما أن الوزير واسطة بين الناس وبين الملك .

وهذا الذي ذكره ابن القيم قد سبقه به شيخه ، وذكر مثله في مواضع ، منها ماقاله في رسالة الواسطة حيث نص فيها أن من أراد بالواسطة أنه لابد من واسطة في

جلب المنافع ودفع المضار ــ مثل أن يكون واسطة في رزق العباد ونصرهم وهداهم يسألونه ذلك ويرجعون اليه فيه ــ فهذا من أعظم الشرك الذي كفر الله به المشركين ، حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء يجتلبون بهم المنافع ويدفعون بهم المضار ، لكن الشفاعة لمن يأذن الله له فيها حق ، قال تعالى :

(اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ ايَّام ثُمَّ اسْتَوى على العرشِ مَالَكُم مِن دُونِهِ من وَلِيّ وَلَا شَفِيع افَلَا تَتَذَكَّرُونَ) (1)

وذكر نصوصا أخر الى أن قال : ومثل هذا كثير في القرآن ، ومن سوى الانبياء ــ من مشايخ العلم والدين ــ من أثبتهم وسائط بين الرسول وأمته يبلغونهم ويعلمونهم ويؤدبونهم ويقتدون بهم ، فقد أصاب في ذلك ، وهؤلاء اذا أجمعوا فاجماعهم حجة قاطعة لايجتمعون على ضلالة ، وان تنازعوا في شيء رد الى الله والرسول ، اذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الاطلاق ، بل كل واحد من الناس يؤخذ من كلامه ويترك الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : (العلماء ورثة الانبياء ، فإن الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم ، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر) • وان أثبتهم وسائط بين الله وبين خلقه كالحجاب الذين بين الملك ورعيته ــ بحيث يكونون هم يرفعون الى الله حوائج خلقه ، فالله انما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم ، فالخلق يسألونهم وهم يسئلون الله ، كما أن الوسائط عند الملك يسألون الملك الحوائج للناس لقربهم منه ، والناس يسألونهم أدبا منهم أن يباشروا سؤال الملك ، أو لان طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك لكونهم أقرب من الطالب للحوائج ــ فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك ، يجب أن يستتاب فان تاب والا قتل •

وهؤلاء مشبهون لله شبهوا المخلوق بالخالق ، وجعلوا لله أندادا ، قال : وفي القرآن من الرد على هؤلاء مالا تتسع له هذه الفتوى ، فان الوسائط التي بين الملوك وبين الناس يكونون على أحد وجوه ثلاثة •

اما لاخبارهم من أحوال الناس بما لايعرفونه ، ومن قال ان الله تعالى لايعلم أحوال عباده حتى يخبره بها بعض الملائكة أو الانبياء أو غيرهم فهو كافر ، بل هو سبحانه يعلم السر وأخفى ، ولا تخفى عليه خافية في الارض ولا في السماء ، وهو

---

(1) السجدة :٤

السميع البصير ، يسمع ضجيج الاصوات ، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ، لايشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه المسائل ، ولا يتبرم بالحاح الملحين .

والوجه الثاني : أن يكون الملك عاجزا عن تدبير رعيته ودفع أعدائه الا بأعوان يعينونه ، فلا بد له من أنصار وأعوان لذله وعجزه ، والله سبحانه ليس له ظهير ولاولي من الذل ، قال تعالى : (قُلِ ادعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم من دِونِ الله لا يَمِلكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ في السَّموات ولا فِي الأَرضِ وَمَالَهُم فِيهِمَا من شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنهُمْ من ظَهِيْرٍ)[1] وقال تعالى : (وقُل الحَمدُ لله الَّذي لم يَتَّخذ ولداً وَلَمْ يَكُن لهُ شَرِيكٌ في المُلْك وَلَم يَكُن لهُ ولِيٌّ من الذُّلّ وكَبِّرهُ تكْبِيْرا)[2] وكل مافي الوجود من الاسباب فهو خالقه وربه ومليكه ، فهو الغني عن كل ماسواه ، وكل ماسواه فقير اليه ، بخلاف الملوك المحتاجين الى ظهرائهم وهم في الحقيقة شركاؤهم في الملك ، والله تعالى ليس له شريك في الملك ، بل لا اله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

والوجه الثالث : أن يكون الملك ليس مريدا لنفع رعيته والاحسان اليهم ورحمتهم الا بمحرك يحركه من خارج ، فاذا خاطب الملك من ينصحه ويعظه ، أو من يدل عليه بحيث يكون يرجوه ويخافه تحركت ارادة الملك وهمته في قضاء حوائج رعيته ، اما لما حصل في قلبه من كلام الناصح الواعظ المشير ، وإما لما يحصل له من الرغبة والرهبة من كلام المدل عليه ، والله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وكل الاشياء انما تكون بمشيئته ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو اذا أجرى نفع العباد بعضهم على بعض فجعل هذا يحسن الى هذا أو يدعو له ويشفع فيه ونحو ذلك فهو الذي خلق ذلك كله ، وهو الذي خلق في قلب هذا المحسن الداعي الشافع من ارادة الدعاء والاحسان والشفاعة ، ولا يجوز أن يكون في الوجود من يكرهه على خلاف مراده ، أو يعلمه مالم يكن يعلم ، أو من يرجوه الرب ويخافه ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم (لايقولن أحدكم اللهم اغفر لي ان شئت اللهم ارحمني ان شئت ولكن ليعزم المسألة فان الله لامكره له) ، والشفعاء الذين

---

(١) سبأ : ٢٢ . (٢) سورة الاسراء : ١١١

يشفعون عنده لايشفعون الا باذنه ، وذكر الآيات الدالة على ذلك الى أن قال : فبين أن كل من دعي من دونه ليس له نصيب ولا شرك في الملك ، ولا هو ظهير ، وان شفاعتهم لاتنفع الا لمن أذن له ، وهذا بخلاف الملوك ، فان الشافع عندهم قد يكون له ملك ، وقد يكون شريكا لهم في الملك ، وقد يكون مظاهرا لهم معاونا لهم على ملكهم ، وهؤلاء يشفعون عند الملوك بغير اذن الملوك هم وغيرهم ، والملك يقبل شفاعتهم تارة لحاجته اليهم ، وتارة لخوفه منهم ، وتارة لجزاء احسانهم اليه ومكافآتهم لايفائهم عليه ، حتى أنه يقبل شفاعة ولده وزوجته ، لذلك فانه محتاج الى الزوجة والى الولد ، حتى لو أنه أعرض عنه زوجته وولده لتضرر بذلك ، ويقبل شفاعة مملوكه فانه اذا لم يقبل شفاعته خاف أن لايطيعه أو أن يسعى في ضرره ، وشفاعة العباد بعضهم عند بعض كلها من هذا الجنس ، فلا يقبل أحد شفاعة أحد الا لرغبته أو رهبته ، فالله تعالى لايرجو أحدا ولا يخافه ولا يحتاج الى أحد ، بل هو الغني ، واستشهد بنصوص كثيرة على ذلك وأطنب في الكلام •

(فتبين) مما نقلناه أن قياس الخالق على المخلوق في غاية الفساد ، بل هو قياس مع الفارق من وجوه كثيرة ، ومنه يعلم سقوط كلام النبهاني الغبي ، وأنه لايعلم من فن الاصول شيئا أصلا ، ولا عرف باب القياس ولا دراه •

(وأما قوله) بعد ذكره منع ابن القيم ومنعه ممنوع الخ فهي عبارة تدل على أنه لم يمارس شيئا من العلوم ، ولا قرأ مايقرؤه المبتدئون في طلب العلم وهو علم آداب البحث والمناظرة ، اذ لو شم رائحته لعلم أن المنع لايمنع ، اذ من قواعده أن منع المنع ومنع مايؤيده لايفيد ، ولولا أن هذه القاعدة من أشهر مسائل هذا الفن لتكلمنا عليها بكلام أكثر من ذلك •

فالحمد لله الذي جعل أعداء الحق وخصماء السنة من أجهل الناس بما يوجب السعادة ، وأضلهم عن سواء السبيل •

(وأما مانقله) من الفائدة عن كتاب (جلاء الافهام) وزعم أنها تناقض ماذكره ابن القيم في اغاثته من الرد على من قاس الخالق على المخلوق ، فنقول : ليس الامر كما زعم ، ولا مخالفة بين العبارتين ، ومن نقل الفائدة بنصها يتبين ما قلناه من أن النبهاني غالط في كلامه ، فقد قال ابن القيم في الكتاب المذكور بعد أن عد تسعا وثلاثين فائدة مانصه :

(الاربعون) أن الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم من العبد هي دعاء ، ودعاء

العبد وسؤاله من ربه نوعان : (أحدهما) سؤاله حوائجه ومهماته وما ينوبه في الليل والنهار ، فهذا دعاء وسؤال وايثار لمحبوب العبد ومطلوبه (والثاني) سؤاله أن يثني على خليله وحبيبه ، ويزيد في تشريفه وتكريمه ، واشادة ذكره ورفعه ،ولا ريب أن الله تعالى يحب ذلك ورسوله ، وآثر ذلك على طلبه حوائجه ومحابه هو ، بل كان هذا المطلوب من أحب الامور اليه وآثرها عنده ، فقد آثر مايحبه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على مايحبه هو ، فقد آثر الله ومحابه على ماسواه ، والجزاء من جنس العمل ، فمن آثر الله على غيره آثره الله على غيره ، واعتبر هذا بما تجد الناس يعتمدونه عند ملوكهم ورؤسائهم اذا أرادوا التقرب اليهم والمنزلة عندهم ، فانهم يسألون المطاع أن ينعم على من يعلمونه أحب رعيته اليه ، وكلما سألوه أن يزيد في حبائه واكرامه وتشريفه علت منزلتهم عنده وازداد قربهم منه وحظوتهم ، لانهم يعلمون منه ارادة الانعام والتشريف والتكريم لمحبوبه ، فأحبهم اليه أشدهم له سؤالا ورغبة أن يتم عليه انعامه واحسانه ، هذا أمر مشاهد بالحس ولا يكون منزلة هؤلاء ومنزلة من يسأل المطاع حوائجه هو وهو فارغ من سؤاله تشريف محبوبه والانعام عليه واحدة ، فكيف بأعظم محب وأجله لاكرم محبوب وأحقه بمحبة ربه له ؟ ولو لم يكن من فوائد الصلاة عليه الا هذا المطلوب وحده لكفى المؤمن به شرفا الخ .

(هذه هي عبارة جلاء الافهام) وهي الفائدة الاربعون لا التاسعة والثلاثون كما وهم النبهاني ، وأنت تعلم أن ماأسقطه ولم ينقله شيء كثير ، والذي حذفه هو الذي يوضح المسألة ، وهكذا شأنه يحذف ما عليه وينقل مالا فائدة له فيه ، وابن القيم رحمه الله أجل من أن يتكلم بما يخالف الكتاب والسنة وما كان عليه السلف ، وكلامه يصدق بعضه بعضا ويبين بعضه بعضا ، فما ذكره في اغاثته من منع اتخاذ الوسائط في الالتجاء اليه تعالى والعبادة والتوكل والنذر وغير ذلك لم يتكلم بخلافه في كتاب من كتبه ، فلا يجوز أن يطلب الرزق من مخلوق ويقصد جعله واسطة في حصول رزقه ، ولا أن يطلب كشف الضر أو تحويله من ملك أو بشر بقصد أن يكونوا وسائط عند الله في هذا المرام كما يستشفع بالوسائط عند الملوك والاكابر ، لما سبق أن هذا قياس مع الفارق وأن اتخاذ الوسائط الى الله فيما لايقدر عليه الا الله هو شرك المشركين ، وهو الذي أرسل الله لمحوه الانبياء والمرسلين ، وما ذكره في جلاء الافهام من أن سؤال الرب سبحانه أن يثني على رسوله ويشرفه ويتعطف

عليه هو آثر عنده من أن يطلب السائل شيئا لنفسه •

ثم لتوضيح المسألة قال : واعتبر ذلك بما تجد الناس يعتمدونه عند ملوكهم ، الخ ، أي قس سؤال الله أن يتفضل على خليله وحبيبه وأنه آثر من السؤال أن يتفضل على السائل بسؤال الرعايا للملك أن يتفضل بالطافه على من يعلمون أن الملك يحبه من أمير أو وزير أو أحد الرعايا ، اذا قسته تجد الامر كما وصف من أن الملك يؤثر لديه هذا السؤال ، وكذلك يقال اذا كان لاب واحد عدة بنين ومنهم من هو أحب اليه من غيره ، فلا شك أن أحد الابناء اذا سأل أباه أن يخص الابن الذي هو أحب أبنائه باحسان وعطية كان ذلك آثر لدى الاب من أن يسأله أحد الابناء شيئا لنفسه ، وهذا من باب ضرب المثل وتوضيح المسألة ، ومن أين هنا اتخاذ الوسائط والالتجاء الى غير الله ، وههنا القياس صحيح والجامع موجود ، فان الله سبحانه يؤثر لديه سؤال العبد ماهو مرغوب له تعالى على سؤال العبد ماتعود مصلحته اليه كما أن المحسوس كذلك •

فانظر الى غباوة هذا الملحد الزائغ حيث لم يفرق بين ماذكر في (الاغاثة) وبين ماذكر في (جلاء الافهام) مع أن الفرق كما بين النور والظلام •

ثم ان مانقله عن الشيخ محيي الدين من أنه استعمل هذا القياس في الفتوحات المكية وهو قوله : لما كان الحق تعالى هو السلطان الاعظم ، ولا بد للسلطان من مكان يكون فيه حتى يقصد بالحاجات ــ مع أنه تعالى لايقبل المكان ــ اقتضت المرتبة أن يخلق عرشا ، ثم ذكر أنه استوى عليه حتى يقصد بالدعاء وطلب الحوائج منه كل ذلك رحمة بعباده وتنزلا لعقولهم ، انتهى : لايدل على مقصده بل على نقيضه ، فان النبهاني قصد من صحة القياس اتخاذ الوسائط ليقربوه الى الله زلفى ، وهو عين معتقد أهل الشرك •

والشيخ محيي الدين بين سبب خلق العرش ، وأن الله استوى عليه حتى يقصد بالدعاء وطلب الحوائج ، والفرق جلي بين المقامين ، ولا مناسبة بين الكلامين •

وما نقله عن مسالك الحنفاء للقسطلاني مما يؤيد اتخاذ الوسائط قياسا على ملوك الدنيا مردود على قائله ، والقسطلاني أيضا كان من الغلاة وكلامه ليس بحجة على المسلمين ، ومدار الاستدلال الكتاب والسنة ، ومفاسد سوء الفهم أكثر من أن تحصى •

(قال النبهاني) ثم بعد كتابتي هذا رأيت عبارة للامام أحمد هي من أقوى

الادلة المقنعة لابن القيم وغيره في جواز هذا التشبيه ، وهي مذكورة في كتاب (منهاج السنة) وهي أن الامام أحمد قال قالت الجهمية ــ لما وصفنا الله تعالى بهذه الصفات ــ اذ زعمتم أن الله ونوره والله وقدرته والله وعظمته فقد قلتم بقول النصارى حين زعمتم أن الله لم يزل ونوره ولم يزل وقدرته ، قلنا : لانقول أن الله لم يزل وقدرته ولم يزل ونوره ، ولكن نقول لم يزل الله بقدرته ونوره لامتى قدر ولا كيف قدر ، فقال : لاتكونون موحدين أبدا حتى تقولوا كان الله ولا شيء فقلنا : نحن نقول قد كان الله ولا شيء، ولكن اذا قلناأن الله لم يزل بصفاته كلها أليس انما نصف الها واحدا بجميع صفاته ؟ وضربنا لهم في ذلك مثلا ، فقلنا : أخبرونا عن هذه النخلة أليس لها جذع وكرب وليف وسعف وخوص وجمار واسمها اسم واحد وسميت نخلة بجميع صفاتها ؟ فكذلك الله تعالى وله المثل الاعلى بجميع صفاته اله واحد ، لا نقول انه قد كان في وقت من الاوقات لايقدر حتى خلق قدرة والذي ليس له قدرة هو عاجز ، ولا نقولقد كان في وقت من الاوقات لايعلم حتى خلق لنفسه علما والذي لايعلم هو جاهل ، ولكن نقول : لم يزل الله عالما قادرا مالكا لامتى ولا كيف ، وقد سمى الله رجلا كافرا اسمه الوليد بن المغيرة المخزومي فقال : (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) [1] وقد كان هذا الذي سماه الله وحيدا له عينانوأذنان ولسان وشفتان ويدان ورجلان وجوارح كثيرة فقد سماه الله وحيدا بجميع صفاته ، فكذلك الله تعالى ــ وله المثل الاعلى ــ هو بجميع صفاته اله واحد .

قال النبهاني : انتهى كلام الامام أحمد بحروفه ، فأنت تراه لم يجعل التشبيه الذي شبهه ــ بقوله فكذلك الله تعالى ــ بملك له وزراء ، وانما جعل ذلك التشبيه بجماد وهو النخلة وكافر وهو الوليد بن المغيرة ، فاذا جاز ضرب الجماد والكافر مثلا لله تعالى وصفاته العلية أفلا يجوز ضرب المثل لله تعالى وأنبيائه وعباده الصالحين بملوك الدنيا ووزرائهم وخواصهم ؟ ولعمري إن جواز ذلك أوضح من أن يتردد فيه مثل ابن القيم مع وفرة فهمه ودقة علمه ، ولكن هواه في نصرة تلك البدعة كان حجابا له عن ذلك الخ .

(أقول جوابه) أن هذا النقل عن الامام صحيح ، وهو من كتابه في الرد على الجهمية ، وهم أصحاب جهم بن صفوان الذي كان يقول بنفي الصفات عن الله

(١) المدثر : ١١

تبارك وتعالى ، والامام أحمد رد عليه وعلى أصحابه برسالة مختصرة ، وهي متداولة بين الايدي ، وقد طبعت في الهند ، وليس فيما نقله النبهاني مايمس مطلبه والاستدلال بمثل ذلك على جواز اتخاذ الوسائل بين العبد وبين الله في الالتجاء اليه والاستعانة به وغير ذلك ، ويكفي هذا الفهم دليلا على جهل النبهاني وغباوته وافلاسه من كل فضيلة ، ومن العجب أني رأيت كل من كان على هذا المسلك المعوج ذا غباوة وجهل وحجاب على بصيرته ، وذلك قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِم أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[1] وقوله سبحانه : (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ . فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ)[2]

ان الامام أحمد قدس الله روحه كان من أجل مشايخ الموحدين ، كيف يقول بجواز اتخاذ الوسائط والوسائل وهو مذهب المشركين ؟ ولكنه تناظر مع الجهمية فيما خالفوا به أهل السنة ، ومن جملة ماناظرهم به مسألة الصفات ، وقبل هذه العبارة التي نقلها النبهاني عن الشيخ عبارة أخرى ، وبها يتضح المراد .

قال الامام : وقلنا للجهمية من القائل يوم القيامة (يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ)[3] أليس الله هو القائل قالوا : يكون الله شيئا يعبر عن الله كما كون شيئا فعبر لموسى .

فقلنا : فمن القائل : (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ . فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ)[4] أليس الله هو الذي يسأل ؟ قالوا : هذا كله انما يكون شيئا يعبر عن الله .

فقلنا لهم : قد أعظمتم على الله الفرية حين زعمتم أنه لايتكلم ، فشبهتموه بالاصنام التي تعبد من دون الله ، لأن الاصنام لاتتكلم ولا تنطق ولا تتحرك ولا تزول من مكان الى مكان ، فلما ظهرت عليهم الحجة قالوا ان الله قد تكلم لكن كلامه مخلوق .

---

(١) البقرة ٦ ، ٧ ـ (٢) الملك : ١٠ ، ١١ ـ (٣) سورة المائدة : ١١٦ ـ (٤) الاعراف : ٦ ، ٧

فقلنا وكذلك بنو آدم كلامهم مخلوق فشبهتم الله بخلقه حين زعمتم أن كلامه مخلوق ، ففي مذهبكم أن الله قد كان في وقت من الاوقات لايتكلم حتى خلق التكلم ، وكذلك بنو آدم كانوا لايتكلمون حتى خلق لهم كلاما ، فجمعتم بين كفر وتشبيه ، فتعالى الله عن هذه الصفة علوا كبيرا ، بل نقول : ان الله لم يزل متكلما اذا شاء ، ولا نقول إنه قد كان لايتكلم حتى خلق كلاما ، ولا نقول انه قد كان لايعلم حتى خلق علما فعلم ، ولا نقول انه قد كان ولا قدرة حتى خلق لنفسه قدرة ، ولا نقول انه قد كان ولا نور حتى خلق لنفسه نورا ، ولا نقول انه قد كان ولاعظمة حتى خلق لنفسه عظمة •

فقالت الجهمية لنا لما وصفنا الله بهذه الصفات : ان زعمتم أن الله ونوره والله وعظمته والله وقدرته فقد قلتم بقول النصارى حين زعمتم أن الله لم يزل ونوره الى آخر ماسبق نقله ، انتهى •

فالمقصود من كلام الامام أحمد من ضرب النخلة والوحيد مثلا : أن الذات المتصفة بصفات تتصف بالوحدانية ، لأن الصفات لاتستقل بنفسها ، ولا يمكن انفكاكها عن الذات الا في الذهن ، واعتراض الجهمية والمعتزلة لايرد على أهل السنة، ومذهب النصارى لايصلح نقضا ، فانهم أثبتوا الاقانيم الثلاثة وكل منها مستقل ، فالتعدد متحقق ، وأما المثبتون للصفات فعندهم أن الذات لاتنفك عنها أصلا ، والتعدد منتف ، وتفصيل ذلك في كتب الكلام ، والامام مثل لصحة اطلاق الواحد على الذات المتصفة بالصفات بما هو أبلغ منه وهو اطلاق اسم النخلة على ماتركب من جذع وكرب وليف وسعف وخوص وجمار ، وسمى الوليد بن المغيرة المخزومي وحيدا مع ماله من الاعضاء والاجزاء المحسوسة ، وهكذا الحائط ، والمركب ، والسرير ، والكتاب ، الى مالا يحصى من الاشياء التي استحقت اطلاق لفظ الواحد مع تعدد ماتركبت منه ، فكيف لايتحد ولا يطلق الواحد على المتصف بالصفات •

فالامام أحمد لم يشبه رب العالمين بالنخلة ولا بالوليد ولا بغيرهما من المخلوقات تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، انما شبه اطلاق الواحد على الله باطلاقه على أشياء تركبت من أمور كثيرة كان ينبغي أن لايطلق عليها ذلك ، فاطلاقه على الذات المتصفة بالصفات أولى بالجواز والصحة •

فانظر الى سوء فهم النبهاني كيف فهم من عبارة الامام مافهم ، وأوقعه جهله في مهواة من الضلال حتى زعم أن الامام شبه اله العالمين بالنخلة ونحوها ، كل ذلك

غراما منه باتخاذ الواسطة وعبادة غير الله تعالى ، قاتله الله ماأضله وأكفره •

ثم ان من مزيد جهله جعل النخلة من الجماد ، ولا يصلح ذلك لغة ولا عرفا ، ولا حقيقة ولا مجازا ، بل النخلة هي من الشجر ، وبذلك ورد الحديث الصحيح حيث شبهها بالمؤمن ، والحمد لله الذي جعل أعداء السنة والحق من الذين لايفرقون بين النبات والجماد ، وشبهوا الخالق بالمخلوق ، وخبطوا في أعمالهم وعقائدهم خبط عشواء •

والكلام على استدلال النبهاني بقوله تعالى : (مَثَلُ نورِهِ كَمِشْكَاةٍ) كالكلام على ماسبق ، على أن في المراد بالنور أقوالا ليس هذا موضع ذكرها •

(قال النبهاني) وقد قال ابن القيم نفسه في كتابه (طريق الهجرتين) في فصل مراتب المكلفين في الدار الآخرة وطبقاتهم فيها : وهم ثماني عشرة طبقة الطبقة الاولى وهي العليا على الاطلاق مرتبة الرسالة ، فأكرم الخلق على الله وأخصهم بالزلفى لديه رسله ، وهم المصطفون من عباده ، الى أن قال : ويكفي في فضلهم وشرفهم أن الله سبحانه اختصهم لوحيه ، وجعلهم أمناء على رسالته ، وواسطة بينه وبين عباده وخصهم بأنواع كراماته ، فمنهم من اتخذه خليلا ، ومنهم من كلمه تكليما ، ومنهم من رفعه مكانا عليا على سائرهم درجات ، ولم يجعل لعباده وصولا الا من طريقهم ، ولا دخولا الى الجنة ا لاخلفهم ، ولم يكرم أحدا بكرامة الا على أيديهم ، فهم أقرب الخلق اليه وسيلة ، وأرفعهم عنده درجة ، وأحبهم اليه ، وأكرمهم عليه ، وبالجملة فخير الدنيا والآخرة انما ناله العباد على أيديهم ، وبهم عرف الله ، وبهم عبد وأطيع ، وبهم حصلت محابه تعالى في الارض ، وأعلاهم منزلة أولوا العزم منهم المذكورون في قوله تعالى :(شَرَعَ لكُم من الدِّين ما وصَّى به نُوحاً والذي اوحينا إليك وما وصَّيْنَا بهِ إبراهِيمَ ومُوسَى وعِيْسَى)[1] وهؤلاء هم الطبقة العليا من الخلائق ، وعليهم تدور الشفاعة حتى يردوها الى خاتمهم وأفضلهم •

(قال النبهاني) انتهت عبارته رحمه الله ، فاذا كان هو بنفسه يصفهم بهذه الاوصاف الجميلة التي هم أهلها ومحلها ، وقد صرح فيها بأنهم واسطة بينه تعالى وبين عباده ، وأنهم أقرب الخلق اليه تعالى وسيلة ، وأن خير الدنيا والآخرة انما

---

(١) الشورى : ١٣

ناله العباد على أيديهم ، فما الذي جرى له بعد ذلك حتى تبع شيخه ابن تيمية في منع الاستغاثة بهم الى الله تعالى ، وجعلهم واسطة بين العباد وبينه عز وجل ، ووسيلة الى قضاء حوائجهم الدنيوية والاخروية ، أفلا يعد هذا من ابن القيم تناقضا ؟ انتهى •

(أقول في الجواب) ان ابن القيم رحمه الله وكذلك شيخه ومن على منهاجهم من أكثر الناس حبا للانبياء والرسل عليهم السلام ، وكتبهم طافحة ببيان مايجب لهم من التوقير والاحترام ، وفي كتاب (مفتاح دار السعادة) بحث مفصل في بيان حاجة الناس اليهم ومايجب من العمل بهديهم ، حتى قال : ان العالم لو خلا من هديهم فسد وخرج عن نظامه الى آخر ماتكلم به ، ومن مزيد محبتهم له وتوقيرهم اياه حافظوا على هديهم وسننهم وما جاؤا به من عند الله ، ومن هديهم تخصيص الله تعالى بالعبادة والالتجاء اليه ، والنذر له والتوكل عليه ، وندائه في المهمات ، والاستعانة به في طلب الحاجات ، الى غيرذلك من تخصيصه بخصائص الربوهية والالوهية •

ومانقله النبهاني عن ابن القيم هو معتقد كل مسلم حنيف يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فضلا عن شيخ الاسلام ، ومن كان على سننه من الائمة الاعلام — ولا شك أن رسل الله هم الوسائط العظمى بين الله وبين المكلفين من عباده في تبليغ شرائعه وما يريده سبحانه من عباده ، وبيان أسباب السعادة الدنيوية والاخروية ، لا أنهم وسائط بالمعنى الذي فهمه الغبي النبهاني ، حتى زعم أن ذلك مراد ابن القيم ، وأخذ يوبخه بقوله فما الذي جرى له بعد ذلك حتى تبع شيخه ابن تيمية في منع الاستغاثة بهم الى الله الخ ، بل المراد بالوسائط في كلامه بالمعنى الذي ذكرناه ، وعليه أئمة الدين ، وأكابر الموحدين •

(قال شيخ الاسلام قدس الله روحه) — في الجواب عن سؤال فيه أن رجلين تناظرا ، فقال أحدهما لابد لنا من واسطة بيننا وبين الله فانا لانقدر أن نصل اليه بغير ذلك — الحمد لله رب العالمين ، ان أراد بذلك أنه لابد من واسطة يبلغنا أمر الله فهذا حق ، فان الخلق لايعلمون مايحبه الله ويرضاه ، وما أمر به ومانهى عنه ، وما أعده لاوليائه من كرامته وما وعد به أعداءه من عذابه ، ولا يعرفون مايستحقه الله من أسمائه الحسنى وصفاته العليا التي تعجز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك الا بالرسل الذين أرسلهم الله تعالى الى عباده ، فالمؤمنون بالرسل المتبعون لهم هم المهتدون الذين يقربهم لديه زلفى ويرفع درجاتهم ويكرمهم في الدنيا والآخرة •

وأما المخالفون للرسل فانهم ملعونون ، وهم عن ربهم ضالون محجوبون ، قال

الله تعالى : (يا بَنِي آدم إما يأْتِينَّكم رُسُلٌ منكُم يَقُصُّونَ علَيكُم آياتِي فَمن اتَّقى وأَصلحَ فلا خَوفٌ عليهِم ولا هُم يَحْزَنونَ . والَّذيْن كَذَّبوا بآياتنَا واسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ اصْحابُ النَّارِ هُم فيهَا خالدُونَ) [1] وقال تعالى : (فامَّا يَأْتينَّكُم مِنِّي هُدى فَمنِ اتَّبعَ هُدايَ فلا يضِلُّ ولا يشقَى . ومَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْري فإنَّ لهُ معِيشَةً ضنْكا ونَحشُرُهُ يوم القيَامَةِ أَعْمى . قَالَ رَبِّ لِمَ حشَرْتَنِي أَعْمَى وقدْ كُنْتُ بَصيراً . قالَ كَذَلك أَتتْكَ آياتُنا فنَسيْتَها وكَذَلكَ اليَومَ تُنْسى) [2]

قال ابن عباس : تكفل الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لايضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة .

وقال تعالى عن أهل النار : (كُلَّمَا أُلقِي فِيْها فَوجٌ سَأَلَهُم خزنتها أَلَم يأْتكم نَذِيرٌ . قَالُوا بَلى قدْ جاءَنا نَذيرٌ فَكَذَّبْنَا وقُلْنا ما نَزَّل اللهُ منْ شَيْءٍ إن أَنْتُمْ إلَّا في ضَلَالٍ كَبيْرٍ) [3] وقال تعالى : (وسيقَ الَّذيْنَ كَفرُوا إلى جَهنَّم زُمَراً حتَّى إذَا جاؤُهَا فُتِحَتْ أَبْوابُها وقَال لَهم خَزنَتُها أَلَمْ يأْتكُمْ رُسُلٌ مِنْكُم يَتلُون عليكُم آياتِ ربِّكُم ويُنْذرُونَكم لِقاءَ يَومِكُم هذَا قالُوا بلَى ولَكِنْ حَقَّت كَلِمَةُ العذَابِ عَلى الكَافرِينَ) [4]

وقال تَعالى : (ومَا نُرسِلُ المرسَلينَ إلَّا مُبشِّرين ومنْذِريْنَ فَمَنْ آمنَ واصْلح فلا خَوفٌ عليْهم ولَا هُم يَحْزَنون . والَّذينَ كَذبوا بآياتنا يَمسُّهُمُ العذَاب بِما كَانو يفْسُقُون) [5] وقال تعال : (إنَّا اوحينَا اليْكَ كَما اوحَينَا إلى نُوحٍ والنَّبيِّينَ مِنْ بعده وأَوحَينَا الى ابْراهيم واسْمَاعيلَ واسْحاقَ ويعقُوبَ

---

(١) الاعراف : ٣٥ ، ٣٦ – (٢) طه : ١٢٣ – ١٢٥ – (٣) الملك : ٨،٩ – (٤) الزمر : ٧١ –
(٥) الانعام : ٤٨ ، ٤٩

والأسْباطِ وعيْسى وأيُّوب ويُونُس وهَرونَ وسُلَيْمانَ وآتَينا داودَ زَبُوراً ورُسُلاً قَدْ قصصْنَاهُم عليكَ مِن قَبلُ ورُسُلاً لم نقْصُصْهم عَليْكَ وكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً . رُسُلاً مُبَشرِيْنَ ومُنْذِرِيْنَ لِئلا يَكُونَ للنَّاس عَلى اللهِ حُجَّةٌ بعدَ الرُّسُلِ)[1] ومثل هذا في القرآن كثير .

وهذا مما أجمع عليه أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى ، فانهم يثبتون الوسائط بين الله وبين عباده ، وهم الرسل الذين بلغوا عن الله تعالى أمره وخبره . قال تعالى : (اللهُ يصطَفي منَ المَلائكَةِ رُسُلاً ومنَ النَّاسِ)[2]

ومن أنكر هذه الوسائط فهو كافر باجماع أهل الملل .

والسور التي أنزلها الله تعالى بمكة — مثل الانعام والاعراف وذوات آلر وحم وطس . ونحو ذلك هي — متضمنة لاصول الدين ، كالايمان بالله ورسله واليوم الآخر ، وقد قص الله تعالى قصص الكفار الذين كذبوا الرسل ، وكيف أهلكهم ونصر رسله والذين آمنوا ، قال تعالى : (ولقَد سَبقَت كَلِمتُنا لِعبادنا المُرسلِيْنَ . إنَّهُم لَهم المَنصُورون . وإنَّ جُندَنا لَهم الغالِبُونَ)[3] وقال : (إنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والَّذِينَ آمَنُوا في الحياة الدُّنيا ويوْمَ يقُومُ الأشْهادُ)[4]

فهذه الوسائط تطاع وتتبع ويقتدى بها كما قال : (ومَا ارسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ لِيُطَاعَ بإذْنِ اللهِ)[5] وقال تعالى : (منْ يُطِعِ الرَّسُولَ فقَد أَطَاعَ اللهَ)[6] وقال تعالى (قلْ إنْ كُنْتُم تُحِبونَ اللهَ فاتَّبعُونِي يُحببْكُم اللهُ)[7] وقال : (فالَّذِين آمنُوا به وعَزَّروهُ ونصَرُوهُ واتَّبعُوا النُّورالَّذي أُنزِلَ معَهُ أُولئكَ هُم المفلحُونَ)[8] وقال تعالى : (لقدْكانَ لكُم في رَسُولِ اللهِ أُسْوةٌ حَسَنَةٌ لِمنْ كانَ يرْجُوا اللهَ واليومَ الآخِر)[9]

---

(١) النساء : ١٦٣ — ١٦٥ — (٢) الحج : ٧٥ — (٣) الصافات : ١٧١ — ١٧٣ — (٤) غافر : ٥١ —
(٥) النساء : ٦٤ — (٦) النساء : ٨٠ — (٧) آل عمران : ٣١ — (٨) الاعراف : ١٥٧ —
(٩) الاحزاب : ٢١

(قال وان أراد بالواسطة) انه لابد من واسطة في جلب المنافع ودفع المضار ـ مثل ان يكون واسطة في رزق العباد ونصرهم وهداهم ، يسألونه ذلك ويرجعون اليه فيه ـ ، فهذا من أعظم الشرك الذي كفر الله به المشركين ، حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء ، يجتلبون بهم المنافع ويدفعون بهم المضار ، الى آخر ما نقلناه سابقا من كلام شيخ الاسلام عليه الرحمة .

وبه علم أن النبهاني مخطيء فيما فهم من كلام ابن القيم ، ومعناه الصحيح ماذكره شيخ الاسلام وجمهور أهل الايمان ،وان كان بعيدا عن فهم النبهاني وسائر الغلاة .

(قال النبهاني) ومثل تناقضه هذا تناقضه الواقع في عبارته السابقة الشنيعة المعبرة عن القبر المزار بالوثن وأوصاف الزائرين التي ذكرها هي أوصاف زواره صلى الله عليه وسلم ، وقد اتبع الحق بقصيدته النونية ، فذكر فيها أن الله تعالى قد استجاب دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم وهو قوله : (اللهم لاتجعل قبري وثنا يعبد) فاستجاب الله دعاءه ، وهذه أبيات ابن القيم :

ولقد نهانا ان نصير قبره	عيدا حذار الشرك بالديان
ودعا بأن لايجعل القبر الذي	قد ضمه وثنا من الاوثان
فاجاب رب العالمين دعاءه	وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى اغتدت ارجاؤه بدعائه	في عزة وحماية وصيان

وجميع الاوصاف الجميلة التي ذكرها في عبارته السابقة للانبياء عليهم السلام لاشك أنها تؤهلهم لمرتبة الاستغاثة بهم الى الله لقضاء حوائج المستغيثين الى آخر كلامه .

(أقول جوابه) أن ماذكره هذا المعترض من النقل والتصرف فيه مما هو من شأن القبوريين والغلاة كافة ، ويزيد عليهم هذا بما في كلامه وتصرفه في كلام غيره من الخطأ والتلبيس ، والقصور في الفهم ، والتقصير في النظر ، كفهمه من كلام العلماء مالم يريدوه ، ومخالفته لهم فيما قصدوه ، والزامه لهم مالم يعتقدوه ، وحكمه عليهم بالظن الكاذب ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث) بل دأب هذا الضال ـ كأسلافه ـ التمسك بالامور المتشابهة الخفية ، والاعراض عن الاشياء المحكمة الواضحة ، كما أن عادته الاعتماد على حديث ضعيف أو مكذوب ، أو خبر متشابه لايدل على المطلوب ،وليس هذا طريق العلماء القاصدين

لايضاح الدين ، وارشاد المسلمين ، نعوذ بالله من اتباع الهوى •

(زعم هنا النبهاني) ان الشيخ ابن القيم تناقض كلامه في كتابين حيث ذكر (في اغاثته) أن الاستغاثة بغير الله شرك ودعاء غير الله ضلال ، وبرهن على ذلك بما هو معلوم لاهل العلم والنظر ، ففهم منه ان من استغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم عند قبره فقد عبده من دون الله ، فلزم أن يكون قبره وثنا • (وفي النونية) وهي منظومته المسماة بالكافية الشافية يقول مامعناه : ان النبي صلى الله عليه وسلم دعا الله ان لايجعل قبره وثنا يعبد ، وان الله تعالى استجاب دعاءه ، ولم يجعل قبره وثنا يعبد • (ففهم) من كلامه ان الله استجاب دعاءه • ان ما يفعله الزائرون من الاستغاثة والتوسل وسائر الاعمال ليس كما يزعمه المانعون من انها شرك ، هذا حاصل ماتوهمه النبهاني في كلام ابن القيم من التناقض والمخالفة •

وهذا هو اللائق بفهم النبهاني ومن ختم الله على قلبه وجعل على سمعهم وأبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ، وقد مر الجواب عما فهمه هذا الغبي فيما نقلناه من كلام شيخ الاسلام المتعلق بزيارة القبور ، ومنه قوله : ان لفظ زيارة قبره صلى الله عليه وسلم ليس المراد بها نظير المراد بزيارة قبر غيره يوصل اليه ويجلس عنده ، ويتمكن الزائر مما يفعله الزائرون للقبور عندها من سنة وبدعة ، وأما هو صلى الله عليه وسلم فلا سبيل لاحد أن يصل الا الى مسجده لا يدخل أحد بيته ولا يصل الى قبره ، بل دفنوه في بيته بخلاف غيره فانهم دفنوه في الصحراء ، كما في الصحيحين عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في مرض موته : (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر مافعلوا • قالت عائشة : ولولا ذلك لابرز قبره ، ولكن كره ان يتخذ مسجدا) فدفن في بيته لئلا يتخذ قبره مسجدا ولا وثنا ولا عيدا ، فان في سنن أبي داود من حديث أحمد بن صالح عن عبد الله بن نافع أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لاتجعلوا بيوتكم قبورا ولا تجعلوا قبري عيدا وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم) • وفي الموطأ وغيره عنه أنه قال : (اللهم لاتجعل قبري وثنا يعبد • اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وفي صحيح مسلم عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس : (ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، الا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فاني أنهاكم عن ذلك) • فلما لعن من يتخذ القبور مساجد تحذيرا لامته من ذلك ونهاهم عن

ذلك ونهاهم أن يتخذوا قبره عيدا : دفن في حجرته لئلا يتمكن أحد من ذلك ، وكانت عائشة ساكنة فيها فلم يكن في حياتها أحد يدخل لذلك انما يدخلون اليها هي ، ولما توفيت لم يبق بها أحد ، ثم لما أدخلت في المسجد سدت وبني الجدار البراني عليها ، فما بقي أحد يتمكن من زيارة قبره كالزيارة المعروفة عند قبر غيره سواء كانت سنية أو بدعية ، بل انما يصل الناس الى مسجده ، ولم يكن السلف يطلقون على هذا زيارة لقبره ، ولا يعرف عن أحد من الصحابة لفظ زيارة قبره البتة ، ولم يتكلموا بذلك ، وكذلك عامة التابعين لايعرف هذا في كلامهم ، فان هذا المعنى ممتنع عندهم فلم يعبروا عن وجوده ، وقد نهى عن اتخاذ بيته وقبره عيدا ، وسأل الله تعالى أن لايجعله وثنا ، ونهى عن اتخاذ القبور مساجد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ولهذا كره مالك وغيره أن يقال زرنا قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو كان السلف ينطقون بهذا لم يكرهه مالك ، وقد باشر التابعين بالمدينة وهم أعلم الناس بمثل ذلك ، ولو كان في هذا حديث معروف عن النبي صلى الله عليه وسلم لعرفه هؤلاء ، ولم يكره مالك وأمثاله من علماء المدينة الاخبار بلفظ تكلم به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد كان رضي الله عنه يتحرى ألفاظ الرسول في الحديث فكيف يكره النطق بلفظه ، لكن طائفة من العلماء سموا هذا زيارة لقبره وهم لايخالفون مالكا ومن معه في المعنى ، بل الذي يستحبه أولئك من الصلاة والسلام وطلب الوسيلة ونحو ذلك في مسجده يستحبه هؤلاء ، لكن هؤلاء سموا هذا زيارة لقبره وأولئك كرهوا أن يسموا هذا زيارة لقبره ، وقد حدث من بعض المتأخرين في ذلك بدع لم يستحبها أحد من الائمة الاربعة ، كسؤاله الاستغفار ، وزاد بعض الجهال ماهو محرم أو كفر باجماع المسلمين كالسجود للحجرة والطواف بها وأمثال ذلك مما ليس هذا موضعه ، الى آخر ما قدمناه من الكلام النفيس .

(وبما نقلناه) يتبين انه لاتناقض ولا مخالفة في كلام الشيخ ابن القيم ، وان ماهذى النبهاني به سقط من أصله ، وكان من أوضح الدلائل على ضلاله وجهله .

(قال النبهاني) في فصله الثاني في الكلام على كتاب (الصارم المنكي في الرد على السبكي) للحافظ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي المقدسي : ألفه في الرد على كتاب (شفاء السقام في زيارة خير الانام) .منتصرا لشيخه ابن تيمية في بدعته ومنعه الاستغاثة والسفر لزيارته صلى الله عليه وسلم ، قال

وكنت حين ابتدأت بمطالعته تعجبت من شدة جرأته على هذا الامام ، بل على سيد الانام عليه الصلاة والسلام ، اذ رأيته قد بذل أقصى مافي وسعه ليثبت أن سيد الوجود صلى الله عليه وسلم لامزية له بعد موته ، وانه مثل آحاد الناس ، وكل حديث أو أثر أو قول عالم ورد بعكس عقيدته يجتهد في تأويله ، أو اثبات أنه موضوع ، وكان السبكي أثبت بتلك الاحاديث والآثار مناقب أحد أعدائه ، فهو يبذل جهده في تزييفها ، ويتكلف في كثير منها بحيث يظهر لكل من طالع كتابه أنه شديد التكلف والتعصب والتعسف وأنه رجل متهور ، مراده المحاماة عن بدعة شيخه بحق أو باطل ، ومع ذلك لم يخطر لي أن أكتب شيئا في هذا الشأن ــ مع ظهور اساءته في ذلك واحسان السبكي كل الاحسان ــ لأن التحكك بالبدعة يزيدها اشتهارا ، وذكرها ولو للرد عليها يزيدها انتشارا ، وقلت كفى المحسن احسانه والمسيء اساءته ، الى آخر ما قال •

(هذا نقد) النبهاني على كتاب (الصارم المنكي) وهو لايستحق الجواب عن كلامه هذا لفساد مبناه ومعناه ، وعبارته ركيكة جدا ليست بعبارة تصدر عن طلبة العلم فضلا عمن يدعي دعواه ، وهذا الرجل كما بينا سابقا جهله عند بيان سقطاته وغلطاته عار عن كل فضيلة ، لا علم ولا أدب ، ولا فضل ولا حسب ، ولا حياء ولا ايمان ، ولا تقوى ولا عرفان ، ونحن نبين ذلك ان شاء الله كما بيناه سابقا بالبرهان •

(أما مصنف كتاب الصارم المنكي) فهو الفقيه الحنبلي المقريء المحدث الحافظ الناقد النحوي المتفنن الجبل الراسخ عليه الرحمة والرضوان،قال المؤرخون ــ ومنهم صاحب الشذرات ــ ولد في رجب سنة أربع أو خمس أو ست وسبعمائة ، وتوفى سنة أربع وأربعين في جمادى الآخرة ، وعمره أربعون سنة أو أقل ؛ وسمع من خلق كثير ، منهم الحجار ،وعني بالحديث وفنونه ، وبرع في ذلك وأفتى ، ودرس ولازم شيخ الاسلام ابن تيمية مدة ، وأخذ عن الذهبي وغيره ، وقد ذكره في طبقات الحفاظ، قال وصنف التصانيف الكثيرة بعضها كمل وبعضها لم يكمل لهجوم المنية عليه ، وله توسع في العلوم والفقه والاصلين ، وذهن سيال ، وعدة محفوظات ، وعدله ابن رجب في طبقاته مايزيد على سبعين مصنفا ، ودفن بسفح جبل قاسيون ، انتهى ملخصا •

ومن أعدل الشواهد على فضله ، وكمال اطلاعه ومزيد انصافه كتاب (الصارم

المنكى في الرد على السبكي) •فقد أجاد فيه وأفاد ، وميز الحق من الالحاد ، ولو لم تكن له حسنة سوى هذا الكتاب لكفاه ثوابا يوم الحساب ، وبه ظهر زيف السبكي وما بهرج به من الباطل ، وتبين أنه كان من أجهل الناس بعلم الحديث ، مماريا معجبا برأيه متبعا لهواه ، ذاهبا في كثير مما يعتقده الى الاقوال الشاذة والآراء الساقطة •

ومن طالع كتاب الصارم ـ وكان من أهل الفضل والانصاف ـ علم أن ما قلناه هو غيض من فيض ، وقطرة من بحر ، فالله تعالى المسئول ان يجزيه عن كتابه (الصارم المنكى) خير الجزاء ، وينفع به المسلمين في كافة الاقطار والانحاء •

ولا بدع من النبهاني الضليل ، اذ صدر منه ما صدر في حق هذا الفاضل الجليل ، وما أحسن ما قيل :

واذا أتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأني كامل

وفي هذا المعنى قول الآخر :

لقد زادني حبا لنفسي انني ... بغيض الى كل امريء غير طائل
واني شقي باللئام ولا أرى ... شقيا لهم الا كريم الشمائل
وكل امريء الفى أباه مقصرا ... عدو لاهل المكرمات الافاضل

(وقال آخر) :

اذا ما نالت السفهاء عرضي ... ولم يخشوا من العقلاء لوما
كسوت من السكوت فمي لثاما ... وقلت نذرت للرحمن صوما

ومما يحسن أن ينشد على لسان الفاضل صاحب الرد على السبكي من تطاول مثل هذا المخذول :

لقد صبرت على المكروه أسمعه ... من معشر فيك لولا أنت ما نطقوا
وفيك داريت قوما لاخلاق لهم ... لولاك ما كنت أدري أنهم خلقوا

(أيها النبهاني) قد سمعت ما سمعت من خطابي وبياني :

ولقد أقول لمن تحرش بالهوى ... عرضت نفسك للبلا فاستهدف

أما سمعت قول الامام الشافعي رضي الله عنه حيث قال :

اذا رمت أن تحيا سليما من الاذى ... وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرىء ... فكلك عورات وللناس السن
وعينك ان أرتك يوما نقيصة ... لناس فقل ياعين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ... وفارق ولكن بالتي هي أحسن

كان الاليق بحالك أن لاتسلك هذه المسالك ، فما أنت وهؤلاء القوم ، وهم المشهورون بالفضل من عصرهم الى اليوم .

وللحروب رجال يعرفون بها ... وللدواوين حساب وكتاب

أما سمعت قول القائل :

أضحى يسد فم الافعى باصبعه ... يكفيه ماذا يلاقي منه أصبعه

لقد فات مافات، وهيهات تدارك ذلك وهيهات .

اذا ما أراد الله ذل قبيلة ... رماها بتشتيت الهوى والتخاذل

وأول خبث الماء خبث ترابه ... وأول لؤم القوم لؤم الحلائل

ثم ان النبهاني ذكر عبارة القسطلاني عن كتاب (شفاء السقام) للسبكي أن مصنفه شفى به صدور المؤمنين ، ونقل عن ابن حجر ماقاله في كتابه (الجوهر المنظم) من التلويح بذم (الصارم المنكى) .

فنقول له : ان هذا ليس بمستغرب ، فالكل عن مشرب واحد ، ولقد تشابهت قلوبهم ، وهذا بعض ما تكن صدورهم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ، وقد حكى الله سبحانه عن اخوانهم ماهو من هذا القبيل ، قال سبحانه (إِنَّ اللهَ لا يَستحيِي أَنْ يَضرِبَ مثلاً مَّا بعُوضَةَ فَما فوقها ، فأَمَّا الذِينَ آمنُوا فيعلمُون أَنَّهُ الحقُّ من ربِّهم ، وامَّا الَّذينَ كَفروا فيقُولونَ ماذا أَرادَ اللهُ بِهذَا مثَلاً يُضلُّ به كَثيْراً ويهدي به كَثيراً وما يُضِلُّ بِهِ إلاَّ الفاسِقِيْنَ)[1]

ثم ذكر حاصل ما اشتمل عليه الكتاب وان الاحاديث التي ضعفها كلها صحيحة، وانما فعل ذلك ترويجا لبدعة شيخه ابن تيمية .

فنقول : قد سبق الجواب عن كل ذلك ، وذكرنا معنى السنة والبدعة ، ومن الاحق ان يسمى مبتدعا من يوحد الله ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ، أم من أعرض عن الله وعبادته ، والتجأ الى أهل القبور ، الذين لايملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ؟! ..

(قال النبهاني) وما مثل من رد على الامام السبكي لاسيما في مثل هذا المقام الا :

---

(١) البقرة : ٢٦

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

ومع ذلك فقد رأيت الصواب في مثله الاهمال ، وعدم التعرض له بحال من الاحوال ، الى أن قال : ثم رأيت له عبارة لايجوز السكوت عليها لانتشار كتابه وطبعه قد رد بها على الامام السبكي في عبارة بين فيها وجوب تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم ، فرأيت من اللازم ذكر العبارتين ،وبيان مافي عبارته من الخطأ والمين ، ثم انه أورد أولا عبارة السبكي فقال :

(عبارة الامام السبكي) قال : والقرآن كله والاجماع المعلوم من الدين بالضرورة وسير الصحابة والتابعين وجميع علماء المسلمين والسلف الصالحين على وجوب تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم ، والمبالغة في ذلك ، ومن تأمل القرآن وما تضمنه من التصريح والايماء الى وجوب المبالغة في تعظيمه وتوقيره والادب معه صلى الله عليه وسلم وما كان الصحابة يعاملونه به من ذلك امتلأ قلبه ايمانا • ثم أورد النبهاني العبارة الاخرى فقال :

(عبارة ابن عبد الهادي) وقوله — يعني السبكي — ان المبالغة في تعظيمه واجبة ، أيريد بها المبالغة بحسب مايراه كل أحد تعظيما — حتى الحج الى قبره ، والسجود له ، والطواف به ، واعتقاد انه يعلم الغيب ، وانه يعطي ويمنع ، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع ، وانه يقضي حوائج السائلين ، ويفرج كربات المكروبين ، وانه يشفع فيمن يشاء ويدخل الجنة من يشاء — فدعوى وجوب المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك وانسلاخ من جملة الدين • انتهت عبارته •

(ثم قال النبهاني معترضا عليه) انهقد كذب في بعض عبارته على أهل السنة وهو في بعضها من أقبح المكابرين ، أما ماكذب بهفقوله حتى الحج الى قبره والسجود له والطواف به ، فهذا من أشنع الكذب الظاهر ، والاختلاق الفاحش ، فانه لم يقل احد بجواز شيء من ذلك من أهل السنة والجماعة القائلين بأن السفر لزيارته صلى الله عليه وسلم من أجل القربات ، وأعظم الطاعات ، فكيف جاز لهالتعبير بتلك العبارات ،ومعلوم بأن أجهل المسلمين يفرق بين حج البيت الحرام وزيارة خير الانام، بأن الحج فرض والزيارة سنة • وكذلك لا يعتقد أحد مشروعية الطواف به كالطواف بالبيت الحرام • وكذلك السجود له لم يجوزه أحد ، ثم أطال الكلام •

وحاصلما ذكر انه صلى الله عليه وسلم قد أطلعه الله على غيوب كثيرة ، وذكر بعض أكاذيب : منها ان شيخه اخبره بالغيب ، الى أن قال : وأما كونه صلى الله عليه وسلم يعطي ويمنع ويقضي حوائج السائلين الخ • فهو لاشك فيه ، ولا يتردد

بصحته ووقوعه الا كل من تراكم على قلبه الجهل والظلام ، قال : ومن يشك انه صلى الله عليه وسلم يعطي بالله ، ويمنع بالله ، ويقضي حوائج السائلين بالله، ويفرج كربات المكروبين بالله ، ويشفع فيمن يشاء ويدخل الجنة من يشاء بتشفيع الله له فيهم ، ولم يعتقد فيه صلى الله عليه وسلم أحد من المسلمين انه يفعل من ذلك شيئا بنفسه ، ثم ذكر وقوع ذلك في حياته صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته ، ونقل في ذلك عدة حكايات من كتاب (مصباح الظلام في المستغيثين بخير الانام) لابي عبدالله محمد بن النعمان المغربي التلمساني المالكي ، وكتاب (بغية الاحلام) للشيخ نور الدين علي الحلبي صاحب السيرة ، وأورد حديث (حياتي خير لكم) • وحديث الشفاعة الى آخر كلامه •

(ونحن نجيب) بتوفيق الله تعالى واعانته فنقول الجواب عما اعترض به من وجوه :

(أما أولا) فان السبكي جعل السفر لزيارة القبر وإعمال المطي لها والاستغاثة به صلى الله عليه وسلم من باب تعظيمه وتوقيره ، وابن قدامة رحمه الله تعالى رد عليه وقال ماحاصله : أنه ليس كل تعظيم مشروعا ، فالسجود فيه تعظيم مع أنه لغير الله تعالى كفر ، والطواف بالقبر تعظيم وهو أيضا منهي عنه واعتقاد انه يعلم الغيب فيه تعظيم وهو من خواص الالوهية وهكذا جميع ماهو من خواص الاله سبحانه فيها تعظيم وتوقير ولا يجوز اثباتها لغير الله تعالى ، لا لملك مقرب ولا لنبي ولا لرسول، وما ذكره السبكي من هذا القبيل ، وليس مراده أن القائلين به يفعلون هذه الامور المنكرة حتى يرد ماذكره النبهاني أنه قد كذب على أهل السنة في بعض عبارته وهو في بعضها من أقبح المكابرين الخ •

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

والحاصل أن مانهى الله عنه وزجر عنه رسوله صلى الله عليه وسلم لايجوز فعله وان كان من الافعال التعظيمية ، وامتثال أمره صلى الله عليه وسلم والانتهاء عما نهى عنه هو تعظيمه ، وفيه توقيره ، وهو الموجب لسعادة الدارين ، والظفر بما يكون سببا لقرة العين ، وأما الاعمال المضادة لما جاء صلى الله عليه وسلم به ــ وان قصد فاعلها التعظيم بها ــ فهي موجبة لغضب الرب والحرمان من محبة الرسول ، قال تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)[1]

---

(١) آل عمران : ٣١

(وأما ثانيا) فان الحافظ ابن قدامة لم ينسب ماذكر من الاعمال المنكرة لأهل السنة ، بل لو نسبها لنسبها الى الغلاة الخارجين عن الدين ، المارقين عن سبيل المؤمنين ، فان الدعاء مخ العبادة ، فمن دعا غير الله والتجأ اليه وتوكل عليه واستعاذ به واستعان به فيما لايقدر عليه الا الله وغير ذلك فقد عبده ، ومن عبد غيره تعالى فليس هو من الدين في شيء ، وأهل السنة في عرف النبهاني وأضرابه من الغلاة هم الذين على منواله وليس الامر كما زعم ، بل هم الذين يعملون بما ورد في الكتاب والسنة ، وكانوا على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ولم يغيروا ولم يبدلوا ، وقد ذكرنا ذلك غير مرة •

(وأما ثالثا) فقول النبهاني : اما ما كذب به فقوله : حتى الحج الى قبره والسجود له والطواف به • فهذا من أشنع الكذب الظاهر : هو دعوى ليس عليها برهان بل يكذبها العيان •

وليس يصح في الاعيان شيء ... اذا احتاج النهار الى دليل

هذه المشاهد المشهودة اليوم قد اتخذها الغلاة أعيادا للصلاة اليها ، والطواف بها ، وتقبيلها ، واستلامها ، وتعفير الخدود على ترابها ، وعبادة أصحابها ، والاستغاثة بهم ، وسؤالهم النصر ، والرزق ، والعافية ، وقضاء الديون ، وتفريج الكربات ، واغاثة اللهفات ، وغير ذلك من أنواع الطلبات ، التي كان عباد الاوثان يسألونها أوثانهم ، ومن لم يصدق ذلك فليحضر مشهدا من مشاهد العراق ، حتى يرى الغلاة وقد نزلوا عن الاكوار والدواب ــ اذا رأوها من مكان بعيد ــ فوضعوا لها الجباه ، وقبلوا الارض ، وكشفوا الرؤوس ، وارتفعت أصواتهم بالضجيج ، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج ، ورأوا أنهم قد أربوا في الربح على الحجيج ، فاستغاثوا بمن لايبدي ولا يعيد ، ونادوا ولكن من مكان بعيد ، حتى اذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين ، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الاجر ولا أجر من صلى الى القبلتين ، فتراهم حول القبر ركعا سجدا يبتغون فضلا من الميت ورضوانا وقد ملؤا أكفهم خيبة وخسرانا ، فلغير الله ــ بل للشيطان ــ مايراق هناك من العبرات ، ويرتفع من الاصوات ، ويطلب من الميت من الحاجات ، ويسأل من تفريج الكربات ، واغناء ذوي الفاقات ، ومعافاة أولي العاهات والبليات ، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين تشبيها له بالبيت الحرام ، الذي جعله الله مباركا وهدى للعالمين ، ثم أخذوا في التقبيل والاستلام أرأيت الحجر الاسود وما يفعل به وفد البيت الحرام ، ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود التي يعلم الله أنها لم تعفر كذلك بين يديه في السجود ، ثم

كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق ، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن اذ لم يكن لهم عند الله من خلاق ، وقربوا لذلك الوثن القرابين ، وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين •

قال ابن القيم ـ بعد أن حكى ماذكرناه ـ ولم تتجاوز فيما حكينا عنهم ، ولا استقصينا جميع بدعتهم وضلالهم ، اذ هي فوق مايخطر بالبال أو يدور في الخيال •

قال أبو الوفاء ابن عقيل رحمه الله تعالى : لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع الى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم ، فسهلت عليهم اذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم ، قال : وهم عندي كفار مثل تعظيم القبور والزامها بما نهى عنه الشرع من ايقاد النيران وتقبيلها وتخليقها ، وخطاب الموتى بالحوائج ، وكتب الرقاع فيها يامولاي افعل بي كذا وكذا ، وأخذ تربتها تبركا ، وافاضة الطيب على القبور وشد الرحال اليها ، والقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى ، والويل عندهم لمن لم يقبل مشهد الكف ، ولم يتمسح بآجرة مسجد الملموسة يوم الاربعاء ، ولم يقل الحمالون على جنازته الصديق أبو بكر أو محمد وعلي ، أو لم يعقد على قبر أبيه أزجا بالجص والآجر ، ولم يخرق ثيابه الى الذيل ، ولم يرق ماء الورد على القبر ، انتهى •

والنبهاني ذكر في فصل مالا ينبغي فعله للزائر مانقله عن المرزوقي مما هو من قبيل هذه البدع بل أفظع ، فكيف يقول : إن ابن عبد الهادي كذب في ذلك ، وقد صان الله أهل الحديث وحفاظ السنة من الكذب والحمد لله ، نعم ان المتصوفة والمتشيخين هم بيت الكذب ومعدنه ، ونقل النبهاني عن ابن حجر أنه قال ويكره أيضا الانحناء للقبر الشريف ، وأقبح منه تقبيل الارض ذكره ابن جماعة ، ولفظه : قال بعض العلماء ان ذلك من البدع أي القبيحة ، ويظن من لاعلم له أنه من شعار التعظيم ، وأقبح منه تقبيل الارض له صلى الله عليه وسلم لانه لم يفعله السلف الصالح والخير كله في أتباعهم ، ومن خطر بباله أن تقبيل الارض أبلغ في البركة فهو من جهالته وغفلته ، لأن البركة انما هي فيما وافق الشرع وأقوال السلف وعملهم ، وليس عجبي ممن جهل ذلك فارتكبه ، بل عجبي ممن أفتى بتحسينه مع علمه بقبحه ومخالفته لعمل السلف واستشهد لذلك بالشعر ، قال السيد السمهودي :

ولقد شاهدت بعض جهال القضاة فعل ذلك بحضرة الملا وزاد بوضع الجبهة كهيئة الساجد •

(قال ابن حجر) ووقع من بعض الصالحين نظير ذلك في بعض قبور الاولياء بحضرتي ، لكن الظاهر أنه كان في حال أخرجه عن شعوره ، ومن تحقق منهالوصول لذلك لايعترض عليه الخ انتهى •

(فانظر أيها المنصف) الى معاندة النبهاني واتباعه لهواه فانه هو الذي نقل ذلك في كتابه عمن يعتقد في امامته ، ثم ينكر وقوع ذلك ويكذب حفاظ الحديث الصادقين قاتله الله ماأقسى قلبه وأبعده عن قبول الحق ، نسأله تعالى أن يقلل في المسلمين أمثاله ، ويطهر منهم الارض ، ويكفي المسلمين شرهم •

(وأما رابعا) فما قاله النبهاني في مسألة علم الغيب فليس موافقا للصواب جميع ماذكره ، وفي المسألة تفصيل وقال وقيل ، والحق مانذكره في هذا المقام مما دل عليه الكتاب والسنة وأفاده الائمة الاعلام •

(إعلم) أن الغيب قسمان : (قسم) استأثر الله تعالى به ، فلا يعلمه ملك مقرب ، ولا نبي ولا رسول ، ولا صفي ولا ولي ، ولا منجم ولا كاهن ، ولا عراف ولا غيرهم ، وهو المذكور في قوله تعالى : (إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعة ويُنزِّلُ الغيثَ ويَعْلَمُ مافي الأَرحَام وَما تدري نفسٌ ماذَا تكْسِبُ غداً وما تدْري نفسٌ بِأيِّ ارضٍ تَموتُ) [1] فكل من هذه الامور لم يطلع الله عليه أحدا من أنبيائه وأصفيائه ، والكلام على هذه الآية مفصل في كتب التفاسير ، ولا مجال لنا لذكره في هذا المقام •

(وأما القسم الثاني) فهو الذي يجوز أن يعرفه غير الله ويطلع عليه وهو ماعدا الخمسة السابقة ، وله أسباب كثيرة : منها الوحي ، والكهانة ، والطرق ، والزجر ، ونحو ذلك ، وقد تكلم ابن خلدون في المقدمة على المدارك الغيبية وأتى بما تستلذه الاسماع والافواه ، ومن ذلك قوله : ان للنفس الانسانية استعدادا للانسلاخ عن البشرية الى الروحانية التي فوقها ، ويحصل من ذلك لمحة للبشر من صنف الاتقياء بما فطروا عليه من ذلك ، ولا يحتاجون فيه الى اكتساب ولا استعانة بشيء

(١) لقمان : ٣٤

من المدارك ، ولا من التصورات ، ولا من الافعال البدنية كلاما أو حركة ، ولا بأمر من الامور ، ويعطي التقسيم العقلي أن ههنا صنفا آخر من البشر ناقصا عن رتبة هذا الصنف نقصان الضد عن ضده الكامل ، وهو صنف من البشر مفطور على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالارادة عند مايتبعها النزوع لذلك وهي ناقصة عنه ، فيتشبث لاعمال الحيلة بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة ، كالاجسام الشفافة ، وعظام الحيوان ، وسجع الكلام ، وماسنح من طير أو حيوان ، ويديم ذلك الاحساس والتخيل مستعينا به في ذلك الانسلاخ الذي يقصده ويكون كالمشيع له ، وهذه القوة التي هي مبدأ في هذا الصنف لذلك الادراك هي الكهانة ، ولكون هذه‌النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان ادراكها الجزئيات أكثر من ادراكها الكليات ، وتكون مشتغلة بها غافلة عن الكليات ، ولذلك كثيرا ماتكون المتخيلة فيهم في غاية القوة ، وتكون الجزئيات عندها حاضرة عتيدة ، وهي لها كالمرآت تنظر فيها دائما ، ولا يقوى الكاهن على الكمال في ادراك المعقولات لأن نقصانه فطري ووحيه شيطاني ، وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ليشتغل به عن الحواس ، ويقوى في الجملة على ذلك الانسلاخ الناقص ، فيهجس في قلبه من تلك الحركة والذي يشيعها من ذلك الاجنبي مايقذف على لسانه ، وربما صدق ووافق الحق ، وربما كذب لانه يتمم أمر نقصه بأجنبي عن ذات المدارك ومباين لها غير ملائم ، فيعرض له الصدق والكذب جميعا ، ويكون غير موثوق به وربما يفزع الى الظنون والتخمينات حرصا على الظفر بالادراك بزعمه ، وتمويها على شيطاني ، وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ولا استعانة بأجنبي كان صادقا في جميع مايأتي به ، وكان الصدق من خواص النبوة ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لابن الصياد ــ حين سأله كاشفا عن حاله بقوله : كيف يأتيك هذا الامر ؟ فقال : يأتيني صادق وكاذب ــ خلط عليك الامر يريد نفي النبوة عنه بالاشارة الى أنها مما لايعتبر فيه الكذب بحال .

وانما قيل : أرفع أحوال هذا الصنف السجع لأن معين السجع أخف من سائر المعينات من المرئيات والمسموعات ، وتدل خفة المعين على قرب ذلك الانسلاخ والاتصال ، والبعد فيه عن العجز في الجملة ، ولا انحصار لعلوم الكهان فيما يكون من الشياطين ، بل كما تكون من الشياطين تكون من أنفسهم بانسلاخها انسلاخا غير تام ، واتصالها في الجملة بواسطة بعض الاسباب بعالم لاتحجب عنه الحوادث

المستقبلة وغيرها ، فانقطاع خبر السماء بعد البعثة عن الشياطين بالرجم ان سلم لايدل على انقطاع الكهانة ، ثم ان هؤلاء الكهان اذا عاصروا زمن النبوة فانهم عارفون بصدق النبي ودلالة معجزته ، لان لهم بعض الوجدان من أمر النبوة ، ولا يصدهم عن الايمان ويدعوهم الى العناد الا وسواس المطامع بحصول النبوة لهم، كما وقع لامية ابن أبي الصلت ، فانه كان يطمع أن يكون نبيا ، وكذا وقع لابن الصياد ومسيلمة وغيرهما ، وربما تنقطع تلك الاماني فيؤمنون أحسن ايمان ، كما وقع لطليحة الاسدي وسواد بن قارب ، وكان لهما في الفتوحات الاسلامية من الآثار مايشهد بحسن الايمان •

وذكر في بيان استعداد بعض الاشخاص ــ أعم من أن يكونوا كهانا أو غيرهم ــ للاخبار بالامور الغيبية قبل ظهورها كلاما طويلا حاصله : أن النفس الانسانية ذات روحانية ، ولها بذاتها الادراك من غير واسطة ، لكنها محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وشواغلها ، لان الحواس أبدا جاذبة لها الى الظاهر بما فطرت عليه من الادراك الجسماني ، وربما تنغمس عن الظاهر الى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة ، اما بالخاصة التي هي للانسان على الاطلاق مثل النوم ، أو بالخاصة الموجودة في بعض الاشخاص ، كالكهنة أهل السجع ، وأهل الطرق بالحصى والنوى ، والناظرين في الاجسام الشفافة ، من المرايا والمياه وقلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها ، وقد يلحق بهم المجانين ، أو بالرياضة الدينية مثل أهل الكشف من الصوفية ، أو السحرية مثل أهل الكشف من الجوكية ، فتلفت حينئذ الى الذوات التي فوقها من الملأ الاعلى ، لما بين أفقها وأفقهم من الاتصال في الوجود ، وتلك الذوات ادراك محض وعقول بالفعل ، وفيها صور الموجودات وحقائقها كما قرر في محله ، فيتجلى فيها شيء من تلك الصور وتقتبس منها علما ، وربما وقعت تلك الصور المدركة الى الخيال فيصرفها في القوالب المعتادة ، ثم تراجع الحس بما أدركت اما مجردا أو في قوالبه فتخبر به انتهى ، ولا يخفى أن فيه ذهابا الى مايقوله الفلاسفة في الملأ الاعلى ، وكثيرا مايسمونه عالم المجردات ، وقد يسمونه عالم العقول ، وهي محصورة في المشهور عنهم في عشرة ، ولا دليل لهم على هذا الحصر ، ولذا قال بعض متأخريهم بأنها لاتكاد تحصى ، وللمتكلمين والمحققين من السلف في ذلك كلام لايتسع هذا الموضع لذكره •

(وبالجملة) علم الغيب لله سبحانه فلا يقال لغيره عالم الغيب ، ومن اطلع على

شيء منه بواسطة وحي أو غيره يقال أطلعه الله ، وما من أحد من المسلمين الا ويعرف غيوبا كثيرة ــ كالاخبار التي وردت في أحوال البرزخ والحساب والجنة والنار ــ ولا يقال لاحد منهم عالم الغيب ، وكثير من المتصوفة يدعون أن مشائخهم يعلمون الغيب ، وهذا تعبير شنيع ، وربما قالوا بالكشف ، وكل ذلك مما لاأصل له ، فان صح منه شيء فلعله بمثل ماذكره ابن خلدون أو بواسطة قرينة من القرائن ، والا فالكشف مما لاأصل له •

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (وما أدري ما يُفعَلُ بِي ولا بكُم)[1] وما أخبر به من الغيوب فبوحي من الله (ومَا ينطِقُ عنِ الهوى إن هوَ إلّا وحيٌ يُوحى)[2] وهكذا الانبياء والرسل • هذا نوح لما أمره الله تعالى أن يصنع الفلك لم يعلم السبب في صنعها ، وموسى لم يدر قبل لقي فرعون ماذا يكون من أمره حتى قال (ولهم عَليَّ ذَنبٌ فاخافُ أن يقتُلُون)[3] وابراهيم أعلمه الله وأوحى اليه أن يذبح اسمعيل فبادر الى ذلك ، فلم يعلم هو ولا اسمعيل أن الله ينسخ هذا الحكم ، ويعقوب بقي يبكي على ولده يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن ولم يعلم بحال يوسف ، وداود لم يعلم بحقيقة من تسوروا المحراب ،وقالوا (خصمان بغى بعضنا على بعض) القصة ، وما حكم به في مسألة الحرث ، وتفهيم سليمان لها دونه ، وما كان من ضيف لوط وقومه ولم يعلم بحقيقتهم حتى قال هؤلاء ضيفي فلا تخزون ، وما كان من قصة يونس حين ذهب مغاضبا ، فكان من أمره ما كان ، ولو كان له اطلاع على العاقبة وكشف على الحقيقة لما ذهب حتى ألقي في البحر ، وساهم وكان من المدحضين، ولو استوعبنا ذلك لطال الكلام ، انظر الى القرآن الكريم وما أخبر فيه سبحانه عن أنبيائه ورسله تجد الامر واضحا ، قال تعالى : (عَفا اللهُ عنكَ لِمَ اذنتَ لَهم)[4] (يَا أيُّها النَّبي لِمَ تُحرِّمُ ما احلَّ اللهُ لكَ تبتَغي مَرضاة ازواجِكَ) (ما كانَ لنَبي أن يكُونَ لهُ اسرى حتَّى يُثخِنَ في الأَرْض)[5] الى غير ذلك من الآيات الناصة على عدم علم الانبياء بما لم يعلمهم الله به •

---

(١) الاحقاف : ٩ ــ (٢) النجم : ٣ ، ٤ ــ (٣) ــ الشعراء : ١٤ ــ (٤) ــ التوبة : ٤٣ ــ (٥)الانفال:٦٧

وفي كتاب الحيوان للجاحظ ، قال الله عز وجل : (وتفقَّدَ الطَّيْرَ فقالَ ماليَ لَا أَرَي الْهدْهُدَ أَمْ كانَ من الغَائبيْنَ . لأُعَذِّبَنَّهُ عذَاباً شَديْداً أو لأَذْبَحَنَّهُ اوليَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبيْنٍ)[١] ثم قال : (فَمكَثَ غيْرَ بعيْدٍ)[١] يعني الهدهد ، فقال سليمان المتوعد له بالذبـح عقوبة له ، والعقوبة لاتكون الا على المعصية لبشري آدمي لم تكن عقوبته الذبح ، فدل ذلك على أن المعصية انما كانت له ولا تكون المعصية لله الا ممن يعرف الله ، أو ممن كان يمكنه أن يعرف الله تعالى فترك مايجب عليه من المعرفة ، وفي قـوله لسليمان : (أَحطْتُ بِما لَم تُحطْ بهِ وجئْتُكَ من سَبأ بِنبأٍ يَقينٍ . إنِّي وَجدتُ إمرأَةً تَملِكُهم وأوْتيَت منْ كُلِّ شَيءٍ ولَها عَرشٌ عظِيْمٌ)[٢] ثم قال بعد أن عرف فضل مابين الملوك والسوقة ، وما بين النساء والرجال ، وعرف عظيم عرشها وكثرة ماأوتيت في ملكها ، قال : (وَجدتُّها وقوْمَها يسْجُدُونَ للشَّمسِ منْ دونِ الله وَزيَّنَ لَهمُ الشَّيْطَانُ اعْمَالَهمْ فصَدَّهُم عنِ السَّبيْلِ فَهُم لا يَهْتَدُونَ)[٣] فعرف السجود للشمس وأنكر المعاصي ، ثم قال : (أَلاَّ يسْجُدوا للهِ الَّذي يُخْرِجُ الخبْءَ في السَّمَـوات والأَرضِ وَيَعلَمُ ما تُخفُونَ وما تُعْلِنُونَ)[٤] ويتعجب من سجودهم لغير الله ، ثم علم أن الله يعلـم غيب السموات والارض ،ويعلم السر والعلانية ، ثم قال : (اللهُ لاإلهَ إلَّا هُو رَبُّ العَرْشِ العَظيْمِ)[٥] وهذا يدل على أنه أعلم من ناس كثير من المميزين المستدلين الناظرين ، قال سليمان : (سَنَنْظُرُ اصـدقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكَاذِبيْنَ)[٦] ثم قال : (إذْهبْ بكِتَابِي هذَا فأَلْقهْ الَيْهم ثُمَّ تَولَّ عنهُم فانْظُر ماذَا يرْجعُونَ . قالتْ يا أَيُّها الملأُ إنِّي أُلقِيَ إليَّ كِتَابٌ كَريمٌ . إنَّهُ منْ سُلَيْمانَ وإنَّهُ بِسْمِ الله الرَّحمنِ الرَّحِيمِ . أَلَّا تَعلُوا عَليَّ وأْتُوني مُسْلمين)[٧] (فلمَّا جاءَ

(١) النمل : ٢١ ، ٢٢ – (٢) النمل : ٢٢ ، ٢٣ – (٣) النمل : ٢٤ – (٤) النمل : ٢٥ – (٥)النمل:٢٦–
(٦) النمل : ٢٧ – (٧) النمل : ٢٨

سُلَيْمانَ قال أَتُمِدُّونَنِ بمالٍ فما آتانيَ اللهُ خيرٌ مما آتاكُمْ بلْ انتم بِهديَّتِكُمْ تفرَحُونَ)[1] وذلك انها : (قالتْ إنَّ الْمُلُوكَ اذا دخلوا قريةً افسدُوها وجعَلُوا أَعزَّةَ اهْلِها أَذلَّةً وكذلكَ يفعلُونَ . وإنِّي مُرسِلَةٌ اليْهم بهديَّةٍ فناظِرَةٌ بم يرجِعُ المرسلُونَ)[2] . قال سُلَيْمان للهدهد : (ارجِع اليهم فلنأْتينَّهُم بجُنودٍ لاقبلَ لَهم بها ولنُخرِجَنَّهُم مِنْها أَذلةً وهُم صاغِرُونَ . قال يا ايُّها الْملأُ أَيُّكُم يَأْتيني بِعَرْشِهَا قبلَ أَنْ يأْتوني مُسْلِمينَ . قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقومَ منْ مقَامِكَ وإِنِّي عليْهِ لقَويٌّ أَمِينٌ . قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِن الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بهِ قبْلَ أَن يرْتَدَّ اليْك طرفُكَ ، فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِراً عِنْدَهُ قال هَذا منْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوني أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُر وَمَنْ شَكَرَ فإنَّما يَشْكُرُ لنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ)[3]

وأطال الجاحظ الكلام على هذه الآيات الى أن قال : ثم طعن في ملك سليمان ناس من الدهرية ، وقال : زعمتم أن سليمان سأل ربه (رب هب لي ملكا لاينبغي لأحد من بعدي) (٤) وأن الله تعالى أعطاه ذلك ، فملكه على الجن فضلا عن الانس ،وعلمه منطق الطير ، وسخر له الريح ، فكانت الجن له خيولا ، والرياح له مسخرة ، ثم زعمتم ــ وهو اما بالشام واما بسواد العراق ــ انه لايعرف باليمن ملكة هذه صفتها، وملوكنا اليوم دون سليمان في القدرة لايخفى عليهم صاحب الخزر ، ولا صاحب الروم ، ولا صاحب الترك ، ولا صاحب النوبة ، وكيف يجهل سليمان موضع هذه الملكة مع قرب دارها ، واتصال بلادها ، وليس دونها بحار ولا أوعار ، والطريق نهج الخف والحافر والقدم ، فكيف والجن والانس طوع يمينه ، ولو كان حين أخبره الهدهد بمكانها أضرب عنها صفحا لكان لقائل أن يقول ماأتاه الهدهد الا بأمر يعرفه ، فهذا وما أشبهه دليل على فساد أخباركم •

(فأجاب الجاحظ بقوله) قلنا ان الدنيا اذا خلاها الله وتدبير أهلها ومجاري

---

(١) النمل : ٣٦ ــ (٢) النمل : ٣٤ ، ٣٥ ــ (٣) النمل : ٣٧ ــ ٤٠ ــ (٤) ص : ٣٥

أمورها وعاداتها كان لعمري كما تقولون ، ونحن نزعم أن يعقــوب بن اسحــق بن ابراهيم كان أنبه أهل زمانه لانه نبي ابن نبي ، وكان يوسف وزير ملك مصــر ومن النباهة بالموضع الذي لايدفع وله البرد واليه يرجع جواب الاخبار ، ثم لم يعــرف يعقوب مكان يوسف ولا يوسف مكان يعقوب دهرا من الدهور مع النباهة والقدرة واتصال الدار ، وكذلك القول في موسى بن عمران ومن كان معه في التيه ، فقد كانوا أمة من الامم يكسعون أربعين عاما في مقدار فراسخ يسيرة ، ولا يهتدون الى المخرج وما كانت بلاد التيه الا من ملاعبهم ومنتزهاتهم ، ولا يعــدم مثل العســكر الادلاء والجمالين والمكارين والفيوح والرسل والتجار ، ولكن الله صرف أوهامهم ورفــع ذلك القصد من صدورهم ، وكذلك القول في الشياطين الذين يسترقون السمع في كل ليلة فتقول انهم لو كان كلما أراد مريد منهم أن يصعــد ذكر أنه قــد رجم أو رجم صاحبه ، وانه كذلك منذ كان لم يصل معه أحد الى استراق السمع كان محالا أن يروم ذلك أحد منهم مع الذكر والعيان الى آخر ماقال •

(والكلام) في هذه المسائل طويل الذيل ، وما ذكرناه كاف في المرام ، ومانقله عن مشايخه من الكشف لا أصل له ، نعم ورد (اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله) وماعدا ذلك فوسواس الشياطين ولجاهلية العرب في هذا الباب أخبار ممتعــة مبسوطة في غير هذا الموضع •

(وأما خامسا) فما ذكره في بيان كونه صلى الله تعالى عليه وسلم يعطي ويمنع ويقضي حوائج السائلين الخ فهو مردود ، وذلك لأن الآيــات القرآنية والاحاديث الصحيحة النبوية قد وردت بخلافه ، قال تعالى : (قُلْ ادعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُم ولا تَحوِيلاً . اولئكَ الَّذِينَ يدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوسِيلَةَ أَيُّهُم أَقربُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إنَّ عذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً)[1] وقَالَ تعالى : (قُلِ أَدُعو الَّذِيْنَ زعَمْتُم مِنْ دُونِ اللهِ لايَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ في السَّموات ولا فِي الأَرْضِ وما لَهُمْ فِيْهِمَا مِنْ شِرْكٍ وما لهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ . ولا تنْفعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ

(١) الاسراء : ٥٦ ، ٥٧

لِمَنْ أَذِنَ لَه) [1]

وقال طائفة من السلف كان أقوام يدعون المسيح والعزير والملائكة فبين الله تعالى لهم أن الانبياء والملائكة لايملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلا ، وأنهم يتقربون الى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه • وقال تعالى : (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتَابَ والْحُكْمَ والنُّبُوةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ ولٰكِنْ كُونوا رَبَّانيينَ بِمَا كُنْتُم تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنتُم تَدْرُسُونَ . ولايأْمُركُم أَن تتَّخذُوا الْمَلائِكَةَ والنَّبِيينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ) [2]

فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أربابا كفر ، فمن جعل الملائكة والانبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار ـ مثل أن يسألهم غفران الذنوب وهداية القلوب وتفريج الكروب وسد الفاقات ـ فهو كافر باجماع المسلمين •

وقال تعالى : (مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ) [3] وقال : (قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِي اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَو أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوكِّلُونَ) [4] وقال تعالى : (قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَراً إِلَّا مَاشَاءَ اللهُ ولو كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ) [5] وقال تعالى : (وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) [6]

(١) سبأ : ٢٢ ، ٢٣ – (٢) آل عمران : ٧٩ ، ٨٠ – (٣) فاطر : ٢ – (٤) الزمر : ٣٨ –(٥)الاعراف:١٨٨–
(٦) يونس : ١٠٧

الى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه يعطي ويمنع ، ويقضي حوائج السائلين ويفرج كربات المكروبين ، وأنه الذي يشفع فيمن يشاء ويدخل الجنة من يشاء وكذلك الاحاديث الصحيحة الواردة في هذا المعنى كحديث ابن عباس الذي فيه : (واعلم أن الامة لو اجتمعت أن يضروك لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك) ، وكذلك النفع ، وحديث البخاري الذي فيه (يافاطمة بنت محمد لأغني عنك من الله شيئا) وغير ذلك •

فالآيات والاحاديث وأقوال السلف تدل على أن الله تعالى هو المتفرد بملك الضر والنفع ، والنبهاني يقول ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعطي ويمنع ، ويضر وينفع ، وهكذا الانبياء والرسل ، وهكذا صالحوا أممهم ، واستدل على ذلك بمنامات وخرافات ، وبأقوال أمثاله من الغلاة ، فبقي الخلاف بين الله وبين النبهاني ، أن الله تعالى يقول لايملك الضر والنفع غيره سواء كان ملكا أو نبيا أو رسولا أو صفيا ، والنبهاني قاتله الله يقول لاليس الامر كما قاله الله ورسوله ، بل ان النبي أو الولي يستغاث به ويرجى ويطلب منه كل مايطلب من الله ، وها نحن نحيل المحاكمة بين النبهاني وبين الله تعالى الى ذوي الانصاف والفهم ، ولا شك أن أصدق الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم •

(وأما) أقوال النبهاني ، وآراء كل مبتدع شيطاني ، فمردودة عليه ، وملقاة بين يديه ، والكلام في الاستغاثة مر مفصلا وسيأتي له تتمة ان شاء الله •

(قال النبهاني) ذكر في بعض النسخ أن (الصارم المنكي) هو بالميم والنون وهو غير صحيح ، لان أنكى الرباعي غير وارد ولا وجود له في كتب اللغة ، والوارد هو نكا الثلاثي بالهمز والتسهيل ، يقال : نكا العدو ونكاه نكاية أصاب منه ، قال : اذا علمت ذلك تعلم أن اشتهار الكتاب بلفظ المنكى هو خطأ لأن المؤلف من أكابر العلماء الذين لايخفى عليهم مثل هذه اللفظة ، فلا يحمل الخطأ عليه بل على النساخ ، واسم الكتاب الذي سماه به مؤلفه هو (المبكى) بالباء كما ذكره في (كشف الظنون) •

ولقائل أن يقول أنه لامانع من أن يكون ابن عبد الهادي مع تبحره في علم الحديث ضعيفا في علم العربية فجاز عليه الخطأ بهذا اللفظ ، لاسيما والتعبير بالنكاية هو الذي يناسب رده على عدوه ، أو أنه يكون ماهرا في علم العربية أيضا ولكن الله تعالى قد طمس على بصيرته في تسمية هذا الكتاب كما طمس على بصيرته في مسماه

ليحصل الخطأ في الاسم والمسمى جميعا ، والدليل على جواز هذا الاحتمال أن خطاه في المسمى وهو نفس الكتاب أفحش وأظهر من خطئه في الاســـم ، ولكني تبعت بتسميته بالمبكى (كشف الظنون) وهو الصواب والله أعلم •

(هذا كله كلام النبهاني) وسبحان من أنطقه بكل باطل ، وأظهر حاله للعالمين وأنه من كل خير عاطل ، وكشف حقيقته لأولي الفضائل ، وأبان افلاسه من كل العلوم فلم يبق في جهله قول لقائل ، صغار الطلبـــة يعلمـــون ماخفي على هذا الجـاهل ، والمبتدئون في العربية لم يخف عليهم ماخفي على النبهاني الغافل ، ولا بد من الكلام على هذيانه والتنبيه على خطئه فنقول :

(الجواب) عن اعتراضه من وجوه :

(الوجه الاول) أن العلم كما حققه علماء الوضع من قسم الموضوع بالوضع الخاص لموضوع له كذلك والمقصود من الوضع تعيين المسمى بحيث لايشاركه غيره في هذا الوضع ، فلا ترد الاعلام المشتركة لأن كلا منها لايشاركه آخر في الوضع له ، فاذا كان الغرض تعيين المسمى وتمييزه عما عداه حصل بكل لفـظ طابق الاصـــول أم لا ، فاذا سمي شخص باسم ليس له في اللغة العربية نظير ولا معنى جاز ، وعليـــه انقسام العلم الى قسمين : منقول : ومرتجل ، كما في الخلاصة :

ومنه منقول كفضل وأسد　　　وذو ارتجال كسعاد وادد

فما هذى به النبهاني ساقط من أصله ، ولا يحتاج بيان خطئه الى جواب آخر، ولكنا نزيد المقام وضوحا تتميما للفائدة •

(الوجه الثاني) أن العلم المنقول لايبقى منه المعنى الاصلي بعد وضعه علما ، ولذلك جعلوا عبد الله علما مفردا ، وهو مالا يدل جزؤه على جزء معناه ، ولو بقي على معناه الاصلي لعد مركبا اضافيا ، فان جزء اللفظ يدل على جزء المعنى الاضافي ، وما نحن فيه من هذا القبيل فانه بعد وضعه اسما للكتاب خرج عن كونه مركبا تقييدا وصار من قسم المفردات ، فلا يلاحظ في الجزء منه دلالة على المعنى حال العلميـــة ، ولم يقصد المعنى الاصلي الا لاجل الكناية كما ذكروه في أبي جهل وأبي لهب على مافصل في كتب المعاني ، وكذلك الالقاب المشعرة بمدح أو ذم ، وهكذا الاسمـــاء المنقولة عن صفات وأفعال لايراد منها بعد العلمية معانيها الاصلية ، نعم قد تدخل اللام على بعض الاعلام المنقولة عن المشتقات للمح الصفة كالفضل والحارث والنعمـــان ونحو ذلك ، فبطل كلام المعترض •

(الوجه الثالث) وهو من أحسن الاجوبة أني وجدت لذلك فائدة في كتاب الضرائر و مايسوغ للناظم دون الناثر ، وقلت : المسألة العاشرة مايلحق بالضرائر الشعرية ، ثم قلت : اعلم أن الائمة ألحقوا بالضرائر الشعرية مافي معناها وهو الحاجة الى تحسين النثر بالازدواج ، فلا يقاس على ماورد منه لذلك في السعة ، كما لايقاس على الضرائر الشعرية في متسع الكلام ، ونقلت مايناسب المقام عن درة الغواص للحريري ، فقلت : ويقولون قد حدث أمر ، فيضمون الدال من حدث مقايسة على ضمها في قولهم أخذه ماحدث وما قدم ، فيحرفون بنية الكلمة المنقولة ويخطئون في المقايسة المعقولة ، لأن أصل بنية هذه الكلمة حدث على وزن فعل بفتح العين ، كما أنشدني بعض أدباء خراسان لأبي الفتح البستي رحمه الله :

جزعت من أمر فظيع قد حدث ... أبو تميم هو شيخ لاحدث

قد حبس الاصلع في بيت الحدث

وانما ضمت الدال من حدث حين قرن بقدم لأجل المجاورة والمحافظة على الموازنة ، فاذا أفردت لفظة حدث زال السبب الذي أوجب ضم دالها في الازدواج ، فوجب أن ترد الى أصل حركتها وأولية صيغتها •

ثم قال الحريري : وقد نطقت العرب بعدة ألفاظ غيرت مبانيها لأجل الازدواج واعادتها الى أصولها عند الانفراد فقالوا : الغدايا والعشايا اذا قرنوا بينهما ، فان أفردوا الغدايا ردوها الى أصلها فقالوا الغدوات ، وقالوا : هنأني الشيء ومرأني ، فان أفردوا مرأني قالوا أمرأني ، وقالوا :فعلت به ماساءه وناءه ، فان أفردوا قالوا أناءه ، وقالوا أيضا : هو رجس نجس ، فان أفردوا لفظة نجس ردوها الى أصلها وقالوا نجس ، كما قال تعالى : (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) [1] وكذلك قالوا للشجاع الذي لايزايل مكانه : أهيس أليس ، والاصل في الاهيس الاهوس لاشتقاقه من هاس يهوس اذا دق ، فعدلوا به الى الياء ليوافق لفظة أليس •

وقد نقل عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ألفاظ راعى فيها حكم الموازنة ، وتعديل المقارنة فروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال للنساء المتبرزات في العيد : (ارجعن مأزورات غير مأجورات) وقال في عوذته للحسن والحسين عليهما السلام : (أعيذكما بكلمات الله التامة من كل عين لامة ، ومن كل شيطان وهامة) ، والاصل في مأزورات موزورات لاشتقاقها من الوزر ، كما أن الاصل في لامة ملمة لأنها فاعل

---

(١) التوبة : ٢٨

من المت ، الا أنه عليه الصلاة والسلام قصد أن يعادل بلفظ مأزورات لفظ مأجورات، وأن يوازن بلفظ لامة لفظتي تامة وهامة ، ومثله قوله عليه الصلاة والسلام : (من حفنا أو رفنا فليقتصر) أي من خدمنا أو أطعمنا ، وكان الاصل أتحفنا ، فاتبع حفنا رفنا • ويروى في قضايا عليّ أنه قضى في القارصة والقامصة والواقصة بالدية اثلاثا وتفسيره أن ثلاث جوار ركبت احداهن الاخرى فقرصت الثالثة المركوبة فقمصت فسقطت الراكبة ووقصت فقضى للتي وقصت أي اندق عنقها بثلثي الدية على صاحبتيها ، وأسقط الثلث باشتراك فعلها فيما أفضى الى وقصها ، والواقصة هنا بمعنى الموقوصة ، وأنشد الفراء في هذا النوع :

هتاك أخبية ولاج أبوبة ... يخلط بالجد منه البر واللينا

فجمع الباب على أبوبة ليزاوج لفظة أخبية ، انتهى مانقل عن الحريري •

(وفي الخلاصة)

وفي اضطرار وتناسب صرف ... ذو المنع والمصروف قد لاينصرف

(وفي الكافية)

ولاضطرار وتناسب صرف ... مايستحق حكم غير المنصرف

ورأى أهل الكوفة الاخفش في ... اجازة العكس اضطرارا يقتفي

وبعضهم أجازه اختيارا ... وليس بدعا فدع الانكارا

ومثل الشراح للمصروف للتناسب سلاسلا وأغلالا وسعيرا ، قواريرا قواريرا ، على قراءة نافع والكسائي ، ولا يغوثا ويعوقا ونسرا على قراءة الاعمش وابن مهران، وقسموا التناسب الى قسمين : تناسب لكلمات منصرفة انضم اليها غير منصرف نحو سلاسلا وأغلالا ، وتناسب لرؤوس الآي كقوارير الاول فانه رأس آية ، فنون ليناسب بقية رؤوس الآي في التنوين أو بدله وهو الالف في الوقف ، واما قوارير الثاني فنون ليشاكل قوارير الاول ، والفرق في ذلك بين الضرورة والتناسب ان الصرف واجب في الضرورة وجائز في التناسب ، وقد علمت أن التناسب غير التشاكل للازدواج ، هذا ماكتبته من مسائل كتاب الضرائر ، وبه علم أن اسم (الصارم المنكي في الرد على السبكي) بعد الميم نون كما هو المتواتر عن المصنف وهو الصواب ، غير أن النبهاني قد تعود على التحريف والتبديل ، فاراد أن يحرف الاسماء كما حرف نصوص القرآن والسنة الغراء ، وقد فضحه الله تعالى بالجهل في سائر الاقطار والانحاء ، والحمد لله الذي نصرنا على الاعداء •

(الوجه الرابع) أن التسمية بالصارم المبكي بباء بعد الميم تسمية لامعنى لها

اذا لمحنا الى الاصل المنقول عنه ، فان الصارم انما يوصف في كلام العرب بالنكاية لابأنه يبكي ، فان العصا أيضا تبكي المضروب بها ، بخلاف الصارم فانه اذا ضرب به أحد هلك وفني وهي النهاية في النكاية ، ولكن النبهاني مقصوده تسويد القراطيس ، كما سود الله وجهه باتباعه لوساوس ابليس .

(وبالجملة) فكل مااعترض به على كتاب (الصارم المنكي) فهو اعتراض مردود عليه ، وكل ماانتقده فهو مدفوع عنه ، وكان مااعترض به عليه من شواهد جهله وآيات حرمانه .

تعيرنا ألبانها ولحومها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

فكتاب (الصارم المنكي) للامام الذي لايجاذب رداء فضله ، ولا تدور العين بين أصحابه على مثله ، علامة المعقول والمنقول ، وفهامة الفروع والاصول ، البحر الزاخر ، وفخر الاوائل والاواخر ، قدوة الفضلاء ، وخاتمة الاجلاء ، شيخ الاسلام ، ومن اتفق على جلالته الخاص والعام ، الحافظ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي ، طيب الله تعالى ثراه ، وجعل في أعلى عليين مقره ومثواه ، كتاب تشد اليه الرواحل ، وتطوى دون لقياه المنازل ، ليس في بابه مايدانيه ، ولا مايماثله ويضاهيه ، جمع فأوعى ، وأوجز فأعجز ، وما ترك لساع من مسعى ، بلغ الغاية في حسن الجمعية وكمال الاختصار ، وأدرك النهاية في قلة المؤنة وليـاقة الحفظ والتكرار .

كلم كان الشهد من ألفاظها جار وان الطيب منها سائر

قد أرى السبكي قدره ، وأدى اليه الكيل صاعا بصاع ولم يهمله بالمرة ، حتى أرغم الله به أنوف المعتدين ، وشفى به صدور قوم مؤمنين ، وما كان من ذم بعض الغلاة والانتقاد عليه ، فلما أصابهم منه من الويل والثبور ، ولم يقدروا أن يقابلوه ولا يقفوا بين يديه ، فجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء ، حيث ذب عن الدين المبين ماكاده به الخصوم والاعداء .

(قال النبهاني) الفصل الثالث في الكلام على (جلاء العينين في محاكمة الاحمدين) وبيان أن مؤلفه حكم لابن تيمية بالميل ، وعلى ابن حجر بالمين ، وقد جاوز به الحد في تعصبه الشديد ضد جماعة من أئمة الاسلام ، وافراد العلماء الاعلام ، لاسيما ابن حجر الهيتمي ، والتقي السبكي وابنه تاج الدين ، مؤيدا ماشذ به ابن تيمية في مسائله التي خالف بها الامة المحمدية ، وكانت أصلا لمذهب الوهابية ، ومقته لأجلها جمهور أئمة الدين من أهل المذاهب الاربعة السنية ، قال : وهذا الكتاب

من أضر الكتب على من اطلع عليه من عوام المسلمين ، والطلبة القاصرين ، فيجب عليهم أن يعاملوه معاملة الكتب المخالفة لمذاهبهم ، المكدرة لمشاربهم ، بالاعراض التام عنه ، وعدم مطالعة شيء منه ، لئلا تضر شكوكه بيقينهم ، ويوقع الخلل في أمور دينهم ، أماالعلماء فلا يخشى عليهم منه ذلك الضرر ، لتمييزهم بين خطأ ابن تيمية وطائفة الوهابية وصواب السبكي وابن حجر وجمهور الامة المحمدية ، وتفريقهم بين ماخلط فيه مؤلفه من الحق والباطل ، والمحلى والعاطل ، فلا ينخدعون بما جمعه فيه من زخارف الكلام ، وبهارج الاوهام ، التي زعم بها ان زلات ابن تيمية هي ماكان عليه السلف الصالح من أئمة الاسلام ، ومع ذلك فالاولى بل الصواب للعلماء أيضا الاعراض عنه ، وعدم مطالعة شيء منه الا للرد عليه ، وبيان ماحواه من الخطأ الفاحش والتعصب الشديد ضد العلماء العاملين ، هداة الامة ، ومصابيح الملة ، كالائمة الثلاثة : ابن حجر ، والسبكي ، وابنه تاج الدين ، وترجيحه لكثير مما يخالف عقائد جمهور المسلمين ، كمسألة الاستغاثة والزيارة ، والقول بالجهة ، وغير ذلك مما خلط فيه ، ولا يقدر على تمييزه الا العلماء الاعلام ، ويخشى من مطالعته وقوع الخلل في عقائد الطلبة القاصرين والعوام .

(قال) وأنا والله في حيرة من أمره ، ان قلت ان ذلك اعتقاده يعارضني اني أعرفه أنه حنفي المذهب ، من عائلة علم وسيادة في بغداد ، كلهم من أهل السنة والجماعة ، وان ماعتمده في هذا الكتاب ــ مما أيد به زلات ابن تيمية ــ هو مذهب الوهابية لامذهب الحنفية ، ولا مذهب آبائه وأجداده السادات الشافعية ، وان قلت ان ذلك ليس اعتقاده الحقيقي وانما تظاهر به خدمة لصديق حسن خان الوهابي ــ الشهير ملك بهو بال في الهند صاحب التآليف المشهورة ــ فهذا لايليق بمثله ، وان كان هو الظاهر من محرراته ومراسلاته ، ألا ترى أن كتابه المسمى (بغالية المواعظ) لما ألفه بعد (جلاء العينين) تجده قد زينه بالنقل عن كتب العلامة ابن حجر (كالزواجر ، والصواعق) ونحوهما ، ولم ينقل الا نادرا عن ابن تيمية ، والله أعلم بحاله في هذا الكتاب من القصد والنية ، ولست اعترض عليه باجابته عنه ان بعض الاقوال التي نقلها ابن حجر واعترض عليها لم تصح نسبتها اليه واستشهد على ذلك بعبارات صحيحة أو غير صحيحة ، فهذا لا مانع منه وهو حسن ، ولكنه لم يقتصرعلى ذلك بل شنع على ابن حجر بألفاظ لايحسن استعمالها في حق بعض طلبة العلم فضلا عن امام كبير من أئمة الدين ، وكذلك عامل بسوء هذا الصنيع ــ من قبيح التشنيع

والتقريع ــ الامام تقي الدين السبكي ، حتى انه لم يعبر عنه بلفظ الامام ولا بلفظ شيخ الاسلام ، بل اما أن يقول قال السبكي أو القاضي السبكي ، وهو في الحقيقة المستحق للقب شيخ الاسلام ، لأنه كان قاضي قضاة الشام ــ مع كونه من أئمة العلماء الاعلام ــ ولقب شيخ الاسلام انما كانوا يلقبون به قاضي القضاة ، فابن تيمية بحسب هذا الاصطلاح لايستحق لقب شيخ الاسلام وان كان من أكابر شيوخ المسلمين وأئمة العلماء الاعلام ، وهو رجل مطعون في عقيدته باعتقاد الجهة فضلا عن بدعته المتعلقة بالزيارة والاستغاثة . والسبكي هو بالاتفاق من أئمة أهل السنة والجماعة ومن أفضل أئمة الاسلام ، وابنه تاج الدين هو الامام ابن الامام باتفاق العلماء الاعلام ، فما الذي حمل مصنف (جلاء العينين) على معاملتهما أسوأ المعاملة والميل كل الميل مع ابن تيمية ، وذلك دليل على أنه من أهل البدعة لا من أهل السنة ، والارواح جنود مجندة فروحه هي من أجناد روح ابن تيمية ، فلا تأتلف مع أرواح هؤلاء الأئمة الاعلام ، ولذلك كان منه في حقهم ما كان مع كونهم في جانب تعظيم جده الاعظم صلى الله عليه وسلم وامامه ابن تيمية بعكس ذلك ، ولكن الشرف والحسب لايغني عن العلم والادب ، الى أن قال : ومصنف (جلاء العينين) لم يحكم لابن تيمية فقط بل حكم لجميع الوهابية ، وليس حكمه على ابن حجر فقط والسبكي وابنه بل على جميع أهل السنة والجماعة من الشافعية ، والحنفية ، والمالكية ، وجمهور الحنابلة أيضا ، ومن طالع كتابه هذا بانصاف يعلم يقينا أنه أخطأ فيه أفحش الخطأ في حق نفسه وأبيه والمسلمين عموما وسيد المرسلين خصوصا ، وانه لوث نفسه بأقذار البدع الوهابية التي لايغسلها عنه بحار الدنيا الى يوم القيامة ، وكما آذى نفسه بذلك أشد الاذى آذى كل من اطلع على كتابه من المسلمين من أهل المذاهب الاربعة ــ حتى المنصفين من الحنابلة ــ بذمهم اياه وخوضهم في عرضه مابقيت الدنيا وبقي فيها هذا الكتاب .

ثم إنه هذى بما هذى ، ثم قال : ويا ليت شعري كيف اختار لنفسه ولابيه ــ بمقتضى مانقل عن تفسيره روح المعاني ــ منابذة جمهور الامة المحمدية ، وما اتفق عليه أئمتها وعلماؤها في جميع هذه الاعصار المتطاولة ، من أمر الزيارة والاستغاثة ، حتى صار من الامور المعلومة بالضرورة ، مع كونه هو الذي يليق بما يجب للنبي صلى الله عليه وسلم من التعظيم والتوقير ، ولاعبرة بما قاله ابن تيمية وطائفته الوهابية . ومن شاكلهم من شذاذ المذاهب من منع ذلك ، لما توهموه وتخيلوه من المحاذير التي لاتخطر

عند الزيارة والاستغاثة ببال أجهل الجاهلين فضلا عما فوقه من اعتقاد الالوهية فيمن يزورونه أو يستغيثون به ، مع أن بدعة هؤلاء فيها من سوء الادب في جانبه صلى الله عليه وسلم مالا يخفى على من في قلبه أدنى نور ، هذا لعمري مما لايختاره عاقل لأخيه فضلا عن نفسه وأبيه ، وقد لعمري آذى أباه وعقه بتلك النقول التي كان الناس عنها في غفلة ، لانها مفرقة في تفسيره فجمعها في هذه المسائل في كتابه هذا مفتخرا بها ، ومثبتا عند السيد صديق حسن خان وطائفته أن أباه كان أيضا على مذهبهم ومشربهم في ذلك •

وقد سمعت بسبب هذا من بعض علماء مكة المشرفة كلاما فظيعا في حقه وحق أبيه ، ولما كان قد أظهر تحامله في كتابه هذا على أهل السنة ومذهبهم ـ ولاسيما الامام السبكي وابنه وابن حجر ـ وبالغ في التعصب بمدح ابن تيمية ومذهبه وكل من كان على شاكلته : رأيت أن أذكر هنا الفرق بين ابن تيمية وابن حجر ، ليظهر لكل أحد أنه حكم لابن تيمية بالباطل ، انتهى كلام النبهاني فيما قاله في شأن (جلاء العينين) وقد نقلته كله ـ وان كان في نقله تضييع للقرطاس والمداد ـ لأن القصد مناقشته في جميع كلماته ، وبيان مااشتمل عليه من عواره وغلطاته •

(اعلم) ان جميع ماذكره النبهاني في هذا الفصل قد تكرر غير مرة ، غير أنه لما كان خاليا عن الفهم فارغا عن العلم والفضل : أراد أن يتطفل على المؤلفين بتأليف كتاب ، وكان مبلغ علمه ومنتهى كمالاته المباحث المتعلقة بزيارة القبور ، والشعر المشتمل على الغلو والالتجاء الى غير الله مما يحفظه العوام الذين هم كالانعام ، ولا يدرون مافيه مما يصادم دين الاسلام ، وينشده المنشدون في المجامع ، وقراءة مولد خير الانام ، وكان عنوان مايعتقده ويدين الله به أن الاستغاثة بغير الله هي ركن الدين ، ومدار توحيد المسلمين ، وشتم ابن تيمية وتبديعه وتضليله ، وتضليل من قال بقوله ومن انتصر له ، ومن تعرض للرد على أقوال السبكي وابن حجر وسائر الغلاة •

وقد حشا كتابه من أوله الى آخره بمثل هذا الهذيان ، والزور والبهتان ، وأبدى وأعاد في ذلك ليعظم حجم كتابه ، وتطول مندرجات فصوله وأبوابه ، ليتبجج به على أمثاله من العوام ، ويفتخر على الجهلة الطغام ، وقد تبين لي حاله من كتابه هذا وأنه رجل ممار عنود معجب بنفسه ، منطو على حب البدع ، مصر على تقليد الآراء الفاسدة ، والاقوال الكاسدة ، وانه لايفيد فيه كل كلام ، ولا تؤثر فيه سهام

الملام ، وأرقام الاقلام ، وان جهله جهل مركب مع رعونة ونقصان عقل ودين ، وقلة ايمان وعدم حياء ، فهو لاينتهي عن غيه ، ولا يرتدع عن بغيه ، ولا ينتهي عن جهله ، ولسان حاله يقول :

لاأنتهي لا أنثني لا أرعوي   مادمت في قيد الحياة ولا اذا

ومن اليقين عندي أن الكلام معه سدى ، والرد عليه يغريه على سلوك جادة الردى ، والميل الى الصد عن الهدى ،ورأيته ــ مع ماهو عليهمن العجب ومزيد الجهل والغباوة ــ مملوء الاهاب من الحسد من فرقه الى قدمه ، وهكذا كان شأن اليهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كفروا به حسدا من عند أنفسهم ، والضالون قد تشابهت قلوبهم ، ولولا حسده وجهله لم يتطاول على (جلاء العينين) ومصنفه ذلك التطاول الشنيع ، ويهذي بما هذى به من الكلام الفظيع ، والا فما الباعث لكلامه هذا على مصنف (جلاء العينين) ووالده ، وعلى الشيخ ابن تيمية وأصحابه ، ومن اليقين أنه لم يتهور هذا التهور على من طوى بساط الاسلام ، وهد ركن الدين ، وهدم بنيان قواعد المسلمين ، بل أبدى له العذر وحمل ذلك على المقاصد الحسنة الخيرية •

وكل أحد يعلم أن المسائل العلمية لم تزل معترك أنظار العلماء ، ومثار فرسان الفضلاء ، ولو كان هذا الزائغ من أهل الفطنة والعرفان ، ومن فرسان رجال ذلك الميدان : لاورد المسائل التي في (جلاء العينين) واحدة بعد أخرى ، وأورد عليها مايراه واردا بحسب نظره الفاسد ، وفهمه الكاسد ، وسلك مسلك المتناظرين لأجل اظهار الصواب ، كما هو شأن الخلافيين الذين انتصروا لمذاهبهم ، كما وقع من ذلك بين أصحاب المذاهب الاربعة وأتباعهم أولي الباب •

(ثم ان ماذكره) في مقالته هذه في شأن جلاء العينين ومصنفه وما أورده فيها قد سبق الكلام عليه مرارا ، وأبطلنا أقواله الكاسدة بحمد الله جهارا ، وتكرر معه الكلام في غير هذا المقام ، ولكن الامر كما قال القائل وهو المتنبي :

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت ايلام

وها أنا مع ذلك أذكر مايرد عليها من المؤاخذات ، وبيان مافيها من الخطأ والغلطات ، ليظهر جهله وفساد أقواله للناظرين ، ولا عدوان الا على الظالمين •

(فأقول) من أقواله ــ التي هي مواقع للنظر وهدف لرمي سهام الفكر ومحل للايراد وموقع للفساد ــ قوله إن مؤلف جلاء العينين حكم لابن تيمية بالميل ، وعلى

ابن حجر بالمين الخ .

(جوابه) أن الامر ليس كما قال ، بل ان مصنف (جلاء العينين) أورد فيه أولا تراجم الشيخ وبعض أسلافه الكرام ، ثم ذكر بعض من ابتلى وأوذى من العلماء ، ثم ذكر ماقاله ابن حجر في الفتاوى الحديثية مما زوره على الشيخ وافتراه ، ثم ذكر تراجم بعض المنكرين عليه من خصومه وحسدته ، ثم أفرد مقصدا في تراجم بعض المثنين عليه من تلامذته وغيرهم ، ثم ذكر تراجم من قال ابن حجر عن الشيخ أنه تتبعهم من المتصوفة ، ثم أورد فصلا في الكلام على مانقله الشيخ ابن حجر من عبارة شيخ الاسلام وأورد عدة تراجم لأصحاب الاقوال ، ثم ذكر اختيارات الشيخ وما لها وما عليها ، وفصل الكلام في تحقيق الكلام النفسي وما ذهب اليه الحنابلة والاشاعرة وأطنب في مباحث الصفات وما ذهب اليه السلف ، ثم ذكر مااختاره من التوسط بين القولين ، ثم ذكر الاستغاثة والتوسل ، وعقد فصلا لأدلة المجوزين ، وفصلا آخر في المانعين ، ثم ذكر الاجوبة عما نقله ابن رجب من اختيارات الشيخ ، وبها ختم الكتاب واليه المرجع والمآب .

هذا ما كان في جلاء العينين ، وأحال الحكم وترجيح الحق من الباطل الى القارئين من أهل الفضل والانصاف ، لا من أهل الجور والاعتساف ، على أنه لو كان الامر كما زعم وأنه حكم بما حكم فماذا عليه بعد أن راعى في حكمه ماأدى اليه الدليل ، أليس الله تعالى قال : (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه)[1] وفي الحديث الصحيح (من علمه الله علما فكتمه ألجمه الله بلجام من نار) وقد سبق ماأوردنا من كلام الامام الشافعي في تفسير سورة العصر ، وأن من جملة مراتب الكمال الاربع التي اشتملت عليها السورة التواصي بالحق ، بأن يعلم بعض الناس بعضا حقائق الامور وما هي عليه في نفس الامر ، وان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مما استوجب خيرية الامة المحمدية على كل أمة أخرجت للناس ، وابن حجر ومن كان على منهاجه كلهم ظلموا الشيخ ابن تيمية ، ولم يقصدوا في تهورهم عليه وجه الله ، بل لم يكن منهم ماكان الا تشفيا به ، وقضاء لحق أهوائهم ، والا فمن المعلوم ماكان من الروافض والنواصب والخوارج والمعتزلة والزيدية وغيرهم من الفرق الاسلامية ، وممن كان قبل الاسلام ، ومع ذلك فلم يلتزم ابن حجر ما التزمه في ابن تيمية ، وهكذا السبكي قبله ، وهكذا الغلاة في كل عصر .

(١) آل عمران : ١٨٧

ماذكره ابن حجر المكي في فتاواه عن الشيخ : منه ماهو كذب وزور وبهتان منه عليه ، كنسبة القول بالجسمية والجهة ، وعدم تحريف التوراة والانجيل ونحو ذلك ، وكتب الشيخ المثبوتة في العلم كلها تصرح بضد ذلك ، وجميع كتبه مصرحة بنفي الجهة والجسمية ، وشطر من كتابه (الجواب الصحيح) في اثبات تحريف الكتابيين لكتبهم ، فأي ذي دين وانصاف لم يكذب ابن حجر في قوله ويحكم عليه بأنه من الكاذبين ، وان الشيخ كان من المحققين ، والمسائل الاخرى التي ادعى ابن حجر على الشيخ انه خرق بها الاجماع كلها مما قال به السلف ، وقام عليها الدليل الصحيح ، وألف في اختياراته كتب مفصلة ، فأي زور أكبر من هذا ؟ وأي بهتان فوق هذا البهتان؟أيليق بمن يدعي العلم أن يسلك هذا المسلك الذي لو سلكه عامي من العوام لعيب به ؟ فكيف يسوغ للمنصف أن لايحكم للشيخ بالميل وعلى ابن حجر بالمين ؟ وهل بقي في مين ابن حجر شك لذي نظر ؟

(ومنها أنه قال) وقد جاوز به الحد في تعصبه الشديد ضد جماعة من أئمة الاسلام ، وأفراد العلماء الاعلام ، لاسيما ابن حجر الهيتمي ، والتقي السبكي وابنه ، مويدا ماشذ به ابن تيمية في مسألته المعلومة الخ .

(فيقال له) هذا هو الكلام السابق بعينه ، والرد على ذلك رد على هذا ، ومن يتبع الدليل ويجري على مقتضى البرهان لايقال فيه انه قد تجاوز الحد ، بل ان من ينحرف عن الشريعة هو الذي تجاوز الحد ، والحق أحق بالقبول ، والاذعان له عين الانصاف ، والميل عن الجور والاعتساف ، والمخالف في ذلك مكابر ، بل ليس من ذوي الالباب والبصائر ، وكل منصف ذي فهم يعلم ان ماقاله ابن حجر والسبكي وأضرابهما هو محض اتباع هوى ومكابرة وعناء ، واذا كان ما اختاره الشيخ أيده الدليل والبرهان وان أقواله هي قول الله ورسوله وسلف الامة وأكابر الائمة كما أسلفنا جميع ذلك فكيف يقال ان تلك الاقوال مما شذ به ابن تيمية ؟ وهل هذا الكلام الا من الغباوة والمكابرة ؟ وانكار للضرورة وتقليد للاراء .

ثم ان علماء المذاهب الاربعة ممن يعتد بعلمه لم يمقتوا الشيخ ، وكتب المنصفين منهم طافحة بالثناء عليه ، الا ماكان من بعض خصومه وحسدته ، كالسبكي واضرابه ، ومن قلدهم في غيهم وضلالتهم من الغلاة ، كما سنذكر تفصيل ذلك في الكلام على مناقبه ان شاء الله .

(ومنها أنه قال) وهذا الكتاب من أضر الكتب على من اطلع عليه من عوام

المسلمين والطلبة القاصرين ، فيجب ان يعاملوه معاملة الكتب المخالفة لمذاهبهم المكدرة لمشاربهم الخ .

(فيقال له) هذا كلام فاسد ، قد بعثه عليه حسده وحبه لهواه وضلاله وغيه ، فان كتاب جلاء العينين جلاء عيون الموحدين ، وبهجة قلوب المؤمنين ، كم من منشد وجد به ضالته ، وكم من حيران أنس به هدايته ، وكم من مسلم قد انتفع به ، وكم من منصف عرف الحق بسببه ، فهو الكتاب الذي راق لفظه ومعناه ، وفاق ماسواه بمفهومه وفحواه ، اذا أمعن ناقد النظر فيه شاهد منه حديقة يانعة تفوح فوائح ثراها كالمسك الاذفر ، كأنها جونة عطار ، وتخيله روضة رائقة تتأرج بروائح الند والعنبر، كأنها لطائم تجار ، فاجتنى من بدائع معانيه زهر المروج وأنوار الربيع ، واجتلى من روائع مبانيه زهر البروج وازهار المرابيع ، رائق ألفاظه أرق بل وأروق من مروقات السلاف ، ورواشق تعبيراته تروح الارواح وتهز الاعطاف ، كالشهد ريقه ، والنسيم رقه ، واللطف على الحقيقة .

رق لفظا فقيل خمر حرام ‏ ‏ ‏ ‏ راق معنى فقيل سحر حلال

فجزى الله مؤلفه أحسن الجزاء ، مما أعده لأهل طاعته المتبعين لشريعته من الاصفياء ، حيث لم يأل جهدا في تأليف هذا الكتاب ، المشتمل على فصل الخطاب لدى ذوي الالباب ، ولم يقصر نصحا في ترصيف أبواب تبهر المتقدم والمتأخر من ذوي الكمالات والآداب ، وأودعه نكتا لطيفة تفوق بسناها على بدر التمام ، ورصعه بفرائد تزهو في الاتساق وتروق في الانتظام .

في بطن قرطاس رخيص ضمنت ‏ ‏ ‏ ‏ أحشاؤه درر الكلام الغالي

فلله در مؤلفه من عالم أبدع ، وفاضل أعلن بالحق وصدع ، وهذب فذهب ، وبوب فرتب ، أخذه ذهبا فغدا يتوقد لهبا ، وتناوله قبسا فتجلى في طور البلاغة شهبا ، وزاد في حسن سبكه فهزت أعطاف ناظريه طربا ، الى آخر ماوصفه به بعض الافاضل حين قرظه أكابر الاماثل .

وقد أثنى على كتاب جلاء العينين وقرظه جماعة من أعيان المذاهب الاربعة المعاصرين للمصنف رحمهم الله تعالى ، ولا بأس أن نذكر من كلام بعضهم نبذا يتحلى بها وبنفائس دررها جيد هذا الكتاب ، فأقول ومن الله أستمد التوفيق والاعانة :

ممن أثنى على كتاب جلاء العينين علامة المنقول والمعقول ، وفهامة الفروع والاصول ، خاتمة الادباء ، وتذكرة فحول الشعراء ، فريد عصره ، ووحيد دهره ،

الذي طار صيت مجده في الآفاق ، وأشرقت شمس فضله في الحجاز والعراق ، أحمد باشا الفاروقي الموصلي ، طيب الله تعالى ثراه بعطر رضوانه الجلي ، وقد قرظ جلاء العينين بتقريظ هو لدى الادباء قرة عين ، وهو تقريظ نفيس ، يفعل بالالباب ولافعل الخندريس ، وذلك قوله لازال في بحبوحة الجنان مسكنه ومحله :

بجـــلاء العينين كحلت عيني وأجلت الافكار في الاحمدين
فرأيت الصواب ماقد حكــاه نص هذا الكتاب من غير مين
قد حوى في اصدافه خير در فتــراءت أوراقــه من لجـين
وكذاك الاشياء يظهر فيهـــا رونق الحسن جامع الضــدين
أوضح الحــق لــدى كل راء وجلا عن عيــونه كل غــين
وخصوصا قدباعد البحث منه بين من يدعى الضــلال وبيني
فلنا بالنعمــان خير اتبـــاع ثابت الاصل محكم الطرفــين
كم جلا الشك عن جليلين كانا في سمـــاء العلــوم كالنــيرين
خدمة ساقها لأجل رضى اللــ ه ونفــى الظنــون عن هذين
نسج الفكر منه حسن ثيـاب لبستها منــاكب الشيخـــين
حاكها بالافكار علمــا فليست وشي صنعا يحوكها باليــدين
بنقود النصوص وفى حقــوقا وسواه قضى الذيــون بدين
ذكرتني ومانسيت قضـــايا سبقت مثل قصة الحكمــــين
عرفت جده الاحابيش لمـــا كشف الحربعن قناع حنــين
عن أبيه تورث العـــلم حتى صار بالفضـــل مجمع البحرين
فهو للدين ســاعد وعمـــاد ولصدر الاســلام قرة عــين
كم له من فضائل كشمــوس أشرقت في مطالع المشـــرقين
وبـــدور مـــن التآليـــف غر طلعت من منـــازل القمرين
أشعري المقام علما وحكمـــا سلفى الطـــراز في الاثنـــين
علـــوى نجـــاره من قريش هاشمي الآبـــاء والجــــدين
كالانانيب بعضها فـــوق بعض من علي وجعفــر وحســـين
نسب فيالحطيم قدضاع مسكا فاح منه الشذىلدى المشعرين
فهم قدوة الورى وملاذ النــ اس طرا في حالة النشـــأتين

(ترجمة هذا الفاضل)

هو من قوم كرام ، وأماجد أعلام ، ينتهي نسبه الى سيدنا عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه ، ونسبه معلوم مشهور ، وفي كتب الانساب مذكور ، وهؤلاء القوم كما قال قائلهم فيهم :

بنو فاروق تيجان المفـــارق ... وأعيان المغارب والمشـــارق
فكم من برجهـــم طلعت بدور ... وكم من أفقهم قد ذر شـــارق
وكم من عيلم في العلم منهـــم ... يطم اذا طمى شم الشواهـــق
مآثرهم نجوم سما معـــال ... لها عقدوا ميـــازرهم مناطق
فلو مـــدوا الى العيـــوق باعا ... لجـــاوزه وليس هنـــاك عائق
محابرهم بحـــور زاخرات ... سل الاقلام عنها والمهـــارق
فما هم والمعـــالي منذ كانـــوا ... وكانت غير معشوق وعاشـــق
وهم فحوى حقيقة كل شـــيء ... وهم عنوان ديوان الحقـــائق
وهم خلعـــوا على أم المعـــالي ... وهم في المهد من مجد قراطق
وهم سنوا المعالي بالعـــوالي ... وبيض الهند والخيل السوابق
وهم من تعرف البطحا أباهـــم ... وتعـــرف جدهم للحـــق فارق
وهم من مهـــدوا للدين طرقـــا ... يداس بها على قمم الطـــرائق
وهم أسد لهم يعلـــو زئـــير ... اذا هدرت بيوم وعى شقاشق
وان خفقت لهـــم رايات بطش ... فؤاد الخـــافقين تراه خافق
تحدثهـــم فراستهـــم بمـــا قد ... طواه بين جنبيـــه المنـــافق
وهل من قائل يوما سواهـــم ... ليوم تفاخـــر في المجد لائـــق
يســـوقون الكماة الى المنـــايا ... وليس لهم سوى الاقدام سائق

قال المترجم رحمه الله في كتابه (العقود الجوهرية) بعد أن ذكر نسبه من الابوين : وأما ولادتي فكانت في الموصل أواخر سنة أربع وأربعين ومائتين وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل التحية ، قال ولما بلغت من العمر أربع سنين ابتدأت بقراءة القرآن الكريم ، وختمته سنة سبع من عمري ، وحفظت طرفا منـــه ، ورويت قراءة حفص على أستاذي في النحو الملا عبد الرزاق الجبوري ، وفي سنة أربع وخمســـين طلبني عمي الشهير بالفضل ، عبد الباقي الفاروقي ، وكـــان اذ ذاك ساكنـــا بغداد ،

وبقيت عنده نحوستة أشهر ، وقد أكملت شرح الالفية للسيوطي على الشيخ أسعد أفندي الموصلي المدرس في مدرسة جامع الآصفية ، ثم عدت الى الموصل فقرأت أصول الفقه وعلم الحساب وطرفا من علم الوضع على العالم الفاضل الشيخ عبد الرحمن الكلاك ، وجمعت الجمع الصغير والجمع الكبير في القراآت السبع على ولده الشيخ عبد اللطيف ، وقرأت بعض المتون المنطقية على العابد الزاهد والعالم الفاضل الشيخ محمد أمين بن الملا عبيده ، وقرأت علم البديع وطرفا من علم المعاني والبيان على رئيس العلماء المشهود له بالعلم والورع الشيخ عبد الله الفاروقي قدس الله روحه ، ثم ان عمي رحمه الله طلبني سنة احدى وستين ومائتين وألف من والدي مرة ثانية لأجل الاقامة عنده ، فتوجهت الى بغداد وكانت اذ ذاك غاصة بالفضلاء والعلماء والادباء — فتخرجت عليه في فنون الشعر وعلم الادب ، وطرت بجناح فضله ، واستسقيت من هطال وبله ، وفي غضون ذلك قرأت — تبركا — شرح الشمسية للقطب ابن عقيل ، على خاتمة المفسرين وعلامة العلماء المحققين أبي الثناء شهاب الدين السيد محمود الالوسي ، مفتي الزوراء ، ومرجع الفضلاء — قدس الله روحه، وتغمده برحمته ورضوانه — وقرأت أيضا كتاب تشريح الافلاك على الفاضل الشيخ أحمد السنندجي نزيل بغداد ، وأتقنت اللغة الفارسية على ولده الفاضل الشيخ طه أفندي ، ولم أزل عند العم في بغداد الى السنة التاسعة والستين بعد المائتين والالف ، وفيها دخلت مسلك خدمة الدولة العلية العثمانية ، ولم أزل متقلبا في البلاد بمناصب مختلفة ، حتى أصعدني أمير المؤمنين ، وخليفة رب العالمين — السلطان عبد الحميد خان — الى رتبة مير ميران ، وها أنا اليوم في الآستانة ضيف حظيرته ، ونزيل سدته ، داعيا له بالدوام ، على مدى الايام ، انتهى كلامه •

وقلت في كتاب بدائع الانشاء — فيما كان من مكاتبتي مع مشاهير الادباء ، من كلام في ترجمة هذا الاديب الفاضل — وفي شهر رمضان سنة بعد الثلاثمائة والالف من الهجرة النبوية : نعاه لنا الناعي من اسلامبول دار السلطنة العثمانية ، وان روحه الشريفة انتقلت الى الجنان ، ودار الرحمة والرضوان ، في أواسط ذلك الشهر مهبط الغفران ، وأرخ وفاته بعض الادباء بقوله من أبيات : أدخلوه الجنان أحمد عزت ، فهناك لوت ساعد عزمي يد نيران اللهف ، وفلّ أركان صبري ماقاسيته من الأسى والاسف ، ونفذ من قضاء الله تعالى فيه ، ماأمض قلبي ، وأرض لبي ، وقطع نياط فؤادي ، وطرد لذيذ رقادي ، وأحدث لي حزنا ملازما ، وهما مداوما ، الى أن قلت :

وقد كان المشار اليه لازالت سحب الرحمة والمغفرة منهلة عليه ، رجل الدنيا ، وواحدها ، وعضدها وساعدها وسيدها وماجدها :

وما كان أبهى منه في الناس منظرا	ولا كان أذكى منه في الناس مخبرا
تفقدت منه وابل القطر ممطرا	وفارقت منه طلعة البـدر نيرا
لئن غيبوه في التـراب وأظلمت	معالم كانت تفضح الصبح مسفرا
فما أغمدوا في الترب الا مهندا	ولاحملوا في النعش الاغضنفرا

ثم ذكرت كلاما طويلا في الثناء عليه وعقبته بقولي : وقد كان رحمه اللـه تعالى حسنة الزمان ، وعين الاعيان ، وركن الادب العالي على الاركان ، كمالاته كثيرة ، وفضائله شهيرة ، له ديوان شعر رآئق ومقالات من النثر الفائق :

له الكلمات الجامعات تخـالها	نجوما بآفاق البلاغة طلعـا
وان كتبت أقلامه فحمـائم	تبث الى السمع الكلام المسجعا
وكتب لدين الله أضحت مطالعا	كما كانت الافلاك للشمس مطلعا
اذا ضلت الافهام عن فهم مشكل	هدى وعليه في الحقيقة أطلعـا
وان قال قولا فهو لاشك فاعل	قؤول من الامجاد ان قال أبدعا
كلام ترى الاقلام في الطرس سجدا	له وترى أهل الفصاحة ركعا
يحير أرباب الرجال كأنمـا	أتانا باعجاز من القول مصقعا

وكان عليه الرحمة حنفي المذهب ، سلفي العقيدة ، أفعاله وأعماله كلها سديدة ، وبقي كلام طويل ، وثناء جميل ، أعرضنا عن نقله ، وتركناه لأهله •

(وممن قرظ الكتاب وأثنى عليه) خاتمة بني الآداب ، ومن أنقـذ ــ برشاء تقريراته من جب العويصات ــ هلكى الطلاب ، تذكـرة الاصمعي وابن دريـد ، وسيبويه الثاني وأبو عبيد ، المفتي في المذهب الحنفي في البصرة ، أحمد بك الشاوي الشافعي الحميري تغمده الله تعالى برحمته ، وأسكنه بحبوحة جنته ، وذلك قوله دام فضله :

قل لقوم بزعمهم خطئوا الشيـ	ـخ بلا حجـة ولا برهـان
واستدلوا بما رواه فـلان	عنه من غير صحـة عن فـلان
ثم قووا ورجحوا واهن القو	ل بلا قـوة ولا رجحـان
غـير ماقد تقولـوه عليـه	شططا من وساوس الشيطـان

من أقاويل لم يكن أنزل الله بها ذو الجلال من سلطان

ان أردتم أن تعرفوا الحق حقا مثلما ينبغي لذي عرفان

وتروا منهج الهدى مستنير الـ وجه كالشمس في وضوح البيان

فعليكم بما روى الثبت نعما ن سمي ابن ثابت النعمان

الفقيه النبيه والعالم العا مل فيما به رضا الرحمن

والمجلى فيصل الحكم بالعد ل دجى الاختلاف والامتحان

لو رأى الاحمدان ماقد رأينا منه سرا بما رأى الاحمدان

ولو أن الزمان صور شخصا كان انسان عين هذا الزمان

كم له من مؤلفات علوم آلفت بين نافرات معاني

أوقفتنا على مشاعر علم لم يكن حام حولها الشعراني

وحري اذا العلوم استخفت علمه أن يميل بالميزان

قد جلا من غياهب الشك عينا بجلاء العينين للاذهان

ياله من مصنف فيه قرت عين أهل التوحيد والايمان

دمغ الباطل المزخرف بالحق وأودى بالافك والبهتان

وحوى من معنعنات أحادي ث على شرط ماروى الشيخان

فهو ان عدت التصانيف أضحى مفردا ماله اذا عدَّ ثان

فاجهدوا ياهداكم الله في أن تقتفوا اثره بدون توان

إنه ماعلمتم خير هاد ودليل الى بلوغ الاماني

(ترجمة هذا الفاضل)

قد أفردت له ترجمة في كتاب (بدائع الانشاء) فيما جرى من المكاتبة بيني وبين المعاصرين من الادباء ، وذكرت له فيها كثيرا من شعره الفصيح ، وكلامه البليغ الرجيح ، وها أنا أذكر ملخص ذلك في هذا المقام ، والله ولي التوفيق والانعام ، فمن ذلك أني قلت هو أحمد بك بن عبد الحميد بك بن سليمان بك ، وينتهي نسبه الى تبع الاكبر أحد من كان في اليمن من تبابعة حمير ، وهو من سلالة قوم من الاخيار ، وأناس سموا بعلو هممهم الى أوج الفخار •

هم القوم يروون المكارم عن أب وجد عريق سيدا بعد سيد

تسودهم نفس هناك أبية فكانوا اذا مابين نسر وفرقد

وهزتهم يوم الندى أريحية كأن شربوا من كأس صهباء صرخد
تطربهم سجع الصوارم والقنا بيوم الوغى لا ماترى أم معبد
اذا وعدوا الطاغين بالباس ارهبوا وان أحسنوا الحسنى فعن غير موعد
كرام اذا استمطرت وبل أكفهم أراقته وبلا من لجين وعسجد
يقال لمن يروي أحاديث فضلهم أعد واستعد ذكر الكرام وردد

ولد رحمه الله تعالى سنة أربع وأربعين ومائتين وألف من هجرة من لم تبلغ كعب علاه بردة كل مدح ووصف ، وقد ذكر لي ذلك عند سؤالي له عما هنالك ، ولم يزل يحتسي در الفضائل ، ويشتغل على علماء عصره الاماثل ، حتى أزهر به روض الادب بعد يبسه ، وأقمر به فلك الفضل بعد أفول شمسه ، وأثمرت به أغصان دوحة حديقة العرفان ، وأبهرت أنوار حقائق دقائق النطق والبيان ، وشدت به ابكار الافكار نطاقها ، ومدت عليه أسرار أنظار خرائد المعاني رواقها ،يروى من الحديث أتقنه ،ومن الشعر أرصنه ، ومن كل علم أحسنه ، ومن كل أدب أزينه ، كان اذا تكلم يود السامع لو أن كله السن ، ولا يبقى فيه جارحة الا تمنت أنها أذن ، صحبته كريمة ، وعشرته جميلة ، ودعابته لطيفة ، ومحاضرته شريفة ، وقريحته سديدة ، وعارضته شديدة ، ومعانيه رقيقة ، ومبانيه وثيقة ، يتناثر الدر من فلق فيه ، وكأن هذه الابيات قد أنشدت فيه :

حكم على أهل العقول يبثها متقونة الاوضاع والاحكام
ويريك في ألفاظه وكلامه سحر العقول وحيرة الافهام
كم أعربت ألفاظه عن حاله يوما فأعجب منطق الاعجام

أو كأنه هو المقول فيه حيث كان رحمه الله يشبهه ويضاهيه :

أحاديثه مثل زهر الرياض فهل كان اذ ذاك روضا جميما
لطيف رقيق حواشي الطباع فلو جسمت لاستحالت نسيما

ومما قلت أيضا في ترجمته : مع قوة حافظة وفصاحة لهجة ،تظنه لولا ماهو عليه من الفضل والادب أنه قد ربى في البوادي مع خلص العرب ، يحفظ من نوادر الجاهليين وما كان لهم من الايام والاخبار مالو جمع في سفر لكان من أعظم الاسفار وأما معرفته باللغة وغريبها وفصيح تراكيبها وأساليبها فذاك الذي اعترف له به المكابر ، وأذعن له الاصاغر والاكابر ، هذا مع تواضع ولين جانب ، للأقارب الأدنين والاجانب ، وقد ضم مع ذلك من الاخلاق أكرمها وألطفها ، ومن الاوصاف أفضلها وأشرفها •

من لي بانسان اذا أغضبتـــه ورضيت كان الحلم رجع جوابه
واذا أصر على الذنوب جليسه وسطا يكون العفو مر عقـابه
واذا ظمئت الى الشراب رويت من ألفاظه وسكـــرت من آدابه
وتراه يصغي للحديث بقلبـه وبسمعـه ولعـله أدرى بـه
واذا تفاخرت الرجال بماجـد فاقت شمائلـه علـى أترابـه

ولم يزل يتقلب في المناصب ، ويتنقل في منازل المراتب ، حتى أدت به خاتمـة المطاف ، وفاتحة النعم والالطاف ، الى أن تقلد افتاء البصرة الفيحاء ، ونشر الاحكام الشرعية في هاتيك الانحاء ، الى أن قلت : وقد عاقته العـوائق ، ومنعته الشـواغل والعلائق ، أن يتصدى لتأليف كتاب أو تصنيف فصل أو باب ، نعم ان له من الشعر الرائق ، والنثر اللطيف الفائق ، مالو جمعا لكان كل منهما أعظم ديوان ، وفاق ما نسب لحسان ونابغة بني ذبيان ، وكم جرت بيني وبينه مكاتبات هي لعمري أرق من مدامع صب صبها على مافات ، وهي مذكورة في ترجمته من كتاب بدائع الانشاء ، فليراجعها من شاء ، ولم يزل يصدع بالحق ويفتي بأصح الاقوال ، حتى انتقل الى رحمـة الله المتعال ، وذلك سنة تسع عشرة وثلاثمائة وألف من الهجرة ، وقد أسف على فقده من كان عارفا بقدره ، ودفن بجوار الزبير رضي الله عنه ، وقد رثاه صاحبه وخلفـه في الافتاء الشيخ طه أفندي الشهير بآل الشواف ، منحه الله تعالى بالنعم والالطـاف ، فقـــال :

لاتبعدن أبا عبد الحميد وقد بعدت عني فروى تربك المطر
اذا رثيتك بالشعر البديع فمن من بعد شخصك يدري منه ما الخبر
فاذهب عليك سلام الله في دعة فسوف ترثيك مني أعين غزر

وكان رحمه الله تعالى شافعي المذهب ، لايميل الى غير مذهبه ولا يذهب ، غير أنه لايستحسن رأي الغلاة من الشافعية ، وكان يختار كامامه الآراء السلفية ، والله يتولى الصالحين •

(ومنهم شبل ذلك الاسد) والفاضل الذي لم يطاوله في الفضل من أقرانه أحد ، تذكرة أهل الادب ، ومجمع فضائل العرب ، عبد الحميد بك الشـاوي البغـدادي تغمده الله بالرحمة والرضوان ، وأسكنه فراديس الجنان ، وذلك قوله :

أبا ثابت يهنيـــك أنك ثابت على الحق اذ زلت عن الحق أرجل
جلوت العمى والشك عن كل مؤمن بقـول يميط الهزل حقا ويفصـل

فهذا جلا العينين يعجز آخـرا | مداه ولم يبلغـه قبلـك أول
فياطالب الاخرى ويامبتغي الهدى | ليسعد عند الله في يوم يسأل
لعمري لهذا الحق يعلو مناره | عليك به ان الاباطيل تسفـل

(ترجمة هذا الاديب الاريب)

قد كتبت لهذا الفاضل ترجمة مفصلة في كتاب بدائع الانشـاء ، حيث أنه ممن جرت بيني وبينه مكاتبة من الادباء ، ومجمل ماقلت فيها : ان هذا الاديب كان على جانب عظيم من علو الهمة ، وشرف النفس ، ولين الجانب ، ومعرفة الادب ، ورقـة النثر ، وجزالة الشعر ، وذكاء الطبع ، وسخاء الغريزة ، وسرعة الفهم ، وسرعة الذهن ، وبعد النظر ، وغور الفكر •

متيقظ الافكار يدرك رأيـه | ما لم يكن بالظـن والتخمـين
من أسرة رغموا الانوف وأصبحوا | من أنف هذا المجد كالعرنـين
قوم يصان من الخطوب نزيلهم | ونوالهم بالبر غير مصـون
اللابسون من الفخار ملابسـا | ومن الوقار سكينة بسكـون

له خلق أرق من النسيم ، وأعذب من التسنيم ، لطيف المؤانسة ، طيب المفاكهة ، لايمله جليسه ، ولا يرغب عنه أنيسه •

ورأيت من أخلاقه بوجـوده | ماأبدع الخـلاق بالتكـوين
ولكم تجلى بالمسرة فانجـلى | صدأ الهموم بقلبي المحـزون
حيث السعادة والرياسة والعلى | تبدو بطلعة وجهه الميمـون

وكانت له اليد الطولى باللغة العربية ، كما كان سباق غايات بين فرسان اللغة التركيـة •

أقلامه افتخرت على سمر القنا | فرأيت كل الفخـر للاقـلام
خط يسر الناظرين ولم يـزل | في العين أحسن من عذار غلام
وكأنما نظـم النجوم قلائـدا | في الكتب مشرقة لدى الايام

وله من الشعر نظم كثير ، وبحر غزير ، ومن شعره الرائق ، ونظمه الفائق ، هذه القصيدة الغراء ، بل الغادة الحوراء ، قالها متحمسا بحسه ، وشرف نسبه وأدبـه ، ذاكرا غدر أعيان وطنه به ، وذلك قبيل وفاته بعدة أيام ، وهي نفثة مصدور ، وأنـة

مقهور ، قد أضربه السقام ، ولم يرو من غليله الاوام .

أرقت وهل يهجع المقصد ... وليس لليل المعنى غد
وبت أراقب سير النجوم ... كأني بها ساهرا أرصد
بقلب قريح له لوعة ... تشب ضراما فما تخمد
وعين كعين تفيض الدموع ... تسح دراكا فما تجمد
ولي زفرات تذيب الحشا ... وتوهي الاضالع لاتنفد
لذكر زمان هوى قد مضى ... وخلف نار جوى توقد
وعهد صبا سلبته الخطوب ... وأعقبه زمن أنكد
واظعان حي حدتها النوى ... وأعرق بي البين اذا أنجدوا
وقد كان لي فيهم مألف ... وعيش بساحتهم أرغد
وكم لي هنالك من مجلس ... جليسي به الرشأ الاغيد
غرير يصيد أسود الشرى ... ويعنو له الاشوس الاصيد
أسامره بغرامي به ... وفوق الحسام الجراز اليد
واخوان ضراء فارقتهم ... وكنت بصحبتهم أسعد
قضيت بهم والمنى غضة ... ولم يك في الدهرماينكد
ليالي أفدي لها جانبا ... من العمر لو أنها عود
نأوا فظللت كئيبا لهم ... وهيهات مثلهم يوجد
لقد كان شملي بهم جامعا ... واني من بعدهم مفرد
غريب أقاسي العنا والاسى ... ومالي خل ولا مسعد
مقيم أعاني ضروب الضنا ... وقد ملني الاهل والعود
فسقيا لعيش بهم كان لي ... فما العيش من بعدهم يحمد
فلولا عواد عدت جمة ... لقلت وان كنت لاأقصد
سقى الله بغداد صوب الحيا ... وطالعها الطالع الاسعد
وان لم يكن لي في شطها ... وان لج بي ظما مورد
ولكن تركت بها معشرا ... لهم طارف المجد والاتلد
هم الناس ان عد أهل العلى ... وان ذكر الاصل والمحتد
وما منهم غير قرم عليه ... خناصر أهل النهى تعقد
فياراكبا زعلبا جسرة ... على مابها من وجي تسئد

اذا جئت بغداد فاحبس بهـا ... ففيها لأهل الهـوى معهـد
وفي الكرخ لي كبـد غودرت ... وقلب أضيع فما ينشـد
لقيت من الدهر مابعضـه ... يذوب له الحجـر الجلـمد
ولست لاحـداثه ضارعـا ... ولا أنـا مكتئب مكمـد
ولكننـي أنا جـار على ... مدى همـة شـأوها أبعـد
ولي سيف عـزم اذا النائبـا ... ت تفاقمن صمصم لا يغمـد
ولست أبالي اذا الحـادثـا ... ت عظمن الى أيهـا أعمـد
وقومي الالى الصيد سادوا الورى ... وشـادوا من المجد مايخلـد
سموا في سمـاء العلى رتبـة ... دنى دونها النجم والفرقـد
على أن فخري بنفسـي اذا ... بنوا الدهر أجدادهم عـددوا
وحسبي فخـرا اذا ما فخر ... ت وكان لأهل العلى مشهـد
مقالي أنـي عبـد الحميـ ... ـد وان أبي المجتبي أحمـد
همـام اذا رقـد الغافلـون ... عن الخـير والمجـد لا يرقد
هو الحـلو طعما لاحبـابه ... وللشانيء ، الارقم العـربد
فتعسا لدهـر أخوه اللئيـم ... وأكبـر أعدائه الامجـد
أنا العلم الفـرد في رتبتـي ... اذا شئت قلت فمـن يجحـد
تكنفنـي من كـلا جانبي ... صدق النجـابة والسـؤدد
على رغم كلب عوى حاسـدا ... وهل يخفض السؤدد الحسـد
عجبت لنذل يناوي الكـرام ... وهمتـه عنهـم تفقـد
يسامي رعـان جبـال سمت ... وموضعه الغـائط الاوهـد
يرى الفخر والفضل من جهله ... دراهـم في كفـه تنقـد
يخـال السفاهة رأس العـلى ... فليس الى غـيرها يخـلد
فلـولا الترفـع عـن مثلـه ... لكـان له عنـدنا موعـد
على أنـه حسبـه خزيه ... بما فيـه أفعـاله تشهـد

وقد عرض في هذه الابيات الاخيرة بنقيب بغداد ، فانه عدو لأهل الكمـالات والامجاد ، وكان رحمه الله له مشاركة في كثير من العلوم ، واشتغـل مدة مديدة في المنطوق منها والمفهوم ، وله محبة ومزيد ميل الى آثار السلف ، ولم يزل يسخف رأي الغلاة الذين هم بئس الخلف ، ولم يبلغ من العمر الا نحو خمس وأربعين سنة الا

واخترمته المنية ، ووجد عليه والده أعظم وجد حتى لحقه بعد مدة جزئية ، وقد كنت كتبت له أعزيه بهذه الفاجعة المؤلمة ، وهذه الحادثة الملمة ، فأجابني بقوله :

بالله المستعان وعليه التكلان ، وبه أستعين ، وهو في كل شدة نعم المعين ، لاملجأ الا اليه ، ولا معول الا عليه ، وله الحمد على كل حال ، واليه المرجع والمآل ، لقد صرت للحوادث غرضا منصوبا ، وللنوائب جملا ركوبا ، تنتصل فيَّ ماضيات نصالها ، وتحمل عليَّ مثقلات أحمالها ، فلله قلبي ماأصبره وأقساه ، وجسمي ماأصلبه وأقواه ، فلو كان قلبي حديدا لذاب ، أوكان وجودي صخرا لتصدع من عظم المصاب، ولعمري لقد فل المنون شباتي ، وأفسد علي حياتي ، وأثكلني لذاتي ، فما هو الا قمص الصبر أتدرعها ، وغصص الموت أتجرعها ، وتأبى زفرات الحزن الا تصعدا ، وجمرات الوجد الا توقدا ، ولكن ما الحيلة وقد حل البلاء ، وفرض العزاء ، وكتب الرضاء والتسليم ، عند حلول الامر الجسيم ، فلا تسخط لقدر الله وهو عدل ، ولا تكره لقضائه وهو فصل ، فانا لله وانا اليه راجعون ، تسليما لما أمضاه ، ورضى بما قضاه ، ولقد تشرفت بكتابكم الشريف ، فتناولته بكف التكريم ، وأنامل التبجيل والتعظيم ، وفضضته من خط تسكب منه العبرات ، ولفظ تتجاذب من خلاله الحسرات يشهد بمشاركة مولاي أطال الله تعالى بقاءه في هذه المصيبة مشاركة من لايتميز عنه في محنه ولا منحه وسروره وحزنه ، فأبقاك الله للعلم تعمر مدارسه ، وتجدد دارسه ، وللاخوان تكون لهم عونا في حوادث الزمان ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، في (٥) ربيع الآخر سنة ست عشرة وثلاثمائة وألف للهجرة ، الداعي مفتي البصرة أحمد ابن عبد الحميد الشاوي .

وقد توفي أيضا في البصرة ودفن في مقبرة الزبير رضي الله عنه .

وقد بقي أفاضل كثيرون ممن قرظ (جلاء العينين) وأثنى عليه بما هو مطبوع مع الكتاب وبما ورد بعد الطبع ، ولو استقصينا جميع ذلك مع تراجم المقرظين لاحتمل أن يكون سفرا كبيرا ، وما ذكرناه كاف في المقصود ، وهو ابطال قول النبهاني المخذول في شأن كتاب (جلاء العينين) وتبين أنه كذب وافترى فيما ذكره في كتابه ، وأما قوله : فيجب أن يعاملوه معاملة الكتب المخالفة لمذهبهم الخ ، فقد ذكرنا سابقا أن ماشتمل عليه (جلاء العينين) هو عين مذهب الأئمة سواء كان في الاصول أم في الفروع ، وقد ذكرنا نصوصهم في مسألة العلو وغير ذلك بما لامزيد عليه ، وأماقوله: وترجيحه كثيرا مما يخالف عقائد جمهور المسلمين أهل السنة والجماعة الخ فهذا دليل

على جهله ، حيث لم يفرق بين الايمان والشرك ، وأقوال أهل الحق من أهل الباطل ، وظن أن أهل السنة والجماعة هم الذين على مسلكه وعلى باطله وضلاله ، وقد ذكرنا غير مرة حقيقة حالهم وأن الفرقة الناجية هم التابعون لما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام •

وأما القول بالجهة فقد قلنا ان كتب الشيخ كلها ناطقة بخلاف ذلك ، ومسألة العلو والاستواء قد سبق الكلام عليها ، وذكرنا أقوال من قال بها من الأئمة وغيرهم •

(ومنها أنه قال) وأنا والله في حيرة من أمره ، ان قلت ان ذلك اعتقاده يعارضني أني أعرفه حنفي المذهب ، من عائلة علم وسيادة ، كلهم من أهل السنة والجماعة ، وان مااعتمده في هذا الكتاب ــ مما أيد به زلات ابن تيمية ــ هو مذهب الوهابية لامذهب الحنفية الخ •

(فيقال لهذا المخذول) لم تتحير في أمرك وأنت لست بمسئول عن غيرك ، وكل امرئ بما كسب رهين ، وبما عمل مجازى بيقين ، هلا نظرت الى نفسك قبل حلول رمسك ، قد قضيت عمرك بالضلال وفاسد الاعمال ، والحكم بالطاغوت والاعراض عما شرعه ذو الجلال ، تارة تزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل زمان وفي كل مكان ، وأخرى تدعي أن كل من لم يدع المخلوق ولا استغاث به فهو من المبتدعين ، وأن الاسلام هو دعاء غير الله والغلو في الصالحين ، وأخرى تقول بالحلول والاتحاد ، وتعتقد مايعتقده أهل الالحاد ، ومع ذلك لم تتحير في أمرك بل تحيرت في أمر غيرك ، وما دخولك بين العلماء وأنت من أضل الجهلاء ؟!

اقرأ كتابك واعتبره قريبا	وكفى بنفسك لي عليك حسيبا
ومن الفصيح كلام اخوان الصفا	ان خاطبوا جعلوا الخطاب خطوبا
ما كان عذرك لو أتيت بمثله	أو كنت فيما تشتهيه مجيبا

(وما أحسن مايقول القائل)

مناضلة الدني مع الاديب	بلا داع من العجب العجيب
أيأمر بالمكارم من بعيد	ويجنح للدنية من قريب
وينهى عن طباع السوء صبحا	ويأتي بالاساءة في الغروب
يعلم غيره طرق المعالي	وتجذبه النقيصة للعيوب
وان يأتي الفتى ماعنه ينهى	فذاك النهى وعظ من كذوب

سكوت الحر حتم عن سفـاه ... وصون العرض يقضي بالوجوب
وماذا النفع في إتعاب فكـر ... يقوم بنصرة الطبع الغضوب
لثلـم العرض في كلمات سوء ... تطير بهن عاصفة الهبـوب

(وما أليق مايقول القائل بحال النبهاني أيضا)

معارضة الغـريب الى القريب ... بلا حـق من السفـه العجيب
وازراء الغبـي على ذكـي ... حـرى أن يعـد من النعيب
فهـلا أيهـا النـاهي بـرأي ... سخيف ليس بالـرأي المصيب
اتحسب لاحسبت بأن شتمـا ... محـاورة الاديب مع الاديب
مسـاجلة الكـرام بكل فن ... متى كانت تعد من الذنـوب
وتنقص كاملا وتذم شهمـا ... رويـدك جئت بالامر الغريب
وأنت فما دخولك بين قـوم ... من العلماء بالوعظ الكـذوب
وان تجـادل العلماء يومـا ... بما علمـوه من حسب حسيب
ليعرف كامل الفضلاء منهـم ... اذا عرضـوا على فطـن لبيب
وتلـك لحالـة فيها لأهـل ا ... ذكـا والفضل تبصرة القلوب
فأي تطـاول فيه افتخـار ... اذا لم يبـد من شهـم نجيب
الا إن التطـاول في كمـال ... بـه يمتاز ذو البـاع الرحيب
متـى كانت بنبهـان كـرام ... يقون العـرض من ذم مريب
وأي نقيبـة لهـم استبـانت ... قديما أو حديثـا من نقيب
فربع كما لهـم قدما جديب ... ولم نعهـده بالربع الخصيب
أيجتنب الكريمة طبـع حـر ... لأمر فيه اغضـاب الرقيب
فهـل غير المسـرة للقريب ... وهـل غير الاسـاءة للجنيب
فكف اللوم ياذا اللوم واحذر ... يروعك صولة الاسـد المهيب
وحاذر أن يصيبك ذو كمـال ... بشفـرة مقـول منه ذريب

ثم ما الموجب لهذه الحيرة وقد صرح الصبح لذي عينين ، وقد قلنا ان جميـع ماشتمل عليه (جلاء العينين) هو مذهب الأئمة ، وأساطين الامة ، لاسيـما مذهب الامام أبي حنيفة عليه الرحمة والرضوان ، فكتب مذهبه طافحة برد بدع الغلاة ، ومثل ذلك كتب الشافعية ، والمالكية وغيرهم ، ومن مشهور مذهب أهل المدينة سد الذرائع

والبدع ، وقد ذكر علماء السادة الحنفية في مسألة الاقسام على الله بمخلوق ماتقربه عين الموحد ، فان شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه ، وقد أنكر أئمة الاسلام ذلك ، فقال أبو الحسين القدوري في شرح كتاب الكرخي : قال بشر بن الوليد سمعت أبا يوسف يقول قال أبو حنيفة لاينبغي لأحد أن يدعو الله الا به ، قال وأكره أن يقول بحق فلان ، وبحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت الحرام ، وأكره أن يقول أسألك بمعقد العز من عرشك ، قال أبو الحسن : أما المسألة بغيرالله فمنكرة في قولهم ، لأنه لاحق لغير الله عليه ، وانما الحق لله على خلقه ، وأما قوله بمعقد العز من عرشك فكرهه أبو حنيفة ورخص فيه أبو يوسف ، قال : وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بذلك ، قال ولأن معقد العز من العرش انما يراد به القدرة التي خلق الله بها العرش مع عظمته فكأنه سأله بأوصافه •

وقال ابن بلدجي في شرح المختار : ويكره أن يدعو الله تعالى الا به ، فلا يقول أسألك بفلان أو بملائكتك أو بأنبيائك ونحو ذلك ، لأنه لاحق للمخلوق على خالقه ، أو يقول في دعائه أسألك بمعقد العز من عرشك ، وعن أبي يوسف جوازه ، وما يقول فيه أبو حنيفة وأصحابه أكره كذا هو عند محمد حرام ، وعند أبي حنيفة وأبي يوسف هو الى الحرام أقرب ، وجانب التحريم عليه أغلب •

وفي فتاوى أبي محمد ابن عبد السلام أنه لايجوز سؤال الله سبحانه بشيء من مخلوقاته لا الانبياء ولا غيرهم ، وتوقف في نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم لاعتقاده أن ذلك جاء في حديث وأنه لم يعرف صحة الحديث •

فاذا قرر الشيطان عنده أن الاقسام على الله به والدعاء به أبلغ في تعظيمه واحترامه وأنجع في قضاء حاجته نقله درجة أخرى الى دعائه نفسه من دون الله ، ثم ينقله بعد ذلك درجة أخرى الى أن يتخذ قبره وثنا يعكف عليه ، ويوقد عليه القنديل ، ويعلق عليه الستور ، ويبني عليه المسجد ، ويعبده بالسجود له والطواف به ، وتقبيله واستلامه ، والحج اليه والذبح عنده ، ثم ينقله درجة أخرى الى دعاء الناس الى عبادته ، واتخاذه عيدا ومنسكا ، وان ذلك أنفع لهم في دنياهم وآخرتهم •

وأبعد المراتب المتبدعة ــ عند القبور ــ عن الشرع أن يسأل الميت حاجة ويستغيث به فيها ، كما يفعله كثير من الناس ، وهم من جنس عبدة الاصنام ، ولهذا قد يتمثل لهم الشيطان كما يتمثل لعباد الاصنام ، وهذا يحصل للكفار من المشركين وأهل الكتاب ، يدعو أحدهم من يعظمه فيتمثل له الشيطان أحيانا ، وقد يخاطبهم

ببعض الامور الغائبة : وكذا السجود للقبر والتمسح به •

وفي كتاب (الطريقة المحمدية) للامام محمد البركوي ــ وكان من أكابر علماء الحنفية الاتراك ــ شيء كثير من هذا القبيل ، وكذلك فيما ذكره في رسالته المؤلفة في زيارة القبور ، فانها تشفى العليل وتروي الغليل ، وتحق الحق وتبطل الاباطيل •

وفي كتاب (الفتاوى البزازية) ــ وهو من أجل كتب الحنفية قدس الله أرواحهم الزكية ــ من قال أن أرواح المشايخ حاضرة تعلم يكفر •

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي ــ في كتاب الرد على من ادعى أن للاولياء تصرفات في الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة ــ هذا وأنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدعون أن للاولياء تصرفات في حياتهم وبعد مماتهم ، ويستغاث بهم في الشدائد والبليات ، وبهممهم تكشف المهمات ، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات ، مستدلين على أن ذلك منهم كرامات ، وقالوا منهم أبدال ونقباء ، وأوتاد ونجباء ، وسبعون وسبعة ، وأربعون وأربعة ، والقطب هو الغوث للناس ، وعليه المدار بلا التباس ، وجوزوا لهم الذبائح والنذور ، وأثبتوا لهم فيهما الاجور ، قال : وهذا الكلام فيه تفريط وافراط ، بل فيه الهلاك الابدي ، والعذاب السرمدي ، لما فيه من روائح الشرك المحقق ، ومصادمة الكتاب العزيز المصدق ، ومخالف لعقائد الأئمة وما أجمعت عليه الامة ، وفي التنزيل : (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تبيَّنَ لَهُ الْهدَى ويَتَّبِعْ غَيْرَ سبيْلِ الموْمِنِيْنَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى ونُصْلِهِ جَهنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً)[1]

ثم قال : فاما قولهم ان للاولياء تصرفات في حياتهم وبعد مماتهم فيرده قوله تعالى : (أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ)[2] (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ والأَمْرُ)[3] (للهِ مُلْكُ السَّموات والارضِ)[4] ونحو ذلك من الآيات الدالات على أنه المنفرد بالخلق والتدبير ، والتصرف والتقدير ، ولا شيء لغيره في شيء بوجه من الوجوه ، فالكل تحت ملكه وقهره ، تصرفا وملكا واحياء واماتة وخلقا ، وقد تمدح الرب تعالى بملكه في آيات من كتابه ، كقوله تعالى: (هَلْ مِنْ خالقٍ غيرُ اللهِ)[5] (والَّذِين تدْعُون مِنْ دُونه ما يملكون من قطْمير)[5]

وذكر آيات كثيرة في هذا المعنى ، ثم قال : فقوله في الآيات كلها (من دونه) أي من غيره فانه عام يدخل فيه من اعتقده من ولي وشيطان يستمده ، فان لم يقدر على نصر

---

(١) النساء : ١١٥ ــ (٢) النمل : ٦٠ ــ ٦٤ــ (٣) الاعرف : ٥٤ ــ (٤) المائدة : ١٢٠ ــ (٥) فاطر : ٣ ، ١٣

نفسه كيف يمد غيره ، الى أن قال : ان هذا القول وخيم وشرك عظيم ، الى أن قال : وأما القول بالتصرف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة ، قال جل ذكره : (إِنَّكَ ميِّتٌ وإنَّهم ميتُونَ) [1] وقوله : (الله يَتوفَّى الأنْفُسَ حينَ مَوتِها والتى لم تَمتْ في مَنَامِها فَيُمْسكُ الَّتى قَضَى عَلَيْهَا الموْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إلى أَجلٍ مُسمَّى)[1] وقوله : (كُلُّ نفْسٍ ذَائقَةُ الموت) [2] و (كُلُّ نفْسٍ بِما كَسَبتْ رَهِينَةٌ) [3]

وفي الحديث : (اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث) الحديث ، وجميع ذلك وماهو نحوه دال على انقطاع الحس والحركة من الميت ،وأن أرواحهم ممسكة، وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان ، فدل على أنه ليس للميت تصرف في ذاته فضلا عن غيره ، فاذا عجز عن حركة نفسه فكيف يتصرف في غيره ، فانه سبحانه يخبر أن الارواح عنده ، وهؤلاء الملحدون يقولون ان الارواح مطلقة متصرفة (قُلْ أَءنتُم أَعلَمُ أَم اللهُ)

قال : وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات من الكرامات فهو من أعظم المغالطة لأن الكرامات شيء من الله تعالى يكرم بها أولياءه وأهل طاعته ، لاقصد لهم فيه ولاتحدي ولا قدرة ولا علم ، كما في قصة مريم ابنة عمران ، وأسيد بن حضير ، وأبي مسلم الخولاني .

قال : وأما قولهم فيستغاث بهم في الشدائد : فهذا أقبح مما قبله وأبدع لمصادمة قوله : (أَمَّنْ يُجِيبُ المضْطَرَّ اذَا دَعاهُ ويَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُم خلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلهٌ مَعَ اللهِ) [4] (قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ) [5]

وذكر الآيات في هذا المعنى ، ثم قال : فانه جل ذكره كرر أنه الكاشف للضر لاغيره ، وانه المنفرد باجابة المضطر ، وانه المستغاث به لذلك كله ، وأنه القادر على رفع الضر القادر على ايصال الخير فهو المتفرد بذلك ، فاذا تعين هو جل ذكره خرج غيره من ملك ونبي وولي .

قال : والاستغاثة تجوز في الاسباب الظاهرة العادية من الامور الحسية فيقتال أو ادراك عدو أو سبع ونحوه ، كقولهم : يالزيد ، ياللمسلمين ، بحسب الافعال

---

(١) الزمر : ٣٠ ، ٤٢ ، (٢) آل عمران : ١٨٥ ـ (٣)المدثر : ٣٨ ـ (٤) النمل : ٦٢ ـ (٥) الانعام : ٦٣

الظاهرة بالفعل ، وأما الاستغاثة بالقوة أو التأثير أو في الأمور المعنوية من الشدائد كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه فمن خصائص الله تعالى لايطلب فيها غيره .

قال : وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية الجهال وينادونهم ويستنجدون بهم فهذا من المنكرات ، فمن اعتقد أن لغير الله من نبي أو ولي أو روح أو غير ذلك في كشف كربة أو قضاء حاجة تأثيرا فقد وقع في وادي جهل خطير ، فهو على شفا جرف من السعير .

وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات فحاشا لله أن يكون أولياء الله تعالى بهذه المثابة فهذا ظن أهل الاوثان كما أخبر الرحمن (وَيَقولُونَ هؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ)[1] (والَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ اوْلِيَاءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا الى اللهِ زُلْفَى)[2] (أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ)[3] فان ذكر ماليس من شأنه النفع ولا دفع الضر من نبي أو ولي أو غيره على وجه الامداد منهم شرك مع الله تعالى ، اذ لاقادر على الدفع غيره ، ولاخيرالا خيره . قال : وأما ماقالوه أن منهم أبدالا ونقباء ، وأوتادا ونجباء ، وسبعين وسبعة ، وأربعين وأربعة ، والقطب هو الغوث للناس : فهذا من موضوعات إفكهم ، كما ذكره القاضي المحدث ابن العربي في سراج المريدين ، وابن الجوزي وابن تيمية انتهى باختصار ، ومثل ذلك كثير في كتب الحنفية وغيرهم من المذاهب ، فرحم الله علماءالسنة فلقدكفونا مؤونةكشف ماأورده الخصوم من شبهات المبطلين ، فلله الحمد والمنة على عظيم النعمة .

(فانظر أيها النبهاني) مانقلناه اليك من أقوال الحنفية وغيرهم فهل خالفت ما اشتمل عليه (جلاءالعينين) وما ذهب اليه المحققون من الفريقين فلم أخذتك الحيرة واعترتك الوساوس الكثيرة ؟!

وأعجب من ذلك قولك : وان ما اعتمده في هذا الكتاب ــ مما أيد به زلاتابن تيمية ــ هو مذهب الوهابية لامذهب الحنفية ولا مذهب آبائه وأجداده السادة الشافعية ، حيث لم يعرف النبهاني المسكين النحل ولا المذاهب ، فبقي يخبط خبط

(١) يونس (٢) الزمر (٣) يس : ٢٣

عشواء، ويبدي ويعيد، ويكرر قوله البعيد، حتى زعم أن ماذهب اليه ابن تيمية وموافقوه ليس مذهب أهل السنة بل هو مذهب المبتدعين، وبينا خطأه سابقا أوضح بيان، وأقمنا على ماقلناه الحجة والبرهان، وأن مذهب أهل السنة هو ماعليه أهل الحديث، وذكرنا سابقا أن ما عليه أهل نجدليس مخالفا لماعليه الأئمة الاربعة، بل ماهم عليه هو الذي جاء به الدين المبين، واطلاق الخصوم عليهم اسم الوهابية مع كونه غلطا هو من باب التنابز بالالقاب، وبينا أن مثل ذلك من المشركين في شأن المسلمين اذ كانوا يسمونهم صابئة : (سُنَّةَ اللهِ التي قَدْ خَلَتْ مِنْ قبلُ ولَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً)[1]

(وأهل نجد) مذهبهم على ما كان عليه الامام أحمد بن حنبل نضر الله وجهه، وقد رأيت رسالة مختصرة يحفظها صبيانهم وشبانهم في العقائد من تصانيف أبي عبد الله العلامة الشيخ محمد رحمه الله، وليس فيها مايصادم الكتاب والسنة وما عليه أئمة الاسلام، وهي هذه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) اعلم رحمك الله أن طلب العلم فريضة، وأنه شفاء القلوب المريضة، وهو من أهم ماوجب عليك، والعمل به سبب لدخول الجنة، والجهل به واضاعته سبب لدخول النار، وأنه يجب عليك أربع مسائل .

(الاولى) معرفة الله تعالى، ومعرفة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم، ومعرفة دين الاسلام بالادلة (الثانية) العمل به (الثالثة) الدعوة اليه (الرابعة) الصبر على الاذى فيه، والدليل قوله تعالى : (وَالعَصْرِ . إنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إلاَّ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتواصَوا بالحقِّ وَتواصَوا بالصَّبر) قال الامام الشافعي رحمه الله تعالى لو لم ينزل الله على خلقه حجة الا هذه السورة لكفتهم

قال الامام البخاري : باب العلم قبل القول والعمل، والدليل قوله تعالى :

(فَاعْلَم أَنَّهُ لا إلـه إلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِر لِذَنبِكَ) الآية[2]

واعلم رحمك الله أن الله أوجب على كل مسلم ومسلمة تعلم هذه المسائل الثلاث والعمل بهن :

---

(١) الفتح : ٢٣ – (٢) محمد : ١٩

(الاولى) ان الله خلقنا لعبادته ولم يتركنا هملا ، وأرسل الينا رسـولا فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار ، والدليل قوله تعالى : (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُم) الآية [1]

(الثانية) ان الله لايرضى أن يشرك في عبادته أحدا لا ملكا مقـربا ولا نبيـا مرسلا ، والدليل قوله تعالى : (وأَنَّ المسَاجِد للهِ فلا تدْعُوا معَ اللهِ احدا) [2]

(الثالثة) أن من أطاع الرسول ووحد الله فلا يجوز لهموالاة من حادالله ورسوله ولو كان أقرب قريب ، والدليل قوله تعالى :(لا تَجِدُ قوماً يؤمِنون باللهِ واليَوم الآخر يوادُّونَ منْ حادَّ الله ورَسُوله) [3]

(واعلم أرشدك الله لطاعته) أن الحنيفية ملة ابراهيم عليه السلام أن تعبد الله مخلصا له الدين ، كما قال الله تعالى : (ومَا خَلَقتُ الجِنَّ والإِنس إلَّا ليَعبُدُونِ) [4] ومعنى يعبدون يوحدون ، وأعظم ماأمر الله به التوحيد ، وهو افراد الله تعـالى بالعبودية ، وأعظم مانهى عنه الشرك وهو دعاء غير الله تعالى معه ، والدليل قولـه تعالى : (واعْبُدُوا اللهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وبالوالدَين إحْساناً) الآية [5]

فاذا قيل لك : ماالاصول الثلاثة التي يجب على الانسان معرفتها ؟ فقل الاصل الاول معرفة العبد ربه ، ودينه ، ونبيه صلى الله تعالى عليه وسلم .

فاذا قيل لك من ربك ؟ فقل ربي الله الذي رباني بنعمته وربى جميع العالمين ، وهو معبودي ليس لي معبود سواه ، والدليل قوله تعالى : (الحمْدُ للهِ ربِّ العَالمين) وكل ماسوى الله عالم ، وأنا واحد من ذلك العالم .

واذا قيل لك بم عرفت ربك ؟ فقل بآياته ومخلوقاته ، فمن آياته الليل والنهار ، والشمس والقمر ، ومن مخلوقاته السموات السبع ومن فيهن وما بينهما ، والارضون السبع ومن فيهن وما بينهما ، والدليل قوله تعالى : (وَمِنْ آياتِه اللَّيْلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقَمرُ) [6] الآية، وقولهُ تعالى: (إنَّ ربَّكُمُ اللهُ الَّذي خلقَ السَّموات

(١) المزمل : ١٥ ـ (٢) الجن : ١٨ ـ (٣) المجادلة : ٢٢ ـ (٤) الذاريات : ٥٦ ـ (٥) النساء : ٣٦ (٦) : فصلت : ٣٧ .

والارْضَ في ستَّةِ أيام ثُم استَوى على العَرْشِ) [١] الآية ، والرب هو المعبود ، والدليل قوله تعالى : (يا أيُّها النَّاسُ اعبُدوا رَبكُم الَّذِي خَلقَكُم والَّذِيْنَ مِنْ قبلِكم لعَلَّكُمْ تتقُونَ) [٢] الآيتين .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : الخالق لهذه الاشياء هو المستحق للعبادة .

وأنواع العبادة التي أمر الله تعالى بها : مثل الاسلام ، والايمان ، والاحسان ، ومنها الدعاء ، والرجاء ، والخوف ، والتوكل ، والرغبة ، والرهبة ، والخشوع ، والخشية ، والانابة ، والاستعانة ، والاستغاثة ، والاستعاذة ، والذبح ، والنذر ، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها لله تعالى ، والدليل قوله تعالى : (وأَنَّ المسَاجِدَ للهِ فلا تدْعُوا معَ اللهِ احداً) فمن صرف شيئا من هذه لغير وجه الله فهو مشرك كافر ، والدليل قوله تعالى : (ومَنْ يدعُ معَ الله إلهاً آخرَ لا بُرهَانَ لهُ به فإنَّما حِسَابهُ عنْدَ ربِّه إنه لا يُفْلحُ الكَافِرُونُ) [٣] ولحديث (الدعاء مخ العبادة) والدليل على الدعاء قوله تعالى :(وقالَ ربُّكُم ادعُوني أَسْتَجِبْ لكُم) [٤] الآية ، ودليل الخوف قوله تعالى : (فلا تخافُوهم وخافُون إن كُنْتُم مُؤمِنينَ) [٥] ودليل الرجاء قوله تعالى :(قلْ يا عبادي الَّذِين أَسْرَفُوا عَلى أَنفُسهم لا تقْنطوا من رحْمَةِ اللهِ إنَّ الله يَغفِرُ الذُّنوبَ جَميْعاً) [٦]

ودليل الخشية قوله تعالى : (فلا تَخْشَوهُم واخْشوني) [٧]

ودليل الانابة قوله تعالى : (وأَنيبُوا إلى ربِّكُم وأَسْلِموا لهُ) [٨] الآية ،

ودليل الاستعانة قوله تعالى :(إيَّاكَ نعْبُدُ وإيَّاكَ نسْتَعِينُ) وفي الحديث: (اذا استعنت فاستعن بالله) .

ودليل الاستغاثة قوله تعالى : (إذْ تَسْتَغِيثُونَ ربَّكُم فاسْتَجَابَ لكُم) [٩] الآية

---

(١) الاعراف : ٥٤ - (٢) البقرة : ٢١ ، ٢٢ - (٣) المؤمنون : ١١٧ - (٤) غافر : ٦٠ - (٥) آل عمران : ١٧٥ - (٦) الزمر : ٥٣ - (٧) البقرة : ١٥٠ - (٨) الزمر : ٥٦ - (٩) الانفال : ٩ .

ودليل الذبح قوله تعالى : (قلْ إنَّ صَلاتِي ونُسُكي ومَحْيايَ ومَماتي للهِ رَبِّ العَالمينَ لا شَرِيك لهُ وبذَلكَ أُمِرتُ وأَنا أوّلُ المسْلمينَ)[1] (والدليل) من السنة قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (لعن الله من ذبح لغير الله)

ودليل النذر قوله تعالى : (يُوفونَ بالنَّذرِ ويَخافُونَ يَوماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً)[2]

(الاصل الثاني) معرفة دين الاسلام بالادلة ، وهو الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والخلوص من الشرك والبراءة من الشرك وأهله ، وهو ثلاث مراتب : الاسلام ، والايمان ، والاحسان ، وكل مرتبة لها أركان •

(أما أركان الاسلام فخمسة) (والدليل) من السنة حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت الحرام) •

فدليل الشهادة قوله تعالى : (شَهِدَ اللهُ أنَّهُ لا إلهَ إلَّا هُو والملائكةُ وأُولُوا العلمِ قَائِما بِالقِسْطِ لا إله إلَّا هُو العَزِيْزُ الحكِيْم)[3]

ومعناه : لامعبود بحق في الوجود الا الله وحده لاشريك له • (النفي) : نافيا جميع مايعبد من دون الله ، (الا الله) : مثبتا العبادة لله وحده لاشريك له في عبادته، كما أنه لاشريك له في ملكه ، وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى :(وإذْ قَالَ إبرَاهِيمُ لابيه وقومِهِ إنَّني برَاءٌ مِمَّا تعبدُون . إلَّا الذي فَطَرَنِي)[4] الآية.

ودليل أنَّ محمداً رسول الله قوله تعالى: (مُحَمَّدٌ رسُول اللهِ والَّذينَ مَعهُ أَشدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحَماء بينَهُم)[5] الآية • وقوله تعالى: (ما كَانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحدٍ مِنْ رِجالِكُم ولكِن رَسُولَ اللهِ وخَاتَمَ النَّبيِّينَ)[6]

---

(١) الانعام : ١٦٢ ، ١٦٣ – (٢) الدهر : ٧ – (٣) آل عمران ١٧ – (٤) الزخرف : ٢٦ ، ٢٧ –(٥)الفتح: ٢٩ – (٦) الاحزاب : ٤٠

ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد قوله تعالى :(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) .

ودليل الصيام قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [١]

ودليل الحج قوله تعالى : (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) [٢]

(المرتبة الثانية) الايمان ، وهو سبع وسبعون شعبة ، أعلاها قول لا اله الا الله، وأدناها اماطة الاذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان •

(وأركانه ستة) : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره من الله •

والدليل قوله تعالى : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) [٣]

ودليل الركن السادس قوله تعالى : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) [٤]

(المرتبة الثالثة) الاحسان ركن واحد وهوأن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك ، والدليل قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) [٥]

(والدليل من السنة) حديث جبريل عليه السلام المشهور عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : (بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لايرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأسند ركبتيه الى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يامحمد أخبرني عن الاسلام ؟ قال : أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ،وتؤتي الزكاة ،

---

(١) البقرة : ١٨٣ — (٢) آل عمران : ٩٦ — (٣) ٢٨٥ — (٤) القمر : ٤٩ — (٥) النحل : ١٢٨

وتصوم رمضان ، وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا ، قال : صدقت ، فعجبنا لـه يسأله ويصدقه . قال : أخبرني عن الايمان ؟ قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر قال : صدقت قال : أخبرني عن الاحسان ؟ قـال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك قال : صدقت قال : أخبرني عن الساعة ؟ قال : ماالمسؤل عنها بأعلم من السائل ، قال أخبرني عن أماراتها ؟ قال : أن تلد الامة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيـان ، فمضى ، فلبث مليا ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : ياعمر أتدري من السائل ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، قال : هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .)

(الاصل الثالث) معرفة نبيكم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو محمد ابن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، وهاشم من قريش ، وقريش من العرب ، والعرب من ذرية اسمعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام ، توفي وله من العمر ثلاث وستون سنة منها أربعون قبل النبوة ، وثلاث وعشرون نبيا رسـولا نبيء باقرأ ، وأرسل بالمدثر ، وبلده مكة ، بعثه الله بالانذار عن الشرك والدعوة الى التوحيد .

والدليل قوله تعالى : (يا أَيُّها المدَّثر . قمْ فأَنذر وربَّكَ فكَبِّر . وثيابكَ فطَهر والرُّجْزَ فاهْجُر . ولاتَمْنُنْ تستَكْثِرُ . ولِرَبكَ فاصْبِرْ) .

ومعنى قم فأنذر : يعني أنذر عن الشرك وادع الى التوحيد ، وربك فكبر عظمه بالتوحيد ، وثيابك فطهر أي طهر أعمالك من الشرك ، والرجز فاهجر ، الرجز الاصنام، وهجرها تركها ، والبراءة منها وأهلها ، وفراقها وأهلها ، وعداوتها وأهلها ، أخذ على هذا عشر سنين ، وبعد العشر عرج به الى السماء ، وفرض عليه الصلوات الخمس ، وبقي بمكة ثلاث سنين ، وبعدها أمر بالهجرة ، والهجرة الانتقال من بلد الشرك ،وهي باقية الى أن تقوم الساعة ، والدليل قوله تعالى : (إنَّ الذين تَوفاهُم الملائكَةُ ظَالِمي أَنفُسهِمْ قالوا فِيمَ كُنتُم قالوا كُنَّا مُستَضعفِينَ في الأَرضِ قالوا أَلم تكُن ارضُ اللهِ واسِعةً فتهاجِرُوا فيها) إلى (وكانَ اللهُ عَفواً غفُوراً)[1] وقولهُ : (يا عِبادِيَ الَّذينَ آمنُو إنَّ أَرضي واسِعةٌ) [2] الآية .

---

(١) النساء : ٩٧ – ٩٩ – (٢) العنكبوت : ٥٦

والدليل على الهجرة من السنة قوله صلى الله عليه وسلم : (لاتنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها)

فلما استقر في المدينة أمر ببقية شرائع الاسلام ، مثل الزكاة ، والصيام ، والحج، والجهاد ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أخذ على ذلك عشر سنين •

وتوفي صلوات الله وسلامه عليه ودينه باق ، وهذا دينه لاخير الا دل الامة عليه ، ولا شر الا حذرها عنه ، والخير الذي دل عليه التوحيد وما يحبه الله ويرضاه، والشر الذي حذر عنه ، الشرك وما يكرهه الله ويأباه ، بعثه الله الى الناس كافة ، وافترض طاعته على جميع الخلق : الجن والانس ، والدليل قوله تعالى :(قل يَا أَيُّها النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ اليكم جَميعاً)[1] وأكمل الله له الدين ، والدليل قوله تعالى : (أَليومَ أَكْمَلْتُ لكم دِيْنكم وأَتممتُ عليكم نعمتي ورضِيت لكم الاسْلامَ دِيْناً)[2]

والدليل على موته صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : (إِنَّكَ ميتٌ وإِنَّهم مَيتُونَ . ثم إنكم يومَ القيامة عندَ ربّكم تَخْتصمُونَ)[3] والناس اذا ماتوا يبعثون ، والدليل قوله تعالى :(منْها خَلَقنا كُمْ وَفيها نُعيدُكم ومِنها نُخْرجُكم تارةً اخْرى)[4] وقوله تعالى : (واللهُ أنبتَكم منَ الارضِ نباتاً . ثمَّ يُعيدُكم فيها ويُخرجكم اخراجاً)[5]

وبعد البعث محاسبون ومجزيون بأعمالهم ، والدليل قوله تعالى : (لِيجْزيَ الَّذينَ أَساؤُا بِما عَملوا ويَجزي الَّذينَ أَحسَنوا بالحسْنى)[6]

ومن كذب بالبعث كفر ، والدليل قوله تعالى : (زَعمَ الَّذينَ كَفَرُ أَن لَن يُبعثوا قلْ بَلى وربِّي لتُبعَثُنَّ ثُم لَتُنبؤُنَّ بِما عَمِلتُم وذلكَ على اللهِ يسيْرٌ)[7]

(وأرسل الله جميع الرسل) مبشرين ومنذرين ، والدليل قوله تعالى : (رُسُلاً مُبشِّرينَ ومُنذرين لِئلّا يَكُونَ للنَّاسِ عَلى اللهِ حُجَّةٌ بعد الرُّسُلِ)[8]

وأولهم نوح عليه السلام ، وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو خاتم

---

(١) الاعراف :١٥٨ ـ (٢)المائدة:٣ـ (٣) الزمر : ٣٠، ٣١ ـ (٤) طه : ٥٥ ـ (٥) نوح : ١٧ ، ١٨ ـ (٦) النجم : ٣١ ـ (٧) التغابن : ٧ ـ (٨) النساء : ١٦٥

النبيين ، لانبي بعده •

والدليل على أن نوحا أول الرسل قوله تعالى : (إنا اوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) [1] الآية •

وكل أمة بعث الله اليها رسولا من نوح الى محمد عليهما السلام ، يأمرهم بعبادة الله وحده لاشريك له ، وينهاهم عن عبادة الطاغوت ، والدليل قوله تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) [2]

وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والايمان بالله ، قال ابن القيم رحمه الله : معنى الطاغوت ماتجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع •

والطواغيت كثيرة ورؤوسهم خمسة : ابليس لعنه الله ، ومن عبد وهو راض ، ومن ادعى شيئا من علم الغيب ، ومن دعا الى عبادة نفسه ، ومن حكم بغير ماأنزل الله ، والدليل قوله تعالى : (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) [3] وهذا معنى لا اله الا الله ، وفي الحديث : (رأس الامر الاسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله) والله أعلم •

(هذا آخر رسالة الشيخ أبي عبد الله في العقائد) فانظر أيها النبهاني اليها واقرأها من أولها الى آخرها ، فهل الذي يعتقد هذا الاعتقاد يعد من المبتدعين السالكين غير سبيل الرشاد ؟ أم المبتدع هو الذي غير وبدل ، وحرف وأول ، واتبع غير سبيل المؤمنين ، وليس عليه دليل في دين المسلمين ، كما ابتدعت أيها الزائغ من الغلو العظيم في حق النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم ، ثم عملت بغير شريعته ، وسلكت غير سنن سنته •

فيا أيها النبهاني ، والشيخ الشيطاني ، من الاحق أن يكون من المبتدعين ؟ أأنت ومن على شاكلتك من الغواة الضالين ؟ أم حزب الرسول الذين سمعت عقيدتهم في الدين المبين ؟! •

وأقسم بالله العلي الشأن : أن النبهاني ليس له معرفة بدينه كمعرفة أولئك

---

(١) النساء : ١٦٣ – (٢) النحل : ٣٦ (٣) البقرة : ٢٥٦

الصبيان ، وليته جدد ايمانه على يد واحد من حزب الرسول ، وقرأ عنده تلك العقائد من الاصول ، ليخرج عن جادة ضلاله ذلك الزائغ الجهول •

(وأما قول النبهاني) وان قلت : ان ذلك ليس اعتقاده الحقيقي الخ •

(فيقال له) ان هذا من بعض الظن الذي قال الله تعالى فيه : (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم)[1] على مابينه المفسرون وأطنبوا فيه ، فان مصنف (جلاء العينين) انما صنفه قبل أن تكون بينه وبين السيد صديق حسن نواب بهوبال معارفة ومكاتبة ، ومصنف (جلاء العينين) لما سافر الى مكة المكرمة شرفها الله تعالى سنة [2] وتسعين ومائتين وألف من الهجرة : اجتمع ببعض أصحاب ذلك الامام الهمام ، بل ملك العلماء الاعلام ، فذكر له عن أحواله وبيان منزلته من معرفة الحديث وسائر علوم الدين ، فوسطه في أخذ اجازة منه بما صح لديه ، وبعد عود الهندي الى الهند اجتمع بالنواب ، وذكر له عن مصنف (جلاء العينين) ماشاهده من فضله ، وطلب منه أن يرسل اليه الاجازة ، فكتب اليه اجازة مفصلة وأرسلها اليه بعد عوده الى وطنه ، وطلب منه أن يرسل اليه نسخة من (جلاء العينين) فأرسلها اليه ، والتمس منه طبع الكتاب ان كان قد وقع لديه موقع القبول ، فبهره حسن وضعه ، ولطافة ترتيبه ، وما استودعه فيه من المطالب العالية ، فأرسله الى مصر وطبعه ، والنواب رحمه الله لم يكن له حاجة لمعاونة أحد ولا لخدمته ، وفضله أشهر من أن ينبه عليه ، ولم يكن على مذهب الوهابية فانه ليس للوهابية مذهب يخصهم بل هم حنابلة كما سبق ، والنواب رحمه الله كان من المحدثين ، فكان يتبع ماصح لديه من الحديث ، كما هو شأن أهل الحديث والاثر واتباع سيد البشر ، ومثله كثيرون في البلاد الهندية قبل عصره وبعده •

(ومنها أنه قال) ولست أعترض عليه بجوابه عن ابن تيمية ان بعض أقوال ابن تيمية التي نقلها ابن حجر واعترض عليها لم تصح نسبتها اليه الى قوله منذ مئات من السنين •

(جوابه) أن مصنف (جلاء العينين) أحسن العبارة في ابن حجر كل الاحسان، ونوه به في ترجمته حيث قال : هو واحد العصر ، ثاني القطر ، علامة المنقول ، فهامة المعقول ، شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي بن حجر — نسبة على ماقيل الى جد

---

(١) الحجرات : ١٢ (٢) بياض بالاصل قدر كلمة •

من أجداده كان ملازما للصمت تشبيها له بالحجر ــ الهيتمي السعدي الانصاري الشافعي ، وذكر مولده ووفاته وتصانيفه ومن أخذ عنه ، فلم يترك من فضائله شيئا الا وذكرها ، ومن حق المترجم أن يذكر لمترجمه ماله وما عليه ، ولم يبين ماذكره أهل العلم فيه من تعصبه في مذهبه والحط على المخالفين ، وافترائه على أئمة المسلمين ، واضطرابه في أقواله ، وعدم ثباته على قول ، ومن يراجع أقواله في (الزواجر والقواطع) ثم يوازن بينها وبين أقواله في (الجوهر المنظم) و (الفتاوى الحديثية) يجد ماقيل فيه واضحا صريحا ولم يذكر أيضا جهله بالحديث الصحيح وعدم خبرته بفنه حتى شحن كتاب (الصواعق) وكتاب (تطهير الجنان في الذب عن معاوية بن أبي سفيان) وغيرهما بالاحاديث الموضوعة والخرافات المكذوبة ، ولاذكر أيضا انتحاله لكتب آخرين فنسبها لنفسه ، ولا عجبه بنفسه ورأيه ، كل ذلك قد أهمله مصنف (جلاء العينين) عفا الله عنه ، ولم نعلم سبب ذلك ، فهل تاقى غلاة الشافعية ، أم لم يقف على ماذكرناه مع شهرته ، نعم سمعت أنه كتب ردا على كتاب (تطهير الجنان) وبين ماشتمل عليه من مواقع النظر ، وسمى ماكتبه (بصادق الفجرين في الجواب عن سؤال أهل البحرين) وبلغني أن هذا الكتاب متداول في الانحاء العراقية، وأما (الصواعق) فقد رد عليها غير واحد •

والمقصود : أن كلام النبهاني هذا لاورود له أصلا ، بل هو محض عدوان اقتضاه منه عدم الايمان ، وأما ماأورده في تضاعيف كتابه من عدم تصحيح بعض نقوله فهو من مقتضيات قوانين المناظرة ، كما لايخفى على الخبير بها ، العالم بأقسامها وضروبها •

(ومنها قوله) وكذلك عامل بسوء هذا الصنيع ــ من قبيح التشنيع والتقريع ــ الامام تقي الدين السبكي ، حتى أنه لم يعبر عنه بلفظ الامام ولا بلفظ شيخ الاسلام، بل اما أن يقول قال السبكي أو القاضي السبكي ، وهو في الحقيقة المستحق للفظ شيخ الاسلام ، لأنه كان قاضي قضاة الشام ، مع كونه من أئمة العلماء الاعلام ، ولقب شيخ الاسلام انما كانوا يلقبون به قاضي القضاة ، فابن تيمية بحسب هذا الاصطلاح لايستحق لقب شيخ الاسلام ، وان كان من أكابر شيوخ المسلمين وأئمة العلماء الاعلام •

(فيقال له أما أولا) فهذا الكلام مخالف للحقيقة ، فان مصنف (جلاء العينين) قال ــ لما ذكر ترجمته ــ وهو ــ على مافي كتاب الشذرات وغيره ــ الامام العلامة

شيخ الاسلام علم الاعلام تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي الشافعي الاصولي اللغوي البياني الجدلي الخلافي النظار ، ثم نقل عن الامام السيوطي تاريخ مولده ومن قرأ عليه ، وقوله وتخرج به خلق في أنواع العلوم ، وأقر له الفضلاء ، وولي قضاء الشام بعد الجلال القزويني ، وصنف الكتب المطولة والمختصرة ، ونقل بعض الابيات من شعره ، وذكر تاريخ وفاته ، وسؤاله أن يولى القضاء مكانه ولده تاج الدين وأنه أجيب الى ذلك وترحم عليهما ، فماذا يقول بعد ذلك القول ؟ فلم يبق الا أن يقول وكان يوحى اليه ، أو أن ملائكة السماء كانت تقرأ عليه وتأخذ عنه العلوم ، أو أن الخضر كان يتلقى عنه العلم اللدني ، كما ادعى ذلك لغيره ، ونحو ذلك من القول الباطل ، والهذيان العاطل ، والغلو الذي اعتاده من لا خلاق له ، حتى يرضي الشيخ النبهاني ، والهيكل الصمداني ، حيث لم يكتف بهذه المبالغات ، واستقل تلك العبارات في السبكي وابن حجر ، حتى قال عنها هناك انه شنع على ابن حجر بألفاظ لايحسن استعمالها في حق بعض طلبة العلم ، وكذلك عامل بسوء هذا الصنيع الخ مع احسانه العبارة في الاثنين ، ومعاملته لهما بما لايستحقانه عند الفريقين ، فأي عبارة استعملها وهي لاتليق بهما ، مع أن الله تعالى قال في كتابه الكريم : (لا تَحسَبَنَّ الّذِيْنَ يَفرحُونَ بِما أَتوا ويُحبُّونَ أنْ يُحمَدُوا بِما لم يَفْعلوا فلا تَحسبَنَّهُم بِمفازَةٍ مِن العَذَابِ)[1] فليراجع تفسير هذه الآية .

(وأما ثانيا) فيقال له : انا لو سلمنا أنه لم يكن مبجلا لهما كما يحب النبهاني في عباراته ولا أعطاهما حقهما في تعبيراته فهو ليس بملام على ذلك ، لأنه بصدد مؤاخذتهما فيما افترياه على الشيخ ، ورد مااعترضا عليه ، وان كلامهما فيه مما لايقبل ، لأنهما كانا من ألد خصمائه ، فليس المقام مقام مدحهما ، والاطراء عليهما، كما لايخفى على من له أدنى المام بفن البلاغة .

(وأما ثالثا) فيقال ان عدم تعبيره مرة أو مرتين بشيخ الاسلام في السبكي لايستوجب سجود السهو ، لا عند الحنفية ، ولا عند الشافعية ، ولا المالكية ، ولا الحنابلة ، ولا الظاهرية ، ولا ، ولا ، بل ولا أظن أن عليه شيئا في قانون الجزاء الذي حكم بمواده ـ شطرا من عمره في بيت الله المقدس ـ النبهاني الخبيث ، بل ليس ذلك من الواجبات الدينية ، ولا المشروعات الاسلامية ، بل لو قال قائل : قال أبو

(١) آل عمران : ١٨٧

بكر ، أو قال عمر ، أو قال عثمان ، أو قال علي ، أو روى أبو هريرة ، أو حدثنا شعبة ، وهكذا جميع الصحابة ، أو قال :روي عن أبي حنيفة ،أو مالك ، أو الاوزاعي، أو غيرهم من المجتهدين ، أو ذكر نحو هؤلاء من الأئمة فقط ولم يزد لفظ شيخ الاسلام ، فماذا يجب عليه من اللوم ؟ نعم قال بعضهم : من المستحسن الترضي عند ذكر أحد من الصحابة ، والترحم على العلماء وصلحاء الامة ونحو ذلك على ماقرره الشهاب في شرحه على الشفاء ، ونسأل الشيخ النبهاني هل ورد شيء في الكتاب أو السنة في وجوب التعبير عن السبكي بنحو الامام أو شيخ الاسلام فان تركهما أحد وجب تعزيره بل لابد أن يكون أحدهما جزأ من هذا العلم ؟ أما يستحي النبهاني من التكلم بمثل هذا الكلام ، أما يخجل أن يهذي بهذا الهذيان بين الانام ، نعم ورد في الحديث الصحيح : (ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى : اذا لم تستح فاصنع ماشئت) فعياذا بك اللهم من عدم الحياء .

(وأما رابعا) فليت شعري بأي فضيلة استحق السبكي أن يعبر عنه بشيخ الاسلام ، هل باغرائه العوام على عبادة غير الله والمغالاة في الدين ، أو بنيابته في الشام بعد أن تقلدها بالرشوة حتى حرص عليها وعض عليها بالنواجذ وطلب أن تكون لولده من بعده ، أو بشتمه خيار عباد الله ، أو بجهله بما ورد في الكتاب والسنة كما نبه عليه ابن عبد الهادي الحافظ الشهير على ماسبق ، وهو في كل ذلك لايستحق هذا التعبير ، فلا أرى اللائق به الا أن يلقب بشيخ الغلاة ، ومصنف (جلاء العينين) عفا الله عنه لم يعط خصوم الشيخ وأعداء الحق حقهم من سوء التعبير اللائق بضلالهم ، ففي الحديث (اذا مدح الفاسق غضب الرب) .

(١) ومن العجيب قول هذا الزائغ العنيد ، النبهاني البليد ، ان لقب شيخ الاسلام انما كانوا يلقبون به قاضي القضاة ، فابن تيمية بحسب هذا الاصطلاح لايستحق لقب شيخ الاسلام الخ ، فانه قد ذم امامه من حيث لايشعر ، حيث كان هذا اللفظ فارغا من المعنى ، وادعى اسما بلا مسمى ، كما هو شأنه اليوم في أمثاله ، فأنا نسمع أن لهذا العصر مشايخ للاسلام كثيرين ولا مسمى لهم ،ونراهم يقولون : فلان صاحب الفضيلة ، وفلان صاحب السماحة ، وفلان صاحب السعادة ، وفلان صاحب العزة ، وهلم جرا ، ولا فضيلة ولا سماحة ولا سعادة ولا عزة لمن قيل له

---

(١) ابتدأت بتأليف هذا الكتاب اوائل رمضان ، يعني اليوم الاول منه ، وانتهيت الى هنا فى آخر ليلة منه ، وهي ليلة الخميس ، وهي ليلة العيد جعله الله تعالى مباركا على المسلمين منه .

هذا التعليق موجودفى الاصل فجرى ابقاؤه كما هو ، المصحح .

ذلك ، كما هو معلوم لدى كل ذي فهم ، ويتحرجون من اطلاق تلك الالفاظ على من اتصف بتلك المعاني حقيقة ، حيث يصدهم عنه اصطلاح العصر ، وهذا كما اصطلح أهل اللغة في عرفهم على تسمية الفلاة مفازة ، والأعمى بصيرا ، واللديغ سليما ، ونحو ذلك مما هو مذكور في موضعه •

وذكر العلامة ابن خلدون في الفصل الثاني والثلاثين من مقدمته ــ في بيان التلقيب بأمير المؤمنين وأنه من سمات الخلافة وأنه محدث من عهد الخلفاء ــ قال : فأما ملوك المشرق من العجم فكان الخلفاء يخصونهم بألقاب تشريفية ، حتى يستشعر منها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم ، مثل شرف الدولة ، وعضد الدولة ، وركن الدولة ، ومعز الدولة ، ونصير الدولة ، ونظام الملك ، وبهاء الدولة ، وذخيرة الملك ، وأمثال هذه ، وكان العبيديون أيضا يخصون بها أمراء صنهاجة ، فلما استبدوا على الخلافة قنعوا بهذه الالقاب ، وتجافوا عن ألقاب الخلافة أدبا معها ، وعدولا عن سماتها المختصة بها ، شأن المتغلبين المستبدين ، ونزع المتأخرون أعاجم المشرق ــ حين قوي استبدادهم على الملك وعلا كعبهم في الدولة والسلطان وتلاشت عصبية الخلافة واضمحلت بالجملة ــ الى انتحال الالقاب الخاصة بالملك ، مثل الناصر ، والمنصور وزيادة على ألقاب يخصون بها قبل هذا الانتحال مشعرة بالخروج عن ربقة الولاء والاصطناع بما أضافوها الى الدين فقط ، فيقولون : صلاح الدين ، أسد الدين ، نور الدين ، قال : وأما ملوك الطوائف بالاندلس فاقتسموا ألقاب الخلافة وتوزعوها لقوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلها وعصبيتها فتلقبوا بالناصر ، والمنصور ، والمعتمد ، والمظفر ، وأمثالها ،كما قال ابن أبي شرف ينعي عليهم :

مما يزهدني في أرض أندلس
أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا صورة الاسد

ثم أطال في الكلام ابن خلدون •

فالشيخ النبهاني قصد هذا المعنى وجعل امامه ــ باطلاق هذا اللقب عليه اصطلاحا ــ كالهر يحكي انتفاخا صورة الاسد ، فلله دره ماأدق فكره ، وأبعد نظره ؟! ونقول له اذا كان الامر كما ذكر فنحن لانلقب ابن تيمية بشيخ الاسلام اصطلاحا فارغا عن معناه ، بل نطلقه عليه لغة وشرعا لااصطلاحا ، وهو بحمد الله في

غنى عن التعبيرات الاصطلاحية الفارغة عن المعاني ، على أن آثار ابن تيمية وفضائله التي أقر بها المخالف والموافق تغنيه عن اطلاق مثل هذه الالفاظ ، وفي كتاب (الرد الوافر)الذي ألفه العلامة الحافظ الامام ناصر الدين الشافعي في بيان من أثنى على الشيخ ابن تيمية من أكابر الأئمة وأطلق عليه شيخ الاسلام مايرغم أنف هذا المخذول.

(ومنها ماقاله) في شأن الشيخ ابن تيمية وهو رجل مطعون في عقيدته الخ ، وقد مر الكلام على مثل هذا الكلام مرارا فلا تتعب الاسماع باعادة الجواب عنه .

ولله در من قال ــ وهو الشيخ أبو العلاء المعري في قصيدته المشهورة ــ :

وقال السهى للشمس ضوءك حائل

وطاولت الارض السماء سفاهة　　　　وعير قسا بالفهاهة بأقل

(ويقول ابن سند)

وما على العنبر الفواح من حرج　　　　ان مات من شمه الزبال والجعل

أو هل على الاسد الكرار من ضرر

ان ينهق العير مربوطا أو البغل

أو هل على الانجم الخضراء منقصة

ان عابها من حصى الخضراء منجدل

(ومنها أنه قال) : فما الذي حمل صاحب (جلاء العينين) على معاملتهما أسوء المعاملة ، والميل كل الميل مع ابن تيمية ، وهو يدعي أنه من أهل السنة والجماعة ، لا والله بل هو من أهل البدعة ، والارواح جنود مجندة ، فروحه هي من أجنادروح ابن تيمية ، فلا تأتلف مع هؤلاء الأئمة الاعلام ، ولذلك كان منه في حقهم ما كان الى قوله بل حكم لجميع الوهابية .

جوابه من وجوه : (الوجه الاول) يقال للنبهاني الزائغ : نسألك ماحمل ابن حجر والسبكي وكل منهما كان منه ما كان في حق الشيخ ابن تيمية وأصحابه وجماعة من حفاظ الحديث ، من شتمهم أقبح شتم ، وسبهم ولعنهم بما هو مشهور في كتبهم ، حتى أن ابن حجر لم يكتف بذلك في كتاب واحد من كتبه ، بل ذكر ذلك في تحفته ، وفي فتاواه الفقهية ، وفي فتاواه الحديثية ، وفي غيرها ، حتى قال في كتابه (الجوهر المنظم ، في زيارة القبر المعظم) من جملة كلام : ان ابن تيمية عبد أضله الله وأغواه ، وألبسه رداء الخزي وأرداه ، وبوأه من قوة الافتراء والكذب ماأعقبه الهوان ، وأوجب له الحرمان ، ثم قال : ولقد تصدى شيخ الاسلام ، وعالم الانام ، المجمع على جلالته واجتهاده وصلاحه وامامته : التقي السبكي ــ قدس الله روحه ونور ضريحه ــ

للرد في تصنيف مستقل ، أفاد فيه وأجاد وأصاب ، وأوضح بباهر حججه طريق الصواب ، فشكر الله مسعاه ، وأدام عليه شآبيب رحمته ورضاه ، قال : ومن عجائب الوجود ماتجاسر عليه بعض السدجى من الحنابلة فغبر في وجوه مخدراته الحسان ، التي لم يطمثهن انس من قبله ولا جان ، وأتى بما دل على جهله ، وأظهر عوار غباوته وعدم فضله ، فليته اذ جهل استحيا من ربه ، وعساه اذا فرط رجع الى لبه ، ولكن اذا غلبت الشقاوة استحكمت الغباوة ، فعياذا بك اللهم من ذلك ، وضراعة اليك أن تديم لنا سلوك أوضح المسالك ، هذا ماوقع من ابن تيمية مما ذكر — وان كان عثرة لاتقال أبدا ، ومصيبة يستمر عليه شؤمها دواما وسرمدا — ليس بعجب ، فانه سولت له نفسه وهواه وشيطانه أنه ضرب مع المجتهدين بسهم صائب ،وما درى المحروم أنه أتى بأقبح المعائب ، اذ خالف اجماعهم في مسائل كثيرة ، وتدارك على أئمتهم — سيما الخلفاء الراشدين — باعتراضات سخيفة شهيرة ، وأتى من نحو هذه الخرافات بما تمجه الاسماع ، وتنفر عنه الطباع ، حتى تجاوز الى الجناب الاقدس ، المنزه عن كل نقص والمستحق لكل كمال أنفس ، فنسب اليه العظائم والكبائر ، وخرق سياج عظمته وكبرياء جلالته بما أظهر للعامة على المنابر من دعوى الجهة والتجسيم ، وتضليل من لم يعتقد ذلك من المتقدمين والمتأخرين ، حتى قام عليه علماء عصره وألزموا السلطان بقتله ، أو بحبسه وقهره ، فحبسه الى أن مات ، فخمدت تلك البدع ، وزالت تلك الظلمات ، ثم انتصر له اتباع لم يرفع الله لهم رأسا ، ولم يظهر لهم جاها ولا بأسا ، بل ضربت عليهم الذلة والمسكنة ،وباؤا بغضب من الله ،وذلك بما عصوا وكانوا يعتدون •

(انتهى كلام ابن حجر) ومثل ذلك كثير في كتبه ، وقد أدينا له حقه فيما كتبناه عليه صاعا بصاع ، وبينا مازوره وافتراه ، وأقمنا عليه الحجج والبراهين في هدم مابناه •

(والمقصود) أن يقال للنبهاني : ماحمل ابن حجر أن يتهور ذلك التهور والغل الذي أبداه للذين آمنوا ومن سبقه بالايمان ؟ فبأي جواب يجيب عن ابن حجر أجبناه عن مصنف (جلاء العينين) بمثله ، مع علمه أنه لم يلعن ابن حجر ولم يشتمه ، ولم يقل فيه وفي أضرابه من الغلاة ماقاله الله في اليهود ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ، مع أن ابن تيمية وأصحابه دعوا الى الله وعملوا صالحا ، وذبوا عن دينه ، وجاهدوا في الله ، وعظموا رسوله صلى الله عليه وسلم كمال

التعظيم ، وهدموا أركان البدع والضلال والكفر ، وهذه كتبهم التي تتداولها الايدي تشهد بذلك ، وتكذب ابن حجر ، وتسود وجهه بسواد لايبيض ، أهكذا جزاء الاحسان ؟ أهكذا يقال في حفظةالسنة والقرآن ؟.

(والنبهاني) ان كان يحسن قراءة العبارة يعلم أن مصنف (جلاء العينين) لم يقصر في حسن التعبير والتبجيل الذي ذكره في ابن حجر ، مع أن كل منصف يعلم أنه ليس أهلا لذلك .

(الوجه الثاني) يقال للنبهاني : ان صدر من مصنف (جلاء العينين) شيء من ذلك فالذي حمله عليه انصافه ومزيد اطلاعه على أقوال الأئمة ، وما ورد في الكتاب والسنة ، والامتثال لقوله تعالى :(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجتْ للنَّاسِ تأْمُرُونَ بالمعروف وتَنهُونَ عنِ المنكَرِ)[1] وماورد في الحديث من قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من علمه الله علما فكتمه ألجمه الله بلجام من نار) وهو لم يمل الا الى الحق كما هو شأن أهل السنة ، فانهم يتبعون ماورد ولا يصرفون النصوص الى ماتهواه أنفسهم ، بل يردون المتشابه الى المحكم منها ، وهذا من علائم أهل الحق الناجين يوم القيامة ، وقد سبق بيان معنى السنة والبدعة ، وذكرنا هناك من الأحق بالاتباع ومن المستحق أن يكون من أهل الابتداع ، ومصنف (جلاء العينين) كان ممن يعتقد أن الله واحد أحد ، فرد صمد ، لايغيره الابد ، ليس له والد ولا ولد ، وأنه سميع بصير ، بديع قدير ، حكيم خبير ، علي كبير ، ولي نصير، قوي مجير ، ليس له شبه ولا نظير ، ولا عون ولا ظهير ، ولا شريك ولا وزير ، ولاند ولا مشير ، سبق الأشياء فهو قديم بقدمها ، وعلم كون وجودها في نهاية عدمها ، لم تملكه الخواطر فتكيفه ، ولم تدركه الابصار فتصفه ، ولم يخل من علمه مكان فيقع به التايين ، ولم يعدمه زمان فينطلق عليه التاوين ، ولم يتقدمه دهر ولا حين ، ولا كان قبله كون ولا تكوين ، ولا تجري ماهيته في مقال ، ولا تخطر كيفيته ببال ، ولا يدخل في الامثال والاشكال ، صفاته كذاته ، ليس بجسم في صفاته ، جل أن يشبه بمبتدعاته ، أو يضاف الى مصنوعاته (لَيْسَ كَمِثْله شَيْءٌ وهُوَ السَّمِيعُ البَصِيْرُ)[2] أراد ما العالم فاعلوه ، ولو عصمهم لما خالفوه ، ولو شاء أن يطيعوه جميعا لاطاعوه ، خلق الخلائق وأفعالهم ،

---

(١) آل عمران : ١٠٩ ـ (٢) الشورى : ١١

وقّدر أرزاقهم وآجالهم ، لاسمي له في أرضه وسماواته ، على العرش استوى ، وعلى الملك احتوى ، وعلمه محيط بالاشياء ، والقرآن كلام الله تعالى ، وصفة من صفات ذاته غير محدث ولا مخلوق ، كلام رب العالمين ، في صدور الحافظين ، وعلى ألسن الناطقين ، وفي أسماع السامعين ، وباكف الكاتبين ، وبملاحظة الناظرين ، برهانه ظاهر ، وحكمه قاهر ومعجزه باهر ، وأن الله تعالى كلم موسى تكليما ، وتجلى للجبل فجعله دكا هشيما ، وأنه خلق النفوس وسواها ، وألهمها فجورها وتقواها ، والايمان بالقدر خيره وشره ، وحلوه ومره ، وان مع كل عبد رقيبا وعتيدا ، وحفيظا وشهيدا ، يكتبان حسناته ، ويحصيان سيئاته ، وان كل مؤمن وكافر ، وبر وفاجر ، يعاين عمله عند حضور منيته ، ويعلم مصيره قبل ميتته ، وأن منكرا ونكيرا الى كل أحد ينزلان سوى النبيين ، فيسألان ويمتحنان ، عما يعتقده العبد من الايمان ، وأن المؤمن يحبر في قبره بالنعيم ، والكافر يعذب بالعذاب الاليم ، وانه لامحيص لمخلوق من القدر المقدور ، ولن يتجاوز ماخط في اللوح المسطور ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وأن الله جل اسمه يعيد خلقه كما بداهم ، ويحشرهم كما ابتداهم ، من صفايح القبور وبطون الحيتان في تخوم البحور ، وأجواف السباع وحواصل الطيور ، وأن الله تعالى يتجلى في القيامة لعباده الابرار ، فيرونه بالعيون والابصار ، وأنه يخرج أقواما من النار فيسكنهم دار القرار ، وأنه يقبل شفاعة محمد المختار ، في أهل الكبائر والاوزار ، وأن الصراط حق تجوزه الابرار ، وأن حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم حق يرده المؤمنون ويذاد عنه الكفار ، وان الايمان هو قول باللسان ، واخلاص بالجنان ، وعمل بالاركان ، يزيد بالطاعة وينقص بالاوزار ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وأفضل المرسلين ، وأمته خير الأمم أجمعين ، وأفضلهم القرن الذين شاهدوه ، وآمنوا به وصدقوه ، وأفضل القرن الذين صحبوه أربع عشرة مائة بيعة الرضوان بايعوه ، وأفضلهم أهل بدر نصروه ، وأفضلهم أربعون في الدار كنفوه ، وأفضلهم عشرة عزروه ووقروه ، شهد لهم بالجنة ، وقبض وهو عنهم راض ، وأفضل هؤلاء العشرة الأبرار ، الخلفاء الراشدون المهديون الاربعة الاخيار ، وأفضل الاربعة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي عليهم الرضوان ، وأفضل القرون بعدهم القرن الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يتبعونهم ، وأن نوالي أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بأسرهم ، ولا نبحث عن اختلافهم في أمرهم ، ونمسك عن الخوض في ذكرهم الا بأحسن الذكر لهم ،

ولا ندخل فيما شجر بينهم ، اتباعا لقوله تعالى : (والَّذينَ جاؤُا منْ بعْدهِم يَقُولونَ رَبَّنَا اغفِر لنَا ولاخوانِنَا الَّذينَ سَبقُونَا بالايْمانِ ولا تجعلْ في قلوبنَا غلاً للذِينَ آمنُوا رَبَّنا إنَّكَ رؤُفٌ رَحِيمٌ) [1] ثبتنا الله تعالى على ذلك ، وأدامنا على السلوك في أقوم المسالك .

هذا مما كان يعتقده مصنف (جلاء العينين) منذ ميز بين اليمين والشمال ، وعرف الحرام من الحلال ، الى أن وضع في لحده ، وهي بعض من عقيدة صنفها والده صاحب التفسير الشهير رحمه الله تعالى ، فما الذي سوغ للنبهاني وأحل له أن يجعل من يعتقد هذه العقيدة من المبتدعة ، ثم ماكفاه ذلك حتى حلف يمينا ، وقال : ان صاحب (جلاء العينين) ليس من أهل السنة بل هو والله من أهل البدعة بسبب انتصاره لابن تيمية وعدم تجويزه الاستغاثة بغير الله ودعاء المخلوقين ، وقد حنث في يمينه ووجب عليه الكفارة ان كان من أهل الايمان والأيمان ، مع أن ماهو عليه من الضلال البعيد ، والغي الذي ليس عليه من مزيد ، وما دل عليه شعره من غلوه والحاده ، ومسلكه الذي هو سالك فيه مدة حياته وعليه يموت ، ينادي كل ذلك بأفصح لسان ، على أنه قد خرج عن ربقة الايمان ، ومع ماهو عليه قد فتح فاه في ثلب أهل التوحيد ، كالكلب عند التثاؤب وشتم خيار عباد الله ، فسبحان اله الخلق ماأحلمه ، وما أجل شأنه وأعظمه .

(الوجه الثالث) ان من سلف من اخوانه كانوا يقولون مثل مقالته ، ويعتقدون أن ماهم عليه هو الحق ، قال تعالى : (وقالتِ اليهود ليست النَّصارى على شيءٍ وقالتِ النَّصارى ليْستِ اليهودُ عَلى شَيءٍ وهُم يَتلونَ الكتابَ) [2] الآية ، وقال : (ولَنْ ترْضى عنْكَ اليهُود ولا النَّصارى حتَّى تتَّبع ملتهُم قل إنَّ هُدى اللهِ هو الهدى ولئن اتَّبعتَ اهْواءهُم بعد الَّذي جاءكَ من العلم مالكَ منَ الله من وليٍّ ولا نصيرٍ) [3] أخبر سبحانه في الآية الاولى أن كلا من اليهود والنصارى يزعمون أنهم على الحق دون غيرهم من غير دليل ولا تحكيم للعقل تقليدا لاسلافهم ،

(١) الحشر : ١٠ ـ (٢) البقرة : ١١٣ ـ (٣) البقرة : ١٢٠

وهم يتلون الكتاب ، وفيه أن الحق ما قام عليه الدليل واقتضاه البرهان ، لا أنه بالدعاوي الكاذبة ، وهكذا النبهاني وأضرابه من الغلاة يعتقدون أن الحق ماتلقوه عن أسلافهم ، وما ورثوه عن مشايخهم وان قام الدليل على خلافه ـ والآية الاخرى دلت على أن اليهود والنصارى لايرضون عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ومن آمن به ، حتى يتبعون ضلالهم وغيهم الذي قامت الحجة على فساده ، ودل البرهان على بطلانه ، وهم لاينظرون الى مايدل عليه الدليل ، بل قلدوا فيما هم عليه آباءهم فأخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أنه ان اتبع أهواءهم بعد ماحصل له من العلم واليقين ـ بأن ماهو عليه هو الحق وما عليه المخالفون هو الباطل ـ لم يكن له معين ولا ناصر ، ولا ملجأ ولا وزير يدفع عنه مايستحقه المعرضون عن الحق والزائغون عن الصراط المستقيم ، وهكذا النبهاني لايرضى عن كل من خالف باطله وضلاله ، واتبع الحق الصريح الذي دل عليه كلام الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة ، حتى يتبع الحاده وزيغه الذي دل على فساده مايزيد على ألف دليل ، مع أن الحق أحق بالاتباع ، ورضى الله ورسوله مقدم على رضى أعدائه وخصوم دينه ، فلا بدع اذا شتم النبهاني أهل الحق وعبر عنهم بالعبارات الفظيعة ، فان له سلفا بذلك ، ولله در من قال :

اذا رضيت عني كرام عشيرتي فلا زال غضبانا عليَّ لئامها

(الوجه الرابع) أنه قال : والارواح جنود مجندة فروحه هي من أجناد روح ابن تيمية فلا تأتلف مع أرواح هؤلاء الأئمة الاعلام ، ولذلك كان منه في حقهم ماكان مع كونهم في جانب تعظيم جده الاعظم صلى الله عليه وسلم ، وامامه ابن تيمية بعكس ذلك ، ولكن الشرف والحسب لايغني عن العلم والادب ، الى آخر عبارته التي لايتكلم بمثلها صغار الطلبة .

(فنقول) ان ماذكره في هذا المقام كلمة حق أريد بها باطل ، وذلك أن الله تعالى قال : (وَمَن يطِع الله والرَّسُولَ فأُولئكَ مع الَّذين أَنعَم اللهُ عَليهِمْ مِن النَّبيينَ والصِّديقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ وَحسُنَ أولئكَ رفيقاً ذَلِكَ الفضْلُ منَ اللهِ وكَفى باللهِ عَليماً)[1] .

ومعنى الآية على مافي التفسير : ومن يطع الله بالانقياد لأمره ونهيه ، والرسول

---

(١) النساء : ٦٩ ، ٧٠

المبلغ ماأوحي اليه منه باتباع شريعته والرضا بحكمه (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم) بما تقصر العبارة عن تفصيله وبيانه (من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) وفي الحديث : (جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله انك لأحب الي من نفسي ، وانك لأحب الي من ولدي ، واني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتي فانظر اليك ، واذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك اذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وأني اذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك ، فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم شيئا حتى نزل جبريل بهذه الآية) ومعنى الصديق والشهيد والصالح مفصل في التفسير ، وفي الآية فضل ترغيب في الطاعة ومزيد تشويق اليها ببيان أن تنيجتها أقصى ماتنتهي اليه همم الامم ، وأرفع ماتمتد اليه أعناق أمانيهم ،وتشرئب اليه أعين عزائمهم ،من مجاورة أعظم الخلائق مقدارا ، وأرفعهم منارا ، وليس المراد بالمعية اتحاد الدرجة ، ولا مطلق الاشتراك في دخول الجنة ، بل كونهم فيها بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر وزيارته متى أراد وان بعدت المسافة بينهما ، ومنهم من قال لامانع من أن يرفع الادنى الى منزلة الأعلى متى شاء تكرمة له ثم يعود ولا يرى أنه أرغد منه عيشا ، ولا أكمل لذة ، لئلا يكون ذلك حسرة في قلبه ، وكذا لا مانع من أن ينحدر الأعلى الى منزلة الادنى ثم يعود من غير أن يرى ذلك نقصا في ملكه أو حطا من قدره • وقد ثبت في غير ما حديث أن أهل الجنة يتزاورون •

والشيخ ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ من أكثر الناس طاعة لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم كما دلت عليه كتبه ، ككتاب (الصارم المسلول) وغيره ، حتى أنه كابد ما كابد من خصومه في الله سبحانه ، هذا مع ما كان عليه من التقوى والزهد والورع الذي شهد له به خصومه ، وهكذا أصحابه وتلامذته رضي الله تعالى عنهم ، وقد شهد له كبراء الامة أنه كان من أكابر المجتهدين ، ومن أئمة الدين ، ومن أخيار المسلمين ، وخواص المؤمنين على ماسنذكر ذلك في مناقبه ، وفي الحديث (أنتم شهداء الله في أرضه) فمن المرجو من لطف الله تعالى وفضله أن يكون مع الذين أنعم الله عليهم ، وكذلك حديث الجنازة التي مرت فأثنوا عليها خيرا فقال صلى الله عليه وسلم : (وجبت) يؤكد هذا الرجاء ، فمصنف (جلاء العينين) يرجى له أن تكون روحه مع روح هذا الرجل الذي أطاع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فانه أيضا كان ممن أطاع الله وذب عن دينه ، وعن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واوذى

حيا وميتا من أعداء الدين وخصوم الموحدين ، ومنهم هذا النبهاني عدو الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ودينه القويم •

والحديث الذي ذكره رواه البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (الارواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف) ، قال الخطابي في بيان معنى هذا الحديث ــ على ماذكر في فتح الباري ــ يحتمل أن يكون اشارة الى معنى التشاكل في الخير والشر والصلاح والفساد ، وان الخير من الناس يحن الى شكله ، والشرير نظير ذلك يميل الى نظيره ، فتعارف الارواح يقع بحسب الطباع التي جبلت عليها من خير وشر ، فاذا اتفقت تعارفت ، واذا اختلفت تناكرت ، قال : ويحتمل أن يراد الاخبار عن بدء الخلق في حال الغيب على ماجاء أن الارواح خلقت قبل الاجسام ، وكانت تلتقي فتتشام ، فلما حلت بالاجسام تعارفت بالامر الاول فصار تعارفها وتناكرها على ماسبق من العهد المتقدم ، قلت : القول بتقدم خلق الارواح على الاجساد غير مرضي عند السلفيين فلا التفات لهذا الاحتمال ، وقال غيره المراد أن الارواح أول ماخلقت خلقت على قسمين ، ومعنى تقابلها أن الاجساد التي فيها الارواح اذا التقت في الدنيا ائتلفت أو اختلفت حسبما خلقت عليه الارواح في الدنيا ، قال الحافظ العسقلاني : ولا يعكر عليه أن بعض المتنافرين ربما ائتلفا لأنه محمول على مبدأ التلاقي فانه يتعلق بأصل الخلقة بغير سبب ، وأما في ثاني الحال فيكون مكتسبا لتجدد وصف يقتضي الالفة بعد النفرة كايمان الكافر واحسان المسيء ، وقوله (جنود مجندة) أي أجناس مجنسة ، أو جموع مجمعة •

قال ابن الجوزي : ويستفاد من هذا الحديث أن الانسان اذا وجد من نفسه نفرة ممن له فضيلة أو صلاح فينبغي أن يبحث عن المقتضى لذلك ليسعى في ازالته حتى يتخلص من الوصف المذموم ، وكذلك القول في عكسه •

(وقال القرطبي) الارواح وان اتفقت في كونها أرواحا لكنها تتمايز بأمور مختلفة تتنوع بها فتتشاكل أشخاص النوع الواحد ، وتتناسب بسبب مااجتمعت فيه من المعنى الخاص لذلك النوع للمناسبة ، ولذلك تشاهد أشخاص كل نوع تألف نوعها وتنفر من مخالفها ، ثم انا نجد بعض أشخاص النوع الواحد يتآلف وبعضها يتنافر ، وذلك بحسب الامور التي يحصل الاتفاق والانفراد بسببها ، انتهى •

(فتبين) مما ذكر في معنى الحديث : أن روح النبهاني الخبيث ، لم تتعارف مع

أرواح أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وحفاظ الحديث ، المتبعين للسنن المعادين للبدع والاهواء ، المعرضين عن الدنيا وزخرفها ، الطالبين وجه الله ورضاه ، وهم أهل الارواح الطيبة الطاهرة ، فكانت مما تناكر ، فلذلك خالفهم وعاداهم وشحن كتابه بثلبهم وسبهم ، وكيف تتعارف روحه الخبيثة مع تلك الارواح الطيبة وقد صرف عمره في الاحكام الطاغوتية ، وترويج الامور الشيطانية ، والميل الى الظلمة والمجرمين ، ومعاداة المسلمين ، والله تعالى يقول حكاية عن بعض أصفيائه .

(رَبِّ بِما أَنعَمتَ عَلَيَّ فلنْ اكُونَ ظَهيراً لِلْمُجرمينَ)[1]

وقد قال بعض أهل الفضل والتقوى : على العالم أن يتصف بالحلم والزهد والقناعة بالقليل وترك الدنيا ، لأن ذلك سيرة الانبياء ، وهو اللائق بحال العلماء ، فان كثيرا من النصوص مشتملة على ذم الدنيا وطلبها ، فطلبها للعالم زيادة على الكفاية جمع بين المتنافيين ، واغراء للعامة على الانهماك فيها ، وأن يقتصر في حاجته على قاضي الحوائج ، المعطي على التحقيق ، الذي بيده مقاليد السموات والارض ، كيف وقد تكفل بالرزق قال تعالى : (ومَا مِنْ دَابةٍ في الارضِ الَّا على اللهِ رزقُها)[2] وقال تعالى : (ومَن يتَّقِ الله يَجْعل لهُ مَخْرَجاً ويرزُقهُ مِن حَيثُ لا يَحْتسِبُ . ومَن يَتوكَّلْ على الله فهُو حَسْبُهُ)[3]

وأن يكون بعيدا من ولاة الامور داعيا لهم بالنصر والتأييد والعدل والتوفيق ، وبعيدا من الظلمة لأن قرب العالم منهم والتردد اليهم لأجل السحت وتحسينه لهم ماهم عليه فتنة له ولهم ولغيره ، ولما خالط الزهري ولاة الامور كتب اليه صديق له من العلماء يقول : عافانا الله واياك من الفتن ، ونجانا واياك من المحن ، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك ويرحمك ، أصبحت شيخا كبيرا وقد أثقلتك نعم الله لما فهمك من كتابه ، وعلمك من سنة نبيه ، واعلم أن أيسر ماارتكبت وأخف ما احتملت ، أنك آنست وحشة الظالم ، وسهلت سبيل الغي بدنوك ممن لم يؤد حقا ، ولم يترك باطلا ، حتى قربك وأدناك ، وأكرمك وواساك ، اتخذوك قطبا تدور عليك رحى باطلهم ، وجسرا يعبرون عليك الى بلائهم ، وسلما يتوصلون بك الى ضلالتهم ، يدخلون الشك بك على العلماء ، ويصطادون بك قلوب الجهلاء فما

---

(1) القصص : ١٧ - (٢) هود : ٦ - (٣) الطلاق : ٢ ، ٣

أيسر ماعمروا منك في جنب ماخربوا عليك ، وما أدنى ماأصلحوا منــك في جنب ماأفسدوا عليك من دينك ، فما يشك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم : (فَخلفَ مِن بعْدِهِم خَلفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ واتَّبعُوا الشَّهوات ِ)[1] فانك تعامل من لا يهمل ، ويحفظ عليك من لايغفل ، فداو دينك فقد دخله سقم شديد ، وهيء زادك فقد حضر السفر البعيد ، ولا يخفى على الله من شيء وهو الحفيظ المجيد ، انتهى •

والنبهاني الضليل ليس من أولئك القبيل ،بل خسته مشهورة ،ودناءته مذكورة، مع ماضم الى ذلك الضلال من العقائد الفاسدة في الاله عزاسمه ، حيث أنه ممــن قلد القائلين بالحلول والاتحاد ، والغلو في النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حتــى اعتقد فيه أنه موجود في كل زمان ومكان ، والاغراء على دعاء غير الله والالتجاء الى ماسواه ، وكل ذلك من متفرعات القول بوحدة الوجود ، فان القائلين بها لم يخطئوا عبدة الأصنام في عبادتها ، وكل كلام الله تعالى ينطبق على كلام غيره ، فعندهم أن ما تكلم به الانسان نظما أو نثرا فهو كلامه ، وعليه قول الشيخ محيي الدين :

وكــل كلام في الوجود كلامــه   ســـواء علينـا نثـره ونظامه

فلا شك أن روح النبهاني الخبيثة من جنود هذه الارواح ، وقد تعارفت مــع أرواح الغلاة فأتلفت وتناكرت مع أرواح الاصفياء الطاهرة المقدســـة فاختلفت ، فالحديث كما يصدق على خصمه فهو صادق عليه•

أفلا يستحي من هذا حاله ، ووصفه واعتقاده ، وجهله وضلاله ، أن يخاصم أهل الحق ، وفرسان العلم ، وأئمة الاسلام ، وبحور الفضل ، وورثة الانبياء ، وهو ليس من قبيل هؤلاء الرجال ، بل ولا ممن يعد في صف النعال ، وقد حمله شيطانــه على القاء نفسه في هذه المهالك ، وقاده الى هذه المعارك ، وما أحسن ما قال القائل:

ولقد أقول لمن تحرش بالهـــوى   عرضت نفسك للبلا فاستهدف

(وقـــال آخر) :

أقـــول لمحرز لما التقينـــا   تنكب لا يقطـرك الزحـــام

(ثم ان قوله) مع كونهم في جانب تعظيم جده الخ •

(جوابه) أن تعظيم جده انما يكون بالذب عن شريعته ، والمحافظة على سنته، لا بمخالفته فيما أمر به ونهى عنه ، فهذا هو العصيان وعدم المحبة ، قــال الله تعالى:

---

(1) مريم: ٥٩

(قلْ إن كُنتُم تُحبُّونَ اللهَ فاتَّبعُوني يحببكُم اللهُ ويغفِرْ لكُم ذُنوبكُم)[1]
وتعظيمه وتوقيره انما يكون بالاتباع لا بالابتداع ، ولا بمخالفة ماجاء به هو وغيره من الانبياء والرسل عليهم السلام من المحافظة على التوحيد وعدم اثبات خصائص الألوهية لغير الله ، ألا ترى أن الفاطميين من العبيديين كانوا يزعمون أنهم من العترة فلما أحدثوا ما أحدثوا وابتدعوا ما ابتدعوا خرجوا عن دينه وصاروا من أعدائه بسبب الاعراض عن شريعته ، على أن الحق يقبل من أي شخص كان ، فالنظر الى ماقاله القائل لا الى القائل ، ومما ينسب الى الامام علي كرم الله وجهه لاتنظر الى من قال وانظر الى ماقال ، والله عز اسمه يقول : (يا أَيُّها النَّاسُ إنا خَلقنَاكُم مِن ذَكَرٍ وأُنثَى وجَعلناكُم شُعوباً وقبائلَ لتعارَفوا إنَّ أكْرمكُم عندَ اللهِ أتقَاكُم)[2]

فالبيت الذي أورده هو صادق عليه لا على مصنف (جلاء العينين) فقدكان رحمه الله هاشميا علما وعملا وقولا وفعلا .

وباهلة من قيس عيلان ، وهو في الاصل اسم امرأة من همدان كانت تحت معن بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان فنسب ولده اليها ، وقولهم باهلة بن أعصر ، انما هو كقولهم تميم بنت مر ، فالتذكير للحي ، والتأنيث للقبيلة سواء كان الاسم في الاصل لرجل أو لامرأة .

وفي كتب الحنفية : وقريش بعضهم أكفاء بعض ، ولا تفاضل فيما بينهم من الهاشمي والنوفلي والتيمي والعدوي وغيرهم وبقية العرب بعضهم أكفاء بعض ، فالباهلي كفو للتميمية والطائية والقيسية وغير ذلك .

فالنبهاني المخذول ان كان منتسبا لنبهان بن جرم بن عمر بن الغوث ، وبنو نبهان بطن من طي ، فليس لقبيلته فضل على بني باهلة ، بل هم سواء في نظر الشرع والعقل ، هذا ان سلم له دعوى هذا النسب ، وان قلنا أنه نبطي من أنباط الشام ، أو من الجرامقة ـ كما هو الظاهر ـ وان النسبة الى نبهان جبل مشرف على حق عبد الله بن عامر بن كريز ويتصل به جبل رنقاء الى حائط عوف ، فلا خفاء في كونه حينئذ أخس بني آدم ، فضلا عن أن يكون أخس العرب .

والمقصود أن النبهاني على كلا النسبتين لارجحان لقومه على بني باهلة ، ومن

---
(١) آل عمران : ٣١ ـ (٢) الحجرات : ١٣

جعل بني باهلة أخس العرب ، وأنهم ليسوا كفوا للعرب ، فهو غالط فان النص الذي ورد عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لاتفصيل فيه ، مع أنه صلى الله عليه وسلم كان أعلم بقبائل العرب وأخلاقهم ، وقد أطلق وما رموا به ان صح عنهم ، فليس بعيب شرعي ، كما أن التعيير بشرب ألبان الابل وأكل لحومها كذلك كما قال شاعرهم .

تعيرنا ألبانها ولحومها وذلك عار يا ابن ريطة زائل

وكما كانت تعير قريش بالسخينة ، وهو طعام كانوا يتخذونه أيام الجدب ، وكل ذلك بسبب ما كانوا عليه من الجاهلية ، والا فالعيب هو الذي يجعله الشرع عيبا ، كالعيوب التي كانت في بني نبهان منها عبادتهم للفلس ، وهو صنم لهم كان بنجد قريبا من فيد ، وكان سدنته بني بولان ، وهم وبنو نبهان أبناء عم ، وكانوا يعبدونه ويهدون اليه ويعترون عنده عتائرهم ، ولا يأتيه خائف الا أمن ، ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها اليه الا تركت ، ولم تخفر حويته ، وبولان ابن عم نبهان هو الذي بدا بعبادته ، فلم يزل الفلس يعبد حتى ظهرت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم فبعث اليه على بن أبي طالب فهدمه ، وأخذ سيفين كان الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان قلده اياهما ، يقال لهما مخذم ورسوب ، وهما اللذان ذكرهما علقمة ابن عبدة ، فقدم بهما الى النبي صلى الله عليه وسلم فتقلد أحدهما ثم دفعه الى علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فهو سيفه الذي كان يتقلده .

ولهم أصنام أخرى ليس هذا المقام موضع ذكرها .

والمقصود أن بني نبهان وبني باهلة كانوا على منهج واحد ، فما يذم بهأحدهما يذم به الآخر ، بل ربما كان في بني باهلة رجال أكابر ، تعقد عند ذكرهم الخناصر ، في العلم والدين والشجاعة والفروسية وغير ذلك من الشيم والسخاء والكرم ، ولم يكونوا في الجاهلية جميعا معروفون بالخساسة ، بل فيهم الاجواد رفيعوا العماد ، وكون فصيلة منهم أو بطن صعاليك فعلوا ذلك لايسري في حق الكل ، فتعيير القبيلة بعيب صدر عن واحد منهم من خصال الجاهلية ، كما عيروا بني فزارة بما فعل واحد منهم فعلا منكرا فقال قائلهم :

لاتأمنن فزاريا خلوت به على قلوصك واربطها باسيار

هذا كله ان قلنا بصحة النسب الى نبهان الطائي ، وصدقنا دعواه الكاذبة ،وان قلنا انه نبطي منسوب الى ذلك فبنو باهلة أفضل منه وأشرف في الحسب والنسب ، بل في الدين والادب .

(ومنها ماقاله) في صاحب (جلاء العينين) أيضا وليس حكمه على ابن حجر فقط والسبكي وابنه بل على جميع أهل السنة والجماعة ، من الشافعية ، والحنفية ، والمالكية ، وجمهور الحنابلة أيضا ، ومن طالع كتابه هذا بانصاف يعلم يقينا أنه أخطأ فيه حق نفسه وحق أبيه وحق المسلمين عموما وسيد المرسلين خصوصا ، وأنه لوث نفسه بأقذار البدع الوهابية التي لايغسلها عنه بحار الدنيا الى يوم القيامة ، وكما آذى نفسه بذلك أشد الأذى آذى كل من اطلع على كتابه من المسلمين أهل المذاهب الاربعة ـ حتى المنصفين من الحنابلة ـ بذمهم اياه ، وخوضهم في عرضه ما بقيت الدنيا وبقي فيها هذا الكتاب ، نعم قد استعاض عن ذلك برضا صديق حسن عنه وطائفته الوهابية فهذا هو ربحه من تلبيسه على المسلمين بهذا الكتاب ، وتوهيمهم أن ما عليه ابن تيمية وطائفته من البدعة الشنيعة في مسألة الزيارة والاستغاثة وغيرهما مما خالفوا به أهل السنة هو الحق ، وتطاوله على أئمة المسلمين مثل السبكي وابنه وابن حجر ، الى قوله هذا لعمري مما لايختاره عاقل لاخيه فضلا عن نفسه وأبيه .

(فيقال للنبهاني) هذا مبلغ علمك ، دأبك تكرير هذيانك ، وقد أجبنا عن ذلك كله في غير موضع من هذا الكتاب ، مع كونه صرير باب ، أو طنين ذباب ، بل انه أشبه شيء بنبح الكلاب وقلنا : انه لم يحكم على من ذكرهم بحكم ، بل نقل ما كان بين الفريقين وما ذكره أهل العلم الاكابر وأئمة المسلمين في المسائل التي تنازعوا فيها ، ولو لم يصنف صاحب (جلاء العينين) كتابه هل كانت تبقى تلك المسائل مجهولة لأهل العلم والأفاضل المدققين ، ألم تكن هذه المسائل مفصلة في الكتب ومذكورة فيها على أتم وجه ؟ هذا كتاب (القول الجلي) الذي صنفه السيد صفي الدين قبل أن يخلق صاحب (جلاء العينين) بمدة من السنين قداشتمل على جميع ما اشتمل عليه جلاء العينين اجمالا ، وكذلك (الدرة المضية) وكذلك (الرد الوافر) للحافظ ابن ناصر الدين الشافعي ، وكذلك (افاضة العلام) من مصنفات الشيخ ابراهيم الكوراني (ومسلك السداد) له ، الى غير ذلك من الكتب المصنفة في هذا الباب قديما وحديثا ، فلم لم يذكر النبهاني تلك الكتب ومصنفيها ، وما الذي حمله أن يتخذ (جلاء العينين) ومصنفه سبابة المتندم وأكثر عليه الهياط والمياط ، حتى يتخيل للناظر في كلامه هذا أن السماء انفطرت ، وأن الكواكب قد انتثرت ، وان القبور بعثرت ، وان الوحوش حشرت ، فما هذه المسائل التي ذكرها مصنف (جلاء

العينين) وقد قامت على النبهاني منها قيامته الكبرى ؟ وما أهمية زيارة القبور والاستغاثة بالموتى حتى يقام لها ويقعد ، ويهاج ويعربد ؟ وما أرى ذلك الا من مزيد الحسد ، ولله در الحسد ما أعدله بدأبصاحبه فقتله ، ومن الحري أن ينشد على لسان صاحب جلاء العينين :

ان يحسدوني فاني غير لائمهم … قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فدام لي ولهم مابي وما بهم … ومات أكثرنا غيظا بما يجد

ثم ان قوله ومن طالع كتابه هذا بانصاف يعلم يقينا أنه أخطأ فيه الخ : مردود، فقد طالعه كثير من أهل الفضل المنصفين فاستصوبوه ، وأثنوا عليه ، وعرفوا الحق الذي فيه ، وحسنوا ظنهم بأئمة المسلمين وخيار المؤمنين ، ودعوا له ولوالديه ولمن نشر كتابه ، واستفادوا الفوائد التي لم يكونوا عارفين بها ولا واقفين عليها ، وعدوا ذلك خدمة للمسلمين عموما ولسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم خصوصا ، حيث ذب عن دينه وشريعته الغراء ماكدر صفوها ، وأماط الأذى عنها ، وقالوا كما قال الامام أحمد نضر الله وجهه : الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل الى الهدى ، ويصبرون منهم على الاذى ، يحيون بكتاب الله عز وجل الموتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لابليس قد أحيوه ، وكم من ضال تائه قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، الذين عقدوا ألوية البدعة،وأطلقوا عنان الفتنة،فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب ، مجمعون على مفارقة الكتاب ، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم ، فنعوذ بالله من فتن المضلين ، انتهى •

فانظر أيها المنصف الى وصف الجاهلين الذي في هذه الخطبة ، وطبقه على مايقوله النبهاني تجد الامام نضر الله وجهه كأنه قد عناه وقصده بلفظه ومعناه ، وفي الحديث (اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله) واني قد طالعت كثيرا من كتب هؤلاء الغلاة الجهلة ولم أر فيها كالهذيان الذي هذى به هذا الزائغ ، ومع ذلك رددتها بتوفيق الله ، وشفيت منها صدور المؤمنين ، وكلام هذا الزائغ ظلمات بعضها فوق بعض ، فكل ماكتبته عليه من الرد أراني قد أتيت بقليل من كثير ماستوجب ، فالله المستعان عليه •

(وقد تذكرت) عند وصولي الى هذا المقام ماكان يقوله سلف النبهاني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأحببت ذكره هنا ، وادراجه في الكتاب ، ليعلم الناظر البصير أن أعداء الحق في كل عصر على وتيرة واحدة ، وقلوبهم متشابهة فيما يرد عليها من الخواطر والشؤون .

ألا إنما الايام أبناء واحد ... وهذي الليالي كلها أخوات
فلا تطلبن من عند يوم ولا غد ... خلاف الذي مرت به السنوات

روى الامام أحمد من حديث محمد بن اسحق قال حدثني يحيى بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال قلت له : (ما أكثر مارأيت قريشا أصابت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانت تظهر من عداوته ، قال : حضرتهم وقد اجتمع اشرافهم يوما في الحجر فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا مارأينا مثل ماصبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، قد سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعاتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم أو كما قالوا ، فبينما هم في ذلك اذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فلما أن مر بهم غمزوه ببعض مايقول ، قال فعرفت ذلك في وجهه ، ثم مضى فلما مر الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وجهه ، ثم مضى فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فقال تسمعون يامعشر قريش ، أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته حتى مامنهم رجل الا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى أن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفأه باحسن مايجد من القول ، حتى انه ليقول انصرف انصرف ياأبا القاسم انصرف راشدا فوالله ماكنت جهولا ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى اذا كان من الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم حتى اذا بادأكم بما تكرهون تركتموه ، فبينما هم في ذلك طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا اليه وثبة رجل واحد فاحاطوا به ، يقولون له : أنت الذي يقول كذا وكذا لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم ؟ قال : فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم أنا الذي أقول ذلك ، قال : فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه وقام أبو بكر الصديق دونه يقول ـ وهو يبكي ـ أتقتلون رجلا ان يقول ربي الله ؟ ثم انصرفوا عنه) .

وعن الربيع بن أنس رضي الله تعالى عنه قال : (أراد صاحب اليمن أن يؤوي

النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه الوليد فزعم أن محمدا ساحر ، وأتاه العاص بن وائل فأخبره أن محمدا تعلم اساطير الاولين ، وأتاه آخر فزعم أنه كاهن ، وآخر أنه شاعر ، وآخر زعم أنه مجنون ، فأهلكهم الله ، كل منهم أصابه عذاب سوى عذاب صاحبه) وذكر تفصيل عذابهم •

والكلام على ماكابد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش وغيرهم من مشركي العرب مذكور في غير هذا الموضع ، وقد نصره الله عليهم ، وانتقم منهم كما ينتقم من أعداء ورثته والعاملين بسنته ويهلك خصومهم ، كالنبهاني وغيره من الغلاة الذين هم على طريقة أسلافهم عبدة الاصنام ، وعلى مسلكهم المذموم ، وفي كتب السير قد بين ما أصاب أعداء الرسول من البلاء المبين ، قال الشيخ في كتابه (الجواب الصحيح) ويدخل في هذا الباب مالم يزل الناس يرونه ويسمعونه من انتقام الله ممن يسبه ويذمه ويذم دينه بأنواع من العقوبات ، وفي ذلك من القصص الكثيرة مايضيق هذا الموضع عن بسطه ، وقد رأينا وسمعنا من ذلك مايطول وصفه من انتقام الله ممن يؤذيه بأنواع من العقوبات العجيبة ، التي تبين كلاءة الله لعرضه ، وقيامه بنصره وتعظيمه لقدره ، ورفعه لذكره ، وما من طائفة من الناس الا وعندهم من هذا الباب مافيه عبرة لأولي الالباب ، قال : ومن المعروف المشهور المجرب عند عساكر المسلمين بالشام اذا حاصروا بعض حصون أهل الكتاب أنه يتعسر عليهم فتح الحصن ويطول الحصار الى أن يسب العدو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحينئذ يستبشر المسلمون بفتح الحصن وانتقام الله من العدو ، فانه يكون ذلك قريبا ، كما قد جربه المسلمون غير مرة ، تحقيقا لقوله تعالى :(إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ) ولما مزق كسرى كتابه مزق الله ملك الأكاسرة كل ممزق ، ولما أكرم هرقل والمقوقس كتابه بقي لهم ملكهم ، انتهى •

فهانحن ننتظر انتقام الله تعالى من النبهاني واضرابه الغلاة ، فقد عادوا أهل الحق وورثة نبيهم صلى الله عليه وسلم وحفاظ دينه ، وان يعاملهم بعدله ، فقد أساؤا القول فيهم ، وافتروا عليهم ، ورموهم بالعظائم ، ولا باعث لذلك سوى الدعوة الى الله وتوحيده وافراده بالعبادة ، والنبهاني منهم يقول ان كل ذلك ليس من خصائص الاله مع كونه من أعداء الله ورسوله ، حيث خالف الشريعة الغراء ، وصرف شطرا من عمره في حكمه بالقوانين المخالفة لما شرعه الله تعالى ، مع ما اتصف به من المساوي والمنكرات •

(ومنها أنه قال) وقد لعمري آذى أباه وعقه بتلك النقول التي كان الناس عنها في غفلة ، لانها مفرقة في تفسيره فجمعها في كتابه مفتخرا بها ، ومثبتا عند صديق حسن وطائفته ان أباه هو أيضا على مذهبهم ومشربهم في ذلك ، وقد سمعت بسبب هذا — من بعض علماء مكة — كلاما فظيعا في حقه وحق أبيه ، الى آخر ماقاله في هذا الباب .

(فيقال له) ان ماذكر في (روح المعاني) من المسائل التي خالف فيها الغلاة أهل الحق — كمسألة دعاء غير الله ، والالتجاء الى ماسواه ، والحلف بغيره ، والنذر لغيره ، ونحو ذلك مما هو من خصائص الاله المعبود — هي مذكورة صريحا في القرآن العظيم ، وكتب الحديث الصحيحة ، ومصنفات الأئمة طافحة بها ، وكذلك مسألة الكلام والعلو وسائر ماورد من الصفات فيها كتب كثيرة ، ومصنفات شهيرة — على ماسبق بيانه ، ومضى دليله وبرهانه — فصاحب (جلاء العينين) ذكر منها نبذة يسيرة ، والمسائل التيفاتته منها كثيرة ،و (روحالمعاني) ليس منفردا بذكر ماقام على صحته الحجج القطعية ، والبراهين العقلية والنقلية ، ومن طالع البيضاوي، والكشاف ، وتفسير ابن جرير ، وغير ذلك : يجد الامر واضحا كفلق الصباح ، ولولا أن يطول الكتاب لنقلنا كل ذلك ، غير أن هذه التفاسير تتداولها الايدي ، والمنصفون من أهل البصائر يعلمون ذلك ، فمصنف (جلاء العينين) لم يعق والده، بل نشر فضله وسعى في انتفاعالناس به ، وانه سلك مسلكه في حب انتفاع اخوانه المسلمين ونصيحتهم .

بابه اقتدى عدي في الكرم   ومن يشابه أبه فما ظلم

وقد كان صاحب (روح المعاني) رحمه الله تعالى سلفي الاعتقاد ، مشارا اليه بالبنان في العلم والعمل من بين علماء الاقطار والبلاد ، وقد رأيت له رسالة بخطه ألفها في بيان عقيدته ومذهبه ، وكيفية اشتغاله واجازاته في العلوم العقلية والنقلية ، وتراجم من أخذ عنهم العلم ، وترجمة أئمة مذهبه الامام الشافعي والامام الاشعري رحمهما الله تعالى ، وبين فيها — بعد أن ذكر عقيدته التي تلقاها من الكتاب والسنة وادعى انها عين اعتقاد الامام الاشعري — ان اعتقاد الامام الاشعري لايخالف ماعليه الامام أحمد رحمه الله ، ونص عبارته :

(فان قلت) ليس جميع ماذكرته مذهب الامام الاشعري كما يفصح بذلك تتبع الكتب ، بل هو مذهب الامام أحمد بن حنبل (قلت) مذهب الامام الاشعري عند

المحققين والعلماء المنصفين هو مذهب الامام، كما يبين ذلك كتابه (الابانة في أصول الديانة) وهو آخر كتاب صنفه وعليه تعتمد أصحابه في الذب عنه عند من يطعن عليه.

قال فيه (فصل في ابانة قول أهل الحق والسنة) فان قال قائل قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة فعرفونا قولكم الذي به تقولون ودياناتكم التي بها تدينون.

قيل له : قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها التمسك بكلام ربنا وسنة نبينا، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول أبو عبد الله أحمد بن حنبل ـ نضر الله وجهه ورفع درجته ـ قائلون، ولما خالف قوله مخالفون، لأنه الامام الفاضل، والرئيس الكامل، الذي أبان الله تعالى به الحق، ورفع به الضلال، وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين، وشك الشاكين، فرحمة الله تعالى عليه من امام مقدم، وجليل معظم، وكبير مفخم.

وجملة قولنا : أنا نقر بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، وبما جاء من عند الله تعالى، وبما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، لانرد من ذلك شيئا، وأنه واحد لا اله الا هو، فرد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وان محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الساعة آتية لاريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأن الله مستو على عرشه كما قال : (الرَّحْمٰنُ على العَرشِ استَوى)[1] وان له وجها كما قال : (ويَبْقى وجهُ ربِّك ذُو الجَلال والاكْرام)[2] وان له يدين بلا كيف كما قال : (بَلْ يداهُ مبْسُوطَتَان)[3] وان له عينين بلا كيف كما قال : (تَجري باعْيُننا)[4] وأن من زعم أن أسماء الله تعالى غيره كان ضالا، وندين بأن الله تعالى يقلب القلوب، وأن القلب بين أصبعين من أصابع الله عز وجل، وأنه يضع السموات على أصبع، والارضين على أصبع، كما جاءت الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن الايمان قول وعمل يزيد وينقص، ونسلم الروايات الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم التي رواها الثقات عدلا عن عدل، ونصدق بجميع الروايات التي رواها وأثبتها أهل النقل من النزول

---

(١) طه : ٥ ـ (٢) الرحمن: ٢٧ ـ (٣) المائدة : ٦٤ ـ (٤) القمر ١٤

الى السماء الدنيا ، وأن الرب عز وجل يقول : (هل من سائل ؟ هل من مستغفر) وسائر ما نقلوه واثبتوه خلافا لأهل الزيغ والتضليل ، ونقول أن الله تعالى يجيء يوم القيامة كما قال : (وَجاء ربُّكَ والملكُ صَفاً صفاً)[1] وان الله تعالى يقربُ من عباده كيف شاء كما قال : (ونَحنُ اقربُ اليه منْ حَبْلِ الوريدِ)[2] وكما قال : (ثُم دنى فتَدلّى . فكَان قابَ قوسيْنِ أَو أدْنى)[3] انتهى ملخصا .

(قال صاحب تفسير روح المعاني) رحمه الله وقد ذكر ابن عساكر في كتابه تبيين كذب المفتري ، فيما نسب للامام الاشعري) . مايقرب من ذلك وان لم يكن بلفظه ، ثم قال عقبه : هذا ما عليه امامنا الاشعري ومتقدموا أصحابه ، لكن كثرت المقالة بين متأخري الاشاعرة والحنابلة حتى أدى ذلك الى تضليل كل من الفريقين صاحبه ، وذلك في مسائل تمسكت فيها الحنابلة بظواهر الكتاب والسنة كالاستواء والنزول والقدم والوجه والعينين وغير ذلك من أحاديث الصفات ، قال : ولقد أجاد ولي الله بلا نزاع ، وحامل لواء الشريعة والحقيقة بلا دفاع : الملا ابراهيم ابن حسن بن شهاب الدين الكوراني الشهراني الشهر زوري الكردي نزيل المدينة الشافعي بالفحص عن كل ماينسب الى الحنابلة ، فجمع رسائل عديدة وكتبا مفيدة وطالعها ودقق النظر فيها ، ثم ألف رسالة في ذلك ، وقال فيها : لما أمعنت النظر في رسائل القوم ومصنفاتهم وجدتهم برآء من كثير مما رمتهم أصحابنا الشافعية من التجسيم والتشبيه ، وانما القوم متمسكون بمذهب كبراء المحدثين ، كما هو المعروف من حال امامهم رضي الله تعالى عنه من ابقاء الآيات والاحاديث على ظواهرها ، والايمان بها كذلك ، مفوضون فيما أشكل معناه ، وهذا لايذمه أحد من الاشعرية ، بيد أن الحنابلة مشددون في رد التأويل في كل ذلك ، مجهلون من يذهب اليه ، فيقولون : الله تعالى ورسوله وسلف الامة ادرى بمعاني الآيات والاحاديث من هؤلاء المؤولين ، وما ورد عنهم انهم أولوا شيئا من ذلك ، فاما أن يكون ذلك لان معناه خفي عليهم فكيف ظهر لهؤلاء ماخفي على اولئك ، واما لأنها على مايظهر من معناها لأن الشرع جاء بلغة العرب فمراد الله تعالى بهذه الالفاظ هو المعاني التي تريدها منها العرب في لغتهم ، وتطلق بحسب مايليق به ، فالمراد بالاستواء والفوق والنزول معانيها المقصودة في كلام العرب ، فاذا قلت زيد فوق السرير

---

(١) الفجر : ٢٢ – (٢) ق ، ١٦ – (٣) النجم : ٨ ، ٩

فمعناه مستقر عليه متمكن منه مستعل ، ولما علمنا أن زيدا جرم من الاجرام والسرير كذلك تحقق لنا أن الفوقية في حقه واستقراره فوق السرير يوجب مماسته لـــه ، وتحيزه في جهة من جهاته ، وغير ذلك من الاوصاف التي توجب استقـــرار جرم على جرم ، واما المولى جل جلاله فماهية ذاته غير مدركة لاحد من الخلق فكيف يقال بأن استقراره فوق العرش يوجب مماسته له وتحيزه في جهة لان ذلك استقرار الجسم ، وأما استقرار من ليس بجسم فلا نحكم بأنه يوجب كذا وكذا حتى نعلـم ماهيتـه والماهية غير معلومة ، فنثبت له استقرارا حقيقيا فوق كل عرشه ، لانه أثبته لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم على وجه يليق بذاتـــه ، ويقتضيه كمال صفاته ، وكذلك يقولون في النزول ونظائره •

(قال) وقد بالغ ابن القيم عفى الله تعالى عنه ورحمه في الرد على أئمتنا الاشعرية في مثل هذا وأتى بعبارة سوء ، حتى قال : لام الاشعرية كنون اليهودية ، ولقد أساء سامحه الله تعالى في الخطاب ، وتنكب بمحض العصبية عن الصواب ، لأن الاشعرية لم يجحدوا استوى ، بل به يقرؤن والى الله عز وجل يتقربون ، ولكن بعضهم أول المعنى لما رأى الظاهر منه محالا على الله تعالى ، فقال معنى استوى استولى لورود اللفظين معا في لغة العرب ، وأمثال هذه التعصبات الفاسدة هي التي أوقعت الفريقين فيما وقعوا فيه ، والا فالكل على هدى ان شاء الله تعالى ، لأن المفوض مسلم لمراد الله تعالى تارك لما لم يكلف بعلمه ، والمتأول متبع لما علم صحته وثبوته من الكتاب والسنة حامل عليه مالم يتضح معناه حتى تكون العقيدة كلها على نسق واحـــد ، ولا يسوغ الى فهم القاصر معنى لايليق بالرب فيثبته له ، فالتأويل لاجل هذا حسن حراسة عن اعتقاد مالا يجوز اعتقاده ، فاذا سمع قاصر الفهم استوى لم يتبادر الـى فهمه الا المعنى المستحيل ، فاذا سمع قول العالم معناه استولى عليه بالقهر والغلبـة زالت تلك الشبهة من قلبه ، وهذا الذي أولنا به الاستواء وان لم يكن هو مراد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فهو لاشك معنى ثابت لله متصف به لاينافي ماهو معناه عند الله تعالى ، فلا كبير ضرر في ذلك ولا تحكم ، اذ لم نقل ليس له معنى الا هذا ، بل نقول يحتمل أن يكون معناه هذا وهذا صدق ، لأنه محتمل كما لايخفى •

(وقال أيضا) ولقد اطلعت على رسالة للشيخ ابن تيميـة وهي معتبرة عنـد الحنابلة وطالعتها كلها فلم أر فيها شيئا مما ينبذ ويرمى به في العقائد سوى ماذكرنا من تشديده في رد التأويل ، وتمسكه بالظواهر مع التفويض والمبالغة في التنزيـــه

مبالغة يقطع معها بأنه لا يعتقد تجسيما ولا تشبيها ، بل يصرح بذلك تصريحـا لاخفاء فيه ، والعجب ممن يترك صريح لفظه بنفي التشبيه والتجسيم ويأخذ بلازم قوله الذي لايقول به ولا يسلم لزومه ، وعلى كل حال فهو كما قال كثير من المشائخ في الشيخ محيى الدين ، قال سيدنا العلامة الشيخ عبد الله بن محمد العياشي وكثيرا ماكنت أسمع من شيخنا العلامة سيدي عبد القادر رضي الله تعالى عنه يقول محكم كلامه يقضي على متشابهه ، ومطلقهيرد الى مقيده ، ومجمله الى مبينه ، ومبهمه الى صريحه ، كما هو شأن كل كلام ظهرت عدالة صاحبه .

فالحنابلة مبرؤن مما نسب اليهم، وكذا الاشعرية أيضا منزهون مما يرمون به من التعطيل والتحريف لكلام الله تعالى عن مواضعه ، والكل على هدى يدينون دين الحق ، والمخالفون شرذمة قليلة لايعبأ بهم ، كما قال الشيخ تاج الدين السبكي في كتابه (معيد النعم ، ومبيد النقم) . ثم نقل كلامه الى آخره ، انتهى كلام الكوراني .

وقال بعد أن فرغ من نقله : وأقول من أراد أن يشرح صدره ، ويتبين له تبينا لامراء فيه صحة مذهب الاشعرية ، وانه مذهب أهل السنة والجماعة : فليطالع كتاب الامام أبي القاسم ابن عساكر المسمى (بتبيين كذب المفتري ، فيما نسب الى أبي الحسن الاشعري) فقد أتى فيه من أدلة الكتاب والسنة وأقاويل السلف والخلف مالا يمتري معه عاقل خال من التعصب انه أمام السنة ورئيس الجماعة المضمون لها العصمة من الله تعالى .

ثم نقل صاحب (روح المعاني) في رسالتهكلام الكورانيفي الثناءعلى عقائدالاشعري وانه على ماعليه السلف ، واطال الكلام في ذلك الى أن قال : ولولا خوف السآمة وحذر الملامة لاتيت في هذا المقام بما يبرىء الكلام ، ويروي الاوام ، ولكن ما كل ما يعلم يقال ، ولكل زمان دولة ورجال ، بل لعمري فيما ذكرنا كفاية للمسترشدين ، وهداية للمستهدين ، وأما الذين هووا في مهاوي الجهل ، وعقلوا بعقال الحسد والتعصب عن التمسك بزمام العقل ، واشتغلوا بالاغراض واغتروا بالاعراض ، فلا ينفعهم اختصار ولا اطناب ، ، ولا كتاب ولا خطاب ، فليس لدائهم من دواء الا السيف والدعاء .

الحمـد لله هذي العين لا الاثـر — فما الـذي باتباع الحـق ينتظـر
وقت يفوت واشغـال معوقـة — وضعف عـزم ودار شأنها الغـير

والناس ركضى الى مهوى مصارعهم	وليس عندهم من ركضهم خبـــر
تسعى بها خادعــات من سلامتهــم	فيبلغون الى المهوى ومــا شعــروا
والجهل أصل فساد الناس كلهـــم	والجهل أصـــل عليه يخلق البشر
وانما العلم عن ذي الرشد يطرحــه	كما عــن الطفل يوما تطرح الســرر
وأصعب الــداء داء لايحس بـــه	كالدق يضعف حســا وهو يستعـر
وانمـــا لم تحس النفس موبقهـا	لأن أجزاءه قد عمــــه الضـــرر

(هذا مانقلناه) من رسالةصاحب تفسير (روح المعاني) • وبـــه يرغم أنف الزائغ النبهاني ، حيث تبين به ان الامام الاشعري على ماعليه السلف ، وان من خالفه من المتنسبين اليه قد غير وحرف ، فمصنف (جلاء العينين) ان وافق والده في تلــك العقيدة السالمة من وصمة البدع فقد وافق الحق الحقيق بالقبول واتبع ، غير أن النبهاني لجهله وافلاسه من كل فضل يرى أن الحق لم يعده وان ماهو عليه هـــو الفصل والعدل •

(وأما قوله) وقد سمعت بسبب هذا من بعض علماء مكة كلاما فظيعا فــي حقــه الخ •

(فيقال له) عنه وعن والده هذا الكلام مردود من وجوه :

(الوجه الأول) أنا نستفسر من النبهاني هذا ونسأله على فرض صدق كلامه وصحة نقله ونقول له من سلم من لسان الورى ، ومن أمن معرة كلام الناس ، ومن الذي اتفق على محبته وموالاته جميع الأنام ؟ هذا إله العالمين وخالق السمـــوات والارضين قد حكى في كتابه الكريم عن أعدائه وماتقولوا به في شأنه مالا يخفى على من له بصيرة • من ذلك ما كان من اليهود مما هو مذكور في توراتهم،وما هومذكور في القرآن من افترائهم على الله تعالى ، وعلى رسله صلوات الله وسلامه عليهم ، فقد جعلوا داود النبي ولد زنا ، كما جعلوا المسيح ولد زنا ، ولم يكفهم ذلك حتى نسبوا ذلك الى التوراة، كما جعلوا ولدي لوط ولدي زنا،ثم نسبوا داود وغيره من أنبيائهم الى ذينك الولدين ، وقالوا ان الله استراح في اليوم السابع مــن خلــق السموات والأرض ، فأنزل الله تعالى على رسوله تكذيبهم بقوله :(ومامسّنا مِن لغُوبٍ)[1] أي تعب وقالوا ان الله فقير وقد حكاه سبحانه عنهم في كتابه الكريم بقوله : (لقدْ

---

(١) ق : ٣٨ •

سَمِعَ اللهُ قولَ الَّذيْن قالوا إنَّ الله فَقيرٌ ونَحنُ أَغنيَاءُ سَنكْتُبُ ما قَالوا وقَتْلَهُمُ الأَنبيَاءَ بغيرِ حَقٍ ونقُولُ ذوقُوا عذَابَ الحريْق . ذَلكَ بِما قدَّمت أَيْدِيكُم وأَنَّ اللهَ ليْسَ بظَلَّام للعبِيدِ)[1] أنزل الله تعالى هذه الآية لما قالوا مابنا الى الله تعالى من فقر ، وانه الينا لفقير ، وما تتضرع اليه كما يتضرع الينا ، وانا عنه لأغنياء ، ولو كان غنيا عنا ماستقرض منا ، ولما كان هذا القول منهم في غاية العظم والهول قال (سنكتب ماقالوا) الخ أي لن يفوتنا أبدا تدوينه واثباته .

وقالوا : ان الله بخيل ليس بجواد ولا كريم ، قال تعالى : (وَقَالتِ اليَهودُ يَدُ اللهِ مَغْلولَةٌ) فرد عليهم بقوله : (غُلَّت أَيْدِهِم ولعنُوا بِما قالوا . بلْ يداهُ مبْسُوطَتانِ يُنفقُ كَيفَ يشَاءُ)[2] وقالوا ان العزيز كان ابن الله ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، قال تعالى : (وقالت اليَهودُ عُزيْرٌ ابْنُ اللهِ وقالتِ النَّصارَى المسِيحُ ابْنُ اللهِ)[3] وقال تعالى : (وقالَتِ اليهودُ والنَّصارى نَحنُ أَبناءُ اللهِ وأَحبَّاؤُهُ قلْ فَلِمَ يُعذِّبكُم بذنوبكُم بلْ انتُم بشَرٌ ممن خَلَقَ)[4] وقالوا (إنَّ اللهَ عهِدَ اليْنَا أَنْ لا نؤْمِنَ لرسولٍ حتى يأْتينا بقربان تأْكله النَّارُ) فرد عليهم بقوله (قُلْ قدْ جاءَكُم رُسُلٌ مِن قبلي بالبيِّنات وبالَّذِي قُلتُم فلِمَ قتلْتُموهم إن كُنتُم صَادِقيْن)[5] (وقَالوا لنْ تَمسَّنَا النَّارُ إلا أَياماً معْدودَةٌ)[6]

وقالوا ان الله تعالى بكى على الطوفان حتى رمدت عيناه وعادته الملائكة ، وقالوا ان الله ندم على خلق بني آدم ، وأدخلوا هذه الفرية في التوراة ، وقالوا عن لوط انه وطيء ابنتيه ، وأولدهما ولدين نسبوا اليهما جماعة من الأنبياء ، وقالوا في بعض دعاء صلاتهم : انتبه كم تنام يارب استيقظ من رقدتك فتجرؤا على رب العالمين بهذه المناجاة القبيحة ، كأنهم ينخونه بذلك لينتخي لهم ويحتمي كأنهم يخبرونه أنه قد اختار الخمول لنفسه وأحبائه ، فيهزونه بهذا الخطاب للنباهة واشتهار الصيت ، وما كان منهم مع موسى عليه السلام فأمر مشهور .

---

(١) آل عمران : ١٨١ ، ١٨٢ — (٢) المائدة : ٦٤ — (٣) التوبة : ٣٠ — (٤) المائدة : ١٨ —
(٥) آل عمران : ١٨٣ (٦) البقرة : ٨٠

وبالجملة فافتراؤهم على الله ورسله وأنبيائه ورميهم لرب العالمين ورسله بالعظائم كثير جدا ، وقد ذكر نبذة منه العلامة ابن حزم في كتابه (الملل والنحل) ، والحافظ ابن القيم في كتابه (هداية الحيارى) .

(وأما ما كان من النصارى) فهو أنهم اعتقدوا أن رب السموات والأرض تبارك وتعالى نزل عن كرسي عظمته وعرشه ، ودخل في فرج امرأة تأكل وتشرب وتبول وتتغوط ، فالتحم ببطنها ، وأقام هناك تسعة أشهر يتلبط بين نجو وبول ودم وطمث ، ثم خرج الى القماط والسرير ، كلما بكى ألقمته أمه ثديها ، ثم انتقل الى المكتب بين الصبيان ، ثم آل أمره الى لطم اليهود خديه ، وصفعهم قفاه ، وبصقهم في وجهه ، ووضعهم تاجا من الشوك على رأسه ، والقصبة في يده ، استخفافا به وانتهاكا لحرمته ، ثم قربوه من مركب خص بالبلاء راكبه فشدوه عليه وربطوه بالحبال وسمروا يديه ورجليه ، وهو يصيح ويبكي ويستغيث من حر الحديد وألم الصلب ، هذا وهو بزعمهم الذي خلق السموات والارض ، وقسم الأرزاق والآجال، ولكن اقتضت حكمته ورحمته أن مكن أعداءه من نفسه ، لينالوا منه ما نالوا فيستحقوا بذلك العذاب والسجن في الجحيم ، ويفدي أنبياءه ورسلهوأولياءه بنفسه فيخرجهم من سجن ابليس ، فان روح آدم وابراهيم ونوح وسائر النبيين عندهم كانت في سجن ابليس في النار حتى خلصها من سجنه بتمكينه أعداءه من صلبه .

فهذا بعض كفرهم وشركهم برب العالمين ومسبتهم له ، ولهذا قيل انهم سبوا الله ورسوله مسبة ماسبه اياها أحد من البشر ، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه في الحديث الصحيح أنه قال : (شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وكذبني ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، أما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحدالصمد الذي لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لي كفوا أحد ، وأما تكذيبه اياي فقوله لن يعيدني كما بدأني ، وليس ذلك بأهون عليّ من اعادته) .

وقال تعالى : (أَلَا إِنَّهُم مِن إِفكِهِم لَيَقولونَ وَلَدَ اللهُ وإنَّهم لَكاذِبونَ) (١)

وقال : (لقد كَفرَ الَّذيْن قالوا إنَ اللهَ هُو المسيْحُ ابنُ مريَمَ) (٢) الى غير ذلك من الآيات المشتملة على سوء اعتقادهم في الله .

وأما ما كان من مشركي العرب فقد قال تعالى عنهم : (وجَعلوا لله شُركاءَ

---

(١) الصافات : ٥١، ٥٢ ـ (٢) المائدة : ٧٢

الجنَّ وخلقهُم وخرقُوا لهُ بنينَ وبنات بغيْرِ عِلْم سُبحَانهُ وتعَالى عَمَّا يصفُون بديعُ السَّموات والارْضِ أنى يكونُ لهُ ولدٌ ولم تكُن له صَاحِبةٌ وخلقَ كُلَّ شَيءٍ وهُو بكُلِّ شَيءٍ عَليم)[١] وقال (وقلِ الحمدُ لله الَّذي لم يتَّخذْ ولداً ولَم يَكُنْ لهُ شَريكٌ في المُلْكِ ولم يكُن له وليٌ منَ الذُّلِّ)[٢] وقال: (تبارك الَّذي نزَّل الفُرقانَ على عَبدِه ليكُونَ للعالمِيْنَ نذيْراً . الَّذي لهُ مُلْكُ السَّموات والأَرضِ ولم يتَّخذ ولداً ولم يكُن لهُ شَريكٌ في الملك وخَلقَ كُلَّ شَيءٍ فَقدَّرَهُ تقديراً)[٣] (وقالوا اتَّخذَ الرَّحمنُ ولَداً سُبحَانه بل عبادٌ مُكْرمُونَ . لا يَسبقُونهُ بالقَول وهُم بأمْرِه يعمَلونَ . يعلَم ما بينَ ايْديهمْ ومَا خَلفَهم ولا يشْفعُون إلا لمن ارتضى وهُم مِن خشْيته مُشْفقونَ . ومن يقلْ مِنهُم إنّي إله مِن دُونِه فذلكَ نَجْزيه جَهنَّم كَذلكَ نجزي الظَّالمينَ)[٤] وقال : (وقَال اللهُ لا تتَّخذُوا إلهينِ اثنَين إنَّما هُو إلهٌ واحدٌ فإيَّايَ فارهبُونِ . ولهُ مَا في السَّموات وَالأَرضِ ولهُ الدِّينُ واصِباً) الى قولهِ : (ويَجعلونَ لِلهِ البنَاتِ سُبحَانه ولَهمْ مَا يَشتهُونَ)[٥] وقال : (ولا تَجعلْ معَ اللهِ إلهاً آخرَ فتلْقى في جَهنَّم ملوماً مدحُوراً . أفأَصفَاكُم ربُّكُم بالبنِيْنَ واتَّخذَ مِنَ الملائكةِ إناثاً إنَّكُم لتقُولونَ قولاً عظِيْماً . ولقدْ صرَّفنا في هذَا القُرآنِ ليذَّكَّرُوا ومَا يزِيدهُم إلّا نفُوراً . قلْ لو كانَ معَهُ آلهةٌ كما يقُولونَ إذاً لابتغَوا إلى ذي العَرشِ سَبيلاً)[٦] وقال: (فَاسْتَفْتهم ألربِّكَ البنات ولهم البنُونَ . أمْ خلقْنا الملائكَةَ إناثاً وهُم شاهِدُونَ . ألا إنَّهم منْ إفكِهِم ليقُولونَ . ولَدَ اللهُ وإنَّهم لكاذِبُونَ . أصْطفى البنَاتِ عَلى البنيْنَ . مالكُم كَيفَ

(١) الانعام : ١٠٠ ، ١٠١ – (٢) الاسراء : ١١١ – (٣) الفرقان : ١ ، ٢ – (٤) الانبياء : ٢٦ –٢٩ –
(٥) النحل : ٥١ – ٥٧ (٦) الاسراء : ٣٩ – ٤٢

تحكمون . أفلا تذكرون . أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين . وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون سبحان الله عما يصفون . إلا عباد الله المخلصين . فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفاتنين . إلا من هو صال الجحيم)[1] وقال (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذاً قسمة ضيزى . إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) الى قوله : (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى)[2]

وقال تعالى: (وجعلوا له من عباده جزءاً)[3] أي نصيبا وبعضا ، أو جعلوا لله نصيبا من الولد ، تعالى الله عن ذلك ، فان الولد جزء من الوالد ، قال صلى الله عليه وسلم : (انما فاطمة بضعة مني)

وقوله : (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) قال الكلبي نزلت في الزنادقة ، قالوا : ان الله وابليس شريكان ، فالله خالق النور والناس والدواب والانعام ، وابليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب .

وأما قوله : (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) فقيل هو قولهم الملائكة بنات الله ، وسمى الملائكة جنا لاجتنانهم عن الابصار ، ومن الناس من قال حي من الملائكة يقال لهم الجن — ومنهم ابليس — وهم بنات الله ، وقال الكلبي : قالوا — لعنهم الله — بل بذور تخرج منها الملائكة ، وقوله : (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) قال الثعلبي : هم كفار العرب قالوا الملائكة والاصنام بنات الله ، واليهود قالوا عزير بن الله ، الى غير ذلك من المقالات التي سبوا بها فاطر السموات ، ولنا كتاب سميناه (آراء بني آدم في إله العالم) لم يكمل بعد ، وفيه ترى ماتكلم به الناس في الههم ومعبودهم عز اسمه .

---

(١) الصافات : ١٤٩ — ١٦٣ — (٢) النجم : ١٩ — ٢٧ (٣) الزخرف : ١٥

وأما ما كان من الامم مع أنبيائهم وما صدر منهم في شأنهم من الاذى والشتم والسخرية وغير ذلك مما حكاه الله في كتابه فذلك لايستوعبه المقام ، وما كان من العرب الجاهليين ــ ولا سيما قريش ــ في حق خاتمهم صلى الله عليه وسلم مما تشيب منه لمم المداد ، قد فصل في كتب السير والتواريخ •

وقد ذكر شيخ الاسلام في كتابه (الصارم المسلول) فصولا مهمة في ذلك ، فذكر قصة الاعمى الذي قتل أم ولد له كانت تشتم النبي صلى الله عليه وسلم ، وقصة كعب بن الاشرف اليهودي ، وقصة قتل العصماءبنت مروان من بنيخطمة التي هجت النبي صلى الله عليه وسلم ، وقصة قتل أبي عفك اليهودي لهجائه أيضا ، وقصة ابن أبي سرح وقصة ابن زنيم الديلمي لهجائه أيضا ، وحديث القينتين اللتين كانتا تغنيان بهجائه ، وحكاية قتل ابن خطل ، والامر بقتل من كان يهجوه ويؤذيه من شعراء قريش ، وقصة قتل أبي رافع اليهودي لأجل أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقصة هلاك المستهزئين ، وحديث الاعرابي الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم عند تقسيمه المغانم ما أحسنت ولا أجملت ، وغير ذلك مما آذوه به صلى الله عليه وسلم مما حكى في القرآن ، كرميه تارة بأنه شاعر ، وأخرى بأنه كاهن ، ومرة بأنه مجنون ، ونحوها مما مر بيانه ، فانتقم الله تعالى منهم ، وشفى الله بهم صدور المؤمنين •

وفي كتاب (أعلامالنبوة) للماوردي : فان قيل مجيء الانبياء موضوع لمصالح العالم وهم مأمورون بالرأفة والرحمة ومحمد جاء بالسيف وسفك الدماء وقتل النفوس فصار منافيا لما جاء به موسى وعيسى عليهما السلام فزال عن حكمهما في النبوة لمخالفتهما في السيرة ، قال : فالجواب أن السيف اذا كان لطلب الحق كان خيرا ، واللطف اذا كان مع اقرار الباطل كان شرا ، لأن الشرع موضوع لاقرار الفضائل الالهية ، والحقوق الدينية ، ولذلك جاء الشرع بالقتل والحدود ليستقر به الخير ، وينتفي به الشر ، لأن النفوس الاشرة لايكفها الا الرهبة ، فكان القهر لها أبلغ في انقيادها من الرغبة ، وكانت العرب أكثر الناس شرا وعتوا لكثرة عددهم وقوة شجاعتهم فلذلك كان السيف فيهم أعظم من اللطف وأنفع منه •

ويجاب أيضا : أنه لم يكن في جهاده بدعا من الرسل ، فقبله ابراهيم عليه السلام جاهد الملوك الاربعة الذين ساروا الى بلاد الجزيرة للغارة على أهلها ، وحاربهم حتى هزمهم بأحزابه وأتباعه ، وهذا يوشع بن نون قتل نيفا وثلاثين ملكا من ملوك

الشام ، وأباد من مدنها مالم يبق له آثر ، ولا من أهله صافر ، من غير أن يدعوهم الى دين أو يطلب منهم اتاوة ، : وساق الغنائم ، وغزا داود من بلاد الشام مالم يدع فيها رجلا ولا امرأة الا قتلهم وهو موجود في كتبهم ، ومحمد صلى الله عليه وسلم بدأ بالاستدعاء وحارب بعد الاباء ، ثم تكلم بكلام يتعلق بهذا المعنى الى أن قال : وانما تطلبت الملحدة بمثل هذا الاعتراض القدح في النبوات ، فانهم لم يعفوا نبيا من القدح في معجزته والطعن على سيرته ، حتى قال منهم في عصرنا ماطعن به على موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهوسلم بشعر نظمه فقال :

وفالق البحر لم يفلق جوانبه ... اذ ضاع فيه ضياع الحر في السفل
ومدع يدعى الاشياء خلقته ... ماباله زال والاشياء لم تزل
وآخر يدعى بالسيف حجته ... هل حجة السيف الا حجة البطل

قال فحضرت حين وردتهذه الأبيات الى بعض أهل العلم فأجاب عنها بقوله

قل للذي جاء بالتكذيب للرسل ... ورد معجزهم بالزيغ والدغل
وقال في ذاك أبياتا مزخرفة ... ليوقع الناس في شك من الملل
ضياع موسى دليل من أدلته ... من بعد ما صار فرق البحر كالجبل
ليعلم الناس أن الله فالقه ... وأن موسى ضعيف تاه في السبل
ومعجز الخلق في فلق المياه له ... وجعله البر مايحتاط بالحيل
وابن البتول فان الله نزهه ... عما ذكرت من الدعوى على الجمل
ما كان منه سوى طير يقدره ... طينا وربي أحياه ولم يزل
وقال اني باذن الله فاعله ... واذن ربي يحيى الخلق لاعملي
وصاحب السيف كان السيف حجته ... بعد البيان عن الاعجاز والمثل
وجاء مبتدئا بالنصح مجتهدا ... بمعجزات لما حارت أولو النحل
منها كتاب مبين نظمه عجب ... فيه من الغيب ماأوحى الى الرسل
فافحم الشعراء المفلقين به ... لما تحداهم بالرفق في مهل
وأنبع الماء عذبا من أنامله ... من غير ماصخرة كانت ولا وشل
وشارف القوم وافاه وكلمه ... وقال اني من قتلي على وجل
والذئب قد أخبر الراعي بمبعثه ... فجاء يشهد بالاسلام في عجل
والجذع حن اليه حين فارقه ... حنين ذات جؤار ساعة الهبل
وأخبر الناس عما في ضمائرهم ... مفصلا بجواب غير محتمل

ونبأ الروم عن نصر يكون لهـــا — من بعد سبعة أعوام على جـــدل
والفرس أخبرها عن قتل صاحبهـا — برويز اذ جاءه فيروز في شغـــل
وان تقصيت ماجـــاء النبي بـــه — طال النشيد ولم آمن من الملـــل

انتهى ماذكره الامام الماوردي ، وقصص الانبياء عليهم السلام فيما كابدوه من أممهم مذكورة في كتب التواريخ والتفاسير والسير بما لامزيد عليه .

فنقول للنبهاني : ألم يكن لصاحب (جلاء العينين) ووالده في ذلك أسوة حسنة وهل ينقصهم بغض الخصوم شيئا مما هم عليه من الشرف ؟ كلا .

من كان فوق محل الشمس رتبته — فليس يرفعه شيء ولايضعه

وقد علمت أيها النبهاني ماكان من عاقبة أعداء الله وخصوم رسوله صلى الله عليه وسلم كيف فرق جمعهم ، وشتت شملهم ، ومحا ذكرهم ، وأذل قدرهم ، فاذا كان الله ورسله عليهم السلام كما ذكرنا فليس من الغريب أن يصادف ورثة رسله ماصادفوا ، وماأحسن قول القائل :

قيـــل ان الاله ذو ولـــــــد — قيـــل ان الرســـول قد كهنـــا
مانجـــا الله والرسول معـــا — من لســـان الورى فكيف أنـــا

(ويقال للنبهاني أيضا) أما سمعت ماقال الروافض في أصحاب رســول الله صلى الله عليه وسلم وما طعنوا به فيهم هل لحق الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين مما قالوه وافتروه نقص ؟ كلا ، بل رفع الله تعالى درجتهـــم بسبب بغض الروافض لهم وطعنهم عليهم ، وزاد الروافض بذلك بعدا عن الله ومقتا ، وباؤا بغضب منه ، وهكذا أعداء أهل الحق في كل عصر .

واذا أراد الله نشر فضيلـــة — طويت أتاح لهـــا لسان حســـود

واعلم ان ماينقله الروافض عن الصحابة من المثالب نوعان :

(أحدهما) ماهو كذب ، اما كذب كله واما محرف قد دخلـــه من الزيـــادة والنقصان ماأخرجه الى الذم والطعن ، وأكثر المنقول من المطاعن الصريحة هو من هذا الباب يرويها الكذابون المعروفون بالكذب ، مثل أبي مخنف لوط بن يحيى ، ومثل هشام بن محمد بن السائب الكلبي، وأمثالهما من الكذابين .

(النوع الثاني) ماهو صدق ، وأكثر هذه الامور لهم فيها معاذير تخرجها عن أن تكون ذنوبا ، وتجعلها من موارد الاجتهاد التي ان أصاب المجتهد فيها فله أجران وان أخطأ فله أجر ، وعامة المنقول الثابت عن الخلفاء الراشدين من هذا الباب ، وما قدر

من هذه الامور ذنبا محققا فان ذلك لايقدح فيما علم من فضائلهم وسوابقهم وكونهم من أهل الجنة ، لأن الذنب المحقق يرتفع عقابه في الآخرة بأسباب متعددة ، ذكر ذلك الشيخ (في المنهاج) وبين الاسباب المزيلة للذنوب ، وذكر أصولا جامعة نافعة في هذا الباب ، وما ذكره صادق على أعداء علماء الدين وحفاظ الموحدين ، فان النبهاني وأضرابه الغلاة لم يزالوا يتكلمون بكلام موافق لكلام الروافض ، وهكذا الكلام في النواصب والخوارج وما كان منهم من التجاوز على أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ، ولم ينتقص به من قدر الامير شيء ، ولا لحقه وهن من ذلك ، وما تكلم به النبهاني وأضرابه في شأن خصومهم بالنسبة الى ماتكلم به أعداء الصحابة وخصومهم كنغبة من داماء ، وجرعة من بحر ماء ، فهو لايورث طعنا الا لجاهل منقوص ، ولا يؤثر في البنيان المرصوص .

(الوجه الثاني) أن يقال للنبهاني : ان ماكان من الطعن والبغض لمصنف (جلاء العينين) ووالده فهو لاشك من القبوريين الغلاة ، بسبب مالحقهم من هدم بنيانهم وابطال برهانهم ، لا لذنب صدر ولا لجناية لاتغفر ، بل اذا كان الذنب متعلقا بالله ورسوله فهو حق محض لله ، فيجب على الانسان أن يكون في هذا الباب قاصدا لوجه الله متبعا لرسوله ، ليكون عمله خالصا صوابا ، قال تعالى : (وقالُوا لنْ يَدْخُلَ الجنةَ إلَّا منْ كانَ هُوداً أَونصَارى تلْكَ أَمانيُّهم قلْ هَاتوا بُرْهَانكُم إنْ كُنْتُم صَادِقِيْنَ . بلَى منْ أَسْلم وجهَهُ للهِ وهُو مُحْسنٌ فَلَهُ أَجرهُ عِنْدَ ربِّهِ ولَا خَوفٌ عَلَيْهم ولا هُم يَحْزَنونَ)[1] وقال تعالى : (ومَن أَحسنُ دِيْناً مِّمن اسْلَمَ وجْهَهُ لله وهُو مُحسنٌ واتَّبعَ مِلَّة إبْراهِيمَ حَنيْفاً واتَّخذَ اللهُ إبرَاهِيم خَليلاً)[2] .

قال المفسرون وأهل اللغة معنى الآية : أخلص دينه وعمله لله ، وهو محسن في عمله ، وقال الفراء في قوله تعالى (فقل أسلمت وجهي لله) أخلصت عملي ، وهذا المعنى يدور عليه القرآن ، فان الله تعالى أمر أن لايعبد الا اياه ، وعبادته فعل ماأمر وترك ماحظر (والاول) هو اخلاص الدين والعمل لله (والثاني) هو الاحسان وهو العمل الصالح ، ولهذا كان عمر يقول في دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحا ،واجعله

(١) البقرة : ١١١ ، ١١٢ — (٢) النساء : ١٢٥

لوجهك خالصا ، ولا تجعل لأحد فيه شيئا ، وهذا هو الخالص الصواب ، كما قال الفضيل بن عياض في قوله (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) قال أخلصه وأصوبه قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال ان العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة ، والأمر بالسنة والنهي عن البدعة هما أمر بمعروف ونهي عن منكر ، وهو من أفضل الاعمال الصالحة ، فيجب أن يبتغي به وجه الله ، وأن يكون مطابقا للامر ، وفي الحديث : (من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فينبغي أن يكون عالما بما يأمر به ، عالما بما ينهى عنه ، رفيقا فيما يأمر به ، رفيقا فيما ينهى عنه ، حليما فيما يأمر به ، حليما فيما ينهى عنه) فالعلم قبل الامر ، والرفق مع الامر ، والحلم مع الامر ، فان لم يكن عالما لم يكن له أن يقفو ما ليس له به علم ، وان كان عالما ولم يكن رفيقا كان كالطبيب الذي لا رفق فيه فيغلظ على المريض فلا يقبل منه ، وكالمؤدب الغليظ الذي لا يقبل منه الولد ، وقد قال تعالى لموسى وهرون : (فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)[1] ثم اذا أمر ونهى فلا بد أن يؤذى في العادة ، فعليه أن يصبر ويحلم ، كما قال تعالى : (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)[2] وقد أمر الله نبيه بالصبر على أذى المشركين في غير موضع ، وهو امام الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر ، فان الانسان عليه أولا أن يكون أمره لله ، وقصده طاعة الله فيما أمر به ، وهو يحب صلاح المأمور أو اقامة الحجة عليه ، فان فعل ذلك لطلب الرياسة لنفسه ولطائفته وتنقيص غيره كان ذلك خطيئة لا يقبله الله ، وكذلك اذا فعل ذلك لطلب السمعة والرياء كان عمله حابطا ، ثم اذا رد عليه ذلك أو أو ذي أو نسب الى أنه مخطيء وغرضه فاسد طلبت نفسه الانتصار لنفسه ، وأتاه الشيطان فكان مبدأ عمله لله ثم صار له هوى يطلب به أن ينتصر على من آذاه ، وربما اعتدى على ذلك المؤذي ، وهكذا يصيب أصحاب المقالات المختلفة اذا كان كل منهم يعتقد أن الحق معه وأنه على السنة ، فان أكثرهم قد صار لهم في ذلك هوى أن ينتصر جاههم أو رياستهم وما نسب اليهم ، لا يقصدون أن تكون كلمة الله هي العليا ، وأن يكون

(١) طه : ٤٤ ـ (٢) لقمان : ١٧

الدين كله لله ، بل يغضبون على من خالفهم وان كان مجتهدا معذورا لايغضب الله عليه ، ويرضون عمن كان يوافقهم وان كان جاهلا سيء القصد ليس له علم ولا حسن قصد ، فيفضي هذا الى أن يحمدوا من لم يحمده الله ورسوله ، ويذموا من لم يذمه الله ورسوله ، وتصير موالاتهم ومعاداتهم على أهواء أنفسهم لا على دين الله ورسوله ، وهذا حال الكفار الذين لايطلبون الا أهواءهم ويقولون هذا صديقنا وهذا عدونا ، لاينظرون الى موالاة الله ورسوله ومعاداة الله ورسوله ، ومن هنا تنشأ الفتن بين الناس ، قال الله تعالى : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) [1] فاذا لم يكن الدين كله لله كانت فتنة ، اذا عرفت ذلك كله عرفت منشأ الذم والبغضاء من الغلاة لخصومهم في كل عصر ، فحينئذ يسقط كل ماذكره النبهاني في هذا الباب •

(الوجه الثالث) ــ وهو موضح للوجه الذي قبله وتتمة له ــ أن أصل الدين أن يكون الحب لله والبغض لله ، والموالاة لله ، والعبادة لله ، والمعاداة لله ، والاستعانة بالله ، والخوف من الله ، والرجاء له ، والاعطاء لله ، والمنع لله ، وهذا انما يكون بمتابعة رسول الله الذي أمره أمر الله ، ونهيه نهي الله ، ومعاداته معاداة الله ، وطاعته طاعة الله ، ومعصيته معصية الله ، وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه فلا يستحضر مالله ورسوله في ذلك و لايطلبه ، ولا يرضى لرضى الله ورسوله ، ولا يغضب لغضب الله ورسوله ، بل يرضى اذا حصل مايرضاه بهواه ، ويغضب اذا حصل مايغضب له بهواه ، ويكون ــ مع ذلك ــ معه شبهة دين أن الذي يرضى له ويغضب له هو السنة وهو الحق وهو الدين ، فاذا قدر أن الذي معه هو الحق المحض دين الاسلام ولم يكن قصده أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا بل قصد الحمية لنفسه وطائفته ، أو الرياء ليعظم هو ويثنى عليه ، أو فعل ذلك شجاعة وطبعا أو لغرض من الدنيا : لم يكن لله ولم يكن مجاهدا في سبيل الله ، فكيف اذا كان الذي يدعى الحق والسنة هو كنظيره معه حق وباطل ، وسنة وبدعة ، ومع خصمه حق وباطل ، وسنة وبدعة ، وهذا حال المختلفين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، وكفر بعضهم بعضا ، وفسق بعضهم بعضا ، ولهذا قال الله تعالى فيهم : (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ . وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا

---

(١) الانفال : ٣٩

اللهَ مُخْلصِيْن لهُ الدِّينَ حُنفاء ويُقيمُوا الصَّلاةَ ويُؤتُوا الزَّكاةَ وذلِكَ دِيْنُ القَيِّمَةُ)[1] وقال تعالى : (كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً)[2] يعني فاختلفوا كما في سورة يونس ، وكذلك في قراءة بعض الصحابة ، وهذا على قراءة الجمهور من الصحابة والتابعين أنهم كانوا على دين الاسلام ، وفي تفسير عطية عن ابن عباس أنهم كانوا على الكفر ، وهذا ليس بشيء ، وتفسير عطية عن ابن عباس ليس بثابت عن ابن عباس ، بل قد ثبت عنه أنه قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام ، وقد قال في سورة يونس: (وَما كانَ النّاسُ إلّا أُمَّةً واحدَةً فَاخْتَلَفُوا)[3] فذمهم على الاختلاف بعد أن كانوا على دين واحد فعلم أنه كان حقا .

والاختلاف في كتاب الله على وجهين ، (أحدهما) أن يكون كله مذموما كقوله : (وإنَّ الذِيْنَ اخْتَلَفُوا في الكِتَابِ لفِي شِقَاقٍ بعِيْدٍ)[4] (والثاني) أن يكون بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل ، كقوله : (تِلْكَ الرُّسُلُ فضَّلْنَا بعْضَهُمْ عَلى بعْضٍ مِنهُم مَن كَلَّمَ اللهُ ورَفَع بعضَهم دَرجاتٍ وآتينَا عِيسى ابْنَ مَريَمَ البيِّناتِ وأَيَّدْناهُ برُوحِ القُدُسِ ولَو شَاءَ اللهُ ما اقْتَتَلَ الَّذيْنَ مِنْ بعْدِهِم منْ بعْدِ ما جَاءتْهُم البيِّناتُ ولٰكنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم من آمَنَ ومِنهُمْ مَنْ كَفَرَ ولَو شَاءَ اللهُ ما اقْتَتَلُوا ولٰكنَّ اللهَ يفْعَلُ ما يُرِيْدُ)[4] لكن اذا أطلق الاختلاف فالجميع مذموم ، كقوله : (وَلا يزالونَ مُخْتَلفِيْنَ إلّا مَنْ رَحِمَ ربُّكَ ولِذَلكَ خَلقهُم)[5] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم (انما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم) ولهذا فسروا الاختلاف في هذا الموضع بأنه كله مذموم ، قال الفراء : في اختلافهم وجهان : (أحدهما) كفر بعضهم بكتاب بعض (والثاني) تبديل مابدلوا وهو كما قال ، فان المختلفين كل منهم يكون معه حق وباطل فيكفر بالحق الذي مع الآخر ويصدق بالباطل الذي معه، وهو تبديل مابدل ، فالاختلاف لابد أن يجمع

---

(١) البينة : ٤ ، ٥ ـ (٢) البقرة : ٢١٣ ـ (٣) يونس : ١٩ ـ (٤) البقرة : ١٧٦ ، ٢٥٣ ـ (٥) هود : ١١٨ ، ١١٩

النوعـين .

ولهذا ذكر كل من السلف أنواعا من هذا : (أحدها) الاختلاف في اليوم الذي يكون فيه الاجتماع ، فاليوم الذي أمروا به يوم الجمعة فعدلت عنه الطائفتان ، فهذه أخذت السبت ، وهذه أخذت الاحد ، وفي الصحيحـــين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له ، الناس لنـا فيه تبع اليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى) وهذا الحديث يطابق قونه تعالى: (فَهَدي اللهُ الَّذيْنَ آمَنُوا لِما اخْتَلَفُوا فيْهِ مِنَ الحقِّ بإذْنه)[1] وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا قام من الليل يصلي يقـــول : (اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلفوا فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم) .

والحديث الاول يبين أن الله تعالى هدى المؤمنين لغير ما كان فيه المختلفون ، فلا كانوا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ، وهو مما يبين أن الاختلاف كله مذموم .

(والنوع الثاني القبلة) فمنهم من يصلي الى المشرق ، ومنهـم من يصلي الى المغرب ، وكلاهما مذموم لم يشرعه الله تعالى.

(والثالث ابراهيم) قالت اليهود كان يهوديا ، وقالت النصارى كان نصرانيا ، وكلاهما كان من الاختلاف المذموم :(مَا كانَ ابراهِيْمُ يهُودِياً ولا نصْرانياً ولكِنْ كانَ حَنيفاً مُسْلِماً وما كانَ مِنَ المشْرِكيْنَ)[2]

(والرابع عيسى) جعلته اليهود لعبة ، وجعلته النصارى إلها ، تعالى الله عن افكهم علوا كبيرا .

(والخامس الكتب المنزلة) آمن هؤلاء ببعض ، وهؤلاء ببعض .

(والسادس الدين) أخذ هؤلاء بدين وهؤلاء بدين .

(ومن هذا الباب) قوله تعالى : (وَقالت اليهُود ليْست النَّصارَى على شَيءٍ، وقالت النَّصاري ليْسَتِ اليَهُود على شَيءٍ)[3] وقد روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه

---

(١) البقرة : ٢١٣ - (٢) آل عمران : ٦٦ - (٣) البقرة : ١١٣

قال : (اختصمت يهود المدينة ونصارى نجران عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت اليهود ليست النصارى على شيء ، ولايدخل الجنه الا من كان يهوديا ،وكفروا بالانجيل وعيسى ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ، وكفروا بالتوراة وموسى فأنزل الله تعالى هذه الآية والتي قبلها) •

واختلاف أهل البدع هو من هذا النمط ، فالخارجي يقول ليس الشيعي على شيء ، والشيعي يقول ليس الخارجي على شيء ، والقدري النافي يقول ليس المثبت على شيء ، والقدري الجبري المثبت يقول ليس النافي على شيء ، والوعيدية تقول ليست المرجئة على شيء ، والمرجئة تقول ليست الوعيدية على شيء ، بل ويوجد شيء من هذا بين أهل المذاهب الاصولية والفروعية المنتسبين الى السنة ، فالكلابي يقول ليس الكرامي على شيء ، والكرامي يقول ليس الكلابي على شيء ، والاشعري يقول ليس السالمي على شيء ، والسالمي يقول ليس الاشعري على شيء ، وصنف السالمي كأبي علي الاهوازي كتابا في مثالب الاشعري ، وصنف الاشعري كابن عساكر كتابا يناقض ذلك من كل وجه وذكر فيه مثالب السالمية ، وكذلك أهل المذاهب الاربعة وغيرها ، لاسيما وكثير منهم قد تلبس ببعض المقالات الاصولية وخلط هذا بهذا ، فالحنبلي والشافعي والمالكي يخلط بمذهب‌الشافعي ومالك وأحمد شيئا من أصول الاشعرية والسالمية وغير ذلك ويضيفه الى مذهب مالك والشافعي وأحمد ، وكذلك الحنفي يخلط بمذهب أبي حنيفة شيئا من أصول المعتزلة والكرامية والكلابية ويضيفه الى مذهب أبي حنيفة ، وهذا من جنس الرفض والتشيع ، لكنه تشيع في تفضيل بعض الطوائف والعلماء لاتشيع في تفضيل بعض الصحابة •

والواجب على كل مسلم يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله أن يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وحده لاشريك له ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، يدور معه على ذلك ويتبعه أين وجده ، ذكر ذلك كله الشيخ ، ثم انه أطال الكلام وأتى بما تلتذ به المسامع والافهام •

فما ذكره النبهاني ونقله عن دعواه من بعض المكيين هو من هذا القبيل ، فان كل أحد يتعصب لما تمذهب به ويتشيع لأقوال أئمته ومتبوعيه فلا شك أن الغلاة القبوريين هم أعدى الناس لمن تصدى لابطال أقوالهم ورد مذهبهم ،ومن المعلوم أن مصنف (جلاء العينين) وسلفه داروا على الحق وتبعوه ، حيث قصدهم توحيد الله بعبادته وحده لاشريك له ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يلتفتوا الى

ماخاض به الخصوم ، قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [1]

ومن ظن ممن يلاقي الحروب　　أن لايصاب فقد ظن عجزا

ومن كان قصده رضى الله عنه والفوز بثوابه والخلود بنعيمه لم يلتفت الى أقوال الناس ، فقد سبق لك ما كان من الفرق الاسلامية وغير الاسلامية ، بل وأتباع المذاهب بعضهم مع بعض ، ولولا ضيق المقام لذكرنا بعض أقاويلهم في مخالفيهم ، وما أحسن قول القائل :

فياليت ما بيني وبينك عامر　　وبيني وبين العالمين خراب

اذا صح منك الود فالكل هين　　وكل الذي فوق التراب تراب

(الوجه الرابع) أن النبهاني لم يصرح بما سمعه من الطعن والقدح حتى تتكلم عليه ، والظاهر أن ذلك مايقوله بعض غلاة العراقيين كابن جرجيس وأتباعه من أنه كان على طريقة الوهابيين ، وسبب ذلك أن ابن جرجيس هذا كان من غلاة الشافعية فاعترض على عبارة في كتاب (الطراز المذهب) لوالد مصنف جلاء العينين ، وافرد للاعتراض رسالة هذى فيها بما تمجه الاسماع مما يتعلق بالاستغاثة والاستعانة ودعاء غير الله ، فرآها صاحب جلاء العينين بعد وفاة والده ــ وهو اذ ذاك شاب ــ فكتب على تلك الرسالة ردا ألقمه به حجر السكوت ، وسماه (شقائق النعمان ، على شقاشق ابن سليمان) يعني به داود بن جرجيس بن سليمان العاني ، وكان من الجهل على جانب عظيم ، ومن التجاسر على التحريف والتدليس ، مايعجز عن مثله ابليس ، وقد فضحه الله تعالى بهذا الرد ، وقد قرظ عليه العلماء ، منهم الفاروقي شاعر عصره بقوله :

شقاشق ابن سليمان أصخت لها　　سمعا فاسمعني تعبيرها القججا

ومن شقائق نعمان عليه بها　　مامنه أظهر عن افصاحه البججا

(وقال أيضا)

مزامير داود النبي لنا بها　　غنى عن سماع في شقاشق داود

فدع عنك يانعمان رد اعتراضه　　ولا ترمه اذ جاء يعوي بجلمود

(وقال أيضا)

شقاشق لابن سليمان قد　　حكت غداة الطعن يوم الكفاح

كتيبة خضراء مهزومة　　شقائق النعمان فيها جراح

---

(1) الانعام : ٩١

وداود هذا هو الذي قال في كتابه صلح الاخوان أو غيره — بعد أن ذكر عدة شبه من شبهه على جواز التوسل بسائر الحيوانات واثبات الجاه الكثير لجملة من الجمادات — وأعظم من ذلك وأوضح دلالةماذكره الفقهاء في باب الاستسقاء للتوسل بها الى الله تعالى ، وقال أيضا : لايخفى عليك مما قدمنا أن التوسل بالجمادات والحيوانات قد وقع في الاحاديث الصحيحة والآثار الصريحة عن الصحابة والتابعين ، والسلف الصالحين ، مما يضيق عنه نطاق الحصر ، انتهى .

وكان لم يزل يهذي بمثل هذا الهذيان الى أن أهلكه الله ، ومصنف جلاء العينين كان سيفا في عنقه ، كم قد بحث معه فألقمه حجر السكوت ، فكان هذا الزائغ وشيعته لم يزالوا يذكرونه بالالقاب المنكرة،فيقولون أنه وهابي ومنكر ونحو ذلك.

وكان من المنقمين عليه الحاسدين له من أهل بلده آل جميل ، وهم كلهم جهلة لايميزون بين يمينهم وشمالهم ،لا دين لهم ، ولا يصلون ،ولا يصومون ، ولايزكون، ولا يؤدون فرضا من فرائض الله ، وكان دأبهم السعي على المسلمين ، والتزوير والافتراء والدعاوى الكاذبة ، ومع ذلك كانوا يتزيون بزي العلماء ، وهم أجهل الناس ، وكانوا من أعظم الخصوم لمصنف جلاء العينين ، وأشد الناس عداوة للذين آمنوا ، ولم يزالوا يسعون به الى الحكومة ، ويفترون عليه أمورا لم تخطر ببال أحد ، حتى ابادهم الله وأهلكهم ، ولم يبق منهم اليوم على ما أعلم الا بعض أطفال وسفهاء أحلام ، ولا شك أن الله تعالى ينتقم من أعداء رسله وورثة أنبيائه ، ولولا ضيق المقام لبسطنا الكلام في أحوال هذه العائلة الخبيثة ، فاني قد بلغني مفصل أحوالهم وما قال فيهم شعراء بلدهم ، وهم أيضا من أهل عانات ، ثم سكنوا بغداد ، وقبل سنين ادعوا النسب القادري فكذبهم أهل بغداد في مجلس انعقد في حضور والي البلد ، ورأوا يومئذ من الخزي ماهمأهل له ، ومن جملة من شهد عليهم بذلك مصنف جلاء العينين وغيره من أكابر البلد وعلمائها ، فعادوا كل من شهد عليهم .

والحاصل : أن أعداء أهل الحق كثيرون ، وأزهد الناس بالعالم جيرانه وأهل بيته ، كما ورد في ذلك الخبر الصحيح ، ولعل المكي الذي تكلم بما تكلم في شأن مصنف جلاء العينين ووالده كان ابن دحلان أو بعض شيعته ، فقد كان أيضا من أعظم الناس غلوا في دعاء المخلوقين ، وقد تكلم في كتابه على والد مصنف جلاء العينين في نقله عن القدوري في مسألة سؤال الله بأحد من خلقه وكذب نقله حسدا من عنده أو جهلا منه ، والا فمن له أدنى المام بالعلم يعرف صحة ذلك النقل ، وهو مذكور

في كتابه بعبارة صحيحة على ماسبق ، والعالم الجليل لايخلو من حاسد وخليل ، بل ترى كثيرا من الناس أخلاء ، وهم في الحقيقة خلاء ، وأجلاء وهم عند التأمل لاخلاء ولا ملاء ، يظهرون الصلاح والوداد ويخفون ـ أخفاهم الله تعالى ـ العداوة والفساد ، فلا فرج الله عنهم هما ، ولا حمد لهم بين الانام اسما ، و لاحسن لهم حالا ولا أصلح لهم مآلا •

كل خليل كنت خاللته ... لاترك الله له واضحة

كلهم أروغ من ثعلب ... ماأشبه الليلة بالبارحة

حسدوا فذموا ، ومن يغب عن أبصارهم غابوا ونموا ، ولا بدع فالكريم اذا غاب غيب ، واذا هاب هيب ، على أن في ذمهم شهادة بالكمال ، واثباتا لمزيد الفضل والافضال ، فزادهم الله تعالى حسدا ، وأماتهم كدرا ونكدا ، وماأحسن ماقال القائل :

أيها الحاسد المعد لذمي ... ذم ماشئت رب ذم كحمد

لافقدت الحسود مدة عمري ... ان فقد الحسود أخبث فقد

كيف لا أوثر الحسودبشكري ... وهو عنوان نعمة الله عندي

هذا وشرح الكلام لايسعه أمثال هذا المقام •

وبالجملة : ان من ذمه الله ورسوله فهو المذموم ، ومن رضيا عنه فهو المرضي ، ومن حكما بعدالته فهو العدل •

قال الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى في أثناء كلام له : ان الكفر والفسق أحكام شرعية ليس ذلك من الاحكام التي يستقل بها العقل ، فالكافر من جعله الله ورسوله كافرا ، والفاسق من جعله الله ورسوله فاسقا ، كما أن المؤمن والمسلم من جعله الله ورسوله مؤمنا ومسلما ، والعدل من جعله الله ورسوله عدلا ، والمعصوم الدم من جعله الله ورسوله معصوم الدم ، والسعيد في الآخرة من أخبر الله ورسوله عنه أنه سعيد في الآخرة ، والشقي فيها من أخبر الله ورسوله عنه أنه شقي فيها ، والواجب من الصلاة والصيام والصدقة والحج ماأوجبه الله ورسوله ، والمستحقون لميراث الميت من جعلهم الله ورسوله وارثين ، والذي يقتل حدا أو قصاصا من جعله الله ورسوله مباح الدم بذلك ، والمستحق للفيء والخمس من جعله الله ورسوله مستحقا لذلك ، والمستحق للموالاة والمعاداة من جعله الله ورسوله مستحقا للموالاة والمعاداة ، والحلال ماأحله الله ورسوله ، والحرام ماحرمه الله ورسوله ، والدين ماشرعه الله

ورسوله ، فهذه الأمور كلها ثابتة بالشرع ، انتهى •

فما قاله النبهاني ان صدق فيه فهو مما لايلتفت اليه ، وقد ذكرنا ماكان عليه مصنف جلاء العينين ووالده من صحة العقيدة ، وصدق النية ، واتباع السنن ، والعمل بما شرعه الله من الاحكام والسيرة السلفية ، والذب عن الدين ومخاصمة أعدائه ، والرد على خصومه ، وكل ذلك مما جعله الله ورسوله من أدلة النجاة وقبول العمل، والتزكية لديه ، والعدالة المرضية عنده ، وأقوى برهان على الرضوان والفوز بالجنان والنجاة من النيران ، ثم بعد هذا يقال وقد راعى القائل مقتضي الحال :

قل للذي يذكرني ... بين الملا من البشر

من قال خيرا يلقه ... ومن يقل شرا فشر

نعم ان النبهاني أبهم جرحه وأخفى قدحه ليهول به على السامعين ويعظمه على المطالعين ، ومن شدة الظهور الخفاء كما هو شأن الشمس في وسط السماء ، وقد قيل لابد للود والبغضاء من سبب كما هو المعلوم لذوي الأدب ، وذلك هو الذي لم يزل يكرره في كلامه ألا وهو الانتصار لابن تيمية في اختياراته وفي مسألة منعه من اعمال المطي لزيارة القبور الذي دل عليه الحديث الصحيح ، وهذاهو الذنب الذي لايغفر ، والعيب الذي لايستر عند النبهاني وأضرابه ، والقائل به مجروح، والمنتصر له مقدوح ، ومن المعلوم لدى المنصفين الواقفين على مقاصد الشرع المبين : أن ذلك لايستوجب الكلام الفظيع ، والقدح الشنيع ، بعد أن تبين أن هذه المسائل هي أعلى مقاصد الدين ، وأنها ثابتة بالنصوص القرآنية وسنة سيد المرسلين ، وقد علمت أن مدار المدح والقدح على الشريعة الغراء ،فنسأله سبحانه الرضوان والعفو يوم الجزاء•

(الوجه الخامس) قد صح في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (أنتم شهداء الله في الأرض) وقال : (يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار ، قالوا : بم يارسول الله ؟ قال : بالثناء الحسن والثناء السيء) فأخبر أن ذلك مما يعلم به أهل الجنة وأهل النار ، وكان أبو ثور يقول : أشهد أن أحمد بن حنبل في الجنة ويحتج بهذا ، وهذا على قول من يقول يشهد بالجنة لمن شهد له المؤمنون ، ولكل مؤمن جاء فيه نص ، ومنهم من لايشهد بالجنة لأحد الا للأنبياء ، وهذا قول محمد بن الحنفية والاوزاعي ، ومنهم من يقول يشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه نص ، وهذا قول كثير من أهل الحديث ، فهذه ثلاثة أقوال لهم في الشهادة بالجنة ، والكلام عليها مفصل في غير هذا الموضع ، والقول الاول هو المشهور ، وعليه قول

جماعة من الجمهور ، فاذا كان الثناء الحسن والحمد والمدح مما يعلم به عدالة من أثني عليه وحمد ومدح وأنذلك دليل علىالقبول عند الله والفوزبرضوان الله تعالى والفوز بجنانه علمنا بذلك أن مصنف (جلاء العينين) ووالده كانا ولله الحمد من خيار عباد الله الصالحين ، والعلماء العاملين ، فقد رأيت كتابا بمجلدين ضخمين ألفه بعض فقهاء شافعية بغداد في مناقب العلامة المفسر الشهير صاحب تفسير روح المعاني قدس الله روحه ، سماه مؤلفه (حديقة الورود في مدائح أبي الثناء شهاب الدين السيد محمود) ذكر فيه مؤلفه نسب المترجم وما حصلهمن الفنون والعلوم ، وماجرى له من المباحث والمناظرات مع علماء عصره ، وما وردته من دقائق المسائل ، وما أجاب به عنها ، وما ورد له من الكتب والرسائل من الاقطار والبلاد ، وما قالته الشعراء فيه من المدائح ، وما صادفه مدة عمره من التبجيل والاحترام من أهل السنة ومشاهير اتباع المذاهب ، وما رثاه به العلماء والادباء والشعراء المفلقون نظما ونثرا مما لم يصادف مثله في هذه العصور ، وذكر مشائخه ومن أخذ عنهم من المشائخ ومن أخذ عنه ، وما له من المصنفات وبدائع المحررات ، وما كان عليه من التقوى والورع والجد في العبادة والمجاهدة في الدين والذب عنه ، وغير ذلك مما يدل دلالة صريحة على أنه كان من أكابر العلماء العاملين ، وعباد الله الصالحين ، رحمه الله تعالى ورضي عنه وعن كافة علماء المسلمين •

وقد قرظ هذا الكتاب ــ أعني حديقة الورود ــ جمع من أدباء العصر ، ومشاهير الشعراء ، منهم الشاعر الشهير ، ومن عزله النظير ، الاديب الفاروقي عليه الرحمة بقوله :

وغادة قد أكسبت عادة	مهما تقل فانها صادقة
وانها مثل حذام بما	تقوله أولو النهى واثقة
فصيحة مستعذب لفظها	أشعارها جزيلة رائقة
أبو الثنا مفتي الورى كفوها	ليست لحبر غيره لائقة
وكم له من شيمة أصبحت	شمس السنا لحسنها عاشقة
وفيك يامحمود قد أرخوا	ترجمة أحبب بها فائقة

وقد أرخها أيضا الاديبالاريب الشيخ عبد الحميدالاطرقجي أحد شعراء العراقبقوله :

حديقة قد صدحت أطيارها	باسم الشريف السيد محمود

ومن يداه سفحت أنهارهـــا اذ هي قاموس الندى والجود
ومن نداه لقحت أشجارهـا وأثمرت باللؤلؤ المنضـــود
ومن شذاه نفحت أزهارهـا طيبا كأنفاس أريج العـــود
ومن سناه لمحت أقمارهـــا نورا سرى في سائر الوجـود
أنبتها مفتي الورى حتى غدت بالحسن تحكي جنة الخلـود
واقتبست من طبعه فارخـوا طبعـا زهت حديقـة الورود

وأرخها أيضا واحد الشعراءالاديب الفاضل السيد شهاب الموصلي عليه الرحمة بقوله :

طلعت في أوج مجد طلعـــة فارتني الشمس منهـا مغرمة
فتنتني والـذي صـــورها من جمـال منه روحي هائمة
عللتنـي بكـلام لـــين ينعش ويحيـــى رممـــه
وأشارت وسنـــاها ساطـع في شهاب الدين أسنى ترجمه
هـــي أم للاغاني صـــيرت نزهة الدنيا لديهـــا كالأمـة
روضة غناء يزهو زهرهـــا من معان في عـلاه عائمـــة
لربيـع الفضل فيهـا بهجـة تشـرح الصدر وتبري سقمه
أنبتت من كل مـدح رائـق قد سقـاه بالعطايا الدائمـة
حاتمي الجود وكفـا كفـــه راح يروي عن عطاه عكرمـة
حيدر والـــده ان ينتمـي أمـة الزهراء حقـا فاطمـة
خصــه الله بمعنـــى جاذب لقلوب الناس حبـــا ألزمـه
خف روحا ورجيح فضـــله لايوازي الشعر قدرا قيمـه
وافـق الغيب ســـدادا رأيه يحسم الخطب ويمحو ظلمـه
والفتاوى وجدت أحكامهـــا منذ شدت في عراه المحكمـة
قد أعـــز الدين علما وتقى وأذل الجهل حتى أعـــدمه
عالـم الدنيـــا اليـه يلتجي كـل علم حيث أضحى علمـه
والصدور العلما قد أرخـوا أصدر المحمود نعـم الترجمة

الى غير ذلك من تقاريظ أكابر العلماء وأفاضل العصر مما لو جمع لكان سفرا كبيرا .

ولما كان كتاب (حديقة الورود) مطنبامفصلا جدا : لخصه أجل تلامذة المترجم،

وأحد العلماء الاعلام ، شيخ الكل في الكل ، الشيخ عبد السلام ، أحد أكابر الشافعية في بغداد ، درس نحو خمسين سنة في المدرسة القادرية ، وكان جنيد زمانه صلاحا وعفة وديانة ، وعمر مايزيد على ثمانين سنة ، وله التصانيف المفيدة ، وسمى رحمه الله تعالى مالخصه (أريج الند والعود ، في ترجمة شيخنا العلامة أبي عبد الله شهاب الدين السيد محمود) ، وهذه خطبة كتابه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله المحمود بكل لسان ، الموصوف جل شأنه بفنون المحامد وصنوف الاحسان ، والصلاة والسلام على أكمل الخليقة ، ومن غدا شريف مدحه مجازا للوصول الى عين الحقيقة ، وعلى آله وأصحابه المترجمين بألسنة سيوفهم عن الحق المبين والمتأدبين بآدابه .

(أما بعد) فيقول العبد المفتقر الى خفي الالطاف ، مدرس الحضرة القادرية عبد السلام المنتمي الى الشواف ، ان كتاب (حديقة الورود ، في ترجمة حضرة شيخنا العلامة أبي الثناء شهاب الدين محمود) وان تضمن من أزهار مدائحه قدست روحه كل منقبة عالية ، وتكفل من نشر أريج فضائله بكل فضيلة غالية ، قد انتظمت في سلكه الدراري والدرر ، وأزهرت في رياضه ورود البلاغة ولا زهر الخمائل غب المطر ، من نظم رق وراق ، ونثر سما وفاق ، قد اعتصر من عناقيد الابداع ، فلم يتفق مثله في عصر ومصر من حقائق الاختراع ، فانتشى به عقل الدهر ، غير أنه لطوله لايقف الناظر فيه على مجمل خصال الممدوح ، ولا يتضح للواقف انموذج شمائل المترجم كمال الوضوح ، فأحببت أن أحرر شريف ترجمته على سياق التراجم المعتادة في كتب التواريخ على سبيل الاجمال ، وأكتب في هذه الأوراق ملخص فضائله على طرز بيان فضائل الفضلاء بموجز من المقال ، ولعمري أني لاأقدر أن أؤدي مايليق بشأنه ، والحري بعلو قدره وعرفانه .

ولو أن ثوبا حيك من نسج تسعة وعشرين حرفا في علاه قصير

فنظمت هذه العقود ، وقلت غير مكترث بحسود ، متوكلا على ذي الكرم والجود : ان شيخنا ــ طيب الله ثراه ، وجعل الفردوس الاعلى مستقره ومثواه ــ هو المولى الحبر ، ذو الفضل الممدود ، أبو الثناء شهاب الدين السيد محمود ، نجل الفاضل النقي ، والزاهد التقي ، الحليم الاواه ، مولانا السيد الحاج عبد الله ، نجل الطيبين الطاهرين بلا اشتباه ، حتى تنتهي سلسلة نسبه الشريف الى حضرة جده الاعلى سيد العالمين ، صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين الى يوم الدين ، وقد كان عليه الرحمة آية من آيات الله في جميع العلوم ، وأعجوبة من عجائب الدهر

في المنطوق منها والمفهوم ، علامة دهره في المعقول والمنقول ، وفهامة عصـــره في الفروع والاصول ، الى آخر ماقال من العبارات المزرية بعقود اللآلیء ، وهي رسالة مفيدة ، حوت على اختصارها المسائل الفريدة ، وقد ترجمه كثير من الفضلاء ، وأثنوا عليه بأحسن الثناء •

(وأما ولده مصنف جلاء العينين) رحمه الله تعالى ففضله مشهور ، وعلم علمه على كاهل الاعلام منشور ، وفي الاقطار والبلاد مذكور ، ومن المعلوم لدى كل أحد أن ماء الورد من الورد ، والشبل في المخبر مثل الاسد ، وقد ترجمه كثير من الافاضل والادباء وأثنوا عليه خيرا ، وبلغني أنه قد جمع ماورده من المدائح الشعرية والمقالات النثرية وما كان من ثناء أفاضل عصره من أهل مصره وغير مصره في مجموع مفرد ، ليس له ثان في العدد ، ولو كنت ظفرت به لنقلت منه ماتتحلى به المسامع والافواه ، وتلتذ بذكره الالسنة والشفاه ، وذلك ماعدا ماقرظوا به كتبه ، كتقاريظ الشقائق ، وجلاء العينين ، وغالية المواعظ ، والقول الفسيح في الرد على عبد المسيح مجلــدين ضخمين في الرد على النصارى ، وغير ذلك من المآثر الحميدة ، والمناقب السديدة ، مما يضيق عنه نطاق البيان ، وتكل من نقله البنان •

وبالجملة : فما كان من ثناء العدول الثقاة على مصنف جلاء العينين ووالـــده أوضح دليل على أنهما كانا من المقبولين عند الله تعالى ، وأنهما من العدول الاخيار وقد نفع الله بكتبهم الامة وانتشرت في جميع بلاد المسلمين ، كمـــا هو مشـــاهد ومحسوس لدى كل منصف ، مع أنا في عصر ركدت فيه ريح الفضـــل ، وانصرفت أفكار كثير من الناس عن الفضائل الدينية ، والكمالات الايمانية ، بل ان من أنصف اعترف أن ليس في العراق من بيوتات العلم غير بيتهم ، فابناء هذا البيت اليوم قــد قام على مآثرهم فسطاط الدين في العراق ، كما يدلك على ذلك ماانتشر من مصنفاتهم وآثارهم الجيدة ، نعم نرى في العراق كثيرا من أهل العمائم غير أنهم أعظم بلاء على الدين المبين ، وما أحسن ما قال القائل من أفاضل الاماثل :

لاتغرنك اللحى ولا الصور   تسعة أعشار من ترى بقر
في شجر الســرو منهم شبـــه   له رواء وما لــه ثمــر

وليس في بلدهم من يطاولهم في فن من الفنون ، وكلهم مكبون على تحصيـــل العلم ونشره ، معرضون عن الدنيا وزخارفها ، ليسوا بمنهمكين عليها كغـــيرهم من المنتسبين الى العلم •

(والحاصل) أنهم وأسلافهم ممن يفتخر بمثلهم أهل الانصاف من فضـــلاء المسلمـين •

(قال الفاروقي) رحمه الله تعالى في كتابه (العقود الجوهرية) بعد أن ذكـر ترجمة بعض أفاضلهم : اعلم أن هذا البيت لاتجري فيه سفن لـو أن وعسى وليت •

بيت من المجد شادوه على كرم وبالمجرة مدوه على طنب

أما والده ــ يعني المفسر الشهير صاحب روح المعاني رحمه الله ــ فكـان في الزوراء واسطة عقد الفضلاء والبلغاء ، وناديه مجتمع العلماء والادباء ، حيث كانت له صلابة في الدين ، وحزم في لين ، وايمان في يقين ، وحرص في علم ، وعمل في حلم ، وقصد في غنى ، وخشوع في عبادة ، وتجمل في فهم ، وصبر في شدة ، وطلب في حلال ونشاط في هدى ، وتحرج عن طمع ، قرأت عليه بعضا من المنطق والنحو وغير ذلك ومدحته بعدة قصائد ، هي لجيد الزمان قلائد ، وكاتبني وكاتبته لما كان في بلدةفروق مكاتبة الشائق الى المشوق ، وذكر جملة ذلك في رحلته (نشوة الشمول ، في السفر الى اسلامبول) وكتاب (نزهة الالباب ، في الذهاب والاقامة والاياب) وذكرها الغير في كتاب (حديقة الورود ، في مناقب أبي الثناء شهاب الدين محمود) فكم قطفت من شقائق نعمانها ، مايفوق من الرياض على ريحانها ، وأما أبناؤه فرحم الله الماضي منهم ووفق الباقين الى مافيه صلاح الدنيا والدين ، فانهم بحمد الله كالحلقة المفرغة لايدرى أين طرفاها ، وكعز الى السماء لاتميز منها فاها •

أيا لقيت تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

واني كنت معهم في حياة والدهم رحمه الله وبعد وفاته خلا وفيا ، وحبيبا صفيا، آنس بهم كما يأنسون بي ، وأستر بقربهم مثل مايسترون بقربي ، أستنشـــق من محادثتهم ريح الكمال ، وأقرط آذاني [1] بما تنشر أقلامهم من الدراري وشفاههم من الاقوال ، ولا زلت أجتمع بهم في بغداد ، وأفرج برؤيتهم غمتي في ذلك الناد ، كما أن المترجم اليوم في القسطنطينية تهزه لعلو المقام هاتيك الأريحية ولا برحت هنا أيضا أنزه ناظري بتلك الطلعة الزكية ، والغرة الهاشمية ، لازال قطبا تدور عليه رحى أفاضل العصر وأكابر كل مصر ، انتهى •

فهل سمعت أيها الشيخ النبهاني ماتلوناه عليك ، وقدمناه بين يديك ، فأين بقي قولك الباطل ، وكلامك العاطل ، فماأنت والعلماء الاخيار ، وما أنت والسادة الابرار،

---

(١) ــ القرط هو الشنف ونحوه يجعل فى الاذن ، أي أجعل ذلك عالقا فى أذنى كالقرط •

أما بلغك ما قيل رحم الله امرأ عرف قدره ، ولم يتعد طوره ؟ أما سمعت من حملة العلوم أن لحم العلماء مسموم ؟ فما جوابك اذا قال قائلهم :

الى حكم أشكو ظلامة معتد   هو العدل كم أردى ظلوما وجندلا

ثم ان الذي أوجب تطاول النبهاني انحطاط العالم الاسلامي ـ والامر لله تعالى ـ الى ماتراه العيون ، مما كنا نظن أن لايكون ، فتنة بعد فتنة بعد أخرى وبلاء بمثله مقرون ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه في تفسير قوله تعالى : (قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلى أَنْ يبعَثَ عَلَيكم عَذَاباً مِن فوقِكُم أو منْ تَحتِ أرْجُلِكُم أَو يَلبِسَكُم شِيعاً ويُذِيق بعْضَكُم بأْسِ بَعْضٍ انْظُرْ كيف نُصَرِّفُ الآياتِ لعَلَّهُم يَفقَهُون)[1] ان المراد (بفوقكم) أي الامراء السوء ، وبقوله (أو من تحت أرجلكم) أي من قبل سفلتكم فتطاول السفلة والسفهاء على أخيار العلماء هو من علامات غضب الله على عباده ، فلهذا كان من النبهاني ما كان ، مع ماهو عليه من الغرور والجهل ، وظنه أنه قد خلا له الجو .

واذا ماخلا الجبان بارض   طلب الطعن وحده والنزالا

وقد جرت عادة الله تعالى بمثل معاداة النبهاني وأضرابه لأهل الحق ، ولذلك أنزل الله تعالى في تسلية رسوله صلى الله عليه وسلم قوله عز اسمه : (وكَذَلكَ جَعَلْنا لِكلِّ نَبيٍّ عدُواً شَياطِينَ الإنس والجنِّ يُوحِي بعضُهم الى بعْضٍ زُخْرُفَ القَولِ غُرُوراً ولو شاء ربُّكَ ما فعَلوهُ فذَرهم وما يفتَرونَ)[1]

وقد شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من عداوة قريش وما بنوا عليه من الاقاويل والافاعيل ماهو مذكور في غير هذا الموضع ، وزخرف القول هو المزوق من الكلام الباطل ، والعدو بمعنى أعداء كما في قوله :

اذا أنا لم أنفع صديقي بوده   فان عدوي لم يضرهم بغضي

وتمام الكلام على الآية في موضعه .

وقد فرغنا من الكلام على ماقاله النبهاني في كتب الشيخ ابن تيمية ، وابن القيم، وابن عبد الهادي ، وجلاء العينين ، وما انتقد به عليها ، وبقي كلام طويل أعرضنا عن

(1) الانعام : ٦٥ ، ١١٢

ذكره في هذا المقام طلبا لاختصار الكلام •

ولو كان هذا موضع القول لاشتفى غليلي ولكن المقال مواضع

(ذكر من ألف في مناقب شيخ الاسلام ابن تيمية)

اعلم أن ما كان من النبهاني وغيره — ممن هو على شاكلته — من القدح والاعتراض على أولئك العلماء الأجلة — بسبب انتصارهم لشيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله ، وتوجيههم لكلامه ، ورد اعتراضات الخصوم والذب عنه — ظنا منهم أن المنتصرين للحق وأهله هم الذين عرفوهم من أناس معدودين ، وليس الامر كما زعموا ، بل ان في كل عصر أناسا يعرفون الحق وبه يعدلون ، تصديقا لقوله صلى الله عليه وسلم : (لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لايضرهم من خذلهم) • وهؤلاء هم حفظة الدين ، وخصوم المبتدعين ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة ، وأطلقوا عنان الفتنة ، فهم مختلفون فيالكتاب ، مخالفون للكتاب ، مجمعون على مفارقة الكتاب ، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم ، فنعوذ بالله من فتن المضلين •

(ثم ان) المنصفين من أهل العلم في كل عصر لايحيط بهم نطاق الحصر ، ونحن نذكر منهم بعض من وقفنا على قوله في شيخ الاسلام ، وما رآه فيه من الأحكام ، ليعلم المنصف أن مصنف جلاء العينين ليس بدعا فيما صنفه حتى صار غرضا لسهام ملام النبهاني وأمثاله من الغلاة ، وفتحوا عليه أفواها كأفواه الكلاب عند التثاؤب ، بل كم قد سبقه من امام همام ، وعلماء أعلام ، وهانحن ذاكرون بحوله تعالى منهم بعض الاكابر ، الذين تعقد عند ذكرهم الخناصر ، ليتحلى عاطل جيد هذا الكتاب بدرر مالهم من المناقب والمآثر ، وغرر ماكانوا عليه من المفاخر ، فنقول : (منهم قاضي القضاة نور الدين محمود بن أحمد العيني الحنفي رحمه الله) وهو الامام العالم العلامة الحافظ المتقن شيخ العصر ، أستاذ الدهر ، محدث زمانه ، المتفرد بالرواية والدراية ، حجة الله على المعاندين ، وآيته الكبرى على المبتدعين ، شرح صحيح الامام البخاري بشرح لم يسبق له نظير في شروحه ، مع ماكان له من المصنفات المفيدة ، والآثار السديدة ، تولى القضاء في مصر ، وبنى مدرسة عظيمة بالقرب من جامع الازهر ، وأنشأ فيها خزانة كتب وضع فيها كتبا نفيسة في فنون مختلفة ، وكان مشغولا بالتأليف والتدريس ، وكانت وفاته سنة اثنتين وستين وسبعمائة للهجرة ، وله

غير شرح البخاري شروح على بعض المتون المشهورة ، وله كتاب الطبقات في علماء الحنفية ، وهو كتاب جامع لاحوالهم وتراجمهم ، واختصر تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر ، وله أيضا تاريخ مفيد .

(وبالجملة) كان رحمه الله من مشاهير عصره علما وزهدا وورعا ، وممن له اليد الطولى في الفقه والحديث ، وقد أسف المسلمون على فقده ، وهو الحري بقول القائل :

وانى لمعذور اذا مابكيته ... بأكثر من قطر الغمام وأغزر
ولي عبرة لم ترق عند ادكاره ... كما لي فيه عبرة المتفكر
وقد كان لم يحجب سناه بحاجب ... ولم تستتر أضواؤه بمستر
فوا أسفي ان كان يغني تأسفي ... وواحذري ان كان يغني تحذري
وكنت أراني في النوائب صابرا ... فاعدمني صبري فأين تصبري
واني لمقبول المعاذير في الأسى ... ومن يعتذر مثلي الى الصبر يعذر

وكان رحمه الله تعالى محبا لعلماء الحديث وحفاظ السنة النبوية ، لاسيما لشيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن تيمية ، فقد أثنى عليه الثناء الجميل ، وذكر له مناقب جليلة ، وذب عنه ، وخاصم من بغى عليه واعتدى ، وله تقريظ بديع على كتاب (الرد الوافر) أثنى فيه على الشيخ بما يليق بجلالة قدره ، ويكفي دليلا على جلالة قدر الشيخ ، وأنه من أكابر أئمة أهل السنة : شهادة مثل هذا الامام ونظرائه من حفاظ الانام رحمة الله عليهم أجمعين ، وقد أثنى على الشيخ ابن تيمية ثناءلامزيد عليه ونوه بشأنه وأطنب في بيان مناقبه ،ومن ذلك ماكتبه على كتاب (الرد الوافر) في مناقب الشيخ أيضا ، وهذا نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) ان أضوع زهر تفتق عنه أكمام ألسن الانام وأبدع ذكر يعبق منه طيب الافهام حمد من أجرى ماء التبيان في عود اللسان لحمل ثمار المعاني والبيان ، وكشف ضياء الاوهام بشمس الحقائق ، وأبان مافي القلوب بأقمار الدقائق ، وأشرع أسنة الخواطر والأفكار ، بأيدي أنوار البصائر والأبصار ، الى ثغر العلوم والاخبار ، وأقلع عنا بنسائم ألطافه عجاجة الظنون والشكوك ووقع لنا مناشير الصدق في السلوك وأراحنا في ركوب أعناق الكلام من العثرات والملام ، وأزاحنا عن الوقوع في تيار العبرات انه ولي الانعام ، وعصمنا من سلوك مسالك لايؤمن فيها العثار ، ومحالات تستحيل فيها الاعذار ، والصلاة والسلام على من

ختمت به النبوة والرسالة ، المخلوق من طينة الفصاحة والبسالة ، الذي أصعدته ذروة الملكوت وأعطته الكتاب ، وقرنت بطاعته ومعصيته الثواب والعقاب ، محمد المصطفى المستأثر بالشفاعة يوم الحساب ، وعلى آله الذين استأسدوا في رياض نبوته وأصحابه الذين تقلدوا بسيوف النصرة في دعوته ، وعلى علماء الامة الذين استظهروا على صدمات الدهر وصولته ، بنزع ألسنتهم من تفويق سهام الطعن الى أغراض العصبية ، واقلاع أسنة خوضهم في أعراض الانفس الابية ، فلذلك صاروا أنجما للاهتداء ، وبدورا للاقتداء ، فأجدر بهم أن يفوه لهم بمشايخ الاسلام ، وأنصار شرائع خير الانام •

وبعد ، فان مؤلف كتاب (الرد الوافر) قد جد في هذا التصنيف البديع الزاهر ، وجلا بمنطقه السحار الرد على من تفوه بالاكفار على علماء الاسلام ، والأئمة الأساطين الأعلام ، الذين تبوؤا الدار في رياض النعيم ، واستنشقوا رياح الرحمة من رب كريم ، فمن طعن في واحد منهم أو نقل نقلا غير صحيح قيل عنهم فكأنما نفخ في الرماد ، أو اجتنى من خرط القتاد ، وكيف يحل لمن يتسم بالاسلام أو يتنسم نسمة من علم أو فهم أو افهام : أن يكفر من قلبه عن ذلك سليم بهيج ، واعتقاده لايكاد الى ذلك يهيج ، ولكن من لم يوازنه طبعه في القريض لم يزل يجد العذب مرا كالمريض ، والعائب لجهله شيئا يبدي صفحة معاداته ، ويتخبط خبط العشواء في محاوراته ، وليس هو الا كالجعل باشتمام الورد يموت حتف أنفه ، وكالخفاش يتأذى ببهور سنى الضوء لسوء بصره وضعفه ، وليس لهم سجية نقادة ، ولا روية وقادة ، وماهم الا صلقع بلقع سلقع ، والمكفر منهم صلمعة بن قلمعة ، وهيان بن بيان ، وهي ابن بي ، وضل بن ضل ، وضلال بن التلال ، ومن الشائع المستفيض أن الشيخ الامام العالم العلامة تقي الدين ابن تيمية من شم عرانين الأفاضل ، ومن جم براهين الاماثل ، الذي كان له من الادب مآدب تغذي الارواح ، ومن نخب الكلام له سلافة تهز الاعطاف المراح ، ومن يانع ثمار أفكار ذوي البراعة طبعه المعلق في الصناعة الخالية عن وصمة الفجاجة والبشاعة ، وهو الكاشف عن وجوه مخدرات المعاني حجاب نقابها ، والمفترع عرائس المباني بكشف جلبابها ، وهو الذاب عن الدين ظن الزنادقة والملحدين ، والناقد للمرويات عن النبي سيد المرسلين ، وللمأثورات عن الصحابة والتابعين ، فمن قال هو كافر فهو كافر حقيق ، ومن نسبه الى الزندقة فهو زنديق ، وكيف يكون ذلك وقد سارت تصانيفه الى الآفاق ، وليس فيها شيء مما يدل على

الزيغ والشقاق ، ولم يكن بحثه فيما صدر عنه في مسألة الزيارة والطلاق الا عن اجتهاد سائغ بالاتفاق ، والمجتهد في الحالين مأجور مثاب ، وليس فيه شيء مما يلام أو يعاب ، ولكن حملهم على ذلك حسدهم الظاهر ، وكيدهم الباهر ، وكفى للحاسد ذما آخر سورة الفلق ، في احتراقاته بالقلق ، ومن طعن في واحد ممن قضى نحبه منهم أو نقل غير ماصدر عنهم فكأنما أتى بالمحال ، واستحق به سوء النكال ، وهو الامام الفاضل البارع التقي النقي الورع الفارس في علمي الحديث والتفسير والفقه والاصولين بالتقرير والتحرير ، والسيف الصارم على المبتدعين ، والحبر القائم بأمور الدين ، والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ، ذو همة وشجاعة واقدام فيما يروع ويزجر ، كثير الذكر والصوم والصلاة والعبادة ، خشن العيش ذو القناعة من دون طلب الزيادة ، وكانت له المواعيد الحسنة السنية ، والاوقات الطيبة البهية ، مع كفه عن حطام الدنيا الدنية ، وله المصنفات المشهورة المقبولة ، والفتاوى القاطعة غير المعلولة ، وقد كتب على بعض مصنفاته قاضي القضاة كمال الدين ابن الزملكاني رحمه الله تعالى .

ماذا يقول الواصفون له ... وصفاته جلت عن الحصر
هو حجة لله قاهرة ... هو بيننا أعجوبة الدهر

ثم ذكر ترجمة ابن الزملكاني ، ثم قال : أفلا تكفي شهادة هذا الحبر لهذا الامام ، حيث أطلق عليه حجة الله في الاسلام ، ودعواه أن صفاته الحميدة لايمكن حصرها ويعجز الواصفون عن عدها وزبرها ، فاذا كان كذلك فكيف لايجوز اطلاق شيخ الاسلام عليه ، أو التوجه بذكره اليه ، وكيف يسوغ انكار المعاند الماكر الحاسد ، وليت شعري مامتمسك هذا المكابر المجازف الجاهل المجاهر وقد علم أن لفظة الشيخ لها معنيان لغوي واصطلاحي فمعناه اللغوي أن الشيخ من استبان فيه الكبر ، ومعناه الاصطلاحي من يصلح أن يتلمذ له ، وكلا المعنيين موجود في الامام المذكور ، ولا ريب أنه كان شيخا لجماعة من علماء الاسلام ، ولتلامذة من فقهاء الانام فاذا كان كذلك كيف لايطلق عليه شيخ الاسلام ، لأن من كان شيخ المسلمين يكون شيخا للاسلام ، وقد صرح باطلاق ذلك قضاة القضاة الاعلام ، والعلماء الافاضل أركان الاسلام ، وهم الذين ذكرهم مؤلف هذا الكتاب الرد الوافر في رسالته التي أبدع فيها بالوجه الظاهر ، وقد استغنينا بذكره عن اعادته ، فالواقف عليه يتأمله ، والناظر فيه يتقبله ، وأما ماجريات [1] هذا الامام فكثيرة في مجالس عديدة ، فلم

(١) هكذا عبارة الاصل

يظهر في ذلك لمعانديه فيما ادعوا به عليه برهان غير تنكيدات رسخت في القلوب من ثمرات الشنآن ، وقصارى ذلك أنه حبس وقيد ، وقد حبس الامام أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه ومات في الحبس ، فهل قال أحد من العلماء أنه حبس حقا ، وحبس الامام أحمد رضي الله عنه وقيد لماقال قولا صدقا ،والامام مالك رضي الله عنه ضرب ضربا شديدا مؤلما بالسياط ، والامام الشافعي رضي الله عنه حمل من اليمن الى بغداد بالقيد والاحتياط ، وليس ببدع أن يجري على هذا الامام ماجرى على هؤلاء الأئمة الأعلام ، وكان آخرحبسه بقلعةدمشق ، وتوفي فيها في الثلث الأخيرمن ليلة الاثنين المسفر صباحها عن عشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ، وكان مرضه سبعة عشر يوما ، وصلى عليه بباب القلعة الشيخ محمد بن تمام ، ثم صلوا عليه في الجامع الاموي ، ثم دفن في مقابر الصوفية الى جنب أخيه الشيخ شرف الدين ، ومولده في عاشر ربيع الاول سنة احدى وستين وستمائة بحران ، وقدم مع والده الى دمشق ، وقد امتلأ الجامع وقت الصلاة عليه أكثر من يوم الجمعة ، وحضر الامراء والحجاب ، وحملوه على رؤوسهم ، وخرجوا به من باب الفرج ، وامتد الخلق الى مقابر الصوفية وختموا على قبره ختمات ، وبات أصحابه على قبره ليالي عديدة ، ثم ذكر شعر بعض من رثاه ، ونبذة من شعر بعض من مدحه وأثنى عليه ، كالامام زين الدين عمر بن الوردي ، وأثير الدين أبي حيان ، وذكر ترجمة ابن الوردي ، وبعد أن أورد شعر أبي حيان قال :

ومثل الامام أبي حيان اذا شهد له بأنه ناصر الشريعة ، ومظهر الحق ، ومخمد الشر ، وأنه الامام الذي كانوا ينتظرون مجيئه : فكفاه مدحا وتزكية ، فاذا كان هذا الامام بهذا الوصف بشهادة هذا الامام وبشهادة غيره من العلماء الكبار فماذا يترتب على من يطلق عليه الكفر ، أو ينبزه بالزندقة ، ولا يصدر هذا الا عن جاهل ، أو مجنون كامل ، فالاول يعزر بغاية التعزير ، ويشهر في المجالس بغاية التشهير ، بل يؤبد في الحبس الى أن يحدث التوبة ، أو يرجع عن ذلك بأن يحسن الأوبة ، والثاني يداوى بالسلاسل والأصفاد ، والضرب الشديد بلا أعداد ، وهذا كله من فساد هذا الزمان ، وتوانى ولاة الامور عن اظهار العدل والاحسان ، وقطع دابر المفسدين ، واستئصال شأفة المدبرين، حيث يتعدى جاهل— يزعم أنه عالم— يثلب أعراض المسلمين، ولا سيما الذين مضوا الى الحق بالحق وبه كانوا عاملين ، وهذا الامام مع جلالة قدره في العلوم نقلت عنه على لسان جم غفير من الناس كرامات ظهرت منه بلا التباس ،

وأجوبة قاطعة عند السؤال منه من المعضلات ، من غير توقف منه بحالة من الحالات

(ومن جملة) ماسئل عنه ـ وهو على كرسيه يعظ الناس ، والمجلس غـاص بأهله : مارأيكم في رجل يقول ليس الا الله ، ويقول الله في كل مكان ، هل هو كفر أم ايمـان ؟

(فأجاب على الفور) من قال ان الله بذاته في كل مكان فهو مخالف للكتاب والسنة واجماع المسلمين ، بل هو مخالف للملل الثلاث ، بل الخالق سبحانه وتعالى بائن من المخلوقات ، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، بل هو الغني عنها البائن بنفسه منها ، وقد اتفق الأئمة من الصحابة والتابعين والأئمة الاربعة وسائر أئمة الدين أن قوله تعالى : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)[1] ليس معناه أنه مختلط بالمخلوقات وحال فيها ، ولا أنه بذاته في كل مكان ، بل هو سبحانه وتعالى مع العبد أينما كان ، يسمع كلامه ويرى أفعاله ، ويعلم سره وخفاه ، رقيب عليهم ، مهيمن عليهم ، بل السموات والارض وما بينهما كل ذلك مخلوق لله ليس الله بحال في شيء منه سبحانه ،(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[2] لا في ذاته ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، بل يوصف الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ، من غير تكييف ولا تمثيل ، ولا تحريف ولا تعطيل ، فلا تمثل صفاته بصفات خلقه ، ومذهب السلف اثبات بلا تشبيه ، وتنزيه بلا تعطيل ، وقد سئل الامام مالك رضي الله تعالى عنه عن قوله تعالى (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)[3] فقال الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

فهذا الامام كما رأيت عقيدته وكاشفت سريرته ، فمن كان على هذه العقيدة كيف ينسب الى الحلول والاتحاد والتجسيم ، أو مايذهب اليه أهل الالحاد ، أعاذنا الله واياكم من الزيغ والضلال والفساد ، وهدانا الى سبيل الخير والرشاد ، انه على ذلك قدير ، وبالاجابة جدير ، حرره منمقا فقير رحمة ربه العلي الغني ، أبو محمد محمود بن أحمد العيني عامله الله بلطفه الخفي والجلي ، بتاريخ الثامن عشر من شهر ربيع الاول سنة خمس وثلاثين وثمانمائة بالقاهرة المحروسة .

ومنهم الامام الحافظ محمد ابن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقـي الشافعي

---

(١) الحديد : ٤ ـ (٢) الشورى : ١١ ـ (٣) طه : ٥

رحمه الله ، وكان رحمه الله تعالى من أعلم العلماء العاملين ، والحفاظ المتقنين ، قد بلغ بشامخ فضله عنان السماء ،وأفاد المستفيدين فوائد جلت عن الاحصاء ، وكان ذا رسوخ وتمكين ، واعتقاد رصين ، ذا أخلاق سنية ، وصفات مرضية ، وكـان له ذهن وقاد ، وفطنة أدرك بها مرتبة الاجتهاد ، وعلم ماخفي على غيره من العباد ، اليه تنتهي الحقائق ، وعنه تروى الدقائق ، له التصانيف المفيدة ، والكتب الفريدة ، وكان ذا تواضع وانصاف ، وديانة وعفاف ، يحب الانتصار للحق وأهله ، ويذعن لما يدل عليه البرهان من غير قدحه ولا تعليله ، وقد أثنوا عليه بما يليق بمقـامه الرفيـع ، وترجمه جماعة من الافاضل واتفق على فضله الجميع ، وممن ترجمه العلامة الحافظ قطب الدين الخضيري الدمشقي عليه الرحمة في كتابه الذي ألفه في طبقات الشافعية، وذكر نبذة من أوصافه الحميدة ، ومزاياه المرضية ، وكان من الموالين لشيخ الاسلام ، والعارفين بقدر ذلك الامام ، لم يزل يجادل عنه خصومه ، ويذب عنه اعتراضاتهـم الموهومة ، وقد ألف بعض الزائغين السالكين مسلك السبكي من غلاة الشافعيـة الناكبين عن المحجة البيضاء والسنة النبوية كتابا ذكر فيه تكفير من يطـلق على ابن تيمية شيخ الاسلام بسبب منعه الاستغاثة بغير الله ، وقوله بما اختاره من الاحكام ، فرد عليه الحافظ الدمشقي هذا ردا شفى به صدور المؤمنين ، وذكر في رده من مناقب الشيخ وعلومه ومن أثنى عليه من أكابر الأئمة ماتقر به عيون المسلمين ، وسمى كتابه هذا (الرد الوافر على من زعم أن من أطلق على ابن تيمية شيخ الاسـلام كافر) والكتاب مفصل ، وفيه مسائل مهمة ، قرظه مشاهير علماء عصر مصنفه ، وأكابر أئمة المذاهب الاربعة ، كالحافظ ابن حجر العسقلاني ، وقاضي القضاة الامام نور الدين العيني ، وقد سبق ذكر ماقالاه ، والامام البلقيني الشافعي ، والامام قاضي القضـاة عبد الرحمن التفهني الحنفي ، والامام شمس الدين محمد بن أحمد البساطي المالكي وغيرهم ، وسنذكر تقاريظهم ان شاء الله ، والكتاب نادر الوجود ، ومنه نسخة جيدة في خزانة كتب ولي الدين في جامع السلطان بايزيد في دار السلطنة العثمانية المحروسة موسومة بعدد تسع وأربعين وأربعمائة وألف ، نسأله تعالى أن يوفق نشر هذا الكتاب وينعم على المسلمين بمعرفة فوائده .

ماقاله الامام العلامة قاضي القضاةشيخ الاسلام صالح بن عمر البلقيني الشافعي عليه الرحمة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، اللهم صل

على سيدنا محمد سيد السادات ، من أهل الارضين والسموات ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، ويسر والطف واختم بخير آمين •

وبعد ، فقد وقفت على هذا التصنيف الجامع ، والمنتقى البديع المطرب للمسامع ، وعملت بشروط الواقفين من استيفاء النظر ، فوجدته عقدا منظما بالدرر ، يفوق عقود الجمان ، ويزرى بقلائد العقيان ، ويضوع مسك الثناء على جامعه مدى الزمان ، وقال لسان الحال في حقه ليس الخبر كالعيان ، وكيف لا وهو مشتمل على مناقب عالم زمانه ، والفائق على أقرانه ، والذاب عن شريعة المصطفى باللسان والقلم ، والمناضل عن الدين الحنيفي وكم أبدى الحكم ، صاحب المصنفات المشهورة ، والمؤلفات المأثورة الناطقة بالرد على أهل البدع والالحاد ، القائلين بالحلول والاتحاد ، ومن هذا شأنه كيف لايلقب بشيخ الاسلام ، وينوه بذكره بين العلماء الاعلام ، ولا عبرة بمن يرميه بما ليس فيه ، أو ينسبه بمجرد الأهواء لقول غير وجيه ، فلم يضره قول الحاسد ، والباغي والطاعن والجاحد •

وما ضر نور الشمس ان كان ناظرا اليها عيون لم تزل دهرها غمضا

غير أن الحسد يحمل صاحبه على اتباع هواه ، وان يتكلم فيمن يحسده بما يلقاه ، لله در الحسد ماأعدله ، بدأ بصاحبه فقتله ، وما أحق هذا العالم بقول القائل :

حسدوا الفتى اذ لم ينالوا علمه فالقوم أعداء له وخصوم

وقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : (اياكم والحسد فان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، أو قال العشب) أعاذنا الله من حسد يسد باب الانصاف ، ويصد عن جميل الاوصاف ، وكيف يجوز أن يكفر من لقب هذا العالم بشيخ الاسلام ومذهبنا أن من كفر أخاه المسلم بغير تأويل فقد كفر ، لأنه سمى الاسلام كفرا •

ولقد افتخر قاضي القضاة تاج الدين ابن السبكي في ترجمة أبيه الشيخ تقي الدين السبكي في ثناء الأئمة عليه بأن الحافظ المزي لم يكتب بخطه لفظة شيخ الاسلام الا لابيه وللشيخ تقي الدين ابن تيمية وللشيخ شمس الدين ابن أبي عمر ، فلولا أن ابن تيمية في غاية العلو في العلم والعمل ماقرن ابن السبكي أباه معه في هذه المنقبة التي نقلها ولو كان ابن تيمية مبتدعا أو زنديقا مارضي أن يكون أباه قرينا له •

نعم نسب الشيخ تقي الدين الى أشياء أنكرها عليه معاصروه ، وانتصب للرد عليه الشيخ تقي الدين السبكي في مسألتي الزيارة والطلاق ، وأفرد كلا منهما

بتصنيف ، وليس في ذلك مايقتضي كفره ولازندقته أصلا ، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك الا صاحب هذا القبر ، يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، والسعيد من عدت غلطاته ، وانحصرت سقطاته ، ثم ان الظن بالشيخ تقي الدين أنه لم يصدر منه ذلك تهورا وعدوانا ، حاش لله ، بل لعله لرأى رآه وأقام عليه برهانا ، ولم نقف الى الآن بعد الفحص والتتبع على شيءمن كلامه يقتضي كفره ولا زندقته ، وانما نقف على رده على أهل البدع والاهواء وغير ذلك مما يظن به براءة الرجل وعلو مرتبته في العلم والدين ، وتوقير العلماء والكبار وأهل الفضل متعين ، قال الله تعالى :

(قُلْ هَل يستَوي الَّذِين يعْلَمُـــونَ والَّذينَ لا يَعلَمُـــون) [1]

وصـــح أن رســـول الله صلى الله عليــه وســـلم قـــال : (ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويعرف شرف كبيرنا) وفي رواية (حق كبيرنا) وكيف يجوز أن يقدم على رمي عالم بالفسق أو الكفر ولم يكن فيه ذلك ، وقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لايرمي رجل رجلا بالفسق أو الكفر الا ارتدت عليه ان لم يكن صاحبه كذلك) ، ثم كيف يجوز الاقدام على سب الاموات بغير حق وهـــو محرم ، فقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لاتسبوا الأموات فانهم قد أفضوا الى ماقدموا) وكيف يجوز أذى المؤمن بغير حق والله تعالى يقـــول : (والَّذينَ يُوءْذُونَ المؤْمنين والمؤْمنات بغَير ما اكْتَسَبُوا فَقد احْتَمَلوا بُهْتَاناً وإثماً مُبيناً) [2] وصح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر مانهى الله عنه)

فالواجب على من أقدم على رمي هذا العالم بما ليس فيـــه الرجـــوع الى الله تعالى ، والاقلاع عما صدر منه ، ليحوز الاجر الجزيل بالقصد الجميل ، وان اطلع على أمر يحتمل التأويل فلا يقطع بمايخالف ذلك التأويل بغير دليل ، وان صح عنده أمر جازم عنه يقتضي انكاره فينكره قاصدا للنصيحة ، ولا يهضم مقام الرجل مـــع شهرته بالعلم والفضل والتصانيف والفتاوى التي سارت بها الركبان ، والله تعـــالى يحفظنا من الخطأ والخطل ، ويحمينامن الزيغ والزلل ، والحمد لله رب العـــالمين ، وكتب في اليوم الموافق ليوم ولادة النبيصلى الله عليه وسلم ، يوم الاثنين ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة ٨٣٥ .

---

(١) الزمر : ٩ - (٢) الاحزاب : ٥٨

ومنهم الامام العلامة قاضي القضاة عبد الرحمن التفهني الحنفي عليه الرحمة ، كان علامة عصره ، وفهامة مصره ، أتقن علوم الدين ، وعلم حقائق اليقين ، حتى كان تذكرة الامام ، وعليه مدار أصحاب مذهبه في الاحكام ، له التصانيف التي لم يسبقه اليها غيره من الافاضل ، والفوائد التي هي واسطة عقد الفضائل ، وكان على منهج السلف الصالح ، ويعد مخالفتهم من أفضح الفضائح ، ولم يزل يثني على المحدثين ، ويصوب آراءهم في عقائد الدين ، وأفرد المصنفون له تراجم مفصلة ، وأثنوا عليه بعباراتهم المطولة ، وذكروا أنه كتب في مناقب شيخ الاسلام مايليق بشأنه من الكلام ، وقد قرظ كتاب الرد الوافر ، وذكر من مناقبه نحو ماذكره الاكابر ، وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي جعل قلوب العلماء كنوز لطائف الحكم ، وألسنتهم مكفوفة عما فيه نقص أو جرح أو ألم ، وأسماعهم عن سماع قول الفحش في صمم ، وخصهم بين الانام بجلائل النعم ، وجعلهم محفوظين عن الخوض في الاعراض ، متجانبين عما يؤدي الى ظهور الاغراض ، وصلى الله على سيدنا محمد المبعوث للعرب والعجم ، وعلى آله وأصحابه ذوي الكرم والهمم .

(وبعد) فان صاحب هذا التأليف قد أمعن النظر وأجاد ، وبين وأتقن وأفاد فيما هو المقصود والمراد ، من الرد على من أكفر علماء الاسلام ، وهم الأئمة الاعلام ، بنسبتهم الشيخ العالم الناسك تقي الدين ابن تيمية الى كونه شيخ الاسلام .

فنقول وبالله التوفيق : ان الشيخ تقي الدين ابن تيمية كان على مانقل الينا من الذين عاشروه وما اطلعنا عليه من كلام تلميذه الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية الذي سارت تصانيفه في الآفاق كان عالما متقنا متفننا ، متقللا من الدنيا معرضا عنها ، متمكنا من اقامة الدليل على الخصوم ، حافظا للسنة عارفا بطريقها ، عالما بالأصلين أصول الدين وأصول الفقه ، قادرا على الاستنباط لاستخراج المعاني ، لايلويه في الحق لومة لائم ، قائم على أهل البدع المجسمة ، والحلولية والمعتزلة ، والروافض وغيرهم ، والانسان اذا لم يخالط ولم يعاشر يستدل على أحواله وأوصافه بآثاره ، الا أن مااتصف به تلميذه ابن القيم من العلم يكفي ذلك دليلا على ماقلناه ، وما نقل الينا مما اجتمع في جنازته من الخلائق التي لاتحصى حتى شبهت جنازته بجنازة الامام أحمد رضي الله عنه عبرة لمن اعتبر ، وما نقل الينا من تسلطه على الجان المردة عبرة أيضا .

قال تلميذه ابن قيم الجوزية ـ عند كلامه على الصرع في (الطب النبوي)

واختياره أن الصرع على قسمين : صرع يتعلق بالاخلاط ، وصرع يتعلق بالارواح الخبيثة ــ كان شيخنا ابن تيمية يأتي الى المصروع ويتكلم في أذنه بكلمات فيخرج ولا يعود اليه بعد ذلك ، وحكايته مع الذي اختطفت زوجته معروفة ، ومع الذي كان يرتفع الى السقف معروفة أيضا ، فمن كان متصفا بهذه الأوصاف كيف لايلقب بشيخ الاسلام بأي معنى أريد منه ، وكيف يحل أن ينسب مثل هذا الشيخ أو واحد من المشايخ المذكورين في هذا التأليف أو واحد من المتصفين بالاسلام ــ ولو في الظاهر ــ الى الكفر ، مع ماعليه أهل السنة والجماعة من أن مقترف الكبيرة عمدا لايخرج من الايمان ، ولا يدخل في الكفر ، وأنه ان مات ولم يتب كان في مشيئة الله تعالى ان شاء عذبه بقدر ذنبه وان شاء غفر له وعفا عنه ، وأنه لايجوز تكفير أحد من أهل القبلة ، وذلك أعم من أن يكون سنيا أو بدعيا أو معتزليا أو شيعيا أو من الخوارج ، وهو المروي عن أبي حنيفة ، فانه سئل عن طائفة من الخوارج معينين ، فقال : هم أخبث الخوارج ، فقيل هل تكفرهم ؟ فقال لا ، وهكذا المروي عن الشافعي والاشعري وأبي بكر الرازي رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، وهذه المسألة مشهورة في موضعها .

ومما يدل على هذا ماقاله الفقهاء حيث قالوا وتقبل شهادة أهل الاهواء الا الخطابية ، وانما تقبل شهادتهم لاسلامهم ، واستثنوا الخطابية لأنهم يعتقدون جواز الكذب في الشهادة ، فاذا كان الحكم فيما ذكرناه هكذا فكيف بمسلم متصف بالاوصاف الحسنة المتقدمة .

وقد أخبرني من حضر مجلس هذا المكفر فقال ان ابن تيمية كافر مجوسي ، النصارى واليهود خير منه ، فان النصارى واليهود لهم كتاب وابن تيمية لاكتاب له .

فنعوذ بالله من هذه النزغة الشيطانية المفظعة القبيحة ، مع أنه لم ينقل عن ابن تيمية كلام يقتضي كفرا ولا فسقا ولا مايشينه في دينه ، وقد كتبت في زمنه محاضر لجماعة من العلماء العدول اطلعنا عليها بأنه لم يقع منه شيء مما يشينه في دينه ، ووصفوه في تلك المحاضر بأعظم مما قلناه من أوصافه المتقدمة ، وانما قام عليه بعض العلماء في مسألتي الزيارة والطلاق ، وقضية من قام عليه مشهورة ، والمسألتان المذكورتان ليستا من أصول الاديان ، وانما هما من أصول الشريعة التي أجمع العلماء على أن المخطيء فيها مجتهد مثاب لايكفر ولا يفسق ، والشيخ كان يتكلم في المسألتين بطريق الاجتهاد ، وقد ناظر من أنكر عليه فيهما مناظرة مشهورة بادلة يحتاج

من عارضه فيها الى التأويل ، وهذا ليس بعيب ، فان المجتهد تارة يخطيء وتارة يصيب ، وهو مثاب على اجتهاده وان كان مخطئا ، ولو اشتغل هذا المكفر بالله ،وبما يجب عليهمن طاعته ،وصان لسانهومنع نفسه من الاشتغال بمالايعنيه،وحمل أحوال المسلمين على الصلاح ، واقتدى بقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم (وهل يكب الناس في النار على وجوههم الا حصائد ألسنتهم) وبقول عيسى عليه السلام حين عارضه خنزير في بعض الطرق ، فقال : (اذهب يامبارك ، فقيل له في ذلك فقال اني أعود لساني الخير) وبقول عمر رضي الله عنه : لاتظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءا وأنت تجد لها من الخير محملا . (١)

واعلم أنه اذا نقل الينا كلام أحد وثبت أنه كلامه بالطريق الصحيح الشرعي ونظرنا في ذلك الكلام فلم نجد له وجه صحة وانما وجدناه مصادما الشريعة من كل وجه : فان كان المنقول عنه ذلك الكلام ميتا ولم يثبت عندنا رجوعه نسبناه الى مايقتضي كلامه ، وان كان حيا قمنا عليه ، فان تاب والا رتبنا عليه ماتقتضي الشريعة المحمدية ــ لما أكفر واحدا من أهل القبلة كما فيهذه القضية ، وكماوقع له مثلذلكفي حق شخص ممن اجتمع الناس على علمه وخيره ودينه وتبحره في العلوم ، وهوالشيخ شمس الدين البساطي قاضي قضاة المالكية ، في الديار المصرية ، فنسأل الله تعالى أن يتوب عليه ، وأن يصون لسانه عن الزلل ، وأن يجعل مانحن فيه خالصا لله تعالى ، وأن يدخلنا الجنة بمنه وكرمه ، قال ذلك عبد الرحمن التفهني عامله الله بلطفه الخفي في رابع عشر ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وثمانمائة .

(ومنهم الامام العلامة قاضي القضاة شمس الدين محمد بن أحمد البساطي المالكي عليه الرحمة) وكان من أكابر رجال المالكية وفقائهم ، وأجل مشايخهم وعلمائهم ، أخذ العلم عن أئمة لهم لسان صدق في الأمة ، وأخذ عنه جماعة من علماء عصره وأجلاء مصره ، وكان لاتأخذه في الله لومة لائم ، وهو في جميع شؤونه بصير حازم ، مع تواضع ولين جانب ، وفكاهة هي منأعجب العجائب ، وله مصنفات في فنون مختلفة ، هي فريدة في بابها من بين الكتب المصنفة ، وقد حسده أيضا جماعة من أهل عصره ، ورموه بالعظائم كما فعلوه مع أهل الفضل غيره ، وكان ممن عرف قدر شيخ الاسلام ، وكتب في مناقبه ماتلتذبه المسامع والافهام ،وقد عثرنا على تقريظ له على كتاب (الرد الوافر) ومنه يعلم ما كان عليه من الفضائل والمآثر ، وهو قوله :

(١) يظهر أن جواب لو هو قوله الاتي : لما أكفر الخ وأن قوله : واعلم متصحفة عن وعلم عطفا على اشتغل وصان الخ ..

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، وصلاته وسلامه على سيد المرسلين ، محمد وآله وصحبه أجمعين •

(وبعد) فقد نظرت في هذا الكتاب الدال على أن مصنفه من الحفاظ المطلعين ، وأنه قد وفى بما قصد اليه اما صراحة واما اشارة ، مع أن الامامة للشيخ تقي الدين ابن تيمية في العلم مما لايحتاج الى الاستدلال عليه لحصول العلم الضروري عن الأخبار المتواترة بذلك ، وأما قول من قال انه كافر وانه من قال في حقه انه شيخ الاسلام فهو كافر ، فهذه مقالة تقشعر منها الجلود ، وتذوب لسماعها القلوب ، ويضحك ابليس اللعين عجبا بها ويشمت ، وتنشرح أفئدة المخالفين وتتثبت ، ثم يقال له : لو فرضنا أنك اطلعت على مايقتضي هذا في حقه فما مستندك في الكلام الثاني ، وكيف تصح لك هذه الكلية المتناولة لمن سبقك ولمن هو آت بعدك الى يوم القيامة ، وهل يمكنك أن تدعي أن الكل اطلعوا على مااطلعت عليه ، وهل هذا الا استخفاف بالاحكام ، وعدم مبالاة ببني الأيام ، والواجب أن يطلب هذا القائل ويقال له لم قلت وما وجه ذلك ؟ فان أتى بوجه يخرج به شرعا من العهدة فبها ، والا برح تبريحا يردع أمثاله عن الاقدام على أعراض المسلمين ، وكتبه محمد بن أحمد البساطي المالكي عفا الله عنه ، والحمد لله وحده ، وذلك سنة خمس وثلاثين وثمانمائة من الهجرة •

ومنهم الامام الحافظ سراج الدين أبو حفص عمر بن علي البزار عليه الرحمة ، وهو أحد الأئمة الذين تبوؤا قمة الجوزاء ، وبلغت شهرتهم في علو الدرجة الى السماء ، فضله السلسبيل ، والبحر الطويل ، والاصيل ابن الاصيل ، الذي ترك عبد الحميد في أبيجاد ، والحريري في حومة الأولاد ، وابن العميد ساقط العماد ، الجامع بين الرقة واللطافة ، والنزاهة والظرافة ، وبدائع الافكار ، ودقائق الانظار ، والمعاني الرائقة ، والنكات الفائقة ، مع فصاحة تخرس لها الألسن طوع القلم ، وسبح طويل ببحر القرطاس تقف بساحله الامم ، وبلاغة يتحلى بها جيد الدهر ، ويتمنطق بها خصر العصر ، وكان له من المصنفات ماتجاوز العد ، وقد جمعت حسن السبك ، وسهولة العبارة ، والفوائد العجيبة ، وهي في فنون مختلفة ، ومنها كتاب أفرده في مناقب شيخ الاسلام ، وعلم الاعلام ، أبي العباس تقي الدين ابن تيمية ، أودع فيه من مناقب ذلك الامام ومزاياه ومآثره مالم يجتمع في كتاب ، وأتى فيه بالعجب العجاب بل بفصل الخطاب ، وذلك من آيات انصافه واذعانه للحق ، وقلما يتفق ذلك لأهل العلم وغالبهم من تحمله عصبية رجال مذهبه على الميل عن الحق والاضراب عنه ، كما كان من

السبكي وابنه وابن حجر ، غير أن الله سبحانه وتعالى خص هذه الامة بخصائص ، منها أنها لاتجتمع على ضلالة ، وذلك مما استوجبت به أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، وقد لخص بعض أبواب هذاالكتاب الشيخ مرعي الحنبلي في كتاب مناقب شيخ الاسلام ، وسنذكره ان شاء الله تعالى .

ومنهم أوحد الأدباء وشيخ الفضلاء شهاب الدين أحمد العمري الشافعي عليه الرحمة ، كان فائقا في عصره على الاقران ، بما حواه من الادب والعرفان ، بل هو ملك انس تكونت ذاته من نور ، وفلك فضل على قطب الكمال يدور ، تألقت في سماء المعالي كواكبه ، وزاحمت العيوق من غير عائق مناكبه ، وتناولت عنقود الثريا سواعده ، وتأسست فوق المجرة قواعده ، فرفع من العلوم منارها ، وقدح زند فكره بصوانة البلاغة فأورى نارها ، وبزغ قمر كماله من فلك الفصاحة ، ونبع غصن نجابته من دوحة الكرم والسماحة ، ودأب في طلب العلوم فأحرز منها ماأحرز ، ووشى حواشي مطول فضله بمعاني بديع بيانه وطرز ،وغاص فكره بقاموس العلوم فاستخرج من عباب المنطوق والمفهوم أصداف فوائد ملئت بصحاح الجواهر ، وقلدها في نحور الطالبين فافحم بمعجز البراهين كل مباحث ومناظر ، هو تحفة للناظرين ، وروضة للطالبين ، وغنية للمبتدئين ، وهو الفقيه الذي ليس له أشباه ولا نظائر ، والبليغ الذي يشهد المسامر انه الزاخر ، تقر له بالاعجاز الصدور والاعجاز ، فتحريره الروض الرائق ، وفكره كنز الدقائق ، وتقريره الدر المختار ، وتعبيره تنوير الابصار ، وحكاياته ربيع الأبرار ، والمحدث الذي ألحق الأحفاد بالأجداد ، وأتى من فنون الاسناد ماسلسل به الرواية فملأ بروايته الوراد ، قام على أقدام التحقيق ، وأبرز عرائس المخدرات من خدور التدقيق .

بدا والعلم ليس له عيون فأجراها ونورها أناسي
وأبدع في مباحثه فنونا رايناهن واضحة القياس

فهو الذي رفأ خرقه ، وأشع في سحابه برقه ، وأصدح على أفنانه ورقه ، فمنار الايمان بهدايته في ايضاح ، ومشكاة الرواية في رأيه ذات مصباح ، وليالي المحابر مشرقة من شمس معارفه بصباح ، وأعناق المشكلات بصوارم ذهنه مجزومة ،وكتائب المعضلات بسمر أقلام كتبه مهزومة ، ورياض العلوم به زاهرة ، وأفلاك الفهوم على تقريره دائرة ، ونجب التوجيه بأمثال نوادره سائرة ، وخدود الطروس عن غرر ابداعه سافرة ، ووجوه البيان كاشفة النقاب عن محاسن تحبير جده الحالي بها هذا الكتاب ،

وهو من بيت فضل ومجد ودراية ، وسلفنا أهل علم وعمــل ورواية ، نسبه بابن الخطاب متصل ،وحسبهمن كل جرثومة مجد منفصل •

قوم لهم بين الانــام مناقب كالشمس في العلياعلى التحقيق
مافيهــم الا نجيب كامــل ذاعت فضائله بكــل طريق
ناهيك من شرف ترى أنسابهم موصولة في حضـرة الفاروق

وكان هذا الفاضل مقتفيا أثر سننهم ، وآخذا بفروضهم وسننهم ، يلـوح من فرقه سيما جده الامام الفاروقي ، ويرشح من قلبه السليم بعقارب الاقارب رشحات الترياق الفاروقي ، وهو منذ أميطت عنه التمائم ولاحت له من أثر أسلافه العـلائم اشتغل بقراءة الفقه والحديث والتفسير والأصول ، وشرع في طلب العلوم من المعقول والمنقول ، الى أن صار العلم المفرد ، ولم يسبقه من أهل عصره أحد •

وفي تاريخ أبي الفدا مانصه : في ذي الحجة سنة تسع وأربعين وسبعمائة بلغنا وفاة القاضي شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري بدمشق بالطاعون ، ومنزلته في الانشاء معروفة ، وفضيلته في النظم والنثر موصوفة ، كتب السر للسلطان الملــك الناصر محمد بن قلاوون بالقاهرة بعد أبيه محي الدين ، ثم عزل بأخيه القاضي عـلاء الدين وكتب السر بدمشق ، ثم عزل وتفرغ للتأليف والتصنيف ، حتى مات عن نعمة وافرة ، قال أبو الفدا : دخل رحمه الله قبل وفاته بمدة معرة النعمان فنزل في المدرسة التي أنشأتها ففرح لي بها ، وأنشد فيها بيتين أرسلهما لي بخطه ، وهما :

وفي بلد المعرة دار علـــم بني الوردي منها كل مجـــد
هي الوردية الحلواء حسنــا حمدت الله اذ بك تم مجـدي

(فأجبته بقولي)

أمولانا شهــاب الدين اني حمدت الله اذ بك تم مجـدي
جميع النا س عنــدكم نزول وأنت جبرتني ونزلت عنـدي

انتهى ماقاله :

وله مصنفات كثيرة ليس هذا موضع استيفائها ، ومن أجلها قدرا كتابه المسمى (بمسالك الابصار ، في الممالك والامصار) وهو كتاب مفصل لم يؤلف نظيره في بابه في بضع وعشرين مجلدا ، أودعه أحوال البلاد والدول بتحقيق وتدقيق وتفاصيل لم يشتمل عليها غيره ، ومن ذلك تراجم أفاضل عصره ،وأفرد فصلا طويلا في مناقب شيخ الاسلام ، وأثنى عليه بما يليق به من الثناء الجميل ، وذكر ما كــان له من المزايـا

والفضائل ومنزلته في العلم والاجتهاد ، ولو اطلع عليها الزائغ النبهاني وأضرابه الغلاة عبدة غير الله لغصوا بريقهم ، وقد ذكر منها نبذا مفيدة العلامة الشيخ مرعي الحنبلي فيما ألفه من مناقب الشيخ على ماسنذكره .

ومنهم الحافظ الامام شمس الدين صاحب الصارم المنكي عليه الرحمة ، وقد سبق بيان نبذة من أحواله وفضائله عند الرد على كلامه على كتاب (الصارم المنكى) وقد ترجمه جميع من صنف من المترجمين المنصفين ، وله ذكر جميل في طبقات ابن رجب والشذرات ، وهو من أجل تلامذة شيخ الاسلام ، وصنف كتابا كبيرا في مناقب شيخه سماه (الدرة المضية في مناقب الامام ابن تيمية) وقد نقل عنه الشيخ مرعي أيضا في مناقبه على ماسيجيء ان شاء الله تعالى .

ومنهم الحافظ الامام الأجل الشهير بابن قيم الجوزية عليه الرحمة والرضوان وهو أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر بن أيوب شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلي رضي الله عنه ، كان واسع العلم ، عارفا بالخلاف ومذاهب السلف ، وله من التصانيف مالا يعد كثرة ، منها : أعلام الموقعين ، وبدائع الفوائد ، وجلاء الافهام ، في الصلاة على خير الأنام ، ورفع اليدين ، وتحفة الودود في أحكام المولود ، والفتح المكي ، والفتح القدسي ، وغير ذلك ، وهو طويل النفس في مؤلفاته ، وجرت له محن مع القضاة ، منها سبب فتواه بجواز الرجوع بغير محلل ، فأنكروا عليه وآل الأمر الى أن رجع عنه ، كذا في الدرر الكامنة من المائة الثامنة اقتصارا ، وفضله أشهر من أن ينبه عليه ، وأظهر من أن يشار اليه ، وكتبه المنتشرة اليوم أعدل شاهد على علو شأنه وطول باعه في كل علم .

وقد ألف في مناقب الشيخ ماتقر به عين المؤمن ، وينشرح له صدر كل مسلم ، وذكر أيضا نبذة مفيدة من أحواله في كثير من كتبه ، لاسيما في كتابه مدارج السالكين شرح منازل السائرين ، ووفق بين أحواله وأحوال أكابر عباد الله الصالحين ، وعرف منزلته ومقامه ، وقد كان من أجل تلامذة الشيخ وأصحابه ، وأدرى من غيره بشؤنه وأحواله ، ودرجته من علم اليقين وبلوغه مقام المجتهدين الأعلام .

وبالجملة : ان ابن القيم نفسه كان حسنة من حسنات ابن تيمية وهو ذلك العالم الذي سارت بذكر فضائله الركبان ، وهو كما قال القائل :

برغم الاعادي نال ماهو نائل ... فاجدع آناف العداة وارغما
ولو رام أن يرقى الى النجم لارتقى ... ويوشك رب الفضل أن يبلغ السما

ولاغرو أن يعلو وها هو قد عـــلا ولا بدع أن يسمو وها هو قد سما
عزائمه كالمشرفية والظبـــــا وآراؤه مازلن في الخطب أنجمـــا
يصيب بها الاغراض ممـــا يرومه ولا يخطيء المرمى البعيـد اذا رمى

ومنهم العلامة المحدث السيد صفي الدن الحنفي البخاري نزيل نابلس عليـه الرحمة ، وكان آية في علم الحديث والتفسير والأصلين والتصوف وأحوال الرجال ، كما كان مشهورا بالانصاف من بين علماء مصره ، ومن أوضح الدلائل على انصافه كتابه الذي صنفه في مناقب شيخ الاسلام ابن تيمية ، كما لايخفى على من طالع كتابه هذا ، وقد رد على المنكرين عليه وذب عنه ماهو بريء منه ، وذكر دلائل مااختاره من الأقوال ، وسمى ذلك الكتاب (القول الجلي ، في ترجمة الشيخ تقي الدين ابن تيمية الحنبلي) • وقد تلقى كتابه هذا علماء عصره بالقبول ، وقرظوه وأثنوا عليه بالثنـاء الجميل ، وذكروا أن مافيه هو الحق الذي قام عليه البرهان والدليل ، وممن قرظـه الامام العلامة الشيخ عبد الرحمن الشافعي الدمشقي الشهير بالكزبري عليه الرحمة فقال بعد الخطبة (أما بعد) فقد اطلعت على هذا الجزء الشريف ، وسرحت طرفي في رياض روضه المنيف ، فرأيته بديعا جامعا لفصل القول وخطابه ، معرفا بسناء مقام الشيخ شيخ الاسلام ، أحد سلاطين المحدثين الاعلام ، من أذعن لغزارة علمه الموافق والمخالف ، واعترف بتحقيقه وسعة اطلاعه من هو على مؤلفاته واقف ، الامام ابن تيمية أحمد تقي الدين ، وأنه ممن دان بسيرة السلف الصـالحين ، منزه عن سـوء الاعتقاد وزيغ العقيدة ، سالكا لطريقة السلف الحميدة ، وأن مايعزى اليه من بعض المخالفات في الاصول والابتداع هو منه بريء ، كما يصرح به النقـل من كلامه في مشهور مؤلفاته الدال على أنه بموافقة أهل السنة حري ، وما يعزى اليه من المخالفات في بعض الفروع والطعن في السادة الصوفية أولى الشأن العلي فذلك مما لانوافقـه عليه ، ولا نسلم شيئا من ذلك اليه ، كما حقق جميع ذلك وحرره سيدنا مؤلف القول الجلي ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، وصلى الله على سيدنا محمـد وعلى آله وصحبه وسلم ، وكتبه تراب أقدام أهل الحديث الشريف النبـوي عبد الرحمن الشافعي الدمشقي الشهير بالكزبري عفا الله عنه وختم له بالحسنى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف من الهجرة •

وممن قرظه أيضا الامام العلامة الشيخ محمد التافلاني مفتي الحنفية بالقـدس الشريف رحمه الله قال بعد خطبته البليغة (وبعد) فقد وقفت على هذا القول الجلي

في ترجمة تقي الدين ابن تيمية الحنبلي فوجدته قولا جليا ، وصراطا سويا ، قد نبذ مؤلفه التعصب ظهريا ، فمن يهز نخلاته تساقط عليه رطبا جنيا ، ومن ضرب عنه كشحا يقول لمؤلفه لقد جئت شيئا فريا .

كلا لقد سلك مولانا صفي الدين مايستعذبه العارفون ، ومحجته بيضاء نقية لايعقلها الا العالمون ، والخطأ في ابن تيمية معلوم ، ولا ينجو منه الا معصوم ، وقد اعترف له بطول الباع في العلوم الشرعية وغيرها الموافق والمخالف ، ولا ينكر ذلك الا غبي أو جاهل أو حسود أو متعصب على حجر جمود واقف ، وقد أثنى عليه جمهور معاصريه ، وجمهور من تأخر عنه ، وكانوا خير مناصريه ، وهم ثقات صيارفة حفاظ ، عريفهم في النقد دونه عريف عكاظ ، وطعن فيه بعض معاصريه بسبب أمور أشاعها مشيع لحظ نفسه ، أو لاجل المعاصرة التي لاينجو من سمها الا من قد كمل في قدسه ، فخلف من بعدهم مقلدهم في الطعن فتجاوز فيه الحد ، ورماه بعظائم موجبة للتعزير أو الحد ، ولو قال هذا المقلد كقول بعض السلف حين سئل عما جرى بين الامام علي ومعاوية فقالوا تلك دماء طهر الله منها سيوفنا أفلا نطهر منها ألسنتنا لنجا من هذا العناء ، وقول الآخر لما سئل عن ذلك فأجاب (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[1]

وهذا الامام تصانيفه قد ملأت طباق الثرى ، واطلع عليها القاصي والداني من علماء الورى ، فما وجدوا فيها عقيدة زائغة ،ولا عن الحق رائغة ، وكم سل السيوف الصوارم على فرق الضلال ، وكم رماهم بصواعق محرقة كالجبال ، تنادي صحائفه البيضاء بعقيدة السلف ، ولا ينكر صحتها وأفضليتها من خلف منا ومن سلف ، شهد له الاقران بالاجتهاد ، ومن منعه له فقد خرط بكفه شوك القتاد ، وما سوى العقائد نسبت اليه مسائل جزئية رأى فيها باجتهاده رأي بعض السلف ، لدليل واضح قام عنده ، فكيف يحل الطعن فيه بسهام الهدف ، وهذا محمد بن اسحق قال فيه امام دار الهجرة ذاك دجال من الدجاجلة ، ومع ذلك وثقه تلميذه الامام المجتهد محمد بن ادريس ، وروى عنه حديث القلتين ، ووصفه بالدجاجلة لم يبق من الذم شيئا ، ولم يرمه أحد بكفر ولا زندقة ولافسق ، وأمثال هذه القضية جرت في الاعصر الاول وبعدها مرارا ، وأشنع مانسب اليه منع الزيارة لقبور الانبياء ، فهذه ان صحت عنه

---

(١) البقرة : ١٤١

فلعله انما منع شد الرحال اليها قصدا ، وأما الزيارة لتلك القبور المقدسة تبعا فلا يصح نسبة المنع اليه ، كيف وهو مصرح باستحباب زيارة قبور آحاد المؤمنين ، ولله در الامام حافظ الشام ابن ناصر حيث ألف في الذب عنه رسالة هي أمضى من السيف الباتر ، ولله در أمير المؤمنين الحافظ ابن حجر والحافظ الاسيوطي وأضرابهم من الأسود الكواسر ، فقد شنوا الغارة على من طعن فيه فباؤا بالأجر الوافر ، أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده ، وثمة أشياء أخر أشيعت عنه وهي أكاذيب وفرية وما فيها مرية ، وهي سنة الله في أحبابه ، وأما طعنه على بعض المشهورين من الصوفية فهو ليس بفريد في ذلك ، بل سلفه مثله وأعلى منه في تلك المسالك ، وما قصده مع أمثاله الا الذب عن ظاهر الشريعة ، خوفا على ضعفاء الامة من اعتقاد أمور شنيعة ، ومن كان هذا قصده يمدح ويثاب ولا يلام ، فكيف يزعم زاعم خروجه بذلك عن الاسلام .

هذا وفصل الخطاب — عند أولي الألباب — ان معتقد طريق السلف على غاية الصواب ، ومن أداه اجتهاده لدليل قام عنده في فرع فقهي بعد تبحره في العلم لايلام عرضه ولا يعاب ، وان خالف المذاهب الاربعة أوالمذاهب المنقرضة الغير المتبعة، والمقلد اذا التزم مذهبا لايجوز له الطعن في رجل برع ونال رتبة الاجتهاد ، (لينفق ذو سعة من سعته)وليس الرافل في حلل المجد في غرف القصور كخادم الباب ، ورسالة مولانا صفي الدين هذه صاحبة القدح المعلى ، وهي قبلة أرباب التحقيق والمصلى ، هي من الضنائن الاعلى جواهرها ثمينة لايخطبها الا رجل كفولها ولمثلها ، ولقد كشفت نقاب حسنها في زمان لاتخطب الخطاب مثلها ، ولا يرشفون نهلها وعلها، اذا تليت عليهم آياتها حاصوا كحيص الحمر ، وشنوا الغارة على عرج الحمير ، وقالوا ماسمعنا بهذا في آبائنا الأولين واتخذوها هجرا وصمموا على النكير ، وما ذاك الا أصحاب الهمم الا النادر ، وقليل ماهم في هذا الزمان الداثر ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد الذي لانبي بعده ، وعلى آله وأصحابه أرباب النجدة .

وممن صنف في مناقبه أيضا الشيخ مرعي الحنبلي العلامة الشهير رحمه الله، وهو على مافي كتاب (خلاصة الأثر) العلامة المحبي مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي — نسبة لطور كرم قرية بقرب نابلس — ثم المقري ، أحد أكابر العلماء من حنابلة مصر ، كان اماما محدثا فقيها ، ذا اطلاع واسع على نقول الفقه ودقائق الحديث ، ومعرفة تامة بالعلوم المتداولة ، أخذ عن الشيخ محمد المرداوي ، وعن

القاضي يحيى الحجاوي ، ودخل مصر وتوطنها ، وأخذ بها عن الشيخ الامام محمد الحجاوي الواعظ ، والمحقق أحمد الغنيمي ، وكثير من المشائخ المصريين ، وأجازه شيخه فتصدر للافراء والتدريس في جامع الأزهر ، ثم تولى المشيخة في جامع السلطان حسن ، ثم أخذها منه عصريه العلامة ابراهيم الميموني ، ووقع بينهما من المعارضات مايقع بين الاقران ، وألف كل منهما في الآخر رسائل ، وكان منهمكا على العلوم انهماكا كليا ، فقطع زمانه بالافتاء والتدريس والتحقيق والتصنيف ، فسارت بتآليفه الركبان ، ومع كثرة اضداده وأعدائه ماأمكن أن يطعن فيها أحد ، ولا نظر بعين الازراء اليها ، ثم ان المترجم عدله من المصنفات نحو سبعين كتابا في فنون شتى ، قال : وله غير ذلك من فتاوى ومسائل نافعة يتداولها الناس ، وكان في فن النظم والنثر آية ، وكتابه بديع الانشاء والصفات في المكاتبات والمراسلات ، يشهد لهبطول باعه في ذلك ، وله ديوان شعر منه قوله :

ياساحر الطرف يامن مهجتيسحرا ... كم ذا تنام وكم أسهرتني سحرا
لو كنت تعلم ما ألقاه منك لما ... أتعبت يامنيتي قلبا اليك سرى
هذا المحب لقد ساءت صبابته ... بالروح والنفسقومابالوصال سرا
ياناظري ناظري بالدمع جاد وما ... أبقيت في مقلتي يامقلتي نظرا
يامالكي قصتي جاءت ملطخة ... بالدمع ياشافعي كذبتها نظرا
عساك بالحنفي تسعى على عجل ... بالوصل للحنبلي يامن بدا قمرا
يامن جفا للغير موعده ... يامن ويامن عقلنا قمرا (١)
الله منصفنا بالوصل منك على ... غيظ الرقيب بمن قد حج واعتمرا

وكانت وفاته بمصر في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين وألف رحمة الله عليه، ومن جملة ماعدله من الكتب (الكواكب الدرية في مناقب الامام المجتهد ابن تيمية) وقد اطلعت على هذا الكتاب فرأيته من أحسن الكتب المؤلفة في هذا الباب ، لاسيما وقد اشتملت على غرر مناقب ذلك الامام ، ودرر مزاياه التي هي للدهر ابتسام ، فما هي الا روضة فوحاء فيحاء ، وحديقة مزهرة غناء ، مكللة بغرر المعاني والاقوال ، مرصعة بدرر الشواهد والأمثال ، تجذب السرور الى الصدور بأمراس السطور ، مشتملة على الرقة والانسجام في النثر والنظام ، فما هي الا لآليء ويواقيت مابين نضيد وشتيت ، من رآها من الأفاضل وأهل الكمال قال هكذا هكذا فليكن المقال .

---

(١) فى هذا البيت نقص وانكسار وهو كذا فى الاصل

أكرم بترجمة يضوع عبيرها تعزى الى المشهور في الآفاق
اللوذعي اللسن الذي أضحت أفا ضل عصره بأنامل الأحداق
تجنى ثمار فنونه الغرر التي ببراعة حرثت على الاوراق

فلله در ذلك المؤلف الاديب ، والمصنف الاريب ، لقد أتى بتأليف هو أبهى من انسان العين في عين الانسان ، وأشهى من زلال العين الى عين الظمآن ، ولمثل مصنفه يقال اذ لكل مقام مقال :

مصنف لو رآه منصف فطن لقال ما الروض الا بعض نزهته
تظن كل أديب حين يسمعه صبا وذا وعد من يهوى بزورته
فأين لطف الصبا مما حواه ولم ألمم اذا قلت في تشبيه رقته

ولعمري ليست نغمات الطيور في الأسحار على شرفات القصور والأشجار بأرق منها في الاسماع الكريمة ، وأوفق الى الطباع السليمة •

اذا طرقت مسامعنا ابتهجنا وفزنا في سرور وانبساط
وخلنا أن تاليها علينا ينادينا الى نادي النشاط

فيالها من مناقب لايمل سامعها ، ولا يكل مطالعها ، ولا بدع في هذا ولاعجب ، فقد قال بعض أهل الادب : ان أحاديث نجد لاتمل بتكرار فكيف وهي أحاديث مجد، ومدائح ناحية القصد ، ولولا مخافة الاسهاب لما عدلنا عن الاطناب ، وهيهات أن يستوفي هذا التقريظ ثناء على ذلك النثر والقريض ، ولكونها على اختصارها اشتملت على أحوال ذلك الامام سنذكرها ان شاء الله تعالى بالتمام •

وقد صنف في مناقب شيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن تيمية رضي الله عنه : غير من ذكرنا من الأفاضل ، والعلماء الأكابر ، وذب عنه وأخذ بأقواله واختارها في عصره وبعده ، وكان ذلك من علائم بصائرهم وفطنهم ، فلا تجد في عصر من الاعصار من يذب عنه ويختار قوله ويسلك مسلكه الا وهو الفائق على غيره ذكاء وفطنة وانصافا ، ولا تجد من يخالفه ويعاديه الا وهو من أهل الغلو والغباوة وحب الدنيا والمخالف للسنة والمعادي للحق ، وهذه منقبة لم تكن الا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينلها أحد من أكابر المجتهدين ، فمن الذي منهم ألف في مناقبه من الكتب ماألف فيه !؟ فسبحان من خص بعض عباده بخصائص لم ينلها غيره بجد ولا اجتهاد • (قُل اللّهمَّ مالكَ الملكِ تُؤتِي الملكَ مَنْ تشَاءُ ، وتَنْزَعُ المُلْكَ

مِّمَّنْ تَشَاء ، وتعِزُّ مَنْ تشَاءُ وتذِلُّ مَن تَشَاءُ ، بيدِكَ الخَيْرُ إنكَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيْرٌ) (١)

والثناءعليه في كل عصر من أفاضله ومشاهير علمائه لايمكننا استقصاؤه ولا الاحاطة به ، ولا سيما في هذا العصر بعد أن انتشرت كتبه ورسائله وفتاواه ، ففي الهند عدد كثير من المحققين كتبوا في مناقبه ، وذبوا عنه ، وأخذوا بأقواله واختياراته ، وفي نجد كذلك ، فان قوله لديهم متبع ، ومرجح على أقوال كثير من المجتهدين ، وفي مصر جمع غفير على هذا المنوال ، كتبوا في مناقبه مقالات مطولة ومختصرة ، وأثنوا عليه وذبوا عنه ، وخطؤا المنكرين عليه ، والمبغضين له حسدا من عند أنفسهم ، ومنهم شيخ الاسلام الامام محمد عبده مفتي الديار المصرية ، وهو الفاضل الذي عقم الزمان أن يأتي بمثله فضلا وانصافا وذكاء وبلاغة ، ونثرا وشعرا ، وغيرة على الدين ، قدس الله روحه ونور ضريحه .

حلف الزمان ليأتين بمثله   حنثت يمينك يازمان فكفر

وقد أثنى عليه تقريرا وتحريرا ، ومن طالع كتبه عرف ذلك ، ومنه ماكتبه في كتابه الاسلام والنصرانية وهكذا أصحابه وتلامذته الأفاضل الأعلام ، بل كل منهم في عصره امام ، وفي العراق أيضا جماعة من أهل الفضل والانصاف يعترفون بما كان عليه الشيخ من المنزلة القعساء ، والعلم الذي لاتجد أحدا يطاوله به ، وأما المبغضون له في العراق فهم المنافقون الدجالون الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم ، وكلهم أهل بلادة وغباوة لايعبأ بهم ، ولا يلتفت اليهم ، أولئك حزب الشيطان ، وقوم البهتان ، وأعداء الرحمن ، والسواد الأعظم من سكنة العراق على ماوصفنا ، ولا بدع فبلاد العراق معدن كل محنة وبلية ، ولم يزل أهل الاسلام منها في رزية بعد رزية ، فأهل حروراء وما جرى منهم على الاسلام لايخفى ، وفتنةالجهمية الذين أخرجهم كثير من السلف من الاسلام انما خرجت ونبغت بالعراق ، والمعتزلة وما قالوه للحسن البصري وتواتر النقل به واشتهر من أصولهم الخمسة التي خالفوا بها أهل السنة ومبتدعة الصوفية الذين يرون الفناء في توحيد الربوبية غاية يسقط بها الامر والنهي انما نبغوا وظهروا بالبصرة ، ثم الرافضة والشيعة وما حصل فيهم من الغلو في أهل البيت ، والقول الشنيع في الامام علي وسائر الأئمة ، ومسبة أكابر

(١) آل عمران : ٢٦

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كل هذا معروف مستفيض ، والمقصود أن أهل الفضل منهم ـ وقليل ماهم ـ محبون للسنة ناصرون لأهلها معارضون لمن يخاصمهم •

وفي دمشق وسائر بلاد الشام أيضا جماعة من أكابر علماء هذا العصر وفضلائه قد نصروا الشيخ واختاروا أقواله ، وردوا على المخالفين له من الجهلة والغلاة ، وأثنوا عليه ووثقوه ، ورجحوه على كثير من الأئمة في كثيرمن الفنون ، وصبروا على مارأوه من كيد الخصوم وتحاملهم ومخاصمتهم للباطل ، وهم أحق الناس بذلك لأن الشيخ قدس الله روحه الزكية منهم ، وكان جيرانهم ومن بلادهم ظهرت أنوار السنة النبوية، وفي الحديث الصحيح مايشعر بأنهم هم المؤيدون للسنة ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم (لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق وهم في الغرب) قال بعض شراح الحديث : المراد بهم أهل الشام ، فانهم أكثر الناس اشتغالا بالحديث ، وأعناهم بحفظ السنة ، قال العلامة الحافظ ابن كثير في كتابه البداية والنهاية في الحديث الصحيح (لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك) وفي صحيح البخاري وهم بالشام ، وقد قال كثير من علماء السلف أنهم علماء الحديث ، وهذا أيضا من دلائل النبوة ، فان أهل الحديث بالشام اليوم أكثر من سائر أقاليم الاسلام ولله الحمد ، ولاسيما بمدينة دمشق حماها الله وصانها ، كما ورد في الحديث أنها تكون معقل المسلمين عند وقوع الفتن انتهى ، وابن تيمية وأصحابه من أهل الشام ، وقيامه بالانتصار للسنة ورد البدع أمر لاينكر ، ولا بعد أن يكون الحديث الشريف اشارة اليه والى أضرابه ، فهو من أعلام النبوة ، فتأمله فانه دقيق •

وممن أثنى على الشيخ ابن تيمية كثير من أصحاب المجلات العلمية التي تنشر في مصر وغيرها ، كالفاضل الكامل صاحب (المؤيد الأغر) الذي فاق البلغاء الاولين في تحريره وبيانه ، ووقوفه ومزيد عرفانه، وهو الذي اذاحرر حبر ،واذا تكلم حير ،فسح الله تعالى في مدته ، وهو لم يزل يثني على الشيخ ويحث على نشر كتبه واقتنائها ، ويكبح المنكرين عليه ، جزاه الله عن المسلمين خيرا ، وكثر أمثاله فيهم •

ومنهم صاحب (مجلة المنار) وهو الفاضل الذي ظهر فضله ظهور الشمس في رابعة النهار ، ومجلته كأنها روضة نقطها الغمام قطرا ، ونسيم اسحار هببن على قلب متيم قد توقد جمرا ، أودع فيها دواء الاسقام الروحانية ، وترياق العلل الجسمانية ،

قد شيد فيها أركان الاسلام ، ورفع فيها قواعد الاحكام ، وكم جلا فيها عن وجه الحق ماانسدل عليه من الحجب ، وأوضح دقائق الحقائق التي أجنتها بطون الكتب ، وأثنى على شيخ الاسلام وأشاع فضله بين الانام ، نسأله تعالى أن يحفظه من طوارق الأيام ويصونه من كيد اللئام .

ومنهم الفاضل العلامة الذي حلى جيد الفضل بما أملى ، حتى غدا بكل منقبة أحرى وأولى بما أولى ، الذي أسرج خيول المجد ، وألجم أفواه الحساد ، وأقام ما تهدم من أركان الفخر ، وأقعد على الأعجاز أرباب العناد ، ألا وهو رفيق بك العظم نزيل القاهرة ، حرسه الله تعالى وأيد به المعالي ، وحفظه من مزعجات الأيام والليالي ، فانه قال في كتابه (تنبيه الافهام الى مطالب الحياة الاجتماعية والاسلام) من جملة كلام طويل مانصه : لم يقف الجمود بعلماء المتأخرين عند هذا الحد ، بل تجاوزوه الى ماهو أعظم نكالا وأشد ، فانهم لما استرسلوا بالتقليد ، وحرموا على أنفسهم العمل بنصوص الكتاب والسنة ـ الا ماجاء منها بالعرض عن طريق الشيوخ ـ وأصبحوا حيارى في مدافعة البدع والأضاليل التي خالطت أوهام المسلمين ، وأدتهم من الوثنية بمقدار ماأقصاهم عنها الاسلام : ألف بعضهم من هذه البدع ماألفته نفوس العامة ، ونزلته منزلة العقائد الدينية ، وفيها مايصادم أصول الدين ، فجعلوا يبدعون كل منكر لهذه البدع قائل بالرجوع الى سذاجة الدين والعمل بالكتاب والسنة وسيرة السلف الصالحين ، ويستعملون في تبديع من هذا شأنه من أساليب التعسف مايشعر بتناهي ضعف العلم وفساد ملكة الحق عند المتأخرين ، يدلك على هذا أن أحدهم لما يريد تبديع منكري هذه البدع أو تكفير مجتهد بمسألة من المسائل مثلا ويرى أن أدلتهم من الكتاب والسنة الثابتة الصحيحة وأنه لاسبيل له للاتيان بدليل منهما يضاد أدلتهم لأن نص الصحيح لايضاد نص الصحيح يعمد الى حديث موضوع أو قول من أقوال الشيوخ فيجعله حجة له على أولئك بازاء حجتهم من الكتاب والسنة الصحيحة ، أو يجمع نصوصا متفرقة يتصد كل منها بمعناه وجها مخصوصا فيستنتج منه حكما يطابق هواه مخالفا في هذا طريقة السلف ، ولم هذا ؟ لأنه لم يلتمس في مناظرته بيان الحق وتمحيص الحقائق ، وانما هو يلتمس رضا العامة بمجاراة أفكارهم ابتغاء الزلفى عندهم ، وتعظيمهم له ، أو هو يحاول التماس المعذرة أمام النفس التي يتجلى لها الحق فيصدها عنه مرغما بحكم العادة والتقليد ، (واذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا ، أولو كانوا لايعقلون شيئا ولا يهتدون) .

ومن أراد شاهدا على هذا فليراجع كتاب (جلاء العينين في محاكمة الأحمدين) ليرى كيف أن بعض العلماء المعاصرين لشيخ الاسلام ابن تيمية كفر ـ تعسفا وافتراء ـ هذا الشيخ الجليل المعدود من نوابغ علماء الاسلام وأئمة الهدى المصلحين ، لتفرده في عصره بالانكار الشديد على أهل البدع التي انتشرت يومئذ بين المسلمين ، وبيان ماأصبحت عليه الامة من الزيغ في العقائد عن طريق الصحابة والتابعين ، حاثا على الرجوع الى سذاجة [1] الدين ، وتطهير العقيدة من شوائب المبتدعين ، مستندا في كل ماقاله وأملاه على الكتاب العزيز والسنة الصحيحة .

فهل بعد تكفير من يقول بمثل هذا القول من حجة على فساد ملكات العلماء وانحطاط درجة التعليم بين المسلمين ؟ وهل يعجب من تدني عامة الأمة الى الدرجة التي هم فيها اليوم من فساد العقيدة والاخلاق بعد وصول علمائهم الى هذا الحد من سوء التعلم والتعليم ؟ انتهى كلام هذا الفاضل .

فانظر الى قوة هذا الكلام وانصاف قائله ، لاهتك الله له حريما ولامزق له أديما .

ومنهم العلامة المفضال ، المتميز بين أقرانه بالأدب والكمال ، الذي أوقد للمشكلات سراجا من فكره غدت ذبالته لمداراة فراش أذهان الطلاب قطبا ، وأجرى من صخور العويصات سلسبيلا فراتا وماء عذبا ، خلف الأوائل ، وشرف الأواخر ، والاماثل ، السيد محمد بدر الدين الحلبي ، لازالت بحار علومه تقذف بالدرر ، ولا برحت غرر طروسه مزينة بالطرر ، فقد أجرى من ياقوتة فكره السيالة بحارا ، وأعلى للفضل بنير ذهنه منارا ، حيث ألف كتابه الفريد في بابه ، وأبدع كل الابداع في فصوله وأبوابه ، وأتى فيه بما لم يسبق اليه ، ولم يقدم أحد من السابقين عليه ، وهذا الفاضل لم يزل يعطر محافل العلماء بنشر مناقب شيخ الاسلام وأصحابه ، ويجادل عنه تقريرا وتحريرا انتصارا للحق وشغفا به ، وكم ألقم الخصم الألد حجر السكوت ، وتركه من غيظه وخجله يكاد يموت ، متع الله تعالى بحياته أرباب الاستفادة وأسبغ نعمه عليه حتى ينال من كل خير مراده .

ومنهم الذكي الذي أذكى بوقاد ذهنه ذبالة نبراس الفضل بعد انطفائها ، والألمعي الذي لمعت أشعة فكره على دارس الفواضل فأحياها بعد فنائها ، العالم الأفضل والكامل الأكمل ، أبو الهمم محمد كرد علي صاحب مجلة المقتبس ، لازالت بدور فلك العرفان مقتبسة من أنوار شمس كماله أعظم قبس ، فانه حفظه الله تعالى منذ

---

(١) كذا هنا وفي الصفحة قبلها وهذه الكلمة ترد صفة نقص فلعلها هنا تصحفت عن سماحة او نحوها .

جرى جواد قلمه في مضمار ميادين القراطيس ، وشرع لسان بيانه يجول في عرصات الدرس والتدريس ، لم يزل مشغوفا بذلك الامام ، ذاكرا لمحامده ومناقبه بين الخاص والعام ، قد ملأ المجلات المصرية الشهيرة ببيان فضائله ومعارفه ، وما كان عليه من الدرجة الرفيعة ، وما بث من الدقائق في صحائفه ، وكم ترك خصومه ومن ناواه حيارى ، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ، لازال بالخير محفوفا ، ولا برح حائزا من الفضائل صنوفا الى غير أولئك من الأكابر ، ممن لاتستوعبهم الدفاتر ،ولعل الله تعالى ييسر لنا افراد كتاب نجمعهم فيه ، ونستوعب من تكلم في مناقب الشيخ من أكابر أفاضل هذا العصر ، ونذكر مالهم في هذا الباب من النصوص والعبارات ، ومالهم من النظم والنثر في مديحه ليكون ذلك سفرا من أجل الأسفار ، والله الموفق .

(فيا أيها النبهاني) قد سمعت ماسمعت من تقريري وبياني ، فهل بقي لك لوم على مصنف جلاء العينين ووالده بسبب ماكان منهما من الانتصار للحق والذب عن السنة وابطال البدع التي هي غذاء روحك الخبيثة ؟ وقد سبقهما في ذلك علماء أعلام ، ومشايخ عظام ، ومن كان له انصاف من ذوي الفضل الكرام ، وأظن أنه لجهله لم ير في عمره مما ألف في هذا الباب سوى كتاب جلاء العينين ، ولم يعرف معناه ، بل لم يحسن أن يقرأ عبارة لفظه ومبناه ، فلذلك جعله سبابة المتندم ، وخصه ومؤلفه بشتمه وسبه كما شتم شيخ الاسلام وأكابر أصحابه اقتداء بمشايخه السبكي وولده وابن حجر ، وقلدهم تقليد أعمى ، ولم يلتفت الى الدليل ، وقد كفيناه وأعطيناه حقه بل زدناه كما قد قيل :

ان السؤال والجواب مثلما قد قيل في التمثيل أنثى وذكر

ونحن قد تطفلنا على هذا المبحث فمن الواجب أن يرد على ذلك الزائغ بعض أبناء مصنف جلاء العينين ، فقد بلغني أن فيهم أفاضل فكان من حقهم أن يذبوا عن والدهم ، ويلقموا هذا الخصم الذي خطا خطوات العدوان بحجر سكوت ، ولكن اعراضهم عن ذلك اما لعدم وصول الكتاب اليهم واما عدم مبالات بما كان من الجاهل النبهاني ، كما قال القائل :

عذرت البزل ان هي خاطرتني فما بالي وبال ابن اللبون

فان نبح الكلاب لايضر السحاب ، وطنين الذباب لايخاف منه أولو الألباب ، وما أحسن ما قال ابن سند أحد سكنة العراق من علماء نجد :

يامعهـــد الزيغ لاحياك مبتـــكر ... من السحاب ضحوك البرق منهمـــل

ولا أنبني فيك فسطاط السعود ولا ... أقيم فيك لابكـــار الرضا كلـــل

ولا عـــداك البـــلى في كل آونة ... حتى تزول الجبال الشم والقـــلل

اذ أنت دمنـــة خبث طالمـــا رتعت ... فيها من الحمر الأهلية الهمــــل

من كـــل من خبثت منه ضمـــائره ... اذا انقضى دخل منها أتى دخـــل

رأى خيار الورى طرا فجانبهـــم ... كذا يجانب أرباب العلى السفـــل

وصار يرميهم منه بكل هجـــــا ... وما على البدر لو أزرى به طفـــل

وما على العنبـــر الفـــواح من حرج ... ان مات من شمه الزبال والجعـــل

أو هل على الأسد الكرار من ضرر ... أن ينهق العير مربوطا أو البغـــل

أو هل على أنجم الخضراء منقصـــة ... ان عابها من حصى الغبراء منجـــدل

فلا وربـــك لايزرى بشمس ضحى ... أعابها الجدي أم قد عابها الحمـــل

وقد يعيب الفتـــى من ليس يدركه ... اذ كل ضد بذم الضد مشتغــــــل

كما يعيب فتـــــاة راق منظـــرها ... قبيحة ويعيب الصائب الخطـــــل

والزج يحسد لؤما خرص سمهـــره ... كذاك يهجو الشجاع الباسل الفشل

فلا يضر أولي الفضل الألى سبقـــوا ... من صحب خير الورى اذذمهم سفل

مثل الأسنة والأسيـــــاف مابرحت ... بطعن أعدائهم والضرب تنصقـــــل

(وقد آن أن نشرع) بما وعدنا به من نقل كتاب (الكواكب الدرية) للشيخ مرعي الحنبلي فانها على اختصارها حوت ملخص أحوال الشيخ وما كان عليه ، فانه بعد خطبة الكتاب ذكر الكتب التي لخص منها مباحث كتابه ، ثم ذكر ترجمة الشيخ ونسبه ، ثم ذكر ثناء الأئمة عليه ، ثم أفرد فصلا عد فيه بعض مصنفاته وذكر سعـــة حفظه وقوة ملكته ، ثم أورد فصلا في ذكر بعض مآثره الحميدة وصفاته السديدة ، وفصلا آخر في تمسكه بالكتاب والسنة ، وآخر في محنته وتمسكه بالطريقة السلفية، وما كان من الشيخ نصر المنبجي من العداوة ، ثم أفرد فصلا في سفر الشيخ الى مصر وما صادفه من المحنة ، ثم ذكر ما وقع له بعد عـــوده الى دمشـــق ، وما كان له من الاختيارات ، ثم ذكر قصة حبس الشيـــخ بقلعة دمشـــق الى وفاته ، ثم ذكر قوله في مسألة السفر الى زيارة القبور وصورة السؤال وجواب الشيخ فيها ، ثم ذكر ما كان من انتصار علماء بغداد له يومئذ ، وجواب الشيخ جمال الدين الحنبلي رحمه الله ، وأجوبة أخرى موافقة لقول الشيخ ، وماكتبه علماء بغداد للملك الناصر من الثنـــاء

على الشيخ ، ثم ذكر وفاته وما كان من الاحتفال بجنازته ، ثم ذكر الشعر الذي رثوه به ، ثم ختم الكتاب بالموعظة والتحذير من التعرض للعلماء .

هذا مجمل مافي الكتاب ، وهي مطالب عالية ، كلها شجى في أفواه الغــلاة ، وكلها ترد على هذيان النبهاني وأضرابه ، وتبين الحق لطالبــه ، وتوضــح الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، وهانحن ننقل ماذكره من تفصيل ذلك الاجمال ، ومنه سبحانه الهداية وهو المستعان :

قال رحمه الله بعد البسملة : الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمــد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين ، ورضي الله عن العلماء العاملين ، والأئمــة المجتهدين ، والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين ، وبعد ، فهذه فوائد لطيفة ، وفرائد شريفة ، في مناقب شيخ الاسلام ، وبحر العلوم ، ومفتي الفرق ، المجتهد أحمد تقي الدين بن تيمية ، لخصتها (من مناقبه) للشيخ الحافظ الامام شمس الدين أبي عبــد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحليم بن عبد الهــادي بن يوسف بن محمد بن قدامة المقدسي (ومن مناقبه) للشيخ الامام العالم الأوحدي الحافظ سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن موسى البزار (ومن مناقبه) للشيخ الامام العــالم أوحد الأدباء وشيخ الفضلاء شهاب الدين أحمد ابن القاضي محي الدين يحيى بن العمــري الشافعي .

(فأقول وبالله التوفيق) ابن تيمية هو الشيخ الامام العالم العامــل الرباني ، امام الأئمة ، وعلامة الأمة ، ومفتي الفرق ، وبحر العلوم ، وسيد الحفاظ ، وفارس المعاني والألفاظ ، فريد العصر، ووحيد الدهر ، شيخ الاسلام ، بركة الأنام ، علامة الزمان ، وترجمان القرآن ، عالم الزهاد ، وأوحد العبــاد ، قامع المبتــدعين ، وآخر المجتهدين ، تقي الدين ، أبو العباس ، أحمد بن الشيخ الامام العلامة شهاب الــدين أبي المحاسن عبد الحليم بن الشيخ الامام العلامة شيخ الاســـلام مجد الدين أبي البركات عبد السلام ابن أبي محمد عبد الله ابن أبي القاسم الخضــر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية الحراني نزيل دمشق ، وصاحب التصانيف التي لم يسبق الى مثلها ، كذا ترجمه بهذه الترجمة ابن قدامة المتقدم .

(واختلف) لم قيل ابن تيمية ؟ فقيل : ان جده محمد بن الخضر حج على درب تيماء فرأى هناك طفلة ، فلما رجع وجد امرأته قد ولدت له بنتا فقال ياتيمية ياتيميــة فلقب بذلك ، وقيل ان جده محمدا كانت أمه تسمى تيمية وكانت واعظة فنسب اليها وعرف بها .

(ولد رحمه الله تعالى) بحران يوم الاثنين عاشر وقيل ثاني عشر ربيع الأول سنة احدى وستين وستمائة ، وبقي بحران الى أن بلغ سبع سنين ، ثم بعد ذلك هاجر والده به وباخوته الى الشام عندجور التتر ،فساروا بالليل ومعهم الكتب على عجلة لعدم الدواب ، فكاد العدو يلحقهم ووقفت العجلة ، فابتهلوا الى الله سبحانه واستغاثوا به فنجوا وسلموا ، وقدموا دمشق في أثناء سنة سبع وستين ، فنشأ بدمشق أتم انشاء وأزكاه ، وأنبته الله أحسن النبات وأوفاه ، وكانت مخائل النجابة عليه في صغره لائحة ، ودلائل العناية فيه واضحة ، فلم يزل منذ ابان صغره مستغرق الأوقات في الجد والاجتهاد ، وختم القرآن صغيرا ، ثم اشتغل بحفظ الحديث والفقه والعربية حتى برع في ذلك مع ملازمته مجالس الذكر ، وسماع الأحاديث والآثار ، ولقد سمع غير كتاب على غير شيخ من ذوي الروايات الصحيحة العالية ، أما دواوين الاسلام الكبار كمسند الامام أحمد ، وصحيح البخاري ، ومسلم ، وجامع الترمذي ، وسنن أبي داود السجستاني ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدار قطني ، فانه سمع كلا منها مرات عديدة ، وأول كتاب حفظه في الحديث الجمع بين الصحيحين للامام الحميدي ـ كذا قال الشيخ الحافظ سراج الدين أبو حفص عمر ـ وسمع من مشايخ كابن عبد الدائم المقدسي وطبقته ، وطلب بنفسه قراءة وسماعا من خلق كثير ، وقرأ الكتب الكبار ، وكتب الطباق والاثبات ، ولازم السماع واشتغل بالعلوم ، قال ابن عبد الهادي بن قدامة : وشيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ ، وسمع مسند الامام أحمد مرات ، وسمع الكتب الكبار والأجزاء ، ومن مسموعاته معجم الطبراني الكبير ، وعني بالحديث ، وقرأ ونسخ وانتقى وتعلم الخط والحساب في الكتاب ، وحفظ القرآن ، وأقبل على الفقه وقرأ في العربية ، وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتى فهمه وبرع في النحو ، وأقبل على التفسير اقبالا كليا ، حتى حاز فيه قصب السبق ، وأحكم أصول الفقه وغير ذلك ، هذا كله وهو بعد ابن بضع عشرة سنة ، فانبهر الفضلاء من فرط ذكائه ، وسيلان ذهنه ، وقوة حافظته ، وسرعة ادراكه ، انتهى •

(فصل في ثناء الأئمة على ابن تيمية) قد أكثر أئمة الاسلام من الثناء على هذا الامام ، كالحافظ المزي ، وابن دقيق العيد ، وأبي حيان النحوي ، والحافظ ابن سيد الناس ، والعلامة كمال الدين ابن الزملكاني ، والحافظ الذهبي ، وغيرهم من أئمة العلماء •

(قال جمال الدين) أبو الحجاج المزي عن ابن تيمية : مارأيت مثله ، ولا رأى

هو مثل نفسه ، وما رأيت أحدا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه .

(وقال القاضي) أبو الفتح ابن دقيق العيد : لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلا كل العلوم بين عينيه يأخذ مايريد ويدع مايريد ، وقلت له : ماكنت أظن أن الله بقي يخلق مثلك .

(وقال الشيخابراهيم الرقي) الشيخ تقي الدين يؤخذ عنه ويقلد في العلوم ، فان طال عمره ملأ الأرض علما وهو على الحق ، ولا بد مايعاديه الناس فانه وارثعلم النبـوة .

(وقال قاضي القضاة) أبو عبد الله ابن الحريري ان لم يكن ابن تيمية شيخ الاسلام فمن هو ؟

(وقال أبو حيان) شيخ النحاة لما اجتمع بابن تيمية ما رأت عيناي مثله ، ثـم مدحه أبو حيان على البديهة في المجلس وقال :

لما أتينا تقي الدين لاح لنـــا	داع الى اللـــه فـــردا ماله وزر
على محياه من سيما الألى صحبـوا	خير البـــرية نور دونه القمـــر
حبر تسربل منـــه دهرنا حبـــرا	بحر تقـــاذف من أمواجـه الدرر
قام ابن تيمية في نصـر شرعتنـــا	مقام سيـد تيم اذ عصت مضـــر
وأظهر الحـــق اذ آثـاره درست	وأخمد الشـــر اذ طارت له شـــرر
يامن يحدث عن علم الكتاب أصـخ	هذا الامام الذي قد كان ينتظر (١)

(وقال العلامة ابن الوردي) ناظم البهجة في رحلته ــ لما ذكر علماء دمشق وترك التعصب والحمية ــ وحضرت مجالس ابن تيمية فاذا هو بيت القصيـــدة ، وأول الخريدة ، علماء زمانه فلك هو قطبه ، وجسم هو قلبه ، يزيد عليهم زيادة الشمس على البدر ، والبحر على القطر ، حضرت بين يديه يوما فأصبت المعنى ، وكناني وقبل بين عيني اليمنى ، وقلت :

ان ابن تيميــــــة في	كل العـلوم أوحـــد
أحييـت دين أحمـــد	وشرعه ياأحمـــــد

(وقال الحافظ فتح الدين) أبو الفتح ابن سيد الناس اليعمري المصري ــ بعد أن ذكر ترجمة الحافظ المزي ــ وهو الذي حداني على رؤية الشيخ الامام شيـخ الاسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليـم بن عبد السلام ابن تيميـة ،

---

(١) وفى نسخة : كنا نحدث عن حبر يجيء فها أنت الامام الذي قد كان ينتظر

هذا التعليق وجد بالاصل فجرى ابقاؤه كما هو : المصحح

فألفيته ممن أدرك من العلوم حظا ، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظا ، ان تكلم في التفسير فهو حامل رايته ، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته ، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه وذو روايته ، أو حاضر بالملل والنحل لم ير أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من درايته ، تبرز في كل فن على أبناء جنسه ، ولم تر عين من رآه مثله ولا رأت عينه مثل نفسه ، كان يتكلم في التفسير فيحضر مجلسه الجم الغفير ، ويردون من بحر علمه العذب النمير ، ويرتعون من ربيع فضله في روضة وغدير ، الى أن دب اليه من أهل بلده داء الحسد ، وألب أهل النظر منهم على ماينتقد عليه من أمور المعتقد ، فحفظوا عنه في ذلك كلاما أوسعوه بسببه ملاما ، وفوقوا لتبديعه سهاما ، وزعموا أنه خالف طريقهم ، وفرق فريقهم ، يسومونه ريب المنون ، وربك يعلم ماتكن صدورهم وما يعلنون ، ولم يزل بمجلسه الى حين ذهابه الى رحمة الله ، والى الله ترجع الأمور ، وهو المطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور •

(ثم قال) قرأت على الشيخ الامام حامل راية العلوم ومدرك غاية الفهوم تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية رحمه الله ، بالقاهرة قدم علينا ، ثم ذكر حديثا من جزء ابن عرفة •

(وقال الشيخ علم الدين البرزالي) في معجم شيوخه : أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن عبد الله ابن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الشيخ تقي الدين أبو العباس الامام المجمع على فضله ونبله ودينه قرأ القرآن وبرع فيه والعربية والأصول ، ومهر في علم التفسير والحديث ، وكان اماما لايلحق غباره في كل شيء وبلغ رتبة الاجتهاد ، واجتمعت فيه شروط المجتهدين ، وكان اذا ذكر التفسير بهت الناس من كثرة محفوظه وحسن ايراده ، واعطائه كل قول مايستحقه من الترجيح والتضعيف والابطال ، وخوضه في كل علم كان الحاضرون يقضون منه العجب ،هذا مع انقطاعه الى الزهد والعبادة ، والاشتغال بالله تعالى ، والتجرد من أسباب الدنيا ، ودعاء الخلق الى الله تعالى ، وكان يجلس في صبيحة كل جمعة يفسر القرآن العظيم ، فانتفع بمجلسه وبركة دعائه وطهارة أنفاسه وصدق نيته وصفاء ظاهره وباطنه وموافقة قوله لعمله وأناب الى الله تعالى خلق كثير ، وجرى على طريقة واحدة من اختيار الفقر والتقلل من الدنيا رحمه الله تعالى •

وقال العلامة الزملكاني أحد أئمة الأعلام : لقد أعطى ابن تيمية اليد الطولى في حسن التصنيف ، وجودة العبارة والترتيب ، والتقسيم والتبيين ، وقد ألان الله له

العلوم كما ألان لداود الحديد ، كان اذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لايعرف غير ذلك الفن ، وحكم أن أحدا لايعرفه مثله ، وكان الفقهاء من سائر الطوائف اذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه مالم يكونوا عرفوه قبل ذلك ، ولا يعرف أنه ناظر أحدا فانقطع معه ، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها الا فاق فيه أهله والمنسوبين اليه ، وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف ، ووقعت مسألة فرعية في قسمة جرى فيها اختلاف بين المفتين في العصر فكتب فيها مجلدة كبيرة ، وكذلك وقعت مسألة في حد من الحدود ـــب فيها مجلدة كبيرة أيضا ، ولم يخرج في كل واحدة عن المسألة ،ولا طول بتخليط الكلام والدخول في شيء والخروج من شيء وأتى في كل واحدة بما لم يكن يجري في الأوهام والخواطر، واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها .

وقال عن كتاب (بيان الدليل على بطلان التحليل) من مصنفات سيدنا وشيخنا وقدوتنا الشيخ السيد الامام العالم العلامة الأوحد البارع الحافظ الزاهد الورع القدوة الكامل العارف تقي الدين شيخ الاسلام ، مفتي الأنام ، سيد العلماء ، قدوة الفضلاء ، ناصر السنة ، قامع البدعة ، حجة الله على العباد ، راد أهل الزيغ والعناد ، أوحد العلماء العاملين ، آخر الأئمة المجتهدين ، أبي العباس أحمد بن تيمية ، حفظ الله على المسلمين طول حياته ، وأعاد عليهم من بركاته ، انه على كل شيء قدير .

وقال عن كتاب (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) تأليف الشيخ الامام العالم العلامة الأوحد الحافظ المجتهد الزاهد ، العابد القدوة ، امام الأئمة ، وقدوة الأمة ، علامة العلماء ، وارث الأنبياء ، آخر المجتهدين ، أوحد علماء الدين ، بركة الاسلام ، حجة الاعلام ، برهان المتكلمين ، قامع المبتدعين ، محيي السنة ومن عظمت به لله علينا المنة ، وقامت به على أعدائه الحجة ،واستبانت ببركته وهديه المحجة :تقي الدين أحمد ابن تيمية ، أعلى الله مناره ، وشيد به من الدين أركانه ، ثم قال :

ماذا يقول الواصفون له ... وصفاته جلت عن الحصر
هو حجة لله قاهرة ... هو بيننا أعجوبة الدهر
هو آية في الخلق ظاهرة ... أنوارها أربت على الفجر

(وقال الشيخ الامام القدوة) الزاهد ،عماد الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم الواسطي : شيخنا السيد الامام ، العلامة الهمام ، محيي السنة ، وقامع البدعة ، ناصر الحديث ، مفتي الفرق ، الفاتق عن الحقائق ، ومؤصلها بالأصول الشرعية للطالب

الفائق ، الجامع بين الظاهر والباطن ، فهو يقضي بالحق ظاهرا وقلبه في العلى قاطن ، انموذج الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين ، الذين غابت عن القلوب سيرهم ، ونسيت الأمة حذوهم وسبيلهم ، فكان في دارس نهجهم سالكا ، ولأعنة قواعدهم مالكا : الشيخ الامام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية ، فوالله ثم والله ثم والله لم يرتحت أديم السماء مثله علما وحالا ، وخلقا واتباعا ، وكرما وحلما في حق نفسه ، وقياما في حق الله عند انتهاك حرماته ، أصدق الناس عقدا ، وأصحهم علما وعزما ، وأعلاهم ــ في انتصار الحق وقيامه ــ همة وأسخاهم كفا ، وأكملهم اتباعا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وأطال في ترجمة الشيخ .

(وقال الحافظ الناقد أبو عبد الله شمس الدين الذهبي) نشأ ــ يعنى الشيخ تقي الدين رحمه الله ــ في تصون تام ، وعفاف وتأله ، وتعبد ، واقتصاد في الملبس والمأكل ، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره ، ويناظر ويفحم الكبار ، ويأتي بما يتحير منه أعيان البلد في العلم ، فأفتى وله تسع عشرة سنة بل أقل ، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت ، وأكب على الاشتغال ، ومات والده وكان من كبار الحنابلة وأئمتهم ، فدرس بعده بوظائفه وله احدى وعشرون سنة ، واشتهر أمره وبعد صيته في العالم ، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع على كرسي من حفظه ، فكان يورد المجلس ولا يتلعثم ، وكان يورد الدرس بتؤدة وصوت جهوري فصيح ، وكان آية في الذكاء وسرعة الادراك ، رأسا في معرفة الكتاب والسنة والاختلاف ، بحرا في النقليات ، هو في زمانه فريد عصره علما وزهدا وشجاعة وسخاء وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر ، وكثرة تصانيف ، وقرأ وحصل وبرع في الحديث والفقه ، وتأهل للتدريس والفتوى ، وهو ابن سبع عشرة سنة ، وتقدم في علم التفسير والأصول ، وجميع علوم الاسلام أصولها وفروعها ، ودقها وجلها ، فان ذكر التفسير فهو حامل لوائه ، وان عد الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق ، وان حضر الحفاظ نطق وخرسوا ، وسرد وأبلسوا ، واستغنى وأفلسوا ، وان سمى المتكلمون فهو فردهم واليه مرجعهم ، وان لاح ابن سينا يقدم الفلاسفة فلسهم وتيسهم ، وهتك أستارهم ، وكشف عوارهم ، وله يد طولى في معرفة العربية والصرف واللغة ، وهو أعظم من أن يصفه كلمي ، أو ينبه على شأوه قلمي ، فان سيرته وعلومه ومعارفه ومحنه وتنقلاته تحتمل أن توضع في مجلدين ، فالله تعالى يغفر له ويسكنه أعلى جنته ، فانه كان رباني الأمة ، وفريد الزمان ، وحامل لواء الشريعة ، وصاحب معضلات المسلمين ، رأسا في العلم ، يبالغ

في اطراء قيامه في الحق والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مبالغة مارأيتها ولا شاهدتها من أحد ، ولا لاحظتها من فقيه ، قال وكان له بـاع طويـل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين ، وقل أن يتكلم في مسألة الا ويذكر فيها أقوال المذاهب الأربعة وقد خالف الأربعة في مسائل معروفة ، وصنف فيها واحتج له بالكتـاب والسنة .

ولما كان معتقلا بالاسكندرية التمس منه صاحب سبتة أن يجيـز له مروياته وينص على أسماء جملة منها ، فكتب في عشر ورقات جملة من ذلك بأسانيدها من حفظه ، بحيث يعجز أن يعمل بعضه أكبر محدث يكون ، وله الآن عدة سنين لايفتي بمذهب معين بل بما قام الدليل عليه عنده ، ولقد نصر السنة المحضة والطريقة السلفية، واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق اليها ، وأطلق عبارات أحجم عنهـا الأولون والآخرون وهابوا وجسر هو عليها ، حتى قام عليه خلق من علماء مصـر والشام قياما لامزيد عليه ، وبدعوه وناظروه وكابروه ، وهو ثابت لايداهن ولا يحابي بل يقول الحق المر الذي أداه اليه اجتهاده وحدة ذهنه وسعة دائرته في السنن والأقوال مع ماشتهر منه من الورع وكمال الفكر وسرعة الادراك والخوف من الله العظيـم والتعظيم لحرمات الله ، فجرى بينه وبينهم حملات حربية ، ووقعات شامية ومصرية ، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة فينجيه الله ، فانه دائم الابتهال كثير الاستغاثة قوي التوكل ثابت الجأش ، له أوراد وأذكار يدمنها ، وله من الطرف الآخر محبون من العلماء والصلحاء ، ومن الجند والأمراء ، ومن التجار والكبراء ، وسائر العامـة تحبه لأنه منتصب لنفعهم .

(وأما شجاعته) فبها تضرب الأمثال ، وببعضها يتشبه أكابر الأبطال ، ولقـد أقامه في نوبة غازان وقام بأعباء الأمر بنفسه ، وقام وقعد ، وطلع وخرج ، واجتمـع بالملك مرتين ، وبخطلو شاه ، وببولاي ، وكان فنجق يتعجب من اقدامه وجرأته على المغول ، وله حدة قوية تعتريه في البحث حتى كأنه ليث حرب ، وهو أكبر من أن ينبه مثلي على نعوته ، فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني مارأيت بعيني مثله ، ولا والله مارأى هو مثل نفسه .

(وقال في مكان آخر في ترجمة طويلة) وله خبرة تامة بالرجـال وجرحهـم ، وتعديلهم وطبقاتهم ، ومعرفة بفنون الحديث ، وبالعالي والنازل ، وبالصحيح والسقيم، مع حفظ لمتونه الذي انفرد به ، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته ولا يقاربه ، وهو عجيب في استحضاره واستخراج الحجج منه ، واليه المنتهى في عـزوه الى الكتب الستـة

والمسند ، بحيث يصدق عليه أن يقال كل حديث لايعرفه ابن تيمية فليس بحديث ، ولكن الاحاطة لله ، غير أنه يغترف فيه من بحر وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي.

(وأما التفسير) فمسلم اليه ، وله في استحضار الآيات من القرآن وقت اقامة الدليل بها على المسألة قوة عجيبة ، واذا رآه المقري تحير فيه ، ولفرط طول باعه في التفسير وعظمة اطلاعه يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين ، ويوهي أقوالا عديدة ، وينصر قولا واحدا موافقا لما دل عليه القرآن والحديث ، ويكتب في اليوم والليلة من التفسير أو من الفقه أو من الأصلين أو من الرد على الفلاسفة والأوائل نحوا من أربعة كراريس أو أزيد ، وما أبعد أن تصانيفه الى الآن تبلغ خمسمائة مجلد ، وله في غير مسألة مصنف مفرد في مجلد ، ثم ذكر بعض تصانيفه رحمه الله .

(وكتب الذهبي) طبقة بخطه يقول فيها : سمع جميع هذا الكتاب على مؤلفه شيخنا الامام العالم العلامة الأوحد شيخ الاسلام مفتي الفرق قدوة الأمة أعجوبة الزمان بحر العلوم حبر القرآن تقي الدين سيد العباد أبي العباس أحمد بن تيمية رضي الله عنه .

(وقال الشيخ علم الدين) رأيت اجازة بخط الشيخ تقي الدين وقد كتب تحتها الشيخ شمس الدين الذهبي : هذا خط شيخنا الامام شيخ الاسلام فرد الزمان بحر العلوم تقي الدين ، مولده عاشر ربيع الأول سنة احدى وستين وستمائة ، وقرأ القرآن والفقه وناظر واستدل وهو دون البلوغ ، وبرع في العلم والتفسير وأفتى ودرس وله نحو العشرين سنة ، وصنف التصانيف وصار من كبار العلماء في حياة شيوخه ، وله المصنفات الكبار التي سارت بها الركبان ، ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كراس وأكثر ، وفسر كتاب الله تعالى مدة سنين من صدره أيام الجمع ، وكان يتوقد ذكاء ، وسماعاته من الحديث كثيرة ، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ ، ومعرفته بالتفسير اليها المنتهي ، وأما حفظه للحديث ورجاله وصحته وسقمه فما يلحق فيه .

وأما نقله للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين فضلا عن المذاهب الأربعة فليس له فيه نظير ، وأما معرفته بالملل والنحل والأصول والكلام فلا أعلم له فيه نظيرا ، وعربيته قوية جدا ، وأما معرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب ، وأما شجاعته وجهاده واقدامه فأمر يتجاوز الوصف ويفوق النعت ، وهو أحد الأجواد الأسخياء الذين يضرب بهم المثل ، وفيه زهد وقناعة باليسير من المأكل والملبس ، انتهى كلام الذهبي ولقد أنصف رحمه الله تعالى .

(وقال بعض قدماء أصحاب الشيخ ابن تيمية) وقد ذكر نبذة من سيرته : أما مبدأ أمره ونشأته فانه نشأ من حين نشأ في حجور العلماء ، راشفا كؤوس الفهوم ، راتعا في رياض التفقه ودوحات الكتب الجامعة لكل فن من الفنون ، لايلوي الى غير المطالعة والاشتغال والأخذ بمعالي الأمور وخصوصا علم الكتاب العزيزوالسنةالنبوية ولوازمهما ، ولم يزل على ذلك خلفا صالحا سلفيا ، متألها عن الدنيا صينا تقيا ، برا بأمه ورعا عفيفا ، عابدا ناسكا صواما قواما ذاكرا لله تعالى في كل أمر وعلى كل حال، راجعا الى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا ، وقافا عندحدودالله تعالى وأوامره ونواهيه ، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، لاتكاد نفسه تشبع من العلم ولا ترتوي من المطالعة ، ولا تمل من الاشتغال ولا تكل عن البحث ، وقل أن يدخل في علم من العلوم من باب من أبوابه الا ويفتح له من ذلك الباب أبواب ، ويستدرك مستدركات في ذلك العلم على حذاق أهله مقصودة بالكتاب والسنة ، ولقد سمعته في مبادىء أمره يقول انه ليقف خاطري في المسألة أو الشيء أو الحالة التي تشكل علي فأستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل حتى ينشرح الصدر وينجلي اشكال ماأشكل ، قال وأكون اذ ذاك في السوق أو المسجد أو الدرب أو المدرسة لايمنعني ذلك من الذكر والاستغفار الى أن أنال مطلوبي ، قال : ولقد كنت في تلك المدة وأول النشأة اذا اجتمعت بالشيخ ابن تيمية في ختمة أو مجلس ذكر خاص مع المشائخ وتذاكروا وتكلم مع حداثة سنه أجد لكلامه صولة على القلوب ، وتأثيرا في النفوس ، وهيمنة مقبولة ، ونفعا يظهر أثره وتنفعل له النفوس التي سمعته أياما كثيرة ، حتى كأن مقاله بلسان حاله ، وحاله ظاهر في مقاله .

(وقال الشيخ الامام الحافظ) شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي في كتابه المناقب : لم يبرح شيخنا يعني ابن تيمية في ازدياد من العلوم، وملازمة للاشتغال وبث العلم ونشره ، والاجتهاد في سبيل الخير ، حتى انتهت اليه الامامة في العلم والعمل ، والزهد والورع ، والشجاعة والكرم ، والتواضع والحلم ، والانابة والجلالة والمهابة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وسائر أنواع الجهاد، مع الصدق والأمانة ،والعفة والصيانة ، وحسن القصد والاخلاص ، والابتهال الى الله ، وكثرة الخوف منه ، وكثرة المراقبة له ، وشدة التمسك بالأثر ، والدعاء الى الله ، وحسن الأخلاق ونفع الخلق والاحسان اليهم ، والصبر على من آذاه والصفح عنه والدعاء له ، وسائر أنواع الخير .

وكان رحمه الله سيفا مسلولا على المخالفين ، وشجى في حلوق أهل الأهواء

والمبتدعين ، واماما قائما ببيان الحق ونصرة الدين ، وكان بحرا لاتكـدره الدلاء ، وحبرا يقتدي به الأخيار الألباء ، طنت بذكره الأمصار ، وضنت بمثله الاعصـار ، واشتغل بالعلوم ، وكان ذكيا كثير المحفوظ ، اماما في التفسير وما يتعلق به ، عارفـا بالفقه واختلاف العلماء والأصلين والنحو واللغة ، وغيرذلك من العلوم النقلية والعقلية ، وماتكلم معه فاضل في فن الا ظن أن ذلك الفن فنه ، ورآه عارفا به متقنا له ، وأما الحديث فكان حافظا له ، مميزا بين صحيحه وسقيمه ، عارفا برجاله مضطلعا من ذلك ، وله تصانيف كثيرة وتعاليق مفيدة في الأصول والفروع ، وأثنى عليه وعلى فضائلـه جماعة من علماء عصره .

(وقال الشيخ الامام الفاضل الأديب) أحمد شهاب الدين بن فضل الله العمري الشافعي في تاريخه المسمى (بمسالك الأبصار ، في ممالك الأمصار) في ترجمة الشيخ ابن تيمية ــ وهي طويلة تبلغ كراسة فأكثر ــ (ومنهم أحمد) بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني ، العلامة الحافظ الحجة المجتهد المفسر ، شيخ الاسلام ، نادرة العصر ، علم الزهاد ، تقي الدين ، أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى ، هو البحر من أي النواحي جئته ، والبدر من أي الضواحي أتيته ، رضع ثدي العلم منذ فطم ، وطلع وجه الصباح ليحاكيه فلطم ، وقطع الليل والنهـار دائبين ، واتخذ العلم والعمل صاحبين ، الى أن أنسى السلف بهداه ، وأنأى الخلف عن بلوغ مداه ، على أنه من بيت نشأت منه علماء في سالف الدهور ، وتسنأت منه عظماء على مشاهير الشهور ، فأحيا معالم بيته القـديم اذ درس ، وجنى من فننـه الرطيب ماغرس ، وأصبح في فضله آية الا أنه آية الحرس ، عرضت له الكدي فزحزحهـا ، وعارضته البحار فضحضحها ، ثم كان أمة وحده ، وفردا حتى نزل لحده ، جـاء في عصر مهول بالعلماء ، مشحون بنجوم السماء ، تموج في جانبيه بحور خضارم ، وتطير بين خافقيه نسور قشاعم ، وتشرق في أنديته بدور دجنة ، وصدور أسنـة ، الا أن صباحه طمس تلك النجوم ، وبحره طم على تلك الغيوم ، ففاءت سمرته على تلـك التلاع ، وأطلت قسورته على تلك السباع ، ثم عبيت له الكتائب فحطم صفوفهـا ، وخطم أنوفها ، وابتلع غديره المطمئن جداولها ، واقتلع طوده المرجحن جنادلهـا ، وأخمدت أنفاسهم ريحه ، وأكمدت شرارهم مصابيحه .

تقدم راكبا فيهم اماما ⁂ ولولاه لما ركبوا وراه

فجمع أشتات المذاهب وشتات الذاهب ، ونقل عن أئمة الاجماع فمن سواهم

مذاهبهم المختلفة واستحضرها ، ومثل صورهم الذاهبة وأحضرها ، فلو شعر أبو حنيفة بزمانه وملك أمره لأدنى عصره اليه مقتربا ، أو مالك لأجرى وراءه أشهبه ولوكبا ، أو الشافعي لقال ليت هذا كان للأم ولدا وليتني كنت له أبا أو الشيباني ابن حنبل لما لام عذاره اذ غدا منه لفرط العجب أشيبا ، لا بل داود الظاهري وسنان الباطني لظنا تحقيقه من منتخله ، وابن حزم والشهرستاني لحشر كل منهما ذكره في نحله ، أو الحاكم النيسابوري والحافظ السلفي لاضافه هذا الى مستدركه وهذا الى رحله ، ترد اليه الفتاوى ولا يردها ، وتفد عليه فيجيب عنها بأجوبة كأنه كان قاعدا لها يعدها .

أبدا على طرف اللسان جوابه ‌ ‌ ‌ ‌ فكأنما هي دفعة من صيب

وكان من أذكى الناس ، كثير الحفظ قليل النسيان ، قلما حفظ شيئا فنسيه ، وكان اماما في التفسير وعلوم القرآن ، عارفا بالفقه واختلاف الفقهاء والأصولين ، والنحو وما يتعلق به ، واللغة والمنطق وعلم الهيئة ، والجبر والمقابلة وعلم الحساب ، وعلم أهل الكتابين وأهل البدع وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية ، وما تكلم معه فاضل في فن من الفنون الا ظن أن ذلك الفن فنه ، وكان حفظه للحديث مميزا بين صحيحه وسقيمه ، عارفا برجاله ، متضلعا من ذلك ، وله تصانيف كثيرة ، وتعاليق مفيدة ، وفتاوى مشبعة في الفروع والأصول والحديث ، ورد البدع بالكتاب والسنة، وأطال في ترجمة الشيخ رحمه الله تعالى فاقتصرنا على ذلك خوف التطويل .

(وقال الشيخ الامام الحافظ) سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن موسى البزار في كتابه الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية : أما غزارة علومه فمعرفته بعلوم القرآن المجيد واستنباطه لدقائقه ونقله لأقوال العلماء في تفسيره واشتهاره بدلائله وما أودعه الله تعالى فيه من عجائبه وفنون حكمه وغرائب نوادره وباهر فصاحته وظاهر ملاحته فان فيه من الغاية التي ينتهي اليها والنهاية التي يعول عليها ، ولقد كان اذا قريء في مجلسه آيات من القرآن العظيم يشرع في تفسيرها فينقضي المجلس بجملته والدرس برمته وهو في تفسير بعض آية منها ، وأما معرفته وبصره بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقواله وأفعاله وقضاياه ووقائعه وغزواته وسراياه وبعوثه وماخصه الله تعالى من كراماته ومعجزاته ومعرفته بصحيح المنقول عنه وسقيمه والمنقول عن الصحابة رضي الله عنهم في أقوالهم وأفعالهم وقضاياهم وفتاويهم وأحوالهم وأحوال مجاهداتهم في دين الله وما خصوا به من بين الأمة فانه كان رضي الله عنه من

أضبط الناس لذلك ، وأعرفهم فيه ، وأسرعهم استحضارا لما يريده منه ، فانه قل ان ذكر حديثا في مصنف أو فتوى أو استشهد به أو استدل به الا وعزاه في أي دواوين الاسلام هو ، ومن أي قسم من الصحيح أو الحسن أو غيرهما ، وذكر اسم راويه من الصحابة ، وقل أن سئل عن أثر الا وبين في الحال حاله وحال أكثره وذاكره ، ولا والله مارأيت أحدا أشد تعظيما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحرص على اتباعه ونصر ماجاء به منه ، حتى كان اذا أورد شيئا من حديثه في مسألة ويرى أنه لم يبحه غيره من حديثه يعمل ويقضي ويفتي بمقتضاه ، ولا يلتفت الى قول غيره من المخلوقين كائنا من كان ، ومنحه الله تعالى بمعرفة اختلاف العلماء ونصوصهم وكثرة أقوالهم واجتهادهم في المسائل وما روي عن كل منهم من راجح ومرجوح ومقبول ومردود في كل زمان ومكان ونظره الصحيح الثاقب الصلب للحق مما قالوه ونقلوه وعزوه ذلك الى الأماكن التي بها أودعوه ، حتى كان اذا اشتغل عن شيء من ذلك كان كأن جميع المنقول فيه عن الرسول وأصحابه والعلماء من الأولين والآخرين متصور ومسطور بازائه يقول منه مايشاء ويذر مايشاء ، وهذا قد اتفق عليه كل من رآه ، وقل كتاب من فنون العلوم الا وقد وقف عليه ، فكأن الله تعالى قد خصه بسرعة الحفظ وبطء النسيان ، لم يكن يقف على شيء ويسمع بشيء غالبا الا ويبقى على خاطره ، اما بلفظه أو معناه ، وكان العلم كأنه قد اختلط بلحمه ودمه وسائره ، فانه لم يكن له مستعارا بل كان له شعارا ودثارا ، جمع الله له ماخرق له العادة ، ووفقه في جميع عمره لاعلام السعادة ، وجعل مآثره لامامته من أكبر شهادة ، حتى اتفق كل ذي عقل سليم أنه ممن عني نبينا صلى الله عليه وسلم بقوله : (ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها) فلقد أحيا الله تعالى به ما كان قد درس من شرائع الدين ، و جعله حجة على أهل عصره أجمعين ، والحمد لله رب العالمين •

(وبالجملة) فكلام الأئمة بالثناء عليه مما يطول ، وفيما ذكرناه كفاية تدل على علو رتبته ورفيع شأنه ومرتبته رضي الله تعالى عنه آمين •

وأثنى عليه كثير من الفضلاء بالقصائد في حال حياته فمن ذلك قصيدة نجم الدين اسحاق ابن أبي بكر التركي وهي :

ذراني من ذكرى سعاد وزينب	ومن ندب اطلال اللوى والمحصب
ومن مدح آرام سنحن برامة	ومن غزل في وصف سرب وربرب

ولا تنشداني غير شعر الى العلى ... يظل ارتياحا يزدهيني ويطبي
وان أنتما طارحتماني فليكن ... حديثكما في ذكر مجد ومنصب
بحب المعالي لابحب ام جندب ... أقضي لبانات الفؤاد المعذب
خلقت امرءا جلدا على حملي الهوى ... فلست أبالي بالقلى والتجنب
سواء أرى بالوصل تقريض جؤذر ... أو أعراض ظبي ألعس الثغر أشنب
ولم أصب في عصر الشبيبة والصبا ... فهل أصبون كهلا بلمة أشيب
يعنفني في بغيتي رتب العلى ... جهول أراه راكبا غير مركبي
له همة دون الحضيض محلها ... ولي همة تسمو على كل كوكب
فلو كان ذا جهل بسيط عذرته ... ولكنه يدلي بجهل مركب
يقول علام اخترت مذهب أحمد ... فقلت له اذ كان أحمد مذهب
وهل في ابن شيبان مقال لقائل ... وهل فيه من طعن لصاحب مضرب
أليس الذي قد طار في الأرض ذكره ... وطبقها مابين شرق ومغرب

الى أن قال

امام الهدى الداعي الى سنن الهدى ... وقد فاضت الأهواء من كل مشعب
وأصحابه أهل الهدى لايضرهم ... على دينهم طعن امرىء جاهل غبي
هم الظاهرون القائمون بدينهم ... الى الحشر لم يغلبهم ذو تغلب
لنا منهم في كل عصر أئمة ... هداة الى العليا مصابيح مرقب
فأيدهم رب العلى من عصابة ... لاظهار دين الله أهل تعصب
وقد علم الرحمن أن زماننا ... تشعب فيه الرأي أي تشعب
فجاء بحبر عالم من سراتهم ... لسبع مئين بعد هجرة يثرب
يقيم قناة الدين بعد اعوجاجها ... وينقذها من قبضة المتغصب
فذاك فتى تيمية خير سيد ... نجيب أتانا من سلالة منجب
عليم بأدواء النفوس يسوسها ... بحكمته فعل الطبيب المجرب
بعيد عن الفحشاء والبغي والأذى ... قريب الى أهل التقى ذو تحبب
يغيب ولكن عن مساو وغيبة ... وعن مشهد الاحسان لم يتغيب
حليم كريم مشفق بيد أنه ... اذا لم يطع في الله لله يغضب
يري نصرة الاسلام أكرم مغنم ... واظهار دين الله أربح مكسب
وكم قد غدا بالقول والفعل مبطلا ... ضلالة كذاب ورأى مكذب

ولم يلف من عاداه غير منافق — وآخر عن نهج السبيل منكب
لقد حاولوا منه الذي كان رامه — من المصطفى قدما حيي بن أخطب
ولكن رأوا من بأسه مثل مارأى — من المرتضى في حربه رأس مرحب
تمسك أبا العباس بالدين واعتصم — بحبل الهدى تقهر عداك وتغلب
ولا تخش من كيد الأعادي فما هم — سوى حائر في أمره ومذبذب
جنودهم من طامع ومضلل — مسيلمة منهم يلوذ بأشعب
وجندك من أهل السماء ملائك — يمدك منهم موكب بعد موكب
لئن جحدت علياء فضلك حسد — لعمر أبي قد زاد منهم تعجبي
وهل ممكن في العقل أن يجحد السنا — ضحى وضياء الشمس لم يتحجب
أيا مطلبا حزناه من غير مهلك — وكم مهلك صد الورى دون مطلب
ربيب المعالي يافع الجود والندى — فتى العلم كهل الحلم شيخ التأدب
بسيط معان في وجيز عبارة — بتهذيبه تعجيز كل مهذب
وليس له في الزهد والعلم مشبه — سوى الحسن البصري وابن المسيب
ومن رام حبرا دونه اليوم في الورى — فذاك الذي قد رام عنقاء مغرب
أليس هو الحبر الذي بانتصاره — حيي الدين حتى بالأمانة قد حبي
وجاهد في ذات الاله بنفسه — وبالمال والأهلين والأم والأب
وماجئت في مدحي له متطلبا — به عرضا يفنى ولا نيل منصب
ولكنني أبغي رضى الله خالقي — وأرجو به غفران زلة مذنب

(وقال القاسم ابن محمود بن عساكر)

تقي الدين أضحى بحر علم — يجيب السائلين بلا قنوط
أحاط بكل علم فيه نفع — فقل ماشئت في البحر المحيط

وقصائد مدحه في حياته كثيرة ،وكذلك بعد وفاته كما سيأتي انشاء الله تعالى

(فصل في تصانيف ابن تيمية وسعة حفظه وقوة ملكته رحمة الله عليه)

قد مرت الاشارة الى ذلك في كلام الأئمة وقول العلامة ابن الزملكاني لقد أعطي ابن تيمية اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين وقد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد ، وتقدم قول الحافظ الذهبي وماأبعد أن تصانيفه الآن تبلغ خمسمائة مجلد •

(وقال الشيخ ابن عبد الهادي بن قدامة) للشيخ رحمه الله تعالى من التصانيف

والفتاوى والقواعد والأجوبة والرسائل وغير ذلك من الفوائد مالا ينضبط ، قال ولا أعلم أحدا من متقدمي الأئمة ولامتأخريهم جمع مثل ماجمع ، ولاصنف نحو ماصنف، ولا قريبا من ذلك مع أن أكثر تصانيفه انما أملاها من حفظه ، وكثيرا منها صنفه في الحبس ، وليس عنده مايحتاج اليه من الكتب .

فمن ذلك ماجمعه في التفسير وماجمعه من أقوال مفسري السلف الذين يذكرون الأسانيد في كتبهم ، وذلك أكثر من ثلاثين مجلدا ، وقد بيض أصحابه بعض ذلك وكثير منه لم يكتبوه ولو كتب كله لبلغ خمسين مجلدا ، وكان رحمه الله تعالى يقول: ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير ، ثم أسأل الله تعالى الفهم وأقول يامعلم ابراهيم علمني ، وكنت أذهب الى المساجد المهجورة ونحوها وأمرغ وجهي في التراب وأسأل الله تعالى وأقول يامعلم ابراهيم فهمني .

(وقال أبو حفص) عمر البزار في المناقب : وأما مؤلفاته ومصنفاته فانها أكثر من أن أقدر على احصائها ، بل هذا لايقدر عليه أحد ، لأنها كثيرة جدا كبارا وصغارا وهي منتشرة في البلدان ، فقل بلد نزلته الا ورأيت من تصانيفه ، فمنها مايبلغ عشرين مجلدا كتخليص التلبيس من تأسيس التقديس ، ومايبلغ سبع مجلدات كالجمع بين العقل والنقل ، وما يبلغ ست مجلدات ككتاب تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ، وما يبلغ خمس مجلدات كمنهاج الاستقامة والاعتدال ، وما يبلغ أربع مجلدات ككتاب الرد على طوائف الشيعة والقدرية ، رد على ابن المطهر الرافضي ، وبين جهل الرافضة وضلالتهم وكذبهم ، ومايبلغ ثلاث مجلدات كالرد على النصارى ، ومجلدين كنكاح المحلل ، وابطال الحيل ، وشرح عقيدة الاصبهانية ، وما يبلغ مجلدا فكثير جدا ، ككتاب تفسير سورة الاخلاص مجلد ، وكتاب الكلام على قوله سبحانه وتعالى : (الرَّحمنُ عَلى العَرشِ اسْتَوى)[1] مجلد نحو خمس وثلاثين كراسة والصارم المسلول على شاتم الرسول مجلد ، وكتاب المسائل الاسكندرية في الردعلى الملاحدة الاتحادية ، وتنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل مجلد ، وله في الرد على الفلاسفة مجلدات ، وقال : الفروع أمرها قريب فمن قلد أحدا من الأئمة جاز له العمل بقوله مالم يتيقن خطأه ، وأما الأصول فقد رأيت أهل البدع والضلال تجاذبوا فيها وأوقعوا الناس في التشكيك في أصول دينهم فلذلك أكثرت من

(١)طه : ٥

التصنيف في الرد عليهم •

(وبالجملة) فذكر أسماء كتبه مما يطول ، وله من الرسائل والقواعد والتعاليق مالا يمكن حصره ، وقد ذكر كثيرا منها الحافظ ابن عبد الهادي بن قدامة ، وقال من الله تعالى على الشيخ بسرعة الكتابة ويكتب من حفظه من غير نقل ، قال وأخبرني غير واحد أنه كتب مجلدا لطيفا في يوم ، وكتب غير مرة أربعين ورقة في جلسة وأكثر وأحصي ماكتبه في يوم وبيضه فكان ثماني كراريس في مسألة من أشكل المسائل ، وكان يكتب على السؤال الواحد مجلدا ، وأما جواب يكتب فيه خمسين ورقة وستين فكثير جدا ، وأما فتاويه ونصوصه وأجوبته على المسائل فهي أكثر من أن تحصى ، لكن دون منها بمصر على أبواب الفقه سبعة عشر مجلدا ، وهذا ظاهر مشهور ، وقل أن وقعت واقعة وسئل عنها الا وأجاب فيها بديهة بما بهر واشتهر ، وصار ذلك الجواب كالمصنف الذي يحتاج فيه غيره الى زمن طويل ومطالعة كتب ، وقد لايقدر مع ذلك على ايراد مثله •

(وقال الشيخ صالح تاج الدين محمد) حضرت مجلس الشيخ رضي الله عنه وقد سأله يهودي عن مسألة في القدر وقد نظمها شعرا في ثمانية أبيات ، فلما وقف عليها فكر لحظة يسيرة وأنشأ يكتب جوابها ، وجعل يكتب ونحن نظن أنه يكتب نثرا ، فلما فرغ تأمله من حضر من أصحابه فاذا هو نظم [1] من بحر أبيات السؤال وقافيتها تقرب من مائة وأربعة وثمانين بيتا ، وقد أبدى فيها من العلوم مالو شرح لبلغ مجلدين كبيرين ، وهذا من جملة بواهره ، وكم له من جواب فتوى لم يسبق الى مثله •

(وأما سعة حفظه وقوة ملكته) فقد تقدم التنبيه عليه كثيرا في كلام الأئمة ، وقد أذعن له بذلك المخالف والموافق ، وقال ابن عبد الهادي بن قدامة بلغني أن بعض مشايخ حلب قدم الى دمشق وقال : سمعت أن في هذه البلاد صبيا يقال له أحمد بن تيمية سريع الحفظ وقد جئت قاصدا لعلي أراه ، فقال له خياط هذه طريق كتابه وهو الى الآن ما جاء فاقعد عندنا الساعة يمر ذاهبا الى الكتاب ، فلما مر قيل ها هو الذي معه اللوح الكبير ، فناداه الشيخ وأخذ منه اللوح وكتب له من متون الحديث أحد عشر أو ثلاثة عشر حديثا ، وقال له : اقرأ هذا فلم يزد على أن نظر فيه مرة بعد كتابته اياه ثم قال : أسمعه عليّ فقرأه عليه عرضا كأحسن مايكون ، ثم كتب عدة أسانيد

(1) قد ذكر في كتابه الفتاوى الحلبية ، واورده ابن السبكي في طبقاته مع اجوبة اخرى لعلماء ذلك العصر اه كذا في الاصل .

انتخبها فنظر فيه كما فعل أول مرة فحفظها ، فقام الشيخ وهو يقول ان عاش هـذا الصبي ليكونن له شأن عظيم ، فان هذا لم ير مثله ، فكان كما قال .

(وقال الحافظ أبو حفص) كان ابن تيمية اذا شرع في الدرس يفتح الله عليه أسرار العلوم وغوامض ولطائف ودقائق وفنون ونقول واستدلالات بآيات وأحاديث وأقوال العلماء ، ونص بعضها وتبيين صحتها ، وتزييف بعضها ، وايضاح حجتـه ، واستشهاد بأشعار العرب ، وهو مع ذلك يجري كما يجري التيار ، ويفيض كما يفيض البحر ، ويصير منذ يتكلم الى أن يفرغ كالغائب عن الحاضرين مغمضا عينيه ، ويقع عليه اذ ذاك من المهابة مايرعد القلوب ويحير الابصار والعقول .

(ومن أعجب) الأشياء في حقه أنه لما سجن صنف كتبا كثيرة ، وذكر فيهـا الأحاديث والآثار وأقوال العلماء وأسماء المحدثين والمؤلفين ومؤلفاتهم ، وعزا كـل شيء من ذلك الى ناقليه وقائليه ، وذكر أسماء الكتب التي ذكر ذلك فيها ، وفي أي موضع هو منها ، كل ذلك بديهة من حفظه ، لأنه لم يكن عنده حينئذ كتاب يطالعه ، ونقبت واعتبرت فلم يوجد بحمد الله فيها خلل ولا تغيير .

(وأما معرفته بصحيح المنقول وسقيمه) فانه في ذلك من الجبال التي لاترتقى ذروتها ولا ينال سنامها فقل ان ذكر له قول الا وقد أحاط علمه بمنكره وذاكره وناقله، أو راو الا وقد عرف حاله من جرح وتعديل باجمال وتفصيل .

(وأما ماوهبه الله تعالى ومنحه به) من استنباط المعاني من الألفـاظ النبوية والأخبار المروية وابراز الدلائل منها على المسائل وتبيين مفهوم اللفظ ومنطـوقه وايضاح المخصص للعام والمقيد للمطلق والناسخ للمنسوخ وتبيين ضوابطها ولوازمها وملزوماتها وما يترتب عليها ومايحتاج فيه اليها فمما لايوصف ، حتى كان اذا ذكر آية أو حديثا وبين معانيه وما أريد به يعجب العالم الفطن من حسن استنباطه ، ويدهشه ماسمعه أو وقف عليه منه ، ولقد سئل يوما عن حديث (لعن الله المحلل والمحلل له) فلم يزل يورد فيه وعليه حتى بلغ كلامه فيه مجلدا كبيرا ، وقل أن يذكر له حديث أو حكم الا وتكلم عليه يومه أجمع ، أو تقرأ بحضرته آية من كتاب الله تعالى ويشرع في تفسيرها الا وقضى المجلس كله فيه .

(وأما ماخصه الله تعالى) من معارضة أهل البدع في بدعهم ، وأهل الأهواء في أهوائهم ، ومبالغته في ذلك من دحض أقوالهم ، وتزييف أمثالهـم وأشكالهـم ، واظهار عوارهم وانتحالهم ، وتبديد شملهم وقطع أوصالهم ، وأجوبته عن شبههـم الشيطانية ، ومعارضاتهم النفسانية ، بما منحه الله تعالى به من البصائر الرحمانية ،

والدلائل النقلية ، والتوضيحات العقلية : فمن العجب العجيب •
(ذكر هذا كله) الحافظ أبو حفص عمر البزار ، وقال الحمد لله الذي من علينا برؤيته وصحبته ،ولقد جعله الله حجة على أهل عصره •
(وأنا أقول) الحمد لله الذي من علينا بمحبته ، واعتقاد أنه ممن تمسك بالكتاب والسنة ، والقيام بنصرهما والذب عنهما ، فالله تعالى يرحمه رحمة واسعة وينفعنا به آمين •
(فصل في بعض مآثره الحميدة على سبيل التلخيص والا فبسطها يستدعي طولا)
(أما تعبده) فانه رضي الله عنه كما قال الأئمة الناقلون عنه قل ان سمع بمثله انه كان قد قطع جل وقته وزمانه في العبادة ، حتى أنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله وما يزاوله ، لا من أهل ولا من مال ، وكان في ليله منفردا عن الناس كلهم خاليا بربه عز وجل ضارعا اليه مواظبا على تلاوة القرآن العظيم مكررا لأنواع التعبدات الليلية والنهارية ، وكان اذا دخل في الصلاة ترتعد فرائصه وأعضاؤه حتى يميل يمنة ويسرة ، وكان اذا رأى في طريقه منكرا أزاله ، أو سمع بجنازة سارع للصلاة عليها ، أو تأسف على فواتها ، ولا يزال تارة في افتاء الناس وتارة في قضاء حوائجهم حتى يصلي الظهر مع الجماعة ، ثم كذلك بقية يومه ، وكان مجلسه عاما للكبير والصغير والجليل والحقير ، ويرى كل منهم في نفسه أنه لم يكرم أحدا بقدره، ثم يصلي المغرب وتقرأ عليه الدروس ، ثم يصلي العشاء ، ثم يقبل على العلوم الى أن يذهب طويل من الليل ، وهو في خلال ذلك كله الليل والنهار لايزال يذكر الله تعالى ويوحده ويستغفره •

(وأما ورعه) فكان من الغاية التي ينتهى اليها في الورع أن الله تعالى أجراه مدة عمره كلها على الورع ، فانه ماخالط الناس في بيع ولا شراء ، ولا معاملة ولا تجارة ، ولامشاركة ، ولا مزارعة ، ولا عمارة ، ولا كان ناظرا أو مباشرا لمال وقف ، ولم يقبل جراية ولا صلة لنفسه من سلطان ، ولا أمير ، ولا تاجر ، ولا كان مدخرا دينارا ولا درهما ، ولا متاعا ولاطعاما ، وانما كانت بضاعته مدة حياته وميراثه بعد وفاته رضي الله تعالى عنه العلم اقتداء بسيد المرسلين ، فانه قال : (ان العلماء ورثة الأنبياء ان الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ولكن ورثوا العلم فمن أخذ به فقد أخذبحظ وافر) •
(وأما زهده) فقد جعله الله شعارا من صغره ، ولقد اتفق كل من رآه خصوصا

من مال الى ملازمته أنه مارأى مثله في الزهد في الدنيا ، واشتهر عنه ذلك حتى لو سئل عامي من أهل بلد بعيد من أزهد أهل هذا العصر وأكملهم في رفض فضول الدنيا وأحرصهم على طلب الآخرة ؟ لقال ماسمعت بمثل ابن تيمية ، وما اشتهر بذلك الا لمبالغته في الزهد مع تصحيح النية ، لم يسمع أنه رغب في زوجة حسناء ، ولا سرية حوراء ، ولا حرص على دينار ولادر هم ، ولا رغب في دواب ولا نعم ، ولا ثياب فاخرة ولا حشم ، ولا زاحم في طلب الرياسات ، ولا رؤي ساعيا في تحصيل المباحات، مع أن الملوك والأمراء والتجار والكبراء كانوا طوع أمره خاضعين لقوله ، وادين أن يتقربوا الى قلبه مهما أمكنهم مظهرين لاجلاله ، فأين حاله هذا من حال من أغراهم الشيطان بالوقيعة فيه ، أما نظروا ببصائرهم الى صفاتهم وصفاته ، وسماتهم وسماته، وتحاسدهم في طلب الدنيا وفراغه عنها ، ومبالغته في الهرب منها ، وخدمتهم للأمراء واختلافهم الى أبوابهم وذل الأمراء بين يديه وعدم اكتراثه بهم ، وقوة جأشه في محاوراتهم ؟ بلى والله ولكن قتلتهم الحالقة حالقة الدين لا حالقة النعم •

(وأما ايثاره مع فقره) فكان رضي الله عنه مع رفضه للدنيا وتقلله منها مؤثرا بما عساه يجده منها قليلا كان أو كثيرا ، لايحتقر القليل فيمنعه ذلك عن التصدق به ، ولا الكثير فيصرفه النظر اليه عن الاسعاف به ، فقد كان يتصدق حتى اذا لم يجد شيئا نزع بعض ثيابه فيصل به الفقراء ، وكان يستفضل من قوته الرغيف والرغيفين فيؤثر بذلك على نفسه •

(وذكر الشيخ صالح زين الدين علي الواسطي) أنه أقام بحضرة الشيخ مدة طويلة ، قال : فكان قوتنا أنه يأتيني بكرة النهار ومعه قرص قدره نصف رطل بالعراقي فيكسره بيده لقما ويأكل ، ثم يرفع يده قبلي ، ولا يفرغ باقي القرص من بين يدي حتى أشبع الى الليل ، وكنت أرى ذلك من بركة الشيخ ، ثم بعد عشاء الأخيرة يؤتى بعشائنا فيأكل هو معي لقيمات ثم يؤثرني بالباقي ، وكنت أسأله أن يزيد على أكله فلا يفعل ، حتى أني كنت في نفسي أتوجع له من قلة أكله ، وكان هذا أكلنا في غالب مدة اقامتي عنده ، وما رأيت نفسي أعزمنها في تلك المدة ، ولا رأيتني أجمع هما مني فيها •

(وحكى غير واحد) مااشتهر عنه من كثرة الايثار وتفقد المحتاجين والغرباء واجتهاده في مصالحهم وصلاتهم ومساعدته لهم بل ولكل أحد من العامة والخاصة ممن يمكنه فعل الخير معه واسداء المعروف اليه بقوله أو فعله ووجهه وجاهه •

(وأما كرمه) فكان رضي الله تعالى عنه مجبولا على الكرم ولا يتنطعه ولا يتصنعه بل هو له سجية ، وكان لايرد من يسأل شيئا يقدر عليه من دراهم ودنانير وثياب وكتب •

وقال الحافظ ابن فضل الله العمري : كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث فيهب ذلك بأجمعه ، ويضعه عند أهل الحاجة في موضعه ، لايأخذ منه شيئا الا ليهبه ، ولا يحفظه الا ليذهبه •

وقال في موضع آخر : كان يجيئه من المال في كل سنة مالا يكاد يحصى ، فينفقه جميعه آلافا ومئين ، لايلمس منه درهما بيده ، ولا ينفقه في حاجته ، بل كان اذا لم يقدر يعمد الى شيء من لباسه فيدفعه الى السائل ، وذلك مشهور عند الناس من حاله •

حكى من يوثق به قال : كنت يوما جالسا بحضرة شيخ الاسلام ابن تيمية رضي الله عنه فجاء انسان فسلم عليه فرآه الشيخ محتاجا الى مايعتم به فنزع الشيخ عمامته من غير أن يسأله الرجل فقطعها نصفين واعتم بنصفها ودفع النصف الآخر لذلك الرجل ولم يحتشم للحاضرين عنده ، وحدث من يوثق به أن الشيخ رضي الله تعالى عنه كان مارا في بعض الأزقة فدعا له بعض الفقراء وعرف الشيخ حاجته ولم يكن مع الشيخ مايعطيه فنزع ثوبا على جلده ودفعه اليه ، وقال : بعه بما تيسر وأنفقه ، واعتذر اليه من كونه لم يحضر عنده شيء من النفقة ، وسأله انسان كتابا ينتفع به فقال خذ ماتختار ، فرأى ذلك الرجل بين كتب الشيخ مصحفا قد اشتري بدراهم كثيرة فأخذه ومضى ، فلام بعض الجماعة الشيخ في ذلك ، فقال : أكان يحسن بي أن أمنعه بعد ماسأله ؟ دعه فلينتفع به ، وكان رضي الله تعالى عنه ينكر انكارا شديدا على من ينال شيئا من كتب العلم التي يملكها ويمنعها من السائل ، ويقول ماينبغي أن يمنع العلم ممن يطلبه •

(وأما لباسه) فكان رضي الله تعالى عنه متوسطا في لباسه لايلبس فاخرالثياب بحيث يرمق ويمد النظر اليه ، ولا أطمارا ولا غليظة تشهر لابسها من عالم أو عابد ، بل كان لباسه وهيئته كغالب الناس ومتوسطيهم ، ولم يكن يلبس نوعا واحدا من اللباس ، بل يلبس مااتفق وحصل ، ويأكل ماحضر ، وكانت بذاذة الايمان عليه ظاهرة، لايرى متصنعا في عمامة ولا لباس ، ولا مشية و لاقيام ، ولا جلوس ، ولم يسمع أنه أمر أن يتخذ له ثوب بعينه ، بل كان أهله يأتون بلباسه وقت حاجته لبدل ثيابه التي

عليه ، وربما اتسخت ولا يأمر بغسلها حتى يسأله أهله ذلك ، وكذا كان في المآكل ، فما سمع أنه طلب طعاما قط ولا عشاء ولا غداء ولو بقي مهما بقي لشدة اشتغاله بما هو فيه من العلم والعمل ، بل كان ربما يؤتى بالطعام وربما يترك عنده فيبقى زمانا حتى يلتفت اليه ، واذا أكل يأكل شيئا يسيرا ، وما ذكر من ملاذ الدنيا ونعيمها ، ولا كان يخوض في شيء من حديثها ولا يسأل عن شيء من معيشتها ، بل جل همه وحديثه في طلب الآخرة ومايقرب الى الله تعالى .

(وأما تواضعه) فما سمع بأحد من أهل عصره مثله رحمه الله في ذلك ، فكان يتواضع للكبير والصغير ، والجليل والحقير ، والفقير ، ويدنيه ويكرمه ويباسطه بحديث زيادة عن الغنى ، حتى أنه ربما خدمه بنفسه وأعانه بحمل حاجته جبرا لقلبه ، وكان لايسأم ممن يستعبه أو يسأله ، بل يقبل عليه ببشاشة وجه ولين عريكة ، ويقف معه حتى يكون هو الذي يفارقه ، ولا يجبهه ولا يتفوه بكلام يوحشه ، بل يجيبه ويفهمه ويعرفه الخطأ من الصواب بلطف وانبساط ، وكان يلزم التواضع في حضوره مع الناس ومغيبه عنهم في قيامه وقعوده ومشيه ومجلسه وغيره .

(وأما كرماته وفراسته) فقال الشيخ الحافظ أبو حفص عمر جرى بيني وبين بعض الفضلاء منازعة في عدة مسائل وطال كلامنا فيها ، وجعلنا الشيخ المرجع ، فلما حضر هممنا بسؤاله عنها فسبقنا هو وشرع يذكر لنا مسألة عما كنا فيه ، ويذكر أقوال العلماء فيها ثم يرجح منها مارجحه الدليل ، حتى أتى على آخر ماأردنا ، فبقينا ومن حضرنا مبهوتين متعجبين ، وكنت في صحبتي له اذا خطر لي بحث يشرع يورده ويذكر الجواب عنه من عدة وجوه .

قال : وحدثني الشيخ الصالح المقري أحمد ، قال : لما قدمت دمشق لم يكن معي شيء من النفقة البتة ، وأنا لاأعرف أحدا من أهلها ، فجعلت أمشي في زقاق كالحاير واذا الشيخ أقبل نحوي مسرعا فسلم وهش في وجهي ووضع في يدي صرة فيها دراهم وقال أنفق هذه الآن واخل خاطرك مما أنت فيه فان الله لايضيعك ، ثم انصرف فسألت من هذا فقيل ابن تيمية ، وله مدة ماجتاز بهذا الدرب ، وكان جل قصدي من سفري الى دمشق لقاءه ، فتحققت أن الله أظهره عليّ وعلى حالي ، فما احتجت بعدها الى أحد مدة اقامتي بدمشق ، بل فتح الله عليّ من حيث لاأحتسب .

وقال وحدثني الشيخ العالم المقري تقي الدين عبد الله قال لما سافرت الى مصر — حين كان الشيخ مقيما بها — فقدمتها ليلا وأنا مريض مثقل ، فأنزلت في بعض الأمكنة

فلم ألبث أن سمعت من يناديني باسمي وكنيتي فأجبته وأنا ضعيف ، فدخل اليّ جماعة من أصحاب الشيخ فقلت كيف عرفتم بقدومي هذه الساعة ، قالوا أخبرنا الشيخ أنك قدمت وأنت مريض فأمرنا أن نسرع بنقلك ، وما رأينا أحدا جاءه ولا أخبره بشيء ، قال ومرضت بدمشق فلم أشعر الا والشيخ عند رأسي وأنا مثقل بالحمى والمرض ، فدعا لي وقال جاءت العافية ومشيت من وقتي •

(وقال الشيخ عماد الدين المقري المطرز) قدمت على الشيخ ومعي حينئذ نفقة فسلمت عليه فرد علي ورحب بي وأدناني ولم يسألني هل معك نفقة أم لا ، فلما كان بعد أيام وقد نفدت نفقتي أردت أن أخرج من مجلسه بعد أن صليت مع الناس وراءه ، فمنعني وأجلسني دونهم ، فلما خلا دفع اليّ جملة دراهم ، وقال أنت الآن بغير نفقة فعجبت من ذلك •

(ولما نزل المغل) بالشام لأخذ دمشق رجف أهلها ، وجاء اليه جماعة منهم وسألوه الدعاء للمسلمين ، فتوجه الى الله ، ثم قال : أبشروا فان الله يأتيكم بالنصر في اليوم الفلاني بعد ثالثة ترون الرؤوس معبأة بعضها فوق بعض ، قال الذي حدث فوالذي نفسي بيده ما مضى الا ثلاث منذ قوله حتى رأينا رؤوسهم كما قال الشيخ على ظاهر دمشق معبأة بعضها فوق بعض •

(وكان الشيخ) يعود المريض ، فمرض شاب بدمشق فكان يعوده في كل يوم فجاء يوما الشاب فدعا له فشفي سريعا ، وقال له عاهد الله أن تعجل الرجوع الى بلدك أيجوز أن تترك زوجتك وبناتك ضيعة وتقيم ههنا ؟ قال الشاب : فقبلت يده وقلت ياسيدي اني تائب الى الله ، وعجبت مما كاشفني به وكنت قد تركتهن بلا نفقة، ولم يكن عرف بحالي أحد من أهل دمشق •

ومضى بعض الفضلاء متوجها الى مصر ليلي القضاء وعزم على قتل رجل صالح بها اذا وصل ، فلما بلغ الشيخ ذلك قال ان الله لايمكنه مما قصد ولا يصل الى مصر حيا ، فبقي بين القاضي وبين مصر قدر يسير وأدركه الموت •

(وذكر الحافظ) ابن عبد الهادي بن قدامة أن الشيخ لما أفتى بمسألة شد الرحال للقبور اجتمع جماعة معروفون بدمشق وضربوا مشورة في حق الشيخ ، فقال أحدهم ينفى فنفي القائل ، وقال آخر يقطع لسانه فقطع لسان القائل ،وقال آخر يعزر فعزر القائل ، وقال آخر يحبس فحبس القائل ، قال : وأخبرني بذلك من حضر هذه المشورة وهو كاره لها •

(وبالجملة) فكرامات الشيخ رحمه الله تعالى كثيرة جدا ، قالوا ومن أظهر كراماته انه ما سمع بأحد عاداه أو تنقصه الا وابتلي بلايا غالبها في دينه ، قالوا وهذا ظاهر مشهور لايحتاج فيه الى شرح صفته ، قالوا ومن أمعن النظر ببصيرته لم ير عالما من أهل أي بلد شاء موافقا له مثنيا عليه الا ورآه من اتبع علماء بلده للكتاب والسنة ، وأشغلهم بطلب الآخرة والرغبة فيها ، وأبلغهم في الاعراض عن الدنيا والاهمال لها ، ولا يرى عالما مخالفا له منحرفا عنه ا لاوهو من أكبرهم نهمة في جمع الدنيا ، وأكثرهم رياء وسمعة ، والله أعلم •

(وأما شجاعته وجهاده) فأمر متجاوز للوصف ، فكان رضي الله تعالى عنه كما قال الحافظ سراج الدين أبو حفص في مناقبه هو من أشجع الناس وأقواهم قلبا ، مارأيت أحدا أثبت جأشا منه ، ولا أعظم في جهاد العدو منه ، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده ، ولا يخاف في الله لومة لائم ، وأخبر غير واحد أن الشيخ كان اذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم ، ان رأى من بعضهم هلعا أو جبنا شجعه وثبته وبشره ووعده بالنصر والظفر والغنيمة ، وبين له فضل الجهاد والمجاهدين ، وكان اذا ركب الخيل يجول في العدو كأعظم الشجعان ، ويقوم كأثبت الفرسان ، وينكي العدو من كثرة الفتك بهم ، ويخوض بهم خوض رجل لا يخاف الموت ، وحدثوا أنهم رؤا منه في فتح عكة أمورا من الشجاعة يعجز الواصف عن وصفها ، قالوا ولقد كان السبب في تملك المسلمين اياها بفعله ومشورته وحسن نظره •

(ولما ظهر السلطان ابن غازان) على دمشق المحروسة جاءه ملك الكرج وبذل له أموالا كثيرة جزيلة على أن يمكنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق فوصل الخبر الى الشيخ فقام من فوره وشجع المسلمين، ورغبهم في الشجاعة ، ووعدهم على قيامهم بالنصر والظفر والأمن ، وزوال الخوف ، فانتدب منهم رجل من وجوههم وكبرائهم وذوي أحلامهم ، فخرجوا معه الى حضرة السلطان غازان ، فلما رأى الشيخ أوقع الله له في قلبه هيبة عظيمة ، حتى أدناه منه وأجلسه ، وأخذ الشيخ في الكلام معه في عكس رأيه من تسليط المخذول ملك الكرج على المسلمين ، وأخبره بحرمة دماء المسلمين ، وذكره ووعظه ، فأجابه الى ذلك طائعا ، وحقنت بسببه دماء المسلمين ، وحميت ذراريهم وصين حريمهم •

(وقال الشيخ كمال الدين ابن الأنجا قدس الله روحه) كنت حاضرا مع

الشيخ فجعل يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره ويرفع صوته على السلطان ويقرب منه في أثناء حديثه ،حتى لقد قرب أن يلاصق بركبته ركبة السلطان، والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكليته مصغ لما يقول شاخص اليه لايعرض عنه ، وان السلطان من شدة ماأوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة سأل من هذا الشيخ فاني لم أر مثله ولا أثبت قلبا منه ولا أوقع من حديثه في قلبي ولا رأيتني أعظم انقيادا لأحد منه ، فأخبر بحاله وماهو عليه من العلم والعمل ، فقال الشيخ للترجمان قل للغازان(1) أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وامام وشيخ ومؤذنون على مابلغنا فغزوتنا وأبوك وجدك كانا كافرين وما عملا الذي عملت ، عاهدا فوفيا وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت وجرت ، ثم خرج من بين يديه مكرما معززا بحسن نيته الصالحة من بذل نفسه في طلب حقن دماء المسلمين فبلغه الله تعالى ماأراده ، وكان أيضا سببا لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم وردهم على أهليهم وحفظ حريمهم ، وهذا من أعظم الشجاعة والثبات وقوة التجاسر ، وكان يقول لن يخاف الرجل غير الله الالمرض في قلبه ، فان رجلا شكى الى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال لو صححت لم تخف أحدا أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك •

(وأخبر قاضي القضاة أبو العباس) أنهم لما حضروا مجلس غازان قدم لهم طعام فأكلوا منه الا ابن تيمية ، فقيل لم لم تأكل ؟ فقال : كيف آكل من طعامك وكله مما نهبتم من أغنام الناس ، طبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ؟ ثم ان غازان طلب منه الدعاء ، فقال في دعائه : اللهم ان كنت تعلم أنه انما قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وجاهد في سبيلك فان تؤيده وتنصره ، وان كان للملك والدنيا والتكاثر فان تفعل به وتصنع ، فكان يدعو عليه وغازان يؤمن على دعائه ، ونحن نجمع ثيابنا خوفا أن يقتل فيطرطس بدمه ، ثم لما خرجنا قلنا له كدت تهلكنا معك ونحن ما نصحبك من هنا ، فقال : وأنا لاأصحبكم ، فانطلقنا عصبة وتاخر ، فتسامعت به الخوانين والأمراء فاتوه من كل فج عميق ، وصاروا يتلاحقون به ليتبركوا برؤيته ، فما وصل الا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه ، وأما نحن فخرج علينا جماعة فشلحونا ، فانظر ــ كما قال الحافظ ابن فضل الله العمري ــ الى قيامه في دفع حجة القتال واقتحامه ، وسيوفهم تدفق لجة البحار ، حتى جلس الى السلطان محمود غازان حيث لجم

(1) قوله : قل للغازان . كان الاصل : قل للقآن، والصواب الاول فان قاآن لقب ملك ملوك المغول الذي كان مقره بالصين وغازان اول من آمن من ملوك المغول فى ايران وبسبب ايمانه امن جميع عساكر المغول اه مصححه الكردي . كذا فى الاصل .

الأسد في آجامها ، وتسقط القلوب في دواخل أجسامها ، خوفا من ذلك السبع المغتال ، والنمروذ المختال ، والأجل الذي لايدفع بحيلة محتال ، فجلس اليه وأومأ بيده الى صدره ، وواجهه ودرأ في نحره ، وطلب منه الدعاء فرفع يديه ودعا دعاء منصف أكثره عليه ، وغازان يؤمن على دعائه وهو مقبل اليه ، ثم كان على هذه المواجهة القبيحة والمشاتمة الصريحة أعظم في صدر غازان والمغل من كل من طلع معه من سلف العلماء في ذلك الصدر ، وأهل الاستحقاق لرفعة القدر ، هذا مع ماله من جهاد في الله ، لم يفترعه فيه طلل الوشيج ، ولم يحرعه فيه ارتفاع النسيج ، مواقع حروب باشرها ، وطوائف ضروب عاشرها ، وبوارق صفاح كاشرها ، ومضايق رماح حاشرها ، وأصناف خصوم لد قطع جدالها قوي لسانه ، وجلاها بسنا سنانه ، وجرت له مع غازان وقطلو شاه وبولاي أمور ونوب قام فيها كلها لله ، وقال الحق ولم يخش الا الله .

(ولما قدم بعد ذلك) عام سبعمائة التتار مع غازان لفتح الشام والاستيلاء على من بها من المؤمنين ركب الشيخ البريد الى الجيش المصري فدخل القاهرة في ناس يوم حادي عشر جمادى الأولى ، فاجتمع بأركان الدولة وحثهم على الجهاد ، وتلا عليهم الآيات والأحاديث ، وأخبرهم بما أعد الله للمجاهدين من الثواب ، فاستقاموا وقويت هممهم ، وأبدوا له عذر المطر والبرد ، ونودي بالغزاة ، وقوي العزم ، وعظموه وأكرموه ، وتردد الأعيان الى زيارته ، واجتمع به في هذه السنة ابن دقيق العيد ، ثم في اليوم السابع والعشرين من جمادى الأولى المذكور وصل الشيخ الى دمشق على البريد ، وأرسل الله على العدو من الثلج العظيم والبرد الشديد والريح العاصف والجوع المزعج ماالله به عليم ، فأصاب غازان وجنوده وأهلكهم ، وكان سبب رحيلهم ، وفرق الله بين قلوب العدو المغل والكرج والفرس والمستعربة ،وألقى بينهم تعاديا وتباغضا ، كما ألقى عام الأحزاب بين قريش وغطفال وبين اليهود ،فأرسل الشيخ كتابا مطولا لمصر يقول فيه : لما ثبت الله قلوب المسلمين صرف العدو جزاء منه لبيان أن النية الخالصة والهمة الصادقة ينصر الله بها وان لم يصنع الفعل وان تباعدت الديار .

(وحكي من شجاعة الشيخ) في مواقف الحروب نوبة شقحب سنة اثنتين وسبعمائة ونوبة كسروان مالم يسمع الاعن صناديد الرجال ،وشجعان الأبطال،فكان تارة يباشر القتال ، وتارة يحرض عليه قائما شاكيا سلاحه ولأمة حربه يوصي الناس

بالثبات ، ويعدهم بالنصر ، ويبشرهم بالغنيمة ، وركب البـريد الى مهنى بن عيسى واستحضره الى الجهاد ، وركب بعدها الى السلطان واستنفره وواجهه بالكلام الغليظ وواجه أمراءه وعساكره ، ولما جاء السلطان الملك الناصر بجيوش الاسلام للقاء القتال جعل الشيخ يشجع السلطان ويثبته ، فلما رأى السلطان كثرة التتار قال ياخالد بن الوليد فقال له لاتقل هذا بل قل يا الله واستغث بالله ربك ووحده تنصر ، وقل يامالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين ، ثم صار تارة يقبل على الخليفـة وتارة على السلطان ويهديهما ويربط جأشهما حتى جـاء نصر الله والفتـح ، وحكي أنه قال للسلطان اثبت فانك منصور ، فقال له بعض الأمراء قل ان شاء الله فقال ان شاء الله تحقيقا لاتعليقا فكان كما قال •

(وحكى بعض حجاب الأمراء) قال : قال لي الشيخ يوم اللقاء وقد تراءى الجمعان يافلان أوقفني موقف الموت ، قال : فسقته الى مقابلة العدو ــ وهم منحدرون كالبدر تلوح أسلحتهم من تحت الغبار ــ وقلت له : هذا موقف الموت فدونك وماتريد ، قال فرفع طرفه الى السماء وأشخص بصره وحرك شفتيه طويـلا ثم انبعث وأقـدم على القتال ، وقد قيل أنه دعا عليهم وان دعاءه استجيب منه في تلك الساعة ، قال : ثم حال القتال بيننا والالتحام وماعدت رأيته حتى فتح الله ونصر ، ودخل جيش الاسلام الى دمشق المحروسة والشيخ في أصحابه شاكيا في سلاحه ، عالية كلمته ، قائمة حجته ، ظاهرة ولايته ، مقبولة شفاعته ، مجابة دعوته ، ملتمسة بركته ، مكرما معظمـا ، ذا سلطان وكلمة نافذة ، وهو مع ذلك يقول للمادحين له أنا رجل ملة لارجل دولة ، قال بعض أصحابه ــ وقد ذكر هذه الواقعة وكثرة من حضرها من جيوش المسلمين ــ وقد اتفق كلهم وأجمعوا على تعظيم الشيخ تقي الدين ومحبته ، وسماع كلامه ونصيحته ، واتعظوا بمواعظه ، ولم يبق من يكون بالشام تركي ولا عربي الا واجتمع بالشيـخ في تلك المدة ، واعتقد خيره وصلاحه ، ونصحه لله ولرسوله والمؤمنين •

(ثم لم يزل الشيخ رحمه الله تعالى) قائماأتم قيام علىقتال أهل جبل كسروان، وكتب الى أطراف الشام في الحث على قتالهم ، وأنها غزاة في سبيل الله ، ثم توجه هو بمن معه لغزوهم بالجبل صحبة ولي الأمر نائب المملكة ، وما زال مع ولي الأمـر في حصارهم حتى فتح الله الجبل وأجلى أهله ،وكان توجه الشيخ الى الكسروانيين أول ذي الحجة سنة أربع وسبعمائة ، ورد على شيوخ روافضهم في دعواهم عصمة عليّ ، وقال ان عليا وعبد الله بن مسعود اختلفا في مسائل وقعت وفتاوى أفتيا بها وعرض

ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فصوب فيها قول ابن مسعود ، ثم كتب الشيخ للسلطان يخبره بأمر الفتح وعن عقائدهم ، وهي أنهم يعتقدون كفر الصحابة وكفر من ترضى عنهم ، أو حرم المتعة ، أو مسح على الخفين ، ولا يقرون بصلاة ولا صيام ولا جنة ولا نار ، ولا يحرمون الدم والميتة ولحم الخنزير ، ويشتملون على اسماعيلية ونصيرية وحاكمية وباطنية ، وهم كفار أكفر من اليهود والنصارى .

ثم قال : وتمام هذا الفتح أمر السلطان بحرمان أهل الفساد من مشايخ الدين يصلونهم ، ويتقدم الى قراهم بأعمال دمشق وصعد وطرابلس وحمص وحماه وحلب بأن تقام فيهم شرائع الاسلام الجمعة والجماعة وقراءة القرآن ، وتكون لهم خطباء ومؤذنون ، ويقرأ فيهم الأحاديث النبوية ، وتكثر فيهم المعالم الاسلامية ، وأطال الكلام في كتابه ، وحث السلطان على ذلك ، وقال : ان غزوهم اقتداء بسيرة علي بن أبي طالب في قتاله للحرورية المارقين الذين تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم الأمر بقتالهم ونعت حالهم ، وقال صلى الله عليه وسلم فيهم (يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرؤون القرآن لايجاوز جناجرهم ، يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية ، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد ، لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد ، يقتلون أهل الاسلام ويدعون أهل الأوثان ، يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم ، شر قتلى تحت أديم السماء ، خير قتلى من قتلوه .

(وكان رضي الله عنه) قائما في نصر الدين واظهار الحق بأدلة أقطع من السيوف ، وأجمع من السجوف ، وأجلى من فلق الصباح ، وأجلب من فلق الرماح ، اذا وثب في وجه خطب تمزقت على كتفيه الدرع وانتشر السرد ، ولقد نافسنا ملوك جند كشخان عليه ووجهت دسائس رسلها اليه ، ولما وشوا به الى السلطان الأعظم الملك الناصر لدين الله وأحضره بين يديه قال من جملة كلامه : انني أخبرت أنك قد أطاعك الناس ، وان في نفسك أخذ الملك ، فلم يكترث به بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابت وصوت عال سمعه كثير ممن حضر : أنا أفعل ذلك والله ان ملكك وملك المغل لايساوي عندي فلسا ، فتبسم السلطان لذلك وأجابه في مقابلته بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة : انك والله لصادق ، وان الذي وشى بك الي لكاذب ، واستقر له في قلبه من المحبة الدينية مالولاه لكان قد فتك به منذ دهر طويل من كثرة مايلقى اليه في حقه من الأقاويل الزور والبهتان ممن ظاهر حاله العدالة ، وباطنه

مشحون بالفسق والجهالة •

(فصل في تمسك ابن تيمية بالكتاب والسنة)

قال الشيخ الامام العالم العامل الأوحد الفاضل الحافظ سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن موسى البزار رحمه الله تعالى ، كان الشيخ تقي الدين ابن تيمية رضي الله تعالى عنه من أعظم أهل عصره قوة ومقاما وثبوتا على الحق وتقريرا لتحقيق توحيد الحق ، لايصده عن ذلك لومة لائم ولا قول قائل ، ولا يرجع عنه بحجة محتج ، بل كان اذا وضح له الحق يعض عليه بالنواجذ ، ولا والله مارأيت أحدا أشد تعظيما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحرص على اتباعه ونصر ما جاء به منه ، حتى كان اذا أورد شيئا من حديثه في مسألة — ويرى أنه لم ينسخه شيء غيره من حديث — يعمل ويقضي ويفتي بمقتضاه ، ولا يلتفت الى قول غيره من المخلوقين كائنا من كان •

قال : واذا نظر المنصف اليه بعين العدل يراه واقفا مع الكتاب والسنة ، لايميله عنهما قول أحد كائنا من كان ، ولايراقب في الأخذ بمعلومهما أحدا ، ولايخاف في ذلك أميرا ولا سلطانا ولا سوطا ولا سيفا ، ولا يرجع عنهما لقول أحد ، وهو متمسك بالعروة الوثقى واليه الطول ، وعامل بقوله تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُم فِي شَيءٍ فَرُدُّوهُ الى اللهِ والرَّسُولِ ﴾ (١) الآية ، وبقوله تعالى ﴿ وما اخْتَلَفْتُم فيهِ مِن شَيءٍ فَحُكْمُهُ الى اللهِ ﴾ (٢) وما سمعنا أنه اشتهر عن أحد منذ دهر طويل ما اشتهر عنه من كثرة المتابعة للكتاب والسنة ، والامعان في تتبع معانيهما والعمل بمقتضاهما ، ولهذا لايرى في مسألة أقوال العلماء الا وقد أفتى بأبلغها موافقة للكتاب والسنة ، وتحرى الأخذ بأقومها من جهة المنقول والمعقول ، قال : وهذا أمر قد اشتهر وظهر ، فانه رضي الله عنه ليس له مؤلف مصنف ولا نص في مسألة ولا أفتى الا وقد اختار فيه مارجحه الدليل النقلي والعقلي على غيره ، وتحرى قول الحق المحض ، وبرهن عليه بالبراهين القاطعة الواضحة الظاهرة ، بحيث اذا سمع ذلك ذو الفطرة السليمة يثلج قلبه عليها ، ويجزم بأنها الحق المبين ، وتراه في جميع مؤلفاته اذا صح الحديث عنده يأخذ به ويعمل بمقتضاه ويقدمه على قول كل قائل من عالم ومجتهد ، وقد سبقه الامام الشافعي رحمه الله الى ذلك حيث قال : اذا صح الحديث فهو مذهبي •

---

(١) النساء : ٥٩ — (٢) الشورى : ١٠

ولما من الله عليه بذلك جعل حجة في عصره لأهله ، حتى أن أهل البلاد البعيدة كانوا يرسلون اليه بالاستفتاء عن وقائعهم ، ويقبلون عليه في كشف ماالتبس عليهم حكمه ، فيشفي عليلهم بأجوبته المسددة ، ويبرهن على الحق من أقوال العلماء المتعددة ، حتى اذا وقف عليها كل محق ذي بصيرة أذعن بقبولها ، وبان له حق مدلولها •

(فصل في محنة ابن تيمية رحمه الله تعالى وتمسكه بطريق السلف)

قل من يسلم من أهل الفضل والدين في هذه الدنيا بلا محنة وابتلاء وخوض فيه حيث لم يداهن الناس ويصانعهم ، ولذا قل صديقه على حد قوله : (ماترك الحق من صديق لعمر) وقال سفيان الثوري رحمه الله : اذا رأيت الرجل يثني عليه جيرانه فاعلم أنه مداهن ، وما وقع من المحنة للأئمة كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والبخاري مشهور كما بينته في كتابنا تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمة المجتهدين ، وأكثروا من الخوض في أبي حنيفة رحمه الله ، حتى أنه رؤي في المنام فقيل له مافعل الله بك فقال غفر لي بكلام الناس فيّ ماليس في ، هذا وشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله امتحن بمحن وخاض فيه أقوام ونسبوه للبدع والتجسيم وهو من ذلك بريء •

فأول محنة ــ كما نقله الثقاة ــ في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وستمائة بسبب عقيدته الحموية الكبرى ، وهي جواب سؤال ورد من حماه فوضعها مابين الظهر والعصر في ست كراريس بقطع نصف البلدي ، فجرى له بسبب تأليفها أمور ومحن رجح مذهب السلف على مذهب المتكلمين وشنع عليهم •

(فمن بعض قوله في مقدمتها) ماقاله الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان ، وما قاله أئمة الهدى بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم هو الواجب على جميع الخلق في هذا الباب وفي غيره ، ومن المحال أن يكون خير الأمة وأفضل قرونها قصروا في هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه ، ثم من المحال أيضا أن تكون القرون الفاضلة القرن الذي بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كانوا غير عالمين وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين ، لأن ضد ذلك اما عدم العلم والقول ، واما اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصدق ، وكلاهما ممتنع ، أما الأول فلأن من في قلبه أدنى حياة وطلب للعلم أو نهمة في العبادة يكون البحث عن هذا الباب والسؤال عنه ، ومعرفة الحق فيه أكبر مقاصده ، وأعظم

مطالبه ، وليست النفوس الصحيحة الى شيء أشوق منها الى معرفة هذا الأمر ، وهذا أمر معلوم بالفطرة ،فكيف يتصور مع قيام هذا المقتضي الذي هو من أقوى المقتضيات أن يتخلف عنه مقتضاه في أولئك السادة في مجموع عصورهم ، هذا لايكاد يقع في أبلد الخلق وأشدهم اعراضا عن الله وأعظمهم اكبابا على طلب الدنيا والغفلة عن ذكر الله ، فكيف يقع في أولئك ، وأما كونهم كانوا معتقدين غير الحق أو قائليه فهذا لايعتقده مسلم ولا عاقل عرف حال القوم .

ثم الكلام في هذا الباب عنهم أكثر من أن يمكن سطره في هذه الفتوى أو اضعافها يعرف ذلك من طلبه وتتبعه ، ولا يجوز أيضا أن يكون الخالفون أعلم بالله من السالفين كما قد يقوله بعض الأغبياء ــ ممن لم يقدر قدر السلف ، بل ولاعرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها ــ من أن طريقة السلف أسلم ،وطريقة الخلف أعلم وأحكم ، فان هذا القول اذا تدبره الانسان وجده في غاية الجهالة ، بل في غاية الضلالة ، ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الايمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك بمنزلة الأميين ، وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات .

فهذا الظن الفاسد أوجبه اعتقاد أنهم كانوا أميين بمنزلة الصالحين من العامة لم يتبحروا في حقائق العلم بالله ولم يتفطنوا لدقيق العلم الالهي ، وان الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله ، كيف يكون هؤلاء المتأخرون ــ لاسيما والاشارة بالخلف الى ضرب من المتكلمين الذين كثر في باب الدين اضطرابهم ، وغلظ عن معرفة الله حجابهم ، وأخبر الواقف على نهاية اقدامهم بما انتهى اليه من مرامهم ، حيث يقول الامام فخر الدين الرازي :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر الا واضعا كف حائر ... على ذقن أو قارعا سن نادم

وأقروا على أنفسهم بما قالوه متمثلين به أو منشئين له فيما صنفوه من كتبهم ، مثل قول بعض رؤسائهم :

نهاية اقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

(ويقول آخر منهم) لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما

رأيتها تشفي عليلا ، ولا تروي غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القـرآن ، اقرأ في الاثبات (اِلَيهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيبُ)[1] (الرَّحْمٰنُ على العَرْشِ اسْتَوى)[2]
واقرأ في النفي (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ)[3] (ولا يُحيطُـونَ به عِلْماً)[4]
ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي •

(ويقول الآخر منهم) لقد خضت البحر الخضم وتركت أهل الاسلام وعلومهم وخضت في الذي نهوني عنه ، والآن ان لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفـلان ، وها أنا أموت على عقيدة أمي •

(ويقول الآخر منهم) أكثر الناس شكا عند الموت أصحاب الكلام •

(ثم اذا حقق عليهم الأمر) لم يوجد عندهم من حقيقة العـلم بالله وخالص المعرفة به خبر ولا وقعوا من ذلك على عين ولا أثر ، كيف يكون هؤلاء المنقوصون المحجوبون المفضولون المسبوقون الحيارى المتهوكون ، أعلم بالله وآياتـه من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان من ورثة الأنبيـاء وخلفاء الرسل واعلام الهدى ومصابيح الدجى ، الذين بهم قام الكتـاب وبه قاموا وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة مابرزوا به على سائر اتباع الأنبياء ، وأحاطوا من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جمعت حكمة غيرهم اليها لاستحيا من يطلب المقابلة ؟؟! ثم كيف يكون خير قرون الأمة أنقص في العلم والحكمة لاسيما العلم بالله وأحكام أسمائه وآياته من هؤلاء الأصاغر بالنسبة اليهم ؟ أم كيف يكون أفراخ المتفلسفة واتباع الهند واليـونان وورثة المجـوس والمشركين وضلال اليهود والنصارى والصائبين وأشكالهم وأشباههم أعلم بالله من ورثة الأنبياء وأهل القرآن والايمان ؟؟!

وانما قدمت هذه المقدمة لأن من استقرت عنده علم طريق الهدى أيـن هو في هذا الباب وغيره ، وأطال رحمه الله الكلام ثم قال :

ان كان الحق فيما يقول هؤلاء السالبون النافون للصفات الثابتة بالكتـاب والسنة دون مايفهم من الكتاب والسنة اما نصا واما ظاهرا : فكيف يجوز على الله تعالى ثم على رسوله ثم على خير الأمة أنهم يتكلمون دائما بما هو نص أو ظاهر في خلاف الحق ، ثم الحق الذي يجب اعتقاده لايبوحون به قط ولا يدلون عليه لانصا

---

(١) فاطر : ١٠ ـ (٢) طه : ٥ ـ (٣) الشورى : ١١ ـ (٤) طه : ١١٠ .

ولا ظاهرا حتى يجيء أبناء الفرس والروم وفروخ الهنود والفلاسفة يبينون للأمة العقيدة الصحيحة ، فان كان مايقوله هؤلاء المتكلمون المتكلفون هو الاعتقاد الواجب ـ وهم مع ذلك أحيلوا في معرفته على مجرد عقولهم ، وان يدفعوا بمقتضى قياس عقولهم مادل عليه الكتاب والسنة ظاهرا ـ لقد كان ترك الناس بلا كتاب ولا سنة ، أهدى لهم وأنفع على هذا التقدير ، بل كان وجود الكتاب والسنة ضررا محضا في أصل الدين ، فان حقيقة الأمر على مايقوله هؤلاء أنكم يامعشر العباد لاتطلبوا معرفة الله ولا مايستحقه من الصفات نفيا واثباتا لا من الكتاب و لامن السنة ولا من طريق سلف الأمة ، ولكن انظروا أنتم فما وجدتموه مستحقا له من الصفات في عقولكم فصفوه به سواء كان موجودا في الكتاب والسنة أو لم يكن ، وما لم تجدوه مستحقا له في عقولكم فلا تصفوه به ، وقدصرح طائفة منهم بما مضمونه أن كتاب الله لايهتدى به في معرفة الله ، وأن الرسول معزول عن التعليم والأخبار بصفات من أرسله ، وأطال الكلام ، ثم قال :

ياسبحان الله كيف لم يقل الرسول يوما من الدهر ولا أحد من سلف الأمة هذه الآيات والأحاديث لاتعتقدوا مادلت عليه ، ولكن اعتقدوا الذي تقتضيه مقاييسكم •

ثم الرسول أخبر أن أمته ستفترق ثلاثا وسبعين فرقة ، فقد علم ماسيكون ، ثم قال : (اني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله) وقال في صفة الفرقة الناجية (هي من كان على مثل ماأنا عليه اليوم وأصحابي) فهلا قال من تمسك بظاهر القرآن في باب الاعتقاد فهو ضال ، وانما الهدى رجوعكم الى مقاييس عقولكم ،وما يحدثه المتكلمون منكم بعد القرون الثلاثة ، وان كان قد نبغ أصل هذه المقالة في أواخر عصر التابعين ، ثم أصل مقالة التعطيل للصفات انما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والنصارى ، فان أول من قالها في الاسلام الجعد بن درهم ، وأخذها عنه جهم بن صفوان ، والجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان ، وأبان عن طالوت ، وطالوت عن خاله لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم ، قال ثم القول الشامل فيجميع هذا الباب ان يوصف الله بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، وبما وصفه به السابقون الأولون ، لاتتجاوز به القرآن والحديث ، ومذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ،ثمذكر الشيخ رحمه

الله تعالى جملا نافعة وأصولا جامعة في اثبات الصفات والرد على الجهمية ، وذكر من النقول عن سلف الأمة مايطول ذكره .

(ثم قال في آخر كلامه) وجماع الأمر أن الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها ستة أقسام كل قسم عليه طائفة من أهل القبلة ، قسمان يقولون تجري على ظواهرها ، وقسمان يقولون هي على خلاف ظاهرها ، وقسمان يسكتون .

(أما الأولون) فقسمان : (أحدهما) من يجريها على ظاهرها ويجعل ظاهرها من جنس صفات المخلوقين ، فهؤلاء المشبهة ومذهبهم باطل أنكره السلف ، واليه توجه الرد بالحق .

(والثاني) من يجريها على ظاهرها اللائق بجلال الله تعالى كما يجري اسم العليم والقدير والرب والاله والموجود والذات ونحو ذلك على ظاهرها اللائق بجلال الله، فان ظواهر هذه الصفات في حق المخلوق ، اما جوهر واما عرض ، فالعلم والقدرة والكلام والمشيئة والرحمة والرضى والغضب ونحو ذلك في حق العبد أعراض والوجه واليد والعين في حقه أجسام .

فاذا كان الله موصوفا عند عامة أهل الاثبات بأن له علما وقدرة وكلاما ومشيئة وان لم تكن أعراضا يجوز عليها مايجوز على صفات المخلوقين جاز أن يكون وجه الله ويداه ليست أجساما يجوز عليها مايجوز على صفات المخلوقين ، وهذا هو المذهب الذي حكاه الخطابي وغيره عن السلف وعليه يدل كلام جمهورهم وكلام الباقين لايخالفه وهو أمر واضح — فان الصفات كالذات ، فكما أن ذات الله ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس ذوات المخلوقين فكذلك صفاته ثابتة من غير أن تكون من جنس صفات المخلوقين ، ومن المعلوم أن صفات كل موصوف تناسب ذاته وتلائم حقيقته ، فمن لم يفهم من صفات الرب الذي ليس كمثله شيء الا مايناسب المخلوق فقد ضل في عقله ودينه ، وما أحسن ما قال بعضهم اذا قال لك الجهمي : كيف استوى أو كيف ينزل الى السماء الدنيا أو كيف يداه ونحو ذلك ؟ فقل له كيف هو في نفسه ؟ فاذا قال لك لايعلم ماهو الا هو وكنه الباري غير معلوم للبشر ، فقل له : والعلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف ، فكيف يمكن أن نعلم كيفية صفة لموصوف لم نعلم كيفيته ، وانما تعلم الذات والصفات من حيث الجملة على الوجه الذي ينبغي لك ، بل هذه المخلوقات في الجنة قد ثبت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال ليس في الدنيا مما في الجنة الا الاسماء ، وقد أخبر الله تعالى أنه لاتعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين ، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن

في الجنة مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فاذا كان نعيم الجنة وهو خلق من خلق الله كذلك فما الظن بالخالق سبحانه ، وهذه الروح قد علم العاقل اضطراب الناس فيها وامساك النصوص عن بيان كيفيتها ، أفلا يعتبر العاقل عن الكلام في كيفية الله تعالى ؟ مع انا نقطع بأن الروح في البدن ، وأنها تخرج منه وتعرج الى السماء ، وأنها تسل منه وقت النزع كما نطقت بذلك النصوص الصحيحة ، لانغالي في تجريدها غلو المتفلسفة ومن وافقهم حيث نفوا عنها الصعود والنزول والاتصال بالبدن والانفصال عنه ، وتخبطوا فيها حيث رأوها من غير جنس البدن وصفاته ، فعدم مماثلتها للبدن لاينفي أن تكون هذه الصفات ثابتة لها بحسبها ، الا أن يفسروا كلامهم بما يوافق النصوص ، فيكونون قد أخطؤا في اللفظ ، وأنى لهم بذلك ؟ •

(وأما القسمان اللذان ينفيان ظاهرها) ويقولون هي على خلاف ظاهرها : فقسم يتأولونها ويعينون المراد ، مثل قولهم : استوى بمعنى استولى ، أو بمعنى علو المكانة والقدرة ، أو بمعنى ظهور نوره للعرش ، أو بمعنى انتهاء الخلق اليه ، الى غير ذلك من معاني المتكلمين •

(وقسم يقولون) الله أعلم ما أراد بها ، لكنا نعلم أنه لم يرد اثبات صفة خارجة عما علمناه •

(وأما القسمان الواقفان) فقسم يقولون يجوز أن يكون المراد بظاهرها اللائق بالله تعالى ويجوز أن لايكون صفة لله ، وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم •

(وقسم) يمسكون عن هذا كله ، ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقريرات •

(فهذه الأقسام) الستة لايمكن أن يخرج الرجل عن قسم منها ، والصواب في كثير من آيات الصفات وأحاديثها القطع بالطريقة الثابتة •

(ثم قال) فاما المتوسط من المتكلمين فيخاف عليه مالا يخاف على من لم يدخل فيه وعلى من قد أنهاه نهايته ، فان من لم يدخل فيه هو في عافية ، ومن أنهاه فقد عرف الغاية فما بقي يخاف من شيء آخر ، فاذا ظهر له الحق وهو عطشان اليه قبله ، وأما المتوسط فمتوهم بما تلقاه من المقالات المأخوذة تقليدا ، وقد قال الناس أكثر مايفسد الدنيا نصف متكلم ونصف متفقه ونصف متطبب ونصف نحوي ، هذا يفسد الأديان ، وهذا يفسد البلدان ، وهذا يفسد الأبدان ، وهذا يفسد اللسان ، ومن علم أن المتكلمين من المتفلسفة وغيرهم في الغالب في قول مختلف يؤفك عنه من أفك يعلم

الذكي منهم العاقل أنه ليس هو فيما يقوله على بصيرة ، وأن حجته ليست بينة وانما هي كما قيل فيها :

حجج تهافت كالزجاج تخالها حقا وكل كاسر مكسور

ويعلم العالم البصير أنهم من وجه يستحقون ما قال الشافعي رضي الله عنه حيث قال حكمي في أهل الكلام ان يضربوا بالجريد والنعال ، ويطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام ، ومن وجه آخر اذا نظرت اليهم بعين القدر — والحيرة مستولية عليهم والشيطان مستحوذ عليهم — رحمتهم ورققت عليهم ، أوتوا ذكاء وماأوتوا زكاء وأعطوا فهوما ، وما أعطوا علوما ، وأعطوا سمعا وابصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ماكانوا به يستهزؤن ، ومن كان عليما بهذه الأمور تبين له بذلك حذق السلف وعلمهم وخبرتهم حيث حذروا عن الكلام ونهوا عنه وذموا أهله وعابوهم ، وعلم أن من ابتغى الهدى في غير الكتاب والسنة لم يزدد الا بعدا •

(فنسأل الله) العظيم أن يهدينا صراطه المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين •

(هذا آخر الحموية الكبرى) ألفها الشيخ رحمه الله وعمره دون الأربعين سنة ، ثم انفتح له بعد ذلك من الرد على الفلاسفة والجهمية وسائر أهل الأهواء والبدع مالا يوصف ولا يعبر عنه ، وجرى له من المناظرات العجيبة والمباحثات الدقيقة مع أقرانه وغيرهم في سائر أنواع العلوم ماتضيق عنه العبارة ولا يعرف أنه ناظر أحدا فانقطع معه •

(قال الحافظ الذهبي في أثناء كلامه) في ترجمة الشيخ ابن تيمية : ولما صنف المسألة الحموية في الصفات سنة ثمان وتسعين وستمائة تحزبوا له ، وآل بهم الأمر الى أن طافوا بها على قصبة من جهة القاضي الحنفي ونودي عليه بأن لايستفتى ، ثم قام بنصرته طائفة آخرون وسلمه الله تعالى ، فلما كان سنة خمس وسبعمائة جاء الأمر من مصر بأن يسأل عن معتقده ، فجمع له القضاة والعلماء بمجلس نائب دمشق الأفرم ثم وقع الاتفاق على أن هذا معتقد سلفي جيد انتهى •

(وقال الشيخ علم الدين) وفي شهر ربيع الأول من سنة ثمان وتسعين وستمائة وقع بدمشق محنة للشيخ الامام تقي الدين ابن تيمية ، وكان الشروع فيها من أول

الشهر واستمرت الى آخر الشهر •

(وملخصها) أنه كتب جوابا لسؤال سئل عنه من (حماه) في الصفات ، فذكر فيه مذهب السلف ورجحه على مذهب المتكلمين ، وكان قبل ذلك بقليل أنكر أمر المنجمين ، واجتمع به سيف الدين جاغان في حال نيابته بدمشق وقيامه مقام نائب السلطنة ، وامتثل أمره وقبل قوله ، والتمس منه كثرة الاجتماع به ، فحصل بسبب ذلك ضيق لجماعته مع ما كان عندهم قبل ذلك من كراهية الشيخ :، وما ألمهم بظهوره وذكره الحسن ، فانضاف شيء الى أشياء ، ولم يجدوا مساغا الى الكلام فيه لزهده ، وعدم اقباله على الدنيا ، وترك المزاحمة على المناصب ، وكثرة علمه وجودة أجوبته وفتاويه ، وما يظهر فيها من غزارة العلم وجودة الفهم ، فعمدوا الى الكلام في العقيدة لكونهم يرجحون مذهب المتكلمين في الصفات والقرآن على مذهب السلف • ويعتقدونه الصواب ، فأخذوا الجواب الذي كتبه ، ثم سعوا السعي الشديد الى القضاة والفقهاء واحدا واحدا ، وأوغروا خواطرهم وحرفوا الكلام وكذبوا الكذب الفاحش ، وجعلوه يقول بالتجسيم وحاشاه من ذلك ، ووافقهم على ذلك جلال الدين الحنفي قاضي الحنفية يومئذ ومشى معهم الى دار الحديث الأشرفية ، وطلب حضوره وأرسل اليه فلم يحضر ، وأرسل اليه في الجواب أن العقائد ليس أمرها اليك وان السلطان انما ولاك لتحكم بين الناس ، وان انكار المنكرات ليس مما يختص به القاضي فوصلت اليه هذه الرسالة فأوغروا خاطره ، وشوشوا قلبه ، وقالوا لم يحضر ور[د] عليك ، فأمر بالنداء على بطلان عقيدته في البلدة ، فنودي في بعض البلد ، ثم باد[ر] سيف الدين جاغان وأرسل طائفة فضرب المنادي وجماعة ممن حوله وأخرق بهم فرجعوا مضروبين في غاية الاهانة ، ثم طلب سيف الدين من قام في ذلك وسعى فيه فدارت الرسل والأعوان عليهم في البلد فاختفوا •

ثم اجتمع الشيخ ابن تيمية بالقاضي امام الدين الشافعي وواعده لقراءة العقيد[ة] الحموية ، فاجتمعوا يوم السبت رابع عشر الشهر من بكرة النهار الى نحو الثلث م[ن] ليلة الأحد — ميعادا طويلا — وقرأ فيه جميع العقيدة ، وبين مراده من مواضع أشكل[ت] ولم يحصل انكار عليه من الحاكم ولا ممن حضر المجلس ، بحيث انفصلوا والقاض[ي] يقول : كل من تكلم في الشيخ فأنا خصمه •

وقال أخوه جلال الدين بعد هذا الميعاد : كل من تكلم في الشيخ نعزره ،وخر[ج] الناس ينتظرون مايسمعون من طيب أخباره ، فوصل الى داره في ملأ كثير من الناس

وعندهم استبشار وسرور به ، وكان سعيهم في حقه أتم السعي ، وتكلموا في حقه بأنواع الأذى وبأمور يستحي الانسان من الله تعالى أن يحكيها فضلا عن أن يختلقها ويلفقها ، فلا حول ولا قوة الا بالله ،ورأى جماعة من الصالحين في هذه الواقعة وعقيبها مرائي حسنة جليلة لو ضبطت لكانت مجلدا تاما انتهى .

(ثم سكنت هذه الفتنة) ثم بعد ذلك بمدة طويلة ظهر الشيخ نصر المنبجي بمصر ، واستولى على أرباب الدولة القاهرة ، وشاع أمره وانتشر ، فقيل لابن تيمية انه اتحادي وانه ينصر ابن عربي وابن سبعين فكتب اليه [1] نحو ثلاثمائة سطر ينكر عليه ، فتكلم نصر المنبجي مع قضاة مصر في أمره ، وقال هذا مبتدع ، وأخاف على الناس من شره ، وقام معه في ذلك القاضي ابن مخلوف المالكي ، واستعانوا بركن الدين الجاشنكير ، فحسن القضاة للأمراء طلبه الى القاهرة وأن يعقدله مجلس بدمشق فلم يرض نصر المنبجي ، وقال ابن مخلوف قل للامراء ان هذا يخشى على الدولة منه كما جرى لابن تومرت في بلاد المغرب .

(فورد مكتوب السلطان) الى دمشق بسؤال الشيخ عن عقيدته ، فلما كان ثماني رجب من سنة خمس وسبعمائة طلب القضاة والفقهاء ، وطلب الشيخ تقي الدين الى القصر الى مجلس نائب السلطنة الأفرم ، فلما اجتمعوا عنده سأل الشيخ تقي الدين وحده عن عقيدته وقال هذا المجلس عقد لك وقد ورد مرسوم السلطان أن أسألك عن اعتقادك ، فأحضر الشيخ عقيدته الواسطية ، وقال هذه كتبتها من نحو سبع سنين قبل مجيء التتار الى الشام ،فقرئت في المجلس وبحث فيها ، وبقيت مواضع أخرت الى مجلس آخر .

ثم اجتمعوا يوم الجمعة بعد الصلاة ثاني عشر رجب المذكور ، وحضر المخالفون ومعهم الشيخ صفي الدين الهندي ، واتفقوا على أن يتولى المناظرة مع الشيخ تقي الدين فتكلم معه ، ثم أنهم رجعوا عنه واتفقوا على الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني، فناظر الشيخ وبحث معه وطال الكلام وخرجوا من هناك والأمر قد انفصل ، وقد أظهر الله من قيام الحجة ماأعز به الشيخ ابن تيمية ، واختلفت نقول المخالفين للمجلس وحرفوه ووضعوا مقالة الشيخ على غير موضعها ، وشنع ابن الوكيل وأصحابه بأن الشيخ قد رجع عن عقيدته فالله المستعان .

ثم بعد ذلك عزر بعض القضاة بدمشق شخصا يلوذ بالشيخ ، وطلب جماعة ثم

---

(١) هذا المكتوب موجود فى كتاب جلاء العينين فى صحيفة ٥٤ فليراجع اهـ كذا فى الاصل .

أطلقوا ، ووقع هرج في البلد ، وكان الأمير نائب السلطنة قد خرج للصيد وغاب نحو جمعة ثم رجع ، فحضر عنده الشيخ وذكر له ماوقع في غيبته في حق بعض أصحابه من الأذى فرسم بحبس جماعة من أصحاب ابن الوكيل ، وأمر فنودي في البلد أنه من تكلم في العقائد حل ماله ودمه ونهبت داره وحانوته ، وقصد بذلك تسكين الفتنة .

وفي يوم الثلاثاء سابع شعبان عقد للشيخ مجلس ثالث بالقصر ورضي الجماعة بالعقيدة ، وفي هذا اليوم عزل قاضي القضاة نجم الدين ابن صصري نفسه عن الحكم بسبب كلام سمعه من الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني .

وفي اليوم السادس والعشرين من شعبان ورد كتاب السلطان الى القاضي باعادته الى الحكم ، وفيه أنا كنا سمعنا بعقد مجلس للشيخ تقي الدين وقد بلغنا ماعقد له من المجالس وانه على مذهب السلف وماقصدت بذلك الا براءة ساحته .

(ثم ان الشيخ مرعي مؤلف هذا الكتاب) أعني كتاب مناقب الشيخ ابن تيمية ذكر بعض ألفاظ ماوقع في المناظرة ناقلا لها عما حكاه الشيخ عن نفسه ؛ وقد أخل بنقله واختصاره ، والعبد الفقير مؤلف كتاب الرد على الزائغ النبهاني قد ذكرت سابقا ماكان في المجالس التي انعقدت لمناظرة الشيخ بنص عبارته وعين كلامه ، فأغنانا ذلك عما ذكره الشيخ مرعي في هذا الباب .

ثم قال الشيخ مرعي (فصل) في توجه الشيخ الى مصر ومحنته بها ، وسبب محنته وابتلائه قيامه في الله والرد على أهل البدع والعقائد الفاسدة ، فقد حث على غزو الكسروانيين الروافض وغيرهم من الدروز والنصيرية ، وغزاهم بمن معه من المسلمين وفتح بلادهم ، وكاتب السلطان فيهم بحسم مادة شيوخهم الذين يضلونهم ، والأمر باقامة شعائر الاسلام وقراءة الأحاديث ونشر السنة ببلادهم كما مر ذكره ، وكان استئصالهم في المحرم سنة خمس وسبعمائة .

ولما كان تاسع جمادى الأولى من سنة خمس بالغ الشيخ في الرد على الفقراء الأحمدية والرفاعية بسبب خروجهم عن الشريعة بعد أن حضروا نائب السلطنة وشكوا من الشيخ ، وطلبوا أن يسلم لهم حالهم وأن لايعارضهم ولا ينكر عليهم ، وطلبوا حضور الشيخ فلما حضر وقع بينهم كلام كثير ، فقال الشيخ — في كلام طويل — أنهم وان كانوا منتسبين الى الاسلام وطريقة الفقر والسلوك ويوجد في بعضهم من التعبد والتأله والوجد والمحبة والزهد والفقر والتواضع ولين الجانب والملاطفة في المخاطبة والمعاشرة : فيوجد أيضا في بعضهم من الشرك وغيره من أنواع الكفر والبدع في

الاسلام والأعراض عن كثير مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والكـــذب والتلبيس واظهار المخارق الكاذبة مثل ملابسة النار والحيات واظهار الدم والـلأذن والزعفران وماء الورد والعسل وغير ذلك ، وان عامة ذلك عن حيل معروفة وأسباب مصنوعة ، كطلي أجسامهم لدخول النار بدهن الضفادع وباطن قشر النارنج وحجر الطلق وغير ذلك من الحيل ، وقال لهم بحضرة نائب السلطنة ادخل أنا وهم النار ومن احترق فعليه لعنة الله ولكن بعد أن نغسل جسومنا بالخل والماء الحار بالحمام ، فلما زيفهم الشيخ وأظهر تلبيسهم قال حتى لو دخلتم النار وخرجتم منها سالمين وطرتم في الهواء ومشيتم على الماء لاعبرة بذلك مع مخالفة الشرع ، فان الدجال الأكبر يقــول للسماء أمطري فتمطر ، وللأرض أنبتي فتنبت ، وللخربة أخرجي كنوزك فتخـرج ، ومع هذا فهو دجال كذاب ملعون ، وليس لأحد الخروج عن الشريعة ولا عن كتاب الله وسنة رسوله .

وذكر لهم قول أبي يزيد البسطامي لو رأيتم الرجل يطير في الهواء فلا تغتروا به ، وأطال الكلام في ذلك بحيث انفصل الأمر من عند نائب السلطنة أن كل من خرج منهم عن الكتاب والسنة ضربت عنقه .

ثم ظهر الشيخ المنبجي بمصر وشاع أمره ، فقيل للشيخ ابن تيمية أنه اتحادي ، فكتب اليه الشيخ نحو ثلاثمائة سطر بالانكار عليه ، فاعتز الشيخ نصر قضاة مصـر وعلماءها على ابن تيمية ، وقال انه سيء العقيدة مبتدع معارض للفقــراء وغيرهم ، وطعنوا فيه عند السلطان ، فورد مرسوم السلطان لدمشق بسؤال الشيخ عن عقيدته، فعقد المجلس للمناظرة ثامن رجب سنة خمس وسبعمائة بحضرة العلماء والقضاة كما مر ، ولا يبعد أن يكون الروافض وغيرهم قد برطلوا عليه ، ثم لم يقنع ذلك الشيخ نصر المنبجي بل اجتمع مع طائفة من علماء مصر للجاشنكير الذي تسلطن بمصـر ، فأوهمه الشيخ نصر أن ابن تيمية يخرجهم من الملك ويقيم غيرهم وانه مبتدع ، فورد مرسوم السلطان الى دمشق باحضار ابن تيمية الى مصر خامس شهر رمضان سنــة خمس وسبعمائة ، فلما طلب الى الديار المصرية مانع نائب الشام وقال عقد لهمجلسان بحضرتي وحضرة القضاة والفقهاء وماظهر عليه سوء ، فقال الرسول لنائب دمشق أنا ناصح لك ، وقد قيل : انه يجمع الناس عليك وعقد لهم بيعة فجزع من ذلك وأرسله الى القاهرة على البريد .

(ذكر خروجه لمصر)

قالوا : ولما توجه الشيخ من دمشق المحروسة لمصر في يوم الاثنين ثاني عشر رمضان سنة خمس وسبعمائة وكان يوما مشهودا غريب المثل في كثرة ازدحام الناس لوداعه ورؤيته حتى انتشروا من باب داره الى قريب الجبودة فيما بين دمشق والكسوة التي هي أول منزل ، وهم مابين باك وحزين ومتعجب ومتنزه ومزاحم متغال فيه ودخل الشيخ مدينة مصر غرة يوم السبت وعمل في جامعها مجلسا عظيما •

وفي يوم الخميس الثاني والعشرين من رمضان وصل الشيخ والقاضي الى القاهرة ، وفي ثاني يوم بعد صلاة الجمعة جمع القضاة وأكابر الدولة بالقلعة لمحفل الشيخ وأراد الشيخ أن يتكلم فلم يمكن من البحث والكلام على عادته ، وانتدب له الشمس ابن عدلان خصما احتسابا ، وادعى عليه عند القاضي ابن مخلوف المالكي أنه يقول ان الله فوق العرش حقيقة ، وأن الله يتكلم بحرف وصوت ، زاد الحافظ الذهبي وأن الله يشار اليه الاشارة الحسية ، وقال اطلب عقوبته على ذلك ، فقال القاضي : ماتقول يافقيه ؟ فأخذ الشيخ في حمد الله والثناء عليه ، فقال له القاضي : أجب ، ماجئنا بك لتخطب ، فقال : ومن الحاكم في ، قيل له القاضي المالكي ، قال كيف يحكم في وهو خصمي ، وغضب غضبا شديدا وانزعج ، فأقيم من ساعته وحبس في برج أياما ، ثم نقل منه ليلة عيد الفطر الى الحبس المعروف بالجب هو وأخواه شرف الدين عبد الله وزين الدين عبد الرحيم ، ثم ان نائب السلطنة سيف الدين سلار بعد أكثر من سنة وذلك ليلة عيد الفطر من سنة ست وسبعمائة أحضر القضاة الثلاثة الشافعي والمالكي والحنفي ، ومن الفقهاء الباجي والجزري والنمراوي ، وتكلم في اخراج الشيخ من الحبس ، فاتفقوا على أنه يشترط عليه أمور ويلزم بالرجوع عن بعض العقيدة ، فأرسلوا اليه من يحضره ليتكلموا معه في ذلك فلم يجب الى الحضور ، وتكرر الرسول اليه في ذلك ست مرات وصمم على عدم الحضور ، فطال عليهم المجلس وانصرفوا من غير شيء •

وفي شهر ذي الحجة سنة ست وسبعمائة طلب اخوة الشيخ تقي الدين : شرف الدين وزين الدين من الحبس الى مجلس نائب السلطنة سلار ، وحضر القاضي زين الدين ابن مخلوف المالكي وجرى بينهم كلام كثير ، وأعيدا الى مواضعهما بعد أن بحث الشيخ شرف الدين مع القاضي المالكي وظهر عليه في النقل وخطأه في مواضع ، وفي ثاني يوم أحضر الشيخ شرف الدين وحده الى مجلس نائب السلطنة وحضر ابن

عدلان وتكلم معه الشيخ شرف الدين وناظره وبحث معه وظهر عليه .

وفي صفر سنة سبع وسبعمائة اجتمع القاضي بدر الدين ابن جماعة بالشيخ تقي الدين في دار الاحدى بالقلعة بكرة الجمعة وتفرقا قبل الصلاة وطال بينهما الكلام ، وفي ربيع الأول من سنة سبع دخل الأمير حسام الدين مهني بن عيسى ملك العرب الى مصر وحضر بنفسه الى الجب ، فأخرج الشيخ تقي الدين يوم الجمعة الى دار نائب السلطنة بالقلعة وحضر بعض الفقهاء وحصل بينهم بحث كثير وفرقت بينهم صلاة الجمعة ، ثم اجتمعوا الى المغرب ولم ينفصل الأمر ، ثم اجتمعوا يوم الأحد بمرسوم السلطان ، وحضر جماعة من الفقهاء كثيرة ، كنجم الدين ابن الرفعة ، وعلاء الدين الباجي ، وفخر الدين ابن بنت أبي سعد ، وعز الدين النمراوي ، وشمس الدين ابن عدلان ، ولم يحضر القضاة وطلبوا واعتذر بعضهم بالمرض وبعضهم بغيره ، وانفصل المجلس على خير ، وبات الشيخ عند نائب السلطنة ، وكتب كتابا الى دمشق بكرة الاثنين يتضمن خروجه ، وأنه أقام بدار سفير بالقاهرة ، وأن الأمير سيف الدين سلار رسم بتأخيره عن الأمير مهنى أياما ليرى الناس فضله ، ويحصل لهم الاجتماع به ، وكان مدة مقام الشيخ في الجب ثمانية عشر شهرا ، وفرح خلق كثير بخروجه وسروا سرورا عظيما ، وحزن آخرون ، وامتدحه الشيخ الامام نجم الدين سليمان بن عبد القوي بقصيدة منها :

فاصبر ففي الغيب مايغنيك عن حيل ... وكل صعب اذا صابرته هانا
ولست تعدم من خطب رميت به ... احدى اثنتين فأيقن ذاك ايقانا
تمحيص ذنب لتلقى الله خالصة ... أو امتحانا به تزداد قربانا
ياسعد انا لنرجو أن تكون لنا ... سعدا ومرعاك للزوار سعدانا
وان يضر بك الرحمن طائفة ... ولت وينفع من بالود والانا
ياأهل تيمية العالين مرتبة ... ومنصبا فرع الأفلاك تبيانا
جواهر الكون أنتم غير أنكم ... في معشر أشربوا في العقل نقصانا
لايعرفون لكم فضلا ولو عقلوا ... لصيروا لكم الأجفان أوطانا
يامن حوى من علوم الخلق ماقصرت ... عنه الأوائل مذ كانوا الى الآنا
ان تبتلى بلئام الناس يرفعهم ... عليك دهر لأهل الفضل قد خانا
اني لأقسم والاسلام معتقدي ... وانني من ذوي الايمان ايمانا
لم ألق قبلك انسانا أسر به ... فلا برحت لعين المجد انسانا

في أبيات كثيرة غير هذه يمدح فيها الشيخ ويذم أعداءه .

وفي يوم الجمعة صلى الشيخ في جامع الحاكم وجلس ، فاجتمع عليه خلق عظيم، فسئل منه الوعظ ، فاستعاذ وقرأ الفاتحة وتكلم في تفسير (إِيَّاكَ نعبُدُ وإِيَّاكَ نسْتَعِينُ) وفي معنى العبادة والاستعانة الى العصر .

ثم لم يزل الشيخ رحمه الله بمصر يعلم الناس ويفتيهم ويذكر بالله ويدعو اليه ويتكلم في الجوامع على المنابر بتفسير القرآن وغيره من بعد صلاة الجمعة الى العصر الى أن ضاق منه خلق كثير .

وقال الحافظ الذهبي : أقام بمصر يقرىء العلم ، واجتمع خلق عنده الى أن تكلم في الاتحادية القائلين بوحدة الوجود وهم ابن سبعين وابن عربي والقونوي وأشباههم ، فتحزب عليه صوفية وفقراء وسعوا فيه ،واجتمع خلائق من أهل الخوانق والربط والزوايا واتفقوا على أن يشكوا الشيخ للسلطان ، فطلع منهم خلق الى القلعة وخلق تحت القلعة وكانت لهم ضجة شديدة حتى قال السلطان ما لهؤلاء ؟ فقيل له : جاؤا من أجل الشيخ ابن تيمية يشكون منه ويقولون انه يسب مشائخهم ويضع من قدرهم عند الناس ، واستغاثوا منه وأجلبوا عليه ، ودخلوا على الأمراء في أمره ولم يبقوا ممكنا ، وأمر أن يعقد له مجلس بدار العدل ، فعقد له يوم الثلاثاء في عشر شوال الأول سنة سبع وسبعمائة ، وظهر في ذلك المجلس من علم الشيخ وشجاعته وقوة قلبه وصدق توكله وبيان حجته مايتجاوز الوصف وكان وقتا مشهودا .

وذكر الشيخ علم الدين البرزالي وغيره أن في شوال من سنة سبع وسبعمائة شكى شيخ الصوفية بالقاهرة كريم الدين الآملي وابن عطاء وجماعة نحو الخمسمائة من الشيخ تقي الدين وكلامه في ابن عربي وغيره الى الدولة فخيروه بين الاقامة بدمشق أو الاسكندرية بشروط أو الحبس ، فاختار الحبس ، فدخل عليه جماعة في السفر الى دمشق ملتزما ما شرط فأجابهم ، فأركبوه خيل البريد ليلة ثامن عشر شوال ، ثم أرسل خلفه من الغد بريد آخر فركب على مرحلة من مصر ورأوا مصلحتهم في اعتقاله ، وحضر عند قاضي القضاة بحضور جماعة من الفقهاء ، فقال بعضهم له ماترضى الدولة الا بالحبس ، فقال قاضي القضاة وفيه مصلحة له ، واستناب شمس الدين التونسي المالكي وأذن له أن يحكم عليه بالحبس فامتنع ، وقال ماثبت عليه شيء ، فاذن لنور الدين الزواوي المالكي فتحير ، فقال الشيخ : أنا أمضي الى الحبس

وأتبع ماتقتضيه المصلحة ، فقال نور الدين فيكون في موضع يصلح لمثله ، فقيل له ماترضى الدولة الا بمسمى الحبس ، فأرسل الى حبس القضاة بحارة الديلم ، وأجلس في الموضع الذي جلس فيه القاضي تقي الدين ابن بنت الأعز لما حبس ، وأذن في أن يكون عنده من يخدمه ، وكان جميع ذلك باشارة الشيخ نصر المنبجي ووجاهته في الدولة .

(ولما دخل الحبس) وجد المحابيس مشغولين بأنواع من اللعب يلتهون بها عما هم فيه ، كالشطرنج والنرد مع تضييع الصلوات ، فأنكر الشيخ ذلك عليهم وأمرهم بملازمة الصلاة والتوجه الى الله تعالى بالأعمال الصالحة والتسبيح والاستغفار والدعاء ، وعلمهم من السنة مايحتاجون اليه ورغبهم في أعمال الخير وحضهم على ذلك ، حتى صار الحبس بالاشتغال بالعلم والدين خيرا من كثير من الزوايا والربط والخوانق والمدارس ، وصار خلق من المحابيس اذا أطلقوا يختارون الاقامة عنده ، وكثر المترددون اليه حتى كان السجن يمتليء منهم ، واستمر الشيخ في الحبس يستفتي ويقصده الناس ويزورونه ، وتأتيه الفتاوى المشكلة من الأمراء وأعيان الناس ، فلما كثر اجتماع الناس بهوترددهم اليه ساءذلك أعداءه وحصرت صدورهم، فسألوا نقله الى الاسكندرية فنقل اليها مع أمير مقدم على البريد ، ولم يمكن أحد من جماعته من السفر معه وحبس ببرج منها ، وأشيع بأنه قتل وأنه غرق غير مرة ووصل الخبر الى دمشق بعد عشرة أيام فحصل التألم وضاقت الصدور وتضاعف الدعاء ،وا ستمر الشيخ بثغر الاسكندرية ثمانية أشهر مقيما ببرج مليح مطبق له شباكان ، أحدهما الى جهة البحر يدخل اليه من شاء ويتردد الأكابر والأعيان والفقهاء يقرؤن عليه ويبحثون معه ويستفيدون منه وأرسل صاحب سبتة الى الشيخ يطلب منه الاجازة .

فلما دخل السلطان الملك الناصر الى مصر بعد خروجه من الكرك وقدومه الى دمشق وتوجه منها الى مصر سنة تسع وسبعمائة بادر لاحضار الشيخ من الاسكندرية في اليوم الثامن من شوال ، فخرج الشيخ منها متوجها الى مصر ومعه خلق من أهلها يودعونه ويسألون الله أن يرده اليهم ، وكان وقتا مشهودا ، ووصل الى القاهرة ثامن عشر الشهر ، واجتمع بالسلطان فييوم الجمعة الرابع والعشرين منه ، وأكرمه وتلقاه في مجلس حفل حضر فيه قضاة مصر والشام والفقهاء وأصلح بينه وبينهم .

(قال الحافظ ابن عبد الهادي بن قدامة) أخبرني بعض أصحابنا ، قال أخبرني

القاضي جمال الدين ابن القلانسي قاضي العساكر المنصورة ذات ليلة ــ وقد أشاع الجهلة والمبغضون بأخبار مختلفة ــ فقلت له : ان الناس يقولون كيت وكيت ، وأن الشيخ ربما يخرج من القلعة ويدعى عليه ويعزر ويطاف به ، فقال الشيخ : يافلان هذا لايقع ، ولايسمح السلطان بشيء من ذلك ، وهو أعلم بالشيخ وبعلمه ودينه، ثم قال : أخبرك بشيء عجيب وقع من السلطان في حق الشيخ وهو أنه حين توجه السلطان الى الديار المصرية ومعه القضاة والأعيان ونائب الشام الأفرم ، فلما دخل الديار المصرية وعاد الى مملكته وهرب سلار والجاشنكير واستقر أمر السلطان : جلس يوما في دست السلطنة وأبهة الملك وأعيان الأمراء من الشاميين والمصريين حضور عنده ، وقضاة مصر عن يمينه وقضاة الشام عن يساره ، وذكر لي كيفية جلوسهم منه بحسب منازلهم ، قال : ومن جملة من هناك ابن صصري عن يسار السلطان ، وتحته الصدر علي قاضي الحنفية ، ثم بعده الخطيب جمال الدين ، ثم بعده ابن الزملكاني ، قال وأنا الى جانب ابن الزملكان ، والناس جلوس خلفه ، والسلطان على مقعد مرتفع ، فبينما الناس كذلك جلوس انتهض السلطان قائما ، فقام الناس ، ثم مشى السلطان فنزل عن تلك المقعدة ولا يدري مابه ، واذا بالشيخ تقي الدين مقبل من الباب والسلطان قاصد اليه ، فنزل السلطان عن الايوان والناس قيام والقضاة والأمراء والدولة ، فتسالم هو والسلطان الى ضفة في ذلك المكان فيها شباك الى بستان فجلسا فيها حينا ثم أقبلا ويد الشيخ في يد السلطان ، فقام الناس وكان قد جاء في غيبة السلطان الوزير فخر الدين ابن الخليس فجلس عن يسار السلطان فوق ابن صصري ، وقعد السلطان على مقعده متربعا ، وشرع يثني على الشيخ عند الأمراء ثناء ماسمعته من غيره قط ، وقال كلاما كثيرا والناس يقولون معه ومثله الأمراء والقضاة ، وكان وقتا عجيبا وذلك مما يسوء كثيرا من الحاضرين من أبناء جنسه ، وقال في الشيخ من الثناء والمبالغة مالايقدر أحد من أخص أصحابه يقوله ، ثم ان الوزير أنهى الى السلطان أن أهل الذمة قد بذلوا للدولة في كل سنة سبعمائة ألف درهم زيادة على الجالية الى أن يعودوا الى لبس العمائم البيض ، وأن يعفوا من هذه العمائم المصبوغة التي ألزمهم بها ركن الدين الجاشنكير ، فقال السلطان للقضاة ومن هناك ماتقولون ؟ فسكت الناس ، فلما رآهم الشيخ تقي الدين سكتوا جثا على ركبتيه وشرع يتكلم مع السلطان في ذلك بكلام غليظ ، ويرد ماعرضه الوزير ردا عنيفا ، والسلطان يسكته برفق وتوقير ، وبالغ الشيخ في الكلام ، وقال مالا يستطيع أحد أن

يقول مثله ولا بقريب منه حتى رجع السلطان عن ذلك وألزمهم بما هم عليه واستمروا على هذه الصفة ، فهذا من حسنات الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله .

قال وسمعت الشيخ تقي الدين يذكر أن السلطان ــ لما جلسنا بالشباك ــ أخرج فتاوى لبعض الحاضرين في قتله واستفتاني في قتل بعضهم ، قال ففهمت مقصوده وأن عنده حنقا شديدا عليهم لما خلعوه وبايعوا الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، فشرعت في مدحهم والثناء عليهم وشكرهم وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد في دولتك مثلهم ، وأما أنا فهم في حل من حقي ومن جهتي وسكنت ماعنده عليهم ، قال : فكان القاضي زين الدين ابن مخلوف قاضي المالكية يقول بعد ذلك مارأينا أعفى من ابن تيمية ، لم نبق ممكنا في السعي فيه ولما قدر علينا عفا .

(ثم ان الشيخ) بعد اجتماعه بالسلطان نزل الى القاهرة وسكن بالقرب من مشهد الحسين ، قال الذهبي : ولم يكن الشيخ من رجال الدول ، ولا يسلك معهم تلك النواميس ، فلم يعد السلطان يجتمع به ، وعاد الى بث العلم ونشره ، والخلق يشتغلون عليه ، ويقرؤون ويستفتونه ويجيبهم بالكلام والكتابة والأمراء والأكابر والناس يترددون اليه ، وفيهم من يعتذر اليه مما وقع ، فقال : قد جعلت الكل في حل مما جرى ، ولم يزل الشيخ مستمرا على عادته من نفع الناس وموعظتهم والاجتهاد في سبيل الخير .

(فلما كان) في شهر رجب سنة احدى عشرة وسبعمائة اتفق أن جماعة بجامع مصر قد تعصبوا على الشيخ وتفردوا به وضربوه ، قال الشيخ علم الدين ظفر به بعض المبغضين له في مكان خال وأساؤا عليه الأدب ، وحضر جماعة كثيرة من الجند وغيرهم الى الشيخ بعد ذلك لأجل الانتصار له فلم يجب الى ذلك ، قال بعض أصحابنا جئت الى مصر فوجدت خلقا كثيرا من الحسنية وغيرهم رجالا وفرسانا يسألون عن الشيخ فجئت فوجدته بمسجد الفخر كاتب الممالك على البحر ، واجتمع عنده جماعة وتتابع الناس ، وقال له بعضهم ياسيدي قد جاء خلق من الحسنية لو أمرتهم أن يهدموا مصر كلها لفعلوا ، فقال لهم الشيخ لأي شيء ؟ قالوا لأجلك ، فقال الشيخ : هذا لايجوز قالوا : فنحن نذهب الى بيوت هؤلاء الذين آذوك فنقتلهم ونخرب دورهم فانهم شوشوا على الخلق وأثاروا هذه الفتنة على الناس ، فقال لهم : هذا مايحل ، قالوا فهذا الذي فعلوه معك يحل ؟ هذا شيء لانصبر عليه ، ولا بد أن نروح اليهم ونقاتلهم على مافعلوا والشيخ ينهاهم ويزجرهم ، فلما أكثروا في القول قال لهم : اما أن يكون الحق لي فهم في حل ، وان كان لكم فان لم تسمعوا مني فلا تستفتوني

وافعلوا ماشئتم ، وان كان الحق لله فالله يأخذ حقه كما يشاء ان شاء •

وأقام الشيخ بعد هذا مدة في الديار المصرية ، ثم انه توجه الى الشام صحبة الجيش المصري قاصدا الغزاة ، فلما وصل معهم الى عسقلان توجه الى بيت المقدس ، وتوجه منه الى دمشق ، وجعل طريقه على عجلون ، ووصل دمشق أول يوم من ذي القعدة سنة اثنتي عشرة وسبعمائة ومعه أخواه وجماعة من أصحابه ، وخرج خلق كثير لتلقيه وسروا سرورا عظيما بمقدمه وسلامته ، وكان مجموع غيبته عن دمشق سبع سنين وسبع جمع •

(ذكر ماوقع للشيخ ابن تيمية بعد عوده لدمشق المحروسة)

قال الحافظ ابن عبد الهادي بن قدامة : ثم ان الشيخ رحمه الله بعد وصوله من مصر الى دمشق واستقراره بها لم يزل ملازما للاشتغال ونشر العلم وتصنيف الكتب وافتاء الناس بالكلام والكتابة المطولة ونفع الخلق والاحسان اليهم والاجتهاد في الأحكام الشرعية ، ففي بعض الأحكام يفتي بما أدى اليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة ، وفي بعضها قد يفتي بخلافهم أو بخلاف المشهور بما قام الدليل عليه عنده •

(ومن اختياراته) التي خالفهم فيها أو خالف المشهور من أقوالهم القول بقصر الصلاة في كل مايسمى سفرا طويلا كان أو قصيرا كما هو مذهب الظاهرية ، وقول بعض الصحابة •

(والقول) بأن البكر لاتستبرأ وان كانت كبيرة كما هو قول ابن عمر واختاره البخاري صاحب الصحيح •

(والقول) بأن سجود التلاوة لايشترط له وضوء كما هو مذهب ابن عمر واختاره البخاري أيضا •

(والقول) بأن من أكل في شهر رمضان معتقدا الليل فبان نهارا لاقضاء عليه كما هو في الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، واليه ذهب بعض التابعين وبعض الفقهاء بعدهم •

(والقول) بأن من أفطر في رمضان عمدا أو ترك الصلاة بلا عذر لاقضاء عليه ، وقال به بعض الظاهرية ، وحكي عن ابن بنت الشافعي ، وفي البخاري عن أبي هريرة (من أفطر يوما من رمضان من غير عذر ولا مرض لم يقضه صيام الدهر وان صامه) وبه قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ، وقال سعيد بن المسيب والشعبي وابن جبير

وابراهيم وقتادة وحماد يقضي يوما مكانه .

(والقول) بأن المتمتع يكفيه سعي واحد بين الصفا والمروة كما في حق القارن والمفرد ، وهو قول ابن عباس رضي الله عنه ورواية عن الامام أحمد بن حنبل رواها عنه ابنه عبد الله ، وكثير من أصحاب الامام أحمد رضي الله عنه لايعرفونها .

(والقول) بجواز المسابقة بلا محلل وان خرج المتسابقان .

(والقول) باستبراء المختلعة بحيضة وكذلك الموطوءة بشبهة والمطلقة آخر ثلاث تطليقات .

(والقول) باباحة وطء الوثنيات بملك اليمين .

(والقول) بجواز عقد الرداء في الاحرام ولا فدية في ذلك ، وجواز طواف الحائض ولا شيء عليها اذا لم يمكنها أن تطوف طاهرا .

(والقول) بجواز بيع الأصل بفرعه ، كالزيتون بالزيت ، والسمسم بالشيرج .

(والقول) بجواز بيع مايتخذ من الفضة للتحلي وغيره بالفضة متفاضلا وجعل الزائد من الثمن في مقابلة الصنعة .

(والقول) بأن المائع لاينجس بوقوع النجاسة فيه الا أن يتغير قليلا كان أو كثيرا .

(والقول) بجواز التيمم في مواضع معروفة والجمع بين الصلاتين في أماكن مشهورة وغير ذلك من الأحكام المعروفة من أقواله .

(وكان يميل) آخرا لتوريث المسلم من الكافر الذمي وله في ذلك مصنف وبحث طويل .

(ومن أقواله) المشهورة التي جرى بسبب الافتاء بها محن وقلاقل قوله بالتكفير في الحلف بالطلاق ، وان الطلاق الثلاث لايقع الا واحدة ، وله في ذلك مصنفات ومؤلفات كثيرة ، منها قاعدة كبيرة سماها تحقيق الفرقان بين التطليق والايمان ، نحو أربعين كراسة ، وقاعدة سماها الفرق المبين بين الطلاق واليمين ، بقدر النصف من ذلك ، وقاعدة في أن جميع أيمان المسلمين مكفرة مجلد لطيف ، وقاعدة في تقرير أن الحلف بالطلاق من الايمان حقيقة ، وقواعد وأجوبة غير ذلك لاتنضبط ولا تنحصر ، وله جواب اعتراض ورد عليه من الديار المصرية ، وهو جواب طويل في ثلاث مجلدات بقطع نصف البلدي .

(ثم اجتمع بالشيخ) يوم الخميس نصف ربيع الآخر سنة ثماني عشرة وسبعمائة

القاضي شمس الدين ابن مسلم الحنبلي وأشار عليه بترك الافتاء في مسألة الحلف بالطلاق فقبل اشارته وعرف نصيحته وأجاب الى ذلك •

(فلما كان) يوم السبت أول جمادى الأولى من هذه السنـــة ورد البريد الى دمشق ومعه كتاب السلطان بالمنع من الفتوى في مسألة الحلف بالطلاق التي رآهـا الشيخ تقي الدين ، والأمر بعقد مجلس في ذلك ، فعقد يوم الاثنين ثالث الشهـــر المذكور بدار السعادة ، وانفصل الأمر على ماأمر به السلطـان ، ونودي بذلـك في البلد بعد الثلاثاء رابع الشهر المذكور ، ثم ان الشيخ عاد الى الافتاء بذلك وقـال لايسعني كتمان العلم •

(فلما كان) يوم الثلاثاء تاسع عشري رمضان من سنة تسع عشرة جمع القضاة والفقهاء عند نائب السلطنة بدار السعادة وقريء عليهم كتاب السلطان ، وفيه فصل يتعلق بالشيخ بسبب الفتوى في هذه المسألة ، وأحضر وعوتب على فتياه بعد المنع ، وأكد عليه في المنع من ذلك •

فلما كان بعد ذلك بمدة ثاني عشري رجب سنة عشرين عقد مجلس بدار السعادة وحضره النائب والقضاة وجماعة من المفتين ، وحضر الشيخ ، وعاودوه في الافتاء في مسألة الطلاق ، وعاتبوه على ذلك ، وحبس في القلعة ، فبقي فيها خمسة أشهروثمانية عشر يوما ، ثم ورد مرسوم السلطان باخراجه ، فأخرج يوم الاثنين يوم عاشوراء من سنة احدى وعشرين ، وتوجه الى داره ، ثم لم يزل بعد ذلك يعـلم النـاس ويلقي الدروس في أنواع العلوم •

(ذكر حبس الشيخ بقلعة دمشق الى أن مات فيها)

قالوا لما كان سنة ست وعشرين وسبعمائة وقع الكلام في مسألة شد الرحـال واعمال المطي الى قبور الأنبياء والصالحين ، وكثر القيل والقال بسبب العثـور على جواب الشيخ الآتي ، وعظم التشنيع على الشيخ ، وحرف عليه ونقل عنه مالم يقله ، وحصلت فتنة طار شررها في الآفاق ، واشتد الأمـر وخيف على الشيـــخ من كيد القائمين في هذه القضية ، بالديار الشامية والمصرية ، وضعف من أصحاب الشيخ من كان عنده قوة ، وجبن منهم من كانت له همة •

وأما الشيخ رحمه الله فكان ثابت الجأش ، قوي القلب ، وظهر صـدق توكله واعتماده على ربه ، ولقد اجتمع جماعة معروفون بدمشق وضربوا مشورة في حـق الشيخ ، فقال أحدهم ينفى فنفي القائل ، وقال آخر يقطع لسانه فقطع لسان القائل ،

وقال آخر يعزر فعزر القائل ، وقال آخر يحبس فحبس القائل ، أخبر بذلك من حضر هذه المشورة وهو كاره لها .

واجتمع جماعة آخرون بمصر وقاموا في هذه القضية قياما عظيما ، واجتمعوا بالسلطان وأجمعوا أمرهم على قتل الشيخ ، فلم يوافقهم السلطان على ذلك وأرضى خاطرهم بالأمر بحبسه .

فلما كان يوم الاثنين سادس شعبان من السنة المذكورة ورد مرسوم السلطان بأن يكون في القلعة ، وأحضر للشيخ مركوب فأظهر السرور بذلك وقال اني كنت منتظرا ذلك ، وهذا فيه خير عظيم ، فركب الى القلعة وأخليت له قاعة حسنة ، وأجري اليها الماء ، ورسم له بالاقامة فيها ، وأقام معه أخوه زين الدين يخدمه باذن السلطان ، ورسم له بما يقوم بكفايته ، وفي يوم الجمعة عاشر الشهر المذكور قرىء بجامع دمشق الكتاب السلطاني الوارد بذلك وبمنعه من الفتيا .

(وليس بعجب) فقد وقع لأبي حنيفة مثله من المنع والحبس ، ووقع للامام أحمد كذلك فانها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

وفي يوم الأربعاء منتصف شعبان أمر القاضي الشافعي بحبس جماعة من أصحاب الشيخ بسجن الحكم ، وأوذي جماعة من أصحابه ، واختفى آخرون ، وعزر جماعة ونودي عليهم ، ثم أطلقوا سوى الامام شمس الدين محمد ابن أبي بكر امام الجوزية فانه حبس بالقلعة وسكنت الفتنة .

(وهذا صورة السؤال وجواب الشيخ عنه)

ماتقول السادة أئمة الدين — نفع الله بهم المسلمين — في رجل نوى زيارة قبور الأنبياء والصالحين — مثل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وغيره — فهل يجوز له في سفره أن يقصر الصلاة ؟ وهل هذه الزيارة شرعية أم لا ؟ وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من حج ولم يزرني فقد جفاني) (ومن زارني بعد موتي كان كمن زارني في حياتي) وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى) أفتونا مأجورين ؟.

(الجواب) الحمد لله رب العالمين ، أما من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين فهل يجوز له قصر الصلاة على قولين معروفين :

(أحدهما) وهو قول متقدمي العلماء الذين لايجوزون القصر في سفر المعصية

كأبي عبد الله ابن بطة وأبي الوفاء ابن عقيل وطوائف كثيرة من العلماء المتقدمين أنه لايجوز القصر في مثل هذا السفر ، لأنه سفر منهي عنه في الشريعة فلا يقصر فيه •

(والقول الثاني) أنه يقصر وهذا يقوله من يجوز القصر في السفر المحرم، كأبي حنيفة رحمه الله ، ويقوله بعض المتأخرين من أصحاب الشافعي وأحمد ممن يجوز السفر لزيارة قبور الأنبياء والصالحين ، كأبي حامد الغزالي ، وأبي الحسن ابن عبدوس الحراني ، وأبي محمد ابن قدامة المقدسي ، وهؤلاء يقولون : ان هذا السفر ليس بمحرم ، لعموم قوله صلى الله عليه وسلم : (زوروا القبور) وقد يحتج بعض من لايعرف الحديث بالأحاديث المروية في زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، كقوله (من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي) رواه الدار قطني •

(وأما مايذكره) بعض الناس من قوله (من حج ولم يزرني فقد جفاني) فهذا لم يروه أحد من العلماء ، وهو مثل قوله (من زارني وزار أبي ابراهيم في عام واحد ضمنت له على الله الجنة) فان هذا أيضا باطل باتفاق العلماء ، لم يروه أحد ولم يحتج به أحد ، وانما يحتج بعضهم بحديث الدار قطني •

وقد احتج أبو محمد المقدسي على جواز السفر لزيارة القبور بأنه صلى الله عليه وسلم كان يزور مسجد قباء •

وأجاب عن حديث (لاتشد الرحال) بأن ذلك محمول على نفي الاستحباب •

وأما الأولون فانهم يحتجون بما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى) ، وهذا الحديث مما اتفق الأئمة على صحته والعمل به ، فلو نذر بشده الرحال أن يصلي بمسجد أو بمشهد أو يعتكف فيه ويسافر اليه غير هذه الثلاثة لم يجب عليه ذلك باتفاق الأئمة ، ولو نذر أن يسافر ويأتي المسجد الحرام بحج أو عمرة وجب عليه ذلك باتفاق العلماء ، ولو نذر أن يأتي مسجد النبي صلى الله عليه وسلم أو المسجد الأقصى لصلاة أو اعتكاف وجب عليه الوفاء بهذا النذر عند مالك والشافعي في أحد قوليه وأحمد ولم يجب عند أبي حنيفة لأنه لايجب عنده بالنذر الا ما كان جنسه واجبا بالشرع •

(وأما الجمهور) فيوجبون الوفاء بكل طاعة ، كما ثبت في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه) والسفر الى المسجدين طاعة فلهذا وجب الوفاء به •

وأما السفر الى بقعة غير المساجد الثلاثة فلم يوجب أحد من العلماء السفر اليه اذا نذره ، حتى نص العلماء على أنه لايسافر الى مسجد قباء ، لأنه ليس من الثلاثة ، مع أن مسجد قباء تستحب زيارته لمن كان في المدينة ، لأن ذلك ليس بشد رحل ، كما في الحديث الصحيح : (من تطهر في بيته ثم أتى الى مسجد قباء لايريد الا الصلاة فيه كان كعمرة)

قالوا ولأن السفر الى زيارة قبور الأنبياء والصالحين بدعة لم يعملها أحد من الصحابة ولا التابعين ، ولا أمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين ، فمن اعتقد ذلك عبادة وفعله فهو مخالف للسنة واجماع الأمة ، وهذا مما ذكره أبو عبد الله ابن بطة في (الابانة الصغرى) من البدع المخالفة للسنة والاجماع ، وبهذا يظهر ضعف حجة أبي محمد لأن زيارة النبي صلى الله عليه وسلم لمسجد قباء لم تكن بشد رحل ، وهو يسلم لهم أن السفر اليه لايجب بالنذر •

وقوله : (لاتشد الرحال الخ) محمول على نفي الاستحباب : عنه جوابان :

(أحدهما) أن هذا تسليم منه أن هذا السفر ليس بعمل صالح ولا قربة ولا طاعة ولا هو من الحسنات فاذن من اعتقد أن السفر لزيارة قبور الأنبياء والصالحين قربة وعبادة وطاعة فقد خالف الاجماع ، واذا سافر لاعتقاده أنها طاعة كان ذلك محرما باجماع المسلمين ، فصار التحريم من جهة اتخاذه قربة ، ومعلوم أن أحدا لايسافر اليها الا لذلك ، وأما اذا نذر الرجل أن يسافر اليها لغرض مباح فهذا جائز ، وليس من هذا الباب •

(الوجه الثاني) أن الحديث يقتضي النهي والنهي يقتضي التحريم ، وما ذكروه من الأحاديث في زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم فكلها ضعيفة باتفاق أهل العلم بالحديث ، بل هي موضوعة ، لم يروها أحد من أهل السنن المعتمدة ولا شيئا منها ، ولم يحتج أحد من الأئمة بشيء منها ، بل مالك امام أهل المدينة الذين هم أعلم الناس بحكم هذه المسألة كره أن يقول الرجل زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو كان هذا اللفظ معروفا عندهم أو مشروعا أو مأثورا عن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكرهه عالم أهل المدينة ، والامام أحمد أعلم الناس في زمانه بالسنة لما سئل عن ذلك لم يكن عنده مايعتمد عليه في ذلك من الأحاديث الا حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ما من رجل يسلم علي الا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام) وعلى هذا اعتمد أبو داود في سننه ، وكذلك مالك في الموطأ ، وروى

عن عبد الله بن عمر أنه كان اذا دخل المسجد قال : السلام عليك يارسول الله ، السلام عليك ياأبا بكر ، السلام عليك ياأبت ، ثم ينصرف ، وفي سنن أبي داوود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لاتتخذوا قبري عيدا وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيثما كنتم) وفي سنن سعيد بن منصور أن عبد الله بن الحسن بن علي ابن أبي طالب رأى رجلا يختلف الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لاتتخذوا قبري عيدا وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيثما كنتم) فما أنت ورجل بالأندلس منه الا سواء ، وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في مرض موته : (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر مافعلوا قالت عائشة ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجدا) وهم دفنوه في حجرة عائشة خلاف ماعتادوه من الدفن في الصحراء ، لئلا يصلي أحد عند قبره ويتخذه مسجدا فيتخذ قبره وثنا ، وكان الصحابة والتابعون لما كانت الحجرة النبوية منفصلة عن المسجد الى زمن الوليد بن عبد الملك لايدخل أحد اليه لا لصلاة هناك ، ولا لتمسح بالقبر ، ولا دعاء هنالك ، بل هذا جميعه انما كانوا يفعلونه في المسجد ، وكان السلف من الصحابة والتابعين اذا سلموا عليه وأرادوا الدعاء دعوا مستقبلي القبلة ولم يستقبلوا القبر •

وأما الوقوف للسلام عليه فقال أبو حنيفة يستقبل القبلة أيضا ولا يستقبل القبر ، وقال أكثر الأئمة بل يستقبل القبر عند السلام خاصة ، ولم يقل أحد من الأئمة أنه يستقبل القبر عند الدعاء ، وليس في ذلك الا حكاية مكذوبة تروى عن مالك ومذهبه بخلافها ، واتفق الأئمة على أنه لايمس قبر النبي صلى الله عليه وسلم ولا يقبله وهذا كله محافظة على التوحيد ، فان من أصول الشرك بالله تعالى اتخاذ القبور مساجد ، كما قال طائفة من السلف في قوله تعالى :

(وقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلهَتَكُم ولاتذَرُنَّ وداً ولا سُواعاً ولا يَغُوثَ وَيعُوقَ ونسْراً)[1] قالوا هؤلاء كانوا قوما صالحين في قوم نوح فلماماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا على صورهم تماثيل ثم طال عليهم الأمد فعبدوها ، وقد ذكر هذا المعنى البخاري في صحيحه عن ابن عباس ، وذكره محمد بن جرير الطبري في التفسير عن غير واحد من السلف ، وقد بسطت الكلام على أصول هذه المسائل في غير هذا الموضع •

---

(1) نوح : ٢٣

وأول من وضع هذه الأحاديث في السفر لزيارة المشاهد التي على القبور هم أهل البدع من الرافضة ونحوهم ، الذين يعطلون المساجد ، ويعظمون المشاهد ،التي يشرك فيها ، ويكذب فيها ، ويبتدع فيها دين لم ينزل الله به سلطانا ، فان الكتاب والسنة انما فيهما ذكر المساجد دون المشاهد ، كما قال تعالى (قُل أَمَرَ رَبِّي بِالقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُم عِنْدَ كُلِّ مَسجِدٍ وادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)[1] وقال تعالى: (إِنَّمَا يَعْمُر مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَومِ الآخِرِ)[2] وقال تعالى : (وَأَنَّ المَسَاجِدَ للهِ فلا تَدْعُوا معَ اللهِ أَحداً)[3] وقال تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)[4]
وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه كان يقول : (ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني أنهاكم عن ذلك).

(هذا آخر ماأجاب به شيخ الاسلام ابن تيمية والله سبحانه وتعالى أعلم)

وكان للشيخ في هذه المسألة كلام متقدم أقدم من هذا الجواب المذكور ، وفيه ماهو أبلغ من هذا الجواب ، كما أشار اليه في الجواب ، ولما ظفروا في دمشق بجوابه هذا كتبوه وبعثوا به الى الديار المصرية ،وكتب عليه قاضي الشافعية قابلت الجواب عن هذا السؤال المكتوب على خط ابن تيمية فصح ، الى أن قال : وانما المحرم جعله زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقبور الأنبياء صلوات الله عليهم معصية مقطوعا بها ، هذا كلامه .

فانظر الى هذا التحريف على شيخ الاسلام ، والجواب ليس فيه المنع من زيارة قبور الأنبياء والصالحين ، وانما فيه ذكر قولين في شد الرحل للسفر الى مجرد زيارة القبور ، والزيارة من غير شد رحل اليها مسألة ، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى ، والشيخ لايمنع الزيارة الخالية عن شد الرحل بل يستحبها ويندب اليها وكتبه ومناسكه تشهد بذلك ، ولم يتعرض الشيخ الى هذه الزيارة في الفتيا لأن السائل لم يسأل عنها ، ولا قال انها معصية ، ولا حكى الاجماع على المنع منها ، لأن العامة فضلا عن العلماء يعرفون أن زيارة القبور سنة ، كيف يظن الجهل بذلك ممن سلم له الاجتهاد المطلق ، والله سبحانه لاتخفى عليه خافية .

---

(١) الاعراف : ٢٩ ـ (٢) التوبة : ١٨ (٣) الجن: ١٨ ـ (٤) ـ البقرة : ١١٤

ولما وصل خط القاضي المذكور الى الديار المصرية كثر الكلام وعظمت الفتنة وطلب القضاة بها فاجتمعوا وتكلموا ، وأشار بعضهم بحبس الشيخ فرسم السلطان به وجرى ماتقدم ذكره ، ثم جرى بعد ذلك أمور على القائمين في هذه القضية لايمكن ذكرها في هذا الموضع •

(ذكر انتصار علماء بغداد للشيخ)

قالوا لما وصل ماأجاب به الشيخ في هذه المسألة الى علماء بغداد قاموا في الانتصار له وكتبوا بموافقته ، قال الحافظ ابن عبد الهادي بن قدامة ورأيت خطوطهم بذلك ، وينبغي ذكر شيء منها هنا •

هذه صورة جواب الشيخ الامام العلامة جمال الدين يوسف بن عبد المحمود ابن عبد السلام بن البتي الحنبلي ومن خطه نقل قال :

(بسم الله الرحمن الرحيم) بعد حمد الله الذي هو فاتحة كل كلام ، والصلاة والسلام على رسوله محمد خير الأنام ، وعلى آله وأصحابه البررة الكرام ، أعلام الهدى ومصابيح الظلام ، يقول أفقر عباد الله وأحوجهم الى عفوه : ما حكاه الشيخ الامام ، البارع الهمام ، افتخار الأنام ، جمال الاسلام ، ركن الشريعة ، ناصر السنة ، قامع البدعة ، جامع أشتات الفضائل ، قدوة العلماء الأماثل ، في هذا الجواب من أقوال العلماء والأئمة النبلاء : بين لايدفع ، ومكشوف لايتقنع ، بل أوضح من النيرين ، وأظهر من فرق الصبح لذي عينين ، والعمدة في هذه المسألة الحديث المتفق على صحته ، ومنشأ الخلاف بين العلماء من احتمالي صيغته ، وذلك أن صيغة قوله صلى الله عليه وسلم : (لاتشد الرحال) ذات وجهين : نفي ، ونهي ، لاحتمالها لهما ، فان لحظ معنى النفي فمعناه نفي فضيلة واستحباب شد الرحل واعمال المطي الى غير المساجد الثلاثة ، ويتعين توجه النفي الى فضيلتهما واستحبابهما دون ذاتهما ، والا لزم تخلف الخبر ، ولا يلزم من نفي الفضيلة والاستحباب نفي الاباحة ، فهذا وجه متمسك من قال باباحة هذا السفر بالنظر الى أن هذه الصيغة نفي ، وبني على ذلك جواز القصر ، وان كان النهي ملحوظا : فالمعنى حينئذ نهيه عن اعمال المطي وشد الرحال الى غير المساجد الثلاثة ، اذ المقرر عند عامة الأصوليين أن النهي عن الشيء قاض بتحريمه أو كراهته على حسب الأدلة ، فهذا وجه متمسك من قال بعدم جواز القصر في هذا السفر لكونه منهيا عنه ، وممن قال بحرمته الشيخ الامام أبو محمد الجويني من الشافعية ، والشيخ الامام أبو الوفاء ابن عقيل من الحنابلة ، وهو الذي

أشار القاضي عياض من المالكية الى اختياره ، وما جاء من الأحاديث في استحباب زيارة القبور فمحمولة على مالم يكن فيه شد رحل واعمال مطي جمعا بينها ،ويحتمل أن يقال لايصلح أن يكون غير حديث شد الرحال معارضا له لعدم مساواته اياه في الدرجة لكونه من أعلى أقسام الصحيح ، والله تعالى أعلم •

(وقد بلغني) أنه رزىء وضيق على المجيب ، وهذا أمر يحار فيه اللبيب،ويتعجب منه الأريب ، ويقع منه في شك مريب ، فان جوابه في هذه المسألة قاض بذكر خلاف العلماء وليس حاكما بالغض من الصالحين والأنبياء ، فان الأخذ بمقتضى كلامه صلوات الله وسلامه عليه في الحديث المتفق على رفعه اليه هو الغاية القصوى في تتبع أوامره ونواهيه ، والعدول عن ذلك محذور ، وذلك مما لامرية فيه ، واذاكان كذلك فأي حرج على من سئل عن مسألة فذكر فيها خلاف الفقهاء ، ومال فيها الى بعض أقوال العلماء ، فان الأمر لم يزل كذلك على ممر العصور وتعاقب الدهور ، وهل ذلك محمول من القادح الا على امتطاء نضو الهوى ، المفضي بصاحبه الى التوى ، فان من يقتبس من فوائده ويلتقط من فرائده لحقيق بالتعظيم ، وخليق بالتكريم ،ممن له الفهم السليم ، والذهن المستقيم ، وهل حكم المظاهر عليه في الظاهر ، الا كما قيل في المثل السائر (الشعير يؤكل ويذم) ولولا خشية الملالة لما سئمت من الاطالة •

(وكتب تحته) الامام صفي الدين ابن عبد الحق الحنبلي : الحمد لله رب العالمين : وصلاته على سيدنا محمد ، وعلى آله الطاهرين ، ماذكره مولانا الامام العالم العامل ، جامع الفضائل ، بحر العلم ، ومنشأ الفضل ، جمال الدين الكاتب خطه أمام خطى هذا جمل الله به الاسلام ، وأسبغ عليه سوابغ الانعام ، أتى فيه بالحق الجلي الواضح ، وأعرض فيه عن اغضاء المشايخ ، اذ السؤال والجواب اللذان تقدماه لايخفى على ذي فطنة وعقل أنه أتى في الجواب بالمطابق للسؤال ، بحكاية أقوال العلماء الذين تقدموه ، ولم يبق عليه في ذلك الا أن يعترض معترض في نقله فيبرزه له من كتب العلماء الذين حكى أقوالهم ، والمتعرض له بالتشنيع اما جاهل لايعلم مايقول ، أو متجاهل يحمله حسده وحميته الجاهلية على رد ماهو عند العلماء مقبول، أعاذنا الله تعالى من غوائل الحسد ، وعصمنا من مخائل النكد ، بمحمد وآله الطاهرين •

(جواب آخر لعلماء الشافعية)

قال بعد البسملة والحمدلة : لاريب أن المملوك أوقف على ماسئله الشيخ الامام

العالم العلامة وحيد دهره ، وفريد عصره ، تقي الدين أبو العباس ابن تيمية ، ومـا أجاب به ، فوجدته خلاصة ماقاله العلماء في هذا الباب ، حسبما اقتضاه الحال من نقله الصحيح ، وما أدى اليه البحث من الالزام والالتزام ، لايداخله تحامل ، ولا يعتريه تجاهل ، وليس فيه والعياذ بالله مايقتضي الازراء والتنقيص بمنزلة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكيف يجوز للعلماء أن تحملهم العصبية أن يتفوهوا بالازراء والتنقيص في حق الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهل يجوز أن يتصور متصور أن زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم تزيد في قدره ، وهل تركها مما ينقص من تعظيمه ؟ حاش للرسول من ذلك ، نعم لو ذكر ذاكر ابتداء وكان هنـاك قرائن تـدل على الازراء والتنقيص أمكن حمله على ذلك ، مع أنه كان يكون كناية لاصريحا ، فكيف وقد قاله في معرض السؤال وطريق البحث والجدال ، مع أن المفهوم من كلام العلماء وأنظار العقلاء أن الزيارة ليست عبادة وطاعة بمجردها ، حتى أنه لو حلف أنه يأتي بعبادة أو طاعة لم يبر بها ، لكن القاضي ابن كج من متأخري أصحابنا ذكر أن هذه الزيارة عنده قربة تلزم ناذرها ، وهو منفرد به لايساعده في ذلك نقل صريح ولا قياس صحيـح ، والذي يقتضيه مطلق الخبر النبوي فيقوله عليهالسلام لاتشد الرحال الخ أنه لايجوز شدها الى غير ماذكر ، فمن اعتقد جواز الشد الىغير ماذكر أو وجوبه أو ندبيته كان مخالفا لصريح النهي ومخالفة النهي معصية ، حرره ابن الكتبي الشافعي حامدا لله على نعمه .

(جواب آخر لعلماء المالكية)

قال : ماأجاب به الشيخ الأوحد الأجل بقية السلف ، وقدوة الخـلف ، رئيس المحققين ، وخلاصة المدققين ، تقي الملة والحق والدين ، من الخلاف في هذه المسألة صحيح منقول في غير ما كتاب من كتب أهل العلم ، فلا مجال للاعتراض عليه في ذلك، اذ ليس بعيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا غض من قدره ، وقد نص الشيخ أبومحمد الجويني في كتبه على تحريم السفر لزيارة القبور ، وهو اختيار الامـام القاضي عياض من المالكية ، وهو أفضـل المتـأخرين من أصحـابنا ، وفي المدونة ومن قال علي المشي الى المدينة أو بيت المقدس فلا يأتيهما أصلا الاأن يريد الصلاة في مسجديهما فليأتهما ، فلم يجعل نذر زيارة قبره طاعة يجب الوفاء بها ، ومن أصلنا أن من نذر طاعة لزمه الوفاء بها أكان من جنسها ماهو واجب بالشرع كما هو مذهب أبي حنيفة أو لم يكن ؟ قال القاضي أبو اسحق اسمعيل بن اسحق عقب هذه المسـألة :

ولولا الصلاة فيهما لما لزمه اتيانهما ، ولو كان نذر زيارته طاعة لزمه ذلك ، وقد ذكر ذلك القيرواني في تقريبه ، والشيخ ابن بشير في تنبيهه ، وفي المبسوط :قال مالك ومن نذر المشي الى مسجد من المساجد ليصلي فيه قال فاني أكره ذلك له ، لقوله صلى الله عليه وسلم : (لايعمل المطي الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد بيت المقدس ، ومسجدي هذا) وروى محمد بن المواز في الموازية عنه الا أن يكون قريبا فيلزمه الوفاء ، لأنه ليس بشد رحل ، وقد قال الشيخ أبو عمر ابن عبد البر في (كتاب التمهيد) يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والصالحين مساجد ، وحيث تقرر هذا فلا يجوز أن ينسب من أجاب في هذه المسألة بأنه سفر منهي عنه الى الكفر ، فمن كفره بذلك من غير موجب فان كان مستبيحا ذلك فهو كافر ، والا فهو فاسق ، قال الامام أبو عبد الله محمد بن علي المازري في (كتاب المعلم) من كفر أحدا من أهل القبلة فان كان مستبيحا لذلك فقد كفر ، والا فهو فاسق يجب على الحاكم اذا رفع أمره اليه أن يؤدبه أو يعزره بما يكون رادعا لأمثاله ، فان ترك ذلك مع القدرة عليه فهو آثم ، والله تعالى أعلم ، كتب ذلك محمد بن عبد الرحمن البغدادي الخادم للطائفة المالكية في المدرسة الشريفة المستنصرية •

(جواب آخر لبعض علماء الشام المالكية)

قال : السفر الى غير المساجد الثلاثة ليس بمشروع ، وأما من سافر الى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ليصلي فيه ويسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى صاحبيه رضي الله عنهما فمشروع باتفاق العلماء ، وأما لو قصد اعمال المطي لزيارته صلى الله عليه وسلم ولم يقصد الصلاة فهذا السفر اذا ذكر رجل فيه خلافا للعلماء ــ وان منهم من قال أنه منهي عنه ، ومنهم من قال أنه مباح ، وأنه على القولين ليس بطاعة ولا قربة ، فمن جعله طاعة وقربة على مقتضى هذين القولين كان حراما بالاجماع وذكر حجة كل منهما ، أو رجح أحد القولين ــ لم يلزمه مايلزم من تنقص ، اذ لاتنقص في ذلك ولا ازراء بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وقد قال مالك لسائل سأله اذا نذر أن يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ان كان أراد مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فليأته وليصل فيه ، وان كان أراد القبر فلا يفعل ، للحديث الذي جاء (لاتعمل المطي الا الى ثلاثة مساجد) والله أعلم ، كتبه أبو عمرو ابن أبي الوليد المالكي •

(وورد مع أجوبة أهل بغداد كتاب وفيه)

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله ناصر الملة الاسلامية ، ومعز الشريعة

المحمدية ، بدوام أيام الدولة المباركة السلطانية ، المليكة المالكية الناصرية ، ألبسها الله تعالى لباس العز المقرون بالدوام ، وحلاها بحلية النصر المستمر بمرور الليالي والأيام ، والصلاة والسلام على النبي المبعوث الى جميع الأنام ، وعلى آله البررة الكرام .

اللهم ان بابك لم يزل مفتوحا للسائلين ، ورفدك مابرح مبذولا للوافدين ، من عودته مسألتك وحدك لم يسأل أحدا سواك ، ومن منحته منائح رفدك لم يفد على غيرك ولم يحتم الا بحماك ، أنت الرب العظيم الكريم الأكرم ، قصد باب غيرك على عبادك محرم ، أنت الذي لا اله غيرك ولا معبود سواك ، عز جارك ، وجل ثناؤك ، وتقدست أسماؤك ، لم تزل سننك في خلقك جارية بامتحان أوليائك وأحبابك ، فضلا منك عليهم ، واحسانا من لدنك اليهم ، ليزدادوا لك في جميع الحالات ذكرا ، ولأنعمك في جميع التقلبات شكرا ، ولكن أكثر الناس لايعلمون (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)[1] اللهم أنت العالم الذي لايعلم ، وأنت الكريم الذي لايبخل قد علمت ياعالم السر والعلانية أن قلوبنا لم تزل برفع اخلاص الدعاء صادقة ، وألسننا في حالتي السر والعلانية ناطقة ، أن تمتعنا بامداد هذه الدولة المباركة الميمونة السلطانية الناصرية بمزيد العلا والرفعة والتمكين ، وأن تحقق آمالنا فيها باعلاء الكلمة ، ففي ذلك رفع قواعد دعائم الدين ، وقمع مكائد الملحدين ، لأنها الدولة التي برئت من غشيان الجنف والحيف ، وسلمت من طغيان القلم والسيف ، والذي عهده المسلمون وتعوده المؤمنون ، من المراحم الكريمة والعواطف الرحيمة ، اكرام أهل الدين ، واعظام علماء المسلمين ، والذي حمل على رفع هذه الأدعية الصريحة الى الحضرة الشريفة ــ وان كانت لم تزل مرفوعة الى الله سبحانه وتعالى بالنية الصحيحة ــ قوله صلى الله عليه وسلم : (الدين النصيحة ، قيل لمن يارسول الله ؟ قال : لله ، ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ، وعامتهم) وقوله صلى الله عليه وسلم (الأعمال بالنيات) وهذان الحديثان مشهوران بالصحة مستفيضان في الأمة ، ثم ان هذا الشيخ المعظم الجليل والامام المكرم النبيل ، أوحد الدهر ، وفريد العصر ، طراز المملكة الملكية ، وعلم الدولة السلطانية ، لو أقسم مقسم بالعظيم القدير أن هذا الامام الكبير ليس له في عصره مماثل ولا نظير : لكانت يمينه برة غنية عن التكفير ، وقد خلت من وجود مثله

(1) العنكبوت : ٤٣

السبع الأقاليم الا هذا الاقليم ، يوافق على ذلك كل منصف جبل على الطبع السليم ، ولسنا بالثناء عليه نطريه ، بل لو أطنب مطنب في مدحه والثناء عليه لما أتى على بعض الفضائل التي فيه ، أحمد بن تيمية ، درة يتيمة يتنافس فيها ، تشترى ولا تباع ،ليس في خزائن الملوك مايماثلها ويؤاخيها ، انقطعت عن وجود مثله الأطماع •

لقد أصم الأسماع ، وأوهى قوى المتبوعين والأتباع : سماع رفع أبي العباس أحمد بن تيمية الى القلاع ، وليس يقع من مثله أمر ينقم منه عليه الا أن يكون أمرا قد لبس عليه ، ونسب الى مالا ينسب مثله اليه ، والتطويل على الحضرة العالية لايليق ان يكن في الدنيا قطب فهو القطب على التحقيق ، وقد نصب الله السلطان أعلى الله شأنه في هذا الزمان منصب يوسف الصديق لما صرف الله وجوه أهل البلاد اليه ، حيث أمحلت البلاد واحتاج أهلها الى القوت المدخر لديه ، والحاجة بالناس الآن الى قوت الأرواح الروحانية أعظم من حاجتهم في ذلك الزمان الى طعام الجثث الجسمانية، وأقوات الأرواح المشار اليها لاخفاء أنها العلوم الشريفة ، والمعاني اللطيفة، وقدكانت بلاد المملكة السلطانية ـ حرسها الله تعالى ـ تكال الثناء جزافا بغير أثمان ، منحة عظيمة من الله ذي السلطان ، ونعمة جسيمة اذ خص بلاد مملكته وأقليم دولته بما لايوجد في غيرها من الأقاليم والبلدان ، وقد كان وفد الوافدون من سائر الأمصار فوجدوا صاحب صواع الملك قد رفع الى القلاع ، ومثل هذه الميرة لاتوجد في غير تلك البلاد لتشترى أو تباع ، وصادف ذلك جدب الأرض ونواحيها جدبا أعطب أهاليها ، حتى صاروا من شدة حاجتهم الى الأقوات كالأموات ، والذي عرض للمليك بالتضييق على صاحب صواعه مع شدة الحاجة الى غذاء الأرواح لعله لم يتحقق عنده أن هذا الامام من أكابر الأولياءوأعيان أهل الصلاح ، وهذه نزغة من نزغات الشيطان ، قال الله سبحانه : (وقُل لعِبادِي يَقُولُوا الَّتى هِيَ أَحْسَنُ إنَّ الشَّيطانَ ينْزَغُ بينَهم إنَّ الشَّيطَان كَانَ للانسانِ عدُواً مُبِيْناً) .[1]

وأما ازراء بعض العلماء عليه في فتواه وجوابه عن مسألة شد الرحال الى زيارة القبور : فقد حمل جواب علماء هذه البلاد الى نظرائهم من العلماء وقرنائهم من الفضلاء ،وكلهم أفتى أن الصواب في الذي به أجاب ، والظاهر بين الأنام أن اكرام هذا الامام ومعاملته بالتبجيل والاحترام : فيه من قوام الملك ، ونظام الدولة ، واعزاز

---

(١) الاسراء : ٥٣

الملة واستجلاب الدعاء ، وكبت الأعداء ،واذ لال أهل البدع والأهواء ، واحياء الأمة ، وكشف الغمة ، ووفور الأجر ، وعلو الذكر ، ودفع البأس ، ونفع الناس ، ولسان حال المسلمين تال قول الكبير المتعال : (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ)[1] والبضاعة المزجاة هي هذه الأوراق المرقومة بالأقلام ، والميرة المطلوبة الافراج عن شيخ الاسلام ، والذي حمل على هذا الاقدام قوله عليه السلام : (الدين النصيحة) والسلام •

(كتاب آخر لعلماء بغداد)

وفيه بعد البسملة والحمدلة : اللهم فكما أيدت ملوك الاسلام وولاة الأمر بالقوة والقهر وشيدت لهم ذكرا وجعلتهم للمقهور اللائذ بجنابهم ذخرا وللمكسور العائذ بأكناف بابهم جبرا فاشدد اللهم منهم بحسن معونتك لهم أسرا ، وأعل لهم مجدا ، وارفع لهم قدرا ، وزدهم عزا وعلى أعدائهم نصرا ، وامنحهم توفيقا مسددا وتمكينا مستمرا •

(وبعد)فانه لما قرع أسماع أهل البلاد المشرقية والنواحي العراقية التضييق على شيخ الاسلام أبي العباس تقي الدين أحمد ابن تيمية سلمه الله تعالى عظم ذلك على المسلمين ، وشق على ذوي الدين ، وارتفعت رؤوس الملحدين ، وطابت نفوس أهل الأهواء والمبتدعين ، ولما رأى علماء أهل هذه الناحية عظم هذه النازلة من شماتة أصحاب البدع وأهل الأهواء بأكابر الأفاضل وأئمة العلماء أنهوا حال هذا الامر الفظيع والحال الشنيع الى الحضرة الشريفة السلطانية ــ زادها الله شرفا ــ وكتبوا أجوبتهم في تصويب ماأجاب به الشيخ سلمه الله تعالى في فتاواه ، وذكروا من علمه وفضائله بعض ماهو فيه ، وحملوا ذلك بين يدي مولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره ، وضاعف اقتداره ، غيرة منه على هذا الدين ، ونصيحة للاسلام وأمراء المسلمين ، والآراء المولوية العالية أولى بالتقديم ، لأنها ممنوحة بالهداية الى الصراط المستقيم •

(قلت) والظاهر أن هذه الكتب لم تصل للسلطان الملك الناصر ، اما لعدم من

(١) يوسف : ٨٨

يوصلها له أو لموت الشيخ قبل وصولها ، والا لظهر لها نتيجة ، ولم أقف على ذلك ، وهذه الأجوبة والكتب وصلت كلها الى دمشق .

(ثم ان الشيخ رحمه الله) استمر مقيما بالقلعة سنتين وثلاثة أشهر وأياما الى أن توفي ، ومازال في تلك المدة معظما مكرما ، يكرمه نقيب القلعة ونائبها اكراما كثيرا ، ويقضيان حوائجه ويبالغان في قضائها ، وما برح في هذه المدة مكبا على العبادة والتلاوة وتصنيف الكتب والرد على المخالفين ، وكتب على تفسير القرآن جملة كثيرة تشتمل على نفائس جليلة ، ونكت دقيقة ، ومعاني لطيفة ، وبين في ذلك مواضع كثيرة أشكلت على خلق من علماء أهل التفسير ، وكتب في المسألة التي حبس بسببها عدة مجلدات ، منها كتاب في الرد على الأخنائي قاضي المالكية ، ومنها كتاب كبير حافل في الرد على بعض قضاة الشافعية ، وأشياء كثيرة في هذا المعنى ، وكان ماصنفه في هذه المدة قد خرج بعضه من عنده وكتبه بعض أصحابه وظهر واشتهر ، فلما كان قبل وفاته بشهر ورد مرسوم باخراج ماعنده كله ، ولم يبق عنده كتاب ولا ورق ولا دواة ولا قلم ، وكان بعدذلك اذا كتب ورقة الى بعض أصحابه كتبها بفحم ، ولما أخرج ماعنده من الكتب والأوراق حمل الى القاضي علاء الدين القونوي وجعل تحت يده في المدرسة العادلية .

(فصل في ذكر وفاة الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى)

قال أهل التاريخ : كان مولد الشيخ ابن تيمية يوم الاثنين عاشر ربيع الأول بحران سنة احدى وستين وستمائة ، وكانت وفاته ليلة الاثنين لعشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ، ولما أخرجت كتبه من عنده أقبل بعد اخراجها على العبادة والتلاوة والذكر والتهجد حتى أتاه اليقين ، وكان يختم القرآن في كل عشرة أيام ، وختم القرآن مدة اقامته بالقلعة احدى وثمانين ختمة ، انتهى في آخر ختمة الى آخر اقتربت (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ) [1] ثم كملت عليه بعد وفاته وهو مسجى ، وكانت مدة مرضه بضعة وعشرين يوما ، وكان اذ ذاك الملك شمس الدين الوزير بدمشق المحروسة ، فلما علم بمرضه استأذن في الدخول عليه لعيادته فاذن الشيخ له في ذلك ، فلما جلس عنده أخذ يعتذر له عن نفسه ويلتمس منه أن يحلله مما عساه أن يكون قد وقع منه في حقه من تقصير أو

---

(١) القمر : ٥٤ ، ٥٥

غيره ، فأجابه الشيخ رضي الله تعالى عنه أني قد أحللتك وجميع من عاداني وهو لا يعلم أني على الحق ، وقال مامعناه اني قد أحللت السلطان المعظم الملك الناصر من حبسه اياي لكونه فعل ذلك مقلدا غيره معذورا ولم يفعله لحظ نفسه ، بل لما بلغه مما ظنه حقا من مبلغه ، والله يعلم أنه بخلافه ، وقد أحللت كل أحد مما بيني وبينه الا من كان عدوا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم •

(وأكثر الناس) ماعلموا بمرضه فلم يفجأ الخلق الا نعيه ، قال الشيخ علم الدين : وفي ليلة الاثنين لعشرين من ذي القعدة من سنة ثمان وعشرين وسبعمائة توفي الشيخ الامام العلامة الفقيه الحافظ الزاهد القدوة شيخ الاسلام تقي الدين أبو العباس أحمد ابن شيخنا الامام المفتي شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم ابن الشيخ الامام شيخ الاسلام مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني ثم الدمشقي بقلعة دمشق بالقاعة التي كان محبوسا فيها ، فاشتد التأسف عليه وكثر البكاء والحزن ، ودخل عليه أقاربه وأصحابه ، وازدحم الخلق على باب القلعة والطرقات ، وامتلأ جامع دمشق ، وحضر جمع كثير الى القلعة ، فأذن لهم في الدخول ، وجلس جماعة عنده قبل الغسل وقرؤا القرآن وتبركوا برؤيته وتقبيله ثم انصرفوا ، وحضر جماعة من النساء ففعلن مثل ذلك ، ثم انصرفن ، واقتصر على من يغسله ويعين في غسله ، وشرب جماعة الماء الذي فضل من غسله ، وازدحم من حضر غسله من الخاصة والعامة على الماء المنفصل من غسله حتى حصل لكل واحد منهم شيء قليل ، واقتسم جماعة بقية السدر الذي غسل به ، وقيل ان الطاقية التي كانت على رأسه دفع فيها خمسمائة درهم ، والخيط الذي فيه الزئبق وكان في عنقه بسبب القمل دفع فيه مائة وخمسون درهما ، فلما فرغوا من ذلك أخرج ، وقد اجتمع الناس بالقلعة والطريق الى جامع دمشق ، وامتلأ الجامع وصحنه والكلاسين وباب البريد وباب الساعات الى اللبادين والفوارة ، ولم يبق في دمشق من يستطيع المجيء للصلاة عليه الا حضر لذلك حتى غلقت الأسواق بدمشق وعطلت معائشها حينئذ ، وحصل للناس بمصابه أمر شغلهم عن غالب أمورهم وأسبابهم ، وخرج الأمراء والرؤساء والعلماء والفقهاء والأتراك والأجناد والرجال والنساء والصبيان من الخواص والعوام ، قال بعض من حضر ولم يتخلف أحد فيما أعلم الا ثلاثة أنفس كانوا قد اشتهروا بمعاندته فاختفوا من الناس خوفا على أنفسهم بحيث غلب على ظنهم أنهم متى خرجوا رجمهم الناس •

(ولما أخرجت جنازته) فما هي الا أن رآها الناس فأكبوا عليها وحصل البكاء والضجيج والتضرع ، واشتد الزحام من كل جانب ، كل منهم يقصد التبرك ، حتى خشي على النعش أن يحطم قبل وصوله ، فأحدق الأمراء والأجناد ، واجتمع الأتراك فمنعوا الناس من الزحام عليهاخشية سقوطها ، وجعلوا يردونهم عن الجنازة بكل مايمكنهم وهم لايزدادون الا زحاما وكثرة ، حتى دخلت جامع بني أمية المحروس ظنا منهم أنه يسع الناس ، فبقي كثير من الناس خارج الجامع ، فصلي عليه رضي الله تعالى عنه بجامع دمشق عقب صلاة الظهر ، وكان صلي عليه أولا في القلعة ، تقدم في الصلاة عليه الشيخ محمد بن تمام ، ثم حمل الى باب البريد على أيدي الكبراء والأشراف الى ظاهر دمشق واشتد الزحام وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائمهم للتبرك ، وخرج الناس من الجامع من أبوابه كلها من شدة الزحام وكل باب أعظم زحمة من الآخر ، ثم خرج الناس من أبواب البلد جميعها من شدة الزحام ، لكن المعظم من الأبواب الأربعة : باب الفرج الذي خرجت منه الجنازة ، ومن باب الفراديس ، وباب النصر ، وباب الجابية ، فلما خرجوا به لظاهر دمشق وضع بأرض فسيحة متسعة الأطراف ، فصلى عليه الناس أيضا ، وتقدم في الصلاة عليه هناك أخوه زين الدين عبد الرحمن ، قال بعض من حضر من الثقاة : كنت ممن صلى عليه في الجامع وكان لي متشرف على المكان الذي صلي عليه فيه بظاهر دمشق فأحببت أن أنظر الى الناس وكثرتهم فأشرفت عليهم حال الصلاة وجعلت أنظر يمينا وشمالا ولا أرى أواخرهم بل رأيت الناس قد طبقوا تلك الارض كلها .

واتفق جماعة ممن حضر وشاهد الناس والمصلين عليه علىأنهم يزيدون علىنحومن خمسمائة ألف ، وحضرها نساء كثيربحيث حزرن بخمسة عشر ألفا ، قال أهل التاريخ: لم يسمع بجنازة تمثل هذا الجمع الا جنازة الامام أحمد بن حنبل ، قال الدار قطني سمعت أبا سهل ابن زياد القطان يقول : سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول سمعت أبي يقول : قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم يوم الجنائز ، قال أبو عبد الرحمن السلمي أنه حزر الحزارون المصلين على جنازة أحمد فبلغ العدد بحزرهم ألف ألف وسبعمائة ألف سوى الذين كانوا في السفن ، ثم حملت جنازة الشيخ الى قبره في مقبرة الصوفية فوضع ، وقد جاء الملك شمس الدين الوزير ولم يكن حاضرا قبل ذلك فصلى عليه أيضا ومن معه من الأمراء والكبراء ومن شاء الله من الناس ، ثم دفن وقت العصر الى جانب أخيه الشيخ الامام العلامة البارع الحافظ الزاهد العابد الورع جمال الاسلام

شرف الدين ، وكان قد توفي سنة سبع وعشرين في أيام حبس أخيه تقي الدين ، وصلي عليه في جامع دمشق ، ثم حمل الى باب القلعة فصلي عليه مرة أخرى ، وصلى عليه أخواه تقي الدين وزين الدين وخلق من داخل القلعة ، وكان الصوت بالتكبير يبلغهم وكثر البكاء في تلك الساعة ، وكان وقتا مشهودا ، ثم صلي عليه مرة ثالثة ورابعة ، وحضر جنازته جمع كثير وعالم عظيم ، وكثر الثناء والتأسف عليه ، وأثنى عليه الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني ، فقال : شرف الدين بارع في فنون عديدة من الفقه ، والنحو ، والأصول ، ملازم لأنواع الخير ، وتعليم العلم ، حسن العبادة ، قوي في دينه ، جيد التفقه ، مستحضر لمذهبه استحضارا جيدا ، مليح البحث صحيح الذهن ، قوي الفهم رحمه الله تعالى .

فلما دفن الشيخ تقي الدين الى جانب أخيه : جعل الناس يأتون قبره للصلاة عليه من القرى والأطراف والأماكن والبلاد مشاة وركبانا ، وتردد الناس الى قبره أياما كثيرة ليلا ونهارا ، ورؤيت له منامات كثيرة صالحة ، قال الحافظ الشيخ سراج الدين البزار : وما وصل خبر موته الى بلد فيما نعلم الا وصلي عليه في جميع جوامعه ومجامعه ، خصوصا أرض مصر ودمشق والعراق وتبريز والبصرة وقراها وغيرها ، وختمت له الختمات الكثيرة في الليالي والأيام في أماكن كثيرة لم يضبط عددها ، خصوصا بدمشق ومصر والعراق ، حتى جعل كثير من الناس القراءة له وأدار الربعة الشريفة على الناس للقراءة واهدائها له وظيفة معتادة ، قال ولم ير في جنازة مارؤي في جنازته من الوقار والهيبة ، والعظمة والجلالة ، وتعظيم الناس لها ، وتوقيرهم اياها ، وتفخيمهم أمر صاحبها ، وثنائهم عليه بما كان عليه من العلم والعمل ، والزهادة والعبادة ، والاعراض عن الدنيا ، والاشتغال بالآخرة ، والفقر ، وايثار الكرم ، والمروءة ، والصبر ، والثبات ، والشجاعة ، والفراسة ، والاقدام في الصدع بالحق ، والأغلاظ على أعداء الله ورسوله ،والمنحرفين عن دينه ، والتواضع لأولياء الله ، والتذلل لهم والاكرام ، والاعتذار والاحترام لجنابهم ، وعدم الاكتراث بالدنيا وزخرفها ونعيمها ولذاتها ، وشدة الرغبة في الآخرة والمواظبة على طلبها ، حتى سمع ذلك ونحوه من الرجال والنساء والصبيان ، وكل منهم يثني عليه بما يعلمه من ذلك رضي الله عنه وأرضاه ، ونفعنا به في الدنيا والآخرة ، آمين .

هذا وقد قال الحافظ ابن عبد الهادي بن قدامة في مناقبه ـ بعد أن أطال الكلام عليها ـ وللشيخ فضائل كثيرة ، وأسماء مصنفاته وسيرته وماجرى بينه وبين

الفقهاء والدولة والمتصوفة وحبسه مرات وأحواله لايحتمل ذكر جميعها هذا الكتاب انتهى •

(فصل فيما رثي به الشيخ من القصائد بعد موته وذلك كثير لاينحصر)

ولما مات الشيخ ابن تيمية رحمه الله رثاه كثير من الفضلاء والأئمة العلماء بقصائد جمة لايسع هذا المختصر ذكرها ، قال الشيخ الامام ابن فضل الله العمري : رثاه جماعات من الناس بالشام ، ومصر ، والعراق ، والحجاز ، والغرب — نسأل فضل رحمة الله عليه — وها أنا أذكر شيئا من ذلك في هذا المختصر :

(فمنها) ما قاله الشيخ القاضي الامام العالم شهاب الدين أبو العباس أحمدبن فضل الله العمري الشافعي نثرا ونظما في حق الشيخ ، قال في كلام طويل : ورفع الى السلطان غير ما مرة ، ورمي بالكبائر ، وتربصت به الدوائر ، وسعي به ليؤخذ بالجرائر ، وحسده من لم ينل سعيه ، وكثر فارتاب ، وما تم وما زاد على أنه اغتاب، وأزعج من وطنه تارة الى مصر ثم الى الاسكندرية وتارة الى مجلس القلعة في دمشق ، وفي جميعها يودع أخبية السجون ، ويلدغ بزباني المنون ، وهو على لينظر صحفه ،ويدخر تحفه ، حتى تستهدي أطراف البلاد طرفه ، وتستطلع بقايا الأقاليم شرفه ، الى أن خطفه آخر مرة من سجنه عقاب المنايا ، وجذبته الى مهواتها قرارة الرزايا ، وكان قبل موته قد منع الدواة والقلم ، وطبع على قلبه منه طابع الألم ، فكان مبدأ مرضه ومنشأ برضه ، حتى نزل قفار المقابر ، وترك فقار المنابر ، وحل بساحل ربه وما يحاذر ، واختار راحة قلبه من اللائم والعاذر ، فمات وما مات لابل حيّ ، وعرف قدره لأن مثله مارؤي ، مابري على المآثر الى أن ضريحه أحله ، وأتاه بشير الجنة يستعجله ، فانتقل الى الله والظن به أنه لايخجله ، وكان يوم دفنه يوما مشهودا ، ووقتا معدودا ، ضاقت به البلد وظواهرها ، وتذكرت به أوائل الرزايا وأواخرها ، ولم يكن أعظم منها منذ مئين من السنين جنازة رفعت على الرقاب ، ووطئت في زحامها الأعقاب ، وصار مرفوعا على الرؤوس متبوعا بالنفوس ، تحدوه العبرات ، وتتبعه الزفرات ، وتقول له الأمم لافقدت من غائب ، ولا قلامه النافعة لأبعدكن الله من شجرات ، كان أمة وحده ، وفردا حتى نزل لحده ، ثم قال :

أهكذا في الدياجي يحجب القمر ... ويحبس النوء حتى يحبس المطر
أهكذا تمنع الشمس المنيرة عن ... منافع الأرض أحيانا فتستتر
أهكذا السيف لاتمضي مضاربه ... والسيف في الفتك مافي عزمه خور

أهكذا القوس ترمى بانعراء وما ... تصمى الرمايا وما في باعها قصر

أهكذا يترك البحر الخضم ولا ... يلوى عليه وفي أصدافه الدرر

أهكذا يتقي الدين قد عبثت ... أيدي العدى وتعدى نحوه الضرر

الى ابن تيمية ترمى سهام أذى ... من الأنام ويدمى الناب والظفر

بر السوابق ممتد العبادة لا ... يناله ملل فيها ولا ضجر

ولم يكن مثله بعد الصحابة في ... علم عظيم وزهد ماله خطر

طريقة كان يمشي قبل مشيته ... بها أبو بكر الصديق أو عمر

فرد المذاهب في أقوال أربعة ... جاؤا على أثر السباق وابتدروا

لما بنوا قبله عليا مذاهبهم ... بنى وعمر منها مثل ماعمروا

مثل الأئمة قد أحيا زمانهم ... كأنه كان فيهم وهو منتظر

ان يرفعوهم جميعا رفع مبتدأ ... فحقه الرفع أيضا أنه خبر

أمثله بينكم يلقى بمضيعة ... حتى يطيح له عمدا دم هدر

يكون وهو أماني لغيركم ... تنوبه منكم الأحداث والغير

والله لو أنه في غير أرضكم ... لكان منكم على أبوابه زمر

مثل ابن تيمية ينسى بمحبسه ... حتى يموت ولم يكحل به بصر

مثل ابن تيمية ترضى حواسده ... بحبسه ولكم في حبسه غدروا

مثل ابن تيمية في السجن معتقل ... والسجن كالغمدوهو الصارم الذكر

مثل ابن تيمية يرمي بكل أذى ... وليس يجلى قذى منه ولا نظر

مثل ابن تيمية تذوى خمائله ... وليس يلقط من أفنانه الزهر

مثل ابن تيمية شمس تغيب سدى ... وما تروق بها الآصال والبكر

مثل ابن تيمية يمضي وما عبقت ... بمسكه العاطر الأردان والطرر

مثل ابن تيمية يمضي وما نهلت ... له سيوف ولا خطية سمر

ولا تجارى له خيل مسومة ... وجوه فرسانها الأوضاح والغرر

ولا تحف به الأبطال دائرة ... كأنهم أنجم في وسطها قمر

ولا تعبس حرب في مواقفه ... يوما ويضحك في أرجائها الظفر

حتى يقوم هذا الدين من ميل ... ويستقيم على منهاجه البشر

بل هكذا السلف الأبرار مابرحوا ... يبلى اصطبارهم جهدا وهم صبر

تأس بالأنبياء الطهر كم بلغت ... فيهم مضرة أقوام وكم هجروا

في يوسف في دخول السجن منقبة ... لمن يكابد مايلقى ويصطبر
ماأهملوا أبدا بل أمهلوا لمدى ... والله يعقب تأييدا وينتصر
أيذهب المنهل الصافي ومانقعت ... به الظماة ويبقى الحمأة الكدر
مضى حميدا ولم يعلق به وضر ... وكلهم وضر في الناس أو ضرر
طود من الحلم لايرقى له فنن ... كأنما الطود من أحجاره حجر
بحر من العلم قد فاضت بقيته ... فغاضت الأبحر العظمى وماشعروا
ياليت شعري هل في الحاسدين له ... نظيره في جميع القوم ان ذكروا
هل فيهم لحديث المصطفى أحد ... يميز النقد أو يروى له خبر
هل فيهم من يضم البحث في نظر ... أو مثله من يضم البحث والنظر
هلا جمعتم له من قومكم ملأ ... كفعل فرعون مع موسى ليعتذروا
قولوا لهم قال هذا فابحثوا معه ... قدامنا وانظروا الجهال ان قدروا
يلقى الأباطيل أسحارا لها دهش ... فليلقف الحق ماقالوا وما سحروا
فليتهم مثل ذاك الرهط من ملأ ... حتى يكون لكم في شأنهم عبر
وليتهم أذعنوا للحق مثلهم ... فآمنوا كلهم من بعدما كفروا
ياطالما نفروا عنه مجانبة ... وليتهم نفعوا في الضيم أو نفروا
هل فيهم صادع للحق مقوله ... أو خائض للوغي والحرب تستعر
رمى الى نحو غازان مواجهة ... سهامه من دعاء عونه القدر
بتلّ راهط والأعداء قد غلبوا ... على الشآم وطار الشر والشرر
وشق في المرج والأسياف مصلتة ... طوائف كلها أو بعضها تتر
هذا وأعداؤه في الدور أشجعهم ... مثل النساء بظل الباب مستتر
وبعدها كسروان والجبال وقد ... أقام أطوادها والطود منفطر
واستحصد القوم بالأسياف جهدهم ... وطالما بطروا طغوى وما نظروا
قالوا قبرناه قلنا ان ذا عجب ... حقا وللكواكب الدري قد قبروا
وليس يذهب معنى منه متقد ... وانما تذهب الأجسام والصور
لم يبكه ندما من لم يصب دما ... يجري به ديما تهمي وتنهمر
لهفي عليك أبا العباس كم كرم ... لما قضيت قضى من عمره العمر
سقى ثراك من الوسمي صيبه ... وزار مغناك قطر كله قطر
ولا يزال له برق يغازله ... حلو المراشف في أجفانه حور

لفقد مثلك يامن ماله مثل ... تأسى المحاريب والآيات والسور
ياوارثا من علوم الأنبياء نهى ... أورثت قلبي نارا وقدها الفكر
ياواحدا لست أستثني به أحدا ... من الأنام ولا أبقي ولا أذر
ياعلما بنقول الفقه أجمعها ... أعنك تحفظ زلات كما ذكروا
ياقامع البدع اللاتي تجيبها ... أهل الزمان وهذا البدو والحضر
ومرشد الفرقة الضلال نهجهم ... من الطريق فلا حاروا ولا سهروا
ألم تكن للنصارى واليهود معا ... مجادلا اذ هم في البحث قد حضروا
وكم فتى جاهل غر أبنت له ... رشد المقال فزال الجهل والغرر
ماأنكروا منك الا أنهم جهلوا ... عظيم قدرك لكن ساعد القدر
قالوا بأنك قد أخطأت مسألة ... وقد يكون فهلا منك تغتفر
غلطت في الدهر أو أخطأت واحدة ... أما أجدت اصابات فتعتذر
ومن يكون على التحقيق مجتهدا ... له الثواب على الحالين لا الوزر
ألم تكن بأحاديث النبي اذا ... سئلت تعرف ما نأتي وما تذر
حاشاك من شبهة فيها ومن شبه ... كلاهما منك لايبقى له أثر
عليك في البحث أن تبدي غوامضه ... وما عليك اذا لم تفهم البقر
قدمت لله ماقدمت من عمل ... وما عليك بهم ذموك أوشكروا
هل كان مثلك من يخفى عليه هدى ... ومن سمائك تبدو الأنجم الزهر

وكيف تحذر من شيء تزل به
أنت التقي فماذا الخوف والحذر

(ومنها) للعلامة أبي حفص عمر بن الوردي الشافعي ناظم البهجة عليه الرحمة :

قلوب الناس قاسية سلاط ... وليس لها الى العليا نشاط
أينشط قط بعد وفاة حبر ... لنا من نثر جوهره التقاط
تقي الدين ذو ورع وعلم ... خروق المعضلات به تخاط
توفي وهو مسجون فريد ... وليس له الى الدنيا انبساط
ولو حضروه حين قضى لألفوا ... ملائكة النعيم به أحاطوا
قضى نحبا وليس له قرين ... ولا لنظيره لف القماط
فتى في علمه أضحى فريدا ... وحل المشكلات به يناط

وكان الى التقى يدعـــو البرايـا ... وينهى فرقـة فسقـوا ولاطـــوا
وكان الجـن تفرق من سطـــاه ... بوعظ للقلـــوب هو السيـــاط
فيـــا لله ماقـــد ضم لحـــد ... ويالله ماغطـــى البـــلاط
هم حســـدوه لما لـــم ينالـــوا ... مناقبه فقـــد مكروا وشاطـــوا
وكانـــوا عن طريقتـــه كسالى ... ولكـــن في أذاه لهم نشـــاط
وحبس الدر في الأصداف فخـــر ... وعند الشيـخ بالسجن اغتبـــاط
بآل الهاشمـــي له اقتـــداء ... فقد ذاقوا المنـون ولم يواطـــو
بنـوا تيميـــة كانوا فبانـــوا ... نجوم العلـم أدركها انهبـــاط
ولكـن يانـــدامة حاســـديه ... فشك الشــرك كان به يمـــاط
ويافـرح اليهـــود بما فعلتـــم ... فان الضـد يعجبـــه الخبـــاط
ألـم يك فيكم رجل رشيـــد ... يرى سجن الامـام فيستشـــاط
امـــام لا ولايـة كـان يرجـو ... ولا وقـــف عليـــه ولا ربـاط
ولا جاراكـــم في كسب مـــال ... ولم يعهـــد له بكم اختـــلاط
ففيم سجنتمـــوه وغظتمـــوه ... أما لجـــزا أذيتـــه اشتـــراط
وسجن الشيخ لايرضاه مثـــلي ... ففيه لقدر مثلكم انحطـــــاط
أمـــا والله لولا كتـــم سـري ... وخوف الشـر لانحـــل الرباط
وكنت أقـول ماعنـــدي ولكن ... لأهل العـلم ماحسن اشتطـــاط
فما أحـد الى الانصاف يدعـــو ... وكـل في هـــواه له انخـــراط
سيظهر قصـــدكم ياحابسيـــه ... ويهنيكـم اذا نصب الصـــراط
فها هو مات عنكم واسترحتـــم ... فعاطـــوا ماأردتم أن تعاطـــوا
وحلوا واعقـــدوا من غـــير رد ... عليكم وانطـوى ذاك البســـاط

(ومما ينسب اليه أيضا)

كـــان والله فقيهـــا عالمـــا ... ذا عفـــاف وتقـــي مايتهـــم
غـــير لم يدر مداراة الـــورى ... ومـــداراة الورى أمر مهـــم

(ومنها) للشيخ الامام محمد العراقي الجزري رضي الله تعالى عنه آمين :

عـز عندي يوم الرحيل العـــزاء ... لنعـــي فيهـا الدموع دمـــاء

طرق الخافقين خطب جسيـــــم أطرقت منه في الورى العلمـــاء
خفت أن ترهق السمـــاء وكادت ترجف الأرض أو تمور السمـــاء
فقد المسلمــون قطب المعـــالي فبكتــه الأغواث والأوليـــــاء
كسف النيرين فقـــدك ياأحمـــ ـد حقــا وغابت الجـــــوزاء
أظلمت جلـــق التي كنت فيهـــا وأضـــاءت بغــيرك البيـــداء
ياطليـــق اللســـان في كل فن فلقـــد شرفت بك العليـــــاء
ان تكـــن مت فلعلــوم التي أحييـ ـت من بعــد موتهـــا أحيـــاء
مدحت فهمــك الحروف جـــلالا وكذاك الأفعـــال والأسمـــاء
يامزيل الأشـــكال عن كل فهـــم وله عن كـــل زلة اغضـــاء
لا الصباح صباح بعــدك عنـــدي في ضياء ولا المساء مســـاء
ماحضــرت الجـــدال بين أناس يقرؤون الحـــديث الا وفـاءوا
أنت صخر الوجـــود في كل أرض والبرايـــا جميعهـــا الخنسـاء
من لعـــلم التفسير فيمـــا رواه جابـــر أو مجاهـــد أو عطـــاء
عطلت بعـــدك الدروس فما فيه ا لرب الفهـــم السقيم شفـــاء
من لعـــلم الفتيـــا اذا اشتبه الأ مر وحارت في ردها الأذكيـــاء
من لعـــلم الحديث بعـــدك فيما قاله الواصفون والأتقيـــــاء
طاهر الأصل كم حويت خصـــالا قصرت عن فروعهـــا الفصحـــاء
من تكن هذه السجايا سجـــاياه فــــلا تشتفـــي به الأعــــداء
كل ميت يكون مثـــل تقي الدين فالمــــوت عنــــده أحيـــــاء
أيهـــا القبـــر ان فيك لبحـــرا جللتـــه مهابـــة وضيـــاء
وجـــلال وعفـــة ووقـــار وجمـــال وبهجـــة وسنـــاء
تعست ليـــلة الفـــراق وغـابت أنجـــم أشـــرقت لهـــا لألآء
نعت الناعيـــات نعيـــك في الأ فق وناحت في دوحها الورقـــاء
أيهـــا الحبر أوحش الآن ربـــع كنـــت فيــــه ومنــزل وفنـــاء
هان قدر الحمراء عنـــدك من ز هدك واستحقـرت لك البيضـــاء
ونبذت الدنيـــا فعشت فقـــيرا بصفـــات تودها الأغنيـــــاء
ياابن تيمية الـــذي حزن الدهـــر عليـــــه وغاضت الأنـــــواء
كنت انسان عين دهـــرك لاتعرف حقـــا الا لـــك الأشيــــــاء

خضت بحـــرا مافيه الا امـــام ذواجتهـــا ولكن عـداك العـداء
كنت في ذروة السنـام من العـلم ومـــا قلت للأنـــام ســـواء
ضاق ذرع الزمـان منـك فنـــاء ليت شعري هل ضاق منك الفضـاء
واذا حلـت المنيـــة يومـــا بنفيس فليس يغنى الأســـــاء
نضر الله وجهك ياحسن المنـــــ ـــظر يا من له السنى والسنـــاء
وسقى الله روضـة أنت فيهـــا ساريات تجري بهـــا النكبـــاء
وعـــلا قبرك النجار فقيصـــوم ورند وفـــاح منـه الكبـــاء
رضي الله عنـــك حيا وميتـــا وسقى ربعـك المصـون الحيـــاء
قسما بالالـــه لو أنصف الـــد هـــر لأضحى في كل بيت عــزاء

(ومنها للشيخ علاء الدين ابن غانم رحمه الله تعالى)

أي حبـــر مضى وأيّ امـــام فجعت فيـــه ملة الاســـلام
ابن تيميـــة التقـــي امـــام الـ عصر من كان شامة في الشـــآم
بحر علم قـــد غاض من بعد مافـا ض نداه وعم بالانعـــــام
زاهـــد عابـــد تنـــزه في دنـ يـاه عن كـل ما بها من حطـام
كان كنـــزا لكـــل طالب علـم ولمن خـاف أن يرى في حـــرام
ولعاف قد جاء يشكو من الفقـــر لديـــه ينـــال كـل مـــرام
حاز علما فما لـــه من مســـاو فيـــه من عالـم ولا من مســـام
لم يكـن في الدنيـــا له من نظير في جميـــع العـــلوم والأحكام
كم له في حنادس الخطب والنـاس نيـــام حتى الضحى من قيـــام
وجميـــع الأنـام من شدة الخوف نيـــام من الـردى في منـــام
وبنـــوا فارس قد افترسوا النـــاس افتراس الأسود ســرح الحوامي
ودمشق الشـــآم بعد انبســـــاط من ضواحي رستاقها في انضمـــام
اذ غزانـــا على العـــلوج غـزاة وغـــزانا مــن فارس بالطغـــام
فاعاد العـــزيز منـــا ذليـــــلا ذا صغـــار ينقـــاد كالأنعـــام
فنضاه الجبـــار جـل ثنـــاه في وجوه العدا كحـــد الحســـام
فحمـــانا باللـــه من كل طـاغ لا برمـــح وصـارم وحســـام
يالـــه حيـن فر كـــل كمـــي من حماة الاســـلام عنا يحـامى
ياابن تيمية عليـك خصوصـــا وعمـــوما تحيتي وســـلامي

ياسليل العلى عليك القوافي ... قد بكت في الطروس والأقلام
يافقيد المثال علما وحلما ... وقريب المرمى بعيد المرام
يابطيء الاحجام ان عز خطب ... وكثير القيام جنح الظلام
كف طرفي ان لذ من بعد الا ... ترك أجفانه لذيذ المنام
وبودي لفقد شخصك لوحا ... م على أيكة حمام حمامي
ولعمري يامن له في فؤادي ... لحد ذكر دوامه في دوامي
ان حللت الثرى فروحك حلت ... ياابن عبد السلام دار السلام
فسقى تربة حواك ثراها ... كل مزن بوابل ورهام
واذا سحت السواري بسح ... والغوادي جدناك بالدمع دام

(ومنها لمحمود بن الأثير الحلبي عليه الرحمة)

يادموعي سحي كسح الغمام ... هاطلات على الخدود سجام
لفراق الشيخ الامام المفدى ... ابن تيمية ونجل الكرام
زاهد عابد تقي نقي ... فهمه لايقاس بالأفهام
ابن تيمية يتيمة دهر ... ماله من مساوم ومسامي
فجعت فيه أهل كل البرايا ... جمعها للعلوم والأحكام
أوحد في العلوم والفضل والز ... هدلا يرائي في ملة الاسلام
بحر علم يغوص كل لبيب ... في معانيه حار كل الأنام
فاق بالعلم والفضائل للخلق ... فأضحى امام كل امام
ان يكن غاب شخصه وتوارى ... ومضت روحه لدار السلام
فمناقبه والفضائل تبقى ... في ممر الدهور والأعوام
سيد قد علا بعلم وحلم ... فعداه لديه كالأنعام
كم رماه الحساد بالكيد والبغي ... وهو لاينثني عن الاقدام
طالب الحق لايخاف لحيف ... وهو يحمي عن ذروة الاسلام
لايخاف الملوك أيضا ولا الخلـ ... ـق ولا العداة مع اللوام
صدره للعلوم والقلب للرب ... ويداه للبذل والأنعام
لاتلمني على المديح ودعني ... فهو شيخي وبغيتي ومرامي
كل من مات في هواه بوجد ... ماعليه في حتفه من ملام

(ومنها للشيخ الامام زين الدين عمربن الحسام الشبلي رحمه الله تعالى)

لو كـان يقنعنـي عليـك بكائي — لجرت سـوابق عبرتي بدمـاء
أو كنت في يـوم انتقـالك للبلي — صخـرا لزدت على بكا الخنسـاء
لكـن أصبر عنك نفسي كاتمـا — للحزن خوف شمـاتة الأعـداء
أترى علمت وأنت أفضـل عالـم — ماعنـدنا من لوعـة وبـلاء
أسفي على تلـك الديانة والتقى — والجـود آذن قربـه بتنـاء
أسفي عليـك ومـا التأسف نافـع — صبـا عليـك مقلقل الاحشـاء
أسفي عليك نفى الكرى عن ناظري — من فرط أحزاني وفرط عنـائي
غاضت بحـار العلم بعدك والـو — رى في غفـلة ياسيـد العلمـاء
بابي وحيـدا مات منفـردا عن الـ — أحباب كان بقيـة الصلحـاء
بحر العلوم حوى الفضائل كلهـا — وسما سمـو كواكب الجـوزاء
متفـرد في كـل علـم دونـه — لعـلو رتبتـه ذرى العليـاء
بالفضـل قد شهـدت له أعداؤه — وبـه سمـا فضـلا على النظـراء
شيخ العـلوم وتابع السـلف الألي — تبعوا الرسـول بشـدة ورخـاء
وامام أهل الأرض والمبدي لهـم — سنن الهـدى عن صحة الأنبـاء
ذو الصالحات وذو الشجاعة والتقى — والجـود والبـركات والآلاء
من كان لايثنـي لطـالب جوده — حتـى يبلغـه لكـل رجـاء
يجفوا المضـاجع راكعا أو ساجـدا — أو ذاكـرا للـه في الظلمـاء
كالصبر في حنـك العـدو مذاقه — وألذ من شهـد الى الجلسـاء
المانح البحـر الهمـام العالم الـ — حبر الامـام وحجـة الفقهـاء
الواهب المـال الجزيل وغامر الـ — ضيف النزيـل بوافـر النعمـاء
المحسن الكافي السؤال وحاسم الـ — داء العضـال وكاشف الغمـاء
صـدر المدارس والمجالس أحمـد الـ — محمـود في عـود وفي ابداء
واذا المسـائل في الفتـاوى أفحمت — أهل العلـوم وحجبت بخفـاء
وأنت تقـي الدين أظهـر ماختفى — منهـا وابـداه لعـين الرائي
فيرى سهـاها في الخفـاء بكشفـه — كالشمس مشرقة بصحو سمـاء
ويرى البصـير الحـق فيمـا قاله — والحـق لايخفى على البصـراء
سجنوه خشيـة أن يرى متبـذلا — صونا فنـال منازل الشهـداء

للمؤمنـين له وعنـد عدوهـم ذل الكثـير وعـزة الخلفـاء
في المحـدثين أتى بفضـل باهر ومنـاقب أربت على القـدماء
أي خاشـع أي شاكر أي ذاكـر للـه في الاصبـاح والامسـاء
أي زاهـد أي حامـد أي باذل للمسلمين نصـائح النصحـاء
خير الصفـات صفـاته وثناؤه بالجـود بين الناس خير ثنـاء
ويظل يسـأل جوده عن سائـل ذي فاقـة ليبـره بعطـاء
وتراه يشـرق وجهـه متهلـلا للسائلـين لـه شـروق ذكـاء
بادي التبسـم عند بذل نوالـه لطفـا الى الفقـراء والضعفـاء
أزرى على فضـل البرامكـة الألى وطوت مكـارمه حديث الطـائي
من جاء يسـأله يشاهد عنـده بذل الملوك وعيشـة الفقـراء
يربي على سح السحـائب جوده وكذا تكـون مواهب الكـرماء
والجـود يرفع أهله بين الـورى ابدا ويهوى البخل بالبخـلاء
وله اذا اصطدم القتـال شجـاعة قامت بنصـر الدين في الهيجـاء
سـل عنـه غازانا وسـل أمراءه لما أتـوا بطـلائع الأسـراء
والمغـل قد ملكـوا البلاد وأهلهـا كـم فك من عـان بغير عنـاء
وكـذا بشقحب التتار قد أقبلـوا كالطـم في أمـم بغـير مراء
والمسلمون على النزول قد أجمعوا والمغـل عنهـم نظـرة للـرائي
مـن حرض السلطـان والأمرا على تـرك النزول سواه عند مسـاء
قال اثبتوا فلكم دليل النصر قـد وافى فكـان النصـر عند لقـاء
وأتى جبـال الكسـروان فآذنت بدمـارها من بعـد طـول بقـاء
وله بكـل مدينـة ذكـر أتى كالمسـك فهـو معطـر الأرجاء
سـير اذا نظمتهـا سارت بها الـ ركبـان دون قصائد الشعـراء
واذا امام المسلمـين وشيخهـم ولى وعـز علـى عـزاه عزائي
أدعـو اله العرش يجمع بيننـا في جنـة الفردوس فهو رجـائي
وعليـه من رب السمـاء تحيـة تبقـى لـه أبدا بغـير فنـاء

(ومنها للشيخ جمال الدين عبـد الصمد بن ابراهيم البغدادي الحنبلي المعروف بابن الحصري)

عش ماتشـاء فان آخره الفنـا المـوت مـالا بد منـه ولا غنى

والدهران يوما أعان فطالما ... بالسوء عان فعونه عين العنا

لابد من يوم يسوءك حتفه ... حتما نأى الأجل المقدر أودنا

للنفس سهم من سهام نوائب ... يرمي فيصمي من هناك ومن هنا

من غره الأمل المديد فانه ... غر لأن طعامه لن يهتنا

شمس الحياة تضيفت ومشيبه ... ضيف يجر من المنية ضيفنا

من حين أوجد كان نفس وجوده ... في الكون بالعدم المحقق مؤذنا

يامن يعد الدهر صاحب دهره ... ويعد فيه للاقامة موطنا

أو مارأيت الموت كيف سطا بمن ... في الخلق عن محض العلوم تكونا

ندب مباح الصدر حظر بعده ... فلم استحال وكان شيئا ممكنا

بذ الأنام مع البذاذة فضله ... اذ لم يكن بسوى التقى متزينا

ترك الجميع على الجموع فلم يهب ... تلك الجموع ولا استراب ولا ونى

ولكم مقامات اه في الحق لا ... بيض الظبا يخشى ولا سمر القنا

بالعرف يأمر ناهيا عن منكر ... متقربا وهو البعيد عن الخنا

ماحال عن نهج الصواب ولا اعتدى ... وبغير تحصيل الفضائل ماعتنى

اما تبارزه تجده مبرزا ... في أي علم شئت حبرا متقنا

واذا تجاريه فماء السيل ان ... لما جرى في بحثه متفننا

متزهدا متعبدا متهجدا ... متخشعا متورعا متدينا

في كل عصر سيد هو حجة اا ... باري على كل الخلائق في الدنا

وترى أحق من استحق محامدا ... من للامامة لم يزل متعينا

شيخ الأنام وحجة الاسلام من ... أغناه نشر الذكر عن ذكر الكنى

أعني أبا العباس أحمد بل ... تقي الدين حقا والعليم المعنا

في الله ليس يخاف لومة لائم ... ويرى النوى فيه نهايات المنى

لما تحقق ان كل مخلف ... يفنى وان كان النفيس المثمنا

لم يدخر قوتا لأجل غد ولا ... أبقى له ارثا سوى حسن الثنا

صدر حوى في صدره لكماله ... من كل علم معنوي معدنا

ظهرت أمارات الولاية بعده ... واسأل لتصبح بالحقائق موقنا

واسمع مقالة أحمد متوعدا ... أعداءه يوم الجنائز بيننا

فاحق مايبكى عليه فقده ... ماموت هذا الحبر رزءا هينا

فيض النفوس يقل فيه تأسفا ... وأعن عيونا فضن فيه أعينـا
يامن أعاد أولى التشدق علمه ... خرسا وأنطق بالثناء الألسنـا
يادوحة الفضل التي في أصلها ... طيب وزاكى فرعها حلو الجنـا
ياحبـر بل يابحـر كم حيرت من ... حبر تصير ذا الفصاحة ألكنـا
ياخاتم الفضلاء علمك معجز ... بهـر الورى فصدرت عنه مؤمنا
ان كان ذا حفظا فوقتك ضيـق ... عنه ولو كان الزمان له انا
لكنه من فضل من هو قاذف ... بالحق من نور الولاية والسنـا
أسست بنيانا على تقوى ورضـ ... وان فللأسمى قد ارتفع البنـا
غبـرت يا من لايشق غباره ... في أوجه الفضلاء قدما قبلنـا
جاهدت في ذات المهيمن صابرا ... عند الأذى فاتت بشارات الهنـا
ان الذين يجاهدون عدونـا ... فينا لنهديهم الينا سبلنـا
والله قد أثنى على العلماء في ... نص الكتاب وأنت أولى من عنـى
لا غرو ان كنت ابتليت بحاسـد ... فالحـر ممتحـن بأولاد الزنـا
أشكو اليك وأنت أصل شكايتي ... من فرط ضرفي افتقادك مسنـا
قـد عبرت عبراتنا عن حزننـا ... وبما نجن من الجوى نطق الضنـا
سقيا لتلك الروح من سحب الرضا ... وتبوأت جنات عدن مسكنـا
لو كان فيها الموت يقبل فدية ... كان الأنام فدى وأولهم أنـا

ومنها للشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد بن عبد الكريم بن أنو شروان التبريزي الحنفي عليه الرحمة :

صبرا جميـلا فالمصاب كبيـر ... كادت جبال الأرض منه تمـور
وجسيم خطب قد علا كل الورى ... فقد الضياء وأظلم الديجور
وانهد ركـن فضائل وفواضـل ... فعليهما ركن الأسى معمـور
وعلى تقي الدين أحـزان الورى ... لسحائب الدمـع الغزير تثـير
لولا ابتغاء الأجر لم يحمد على ... صبر على هذا المصاب صبـور
أفلت شموس المكرمات وأظلم الـ ... ـشام المنير وزال عنه النـور
نور الفتى التيمي والقطب الـذي ... فلك العلوم عليه كان يدور
حبـر به كان الزمـان ومن به ... يزهو ويشرق في الدجى وينـير
علـم التعبـد والتزهـد والتقى ... في سائر الدنيا له منشـور
ورسـوخه في كل علـم نافـع ... فحديثه بـين الورى مشهـور

قد كان صدرا في الصدور فمذ نأى ... ضاقت على صدر الصدور صدور
لاغرو ان فاضت عليه مدامع ... حروان قصمت عليه ظهور
تبكي السماء عليه والارض التي ... بصفائها لفراقه تكدير
وبكى مصلاه ومنبره ومو ... ضع درسه والجامع المعمور
وبكى الغمام لفقده وتفطرت ... عن أعين تجرى عليه صخور
وكذاك ربات الخدور بكينه ... وتهتكت منها عليه ستور
نشرت له العذبات بانات اللوى ... عوض الشعور وما لهن شعور
وعليه حن على الاراك حمائم ... يندبنه أسفا وهن طيور
فالصب ان صب المدامع بعد من ... يهوى ومات فانه معذور
والناس في حزن عليه وانه ... عبد بلقيا ربه مسرور
غار الاله عليه من أغياره ... فزواه عنهم والمحب غيور
فخلا به يتلو عليه كلامه ... وله الحبيب مؤانس وسمير
حتى اذا اشتد التشوق زفه ... زف العروس وذيلها مجرور
وشعار كل مشيع لسريره الـ ... تسبيح والتهليل والتكبير
ولقد سرى فوق الرقاب سريره ... فعجبت كيف الراسيات تسير
ماكنت أعلم قبل يوم وفاته ... ان البحار الزاخرات تغور
ولقد سرت لسريره لماسرى ... سير لها حتى النشور نشور
تفنى الليالي والزمان وذكره ... متجدد بين الورى مذكور
قد كان في الدنيا هلالا لائحا ... كل اليه بالبنان يشير
وكذا جنازته تعالى الله لم ... ينظر لها في العالمين نظير
ومن العجائب أنها نطقت على ... صمت بما هو كامن مستور
ان المشيع للجنازة لم يعد ... الا وسائر ذنبه مغفور
هذا هو الفضل المبين وهذه ... نعم عليها ربنا مشكور
لاأوحش الله الوجود من الذي ... أنست به في الموحشات قبور
والى جنان الله راحت روحه ... يلقاه منها بهجة وسرور
طوبى لميت جاور القبر الذي ... فيه فتى تيمية مقبور
بل فاز نزال ثووا بجنابه ... ان الكريم نزيله مغفور
فينال حتى الحشر من بركاته ... وعليه تنزل رحمة وحبور

يارب فاجمع بيننا في جنة المأوى فأنت لما تشاء قدير

(وله رحمه الله تعالى)

عم المصاب فلا تبكوا بغير دم ... على ابن تيمية ذي العلم والحكم
حبر البرية ولي وهو في دعة ... وكل جفن فلا يبكى عليه عمى
لو أن كل تقي في الأنام فدى ... نفس الامام تقي الدين لم يلم
اذا تذكره من كان يألفه ... يهزه الشوق من فرق الى قدم
ياثلمة ثلمت في الدين واتسعت ... فلست حتى اللقا والحشر تلتئمي
هيهات هل تسمح الدنيا بمثل فتى ... تيمية أو يرى في عالم الحلم
كانت به تفخر الدنيا وقد بقيت ... به تفاخر أجداث وذو رمم
فالعلم والحلم والتقوى بهن غدا ... في الناس أشهر من نار على علم
والزهد في زخرف الدنيا وزينتها ... من وصفه كان مضموما الى الكرم
مولى على حبه الأرواح قد جبلت ... ولست في القول والدعوى بمتهم
ماذاك الا لما قد كان خصصه ... به الاله من الأخلاق والشيم
من للمسائل قد أعيت فيوضحها ... وضوح برق لموع لاح في الظلم
كالبحر يزخران بث العلوم وكال ... سيل الذي مده صوب من الديم
ماان رأى الناس أبهى من جنازته ... لما استقلت على الأعناق والقمم
وحوله وهو يجلى كالعروس على ... سريره أمم ناهيك من أمم
أظمى الأنام اليه حجبه فبدا ... على السرير فرواهم بدمعهم
بكى عليه مصلاه ومنبره ... وفي الخدور بكته أعين الحرم
والأرض تبكي عليه والسماء كذا ... قد جاء عن سيد الأعراب والعجم
لأنه العالم الحبر الذي أبدا ... تتلى مناقبه جهرا بكل فم
هذا هو المجد حق الافتخار به ... لا بالتكاثر والأموال والحشم
ياجنة الخلد وافيه مزخرفة ... وأنت يانار أشواق الورى اضطرمي
وياشموس العلى غيبي لغيبته ... ويامباني المعالي بعده انهدمي
فاعظم الله أجر الفاقدين له ... الواجدين ذوي الاخلاص كلهم
وأكرم الله مثواه ومضجعه ... بوابل من سحاب الجود والكرم

وهي طويلة أربعة وثلاثون بيتا ،وله في الشيخ مراثي أخر •

وللفاضل برهان الدين ولد شهاب الدين التبريزي الحنفي المتقدم ذكره عليهما الرحمة :

جودي بانسجام الدمع يامقلة العاني … الى أن تروي الأرض من فيض أجفاني
وذق يافؤادي كل يوم وليلة … مرارة أشواق ولوعة أشجان
الى أن أرى وجه ابن تيمية الذي … به الله من أهل الضلالة نجاني
ومن لي بأن ألقاه والموت قد أتى … فغيبه في الترب عن كل انسان
فيا وحشة الدنيا لأنوار وجهه … ويالهف اخوان عليه وجيران
يحق لعين لاترجي لقاءه … الى الحشر أن ينهل مدمعها القاني
لقد عم أهل الأرض رزء مصابه … ولم ينج فيهم منه قاص ولا دان
لقد كانت الدنيا به ذات بهجة … ونور واشراق وروح وريحان
وما كان الا آية في زمانه … وفي كل فضل حاز ليس له ثان
امام هدى يدعو الى سبل ربه … دعاء نصوح مشفق غير خوان
فمذهبه ما جاء عن خير مرسل … وأصحابه والتابعين باحسان
أتى بعلوم حيرت كل واصف … على أنه يهدى بها كل حيران
فكم مبطل وافاه يبغي جدا له … فانصفه في البحث من غير عدوان
ويكشف عنه شبهة بعد شبهة … الى أن يبين الحق أحسن تبيان
فيصبح عن تلك المقالة معرضا … ولو كان من أحبار سوء ورهبان
يغار على الاسلام من كل بدعة … وما زال منها هادما كل بنيان
وفي الله لم تأخذه لومة لائم … ولم يخش مخلوقا من الانس والجان
ولم ينتقم في الدهر يوما لنفسه … ولكنه يؤذى فيعفو عن الجاني
وأما سماح الكف فالبحر دونه … ولم يك في بذل العطاء بمنان
ولو وزنوا أهل الشجاعة كلهم … به رجح الشجعان في كل ميزان
فمن جاهد الأعداء في الدين مثله … ومن سل سيف العزم في وجه غازان
ومن قال للناس اثبتوا يوم شقحب … فان الأعادي في انهزام وخذلان
فمن خشي الرحمن بالغيب واتقى … اله البرايا خافه كل سلطان
وماضره ان طال في السجن مكثه … اذا كان في نسك وطاعة رحمن
منيبا الى مولاه يقطع وقته … بنقل حديث أو بتفسير قرآن
ولم يك مشغوفا بحب رياسة … ولا شد بغلات ولا حسن غلمان
ولا كان مشغولا بجاه ومنصب … ولا رفع بنيان ولا غرس بستان
ولكن بعلم نافع وعبادة … وزهد واخلاص وصبر وايمان

وفي موتـه قد كان للنـــاس عبرة ... لما شاهدوا من غير زور وبهتـــان
اذ انتشروا مثل الجـراد وكـاد أن ... تزيغ عقـول من رجال ونسـوان
وسار على أعنـاقهم نحو قبـــره ... يجاور مولى ذا امتنان وغفـــران
الى الـــذهب الغـالي دعاه الهـــه ... وذاك له خير من الخــزف الفاني
دعـاه الى جنـات عدن وطيبهـــا ... ومتعه فيهـــا بحــور وولــدان
فنسأل رب العرش يجمع شملنـــا ... به في جنان الخلد من قبل حرمـــان
ويجبـــرنا بعد انكسار قلوبنـــا ... ويروي برؤيا وجهه كل ظمـــآن

(ومنها لبعض الفضلاء من جندمصر أرسلها بعد عرضها على الامـــام أبي حيان النحوي)

خطب دهـــى فبكى له الاســـلام ... وبكـــت لعظـــم بكائه الأيـــام
وبكت لعبرتهـــا السماء فامطـرت ... في غير فصل تسمـــح الأعـــوام
وبكت له الأرض الجليدة بعـــدما ... أضحى عليهـــا وحشـــة وقتـــام
وتزلزلت كـــل القلوب لفقـــده ... وتواتــــرت من بعـــــده الآلام
وتفجـــع الدين القـويم لفقـده ... وبقـــي غريبـــا يبتلى ويضـــام
مذمات ناصره الــــذي أوصـافه ... أبدا تكـــون على سواه حـــرام
لتقـــي ديـــن الله وصف باهـــر ... وخصـــائص خضعت له الأفهـــام
ومـــواهب من ذي الجـــلال تمـده ... ليتـــم فخـــر شامـــخ ومقام
وعزا تقــــي الــدين أحمد مالـــه ... حـــد فتحمـــل فقـده الأجسام
العـــالم الحبر الامـــام ومن غـــدا ... في راحتيــــه من العلوم زمـــام
ذو المنصب الأعلى الدي نصبت لـــه ... في الأرض في أقطارها الأعـــــلام
بحر العـــلوم وكنـــز كل فضيلة ... في الدهر فـــرد في الزمان امـــام
حبـــر تخـيره الالـــه لدينـــه ... ختـــم لأعـــلام الهدى وختـــام
فوفى باحكام الكتـــاب وكم لـــه ... في نصـــر توحيـــد الاله قيـــام
والسنة البيضـــــاء أحيـــا ميتهـــا ... فغـــدا عليهـــا حرمة وذمـــام
وأمات من بـــدع الضـــلال عوائدا ... لا يستطيـــع لدفعهـــا الصمصـــام
أس الفضـــائل والمعـــارف والـــذي ... لاتهتـــدي لفنـــونه الأوهـــام
وأنالـــــه رب السمـــوات العلى ... في العـــلم سبقـــا ما اليـــه مـــرام
ونعـــوته في العلـــم قول محمـــد ... صلى عليـــه الخـــالق العـــلام

ان المنـزه ربنـــا سبحـــانه يقضـى بمـا تأتي به الأحكـــام
يبـدي لكـم في كـــل قرن قادم للـدين من يهدى به الأقـــوام
فلئـــن تأخر في القـــرون لثامن فلقــد تقـدم في العـلوم امام
فاق القرون سوى الثلاث فانهـــا خـير القـرون يزينهن تمـــام
وسوى ابن حنبل انه علـم الهـدى حبـــر امـام صـــابر قـــوام
لكن أحمد مثـل أحمد قد حـوى علمـا وزهـدا في العلـوم تـؤام
حدث بلا حـرج وقـل عن زهـده ماشئـــت لارد ولا آثـــــام
هجـــر المطـاعم والملابس والدنا ولعزمـــه في تركهـــا احـــزام
تـــرك المآكل والمنـــام ولا يرى لبني الدنا في قلبـــه اعظـــام
وتــــراه يصمت لالعـي دائمـــا الا لعلـــم يقتنـى ويــرام
واذا تكلـــم لايراجع هيبـــة وسكينـــة وكلامـــه ابـــرام
ألقـــي عليـه مهابة من ربـــه فخطابه الاجـــلال والاكـــرام
واذا رؤي فترى الرجـال ذليـــلة فكـأنها في نفسهـــا أحجـــام
بشـــر يعظـــم بالقلوب وقدره أبدا يعظـــم بعـد وهـــو غـلام
منن يخص بهـــا المهيمن من يشـــا من خلقـه والجـاهلون نيـــام
وجفـــا العبـاد لشغـــله بحبيبه فوداده للأقربين ســـــــلام
ولـــه مقـــام في الوصول لربـه ومكـــانة نطقت بهـــا الأغنـــام
ولـــه فتـــوح من غيوب الهـه وتحـزن وتمسكن وكـــــلام
وتصـــوف وتقشـــف وتعفف وقـــراءة وعبـــادة وصيـام
وعنـــاية وحمـــاية ووقـــاية وصيـــانة وأمانـــة ومقـــام
ولـــه كرامات سمت وتعـــددت ولهـــا على مـــر الدهـور دوام
مـــن رد من أرض الشـــآم بعـزمه من صـــد وجه الكفـر وهو حسام
من رد غــازان الهمـام بحســـرة من خلص الأسرى وهـم أيتـــام
من قـــام بالفتح المبـــين مؤيـدا في كســـروان وهـم طغـاة عظام
من جـد في بد ع الضـــلالة حربه فاذا لهـــم بعد الرضاع فطـــام
من سار في سنن الرسول ونصرهـــا حتى استقـــــر لأمرهن نظـــام
من قام في خذل الصليب ودينـــه لما تداعـــوا لـــلأنام وقامـــوا
فوهـــوا وردوا خائبـين بذلـــة وعليهـــم فوق الوجـوه ظـــلام

فالأمر بالمعروف يفقد بعده ... والفاعلون النكر ليس يلاموا
فكأن اشراط القيامة قد دنت ... وانحل من سرج الزمان حزام
فالعلم فينا ليس يقبض دفعة ... كلا ولا يأتي حمماه حمام
لكن بقبض الراسخين ذهابه ... وزواله وبقي رعاع طغام
لله مالاقى تقي الدين من ... محن تتابعه وهن ضخام
ومكاره حفت بكل شديدة ... ومواقف زلت بها الأقدام
ومكايد نصبت له وحبائل ... قصدا اليه فردها الاقدام
فحكى ابن حنبل في فنون بلائه ... بجنان ثبت ليس فيه مذام
وبسجنه وبحصره ونكاله ... حتى رثى العذال واللوام
فأراد رب العرش جل جلاله ... للقائه مذ حانه الاعدام
وأتاه آتى الموت يخطب نفسه ... فأجابه طوعا له القمقام
فخلت منابره وأوحش ربعه ... وتهدمت عند الرحيل خيام
وتفجعت كل القلوب لفقده ... وعدا عليها حسرة وسقام
ومضت جنازته الشريفة بعدما ... سد المسالك صارخ وزحام
وأتت روايات الشام بجمعها ... خبرا صحيحا ليس فيه أثام
ان الألى شهدوا الصلاة وشيعوا ... والله لاتحصيهم الأقلام
فعليه أفضل رحمة تهدى له ... ومن الاله تحية وسلام
مادامت الافلاك في دورانها ... أو ناح من فوق الغصون حمام

(ومنها للشيخ تقي الدين محمود بن علي الدقوقي البغدادي المحدث ولم يرالشيخ)

مضى عالم الدنيا الذي جل فقده ... وأضرم نار في الجوانح بعده
فدمعي طليق فوق خدي مسلسل ... أكفكفه حينا وجفني يرده
ويرجو التلاقي والفراق يصده ... وما حيلة الراجي اذا خاب قصده
مضى الطاهر الأثواب ذو العلم والحـ ... ـجى ولم يتدنس قط بالاثم برده
مضى الزاهد الندب ابن تيمية الذي ... أقر له بالعلم والفضل ضده
بكته بلاد الشام طرا وأهلها ... وجامعها وانماع للحزن صلده
يحن اليه في النهار صيامه ... ويشتاقه في ظلمة الليل ورده
ويبكي له نوع الكلام وجنسه ... ويندبه فصل الخطاب وجده
حمى نفسه الدنيا وعف تكرما ... ولما يصعر للدنيات خده

ولم يجتمع زوجان من شهواتها   لديه وبين الناس قد صح زهده
ويؤثر عن فقر وفيه قناعة   ويعجبه من كل شيء أشده
عليم بمنسوخ الحديث وحكمه   وناسخه فخر الزمان ومجده
قؤول فعول طيب الجسم طاهر   امام له في كل حكم أشده
فما قال في دنياه هجرا ولا هوى   ولازاغ عن حق تبين رشده
علوم كنشر المسك من كل سيرة   يسدد دين المصطفى ويجده
فلله ماضم التراب وما حوى   من الفضل فليفخر على الأرض لحده
فيا نعشه ماذا حملت من امريء   جميع الورى فيه وفوقك فرده
وكان لنا بحرا من العلم زاخرا   فما باله لم يصف مذ غاب ورده
وما مات من تبقى التصانيف بعده   مخلدة والعلم والفضل ولده
وخلف آثارا حسانا حميدة   اذا عددت زادت على ماتعده
ولست مطيقا شرح ذاك مفصلا   ولكن على الأجمال يعكس طرده
لقد فارق الأصحاب منه مصاحبا   يراعي وداد الخل ان خان وده
قضى نحبه والله راض بفعله   ولله فيما قد قضى فيه حمده
يدل تراب القبر من جاء زائرا   اليه بطيب فيه يعبق نده
ولا تحسبوا ما فاح عطر حنوطه   ولكنه حسن الثناء ومجده
وكان لأهل العلم تاجا مكللا   يحوطهم من مبطل خيف حقده
وما كان الا التبر عند امتحانه   يبين لعين الحاذق النقد نقده
وكان يقول الحق والحق حلوه   مرير لهذا كان يكره رده
وفي الحق لم تأخذه لومة لائم   ولا خاف من غمر تشدد حرده
وما كان الا السيف غارت يد العلا   عليه فردته كما غار غمده
ولم تلهه الدنيا وزخرفها الذي   يروق لمن لم يونس الدهر رشده
لقد فقدت منه المحافل زينها   ولما يفارق علمه الجم وجده
وخضبت الأقلام بعد مدادها   عليه دما قد فاض في الطرس مده
فلله ماضم الثرى من محقق   ويالك من عضب تدقق حده
وكان اماما يستضاء بنوره   وبحرا من الأفضال قد غيض عده
وكنت أرجي أن أراه ونلتقي   ولكن قضاء الله من ذا يرده
ترى الموت مألوف الطباع وربما   يعلل بالمألوف من لايوده

فآه على تفريق شمل مجمع وحر فؤاد لايؤمل برده
ألا انها نفس وللنفس حسرة وقلب وقد يشجى ويضنيه وجده
ولست بناس عهد خل تغيبت محاسنه والخل يحفظ عهده
وماعذر جفن لايجيش بدمعه غداة نأى عنه الصديق ورفده
يروم الأماني والمنايا تصده وما حيلة الراجي اذا خاب قصده
عليك أبا العباس فاضت مدامعي وقلبي ببعدي عنك أجج وقده
على مثلك الآن المراثي مباحة وان غاض دمعي فالدماء تمده
شددت عرى الاسلام شدة عارف قوي على الأعداء لم يأل جهده
تركت لهم دنياهم ترك عالم علا قدره عند الاله ومجده
وكنت لمجموع الطوائف مقتدى وعقدا لهذا الدين أبرم عقده
وكنت ربيعا للمريد وعصمة فمذ صرت تحت الأرض صوح ورده
جمعت علوم الأولين مع التقى الى الورع الشافي الذي شاع جهده
وكنت تقي الدين معنى وصورة وقولا وخير القول عندك جده
رحلت وخلفت القلوب جريحة تذوب وجيش الصبر قد فل جنده
عليك سلام الله حيا وميتا مدى مابدى نجم وأشرق سعده

(وله أيضا رحمه الله تعالى)

قف بالربوع الهامدات وعدد واذر الدموع الجامدات وبدد
واحبس مطيك في المنازل ساعة واسأل ولاتك في سؤالك معتدى
واقطع علائقك التي هي فتنة واتبع سبيل أولى الهداية تهتدي
ودّع صباك ودع أباطيل المنى واهجر دنيات الأمور وسدد
واقنع من الدنيا القليل ولازم الـ فعل الجميل وسر بسير مجرد
وتوخ فعل الخير واصحب أهله متحببا متجنبا فعل الردى
لاتعتبن مفارقا يبكي على أحبابه وارحمه ان لم تسعد
ودع المروع بالبعاد وعذله فالعذل أمضى من فعال مهند
ماذا الوقوف عن السرى وصحابنا ساروا وصاروا بالعراء الغرقد
لااخضر بعدهم العقيق ولا شدت ورق الحمام فويق برقة ثهمد
أما أنا فلأبكين فان وني دمعي سفكت حشاشةالقلب الصدى
أين المعين على الخطوب اذا عرت أين المساعد عند فقد المسعد ؟

أو مادرى من كنت تعرف اذ مضى ... لسبيله في ضنك لحد موصد
أين المحامي عن شريعة أحمد ... أين المحقق نهج مذهب أحمد ؟
مات الامام العالم الحبر الذي ... بهداه عالم كل قوم يهتدي
من لليهود وللنصارى بعده ... يرميهم بمقالة المتشدد
سل عنه ديان اليهود أما غدا ... متلفعا بصغاره المتهود
نشأت على فعل التقى أطواره ... فعنت له التقوى وأعطت عن يد
ورث الزهادة كابرا عن كابر ... والعلم ارثا سيدا عن سيد
قف ان مررت بقاسيون على ثرى ... فيه ضريح العالم المتفرد
واعجب لقبر ضم بحرا زاخرا ... بالفضل يقذف بالعلا والسودد
بشر يبشر بالغنى من جاءه ... يسر يسرّ فؤاد عان مزهد
كانت به أرض الشآم أمينة ... من مبطل متهوك صل ردى
لو تستطيع بنات نعش أن ترى ... يوما تسير بنعش ميت ملحد
كانت تسير بنعشه وتحطه ... فوق السماك وفوق فرق الفرقد
مات الذي جمع العلوم الى التقى ... والفضل والورع الصحيح الجيد
شيخ الأنام تقي دين محمد ... وجمال مذهب ذي الفضائل أحمد
ودعت قلبي يوم جاء بنعيه ... فتقاعدي ياعين بي أو أنجدي
سقت العهاد عراص قبر حله ... جسد حوى خلقا وحسن تودد
من مبلغ العذال فرط صبابتي ... وتعلقي يوم النوى وتسهدي
مابعد رزئك في الزمان رزية ... تصمى المقاتل بالفراق ولا تدي
بددت شمل الملحدين جميعهم ... وجمعت شمل ذوي التقى المتبدد
يامن ترى أقواله مبيضة ... في كل ذي قول ووجه أسود
ياكاليء الاسلام من أعدائه ... وسمام كل أخي نفاق ملحد
ياواحد الدنيا ويافرد الورى ... أنت الذي جددت دين محمد

الى أن قال :

لله درك من امام كامل ... تقفوا الأئمة اثره بل تقتدي
صنفت كتبا قد حوت كل الهدى ... وبهديها قد ضل من لايهتدي
فيها رددت على الفلاسفة الألى ... زاغوا عن الحق الصريح الأيدي
وكذا على أهل الكلام وحزبهم ... من كل مبتدع خؤون معتدي
فعليك مني ألف ألف تحية ... تغشى ضريحك ياقرين الفرقد

(وللحافظ الذهبي رحمه الله يرثي الشيخ)

ياموت خذ من أردت أو فدع … محوت رسم العلوم والورع
أخذت شيخ الاسلام وانفصمت … عرى التقى واشتفى أولوا البدع
غيبت بحرا مفسرا جبلا … حبرا تقيا مجانب الشبع
فان يحدث فمسلم ثقة … وان يناظر فصاحب اللمع
وان يخض نحو سيبويه يفه … بكل معنى في الفن مخترع
وصار عالي الاسناد حافظه … كشعبة أو سعيد الضبعي
والفقه فيه فكان مجتهدا … وذا جهاد عار من الجزع
وجوده الحاتمي مشتهر … وزهده القادري في الطبع
أسكنه الله في الجنان ولا … زال عليا في أجمل الخلع
مع مالك والامام أحمد وال … نعمان والشافعي والنخعي
مضى ابن تيمية وموعده … مع خصمه يوم نفخة الفزع

(وقال أحد أدباء عصره)

أشكو الى الله الملمات … وما أقاسيه من حزن ولوعات
خف الخليط ودار القاطنين خلت … وأقفرت منهم أرضي وساحاتي
وأقبلت يوم جد البين في حلل … سود سليمى على تلك الليلات
ياأيها الصب لاتجزع على وطن … فان للدهر أطوارا وحالات
وجمل النفس بالصبر الجميل ولا … تذر الدموع على تلك الأويقات
ماكنت أعلم قربى في محبتهم … حتى رمتني الى الابعاد راياتي
فاندب على مامضىمن عيشة وصفى … وابك على ماجرى ياقلبي العاتي
واذكر مصارع قوم كيف قد شربوا … بعد الزلال بكاسات المنيات
وأنت من بعدهم تسرى كسيرهم … اما لدار هوان أو بجنات
أقول ماقاله العبد (١) المنيب وقد … أودى به السجن في بر وطاعات

---

(١) يشير بذلك الى قصيدة الشيخ التي قالها في السجن ومطلعها :

أنا الفقير الى رب السموات … أنا المسكين فى مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي … والخير ان جاءنا من عنده يأتي
لاأستطيع لنفسي جلب منفعة … ولا عن النفس فى دفع المضرات
وليس لي دونه مولى يدبرني … ولا شفيع الى رب البريات
والفقر لي وصف ذات لازم أبدا … كما الغنى أبدا وصف له ذاتي

هذا التعليق موجود فى الاصل المطبوع عليه . اهـ

(أنا الذليل أنا المسكين ذو شجن | أنا الفقير الى رب السموات)
مازال يتبع آثار الرسول على الـ | نهج القويم بأعلام الدلالات
يهدي لسنته يفتي بشرعته | يرعى لحرمته في كل ساعات
قطب الزمان وتاج الناس كلهمو | روح المعاني حوى كل العبادات
حبر الوجود فريد في معارفه | أفنى بسيف الهدى أهل الضلالات
حوى من المصطفى علما ومعرفة | وجاءه منه امداد النوالات
ماجاءه سائل الا ويمنحه | اما بجود واما بالمداراة
ماذا أقول وقولي فيه منحصر | في وصف أخلاقه كلت عباراتي
في علمه ماعلمنا من يناسبه | الا أئمتنا أهل العنايات
في جوده ماوجدنا من يماثله | غير البرامك كانوا في سعادات
في زهده ماسمعنا من يشاكله | الا رجال مضوا أهل الكرامات
يجود وهو فقير ان ذا عجب | هذا الذي ماسمعنا في الحكايات
تلوح شمس المعالي في شمائله | وفي صفا وجهه نور الهدايات
بحر المعارف تاهوا في بدايته | أهل المعاني وأرباب النهايات
قطب الحقائق حاروا في فضائله | أهل التصوف أصحاب الرياضات
أعجوبة الدهر فرد في مظاهره | علامة الوقت في الماضي وفي الآتي
والهف قلبي على من كان يجمعنا | على فنون المعاني والاشارات
فارقت من كان يرويني برؤيته | اذا تبدى بداسر العبارات
يروى الأحاديث عن سكان كاظمة | فيطرب الكون من طيب الروايات
ويطنب الذكر في احسان حسنهم | فيرقص القلب شوقا نحو ساداتي
أفضى الى الله والجنات مسكنه | عليه من ربه أزكى تحيات
ثم السلام على المختار ماهمعت | سحب الغمام وجادت بالزيادات
والحمد لله حمدا لاانقطاع له | أرجو به من الهي محو زلاتي

(قال العلامة الشيخ مرعي الحنبلي) وهذا آخر ماأردنا جمعه من بعض مناقب شيخ الاسلام ابن تيمية وبعض مراثيه على سبيل التلخيص والاختصار رضي الله عنه وأرضاه ، ونفعنا به وأعاد علينا من بركته وبركات علومه آمين ، ثم قال :

قد علمت أيدك الله مما مر من سيرة الشيخ ومناقبه وغزارة علمه وقوة جهاده واتصافه بكل فعل جميل ، كشهادة الأئمة له وثنائهم عليه نثرا ونظما حيا وميتا أنــه من كبار الأئمة المحققين ، وعلماء الامة العاملين الراسخين ، وأكابر الأولياء العارفين، بشهادة الامامين الجليلين أبي حنيفة والشافعي ، حيث قالا اذا لم تكن العلماء أولياء الله فليس لله ولي ، لاسيما وقد شهد له غير واحد من الأئمة ، مع ماأعطاه الله من العلم والعمل ، والزهادة والعبادة ، ووقوفه مع الكتاب والسنة ، لايميله عنهما قول أحد كائنا من كان كما مر في مناقبه ، هذا وقد تكلم فيه وبغى عليه من لا يخــاف الله ، واستحل الوقوع في عرضه ونسبه لقبائح هو منها بريء ، وترى كثــيرا من الجهلة المتهوكين ينسبونه بغير علم لما لايحل لهم أن ينسبوا اليه أعظم الجاهــلين ، فكيف بمن هو من العلماء الراسخين وأئمة الدين ، والذاب عن شريعة سيد المرسلين، أترى هذا المفتري لم يسمع قول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع : (ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في شهركــم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت) رواه البخاري ومسلم ؟ وروى مسلم أيضــا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى اللــه عليه وسلم : (كــل المسلم على المسلم حرام ، دمه وعرضه وماله) أو مادرى هذا المتهوك بلسانه قــول الحافظ ابن عساكر لحوم العلماء مسمومة ، وهتك أستار منتقصتهم معلومة ، وقوله أيضا : لحوم العلماء سم ، من شمها مرض ومن ذاقها مات ؟ أو مابلغ هذا المتجـري أنه قد جاء النهيعن ذكر مساويء الأمواتوالأمر بذكر محاسنهم ؟فعن ابنعمررضي الله عنهما قال : قال رسول اللهصلى الله عليه وسلم : (اذكروا محاسن موتاكــم وكفوا عن مساويهم) رواه أبو داود والترمذي وابن أبي الدنيا ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لاتسبوا الأموات فانهم قد أفضوا الى ماقدموا) رواه الامام أحمد والبخاري والنسائي ، وفي رواية أخرى : (لاتذكروا موتاكم الا بخير ، ان يكونوا من أهل الجنة تأثموا ، وان يكونوا من أهل النار فحسبهم ماهم فيه) فلا يجوز لمن يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر أن يثلم عرض أحد من المسلمين بما لايليق ، فكيف بأئمة المسلمين وورثة النبيين ، فكيف بالأموات منهم .

قال الشيخ تاج الدين السبكي [1] ينبغي لك أيها المسترشد أن تسلك سبيل الأدب مع جميع الأئمة الماضين ، وأن لاتنظر الى كلام الناس فيهم الا ببرهان واضح، ثم ان قدرت على التأويل وتحسين الظن بحسب قدرتك فافعل والا فاضرب صفحا عما جرى بينهم ، فانك ياأخي لم تخلق لمثل هذا وانما خلقت للاشتغال بما يعنيك من أمر دينك ، قال : ولا يزال الطالب نبيلا حتى يخوض فيما جرى بين الأمة فلتحقه الكآبة وظلمة الوجه ، انتهى •

فان طعن على الشيخ ابن تيمية رحمه الله من حيث العقيدة فعقيدته عقيدة السلف كما وقع الاتفاق على ذلك وقت المناظرة ، فليطعن على السلف من طعن فيه •

وان طعن عليه من حيث افتائه بمسألة الطلاق الثلاث ـ في كونه أوقع من ثلاث طلقات مجموعة أو متفرقة طلقة واحدة ـ فهو مجتهد ، ولا يجوز الطعن على المجتهد فيما ذهب اليه مما قام عليه الدليل عنده ، بل يجب عليه العمل به ، على أن مسألة الطلاق قال بها غيره من أكابر الصحابة والتابعين ، كما هو مروي عن عليّ بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ،وعبد الرحمن بن عوف ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وقال قوله ثلاث لامعنى له لأنه لم يطلق ثلاث مرات ، وقال به عطاء ، وطاووس ، وعمرو بن دينار ، وسعيد بن جبير ، وأبو الشعثاء ، ومحمد بن اسحق ، والحجاج بن أرطاة ، وقال به من شيوخ قرطبة جماعة منهم محمد بن عبد الحسين فقيه عصره، وأصبغ بن الحباب ، وغيرهم •

وان كان الطعن فيه من حيث تحريمه زيارة قبور الصالحين وغيرهم فهو كذب وافتراء عليه ، فانه لايمنع ذلك ، وانما حكى قولين فيمن شد الرحال لزيارتها ورجح النهي تبعا لطائفة من الأئمة المجتهدين ، والحجة في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (لاتشد الرحال الا لثلاثة مساجد) الحديث ، فكيف يسوغ الاعتراض عليه بذلك ؟ لاسيما وقد وافقه على ذلك علماء بغداد من رواة المذاهب كلها •

(وقال الشيخ) الامام الحافظ سراج الدين أبو حفص عمر البزار في مناقبه : أكثر في حقه الأقاويل ـ الزور والبهتان ـ من ظاهر حاله العدالة وباطنه مشحون

---

(١) عجبا للشيخ مرعي كيف يستدل على مطلبه هذا بكلام ابن السبكي وهو ووالده وأضرابهم سنوا القدح فى شيخ الاسلام وتبعهم ابن حجر المكي ، ومن سن سنة سيئة فى الاسلام فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة ، ويقال لابن السبكي عامله الله بعدله :

ياأيهـــا الرجل المعلم غـــيره	هلا لنفســـك كـــان ذا التعليـــم
ابدأ بنفســك فانهها عن غيهـــا	فاذا انتهت عنـــه فانت حكيـــم

كذا فى الاصل المطبوع عنه اهـ

بالفسق والجهالة ، ولم يزل المبتدعون أهل الأهواء وآكلوا الدنيا بالدين متعاضدين متناصرين في عداوته ، باذلين وسعهم في السعي بالفتك به ، متخرصين عليه الكذب الصريح ، مختلقين عليه وناسبين اليه مالم يقله ، ولم ينقل عنه ولم يوجد بخطه ولا وجد له في تصنيف ولا فتوى ولا سمع منه في مجلس •

قال : وسبب عداوتهم له أن مقصودهم الأكبر طلب الجاه والرياسة واقبال الخلق ، ورأوه قد رقاه الله الى ذروة السنام من ذلك بما أوقع الله له في قلوب الخاصة والعامة من المواهب التي منحه بها وهم عنها بمعزل ، فنصبوا أنفسهم لعداوته ، وحسدوه ، وسعوا به بما سعوا ، ولم يرقبوا الله واليوم الآخر فكان ما كان ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون •

هذا آخر ماوجدناه في كتاب الكواكب الدرية ، في مناقب الامام المجتهد ابن تيمية ، للعلامة شيخ الفضلاء المتقنين ، وعمدة الفقهاء والمحدثين ، الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي ، المتوفي سنة ثلاث وثلاثين وألف وقال على طرف كتابه مادحا شيخ الاسلام :

امام المعالي والمعاني يعيبه ... على فضله من كان في الرتبة الدنيا
ومن ذا يعيب البدر والبحر والهدى ... ومن كان فردا بالفضائل في الدنيا
وما ضر نور الشمس ان كان ناظرا ... اليه عيون لم تزل دهرها عميا
وهل جاء في الدنيا كأحمد بعده ... وهل حل بدر في منازله العليا

وبما ذكر في هذه المناقب يتبين أن مصنف (جلاء العينين) قد سبقه كثير من أفاضل العلماء وأساطين الأمة في الذب عن الامام الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، وتخطئة من نسب اليه الابتداع واعترض عليه بما ليس له أصل ، ومنه يعلم أيضا أن الزائغ النبهاني قد خاض طينة الخبال في الاعتراض عليه وعلى من أخذ بيده وذب عنه ، وفي دعواه أنه على الهدى وان مثل الشيخ تقي الدين ومن كان على منهجه وصراطه المستقيم من أهل البدعة والضلالة ، والنبهاني ومن هو على شاكلته من أهل الدنيا مغمورون بالجهل والاعراض عن الآخرة ، ومع ذلك تكلموا بما تكلموا ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ومثل هؤلاء ليسوا من فرسان هذا الميدان ، وكلامهم في هذا الباب فضول من القول لاينبغي أن يصغى اليه ، والله ولي التوفيق، ومنه العصمة من الزلل •

وربما اعترض معترض وعارض الكلام السابق بأن الشيخ تقي الدين رضي الله عنه وغيره من الأئمة اعترضوا على أقوال غيرهم من الأكابر وضللوا قائليها ،

وقد حوا فيهم بما هو معلوم لمن طالع كتب الخلاف والجدل ، فهلا يقال لهم مثل تلك الموعظة التي ذكرها الشيخ مرعي في آخر مناقبه والا فما الفرق ؟ •

فالجواب عن هذا الاعتراض : أن ماقاله خصماء الشيخ تقي الدين منبعث عن محض هوى لم تقتضه مناظرة ولم يبعث عليه دليل ،ولا سيما ماذكره السبكي وولده، وابن حجر المكي ، وأتباعهم ومقلدوهم ، فكل أحد يعلم أن مانسبوه اليه افتراء ، وما قد حوه به مجرد شتم للشيخ تقي الدين استوجبه ابطال الشيخ لما تهواه نفوس هؤلاء من البدع والأهواء ، والشيخ تقي الدين رضي الله تعالى عنه كان بحثه واعتراضه بما يقتضيه الدليل ، ومقصوده اظهار الحقائق الدينية ـ لم يكن من مقاصده المكابرة والمجازفة ـ كما هو شأن أئمة أهل العلم الربانيين مثل الأئمة الأربعة وأصحابهم وما جرى بينهم من المناظرات والمخالفات •

وقد رأيت نحو هذا الاعتراض والجواب في كتاب (بيان الدليل على بطلان التحليل) من مصنفات الشيخ قدس الله روحه ، حيث تكلم على ابطال الحيل بكلام مفصل ، ثم ذكر سؤالا وجوابا يتعلق بذلك ونصه :

(فان قيل) هذه الحيل مما اختلف فيها العلماء ، فاذا قلد الانسان من يفتي بها فله ذلك ، والانكار في مسائل الخلاف غيرسائغ ، لاسيما على من كان متقيدا بمذهب من يرخص فيها ، أو قد تفقه فيها ورأى الدليل يقتضي جوازها ، وقد شاع العمل بها عن جماعات من الفقهاء ، والقول بها معزو الى مذهب أبي حنيفة والشافعي وما قاله مثل هؤلاء الأئمة لاينبغي الانكار البليغ فيه ، لاسيما على من يعتقد أن الأئمة المجوزين لها أفضل من غيرهم ، وقد ترجح عنده متابعة مذهبهم اما على سبيل الالف والاعتياد أو على طريق النظر والاجتهاد ، وهب هذا الاعتقاد باطلا ألستم تعرفون فضل هؤلاء الأئمة ومكانهم من العلم والفقه والتقوى وكون بعضهم أرجح من غيره أو مساويا له أو قريبا منه ؟ فاذا قلد العامي أو المتفقه واحدا منهم ـ اما على القول بأن العامي لايجب عليه الاجتهاد في أعيان المفتين ، أو على القول بوجوبه اذا ترجح عنده أن من يقلده فيها هو الأفضل ، لاسيما ان كان فيها هو المذهب الذي التزمه ـ فلا وجه للانكار عليه ، الا أن يقال ان المسألة قطعية لايسوغ فيها الاجتهاد ، وهذا ان قيل كان فيه طعن على الأئمة بمخالفة القواطع ، وهذاقدح في امامتهم ، وحاش لله أن يقولوا مايتضمن مثل هذا ، ثم قد يفضي ذلك الى المقابلة بمثله أو بأكثر منه ، لاسيما ممن يحمله هوى دينه أو دنياه على ماهو أبلغ من ذلك ،

وفي ذلك خروج عن الاعتصام بحبل الله سبحانه ، وركوب التفــــرق المنهى عنه وافساد ذات البين ، وحينئذ فتصير مسائل الفقه من باب الاهواء وهذا غير سائغ ، وقد علمتم أن السلف كانوا يختلفون في المسائل الفرعية مع بقاء الالفة والعصمــة وصلاح ذات البين •

(فأجاب الشيخ رضي الله عنه عن ذلك) بقوله : قلنا نعوذ بالله سبحانه مما يفضي الى الوقيعة في أعراض الأئمة ، أو انتقاص أحــد منهــم ، أو عدم المعــرفة بمقاديرهم وفضلهم ، أو محادتهم وترك محبتهم وموالاتهم ، ونرجو من الله سبحانه أن نكون ممن يحبهم ويواليهم ويعرف من حقوقهم وفضلهم مالا يعرفه أكثر الاتباع وأن يكون نصيبنا من ذلك أوفر نصيب وأعظم حظ ، ولا حول ولا قوة الا بالله •

وقال : لكن دين الاسلام انما يتم بأمرين : (أحدهما) معرفة فضل الأئمــة وحقوقهم ومقاديرهم وترك كل مايجر الى ثلبهم • (والثاني) النصيحة لله سبحانه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، وابانة ماأنزل الله سبحانه من البينات والهدى ، ولا منافاة أن الله سبحانه بين القسمين لمن شرح الله صدره ، وانما يضيق عن ذلك أحد رجلين : رجل جاهل بمقاديرهم ومعاذيرهم ، أو رجل جاهل بالشريعة وأصول الأحكام •

قال : وهذا المقصود يتلخص بوجوه : (أحدها) أن الرجل الجليل الذي له في الاسلام قدم صالح وآثار حسنة ــ وهو من الاسلام وأهله بمكـــانة عليــا ــ قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور بل مأجور لايجوز أن يتبع فيها مع بقــاء مكانته ومنزلته في قلوب المؤمنين ، واعتبر ذلك بمناظرة الامام عبد الله بن المبارك ، قال : كنا في الكوفة فناظروني في ذلك يعني النبيذ المختلف فيه ، فقلت لهم : تعالوا فليحتج المحتج منكم عمن شاء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالرخصة ، فان لم يبين الرد عليه عن ذلك الرجل بشدة صحت عنه ، فاحتجوا ، فما جاءوا عن أحد برخصة الا جئناهم عنه بشدة ، فلما لم يبق في يد أحد منهم الا عبد الله بن مسعود وليس الاحتجاج عنه في شدة النبيذ بشيء يصح عنه ، انما يصح عنه أنه لم ينبذ لــه في الجر الأخضر •

قال ابن المبارك : فقلت للمحتج عنه في الرخصة : ياأحمق عد أن ابن مسعود لو كان ههنا جالسا لقال هو لك حلال ، وما وصفنا عن النبي صلى اللــه عليه وسلــم وأصحابه في الشدة كان ينبغي لك أن تحذر أو تجبن أو تخشى •

(فقال قائلهم) ياأبا عبد الرحمن فالنخعي والشعبي ــ وسمى عدة معهمــا ــ

كانوا يشربون الحرام .

(فقلت لهم) دعوا عند الاحتجاج تسمية الرجال فرب رجل في الاسلام مناقبه كذا وكذا ، وعسى أن يكون منه زلة أفلأحد أن يحتج بها ، فان أبيتم فما قولكم في عطاء وطاوس وجابر بن زيد وسعيد بن جبير وعكرمة ؟ قالوا : كانوا خيارا ، قلت : فما قولكم في الدرهم بالدرهمين ؟ فقالوا حرام .

فقال ابن المبارك : ان هؤلاء رأوه حلالا فماتوا وهم يأكلون الحرام ، فبهتوا وانقطعت حجتهم . قال ابن المبارك : ولقد أخبرني المعتمر بن سليمان ، قال : رآني أبي وأنا أنشد الشعر ، فقال لي : يابني لاتنشد الشعر ، فقلت له : ياأبه كان الحسن ينشد ، وكان ابن سيرين ينشد ، فقال لي أبي : ان أخذت بشر مافي الحسن وبشر مافي ابن سيرين اجتمع فيك الشر كله ، وهذا الذي ذكره ابن المبارك متفق عليه بين العلماء ، فانه ما من أحد من أعيان الأمة من السابقين الأولين ومن بعدهم الا لهم أقوال وأفعال خفي عليهم فيها السنة ، وهذا باب واسع لايحصى مع أن ذلك لايغض من أقدارهم ، ولا يسوغ أتباعهم فيها ، كما قال الله سبحانه : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ الى اللهِ والرَّسُولِ)[1]

قال مجاهد والحكم بن عتيبة ومالك وغيرهم : ليس أحد من خلق الله الا يؤخذ من قوله ويترك الا النبي صلى الله عليه وسلم ، قال سليمان التيمي : ان أخذت برخصة كل عالم اجتمع فيك الشر كله ، قال ابن عبد البر : هذا اجماع لاأعلم فيه خلافا .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في هذا المعنى ماينبغي تأمله، فروى كثير بن عبد الله بن عمرو عن عوف المزني عن أبيه عن جده ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اني لأخاف على أمتي من بعدي من أعمال ثلاثة ، قالوا : ماهي يارسول الله ؟ قال : أخاف عليهم من زلة العالم ، ومن حكم الجائر ، ومن هوى متبع) وقال ابن زياد بن حدير ، قال عمر : ثلاث تهدمن الدين : زلة عالم ، وجدال منافق بالقرآن والقرآن حق ، وعلى القرآن منار كأعلام الطريق [2]

وكان معاذ بن جبل يقول في خطبته كل يوم ـ قلما يخطئه أن يقول ذلك ـ الله حكم قسط ، هلك المرتابون ، ان وراءكم فتنا يكثر فيها المال ، ويفتح فيها

(١) النساء : ٥٩ ـ (٢) كذا في الاصل لم يذكر الثالث .

القرآن ، حتى يقرأه المؤمن والمنافق ، والمرأة والصبي ، والأسود والأحمر ، فيوشك أحدهم أن يقول قد قرأت القرآن ، فما أظن أن يتبعوني حتى ابتدع لهم غيره ، فاياكم وما ابتدع ، فان كل بدعة ضلالة ، واياكم وزيغة الحكيم ، فان الشيطان قد يتكلم على لسان الحكيم بكلمة الضلالة ، وان المنافق قد يقول كلمة الحق ، فتلقوا الحق عمن جاء به ، فان على الحق نورا • قالوا : كيف زيغة الحكيم ؟ قال : هي كلمة تروعكم وتنكرونها وتقولون ماهذه ، فاحذروا زيغته ، ولا يصدنكم عنه ، فانه يوشك أن يفيء وأن يراجع الحق ، وان العلم والايمان مكانهما الى يوم القيامة ، فمن ابتغاهما وجدهما •

وقال سلمان الفارسي : كيف أنتم عند ثلاث : زلة عالم ، وجدال منافق بالقرآن ، ودنيا تقطع أعناقكم ، فاما زلة العالم فان اهتدى فلا تقلدوه دينكم ، تقولون نصنع مثل مايصنع فلان ، وننتهي عما ينتهي عنه فلان ، وان أخطأ فلا تقطعوا اياسكم منه فتعينوا عليه الشيطان ، وأما مجادلة منافق بالقرآن فان للقرآن منارا كمنار الطريق ، فما عرفتم منه فخذوا ، وما لم تعرفوه فكلوه الى الله سبحانه، وأما دنيا تقطع أعناقكم فانظروا الى من هو دونكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم •

وعن ابن عباس قال : ويل للأتباع من عثرات العالم ، قيل : كيف ذاك ؟ قال يقول العالم شيئا برأيه ثم يجد من هو أعلم برسول الله منه فيترك قوله ذلك ثم يمضي الاتباع ، وهذه آثار مشهورة رواها ابن عبد البر وغيره •

فاذا كنا قد حذرنا زلة العالم ، وقيل لنا انها من أخوف مايخاف علينا ، وأمرنا مع ذلك أن لانرجع عنه : فالواجب على من شرح الله صدره اذا بلغته مقالة ضعيفة عن بعض الأئمة أن لايحكيها لمن يتقلدها بل يسكت عن ذكرها ان تيقن صحتها ، والا توقف في قبولها ، فما أكثر مايحكى عن الأئمة مما لا حقيقة له ؟ وكثير من المسائل خرجها بعض الاتباع على قاعدة متبوعة ، مع أن ذلك الامام لو رأى أنها تفضي الى ذلك لما التزمها ، والشاهد يرى مالا يرى الغائب ، ومن علم فقه الأئمة وورعهم علم أنهم لو رأوا هذه الحيل وما أفضت اليه من التلاعب بالدين لقطع بتحريمها من لم يقطع به أولا ، انتهى ، ثم ذكر رحمه الله تعالى جوابا ثانيا ، وثالثا ، ورابعا ، وخامسا ، عن ذلك السؤال وأطنب في كلامه •

والمقصود منه : أن يعلم من تكلم الشيخ فيه وكلامه ليس من جنس كلام الغلاة ــ عاملهم الله بعدله ــ فيه ، وهم انما تكلموا زورا وبهتانا واتباعا لهواهم ، وشأن

أتباع الرسل والعلماء العاملين أن يرضوا لله ويغضبوا لله ، وأن يتبعوا الكتاب والسنة ، وأن يقبلوا ماوافقهما ويتركوا ماخالفهما ، وبذلك تتحقق محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وبخلاف ماهنالك تكون العداوة .

وما أحسن ماقال شيخ الاسلام رحمه الله في تفسير (سورة الكوثر) وهو تفسير جليل ـ سورة الكوثر ماأجلها من سورة ، وأغزر فوائدها على اختصارها وحقيقة معناها تعلمها من آخرها ، فانه سبحانه يبتر شانيء رسوله من كل خير ، فيبتر ذكره وأهله وماله فيخسر ذلك في الآخرة ، ويبتر حياته فلا ينتفع بها ولا يتزود فيها صالحا لمعاده ، ويبتر قلبه فلا يعي الخير ولا يؤهله لمعرفته ومحبته والايمان برسله ، ويبتر أعماله فلا يستعمله في طاعته ، ويبتره من الأنصار فلا يجد له ناصرا ولا عونا ، ويبتره من جميع القرب والأعمال الصالحة فلا يذوق لها طعما ولا يجد لها حلاوة ، وان باشره بظاهره فقلبه شارد عنها ، وهذا جزاء من شنأ بعض ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ورده لأجل هواه أو متبوعه أو شيخه أو أميره أو كبيرة ، كمن شنأ آيات الصفات وأحاديث الصفات وتأولها على غير ماأراد الله ورسوله سفها وظلما على مايوافق مذهبه ومذهب طائفته ، أو تمنى أن لاتكون آيات الصفات أنزلت ، ولا أحاديث الصفات قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أقوى علامات شنآنه لها وكراهته لها أنه اذا سمعها حين يستدل بها أهل السنة على مادلت عليه من الحق اشمأز من ذلك وحاد عن ذلك ، لما في قلبه من البغض لها ، فأي شنآن للرسول أعظم من هذا ؟ وكذلك أهل السماع الذين يرقصون على سماع الغناء والقصائد ، والدفوف والشبابات ، واذا سمعوا القرآن يتلى ويقرأ عليهم في مجالسهم استطالوا ذلك واستثقلوه ، فأي شنآن أعظم من هذا ؟ وقس على هذا سائر الطوائف في هذا الباب ، وكذا من آثر كلام الناس وعلومهم على القرآن والسنة ، فلولا أنه شانيء لما جاء به الرسول مافعل ذلك ، حتى ان بعضهم لينسى القرآن بعد أن حفظه ، ويشتغل بقول فلان وفلان ، ولكن من أعظم شنآنه ورده من كفر به وجحده ، وجعله أساطير الأولين وسحرا يؤثر ، فهذا أعظم وأطم انبتارا ، وكل من شنأه له نصيب من الانبتار على قدر شنئه له ، فهؤلاء شنؤوه وعادوه جازاهم الله بأن جعل الخير كله معاديا لهم فبترهم منه ، وخص نبيه صلى الله عليه وسلم بضد ذلك ، وهو أن أعطاه الكوثر وهو الخير الكثير الذي آتاه الله في الدنيا والآخرة ، وأعطاه في الدنيا الهدى والنصر والتأييد ، وقرة العين والنفس ، وانشراح الصدر ،

ونعم قلبه بذكره وحبه ، بحيث لايشبه نعيمه نعيم في الدنيا البتة ، وأعطاه في الآخرة الوسيلة والمقام المحمود ، وجعله أول من يفتح له ولأمته باب الجنة ، وأعطاه في الآخرة لواء الحمد والحوض العظيم في موقف القيامة الى غير ذلك ، وجعل المؤمنين كلهم أولاده وهو أب لهم ، وهذا ضد حال الابتر الذي يشنأه ويشنأ ماجاء به ، وقوله : (ان شانئك) أي مبغضك (هو الأبتر) أي المقطوع النسل الذي لايولد له خير ولا عمل صالح ، فلا يتولد عنه خير ولا عمل صالح •

قيل لأبي بكر بن عياش : ان في المسجد قوما يجلسون ويجلس اليهم ، فقال : من جلس للناس جلس الناس اليه ، ولكن أهل السنة يموتون ويحيى ذكرهم ، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم ، لأن أهل السنة أحيوا بعض ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأهل البدعة أماتوا ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان لهم نصيب من قوله (ان شانئك هو الأبتر) فالحذر الحذر أيها الرجل من أن تكره شيئا مما جاء به الرسول ، أو ترده لأجل هواك ، أو انتصارا لمذهبك أو شيخك ، أو لأجل اشتغالك بالشهوات أو بالدنيا ، فان الله لم يوجب على أحد طاعة أحد الا طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم والأخذ بما جاء به ، بحيث لو خالف العبد جميع الخلق واتبع الرسول ماسأله الله تعالى عن مخالفة أحد ، فان كل من أطيع أو يطاع انما يطاع تبعا للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو أمر بخلاف ماأمر به الرسول ماأطيع ، فاعلم ذلك واسمع وأطع ، واتبع ولا تبتدع تكن أبتر مردودا عملك ، بل لاخير في عمل أبتر من الاتباع ، ولا خير في عامله انتهى •

فهذه أقوال أهل العلم فيمن انتقص أئمة الهدى وخيار الأمة كما فعل النبهاني وابن حجر المكي وسائر الغلاة ، وقد كشف الله تعالى عن سوأتهم ، وأراهم سوء منقلبهم ، هذا بعض مايستحقونه من عذاب الله وبطشه ، ولعذاب الآخرة أشد •

والنبهاني الغافل ظن أن أهل الحق ليس لهم أعوان ولا أنصار سوى مصنف (جلاء العينين) فأخذ يشنع عليه بأقواله الكاسدة ، وما درى المسكين أن أنصار الله لايحيط بهم نطاق الاحصاء ، وما يعلم جنود ربك الا هو ، نسأله تعالى الهداية الى صراطه المستقيم •

(قال النبهاني) وقد عقد فصلا في الفرق بين الامامين ابن حجر وابن تيمية : من المعلوم أن كل مذهب من المذاهب الأربعة أهله أعلم وأدرى بأحوال علماء مذهبهم ، لكثرة تدقيقهم في أقوالهم ، وتنقيبهم عن أحوالهم ، وتتبعهم لمحاسنهم

ومساويهم ، ويروي ذلك خلفهم عن سلفهم ، ليأخذوا بأقوالهم في المذهب أو يردوها، أو يعتمدوها أو يضعفوها ، وقد نظرنا الى هذين الامامين ابن حجر وابن تيمية ، فوجدنا ابن حجر اماما في مذهب الشافعي لايعادله فيه أحد من الأئمة المتأخرين سوى الشمس الرملي على خلاف بين العلماء في الترجيح بينهما ، أما اذا اتفقا على حكم وجب المصير اليه عند كافة علماء مذهب الشافعي على الاطلاق ، فهذه منزلة ابن حجر في مذهبه ، وهي معلومة لاينكرها أحد ، ولا يدعي خلافها جاهل فضلا عن عالم ، ومؤلفاته في الفقه هي عمدة مذهب الشافعي من عصره الى الآن ، وكلها محررة مقبولة باجماع أهل مذهبهم وغيرهم ، وهي كثيرة ، وأكثرها مطولات في عدة مجلدات : منها شرح العباب ، وتحفة المحتاج شرح المنهاج ، والامداد شرح الارشاد ثم اختصره في مجلدين ، وسماه (فتح الجواد) وألف عليه حاشيته ، والفتاوى الكبرى ، وشرح الحضرمية ، وحاشية مناسك النووي ، ومختصر المناسك المذكورة ومختصر الروض ، هذا مااستحضرته الآن من كتبه الفقهية ، وله مؤلفات كثيرة في الحديث وغيره ، وكلها نالت منتهى القبول ، والناس عليها في غاية الاقبال ،وأكثرها مطولات ، منها شرح مشكاة المصابيح ، والزواجر عن اقتراف الكبائر ، والصواعق المحرقة لأهل الرفض والزندقة ، وأسنى المطالب في صلة الأقارب ، وشرح الشمائل ، وشرح الهمزية ، وشرح الأربعين النووية ، والاعلام بقواطع الاسلام ، وكف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع ، والايضاح والبيان ، بما في ليلة الرغائب والنصف من شعبان ، وغير ذلك مما لم يحضرني الآن ذكره ، وكلها يتنافس باقتنائها المتنافسون ، ويعتمد عليها من جميع المذاهب العلماء المحققون ،ولايخلو منها في الغالب مكتبة من المكاتب ، فيالها من مؤلفات جليلة خدم بها الدين ، ونفع بها المسلمين ، وانتشرت في العالمين ، وتلقاها الناس بالقبول التام في جميع بلاد الاسلام ، للاتفاق على أنه أحد الأئمة الأعلام ، الذين لم يطعن فيهم أحد من علماء مذهب الاسلام من عصره الى الآن ، ولم ينسبه واحد منهم الى بدعة أو مخالفة سنة ، وقد كان يعتقد في ساداتنا الصوفية أحسن الاعتقاد ، ويثني عليهم أحسن الثناء ، ويجيب عنهم بأحسن الأجوبة، فشملته بركاتهم وعمته نفحاتهم ، وبالجملة فقد كان من أكابر أئمة العلماء العاملين ، الهداة المهديين ، الذين جددوا وأيدوا بعلمهم هذا الدين المبين ، وعم نفعهم جميع المسلمين ، فوقع على قبوله والاقبال على كتبه الاتفاق في جميع الآفاق •

(قال وأما ابن تيمية) فهو أيضا امام من أئمة الاسلام وقد كان من الممتازين

في عصره في العلم والعمل ، والتصلب في الدين ، بحيث لاتأخذه في الحق لومة لائم ، حتى أنه جرى عليه بسبب مخالفته لما عليه جمهور الأمة من بدعه المعلومة التي شذ بها اهانات كثيرة ، وحبس بها مرارا ، الى أن توفي في الحبس ، ولم يرجع عما ظهر له أنه الحق من تلك البدع ، وكان من أكابر حفاظ الحديث ، وله في علوم الدين مؤلفات كثيرة مطولات ومختصرات قل من وفقه الله لمثلها ، ولكن الله تعالى لم يقدر الانتفاع بعلمه وكتبه كالانتفاع بعلم الامام ابن حجر وكتبه ، فان كتبه رحمه الله على كثرتها ونفاستها بقيت في زوايا الاهمال ، ولم يقبل عليها جمهور العلماء وغيرهم ، ولا تلقوها بالقبول ، فذهب أكثرها ضياعا ، ولا يوجد منها الآن بين الناس الا القليل ، ومعلوم أن ذلك من الله وحده لاشريك له ، فهو الذي نشر علم ابن حجر وكتبه في الامة نشرا تاما ، بحيث انتفع بها الخاص والعام في سائر بلاد الاسلام ، وهو سبحانه الذي صرف القلوب عن كتب ابن تيمية حتى لم يبق منها الا القليل النادر ، وقلما يوجد منها شيء في مكتبة من المكاتب الموقوفة والمملوكة ، واذا وجد فالغالب أن يكون مخروما وناقصا ، أو أكلته الأرضة وبليت أوراقه ، وصار بحالة لا ينتفع بها ، مع أن كتبه كلها تدل على أنه من أكابر أئمة الاسلام ، الا أنه قلما يخلو كتاب منها من شذوذ يخالف به مذاهب المسلمين ، ويشنع على علماء الدين ، ولاسيما الأولياء العارفين ، الى أن قال : وأظن بل أتيقن أن السبب الوحيد لعدم انتفاع الناس بكتب ابن تيمية وعلمه مع جلالة قدره شذوذه في تلك المسائل ، واعتراضه على هؤلاء الأكابر ، وماشبهت كتبه الا بكنوز مملوءة من الجواهر النفيسة ، ولكنها مرصودة من بدعه ومخالفته للأمة بحيات قاتلات ، فهي تمنع الناس من الاقبال عليها والانتفاع بها ، الى آخر ماهذى به .

هذه جملة من كلام النبهاني فيما قاله في المحاكمة بين ابن حجر وابن تيمية ، وكأنه تعلمها من قوانين الجزاء أو الحقوق ، فانها بعيدة عن العلم الذي أنزل الله به كتبه ، وسقت هذا المقدار منه ليعلم أهل العلم المنصفون درجته في الجهل والحسد ، وقد كتب هذا كله في مقابلة ماذكره مصنف جلاء العينين من الحق الظاهر ، وانحياد ابن حجر عنه وتقوله على علماء الدين ، وقال هذا الزائغ — قبل شروعه في مقالته هذه — مانصه : ولما ظهر تحامل مصنف جلاء العينين في كتابه هذا على أهل السنة ومذهبهم ، ولاسيما الاما مالسبكي وابنه وابن حجر ، وبالغ في التعصب بمدح ابن تيمية ومذهبه ، وكل من كان على شاكلته — رأيت أن أذكر هنا الفرق بين ابن تيمية

وابن حجر ، ليظهر لكل أحد أنه حكم لابن تيمية على ابن حجر بالباطل ، فأقول الى آخر مقالته التي نقلناها ، وكلامه هنا متناقض ، كما أنه كذلك في كل مقام ، فتارة يقول عن ابن تيمية انه امام من أئمة المسلمين ، وأخرى يبدعه ويجعله من المبتدعين ، وهكذا كل كلام يوحيه الشيطان الى أوليائه ، والنبهاني الزائغ ـ كما لايخفى على من وقف على جهله وضلاله ـ ليس من أهل الترجيح لأقوال أهل العلم بعضها على بعض ، بل لايحسن قراءة عبارتها ، ولا يصلح أن يكون حكما بين صبيين فضلا عن أن يكون حكما بين العلماء •

ماأنت بالحكم الترضى حكومته ولا الأصيل ولا ذي الرأي والجدل

فان من شرط الحكم أن يكون عالما بالكتاب والسنة ، وأقوال الصحابة ، ومذاهب المجتهدين ، فمن أين لهذا الزائغ من هذه العلوم •

قال شيخ الاسلام قدس الله روحه : من المعلوم أنا اذا تكلمنا في العلماء والمشائخ المختلفين في العلم والدين وجب أن يكون الكلام بعلم وعدل ، لابجهل وظلم ، فان العدل واجب لكل أحد على كل أحد في كل حال ، والظلم محرم مطلقا لايباح قط بحال ، قال تعالى : (ولا يَجْرِمَنَّكُم شَنَآنُ قومٍ على أَن لَا تَعْدِلُوا اعْدِلوا هوَ أَقْرَبُ للتَّقوى)[1] وهذه الآية نزلت بسبب بغضهم للكفار ، وهوبغض مأمور به، فاذا كان البغض الذي أمر الله به قد نهي صاحبه أن يظلم من يبغضه فكيف في بغض مسلم بتأويل وشبهة أو بهوى نفس ، فهو أحق أن لايظلم بل يعدل عليه ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق من عدل عليهم في القول والعمل ، وهكذا اتباعهم ، والعدل مما اتفق أهل الأرض على مدحه ومحبته والثناء على أهله ومحبتهم، والظلم مما اتفق على ذمه وتقبيحه وذم أهله وبغضهم ، وليس المقصود الكلام في التحسين والتقبيح العقلي ، فقد تكلمنا عليه في غير هذا الموضع في مصنف مفرد ، ولكن المقصود أن العدل محمود محبوب باتفاق أهل الأرض ، وهو محبوب في النفوس ، مركوز حبه في القلوب ، تحبه القلوب وتحمده ، وهو من المعروف الذي تعرفه القلوب ، والظلم من المنكر الذي تنكره القلوب فتبغضه وتذمه ، والله تعالى أرسل الرسل ليقوم الناس بالقسط ، قال الله تعالى : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنا بالبيِّنَات وأَنزَلنا معَهُمُ الكتَابَ والمِيْزَنَ ليَقُوم النَّاسُ بالقسْطِ)[2] وقال تعالى : (اللهُ

---

(١) المائدة : ٨ ـ (٢) الحديد : ٢٥

الذي أَنْزَل الكتَابَ بالحقِّ والميزانَ)[1] وقال تعالى : (إِنَّ اللهَ يأْمركم أَن تؤدُّوا الأَمَانات الى أَهلِها واذا حكَمتم بينَ النَّاس أَن تحكُموا بالعدْلِ)[2] وقال : (فإنْ جاؤكَ فاحكم بيْنهُم أَو أَعْرض عنْهُم وإنْ تُعْرضْ عنهم فلَنْ يضُروكَ شَيْئاً وانْ حكَمتَ فاحْكُم بينَهم بالقسط إنَّ اللهَ يُحبُّ المقسطينَ)[3] وقال : (فاحكُم بينَهُم بِما أَنْزل اللهُ ولا تتَّبع أَهواءَهُم عمَّا جاءَكَ من الحقِّ)[4] فأمره أن يحكم بالقسط ، وأن يحكم بما أنزل الله ، فدل ذلك على أن القسط هو ماأنزل الله ، فما أنزل الله هو القسط ، والقسط هو ماأنزل الله ، ولهذا وجب على كل من حكم بين اثنين أن يحكم بالعدل ، لقوله : (وإِذَا حَكَمتُم بينَ النَّاس أَنْ تَحكُموا بالعدْل) فليس لحاكم أن يحكم بظلم أبدا .

والشرع الذي يجب على حكام المسلمين الحكم به عدل كله ، ليس في الشرع ظلم أصلا ، بل حكم الله أحسن الأحكام ، والشرع هو ماأنزل الله ، فكل من حكم بما أنزل الله فقد حكم بالعدل ، لكن العدل قد يتنوع بتنوع الشرائع والمناهج ، فيكون العدل في كل شرعة بحسبها ، ولهذا قال تعالى : (وإن حَكَمْتَ فاحكُم بينَهم بالقسْط إنَّ اللهَ يُحبُّ المقْسطينَ . وكَيفَ يُحكِّمُونكَ وعنْدهُم التَّوراةُ فِيها حُكْمُ الله ثُم يتولَّونَ مِن بعْد ذَلك ومَا أُولئكَ بالمؤْمِنينَ . إِنَّا أَنْزلنَا التوراةَ فيها هُدًى ونورٌ يَحْكم بها النَّبيُّونَ الَّذينَ أَسْلَموا للذِينَ هادُوا والرَّبانِيُّونَ والأَحبارُ بِما استُحفِظُوا مِنْ كِتَاب الله وكَانُوا عَليهِ شُهدَاءَ فَلا تَخشَوا النَّاس واخشَون ولا تَشْتَروا بِآياتي ثَمناً قَليلاً ومنْ لَم يَحْكُم بِما أَنزَلَ اللهُ فأُولئكَ هُم الكَافِرُونَ) الى قوله : (ولْيحْكُم أَهلُ الانْجيلِ بِما أَنْزلَ اللهُ فيه ومَن لم يَحكُم بِما أَنْزل اللهُ فأُولئكَ هُم الفَاسِقونَ . وأَنْزلنَا اليكَ

---

(١) الشورى : ١٧ ـ (٢) ـ النساء : ٥٨ ـ (٣) المائدة : ٤٢ ـ (٤) المائدة : ٤٨

الكِتاب بالحقِّ مُصَدِّقا لما بينَ يديه منَ الكِتابِ ومُهيمناً عليهِ فَاحْكُم بينَهُم بما أَنْزلَ اللهُ ولا تتّبع أَهْواءَهُم عَمَّا جاءكَ مِن الحقِّ لكُل جَعلنا منكُم شِرعَةً ومنْهاجاً ولو شَاءَ اللهُ لجعلكم أُمَّةً واحدةً ولكن ليبلُوكُم فِيما آتاكم فاسْتبقُوا الخيرات الى اللهِ مَرجِعُكُم جَميعاً فيُنبئُكُم بِما كُنتُم فِيهِ تختَلفُونَ . وأَنِ احْكُم بينهم بِما أَنْزلَ اللهُ ولا تتّبعْ أَهواءَهُم واحْذَرهُم انْ يفْتنُوكَ عَن بعْض ما أَنْزلَ الله اليكَ فإنْ تولَّوا فَاعْلَم أَنَّما يُريدُ اللهُ أَن يُصيبهُم ببعض ذُنوبهم وإنَّ كَثيراً من النَّاس لفاسِقُونَ . أَفحُكم الجاهِليَّةَ يبغُونَ ومنْ أَحسَنُ من اللهِ حكْماً لقومٍ يُوقِنُونَ).[1]

ذكر سبحانه حكم التوراة والانجيل ، ثم ذكر أنه أنزل القرآن ، وأمر نبيه أن يحكم بينهم بالقرآن ولا يتبع أهواءهم عما جاءه من الكتاب ، وأخبر أنه جعل لكل واحد من الأنبياء شرعة ومنهاجا ، فجعل لموسى وعيسى مافي التوراة والانجيل من الشرعة والمنهاج ، وجعل للنبيصلى اللهعليه وسلم مافي القرآن من الشرعة والمنهاج، وأمره أن يحكم بما أنزل الله ، وحذره أن يفتنوه عن بعض ماأنزل الله ، وأخبره أن ذلك هو حكم الله ، ومن ابتغى غيره فقد ابتغى حكم الجاهلية ، وقال : (ومَنْ لَم يَحْكُم بِما أَنْزلَ اللهُ فاولئكَ هُم الكَافِرُونَ).

ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر ، فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلا من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر ، فانه ما من أمة الا وهي تأمر بالحكم بالعدل ، وقد يكون العدل في دينها مارآه أكابرهم ، بل كثير من المنتسبين الى الاسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله ، كسوالف البادية ، وكأوامر المطاعين فيهم ، ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة ، وهذا هو الكفر ، فان كثيرا من الناس أسلموا ، ولكن مع هذا لايحكمون الا بالعادات الجارية لهم التي يأمر بها المطاعون، فهؤلاء اذا عرفوا أنه لايجوز الحكم الا بما أنزل الله فلم يلتزموا ذلك بل استحلوا

(١) المائدة : ٤٢ ـ ٥٠

أن يحكموا بخلاف ماأنزل الله فهم كفار ، والا كانوا جهالا كمن تقدم أمره •

وقد أمر الله المسلمين كلهم اذا تنازعوا في شيء أن يردوه الى الله والرسول ، فقال تعالى: (يَا أيُّها الَّذينَ آمَنو أَطيعُوا اللّهَ وأَطيعُوا الرَّسولَ وأُولى الأَمرِ مِنكُم فإن تَنازَعْتم في شَيءٍ فَرُدُّوهُ الى اللهِ والرَّسول ان كُنتم تؤْمِنُونَ باللّه واليوم الآخرِ ذَلكَ خيرٌ وأَحسنُ تأْويلاً)[1] وقال تعالى: (فَلا ورَبكَ لا يُؤْمنُونَ حتّى يحكِّموكَ فِيما شَجَر بينَهم ثم لا يَجدُوا في أَنفُسهم حَرجَاً مِمَّا قضَيتَ ويُسلِّمُوا تسْليماً).[2]

فمن لم يلتزم تحكيم الله ورسوله فيما شجر بينهم فقد أقسم الله بنفسه أنه لايؤمن ، وأما من كان ملتزما لحكم الله ورسوله باطنا وظاهرالكن عصى واتبع هواه فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة ، وهذه الآية مما يحتج بها الخوارج على تكفير ولاة الأمر الذين لايحكمون بما أنزل الله ثم يزعمون أن اعتقادهم هو حكم الله ، وقد تكلم الناس بما يطول ذكره ههنا ، وما ذكرته يدل عليه سياق الآية •

والمقصود : أن الحكم بالعدل واجب مطلقا في كل زمان ومكان على كل أحد ولكل أحد ، والحكم بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم هو عدل خاص ، وهو أكمل أنواع العدل وأحسنها ، والحكم به واجب على النبي صلى الله عليه وسلم وكل من اتبعه ، ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر ، وهذا واجب على الأمة في كل ما تنازعت فيه من الأمور الاعتقادية والعملية ، قال تعالى : (كَانَ النَّاس أُمَّةً واحِدةً فَبعثَ اللهُ النَّبيينَ مُبشِّرين ومُنْذرِينَ وأَنزَلَ معهُم الكِتابَ بالحقّ ليحْكُم بينَ النَّاس فِيما اخْتَلَفُوا فيهِ ومَا اخْتَلف فيه إلّا الذينَ أُوتوهُ منْ بعْد ما جاءتهم البيّنَاتُ)[3] وقال تعالى: (وما اختلفْتُم فيه منْ شَيءٍ فَحُكْمُهُ الى اللّه)[4] وقال : (فإِن تنَازعْتُم في شَيءٍ فردُّوهُ الى اللهِ والرَّسولِ)[5] فالأمور المشتركة بين الأمة لايحكم فيها الا الكتاب والسنة ليس لأحد أن

---

(١) النساء : ٥٩ ـ (٢) النساء : ٦٥ ـ (٣) البقرة : ٢١٣ ـ (٤) الشورى : ١٠ ـ (٥) النساء : ٥٩

يلزم الناس بقول عالم ولا أمير ولا شيخ ولا ملك ، ومن اعتقد أنه يحكم بين الناس بشيء من ذلك ولا يحكم بينهم بالكتاب والسنة فهو كافر ، وحكام المسلمين يحكمون في الأمور المعينة لايحكمون في الأمور الكلية ، واذا حكموا في المعينات فعليهم أن يحكموا بما في كتاب الله ، فان لم يكن فبما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان لم يجدوا اجتهد الحاكم برأيه •

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (القضاة ثلاثة : قاضيان في النار ، وقاض في الجنة ، فمن علم الحق وقضى به فهو في الجنة ، ومن علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار ومن قضى للناس على جهل فهو في النار) واذا حكم بعلم وعدل فاذا اجتهد فأصاب فله أجران ، واذا اجتهد فأخطأ فله أجر ، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجهين •

والمقصود هنا : أنه اذا وجب فيما شجر بين عموم المؤمنين أن لايتكلم الا بعلم وعدل ويرد ذلك الى الله والرسول فذاك في أمر الصحابة أظهر ، فلو طعن طاعن في بعض ولاة الأمور من ملك وحاكم وأمير وشيخ ونحو ذلك وجعله كافرا متعديا على غيره في ولاية وغيرها ، وجعل غيره هو العالم العادل المبرأ من كل خطأ وذنب ، وجعل كل من أحب الأول وتولاه كافرا أو ظالما مستحقا للسب وأخذ يسبه ـ فانه يجب الكلام في ذلك بعلم وعدل ، والرافضة سلكوا في الصحابة مسلك التفرق ، فوالوا بعضهم وغلوا فيه ، وعادوا بعضهم وغلوا في معاداته ، وقد يسلك كثير من الناس مايشبه هذا في أمرائهم وملوكهم ، وعلمائهم وشيوخهم ، فيحصل بينهم رفض في غير الصحابة ، تجد أحد الحزبين يتولى فلانا ومحبيه ويبغض فلانا ومحبيه ، وقد يسب ذلك بغير حق ، وهذا كله من التفرق والتشيع الذي نهى الله عنه ورسوله ، فقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُم فِي شَيْءٍ)[1]

وقال تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم إِذْ كُنْتُم أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُم فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً)[2] وقال تعالى : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ

---

(١) الانعام : ١٥٩ ـ (٢) آل عمران : ١٠٢ ، ١٠٣

لَهم عذَابٌ عَظيمٌ . يومَ تبيَضُّ وُجوهٌ وتسودُّ وُجوهٌ فأمَّا الَّذينَ اسْودَّتْ وُجوهُهم أكَفرتُم بعدَ إيمانكُم فذُوقُوا العذَابَ بِما كُنتُم تكْفرُونَ . وامَّا الَّذينَ ابيضَّتْ وُجوهُهم فَفي رحْمَةِ اللهِ هُم فِيها خَالِدُونَ)[1]

قال ابن عباس : تبيض وجوه أهل السنة ، وتسود وجوه أهل البدعة ، ولهذا كان أبو أمامة الباهلي وغيره يتأولها في الخوارج ، فالله تعالى قد أمر المؤمنين كلهم أن يعتصموا بحبله جميعا ولا يتفرقوا ، وقد فسر حبله بكتابه ، وبدينه ، وبالاسلام وبالاخلاص ، وبأمره ، وبعهده ، وبطاعته ، وبالجماعة ، وهذه كلها منقولة عن الصحابة والتابعين لهم باحسان ، وكلها صحيحة ، فان القرآن يأمر بدين الاسلام ، وذلك هو عهده وأمره وطاعته ، والاعتصام به جميعا انما يكون في الجماعة ، ودين الاسلام حقيقته الاخلاص لله .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ان الله يرضى لكم ثلاثا : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم) . والله تعالى قد حرم ظلم المسلمين أحيائهم وأمواتهم ، وحرم دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في حجة الوداع : (ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت ألا ليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع) انتهى ، ماهو المقصود من كلامه رحمه الله ، وبه علم أن النبهاني قد حكم بغير ماأنزل الله ، فانه لم يستند في كتابه كله فضلا عن هذا المقام بكتاب ولا بسنة ، ولا بدع أن يصدر ذلك منه فانه قد تعود الحكم بغير ماأنزل الله كسائر أحكامه في محكمته ، فهو في هذا الحكم وغيره أحد القاضيين .

وأما مصنف جلاء العينين فانه أسند جميع ماجاء به الى الكتاب والسنة ، فهو متبع في أحكامه كلها ماأنزل الله ، وهذا هو الوجه الأول مما ورد على كلام النبهاني في هذا المقام .

(والوجه الثاني) ان التصدي لبيان الفرق بين ابن حجر وكتبه وبين الشيخ تقي الدين ابن تيمية وكتبه كالتصدي لبيان الفرق بين الحصى والدر ، والخزف

---

(1) آل عمران : ١٠٥ ـ ١٠٧

والذهب ، والظل والحرور ، والماء العذب والمالح ، وأين السماء من الأرض ، وأين السمك من السماك ، وأين الليل من النهار ، وأين السواد من الظلام ، وأين الأموات من الأحياء ، وأين النائم من اليقظان ، وأين الفقير من الغني ، وأين الجاهل من العالم الى غير ذلك من النسب بين الأضداد ، والموازنة بين العاقل والجماد •

عدمتك قد بان التبـــاين في الورى وفيما برى الباري فسبحان من برى
ضللت الهدى اذ بالحصى قست جوهرا عداك الحجى أين الثريا من الثـــرى
وأين حصى الحصباء من درر البحر

فمـــا مادر فيهـــم ســـواء وحاتـــم ولا كهجـــــان الخيل خيل كرائـــم
فهل يستـــوي سيف كهام وصـــارم وهل يستـــــوي لادر درك عالـــم
وفهّ جهـــول ناقص الدين والحجـــر

قال تعالى : (هَل يسْتَوي الَّذين يعْلَمونَ والَّذينَ لا يعْلَمونَ) [1] فابن حجـر بالنسبة الى الشيخ طفل راقد في مهد طفوليته ، بل ان من رجح الشيخ على ابن حجر لم ينصف ولم يحكم بالحق :

ألم تـــر أن السيـــف ينقص قـــدره اذا قيـــل ان السيف خير من العصـــا

ان ابن تيمية قد تسابق مع أكابر المجتهدين على ماسمعت ممن صنف في مناقبه، وما كان من ثناء أكابر أهل العلم عليه ، فلو أن النبهاني أجرى الموازنة بينه وبين امام ابن حجر الكبير : لكان ذلك أيضا محل اشكال ونظر •

ان آثارنـــا تـــدل علينــــــا فانظـــروا بعدنــــا الى الآثــــار

(الوجه الثالث) ان النبهاني لم يعرف طريق الموازنة ووجهها ، وليته طالـــع كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، ولو أنه طالعه لعرف طريقهـــا ، وان كانت تلك في شعر وما نحن فيه فن آخر ، فان أصول الموازنة لاتختلف ، وحينئذ كـــان اللازم عليه أن يوازن بين كتاب وكتاب اتفقا في الموضوع ، كأن يوازن بين الصواعق المحرقة لابن حجر وكتاب منهاج السنة للشيخ تقي الدين ابن تيمية ، فان كلا الكتابين في الرد على الروافض ، وبعد الموازنة بين هذين الكتابين يظهر للمنصف معنى قول القـــائل :

وفي الحيوان يشترك اضطرارا أرسطاطاليس والكـــلب العقـــور

أو أن يوازن بين تحفة ابن حجر أو غيره من كتبه الفقهية وبين شرح العمدة في الفقه

---

(١) الزمر : ٩

لشيخ الاسلام ، وهكذا يأتي بكل كتاب وما يناسبه في موضوعه ، ويوازن بين ماashتملا عليه من المسائل والدلائل ، وسلاسة العبارة ووفائها بالمقصود ، فحينئذ ينجلي الغبار ، ويتميز الليل من النهار ، ولكن يبقى عليه نحو ثلاثمائة مصنف للشيخ بل أكثر ليس لابن حجره في مقابلتها شيء ، بل لم تخطر على بال ابن حجر ، فماذا يصنع حينئذ وبأي شيء يوازن تلك الكتب ؟ والجهل وعدم الحياء يوقعان من اتصف بهما بأعظم من ذلك ، نسأله تعالى العفو والعافية ، والمنصف يعلم يقينا أن الموازنة وبيان الفرق بين كتب ابن حجر أو غيره من غلاة الشافعية وبين كتب الشيخ كالموازنة بين قرآن مسيلمة الكذاب وبين كتاب الله الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فأين ماقاله ذلك الكذاب من الكتاب الذي أنزل بالحكمة وفصل الخطاب ، وعندي أن هذا التشبيه حق ، فان غالب كتب ابن حجر مشحونة بالكذب ، والافتراء، وقول الزور ، والآراء التي لم تستند الى كتاب ولا سنة صحيحة ، والدعوة الى غير الله ، ونحو ذلك من البدع والضلالات •

وكتب الشيخ تقي الدين تملأ قلوب مطالعيها نورا وايمانا وحكمة ويقينا ، وهي كما قال الامام الحافظ الشيخ عبد الله العراقي في كتابه الذي أرسله الى بعض تلامذة شيخ الاسلام بعد وفاته وقد ذكرناه سابقا : فما أشبه كلام هذا الرجل بالتبر الخالص المصفى ، وقد يقع في كلام غيره من الغش والشبه المدلس بالتبر مالا يخفى على طالب الحق بحرص وعدم هوى ، الى آخر ماقال •

(الوجه الرابع) ان كتب ابن حجر كلها منتقدة في نظر أهل البصائر بأن البعض منها منتحل على ماسبق بيانه ، فان كتاب الزواجر انتحله من كتاب الكبائر لابن القيم أحد تلامذة شيخ الاسلام ، كما لايخفى على من طالع الكتابين ، ولايمكن أن يقال ان ذلك من باب توارد الخواطر ، فان التوافق لم يقع من الأول الى الآخر ،وابن القيم رحمه الله متقدم عليه بزمن طويل ، وكذلك الاعلام بقواطع الاسلام ، انتحله أيضا من كتاب شيخ الاسلام اما بواسطة أو بغير واسطة ، ولسان الكتابين يخالف لسان ابن حجر في كثير من كتبه ، لاسيما الجوهر المنظم ، والصواعق ، ونحوهما من كتبه ، التي يصون أهل العلم ألسنتهم عن التكلم بمثلها ، فقد اشتملت على أحاديث موضوعة مكذوبة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأقاويل لايتكلم بها ابن يوم كما لايخفى على من وقف على ماصنف من الردود عليها •

وأما التحفة ، وسائر كتبه الفقهية فهي مما لايجوز لمسلم أن يطالعها لمااشتملت عليه من الغموض والخفاء ، والدقة في التعبير ، وأهل العلم نهوا عن أقل من ذلك ،

بل قد صرح بعضهم بمنع المفتين أن يفتوا بكتب ابن حجر ، لما أنهم لايأمنون من الخطأ لما اشتملت عليه من ضيق العبارة والألغاز والتعقيد المنافي كل ذلك للافادة والاستفادة ، على أن المسلمين في غنى عنها ، فان كتب السادة الشافعية وغيرهم قد ملأت العالم ، وكلها شافية كافية ، فما الحاجة الى كتب ابن حجر المنتحلة من كتب من سبقه ، ألا ترى أن الشافعية لما اشتغلوا بها قل العلم والعلماء فيهم ، بخلافهم لما كانوا يشتغلون بغيرها من الكتب الواضحة المبسوطة .

وأما كتب شيخ الاسلام فلا يقوم غيرها مقامها من الكتب السابقة واللاحقة على مالايخفى على المنصف .

(الوجه الخامس) أن مذهب الشافعي ليس مدار الأحكام في كثير من بلاد الاسلام ، انما مدارها في مشارق الأرض ومغاربها على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه ، وفقهاء السادة الحنفية قد أغنوا العالم عن مثل ابن حجر ، هؤلاء مسلموا البلاد الهندية كلهم حنفيون ، وهكذا بلاد الصين ، والأتراك في آسيا الوسطى ، وهكذا بلاد الدولة العثمانية حرسها الله ، والحنفيون غالبهم حنفيون .

وأما مذهب الشافعي فيكاد ينقرض من الأرض ويرتفع من الدنيا ، فلا تكاد ترى حكما يدور على مذهبه ، كما انقرض مذهب أهل الظاهر وغيره ، نعم للشافعي اليوم مقلدون في العبادات فقط ، وغالبهم ممن لايفرق بين اليمين والشمال ، هذا حال أصل المذهب ، فأين بقيت كتب ابن حجر ؟ وبطل قول النبهاني : وكلها يتنافس باقتنائها المتنافسون ، ويعتمد عليها من جميع المذاهب المحققون . وليت شعري من اعتمد عليها من علماء السادة الحنفية ؟ وأين بقيت كتبهم التي انتشرت في مشارق الأرض ومغاربها ، والذي أعلمه أن كتب ابن حجر وغيره من غلاة الشافعية لاتساوي عندهم قلامة ظفر ، وكذلك السادة المالكية والحنابلة .

فقول النبهاني : وتلقاها الناس بالقبول التام في جميع بلاد الاسلام . كذب ظاهر، وكيف يتلقاها أحد من أهل البصائر بالقبول وهي آراء محضة لم يستند فيها الى كتاب ولا سنة ، نعم كان بعض جهلة الشافعية مغترين ببعضها قبل أن تنتشر كتب المتقدمين وتظهر كنوز العلم بواسطة الطبع .

(الوجه السادس) قوله في بيان سبب انتشار كتبه وتعليله للاتفاق على أنه أحد الأئمة الأعلام ، الذين لم يطعن فيهم أحد من علماء مذاهب الاسلام ، من عصره الى الآن ، ولم ينسبه واحد منهم الى بدعة الخ : كذب ظاهر ، بل قد طعنوا به

وبكتبه ، كما مر غير مرة ، على أنه لو سلم ذلك فليس فيه مايستوجب المدح ، بل مايستوجب خلافه ، قال تعالى : (ولنْ ترضَى عنْكَ اليهُودُ ولا النَّصارى حَتَّى تتَّبع مِلَّتهُم) [1] والسواد الأعظم لايرضون عن أحد حتى يوافقهم على أهوائهم وعقائدهم الزائغة ، أو أن أهل العلم لم يعبئوا بمثله ، ولا التفتوا اليه ، فان ابن حجر مما لاأهمية به •

ان الرياح اذا اشتدت عواصفها فليس ترمي سوى العالي من الشجر

ألا ترى أنك لاتجد عالما مشهورا ، وفاضلا مذكورا : الا ووجه الناس اليه سهام الملام ، وعاداه جمع كثير من الأنام ، وذلك فخر لأهل العلم ودليل على علو شأنهم •

قال الامام الرافعي في كتابه (احياء القلوب) واعلم أن كثرة الانكار والأعداء مما يثبت لك أسوة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لقوله تعالى : (وكَذَلكَ جَعلْنا لِكُلِّ نبيٍّ عدواً مِنَ المجرِمِينَ) [2] فعلم أن عداوة المؤمنين للعبد من شقاوته ، لأن قلوب المؤمنين لاتمقت الا بحق ، لأنهم لايجتمعون على ضلالة ، وأعظم نصابهم أربع (٣)

(واعلم) أن الدنيا ليست موضع ظهور الجزاء للتكليف ، فكل انسان فيها مشغول بنفسه ، مطلوب بأداء ماكلف به من العمل ، فمن علم هذا لم يبال كيف أصبح ولا أمسى عند الخلق ، ولم يلتفت لمدحهم ولا ذمهم ، لأنهم في محل الحجاب، وانظر الى أحواله صلى الله عليه وسلم في الدنيا لم يظهر لنا منها الا ماأخبرنا الحق تعالى من علو مرتبته ، ولولا ذلك جهلنا قدره في الآخرة ، يظهر مقامه للخاص والعام فلا يظهر كماله الا في الآخرة ، وكذلك كمل الرجال لأنها دار ظهور النتائج ، وأما الدنيا فانما هي دار أعمال ، فمن طلب ظهور النتائج فيها فقد قلب الموضوع ، وباع آخرته بعرض من الدنيا فافهم •

قال : وقال أبو الحسن الشاذلي : لما علم الله سبحانه وتعالى أنه لابد أن يتكلم في أنبيائه وأصفيائه قضى على قوم بالشقاوة فنسبوه الى اتخاذ الصاحبة والولد ، حتى اذا ضاق الولي ذرعا من كلام قيل فيه : نادته هواتف الحق هذا وصفك لولا لطفي بك ، فافهم وطب نفسا وقر عينا بجميع مايقال فيك ، فان جميع المنكرين رحمة

---

(١) البقرة : ١٢٠ ـ (٢) الفرقان : ٣١ ـ (٣) كذا في الاصل وليحرر

من الله عليك ، والا لو عكس الأمر وجعلك منكرا عليه كالكافر أو العاصي ماذا كنت تفعل ، فاحمد الله سبحانه وتعالى ، واسلك سبيل الأصفياء ، وكثرة المدح من جميع الخلق لايغني عنك من الله شيئا وأنت عنده بخلاف ذلك ، وكثرة الذم والأذى من الخلق لايضرك شيئا وأنت عنده بخلاف ذلـك ، بل جميع المنكـرين يفارقونـك بالموت ، فهل ينزلون معك في القبر فيتعصبون عليك ويتولون سؤالك أو حسابك في الآخرة ؟ واحذر حين مدح الخلق لك أن تظهر التواضع فتحقر نفسك لما يعظمونك ، فان ذلك يزيدك تعظيما عندهم ، بل اسكت إيهاما لهم بأنك تحب المدح بما ليس فيك، هذا هو الأصلح لك دائما فافهم .

فان قال لك الشيطان : هذا مما ينفر القلوب منك وأنت تنفع الناس وتعلمهم الخير وانما يليق هذا الحال بالسواح الذين خربوا حالهم ، فقل له ، انمـا أنظر الى المحرك لهم وهو الله تعالى ، فان أقام في باطنهم تعظيما لي عظموني ولا يمكنهم أن يحقروني ، وأشهد ذلك فضلا منه ، وان أقام في باطنهم تحقيرا لي لايمكنهم التعظيم لي ولو أظهرت لهم كل كرامة فافهم .

وبالجملة : فمن كان قصده التعظيم عند الخلق لم يزل في تكدير ، لأنه لابد في الوجود من منكر عليه ، وطلبه من جميع الخلق أن يقبلـوا عليه بالثناء والحمـد والاعتقاد جهل منه ، فلا بد له من ذام ومادح ولو كان في فضل نحو الصحابة رضي الله عنهم ، وقد كان شخص يذم الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وينكر عليه فاجتمع به المنكر فأثنى عليه بحضرة الصحابة رضي الله عنهم على خلاف عادته ،فقال الامام علي رضي الله عنه ، أنا دون ماتقو ل، وفوق مافي نفسك،فافهم فهمنا الله واياك، فان من رضي بعلم الله فيه لايتغير ، ولو توجه اليه الثقلان بالذم والتنقيص،ولايغيره على الله شيء ، بل شأن العبد الغفلة عما الناس فيه مطلقا شغلا بسيده ، وقد رأيت هاتفا يقول على لسان الحق تعالى من شهد الأمور كلها مني لم يتغير لوجـدان ولا فقد ، ومن خرج من مضرتي سلطت عليه أعدائي ، فلا يلومن الا نفسه ، والسلام فافهم فهمنا الله واياك ، انتهى .

ثم نقل الامام الرافعي عن ابن عطاء الله الاسكندري أنه قال في حكمه : انما أجرى عليك الأذى على يديهم ، كيلا تكون ساكنا اليهم ، أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لايشغلك عنه شيء ، قال شارحها ابن عباد وجود أذية الناس للعبد نعمة عظيمة عليه ، لاسيما ممن اعتاد منه الملاطفة والاكرام ، والمبرة والاحترام ، لأن ذلك يفيده عدم السكون اليهم ، وترك الاعتماد عليهم ، وفقد الأنس بهم ، فيتحقق بذلك

عبوديته لربه عز وجل •

قال الاستاذ أبو الحسن الشاذلي : آذاني انسان مرة ، فضقت به ذرعا ، فنمت فرأيت قائلايقول لي من علامة الصديقية كثرة أعدائها ثم لايبالي بهم •

وقال بعض العارفين : الصحبة مع العدو سوط الله يضرب به القلوب اذا ساكنت غيره ، لولا ذلك لرقد القلب في ظل العز والجاه ، وهو حجاب عن الله عظيم •

وقال الاستاذ عبد السلام أستاذ أبي الحسن الشاذلي في دعائه : اللهم ان قوما سألوك أن تسخر لهم خلقك فسخرت لهم خلقك فرضوا منك بذلك ، اللهم واني أسألك اعوجاج الخلق عليّ حتى لايكون ملجئي الا اليك •

وقال أبو الحسن الوراق النيسابوري : الأنس بالخلق وحشة ، والطمأنينة اليهم حمق ، والسكون اليهم عجز ، والاعتماد عليهم وهن ، والثقة بهم ضياع ، واذا أراد الله بعبد خيرا جعل أنسه به وبذكره ، وتوكله عليه ، وصان سره عن النظر اليهم ، وظاهره عن الاعتماد عليهم ، وقد كان الزهاد يخرجون المال من الكيس،تقربا الى الله تعالى ، وأهل الصفا والوفا يخرجون الخلق والمعارف من القلب ، تحققا بالله عز وجل •

قال الامام الشعراني في لطائف المنن : اعلم أن أولياء الله تعالى حكمهم في بداياتهم ان يسلط عليهم الخلق ليطهروا من البقايا ، وتتكمل فيهم المزايا ، وكيلا يساكنوا هذا الخلق باعتماد ، أو يميلوا اليهم باستناد ، ومن آذاك فقد أعتقك من رق احسانه ، ومن أحسن اليك فقد استرقك بوجود امتنانه . ولذلكقال صلى الله عليه وسلم : (من اسدى اليكم معروفا فكافئوه فان لم تقدروا فادعوا له) كل ذلك ليتخلص القلب من رق احسان الخلق ، وليتعلق بالواحد الحق •

قال : وقال الشيخ أبو الحسن : اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم ، فان خيرهم يصيبك في قلبك ، وشرهم يصيبك في بدنك ، الى آخر ماقال •

والحاصل : أن تسليط الخلق على أولياء الله تعالى في مبدأ ظهورهم سنة الله في أحبابه وأصفيائه ، وللصوفية من هذا البلاء الحظ الأوفر ، فان العارف بالله ابن أبي جمرة لما اختصر البخاري وشرحه وعرض فيه بأنه يرى المصطفى صلى الله عليه وسلم يقظة : قاموا عليه وعقدوا له مجلسا ، وألزم بالجلوس في بيته ، فلزمه ، فلم يخرج الا للجمعة حتى مات ، ولما ألف الحكيم الترمذي نوادر الأصول ، وختم

الأولياء ، وعلل الشريعة : ثاروا عليه ورموه بالعظائم ، وبطشوا به ، فجمع كتبه كلها وألقاها في البحر ، قيل فاستمرت فيه ثم لفظها على حالها فانتفع النـاس بها ، وثاروا على البوشنجي ونفوه من بلده فسكن نيسابور الى أن مات ، وأفتوا بتكفير أبي الحسن الخراز بمواضع التقطوها من كتبه ، ونفوه من بلده ، وشهدوا على الشبلي بالكفر مرارا مع كمال علمه ، وكثرة مجاهداته وزهده واتبـاعه للسنة ، وشهد عليه آخرون بالجنون ، وأدخل (البيمارستان) ثم نفوه الى أن مات .

وقام أهل المغرب على الامام أبي بكر النابلسي ــ مع علمه وزهده وورعه وتمسكه بالسنة وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ــ فأخرجوه من بلاد المغرب بالقيد والزند الى مصر ، وشهدوا عليه عند السلطان بكلمات من كلمات القوم ، فأقر بها وأصر عليها ، فأمر بسلخه حيا منكوسا ، ففعل به ذلك ، فصار ــ وهو كذلك ــ يقرأ القرآن ، وأنكروا على أبي القاسم النصرآباذي مع علمه وصلاحه ، وزهده واستقامة طريقه ، واتباعه للسنة ، ونفوه الى مكة ، فلم يزل فيها حتى مات ، وقاموا على أبي عبد الله السجزي صاحب الفوائد الحديثية وأخرجوه ونفوه ، وقاموا على ابن سمعون الواعظ وآذوه وضربوه ومنعوه من الجلوس للوعظ في الجامع ، فانقطع في بيته حتى مات ، فمنعوا الناس من حضور جنازته مع كماله وجلالته ، وطعنوا علي أبي القاسم ابن جميل ورموه بالعظائم ، فلم يتزلزل عما هو فيه من الاشتغـال بالفقه والحديث وصيام الدهر والتزهد والتعبد حتى مات ، وآذوا الامام أباالحسن الشاذلي وأخرجوه من بلاد المغرب باتباعه ، ثم كاتبوا نائب الاسكندرية بأنه زنديق فاحذروا منه على أنفسكم وأهل بلدتكم ، ووشوا به الى السلطان ، فحج في جماعته وكان الحج قد انقطع لكثرة قطاع الطريق ، فما رأوا الا خيرا ، فاعتقده النـاس وعظموه وأجمعوا عليه حينئذ ، وقتلوا الحلاج ، والامام أبا القاسم ابن قسي صاحب كتاب خلع النعلين ، وابن برجان صاحب التفسير المشهور ، والجرجاني ، مع كونهم أئمة يقتدى بهم ، ولما قام عليهم الحاسدون عجزوا عن أن يثبتوا عليهم مايوجب القتل ، فحملوا عليهم الحيلة ، وقالوا للسلطان انه خطب لابن برجان من نحو مائة وثلاثين بلدا فأمر بقتلهم ، وقاموا على العفيف التلمساني صاحب التآليف المشهورة وقالوا هو لحم خنزير في صحن صيني وضربوه ونفوه ، وعقدوا للشيخ عز الدين ابن عبد السلام عدة مجالس بسبب كلمة قالها في العقائد ولطف الله به وظفره ، وغيروا السلطان بيبرس على قاضي القضاة ابن بنت الأعز بعدما كان بينهما من كمال المودة

حتى أمر بشنقه ثم أمده الله بلطفه في حكاية طويلة ، وكان الشيخ عمارة اليمني متضلعا من الفقه والحديث وغيرهما فأغروا به السلطان صلاح الدين وقالوا انه هجـاك بقصيدة ، فلم يتغير السلطان لما كان عليه من مزيد الحلم ، حتى قالـوا انه ينتقص النبي صلى الله عليه وسلم في شعـره ، ولم يثبت عليه ذلـك ، بل أنكـر أن تلك القصيدة التي ذكر ذلك فيها من نظمه ،فحسن له القاضي الفاضل قتله فقتله،وحسدوا شيخ الاسلام ابن أبي شريف ، وانتهزوا الفرصة باغراء السلطان عليه حتى تشوش منه بسبب افتائه بعدم جواز قتل امرأة ورجل أجنبيين وجدا في خلوة فهم بالبطش به ، ثم شنق المرأة والرجل على باب داره ، وأمره بالخروج من البلد الى بلده بيت المقدس ، فوافق ذلك قدوم الخبر بأن السلطان سليم قـدم الى حلب يريـد غزوه فاشتغل بنفسه ، الى غير ذلك من الوقائع التي لايمكن حصرها ، ولا يضيع الله حقا لأحد ، والله عند قول كل قائل ، فليتق الله عبد ولينظر مايقول ، هذا كله من كتاب (احياء القلوب) للرافعي ، وبه يعلم مافي كلام النبهاني من الخلل ،حيث جعل سكوت العامة عن ابن حجر دليلا على علو قدره وجلالة شأنه ، ويفهم منه أن عدم رضاهـم دليل الجهل وعدم العدالة .

ومقصوده من ذلك كله الحط على ابن تيمية بسبب ما كان من الجهلة في شأنه، ومعاداة الغلاة له . (يُريدُونَ أن يُطفِئُوا نورَ اللهِ بأَفواهِهم ويأْبي اللهُ إلّا أَنْ يتمَّ نورَهُ ولو كَرِهَ الكافِرونَ)[1]

(الوجه السابع) أن قول النبهاني : وقد كان رحمه الله مع كونه اماما فقيهـا يعتقد في ساداتنا الصوفية أحسن الاعتقاد ، ويثني عليهم أحسن الثناء ، ويجيب عنهم بأحسن الأجوبة ، فشملته بركاتهم وعمته نفحاتهم : لايستوجب ترجيح صاحبه على مجتهدي الأمة وأكابر العلماء ، والمسلمون كلهم يعتقدون الخير في الصوفية المتبعين لما جاء الرسول به ، لا المتبعين لاهوائهم المبتدعين ، ولا سيما شيخ الاسلام فقد كان رضي الله عنه من أكابر الصوفية والزهاد ، وقد بين في كتابه (الفرقان بين أوليـاء الشيطان وأولياء الرحمن) ماينشرح به صدر كل موحد ، وليس كل من ادعى أنه صوفي يسلم له الزهد والورع ، لاسيما صوفية هذا العصر فانهم ذئاب ، عليهم من جلود الشياه ثياب ، كما نسمع عن شيخ مبتدعة الرفاعية في دار السلطنة ، فانه قـد

(١) التوبة : ٣٨

فاق على ابليس في مكره وحيله ، وخبثه وزندقته ، وكما نسمع عن شيخ القادرية في بغداد ممن ينتسب الى الكيلاني ، ويرشدون الناس ، وعندهم خاتم كبير يختمون به مايعطونه لمن يسلك عليهم ، مكتوب فيه لا اله الا الله (عبد القادر شي لله) وقد كفروا بذلك كما ذكره فقهاء السادة الحنفية ، ففي منظومة ابن وهبان :

بدرويش درويشان كفر بعضهم كذا قول شي لله بعض يكفر

والنقيب وأولاده وسائر أفراد عائلتهم هم أعظم الناس بلاء على الأمة ، ليست معصية في الدنيا الا وقد استباحوها ، وكبيرهم النقيب بل الذيب ، هو بريد الشر على العراق ، وهم ارفاض زنادقة ، يسبون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم علنا ، ويشربون الخمور ، ويتعاطون كل منكر ، وعسى الله يعين على افراد كتاب نبسط فيه أحوال هؤلاء الزنادقة وتحذير المسلمين منهم ، هؤلاء شيوخ صوفية عصرنا والأمر لله .

وابن حجر ان عظم أمثال هؤلاء الفجرة فهو لاشك من أعداء الله ، وان أحسن الاعتقاد فيمن تبع منهم الشريعة الغراء فكل المسلمين والعلماء العاملين كذلك ، فلا مزية له على غيره ، وقد ذكر في كتابه (التعرف في الأصلين والتصوف) مايوافق ماذكرناه ، حيث قال : وطريق أبي القاسم الجنيد سيد الطائفة طريق مقوم ، لأنه خال من البدع ، ، دائر على التسليم والتفويض ، والتبري من النفس والتوحيد بالحق ، وما وقع في كتب جمع من متأخري الصوفية — كابن عربي وأتباعه بحق وهم الأقلون — يجب تجنب ظواهره الموهمة لما لايحل اعتقاده ، بل لما هو كفر في كثير منها ، كما وقع ذلك في فصوص الحكم والفتوحات المكية وغيرهما ، لكنهم جارون على اصطلاحهم سترا له عن دعاة الباطل ، والا فهم على الحق المبرأ عن وصمة الحلول والاتحاد وغيرهما من الوصمات التي نسبها اليهم من لم يحط بحقيقة أحوالهم ، أو التي يعتقدها عن حقيقة طريقهم فنسبها اليهم زعما أنه متأس بهم ، حاشاهم الله من ذلك .

ثم قال : وما أحسن ماحققه بعض المحققين نصرة للأولين حيث قال ما حاصله — مع مافيه من عبارات غير مراد بها ظاهرها — من انتهى في سلوكه الى الله تعالى وفيه استغرق في بحر التوحيد والعرفان ، فحينئذ تضمحل ذاته في ذاته ، وصفاته في صفاته ويغيب عنه كل ماسواه ، فلا يرى في الوجود الا الله تعالى ، وهذا هو الذي يسمونه الفناء في التوحيد ، واليه يشير الحديث الالهي : (لايزال عبدي يتقرب اليّ بالنوافل حتى

أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فلئن سألني لأجيبنه ، ولئن استعاذني لأعيذنه) وفي الحديث القدسي أيضا عتابا يوم القيامة لبعضهم : (مرضت فلم تعدني ، جعت فلم تطعمني ، عطشت فلم تسقني ، فيقول : كيف ذلك وأنت رب العالمين ؟ فيقول تعالى : مرض عبدي فلان فلم تعده ، جاع عبدي فلان فلم تطعمه ، عطش عبدي فلان فلم تسقه) الحديث ، وحينئذ فربما يصدر عن الولي عبارات تشعر بالحلول والاتحاد لقصور العبارة عن بيان تلك الحال ، وتعذر الكشف عنها بالمثال ، ونحن على ساحل التمني نغترف من بحر التوحيد بقدر الامكان ، ونعترف بأن طريق الفناء فيه العيان دون البرهان ، انتهى •

فقد صرح أن مافي كتب ابن عربي كفر يجب تجنب ظواهره ، فالفقيه اذا سمع من أحد كلمة كفر لاشك فيها يجب عليه الافتاء على مقتضى مايعلمه من الشريعة الغراء ، وقد أطنب العلامة محمد أمين السويدي رحمه الله الكلام في شرحه على التعرف ، الذي سماه (قلائد الدرر في شرح رسالة ابن حجر) وأتى في هذا المقام بما يشفى السقام ، وكذا العلامة صاحب التعطف على التعرف فعليك بهما •

(والمقصود) أن من اتبع الشريعة الغراء ولم يبتدع في أقواله ولا أعماله يجب على كل مسلم حبه والذب عنه والترحم عليه ، ومن خالف الشريعة وتكلم بالكفر المصادم للشريعة والمخالف لنصوصها وبدل وحرف وغير وابتدع وترك ماكلف به ــ كغالب المدعين أنهم شيوخ العصر ــ فهجرهم وتضليلهم وتفسيقهم وتبديعهم واجب على كل مسلم ، ولا يمدح من يكون ظهيرا لمثل هؤلاء (رَبِّ بما أنعمتَ عليَّ فلنْ أكونَ ظَهيراً للمُجرمينَ)[1]

(الوجه الثامن) أن النبهاني شدد النكير أيضا في هذا المقام على شيخ الاسلام من غير جرم جناه ، سوى اخلاصه في التوحيد ، وذم كتبه ، وقال : انها عديمة البركة ومن جملة قدحه فيه : أنه حبس مرارا الى أن توفي في الحبس ولم يرجع عما ظهر له أنه الحق من تلك البدع •

(فنقول) انا قد تكلمنا على مثل هذا الكلام مرارا ، وبينا زيغ النبهاني فيه ، وأن هذا رفض منه بسبب غلوه في محبة أصحابه ومشائخه ، حتى أصمه عن سماع

(١) القصص : ١٧

الحق وأعماه عن رؤية الحق ، على مقتضى المثل السائر : (حبك الشيء يعمي ويصم)، وسبق منا قريبا مانقلناه عن احياء القلوب في بيان ماأصاب الأولياء والأصفياء من أذى الناس ، وأن ذلك كان دليلا على علو شأن من ابتلاه الله بمثل ذلك .

وللشيخ تقي الدين ابن تيمية رسالة كتبها وهو في السجن الى بعض اخوانه لما أرسلوا اليه يشيرون عليه بالرفق مع خصومه ليتخلص من السجن .

ولنذكر شيئا منها توضيحا للمقام ، فأقول : قال رحمه الله بعد البسملة :

الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا ، صلى الله عليه وسلم تسليما .

أما بعد : فقد وصلت الورقة التي فيها رسالة الشيخين الجليلين العالمين الناسكين القدوتين ، أيدهما الله تعالى وسائر الاخوان بروح منه ، وكتب في قلوبهم الايمان ، وأدخلهم مدخل صدق ، وأخرجهم مخرج صدق ، وجعل لهم من لدنه مايتم به السلطان ، سلطان العلم والحجة بالبيان والبرهان ، وسلطان القدرة والنصرة بالسنان والأعوان ، وجعلهم من أوليائه المتقين ، وحزبه الغالبين لمن ناواهم من الأقران ، ومن الأئمة المتقين الذين جمعوا بين الصبر والايقان ، والله محقق ذلك ومنجز وعده في السر والاعلان ، ومنتقم من حزب الشيطان لعباد الرحمن ، لكن اقتضت حكمته ومضت به سنته من الابتلاء والامتحان ، الذي يميز الله به بين أهل الصدق والايمان ، من أهل النفاق والبهتان ، اذ قد دل كتابه على أن لابد من الفتنة لكل من ادعى الايمان ، والعقوبة لذوي السيئات والطغيان ، فقال تعالى : (آلم أحسبَ النَّاسُ أن يُتركُوا أنْ يقولوا آمنَّا وهُم لا يُفْتَنُونَ . ولقد فتنا الَّذينَ مِن قَبلهم فَليعلمنَّ اللهُ الَّذينَ صدقوا وليعلمن الكَاذبينَ . امْ حسبَ الذين يعملُون السَّيئاتِ أنْ يَسْبقُونَا سَاء ما يحكُمُونَ) [1] فأنكر سبحانه على من يظن أن أهل السيئات يفوتون الطالب الغالب ، وأن مدعي الايمان يترك بلا فتنة تميز بين الصادق والكاذب ، وأخبر في كتابه أن الصدق بالايمان لايكون الا بالجهاد في سبيله

(١) العنكبوت : ١ ـ ٤

فقال تعالى : (قالت الأعرابُ آمنَّا قُلْ لم تؤْمِنُوا ولـكن قولُوا أسْلَمنا)[1]
الى قوله : (إنَّما المؤْمنُونَ الَّذين آمنُوا باللهِ ورَسُوله ثمَّ لم يرْتابوا وجَاهدُوا بأَمـوالِهِم وأنفُسِهِم في سَبيلِ الله أُولئكَ هُم الصَّادقُونَ)[2]
وأخبر سبحانه بخسران المنقلب على وجهه عند الفتنة ، الذي يعبد الله فيها على حرف ، وهو الجانب والطرف الذي لايستقر ماهو عليه ، بل لايثبت على الايمان الا عند وجود مايهواه من خير الدنيا ، فقال تعالى : (ومنَ النَّاس منْ يعبُد اللهَ على حَرفٍ فإن أَصابهُ خَيرٌ اطْمَأَنَّ به وإن أَصابتْهُ فتنةٌ انقَلَبَ عَلى وجهِهِ خَسِرَ الدّنيا والآخِرةَ)[3] وقال تعالى : (أَمْ حَسبتُم أَن تدخُلو الجنَّة و لَمَّا يعلَمِ اللهُ الَّذينَ جاهَدوا منْكُم ويَعلَمَ الصَّابرِينَ)[4] وقال تعالى : (ولَنَبلُوَنَّكُم حَتَّى نعلَمَ المجَاهِدينَ مِنكُم والصَّابرِينَ ونبلُوَ أَخبارَكُم)[5] وأخبر سبحانه أنه عند وجود المرتدين فلا بد من وجود المحبين المحبوبين المجاهدين فقال تعالى : (ياأَيُّها الَّذين آمنُوا من يرْتَدَّ منْكُم عن دِينهِ فَسوفَ يأْتي اللهُ بقَومٍ يُحبُّهم ويُحبُّونه)[6] (وهؤلاء) الشاكرون لنعمة الايمان الصابرون على الامتحان ، كما قال تعـالى : (ومَا مُحمدٌ إلّا رَسُولٌ قدْ خَلتْ مِن قبلِهِ الرُّسُلُ أَفإنْ ماتَ أَو قُتلَ انقلَبتُم عَلى أَعقَابكُم)[7]

فاذا أنعم الله على انسان بالصبر والشكر كان جميع مايقضي الله له من القضاء خيرا له ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لايقضي الله للمؤمن قضاء الا كان خيرا له : ان أصابته سراء فشكر كان خيرا له ، وان أصابته ضراء فصبر كان خـيرا لـه) .

والصابر الشكور هو المؤمن الذي ذكره الله في غير موضع من كتابه ، ومن لم ينعم الله عليه بالصبر والشكر فهو بشر حال ، وكل واحد من السراء والضـراء في

---

(١) الحجرات : ١٤ ـ (٢) الحجرات : ١٥ ـ (٣) الحج : ١١ ـ (٤) آل عمران : ١٤٢ ـ (٥) محمد : ٣١
(٦) المائدة : ٥٤ ـ (٧) آل عمران : ١٤٤

حقه تفضى به الى قبح المآل ، فكيف اذا كان ذلك في الأمور العظيمة التي هي من محن الأنبياء والصديقين ، وفيها تثبيت أصول الدين ، وحفظه الايمان والقرآن من كيد أهل النفاق والالحاد والبهتان ، فالحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى ، وكما ينبغي لكرم وجهه ، وعز سلطانه وجلاله ، والله المسؤول أن يثبتكم وسائر المؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويتم نعمته عليكم الباطنة والظاهرة ، وينصر دينه وكتابه ورسوله وعباده المؤمنين على الكافرين والمنافقين ، الذين أمرنا بجهادهم والأغلاظ عليهم في كتابه المبين ، انتهى كلامه .

وبه يعلم أن ماصادفه الشيخ من الأذى والمصائب في ذات الله مما يستوجب رفعة شأنه لا القدح فيه كما زعمه الزائغ .

(الوجه التاسع) مما يرد على ماقاله النبهاني في هذا المقام أن قوله أن الله لم يقدر الانتفاع بعلم ابن تيمية وكتبه كالانتفاع بعلم ابن حجر وكتبه ، وان كتب ابن تيمية بقيت في زوايا الاهمال الخ ــ ممنوع ، بل هو يشبه كلام الصبيان والأطفال ، وقد تكرر منه مثل هذا الكلام مرارا وأجبنا عنه بما يشفي صدور المؤمنين ، ونقول هنا أيضا : بلى ان الله تعالى قدر ــ وله الحمد ــ الانتفاع بعلمه وبكتبه في كل عصر ، وأودع فيها البركة ، حيث أنها تشرح صدور مطالعيها وتنور قلوبهم ، بسبب ماشتملت عليه من العلوم النبوية والوحي المنزل ، وهي شفاء لصدور المؤمنين ، وهي لأعين المبتدعين عمى ، ولا زال أهل مذهبه يستفيدون منها ، وكذلك المنصفون من سائر المذاهب ، والشيخ ــ قدس الله روحه ــ لم يضمن في مصنفاته أن يفقه كلامه ميت القلب ، جامد الذهن ، فاسد القريحة ، ولسان حاله يقول :

علي نحت القوافي من معادنها ... وما علي اذا لم تفهم البقر

بل ولا ضمن الله تعالى لهذا النوع أن يفقهوا عنه وعن رسله ماجاؤا به من الهدى ، وينتفعوا بما جاؤا به من البينات ودين الحق والحجة والشفاء ، قال تعالى : (إنا جَعلنَا عَلى قلُوبهِم أَكِنَّة أنْ يفقَهوهُ وفي آذانِهم وقْراً) [1] وقال تعالى : إنا جَعَلنا في أعنَاقهِم أغْلالاً فهِي الى الأَذقَانِ فهُم مُقْمَحُونَ . وَجعلْنَا مِنْ بينِ أيديهِم سَدّاً ومِن خَلفِهم سَدّاً فأغْشَيْنَاهُم فَهم لا يُبصِرُونَ) [2]

(1) الكهف : ٥٧ ــ (2) يس : ٨ ، ٩

وما أحسن ماقيل :

فيالك من آيات حق لو اهتـــدى   بهن مريـد الحـــق كن هواديـا
ولـكن على تلـك القلـوب أكنة   فليست وان أصغت تجيب المناديا

وقال تعالى : (ولَو عَلِمَ اللهُ فِيْهم خَيراً لأَسْمَعَهُم ولَو أَسْمَعَهُم لتَولَّوا وهُم مُعْرِضُونَ).[1]

وأما كتب ابن حجر التي فرح بها هذا الزائغ فانها لاتصلح عند من له بصيرة ونظر لغير العطار والاسكاف ، فهي اما مزاود للعقاقير ، واما بطائن للخفاف ، حيث أنها قشور لا لب فيها ، وهكذا كتب السبكي وابنه ، وفي المثـل : رمتني بدائهـا وانسلت •

ونقول ثانيا انا لو سلمنا مازعمه الزائغ أنها بقيت في زوايا الاهمال الى آخـر ماقال فأي ضرر وعيب يلحقها ؟ ولا يخل مثل ذلك بشأنها :

ليس الخمـول بعـــار   على امريء ذي كمـــال
فليـلة القـدر تخفـى   وتلـك خـير الليـالي

وفضل العلم أشهر من أن ينبه عليه ، وأظهر من أن يشار اليه ، ولا ينقص من أمره فقدان العارفين بقدره ، فلا يسلب الدرة النفيسة ثوب النفاسة جهل الفحام بها والقاؤه اياها على الكناسة ، وقد كان الله تعالى وهو القديم جل علاه كنزا مخفيـا أي لاعارف به سواه ، فهل نقص ذلك من جلاله شيئا ؟ لا والله ، فالله قبل العالـم والعالم وبعدهما لم يتفاوت جلاله وعلاه ، وهذا مجمل ما قال بعض ذوي العرفان ، وهو سبحانه الآن على ما عليه كان •

ثم ان هذا الزائغ لو سئل عن كتب امامه أين بقيت فماذا يجيب وهو يعلـم علما يقينا أن كتاب (هز القحوف شرح قصيدة أبي شادوف) قد انتشرت نسخه في البلاد والأقطار انتشارا لم يتفق مثله لكتب امامه ، ولو استقـريت خزائن الكتب ماوجدت من كتاب (الأم) الا نسختين أو ثلاث نسخ ، ربما لم تكن سـالمة من الخروم ، وأكل الأرضة ، ولو لم تسمح المطابع المصرية بطبعها لم يرها هذا الزائـغ حتى يلج الجمل في سم الخياط ، أفيقال ان الله لم يقدر الانتفاع بها وقدر الانتفاع بكتاب هز القحوف ونحوه •

---

(١) الانفال : ٢٣

ونسأله أين بقيت كتب الشافعي وأصحابه المتقدمين ؟ وأين كتب المجتهدين كالمذاهب الأربعة وغيرهم ، وكتب أصحابهم ؟ وأين كتب الأندلسيين وقد كان منها في خزانة كتب الناصر لدين الله مابلغ أسماؤها أربعين مجلدا ؟ وأين الكتب التي كانت في خزائن العباسيين وخزائن مدارس بغداد ؟ وأين كتب المدرسة النظامية ؟ وأين كتب المدرسة المستنصرية ؟ وأين الكتب المذكورة في تراجم مصنفيها مما لايستوعبها البيان ولا يستقصيها اللسان ؟

أفيقال ان مصنفي هذه الكتب كانوا أهل بدعة فلم يقدر الله الانتفاع بها بل بقيت في زوايا الاهمال أو أنها تلفت ، وان كتب ابن حجر هي كنوز السعادة فلذلك ترى الناس يتداولونها ؟ لا أرى من يقول بذلك الا من أصيب بعقله ، وتاه في بيداء جهله ، بل لاأرى حرمان المسلمين من كتب المتقدمين الا من جملة مصائبهم ونوائبهم، ولذلك كثر الجهل في بلاد المسلمين لسوء عملهم ، ونقصان تربيتهم وتعلمهم ،وقصور كتبهم المتداولة ، وأن غالبها كتب الاعاجم .

ونقول ثالثا : ان كتب الشيخ بحمد الله محفوظة عند أهلها من أهل الحديث وناصري السنة ، واتباع الامام أحمد نضر الله وجهه في الهند وبلاد نجد ومصر والشام والعراق ، وهذه هي الكتب التي لانظير لها ، وانها مما يتنافس بها المتنافسون فليت شعري أي كتاب فقد منها ولم يوجد منه نسخ كثيرة ، وليت هذا الزائغ راجع دفاتر خزائن دار السلطنة المحروسة ، ودفاتر خزائن كتب مصر الخديوية وغيرها ، وخزائن كتب الشام والعراق والهند وغير ذلك ، حتى لايهذي ذلك الهذيان ، وأظنه رأى بياضا في مواضع من كتاب (المنهاج) وكتاب (العقل والنقل) فقال ماقال ، مع أن عددا كثيرا من كتاب (المنهاج) في خزائن كتب دار السعادة وكلها بأحسن خط وأتقن ضبط ، وفي الهند ونجد مثل ذلك ، وكتاب (العقل والنقل) أيضا كذلك، وفي خزانة راغب باشا في قسطنطينية المحروسة نسخة منه ، يظن أنها بخط مؤلفها ، وهي نسخة تامة كاملة لانقص فيها .

والذي طبع كتاب (المنهاج) ومافي الحاشية لم يتيسر له سوى ماطبع عليها ، واني أبشر جناب الشيخ النبهاني أن كتب الشيخ تقي الدين وأصحابه ستستوعبها المطابع المصرية والهندية ولا يبقى منها شيء في زوايا الاهمال كما زعم ، وحينئذ يرغم أنفه .

ونقول رابعا : ان انتشار الكتب وتداولها بين الأيدي لاتعلق له ببدعة ولا سنة فكم

قد رأينا كتابا مشحونا بالبدع ومصنفه من شيوخ المبتدعة ومع ذلك قد انتشر أكثر من انتشار كثير من كتب السنة ، هذا (الكشاف) الذي صنفه الزمخشري وحاله معلوم في الاعتزال وتفسيره مشحون ببدع المعتزلة وآرائهم ومع ذلك قد انتشر انتشارا لم يعهد مثله لتفسير آخر ، والناس يستفيدون منه وينقلون عنه من عصر مصنفه الى يومنا هذا ، والمفسرون الذين بعده كلهم عيال عليه ، فأي تأثير للبدعة في انتشار الكتب وعدم انتشارها ، وهذا كتاب (المفتاح)للسكاكي المعتزلي لم يزل أهل العلم يستفيدون من فوائده ويقرؤونه من عصر مصنفه الى الآن ، وقد عمت بركته القاصي والداني ، وفيه من نزغات المعتزلة وبدعهم مافيه ولم يصادم ذلك انتشاره ، وهذه كتب الماوردي ، وهو امام من أئمة الشافعية ، وكان على طريقة أهل الاعتزال ، وكتبه عم النفع بها وكثرت بركتها ، فهلا اقتضت بدعة مصنفها بقاءها في زوايا الخمول ، وهكذا كتب الروافض ، والزيدية ، والقدرية ، والظاهرية ، وكتب الجاحظ المعتزلي الشهير ، وغيرها مما ليس هذا المقام مقام استقصائه •

(والمقصود) أن كلام النبهاني في حق كتب الشيخ تقي الدين لا وجه له ، بل هو دليل على جهله ، وتعصبه للباطل ، واتباعه لهواه ، وان قوله هذا لايصدر عن طفل مبتديء في العلم ، ولكن الله تعالى سبحانه فضحه بسبب تطاوله على خير عالم في الزمان الأخير ، ولم يلتفت الى ماهو فيه من المسلك والحال الذي ينبغي أن يرثي له من يشفق عليه ، وباقي كلامه من هذا القبيل ، فلا تتعب البنان بالتطويل ، وأعقب كلامه هذا بكلام ذكر فيه التحذير من موافقة ابن تيمية ، ثم اعقبه بكلام ذكر فيه أنه ينبغي حمل أقوال هؤلاء من الجانبين على حسن النية ، وبقي يخبط خبط عشواء فهو (كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) ، وكل ذلك باد عواره لأقل من له بصيرة ونظر ، على أنه قد تكرر منا ابطاله ، والله ولي الهداية والتوفيق •

(قال النبهاني عامله الله بعدله) الباب السادس : في نقل حكايات وآثاروردت عن العلماء والصالحين في الفوائد التي حصلت لهم من الاستغاثة بسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، قال : أخذت ذلك مما نقله الثقات ، وذكره الأئمة الثلاثة الاثبات ، أبو عبد الله ابن النعمان الفاسي في كتابه مصباح الظلام ، والقسطلاني في كتابه المواهب اللدنية ، ونور الدين الحلبي في كتابه بغية الاحلام ، وغيرهم ، وذكر في الفصل الأول من هذا الباب من استغاث به صلى الله عليه وسلم للمغفرة وغيرها ،

وذكر فيه قصة الاعرابي الذي قال :

ياخير من دفنت في القاع أعظمـــه	فطاب من طيبهـن القاع والأكـم
نفسى الفـــداء لقبر أنت ساكنه	فيه العفاف وفيه الجود والكـرم

وذكر قصصا أخرى منهذا القبيل ، وذكر في الفصل الثاني من استغـاث به صلى الله عليه وسلم من الأسرى ونحوهم ممن انقطع في البراري والبحار ، أو وقع في غير ذلك من الشدائد والاسقام ، وما أشبه ذلك منخوارق عاداته بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، وذكر في هذا الفصل حكايات كثيرة عن أناس استغاثوا بالنبيصلى الله عليه وسلم في حاجات كثيرة ، فقضيت لهم ، وكذلك استغاثوا ببعض الصالحين فحصل مقصودهم ، ونقل عن الشيخ أحمد الرفـاعي أنه قـال من كان له حاجـة فليستقبل عباذان نحو قبري ويمشي سبع خطوات ويستغيث بي فان حاجته تقضى ، الى غير ذلك من الخرافات التي يستقل لديها ما كان المشركون يفعلونه مع أصنامهم .

(والجواب عن ذلك كله) ماذكره شيخ الاسلام تقي الدين قدس الله روحه في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أهل الجحيم) بعد أن ذكر نحو تلك الشبه والحكايات عمن استدل بها من الغلاة ، قال رحمه الله : انما يضع مثل هذه الحكايات من يقل علمه ودينه ، وأما أن يكون المنقول من هذه الحكايات عن مجهول لايعرف ونحن لو روي لنا مثل هذه الحكايات المسيبة أحاديث عمن لاينطـق عن الهوى لما جاز التمسك بها حتى تثبت ، فكيف بالمنقول عن غيره ، ومنها ما قد يكون صاحبه قاله أو فعله باجتهاد يخطيء أو يصيب ، أو قاله بقيود وشروط كثيرة على وجه لامحذور فيه فحرف النقل عنه ، كما أن النبي صلى الله عليه وسلـم لما أذن في زيارة القبور بعد النهي فهم المبطلون أن ذلك هو الزيارة التي يفعلونها ، من حجهـا للصلاة عندها والاستغاثة بها ، ثمسائر هذهالحجج دائرة بيننقل لايجوز اثباتالشرع به أو قياس لايجوز استحباب العبادات بمثله ، مع العلم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يشرعها ، وتركه مع قيام المقتضي للفعل بمنزلة فعله ، وانما يثبت العبادات بمثل هذه الحكايات والمقاييس ــ من غير نقل عن الأنبياء ــ النصارىوأمثالهم،وانما المتبع في اثبات أحكام الله عز وجل كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلـم وسبيل السابقين الأولين ، لايجوز اثبات حكم شرعي بدون هذه الأصول الثـلاثة نصا أو استنباطا بحال .

قال :والجواب عنها من وجهين مجمل ومفصل :

(أما المجمل) فالنقض ، فان اليهود والنصارى عندهم من الحكايات والقياسات من هذا النمط كثير ، بل المشركون الذين بعث اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يدعون عند أوثانهم فيستجاب لهم أحيانا كما يستجاب لهؤلاء أحيانا ، وفي وقتنا هذا عند النصارى من هذا طائفة ، فان كان هذا وحده دليلا على أن الله تعالى يرضى ذلك ويحبه فليطرد الدليل ، وذلك كفر متناقض ، ثم انك تجد كثيرا من هؤلاء الذين يستغيثون عند قبر أو غيره كل منهم قد اتخذ وثنا أحسن به الظن وأساء الظن بآخر ، وكل منهم يزعم أن وثنه يستجاب عنده ولا يستجاب عند غيره ، فمن المحال اصابتهم جميعا ، وموافقة بعضهم دون بعض تحكم وترجيح بلا مرجح ، والتدين بدينهم جميعا جمع بين الأضداد ، فان أكثر هؤلاء انما يكون تأثرهم فيما يزعمون بقدر اقبالهم على وثنهم وانصرافهم عن غيره ، وموافقتهم جميعا فيما يثبتونه دون ماينفونه يضعف التأثير على زعمهم ، فان الواحد اذا أحسن الظن بالاجابة عند هذا وهذا لم يكن تأثيره مثل تأثير الحسن الظن بواحد دون آخر ، وهذه كلها من خصائص الأوثان .

(ثم ذكر رحمه الله الجواب المفصل) وأطنب فيه كما هي عادته ، ومما قال فيه : وأما التحريم من جهة الطلب فيكون تارة لأنه دعاء لغير الله ، مثل مايفعله السحرة في مخاطبة الكواكب وعبادتها ونحو ذلك ، فانه قد يقضي عقب ذلك أنواع من القضاء اذا لم يعارضه معارض من دعاء أهل الايمان وعبادتهم أو غير ذلك ، ولهذا تنفذ هذه الأمور في زمان فترة الرسل وفي بلاد الكفر مالا تنفذ في دار الايمان وزمانه ، ومن هذا أني أعرف رجالا يستغيثون ببعض الأحياء في شدائد تنزل بهم فتنفرج عنهم ، وربما يعاينون أمورا وذلك المستغاث به لم يشعر بذلك ولا علم به البتة ، وفيهم من يدعو على أقوام ويتوجه في ايذائهم فيرى بعض الأحياء أو بعض الأموات يحول بينه وبين ايذاء أولئك ، وربما رآه ضاربا له بالسيف ، وان كان الحائل لاشعور له بذلك ، وانما ذلك من فعل الله بسبب يكون بين المقصود وبين الرجل الدافع من اتباع له وطاعة فيما يأمره من طاعة الله ونحو ذلك ، فهذا قريب ، وقد يجري لعباد الأصنام أحيانا من هذا الجنس المحرم مايظنونه محبة من الله بما تفعله الشياطين لاعوانهم ؛ فاذا كان الأثر قد يحصل عقب دعاء من قد تيقنا أنه لم يسمع الدعاء فكيف يتوهم أنه هو الذي تسبب في ذلك أو أن له فيه فعلا ؟ واذا قيل ان الله يفعله بذلك السبب فاذا كان السبب محرما لم يجز كالأمراض التي يحدثها الله عقب أكل السموم ،

وقد يكون الدعاء المحرم في نفسه دعاء لغير الله أن يدعو الله ، كما قال النصارى ياوالدة الاله اشفعي لنا الى الاله ، وقد يكون دعاء لله لكنه توسل اليه بما لايحب أن يتوسل به ، كالمشركين الذين يتوسلون الى الله بأوثانهم ، وقد يكون دعاء لله بكلمات لايصلح أن يناجي بها الله ويدعي بها لما في ذلك من الاعتداء ، فهذه الأدعية ونحوها وان كان قد يحصل لصاحبها أحيانا غرضه ولكنها محرمة لما فيها من الفساد الذي يربي على منفعتها ، ولهذا كانت هذه فتنة في حق من لم يهده الله وينور قلبه ، ويفرق بين أمر التكوين وأمر التشريع ، ويفرق بين القدر والشرع ، ويعلم أن الأقسام ثلاثة :

أمور قدرها الله وهو لايحبها ويرضاها ، فان الأسباب المحصلة لهذه تكون محرمة موجبة لعقابه •

وأمور شرعها ، فهو يحبها من العبد ويرضاها ، لكن لم يعنه على حصولها ، فهذه محمودة عنده مرضية وان لم توجد •

والقسم الثالث : أن يعين الله العبد على مايحبه منه •

فالأول اعانة الله ، والثاني عبادة الله ، والثالث جمع له بين العبادة والاعانة كما قال : (إِيَّاكَ نَعبدُ وإِيَّاكَ نستَعين) فما كان من الدعاء عين المباح اذا أثر فهو من باب الاعانة لا العبادة ، كسائر الكفار والمنافقين والفساق ، ولهذا قال تعالى في مريم : (وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّها وكُتُبِهِ) [1] وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بكلمات الله التامات التي لايجاوزهن بر ولا فاجر •

ومن رحمة الله تعالى أن الدعاء المتضمن شركا كدعاء غيره أن يفعل ودعائه أن يدعو أو نحو ذلك لايحصل غرض صاحبه ، ولا يورث حصول الغرض من شبهة الا في الأمور الحقيرة ، فأما الأمور العظيمة : كانزال الغيث عند القحوط ، أو كشف العذاب النازل ، فلا ينفع فيه هذا الشرك ، كما قال تعالى : (قُل أَرأَيتَكُم إِنْ أَتاكُم عَذَابُ اللهِ أَو أَتتكُمُ السَّاعَةُ أَغيرَ اللهِ تدْعُونَ إِنْ كُنتُم صَادِقين. بَل إِيَّاهُ تَدعُونَ فيكْشِفُ مَا تدْعُونَ إِليهِ إِنْ شاءَ وتنْسُونَ ما تُشرِكُونَ) [2]

---

(١) التحريم : ١٢ ـ (٢) الانعام : ٤٠ ، ٤١

وقال تعالى : (وإذا مَسَّكُم الضُّرُ في البحرِ ضَلَّ مَن تدعُونَ إلا إِيَّاهُ فلمَّا نَجاكُم إلى البرِّ أَعْرضتُم وكانَ الإنسانُ كَفوراً)[1] وقال تعالى : (أَمَّنْ يُجيبُ المضطَرَّ إذا دعاهُ ويَكْشِفُ السُّوءَ ويَجعلُكُم خُلفَاءَ الأَرضِ)[2]

وقال تعالى : (قُل ادعو الَّذينَ زَعمتُم مِن دُونهِ فلا يَملكُونَ كَشْفَ الضُّرِ عَنكُم ولا تَحويلاً . أُولئكَ الَّذين يدعُونَ يبتَغُونَ إلى رَبِّهم الوسِيلَةَ أيُّهُم أَقربُ ويَرجُونَ رحمَتَهُ ويخافُونَ عذابه إنَّ عذَابَ ربِّكَ كانَ مَحْذُوراً)[3]

وقال تعالى : (أَم اتَّخذُوا مِن دُونِ اللهِ شُفعاءَ قُل أَولَو كانُوا لا يَملكونَ شَيئاً ولا يعقلُونَ قُل للهِ الشَّفاعةُ جَميعاً)[4].

فكون هذه المطالب العظيمة لايستجيب فيها الا الله سبحانه دل على توحيده وقطع شبهة من أشرك به ، وعلم بذلك أن مادون هذا من الاجابات أيضا انما فعله هو وحده لاشريك له وان كانت تجري بأسباب محرمة أو مباحة ، كما أن خلقه السموات والأرض والرياح والسحاب وغير ذلك من الأجسام العظيمة دل على وحدانيته وأنه خالق لكل شيء ، وأن مادون هذا بأن يكون خالقا له أولى ، اذ هو منفعل عن مخلوقاته العظيمة ، فخالق السبب التام خالق للمسبب لامحالة .

وجماع الأمر : أن الشرك نوعان : شرك في ربوبيته بأن يجعل معه لغيره تدبير ما ، كما قال تعالى : (قُل ادعُوا الَّذينَ زَعمتُم مِن دُونِ اللهِ لا يَملكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ في السَّموات ولا في الأَرضِ ومَا لَهم فيهِما مِن شِركٍ ومَا لَه مِنهُم مَن ظَهِيرٍ)[5] فبين أنهم لايملكون مثقال ذرة استقلالا ، ولايشركونه في شيء من ذلك ، ولايعينونه على ملكه ، ومن لم يكن مالكا ولا شريكا ولا عونا فقد انقطعت علاقته .

وشرك في الألوهية ، بأن يدعى غيره دعاء عبادة أو دعاء مسألة ، كما قال تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَستَعينُ) فكما أن اثبات المخلوقات أسبابا لايقدح في توحيد

---

(1) الاسراء : ٦٧ - (٢) النمل : ٦٢ - (٣) الاسراء : ٥٦ ، ٥٧ - (٤) الزمر : ٤٣ ، ٤٤ - (٥) سبأ : ٢٢

الربوبية ، ولا يمنع أن الله خالق كل شيء ، ولا يوجب أن يدعى المخلوق دعاء عبادة أو دعاء استعانة ، كذلك اثبات بعض الأفعال المحرمة من شرك أو غيره أسبابا لايقدح في توحيد الالهية ، ولايمنع أن يكون الله هو الذي يستحق الدين الخالص ، وهو يوجب أن لاتستعمل الكلمات والأفعال التي فيها شرك اذا كان الله يسخط من ذلك ويعاقب العبد عليه ، وتكون مضرة ذلك على العبد أكثر من منفعته ، اذ قد جعل الخير كله في أنا لانعبد الا اياه ، ولا نستعين الا اياه ، وعامة آيات القرآن لتثبيت هذا الأصل ، حتى انه تعالى قطع أثر الشفاعة بدون اذنه ، كقوله تعالى :

(مَنْ ذَا الَّذي يَشْفَعُ عِندَهُ إلا بإذِنِه)[(١)] وكقوله : (وأَنذر بِهِ الَّذينَ يَخافُونَ أَن يُحشَرُوا الى ربِّهم ليسَ لَهم مِن دُونِهِ وليّ ولا شَفيعٌ)[(٢)] وقوله : (وذَكِّر بِه أَن تُبسَلَ نفسٌ بِما كَسبتْ ليسَ لَهَا منْ دون اللهِ وليٌ ولا شَفيعٌ)[(٣)] وقوله :(قُل أَندعُوا من دُونِ اللهِ مالا ينفعُنا ولا يضرُّنا)[(٤)] الآية . وقولهُ : (ولقدْ جئتُمونا فُرادى كما خَلَقناكُم أَوَّلَ مرة وتركْتُم مَا خَوَّلناكُم وراءَ ظُهوركُم وما نرى معكُم شفَعاءَكُم الَّذينَ زعمتُم أَنَّهم فيكُم شُركاءُ لقد تقَطَّع بينكُم وضلَّ عنكُم ما كُنتُم تزعُمونَ)[(٥)] وسورة الأنعام سورة عظيمة مشتملة على أصول الايمان ، وكذلك قوله : (ثُمَّ اسْتَوى عَلى العَرشِ ما لكُم من دُونهِ من وليٍّ ولا شَفِيع)[(٦)] وقوله تعالى : (والَّذينَ اتَّخذُوا من دونهِ اولياءَ ما نعبدُهُم إلا ليقرِّبُونَا إلى اللهِ زُلفىٰ)[(٧)] وقوله : (أَم اتَّخذُوا مِن دونِ اللهِ شُفعاءَ قُل أَولَو كانوا لايَملِكُونَ شَيئاً ولا يَعقلُونَ. قُل لله الشَّفَاعَةُ جَميعاً)[(٨)] وسورة الزمر أصل عظيم في هذا ، ومن هذا قوله تعالى : (ومن النَّاس مَن يعبُد اللهَ على حرفٍ فإن اصَابهُ خَيرٌ اطْمأَنَّ بهِ وإنْ أَصابتْهُ فتنَةٌ انْقَلبَ على وجهِهِ خَسرَ الدُّنيا والآخِرةَ ذَلكَ هُو الخسران

(١) البقرة : ٢٥٥ ــ (٢) الانعام : ٥١ (٣) الانعام : ٧٠ ــ (٤) الانعام : ٧١ ــ (٥) الانعام : ٩٤
(٦) السجدة : ٤ ــ (٧) الزمر : ٣ ــ (٨) الزمر : ٤٣ ، ٤٤

المبينُ . يدعُو من دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُ ومَالا ينفَعهُ ذَلكَ هُو الضَّلالُ البعيدِ . يَدعُو لمنْ ضَرُّهُ أَقرَبُ مِن نفعهِ لبئسَ المولى ولبئسَ العشِيرُ) [1]

وكذلك قوله : (مَثَلَ الَّذين اتَّخذوا من دُونِ اللهِ أَولياءَ كَمثَلِ العنكَبُوتِ اتَّخذَتْ بيتاً وإنَّ أوهَنَ البيُوتِ لَبيتُ العَنكَبُوتِ) [2] والقرآن عامته انما هو في تقرير هذا الاصل العظيم الذي هو أصل الأصول ،انتهى ماهو المقصود .

وقال أيضا في أثناء جوابه المفصل بعد أن تكلم بكلام يتعلق بحكم الدعاء عند القبر مانصه : ولم يذكر عن أحد من الأئمة أنه استحب أن يسأل النبي صلىالله عليه وسلم بعد الموت ، لا استغفارا ولا غيره ، وكلامه المنصوص عنه أي الامام مالكوعن غيره ينافي هذا ، وانما يعرف مثل هذا في حكاية ذكرها طائفة من متأخري الفقهاء عن أعرابي أنه أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وتلا هذه الآية ، وهي قوله تعالى : (ولوأَنَّهم إِذْ ظَلمُوا انفُسهم جَاؤكَ فاسْتَغفَروا اللَّهَ واسْتَغفَرَ لَهم الرَّسُولُ لَوَجدوا اللّهَ تواباً رَحِياً) [3] وأنشد بيتين :

ياخـير من دفنت في القاع أعظمـه	فطـاب من طيبهن القاع والأكـم
نفسي الفـداء لقبـر أنت ساكنـه	فيه العفاف وفيه الجود والكـرم

ولهذا استحب طائفة من متأخري الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد مثـل ذلك ، واحتجوا بهذه الحكاية التي لايثبت بها حكم شرعي ، لاسيما في مثل هـذا الأمر الذي لو كان مشروعا مندوبا لكان الصحابة والتابعون أعلم به وأعمل به من غيرهم ، بل قضاء الله حاجة مثل هذا الاعرابي وأمثاله لها أسباب قد بسطت في غير هذا الموضع ، وليس كل من قضيت حاجته بسبب يقتضي أن يكون السبب مشروعا مأمورا به ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يسأل في حيـاته المسألة فيعطيهـا لايرد سائلا ، وتكون المسألة محرمة في حق السائل ، حتـى قال : (اني لأعطي أحـدهم العطية فيخرج بها يتأبطها نارا ، قالوا : يارسول الله فلم تعطيهم ؟ قال : يأبون الا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل) وقد يفعل الرجل العمل الذي يعتقده صالحـا ولا يكون عالما أنه منهى عنه فيثاب على قصده ويعفى عنه لعدم علمه ، وهذا باب واسع وعامة العبادات المبتدعة المنهى عنها قد يفعلها بعض الناس ، ويحصل له بها نوع من

(١) الحج : ١١ ـ ١٣ ـ (٢) العنكبوت : ٤١ ـ (٣) النساء : ٦٤

الفائدة ، وذلك لايدل على أنها مشروعة ، بل لو لم تكن مفسدتها أغلب من مصلحتها لما نهى عنها ، انتهى ماقصدنا نقله .

(والحاصل) أن ماذكره النبهاني في هذا الباب من استغاثة بعض الناس بالموتى وان مقاصد المستغيثين حصلت وأورد حكايات كثيرة شاهدة له بذلك كلام ساقط ، فان تلك الحكايات لو سلمت من الكذب والافتراء فلا تدل على المقصود من جواز الاستعانة والاستغاثة بغير الله تعالى ، فان الاستغاثة كما ذكرنا سابقا دعاء والدعاء مخ العبادة ، وهي لاتصلح الا لله ، ومن عبد غيره فقد أشرك .

ثم ان أصحاب تلك الحكايات ليسوا ممن يحتج بقولهم ، فهم ليسوا بأنبياء ولا صحابة ولا من الأئمة المجتهدين المشهورين ، والدين لايثبت بفعل أمثال من ذكرهم من العوام والجهلة وبعض المتصوفة الغلاة ، وقدذكرنا سابقا أن الدليل ينبغي أن يكون من الكتاب والسنة واجماع المجتهدين والفقهاء .

وأما أن المستغيثين قد نالوا مقصدهم ممن استغاثوا به من الأموات ـ كالأنبياء والأصفياء والاولياء ـ فمثل ذلك لايدل أيضا على مشروعية الاستغاثة كما ذكره الشيخ ، فان الأسباب التي يخلق الله بها الحوادث في الأرض والسماء لايحصيها على الحقيقة الا هو ، أما أعيانها فبلا ريب ، وكذلك أنواعها أيضالايضبطها المخلوق لسعة ملكوت الله سبحانه وتعالى ، ولهذا كانت طريقة الأنبياء عليهم السلام أنهم يأمرون الخلق بمافيه صلاحهم ،وينهون عما فيه فسادهم ، ولايشغلونهم في الكلام بأسباب الكائنات كما يفعل المتفلسفة ، فان ذلك كثير التعب قليل الفائدة أو موجب للضرر .

ومثال النبي مثال طبيب دخل على مريض فرأى مرضه فعلمه ، فقال له اشرب كذا واجتنب كذافعل ذلكفحصل غرضه من الشفاء ، والمتفلسف قديطول معه الكلام في سبب ذلك المرض وصفته وذمه وذم ماأوجبه ، ولو قال له المريض فما الذي يشفيني منه لم يكن له بذلك علم تام ، والكلام في بيان تأثير بعض هذه الأسباب قد يكون فيه فتنة لمن ضعف عقله ودينه ، بحيث يختطف عقله فيتألهه اذا لم يرزق من العلم والايمان مايوجب له الهدى واليقين ، ويكفي العاقل أن يعلم أن ماسوى المشروع لايؤثر بحال فلا منفعة فيه ، أو أنه وان أثر فضرره أكثر من نفعه .

ثم سبب قضاء حاجة بعض هؤلاء الداعين الأدعية المحرمة أن الرجل منهم قد يكون مضطرا ضرورة لو دعا الله بها مشرك عند وثن لاستجيب ، لصدق توجهه

الى الله تعالى ، وان كان تحرى الدعاء عند الوثن شركا ، ولو كان قد استجيب له على يد المتوسل به صاحب القبر أو غيره لاستغاثته فانه يعاقب على ذلك ويهوى به في النار اذا لم يعف الله عنه ، كما لو طلب من الله عز وجل مايكون فتنة له ، كما أن ثعلبة لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له بكثرة المال ونهاه النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك مرة بعد مرة فلم ينته حتى دعا له كان ذلك سبب شقائه في الدنيا والآخرة ، فكم من عبد دعا دعاء غير مباح فقضيت حاجته في ذلك الدعاء ، وكان سبب هلاكه في الدنيا والآخرة ، تارة بأن يسأله مالا يصلح له مسألته كما فعل بلعام بن باعورا وثعلبة وخلق كثير دعوا بأشياء فحصلت لهم وكان فيها هلاكهم ، وتارة بأن يسأل على الوجه الذي لايحبه الله كما قال سبحانه وتعالى : (ادْعُوا رَبَّكُم تضرعاً وخُفيةً إنهُ لا يُحبُّ المعتدِينَ) [1] فهو سبحانه وتعالى لايحب المعتدين في صفة الدعاءولا في السؤال ، ولكن حاجتهم قد تقضى ، كأقوام ناجوا الله تعالى في دعواتهم بمناجاة بها جراءة على الله واعتداء لحدوده ، وأعطوا طلبتهم فتنة ، ولما يشاء الله سبحانه وتعالى بل أشد من ذلك ، ألست ترى السحر والطلسمات والعين وغير ذلكمن المؤثرات في العالم باذن الله قد يقضى بها كثير من أغراض النفوس ، ومع هذا فقد قال سبحانه وتعالى : (ولَقدعَلموا لمن اشْترَاهُ مَالهُ في الآخِرة من خلاقٍ ولبئسَ ما شَروا بِهِ انفُسُهم لو كانوا يعلمونَ ولو أنَّهم آمَنُوا واتَّقوا لمثُوبةٌ من عندِ اللهِ خيرٌ لو كانوا يعلَمونَ) [2] فانهم معترفون بانه لاينفع في الآخرة ، وأن صاحبه خاسر في الآخرة ، وانما يتشبثون بمنفعته في الدنيا لاغير ، وقد قال تبارك وتعالى : (ويتعلَّمونَ ما يضُرُّهم ولا ينْفَعهم) .

وكذلك أنواع من الداعين السائلين قد يدعون دعاء محرما يحصل معه ذلك الغرض ويورثهم ضررا أعظم منه ، وقد يكون الدعاء مكروها ويستجاب له أيضا .

ثم هذ التحريم والكراهة قد يعلمه الداعي وقد لايعلمه على وجه يعذر فيه ، بأن يكون فيه مجتهدا أو مقلدا ، كالمجتهد والمقلد اللذين يعذران في سائر الأعمال

(١) الاعراف : ٥٥ ـ (٢) البقرة : ١٠٣

المعذور فيها ، وغيره قد يتجاوز عنه في ذلك الدعاء لكثرة حسناته وصدق قصده ، أو لمحض رحمة الله عز وجل به أو نحو ذلك من الأسباب ، لكن الذي يستغيث بغير الله تعالى ويدعوه فهو مشرك ، وان الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء وان كان جاهلا بهذا الحكم فيرجى له من الله العفو .

(وما نقله النبهاني عن شيخه الرفاعي) فان صح نقله وان أحمد الرفاعي قال من كانت له حاجة فليستقبل عبادان نحو قبري ويمشي سبع خطوات ويستغيث بي فان حاجته تقضى ـ فليس فيه دليل ، لأن الرفاعي لم يكن نبيا ولا رسولا يوحى اليه ، بل كان فردا من أفراد الأمة وواحدا منهم ، وكان من ضعفاء المقلدين للامام الشافعي رحمه الله ، ولو قال صاحب مذهبه قولا ليس عليه دليل لرد عليه فكيف بهذا المسكين ، وكل أحد يؤخذ منه ويرد عليه الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وهذا الكلام الذي أسنده النبهاني لأحمد الرفاعي : ان كان قاله جهلا فالمرجو من الله أن يغفر له خطيئته ويعفو عن زلله ، وان كان قاله بعد قيام الحجة عليه وظهور البرهان على فساده وبطلانه فقد ذكرنا حكمه فيما سبق ، وحسن الظن بأحمد الرفاعي أن ينزه عن قول الهذيان ، ومثل هذا البهتان ، كيف يدعي الربوبية وقد كان رضي الله عنه أعور العين وكل أحد يعلم أن الله ليس بأعور ، وكل هذه الدعاوي الباطلة من النبهاني الشيطاني تقربا الى شيخه دجال العصر ، فانه أحد مردته ، على أنه ان صح نسبة كتاب البرهان المؤيد للرفاعي فهو يبطل مانسبه اليه النبهاني ، فان فيه ماهو خلاف هذا وهو حصر أنواع العبادة كلها لله ، ولكن الذي نسب هذا الكتاب اليه دجال العصر شيخ الضلال منبع الكذب والافتراء ، وكم له من مثل هذه المكايد والدسائس ، وماأحسن ما قال الموصلي في مثله :

وفظ غليظ القلب أيقنت أنه	على النفس ماشيء أشد من الفض
تعرفني في حاله الناس كلها	واني لأدرى الناس في لؤمة المحض
وقالوا لقد دس الخبيث بلفظه	غداة عرضت الشعر من عرض العرض
دسائس لاتدري اليهود بعشرها	دعته طباع السوء للنهش والعض
يهون لدغ العقربان بلدغه	ولا شك بعض الشر أهون من بعض
اذا مارأته العين أيقنت أنه	تخلق من حقد وصور من بغض

وكم قد انتحل له كتابا وافترى له دعاوى باطلة ، وتسمية ذلك بالبرهان المؤيد لصاحب مداليد أوضح دليل على الانتحال ، فان أحمد الرفاعي لم يدع مداليد تلك

الدعوى الكاذبة حتى يجعلها جزءا من علم كتابه ، ودجال العصر نسب اليه والى أصحابه كثيرا من الكتب المشحونة بالكذب وقول الزور ، ولم نر أحدا ممن ترجمه ذكر أن له كتابا سماه البرهان المؤيد لصاحب مداليد ، ولا ذكروا له غيره من الكتب التي انتحلها له ذلك الزائغ ، وما أحسن ما قال القائل :

لي حيلة فيمن ينم ... وليس في الكذاب حيله
من كان يخلق مايقول ... فحيلتي فيه قليله

وهذا الخبيث له من المكائد والحيل مايعجز الشيطان عن مثلها ؛ كما فصل بعض ذلك في كتاب المسامير الذي ألف في بيان فضائحه ومساويه وخبائثه ، وقد سرى شره الى جميع مردته والمنتسبين اليه ، ومنهم النبهاني الزائغ :

لقد جربتهم فرأيت منهم ... خبائث بالمهيمن نستجير

وهذا اللعين يدعى النسبة لابن الصياد ولعله اليهودي الشهير وأفعاله تصدقه في ذلك .

ان فاتكم أصل امريء ففعاله ... تنبيكم عن أصله المتناهي

وهو اليوم أعظم بلاء على المسلمين ، قد أضر الدولة والملة ، وبواسطته توسد الأمور غير أهلها ،وأضر بيت مال المسلمين .

ولو كان هذا موضع القول لأشتفي ... به القلب لكن للمقال مواضع

ادعى الشرف وهو ليس بشريف ، وادعى أنه شيخ الطريقة وذكره تصفيق ورقص وضرب دف واباحة المحرمات والمنكرات ، وما أحسن مايقول الموصلي :

ألا بلغ جناب الشيخ عني ... رسالة متقن بالأمر خبرا
وسل منه غداة يهز رأسا ... بحلقة ذكره ويدير دبرا
أقال الله صفق لي وغن ... وقل كفرا وسم الكفر ذكرا
وأي ولاية حصلت بجهل ... ومن ذا نال بالكفران أجرا
فان قلت اجتهدت بكل علم ... فأعرب لي اذا لاقيت عمرا
وما يكفيك هذا الفعل حتى ... كذبت على النبي وجئت نكرا
متى كانت هيازع من قريش ... فعددها لنا بطنا وظهرا
فلو تكن السيادة باخضرار ... لكان السلق أشرف منك قدرا
وأنت شققت للباري شريكا ... فيملك دونه نفعا وضرا
فويلك قد كفرت ولست تدري ... ولم تبرح على هذا مصرا

وويحك ما العبادة ضرب دف ... ولا في طول هذا الذقن فخرا
برؤيتك الأنام تظن خيرا ... ولو عقلت لظنت فيك شرا

(والمقصود) أن ماذكره النبهاني الشيخ الشيطاني مما يتعلق بباب الاستغاثة كله لا دليل له فيه ، بل الدليل قام على خلاف قوله ، وأن أقوال الرفاعي وأمثاله لاتصلح للاستدلال ، فان هؤلاء ليسوا ممن يقتدى بأقوالهم وأفعالهم ، وأن أتباعهم كذبوا لهم وعليهم كذبا كثيرا لم يبق معه الوثوق بما ينقل عنهم فضلا عن أن يجعل برهانا لمثل هذه المطالب العالية .

وخير أمور الدين ما كان سنة ... وشر الأمور المحدثات البدائع

(قال النبهاني) الباب السابع في جملة من الأدعية الواردة عن بعض أكابر الأولياء في أحزابهم وكتبهم قد استغاثوا فيها بالنبي صلى الله عليه وسلم الى الله تعالى لقضاء حاجاتهم ، ومنها ماهو مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا الباب هو حزب عظيم ، وذكر كلاما طويلا وأقوالا كثيرة ، منها صلوات على النبي صلى الله عليه وسلم ولا كلام لنا فيها وليست من مجال النزاع ، ومنها توسل بالنبي صلى الله عليه وسلم وطلب من الله والكلام ليس فيه أيضا ، ومنها ماهو استغاثة بمخلوق وطلب منه ودعاء من غير الله وهو المقصود بالبحث ، نقله عن مثل الشيخ ناصر الدين ابن سويدان ، وأبي الحسن البكري ، والشعراني . وأضرابهم ممن لايحتج بمثله .

(فالجواب عن ذلك كله) انا لم ندع أن جميع العالم موحدون ، وهيهات ذلك ، قال تعالى : (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله)[1] وقال : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)[2]

وماذكره النبهاني انما يصلح في الرد على من يدعي أن الناس كلهم موحدون ، وليس فيهم من يلتجيء الى غير الله أو يستغيث بمن سواه ، وحينئذ فكلامه الذي أورده يصلح جوابا عن تلك الدعوى ، ثم ان المانعين من الاستغاثة بغير الله ونحوها لهم تفصيل يجب معرفته والوقوف عليه ، ليكون الواقف على بصيرة من أمره ، حتى لايخبط في كلامه خبط عشواء كما خبط النبهاني ، وقد ورد لشيخ الاسلام تقي الدين سؤال في هذا الباب ، فأجاب بأحسن جواب ، وهذا نص السؤال وجوابه :

---

(١) الانعام : ١١٦ — (٢) يوسف : ١٠٦

سئل شيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية رضي الله عنه : ماتقول السادةالعلماء أئمة الدين وفقهم الله لطاعته فيمن يقول لايستغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم هل يحرم عليه هذا القول ؟ وهل هو كفر أم لا ؟ وان استدل بآيات من كتاب الله وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هل ينفعه دليله أم لا ؟ واذا قام الدليل من الكتاب والسنة فما يجب على من يخالف ذلك ؟ أفتونا مأجورين •

الجواب : الحمد لله ، قد ثبت بالسنة المستفيضة بل المتواترة واتفاق الأمة أن نبينا صلى الله عليه وسلم الشافع المشفع ، وأنه يشفع في الخلائق يوم القيامة ، وأن الناس يستشفعون به ويطلبون منه أن يشفع لهم الى ربهم ، وأنه يشفع لهم •

ثم اتفق أهل السنة والجماعة أنه يشفع في أهل الكبائر وأنه لايخلد في النار من أهل التوحيد أحد •

وأما الخوارج والمعتزلة فأنكروا شفاعته لأهل الكبائر ، ولم ينكروا شفاعته للمؤمنين وهؤلاء مبتدعة ضلال ، وفي تكفيرهم نزاع وتفصيل ، وأما من أنكر ماثبت بالتواتر والاجماع فهو كافر بعد قيام الحجة ، وسواء سمى هذا المعنى استغاثة أو لم يسمه ، وأما من أقر بشفاعته وأنكر ما كان الصحابة يفعلونه من التوسل به والاستشفاع به كما رواه البخاري في صحيحه عن أنس (أن عمر بن الخطاب كان اذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ، وقال : اللهم انا كنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا ، وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون) ، وفي سنن أبي داود وغيره (أن أعرابيا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : جهدت الأنفس ، وجاع العيال ، وهلك المال ، فادع الله لنا ، فانا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ، فسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، وقال : ويحك ان الله لايستشفع به على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك) وذكر تمام الحديث ، فأنكر قوله نستشفع بالله عليك ، ولم ينكر قوله نستشفع بك على الله بل أقره عليه ، فعلم جوازه ، فمن أنكر هذا فهو ضال مخطيء مبتدع ، وفي تكفيره نزاع وتفصيل •

وأما من أقر بما ثبت بالكتاب والسنة والاجماع من شفاعته والتوسل به ونحو ذلك ولكن قال لايدعى الا الله وأن الأمور التي لايقدر عليها الا الله لاتطلب الا منه ــ مثل غفران الذنوب وهداية القلوب وانزال المطر وانبات النبات ونحو ذلك ــ فهذا مصيب في ذلك ، بل هذا مما لانزاع فيه بين المسلمين أيضا ، كما قال تعالى :

(ومَن يَغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا اللهُ)[1] وقال : (إنَّكَ لا تَهدِي من أَحببتَ ولَـكنَّ اللهَ يَهدي مَن يشاءُ)[2] وكما قال تعالى : (يا أَيُّها النَّاسُ اذكُروا نِعمَةَ اللهِ عَليكُم هَل مِن خَالقٍ غَيرُ اللهِ يرزُقكُم من السَّماءِ والأَرضِ)[3] وكما قال تعالى : (وما جَعَله اللهُ إلَّا بشرَى لَكُم ولتَطْمئنَّ قُلوبكُم به وما النَّصرُ إلَّا مِن عِندِ الله)[4] وقال : (إلَّا تنصُروهُ فقَد نصَرهُ اللهُ إذْ أَخرَجهُ الَّذينَ كَفروا ثَاني اثْنَينِ إذ هُما في الغَارِ إذْ يقُولُ لصَاحِبه لا تَحزنْ إنَّ اللهَ مَعنَا) .[5]

فالمعاني الثابتة بالكتاب والسنة يجب اثباتها ، والمعاني المنفية بالكتاب والسنة يجب نفيها ، والعبارة الدالة على المعاني نفيا واثباتا ان وجدت في كلام الله ورسوله وجب اقرارها ، وان وجدت في كلام أحد وظهر مراده من ذلك رتب عليه حكمه والا رجع فيه اليه ، وقد يكون في كلام الله ورسوله عبارة لها معنى صحيح ، لكن بعض الناس يفهم من تلك غير مراد الله ورسوله ، فهذا يرد عليه فهمه ، كما روى الطبراني في معجمه الكبير (انه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين ، فقال أبو بكر الصديق : قوموا بنا لنستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انه لايستغاث بي وانما يستغاث بالله) فهذا انما أراد به النبي صلى الله عليه وسلم المعنى الثاني ، وهو أن يطلب منه مالا يقدر عليه الا الله ، والا فالصحابة كانوا يطلبون منه الدعاء ويستسقون به ، كما في صحيح البخاري عن ابن عمر ، قال : ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر الى وجه النبي صلى الله عليه وسلم يستسقي فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للارامل

وهو قول أبي طالب ، ولهذا قال العلماء المصنفون في أسماء الله تعالى يجب على كل مكلف ان يعلم أن لاغياث ولا مغيث على الاطلاق الا الله ، وأن كل غوث فمن عنده ، وان كان جعل ذلك على يدي غيره فالحقيقة له سبحانه وتعالى ، ولغيره مجاز ، قالوا من أسمائه تعالى المغيث والغياث ، وجاء ذكر المغيث في حديث أبي

---

(١) آل عمران : ١٣٥ – (٢) القصص : ٥٦ – (٣) فاطر : ٣ – (٤) آل عمران : ١٢٦ – (٥) التوبة : ٤٠

هريرة ، قالوا واجتمعت الأمة على ذلك .

وقال أبو عبد الله الحليمي : الغياث هو المغيث ، وأكثر مايقال غياث المستغيثين ومعناه : المدرك عباده في الشدائد اذا دعوه ومجيبهم ومخلصهم .

وفي خبر الاستسقاء في الصحيحين (أللهم أغثنا أللهم أغثنا) يقال أغاثه اغاثة وغياثا وغوثا ، وهذا الاسم في معنى المجيب والمستجيب ، قال تعالى : (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ)[1] الا أن الاغاثة أحق بالأفعال ، والاستجابة أحق بالأقوال ، وقد يقع كل منهما موقع الآخر .

قالوا : الفرق بين المستغيث والداعي أن المستغيث ينادي بالغوث ، والداعي ينادي بالمدعو والمغيث ، وهذا فيه نظر ، فان من صيغة الاستغاثة يالله للمسلمين ، وقد روى عن معروف الكرخي أنه كان يكثر أن يقول واغوثاه ، ويقول : اني سمعت الله يقول : (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ) وفي الدعاء المأثور : ياحي ياقيوم ، لا اله الا أنت ، برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ، و لاتكلني الى نفسي طرفة عين ، ولا الى أحد من خلقك ، والاستغاثة برحمته استغاثة به في الحقيقة ، كما أن الاستعاذة بصفاته استعاذة به في الحقيقة ، وكما أن القسم بصفاته قسم به في الحقيقة ففي الحديث : (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق) وفيه (أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك لاأحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك) ولهذا استدل الأئمة فيما استدلوا على أن كلام الله غير مخلوق بقوله: (أعوذ بكلمات الله التامات) قالوا والاستعاذة لاتصلح بالمخلوق .

وكذلك القسم قد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت) وفي لفظ (من حلف بغير الله فقد أشرك) رواه الترمذي وصححه ، ثم قد ثبت في الصحيح الحلف بعزة الله ولعمر الله ونحو ذلك مما اتفق المسلمون على أنه ليس من الحلف بغير الله الذي نهي عنه ، والاستغاثة بمعنى أن يطلب من الرسول ماهو اللائق بمنصبه لاينازع فيها مسلم ، ومن نازع في هذا المعنى فهو اما كافر ان أنكر مايكفر به ، واما مخطيء ضال ، وأما بالمعنى الذي نفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أيضا مما يجب نفيه ، ومن أثبت لغير الله

---

(١) الانفال : ٩

مالا يكون الا لله فهو أيضا كافر ، اذا قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها ، ومن هذا الباب قول أبي يزيد البسطامي : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق ، وقول الشيخ أبي عبد الله القرشي المشهور بالديار المصرية · استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون •

وفي دعاءموسى عليه السلام : اللهم لك الحمد ، واليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث ، وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة الا بك ، ولما كان هذا المعنى هو المفهوم منها عند الاطلاق وكان مختصا بالله صح اطلاق نفيه عما سواه ، ولهذا لايعرف عن أحد من أئمة المسلمين أنه جوز مطلق الاستغاثة بغير الله ، ولا أنكر على من نفى مطلق الاستغاثة عن غير الله •

وكذلك الاستعانة أيضا فيها مالا يصلح الا لله ، وهي المشار اليها بقوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينَ) فانه لايعين على العبادة الاعانة المطلقة الا الله ، وقديستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه ، وكذلك الاستنصار ، قال الله تعالى : (وإِنْ اسْتَنصرُوكُم في الدِّينِ فعليكُم النَّصرُ)[1] والنصر المطلق هو خلق مابه يغلب العدو، ولا يقدرعليه الا الله ، ومن خالف ماثبت بالكتاب والسنة فانه يكون اما كافرا واما فاسقا واما عاصيا، الا أن يكون مؤمنا مجتهدا مخطئا فيثاب على اجتهاده ويغفر له خطؤه ، وكذلك ان كان لم يبلغه العلم الذي تقوم عليه به الحجة ، فان الله تعالى يقول : (ومَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبعَثَ رَسُولاً)[2] وأما اذا قامت عليه الحجة الثابتة بالكتاب والسنة فخالفها فانه يعاقب بحسب ذلك اما بالقتل واما بدونه ، والله أعلم •

(سؤال آخر وجواب الشيخ أيضا عنه متعلق بهذا الباب)

سئل شيخ الاسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رضي الله عنه عمن قال يجوز الاستغاثة بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم في كل مايستغات الله فيه على معنى أنه وسيلة من وسائل الله في طلب الغوث ، وكذلك يستغاث بسائر الأنبياء والصالحين في كل مايستغاث بالله فيه ، وأن من نفى الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم يكفر ، لأنه نقص من قدره وما يستحقه ، الى آخر ماقال •

---

(١) الانفال : ٧٢ ـ (٢) الاسراء : ١٥

فأجاب شيخ الاسلام رحمه الله بقوله : الحمد لله رب العالمين ، لم يقل أحد من المسلمين انه يستغاث بشيء من المخلوقات في كل مايستغاث فيه بالله تعالى لابنبي ولا بملك ولا صالح ولا غير ذلك ، بل هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الاسلام أنه لايجوز اطلاقه ، ولم يقل أحد ان التوسل بشيء هو الاستغاثة به ، بل العامة الذين يتوسلون في أدعيتهم بأمور ، كقول أحدهم تتوسل اليك بحق الشيخ فلان أو بحرمته ، أو أتوسل اليك باللوح والقلم أو بالكعبة أو غير ذلك مما يقولونه في أدعيتهم يعلمون أنهم لايستغيثون بهذه الأمور ، فان المستغيث بالشيء طالب منه سائل له ، والمتوسل به لايدعى ولا يطلب منه ولا يسأل ، وانما يطلب به ، وكل أحد يفرق بين المدعو به والمدعو ،والاستغاثة طلب الغوث وهوازالة الشدة ، والاستنصار طلب النصرة ، والاستعانة طلب العون ، والمخلوق يطلب منه من هذه الأمور مايقدر عليه ، كما قال تعالى : (وإن استَنصَرُوكُم في الدِّينِ فعَلَيكُم النَّصْرُ)[1] وقال : (فاسْتَغَاثَهُ الَّذي من شِيعته علىَ الَّذِي من عَدُوِّهِ)[2] وكما قال تعالى : (وتعَاونوا عَلى البرِّ والتّقوى).[3] وأما مالايقدر عليه الا الله فلا يطلب الا من الله .

ولهذا كان المسلمون يستشفعون بالنبي صلى الله عليه وسلم ويستسقون به ويتوسلون به ، كما في صحيح البخاري (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس ، وقال : اللهم انا كنا اذا أجدبنا تتوسل اليك بنبينا فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا فأسقنا ، فيسقون) ، وفي سنن أبي داود (أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : انا نستشفع بالله عليك ونستشفع بك على الله ، فقال : شأن الله أعظم من ذلك ، انه لايستشفع به على أحد من خلقه) فأقره على قوله ونستشفع بك على الله ، وأنكر عليه قوله نستشفع بالله عليك ، وقد اتفق المسلمون على أن نبينا صلى الله عليه وسلم شفيع يوم القيامة ، وان الخلق يطلبون منه الشفاعة ، لكن عند أهل السنة أنه يشفع في أهل الكبائر ، وعند الوعيدية انما يشفع في زيادة الثواب .

وقول القائل : أن من قال أتوسل اليك برسولك فقد استغاث برسوله حقيقة في لغة العرب وجميع الأمم قد كذب عليهم ، فما يعرف هذا في لغة أحد من بني آدم ، بل الجميع يعلمون أن المستغاث به مسؤل مدعو ، ويفرقون بين المسؤل والمسؤل به ، سواء استغيث بالخالق أو بالمخلوق ، فانه يجوز أن يستغات

(١) الانفال : ٧٢ ـ (٢) القصص : ١٥ ـ (٣) المائدة : ٢

بالمخلوق فيما يقدر على التصرف به ، والنبي صلى الله عليه وسلم أفضل مخلوق يستغاث به في مثل ذلك ، ولو قال قائل لمن يستغيث به أسألك بفلان أو بحق فلان لم يقل أحد أنه استغاث بمن توسل به ، بل انما استغاث بمن دعاه وسأله .

ولهذا قا لالمصنفون في شرح أسماء الله الحسنى : ان المغيث بمعنى المجيب ، لكن الاغاثة أخص بالأفعال ، والاجابة أخص بالأقوال ، والتوسل الى الله بغير نبينا صلى الله عليه وسلم سواء سمي استغاثة أو لم يسم لايعلم أحد من السلف فعله ، ولا يروي فيه أثر ، ولا يعلم فيه الا ماأفتى به الشيخ عز الدين من المنع .

وأما التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم ففيه حديث في السنن رواه النسائي والترمذي وغيرهما (أن اعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله اني أصبت في بصري فادع الله لي ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم توضأ وصل ركعتين وقل اللهم اني أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي لفظ : أتوسل اليك بنبيك ، يامحمد اني أتشفع اليك في رد بصري اللهم شفعه فيّ) فعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم شفع له فسأل الله أن يشفعه فيه ، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ان كان لك حاجة فمثل ذلك ، فرد الله بصره ، فلأجل هذا الحديث استثنى الشيخ عز الدين ابن عبد السلام التوسل به .

وللناس في معنى ذلك قولان (أحدهما) أن هذا التوسل هو الذي ذكره عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لما قال كنا نتوسل اليك بنبيك فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبيك فأسقنا فيسقون ، فقد ذكر أنهم كانوا يتوسلون به في حياته في الاستسقاء، ثم توسلوا بعمه العباس بعد موته ، وتوسلهم به هو استسقاؤهم به بحيث يدعو ويدعون معه ويكون وسيلتهم الى الله ، وهذا لم يفعله الصحابة به بعد موته ولا في مغيبه ، والنبي كان في مثل ذلك شافعا داعيا .

(القول الثاني) أن التوسل به يكون في حياته وبعد موته ومغيبه وحضرته ، ولم يقل أحد ان من قال بالقول الأول فقد كفر ، ولا وجه لتكفيره ، فان هذه مسألة خفية وليست أدلتها جلية ، والكفر انما يكون بانكار ماعلم من الدين بالضرورة ، أو بانكار الأحكام المجمع عليها ، واختلاف الناس فيما يشرع من الدعاء ومالا يشرع كاختلافهم هل تشرع الصلاة عليه عند الذبح ، وليس ذلك من مسائل السبب .

وأما من قال ان من نفى التوسل الذي سماه استغاثة بغيره كفر وتكفير من قال

بقول الشيخ عز الدين وأمثاله ـ فاظهر من أن يحتاج الى جواب ، بل المكفر بمثل هذه الأمور يستحق من غليظ العقوبة والتعزير مايستحقه أمثاله من المفترين على الدين ، لاسيما مع قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من قال لأخيه ياكافر فقد باء بها أحدهما) وأما من قال مالا يقدر عليه الا الله فلا يستغاث فيه الا به فقد قال الحق ، بل لو قال كما قال أبو يزيد استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق ، وكما قال الشيخ أبو عبد الله القرشي استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون ـ لكان قد أحسن ، فان مطلق هذا الكلام يفهم الاستغاثة المطلقة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس : (اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله) .

واذا نفى الرسول صلى الله عليه وسلم عن نفسه أمرا كان هو الصادق المصدوق في ذلك كما هو الصادق المصدوق في كل مايخبر به من نفي واثبات ، ومن رد خبره تعظيما له أشبه النصارى الذين كذبوا المسيح باخباره عن نفسه بالعبودية تعظيما له ، ويجوز لنا أن ننفي مانفاه ، وليس لأحد أن يقابل نفيه بنقيض ذلك البتة ، والله أعلم .

(ففي كلام الشيخ مايرد على النبهاني) من وجوه كثيرة ، فان النبهاني لم يفرق في شبهه التي أوردها بين التوسل والاستغاثة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، حيث جعل كلا من التوسل والصلاة التي ذكرها العلماء في أحزابهم استغاثة ، وقال ان العلماء استغاثوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يفرق أيضا بين قسمي الاستغاثة اللذين ذكرهما الشيخ .

والحاصل : أن في كلام الشيخ مايرد على القبوريين من وجوه :

(الوجه الأول) أن قول الشيخ : وأما التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم ففيه حديث في السنن يريد بالتوسل ماذكره هو في كلامه ، لايريد التوسل في عرف النبهاني وعباد القبور ، وهو دعاء المخلوق والاستغاثة به ، وانما يريد به سؤال الله تعالى أن يشفع عبده فيه باجابة دعائه لهذا السائل ، وأرشده في هذا التوسل الى الله بالصلاة التي هي أفضل العبادات البدنية ، وأن يوحده بالدعاء والمسألة في أن يقبل شفاعة نبيه أي دعاءه له ، وهذا ليس الكلام فيه ، وليس من توسل عبادالقبور ، وتقدم قول الشيخ أن هذا لايسمى استغاثة ، وفرق بين التوسل والاستغاثة .

(الوجه الثاني) أن الذي رجح الشيخ ومن وافقه من المحققين أن هذا خاص في حياته ، لأن المقصود به شفاعته بالدعاء ، كما كان يستغفر لأصحابه ويدعو لهم ،

وهذا هو الذي فهمه الفاروق ، وناهيك به ، فانه قال : كنا نتوسل اليك بنبيك فتسقينا ، وهو صلى الله عليه وسلم كان يدعو لهم فتجاب دعوته ، وبعد موته لايشرع طلب الدعاء منه ، لأن عمر عدل الى العباس ولم ينكره منكر ، ولم يذهب الى القبر الشريف أحد من أفاضل الأمة وأكابرها ، مع أن قبره صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم ، وهذا اتفاق على تصويب عمر ومتابعته ، وهذا من باب التنزل ، والا فعدم مشروعية هذا في سائر الكتب السماوية معلومة من الدين بالضرورة •

(الوجه الثالث) أن الحديث ان صح فهو مخصوص بالنبي صلى الله عليه وسلم عند من قال بالجواز كابن عبد السلام ، فسؤال الله بغيره لم يقل به أحد ممن حكى الشيخ قولهم بالجواز ، قال الشيخ : ولا يعلم أحد من السلف فعله ، ولا روي فيه أثر ، ولا يعلم فيه الا ماأفتى به الشيخ عز الدين من المنع ، وعباد القبور يسألون الله بجاه من اعتقدوا فيه ، بل آل الأمر الى أن يسأل الله تعالى بجاه كل من رفع قبره وجعلت عليه قبة ، بل وبالبله والمجانين الذين يعتقدهم عباد القبور •

(مايعارض به ماأورده النبهاني مما فيه استغاثة والتجاء بغير الله تعالى)

(اعلم) أن ماذكره النبهاني من الأحزاب ليس في جميعها مايدل على مازعمه ، فقد ذكرنا أن بعضها مشتمل على توسل والتوسل غير الاستغاثة على ماحققه الشيخ ، ومنها مافيه صلوات وهي أيضا من هذا القبيل ، والصلاة عليه صلى الله عليه وسلم لها فوائد عظيمة ذكرها الحافظ ابن القيم في كتابه (جلاء الافهام في الصلاة على خير الأنام) ومنها مافيه مقصده ولكن لايحتج بقول أصحابها ، وكل أحد يؤخذ منه ويرد عليه الا المعصوم ، وقد فصلنا الكلام في ذلك بعض التفصيل بحمد الله •

ونحن نورد في هذا المقام مانعارض به كلام هؤلاء الذي أورده النبهاني بكلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام المتبعين له : ـ

(أما القرآن الكريم) وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فأعظم مقاصده افراد الاله سبحانه وتوحيده بخصائصه ، فلا تجد سورة من السور الا وهي منادية على وجوب توحيده وافراده بالعبادة ، وترى الأدعية والاذكار التي اشتمل عليها القرآن كلها خالصة لله كقوله : (رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَو أَخطَأْنا رَبَّنَا وَلَا تَحملْ عَلَيْنا إِصراً كَما حَمَلته عَلى الّذينَ من قَبلِنا ، رَبَّنا

ولا تُحمِّلنا مالاطَاقَة لنا بِهِ واعْفُ عنا واغْفِر لنا وارْحَمنَا أنتَ مَولانـــا فانصُرنا على القومِ الكَافرينَ)[1] وكقوله : (رَبّنا إنّنا سَمعنا مُنادياً يُنادي للايمانِ أن آمنُوا بِرَبكُم فآمنّا رَبَّنا فَاغْفر لنَا ذُنوبنَا وكَفِّر عَنَّا سَيئآتِنَا وتوفَّنا معَ الأَبرارِ . رَبنا وآتِنا ما وعَدتنا على رُسلِكَ ولا تُخزنا يومَ القيَامَةِ إنَّكَ لا تُخلفُ الميعَاد).[2]

وهكذا أدعية نوح ، وابراهيم ، واسمعيل ، واسحق ، ويعقوب ، والاسباط ، وموسى وعيسى ، وغيرهم من الأنبياء والرسل كلهم ، وقد ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم ، وليس فيها التجاء الى غيره ، لا ملـك مقرب ولا نبي مرسل ، بل كلهم أخلصوا الدعاء له ، وخصوه بالالتجاء والاستغاثة والاستعانة دون من سواه ، فلو استوعبنا ذكر ذلك كله طال الكلام وضاق عنه المقام .

ونحن نذكر بعض السور والآيات الناطقة بوجوب الالتجـاء الى الله وعـدم الميل الى ماسواه مع بيان ماقاله المفسرون وأهل العلم في تفاسيرهم ، والقرآن كله يدل على وجوب عبادة الله والبراءة من عبادة ماسواه ، واسـلام الوجـوه له على اختلاف أنواع الدلالات مطابقة وتضمنا والتزاما وقياسا صحيحا .

ومن أمثلة ذلك ماقاله أهل العلم في معنى البسملة وتفسيرها ، قالوا في الباء من (بسم الله) ان معناها الاستعانة ، ورجحوا هذا القول لوجوه مقررة في محلهـا ، وقالوا قد جاءت السنة بأن كل أمر ذي بال لايبدأ فيه (ببسم الله الرحمن الرحيم) فهو أبتر أو أجذم أو أقطع ، وذكروا فيه روايات ، والمعنى أنه لايكمل أمر ولايحصل تمامه الا بذكر الله ، ولا يكون أصله ولا يوجد منه شيء الا بمعونته .

قالوا : وقد قالت طائفة من أهل العلم ان البسملة من الفاتحة ، وقالت طائفة أخرى هي آية من القرآن فاصلة بين السور .

وعلى القول الأول : فالاتيان بها من العبادات الواجبـة ، والاستعـانة هي مضمونها ، فتكون واجبة به تعالى .

وعلى القول الآخر : يكـون الاتيان بها مستحبا والاستعـانة بالله واجبة لابخصوص هذا اللفظ .

---

(١) البقرة : ٢٨٦ ـ (٢) آل عمران : ١٩٣ ، ١٩٤

ثم قالوا : ان المتعلق يتعين أن يقدر مؤخرا لافادة الحصر والاختصاص ، وهذا يدل على القول بوجوب الاستعانة ، لأن مااختص به تعالى واستحقه دون ماسواه لايصرف لغيره ، والقاعدة العربية تفيد أن تقديم المتأخر وتأخير المتقدم يقتضي الحصر ، فهذان موضعان يدلان على وجوب الاستعانة به وحده في أول حرف من كتاب الله مع متعلقه .

(الموضع الثالث) من الأبحاث في الباء وتأخير متعلقها قولهم أن الحصر هنا حصر افراد وقصره لاقصر قلب ، ورجحه أساطينهم بأن المشركين انما اعتقدوا الشركة لآلهتهم لا الاستقلال ، فالحصر باعتبار معتقدهم حصر افراد ، قالوا وأكثر الكفار اعتقدوا الشركة لآلهتهم لا الاستقلال ، فمعنى التسمية عند الموحد افراده بالاستعانة عما عبد معه من الآلهة ، وعلى القول بأن الاختصاص والحصر للقلب انما يتجه باعتبار معتقد من يدعي الاستقلال لمعبوده كمعطلة الصانع .

(البحث الرابع) في اسم الله قولهم انه من أله الهة وألوهية ، فهو اله فعال بمعنى مفعول بمعنى عبد يعبد عبادة ، والمستعين بغير الله متأله عابد ، لاسيما فيما لايقدر عليه الا الله ، ، واذا ثبت أن الاستعانة تأله وأن التأله عبادة فالبرهان قائم على أن العبادة لايستحقها غير الله تعالى .

(الخامس) قول ابن عباس وتفسيره للاسم الشريف الأقدس بأنه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ، وقد أخذه المفسرون وقرروه واستحسنوه ، فاذا كان تعالى هو صاحب ذلك ومستحقه فصرفه الى غيره شرك ، وصرف للحق في غير موضعه وهذا يدخل فيه جميع العبادات التي يصدق عليها التأله والألوهية والعبادةوالعبودية لاسيما الدعاء فانه من أجل أنواعه .

قال الامام البخاري في (كتاب الايمان) من صحيحه : باب دعاؤكم ايمانكم ، وساق حديث ابن عمر ، وكثيرا مايترجم بما صح عنده ولم يكن على شرطه .

(السادس) قولهم في اسمه الرحمن انه الموصوف بغاية الرحمة ومنتهاها ، وانه وصف ذات لاينفك عنه كسائر أوصافه المقدسة الذاتية ، ودعاء غير الموصوف بهذا الوصف وقصده من دونه والتعرض للوسائط والشفعاء سوء ظن بصفات كماله ونعوت جلاله ، وانما دعا الى عبادته ودعائه والاستعانة به بما اتصف به من الصفات المقدسة ، والنعوت الكاملة الجميلة ، واستدلوا على ذلك بقول الخليل عليه السلام

لقومه (فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العالَمين)[1] قالوا أي فما ظنكم به أن يجازيكم وقد عبدتم معه غيره ، وما الذي ظننتم به حتى جعلتم له شركاء ، أظننتم أنه محتاج الى الشركاء والأعوان ؟ أم ظننتم أنه يخفى عليه أحوال عباده حتى يحتاج الى شركاء يعرفونه بها كالملوك ؟ أم لايقدر وحده على الاستقلال بتدبيرهم وقضاء حوائجهم ؟ أم هو قاس فيحتاج الى شفعاء يستعطفونه على عباده ؟ أم ذليل فيحتاج الى ولي يتكثر به من القلة ويتعزز به من الذلة ؟ أم محتاج الى ولد فيتخذ صاحبة يكون الولد منه ومنها ؟ تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا ، ولو قدره المشركون حق قدره لما أشركوا به •

وكذلك اسمه تعالى الرحيم ، فانه يدل على أنه بالغ في الرحمة غايتها ، وان رحمته عمت عباده ووسعت خلقه ، فما بهم من النعم والاحسان والعطايا الباطنة والظاهرة فآثار رأفته ورحمته ، ومن هذا فعله وهذا وصفه كيف يعدل المضطر الى غيره في ضروراته وحاجاته وملماته ؟ وفي الحديث القدسي : (كلكم ضال الا من هديته فاستهدوني أهدكم ،ياعبادي كلكم جائع الا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، ياعبادي كلكم عار الا من كسوته فاستكسوني أكسكم) الحديث بطوله •

ومن رحمته وتودده الى عباده أنه ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا فينادي : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ الحديث معروف مشهور ، وفي بعض الاسرائيليات أن الله تعالى يقول : ابن آدم اطلبني تجدني ، فان وجدتني وجدت كل شيء وان فتك فاتك كل شيء ، وهذا قرروه بهذا المعنى في التفسير وفي الكلام على شرح الأسماء الحسنى ، وفي الكلام على أحوال القلوب وسيرها وتوجهاتها الى الملك العلي الأعلى •

وعبارة البيضاوي في الكلام على أول فاتحة الكتاب : وانما خص التسمية بهذه الأسماء ليعلم العارف أن المستحق لأن يستعان في مجامع الأمور هو المعبود الحقيقي الذي هو مولي النعم كلها ، عاجلها وآجلها ، جليلها وحقيرها ، فيتوجه بشراشره الى جناب القدس ، ويتمسك بحبل التوفيق ويشغل سره بذكره والاستمداد به عن غيره •

قال البيضاوي : واجراء هذه الأوصاف على الله تعالى ـ من كونه موجدا للعالمين ربالهم منعما عليهم بالنعم كلها باطنها وظاهرها ، عاجلها وآجلها ، مالكا لأمورهم يوم الثواب والعقاب ـ للدلالة على أنه الحقيق بالحمد لاأحد أحق به منه،

---

(1) الصافات : ٨٧

بل لايستحقه على الحقيقة سواه ، فان ترتب الحكم على الوصف يشعر بعليته لـه وللاشعار من طريق المفهوم على أن من لم يتصف بتلك الصفات لا ينأهل لأن يحمد فضلا عن أن يعبد ليكون دليلا على مابعده .

فالوصف الأول لبيان ماهو الموجب للحمد وهو الايجاد والتربيـة ، والثاني والثالث للدلالة على أنه متفضل بذلك مختار فيه ليس يصدر منه الايجاب بالذات أو وجوب عليه قضيت لسوابق الأعمال حتى يستحق به الحمد ، والرابع لتحقيـق الاختصاص ، فانه لايقبل الشركة فيه ، وتضمين الوعد للحامدين والوعيد للمعرضين انتهى .

وان شئت المزيد على هذا ولم تكتف بما ذكرناه من التمثيل بالبسملة وما فيها من الأبحاث فنتكلم على فاتحة الكتاب بما قاله أهل العلم والتأويل لينتفع بذلـك من وقف على كتابنا هذا .

فاعلم أن (الحمد) على ماأفاده بعض المحققين ذكر محاسن المحمود على وجه الثناء عليه بها مع محبته والرضا عنه والخضوع له ، فلا يحمده من أعرض عن محبته والخضوع له ، أو جعل له شريكا في ذلك ، ولا يرضى عنه من أعد غيره لحاجتـه وفاقته ، واستغاث به في شدته وضرورته ، وهذا الحد أتم وأكمل من تعريف بعضهم له بأنه اصطلاحا فعل ينبيء عن تعظيم المنعم لوجوه لاتخفى على الذكي ، فلا نطيـل بذكرها ، واذا كانت ال فيه للاستغراق وعموم الأفـراد كما هو الراجح ، فجميـع أوصاف الكمال ونعوت الجلال والجمال التي يحمد من قامت به ثابت لله أكملهـا لكمال صفاته وكثرتها ، ولهذا لايحصي أحد من خلقه ثناء عليه ، وبها يستـدل على الهيته ، وانه الاله الحق ، ولذلك يستدل تعالى على بطلان الهية ماسواه بفقد صفات الكمال التي يستحق بها ان يعبد ويعظم ويقصد ، كما قال عن خليلـه في مخاطبتـه لأبيه (يا أَبتِ لم تَعبُد ما لايَسمعُ ولا يُبصِرُ ولا يُغنى عَنكَ شَيئاً)[1]

وقال في عباد العجل : (ألم يَروا أَنَّه لا يُكَلِّمُهم ولا يَهدِيهم سَبيلاً)[2]

فجعل نفي صفات الكمال موجبا لبطلان الهيته وعبادته ، وهذا يعرف بالفطر والعقول فهذه ثلاثة مواضع في أول كلمة من كتاب الله دلت على بطلان دعاء غيره وعبـادته والاستعانة بسواه ، والعبد وان علت درجته وارتفعت رتبته فهو فقـير الى باريه وفاطره ، لانسبة لقدرته وعلمه وحكمته وفضله وكرمه وحياته الى مااتصف به خالقه

(١) مريم : ٤٢ ـ (٢) الاعراف : ١٤٨

والهه الحق من صفات الكمال ، ونعوت الجلال .

قال شيخ الاسلام :

والفقر لي وصف ذات لازم أبدا　　كما الغنى أبدا وصف له ذاتي

(وأما اسمه الله) فهو دال على الالهية المتضمنة لسائر صفات الالهية والكمال، مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى ، دال بالوضع والمطابقة على كونه مألوهـا معبودا ، تألهه الخلائق محبة وتعظيما وخضوعا ومفزعا اليه في الحوائج والنوائب ، بخلاف من اله سواه ممن لايستحق الالهية ولم يخرج عن رتبة العبودية ، وصـار مفزعه في الحوائج والنوائب اليه ، واعتماده في المهمات والملمات عليه .

فمن كان هكذا كعباد الملائكة والأنبيـاء والصالحين : لم يعط هذا الاسـم الشريف حقه من العبودية وافراد الله بالالهية .

(وأما الرب) فهو دال على ربوبيته لجميع مخلوقاته ، وكمال الربوبية هـو بما اتصف به من صفات كمال كقدرته وعلمه ورحمته وقيوميته ، وهو يرب عبـاده بالخلق والتدبير والملك ، وهو من أكبر الأدلة وأوضحها وأجلاها على وجوب عبادته تعالى ، وأن الهية ماسواه وعبادة غيره من أبطل الباطل وأضـل الضلال ، ولهـذا يستدل على الهيته تعالى ووجوب توحيده بأفعاله الصادرة عن ربوبيتـه كخلقـه وقيوميته ، قال تعالى :(أَفمنْ يَخلقُ كَمَن لا يَخلق أَفلا تذَكَّرونَ)[1] وقال تعالى : (أَفمنْ هُو قَائمٌ عَلى كُلِّ نَفسٍ بِما كَسبتْ)[2] وقال (قلْ أَرَأَيتُم ما تدْعُونَ منْ دُونِ اللهِ أَروني مـاذَا خَلقُوا منَ الأَرضِ)[3]

وهذا كثير في القرآن ، ولكن يحول بين عباد القبور والصالحين وفهمه ماعلى قلوبهم من رين الشرك وطابعه .

(وأما اسمه الرحمن) فهو كما تقدم دال على أن الرحمة وصفه وصـف ذات لاينفك عنه ، ولهذا لايطلق على غيره .

(والرحيم) هو الراحم لعباده البالغ في ايصال الرحمة ، لأن فعيل من صيـغ المبالغة ، لكن فعلان أبلغ ، فسعة الرحمة وكثرتها واحاطتها من أدلة عظمة الموصوف وكمال صفاته ووجوب عبادته والهيته وانابة القلوب اليه ، فالمستغيث بغيره الراغب الى سواه فيما لايقدر عليه غيره من الأمور المهمة العظـام ، ومـا ليس من جنس

---

(١) النحل : ١٧ ـ (٢) الرعد : ٣٣ ـ (٣) الاحقاف : ٤

الأسباب العادية ـ كمن يستغيث بالانبياء والصالحين والملائكة ويرجع اليهم في حاجاته وملماته ـ ماأعطى هذا الاسم حقه ، ولا آمن به حق الايمان الواجب ، ولو استشعر شيئا من كمال مدلوله وسعته واحاطته لما عدل بربه سواه ، ولا التفت الى غير رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ،ومشهد الأسماءالحسنى والصفات العليا مشهد عظيم لايعرفه ولا يسير به الا الصديقون العارفون بالله وما يجب له وما يستحيل عليه ، وأما من تعلق على غيره والتفت الى سواه وصار مبلغ علمه وغاية حذقه وفهمه تعلقه على الأولياء والصالحين ورجاء رحمتهم واحسانهم وعطفهم فهو محجوب عن هذا غير عارف بربه جاهل بصفات كماله ونعوت جلاله ، قال تعالى : (قُلْ أَفغير اللهِتأْمُرُونِّي أَعْبدُ أَيُّها الجاهِلونَ)[1] فسجل على من أمر بدعاء الصالحين والاستغاثة بهم بالجهالة ، سواء سمى ذلك توسلا وتشفعا واستنصارا وكرامة أو لم يسمه .

(وأما مالك يوم الدين) فهو وصف كمال ومجد يقتضي وجوب معاملته وحده لاشريك له ، واسلام الوجه له ، لأن الاختصاص والانفرادبالملك يوجب خوفه ورجاءه وطاعته ، والتعلق على المملوك المقهور الذي لاشركة له ولا ملك بوجه من الوجوه ، وقصده في طلب الاعطاء والمنع ، والخفض والرفع ، والنجاة من النار ، والفوز بدار الأبرار سفه وضلال مبين . قال تعالى : (ومَنْ يرغَبُ عنْ ملَّةِ إبراهِيم إلَّا مَنْ سفِهَ نفْسه)[2] وقد تمدح سبحانه باختصاصه بملك هذا اليوم في مواضع من كتابه مع أنه الملك المالك في الدنيا والآخرة لسر اقتضى ذلك وحكمة أوجبته ، وهي انقطاع العلق والأسباب والمؤاخاة والوصل التي يتعامل بها أهل الدنيا في دنياهم ، قال تعالى : (واتَّقُوا يوماً لا تَجزِي نفْسٌ عنْ نفسٍ شَيئاً ولَا يُقبلُ مِنها عَدلٌ ولا تَنفعُها شَفاعةٌ ولا هُم ينْصَرونَ)[3] فاعرف مافي هذا الخطاب من العموم ، وما دل عليه التنكير من الشمول المتناول لكل معبود مع الله ولو نبيا أو ملكا ، وما يجري على يد الشفعاء ذلك اليوم لايرد على الآية ، ولا ينفي العموم ، لأنه لايقع الا باذنه فيمن يرضى قوله وعمله ، فعاد الأمر له جل ذكره بدءا وعودا ، أولا وآخرا .

---

(١) الزمر : ٦٤ ـ (٢) البقرة : ١٣٠ ـ (٣) البقرة : ١٢٣

(والدين) هو الجزاء والمكافأة على الأعمال حسنها وقبيحها ، وما لم ينزل به سلطان ولم ترد به حجة من الأعمال والديانات يجازى فاعله ويعاقب ان لم يمنع مانع كتوحيد الله والايمان به وبرسله ، وأي توحيد يبقى وينفع مع عبادة الأولياء والصالحين ، والاستغاثة بهم وصرف الوجوه اليهم ، قال تعالى : (فَوَرَبِّكَ لَنَسأَلَنَّهم أَجْمعينَ عَمَّا كانوا يَعملونَ) [1] قال جمع : عن شهادة أن لا اله الا الله .

وأما قوله (إِيَّاكَ نعبُدو إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)ففيها اختصاصه وانفراده بالعبادة والاستعانة ، وأن ذلك حق له لايشركه فيه نبي مرسل ولا ملك مقرب . والعبادة هي الغاية المقصودة من العباد المكلفين ، والمؤمنون بالرسل أخلصوا له العبادة وأفردوه بالاستعانة ، فهو معبودهم ومستعانهم ، وجميع الأعمال داخلة في هاتين الكلمتين الشريفتين ، وقد دلت صيغة الحصر والاختصاص فيهما على التوحيد . والعبد همام حارث لابد له من ذلك ، وهمه وحرثه غاية ووسيلة ، فيجب أن يكون غاية قصده ومراده وجه الله والتماس طاعته ومرضاته ، ويجب أن تكون الوسيلة الى ذلك استعانة الله وحده والاستغاثة به ، وهذا حال أهل الكمال ، جمعوا بين عبادة الله واستعانته ، بخلاف من عبد غيره واستعان بسواه ، أو من عبده لكن قصر وأضاع مايحصل به مقصوده من الاستعانة ، أو من استعان به ولكن على مالا يحبه وما لم يشرعه من الأعمال الصالحة أو وسائلها ، ويدخل في النوع الثاني من تعلق على الأنبياء والصالحين عبادة واستغاثة واستعانة ، كعباد القبور ، فانهم لم يعرفوا مادلت عليه هاتان الكلمتان من وجوب العبادة والاستعانة .

وفي حديث ابن عباس (ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله) الحديث . وكتب الحسن الى عمر بن عبد العزيز: اياك أن تستعين بغير الله فيكلك الله اليه . وقال أبو عبد الله القرشي استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون .

والكلام هنا يطول وغرضنا التنبيه على أن القرآن كله دال على التوحيد ، آمر به ، مشير اليه ، مستلزم له ، مقرر لوصف أهله وما لهم من الكرامة في المعاد ، ومبين لأحوال من تركه ولم يرفع به رأسا وأشرك في عبادته ، وما لهذا الصنف من الجزاء والعقاب والاهانة في الدار الآخرة .

---

(١) الحجر : ٩٢ ، ٩٣

وأما قوله : (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) فهذا فيه توحيد الطريق ، وان من سلك سواه وأراد الوصول من غيره فالسبل والطرق عليه مسدودة قاطعة غير موصلة ، وفي حديث ابن مسعود (خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا ثم قال : هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله ، وقال : هذه سبل ، على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه ، ثم قرأ قوله تعالى : وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) •

اذا عرف هذا فالصراط المستقيم ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعون لهم باحسان من أئمة الهدى ، ودعاء الأنبياء والصالحين والاستغاثة بهم والتوجه اليهم كل هذا ليس مما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعون لهم باحسان ، بل وليس عليه أحد من رسل الله وأوليائه وقد توافرت النصوص وتظاهرت على المنع منه ، وقد مر منه جملة صالحة ، فاذا كان خارجا عن الصراط المستقيم ناهيا عنه سالكيه ومؤتميه فهو سبيل يفضي بسالكه الى النيران والدخول في طاعة الشيطان ، وأهل هذا الصراط المستقيم دأبهم وشأنهم افراد الله بالعبادة والاستعانة والاستغاثة والانابة والخوف والرجاء والتوكل والاعتماد ، ومباينتهم في الأوصاف خروج عن صراطهم وطريقهم ، قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في كافيته الشافية :

فلواحد كن واحدا في واحد　　　أعني سبيل الحق والايمان

فسبيل الله واحد لامتعدد ، ولا يمكن أن يأتي أحد بحجة ولا سلطان على أن دعاء الأولياء والصالحين من أهل القبور أو غيرهم مشروع مسنون أو مباح ، ولايمكن أن تأتي شريعة بهذا ، وما يقوله الجاهلون من الشبه الواهية لايعتد به ولا يلتفت اليه ، بل هي قاطعة في الطريق حائلة بين أربابها وبين الصراط المستقيم ، وما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من عند الله ، وان زعموا أنها أدلة وبينات فهي جهالات وخيالات وضلالات ، كما تقدم الكلام على ماأورده النبهاني الزائغ منها ناقلا لها عن أشياخه وأئمته الغلاة •

وقوله تعالى (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فغير صفة ونعت لما قبلها من الاسم الموصول على ماوجهه بعض المفسرين ، والمعنى أن الذين أنعم الله عليهم خالفوا وباينوا المغضوب عليهم والضالين في صفاتهم الشنيعة وأفعالهم القبيحة ،

فالأولون عرفوا الحق ولم يتبعوه ولـم يريدوه ، بل آثروا أغراضهم الفاسـدة ، وشهواتهم القاطعة ، واستمتعوا بخلاقهم ، ولم يعبؤا بما عداه مما فيه صلاح العبد وهداه ، والآخرون غلبت عليهم الشبهات وتاهوا في أودية الجهالات والضـلالات ، ولم يهتدوا الى مانصبه تعالى من الآيات الواضحات ، والأدلـة الظاهرات : على وجوب توحيده والهيته وصمديته ، وتنزهه عن الصاحبة والولد ، وأحـق النـاس بالوصف الأول اليهود وبالوصف الثاني النصـارى ، لغلبـة الوصف الأول على اليهود وغلبة الثاني على النصارى ، ولذلك جاء في حديث عدي بن حاتم (اليهـود مغضوب عليهم والنصارى ضالون) لكن هذا الوصف لايختص بهـم ، بـل كل منحرف عن الصراط المستقيم ايثارا لهواه ورأيه فله نصيب من الوصف الأول ،ومن انحرف لجهله وعدم فقهه فله نصيب من الوصف الثاني ، وهذا الانحراف ان بقي معه أصل الدين الذي لايقوم الايمان والتوحيد الا به فهو من أهل الذنـوب من المسلمين وأمره الى الله ، وان كان الانحراف يخل بأصل الدين والايمان ويمنـع التوحيد ـ كحال من يدعو الملائكة والأنبياء والصالحين مع الله في مهماته وملماته ويعتمد عليهم ويستغيث بهم في شدائده ـ فهذا له حظ وافـر ونصيب كامـل من الضلال ، قال تعالى : (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ) .[1]

انظر هذا الاستفهام وحسن موقعه بعدما تقدم من الاستفهامات التي هي حجج وآيات على مابعدها تعرف به فحش ماجاء به عباد القبور من دعاء آلهتهم والاستغاثة بهم في الملمات والشدائد المذهلات ، وأن أهل الجاهلية كانوا يخلصون في الشدائد ويعترفون بأنه المختص باجابة المضطر وكشف السوء ، وهؤلاء يشتد شركهم عند الضر ونزول الشدائد .

ثم من المعلوم أن أخص أوصاف النصارى الضالين عبادة الأنبياء والصالحـين وجعلهم شركاء لله فيما يختص به ويستحقه ، وطاعة علمائهم وأحبارهم في التحليل والتحريم المخالف لما عهد اليهم في الكتب السماوية على ألسنة أنبيـائهم ، وعبـاد القبور ضربوا في هذا بسهم وافر ، وحصلوا على نصيب من عبادة الأنبياء والصالحين ودعائهم مع الله استحقوا به اطلاق وصف الضلال عليهم فيما أتوا به وابتدعوه من

(١) النمل : ٦٢

طاعة الدعاة الى عبادة القبور من المنتسبين الى العبادة أو العلم .

قال صاحب منهاج التأسيس عليه الرحمة ـ بعد أن ساق ماذكرناه ـ وهذه اشارة تطلعك على ماوراءها .

وفي فاتحة الكتاب والسبع المثاني من العلوم والتوحيد والرد على أصناف الضالين وشيع المبطلين مالا يمكن حصره واستقصاؤه انتهى .

قلت : من أراد الوقوف على تفاصيل ماشتملت عليه هذه السورة الكريمة فعليه بكتاب شرح منازل السائرين للشيخ الحافظ ابن القيم ، ففيه من اظهار كنوز أسرارها ماينشرح به الخاطر .

(ذكر بعض آيات تدل على المقصود ومافسرت به)

قد ذكرنا سابقا أن القرآن الكريم من أوله الى آخره ينادي باخلاص التوحيد لله تعالى وافراده سبحانه بخصائصه ، وقد ذكرنا مثالا لذلك وشاهدا عليه ، وحبا لزيادة الايضاح نذكر ماهو أصرح دلالة على مقصودنا من آيات الكتاب الكريم، فلعل النبهاني وأضرابه من عبدة القبور يهتدي ببعضها ، ويكشف عن قلبه حجاب الضلال .

من ذلك قوله تعالى : (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ) وهذه السورة العظيمة قد اشتملت على كنوز العلم ، وهي تعدل ثلث القرآن ، وقد بسط الكلام عليها الامام تقي الدين ابن تيمية وأفرد لتفسيرها سفرا كبيرا ، وهو بحمد الله متداول (١) ومما قال : (الصمد) فيه للسلف أقوال متعددة قد يظن أنها مختلفة وليست كذلك ، بل كلها صواب ، والمشهور منها قولان : (أحدهما) أن الصمد هو الذي لاجوف له (والثاني) أنه السيد الذي يصمد اليه في الحوائج ، والأول هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة ، والثاني قول طائفة من السلف والخلف وجمهور اللغويين ، والآثار المنقولة عن السلف بأسانيدها في كتب التفسير المسندة وفي كتب السنة وغير ذلك ، قال : وقد كتبنا من الآثار في ذلك شيئا كثيرا باسناده فيما تقدم ، ثم سرد أقوالا كثيرة في معنى الصمد الى أن ذكر فصلا في سبب تنكير أحد وتعريف الصمد في السورة ، وحاصله : أن لفظ أحد لم يوصف به شيء من الأعيان الا الله وحده ،

---

(١) قد طبع هذا التفسير ضمن مجموع فتاوى شيخ الاسلام وهو فى المجلد السابع عشر : أه

وانما يستعمل في غير الله في النفي ، قال أهل اللغة : تقول لا أحد في الدار ولا تقل فيها أحد ، ولهذا لم يجيء في القرآن الا في غير الموجب ، كقوله تعالى : (فَمَا مِنكُم مِن أحدٍ عَنهُ حَاجِزِينَ) [1] وكقوله : (لسْتُنَّ كأَحدٍ مِنَ النِّساءِ) [2] وقوله : (وإنْ أَحدٌ مِن المشرِكينَ اسْتجَارك فأجِرهُ)[3] وفي الاضافة كقوله : (فابْعثُوا أَحدَكُم بورِقِكُم) [4] (وجعلنَا لأَحدِهِما جنَّتينِ) [4]

وأما اسم الصمد فقد استعمله أهل اللغة في حق المخلوقين كما تقدم ، فلم يقل الله صمد بل قال : الله الصمد ، فبين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ماسواه ، فانه المستوجب لغايته على الكمال ، والمخلوق وان كان صمدا من بعض الوجوه فان حقيقة الصمدية منتفية عنه ، فانه يقبل التفرق والتجزية ، وهو أيضا محتاج الى غيره ، فان كل ماسوى الله محتاج اليه من كل وجه ، فليس أحد يصمد اليه كل شيء ولايصمد هو الى شيء الا الله ، وليس في المخلوقات الا مايقبل أن يتجزأ ويتفرق وينقسم وينفصل بعضه من بعض ، والله سبحانه هو الصمد الذي لايجوز عليه شيء من ذلك ، بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة لازمة لايمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه ، كما لايمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه ، فهو أحد لايماثله شيء من الأشياء ، كما قال في آخر السورة :(ولَم يكُنْ لَهُ كُفُواً أحدٌ)استعملها هنا في النفي ، أي ليس شيء من الأشياء كفوا له في شيء من الأشياء ، لأنه أحد . وقال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم (أنت سيدنا ، فقال السيد الله) ودل قوله الأحد الصمد على أنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، فان الصمد هو الذي لاجوف له ولا أحشاء ، فلا يدخل فيه شيء ، فلا يأكل ولا يشرب سبحانه وتعالى ، كما قال : (قُلْ أَغيرَ اللهِ أتَّخذُ ولياً فاطِرِ السَّموات والارضِ وهُو يُطعِمُ ولا يُطْعمُ) [5] وقال تعالى:(ومَا خَلقتُ الجنَّ والإنسَ إلَّا ليعبدُونِ . ما أُرِيدُ مِنهم مِن رِزقٍ وما أُريد أنْ يُطْعِمُونِ إنَّ اللهَ هُو الرَّزاقُ ذُوا القُوَّة المتين) [6] ثم تكلم في مسائل مختلفة

(١) الحاقة : ٤٧ ـ (٢) الاحزاب : ٣٢ ـ (٣) التوبة : ٦ ـ (٤) الكهف : ٩ ، ٣٨ ـ (٥) الانعام : ١٤
(٦) الذاريات : ٥٦ ـ ٥٨

انتقل من بعضها الى بعض وأتى بما يبهر العقول .

(والحاصل) أن كل كلمة من كلمات هذه السورة تقتضي أن يعبد الله وحده وأن لايشرك به أحد ولا يلتجأ الى ماسواه ، فاذا كان معنى أحد أنه ليس كمثله شيء فينبغي أن يستغاث به وحده ، لأنه الكامل في صفات الكمال والمنزه عن صفات النقص ، وغيره ليس كذلك فكيف يسوغ الالتجاء الى الناقص والاعراض عن الكامل ، واذا كان الله أحد كان هو الصمد بأي معنى فسر ، فالأحدية دليل على الصمدية ، فهو الملجأ لاغير ، والصمدية تستلزم اتصاف الله تعالى بأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وكل جملة فهي دليل لما بعدها ، فمن يلد ليس بأحد ولا صمد فلا يلجأ اليه ولا يطلب منه مايطلب من الله الأحد الصمد الذي لم يلد ، ومن يولد كذلك ، ومن كان له كفو أو نظير في ذاته وصفاته فهو لايصلح أن يسند اليه خصائص الالهية ، فهذه السورة على اختصارها جمعت من دلائل الوحدانية مالم تشتمل سورة أخرى عليه ، ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن ، ومن أراد تفصيل ماتضمنته من العلوم فعليه بتفسيرها لشيخ الاسلام .

ومن ذلك قوله تعالى : (قُلْ أَعُوذُ بربِّ الفلَق) الى آخر السورة ، تكلم أيضا على هذه السورة شيخ الاسلام وتلميذه أحسن كلام ، قال ابن القيم في كتابه بدائع الفوائد : المقصود الكلام على هاتين السورتين ـ يعني المعوذتين ـ وبيان عظم منفعتهما وشدة الحاجة بل الضرورة اليهما ، وأنه لايستغني عنهما أحد قط ، وان لهما تأثيرا خاصا في رفع السحر والعين وسائر الشرور ، وأن حاجة العبد الى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته الى التنفس والطعام والشراب واللباس ، فنقول والله المستعان : قد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول وهي أصول الاستعاذة : أحدها نفس الاستعاذة ، والثاني : المستعاذ به ، والثالث : المستعاذ منه ، فبمعرفة ذلك يعرف شدة الحاجة والضرورة الى هاتين السورتين ، وقد عقد لكل أصل من هذه الأصول الثلاثة فصلا وأطنب الكلام فيه ، فمما قال في الفصل الأول : اعلم أن لفظ عاذ وما تصرف منه يدل على التحرز والتحصن والالتجاء ، وحقيقة معنى هذه الكلمة : الهروب من شيء تخافه الى من يعصمك منه .

ولهذا يسمى المستعاذ به معاذا كما يسمى ملجأ ووزرا ، وفي الحديث : (أن

ابنة الجون لما أدخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها قالت : أعوذ بالله منك ، قال : لقد عذت بمعاذ ، الحقي بأهلك) فمعنى أعوذ ألتجيء وأعتصم وأتحرز ، ثم ذكر في أصله قولين ، وقال ـ بعد أن ذكرهما ـ والقولان حق ، والاستعاذة تنتظمهما معا ، فان المستعيذ مستتر بمعاذ مستمسك به معتصم به ، قد استمسك قلبه به ولزمه كما يلزم الولد أباه اذا شهر عدوه سيفا وقصده به فهرب منه فعرض له أبوه في طريق هربه فانه يلقي نفسه عليه ويستمسك به أعظم استمساك فكذلك العائذ قد هرب من عدوه الذي يبغي هلاكه الى ربه ومالكه وفر اليه وألقى نفسه بين يديه واعتصم به واستجار به والتجأ اليه ، وبعد فمعنى الاستعاذة القائم بقلبه وراء هذه العبارات ، وانما هي تمثيل واشارة وتفهيم ، والا فما يقوم بالقلب حينئذ من اللجاء والاعتصام والانطراح بين يدي الرب والافتقار اليه والتذلل بين يديه أمر لاتحيط به العبارة .

ونظير هذا : التعبير عن محبته وخشيته واجلاله ومهابته ، فان العبارة تقصر عن وصف ذلك ، فلا يدرك الا بالاتصاف بذلك لابمجرد الصفة والخبر ، كما أنك اذا وصفت لذة الوقاع لعنين لم تخلق له شهوته أصلا فلو قربتها وشبهتها بما عساك أن تشبهها به لم تحصل حقيقة معرفتها في قلبه ، فاذا وصفتها لمن خلقت فيه وركبت فيه عرفها بالوجود والذوق ، ثم ذكر كلاما طويلا في الفرق بين الاعاذة والاستعاذة في غاية الدقة واللطف ، وذكر سبب الاتيان (بقل) في السورتين وهو من أبدع الوجوه ، ولا غرض لنا يتعلق به فان أردته فارجع اليه .

(ثم قال في الفصل الثاني) والمستعاذ به الله وحده رب الفلق ورب الناس ملك الناس اله الناس ، الذي لاتنبغي الاستعاذة الا به ، ولا يستعاذ بأحد من خلقه ، بل هو الذي يعيذ المستعيذين ويعصمهم ويمنعهم من شر مااستعاذوا من شره ، وقد أخبر تعالى في كتابه عمن استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغيانا ورهقا ، فقال حكاية عن مؤمني الجن : (وأنهُ كانَ رِجالٌ مِن الإِنسِ يَعُوذُونَ برجالٍ من الجنِّ فزَادُوهُم رَهَقاً).[1]

جاء في التفسير أنه كان الرجل من العرب في الجاهلية اذا سافر فأمسى في أرض قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه ، فيبيت في أمن وجوار منهم حتى

---

(١) الجن : ٦

يصبح ، أي فزاد الأنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقا أي طغيانا وغيا واثما وشرا ، يقولون سدنا الأنس والجن ، والرهق في كلام العرب الاثم وغشيان المحارم ، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانا لما كان محظورا من الكبر والتعاظم وظنوا أنهم سادوا الانس والجن .

واحتج أهل السنة على المعتزلة في أن كلمات الله غير مخلوقة بأن النبي صلى الله عليه وسلم استعاذ بها بقوله : (أعوذ بكلمات الله التامات) وهو صلى الله عليه وسلم لايستعيذ بمخلوق ، ونظير ذلك قوله : (أعوذ برضاك من سخطك ، وبعفوك من عقوبتك) فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته ، وأنه غير مخلوق ، فكذلك قوله (أعوذ بعزة الله وقدرته) وقوله : (أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات) وما استعاذ به النبي صلى الله عليه وسلم فانه غير مخلوق ، لايستعيذ الا بالله أو بصفة من صفاته .

وجاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم الرب والملك والاله ، وجاءت الربوبية فيها مضافة الى الفلق والى الناس ، ولا بد من أن يكون بين ماوصف به نفسه في هاتين السورتين مناسبة ، وقد قررنا في مواضع متعددة أن الله سبحانه يدعى بأسمائه الحسنى ، فنسأل لكل مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في هاتين السورتين انه ماتعوذ المتعوذون بمثلهما ، ولا بد أن يكون الاسم المستعاذ به مقتضيا للمطلوب ، وهو دفع الشر المستعاذ منه أو رفعه، وانما يتقرر هذا بالكلام في الفصل الثالث ، وهو الشر المستعاذ منه ، فبه تتبين المناسبة المذكورة .

وذكر في الفصل الثالث أنواع الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين ، وأطنب في بيان ذلك ، وأتى بالعجب العجاب .

(والمقصود) أن كلتا السورتين تدلان على أن الملجأ والمعاذ هو الله تعالى ، فمن استغاث بمخلوق ملكا كان أو نبيا أو وليا فقد التجأ اليه ، ومن التجأ اليه في طلب مالا يقدر عليه أحد الا الله فقد عبده ، لأن الدعاء مخ العبادة ، ومن عبد غير الله فقد أشرك ، والآيات القرآنية في هذا الباب كثيرة ، وقد ذكرنا فيما سبق بعضا منها ، ومن قرأ القرآن وتدبر معناه تحقق ذلك .

(وأما ماورد من السنة النبوية فهو البحر الذي لاساحل له) فقد كان صلى الله عليه وسلم خصما للمشركين ، وعدوا للكافرين ، وقد بعثه الله تعالى لمحق ماكان

عليه أهل الجاهلية وابطال ضلالاتهم الشركية ، وقد كان خلقه القرآن ، وما أنزله الله عليه من البيان ، وقد نظرنا الى الكتب المؤلفة في اذكاره وأدعيته فلم نر فيها دعاء التجأ فيه الى غير الله ، هذا كتاب (الأذكار) للنووي فيه من الأدعية السنية ماهو معلوم الصحة ، وهذا كتاب (نزل الأبرار ، في الأدعية والاذكار) وهذا كتاب (الكلم الطيب والعمل الصالح) لشيخ الاسلام ، وهذا كتاب (الحصن الحصين) للشيخ محمد الجزري ، جميع مافي هذه الكتب من الأدعية كلها من الله تعالى ، ليس فيها كلمة دالة على الطلب من غيره تعالى ، والله تعالى يقول (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)[1] فينبغي أن يتأسى كل مسلم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقتدي به في أقواله وأفعاله ، ويسلك في ذلك مسلك الصحابة والتابعين لهم باحسان من الأئمة والمجتهدين رضوان الله عليهم أجمعين .

ماكان يقوله صلى الله عليه وسلم في طلب النصر : (اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم) وكان اذا غزا قال : (اللهم أنت عضدي ونصيري ، بك أحول وبك أصول وبك أقاتل) وعن أنس قال : (كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة فلقي العدو ، فسمعته يقول : يامالك يوم الدين، اياك نعبد واياك نستعين ، فلقد رأيت الرجال تصرعها تضربها الملائكة من بين أيديها ومن خلفها) وكان يقول : (حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة الا بالله العزيز الحكيم ، ماشاء الله ، لاقوة الا بالله ، اعتصمنا بالله ، استعنا بالله ، توكلنا على الله)ويقول : (حصنتنا كلنا أجمعين بالحي القيوم الذي لايموت أبدا ، ودفعت عنا السوء بلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم) ويقول : (ياقديم الاحسان ، يامن احسانه فوق كل احسان ، يامالك الدنيا والآخرة ، ياحي ياقيوم ، ياذا الجلال والاكرام ، يامن لايعجزه شيء ولا يتعاظمه ، انصرنا على أعدائنا هؤلاء وغيرهم ، وأظهرنا عليهم في عافية وسلامة عامة عاجلا)

وفي كتاب (الحصن الحصين) من ذلك شيء كثير ، وهو للامام الكبير محمد الجزري رحمه الله تعالى ، وقد قال في خطبة الكتاب المذكور : هذا الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين ، وسلاح المؤمنين ، من خزانة النبي الأمين ، والهيكل العظيم من قول الرسول الكريم ، والحرز المكنون ، من لفظ المعصوم المأمون ، بذلت فيه

---

(١) الاحزاب : ٢١

النصيحة ، وأخرجته من الأحاديث الصحيحة ، أبرزته عدة عند كل شـــدة ، وجردته جنة تقي من شر الناس والجنة ، تحصنت به فيما دهم من المصيبة ، واعتصمت من كل ظالم بما حوى من السهام المصيبة ، وقلت :

ألا قولـــوا لشخص قد تقـــوى   على ضعفـــي ولا يخشى رقيبــه
خبـــأت له سهـــاما في الليـــالي   وأرجـــو أن تكون له مصيبـــة

قال : ولما أكملت ترتيبه وتهذيبه طلبني عدو لايمكن أن يدفعـــه الا الله تعالى فهربت منه مختفيا وتحصنت بهذا الحصن ، فرأيت سيد المرسلين صلى الله عليــه وسلم وأنا جالس على يساره ، وكأنه يقول ماتريد ؟ فقلت يارسول الله ادع الله لي وللمسلمين ، فرفع يديه الكريمتين وأنا أنظر اليهما فدعا ثم مسح بهما وجهه الكريم ، وكان ذلك ليلة الخميس ، فهرب العدو ليلة الأحد ، وفرج الله عني وعن المسلمـــين ببركة هذا الكتاب عنه صلى الله عليه وسلم ، انتهى •

وما كان يقوله في دعاء الوتر وهو : (اللهم انا نستعينك ونستغفرك ونستهديك ونؤمن بك ونتوكل عليك) الى آخره ، وفي رواية (اللهـــم اهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ، وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شـــر ماقضيت) الى آخره •

وما كان يقوله اذا أتى فراشه ، وما يقوله اذا استيقظ من منامه ، وما يقوله في الليل ، وما يقوله حال خروجه من بيته واذا دخله ، وما كان يقوله في غير ذلـــك من الأحوال ، كالاستسقاء ونحوه مما هو خارج الصلاة أو داخلها : فشيء لايسعه هذا المقـــام •

(والمقصود) أن جميع أدعيته ليس فيها استغاثة بمخلوق ، ولا اقسام به ، ولا توسط أحد ولا توسل به ، ومن شرط كل مؤمن الاقتداء به صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ)[1]

وفي الأحاديث الصحيحة التي رواها الامام البخاري والامام مسلم وغيرهمـــا ممن جمع الصحيح شيء كثير مما يتعلق بهذا الباب ، كحديث ابن عبـــاس ، وفيـــه (اذا استعنت فاستعن بالله) وقد سبق ذكره ، والرسول صلى الله عليه وسلم أبطل دين المشركين ، ومداره على الاستغاثة والالتجاء الى غـــيره ، وهي كانت عبـــادة

---

(١) آل‌عمران : ٣١

الوثنيين ، وكالذبح والنذر ، غير أنهم كانوا عند النوائب يستغيثون بالله سبحانه ، بخلاف عباد القبور في عصرنا •

(وأما ماورد عن عباد الله الصالحين) مما أخلصوا فيه الدعاء الى الله والتجؤا اليه سبحانه ولم يستعينوا فيه الى مخلوق فهو كثير ، وقد صنف الامام أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال المتوفى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة كتابه الذي سماه (المستغيثين بالله عند الحاجات والمهمات ، والمتضرعين الى الله سبحانه وتعالى بالرغبات) وهو كتاب جليل يسوء النبهاني اذا رآه ، ومنه يعلم أن الصالحين والأولياء الكاملين كلهم كانوا في جميع حالاتهم مقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، روى ابن بشكوال في كتابه هذا عن عبد الله بن المبارك أنه قال : كنت في غزوة فوقع فرسي ميتا فرأيت رجلا حسن الوجه طيب الرائحة ، قال : أتحب أن تركب فرسك ؟ قلت : نعم ، فوضع يده على جبهة الفرس حتى انتهى الى مؤخره ، وقال : أقسمت عليك أيتها العلة بعزة عزة الله ، وبعظمة عظمة الله ، وبجلال جلال الله ، وبقدرة قدرة الله ، وبسلطان سلطان الله ، وبلا اله الا الله ، وبما جرى به القلم من عند الله ، وبلا حول ولا قوة الا بالله ، ألا انصرفت : فوثب الفرس قائما باذن الله تعالى ، وأخذ الرجل بركابي ، وقال : اركب ، فركبت ، ولحقت بأصحابي الى آخر القصة •

(ومن أدعية الامام زين العابدين السجاد رضي الله تعالى عنه) اللهم ان تشأ تعف عنا فبفضلك ، وان تشأ تعذبنا فبعدلك ، فسهل لنا عفوك بمنك ، وأجرنا من عذابك بتجاوزك ، فانه لاطاقة لنا بعدلك ، ولا نجاة لأحد منا دون عفوك ، ياغني الأغنياء ، هانحن عبادك بين يديك ، وأنا أفقر الفقراء بين يديك ، فاجبر فاقتنابوسعك ولا تقطع رجاءنا بمنعك ، فتكون قد اشقيت من استسعد بك ، وحرمت من استرفد فضلك ، فالى من حينئذ منقلبنا عنك ، والى أين مذهبنا عن بابك ، سبحانك نحن المضطرون الذين أوجبت اجابتهم ، وأهل السوء الذين وعدت الكشف عنهم ، وأشبه الأشياء بمشيئتك وأولي الأمور في عظمتك رحمة من استرحمك، وغوث من استغاث بك ، فارحم تضرعنا اليك ، وأغثنا اذ طرحنا أنفسنا بين يديك ، اللهم ان الشيطان قد شمت بنا اذ شايعناه على معصيتك ، فصل على محمد وآله ولا تشمته بنا بعد تركنا اياه لك ، ورغبتنا عنه اليك •

وكم له من مثل هذا الدعاء والالتجاء ماتنير منه أنوار التوحيد ، وتشرق منه

شموس الايمان والتجريد ، وأين هو من أدعية غلاة القبوريين ، طهر الله تعالى الأرض منهم أجمعين .

(ومن وصايا الشيخ عبد القادر الكيلاني رضي الله عنه) ماقال لولده حين استوصاه وهو في مرض الموت : عليك بتقوى الله وطاعته ، ولا تخف أحدا ولا ترجه ، وكل الحوائج كلها الى الله عز وجل ، واطلبها منه ، ولا تثق بأحد سوى الله عز وجل ، ولا تعتمد الا عليه سبحانه ، التوحيد ، التوحيد ، التوحيد ، وجماع الكل التوحيد .

(وقال في مرض موته) اذا صح القول مع الله عز وجل لايخلو منه شيء ولا يخرج منه شيء ، ثم قال : وقال لأولاده ابعدوا من حولي فأنا معكم بالظاهر ومع غيركم بالباطن .

(ثم قال) قد حضر عندي غيركم فوسعوا لهم وتأدبوا معهم ، ههنا زحمة عظيمة ولا تضيقوا عليهم المكان ، وأخبر بعض ولده أنه كان يقول وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، غفر الله لي ولكم ، وتاب الله علي وعليكم ، باسم الله غير مودعين .

وله أحزاب كثيرة ، ووصايا كلها على ما كان يدعو به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصاياه على التوحيد وافراد الله تعالى بخصائصه ، كل ذلك مشهور متداول بين الناس ، وأحزابه التي يقرأ كل حزب منها في يوم من أيام الأسبوع يقرأها الناس ويعرفونها ، ومقامه في باب التوحيد واتباع السنن ليس يخفى على أحد، ولكنه خلف من بعده خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا .

(وقال رضي الله عنه في كتابه فتوح الغيب والغنية) ينبغي لكل مسلم موحد أن لايتكل الا على الله ، ولا يستغيث الا بالله ، ولا يعتقد التصرف الا لله ، وأن يجعل مرآة عمله حديث ابن عباس ، قال : (كنت راكبا خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ياغلام احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف) . ويكفيك أيها المسترشد قوله تعالى في الفاتحة التي تقرأها في صلاتك (اياك نعبد واياك نستعين) فلا تعبد غيره ، ولا تستعن الا به ، ولا تطلب الا منه ، فهذا هو التوحيد اهـ

(ومن كلام الشيخ محي الدين ابن عربي شيخ الصوفية) عند الكلام على قوله تعالى (الَّذينَ يوفونَ بعهدِ اللهِ ولا يَنقضونَ الميثاقَ)[1] قال : ومن أعظم المواثيق أن لايسأل العبد سوى مولاه جل شأنه ، وفي قصة أبي حمزة الخراساني مايشهد بعظم شأنه ، فقد عاهد ربه أن لايسأل أحدا سواه ، فاتفق أن وقع في بئر فلم يسأل أحدا من الناس المارين عليه اخراجه منها حتى جاء من أخرجه بغير سؤال ، ولم ير من أخرجه ، فهتف به هاتف كيف رأيت ثمرة التوكل ، فينبغي الاقتداء به في الوفاء بالعهد على ماقال أيضا ، وقد أنكر ابن الجوزي فعل هذا الرجل وبين خطأه وان التوكل لاينافي الاستغاثة في تلك الحال ، وذكر أن سفيان الثوري وغيره قالوا لو أن انسانا جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار ، ولا ينكر أن يكون الله تعالى قد لطف بأبي حمزة الجاهل ، نعم لاينبغي الاستغاثة بغير الله تعالى على النحو الذي يفعله الناس اليوم مع أهل القبور الذين يتخيلون فيهم مايتخيلون ، فآه ثم آه مما يفعلون .

(وقال الشيخ محي الدين أيضا) في الفتوحات المكية : أوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام ياموسى لاتجعل غيري موضع حاجتك وسلني حتى الملح تلقيه في عجينتك ، هذا تعليم من الله تعالى لنبيه عليه السلام ، وقد رأيته سبحانه في النوم، فقال : وكلني في أمورك فوكلته فما رأيت الا عصمة محضة ولله الحمد على ذلك ، ويكفي في التعليم قوله سبحانه (اياك نعبد واياك نستعين) أي لانعبد سواك ولا نستعين بمخلوق ، وحديث ابن عباس : (واذا استعنت فاستعن بالله) ، وقوله تعالى: (وإذا ذُكر اللهُ وحدَه اشمأزَّتْ قلوبُ الَّذينَ لا يؤمنونَ بالآخِرة)[2] وقوله تعالى : (قُلْ ادعُوا اللهَ أَو ادْعُوا الرَّحْمٰن أَيّاما تدْعُوا فلَه الأَسماءُ الحسْنى) اهـ [3]

وقال الامام زين العابدين السجاد : كيف يسأل محتاج محتاجا ، وقال الامام الغزالي : المؤمن لايجعل بينه وبين الله تعالى وسائط في الطلب ، قال تعالى : (ونَحنُ أَقرَبُ اليه من حَبلِ الورِيدِ) .[4]

(وفي تفسير روح المعاني) عند الكلام على قوله تعالى : (والَّذينَ يدعُونَ

---

(١) الرعد : ٢٠ ـ (٢) الزمر : ٤٥ ـ (٣) الاسراء : ١١٠ ـ (٤) ق :

اللهِ لَا يَخلقُونَ شَيئاً وهُم يُخلَقُونَ . أَمواتٌ غيرُ أَحْياءٍ ومايشعُرُونَ أَيَّانَ يُبعثُونَ)[1] مانصه : ماأعظمها آية في النعي على من يستغيث بغير الله تعالى من الجمـــادات والأموات ، ويطلب منه مالا يستطيع خلقه لنفسه أو دفعه عنها .

وقال بعض أكابر السادة الصوفية : ان الاستغاثة بالأولياء محظـورة الا من عارف يميز بين الحدوث والقدم ، يستغيث بالولي لا من حيث نفســه بل من حيث ظهور الحق فيه ، فان ذلك غير محظور ، لأنه استغاثة بالحق حينئذ .

وأنا أقول : اذا كان الأمر كذلك فما الداعي للعدول عن الاستغاثة بالحق من أول الأمر ؟ وأيضا اذا ساغت الاستغاثة بالولي من هذه الحيثية فلتسـغ الصـلاة والصوم وسائر أنواع العبادة له من تلك الحيثية أيضا ، ولعل القائل بذلـك قائل بهذا ، بل قد رأيت لبعضهم مايكون هذا القول بالنسبة اليه تسبيحا ، ولا يكـاد يجري قلمي أو يفتح فمي بذكره ، فالطريق المأمون عند كل رشيد ، قصر الاستغاثة والاستعانة على الله عز وجل ، فهو سبحانه الحي القادر العالم بمصالح عباده ، فاياك والانتظام في سلك الذين يرجون النفع من غيره تعالى .

وفي هذا التفسير أيضا : (إنَّ الَّذينَ تدْعُونَ مِنْ دُون اللهِ لنْ يَخلُقُوا ذُبَاباً)[2] اشارة الى ذم الغالين في أولياء الله تعالى حيث يستغيثون بهم في الشدة غافلين عن الله تعالى ، وينذرون لهم النذور ، والعقلاء منهم يقولون انهم وسائلنا الى الله تعالى ، وانما ينذر له عز وجل ، ويجعل ثوابه للولي ، ولا يخفى أنهم في دعواهـم الأولى أشبه الناس بعبدة الأصنام ، القائلين : (مَا نعبُدُهم إلَّا ليقرِّبونا إلى اللهِ زُلفَى)[3] ودعواهم الثانية لابأس بها لو لم يطلبوا منهم بذلك شفاء مريضهم أو رد غائبهم أو نحو ذلك، والظاهر من حالهم الطلب ، ويرشد الى ذلك أنه لو قيل انذروا لله تعالى واجعلوا ثوابه لوالديكم فانهم أحوج من أولئك الأولياء لم يفعلوا ، ورأيت كثيرا منهم يسجد على أعتاب حجر القبور للأولياء ، ومنهم من يثبت التصرف لهم جميعا في قبورهم ، لكنهم متفاوتون فيه حسب تفاوت مراتبهم ، والعلمـاء منهم يحصـرون التصرف في القبور في أربعة ، أو خمسة ، واذا طولبوا بالـدليل قالـوا ثبت ذلك

(١) النحل : ٢٠ ، ٢١ ـ (٢) الحج : ٧٣ ـ (٣) الزمر : ٣

بالكشف ، قاتلهم الله تعالى ماأجهلهم وأكثر افتراءهم ، ومنهم من يزعم أنهم يخرجون من القبور ويتشكلون بأشكال مختلفة ، وعلماؤهم يقولون انما تظهر أرواحهم متشكلة وتطوف حيث شاءت ، وربما تشكلت بصورة أسد أو غزال أو نحوه ، وكل ذلك باطل لاأصل له في الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة ، وقد أفسد هؤلاء على الناس دينهم ، وصاروا ضحكة لأهل الأديان المنسوخة من اليهود والنصارى ، وكذا لأهل النحل والدهرية ، فنسأل الله تعالى العفو والعافية •

وفيه أيضا عند الكلام على قوله تعالى : (وإذا تتلى عليهم آياتنا بيِّنات تعرِفُ في وُجوهِ الَّذينَ كَفروا المنكَرَ) [1] الآية فيه اشارة الى ذم المتصوفة الذين اذا سمعوا الآيات الرادة عليهم ظهر عليهم التجهم والبسور وهم في زماننا كثيرون ، فانا لله وانااليه راجعون •

وقال لما تكلم على قوله تعالى : (فَالمدبِّرات أَمراً) من سورة والنازعات : انه اقسام من الله تعالى بطوائف من ملائكة الموت ، وقيل غير ذلك ، الى أن قال : وفي حمل المدبرات على النجوم ايهام صحة مايزعمه أهل الأحكام وجهلة المنجمين ، وهو باطل عقلا ونقلا ، كما أوضحنا ذلك فيما تقدم ، وكذا في حملها على النفوس الفاضلة المفارقة ايهام صحة مايزعمه كثير من سخفة العقول من أن الأولياء يتصرفون بعد وفاتهم بنحو شفاء المريض وانقاذ الغريق والنصر على الأعداء ، وغير ذلك مما يكون في عالم الكون والفساد ، على معنى أن الله تعالى فوض اليهم ذلك ، ومنهم من خص ذلك بخمسة من الأولياء ، والكل جهل وان كان الثاني أشد جهلا ، الى آخر ماقال •

وفيه أيضا على قوله تعالى : (يا أَيُّها الَّذينَ آمنُوا لَا تَدخُلو بيوتاً غَيرَ بيوتكُم حَتَّى تسْتَأْنسُوا وتُسلِّموا على أَهْلها)• [2]

ذكر بعض الغلاة أنه اشارة الى أنه لاينبغي لمن يريد الدخول على الأولياء أن يدخل حتى يجد روح القبول والاذن بافاضة المدد الروحاني على قلبه المشار اليه بالاستئناس ، فانه قد يكون للولي حال لايليق للداخل أن يحضره فيه وربما يضره ذلك ، وطرد بعض الصوفية ذلك فيمن يريد الدخول لزيارة قبور الأولياء ، فقال :

---

(١) الحج : ٧٢ ـ (٢) النور : ٢٧

ينبغي لمن أراد ذلك أن يقف بالباب على أكمل مايكون من الأدب ويجمع حواسه ويعتمد بقلبه طالبا الاذن ، ويجعل شيخه واسطة بينه وبين الولي المزور في ذلك ، فان حصل له انشراح صدر ومدد روحاني وفيض باطني فليدخل والا فليرجع ، وهذا هو المعنى بأدب الزيارة عندهم •

قال المفسر رحمه الله في رده : ولم نجد ذلك عن أحد من السلف الصالح ، والشيعة عند الزيارة للأئمة ينادي أحدهم أأدخل ياأمير المؤمنين ؟ أو يا ابن بنت رسول الله ؟ أو نحو ذلك ، ويزعمون أن علامة الاذن حصول رقة القلب ودمع العين ، وهو أيضا مما لم نعرفه عن أحد من السلف ، ولا ذكره فقهاؤنا ، وما هو الا بدعة ، ولا يعد فاعلها الا ضحكة للعقلاء ، وكون المزور حيا في قبره لايستدعي الاستئذان في الدخول لزيارته ، وكذا ماذكره بعض الفقهاء من أنه ينبغي للزائر التأدب مع المزور كما يتأدب معه حيا كما لايخفى •

قال : وقد رأيت بعد كتابتي هذا في (الجوهر المنظم في زيارة القبر المعظم) صلى الله تعالى على صاحبه وسلم لابن حجر المكي مانصه : قال بعضهم : وينبغي أن يقف يعني الزائر بالباب وقفة لطيفة كالمستأذن في الدخول على العظماء ، انتهى •

وفيه : أنه لاأصل لذلك ، ولا حال ولا أدب يقتضيه ، انتهى •

ومنه يعلم أنه اذا لم يشرع ذلك في زيارة قبره عليه الصلاة والسلام فعدم مشروعيته في زيارة غيره من باب أولي ، فاحفظ ذاك ، والله تعالى يعصمنا من البدع واياك •

وفيه ايضاً على قوله تعالى : (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلوبُ الَّذين لا يُؤْمنُونَ بالاخِرَةِ).[1]

وقد رأينا كثيرا من الناس على نحو هذه الصفة التي وصف الله تعالى بها المشركين ، يهشون لذكر أموات يستغيثون بهم ، ويطلبون منهم ، ويطربون من سماع حكايات كاذبة عنهم توافق هواهم واعتقادهم فيه ، ويعظمون من يحكى لهم ذلك وينقبضون من ذكر الله تعالى وحده ، ونسبة الاستقلال بالتصرف اليه عز وجل ، وسرد مايدل على مزيد عظمته وجلاله ، وينفرون ممن يفعل ذلك كل النفرة وينسبونه الى مايكره•

وقلت يوما لرجل يستغيث في شدة ببعض الأموات وينادي يافلان أغثني —

(١) الزمر : ٤٥

فقلت له : قل ياألله ، فقد قال سبحانه : (وإذَا سَأَلكَ عِبادي عَنِّي فإنِّي قَريب أُجيبُ دَعوةَ الدَّاعِي اذَا دَعان)[1] فغضب وبلغني أنه قال : ان فلانا منكر على الأولياء ، وسمعت عن بعضهم أنه قال الولي أسرع اجابة من الله عز وجل ، وهذا من الكفر بمكان ، نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الزيغ والطغيان •

وفيه أيضا عند الكلام على قوله تعالى : (حَتَّى اذَا كُنتُم في الفُلك وجَرينَ بهم بريح طَيِّبة وفَرحُوا بها جَاءتْها رِيحٌ عاصفٌ وجَاءهُم الموجُ من كُلِّ مكانٍ وظنُّوا أَنَّهم أُحِيطَ بهم دَعَوُا اللهَ مُخلصينَ لهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجيتنَا من هـذهِ لَنَكُونَنَّ منَ الشَّاكِرين فلمَّا أَنْجاهُم اذا هُم يبغُون في الأَرض بغَيرِ الحقِّ)[2]•

لما كان يوم الفتح فرّ عكرمة ابن أبي جهل فركب البحر فأصابتهم عاصف ، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة اخلصوا فان آلهتكم لاتغني عنكم شيئا ، فقال عكرمة : لئن لم ينجني في البحر الا الاخلاص ماينجني في البر غيره ، أللهم ان لك عهدا ان أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدا حتى أضع يدي في يده فلأجدنه عفوا كريما ، قال : فجاء فأسلم •

وظاهر الآية أنه ليس المراد تخصيص الدعاء فقط به سبحانه بل تخصيص العبادة به تعالى أيضا لأنهم بمجرد ذلك لايكونون مخلصين له الدين ، وأياما كان فالآية دالة على أن المشركين لايدعون غيره تعالى في تلك الحال •

وأنت خبير بأن الناس اليوم اذا اعتراهم أمر خطير وخطب جسيم في بر أو بحر دعوا من لايضر ولا ينفع ولا يرى ولا يسمع ، فمنهم من يدعو الخضر والياس ، ومنهم من ينادي أبا الخميس والعباس ، ومنهم من يستغيث بأحد الأئمة ، ومنهم من يضرع الى شيخ من مشائخ الأمة ، ولا ترى فيهم أحدا يخص مولاه بتضرعه ودعاه ، ولا يكاد يمر له ببال انه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الأهوال ، فبالله تعالى عليك قل لي أي الفريقين من هذه الحيثية أهدى سبيلا ، وأيّ الداعيين أقوم قيلا ، والى الله تعالى المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة ، وتلاطمت أمواج الضلالة ، وخرقت سفينة الشريعة ، واتخذت الاستغاثة بغير الله تعالى للنجاة ذريعة

(١) البقرة : ١٨٦ ـ (٢) يونس : ٢٢ ، ٢٣

وتعذر على العارفين الأمر بالمعروف ، ومالت دون النهي عن المنكر صنوف الحتوف •

وفيه أيضا في تفسير قوله تعالى : (والَّذين عَملوا السَّيئات ثمَّ تابوا منْ بعدهَا وآمنُوا انَّ ربَّكَ من بعدهَا لغَفورٌ رَحيمٌ)[1] وقد أورد كلاما حاصله أن يلتجيء الانسان في المهمات اليه تعالى ، ثم قال : وفي الآية اعلام بأن الذنوب وان جلت وعظمت فان عفو الله تعالى وكرمه أعظم وأجل ، وما ألطف قول أبي نواس غفر الله تعالى له :

يارب ان عظمت ذنوبي كثيرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
ان كان لايرجوك الا محسن فبمن يلوذ ويستجير المجرم

ومما ينسب للامام الشافعي رضي الله تعالى عنه :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي جعلت الرجا ربي لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما

وكم في هذا التفسير الجليل الشان من مسائل تتعلق بوجوب تحقيق توحيد الملك الديان ، وافراده سبحانه بأن يستغاث ويستعان •

وفي كتاب ابن أبي الدنيا ـ الذي ألفه في كلام المحتضرين ـ شيء كثير من كلام الصالحين ، والأولياء والعارفين ، الذي تكلموا في آخر عمرهم ، وقد حصروا الاستعانة والالتجاء به تعالى ، وانه لاينبغي أن يستغاث بغيره ، نظما ونثرا ، وقد أفرد له الغزالي بابا في الاحياء ، وأتى الزبيدي في شرحه بملخص كتاب المحتضرين لابن أبي الدنيا ، تركنا ذكره لطوله ولكونه متداولا هذا الكتاب بين الناس •

ومن المنظوم في هذا الباب ما قاله الشاعر الشهير الشيخ صالح تجاوز الله عنه :

ياسائلا غير الاله انسما بشراك بالخيبة والرد
ان الذي سواك من نطفة يغنيك عن مسألة العبد

ولآخر

لاتسألن من ابن آدم حاجة وسل الذي أبوابه لاتحجب
الله يغضب ان تركت سؤاله وبنيّ آدم حين يسأل يغضب

وللعلامة الجليل ، والفاضل النبيل ، محدث عصره ، وحافظ مصره ، الشيخ علي السويدي ، صاحب كتاب العقد الثمين عليه الرحمة :

يانفس كم لاتعبئين بحالي هل اتعظت بفرقة الأمثال

---

(١) الاعراف : ١٥٣

ذهب الزمان بأهله وتخلفت	أخلاف سوء عادموا أفضال
بئس الخلائق هم ولا ذكرى لهم	أشباح أهواء ومحض خيال
أخلاقهم نقض العهود ودأبهم	خلف الوعود وزخرف الأقوال
لايعرفون وداد من صافاهم	ويرون ذلك شعبة لضلال
لايسألون عن الصديق كأنهم	جلوا عن الاشباه والأمثال
ألفوا الجفاء فمن أتى منهم بما	فيه الوفاء فقد أتى بمحال
أديانهم دنيا بدت تبدي لنا	مافيهم من أسوء الأفعال
يتفاخرون بجمع أموال غدت	نسبا شريفا وابتهاج جمال
أفلا يرون بني اليهود وعابدي الـ	أنداد أجمع منهم للمال
اني بلوتهم فلم أر فيهم	الا البلاء وأعظم البلبال
لاخير فيهم غير أن وفاقهم	نكد وهم مؤذن بوبال
يانفس عدي عنهم وتصبري	فهم الغثاء ودمنة الأطلال
وتخيلي لمثالهم من طينة	غبراء وانظر مقتضى التمثال
وثقي بمن خلق السموات العلى	الواحد المتكبر المتعالي
والله ماأسفي غدا الا على	ما ضاع مني سابق الأحوال
مع أنني من فضل ربي ليس لي	طمع بجاه عندهم وبمال
ياصاحب النفس الملومة انني	أنهاك دهشتها بيوم كلال
صاح استمع نصحا أتاك مفصلا	كتفصل العقيان فوق لئال
بادر بقايا عمرك الفاني فلا	تصرفه الا في الرضى المتوالي
واشغل فؤادك دائبا متفكرا	فيما يليق بمنصب الاجلال
واخلص عبادتك التي باشرتها	في القول والأحوال والأفعال
واشغل بذكر الله قلبك لاهجا	بصفاته العليا بلا امـلال
واجعل مماتك نصب عينك انه	أولى الأمور وأنصح الأحوال
واعلم بأنك بعد ذاك محاسب	فاضبطه لاتك فيه ذا اهمال
واعلم بأنك بعد ذلك صائر	اما الى بؤس أو الأفضال
وادأب على حفظ الشريعة سالكا	سبل الهدى لا قاليا أو غالي
وابدأ بحفظ القلب عن شبهاته	واعرف مساويها على الاجمال
وكذاك فاحفظه عن الشهوات اذ	بالحفظ من هذين كل كمال

ثـم اسقـه ماء الحيـاة بواعظ ... من محكـم التنزيـل في اجـلال
واحرس فراغـك بالتـذكر انـه ... عمر اذا مـا ضـاع منـك لغالي
واحفظ جوارحك التي أوتيتهـا ... عن كل مايقضى بكـل نكـال
واعلـم بأنـك ماخلقت سبهلـلا ... فاعبـد الـه العرش بالاقبـال
واجعـل سلاحـك دعـوة بانابة ... والجـأ الى مولاك غـير مبـال
واسألـه لاتسأم فانـك عبـده ... فهـو الكريـم ورب كل نـوال
يارب فاقطـع عن فؤادي كل مـا ... أرجـوه الا منـك من آمـال
واغسـله من درن الظنـون فانه ... مرض القلوب وموجب الاعـلال
وأرحـه من نظـر العبـاد فانه ... أصـل الفسـاد وافسد الأشغـال
وارزقه خشيتـك التي تستوجب الـ ... حسنى لدى المقبول من أعمـال
يارب وفقنـي لمـا فيـه الرضى ... فلقـد وعدت اجابة التسـآل
واختم لنـا بالخـير عاجلـه الذي ... تبـدو حـلاوة ذوقـه بمـآل
يارب انـي عبـدك الجاني على ... نفسي تجـاوز عن قبيـح فعـالي
واجعـل صلاتك دائمـا تترى على ... كنـز المعالي السيـد المفضـال
وكـذا علـى آل له وصحـابة ... أهـل العلى والعز والاجـلال

فانظر الى قوله واسأله لاتسأم الخ ، وفي نسخة :

واسأله لاتسـأل سـواه فانه المـ ... ولى الكـريم ورب كل نـوال

وقوله : يارب فاقطع الخ ، والى قوله : وأرحه من نظر العباد الخ ، والى سائر أقواله تجد أنوار التوحيد تشرق منها ، وهكذا المؤمن المتبع لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم لايستمد ولا يستغيث ولا يلتجيء ولا يستعين الا باللـه ، ومن كان على قلبه حجاب الغفلة وصدأ الضلال وداء الزيغ أعرض عن الله ، ونادى غيره ، وأقبل على ماسواه وشرع يتشبث بالشبهات الواهيـة ، والدلائـل الفاسـدة ، والحكايات الكاذبة ، ولم يلتفت الى نصوص الشريعة الغراء ، وما ورد من الأحاديث الصحيحة الصريحة ، وعليك بما ألفه هذا الناظم الفاضل في العقائد السلفية ، وهو كتاب (العقد الثمين) وقد بلغني أن بعض أفاضل الحنفية كتب في وصيته لبنيه أن يقرؤا هذا الكتاب ، ويعقدوا خناصر قلوبهم على حفظه ، فان النجاة فيه وفي أمثاله من كتب حفاظ الحديث وعلماء السنة النبوية ، وهذا الكتاب جمع جميع مايجب على

المكلف معرفته ، ولذلك قال فيه العالم العلامة الشيخ محمد خليل الدمشقي الشهير بابن الخشنة مقرظا ومادحا لهذا الكتاب وذاكرا فيه بدع الغلاة وهو قوله :

للـــه در امام ســـاد كل علي — فحق بالحــق أن يدعى بمـلا على
اهــدى الينـا كتـــابا من براعته — هو الشفــاء لمرضى الغي والخطـل
ابدى به من رقيق الفكر فانفجـرت — منه عيون الهدى أحلى من العسـل
لاغرو فهـو امام العصر جهبـــذه — بـل قـد غلا وعـلا فيه على الأول
لاضير ان أشرقت فينـا طوالعـــه — فالشمس رادالضحى كالشمس في الطفل
عقائـــد هي عين الحـــق هادية — الى صراط سوي جل عن دغـــل
من سنة المصطفى والآي قد نسجت — تلك البرود فكانت أشرف الحلـل
وطرزت بـدراري العقل ساطعـــة — منهـا البراهين تمحو غيهب الزلـل
قد أظهرت بدعا صارت ترى سننـا — لدى الالي سكروا عن شرعة الرسل
قوم هم نهجوا سبـل الغـواية اذ — زاغوا فعنـــدهم ابليس خير ولي
والقطب والغوث والابدال من تركوا — شرائع الـدين أو سبوه بالجمـــل
قلنـا لهـم لم يصلوا قيل عندكـم — وبعضهم قـال هم عنها لفي شغـل
جهال قلنـا فقالوا اللب عندهـــم — والقشر عندكـم للرد والجـــدل
فساق قلنـا فقـالوا يسترون على — أحوالهم كي تظنوهم من السفـــل
قلنا زناة فقالوا ذاك عن حكـــم — أقلها سد ثقب الفلـك عن خلـــل
قلنـا لهـم يأكلون السحت قيل هم — بحر ولا تقـذر الأمواج بالبصـل
برهانهـم من حكــايات مزخرفة — هي الغرور من الشيطان للختـــل
عمي عن الحـق صم حيث عالمهـم — لايدرك الفرق بين الجذب والخبـل
تبـا وتبـا لسيـاراتهم فلقـــد — غشت على عـين شرع الله بالقـذل
تكـونت من مناكـير منغصـــة — ومن جنـون ومن حمق ومن ثمـل
ولو ترى لرأيت النكر غشولهـــم — وثور أعلامهم من أسمج الحيـــل
وطالمـــا مر من للـــدين منتسب — مخشوشع ضارع يبكـي بكا العيل
وهزهم للتـــوابيت التي ارتفعت — ونكس أرؤسهم باللثـم والقبـــل
وقولهم يابني يحيى عليـــك به — فخـذه واقتله وانصرني على عجل
وغائبـي يوم تأتينـي به عجــلا — نـذري اليـك كذا يأتي بلا مهـل
كـم غصة قتلت كـم رجفة قصمت — ظهر الأريب وكم نبل من الأســل

حتـى أقامت به الأعداء حجتهـم ... من كـل منتقص للـدين أولولي
واضيعة الدين اذ أهل الكتاب غدت ... تظن ذا دين خـير الرسـل واخجلي
وياخسـارتهم ياقبـح مافعلـوا ... كأنهم لـم يميزوا الرب من هبـل
وياشقـاوة قـوم بين أظهـرهم ... لو نافقـوا وتلوا متنا من الخبـل
ادواء لايرتجـى بـرء لعلتهـا ... الا بشرب حبـوب الموت بالعلـل
ألم يروا نقـم الله التي اشتعلت ... ترمى جمالات صفر من لظى الجلـل
سكرى ثملت بدن من معتقـة ... ماشيب فيها سوى الدردي بالأصل
ماست رويدا وكان النشر يقعدهـا ... حتى ارتوت بغبوق النهـل والعلل
واستحكم السكر منها فانثنت طربا ... تهتز في خبب رقصا وفي رمـل
هاجت بها ريح نجد بالصبا سحـرا ... وناح صدح رخيم الناي بالزجـل
غنت عراقا وغنت بالحجـاز على ... برج النوى بافانين من الغـزل
وقودها الناس بل من غيضها شهقت ... بالطفل والحمل والأنعـام للنـزل
فتكا وذبحا وبقرا للبطـون على ... عقـر البهائـم بعد القطـع للسبل
ولات حـين مناص حيث داهيـة ... دهماء قد سطرت في سـابق الأزل
كأنما صيحـة اللـه التي عقلت ... أودت بعقل أولي الألباب ذي الدول
وهكـذا يصنـع الله متى انتهكت ... شرائع الدين صونا منه عن بـدل
هلا رجعنا لمحـو الذنب حين ربا ... مستمطرين الدما من صيب المقل
مستمسكين بعروى دين أحمـدنا ... مستوثقـين بمولى خـير متكـل
تذب عن بيضة الاسـلام من كثب ... بصارم الشـرع نرجـو منة النفـل
ياسيـد الدهر ماهذا الأنين على ... آثار سعدى وسعد الدين في زحـل
ويابـديع المعاني راح يلمـزها ... قوما غدوا يعدلون الذر بالجمـل
ناديت صما ولكن لاحياة لهـم ... هيهات هيهات عن ذا الكل في شغـل
رشيت نبلا ولكن لاحراك لهـا ... هل يخرق السهم صم الصخر والجبل
وهل منار السهى وازى الحضيض علا ... وهـل يطابق معوج بمعتـدل
حركت مني هوى قد لج في كبـدي ... نضيحة خلط الاخلاط بالعضـل
وأنت كشاف غـم المعضـلات اذا ... غبطا يقولـون جـار الله معتزلي
خفرت ذمـة أهل الله فأتمنـوا ... وجزت فيهم صراط الناسك النكـل
شـكرا لسعيك قد وفيت عهـدك لا ... تخشى السوى حبذا من عالم بطل

قفـــوت آثار آل كلهـــم منــن   على البـــرية اذ جلوا عن المثـــل
غر فضائلهم عز فواضلهــــــــم   نور شمائلهـــم بالعلم والعمـــل
أدنى الخطا لمعالي نيل سوددهـــم   لو رامها البدر في عامين لم يصـل
لو لم يكونوا أسودا ماجرى مثـلا   مافي السويـدا رجال يوم مرتحـل
باتوا فكانت سويدا القلب مسكنهم   على الحقيقة خوفا من عنا المقـــل
كفى كفى الناس عزا منكم وبكـم   كما كفـى الشعـــر عزا أنه بعلي

وكان هذا الفاضل رحمه الله تعالى من أعيان علماء دمشق الشام ، وكان سلفي العقيدة ، وكم له من قصائد غراء منع فيها الاستغاثة والالتجاء بغير الله تعالى ، وكان سيفا في أعناق الغلاة المبتدعة عبدة القبور ، ولا بدع ففي دمشق أنصـار الدين ، وأئمة الحديث ، وحفظة السنة ، لاهتك الله لهم حريما ، ولا مزق لهم أديمـا ، ولا أخلى الله تعالى الزمان من مثلهم •

ومن ذلك الأبيات المشهورة ، وقد قالوا انها استغاثة مباركة مادعا بها أحد في حاجة الا قضيت ولا توسل بها مريض الا شفي باذن الله تعالى ــ وهي :

يامن يرى مافي الضمير ويسمــع   أنـت المعد لكـل مايتوقـــع
يامن يرجى للشدائد كلهـــــا   يامن اليـه المشتكى والمفـــزع
يامن خـزائن ملكـه في قـول كن   أمنن فان الخير عنـدك أجمـــع
مالي سوى فقري اليك وسيـــلة   فبالافتقـار اليـك فقري أدفـــع
مالي سوى قرعي لبابك حيـــلة   ولئـــن طردت فـأي باب أقــرع
ومن الذي أدعو وأهتف باسمــه   ان كان فضلك عن فقيرك يمنـــع
حاشا لجودك أن تقنط عاصيــا   الفضـل أجزل والمواهب أوســع
بالـــذل قد وافيت بابك عالمـا   ان التـذلل عنـــد بابك ينفـــع
وجعلت معتمـدي عليك توكـــلا   وبسطت كفي سائـلا أتضــرع
فاجعل لنا من كل ضيق مخرجـــا   والطف بنا يامـن اليه المرجـــع
ثم الصـــلاة على النبـــي وآله   خير الخلائق شافع ومشفـــع

ومن ذلك قول بعض العارفين ــ وهي استغاثة مباركة أيضا لم يزل الصالحون يناجون مولاهم بها ويستمطرون سحائب لطفه تعالى :

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا   وبت أشكو الى مولاي ماأجــد

وقلت ياأملي في كل نائبة ... ومن عليه لكشف الضر أعتمد
أشكو اليك أمورا أنت تعلمها ... مالي على حملها صبر ولا جلد
وقد مددت يدي بالذل مبتهلا ... اليك ياخير من مدت اليه يد
فلا تردنها يارب خائبة ... فبحر جودك يروي كل من يرد

ومن ذلك ماقاله البستي في قصيدته الشهيرة :

ياخادم الجسم كم تسعى لخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران
من يتق الله يحمد في عواقبه ... ويكفه شر من عزوا ومن هانوا
من استعان بغير الله في طلب ... فان ناصره عجز وخذلان

ولبعض الصالحين ، وهي قصيدة مشهورة ـ وقد خمسها بعض أهل الزهد وهذا الأصل والتخميس :

رفعت مقامي منة وتفضلا ... وكملتني بالعلم والحلم والولا
ومنك ملأت الكف لي لا من الملا ... لك الحمد ياذا الجود والمجد والعلا
تباركت تعطي من تشاء وتمنع
عروس التجلي في فؤادي تنجلي ... وان وعائي بالمعارف ممتلي
وأرجوك يامولاي ياذا التفضل ... الهي وخلاقي وسؤلي وموئلي
اليك لدى الأعسار واليسر أفزع
اذا كنت لي في جملة الأمر معتني ... وقد نلت هذا الحظ من فضلك السنى
فلست أبالي مع عيوبي [1] ... الهي لئن خيبتني وطردتني
فمن ذا الذي أرجو ومن ذا أشفع
أنا العبد عبد الرق في كل حالة ... ولست بعبد في الرخا أو بشدة
لك الأمر في الحرمان أو في العطية ... الهي لئن جلت وجمت خطيئتي
فعفوك عن ذنبي أجل وأوسع
اذا سلكت دنياي بالحال سبلها ... وأظهرت الأيام في العبد جهلها
فلست يئوسا بل أقول لعلها ... الهي لئن أعطيت نفسي سؤلها
فها أنا في روض الندامة أرتع
اليك رجائي ينتمي واضافتي ... ومنك أرى سكري بدا وافاقتي

(١) هذا الشطر ناقص فليحرر

وهب أنني أخرت عن سير ناقتي　　　الهي ترى حالي وفقري وفاقتي

وأنت مناجاتي الخفية تسمع

بحبك ثوبي في البرية منصبغ　　　ولا زال بالأشواق جلدي يندبغ

وقلبي على الحالين من أمره لدغ　　　الهي فلا تقطع رجائي ولا تزغ

فؤادي فلي في سيب جودك مطمع

جداري على تأسيس جدواك قد بنى　　　ولا زال قلبي بالتذكر يعتني

واني أنادي كلما الوجد حثني　　　الهي أجرني من عذابك انني

أسير ذليل خائف لك أخضع

رفعت الى علياء جاهك قصتي　　　عسى تكشف الآن بقربك غصتي

اذا أنت بالتوحيد طبق محجتي　　　الهي فأنسني بتلقين حجتي

اذا كان لي في القبر مثوى ومضجع

أنا العبد ملق بالرجا وسط لجة　　　ورجت غراما أرض نفسي بسرجة

ولست أرى عذرا ولا بعض حجة　　　الهي لئن عذبتني ألف حجة

فحبل رجائي منك لا ينقطع

سألتك تعفو عن ذنوبي تفضلا　　　فاني لقد أكثرت فيك التوكلا

بأسمائك الحسنى دعوت توسلا　　　الهي أذقني طعم عفوك يوم لا

بنون ولا مال هنالك ينفع

حديث غرامي فيك لازال شايعا　　　وأنت اشتريت النفس مذ كنت بايعا

فجد لي بأمن منك لاأك رايعا　　　الهي لئن لم ترعني كنت ضايعا

وان كنت ترعاني فلست أضيع

عليك ثنائي من جميعي بألسن　　　على كل فعل من فعالك بي سنى

أتيت بذنب لي عن الغير مرسن　　　الهي اذا لم تعف عن غير محسن

فمن لمسيء بالهوى يتمتع

هو العبد من مولاه بالمنة ارتقى　　　غداة له كأس المحبة قد سقى

عليك اتكالي قد عدمت لك البقا　　　الهي لئن قصرت في طلب التقى

فلست سوى أبواب فضلك أقرع

دفعت عذول الحب عني بالتي　　　وفيك فتى أصبحت نحوك مافتى

فان عثرت رجلي وجلت خطيئتي　　　الهي أقلني عثرتي وامح زلتي

فاني مقر خائف متضرع

محبــك لما أنت جــدت له فنـــى   فهيهــات ان تلقــاه بالخــير معتنى
وها أنا راجي الفضل ماعنــك أنثني   الهـــي لئن خيبتنـــي وطردتني
فما حيلتي يارب أم كيف أصنـــع
جمالـــك باه في الملاحة باهـــر   ومنـــك يواقيت بدت وجواهــر
أأبقى ومنـــه قد تجلت مظاهـــر   الهي حليــف الحب بالليــل ساهر
يناجي ويبكي والقفول يهجـــع
مقامك أضحى بانتسابي عاليـــا   فأخرجت من أصداف علمي لئاليـا
وحزني أولوا التحقيق راموا مراميا   وكلهم يرجــو نوالك راجيـــا
والا فبـــالذنب المدمر أصــرع
لوجهــك قــوم أولعــوا بجمــاله   وكـــل تفــانى طامعـــا بوصاله
فبدل لنــا نقص الهوى بكمــاله   الهــي بعلـــم الهاشمي وآلـــه
وتوحيـــد أبرارهـــم لك أخشـــع
ظهورك بي عنـــدي أراه علامــة   على أنــك المســـدي الي كرامــة
وان رامــت الأغيــار مني انتقــامة   الهي أنلنـــي من رجائي ســـلامة
وقبـــح خطيئــــاتي علي يشنـــع
مقام الترجي للنـــوال هو الــذي   أقـــام فؤادي بالتردد يغتـــذي
وان لســاني في ثنا مدحـــه بذي   الهي لئن تعفــو فعفوك منقـــذي
واني يــارب الورى لــك أخضـع
امام الهدى اني ورائك مقتـــدي   ولي فيــك قلب من تشوقه صــدى
وقد بت أستجدي باحشاء مكمــد   الهي فانشـــرني على دين أحمــد
منيبـــا تقيـــا قانتا لك أضــرع
سمــاء العطايا قد رفعت لها يــدي   وأصبحت أرجو زهر روضتها الندي
وأشهدت هذا الباب في كل مشهــد   فلا تحــرمني ياالهــي وسيـــدي
شفاعته الكبرى فذاك المشفـــع
هو المصطفــى المختار طه محمـــد   نبي الهدى رؤيــاه للعين أثمـــد
ســلامك من عبد الغني له يــد   وصــل عليــه مادعـــاك موحــد
وناجاك احيــــاء ببــابك ركـــع

وللزمخشري المفسر الشهير ــ مع أنه كان يرمى بالاعتزال ــ مناجيا مــولاه

ومستغيثا بالله ــ وهكذا فليكن من يدعي التوحيد ، ويعتقد أنه على الرأي السديد ــ :

يامن يرى مد البعوض جناحها	في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها	والمخ في تلك العظام النحل
ويرى مكان المشي من أقدامها	وخطيطها في مشيها المستعجل
ويرى مكان الدم من أعضائها	متنقلا من مفصل في مفصل
ويرى ويسمع حس ماهو صوتها	في قعر بحر غامض متجدول
أصواتها مرفوعة عند الندا	أرزاقها مقسومة للسؤل
اغفر لعبد تاب عن فرطاته	مافات منه في الزمان الأول

وقد استشهد ببعض هذه الأبيات في تفسير سورة البقرة من الكشاف ، وهذه الأبيات تشرق بأنوار التوحيد •

وكان الشيخ شهاب الدين السهروردي يواظب على قراءة هذه الاستغاثة ، وذكروا لها خواص كثيرة وفوائد عظيمة لمن يداوم على قراءتها ، وهي :

سبحانك لا اله الا أنت ، يارب كل شيء ووارثه ، ياإله الآلهة الرفيع جلاله ، ياالله المحمود في كل حال فعاله ، كل يوم هو في شأن ، ياحي حين لاحي في ديمومية ملكه وبقائه ، ياقيوم فلا يفوت شيء من علمه ولا يؤوده ، ياواحد الباقي أول كل شيء وآخره ، ياصمد من غير شبهة ولا شيء كمثله ، يابادىء النفوس فلا شيء كفؤه يدانيه ولا امكان لوصفه ، يا كبير أنت الذيلاتهتدي العقول لوصف عظمته ، ياباريء النفوس بلا مثال خلا من غيره ، يازاكي الطاهر من كل آفة بقدس جلاله ، ياكافي الموسع لما خلق من عطايا فضله ، يانقيا من كل جور لم يرضه ولم يخالطه فعاله ، ياحنان أنت الذي وسعت كل شيء رحمة وعلما ، يامنان ذو الاحسان قد عم كل الخلائق منه ، ياديان للعباد كل يقوم خاضعا لرهبته ورغبته ، ياخالق من في السموات والأرض كل اليه معاده ، ياتام فلا تصف الألسن كنه جلالة ملكه وعزه ، يارحيم كل صريخ ومكروب وعياذه وغياثه وملاذه ، يامبدع البدائع لم يبغ في انشائها عونا ، ياعلام الغيوب فلا يؤوده شيء من حفظه ، ياحليم ذا الانابة فلا يعادله شيء من خلقه ، يامعيد لما أفناه اذا برز الخلائق لدعوته ، ياحميد الفعال ذا المن على جميع خلقه بلطفه ، ياعزيز المنع الغالب على أمره فلا يعادله ، ياقاهر ذا البطش الشديد

أنت الذي لايطاق انتقامه ، ياقريب ، يامتعالي فوق كل شيء علو ارتفاعه ، يامذل كل جبار بقهر عزيز سلطانه ، يانور كل شيء وهداه أنت الذي فلق الظلمات بنوره ، ياعلي الشامخ فوق كل شيء علو ارتفاعه ، ياقدوس الطاهر من كل سوء فلا شيء يعادله ، يامبديء البرايا ومعيدها بعد فناء خلقه ، ياجليل المتكبر عن كل شيء فالعدل أمره والصدق وعده ، يامحمود فلا تبلغ الأوهام كل كنه ثنائه وعزه ومجده ، ياكريم ذو العفو والعدل أنت الذي ملأ كل شيء عدله ، ياعظيم ذو الثناء الفاخر والعز والمجد والكبرياء ، فلا يذل عزه ، يامجيب ، ياعزيز فلا تنطق الألسن بكل آلائه وثنائه ومجده وعزه ، ياغياثي عند كل كربة ، ومجيبي عند كل شدة ـ أسألك أمانا من عقوبات الدين والدنيا والآخرة ، وأن تصرف عني كل سوء ومحذور ، برحمتك ياأرحم الراحمين اهـ .

وله حزب مشهور وهو استغاثة والتجاء بالله سبحانه ، أوله : الهي واله جميع الموجودات . فيه من المناجاة والتضرع الى الله وطلب الغوث منه والاستعانةبهمايليق بحال العارفين والصفوة والمتبعين .

وللشيخ الدمياطي قصيدة طويلة دعا الله تعالى بأسمائه الحسنى فيها واستغاثه بها ، ومنها قوله في آخرها :

بأسمائك الحسنى دعوتك سيدي	وجئت بها ياخالقي متوسلا
ومبتهلا ربي اليك بفضلها	وأرجو بها كل الأمور مسهلا
فقابل الهي بالرضا منك واكفني	صروف زماني مكثرا ومقللا
وجد واعف وارحم وانصر على العدى	وتب واهد واصلح كل حال تخلخلا

وفي كتاب شفاء العليل : كما أن من صفات الكمال وأفعال الحمد والثناء أنه يجود ويعطي ويمنح ، فمنها أن يعيذ وينصر ويغيث ، فكما يحب أن يلوذ بهاللائذون يحب أن يعوذ به العائذون ، وكمال الملوك أن يلوذ بهم أولياؤهم ويعوذوا بهم ، كما قال أحمد بن حسين الكندي في ممدوحه :

يامن ألوذ به فيما أؤمله	ومن أعوذ به مما أحاذره
لايجبر الناس عظما أنت كاسره	ولايهيضون عظما أنت جابره

ولو قال ذلك في ربه وفاطره لكان أسعد به من مخلوق مثله .

والمقصود : أن ملك الملوك يحبأن يلوذ به مماليكه وان يعوذوا به كما أمر

رسوله أن يستعيذ به من الشيطان الرجيم في غير موضع من كتابه أهـ •

وقد رأيت أحزابا كثيرة لجماعة من الصالحين ، وليس فيها طلب شيء من مخلوق ، بل كلها مناجاة لله واستغاثة به سبحانه ، نعم رأيت في بعضها توسلا بالنبي صلى الله عليه وسلم نحو قول قائلهم أسألك الهي بجاه المصطفى صلى الله عليه وسلم أو حقه أو نحو ذلك ، وهذا ليس استغاثة به ، فان السؤال من الله تعالى ومسألة التوسل مسألة أخرى وليس كلامنا فيها •

والنبهاني لجهله لم يفرق بين المسألتين حتى جعل التوسل استغاثة ، بل الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم استغاثة ، فاستشهد بكل كلام رأى فيه توسلا وصلاة ونحو ذلك يظن أنه استغاثة وذلك من الجهل بمكان •

وقد أبطلنا بحمد الله كلامه وأظهرنا من جهله ماأصبح به بين الأنام مثلة وفضيحة •

فقل للعيون الرمد للشمس أعين   سواك تراها في مغيب ومطلع

وقد أورد أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال في كتاب (المستغيثين بالله عند الحاجات والمهمات ، والمتضرعين الى اللهسبحانه وتعالى بالرغبات) مايضيق هذا المقام عن ذكره فعلى طالب الحق أن يراجعه ويجعله مرآة عمله وبه يعلم أن النبهاني كذب على عباد الله الصالحين •

(قال النبهاني) الباب الثامن فيما ورد من النظم في استغاثة العلماء والفضلاء به صلى الله عليه وسلم ، ومن قرأها أو بعضها بنية قضاء حاجاته يرجى له حصول المقصود ببركة الاستغاثة به صلى الله عليه وسلم ، قال : ومعظم هذه الاستغاثات أخذتها من بعض قصائد المجموعة النبهانية ، وما لم يكن منها نبهت عليه ، ثم أورد الشعر مرتبا على حروف الهجاء وأورد في كلحرف كثيرا من الأبيات لشعراءمتفرقين، ولا حاجة بنا الى نقله في هذا المقام لكون كتابه منتشرا •

(والجواب) عن جميع ماأورده في هذا الباب من وجوه كثيرة يستوجب ذكرها طولا ، بل نقتصر على بعضها طلبا للاختصار ، على أنه قد سبق غير مرة مايعلم منه الجواب أيضا فنقول :ـ

(الوجه الأول) أن مايستدل به على مثل هذه المطالب انما هو الكتاب والسنة واجماع الأمة ، وقد سبق أن كل ذلك يدل دلالة صريحة أن مالا يقدر عليه الا الله تعالى لايطلب من سواه سبحانه ، بل ان من طلب ذلك من غيره فقد ابتغى غير سبيل

المؤمنين ، وذكرنا حكم من كان كذلك ، وأن كل أحد ماسوى الرسول يؤخذ منه مايوافق الكتاب والسنة ، وغير الموافق ينبذ به بوجه قائله كائنا من كان ، خصوصا اذا كان جاهلا ككثير ممن أورد شعره النبهاني ، فانهم لايعدون من العير ولا من النفير ، ومنهم هو ، فان النبهاني أورد في كثير من الأحرف أبياتا من شعره الركيك ، وجعله حجة على أهل الحق ودليلا على مقصده ، وهكذا أورد كثيرا من شعر أمثاله من الجهلة الغلاة ، فذلك بحمد الله لايدفع الحق ولا يعارضه .

(الوجه الثاني) انه قد ذكرنا سابقا كثيرا من كلام العارفين من النظم والنثر مايقتضي أن يوحد الله بالسؤال ، وأن يفرد سبحانه بالاستعانة والالتجاء اليه ، وهو الموافق لما ورد من ذلك في الكتاب والسنة ، وما كان عليه الصحابة والأئمة الهداة ، وذكرنا أن في كتاب المستغيثين بالله عند الملمات والمهمات البحر الذي ليس له ساحل ، فمن يلتفت بعد هذا لمثل ماذكره هذا الزائغ ؟ (وان جندنا لهم الغالبون) ، والحق يعلو على الباطل ، وليس بعد الحق الا الضلال البعيد .

(الوجه الثالث) أن قول النبهاني في شأن مااستشهد به من الشعر والأبيات من قرأها أو بعضها بنية قضاء حاجاته يرجى له حصول المقصود ببركة الاستغاثة الخ دعوى كاذبة ، ليس عليها دليل سوى حكايات يرويها الغلاة وهم بيت الكذب ، وان سلم صحتها فليس فيها دليل على مادعاه النبهاني ، فان اجابة الدعاء عند القبور للسائلين لادليل فيه على أنه دين الله ، وأنه يحبه ويرضاه ، وأكثر مايدعو هؤلاء الغلاة الى دعاء القبور والصالحين مايحكونه من أن فلانا دعا فاستجيب له واستغاث فأغيث ، وفلان رد عليه بصره ، وعند السدنة وعباد القبور من هذا شيء كثير ، قد أورد منه النبهاني شيئا كثيرا جعله من قواعد مذهبه ، وأدلة شركه ، وقد ذكرنا سابقا أن أسباب المقاصد قد تكون محرمة كالسحر ونحوه ، وانما يثبت استحباب الأفعال واتخاذها دينا بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان عليه السابقون الأولون ، وماسوى هذه من الأمور المحدثة فلا يستحب وان اشتملت أحيانا على فوائد ، لأنا نعلم أن مفاسدها راجحة على فوائدها .

(الوجه الرابع) أن الشرك وقع كثيرا من دعاء غير الله كالشرك بأهل القبور ، من دعائهم والتضرع اليهم والرغبة اليهم ونحو ذلك ، فاذا كان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الصلاة التي تتضمن الدعاء لله وحده خالصا عند القبور لئلا يفضي ذلك الى نوع من الشرك بربهم ، فكيف اذا وجد ماهو نوع الشرك من الرغبة اليهم ،

سواء طلب منهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات أو طلب منهم أن يطلبوا ذلك من الله ، بل لو أقسم على الله ببعض خلقه من الأنبياء والملائكة وغيرهم لنهي عن ذلك وان لم يكن عند القبر ، كما لايقسم بمخلوق مطلقا ، وهذا القسم منهي عنه غير منعقد باتفاق الأئمة ، وهل هو نهي تحريم أو تنزيه ؟ على قولين ، أصحهما أنه نهي تحريم ، ولم يتنازع العلماء الا في الحلف بالنبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، فان فيه قولين في مذهب الامام أحمد، وبعض أصحابه ـ كابن عقيل ـ طرد الخلاف في الحلف بسائر الأنبياء ، لكن القول الذي عليه جمهور الأئمة كمالك والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم أنه لاتنعقد اليمين بمخلوق البتة ، ولا يقسم بمخلوق البتة ، وهذا هو الصواب ، والاقسام على الله بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم الذي اشتمل عليه كثير من الشعر الذي أورده النبهاني في هذا الباب ينبني على هذا الأصل ، ففيه هذا النزاع ، وقد نقل عن أحمد في التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم في منسك المروذي مايناسب قوله بانعقاد اليمين به ، لكن الصحيح أنه لاتنعقد اليمين به فكذلك هذا ، وأما غيره فما علمت بين الأمة فيه نزاعا ، بل قد صرح العلماء بالنهي عن ذلك، واتفقوا على أن الله يسأل ويقسم عليه بأسمائه وصفاته كما يقسم على غيره بذلك ، كالأدعية المعروفة في السنن : (اللهم اني أسألك بأن لك الحمد أنت الله المنان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والاكرام) وفي الحديث الآخر : (اللهم اني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك) فهذه الأدعية ونحوها مشروعة باتفاق العلماء ، وأما اذا قال أسألك بمعاقد العز من عرشك فهذا فيه نزاع ، رخص فيه غير واحد لمجيء الأثر به ، ونقل عن أبي حنيفة كراهته ، قال أبو الحسين القدوري في شرح الكرخي : قال بشر ابن الوليد : سمعت أبا يوسف قال : قال أبو حنيفة : لاينبغي لأحد أن يدعو الله الا به ، وأكره أن يقول بمعاقد العز من عرشك أو بحق خلقك ، وهو قول لأبي يوسف .

قال أبو يوسف : بمعقد العز من عرشه هو الله فلا أكره هذا ، وأكره بحق فلان ، وبحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت والمشعر الحرام ، بهذا الحق يكره ، قالوا جميعا فالمسألة بخلقه لاتجوز ، لأنه لاحق للخلق على الخالق ، فلا يجوز أن يسأل بما ليس مستحقا ، ولكن معقد العز من عرشك هل هو سؤال بمخلوق أو بالخالق ؟ فيه نزاع بينهم ، فلذلك تنازعوا فيه ، وأبو يوسف بلغه الأثر فيه (أسألك

بمعاقد العز من عرشك ، ومنتهى الرحمة من كتابك ، وباسمك الأعظم ، وجدك الأعلى ، وكلماتك التامة) فجوزه لذلك .

وقد نازع في هذا بعض الناس ، وقالوا : في حديث أبي سعيد الذي رواه ابن ماجه عن النبي صلى الله عليه وسلم في الدعاء الذي يقوله الخارج الى الصلاة : (اللهم اني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا ، فاني لم أخرج أشرا ، ولا بطرا ولا رياء ،ولا سمعة ، خرجت اتقاء سخطك ،وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذني من النار وأن تغفر لي) [1] وقد قال الله تعالى : (واتَّقُوا اللّٰهَ الَّذي تسَاءلونَ بهِ والأَرْحَام) [2] على قراءة الجر كما يقال سألتك بالله وبالرحم .

ومن زعم من النحاة أنه لايجوز العطف على الضمير المجرور الا باعادة الجار فانما قاله لما رأى غالب الكلام باعادة الجار ، والا فقد سمع من الكلام العربي نثره ونظمه العطف بدون ذلك ، كما حكى سيبويه : مافيها غيره وفرسه ، ولا ضرورة هنا كما يدعى مثل ذلك في الشعر ، ولأنه قد ثبت في الصحيح أن عمر رضي الله عنه قال : (اللهم انا كنا اذا أجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا ، وانا نتوسل اليك بعم نبينا فأسقنا فيسقون) وفي النسائي والترمذي وغيرهما حديث الأعمى الذي صححه الترمذي (أنه جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله أن يدعو الله أن يرد بصره عليه ، فأمره أن يتوضأ فيصلي ركعتين ، ويقول : اللهم اني أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة ، يامحمد يانبي الله اني أتوجه بك الى ربي في حاجتي ليقضيها ، اللهم فشفعه فيّ ودعا الله فرد الله تعالى عليه بصره).

(والجواب) عن هذا أن يقال أولا : لاريب أن الله جعل على نفسه حقا لعباده المؤمنين ، كما قال تعالى : (وكانَ حَقاً عَلينا نصْرُ المؤمِنين) [3] وكما قال تعالى : (كَتَبَ ربُّكُم على نفسه الرَّحمةَ أَنَّهُ من عَمل منكُم سُوءاً بِجهالةٍ ثم تابَ). [4] الآية

وفي الصحيحين (أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل ــ وهو رديفه ــ يامعاذ أتدري ماحق الله على عباده ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، أتدري ماحق العباد على الله اذا فعلوا ذلك ؟ قلت الله ورسوله أعلم ، قال : حقهم عليه أن لايعذبهم) فهذا حق وجب بكلماته التامة

(١) أورد استدلال بعض الناس بهذه الاحاديث وبالاية على جواز السؤال بحق المخلوق ثم أجاب عنها .
(٢) النساء : ١ ــ (٣) ــ الروم : ٤٧ ــ (٤) ــ الانعام : ٥٤

ووعده الصادق .

وقد اتفق العلماء على وجوب مايجب بوعده الصادق ، وتنازعوا هل يوجب الله بنفسه على نفسه على قولين ، ومن جوز ذلك احتج بقوله سبحانه :(كَتَبَ رَبُّكُم عَلى نفسِهِ الرَّحْمَةَ) وبقوله في الحديث الصحيح : (اني حرمت الظلم على نفسي) الخ .. والكلام على هذا مبسوط في موضع آخر .

وأما الايجاب عليه تعالى والتحريم بالقياس على خلقه : فهذا قول مبتدع ، مخالف لصحيح المنقول ، وصريح المعقول ، وأهل السنة متفقون على أنه سبحانه وتعالى خالق كل شيء وربه ومليكه ، وانه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وان العباد لايوجبون عليه شيئا ، ولهذا كان من قال من أهل السنة بالوجوب قال انه كتب على نفسه الرحمة ، وحرم الظلم على نفسه ، لا أن العبد نفسه مستحق على الله شيئا ، كما يكون للمخلوق على المخلوق ، فان الله هو المنعم على العباد بكل خير ، فهو الخالق لهم ، وهو المرسل اليهم الرسل ، وهو الميسر لهم الايمان والعمل الصالح ، ومن توهم من القدرية والمعتزلة ونحوهم أنهم يستحقون عليه من جنس مايستحق الأجير على المستأجر فهو جاهل في ذلك ، واذا كان كذلك لم تكن الوسيلة اليه الا بما من به من فضله واحسانه ، والحق الذي لعباده هو من فضله واحسانه ليس من باب المعاوضة ولا من باب ماأوجبه غيره عليه ، فانه سبحانه يتعالى عن ذلك .

واذا سئل بما جعله هو سببا للمطلوب من الأعمال الصالحة التي وعد أصحابها بكرامته وأنه يجعل لهم مخرجا ويرزقهم من حيث لايحتسبون فيستجيب دعاءهم ، ومن أدعية عباده الصالحين ومن شفاعة ذوي الوجاهة عنده ــ فهذا سؤال وتسبب بما جعله هو سببا .

وأما اذا سئل بشيء ليس هو سببا للمطلوب : فاما أن يكون اقساما عليه به فلا يقسم على الله بمخلوق ، واما أن يكون سؤالا بما لا يقتضي المطلوب فيكون عديم الفائدة .

فالأنبياء والمؤمنون لهم حق على الله بوعده الصادق لهم وبكلماته التامة ورحمته لهم أن ينعمهم ولا يعذبهم ، وهم وجهاء عنده يقبل من شفاعتهم ودعائهم مالا يقبله من دعاء غيرهم ، فاذا قال الداعي أسألك بحق فلان وفلان لم يدع ربه ، وهو لم

يسأله باتباعه لذلك الشخص ومحبته وطاعته بل بنفس ذاتــه وما جعــله له ربه من الكرامة لم يكن قد سأله بسبب يوجب المطلوب .

وحينئذ فيقال : أما التوسل والتوجه الى الله وسؤاله بالأعمال الصالحة التي أمر بها كدعاء الثلاثة الذين آووا الى الغار بأعمالهم الصالحــة وبدعاء الأنبيـــاء والصالحين وشفاعتهم فهذا مما لانزاع فيه ، بل هو من الوسيلة التي أمر الله بهــا في قوله تعالى : (يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا اتَّقو اللَّهَ وابتغُوا اليهِ الْوسِيلَةَ)[1]

وقوله سبحانه : (أُولئكَ الَّذينَ يدعُونَ يبْتَغُونَ الى رَبهم الوسِيلة أَيُّهم أَقرَبُ ويَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ويَخافُونَ عذَابه إنَّ عذَابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً)[2]
فان ابتغاء الوسيلة اليه هو طلب مايتوسل أي يتوصل ويتقرب به اليه سبحانه وتعالى سواء كان على وجه العبادة والطاعة وامتثال الأمر أو كان علــى وجه الســؤال له والاستعاذة به رغبة اليه في جلب المنافع ودفع المضار ، ولفظ الدعاء في القرآن يتناول هذا وهذا ، الدعاء بمعنى العبادة ، والدعاء بمعنى المسألة ، وان كان كل منهمـــا يستلزم الآخر ، لكن العبد قد تنزل به النازلة فيكون مقصوده طلب حاجاته وتفريج كرباته ، فيسعى في ذلك بالسؤال والتضرع ، وان كان ذلك من العبادة والطاعة ، ثم يكون من أول الأمر قصده حصول ذلك المطلوب من الرزق والنصر والعافية مطلقا ، ثم الدعاء والتضرع يفتح له من أبواب الايمان بالله عز وجل ومعرفته ومحبته والتنعم بذكره ودعائه مايكون هو أحب اليه وأعظم قدرا عنده من تلك الحاجة التي أهمته ، وهذا من رحمة الله بعباده يسوقهم بالحاجات الدنيوية الى المقاصد العلية الدينية ، وقد يفعل العبد ابتداء مأمر به لأجل العبادة لله والطــاعة له ولما عنــده من محبته والانابة اليه وخشيته وامتثال أمره ، وان كان ذلك يتضمن حصول الرزق والنصــر والعافية ، وقد قال تعالى : (وقالَ ربُّكم ادْعُوني أَسْتَجِب لَكم)[3] وقـــال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أهــل السنن أبو داود وغــيره : (الدعاء هو العبادة ، ثم قرأ قوله تعالى : وقال ربكم ادعوني أستجب لكم) وقد فسر هذا الحديث مع القرآن بكلا النوعين ، قيل ادعوني أي اعبدوني وأطيعواأمري أستجب دعاءكم ، وقيل سلوني أعطكم ، وكلا النوعين حق ، وفي الصحيحين في قول

---

(١)المائدة : ٣٥ - (٢) الاسراء : ٥٧ - (٣) - غافر : ٦٠

النبي صلى الله عليه وسلم في حديث النزول : (ينزل ربنا الى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له ، حتى يطلع الفجر) فذكر أولا اجابة الدعاء ، ثم ذكر اعطاء السائل ، ثم ذكر اعطاء المغفرة للمستغفر ، فهذا جلب المنفعة ، وهذا دفع المضـرة ، وكلاهما مقصود الداعي المجاب ، وقال تعالى : (وإِذا سَأَلكَ عِبادي عَنّي فإِنّي قَريبٌ أُجيبُ دَعوةَ الدَّاعي إِذَا دَعانِ فليستَجيبُوا لِي وليُؤْمنُوا بِي لعلَّهُم يَرْشُدونَ).[1]

وقد روي أن بعض الصحابة قال : يارسول الله ربنا قريب فنناجيه أم بعيـد فنناديه ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فأخبر سبحانه وتعالى أنه قريب يجيب دعوة الداعي اذا دعاه ، ثم أمرهم بالاستجابة له والايمان به ، كما قال بعضهم فليستجيبوا لي اذا دعوتهم ، وليؤمنوا بي أني أجيب دعوتهم ، قالوا : وبهذين الشيئين تحصـل اجابة الدعوة بكمال الطاعة لألوهيته ، وبصحة الايمان بربوبيته ، فمن استجاب لربه بامتثال أمره ونهيه حصل مقصوده من الدعاء وأجيب دعاؤه ، كما قال تعالى :

(ويَسْتَجيبُ الَّذين آمَنُـوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ ويَزيدُهُم مِنْ فَضْله)[2]

أي يستجيب لهم ، يقال استجابه واستجاب له ، فمن دعاه موقنـا أنه يجيب دعوة الداعي اذا دعاه أجابه ، وقد يكون مشركا وفاسقا ، فانه سبحانه هو القائل :

(وإِذا مسَّ الإِنسانَ الضُرُّ دعَانا لجنْبه أَو قاعِداً أَو قائِمًا فَلما كَشفنَا عَنهُ ضُرَّهُ مَرَّ كأَن لَم يدْعُنا الى ضُرٍّ مسَّه)[3] وهو سبحانه القائل : (وإِذا مَسَّكُم الضُّر في البَحْر) الى قوله : (وكانَ الإِنسانُ كَفُوراً)[4] وهو سبحانه القائل : (قُل أَرأَيتَكُم إِن أتاكُمْ عذَابُ اللهِ أَو أَتتكُمُ السَّاعَةُ أَغيرَ اللهِ تدعُونَ إِنْ كُنتُم صَادقين . بلْ إِيَّاهُ تدعُونَ فيكشفُ ما تدْعُـونَ اليهِ إِنْ شَاءَ وتنْسَونَ ما تُشْرِكُـونَ)[5]

لكن هؤلاء الذين يستجاب لهم ـ لاقرارهم بربوبيته وأنه يجيب دعاء المضطر ـ اذا لم يكونوا مخلصين له الدين في عبادته ولا مطيعين له ولرسله : كان مايعطيهم بدعائهم

(١) البقرة : ١٨٦ ـ (٢) الشورى : ٢٦ ـ (٣) يونس : ١٢ ـ (٤) الاسراء : ٦٧ ـ (٥) الانعام : ٤٠ ، ٤١

متاعا في الحياة الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق ، قال تعالى : (مَنْ كانَ يُريدُ العاجِلَه عَجَّلنا لَه فيها ما نشَاءُ لمن نُريدُ) الى قوله : (ومـا كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحظُوراً) (١) وقد دعا الخليل عليه الصلاة والسلام بالرزق لأهل الايمان ، فقال : (وارزُق أَهلَهُ مِنَ الثَّمرات من آمنَ منهُم باللهِ واليوم الآخِرِ) فقال تعالى : (ومن كَفَرَ فأمتِّعهُ قليلا ثُم أَضطَرُّهُ إلى عَذاب النَّارِ وبئسَ المصيرُ) (٢)
فليس كل من متعه الله برزق ونصر ـ اما اجابة لدعائه واما بدون ذلك ـ يكـون ممن يحبه الله ويواليه ، بل هو سبحانه يرزق المؤمن والكافر والبر والفاجر ، وقد يجيب دعاءهم ويعطيهم سؤالهم في الدنيا ومالهم في الآخرة من خلاق ، وقد ذكر أن بعض الكفار من النصارى حاصروا مدينة للمسلمين فنفد ماؤهم العذب فطلبوا من المسلمين أن يزودوهم بماء عذب ليرجعوا عنهم ، فاشتور ولاة أمر المسلمين وقالـوا بل ندعهم حتى يضعفهم العطش فنأخذهم ، فقام أولئك فاستسقـوا ودعـوا الله فسقاهم ، فاضطرب بعض العامة ، فقال الملك لبعض العارفين : أدرك الناس ، فأمر بنصب منبر له ، وقال : اللهم انا نعلم أن هؤلاء من الذين تكفلت بأرزاقهم كما قلت في كتابك : (وما منْ دَابَّةٍ في الارْض الّا عَلى الله رِزقهَا) (٣) وقد دعوك مضطرين وأنت تجيب المضطر اذا دعاك فأسقيتهم لما تكفلت به من رزقهم ، ولما دعوك مضطرين ، لا لأنك تحبهم ولا تحب دينهم ، والآن فنريد أن ترينا فيهم آية تثبت بها الايمان في قلوب عبادك المؤمنين ، فأرسل الله عليهم ريحا أهلكتهم ، أو نحو هذا .

ومن هذا الباب من قد يدعو دعاء اعتدى فيه : امـا بطلب مالا يصلـح ، أو بالدعاء الذي فيه معصية لله بشرك أو غيره ، فاذا حصل بعض غرضه ظن أن ذلـك دليل على أن عمله صالح بمنزلة من أملي له وأمد بالمال والبنين فظن أن ذلك مسارعة له في الخيرات ، قال تعالى : (أَيحسَبُونَ أَنَّ ما نُمدُّهُم بهِ منْ مالٍ وبنينَ نُسارعُ لَهم في الخيرات بلْ لا يَشعُرونَ) (٤) وقال تعالى : (فَلمّا نَسُوا ما ذُكِّروا به فَتَحنا عَليهم أَبوابَ كُل شَيءٍ حتَّى إذا فرِحُوا بما أُوتُوا أَخذناهُم بغتَةً فإذاهُم

(١) الاسراء : ١٨ ـ ٢٠ ـ (٢) البقرة : ١٢٦ ـ (٣) هود : ٦ ـ (٤) المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦

مُبلسُونَ)[1] وقال تعالى : (ولَا يَحْسَبنَّ الَّذين كَفَروا أنَّما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم انما نُملي لَهم ليزدادُوا إثْماً ولَهم عَذَابٌ مهينٌ)[2] والاملاء اطالة العمر وما في ضمنه من رزق ونصر ، وقال تعالى : (فَذرني ومَنْ يُكذِّبُ بهذا الحديث) الى قوله : (إنَّ كَيدي متَينٌ)[3] وهذا باب واسع مبسوط في غير هذا الموضع ، وقال تعالى : (ادعُو رَبَّكم تَضرعاً وخُفيةً انَّهُ لا يُحبُّ المعتدينَ).[4]

والمقصود هنا : أن دعاء الله قد يكون دعاء عبادة لله يثاب العبد عليه في الآخرة مع مايحصل له في الدنيا ، وقد يكون دعاء مسألة تقضى به حاجته ، ثم قد يثاب عليه اذا كان مما يحبه الله ، وقد لايحصل له الا تلك الحاجة ، وقد يكون سببا لضرر دينه فيعاقب على ماضيعه من حقوق الله تعالى وتعداه من حدوده ، فالوسيلة التي أمر الله بابتغائها تعم الوسيلة في عبادته وفي مسألته ، فالتوسل اليه بالأعمال الصالحة التي أمر بها وبدعاء الأنبياء والصالحين وشفاعتهم ليس هو من باب الاقسام عليه بمخلوقاته .

ومن هذا الباب : استشفاع الناس بالنبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، فانهم يطلبون منه أن يشفع لهم الى الله كما كانوا في الدنيا يطلبون منه أن يدعو لهم في الاستسقاء وغيره ، وقول عمر رضي الله عنه : (انا كنا اذا أجدبنا توسلنا اليك بنبينا فتسقينا ، وانا نتوسل اليك بعم نبينا) معناه نتوسل بدعائه وشفاعته وسؤاله ، ونحن نتوسل اليك بدعاء عمه وسؤاله وشفاعته ، ليس المراد به انا نقسم عليك به أو مايجري هذا المجرى مما يفعل بعد موته وفي مغيبه ، كما يقول بعض الناس أسألك بجاه فلان عندك ، ويقولون : نتوسل الى الله بأنبيائه وأوليائه ، ويروون حديثا موضوعا (اذا سألتم الله فاسألوه بجاهي فان جاهي عند الله عريض) فانه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلونه كما ذكر عمر رضي الله عنه لفعلوا ذلك بعد موته ولم يعدلوا عنه الى العباس مع علمهم بأن السؤال به والاقسام به أعظم من العباس ، فعلم أن ذلك التوسل الذي ذكروه هو مما يفعل بالأحياء دون الأموات ، وهو التوسل بدعائهم وشفاعتهم ، فان الحي يطلب منه ذلك والميت لا يطلب منه شيء لا دعاء ولا غيره .

---

(١) الانعام : ٤٤ ـ (٢) آل عمران : ٧٨١ ـ (٣) القلم : ٤٤ ، ٤٥ ـ (٤) الاعراف : ٥٥

وكذلك حديث الأعمى ، فانه طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له ليرد الله عليه بصره ، فعلمه النبي صلى الله عليه وسلم دعاء أمره فيه أن يسأل الله قبول شفاعة نبيه فيه ، فهذا يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم شفع فيه وأمره أن يسأل الله قبول شفاعته ، وأن قوله أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة أي بدعائه وشفاعته ، كما قال عمر : (كنا نتوسل اليك بنبينا)فلفظ التوسل والتوجه في الحديثين بمعنى واحد ، ثم قال : (يامحمد يارسول الله اني أتوجه بك الى ربي في حاجتي ليقضيها ، اللهم فشفعه فيّ) فطلب من الله أن يشفع فيه نبيه ، وقوله : يامحمد يانبي الله ، هذا وأمثاله نداء يطلب به استحضار المنادى في القلب ، فيخاطب المشهود بالقلب ، كما يقول المصلي السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، والانسان يفعل مثل هذا كثيرا يخاطب من يتصوره في نفسه وان لم يكن في الخارج من يسمع الخطاب ، فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به والسؤال به فيه اجمال واشتراك غلط بسببه من لم يفهم مقصود الصحابة ، يراد به التسبب به لكونه داعيا وشافعا مثلا ، أو لكون الداعي محبا له مطيعا لأمره مقتديا به ، فيكون التسبب اما بمحبة السائل له واتباعه له واما بدعاء الوسيلة وشفاعته ، ويراد به الاقسام به والتوسل بذاته فلا يكون التوسل لابشيء منه ولا بشيء من السائل بل بذاته أو بمجرد الاقسام به على الله ، فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه . وكذلك لفظ السؤال بشيء قد يراد به المعنى الأول وهو التسبب به لكونه سببا في حصول المطلوب وقد يراد به الاقسام ، ومن الأول حديث الثلاثة الذين آووا الى الغار وهو حديث مشهور في الصحيحين وغيرهما ، فان الصخرة انطبقت عليهم ، فقالوا : (ليدع كل رجل منكم بأفضل عمله ، فقال أحدهم : أللهم انه كانت لي بنت عم فأحببتها كأشد مايحب الرجال النساء وانها طلبت مني مائة دينار ، فلما أتيتها بها قالت ياعبد الله اتق الله ولا تفض الخاتم الا بحقه فتركت الذهب وانصرفت فان كنت انما فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ، فانفرجت لهم فرجة رأوا منها السماء ، وقال الآخر : أللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لاأغبق قبلهما أهلا ولا مالا فنآ بي طلب الشجر يوما فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقا فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما ، أللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا مانحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت الصخرة غير أنهم لايستطيعون الخروج

منها وقال الثالث : أللهم اني استأجرت اجرآء فأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب ، فثمرت أجرته حتى كثرت منه أموال ، فجاءني بعد حين فقال ياعبد الله أد الي أجري ، فقلت له : كل ماترى من أجرك من الابل والبقر والغنم ، والرقيق ، فقال ياعبد الله : لاتستهزيء بي ، فقلت : اني لاأستهزيء بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا ، أللهم فان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا مانحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون) فهؤلاء دعوا الله سبحانه بصالح الأعمال ، لأن الأعمال الصالحة هي أعظم مايتوسل به العبد الى الله تعالى ويتوجه به اليه ويسأله به ، لأنه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله قال تعالى : (ويَستجيبُ الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحات ويَزيدُهم من فضله)[1]

وقال تعالى : (وقال ربُّكم ادعُوني أَستجبْ لكُم)[2] وهؤلاء دعوه بعبادته ، وفعل ماأمر به من العمل الصالح وسؤاله والتضرع اليه ، ومن هذا مايذكر عن الفضيل بن عياض أنه أصابه عسر البول فقال بحبي اياك الا فرجت عني ففرج عنه .

وكذلك دعاء المرأة المهاجرة التي أحيا الله ولدها لما قالت أللهم اني آمنت بك وبرسولك وهاجرت في سبيلك ، وسألت الله أن يحيي ولدها ، وأمثال ذلك ، وهذا كما قال المؤمنون : (ربَّنا انَّنا سَمِعنا مُنادياً يُنَادي للإيمانِ أَنْ آمِنُو بربِّكُم فآمَنَّا) الى قوله : (انَّكَ لا تُخلفُ المِيْعَاد) .[3]

فسؤال الله والتوسل اليه بامتثال أمره واجتناب نهيه وفعل مايحبه من العبودية والطاعة هو من جنس فعل ذلك رجاء لرحمة الله وخوفا من عذابه ، وسؤال الله بأسمائه وصفاته ـ كقوله : أسألك بأن لك الحمد ، أنت الله المنان بديع السموات والأرض ، وبأنك أنت الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، ونحو ذلك ـ يكون من باب التسبب ، فان كونه المحمود المنان يقتضي منته على عباده واحسانه الذي يحمد عليه ، وكونه الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد يقتضي توحده في صمديته ، فيكون هو السيد المقصود الذي يصمد الناس اليه في حوائجهم المستغني عما سواه ، وكل ماسواه مفتقرون اليه لاغنى بهم عنه ، وهذا

---

(١) الشورى : ٢٦ ـ (٢) غافر : ٦٠ ـ (٣) آل عمران : ١٩٣ ، ١٩٤

سبب لقضاء الحاجات والمطلوبات ، وقد يتضمن معنى ذلك الاقسام عليه بأسمائه وصفاته .

وأما قوله في حديث أبي سعيد : (أسألك بحق السائلين عليك ، وبحق ممشاي هذا) فهذا الحديث رواه عطية العوفي وفيه ضعف ، لكن بتقدير ثبوته هو من هذا الباب ، فان حق السائلين عليه سبحانه أن يجيبهم ، وحق المطيعين له أن يثيبهم ، فالسؤال له والطاعة سبب لحصول اجابته واثابته ، فهو من التوسل به والتوجه به والتسبب به ، ولو قدر أنه قسم لكان قسما بما هو من صفاته ، فان اجابته واثابته من أفعاله وأقواله ، فصار هذا كقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : (أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لاأحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) والاستعاذة لاتصح بمخلوق كما نص عليه الامام أحمد وغيره من الأئمة ، وذلك مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق ، ولأنه قد ثبت في الصحيح وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق) قالوا : والاستعاذة لاتكون بمخلوق فأورد بعض الناس لفظ المعافاة ، فقال جمهور أهل السنة المعافاة من الأفعال .

وجمهور المسلمين من أهل السنة وغيرهم يقولون : ان أفعال الله قائمة به ، وان الخلق ليس هو المخلوق ، وهذا قول جمهور أصحاب الشافعي وأحمد ومالك ، وهو قول أصحاب أبي حنيفة ، وقول عامة أهل الحديث والصوفية وطوائف من أهل الكلام والفلسفة ، وبهذا يحصل الجواب عما أوردته المعتزلة ونحوهم من الجهمية نقضا ، فان أهل الاثبات من أهل الحديث وعامة المتكلمة الصفاتية من الكلابية والأشعرية والكرامية وغيرهم استدلوا على أن كلام الله غير مخلوق ، بأن الصفة اذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل لا على غيره ، واتصف به ذلك المحل لاغيره ، فاذا خلق الله لمحل علما أو قدرة أو حركة أو نحو ذلك كان هو العالم به القادر به المتحرك به ، ولم يجز ان يقال أن الرب المتحرك بتلك الحركة ، ولا هو العالم القادر بالعلم والقدرة المخلوقين بل بما قام به من العلم والقدرة ، قالوا فلو كان قد خلق كلاما في غيره كالشجرة التي نادى منها موسى لكانت الشجرة هي المتصفة بذلك الكلام ، فتكون الشجرة هي القائلة لموسى (انني أنا الله) ولكان مايخلقه الله من انطاق الجلود والأيدي وتسبيح الحصى وتأويب الجبال وغير ذلك كلاما له كالقرآن والتوراة والانجيل ، بل كان كل كلام في الوجود كلامه لأنه خالق كل شيء ، وهذا

قد التزمه مثل صاحب الفصوص وأمثاله من هؤلاء الجهمية الحلولية والاتحادية ، فأوردت المعتزلة صفات الأفعال كالعدل والاحسان ، كأنه يقال أنه عادل محسن بعدل خلقه في غيره واحسان خلقه في غيره ، فأشكل ذلك على من يقول ليس لله فعل قائم به ، بل فعله هو المفعول المنفصل عنه وليس خلقه الا مخلوقه •

وأما من طرد القاعدة وقال أيضا أن الأفعال قائمة به ولكن المفعولات المخلوقة هي المنفصلة عنه وفرق بين الخلق والمخلوق فاطرد دليله واستقام •

والمقصود هنا : أن استعاذة النبي صلى الله عليه وسلم بعفوه ومعافاته من عقوبته ــ مع أنه لايستعاذ بمخلوق ــ كسؤال الله باجابته واثابته وان كان لايسأل بمخلوق ، ومن قال من العلماء لايسأل الا به لاينافي السؤال بصفاته ، كما أن الحلف لايشرع الا به ، كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت) وفي لفظ للترمذي : (من حلف بغير الله فقد أشرك) قال الترمذي حديث حسن ، ومع هذا فالحلف بعزة الله ولعمر الله ونحو ذلك مما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم الحلف به لم يدخل في الحلف بغير الله ، لأن لفظ الغير قد يراد به المباين المنفصل ، ولهذا لم يطلق السلف وسائر الأئمة على القرآن وسائر صفات الله أنها غيره ولا أنها ليست غيره ، لأن لفظ الغير فيه اجمال قد يراد به المباين المنفصل فلا يكون صفة الموصوف أو بعضه داخلا في لفظ الغير ، وقد يراد به مايمكن تصوره دون تصور ماهو غير له فيكون غيرا بهذا الاصطلاح ، ولهذا تنازع أهل النظر في مسمى الغير ، والنزاع في ذلك لفظي ، ولكن بسبب ذلك حصل في مسائل الصفات من الشبهات مالا ينجلي الا بمعرفة ماوقع في الألفاظ من الاشتراك والابهامات ، كما قد بسط في غير هذا الموضع ، ولهذا يفرق بين قول القائل (الصفات غير الذات) وبين قوله (صفات الله غير الله) فان الثاني باطل ، لأن مسمى اسم الله يدخل فيه صفاته بخلاف مسمى الذات فانه لايدخل فيه الصفات ، ولهذا لايقال صفات الله زائدة عليه وان قيل الصفات زائدة على الذات ، لأن المراد هي زائدة على ماأثبته المثبتون من الذات ، والله تعالى هو الذات الموصوفة بصفاته اللازمة ، فليس اسم الله متناولا لذات مجردة عن الصفات أصلا ، ولا يمكن وجود ذلك ، ولهذا قال أحمد في مناظرته للجهمية : لانقول الله وعلمه ، والله وقدرته ، والله ونوره ، ولكن نقول الله بعلمه وقدرته ونوره هو اله واحد ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع •

وأما قول الناس : أسألك بالله وبالرحم ، وقراءة من قرأ :(تَسَاءلونَ بهِ والارَحامِ) فهو من باب التسبب بها ، فان الرحم توجب الصلة ، وتقتضي أن يصل الانسان قرابته ، فسؤال السائل بالرحم لغيره توسل اليه بما يوجب صلته من القرابة التي بينهما ، ليس هو من باب الاقسام ولا من باب التوسل بما لايقتضي المطلوب ، بل هو توسل بما يقتضي المطلوب ، كالتوسل بدعاء الأنبياء وبطاعتهم والصلاة عليهم •

ومن هذا الباب مايروى عن عبد الله بن جعفر أنه قال : كنت اذا سألت عليا شيئا فلم يعطنيه قلت له بحق جعفر الا ماأعطيتنيه فيعطينيه أو كما قال ، فان بعض الناس ظن أن هذا من باب الاقسام عليه بجعفر ، أو من قولهم أسألك بحق أنبيائك ونحو ذلك ، وليس كذلك ، بل جعفر هو أخو علي ، وعبد الله هو ابنه ، وله عليه حق الصلة ، فصلة عبد الله صلة لأبيه جعفر ، كما في الحديث (ان من أبر البر أن يصل الرجل أهل ودأبيه بعد أن يولي) وقوله : (ان من برهما بعد موتهما الدعاء لهما ، والاستغفار لهما وانفاذ عهدهما من بعدهما وصلة رحمك التي لارحم لك الا من قبلهما) •

ولو كان هذا من الباب الذي ظنوه لكان سؤاله لعلي بحق النبي وابراهيم الخليل ونحوهما أولى من سؤاله بحق جعفر ، ولكان علي الى تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبته واجابة السائل به أسرع منه الى اجابة السائل بغيره ، لكن بين المعنيين فرق ، فان السائل بالنبي طالب به متسبب به ، فان لم يكن في ذلك السبب مايقتضي حصول مطلوبه أو كان مما لايقسم به كان باطلا ، واقسام الانسان على غيره بشيء يكون من باب تعظيم المقسم للمقسم به ، وهذا هو الذي جاء به الحديث من الأمر بابرار المقسم ، وفي مثل هذا قيل (ان من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره) ، وقد يكون من باب تعظيم المسؤل به •

فالأول يشبه ماذكره الفقهاء في الحلف الذي يقصد به الحظر والمنع •

والثاني سؤال للمسؤل بما عنده من محبة المسؤل به وتعظيمه ودعائه وحقه ، فان كان ذلك مما يقتضي حصول مقصود السائل حسن السؤال كسؤال الانسان بالرحم •

ومن هذا سؤال الله بالأعمال الصالحة وبدعاء أنبيائه وشفاعتهم •

وأما بمجرد الأنبياء والصالحين ومحبة الله لهم وتعظيمه لهم ورعايته لحقوقهم التي أنعم بها عليهم فليس فيها مايوجب حصول مقصود السائل الا بسبب بين السائل وبينهم ، أما محبتهم وطاعتهم فيثاب على ذلك ، واما دعاؤهم له فيستجيب الله شفاعتهم فيه •

والتوسل بالأنبياء والصالحين يكون بأمرين : اما بطاعتهم واتباعهم ، واما بدعائهم وشفاعتهم ، فمجرد دعائه بهم من غير طاعة منه لهم ولا شفاعة منهم له لا ينفعه وان عظم جاه أحدهم عند الله تعالى ، وقد بسطت هذه المسائل في غير هذا الموضع •

والمقصود هنا : أنه اذا كان السلف والأئمة قالوافي سؤاله بالمخلوق ماذكرفكيف بسؤال المخلوق الميت ، سواء سئل أن يسأل الله أو سئل قضاء الحاجة ونحو ذلك مما يفعله بعض الناس اما عند قبر الميت ، واما مع غيبته •

وصاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم حسم المادة ، وسد الذريعة ، بلعنه من يتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد ، وأن لايصلي عندها لله ، ولا يسأل الا الله ، وحذر أمته ذلك ، فكيف اذا وقع نفس المحذور من الشرك وأسباب الشرك •

كل هذا نقلناه من كتاب اقتضاء الصراط المستقيم ، ومنه علم ماشتمل عليه الشعر الذي أورده النبهاني ، فان جميعه قد اشتمل على القسم الذي فيه محذور ، بل بما فيه شرك ظاهر ، كقول عبد الرحيم البرعي مخاطبا للرسول صلى الله عليه وسلم :

مولاي مولاي فرج كل معضلة ... عني فقد أثقلت ظهري الخطيئات
وعد عليّ بما عودتني كرما ... فكم جرت لي بخير منك عادات
وامنع حماي وهب لي منك تكرمة ... يامن مواهبه خلد وخيرات
واعطف عليّ وخذ ياسيدي بيدي ... اذا دهتني الملمات المهمات

وكقول الشاب الظريف

فياخاتم الرسل الكرام ومن به ... لنا من مهولات الذنوب تخلص
أغثنا أجرنا من ذنوب تعاظمت ... فأنت شفيع للورى ومخلص

وقول القلقشندي

أنت الذي لم يخف في الناس قاصده ... وليس عندك تسويف وتسويل
قصدت جاهك لاأرجو سواك ولي ... في باب عزك ترديد وتطفيل

وقال محمد البكري الكبير من أبيات

يا أكرم الخلق على ربه وخير من فيهم به يسأل
قد مسني الكرب وكم مرة فرجت كربا بعضه يذهل

وقال الشيخ عبد الرحمن الدمشقي من أبيات

أقلني مما فيه أمسيت واهنا ونفسي بقيد الكرب أمست مكبله
وعجل بكشف الضر عمن لك التجا لأن الضنا قد هاض ظهري وأثقله

انظر الى قوله : وعجل بكشف الضر الخ .. والله سبحانه وتعالى يقول : (وانْ يَمسَسْكَ اللهُ بضُرٍّ فلا كاشِفَ لهُ الّاَ هُوَ)[1] وهكذا كثير من الأبيات التي أوردها النبهاني كما لايخفى على من راجع كتابه ، ولا بدع فهو المبتدع الذي ختم الله على قلبه .

(الوجه الخامس) ان أجل من تمسك بشعره النبهاني : الصرصري ، والبوصيري ، وأما غيرهما — كالبرعي ، والوتري ، والشهاب ، وأمثالهم — فليسوا من المعروفين بعلم ولا دين ، ولا زهد ولا فضيلة ، ولا شيء يذكر .

والصرصري والبوصيري اعترض أهل العلم ومن له بصيرة في الدين على ما كان في شعرهما من الغلو الذي نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كقول الصرصري في قصيدته اللامية التي استشهد بأبيات منها النبهاني :

يارسول الله يامن مدحه في القوافي أقوم الألفاظ قيلا
مسني ضر عناه ثابت من ذنوب غادرت قلبي كليلا
أنا منها تائب مستغفر فاسأل الرحمن لي صبرا جميلا

وقوله :

لأنت الى الرحمن أقوى وسيلة اليه بها في الحادثات تنصل

وقوله :

وتسأل رب العالمين بميتة على السنة البيضاء غير مبدل

الى غير ذلك مما قاله في قصائده المشهورة كقوله : وأنت على كل الحوادث لي ولي ، وقوله : على تربها خديك عفر ، وقد استشهد بكثيرمن شعره النبهاني في كتابه .

وكذلك البوصيري حيث يقول في همزيته :

يا أبا القاسم الذي ضمن أقسا مي عليه مدح له وثناء

---

(١) يونس : ١٠٧

الأمـــان الأمـــان ان فـؤادي   مـن ذنـــوب أتيتهـن هـــواء

الى آخر ماأورده النبهاني منها ، وقال أيضا :

ياأكرم الخـــلق مالي من ألـــوذ به   سواك عند حلول الحادث العمـــم

وقد ذكر الشيخ تقي الدين أن شعر يحيى الصرصري وقع فيه من الغلو والاطراء مالا ينبغي أن يصدر مثله في حق مخلوق ، وأنكر على من استغاث بغير الله أو دعاه .

قال رحمه الله في رده على ابن البكري في مسألة الاستغاثة : وانه حرف الكلم عن مواضعه ، وتمسك بمتشابهه وترك المحكم ، كما يفعله النصارى ، وكما فعـل هذا الضال ـ يعني ابن البكري ـ أخذ لفظ الاستغاثة ، وهي تنقسم الى الاستغاثة بالحي والميت ، والاستغاثة بالحي تكون فيما يقـدر عليه ، فجعل حكم ذلـك كله واحدا ، ولم يكفه حتى جعل السؤال بالشخص من مسمى الاستغاثة ، ولم يكفه ذلك حتى جعل الطالب منه انما طلب من الله لامنه فالمستغيث به مستغيث بالله ، ثم جعل الاستغاثة بكل ميت من نبي وصالح جائزة ،فدخل عليه الخطأ من وجوه .

منها : أنه جعل المتوسل به بعد موته في دعاء الله مستغاثا به ، وهذا لايعرف في لغة أحد من الأمم لا حقيقة ولا مجازا معدعواه الاجماع على ذلك . فانالمستغاث هو المسؤل المطلوب منه لا المسؤل به .

الثاني : ظنه أن توسل الصحابة في حيـاته كان توسـلا بذاته صلى الله عليه وسلم لابدعائه وشفاعته ، فيكون التوسل به بعد موته كذلك وهذا غلط .

الثالث : أنه أدرج السؤال أيضا في الاستغاثة به ، وهذا صحيح جائز في حياته، وهو قد سوى في ذلك بين محياه ومماته ، وهذا أصاب في لفظ الاستغاثة لكن أخطأ في التسوية بين المحيا والممات ، وهذا ماعلمته ينقل عن أحد من العلماء ، لكنه موجود في كلام بعض الناس ، مثل الشيخ يحيى الصرصري ، ففي شعره قطعة منه ، والشيخ محمد بن النعمان له كتاب المستغيث بالنبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة والمنام ، وهؤلاء ليسوا من العلماء العالمين بمدارك الأحكام ، الذين يؤخذ بقولهم في شرائع الاسلام ، ومعرفة الحلال والحرام ، وليس لهـم دليل شرعي ، ولا نقـل عن عالم مرضيّ ، بل عادة جروا عليها .

وكان بعض الشيوخ الذين أعرفهم ـ ولهم فضل وعلم وزهد ـ اذا نزل بـه أمر خطا الى الشيخ عبد القادر خطوات معدودة واستغاث به ، وهذا يفعله كثير من الناس ، ولهذا لما نبه من نبه من فضلائهم تنبهوا ، وعلموا أن ماكانوا عليه ليس من

دين الاسلام بل مشابهة لعباد الأصنام ، انتهى •

وقال رحمه الله في أثناء كلام له : ونحن نعلم بالضرورة أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يشرع لأمته أن يدعوا أحدا من الأموات ، لا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم ، لابلفظ الاستغاثة ولا بغيرها ، كما أنه لم يشرع لأمته السجود لميت ولا الى ميت ونحو ذلك ، بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور ، وان ذلك من الشرك الذي حرمه الله ورسوله ، ولكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يبين لهم ماجاء به الرسول ، ولهذا مابينت هذه المسألة قط لمن يعرف أصل الاسلام الا تفطن بها ، وقال هذا أصل دين الاسلام، وان بعض أكابر الشيوخ من أصحابنا يقول هذا أعظم مابينت لنا ، لعلمه أن هذا أصل دين الاسلام ، وكان هذا وأمثاله في ناحية أخرى يدعون الأموات ويسألونهم ويستجيرون بهم ويتضرعون اليهم ، وربما كان مايفعلونه أعظم ، لأنهم انما يقصدون الميت في ضرورة نزلت بهم فيدعون دعاء المضطر ، راجين قضاء حاجاتهم بدعائه أو الدعاء به أو الدعاء عند قبره ، بخلاف عباداتهم لله فانهم يفعلونها في كثير من الأوقات على وجه العادة والتكلف ، حتى أن العدو الخارج عن شريعة الاسلام لما قدم دمشق خرجوا يستغيثون بالموتى عند القبور التي يرجون عندها كشف الضر ، وقال بعض الشعراء :

ياخائفين من التتر لوذوا بقبر أبي عمر

أو قال : عوذوا بقبر أبي عمر ينجيكم من الضرر

فقلت لهم : ان هؤلاء الذين تستغيثون بهم لو كانوا معكم في القتال لانهزموا كما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد ، ولهذا كان أهل المعرفة بالدين والمكاشفة لم يقاتلوا في تلك المرة لعدم القتال الشرعي الذي أمر الله به ورسوله •

فلما كان بعد ذلك جعلنا نأمر الناس باخلاص الدين والاستغاثة بالله ، وأنهم لايستغيثون الا اياه ، لايستغيثون بملك مقرب ولا نبي مرسل ، فلما أصلح الناس أمورهم وصدقوا في الاستغاثة بربهم نصرهم على عدوهم نصرا عزيزا لم يتقدم نظيره ، ولم تهزم التتارمثل هذه الهزيمة قبل ذلك ، لما صح من تحقيق التوحيد لله وطاعة رسوله مالم يكن قبل ذلك ، فان الله ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، انتهى ماهو المقصود من كلامه رحمه الله •

ولم يقتصر فيه على مجرد الانكار بل جعله شركا وكفرا بعد قيام الحجة والعلم

بكفر فاعله ، وجعله من ضروررات الدين ، بل جعله أصل الدين ، وجعل وجود هذا الشرك مانعا من القتال الشرعي وسببا للهزيمة وعدم النصر ، فأي انكار أبلغ من هذا .

وقد أنكر الشيخ شعر الصرصري ، ونص على أنه يقع منه مالا يسوغ ولا يجوز ، على أن بعضهم أول بعض أقواله فقال : لانت الى الرحمن أقوى وسيلة . ليس فيه استغاثة كما زعم من استشهد به على ذلك ، بل المقصود أنه صلى الله عليه وسلم هو الواسطة بين العباد وبين الله تعالى في ابلاغ شرعه ودينه ، وبيان مايحب ويرضى ، وما يكرهه وعنه ينهى ، فهو وسيلة لمن سار على سبيله وتمسك بهديه وقبله ، وقوله :

سل الله رب العالمين يميتني ... على السنة البيضاء غير مبدل

ليس صريحا في أن السائل لله هو النبي صلى الله عليه وسلم ، اذ يحتمل أنه أراد سل أيها المذنب وأيها العبد ولكنه التفت عن التكلم الى الخطاب واحسان الظن بمثله أولى ، وأما قوله : وأنت على كل الحوادث لي ولي . فالمراد أنه يوالي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتولاه على كل الحوادث في اليسر والعسر ، والرخاء والشدة ، والضيق والسعة ، لايوالي غير أولياء الله ، قال تعالى : (إِنَّمَا وليُّكم اللهُ ورَسُولهُ والَّذينَ آمنُوا الَّذينَ يُقيمونَ الصَّلاةَ و يُؤْتونَ الزَّكاةَ وهُم راكِعُون . و مَنْ يَتولَّ اللهَ ورسُولهُ والَّذينَ آمنُو فَانَّ حِزبَ اللهِ هُم الغالبُونَ)[1]

فليس المراد بالولي المستغاث المعبود ، فان هذا فهم جاهلي شركي ، وأهل الاسلام يفهمون من موالاة رسول الله صلى الله عليه وسلم محبته ، وتعزيره ، وتوقيره ، وطاعته ، والتسليم لأمره ، والوقوف عند نهيه ، وتقديم قوله على قول كل أحد ، هذه موالاة أهل الاسلام ، لكن يبقى باقي الأبيات التي استشهد بها النبهاني من شعر الصرصري فان تأويلها مشكل .

وصنف الشيخ رحمه الله أيضا مجلدا في حكم الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والصالحين ، وقرر أدلة المنع من الكتاب والسنة والاجماع والاعتبار ، وأكثر الكلام في المنع من هذا .

قال رحمه الله تعالى : ومما يبين حكمة الشريعة وأنها كسفينة نوح ان الذين

---

(١) المائدة : ٥٥ ، ٥٦

خرجوا عن المشروع خرجوا الى الشرك ، وطائفة منهم يصلون ويدعو أحدهم الميت فيقول اغفر لي وارحمني ، ومنهم من يستقبل القبر ويصلي اليه مستدبر الكعبة ، ويقول : القبر قبلة الخاصة ، والكعبة قبلة العامة ، وهذا يقوله من هو أكثر الناس عبادة وزهدا ، وهو شيخ متبوع ، فلعله أمثل أصحاب شيخه يقوله عن شيخه ، وأخرج من أعيان الشيوخ المتبوعين أصحاب الصدق والاجتهاد في العبادة والزهد ، وأمر المريد أول مايتوب أن يذهب الى قبر الشيخ فيعكف عليه عكوف أهل التماثيل عليها ، وجمهور هؤلاء المشركين بالقبور يجدون عند عبادة القبور من الرقة والخشوع وحضور القلب مالا يجدونه في المساجد ، وآخرون يحجون الى القبور ، وطائفة صنفوا كتبا وسموها مناسك حج المشاهد ، وآخرون يسافرون الى قبور المشايخ وان لم يسموها منسكا وحجا ، فالمعنى واحد .

وبعض الشيوخ المشهورين بالزهد والصلاح صنف كتاب الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة والمنام ، وذكر في مناقب هذا الشيخ أنه حج مرة وكان قبر النبي صلى الله عليه وسلم منتهى قصده ، ثم رجع ولم يذهب الى الكعبة وجعل هذا من مناقبه .

وبسبب الخروج عن الشريعة صار بعض الشيوخ ــ ممن يقصده بعض العلماء والقضاة قيل عنه انه كان ــ يقول : البيوت المحجوجة ثلاثة : مكة ، وبيت المقدس ، والبله الذي بالهند ، الذي للمشركين ، لأنه يعتقد أن دين اليهود والنصارى حق .

قال : وجاء بعض اخواننا العارفين قبل أن يعرف حقيقته فقال : أريد أن أسلك على يديك ، فقال له : على دين اليهود أو النصارى أو المسلمين ؟ فقال له : واليهود والنصارى ليسوا كفارا ، قال لاتشدد عليهم ولكن الاسلام أفضل .

ومن الناس من يجعل مقبرة الشيخ كعرفات ، يسافرون اليها وقت الموسم فيعرفون بها كما يفعل بالمغرب والمشرق .

وهؤلاء وأمثالهم صلاتهم ونسكهم لغير الله ، فليسوا على ملة ابراهيم ، والاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد موته موجودة في كلام بعض الناس ، مثل يحيى الصرصري ومحمد بن النعمان ، وهؤلاء لهم صلاح ولكن ليسوا من أهل العلم ، بل جروا على عادة كعادة من يستغيث بشيخه في الشدائد ويدعوه ، وكان بعض الشيوخ الذين أعرفهم ــ وله فضل وعلم وزهد ــ اذا نزل به أمر خطا الى جهة الشيخ عبد القادر خطوات واستغاث به ، وهذا يفعله كثير من الناس ، وهؤلاء

مستندهم مع العادة قول طائفة : قبر معروف أو غيره ترياق مجرب ، ومعهم أن طائفة استغاثوا بحي أو ميت فرأوه قد أتى في الهواء وقضى بعض الحوائج ، وهذا كثير واقع في المشركين الذين يدعون الملائكة والأنبياء ، أو الكواكب ، أو الأوثان ، فان الشياطين تتمثل لهم ، ولو ذكرت ماأعلم من الوقائع الموجودة في زماننا من هذا لطال المقـام •

ثم قال حاكيا عن البكري الذي صنف في جواز الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم : وقد طاف هذا بجوابه على علماء مصر ليوافقه واحد منهم فما وافقوه ، وطلب منهم أن يخالفوا الجواب الذي كتبته فما خالفوه ، مع أن قوما كان لهم غرض وفيهم جهل بالشرع قاموا في ذلك قياما عظيما ، واستعانوا بمن له غرض من ذوي السلطان مع فرط عصبيتهم وكثرة جمعهم وقوة سلطانهم ومكايدة شيطانهم ، انتهى•

فتأمل هذا الكلام فانه يستبين منه ضلال النبهاني وأضرابه من الغلاة ، وقـد صرح شيخ الاسلام أن السنة كسفينة نوح ، ومعلوم أن دعاء الأنبياء ليس من السنة، بل هو من البدع الشركية •

ومنها [1] أن بعضهم أفضى به ذلك الى أن يصلي للميت ويقول اغفر لي وارحمني وهذا جائز عند النبهاني واخوانه من عباد القبور سائغ لاينكر •

ومنها : أن بعض المستغيثين يعكف على القبر عكوف أهل التماثيل وهذا واقع منهم أيضا وهذا من لوازم قولهم بجواز الاستغاثة •

ومنها : أن جمهور هؤلاء المشركين بالقبور يجـدون عند عبـادتها من الرقة والخشوع وحضور القلب مالا يجدونه في المساجد :

ومنها : أن بعضهم يحج الى القبور ، وهذا عند النبهاني ومن على شاكلته من الفضائل التي لاتنكر •

ومنها : انكار الشيخ على من صنف كتاب الاستغـاثة بالنبي صلى الله عليـه وسلم في اليقظة والمنام ، وأن هذا المصنف حج مرة وكان قبر النبي صلى الله عليه وسلم منتهى قصده ثم رجع ولم يذهب الى الكعبة ، وفاعل ذلك عند الغلاة أفضل من الحـاج •

ومنها : ان ذلك أفضى ببعضهم الى أن قال : البيوت المحجوجة ثلاثة : مكة ، وبيت المقدس ، والصنم الذي في الهند ، وبعضهم لايرى ذلك للصنم الذي في الهند

---

(١) قوله : ومنها الخ .. هذه استنباطات من كلام شيخ الاسلام السابق معطوفة على قوله : وقد صرح الخ

ويراه لمن يعتقده ومايتأله به من المشايخ •

ومنها : أن بعضهم يعرّف عند مقابر الشيوخ كما يفعل بعرفة ، وان هذا وقع في المغرب والمشرق •

ومنها : أن الشيخ نفى العلم عمن يستغيث بالنبي صلى الله عليه وسلم ، كالصرصري وابن النعمان ، وأنهم جروا على عادة العامة الذين يستغيثون بالمشايخ في الشدائد ويدعونهم •

ومنها : أن من له فضل وعلم وزهد قد يقع منه الشرك والاستغاثة بغير الله ، وان مستندهم مع العادة قول طائفة قبر معروف أو غيره ترياق مجرب •

ومن المعلوم أن هذا القول صدر عن غير معصوم ، وجمهور أهل العلم والايمان قد ردوه وأنكروا على فاعله ، وقد مضى فيما مر من عبارات شيخ الاسلام أن هذا لايعرف في عهد القرون المفضلة ، وكفى بهذا ذما •

ومنها : قوله ان طائفة استغاثوا بحي أو ميت فرأوه قد أتى في الهواء وقضى بعض الحوائج ، وهذا كثير واقع في المشركين الذين يدعون الملائكة ، أو الأنبياء ، أو الكواكب ، أو الأوثان ، فجزم بأن قضاء الحوائج قد يحصل لعباد الملائكة ، أو الأنبياء ، أو الكواكب ، أو الأوثان ، ولو حكى الوقائع الموجودة في زمانه لطال المقام •

ومنها : قول الشيخ وهو ثقة فيما يحكيه بالاجماع أن علماء مصر لم يوافقوا من صنف في جواز الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم فيما لايقدر عليه الا الله ، وأبوا أن يخالفوا ماكتبه شيخ الاسلام من المنع ، فالحمد لله لانحصي ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وفوق مايثنى عليه عباده الصالحون •

وأما ماانتقده أهل العلم والدين على كلام البوصيري فكثير جدا ، من ذلك قوله :

ياأكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

(قال العلامة) الشيخ عبد اللطيف في كتابه (منهاج التأسيس) أن قول البوصيري هذا أشنع وأبشع من قول الصرصري ، لما تضمنه من الحصر ، ولما فيه من اللياذ بغير الله في الخطب الجلل ، والحادث العمم ، وهو قيام الساعة ، وقد قال تعالى (قُل أَرأَيتَكم إنْ أَتاكُم عذَابُ اللهِ أَو أَتتكُمُ السَّاعَةُ أَغيرَ الله تدعُونَ

إنْ كنتم صَادقينَ) [1]

فدعاء غير الله في الأمور العامة الكلية أبشع من دعاء غيره في الأمور الجزئية ، ولذلك أخبر أن عباد الأصنام لايدعون غيره عند اتيان العذاب أو اتيان الساعة التي هي الحادث العمم ، وأما من قال من الغلاة في الاعتذار عنه أن مقصوده الشفاعة والجاه فهذا لايفيده شيئا ، لأن عامة المشركين انما يقصدون هذا ولم يقصد الاستقلال الا معطلة الصانع ، وعامة المشركين انما قصدوا الجاه والشفاعة كما حكاه القرآن في غير موضع ، وأما قول الغلاة وتلبيسهم بأنه صلى الله عليه وسلم أعطى الشفاعة يوم القيامة ، وأنزل عليه (عَسى أَن يَبعَثكَ رَبُّكَ مقَاماً مَحْموداً) [2] فهذا تلبيس منهم وتشبيه على من لايدري الحقائق ولم يتفطن لمسألة النزاع ، فان الخصومة والنزاع في طلب الشفاعة أو غيرها من الشفعاء في حال مماتهم وقصدهم لذلك ونحوه من المطالب المهمة .

وأما حصول الشفاعة وسؤاله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة فهذا لاينكر ، وهو من جنس ما كان يطلب منه في حياته صلى الله عليه وسلم ، وأما بعد موته فلم يعرف عن أحد من أصحابه ولا عن أئمة الاسلام بعدهم أنه دعاه وطلب منه شفاعة أو غيرها ، وانما فعله بعض الخلوف الذين لايرجع اليهم في مسائل الأحكام ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

ومن ذلك قول البوصيري أيضا في قصيدته البردة في شأن معجزات النبي صلى الله عليه وسلم :

لو ناسبت قدره آياته عظما ... أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم

يقول : لو ناسبت آياته ومعجزاته عظم قدره عند الله تعالى وكمال قربه وزلفاه عنده لكان من جملة تلك الآيات أن يحيي الله العظام الرفات ببركة اسمه وحرمة ذكره ، حيث يتيمن به في الدعوات ، ويتوصل به في المهمات ، وذلك لأن الملوك المجازية اذا توسل عندهم باسم من له قرب ومكانة لديهم وتوصل بذكره لقضاء المآرب وانهاء المطالب يقضون الأوطار الرفيعة تنويها بذكره وتنبيها على قدره ، فمالك الملوك وان كان أحق بذلك وأولى لكن حكمته مااقتضته صونا للضعفة عن المداحض ، وعونا على العوام في مزالق الأقدام ، وخص احياء الموتى لكونه أرفع المطالب وأنفعها ، ولأنه كما أحيى ببركة المسمى موتى القلوب والأرواح ، فالمناسب

(١) الانعام : ٤٠ — (٢) الاسراء : ٧٩

أن يحيي ببركة الاسم تلك العظام والأشباح ، انتهى ما قاله بعض شراح هذه القصيدة •

ولا يخفى مافي هذا الكلام من الغلو ، فان من جملة آياته صلى الله عليه وسلم القرآن العظيم الشأن ، وهو الكتاب الذي (لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) وهو الكتاب الذي أنزله نورا وجعله مهيمنا على كل كتاب، وهو الكتاب الذي أنزله وفضله على كل حديث قصه ، وجعله فرقانا فرق به بين الحلال والحرام ، وقرآنا أعرب به عن شرائع الأحكام ، وكتابا فصله لعباده تفصيلا ، ووحيا أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم تنزيلا ، وجعله نورا يهتدى به من ظلم الضلالة والجهالة باتباعه ، وشفاء لمن أنصت بفهم التصديق الى استماعه ، وميزان قسط لايحيف عن الحق لسانه ، ونور هدى لايطفأ عن الشاهدين برهانه ، وعلم نجاة لايضل من أم قصد سنته ، ولا تنال أيدي الهلكات من تعلق بعروة عصمته ، وكيف يحل لمسلم أن يقول : ان القرآن لايناسب قدر النبي صلى الله عليه وسلم ، بل هو منحط عن قدره ، وهو كلام الله وكلام الله غير مخلوق ، منه بدا واليه يعود، ثم ان اسم الله الأعظم وسائر أسمائه الحسنى اذا ذكرها الذاكر لم تحي دارس الرمم فههنا أمران عظيمان : انحطاط قدر القرآن الذي هو صفة من صفات الله عن قدر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن المناسب لقدره أن يحيي اسمه حين يدعى دارس الرمم ، وليس هذا بجائز عند أحد من فرق المسلمين فضلا عن أهل السنة ، فانه ليس وراء هذا الغلو غلو أعظم منه ، ولهذا ذهب المتعصبون للناظم في كل واد من أودية التأويل •

ففي كتاب غرائب الاغتراب : ان مما جرى البحث عنه بيت البوصيري هذا وهو مشكل ، وأمر معضل ، فان مقتضى لو وكون القرآن داخلا في آياته صلى الله عليه وسلم أن لايكون القرآن العظيم مناسبا قدره عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم ، وذلك مما لايكاد يقال ، لما أن القرآن كلام الملك المتعال ، ثم أجاب بأجوبة غير مرضية ، الى أن قال : الجواب يتوقف على تحقيق المراد بالقرآن الذي لايسوغ أن يفضل عليه النبي أو أي انسان أهو الكلام النفسي الذي هو من صفاته تعالى الذاتية ؟ أم الكلام اللفظي الذي ذهب الى أنه مخلوق ــ كالمعتزلة ــ معظم الأشاعرة والماتريدية ، فان كان الأول فالقول به غير مناسب قطعا ، بل هو باطل بلا شبهة عقلا وسمعا ، وان كان الثاني فالقول بعدم مناسبة عدم المناسبة مما تتردد فيه الأذهان ،

لقول معظم أهل السنة أنه عليه الصلاة والسلام أفضل المخلوقات مايكون أو كان ، وحيث أن البوصيري عبر بالآيات أي المعجزات أراد بالقرآن المعنى الثاني من المعنيين ، اذ الكلام النفسي ليس بمعجزة ، ولم يتحد به سيد الكونين ، والظاهر أنه أشعري يقول : ان الكلام اللفظي مخلوق ، ضرورة اشتماله على بداية ونهايه وسابق ومسبوق ، وانه ممن يفضل النبي عليه الصلاة والسلام على جميع المخلوقات ، ممن مضى منهم ومن هو آت ، فقد قال وأحسن في المقال :

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وانه خير خلق الله كلهم

الى أن قال : وأنا أقول الآن مستعينا بالملك المنان ، قد ظفرت بنحو ماذكرته في مختصر شرح المرزوقي للقصيدة ، ونصه ــ بعد كلام في هذا البيت ــ قال الشارح : لم يزل الناس يعترضون هذا البيت لاقتضائه ان ليس فيما أعطيه صلى الله عليه وسلم من الآيات ما يناسب قدره ، لأن لو حرف امتناع لامتناع ، أي امتنعت الخاصة المذكورة لامتناع أن يناسب قدره العظيم شيء من آياته صلى الله عليه وسلم ، وهذا باطل فان من آياته القرآن العظيم ، وهو كلام الله تعالى ، والكلام صفة ، وشرف الصفة بشرف الموصوف ، ثم قال : وعنه أجوبة ، وأقول : السؤال مغالطة ، فان القرآن يراد به كلام الله الذي هو صفة الذات وهو المعنى القائم به ، وهذا لم يعطه صلى الله عليه وسلم ، لأن الذي أعطيه معجزة والمعجزة فعل لله تعالى خارق للعادة وهو غير صفة الذات ، ويراد به أيضا الحروف الملفوظة والأصوات المسموعة، وهذا هو الذي أعطيه صلى الله عليه وسلم ، وهو المعجزة ، واطلاق القرآن عليه بمعنى القراءة ، ومدلولها المعنى القائم بالذات ، واطلاق القرآن على الحروف والأصوات شائع ، وحينئذ لانسلم أن تكون الحروف والأصوات مناسبة لقدره عليه الصلاة والسلام ، انتهى •

فانظر الى هذا الجواب الركيك ، والقول بالكلام النفسي قد بين بطلانه في غير هذا الموضع •

(والمقصود) أن من أشهر من استشهد النبهاني الزائغ بشعره الصرصري والبوصيري وقد سمعت ماقال أهل العلم فيهما ، فالباقون على هذا القياس فلا حاجة الى أن تتعب القلم •

أحسن مافي خالد وجهه ووجهه الغاية في القبح

(الوجه السادس) أن من الغلاة من اعتذر عن هؤلاء الشعراء وغيرهم ممن

دعا غير الله وطلب منه حوائجه ومقاصده ، قال : ان أهـل السنـة من الأشاعرة والماتريدية لايقولون بتأثير الأسباب ولا بالتعليل ، فلا مؤثر في الوجود الا اللـه ، والتأثير انما هو عند الأسباب لابها ، فاذا طلب أحدهم شيئا من نبي أو ولي فالله هو المعطي لمن سأل عند الطلب ، ومن أسند التأثير لغير الله فقد أشرك ، فمن استغـاث بالنبي صلى الله عليه وسلم كالبوصيري والصرصري وسائر من استشهد بشعـره النبهاني لا لوم عليهم ، فان ماذكر مقصودهم •

وسمعت من بعض أغبياء الغلاة وجهلتهم من أهل الثياب المعلمة والأقفاء المورمة والألقاب المفخمة قال : مررت أثناء سفري الى الحجاز على جبل حائل وأهلـه من عرب نجد على مذهب الامام أحمد بن حنبل وأميرهم يومئذ محمد آل رشيد ، قـال فاجتمعت بأميرهم وجرى في البين كلام طويل ، ومنه مايتعلق بدعاء غير الله ، فقال الأمير : ان أهل بلادكم يغالون في الصالحين بما لايرضى الله به ، ويبنون على قبورهم المساجد والمشاهد ، ويوقدون السرج ، الى غير ذلك من البدع ، ثم انهم يندبونهم في المهمات ويستغيثون بهم عند طلب الحاجات ، وكل ذلك وأمثاله مما لايرضى به الله ولا رسوله ولا أهل العلم والدين ، فانه من أفعال مشركي العرب في الجاهلية ، بل هو أدهى وأمر ، قال فقلت للأمير ــ والله يعلم أنه من الكاذبين ــ ان أهل بلادنا يقولون عنكم وعمن يسلك مسلككم من عرب نجد وغيرهم انكم مشركون ، قـال فبهت الأمير من هذا الكلام واستعظمه ، ثم قال : ولم يقولون عنا انا مشركون ونحن من أخلص الناس توحيدا له سبحانه ، قال فقلت له : ان أهل بلادنا لايثبتون للأسباب تأثيرا ، وأنتم تثبتون التأثير والعلل والحكم والمصالح ، فاذا كان الأمر كذلك فقـد أشركتم مع الله مؤثرا في الوجود ، وهذا هو الشرك الأكبر ، قال وأما أصحابنـا فعندهم أن السكين عند امرارها على شيء لاتقطع بل يخلق الله القطع عند ذلـك ، وليس في الماء قوة الري مودعة فيه بل الري يخلق عند شربه لابه ، والنـار ليست بمحرقة بل الاحراق عندها لابها ، والعين ليست بمبصرة والأذن ليست بسامعة بـل الابصار والسماع عندهما لابهما ، وهكذا في جميع مايعتقد أنه سبب في الظـاهر ، فاذا قال القائل مستغيثا بأحد من الأموات يافلان افعل كذا وكذا فالمقصود الطلب من الله أن يقضي حاجته ، وبعد أن فرغ من هذا الهذيان وسكت ، قلت له : فما أجابك الأمير ؟ قال لم يجبني بشيء ، فقلت كان ينبغي أن يجيبـك ويسألـك من قال هذا الكلام الذي ذكرته ؟ وعمن نقلته ؟ وأي دليل لك عليه من الكتاب والسنة وسلف

الأمة ، وينبغي على قولك هذا أن يطلب من المخلوق كل شيء يطلب من الخالق ، وينبغي أن لايعترض على عبدة الأصنام وطلبهم من أصنامهم مايطلب من الله ، فانهم أيضا كانوا يعتقدون أن أصنامهم وسائط ووسائل وشفعاء ، وكانوا (يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) ، ويقولون انما نعبدهم ليقربونا الى الله زلفى ، ونحو ذلك من الكلام ، واذا سئلوا من يرزقكم ومن خلق السموات والأرض ليقولن الله •

وقد سبق في هذا الكتاب في عدة مواضع بيان ذلك ، وأن كلام الغلاة هذا وكلام عبدة الأصنام من واد واحد ، وقد تشابهت قلوبهم ، وأوردت له عدة آيات ونصوص في اثبات الحكمة والتعليل ، وأن الله هو خالق السبب والمسبب ، وأن هذا هو مااقتضاه الكتاب والسنة وكلام السلف ، فلم يزده ذلك الا نفورا واستكبارا عن قبول الحق ، فانه كان من قوم ظروفهم من الظرف خالية ، وغرفهم من العقل خاوية ، وصحنهم من العلوم بيضاء صافية ، وجيفهم فوق الماء طافية ، في الأنعام ، لافي الأنام ، ومثله بلاء على الاسلام •

وقد بسط الكلام على مسألة الأسباب العلامة الحافظ الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية في كتابه (شفاء العليل ، في القضاء والقدر والحكمة والتعليل) قال في أثناء كلامه : انه سبحانه ربط الأسباب بمسبباتها شرعا وقدرا ، وجعل الأسباب محل حكمته في أمره الديني والشرعي ، وأمره الكوني القدري ، ومحل ملكه وتصرفه ، فانكار الأسباب والقوى والطبائع جحد للضروريات ، وقدح في العقول والفطر ، ومكابرة للحس ، وجحد للشرع والجزاء ، فقد جعل سبحانه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم والثواب والعقاب والحدود والكفارات والأوامر والنواهي والحل والحرمة كل ذلك مرتبطا بالأسباب قائما بها ، بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه ، بل الموجودات كلها أسباب ومسببات ، والشرع كله أسباب ومسببات ، والمقادير أسباب ومسببات ، والقدر جار عليها متصرف فيها ، فالأسباب محل الشرع والقدر ، والقرآن مملوء من اثبات الأسباب ، كقوله : (بِما كُنتُم تعمَلُونَ)[1] (بِما كُنتُم تكسِبونَ)[2] (ذلكَ بِما قدَّمت يداكَ)[3] (بما كَسبتْ أيديكُم)[4] وسرد آيات كثيرة الى أن قال : وهذا أكثر من أن يستوعب •

---

(١) السجدة : ١٤ ـ (٢) يونس : ٥٢ ـ (٣) الحج : ١٠ ـ (٤) الشورى : ٣٠

وكل موضع تضمن الشرط والجزاء أفاد سببية الشرط والجزاء ، وهو أكثر من أن يستوعب كقوله : (يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا)[1] وقوله : (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد)[2]

وكل موضع رتب فيه الحكم على ماقبله بحرف أفاد التسبب وقد تقدم ، وكل موضع ذكرت فيه الباء تعليلا لما قبلها بما بعدها أفاد التسبب ، وكل موضع صرح فيه بأن كذا جزاء لكذا ، أفاد التسبب ، فان العلة الغائية علة للعلة الفاعلية ، ولو تتبعنا مايفيد اثبات الأسباب من القرآن والسنة لزاد على عشرة آلاف موضع ،ولم نقل ذلك مبالغة بل حقيقة ، ويكفي شهادة الحس والعقل والفطر ، ولهذا قال من قال من أهل العلم تكلم قوم في انكار الأسباب فأضحكوا ذوي العقول على عقولهم ، وظنوا أنهم بذلك ينصرون التوحيد فشابهوا المعطلة الذين أنكروا صفات الرب ونعوت كماله ، وعلوه على خلقه ، واستواءه على عرشه ، وتكلمه بكتبه ، وتكليمه لملائكته وعباده ، وظنوا أنهم بذلك ينصرون التوحيد ، فما أفادهم الا تكذيب الله ورسله وتنزيهه عن كل كمال ، ووصفه بصفات المعدوم والمستحيل ، ونظير من نزه الله في أفعاله وأن يقوم به فعل البتة ، وظن أنه ينصر بذلك حدوث العالم وكونه مخلوقا بعد ان لم يكن، وقد أنكر أصل الفعل والخلق جملة ، ثم من أعظم الجناية على الشرائع والنبوات والتوحيد ايهام الناس أن التوحيد لايتم الا بانكار الأسباب ، فاذا رأى العقلاء أنه لايمكن اثبات توحيد الرب سبحانه الا بابطال الأسباب ساءت ظنونهم بالتوحيد وبمن جاء به ، وأنت لاتجد كتابا من الكتب أعظم اثباتا للأسباب من القرآن .

ويالله العجب اذا كان الله خالق السبب والمسبب وهو الذي جعل هذا سببا لهذا والأسباب والمسببات طوع مشيئته وقدرته منقادة لحكمه ان شاء أن يبطل سببية الشيء أبطلها كما أبطل احراق النار على خليله ابراهيم واغراق الماء على كليمه وقومه ، وان شاء أقام لتلك الأسباب موانع تمنع تأثيرها مع بقاء قواها ، وان شاء خلى بينها وبين اقتضائه لآثارها ، فهو سبحانه يفعل هذا وهذا وهذا ، فأي قدح يوجب ذلك في التوحيد ؟ وأي شرك يترتب على ذلك بوجه من الوجوه ؟ ولكن ضعفاء العقول اذا سمعوا أن النار لاتحرق والماء لايغرق والخبز لايشبع والسيف لايقطع ولا تأثير لشيء من ذلك البتة ولا هو سبب لهذا الأثر وليس فيه قوة وانما

---

(1) الانفال : ٢٩ ـ (2) ابراهيم : ٧

الخالق المختار يشاء حصول كل أثر من هذه الآثار عند ملاقاة كذا لكذا ــ قالوا هذا هو التوحيد ، وافراد الرب بالخلق والتأثير ، ولم يدر هذا القائل أن هذا اساءة ظن بالتوحيد ، وتسليط لأعداء الرسل على ماجاؤا به ، كما تراه عيانا في كتبهم ينفرون به الناس عن الايمان ، ولا ريب أن الصديق الجاهل قد يضر مالا يضره العدو العاقل ، قال تعالى عن ذي القرنين (وآتيناهُ من كلِّ شيءٍ سبباً)[1] ثم ذكر تفسير الآية وذكر آيات أخر ، وشفى بذلك صدور المؤمنين ، ومن أراد الوقوف على تفصيل ذلك فليراجع هذا الكتاب .

والمقصود : أن قول ذلك الزائغ الذي أجراه مع أمير الجبل هو كذب لاأصل له ، واني أعلم أنه من أكذب الناس وأكثرهم رياء ، وأنه لو كان صادقا فيما نقله فالكلام مع العوام لايترتب عليه شيء ، وان مسألة الأسباب سواء قلنا فيها بقول السلف أم لا لاتعلق لها مع الدعاء والعبادة ، فان ذلك من خصائص الله تعالى باتفاق العقلاء وأهل المعرفة ، وان الأشاعرة القائلين بعدم تأثير الأسباب لايقولون بجواز عبادة غير الله ، فلا يسجد لغير الله ، ولا يذبح لغير الله ، ولا ينذر لغير الله ، ولا يحلف بغير الله ، ولا يستغاث ولا يستعان بغير الله .

وكل هذا يفعله قوم ذلك الزائغ فما حجتهم في هذا العمل الباطل ؟ فليجب عن هذا ثم ليفتخر بما كان منه مع أمير حائل العامي ، وانه يتبجح بالزامه وافحامه ، ألا لعنة الله على الكاذبين .

(الوجه السابع) ان الشعراء الذين أورد النبهاني من شعرهم في الاستدلال على جواز الاستغاثة بغير الله والاحتجاج على مشروعية دعاء سواه سبحانه ــ بل كل من كان على هذا المنهج من الغلاة ــ فهو اما من القائلين بالحلول والاتحاد وهو الذي سوغ له ذلك الدعاء والالتجاء اذ الكل واحد ، وعلى ذلك قول قائلهم :

وتلتذ ان مرت على جسدي يدي   لأني في التحقيق لست سواه

وقال آخر:

الرب عبد والعبد رب   ياليت شعري من المكلف

وعندهم الوجود واحد ، ولذلك قال من قال سبحان من أظهر الأشياء وهو عينها ، فاذا كان الله عين كل شيء فله أن يعبد كل شيء اذ هي عين الحق ، وفي كتاب

---

(١) الكهف : ٨٤

فصوص الحكم ماتقشعر منه جلود المؤمنين •

قال شرف الدين اسمعيل المعروف بابن المقرى من قصيدة :

فقال بأن الرب والعبد واحد ... فربي مربوب بغير تغاير
وأنكر تكليفا اذ العبد عنده ... اله وعبد فهو انكار حاير
وخطأ الامن يرى الخلق صورة ... وهوية لله عند التناظر
وقال يحل الحق في كل صورة ... تجلى عليها وهو احدى المظاهر
وأنكر أن الله يغني عن الورى ... ويغنون عنه لاستواء المقادر

الى آخر ماقال ، والقصيدة طويلة في ديوانه ، وهو الذي قال ماقال الشيخ محي الدين الذي يقول :

وكل كلام في الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه

(والمقصود) أن من يذهب مذهب الغلاة في أهل القبور فريقان :

(الفريق الأول) من يقول بالاتحاد والحلول ، اذ لافرق حينئذ بين الخالق والمخلوق ، ولا بين التراب ورب الأرباب ، ومنهم النبهاني الزائغ على ماأشعر كلامه واعتقاده في النبي صلى الله عليه وسلم مع ماهو عليه من المسلك ، وقد ذكرنا ذلك أول الكتاب ، ومثله كثير ممن أورد شعره •

(الفريق الثاني) الجهال بحقائق الدين ودقائقه ، وهم أكثر من نقل النبهاني شعره ، فهم لايعلمون مافي كلامهم من المحاذير ، ولو نبهوا عليها لاانتبهوا ، وهم في شعرهم وما قالوه في النبي صلى الله عليه وسلم من الغلو يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وقد رأينا من يعمل في قبور الأصفياء مايعمل من المنكرات والأعمال التي لم تشرع كلهم من العوام وان كان في زي العلماء الأعلام ، فبطل جميع مااستشهد به من الشعر والحمد لله •

(قال النبهاني) ان الشيخ محمد الأمير الكبير صاحب الثبت المشهور قد أجازني بثبته ، وماااشتمل عليه من علوم الشريعة والطريقة ، ومن كل معقول ومنقول شيخي الامام العلامة الشيخ ابراهيم السقا المصري ، عن الشيخ محمد الأمير الصغير ، عن والده الأمير الكبير المذكور ، ثم ذكر سنده بالطريقة الشاذلية الى أن أوصلها الى جبريل ، عن اسرافيل ، عن عزرائيل ، عن اللوح ، عن القلم ، عن الجليل جل جلاله ، ثم ذكر له اجازة أخرى من هذا القبيل •

ثم أردفها بتنبيه نزه فيه شيخه عما قيل فيه ، ثم ذكر سنده في الطريقة البكرية

الخلوتية ، وأعقبها بهذيان وترهات تود الأذن المحمدية لو كانت عنها صماء •

(الجواب عن جميع ماهذى به في هذا المقام) أن يقال : ان ماعليه النبهاني من الجهل والضلال يكذب جميع مادعاه ، أين علمه بالمعقول والمنقول الذي أجازه به شيوخه ؟ بل أين آثار علم من العلوم فضلا عن جميعها من العلوم العقلية والنقلية ؟

ودعوة المرء تطفي نور بهجته هذا بحق فكيف المدعي زللا

ثم أين زهده وورعه وتقواه وقد صرف عمره في الأحكام القانونية في المحاكم الجزائية والبداية والحكم بغير ماأنزل الله ؟ أما يستحي من هذا حاله أن يدخل نفسه في عداد المسلمين فضلا عن عباد الله الصالحين والعلماء العاملين ؟ وهو صفر اليدين من كل فضيلة ، عار عن أردية المناقب الجميلة ، ولكن شأن من لم يستح من الله ومن عباده أن يصنع مايشاء ، وليته ذكر أيضا سنده بالطريقة الرفاعية ، التي تلقاها عن شيخه وشيطانه ، شيخ السوء ومقتدي الدجالين ، خبيث النفس والأفعال ، أبي البدع وعنوان الضلال ، وهكذا غالب متصوفة زماننا ، فمن باب الاشارة في تفسير قوله تعالى : (وَبَلَوناهُم بالحسنَاتِ والسَّيئاتِ لعَلَّهُم يرجِعُونَ فخَلَفَ منْ بعدِهِم خَلفٌ ورِثُوا الكِتَابَ يأْخُذُونَ عَرضَ هَذا الأَدنى) [1] وهي الشهوات الدانية واللذات الفانية ، ويجعلون ماورثوه ذريعة الى أخذ ذلك : (ويقُولُونَ سيُغْفَرُ لَنَا) [1] ولابد ، لأنا واصلون كاملون ، وهذا حال كثير من متصوفة زماننا ، فانهم يتهافتون على الشهوات تهافت الفراش على النار ، ويقولون ان ذلك لايضرنا لأنا واصلون ، وحكي عن بعضهم أنه يأكل الحرام الصرف ، ويقول : ان النفي والاثبات يدفع ضرره ، وهو خطأ فاحش وضلال بين ، أعاذنا الله تعالى واياكم من ذلك ، وأعظم منه اعتقاد حل أكل مثل الميتة من غير عذر شرعي لأحدهم ، ويقول كل منا بحر والبحر لاينجس ، ولا يدري هذا الضال أن من يعتقد ذلك أنجس من الكلب والخنزير ، ومنهم من يحكي عن بعض الكاملين المكملين من أهل الله تعالى مايؤيد به دعواه ، وهو كذب لاأصل له ، وحاشا ذلك الكامل مما نسب اليه ، انتهى •

وقال الزمخشري عند الكلام على قوله تعالى : (يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا من يَرْتدَّ منْكُم عنْ دِينه فَسَوفَ يأْتي اللهُ بقُوم يُحبُّهم ويُحبُّونَهُ) [2]

---

(1) الاعراف : ١٦٨ ، ١٦٩ — (2) المائدة : ٥٤

مانصه : محبة العباد لربهم طاعته وابتغاء مرضاته ، وأن لايفعلوا مايوجب سخطه وعقابه ، ومحبة الله تعالى لعباده أن يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم ، ويعظمهم ويثني عليهم ويرضى عنهم ، وأما مايعتقده أجهل الناس وأعداهم للعلم وأهله وأمقتهم للشرع وأسوؤهم طريقة ، وان كانت طريقتهم عند أمثالهم من الجهلة والسفهاء شيئا وهم الفرقة المفتعلة المنفعلة من الصوف ، وما يدينون به من المحبة والعشق والتغني على كراسيهم خربها الله تعالى ، وفي مراقصهم عطلها الله تعالى بأبيات الغزل المقولة في المردان الذين يسمونهم شهداء ، وصعقاتهم التي أين منها صعقة موسى عليه السلام ، ثم دك الطور فتعالى الله عنه علوا كبيرا ، ومن كلماتهم كما أنه بذاته يحبهم ، كذلك يحبون ذاته ، فان الهاء راجعة الى الذات ، دون النعوت والصفات ، ومنها الحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة ، ولو لم يكن ذلك لم تكن فيه حقيقة ، انتهى كلامه .

وهؤلاء الطائفة الذين تسموا بالصوفية غاصبين له عن أهله ، قد ارتكبوا مانقل الامام عنهم ، بل وزيادة أضعاف أضعافه مما نعلمه من هذه الطائفة في زماننا ، وذلك لاينافي حال المتسمين به حقيقة ، ولايؤاخذ الصالح بالطالح ،ولا يضرب رأس البعض بالبعض ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

ثم انه من المعلوم أن مايقرأه الناس اليوم من العلوم العقلية أخذت من كتب اليونان بعد أن ترجمت بأمر المأمون الخليفة العباسي ، فمن أين ساغ لمن أسندها في الاجازات الكاذبة الى النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن ميكائيل عن اسرافيل عن عزرائيل عن اللوح عن القلم كما ذكره النبهاني الكاذب في اسناده ؟ وعلوم اليونان كلها خطأ وضلال وبهتان كما ظهر ذلك للعيان عند من مارس فنون الفلاسفة المتأخرين ، فكيف تسند الى من لاينطق عن الهوى ؟ وهكذا حكم الطرائق المبتدعة، فهي من وسوسة الشيطان لا من وحي الرحمن .

وأما علم الكلام الذي هو من جملة علم المعقول المختلط مع المنقول ان كان المراد به المخالف للكتاب والسنة فهو باطل ، وقد نزه الله تعالى عنه من ذكره النبهاني في سند اجازته التي أجازه فيها شيوخه بالعلوم والطريقة ، ولم يكن في الصحابة والتابعين أحد يستدل على حدوث العالم بحدوث الأجسام ، ويثبت حدوث الأجسام بدليل الأعراض والحركة والسكون ، والأجسام مستلزمة لذلك لاتنفك عنه ، ومالا يسبق الحوادث فهو حادث ، ويبني ذلك على حوادث لا أول لها ، بل

أول ماظهر هذا الكلام في الاسلام بعد المائة الأولى من جهة الجعد بن درهم والجهم ابن صفوان ، ثم صار الى أصحاب عمرو بن عبيد ، كأبي الهذيل العلاف وأمثاله •
وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء انما كانا يظهران الكلام في انفاذ الوعيد ، وأن النار لايخرج منها من دخلها ، وفي التكذيب بالقدر ، وهذا كله مما نزه الله عنه نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، والتابعين لهم باحسان ، وتمام الكلام في كتاب المنهاج لشيخ الاسلام رحمه الله ، فان فيه ما يشفي صدور المؤمنين •

ثم ان ماذكره النبهاني من أن سند الطرايق المبتدعة يتصل بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن جبريل عن ميكائيل عن اسرافيل عن عزرائيل الى آخر ماذكره فهو كذب لا أصل له •

وتحقيق ذلك : أن أهل المعرفة وحقائق الايمان المشهورين في الأمة بلسان الصدق انما وصلوا الى ماوصلوا اليه بالعمل بما في الكتاب والسنة لا بلباس الخرقة ، وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ان الله لاينظر الى صوركم وأموالكم وانما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم) فأين حقائق القلوب من لباس الأبدان •

(ويقال ثانيا) الخرق متعددة أشهرها خرقتان : خرقة الى عمر ، وخرقة الى علي ، كما حققه شيخ الاسلام ، فخرقة عمر لها اسنادان : اسناد الى أويس القرني ، واسناد الى أبي مسلم الخولاني •

وأما الخرقة المنسوبة الى علي فاسنادها الى الحسن البصري ، والمتأخرون يصلونها بمعروف الكرخي ، فان الجنيد صحب السري والسري صحب معروفا الكرخي بلا ريب ، وأما الاسناد من جهة معروف فينقطع ، فتارة يقولون : انمعروفا صحب عليا وهو ابن موسى الرضا ، وهذا باطل قطعا ، لم يذكره المصنفون لاخبار معروف بالاسناد الثابت المتصل ، كأبي نعيم وأبي الفرج ابن الجوزي في كتابه الذي صنفه في فضائل معروف ، ومعروف كان منقطعا في الكرخ ، وعلي بن موسى كان المأمون قد جعله ولي العهد بعده ، وجعل شعاره لباس الخضرة ، ثم رجع عن ذلك وأعاد شعار السواد ، ومعروف لم يكن ممن يجتمع بعلي بن موسى ولا نقل عنه ثقة أنه اجتمع به أو أخذ عنه شيئا ، بل ولا يعرف أنه رآه ، ولا كان معروف بوابه ، ولا أسلم على يديه ، وهذا كله كذب •

وأما الاسناد الآخر فيقولون : ان معروفا صحب داود الطائي ، وهذا أيضا

لاأصل له ، وليس في أخباره المعلومة مايذكر فيها ، وفي اسناد الخرقة أيضا أن داود الطائي صحب حبيبا العجمي ، وهذا أيضا لم يعرف له حقيقة ، وفيها أن حبيبا العجمي صحب الحسن البصري ، وهذا صحيح ، فان الحسن كان له أصحاب كثيرون ، مثل أيوب السختياني ، ويونس بن عبيد ، وعبد الله بن عوف ، ومثل محمد بن واسع ، ومالك بن دينار ، وحبيب العجمي ، وفرقد السبخي وغيرهم من عباد البصرة ، وفيها أن الحسن صحب عليا ، وهذا باطل باتفاق أهل المعرفة ، فانهم متفقون على أن الحسن لم يجتمع بعلي ، وانما أخذ عن أصحاب علي ، أخذ عن الأحنف بن قيس ، وقيس بن عباد وغيرهما عن علي ، وهكذا رواه أهل الصحيح ، والحسن ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ، وقتل عثمان وهو بالمدينة ، كانت أمه أمة لأم سلمة ، فلما قتل عثمان حمل الى البصرة ، وكان علي بالكوفة ، والحسن في وقته صبي من الصبيان لايعرف ولا له ذكر ، والأثر الذي يروى عن علي أنه دخل الى جامع البصرة وأخرج القصاص الا الحسن كذب باتفاق أهل المعرفة ، ولكن المعروف أن عليا دخل المسجد فوجد قاصا يقص ، فقال : ماasمك ؟ قال أبو يحيى ، قال تعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال لا ، قال : هلكت وأهلكت ، انما أنت أبو اعرفوني ، ثم أخذ باذنه فأخرجه من المسجد ، فروى أبو حاتم في كتاب الناسخ والمنسوخ : حدثنا الفضل بن دكين ، حدثنا سفيان عن أبي حصين عن أبي عبد الرحمن السلمي ، قال انتهى علي الى قاص وهو يقص ، فقال أعلمت الناسخ والمنسوخ ؟ قال لا ، قال : هلكت وأهلكت ، قال وحدثنا زهير بن عباد الرواسي ، حدثنا أسد بن حمران عن جويبر عن الضحاك ، أن علي بن أبي طالب دخل مسجد الكوفة فاذا قاص يقص فقام على رأسه فقال ياهذا تعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال لا ، قال أفتعرف مدني القرآن من مكيه ؟ قال لا ، قال هلكت وأهلكت ، قال أتدرون من هذا ؟ هذا يقول اعرفوني اعرفوني .

وقد صنف ابن الجوزي مجلدا في مناقب الحسن البصري ، وصنف أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي جزءا فيمن لقيه من أصحابه ، واخبار الحسن مشهورة في مثل تاريخ البخاري .

قال شيخ الاسلام : وقد كتبت أسانيد الخرقة ، لأنه كان فيها أسانيد فبينتها ليعرف الحق من الباطل ، ولهم أسانيد أخر بالخرقة المنسوبة الى جابر ، وهو منقطع جدا ، وقد عقل بالنقل المتواتر أن الصحابة لم يكونوا يلبسون مريديهم خرقة ، ولا يقصون شعورهم ، ولا التابعون ، ولكن هذا فعله بعض مشايخ المشرق من المتأخرين

وأخبار الحسن مذكورة بالأسانيد الثابتة في كتب كثيرة يعلم منها ماذكرنا •
وقد أفرد أبو الفرج ابن الجوزي له كتابا في مناقبه وأخباره •
وأضعف من هذا نسبة الفتوة الى علي ، وفي اسنادها من الرجال المجهولين الذين لايعرف لهم ذكر مايبين كذبها ، وقد علم كل من له علم بأحوال الصحابة والتابعين أنه لم يكن فيهم أحد يلبس سراويل ، ولا يسقى ملحا ، ولا يختص أحد بطريقة تسمى الفتوة ، لكن كانوا قد اجتمع بهم التابعون وتعلموا منهم ، وتأدبوا بهم ، واستفادوا منهم ، وتخرجوا على أيديهم ، وصحبوا من صحبوه منهم ، وكانوا يستفيدون من جميع الصحابة ، وأصحاب ابن مسعود كانوا يأخذون عن عمر وعلي وأبي الدرداء وغيرهم ، وكذلك أصحاب معاذ بن جبل رضي الله عنه كانوا يأخذون عن ابن مسعود وغيره ، وكذلك أصحاب ابن عباس يأخذون عن ابن عمر وأبي هريرة وغيرهما ، وكذلك أصحاب زيد بن ثابت يأخذون عن أبي هريرة وغيره ، وقد انتفع بكل منهم من نفعه الله ، وكل منهم متفقون على دين واحد وطريق واحدة وسبيل واحدة ، يعبدون الله تعالى ويطيعون الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن بلغهم من الصادقين عن النبي صلى الله عليه وسلم شيئا قبلوه ،ومن فهم من السنة والقرآن مادل عليه القرآن والسنة استفادوه ، ومن دعاهم الى الخير الذي يحبه الله ورسوله أجابوه ، ولم يكن أحد منهم يجعل شيخه ربا يستغيث به كالاله الذي يسأله ويرغب اليه ، ويعبده ويتوكل عليه ، ويستغيث به حيا وميتا ، ولا كالنبي الذي تجب طاعته في كل ماأمر ، فالحلال ماحلله ، والحرام ماحرمه ، فان هذا ونحوه دين النصارى ، الذين قال الله فيهم : (اتَّخذُوا أَحبارهُم ورُهْبانَهُم أَرْباباً من دُونِ الله والمسيحَ ابْنَ مَريَم ومَا أُمِرُوا إلَّا ليعْبُدوا إلهاً واحِداً لا إله إلَّا هُو سُبحانهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) .(1)

وكانوا متعاونين على البر والتقوى لا على الاثم والعدوان ، متواصين بالحق متواصين بالصبر ، والامام والشيخ ونحوهما عندهم بمنزلة الامام في الصلاة وبمنزلة دليل الحاج ، فالامام يقتدي به المأمون فيصلون بصلاته لايصلي عنهم ،وهو يصلي بهم الصلاة التي أمر الله ورسوله بها ، فان عدل عن ذلك سهوا أو عمدا لم يتبعوه ، ودليل الحاج يدل الوفد على طريق البيت ليسلكوه

(1) التوبة : 31

ويحجوه بأنفسهم ، فالدليل لايحج عنهم ، وان أخطأ الدلالة لم يتبعوه ، واذا اختلف دليلان واامامان نظر أيهما كان الحق معه فاتبع ، فالفاصل بينهم الكتاب والسنة ، قال تعالى : (يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا أَطِيعُو الله وأطيعُوا الرَّسُولَ وأُولي الأَمرِ مِنْكُم فإِنْ تَنازَعتُم في شَيءٍ فَردُّوهُ إلى اللهِ والرَّسُول إنْ كُنتُم تؤْمِنُونَ باللهِ واليوم الآخِرِ ، ذَلك خيرٌ وأَحسنُ تأويلاً) .[1]

وكل من الصحابة الذين سكنوا الأمصار أخذ عنه الناس الايمان والدين ، وأكثر المسلمين بالمشرق والمغرب لم يأخذوا عن علي شيئا ، فانه رضي الله عنه كان ساكنا بالمدينة ، وأهل المدينة لم يكونوا يحتاجون اليه الا كما يحتاجون الى نظرائه كعثمان في مثل قضية يشاورهم فيها عمر ونحو ذلك ، ولما ذهب الى الكوفة كان أهل الكوفة قبل أن يأتيهم قد أخذوا الدين عن سعد ابن أبي وقاص وابن مسعود وحذيفة وعمار وأبي موسى وغيرهم ممن أرسله عمر الى الكوفة ، وأهل البصرة أخذوا الدين عن عمران بن حصين وأبي بكرة وعبد الرحمن بن سمرة وأنس وغيرهم من الصحابة وأهل الشام أخذوا الدين عن معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبي الدرداء وبلال وغيرهم من الصحابة ، والعباد والزهاد من أهل هذه البلاد أخذوا الدين عمن شاهدوه من الصحابة ، فكيف يجوز أن يقال : ان طريق أهل الزهد والتصوف متصل به دون غيره ، وهذه كتب الزهد ـ مثل الزهد للامام أحمد ، والزهد لابن المبارك ، ولوكيع ابن الجراح ، ولهناد بن السري ، ومثل كتب أخبار الزهاد ، كحلية الأولياء ، وصفوة الصفوة ، وغير ذلك ـ فيها من أخبار الصحابة والتابعين أمور كثيرة ، وليس الذي فيها لعلي أكثر مما فيها لأبي بكر وعمر ومعاذ وابن مسعود وأبي بن كعب وأبي ذر وأبي الدرداء وأبي امامة وأمثالهم من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، انتهى كلامه .

(والمقصود من نقله) أن يعلم أن ماذكره النبهاني من الثبت باطل من وجوه :

(أما أولا) فلأن مايعرفه من العلم الشيطاني ليس مأخوذا بالسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان العلم الذي جاء به الرسول لايعرفه ولا يوفق له ، فانه نور ونور الله لايوفق له العصاة الطغاة .

(وأما ثانيا) فلأن الطرايق التي انتحلها لاأصل لها ، وكلها بدع وضلالات ،

---

(١) النساء : ٥٩

ولذلك لم تؤثر في قلبه شيئا ان صدق أنه سلكها ، بل هو من أضل الناس وأجهل الناس .

(وأما ثالثا) فلأن سنده مختل باطل ، كما يعلمه من يطبقه على ماسبق من كلام شيخ الاسـلام .

(وبالجملة) فكلامه في كتابه هذا من أوله الى آخره ظلمات بعضها فوق بعض، فسبحان من طبع على قلبه وعلى سمعه وبصره ، ومع ماهو عليـه من الحال الـذي ينبغي أن يرثى له بسببه يتطاول على علماء المسلمين الربانيين ويفحش القول فيهم ، قبحه الله تعالى ولعنه كما لعن أصحاب السبت ، وما أحقه بقول أبي العلاء المعري :

اذا وصـف الطائي بالبخـل مادر وعـير قسـا بالفهاهة باقـل
وقال السهى للشمس أنت خفيـة وقال الدجى للصبح لونك حائـل
وطاولت الأرض السماء سفـاهة وفاخرت الشهب الحصى والجنـادل
فيامـوت زران الحياة ذميمـة ويانفس جـدي ان دهـرك هازل

والكلام على بدع الطرائق وأهلها مفصل في غير هذا الموضـع ، وفي كتـاب (كشف أحوال المشايخ الأحمدية ، وبيان أحوالهم الشيطانية) مايشفـي صدور المؤمنين ، وتقربه عين الموحدين ، والنبهاني لم يزل يكرر قوله في التبجح والافتخار بالاجازات الكاذبة التي لاأصل لها ، ويقول : وعندي بحمد الله اجازات بكثير من الطرق العلية غير الخلوتية والشاذلية ، كالقادرية والرفاعية والنقشبندية ، ولكن كل ذلك لأجل البركة باتصال سندي بالنبي صلى الله عليه وسلم كما اتصـل من طرق الفقهاء والمحدثين وسائر علماء الدين الى آخر هذيانه ، ولا بدع اذا ما كان مجمـع البدع والضلالات ، وليت شعري ماذا نفعته تلك الاجازات ، وأي بركة حصلت له من هاتيك الخزعبلات ، وهل هي الا أن قضى شطرا من عمره في محاكم القوانـين والنظامات ، وصرف أيامه بالجهالات والضلالات : (وَسَيَعلَمِ الَّذينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلبٍ ينقلبُونَ)[1] (قُل هَل نُنَبِّئُكُم بالأَخسَرينَ أَعمالاً . الَّذينَ ضَلَّ سَعيُهم في الحياةِ الدّنيا ، وَهُم يَحسبُونَ أَنَّهم يُحسِنُونَ صُنعاً).[2]

(الكلام على سوء خاتمته)

قال النبهاني : الخاتمة في الجواب عما اعترض به ابن تيمية وأمثاله على بعض

---

(١) الشعراء : ٢٢٨ ـ (٢) الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤

أولياء الله تعالى من الألفاظ الموهمة ، ونقل عن كتاب البحر المورود للامام الشعراني أنه قال أخذ علينا العهود أن نجيب عن أئمة الاسلام ــ من العلماء والصوفية ــ جهدنا ، ولا نصغي قط لقول من طعن فيهم ، لعلمنا أنه ماطعن فيهم الا وهو قاصر عن معرفة مداركهم ، ونقل كلامه في تبرئة الجنيد والغزالي ، والشيخ محي الدين ابن عربي ، ونقل أيضا كلامه على مااعترض عليه من كلمات القوم ، كقول الشيخ أبي يزيد طاعتك لي يارب أعظم من طاعتي لك ، وقول الجنيد العارفون لايموتون ، وانما ينقلون من دار الى دار ، وقول الشبلي : ان ذلي عطل ذل اليهود ، وقول الغزالي : ليس في الامكان أبدع مما كان ، وقول الشيخ محيي الدين ابن عربي : حدثني قلبي عن ربي ، أو حدثني ربي عن قلبي ، أو حدثني ربي عن نفسه ، ثم ان الشعراني وجه هذه الأقوال بتوجيهات رآها ، ثم نقل عن القوم أقوالا ثبتت عنهم ــ ولم يعين قائلا ــ كقولهم اللوح المحفوظ هو قلب العارف ، وقولهم دخلنا حضرة الله ، وخرجنا من حضرة الله ، وأبدى لمثل هذه الأقوال معاني صحيحة ، ثم ان بعض أقوال نسبت الى بعض أولئك القوم ، قال لم تصح نسبتها اليهم وكذبها ، ونقل النبهاني أيضا عن الفتاوى الحديثية بعض المسائل المتعلقة بمثل تلك الأقوال سئل عنها فأجاب بما أجاب وختم به كتابه .

(والجواب عن ذلك كله أن يقال) : انه لم يسلم أحد من الاعتراض عليه ، والقاء التهمة بين يديه ، وكل أحد يؤخذ منه ويرد عليه الا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهؤلاء الذين ذكر من أقوالهم ماذكر ان لم يكن لها وجه ، فهي لاتزري بعلو شأنهم ، ومزيد عرفانهم ، فهم لم يكونوا معصومين ، ولا أنبياء ولا مرسلين ، وقد قيل ان الصارم قد ينبو ، والجواد قد يكبو ، والسعيد من عدت سقطاته ، وقلت غلطاته ، وما أحسن ماقيل :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها   كفى المرء نبلا أن تعد معائبه

هذا اذا لم يكن لما قالوه وجه وجيه ، فكيف وغالب أقوالهم قد صححها بعض أهل العلم ، والنبهاني قد افترى على شيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن تيمية في قوله : ان ابن تيمية اعترض على تلك الأقوال التي ذكرها ، فعلى أي قول منها اعترض؟ وفي أي كتاب ذكر ذلك ؟ والبهتان قد صار ديدنا ودينا للنبهاني ، كما قد قررنا ذلك مرارا ، وابن تيمية لم يزل يذب عن العلماء الربانيين ، والعلماء العاملين ، وألف كتابا سماه (رفع الملام ، عن الأئمة الأعلام) وآخر في الذب عن الأئمة الاربعة ، وآخر في

الانتصار للامام أحمد ، وآخر وآخر ، مما سبق بيانه ، وقد كان رحمه الله على جانب من الانصاف عظيم ، يعرف قدر أهل العلم ، ويعطي كل ذي حق حقه ، نعم اعترض على بعض مسائل لأبي حامد مخالفة للكتاب والسنة ذكرها في الاحياء وغيره من كتبه ، كما هو شأن أئمة الأمة المحمدية ، فانهم كما وصفهم نبيهم لايجتمعون على ضلالة ، وقال فيه : انه مات والبخاري على صدره ، نعم انه تكلم في الشيخ محي الدين وأضرابه ممن قال بوحدة الوجود والحلول والاتحاد ، كما سبق بيانه ، وله فيهم رد كبير ، وذكر منه في كتابه (الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن) مانقلنا بعضه فيما سبق ، وهو ليس أول من قرع هذا الباب من أولي الألباب ، فكم وكم له من سلف ، وذلك من الواجب على مثله أن يقوم على ساق المناضلة والذب عن الشريعة الغراء ، ومن أعطاه الله علما فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار ، قال تعالى : (• إِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ اُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ولاتَكْتُمُونه) [1]
والشيخ محي الدين قد ألف فيه كتب كثيرة ، وردوا على أقواله التي في الفصوص والفتوحات وغيرهما •

ومن ألف في الرد عليه العلامة الثاني سعد الدين التفتازاني ، والحافظ العسقلاني ، والشيخ أبو عبد الله البخاري ، والملا علي القاري ، والعلامة العضد ، وغيرهم ممن لايحصون كثرة ، وأنهم أصابوا في الرد عليه ، ولولا أن يطول الكلام لذكرنا كلامهم فيه ، ولعلنا ان شاء الله نفرد له كتابا يكون قسيما لهذا الكتاب •

ثم ان مانقله النبهاني عن الشعراني في توجيه قول الشيخ محي الدين فهو غير مقبول ، لأنه لايدل اللفظ عليه لاحقيقة ولا مجازا ، ولقد تجرأ على القول به بعض من لاخلاق له ممن ينتسب الى العلم والصلاح من الغلاة ، فحصل منه من المفاسد ماحصل •

قال العلامة الشيخ عبد اللطيف في كتابه (منهاج التأسيس في الرد على ابن جرجيس) عند الكلام على بدع القبوريين مانصه :

ومن المحن أن مشايخ المذاهب الأربعة وفقهاءهم جزموا بوجوب هدم القباب ، ونهوا عن الطواف بالقبور ودعاء أربابها ، بل ودعاء الله عندها ، ومنعوا من الذبح لها والغلو فيها ، بل وعن عبادة الله بالصلاة عندها ، فاذا عمل بمقتضى أقوالهم عامل وألزم بها الناس نسبه هؤلاء الجهال الى الاستخفاف بالأنبياء والصالحين والى

---

(١) آل عمران : ١٨٧

مخالفة العلماء ، لأن العلم في عرفهم ماهم عليه من أقوال أسلافهم ومشايخهم من المتأخرين ، قال وقد حدثني من يقبل حديثه أنه سمع هذا العراقي بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام يوم قدوم الحاج يقول في مجمع من الناس :انماالرجل من يقول حدثني سري عن ربي ، لا من يقول : حدثنا فلان وفلان •

فانظر هذا الاستخفاف العظيم برسل الله ، ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن من يأخذ عن الأنبياء المعصومين وعن رسل الله المبلغين أفضل وأكمل ممن يأخذ عن سره ووارده ، بل هذه الواردات كلها موقوفة ومردودة الا بشاهد عدل من رسول الله صلى الله عليه وسلم يشهد لها بالصحة وأنها حق يؤخذ به •

وقد قال شيخ الطريق الجنيد بن محمد رحمه الله : أنه لتقع في قلبي النكتةمن نكت القوم فلا أقبلها الا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة •

وغالب هذه الواردات التي تخالف الشرعيات ، ويشير اليها أهل التصوف والتعبدات ــ انما هي من وحي الشيطان لا عن الله رب العالمين ، وبهذا تعلم أن هذا العراقي وأمثاله هم أهل التنقص للرسل التاركون لما جاؤا به ، وحاصل أمرهم عزل الكتاب والسنة في باب الاعتقادات والعمليات ، واتباع ماتهوى الأنفس من الغلو والاطراء والجهل والضلالات ، وهذا الاعتراض محشو من ذلك لاتكاد تعد فيه كلمة واحدة سيقت على القانون الشرعي والمنهاج المرضي ، وما أحسن ماقال شيخ الاسلام فيما كتب على المحصل للرازي :

محصل في أصول الدين حاصله	من بعد تحصيله جهل بلادين
بحر الضلالات والافك المبين وما	فيه فأكثره وحي الشياطين

انتهى كلام صاحب المنهاج ، ومنه يعلم أن قول محي الدين ان صح عنه فهو قول باطل لايفيد فيه ماذكره الشعراني من التأويل العليل •

(والامام أبو حامد الغزالي) اعترض على كتبه كثير من العلماء الربانيين ، منهم الامام أبو عبد الله المازري ، قال تاج الدين ابن السبكي في طبقاته عند ذكره كلام الطاعنين علىهذا الامام ورده :قال الامامأبو عبدالله المازري المالكي ــمجيبالمن سأله عن حال كتاب احياء العلوم ومصنفه ــ هذا الرجل ــ يعني الغزالي ــ وان لم أكن قرأت كتابه فقد رأيت تلامذته وأصحابه ، فكل منهم يحكي لي نوعا من حاله وطريقته ، فأتلوح بها من مذهبه وسيرته ماقام لي مقام العيان ، فأنا أقتصر على ذكر حال الرجل وحال كتابه ، وذكر جمل من مذاهب الموحدين والفلاسفة والمتصوفة

وأصحاب الاشارات ، فان كتابه متردد بين هذه الطرائق لايعدوها ، ثم أتبع ذلك بذكر حيل أهل مذهب على أهل مذهب آخر ، ثم أبين عن طرق الغرور ، واكشف عما دفن من حبال الباطل ليحذر من الوقوع في حباله صائده ، ثم انه أثنى على الغزالي في الكشف وقال هو أعرف بالفقه منه بأصوله ، وأما علم الكلام الذي هو أصول الدين فانه صنف فيه أيضا وليس بالمستبحر فيها، ولقد فطنت لسبب عدم استبحاره وذلك أنه قرأ علم الفلسفة قبل استبحاره في فن أصول الدين ، فأكسبته قراءة الفلسفة جراءة على المعاني ، وتسهيلا للهجوم على الحقائق ، لأن الفلاسفة تمر مع خواطرها ، وليس لها حكم شرعي ترعاه ، ولا تخاف من مخالفة أئمة تتبعها ، وعرفني بعض أصحابه أنه كان له عكوف على رسائل اخوان الصفا ، وهي احدى وخمسون رسالة ، ومصنفها فيلسوف قد خاض في علم الشرع والعقل ، فمزج مابين العلمين ، وذكر الفلسفة وحسنها في قلوب أهل الشرع بأبيات يتلوها عندها وأحاديث يذكرها، ثم كان في هذا الزمان المتأخر رجل من الفلاسفة يعرف بابن سينا ملأ الدنيا تآليف في علم الفلسفة ، وهو فيها امام كبير ، وقد أدته قوته في الفلسفة الى أن حاول رد أصول العقائد الى علم الفلسفة ، وتلطف جهده حتى تم له مالم يتم لغيره ، وقدرأيت جملا من دواوينه ورأيت هذا الغزالي يعول عليه في أكثر مايشير اليه من الفلسفة

ثم قال : وأما مذاهب الصوفية فلست أدري على من عول فيها ، ثم أشار الى أنه عول على أبي حيان التوحيدي ، ثم ذكر توهية أكثر مافي الأحياء من الأحاديث وقال : عادة المتورعين أن لايقولوا قال مالك قال الشافعي فيما لم يثبت عندهم ، ثم أشار الى أنه يستحسن أشياء مبناها على مالا حقيقة له ، مثل قوله في قص الأظفار أن تبدأ بالسبابة لأن لها الفضل على بقية الأصابع لكونها المسبحة الى آخر ماذكر من الكيفية ، وذكر فيه أثرا ، وقال : من مات بعد بلوغه ولم يعلم أن الباري قديم مات مسلما اجماعا ، قال : ومن تساهل في حكاية هذا الاجماع الذي الأقرب أن يكون فيه الاجماع بعكس ماقال فحقيق أن لايوثق بما نقل •

وقد رأيت له أنه ذكر أن في علومه هذه مالايسوغ أن يودع في كتاب ، فليت شعري أحق هو أو باطل ، فان كان باطلا فصدق ، وان كان حقا وهو مراده بلا شك فلم لايودع في الكتب ؟ ألغموضة ودقته ؟ قال : فان كان هو فما المانع ؟ (هذا ملخص كلام المازري على ماقاله ابن السبكي) •

(ومنهم أبو الوليد الطرطوشي) قال تاج الدين : وسبق المازري الى قريب منه من المالكية أبو الوليد الطرطوشي ، فذكر في رسالته الى ابن مظفر : فأما ماذكرت من أمر الغزالي فرأيت الرجل وكلمته فرأيته رجلا من أهل العلم قد نهضت به فضائله واجتمع فيه العقل والفهم وممارسة العلوم طول زمانه ، ثم بداله الانصراف عن طريق العلماء ودخل في غمار العمال ، ثم تصوف فهجر العلوم وأهلها ، ودخل في علوم الخواطر وأرباب القلوب ووساوس الشيطان ، ثم شابها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين ، ولقد كاد ينسلخ من الدين ، فلما عمل الأحياء عمد يتكلم في علوم الأحوال ومرامز الصوفية ، وكان غير أنيس بها ولا خبير بمعرفتها فسقط على أم رأسه وشحن كتابه بالموضوعات .

(ومنهم الشيخ تقي الدين ابن الصلاح) فقد تكلم أيضا في الغزالي بكلام قادح فيه ، وطعن على كتبه بأنها مشتملة على خرافات وأكاذيب وموضوعات ، قال ابن السبكي : وللشيخ تقي الدين في حق الغزالي كلام لانرتضيه . ذكره علماء المنطق ، تكلمنا عليه في أوائل شرحنا للمختصر لابن الحاجب ، ونقل عن عفيف الدين ماكتبه اليه من جملة رسالة : وأما ماذكره الشيخ تقي الدين ابن الصلاح من عند نفسه ومن كلام يوسف الدمشقي والمازري فما أشبه هؤلاء الجماعة رحمهم الله تعالى الا بقوم متعبدين سليمة قلوبهم ، قد ركنوا الى الهوينا ، فرأوا فارسا عظيما من المسلمين قد رأى عددا عظيما لأهل الاسلام ، فحمل عليهم وانغمس في صفوفهم ، ومازال في غمرتهم حتى فل شوكتهم وكسرهم ، وفرق جموعهم شذر مذر ، وفلق هام كثير منهم ، فأصابه يسير من دمائهم وعاد سالما ، فرأوه وهو يغسل الدم عنه ، ثم دخل معهم في صلاتهم وعبادتهم ، فتوهموا أيضا اثر الدم عليه فأنكروا عليه ، هذا حال الغزالي وحالهم ، انتهى ماهو المقصود .

ثم ان ابن السبكي أجاب عن بعض ما اعترض به المازري والطرطوشي بأجوبة ارتكب التعسف فيها كما هي عادته من التعصب لأهل مذهبه ، ومع ذلك لم يمكنه انكار جهل الغزالي بالحديث ، فانه قال : وأما ماعاب به الأحياء من توهية بعض الأحاديث فالغزالي معروف بأنه لم تكن له في الحديث يد باسطة ، وعامة مافي الاحياء من الأخبار والآثار مبدد في كتب من سبقه من الصوفية والفقهاء ، ولم يسند الرجل لحديث واحد ، وقد اعتنى بتخريج أحاديث الأحياء بعض أصحابنا ، فلم يشذ عنه الا اليسير ، قال وساذكر جملة من أحاديثه الشاذة استفادة ، ثم أنه بعد كلام استشهد بقوله :

لايعرف الشوق الا من يكابده   ولا الصبابة الا من يعانيها

ثم قال بعد كلام طويل : ولقد وقعت في بلاد المغرب بسبب الأحياء فتن كثيرة وتعصب أدى الى أنهم كادوا يحرقونه ، وربما وقع احراق يسير ، قال والشيخ أبو الحسن لما وقف على الأحياء وتأمله قال هذا بدعة مخالفة للسنة ، وكان شيخا مطاعا في بلاد المغرب ، فأمر باحضار كل مافيها من نسخ الأحياء وطلب من السلطان أن يلزم الناس بذلك ، فكتب الى النواحي وشدد في ذلك وتوعدمن أخفى شيئا منه ، فأحضر الناس ماعندهم واجتمع الفقهاء ونظروا فيه ، ثم أجمعوا على احراقه يوم الجمعة ، وكان ذلك يوم الخميس ، ثم ذكر ابن السبكي قصة رؤيا أبي الحسن المكذوبةوزعم أنه ترك احراقه لتلك الرؤيا ، وأنه بعد ذلك رغب فيه ، انتهى كلامه ملخصا .

(ومنهم العلامة الشيخ عبد اللطيف الحنبلي) قال رحمه الله تعالى في رسالة له كتبها لبعض أصحابه يحذره عن كتب أبي حامد الغزالي ويذكر له أنها مخالفةللكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة وهي هذه بنص عبارته ولفظه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد اللطيف بن عبد الرحمن الى الأخ في الله عبد الله بن معيذر سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد فقد بلغني عنك مايشغل كل من له حمية اسلامية وغيرة دينية على الملة الحنيفية ، وذلك انك اشتغلت بالقراءة في كتاب الأحياء للغزالي ، وجمعت عليه من لديك من الضعفاء والعامة الذين لاتمييز لهم بين مسائل الهداية والسعادة ووسائل الكفر والشقاوة ، وأسمعتهم مافي الأحياء من التحريفات الجائرة ، والتأويلات الضالة الخاسرة ،والشقاشق التي اشتملت على الداء الدفين ، والفلسفة في أصل الدين ، وقد أمر الله تعالى وأوجب على عباده أن يتبعوا رسله ، وأن يلتزموا سبيل المؤمنين ، وهذا الأصل المحكم لاقوام للاسلام الا به ، وقد سلك في الأحياء طريق الفلاسفة والمتكلمين في كثير من مباحث الالهيات وأصول الدين ، وكسا الفلسفة لحاء الشريعة حتى ظنها الاغمار والجهال بالحقائق من دين الله الذي جاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب ، ودخل به الناس في الاسلام وهي في الحقيقة محض فلسفة منتنة يعرفها أولوا الأبصار ، ويمجها من سلك سبيل أهل العلم كافة في القرى والأمصار ، قد حذر أهل العلم والبصيرة عن النظر فيها ، ومطالعة خافيها وباديها ، بل أفتى بتحريقها علماء المغرب ممن عرف بالسنة ، وسماها كثير منهم اماتة علوم الدين ، وقام ابن عقيل أعظم قيام في الذم والتشنيع وزيفمافيه من التمويه والترقيع ، وجزم بأن كثيرا من مباحثه زندقة خالصة لايقبل لصاحبها

صرف ولا عدل .

قال شيخ الاسلام : ولكن أبو حامد دخل في أشياء من الفلسفة ، وهي عنده ابن عقيل زندقة ، وقد رد عليه بعض مادخل فيه من تأويلات الفلاسفة ، ورد عليه شيخ الاسلام في السبعينية وذكر قوله في العقول والنفوس ، وأنه مذهب الفلاسفة ، فافاد وأجاد ، ورد عليه غيره من علماء الدين ، وقال فيه تلميذه ابن العربي المالكي :شيخنا أبو حامد دخل في جوف الفلسفة ثم أراد الخروج فلم يحسن ، وكلام أهل العلم معروف في هذا لايشكل الا على من هو مزجي البضاعة ، أجنبي عن تلك الصناعة ، الى أن قال : اذا سمعت بعض عباراته المزخرفة قلت كيف ينهانا عن هذا فلان ؟ أو يأمر بالاعراض عن هذا الشان ؟ كأنك سقطت على الدرة المفقودة ، والضالة المنشودة وقد يكون ماأطربك وهز أعطافك وحركك فلسفة منتنة ، وزندقة مبهمة ، أخرجت في قالب الأحاديث النبوية ، والعبارات السلفية ، (الى أن قال) ثم جمعت بعض أقوال أهل العلم ومأأفتوا به في هذا الكتاب ، وتحذيرهم للطالب والمسترشد .

ثم ذكر كلاما طويلا للذهبي في ترجمته للغزالي ، قال : ومن معجم أبي علي الصدفي في تأليف القاضي عياض له ، قال : الشيخ أبو حامد ذو الأنباء الشنيعة ، والتصانيف الفظيعة ، غلا في طريقة التصوف ، وتجرد لنصر مذهبهم ، وصار داهية في ذلك ، وألف فيه تآليفه المشهورة ، أخذ عليه فيها مواضع ، وساءت به ظنون الأمة والله أعلم بسره ، ونفذ أمر السلطان عندنا بالمغرب ، وفتوى الفقهاء باحراقها والبعد عنها فامتثل ذلك .

وقال الذهبي أيضا : قد ألف الرجل في ذم الفلاسفة كتاب التهافت وكشف عوارهم ، ووافقهم في مواضع ظنا منه أن ذلك حق أو موافق للملة ، ولم يكن له علم بالآثار ، ولا خبرة بالسنن النبوية القاضية على العقل ، وحبب اليه ادمان النظر في كتاب رسائل اخوان الصفا ، وهو داء عضال ، وجرب مرد ، وسم قاتل ، ولولا أن أبا حامد من الأذكياء وخيار المخلصين لتلف .

فالحذر الحذر من هذه الكتب ، واهربوا بدينكم من شبه الأوائل والا وقعتم في الحيرة ، فمن رام النجاة والفوز فليلزم العبودية ،وليكثر الاستغاثة بالله ، وليبتهل الى مولاه في الثبات على الاسلام ، وأن يتوفى على ايمان الصحابة وسادات التابعين، والله الموفق ، فبحسن قصد العالم يغفر له ، وينجو ان شاء الله انتهى .

والكلام على أبي حامد وبيان ماعترض به عليه لايسع المقام تفصيله ، ومـــا

ذكرناه كاف في المقصود ، ومن العجب أن بعض الجهلة ممن يدعي العلم والصلاح وهو عار عنهما وقد تزيا بزي أهلهما ، وقد كور عمامته وسرح لحيته :

يحسبه الجاهل مالم يعلما شيخا على كرسيه معمما

قد راج سوقه على العوام ، بما يقصه عليهم في الوعظ من الأكاذيب والأوهام، ورأى أنه لامعارض له من أولئك الأنعام ، كما يتكلم المتكلم بين المقابر بما شاء من الكلام ، حتى تخيل لذلك أنه من العلماء الأعلام ، وما درى أنه أجهل من ابن ثلاثة أيام ، قد ذكر احياء العلوم وشرع يمدحه بأعظم المدائح ويقرظه بكل ماخطر له من الثناء ، فقلت له : انه اشتمل على أحاديث موضوعة ومسائل فلسفية خارجة عن الشريعة ، وآراء محضة مخالفة للسنة النبوية ، وبناء على ذلك أن أهل العلم الموثوق بعلمهم لايقيمون لهذا الكتاب وزنا ، حتى أن بعضهم ألف كتابا في بيان حال مافيه من الأحاديث ، فنظر الي شزرا ، وكادت تزهق روحه الخبيثة ، فقال كيف تقول هذا الكلام وقد شرحه العلامة الزبيدي ؟ وخرج أحاديثه ، وبين أسراره ، فقلت له : ان الزبيدي ليس من أهل هذا الفن ، ولا هو من رجال هذا الميدان ، انما هو رجل له بعض الاطلاع على اللغة وبعض العلوم العربية ، وكلام مثله في باب الجرح والتعديل غير ملتفت اليه ، وكان من غلاة القبوريين والدعاة لمبتدعاتهم ، فلما سمع ماسمع أعرض ونأى بجانبه ، ولم يلتفت الى ماقلته ولا أصغى الى ماذكرته ، فقلت :

علي نحت القوافي من معادنها وما علي اذا لم تفهم البقر

والكلام الحق اليوم ثقيل على الأسماع ، لاسيما على أهل الزيغ والابتداع ، وعلى المنصف موافقة الحق والاتباع .

(والمقصود) من هذا الكلام كله أن الشيخ تقي الدين قدس الله روحه لم يتكلم في شأن أبي حامد كما تكلم غيره فيه ، والنبهاني افترى عليه وكذب ، بل انه شهد له بحسن العاقبة والخاتمة ، وقال في غير موضع من كتبه انه في آخر عمره استقر أمره على الحيرة والوقوف بعد أن نظر فيما كان عنده من طرق النظار أهل الكلام والفلسفة ، وسلك ماتبين له من طرق العبادة والرياضة والزهادة ، وفي آخر عمره اشتغل بالحديث كصحيحي البخاري ومسلم ، انتهى .

فانظر الى هذه التزكية الحسنة ، فان الأعمال بخواتيمها ، ولم يتكلم بمثل هذا الكلام في شأنه حتى من ينتصر له كتاج الدين وأضرابه ، وقد سلكوا كل مسلك في تعديله والحث على كتبه ، وارتكبوا التعسفات في تأويل مازل به قلمه .

وأما قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن حمد القرطبي فقد قال : ان بعض من يعظ ــ ممن كان ينتحل رسم الفقه ثم تبرأ منه شغفا بالشرعة الغزالية والنحلة الصوفية ــ قد أنشأ كراسة تشتمل على معنى التعصب لكتاب أبي حامد امام بدعتهم، فأين هو من تشنيع مناكيره وتضليل أساطيره المباينة للدين ، وشريعة سيد المرسلين ، وزعم أن هذا من علم المعاملة المفضي الى علم المكاشفة الواقع بهم على سر الربوبية ، الذي لايسفر عن قناعة ولا يفوز باطلاعه الا من تمطى الى شيخ ضلالته ، التي رفع لهم أعلامها وشرع أحكامها ، قال أبو حامد : وأدنى من هذا العلم التصديق به ،وأقل عقوبته أن لايرزق المنكر منه شيئا ، فاعرض من قوله على قوله ، ولا تشتغل بقراءة قرآن ، ولا بكتب حديث ، فان ذلك يقطعه عن الوصول الى ادخال رأسه في كم جيبه والتدثر بكسائه فيسمع نداء الحق ، فهو يقول ذروا ما كان السلف عليه ، وبادروا الى ما آمركم به •

قال القاضي : وقال أبو حامد وصدور الأحرار قبور الأسرار ، ومن أفشى سر الربوبية كفر ، ورأى مثل قتل الحلاج خيرا من احياء عشرة لاطلاقه أنفاظا ، ونقل عن بعضهم أنه قال للربوبية سر لو ظهر لبطلت النبوة ، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم ، وللعلم سر لو كشف لبطلت الأحكام ، ثم قال الغزالى : ان لم يرد ابطال النبوة بهذا في حق الضعفاء فما قال ليس بحق ، فان الصحيح لايتناقض ، وان الكامل لايطفيء نور معرفته نور ورعه ، وقال أيضا :العارف يتجلى له أنوار الحق،وتنكشف له العلوم المرموزة المحجوبة عن الخلق ، فيعرف معنى النبوة وجميع ماوردت به ألفاظ الشريعة التي نحن منها على ظاهرها ، قال عن بعضهم اذا رأيته في البداية قلت صديقا ، فاذا رأيته في النهاية قلت زنديقا ، ثم فسره الغزالي فقال : ان اسم الزنديق لايلصق الا بمعطل الفرائض لابمعطل النوافل ، وقال : ذهبت الصوفية الى العلوم الالهامية دون التعليمية ، فيجلس فارغ القلب مجموع الهم يقول الله الله الله على الدوام فيفرغ قلبه ولا يشتغل بتلاوة ولا كتب حديث ، فاذا بلغ هذا الحد التزم الخلوة ببيت مظلم ويدثر بكسائه ، فحينئذ يسمع نداء الحق : (يَا أَيُّها الْمُزَّمِّلُ) (يَا أَيُّها الْمُدَّثِّرُ) قلت انما سمع شيطانا أو مالا حقيقة له •

وقال أبو بكر الطرطوشي : شحن أبو حامد كتاب الاحياء بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما على بسيط الأرض أكثر كذبا منه ، شبكه بمذاهب الفلاسفة ومعاني رسائل اخوان الصفا ، وهم قوم يرون النبوة مكتسبة ، وزعموا أن المعجزات حيل ومخاريق انتهى •

هذا ماأورده صاحب كتاب البيان والله المستعان ، وقد رأيت مااشتمل عليه هذا الكلام من الهذيان ، ونسأله تعالى أن يغفر له ويرحمه بسبب مافاز به من حسن الخاتمة ، واشتغاله آخر عمره بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان مسكي الختام •

وقد ذكر العلامة السيد صفي الدين في كتابه القول الجلي في الجواب عمن قال أن ابن تيمية تكلم في الأولياء كالغزالي وابن عربي وعمر بن الفارض وأضرابهم : أما سبب تكلمه في حجة الاسلام الغزالي فالله أعلم أنه ذكر في كتابه (المضنون) أشياء توافق عقايد الفلاسفة وتخالف الشرع ، حتى ان بعض العلماء أنكر نسبة ذلك اليه ، كذا ذكر بعضهم ، وقد تكلم فيه القاضي عياض وابن الجوزي وغيرهما فله أسوة بهم ، وان كنا لانسمع في الغزالي كلاما بعد ، كيف وهو حجة الاسلام وملك العلماء الاعلام •

وأما سبب تكلمه في ابن عربي فانه ذكر أشياء في فصوصه وفتوحاته تقتضي الكفر ، وقد كفره بذلك جماعة من العلماء ، منهم الحافظ ابن حجر ، وقد صنف بعض العلماء جزءا حافلا وجمع فيه كلام من ذم الشيخ ابن عربي ، فمما قال في الجزء المذكور وذكره الذهبي في العبر وقال في ترجمته : صاحب التصانيف ، وقدوة القائلين بوحدة الوجود ، ثم قال الذهبي : وقد اتهم بأمر عظيم • وقال في تاريخ الاسلام: هذا الرجل قد تصوف وانعزل ، وجاع وسهر ، وفتح عليه بأشياء امتزجت بعالم الخيال والفكرة ، واستحكم ذلك حتى شاهد بقوة الخيال أشياء ظنها موجودة في الخارج ، وسمع من طيش دماغه خطابا واعتقده من الله تعالى ولا وجود له في الخارج الى آخر ماقال • قال في الجزء المذكور وذكره الذهبي في الميزان فقال : تصوف تصوف الفلاسفة ، واحل الوحوة ، وقال أشياء منكرة عدها طائفة من العلماء مروقا وزندقة الى آخر كلامه •

ومما قال في الجزء المذكور : أنبأني الحافظ زين الدين أبو الفضل العراقي ، ونور الدين علي ابن أبي بكر الهيتمي الشافعيان اذنا مشافهة ، عن شيخ الاسلام تقي الدين على بن عبد الكافي السبكي اجازة ان لم يكن سماعا ، قال في كتابه شرح منهاج النووي في باب الوصية بعد ذكره حكم المتكلمين : وهكذا الصوفية منقسمون كانقسام المتكلمين فانهما من واد واحد ، فمن كان مقصوده معرفة الرب سبحانه وتعالى والتخلق بما يجوز التخلق به هنا والتحلي بأحوالها واشراق المعارف الالهية

والأحوال السنية ــ فذلك من أعلم العلماء ، ويصرف اليه من الوصية للعلماء والوقف عليهم ، ومن كان من هؤلاء الصوفية المتأخرين كابن عربي وأتباعه فهم ضلال جهال خارجون عن طريقة الاسلام فضلا عن العلماء ، ثم قال : وجاء في وسط الأمة قوم تكلموا ــ كالحارث المحاسبي ونظرائه ــ كلاما حسنا وهو مقصودنا بالتصوف ، ثم انتهى بالآخرة الى قوم فيهم بقايا ان شاء الله تعالى ، وآخرين تسموا باسم الصوفية استمروا من البدع المضلة والعقائد الفاسدة فيهمهم باسم الزندقة أحق منهم باسم الصوفية ، نحن برآء الى الله تعالى منهم ، انتهى •

قال صاحب الجزء : والظاهر أنه أشار بقوله وآخرين تسموا الى آخره الى ابن عربي وأتباعه ، قال : وقد سمعت صاحبنا الحافظ الحجة القاضي شهاب الدين أبا الفضل أحمد بن على بن حجر الشافعي يقول : انه ذكر لمولانا شيخ الاسلام سراج الدين البلقيني أشياء من كلام ابن عربي المشكل ، وسأله عن ابن عربي فقال له شيخنا البلقيني هو كافر ، قال وسمعت الحافظ شهاب الدين ابن حجر يقول جرى بيني وبين بعض المحبين لابن عربي منازعة كثيرة في أمر ابن عربي حتى تبرأت من ابن عربي بسوء مقالته ، فلم يسهل ذلك بالرجل المنازع لي في أمره وهددني بالشكوى الى السلطان بمصر بأمر غير الذي تنازعنا فيه يتعب خاطري ، فقلت له : ما للسلطان في هذا مدخل ، الا تعال نتباهل وقلت ماتباهل اثنان فكان أحدهما كاذبا الا وأصيب ، فقال لي باسم الله ، قال فقلت له : قل اللهم ان كان ابن عربي على ضلال فالعني بلعنتك ، فقال ذلك ، فقلت أنا : اللهم ان كان ابن عربي على هدى فالعني بلعنتك ، وافترقنا ، قال : وكان سكن الروضة فاستضافه شخص من أبناء الهند جميل الصورة ثم بدا له أن يتركهم وخرج في أول الليل مصمما على عدم المبيت ، فخرجوا يشيعونه الى الشختور ، فلما رجع أحس بشيء مر على رجله ، فقال لأصحابه : مر على رجلي شيء ناعم فانظروه ، فنظروا فلم يروا شيئا ، وما رجع الى منزله الا وقد عمى ، وما أصبح الا ميتا ، وكان ذلك في ذي القعدة سنة سبع وسبعين ، وكانت هذه المباهلة في رمضان منها ، وعند وقوع المباهلة عرفت أن السنة ماتمضي عليه ، وكانت بمحضر من جماعته ، انتهى • فاذا عرفت ذلك كله علمت أن الشيخ تقي الدين ابن تيمية لم ينفرد بذم ابن عربي ، انتهى كلام السيد صفي الدين رحمه الله تعالى •

والنبهاني عامله الله بعدله يتتبع من الكلام ما كان موافقا لهواه ، ولهذا لم يلتفت في هذا المقام الى كلام امامه السبكي ، ولا لكلام الحافظ شهاب الدين ابن

حجر العسلاني المحدث الشهير ، بل أخذ بكلام ابن حجر المكي لموافقته اياه في الغلو والميل الى البدع ، فلذلك تراه يترنم بأقواله ويكرره مرة بعد أخرى ، والكل من الشافعية ٠

وبعد ختم النبهاني كتابه بخاتمة السوء ذكر رسالة مختصرة للبكري في الرد على من منع الزيارة وعبارة من كلام الشيخ زروق تعرض فيها لشيخ الاسلام وكلاما للنابلسي مختصرا مما يتعلق بالزيارة ،ولما كان ذلك كله خارجا عن كتابه وانماذكرناه من الكلام على الزيارة يرد كل باطل يخالفه أعرضنا عن المناقشة فيها ، ومن وقف على مافيها من الجهل والضلال تحقق ان موحدي العرب في الجاهلية كزيد وقس بن ساعدة وأمية أسعد من هؤلاء حالا ، كما يدلك على ذلك شعرهم المذكور في كتب السير والتاريخ ٠

(فعليك أيها الأخ المسترشد) باتباع الكتاب والسنة فانهما الامامان اللذان أمرنا بالاقتداء بهما ، والداعيان الى سبيل الله فاشدد بيديك عليهما ، ولا تنظر الى ماابتدعه أهل الأهواء ، فانه من أضر الأدواء ، وقد سبق تفاصيل البدع بأنواعها وما ورد من النهي عنها ، فمن تأملها وأمعن نظره فيما شرعه الله تعالى لنا مما تضمنه الكتاب وبينته السنة علم أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لايحيد عنها الا من مرض قلبه وطاش في مهاوي الضلال لبه ، وأصل الاتباع المخرج عن الابتداع يحصل بمتابعة العبادات ، ولا يحصل كمال الاتباع الا في الاقتداء به في جميع حالاته سكونه وحركاته ، عباداته وعاداته ، وللسلف الصالح من هذا الكمال المشرب الأصفى ، والحظ الوافر الأوفى ، روى أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه عن العرباض بن سارية ، قال : (وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون ، فقلنا : يارسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا ، قال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وأن تأمر عليكم عبد ، وانه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين عضوا عليها بالنواجذ ، واياكم ومحدثات الأمور ، فان كل بدعة ضلالة) ٠

فقد أوصانا صلى الله عليه وسلم بلزوم سنته وسنة خلفائه الراشدين الذين هم على طريقته ، وحرض على ذلك بقوله : (عضوا عليها بالنواجذ) المراد به المسك بجميع الفم ، اشارة الى غاية التمسك ، فكأنه قال صلى الله عليه وسلم اجتهدوا على

السنة والزموها واحرصوا عليها كما يلزم العاض على الشيء بنواجذه خوفا من ذهابه وتفلته ، أذاقنا الله حلاوة الاتباع ، ووقانا بفضله شر الفضول والابتداع ، وما أحسن ماقال بعض الأدباء الأفاضل وقد أخلص النصح فيما هو قائل :

ياباغـي الاحسـان يطلب ربه	ليفوز منه بغاية الآمـال
انظـر الى هدي الصحابة والـذي	كانوا عليـه في الزمان الخـالي
واسلك طريق القوم أين تيممـوا	خذ يمنة ما الـدرب ذات شمـال
تالله ماااختاروا لأنفسهم سـوى	سبل الهدى في القـول والأفعال
درجوا علـى نهج الرسـول وهديه	وبه اقتـدوا في سائر الأحـوال
نعـم الرفيق لطالب يبغى الهـدى	فمـآله في الحشر خير مـآل
القانتـين المخبتـين لربهـم	الناطقـين بأصـدق الأقـوال
التاركـين لكـل فعـل سيء	والعاملـين بأحسن الأعمـال
أهواؤهـم تبـع لدين نبيهـم	وسواهـم بالضد في ذي الحـال
ماشابهـم في دينهـم نقص ولا	في قولهـم شطـح الجهول الغالي
عملوا بما علمـوا ولم يتكلفـوا	فلذاك ماشابوا الهـدى بضـلال
وسواهم بالضـد في أحوالهـم	تركوا الهدى ودعوا الى الاضـلال
فهـم الأدلة للحيـارى من يسـر	بهـداهم لم يخش من اضـلال
وهـم النجـوم هداية واضـاءة	وعلو منـزلة وبعـد منـال
يمشـون بين النـاس هونا نطقهم	بالحـق لابجهـالة الجهـال
حلمـا وعلمـا مع تقى وتواضـع	ونصيحة مـع رتبـة الافضـال
يحيـون ليلهـم بطاعـة ربهـم	بتـلاوة وتضـرع وسـؤال
وعيونهـم تجري بفيض دموعهم	مثـل انهمـال الـوابل الهطـال
في الليـل رهبـان وعند جهادهم	لعدوهم من أشجـع الأبطـال
واذا بـدا علم الرهـان رأيتهـم	يتسابقون بصالـح الأعمـال
بوجوههم أثر السجـود لربهـم	وبهـا أشعـة نـوره المتـلالي
ولقـد أبان لك الكتاب صفاتهـم	في سورة الفتـح المبين العـالي
وبرابع السبـع الطوال صفـاتهم	قـوم يحبهـم ذووا اذلال
وبراءة والحشر فيهـا وصفهـم	وبهـل أتى وبسـورة الأنفـال

هذا آخر ماأردنا تحريره من الرد على كتاب النبهاني المشتمل على مايخالف

الكتاب والسنة من الهذيان والوحي الشيطاني ، وقد عرفناه يومه من أمسه

وكلت للخل كما كال لي على وفاء الكيل أو بخسه

وكأني به اذا وقف على كتابي هذا ضاق صدره وازداد همه وكدره ، وعض بنان النادم الحصر حيث لاينفعه ندمه ، وهو الذي نكأ الجرح فكيف يتأوه ويتألم ويتظلم من مؤلم الجواب والبادي أظلم ، ومن آثر أن يكون مقدما معظما وجب أن يكون مهذبا مقوما ، ومن أحب أن يكون مبجلا مصدرا لزم أن يكون من الأفعال الدنية مطهرا ، ومن رشح نفسه للأمور الجليلة صبر على الأعباء الثقيلة ، ومن طمع في الأسباب العظيمة طالب نفسه باستعمال الأخلاق الكريمة ، ودون المكارم مكناره لايتلقاها الا العود الباذل ، وقبل المعالي عوال لايغشاها الا البطل الباسل ، ومع المغانم مغارم لايتحملها الا الأكارم الأفاضل ، وأمام العز الشامخ مذاهب لاتسلك الا على جسر من التعب ممدود ، وقدام الشرف الباذخ مراتب لاتنال الا بمساورةأساود وأسود ، وباني المجد يهون عليه أن يتجرع كؤوس الردى علا ونهلا ، وجاني الشهد لايبالي بأن يلقى دون اشتياره نحلا ، فأما الذي يشتهي الرياسة وهو خال من ابرارها ويتمنى الجلالة وهو سكيت في مضمارها ويحب السيادة وهو عار عن أستارها فبعيد عليه طريق منالها ، ومستصعب له جد الارتقاء في ذرى جبالها •

وقد كان ابتدائي به أول يوم من شهر رمضان من شهور سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وألف من هجرة سيد ولدعدنان ، وختمته بحمد الله تعالى ليلةالسبت نصف الليل لأربع وعشرين ليلة خلت من شوال تلك السنة المباركة أواخر فصل الخريف ، وقد كل مني البصر ، ووهن العظم طلبا لمرضاة الله تعالى ، وصيانة لشرعه الشريف ممن تصدى له ــ خذله الله ــ بالتبديل والتحريف ، فأسألك اللهم أن تختم بعفوك اجلي ، وأن تحقق في رجاء رحمتك أملي ، وأن تسهل الى بلوغ رضاك سبلي ، وأن تحسن في جميع أحوالي عملي •

اللهم ونبهني لذكرك في أوقات الغفلة ، واستعملني لطاعتك في أيام المهلة ، وانهج بي الى محبتك سبيلا سهلة ، واجمع لي بها خير الدنيا والآخرة •

اللهم لاتكلني الى خلقك ، بل تفرد بحاجتي وتول كفايتي ، وانظر الي فيجميع أموري ، فانك ان وكلتني الى نفسي عجزت عنها ولم أقم مافيه مصلحتها ، وان وكلتني الى خلقك تجهموني ، وان ألجأتني الى قرابتي حرموني ، فبفضلك اللهم فأغنني وبعظمتك فانعشني وبسعتك فابسط يدي وبما عندك فاكفني •

اللهم لاتجعل لغيرك علي منة ، ولا له عندي يدا ، ولا لي اليهم حاجة ، بل اجعل سكون قلبي وأنس نفسي واستغنائي وكفايتي بك ، اللهم أنطقني بالهدى ، وألهمني التقوى ، ووفقني للتي هي أزكى ، واستعملني بما هو أرضى ، اللهم اسلك بي الطريقة المثلى ، واجعلني على ملتك أموت وأحيي ، اللهم ومتعني بالاقتصاد ، واجعلني من أهل السداد ، ومن أدلة الرشاد ، ومن صالح العباد ، وارزقني فوز المعاد ، وسلامة المرصاد .

اللهم أنت عدتي ان حزنت ، وأنت منتجعي ان حرمت ، وبك استغاثتي ان كربت وعندك مما فات خلف ، ولما فسد صلاح ، ومما أنكرت تغيير ، واكفني مؤنة معرة العباد ، وهب لي أمن يوم المعاد ، وامنحني حسن الارشاد ، اللهم أظلني في ذراك ، وجللني رضاك ، ووفقني اذا أشكلت علي الأمور لأهداها ، واذا تشابهت الأعمال لأزكاها ، واذا تناقضت الملل لأرضاها .

اللهم توجني بالكفاية ، وسمني حسن الولاية ، وهب لي صدق الهداية ، ولا تجعل عيشي كدا ، ولا ترد دعائي ردا ، فاني لاأجعل لك ضدا ، ولا أدعو معك ندا ، والحمد لله رب العالمين ، ولاعدوان الا على الظالمين ، والحمد له سبحانه كما يليق بجنابه ، وكما حمد نفسه في كتابه ، حمدا يكون وصلة الى طاعته وعفوه ، وسببا الى رضوانه ، وذريعة الى مغفرته ، وطريقا الى جنته ، وخفيرا من نقمته ، وأمنا من غضبه ، وظهيرا على طاعته ، وحاجزا عن معصيته ، وعونا على تأدية حقه ووظائفه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذي نشر رايات الوحدانية ، وبشر من أذعن للأحكام القرآنية ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأحزابه الذين أقاموا على الخصوم دلائلهم البرهانية ، صلاة وسلاما نسعد بهما في السعداء من أوليائه ، ونصير بهما في نظم الشهداء بسيوف أعدائه ، انه ولي حميد ، في ٢٤ شوال سنة ١٣٢٥ ه .

(تقاريظ بليغة لأفاضل العصر على كتاب غاية الأماني في الرد على النبهاني) [١]

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، ضل من استعان بغيره واستنجد ، والصلاة والسلام على من بزغ به بدر التوحيد وتوقد ، وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا من أشرك بالله وعاند ، أما بعد ، فقد وقفت على هذا الكتاب ، بل فصل الخطاب ، ألا وهو (غاية الأماني في الرد على النبهاني) حيث تجاوز الحد ، وسلك

(١) هذه التقاريظ موجودة في الطبعة الاولى فجرى ابقاؤها كما هي .

مسلكا لم يسلكه من الموحدين أحد ، وتكلم بما وسوس اليه شيطانه ، واقتضاه ضلاله وبهتانه ، ظنا منه أنه نقض من الاسلام بنيانه ، وهد جوانبه وأركانه ، وأنه قد خلت الساحة ، وأقرعت المساحة ، وما علم هذا الجاهل المسكين ، العدو للدين ، أن للايمان حماة ، وللاسلام فرسانا ورماة ، يذبون عنه تحريف الغالين ، وتزوير المبطلين ، ألم يقرع باب سمعه قول الصادق المصدوق من غير شك ولا اشتباه : (لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله) ألا وان من هاتيك الطائفة المنصورة ، والفئة التي لم تزل مساعيها مشكورة ، صاحب هذا الرد الفائق ، والتصنيف الرائق ، علم الفضل الشامخ ، وركن العلم الراسخ ، فريد الزمان ، ووحيد الاقران ، أبو المعالي جمال الدين الشافعي ، فسح الله في مدته ، ووفقه لما فيه رضاه وخالص طاعته ، فانه قدألزم ذلك الخصم الألد، وجلب عليه الويل والنكد وجعل أباطيله هباء منثورا ، وتركه مما جنت يداه فزعا مثبورا ، وألجمه بلجام الافحام ، وقاده الى مقام الخيبة والالزام •

(قاله الفقير خادم السنة أبو العباس البنجابي)

(تقريظ آخر)

انهذا الكتاب ، مهذب الفصول والأبواب ، واضح المسالك والمنهاج ، لم ينسج على منواله ناسج ، حري أن يتلقاه بالقبول ، أئمة المعقول والمنقول ، فان مسائله مبينة أتم بيان ، ومطالبه مبرهنة بأجلى برهان ، ومباحثه متقنة أي اتقان ، كيف لا وناظم فرائده ، وجامع عقود فوائده ، كاشف ظلمات المشكلات بأنوار بدر تقريره ، وموضح دقائق الاشارات بمصباح منير تحريره ، عدة الطالبين ، وعمدة المدرسين ، اليف بحر الفضل الزاخر ، وشقيق المآثر والمفاخر ، أبو المعالي ، وحسنة الأيام والليالي ، حيث رد بكتابه هذا على النبهاني ، وما أتى به من الكيد الشيطاني، ومزق أديم ضلاله بالسيف الرباني ، ألفه انتصارا للدين ، وغيرة على الشرع المحمدي المبين ، حيث أن النبهاني عامله الله تعالى بعدله قد أتى بكل نكتير ، وارتكب من الباطل والبهتان مالايسعه التحرير ، فشكرا لهذا السيد السند ، والعالم الأوحد ، فقد قام له على قدم في المهمات راسخ ، وقاومه بعزم تندك دونه الشوامخ ، وألقمه الحجر ، وترك أقواله شذر مذر ، لازال سعيه مشكورا ، وعمله في الدارين مبرورا •

(قاله بفمه ورقمه بقلمه عبد الودود بن محسن)

(تقريظ آخـر)

لله درك ياأبا المعالي ، فقد جمعت في كتابك عقود اللئالي ، فهو لاشك كاسمه غاية الأماني ، بل الفيض الرباني ، فالحمد لله الذي قيض في كل عصر من يحامي عن الدين القويم ، ويذب عن الصراط المستقيم ، ولما تصفحت الكتاب وجدت ماشتمل عليه فصل الخطاب ، بيد أن الأمر كما قيل وهو من أحسن الأقاويل :

واذا اضطررت الى الجواب فلا تجب ... الا حكيمـــا في الرجال مساميا
أو كلما عوت الكـلاب أجبتهـــا ... تالله لأصبـــحت كلبا عاويــا
اربـأ لنفســك أن تفوه بمنطـــق ... يزري بقـائله ويخــزي الراويا

(الفقير اليه تعالى خادم الحديث النبوي عبد الله السلامي)

(تقريظ آخـر)

ياللعجب العجاب ، مالهذا الكتاب ، فهو كنز العلوم ، وبحر المنطوق والمفهوم، قد شهد لمؤلفه بطول الباع ، وغزارة الاتساع والاطلاع ، وجودة القريحة الوقادة ، وزكاء الطبيعة الكريمة النقادة ، فمن أراد النجاةيوم الحساب فعليه بالاعتقاد والعمل بما حواه هذا الكتاب ، فهو لعمري فصل الخطاب ، والحـق المبرهن بنصـــوص الصواب ، قد بان به زيغ النبهاني الكذاب ، أخـزاه الله ومن كان على شاكلته بأليم العذاب ، فانه لايدعى غير الله عز وجل ، ومن استعان بغيره سبحانه ذل وضل ،وهو الملجأ والملاذ ، والمرجع والعياذ ، وما قاله ذلك الزائغ محض هذيان ، وضـرب من وسواس الشيطان ، فلا ينبغي أن يلتفت اليه ، ولا يعول في شيء عليه .

(كتبه الفقـير أبو الخير محمد الحجازي)

(تقريظ آخـر)

اللهم أنت المستعان ، وعليك الاعتماد والتكلان ، لاخير الا خيرك ، ولا رب يلتجأ اليه غيرك ، بذكرك تطمئن القلوب ، ومن سواك ياسيدي علام الغيوب ، وبعد فقد أتاح لي القدر ، ولاح للبصر ، كتاب موسوم بغاية الأماني في الرد على النبهاني ، حيث ألف كتابا دعا فيه الى عبادة غير الله ، وحشاه من الكذب والبهتان وفتح بكل منكر فاه ، ولم يرقب وقوفه بين يدي مولاه .

وليس ببـدع فالأمور تغـيرت ... وكل نظـــام في الزمان تبـــدلا
وأصبح هام المكرمات منكســـا ... وأخمص أرباب الخبائث قد عـــلا

فلما وقف على هذا الكتاب ، المنحرف عن جادة الصواب ، مفخر هذا الزمان ،

وذخر ذوي الفضل والعرفان ، حسنة الأيام والليالي ، أخو الكمال وأبو المعالي ، وفى له الكيل صاعا بصاع ، وألقمه حجر السكوت بما ثبت في الكتاب والسنة وقام عليه الاجماع ، فأين الحق من الباطل ، والجيد المحلى من العاطل •

ولاشك أن التبر ينقص قدره ... بقطر اذا ماالصفر في سوقه غلا
وليس سواء ذو علوم وجاهل ... تأمل فبعض القول تلقاه مجملا
ولا كل ذي ناب من الوحش ضيغم ... ولا كل ذي ريش من الطير أجدلا

اللهم يامحول الأحوال ، حول حالنا الى أحسن حال ، وانصر أعوان الحق على اختلاف صنوفه ، فقد أصبح اليوم كثير من الناس أعداء له ولا يرى سوى عوائده ومألوفه ، قد قضى عليه أهل العمائم ، ممن يدعى الزهد والمعرفة وهو عن كل فضيلة نائم ، والأمر لله ولا مرجو سواه •

(الفقير اليه تعالى أحمد الفرجي المدرس في دار الهدى)

(تقريظ آخر)

أيا فكرتي قد نلت مرماك فابشري ... ولا تذكري في المدح زيدا ولا عمرا
ويانفس هذا غاية القصد والمنى ... فألقي عصا التسيار لاتقصدي سيرا

هذا الكتاب الذي ينطق بالحق ، ويذعن له من أنصف من الخلق ، وينقاد لما حواه من المسائل كل من دقق وحقق ، هذا الكتاب الذي لايغادر صغيرة ولا كبيرة من مبتدعات الزائغين ، الا وقد مزق أديمها وكشف عوارها للناظرين ، وعاد منه النبهاني وأضرابه من الغلاة وعبدة القبور في خفي حنين وخفي أنين ، فالحمد لله الذي خذل أعداء الحق ، وفرق منهم الجموع ومزق • (ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) •

(كتبه عدو المبتدعة وأهل الضلالات معين الدين ابن بركات)

(تقريظ آخر)

قد وقفت على هذا الكتاب ، وفهمت ماأودع فيه من أسرار فصل الخطاب ، فتذكرت ماجرى بين فرعون وموسى ، لما قال خصوم الحق : (فاجمعوا كيدكم ثم أتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى ، قالوا ياموسى : اما أن تلقي واما أن نكون أول من ألقى ، قال : بل ألقوا ، فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس في نفسه خيفة موسى ، قلنا : لاتخف انك أنت الأعلى ، وألق مافي يمينك تلقف ماصنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) وكذلك

ماذكره النبهاني وأضرابه من أهل الزيغ والبهتان ، يخيل للناظر أنها حقيقة من الحقائق وهي من وساوس الشيطان ، فانها افك وزور وضرب من الهذيان ، فلما تصدى لردها أبو المعالي وأخو الفضائل لقف ثعبان قلمه ماصنعوا من الكيد والباطل ، فالحمد لله الذي لم يزل مؤيدا من انتصر لدينه ، مظهرا من استند الى نصوص كتابه الكريم وسنة رسوله في ايمانه ويقينه •

(كتبه الفقير الى عفو مولاه عبد الحق الادريسي عفى عنه في أولاه وأخراه)

(تقريظ آخر)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

نحمد الله تعالى ونشكره ، ونستعين به ونستظهره ، ونصلي على صفوة أنبيائه وعلى سائر أصفيائه وعلى من تبعهم باحسان الى يوم لقائه ، أما بعد فانا لا نزال في هذا العصر السعيد ، والقرن الحميد ، نرى رجال الفضل يظهرون العجائب ،ويبرزون من دقائق أفكارهم خبايا المواهب ، حتى بلغوا من مقعد صدق العرفان أرفع المراتب وهذا من أوضح الدليل وأجلى البرهان ، على حقية حقيقة الدين المبين ، وشرائع أحكامه الغر الحسان ، أيد الله تعالى أنصاره الى آخر الزمان ، فان الله سبحانه أحسن امتاع العلم وشيد أهله ، ولا زال حافظا لهم وله ، ان أظلم شق منه كان لهم فيه سراجا ، أو طمس منار له وجد اليه منهاجا ، أو قعد عنه عالم قام آخر بأعبائه ، مراميا عن حوزته من أمامه وورائه ، حتى أصبح ولله الحمد فرسان الفضل يتسابقون في ميادين حلبة المفاخر ، ويتفاخرون في سوق عكاظ الكمالات والمآثر ، ولكن الأمر كما قيل :

وما كل مخضوب البنان بثينة   ولا كل مصقول الحديد يماني

فان تفاوت الرجال ليس لانكاره مجال ، ولا للسان فيه مقال •

ولم أر أمثال الرجال تفاوتا   لدى المجد حتى عد ألف بواحد

ألا وأن من أجلهم قدرا ، وأحسنهم ذكرا ، البليغ الذي أخجل ببديع انشائه ابن العميد ، وفاق بسديد آرائه الصاحب وعبد الحميد ، عديم النظير فيما انطوت عليه ذاته من الفضائل والكمالات ، ونادر المثيل فيما حازه من جلائل الصفات ، الفرد الذي لايقاس به سواه علما وعملا ، والأوحد الذي لايوجد له في أخلاقه مثلا فرع الشجرة الهاشمية ، ونور الدوحة العلوية ، أعني به الشيخ أبا المعالي ، لازال محمودا بما يليق به من الثناء على مدى الأيام والليالي ، فانه ــ أعلى الله تعالى

شأنه ، ووالى جل شأنه عليه احسانه ــ دأبه الانتصار للدين ، والذب عن سنة سيد المرسلين ، ومخاصمة المبتدعين ، ومناظرة الزائغين ، فهو الحري بقول القائل ــ لما اتصف به من محاسن الشمائل :

تقـرط آذان الرجـال بحكمـة	حكتها اللئـالي رونقا أو تقـارب
متى أفرغت في قالب الفكـر زينت	وزانت من الألباب تلك القـوالب
بهن غـذاء للعقـول وشـرعة	تسوغ وتصفو عندهن المشـارب
تصرفت في حلـو الكـلام ومره	فأنت مجـد كيـف شئت ولاعب
ذهبت بكـل منهمـا كل مذهب	ذهابا وما ضاقت عليـك المذاهب
فمن ذكر وجـد يسلب المرء لبـه	على مثلـه دمـع المتيـم ذائب
ومن غـزل عـذب كأن بيـوته	مسـارح أرام النقـا وملاعب

لم يزل يقدم موائد فوائده لأبناء جنسه ، ويزين صـدور الدهـور بفرائد عوائده ونفائسه ، ويقتطف ثمار فضله من حدائق صائب حدسـه ، وقد جادت قريحته المستجادة ، وفطنته الوقادة ، بتأليف كتاب ، حري أن يكتب بالتبر المذاب ، وهو الموسوم (بغاية الأماني ، في الرد على النبهاني)وما هو الا بحر عباب ، قـد حوى من المسائل لب اللباب ، وقد ألفه على ماا شتمل عليه من التفصيل ، في أيـام معدودات تكاد تعد من المستحيل ، وقد سقى منه خصوم المبتدعة سم الحتـوف ، ورمى شياطين الانس بشهب براهينه الثاقبة حتى أرغم منهم الأنوف ، ترتعد منـه فرائص ابن دحلان ، ويصفر منه وجه طاغية بني نبهان ، ويعوي منه عفور المنصورة وهو ثالثهم حليف البهتان ، وتتبين به مكائد حزب الشيطان ، وتقر به عيون عبـاد الرحمـن •

اللهم اجزعنا مؤلف هذا الكتاب بما يتمناه ، وأطل في أفياء السـلامة بقاه ، واحجب من غير نوائب الدهر نعماه ، واجعله لمستوفي سبوغ النعم معقلا ، ولآمـال مؤمل الأفضال موئلا ، ومتعه بوفاء عهود أودائه ، وبلغه الغاية من تأميل ذوي المودة من أوليائه •

(كتبه خادم السنة محمد الحجازي)

(تقريظ آخـر)

ان كتاب (غاية الأماني في الرد على النبهاني) من مصنفات أبي المعالي ، ذي المجد الشامخ والحسب العالي ــ كتاب اشتمل على أجلى براهين التوحيد ، وأعلى

دلائل اخلاص العبودية لله العلي المجيد ، ولا يخفى على ذوي العرفان ما لموضوع هذا الكتاب من الأهمية ورفعة الشأن ، ومن وقف عليه علم مقاصد الشريعة المحمدية وأنها الغاية القصوى لدى أرباب البصيرة والروية ، وتبين له مغزى الدين المبين ، وسر دعوة رب العالمين ، وعرف أن ملاك النجاة هو التوحيد ، وأن من أخل به فهو الشقي ، ومن حافظ عليه فهو السعيد ، فانه الذي يمنع الاقدام أن تزل ، والأحلام أن تضل ، والقلوب أن تمرض ، والشكوك أن تعترض ، وقد تبين الرشد من الغي ، فمن استمسك بالعروة الوثقى فقد أمن العثار ، وربح اليسار ، ومن سلك مسلك النبهاني وأضرابه من الحزب الشيطاني ، فقد أساء الاختيار ، وركب الخسار ، وارتدف الأدبار ، ويومئذ يعض الظالم على يديه ، ويندم حيث لاينفع الندم مما حل لديه وجر عليه ، ورأى ما رأى من الويل بعينيه ، فليتذكر من يتذكر ، وليتبصر من يتبصر ، فليس الحق كالباطل ، ولا الجيد الحالي كالعاطل ، وهيهات هيهات ، أين الحضيض من أوج السموات ، فلله در مؤلف هذا الكتاب ، فقد ترك الخصم لاينطق ببنت شفة في الجواب ، وما أحسن ما قال بعض ذوي الآداب :

قل للـذي يبغي وصـول كمـاله	هيهات انك لست من يصل السما
الله أودع في سريـرة ذاتـه	من قبل هـذا جوهرا لن يقسمـا
أحلى من العسل الجني شمـائلا	وتراه يوم الجـد مرا علقمـا
مثل الأسود الضاريات اذا سطـا	والمرسلات الذاريات اذا همـا
كـم راح زنديق يريد نزالـه	فرأى سيوف الحق عنه فأحجمـا
وأتى عليـه بكل برهان بـدا	لو كان في جنـح الدجى ماأظلمـا
فهـو الذي نهدي به في ديننـا	ونرى طريق الرشد فبه من العمـى

(قاله بفمه ورقمه بقلمه عبد الأعلى الحسيني عفا الله عنه وعن أسلافه)

(تقريظ آخـر)

بسم الله الرحمن الرحيم ، رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين ، ولا ناصرا لأعداء دينك من المنحرفين والمبتدعين ، بل انصر من نصـرك بالذب عن حمى شريعتك الغراء ، ومحجتك الواضحـة البيضـاء ، ولا يخفى على من كان له نصيب من المعرفة ان كل من تصدى اليوم لتأليف كتاب ينبغي له أن لايخـرج عن الصدد ولا يزيغ عن جادة الصواب ، بل يجعل كلامه دائرا على مايرضي الخالق ، مشتملا على غاية تستوجب سعادة الخلائق ، فمن صرف نظره عن ذلك ، وسلك غير هذا المسلك من المسالك ، وتعرض لما لايعنيه ، ولا له منه شأن يغنيه ، فقد ركب متن

عمياء ، وخبط خبط عشواء ، واستهدف سهام الملام ، ونصب نفسه غرضا لرشق نبال ألسنة الأنام ، والنبهاني أحد أهل المناصب في بيروت ، لم يراع تلك الشروط ، فقد ألف كتابا ملأه من الحكايات الموضوعة ، والأكاذيب المصنوعة ، والمباحث التي تمجها الأسماع ، وتنفر عنها الطباع ، وتوغر الصدور ، وتوقد نيران الشرور ، وتصدي مرايا القلوب ، وتجلب لمن سلك مناهجها في الدارين الكروب ، ولايقف منها القاريء على طائل ، ولا يجد فيها سوى العاطل ، ولا يصدر عنها الوارد الابلهف زائد ، ولهب في القلب ليس بخامد ، الضلال يلوح من فحواها ، والبدع تدور على لفظها ومعناها ، اذ حاصلها الدعوة الى غير الله ، ومآلها الحث الى الالتجاء الى ماسواه ، والحض على ملازمة القبور ، والعكوف على كل مشهد مشهور ، والعالم الاسلامي اليوم دون غيره قد أصبح لذلك في ادبار ودثور ، ومع ذلك فقد تعرض لاخيار الأمة ، ممن لم يوافقه على هذا الضلال وتلك الظلمة ، فسلقهم بألسنة حداد، وقذفهم بما هم بريئون منه مما يريع السمع والفؤاد ، ولم يمتثل ماقاله بعض الأماثل •

اذا شئت يوما أن تسود عشيرة ... فبالحلم سد لا بالتسرع والشتم
وللحلم خير فاعلمن مغبة ... من الجهل الا أن تشمس من ظلم

ولما جرت عادة الله تعالى أن يجعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل الى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، ولا يخلى عصرامن يغتار لدينه القويم ، ويذب عن صراطه المستقيم ، وينفي عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، قام اليه رب الأدب والكمال ، ومنتهى الفضل والأفضال ، ذو النثر الذي طار بأجنحة الفصاحة الى فلك الاعجاز ، وأقعد من طاوله في كل فضيلة على الاعجاز ، بدر فلك العرفان العالي ، ودر تاج الفخر الغالي ، أستاذنا الشيخ أبو المعالي ، ووثب اليه وثبة الأسد ، وحمل عليه حملة الفارس على من عصى وتمرد ، انتقاما لله ممن يجحد توحيده ، ويضع لعبادة الأنداد ــ من دونه تعالي ــ خده ووريده ، فأبطل جميع ماشتمل عليه كتاب الزائغ من وساوس الأفكار وشبهات الأنظار ، والأقوال الترهات والسفسطة والمغالطات ، وأظهر جهله للأنام ، وعواره للخاص والعام ، وأبان أن الخصم لم يميز بين القشر واللباب ، ولم يفرق بين الصفر والتبر المذاب ، فلله دره من عالم لاتأخذه في الله لومة لائم ، ولهذا لم يلتفت الى ما عليه أهل الزمان ، ولا الى ما قاله بعض ذوي العرفان :

وللدهر أثواب فكن في ثيابه　　كلبسته يوما أجد واخلقا
فكن أكيس الكيسى اذا كنت فيهم　　وان كنت في الحمقى فكن أنت أحمقا

نسأل الله تعالى أن يجزيه خير الجزاء ، وأن يجعله في زمرة الأصفياء ، وأن يحرسه من كيد الكائدين ، وشر الحاسدين ، وصلى الله تعالى وسلم على سيد الأولين والآخرين ، (وأنا الفقير الى ألطاف مولاه عبد الله بن عبد الحميد الحنبلي كفاه الله في أولاه وأخراه)

(خاتمة الطبع) (١)

(يقول مصححه أقل تلاميذ المؤلف ـ ف • ج • ز)

بحمد الله تعالى قد تم طبع كتاب « غاية الأماني في الرد على النبهاني » ذلك الكتاب الذي أسفر عن وجه الصواب في فهم أسرار الكتاب ، وأبان عن العقيدة الصريحة التي من تمسك بها نجا ، ومن حاد عنها ضل وغوى ، فلله در مؤلفه أستاذنا المفضال فخر العراق على الاطلاق ، مولانا (أبو المعالي) ذي القدر العالي ، قد أرسله الله في هذا الزمان الذي كثرت فيه البدع والخرافات ، وقيضه لقمع ذوي الجهالة ، وردع أولى الضلالة ، فكان هذا الامام مصداق مايروى في الأخبار الصادقة أن الله يرسل على رأس كل مائة سنة من يقيم أمر دينه ، وكان هو صاحب هذا العصر المجيد ، ومصباح الهدى للطالب المستفيد ، نهج به منهج الحق والصواب وأزال الشبه عن كثير من المسائل السائدة بين العامة المتداولة بينهم بالوراثة العمياء ، ولا يفقهون لها معنى ، ولا يفهمون لها مبنى ، وان في وجود هذا الكتاب في هذا الزمان الذي كثرت فيه عقائد أهل الزيغ وطمت وعمت فيه البدع لحكمة بالغة ،يريد الله بها اخماد أنفس ذوي العقائد الملفقة في حين انتشارها ، واشتعال نار أضرارها وما جرته على دين الاسلام من المضار ، ومافتحته عليه من أبواب الردود والانتقادات ممن لايعرفون الاسلام الا من أعمال هؤلاء السفلة ، الذين قد التصقوا به التصاق الداء من السليم ، فشوهه وأذهب رونقه ومحاسن وصفه ، ولكن أبى الله الا أن يتم نوره ، ويقيم أعلام دينه بأهل معرفته ، ورجال شريعته ، الذين يظهرهم في وقت احتياج العالم لأمثالهم ، وشدة الحاجة لبروز أنوار معارفهم ، فلا غرو اذا كان هذا الكتاب آية الصواب بين الطلاب ، اذ أدلته وبراهينه مأخوذة من نص الكتاب الذي

---

(١) هذه الخاتمة فى آخر الطبعة الاولى (الاصل) جرى ابقاؤها أهـ

أودع فيه كل شيء ، وفصلت فيه حقائق الكائنات ، ولمثل هؤلاء القائمين الفخر لتشييد دعائمه ، وتثبيت قوائمه ، التي تكاد تتهدم بمعاول هؤلاء المتشدقين بأباطيلهم المرجفين بزخارفهم وأضاليلهم ، فان الدين لم يقم الا بسيف الحق والبرهان ، لا بسيف الطعن والسنان ، فهو هدية للاسلام عموما ، وللعلماء الأحرار خصوصا ، حيث لم يكن دليله الا الكتاب والسنة الصحيحة ، والعقل السليم والذوق المستقيم ، وهو مادعى حضرة العالم الفاضل والسلفي الكامل ، مولانا الشيخ عبد القادر التلمساني ـ وفقه الله لنشر أمثاله ـ الى التزام طبعه ، لعموم نفعه ، ونشر فوائده بين ذوي الأفكار الرائقة ، والعقول الراجحة ، فجاء بهجة لقلوب العارفين ، وقرة لعيون الناظرين • أهـ

تصحيح الاخطاء في الجزء الثاني من كتاب غاية الاماني

صفحه	سطر	خطــأ	صــواب
٦	٢	بعضَهُم	بعضُهُم
١٦	٩	فَسُحْقاً	فَسُحْقاً
٣١	٢٤	الربوهية	الربوبية
٣٢	١٥	في أتباعهم	في اتباعهم
٣٣	١٥	علمُ السَّاعة	علْمُ السَّاعة
٣٨	١٩	قُلْ ادعُوا	قُلِ ادعوا
٣٨	٢٢	قُلِ أدُعو	قُلِ ادْعُوا
٤٩	١٧	أَو تُو	أُوتُوا
٥٩	٢٥	بجسه	بجسبه
٦٠	٩	اذا أنجدوا	اذ أنجدوا
٦٠	٢٢	جمه	جمة
٦١	١٢	المجتبي	المجتبى
٦٦	٢٦	الاعرف	الاعراف
٧٣	٢٣	(٣) ٢٨٥	(٣) البقرة : ٢٨٥

صفحة	سطر	خطـــأ	صـــواب
٧٤	١٤	يا أَيَّها	يا أيُّها
٩٤	٤	فيه حق	فيه في حق
١٠٤	١٢	(إنٌ	(إنَّ
١١٦	٢	الجنه	الجنة
١١٧	١٦	العالي	العاني
١٢١	٢	برصوان الله	برضوان الله
١٢١	٢٨	محمود	المحمود
١٢٦	١٦	نَبيٌّ عدُواً	نَبيٍّ عَدُوّاً
١٢٩	١٦	رويه	روية
١٣٩	٨	وتنشرح أفئدة	وتنشرح لها أفئدة
١٤٧	٢٧	وتَنْزَعُ	وتَنْزِعُ
١٥٠	١٥	م ا يصادم	ما يصادم
١٥٨	٧	الحدود سسب	الحدود فكتب
١٧٤	١٠	يستعبه	يستعتبه
١٧٤	١٤	كرماته	كراماته
١٧٤	١٦	لنا مسألة عما كنا	لنا مسألة مسألة مما كنا
١٧٦	٢٢	رجل	رجال
١٧٧	٢٨	امن جميع	آمن جميع
١٩٧	١٢	الزملكان	الزملكاني
٢٢٤	١	ذو اجتها ولكن	ذو اجتهاد لكن
٢٢٨	٢٤	عد	غد
٢٣٧	٢٧	حشاشة	حشاشة
٢٤٢	٥	فلتحقه	فتلحقه
٢٤٣	١٨	يشبين	يتبين
٢٤٥	٢٤	الاجتجاج	الاحتجاج
٢٤٦	٢٠	عمرو عن عوف	عمرو بن عوف
٢٤٧	٧	بوم القيامة	يوم القيامة

صفحه	سطر	خطأ	صواب
٢٤٨	١٣	كبيرة	كبيره
٢٥٢	٢٦	والميزنَ	وَالْمِيزَانَ
٢٦٠	١٨	ولبت	وليت
٢٦٨	٢١	يُتركُو انْ	يُتْرَكُوا أَنْ
٢٧٧	٨	يعْقلُونَ	يعْقِلُونَ
٢٩٦	٢	ينأمل	يتأمل
٣٠٣	٥	جَنّتينِ	جَنّتينِ
٣٠٣	٢٤	٩	١٩
٣١١	٢٤	يدعُونَ	يدعُونَ مِنْ دُونِ
٣٢٦	١٩	وارحم وانصر	وارحم واكف وانصر
٣٤٥	١	ضرووررات	ضرورات
٣٤٦	١٧	والبله	والبد
٣٦٧	٢٧	ألغموضة	ألغموضه

انتهى

